



غونتر غراس

طبل الصفيح



ترجمها عن الألمانية

حسين الموزاني

منشورات الجمل

رواية

غونتر غراس

طبل الصفيح



ترجمها عن الألمانية

حسين الموزاني

منشورات الجمل

ولد **غونتر غراس** في ١٩٢٧ بضاحية لانغفور التابعة آنذاك إلى دولة غدانسك الحرّة. والتحق في ١٩٤٤ بالجيش الألماني جنديّاً في سلاح الجوّ ثم في صنف الدروع وأخيراً في القوّات الخاصة، وقد جرح ووضع في الأسر الامريكي. وبعد إطلاق سراحه مارس العديد من المهن في مجال الزراعة والمناجم والمقالع قبل أن يبدأ بتعلّم الحفر على الحجر ومن ثم النحت والطبّاعة الفنيّة (الغرافيك) في أكاديمية الفنون بدوسلدورف من ١٩٤٨ إلى ١٩٥٢، وتابع دراسته في كليّة الفنون ببرلين. وفي ١٩٥٥ بدأ بنشر أولى قصائده، وبعد ذلك بعام واحد رحل إلى باريس، حيث أقام حتى ١٩٦٠ وأنجز كتابة روايته «**طبل الصفيح**» التي جلبت له شهرة واسعة، لتتبعها أعمال مهمة أخرى مثل «**القطّ والفار**» و«**سنوات الكلاب**» التي أصطلح عليها فيما بعد بثلاثية غدانسغ. وانخرط غراس في العمل السياسيّ لصالح الحزب الديمقراطي الاجتماعي، وارتبط بعلاقة صداقة مع الزعيم الاشتراكي والمستشار الألماني الأسبق فيلي برانت. ويعتبر غراس من الكتّاب الغزيريّ الإنتاج؛ إذ أصدر حتى الآن نحو عشرين مجلّداً، وضمّت إلى جانب أعماله الروائية والمسرحية والشعرية، الكثير من المعالجات النقدية والفكرية والخطابات والسياسية. وعرف غراس بمواقفه المبدئية الصلبة، ووقوفه إلى جانب الأقليّات القومية والدينية داخل ألمانيا وخارجها، وبتصديه للأفكار العنصرية العدوانية واستنكاره للمذابح العرقية وحروب الهيمنة الاستعمارية، ومنها حرب الخليج الثانية. وحظيت أعماله الإبداعية والفكرية باهتمام الرأي العام الألماني والعالمي منذ عشرات الأعوام، وقد توّجت أخيراً بجائزة نوبل للآداب في العام ١٩٩٩. صدر له عن منشورات الجمل: **طبل الصفيح**، رواية (٢٠٠٠)؛ **قط وفار**، رواية (٢٠٠١)؛ **مئويتي**، رواية (٢٠٠٣)؛ **سنوات الكلاب**، رواية (٢٠٠٣)؛ **في خطو السرطان**، رواية (٢٠٠٥).

ولد حسين **الموزاني** عام ١٩٥٤ بناحية «الميمونة» - العمارة. غادر العراق إلى لبنان عام ١٩٧٨ ومن ثم إلى ألمانيا عام ١٩٨٠ حيث يقيم الآن في مدينة كولونيا. درس في جامعة مونستر الأدب الألماني والأدب العربي والعلوم الإسلامية والصحافة. صدر له: **خريف المدن**، قصص (كولونيا-بيروت ١٩٩٦)؛ **اعترافات تاجر اللحوم**، رواية (كولونيا-بيروت ١٩٩٧)؛ نيكولاس بورن: **التزوير**، رواية (ترجمة، كولونيا-بيروت ١٩٩٨)؛ راينر ماريا ريلكه: **وليمة العائلة**، مختارات قصصية (ترجمة، كولونيا-بيروت ١٩٩٨)، بالإضافة إلى رواية باللغة الألمانية: Der Marschlaender (فرانكفورت ١٩٩٩).

غونتر غراس: **طبل الصفيح**، رواية، الطبعة الثانية ٢٠١٤
ترجمها عن الألمانية: حسين الموزاني

تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ ١ ٢٥٣٣٠٤
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

بموجب اتفاق مع الناشر الألماني لأعمال غونتر غراس
Günter Grass: *Die Blechtrommel*, Roman

Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

الإيقاع وصداه البعيد

حول ترجمة غونتر غراس إلى اللغة العربية

حسين الموزاني

لابدّ من الإشارة في البدء إلى أننا سنتناول في هذه المقدمة القصيرة موضوعاً واحداً يتعلّق بترجمتنا لرواية «طبل الصفيح» للكاتب الألماني غونتر غراس والصعوبات التي رافقت هذه الترجمة. وبلا شكّ أنّ غونتر غراس يعتبر من الأدباء المتعدديّ المواهب، فهو روائي وقاص وشاعر ومؤلّف مسرحيّ ورسّام ونحّات وخطيب سياسيّ. لكنّ المنحى الروائي قد غلبَ على نشاطه الإبداعي منذ صدور روايته «طبل الصفيح» التي نشرت في عام ١٩٥٩ للمرّة الأولى. ويتسم أدب غراس، وربّما على العكس من أدائه الفنيّ التشكيليّ، بقوّة العبارة ومتانتها وانغلاقها أحياناً، وكذلك إحالاتها التاريخية والفكرية والسياسية العديدة؛ مما يجعل هذا الأسلوب صعباً ومعقداً بسبب خصوصيته المحلية الصرف، على الرغم من انتشاره في جميع أرجاء العالم. غير أنّ الصعوبة بحدّ ذاتها لا يجوز أن تكون حائلاً دون نقل الإبداع الأدبي العالمي، إنما قد يجد فيها المترجم متعةً فكريةً وتحدياً لغوياً لا مناص من خوض غماره. وبالأخص حينما يتمّ هذا النقل من لغة مثل اللغة الألمانية المعروفة بتركيباتها النادرة إلى اللغة العربية التي لا تقل عنها تعقيداً وبلاغةً، وهنا بالذات تكمن معضلة الترجمة كلّها. ولكي نتأكد من صحّة هذا الرأي فعلينا أن نبدأ بعنوان الرواية في الأصل الألماني وهو Die Blechtrommel وقد جاء معرفاً بأداة تعريف المؤنث die، فهو يتحدث إذن عن طبل صفيح محدد ويعبّر تعبيراً شاملاً عن محتوى الرواية، بينما نجد مسميّات مثل «الطبل الصفيح» أو «طبلة الصفيح» أو «الطبلة الصفيح» لا تعطي المعنى ذاته،

وسيظل الإيهام يرافقها حتى لو حملت لام التعريف، لأننا لو قلنا على سبيل المثال: «عندما يدخل الزائر إلى المغرب يجد كذا وكذا»، فإننا لم نعرف شيئاً في واقع الأمر. وبهذا المعنى فإننا لو قلنا طبلة صفيح أو طبل صفيح أو طبلة الصفيح فسوف لا يتغيّر في المعنى شيء، لأن هذه التسميات لا تدل بدقّة على شيء معرّف ومحدد تماماً مثل قولنا «حين يدخل المرء إلى المقهى. . .» فالمرء هنا سيبقى نكرة على الرغم من لام تعريفه، على العكس من سياق الأصل الألماني المحدد تحديدا كليّاً. ومع ذلك وتسهيلاً للأمر جعلنا العنوان «طبل الصفيح» بمعناه الشامل. وعلى أية حال، يجب أن لا نبالغ في أمر التسمية طالما هناك بدائل تتيحها لنا اللغة العربية عند الضرورة. وحسناً فعل المترجم الفرنسي عندما اختار مفردة واحدة هي «الطنبورة» المأخوذة من العربية التي اقتبستها بدورها عن الفارسية فجعلها عنواناً. وبهذا السياق فإن اسم Guenter Grass يكتب عندنا بثلاث طرق مختلفة فهو كونتر كراس أو غونتر غراس في المشرق العربي أو جونتر جراس في مصر حيث عرفت روايته بالطبلة الصفيح.

أسلوب الرواية يتضح من خلال العنوان أنّ هذه الرواية تتحدث عن أداة أو آلة لها علاقة بالفن والموسيقى، أي الطبل الذي يقرع أو ينقر عليه. وتنتمي حسبما يقرر محقق أعمال غراس فولكر نويهاوس إلى جنس الرواية التربوية التعليمية Bildungsroman على غرار «سنوات تدريب فيلهلم مايستر» لغوته و«هاينرش فون أوفتردنغن» لنوفالس و«هاينرش الأخضر» لغوتفريد كللر و«دكتور فاوستوس» لتوماس مان. بيد أنّ غراس نفسه أكّد في أكثر من مناسبة بأنه كان متأثراً بأسلوب الكتابة السائد في المغرب العربي إبان العصور الوسطى ومثلما جسدته روايتا «سبمليسسيموس» Simplicissimus لغرملسهاوزن و«دون كشيوت» لسرفانتس، هذه الرواية التي استوحى غراس الكثير من مقومات بنائها وتقنياتها وأجوائها فيما يتعلق بمعالجة الشخصية ذات النزعة السلبية والساذجة أو الفطرية ومراقبة تطورها النفسي والذهني. وعن تأثره بهذا الأسلوب يقول غراس «إن من يتمعّن في قراءة سرفانتس سيلاحظ من خلال الإشارات التناصية أن سرفانتس استفاد من إقامته وسجنه في بلاد المغرب استفادةً عظيمة، واعتمد أسلوب السرد المشرقي وطوّره». وأشار

غراس إلى أنه تأثر بكتّاب عصر الباروك أيضاً في ألمانيا والذين كانوا قد تأثروا بدورهم بأساليب السرد الشائعة في أسبانيا آنذاك، بعد أن استعاروا شخصية «البطل» المتشرد المشاكس أو الظريف أو الشاطر مثلما يطلق عليه أحياناً، ونقصد به شخصية البيكارو Picaro. ونجد هذا النمط في الشخصيات المتسمة بالجرأة والقدرة على السخرية والنيل من الآخرين في بعض الحكايات العربية السائدة آنذاك في عموم المغرب العربي ومشرقه، ومنها على سبيل المثال حكاية أبي زيد الهلالي والأمير حمزة البهلوان ومنامات ركن الدين الوهراني، وما إلى ذلك من الأدب الشعبي والموروث القصصي. وعلى هذه الموروثات والذخائر الفنيّة اعتمد غراس في بناء شخصيته الرئيسية «أوسكار» وسرد الأحداث الكبرى من خلالها. والرواية بمجملها قائمة على الوقائع المتسلسلة التي لعبت دوراً بارزاً في تاريخ مدينة غدانسك أو «دولة غدانسك الحرّة» فيما بعد، حيث ولد الكاتب غونتر غراس وحيث تدور معظم أحداث رواية «طبل الصفيح»، بالإضافة إلى روايتي «قط وفأر» و«أعوام الكلاب» المصطلح عليها «بثلاثية غدانسغ». وغونتر غراس يكثر من استخدام أسلوب التقويم الزمني الذي يتيح التعرّض إلى جملة من الأحداث السياسية والعسكرية خارج السياق الروائي وتوظيفها دون أن ينضب معينه التاريخي والسياسي. وإذا ما أضفنا تاريخ ألمانيا «البروسية» و«الاتحادية» و«الديمقراطية» إلى تاريخ غدانسك ودولة بولندا، فإننا سنحصل في نهاية المطاف على مشروع روائي مفصّل وبالغ الشمول. ونكاد نعثر في كلّ مقطع على عدد من الإحالات التي تتطلب اطلاعاً معيناً على تاريخ ألمانيا القومية وبولندا أيضاً، وبالأخص على التاريخ الحديث لدولة غدانسك التي شنّت ألمانيا النازية من أجل ضمها إلى الرايخ الثالث حرباً على بولندا، معلنةً بدء الحرب العالمية الثانية التي رسمت الحدود الحالية للقارة الأوروبية برمتها.

لغة غراس

صحيح أن «ثلاثية غدانسغ» ليست عملاً بيوغرافياً في المقام الأوّل، إلا أنّها انطوت على معالم محلية متعددة، تصدرها مسقط رأس غراس نفسه، أي موطن الكاشوبيين الذي كان ومازال الكاتب شديد التعلّق به والولاء له، بحيث

استطاع أن ينقذ بعضاً من لغة هذا الشعب الصغير الذي تنحدر منه والدته.

وفي كتابه «من يوميات حلزون» يخاطب غراس ولده «راؤول» بالقول: «أريد أن أبلغك أنتَ، يا من تهتم بفروع الأشجار والحدود غير المنتظمة، بأن الكاشوبيين أو الكاسوبيين الذين يرجّح بأن ثلاثمائة ألف منهم مازالوا يعيشون اليوم، هم من قدماء السلافيين ويتكلمون لغةً مهددةً بالانقراض، لغةً مطعّمةً بالمفردات المستعارة من اللغتين الألمانية والبولندية». وبات غراس مولعاً باللغة الكاشوبية وبذل قصارى جهده بغية إحيائها من خلال اللغة الألمانية، لغة الأبّ إن صح التعبير. لكنّ هذه اللغة التي استخدمها غراس لم تكن عادية تقليدية ومألوفة، إنما لغة خاصة به وحده، أوجدها لنفسه، أو أعاد صياغتها، فصار ينحت ويشتق منها كما يشاء. ولم يكتف بذلك، إنما وضع لها لحناً مميزاً يتناغم مع إيقاع الجملة طولاً وقصراً، مولّداً أنغاماً وإيقاعات موسيقية وصرخات بشرية وأناشيد جماعية وغير ذلك من الأصوات التي يشهدها المرء في الحرب والسلم. وقد عرف عن غراس أيضاً أنه كان يردد ما يدونه بصوت عال كما لو أنه يلقيه إلقاء، مما جعله يحظى بإعجاب المستمعين الألمان في أماسيه الأدبية. فالتطبيل إذن هو السرّد وقد اتخذ طابع القرع اللغوي بمضربين لا يختلفان عن قلميّ الكتابة بغيةَ أيقاظ الحواس واستحضار الذاكرة واستنطاق التاريخ. والطبل هو الأداة القابضة على الإيقاع والضابطة له منذ بداية الراوية وحتّى نهايتها. ونورد هنا بعض النماذج المتعلقة بإيقاع الجملة: «كانت بناية المسرح البلدي، أي مطحنة البنّ الدرامية، قد أغرت أصواتي الجديدة المتكلفة التي جربتها فوق سطحنا، فوجهتها نحو نوافذها المصطبغة بحمرة الشمس الغاربة. وبعد دقائق من الصراخ المتنوع الشحن والاحتقان الذي لم يسبب ضرراً تمكنت من استخلاص صوت غير مسموع إلى حدّ ما، فأصبح بإمكان أوسكار أن يعلن بفرح وبفخر خائن غدّار: لقد توجّب على زجاجتين في الوسط من الجهة اليسرى لنوافذ البهو التخلّي عن شمس الغروب، حتّى أصبح يمكن التعرّف عليهما كمربعين سوداوين، يحتاجان إلى تركيب زجاج جديد على وجه السرعة». وفي مشهد مؤثر يصف أوسكار حالة الحزن التي استبدت بوالده ماتسرات إثر فقدان خليلته، والدة أوسكار، فيقول: «كنت أرى ماتسرات الذي لم يكن يحتسي الخمر في زمن أمّي إلا بصحبة الآخرين،

جالساً بمفرده في وقت متأخر خلف كأس صغيرة مخصصة لجرعة واحدة، ويتطلّع بنظرة مخمورة. وكان يقلّب ألبوم الصور، محاولاً، ومثلما أفعل أنا الآن، إحياء ذكرى أمّي المسكينة بصور سيئة أو جيدة الإضاءة، ثمّ يبكي في منتصف الليل عندما تحين ساعة البكاء فيخاطب هتلر أو بيتهوفن المتجهمين المعلقين قبالة بعضهما البعض[. . .] وبدا أيضاً كما لو أنه كان يتلقّى إجابة من ذلك العبقري الأصم ، في حين كان القائد الزاهد بالشرب يلوذ بالصمت، لأن ماتسرات الذي كان مسؤول خليّة صغيرة وسكيراً تراءى غير جدير بالتنبؤ بالمستقبل». ومن المفيد هنا أن نأتي بمثل آخر على انشغال غراس بهاجس الإيقاع وهو المثل الذي يلخّص كل ما شهده أوسكار، البطل المركزي، ومحتوى الرواية، بعد أن منحه طابع الصلاة الأخيرة: «ما الذي عليّ أن أقوله الآن: فتحت اللمباتِ ولدتُ وفي سنّ الثالثة توقفتُ عن النمو عمداً، وطبلاً تسلمتُ، وزجاجاً حطمتُ وعطرَ فانيلا شممتُ، وفي الكنيسة سعلتُ، ولوتسي أطعمتُ، ونملاً راقبتُ، وعلى النمو أصررتُ، وطبلاً دفنتُ، وإلى الغرب رحلتُ، والمشرقَ أضعتُ، والنحتَ تعلمتُ، وموديلاً وقفتُ، إلى التطبيل عدتُ، فالخرسانة تفقّدتُ، ومالاً كسبتُ، وإصبعاً حفظتُ، وإصبعا أهديتُ، وضاحكاً هربتُ ، وبسلّم طلعتُ، وللاعتقال تعرضّتُ فحكمتُ وإلى المصحة نقلتُ، ثمّ بُرأت، واليوم في عيد ميلادي الثلاثين احتفلتُ، لكنني خائف من الطاهية السوداء مازلت - آمين». والترجمة في معظم الأحوال هي تفسير للنصّ، وأحياناً يوقف هذا التفسير العبارة الأصلية على معنى واحد لا غير، فيحدّ من تداعياتها وإيحاءاتها ويخلّ كذلك بتركيبها. وعندما يقدم مترجم آخر على نقل نصّ مترجم أصلاً إلى لغة ثالثة، مثلما حدث مع رواية «طبل الصفيح» التي صدرت بترجمتين عن الفرنسية والإنجليزية وغير مرخّص بهما، فإن هذه التداعيات والإيحاءات الشاحبة في الترجمة الأولى ستختفي لا محالة، فضلاً عن وقوع المترجم الثاني في أخطاء لا حصر لها. وستكون أسماء الشخصيات والمدن والشوارع والأنهار، أي طوبوغرافيا العمل الذي أريد له أن يكون بمثابة طوبوغرافيا قوم ودولة اندثرا فلم يخلفا سوى الحنين والأسماء وبقايا لغة تتعرض للانقراض، ستكون هذه الأشياء كلّها من أول ضحايا الترجمة غير الأصلية. والرواية بمجملها عبارة

عن قراءة تاريخية نقدية للأحداث المهمة التي شهدتها أوروبا وألمانيا على وجه الخصوص، ولذلك فإن أسماء المواضع تشير حيثما وردت إلى أحداث تاريخية مهمة، وأي تحريف فيها قد يؤدي إلى سوء فهم، أو إلى التقليل من أهمية الحدث ذاته، فضلاً عن أن هذا التصحيف يؤدي بالضرورة إلى اختلال الصورة الفنيّة وتداعياتها.

ثراء السرد وفقر القاموس

ومن الطبيعي أنّ الكاتب المتميّز لابد أن يكون له أسلوبه الخاص، بصرف النظر عن جودة هذا الأسلوب أو عدم جودته، لكنه يظل في كل الأحوال يحمل سمات التميّز والتفرّد. والكاتب الحقيقي هو من يجهد نفسه ليختط لنفسه أسلوباً ومنهجاً سردياً ومنظوراً متجدداً على الدوام، يصوغ من خلاله الوقائع وفق رؤيته الذاتية، حتى لو داخل هذا الأسلوب شيء من الاقتباس والتناص. وضمن هذا الإطار يعتبر غراس من المجددين في أساليب السرد الحديثة في ألمانيا ما بعد الحرب العالمية الثانية، على الرغم من اتكائه على بعض مقومات النثر القصصيّ في عصر الباروك وآلياته. وتتضح هذه الجدة والحداثة عبر اختيار غراس لمفرداته وحرصه الشديد على أن تكون غير مبتذلة أو مستهلكة من فرط الاستعمال. وأحيانا يضطر إلى نحت المفردات، مستفيداً من الطبيعة الطيّعة للغة الألمانية في توليد المفردات وتركيبها، مما يتعذر وجوده في اللغات الأوربية المعروفة. واجتماع مفردتين أو ثلاث أو أكثر في تركيبة ذات معان متقاربة أو متناقضة هي عملية سهلة للغاية في التوليف اللغوي الألماني. ويمكن من حيث المبدأ التنويع على كل مفردة بعد إدخال البوادئ واللواحق عليها بما يسمى بمنهج الصيغ الصرفية Paradigma. ولعلّ غراس بالغ بعض الشيء في توليداته النحتية، فصار ينوع مثلاً على اللون الأحمر فيقول أحمر-أزرق و أحمر-أشقر و أحمر-بني و أحمر-ذهبي و أحمر-أسود وقهوائي-محمر وما إلى ذلك. أو يقول لون الأرض ولون البطاطس ولون العاج ولون اللحم وقديد الخنزير الوردي المطبوخ. ولذا ارتأى المهتمون بأدبه وضع فهرست من ٣٨٠ صفحة، يضمّ جميع المفردات المدوّنة في رواية «طبل الصفيح»، ليتمكن الباحث أو

المترجم من تعيين مواضع ورودها وعدد المرات التي وردت بها، إضافةً إلى وضع تعليق شامل وشروح للأحداث التاريخية وأسماء المدن والأنهار والأعلام. ويعبّر هذا الاهتمام من ناحية ثانية عن الروح المنهجية التوثيقية التي تتحلى بها المؤسسات الثقافية الألمانية على العموم، بينما نجد الباحث أو المترجم العربي يجهد نفسه ويبدد وقته سدى في البحث عن مفردة مناسبة ليضعها مقابل المفردة المراد ترجمتها. وكل ما يستعين المترجم العربيّ بالقاموس يخيب أمله، نظراً للعيوب والنواقص الكثيرة التي يحفل بها القاموس الألماني-العربي. ولو تناولنا هنا مفردة واحدة مألوفة يمكن أن ترد في أيّ نصّ أدبي مثل Adamsapfel وبحثنا عن مقابل لها لأصبنا فوراً بالإحباط، لأن هذا القاموس الضخم يوقف المفردة على معنى واحد غامض وهو «تفّاحة آدم». في حين أتى صاحب المورد بثلاث مرادفات لمفردة Adams apple، وهي الحرقدة وتفاحة آدم وعقدة الحنجرة. وقد تكون الحرقدة مدعاة للإشكال بسبب قدمها، وقلّة استخدامها، لكننا لا يجوز أن نتخلى عنها لهذا السبب وحده، لاسيما وأنّها تعطي المعنى المراد بكلّ دقّة. وأشار «لسان العرب» إلى أن الحرقدة هي عقدة الحنجور، والجمع الحراقد. وذكر غراس هذه العبارة مرتين ومرة ثالثة في صيغة الجمع. فلو أننا ترجمناها في تلك الصيغة لقلنا «تفّاحات آدم» وهو معنى بعيد للغاية عما نريد، ولو تخيلنا مريضاً يقول له الطبيب «إن تفاحة آدمك ملتهبة» فكم سيكون ذلك مدعاة للعجب، بل للسخرية حتّى. غير أنّ هذه واحدة من أبسط المشاكل التي نحن بصددها هنا، فقد أحصيت ما لا يقل عن مائة مفردة وعبارة وردت في «طبل الصفيح» ولم يرد لها ذكر في القاموس الألماني-العربي، أو جاء معناها مشوها أو غير دقيق، مثل Feldzeichen وهي عبارة مركبة وتعني العلامة عموما أو علم التفريق بين جيشين متحاربين على وجه الخصوص. لكننا لا نجد لها أثرا في القاموس، إلى جانب عبارات مترادفة كثيرة التداول مثل Feuerhaken و Feuerpause التي هي عبارة يومية مهمة وتعني وقف إطلاق النار و Feuerschein. كما عرب كلمة Fronleichnamsfest المركبة بـ«عيد (خميس) الجسد» وهو تعريب صحيح، بيد أن هناك مرادفاً لهذه التسمية وهو عيد القربان. ولعلّ واضعي القاموس كانوا يخشون أن تتطابق

معانيهم مع معاني قاموس «المورد» المشروحة شرحاً جيّداً والمزودة أحياناً برسوم توضيحية، فتوخوا التمايز والاقتضاب. ثم إن القاموس الألماني-العربي خلا من طائفة من المصطلحات الحربية مثل Feldplatz وPanzerabwehr وPanzerfaust وعرّب كلمة Schiessscharte بكوة أو «مزغل» وجمعها مزاغل، إلا أن الباحث أو المترجم لا يستفيد شيئاً من هذا التعريب؛ لأن الكلمة الألمانية المركبة تعني بدقة الثغرة الصغيرة التي توضع في المتراس لغرض الرماية والحماية معاً. ويعطي اسماً غامضاً لمفردة دارجة تتعلق بالبيروقراطية وهي كلمة Papierkram المركبة، فجعلها «دشت»، والمعروف أن «دشت» كلمة فارسية الأصل تعني السهل أو الأراضي المنبسطة أو الصحراوية ولا تفي هنا بالغرض الذي هو تراكم الأوراق وكثرة الإجراءات الروتينية. وقد جعلته حمية التمايز يمعن في الاقتضاب فاختصر كلمة Nachttopf إلى مجرد «قصرية»، بينما هي في الواقع إناء للتبول أو مبولة صغيرة توضع في غرفة النوم. وأعطى معنى واحداً مبتسراً لصفة phlegmatisch فأوقفها على صفة «بلغمي»، وهو المعنى القريب، مع أن هناك معاني أخرى مثل كسل أو ارتخاء أو لامبالاة. ويتكرر الأمر مع عبارة غير متداولة كثيراً وهي Sakristei فيعربها بـ«الموهف»، وهو تعريب صحيح، لكنه غير مفسّر، في حين يعرفه صاحب «المورد» بأنه «غرفة المقدسات وملابس الكهنة في كنيسة». وقد استخدمنا تعبير الموهف في الترجمة بعدما فسّر في سياق النصّ ذاته، تماماً مثلما الحال مع مفردة «الرمث» بعدما تحققنا من صحتها تاريخيّاً ولغويّاً. ومع ذلك تبقى مهمّة الترجمة، وبالأخص الترجمة الأدبية، من المهمات الشاقة التي تتطلب الكثير من المهارات اللغوية والفنية والأدبية والتأني وتقليب الرأي قبل وضع الصياغة النهائية. لذلك وقعنا نحن أيضاً في جملة من الأخطاء في الطبعة الأولى، لا يمكن تبريرها بأن الوقت أدركنا إثر حصول غونتر غراس على جائزة نوبل للأدب وروايته الشهيرة «طبل الصفيح» لم تترجم بعد إلى العربية، وحاولنا تصويبها في الطبعة الثانية من الرواية.

إلى آنا غراس

الكتاب الأوّل

الثوب الواسع

أعترف: بأنني نزيل مستشفى للعناية والرعاية الصحية، حيث يراقبني معيني، ويكاد أن لا يصرف النظر عنّي، وثمّة عين سحرية في الباب، بيد أن عينيّ معيني ذات لون بنيّ وعاجزة عن اختراقي أنا الأزرق العينين. لذلك لا يمكن أن يكون معيني عدوّاً لي. لقد كسبت ودّه، وكنت أقصّ على ذلك الرقيب المتطلع خلف الباب، حالما يطأ غرفتي، وقائعَ من حياتي، لكي يستطيع التعرف عليّ، على الرغم من العين السحرية التي كانت تعيقه. بدا أن هذا الرجل الطيّب كان يحترم ما أرويه عليه ويقدره، فكان يُخرج لي، عندما أكذب عليه، بعضاً من تشكيلاته الجديدة، لكي يكشف نفسه لي، ومن الصعب التأكّد فيما إذا كان فناناً. فمن الممكن أن تستقبل الصحافة معرض ابتكاراته استقبالاً حسناً، وتغري بعض المشترين. وكان يعقد بابتذال خيوط القنّب التي يجمعها من غرف المرضى بعد انتهاء الزيارات ويفككها على هيئة أشباح متعددة الطبقات مرتبطة ببعضها البعض، ثم ينقعها بالجبس ويتركها تجفّ، ليشكها في دبابيس مثبّتة بقواعد خشبية. وكثيراً ما كانت تراوده فكرة إنجاز أعماله بالألوان. فكنت أنصحه بالعدول عن تلك الأفكار، مشيراً إلى سريريّ المعدني المطلي بالدهان الأبيض، متوسلاً به أن يتخيل هذا السرير المتكامل ملوّناً. فكان يصفع رأسه بيديه المعينتين من شدّة الهلع، محاولاً في الوقت ذاته التعبير من خلال وجهه المنكمش عن مخاوفه، فيبتعد عن خططه اللونية.

وبهذا المعنى فإن سريري المعدني ذا اللون الأبيض في هذا المصحّة، يعتبر معياراً للقياس، بل كان يعني لي أكثر من ذلك: فهو الهدف الذي

تحققّ أخيراً، وهو عزائي وسلواي، ويمكن أن يصبح عقيدةً لي، إذا ما سمحت لي إدارة المصحّة بإجراء بعض التعديلات عليه، كأن أرفع مثلاً قضبان السرير المشبكة إلى الأعلى لكي لا يقترب منّي أحد. ويحدث أن تقطع الزيارة الأسبوعية سكينتي المنسوجة بين قضبان الحديد البيضاء، فيأتي أولئك الذين يريدون إنقاذي، والذين كانوا يستمتعون بحبهم لي، راغبين في التعرف من خلالي على أنفسهم وتقديرهم ومبلغ احترامهم. وكم كانوا يبدون فاقديّ البصيرة، متوترين، وعديميّ التربية، حين يخدشون بقلاّمات أظافرهم قضبان سريريّ المشبكة البيضاء الطلاء، ويخططون بأقلامهم الجافة أو الزرقاء الحبر أشكالاً وقحة على الشراشف. وكلّ مرّة كان المحامي المكلف بالدفاع عنّي يقلب قبعته النايلون فوق القائمة اليسرى عند نهاية السرير بعدما يفجّر الغرفة بتحيته العاجلة. وبقدر ما تستغرق زيارته من وقت - يتمتع المحامون عادةً بقابلية مدهشة على الحديث - فإنه يسلب مني بهذا العمل القاسي مرحي وتوازني.

وبعدما يضع زوّاري هداياهم فوق المنضدة البيضاء المكسوة بقماش من المشمّع والمنتصبة أسفل اللوحة المائية لشقائق النعمان، بعد تمكنهم من استعراض محاولات الإنقاذ الحثيثة الجارية آنذاك، أو المزمع القيام بها، وإقناعي، أنا الذي يسعون كلّهم بلا كلل إلى إنقاذه، بذلك المستوى الراقي لحبهم للآخرين وغيرتهم عليهم؛ فإنهم كانوا يجدون لذّة ومتعة في وجودهم ذاته فيغادرون غرفتي. وحينئذ يدخل معيني لكي يهوّي الغرفة ويجمع شرائط الهدايا. كان كثيراً ما يجد بعد انتهائه من التهوية وقتاً للجلوس على حافة السرير ليفكّ عقد الشرائط، مشيعاً جوّاً من السكينة في الغرفة، حتى أنني أطلقت اسم السكينة على برونو واسم برونو على السكينة.

لقد اشترى برونو مونستربيرغ - أعني معيني، لكي أتخلّى عن اللعب بالكلمات - خمسمائة ورقة من ورق الكتابة على حسابي الخاص. وسيقصد برونو الأعزب الذي ليس له أطفال والقادم من ناحية «زاورلاند»، في حالة أن يبدو احتياطي الورق غير كاف، يقصد مرّة ثانية دكّان اللوازم

المدرسية، والذي كان يبيع لعب الأطفال أيضاً، وسيوفر لي مكاناً خالياً من الخطوط وضرورياً لذاكرتي التي أتمنى أن تكون دقيقة.

إنني لم أكن قادراً أبداً على أن أطلب من زوّاريّ، أمثال المحامي، أو كليب، تقديم هذه الخدمة. كنت قلقاً من أن يحضر لي أصدقائي شيئاً خطيراً مثل الورق الخالي من الكتابة، والذي من شأنه أن يتيح فرصة الاستفادة منه لنفسي التوّاقة دوماً إلى إطلاق المقاطع الكلامية، إذ أنهم حبهم لي سيمنعهم من إحضاره بالتأكيد. وعندما قلت لبرونو: «آه يا برونو، أليس بإمكانك أن تشتري لي خمسمائة صفحة من الورق البريء»، أجابني وهو يتطلع إلى سقف الغرفة، رافعاً سبابته في اتجاه بصره، ناشداً المقارنة: «تقصد ورقاً أبيض يا سيّد أوسكار.» لكنني كنت مصرّاً على كلمة بريء، ورجوته أن يلفظها هكذا أيضاً في دكّان القرطاسية. حين عاد بحزمة الورق في المساء المتأخر أراد أن يتظاهر باعتباره برونو الذي تحركه الأفكار. فثبّت بصره مرّات عديدة في سقف الغرفة الذي كان يستلهم منه تأملاته وخواطره، ثم قال بعد فترة صمت طويلة: «إنك نصحتني باستخدام المفردة الصحيحة، فطلبت ورقاً بريئاً، لكن وجه البائعة اصطبغ بالحمرة قبل أن تجلب لي ما طلبت.»

فشعرت بالندم لأنني أطلقت صفة البراءة على الورق، خشية أن يلحق ذلك حديث مستطرد عن البائعات في محلّ القرطاسية، والتزمت الهدوء، منتظراً أن يغادر برونو الغرفة، وفتحت بعد ذلك الرزمة ذات الأوراق الخمسمائة.

لم أنفق الكثير من الوقت على رفع الكتلة الورقية الصلبة المتماسكة ووزنها، فأحصيت عشر أوراق ثم احتفظت بالكتلة في الخزانة الصغيرة، وعثرت على قلم حبر في الجارور إلى جانب ألبوم الصور. وكان القلم مليئاً تماماً بالحبر، لا نقص فيه، لكن كيف سأبدأ؟

والمرء يستطيع أن يبدأ القصّة من الوسط، ثم يسير بها متقدماً، أو متراجعاً إلى الخلف، بجرأة، مخلفاً وراءه الحيرة والارتباك. ويمكن أن يبدو المرء معاصراً فيلغي الأزمان والمسافات كلها، ليعلن، أو يدع

الآخرين يعلنون أنّه قد حلّ معضلة المكان-الزمان، وكذلك يستطيع المرء أن يدعي، ومنذ البداية، بأن من المستحيل كتابة رواية هذه الأيّام، لكن يراعه سيجود فيما بعد، ومن خلف ظهره كما يقال، بتسطير عمل لا نظير له، فيسجّل سبقاً أدبيّاً، ثم يتوّج نفسه في آخر المطاف باعتباره آخر من استطاع كتابة رواية. وقلت في نفسي، أنا أيضاً، بأن من المناسب، من ناحية وديّة متواضعة، التأكيد منذ البداية على أن: لا وجود اليوم لأبطال الروايات، إذ ليس هناك شخصيات فرديّة؛ لأن الفردانية قد اختفت، ولأن الإنسان بات معزولاً، بحيث أن كل إنسان أصبح منفرداً بالقدر ذاته، ومحروماً من العزلة الفردية، مشكلاً كتلة فرديّة خالية من الأسماء والأبطال. ويمكن أن تكون الأمور كلها سارية على هذا المنوال، ومحتفظة بمصداقية معينة، لكن فيما يتعلق بي وبمعيني برونو، فإنني أودّ التأكيد على أننا بطلان مختلفان تماماً، فكان برونو يقف وراء عدسة الباب السحرية، بينما كنت اضطجع أنا أمامها، وإذا ما فتح الباب، فإننا لا نتحوّل بالضرورة إلى كتلة بلا بطل ولا اسم على الرغم من الصداقة كلّها والعزلة.

وسأبدأ بنفسي من مسافة بعيدة، إذ لا يجوز لأحد أن يسرد وقائع حياته دون التحلّي بالصبر، فيذكر على الأقل نصف أجداده قبل أن يؤرّخ لوجوده الشخصي. وأقدم إليكم، أنتم الذين توجب عليهم أن يعيشوا حياة مضطربة خارج المصحّة التي أرقد فيها الآن، أنتم أيها الأصدقاء والزوّار الأسبوعيين الذين لا علم لهم بمخزون ورقي، إليكم كلّكم، أقدم جدّة أوسكار من ناحية الأم.

كانت جدّتي آنا برونسكي تتربع بثيابها العديدة ذات أصيل من شهر أكتوبر على حافة حقل للبطاطس. وفي فترة الضحى كان يمكن رؤية الجدّة وهي تنضّد الأعشاب الذابلة في باقات منتظمة، وفي الظهيرة وهي تتناول قطعة خبز محلاّة بالدبس الأسود. وكانت قد حرثت الحقل للمرة الأخيرة قبل أن تجلس أخيراً فوق ثنيات ثيابها بين سلتين ممتلئتين تقريباً. وأمام فردتي حذائها المتخالفتين اللتين وضعتهما بشكل عموديّ كان تتصاعد

أحياناً نيران أعشاب البطاطس، متأججة وخانقة، وتبعث بدخانها في اتجاه قشرة الأرض الخفيفة الانحدار على نحو مسطّح متكلّف. لقد حدث ذلك في العام التاسع والتسعين، فكانت الجدّة تجلس في قلب «كاشوباي»، بالقرب من «بيساو»، بل كانت أكثر قرباً إلى معمل القرميد؛ جلست الجدّة آنذاك أمام «رامكاو»، خلف ناحية فيرأك، في اتجاه الشارع المؤدي إلى «برنتاو»، ما بين «دير شاو» و«كارتهاوس»، جلست مخلفةً غابة «غولدكروغ» السوداء وراء ظهرها، وتزحزح بطرف عود محترق من خشب البندق حبّاتِ البطاطس حيث قلب الرماد المتوهج. وقد ذكرت للتو ثياب جدّتي بشكل خاص، متمنياً أن أكون قد قلت ذلك بوضوح كاف: لقد جلست بثيابها - نعم: إن هذا الفصل يحمل عنوان «الثوب الواسع» وإنني على علم تام بما أدين به إلى تلك القطعة من الملابس. لم تكن جدتي ترتدي ثوباً واحداً، بل أربعة ثياب فوق، وذلك ليس بمعنى أنها كانت ترتدي ثوباً واحداً ظاهراً وثلاثة ثياب داخلية مستترة، إنما كانت ترتدي أربعة أثواب ظاهرة، أحدها يحمل الآخر تحته، ترتديها وفق نظام يتيح للأثواب إمكانية التناوب، متغيرة يوماً بعد آخر. فما كان بالأمس ظاهراً أصبح اليوم مختفياً في الأسفل، وصار الثوب الثاني ثالثاً. وما كان في الأمس في المرتبة الثانية بات اليوم لصيقاً بجلدها. وكان الثوب الذي وقف يوم أمس في المرتبة الثانية يسفر بصورة جليّة عن شكله ونقشته، أي أنه كان يسفر في الواقع عن انعدام الشكل؛ فإن أثواب جدّتي آنا برونسكي كانت تؤثر كلها لون البطاطس. فلا بد أن يكون ذلك اللون يليق بها. وما عدا الطبيعة اللونية، كانت أثواب جدّتي تتميز بإسراف ملحوظ في استخدام القماش الكثير. وعندما تلامسها الريح، فإنها سرعان ما تستدير وتنفتح، ثم تتراخى بعدما تظهر الريح نوعاً من الاكتفاء، وتظلّ ترفرف حين بعد سكون الريح تماماً، وتتطاير أثوابها الأربعة إذا ما هبّت عليها الريح من الخلف، وعندما تجلس، فإن الأثواب الأربعة تتجمع حولها.

وبالإضافة إلى الأثواب الأربعة المنتفخة دائماً، أو المعلقة، أو المطوية، أو المتصلبة الفارغة والمنتصبة إلى جانب فراشها، فإن جدتي

كانت تحتفظ بثوب خامس لا يختلف قطّ عن قطع الملابس الأربعة الأخرى الرمادية اللون كالبطاطس. وكذلك لم يكن الثوب الخامس في الموضع الخامس دائماً، بل أنه كان يخضع للتغيير، شأنه شأن أخوته - إذ أن الأثواب كلّها كانت تتمتع بطابع رجالي - فيرتبط بالأثواب الأربعة الأخرى التي ارتدها الجدّة. وكان عليه أيضاً أن ينقع في برميل الغسيل إذا ما حان وقته، لينشر في يوم الجمعة الخامسة على حبل الغسيل أمام نافذة المطبخ، وبعد أن يجفّ تضعه الجدة على لوح المكواة.

وإذا ما غطست الجدة قدميها في طشت الاستحمام، في يوم كلّ أحد مخصص للتنظيف والخبز وغسل الملابس وكيها، بعد علف البقرة وحلبها، مفضية ببعض من سرِّها إلى الماء المليء برغوة الصابون، قبل أن تغادر ماء الاستحمام، لتجلس على حافة السرير؛ فإن الأثواب الأربعة التي أرتدها في ذلك اليوم، وكذلك الثوب الخامس المغسول تواً تكون مفروشة أماها على الأرضية الخشبية. حينئذ تسند الجفن الأسفل لعينها اليمنى بسبابتها اليمنى، رافضة أي مشورة تسدى لها، حتى لو أتت من شقيقها فنسنت، لذلك فإنها كانت تتوصل إلى قرار عاجل، فتقف منتصبة لتزيح جانباً بأطراف قدميها الحافية ذلك الثوب الذي فقد الكثير من طراوته وبريق لونه الرمادي مثل رماد البطاطس؛ في تلك اللحظة تحتل القطعة النظيفة المكان الذي فرغ للتو.

واحتفاءً بعيسى المسيح الذي كانت جدّتي تحمل عنه تصوّرات ثابتة؛ فإن الثوب النظيف سيشهد، صباح الأحد، أثناء زيارة الكنيسة في «رامكاو» النورَ من جديد عبر نظارته وطراوته المتجددة المتناوبة. ففي أي موقع كانت جدّتي ترتدي الثوب المغسول توّاً؟ إنها بلا شك لم تكن فقط امرأة مولعة بالنظافة، بل كانت أيضاً مصابةً بالغرور بعض الشيء، لذلك فإنها كانت ترتدي أجود القطع على نحو مرئي حين يكون الطقس جميلاً ومشمساً.

بيد أن ذلك اليوم الذي قبعت فيه جدّتي خلف موقد البطاطس صادف مساء الإثنين. وقد بدا لها ثوب الأحد قريباً من يوم الإثنين، بينما بدت لها

تلك القطعة التي التصقت دافئةً فوق جلدها يوم الأحد، معتمةً حين تنساب على ردفيها، وباهتة مثل يوم الاثنين نفسه. كانت الجدّة تصفر على رسلها دون أن تعني لحناً معيناً، ثم نكشت بعود البندق أوّل حبّة بطاطس ناضجة، وأزاحت الرماد بعيداً إلى جانب كومة الأعشاب الكامنة اللهب، لكي تمسها الريح فتبردها. وبغصن مستدق الطرف شكّت حبّة البطاطس الباردة المفلوقة المتيبسة الحواف وقربتها من فمها الذي توقف عن الصفير وصار ينفخ الرماد والتراب عن القشرة عبر شفتين جافتين، متشققتين بفعل الريح، وأخذت تغمض عينيها أثناء النفخ. وحينما كانت الجدّة تتوصل إلى قناعة بأنها نفخت بما فيه الكفاية، فإنها تفتح عينيها، واحدة تلو الأخرى، ثم تقضم البطاطس بقواطعها التي تتيح النظر إلى الداخل، والتي كانت سليمة تماماً ما عدا الانفراج الخفيف في وسطها، وتحتفظ في فمها المفتوح بنصف حبّة البطاطس الساخنة، العجينية الشكل التي كان البخار يتصاعد منها، ثم تتطلع بنظرة دائريّة عبر منخاريها المنتفخين اللذين كانا يتنسمان الدخان وهواء أكتوبر؛ تتطلع إلى الحقل حتى الأفق القريب الذي توزعت فيه أعمدة التلغراف، حيث أطل حوالي الثلث العلوي من مدخنة معمل القرميد. كان ثمة شيء ما يتحرك بين أعمدة التلغراف، فأغلقت جدتي فمها وزمّت شفتيها إلى الداخل وقلّصت عينيها، ثم أخذت تلوك البطاطس. كان ثمة شيء ما يتحرك بين أعمدة التلغراف، شيء ما كان يقفز، وثمة رجال ثلاثة كانوا يتقافزون بين الأعمدة في اتجاه المدخنة، وإلى الأمام، وفيما بعد تراجع أحدهم، لكنه انطلق من جديد، بدا ذلك المتراجع قصيراً وبديناً، وقد وصل إلى معمل القرميد، بينما كان الآخران، الطويلان النحيفان، قد أوشكا على اللحاق به عند المعمل، لكنهما أخذا يتقافزان بين الأعمدة من جديد، وكان القصير قد خلفهما مسافة وراءه؛ إذ أنه كان على عجلة من أمره أكثر من النحيفين الطويلين الوثابين اللذين توجب عليهما الرجوع ثانية إلى المدخنة، لأن ذلك الثالث كان يطوف حولها، فاقترب الآخران منه مسافة فترين، ثم انطلقا يركضان مرّة أخرى حتى اختفيا فجأة؛ إذ لم تعد لهما رغبة في العدو؛ هكذا بدا الأمر،

وكذلك كان الأمر مع القصير الذي سقط أثناء القفز من المدخنة خلف الأفق. لبث الثلاثة فترة وجيزة على ذلك المنوال، أو أنهم استبدلوا ثيابهم في تلك الأثناء، أو لعلّهم صاروا يضعون اللبن في قوالب القرميد ليتقاضون على ذلك العمل أجرا.

عندما أرادت جدتي استغلال فترة الاستراحة في التقاط حبّة بطاطس ثانية أخطأت هدفها. وبعد فترة تسلّق ذلك الذي بدا قصراً وبديناً الأفقَ بثيابه ذاتها، فأصبح الأفق من ورائه مثل سياج من خشب، وبدا كما لو أنه خلّف الرجلين القافزين خلف السياج، أو بين القرميد، أو في الطريق العام المؤدي إلى «برنتاو»، لكنه على الرغم من ذلك حثّ خطاه، إذ أراد أن يكون أكثر سرعةً من أعمدة التلغراف، فأخذ يقفز قفزات واسعة بطيئة الإيقاع عبر الحقول المحروثة، وكانت القذارة تتطاير من نعليه وهو يقفز مبتعداً عن القذارة، وبقدر ما كان يقفز بخفّة وسعة؛ فإنه بات يخوض في الأوحال زاحفاً بدأب وتجلّد. وقد بدا في بعض الأحيان وكأنه غرز في الوحل، لكنه أعتدل واقفاً في الهواء، حتى أنه وجد متسعاً من الوقت ليجفف العرق من جبينه أثناء القفز قبل أن تتشبث قدمه القافزة في الأرض المحروثة حديثاً والتي كانت أخاديدها تقود إلى الطريق العام الموازي لحقل البطاطس الشاسع. لقد تمكن من الوصول إلى الممر الضيّق، وحالما اختفى القصير البدين في الممر الضيّق تسلّق الطويلان النحيفان اللذان يمكن أن يكونا قد قاما حينئذ بزيارة لمعمل القرميد، تسلقا الأفق، فأصبح هذان الطويلان النحيفان اللذان لم يبلغا مرحلة الضعف والهزال بعد، يحرران جزمتيهما من الوحل ويسحبانها سحباً، وبدت جدّتي غير قادرة على شكّ البطاطس وإخراجها من الموقد؛ لأن شيئاً ما قد حدث في تلك اللحظة، لم يكن يحدث كل يوم، إذ أن ثلاثة من الرجال البالغين المتفاوتيّ الحجم والبلوغ كانوا يتقافزون حول أعمدة التلغراف، حتى كادوا يهدمون مدخنة معمل القرميد، قبل أن يختفوا وهم يثبون في الممر الضيّق، واحداً خلف الآخر، فصار القصير في المقدمة، وخلفه الطويلان النحيفان، بيد أن الثلاثة جميعهم بذلوا جهداً خارقاً وصلابةً كبيرة، وهم

يجرجرون الأوحال في نعل جزماتهم عبر الحقل الذي جنى فنسنت ثماره وأعاد ترتيبه قبل يومين.

بعد ذلك توارى الرجال الثلاثة، فتجرّأت الجدّة على وخز حبّة بطاطس أصبحت باردة إلى حد ما، ونفخت عن قشرتها الرماد والتراب على نحو عابر، ودستها كاملة في جوفها، وفكرت، هذا إذا كانت قد فكرت أصلاً في شيء محدد: أن هؤلاء الرجال هم من معمل القرميد، ثم أخذت تلوك لقمتها بشكل دائري، إلى أن قفز أحد ما من الممر الضيّق، فتطلعت بوحشية إلى ذلك الرجل ذي الشارب الأسود الذي قطع مسافة الوثبتين التي كانت تفصله عن النار ليقف أمامها وخلفها ومن ثم إلى جانب النار في آن واحد، وهو يطلق الشتائم معبراً عن خوفه وقلقه، ولم يكن يعرف في أي اتجاه عليه أن يمضي، إذ أنه لم يعد يستطيع العودة من حيث أتى؛ ولأنّ النحيفين الطويلين لاحا في الخلف خارجين للتوّ من الممر الضيّق، فقد قذف بنفسه على الأرض، ثم جثا على ركبتيه. كانت له عينان في الرأس أوشكتا على الانفلات من محجريهما، وكذلك كان العرق يسحّ من جبينه. فسمح لنفسه أن يزحف مقترباً من الجدّة أكثر فأكثر، بشاربه المرتعش، إلى أن وصل أمام النعل، فزحف ملتصقاً مباشرة بالجدة، ورمقها بنظرة كما لو أنّه حيوان صغير ممتلئ الجسد، حتى أنها قذفت بحسرة، ولم تعد قادرة على مضغ البطاطس، تاركة النعل ينقلب إلى الأعلى، بل إنّها لم تعد تفكر في معمل القرميد ولا في شواة القرميد، أو عمّال القوالب، إنما رفعت ثوبها، كلا، لقد رفعت أثوابها الأربعة دفعةً واحدةً إلى الأعلى بمقدار مناسب، لكي يستطيع القصير البدين الذي لم يكن يشتغل في معمل القرميد التوغل في الأسفل حتى اختفى بشاربه، بحيث أن مرآه لم يعد مثل مرأى حيوان، فضلاً عن أنه لم يكن من أهالي «رامكاو»، أو «فيرأك» . لقد اختفى بهلعه وخوفه تحت الأثواب، غير مضطر إلى الزحف على ركبتيه، ولم يعد قصيراً أو بديناً، إلا أنه مع ذلك احتلّ موقعه المناسب، ونسي اللهاث ورعشة الخوف، ووضع اليدّ على الركبة: كان هادئاً كما لو أنه كان يحيا يومه الأوّل، أو يومه الأخير. ثمة

شيء من الريح كان يعبث بنيران الأعشاب، وكانت أعمدة التلغراف تحصي نفسها بصمت، وظلّت مدخنة المعمل منتصبةً، فردّت جدّتي ثوبها الظاهر على الثوب الذي يليه بنعومة وتعقّل، بحيث أنها لم تعد تشعر بالرجل المختبئ تحت الثوب الرابع، ولم تفقه أبداً من خلال الثوب الثالث طبيعة ذلك الشيء الذي أراد أن يكون جديداً ومدهشاً بالنسبة لجلدها. ولأنّ ذلك كان مدهشاً، لكنه رقد من الأعلى بتروٍّ، وثانياً وثالثاً أيضاً لأنّ الجدة لم تفقه بعد حقيقيةَ ما حدث، فقد نبشت حبّتي بطاطس أو ثلاثاً من الرماد، ثم تناولت أربع حبّات بطاطس نيئة من السلّة المنتصبة أسفل مرفقها اليمنى ودستها واحدةً تلو الأخرى في الأعشاب المتوهجة، وغطتها بطبقة من الرماد، وصارت تقلّبها حتى تصاعد منها الدخان - إذ ما الذي كان عليها أن تفعله سوى ذلك؟ وحالما هدأت حركة أثواب جدّتي، واستقام الدخان السائل المنبعث من نيران البطاطس الذي فقد اتجاهه بفعل خفقان الركبتين والنبش وتغيير المكان، فصار يزحف من جديد بلونه الأصفر حسبما تشتهي الريح، متجهاً عبر الحقول صوب الجنوب الغربي، ظهر الرجلان الطويلان النحيفان اللذان كانا يطاردان القصير البدين الذي هجع الآن تحت الأثواب الأربعة. لقد تكشّف الأمر عن أن الطويلين النحيفين كانا من حيث الصنعة منتسبين إلى أولئك الذين يرتدون قيافات الجندرمة الميدانية. فتجاوزا جدتي هرولةً، وقد قفز أحدهما فوق النار. إلا أنهما انحرفا فجأة وفي انحرافهما تجلّت رجاحة عقليهما، فتوقفا وأخذا يلتفتان ويدبكان بجزمتيهما، شاخصين وسط الدخان بالقيافة والجزمة العسكريتين، ثم سحبا قيافتهما الحربية وهما يسعلان، فسحبا الدخان معهما من كتلة الدخان نفسها، فازدادت حدّة سعالهما عندما خاطبا جدّتي، لكي يعرفا فيما إذا كانت قد رأت كولياجك؛ إذ أنها لابد أن تكون لمحته طالما جلست هناك عند الممر الضيّق، لأن كولياجك نفسه فرّ للتو من الممر الضيّق.

ولم تكن جدتي قد رأت كولياجك، لأنها لم تعرف أحداً بهذا الاسم. وأرادت أن تعرف فيما إذا كان كولياجك من معمل القرميد، فهي لا تعرف إلا أولئك الذين يشتغلون في المعمل. غير أن صاحبا القيافة

الحربية وصفا لها كولياجك باعتباره شخصاً قصير القامة، بديناً، لا علاقة له بالمعمل. فتذكرت جدّتي أنها رأت رجلاً تنطبق عليه تلك الأوصاف كان قد مرّ على عجل، ثم أشارت بغصن رفيع، شكّت فيه حبّة بطاطس بعثت بخاراً، إلى ناحية «بيساو» بما تطابق مع الهدف، وحسبما تقتضي البطاطس فلابد أن يكون الاتجاه يقع بين العمودين السادس والسابع من أعمدة التلغراف، إذا ما عدّها المرء من ناحية مدخنة المعمل، نزولاً إلى ناحية اليمين. وفيما إذا كان ذلك العدّاء يدعى كولياجك، فذلك أمر لا تعرفه الجدة، فاعتذرت لهما عن جهلها وانشغالها بالنار أمام نعلها. لقد كان لديها ما يكفي من المشاغل؛ إذ أن النار لم تنشب في الموقد إلا على نحو خافت، متوسط القوّة، لذلك فإنها لم تشغل نفسها بالآخرين الذين يمرقون من هناك، أو يقفون وسط الدخان، كما أنها لم تهتم قطّ بالناس الذين لا تعرفهم، بل تعلم بدل ذلك، بأنها مكتفية بأولئك الناس المتواجدين في «بيساو» و«رامكاو» و«فيرأك» ومعمل القرميد.

عندما نطقت جدتي بتلك العبارة أطلقت حسرة، لكن بصوت عال، لدرجة أن الرجلين المتلفعين بالقيافة الحربية أرادا أن يعرفا سبب تحسرها؛ فهزّت رأسها للنار، بما يعني أنها تحسرت بسبب خفوت النار، وكذلك بسبب الناس الكثيرين المنتصبين وسط الدخان، ثم قضمت نصف حبّة بطاطس بقواطعها المنفرجة انفراجاً واسعاً، وانهمكت تماماً في المضغ، وقلبت عينيها إلى طرف الشمال.

لم يجد المتلفعان بقيافة الجندرمة في نظرة جدتي الساهمة ما يمكن الاستفادة منه، ولم يعرفا فيما إذا كان عليهما البحث عن «بيساو» خلف أعمدة التلغراف، فطعنا بحربتيهما كومة الأعشاب التي لم تلتهمها النار بعد. وإثر خاطرة إلهام مفاجئة قلب الرجلان في وقت واحد سلتي البطاطس المليئتين إلى حد ما أسفل مرفقي جدتي، وصعقا لأنهما لم يبصرا كولياجك يتدحرج من القفتين أمام جزمتيهما، إنما البطاطس وحدها. فطافا بريبة حول أكوام البطاطس كما لو أن كولياجك دخل عليها أجيراً لاجئاً لوقت قصير، ثم طعنا بتصويب دقيق، لكنهما على الرغم من

ذلك افتقدا صراخ الهدف المطعون. وأخذ شكّهما يتجه إلى كلّ حرش مهمل وإلى كل جحر فأر، إضافة إلى التلال الصغيرة التي كومها حيوان الخُلد، ليعودا مرّة أخرى إلى جدّتي القابعة كالنبت، وتقذف بالحسرات وتجذب حدقتيها تحت رموشها لتبصر عبر بياض عينيها، معددةً الأسماء الأولى لجميع القديسين الكاشوبيين بصوت مشبع بالمعاناة، ارتفع قليلاً بفعل النار الخافتة الاشتعال وبسبب قفتيّ البطاطس المقلوبتين.

فأمضى صاحبا القيافة الحربية فترة نصف ساعة، يبتعدان حيناً ويقتربان من النار ويرصدان مدخنة معمل القرميد كما لو أنهما أرادا احتلال «بيساو»، لكنهما أجّلا الهجوم إلى وقت آخر، وصارا يقربان أيديهما الزرقاء المحمرّة من الموقد، ثم تناول كل واحد منهما حبّة بطاطس مفلوقة قدمتها جدّتي بعصاها دون أن تنقطع عن قذف الحسرات. وفي منتصف المضغ تذكّر الملفوفان بالقيافة العسكرية زيهما الحربي فوثبا في الحقل مسافة مرمى حجر بموازاة نباتات «الجينستا» الذاوية المحاذية للممر الضيّق، فاستنفرا أرنباً من مخبئه؛ أرنباً لم يكن اسمه كولياجك، ولم يعثرا إلا على حبّات البطاطس الطحينية المفطورة التي بعثت بخاراً ساخناً، فعزما بوداعة ودماثة خلق، مصحوبتين بشيء من الإرهاق، على جمع البطاطس النيئة من جديد في القفتين اللتين اضطرا إلى قلبهما في بادئ الأمر حسبما اقتضى الواجب.

وفي الأخير بعدما عَصَرَ المساءُ سماءَ أكتوبر وجعلها تذري مطراً ناعماً مائلاً، وغروباً كان لونه لون الحبر، شنّ الرجلان بخمول وكسل هجوماً مباغتاً على صخرة بعيدة معتمة اللون، ألا أنّهما تخليا عنها حين لاحظها بأنها كان هامدة أصلاً، مُجهزاً عليها بما يكفي. وبعدما راوحا قليلاً بأقدامهما وشرعا يدفئان أيديهما، متبركين بالنار المديدة الممطورة والمستفيضة الدخان، سعلا في معمعة اللهب الخضراء حتى دمعت أعينهما بالدخان الأزرق قبل أن يجرجرا أقدامهما منسحبين في اتجاه «بيساو» انسحاباً دامعاً ساعلاً. إن رجال الجندرمة الميدانيين لا يعرفون في الواقع سوى إمكانيتين اثنتين لا ثالثة لهما.

لقد لفّ دخان النار المحتضرة جدّتي برداء خامس فضفاض، حتى أنها وجدت نفسها، بزفراتها الحارة وأدعيتها بأسماء الأولياء الصالحين، تحت الثوب نفسه، حالها حال كولياجك. وعندما استحال المجندان إلى نقطتين متبددتين، تتأرجحان ببطء في المساء بين أعمدة التلغراف، نهضت جدتي بصعوبة كما لو أنها ضربت جذورها في أعماق الأرض، وأرادت الآن أن تقطع النمو النباتي الذي بدأته، جاذبةً معها أنسجة الأرض وتربتها.

شعر كولياجك بالبرد بعدما أصبح مكشوفاً دفعةً واحدة، بلا قلنسوة تحت المطر، هكذا مثلما كان قصيراً وبدينا. وعلى عجل أطبق أزرار سرواله التي جعله فتحها تحت الثوب الأخير خائفاً مذعوراً، شاعراً في الوقت ذاته برغبة عارمة في العثور على مأوى. وعاجل إلى إطباق أزراره خشية أن يتعرض عرنوصه إلى البرد المباغت، إذ أن الطقس كان مشبعاً بمخاطر الرشح الخريفي.

وعثرت جدتي على أربع حبّات من البطاطس تحت الرماد، أعطت ثلاثاً منها إلى كولياجك واحتفظت بواحدة لنفسها، وقبل أن تتناولها سألته فيما إذا كان من المشتغلين في معمل القرميد، على الرغم من أنها لابد وأن أدركت بأن كولياجك قد قدم من مكان آخر لا علاقة له بالقرميد، لذلك فأنها لم تضف إلى إجابته شيئاً، إنما حملته القفّة الخفيفة وانحنت لتحمل القفّة الثقيلة، ومع ذلك مازالت تحتفظ بيد طليقة لحمل المجرفة التي كانت تنكش بها الأعشاب وكذلك الفأس. وصارت تتمايل بالقفّة والبطاطس والمجرفة والفأس وأثوابها الأربعة، ثم يممت شطر وجهها صوب «بيساو-أباو».

لم يكن ذلك هو الاتجاه الصحيح إلى «بيساو»، بل أنهما خلّفا معمل القرميد إلى الشمال، وسارا نحو الغابة السوداء التي تقع فيها «غولدكروغ» التي وقعت خلفها «برنتاو». وإلى ذلك المكان تعقب يوسف كولياجك القصير البدين جدتي ولم يعد قادراً على التخلي عن أثوابها.

تحت الرّمث

ليس من السهل أبداً أن أعيد تصوير سحب الدخان التي انبعثت من نيران أعشاب البطاطس الكاشوبية والخطوط المتوازية لمطر أكتوبر وأنا مضطجع هنا في السرير الحديدي المشطوف بالصابون؛ في سرير مصحّة الأمراض العقلية، واقعاً تحت رحمة العين السحرية المزججة، المسلحة بعين برونو. ولو لم يكن معي الطبل الذي كان يتذكر جميع التفاصيل الثانوية والضرورية لتدوين الحدث الرئيسي على الورق، إذا ما استخدمت الطبل بتأن وإتقان، ولو لم تسمح لي إدارة المصحّة باستنطاق طبلي ثلاث أو أربع ساعات يوميّاً، لأصبحت إنساناً تعيساً مسكيناً، ليس له أجداد يمكن البرهة على وجودهم. وعلى أية حال، إن طبلي قال: في مساء ذلك اليوم من أيّام أكتوبر من العام التاسع والتسعين، وبينما كان «أوهم كروغر» السياسيّ الأفريقي يمشط بالفرشاة حاجبيه الكثيفين المناوئين لبريطانيا في جنوب أفريقيا، غُرزت بذرة أمّي، آغنس، في رحم جدّتي من قِبل القصير البدين يوزيف كولياجك، وقد حدث ذلك ما بين «ديرشاو» و«كارتهاوز»، بالقرب من معمل «بيساو» للقرميد، تحت أربعة أثواب متماثلة اللون، وفي ظل الدخان والمخاوف والحسرات وأسئلة مجنديّ الجندرمة المحلية، تلك الأسئلة المغفلة الساذجة وفي ظلّ نظراتهما المنطفئة التي كدّرها الدخان.

لقد قامت آنا برونسكي، جدتي، في سواد تلك الليلة العتيدة، بتغيير اسمها إلى آنا كولياجك بمعونة قسيس كان كريماً في توزيع أقراص القربان المقدس، ثم تبعت يوسف، ليس إلى مصر، إنما إلى العاصمة الإقليمية

على نهو «مولتاو»، حيث كان يوسف يعمل في النقل النهري وينعم في غضون ذلك بالهدوء من متاعب الجندرمة.

ولكي أرفع من حدّة التشويق والإثارة قليلاً، فإنني سأحجم الآن عن ذكر اسم تلك المدينة الواقعة على مصب «مولتاو»، مع العلم أنها جديدة بالذكر في هذه المناسبة باعتبارها محلّ ولادة أمّي.

وفي نهاية يوليو من العام صفر وصفر - تقرر آنذاك مضاعفة ترسانة الأسطول الحربي القيصري- أبصرت أمّي نور الدنيا في برج الأسد، حيث الثقة بالنفس والتحليق في عالم الخيال والجود والغرور والغطرسة. كان البرج الأوّل المسمّى أيضاً برج الحياة Domus vitae يدور دورة فلكية تركت أثرها على برج الحوت. إن تعارض الشمس مع كوكب نبتون، أي البرج السابع، أو Domus matrimonii uxoris، برج الزوجيّة، من شأنه أن يجلب الاضطراب، كما أن تعارض كوكب الزهرة مع زُحل المعروف بجلبه لأمراض الكبد والطحال والمسمّى بالكوكب المرّ والذي يهيمن عادة على الجَدْي ويحتفي بأعماله التدميرية في برج الأسد، حيث يقدم إلى كوكب نبتون ثعابين الماء ويتقاضى بدلاً منها حيوان الُخلْد، والذي يحب الكرز والبصل والشمندر والذي يقذف حمماً ويفسد النبيذ، هذا الكوكب الذي يسكن مع الزهرة في البرج الثامن المميت، نعم؛ إن ذلك التعارض من شأنه أن يجبر المرء على التفكير في الحوادث، بينما كان غرس الجنين في حقل البطاطس ينبأ بسعادة مهددة، جسورة وتحت حماية عطارد في منزل الأقرباء. وعليّ أن أضيف هنا احتجاج أمّي التي كانت تنفي بأنها غُرست في رحم أمّها فوق حقل البطاطس. لقد حاول أبوها في حقيقة الحال - اعترفت الأمّ إلى هذا الحد - لكن حالته آنذاك إضافة الوضع التي اتخذته آنا برونسكي لم يتم اختيارهما بشكل موفق، بما يمهد لكولياجك المقدمات الضرورية للإنجاب؛ «لابد أن يكون ذلك قد حدث أثناء عملية الهروب، أو في عربة الخال فنسنت، أو ربما في جزيرة ترويل، حيث مستودع الأخشاب، حيثُ عثرنا على حجرة وملاذ لدى الملاحين.» كانت أمّي تؤرخ لحيثيات وجودها بكلمات كهذه، بينما كانت جدّتي التي يفترض

أنها على علم بالموضوع تهزّ رأسها بأناة قبل أن تبلغ العالم المحيط بها: «نعم يا بنيتي؛ فوق العربة حصل ذلك، أو في (ترويل)، لكن ليس في الحقل: الريح كانت قوية، ثم مطرت الدنيا بجنون مثلما يقولون.»

كان شقيق جدتي يدعى فنسنت، وبعد الوفاة المبكرة لزوجته حجّ فنسنت هذا إلى «جنستوخاو»، حيث تسلّم البلاغ من ماتكا بوسكا جستوخوفسكا، بأنه سيشهد فيها ملكة بولندا المقبلة. ومنذ ذلك الوقت صار ينقب في الكتب العجيبة التي كان يري في كل عبارة فيها تأكيداً على حقّ المطالبة بعرش مملكة البولنديين من قبل منجبة الآلهة، متخليّاً عن حقوله الصغيرة لشقيقته. كان ابنه يان الضعيف البنية الذي كان يميل إلى البكاء دوماً، يربي البطّ ويجمع الصور الملوّنة وكذلك الطوابع في زمن مبكر ينذر بالشؤم ويضمر قدراً سيئاً للغاية.

إلى ذلك المنزل الريفي المنذور لملكة بولندا السماوية جلبت جدتي قفتيّ البطاطس وكولياجك، فعلم الخال فنسنت بحقيقة الأمر وهرع فوراً إلى «رامكاو» وصار يطبّل في أذن القسيس لكي يتزود بأقراص القربان الربّاني ويعاجل إلى عقد قران آنا على يوسف. وحالما وزّع جناب القسيس المثقل بالنعاس بركاته الممطوطة بفعل التثاؤب وأدار ظهره المقدس الذي زُوّد «بهبرة» ضخمة من شحم الخنزير، ربط فنسنت الحصان أمام العربة وألقى بالعريسين في جوف العربة، ومهّد أرضيتها بالتبن والجوالات الفارغة، ثم أردف يان المنتحب بصوت خافت إلى جانبه على مقعد القيادة، وأصدر أمراً للحصان بأن يخبّ باستقامة تامة ليشقّ عنان الليل: لقد كان العريسان على عجلة من أمرهم. وعبر الليل المتعب المنهك والذي كان يزداد عتمةً وظلاماً وصلت العربة إلى مرفأ العاصمة الإقليمية. واستضاف أصحاب كولياجك الذين كانوا يشتغلون ملاّحين، مثل شغلته، الزوجين الهاربين. وفي الحال انصرف فنسنت متوجهاً بحصانه صوب «بيساو» وكان هناك كلب حراسة ينتظر وثمان بطّات لابد من إطعامها وثمة معزة وبقرة وأنثى خنزير يجب أن تعلف، إضافة إلى تنويم الابن يان، لأنه قد تعرّض إلى حمّى خفيفة.

أمضى يوسف كولياجك ثلاثة أسابيع كاملة متخفياً، استطاع شَعره خلالها التآلف مع التسريحة الجديدة، ثم أنه حلق شاربه وزوّد نفسه بأوراق صحيحة لا غبار على صحتها، وعثر على عمل ملاّح تحت اسم يوسف فرانكا. لكن لماذا حمل كولياجك أوراق الملاّح فرانكا الذي قُذف به من الناقلة الخشبية أثناء معركة بالأيدي فمات غرقاً في نهر «بوغ» بالقرب من «مولدين» ولم يتم إبلاغ السلطات بموته؟ ولماذا يقدم نفسه في ورش النجارة وأمام تجّار الأخشاب بصفته فرانكا؟ لأنه كان قد اشتغل في ورشة نجارة في «شفيتس»، بعد أن تخلّى عن عمله في الأرمات الخشبية، لكنه تورّط هناك في مشكلة وخلاف مع رئيس ورشة النجارة الذي صادر سياجاً خشبياً كان كولياجك قد دهنه بيده باللونين الأحمر والأبيض دهاناً بديعا. وعلينا أن نمنح في هذا الموضع بالتحديد المثل المعروف حقّه كاملاً، ذلك المثل القائل بأن المرء يمكن أن يفجّر الصراع من السياج، وبهذا المعنى فإن رئيس ورشة النجارة انتزع لوحين أحمر وأبيض من السياج، ثم هوى باللوحين البولنديين على ظهر كولياجك الكاشوبي، حتى جعلهما حطباً أحمر وأبيض، فتحوّل ذلك إلى دافع للمضروب لإضرام النيران الحمراء في ورشة النجارة المعالجة بالجصّ الأبيض ذات ليلة مرصعة بالنجوم، احتفاءً ببولندا المشطورة نصفين، والتي كانت تعتبر موحدة لذلك السبب.

لقد كان كولياجك مضرم نيران متعمّد، بل إنّه قام بإشعال نيران عديدة، لأن ورش النجارة ومخازن الأخشاب المكشوفة في غرب بروسيا كلها كانت تعرض نفسها آنذاك لمشعل النيران باعتبارها مشاعر قومية ملتهبة بلونين. وطالما كان الأمر متعلقاً بمستقبل بولندا، فإن مريم العذراء كانت حاضرة في كلّ خريف، باعتبارها جزءاً من العملية؛ وكان ثمة شهود عيان - ربما البعض منهم مازال حيّاً إلى يومنا هذا - أبصروا أمّ الربّ مكللةً بتاج بولندا، وقد أطلّت فوق سطوح ورش النجارة المنهارة التي التهمتها النيران. أمّا الشعب الذي كان حاضراً في كلّ خريف، فإنه كان يردد أنشودة «بوغوروجسكا»، والدة الربّ، ويمكننا الاعتقاد بأن حرائق

كولياجك قد شهدت احتفالات كبيرة صاخبة: احتفالات كان يؤدى فيها القَسَم.

ومثلما كان كولياجك مطلوباً ومتهماً بجنح مختلفة، فإن الملاّح يوزيف فرانكا كان شخصاً محدود الأفق، يتيم الوالدين، لم يؤذ أحداً قط، ولم يبحث عنه أحد، أو يعرف شخصه. وبعدما قسّم يوسف فرانكا تبغ المضغ على بضع وجبات يومية، ابتلعه نهر «بوغ»، فخلّف فرانكا ثلاث وجبات من التبغ موزعة على ثلاثة أيّام، إضافة إلى أوراقه الشخصية. ولأن الغريق فرانكا لم يستطع الإعلان بنفسه عن غرقه ولأن لم يكن هناك من كلّف نفسه بطرح أسئلة محرجة تتعلق بمصيره، فقد سطا كولياجك الذي كان جسمه شديد الشبه بجسم الغريق، وكذلك كان له شكل جمجمته المستديرة؛ سطا في البدء على فرانكا، ثم توغل زاحفاً في جلده النظيف الثابت رسمياً ثبوتاً ورقيّاً، ومن بعد أقلع كولياجك عن تدخين الغليون وصار يعلك التبغ، بل أنه انتزع من فرانكا أشياءه الأكثر خصوصية، أي تعثره في الكلام، فأخذ يتصرف في الأعوام اللاحقة بصفته ملاّحاً حريصاً على عمله ومهذباً، ومتلعثماً إلى حدّ ما بالكلام، ويخترق غابات «نيمين» و«بورب» و«وبوغ» و«فيستولا» منحدراً في اتجاه السهوب. لابد من الإشارة هنا إلى أنه تدرج إلى رتبة عريف في كتيبة الخيّالة تحت إمرة ماكنزن، والتي كانت مكلفة بحماية ولي العهد؛ إذ أن فرانكا لم يكن قد دخل الجندية، إلا أن كولياجك الذي كان يكبر الغريق بأربعة أعوام، ترك وراءه أثراً وسمعة معيبين لدى أفراد كتيبة المدفعية في ناحية «تورن».

كان القسم الأخطر من الغزاة والنهابين والقتلة ومشعلي الحرائق يتحين الفرصة في ذلك الزمن، زمن السلب والنهب والقتل وإشعال الحرائق، لممارسة مهنة مستقيمة شريفة. فكانت الفرصة تعرض نفسها آنذاك صدفة، أو تقدم نفسها للمعنيين: فأصبح كولياجك الذي انتحل شخصية فرانكا زوجاً طيباً، بعدما برأ من ذنوبه الحمقاء، لدرجة أن مرأى عود الثقاب المشتعل أصبح كفيلاً بإلقاء الرعب في نفسه. ولم تكن حتى علب الكبريت الموضوعة أمامه على طاولة المطبخ حرّة بزهو وخيلاء تنجو

من قبضته أبداً، هذا الرجل الذي لو لم تكن عيدان الثقّاب موجودة في زمانه لاخترعها بنفسه. فصار يقذف بتلك المغريات الموسوسة من نافذة المطبخ. وكانت جدتي تجد صعوبة أحياناً في تحضير طعام الغداء في الوقت المناسب. وكثيراً ما كانت العائلة تقرفص في الظلام، لأنّ السراج النفطي قد انطفأ فتيله.

ومع ذلك، فإن فرانكا لم يكن رجلاً مستبداً وطاغية، بل كان يرافق زوجته آنا فرانكا في أيّام الآحاد إلى الكنيسة في «نيدرشتات»، ويسمح لها بارتداء ثيابها الأربعة مجتمعة، مثلما كانت تفعل في حقل البطاطس، بصفته متزوجاً منها زواجاً شرعياً ورسميا. وعندما كانت الأنهار تتجمد في الشتاء، بحيث تمرّ على الملاّحين ظروفاً صعبة، كان كولياجك يمضي الوقت بهدوء وأخلاق حسنة في ناحية ترويل حيث يقطن الملاحون وعمّال الشحن والتفريغ وبناة السفن؛ كان يجلس هناك ويراقب ابنته آغنس التي بدت وكأنها حملت سمات الأب وصفاته، إذ أنها إذا لم تنزو تحت السرير، فإنها كانت تدسّ نفسها في خزانة الملابس؛ وإذا كان هناك ضيوف، فإنها كانت تقبع تحت طاولة الطعام بعرائسها المخيطة من الخرق.

كانت الصبية آغنس تحبّ الاختفاء، وتجد فيه أمناً وطمأنينة ومتعة مختلفة نوعياً عن المتعة التي حظي بها يوسف تحت ثياب آنا.

كان مشعل الحرائق كولياجك رجلاً ملسوعاً ملوّعاً بما فيه الكفاية، أكثر بكثير من قدرته على فهم الدافع الذي جعل ابنته تميل إلى الاختباء، لذلك أقام لها على شرفة الدار ذات الغرفة ونصف الغرفة، تلك الشرفة التي سُمرت لتصبح خنّاً للأرانب، أقام لها قمرةً خشبية، صممها حسب قياس البنت. وفي قمرة كتلك أمضت أمّي طفولتها تلعب بالدمى وتنمو. وفيما بعد، عندما دخلت المدرسة بدا كما لو أنها نبذت الدمى وصارت تلعب بالكريات الزجاجية وبالريش الملونة، معبرةً للمرة الأوّلى في حياتها عن ولعها بالجمال الهشّ.

وربما يسمح لي المرء هنا، أنا المتحرق إلى سرد بداية وجودي

الشخصي، أن أعرض عن ذكر تفاصيل آل فرنكا الذين سار مجرى حياتهم بهدوء وانسياب حتى العام الثالث عشر، حين دُشنت سفينة «كولومبس» قرب «شيخاو»؛ آنذاك تمكنت الشرطة التي لا يمكن أن تنسى من اقتفاء أثر فرانكا المزيّف.

حدث ذلك عندما توجب على كولياجك، مثلما كان يفعل في أواخر كلّ صيف، وكذلك فعل العام الثالث عشر، توجب عليه أن يقود رمثاً ضخماً من كييف عبر «بريبت»، مروراً بالقناة، فنهر «بوغ» حتى «مودلين» ومن هناك كان عليه أن يواصل الانحدار عبر «فيستولا». كان عدد الملاّحين أثنى عشر رجلاً، تصحبهم سفينة الجرّ «راداونا» التي وضعت آنذاك في خدمة معمل النجارة الذي كانوا يعملون فيه، فقدموا مبحرين من غرب «نويفيهر» صوب ذراع «فيستولا» المطمور حتى «آينلاغه»، ثم تابعوا تجديفهم في نهر فيستولا طلوعاً نحو «كيزمارك»، ومن ثم «لتسكاو»، «وجتكاو» و«ديرشاو» إلى أن اجتازوا «بيكل» فتوقفوا في المساء عند «تورن»، حيث صعد رئيس النجارين الجديد على ظهر الناقلة، إذ أنه كان مسؤولاً أيضاً عن مراقبة عملية شراء الأخشاب من كييف. لمحه كولياجك للمرّة الأوّلى أثناء الإفطار على جناح الناقلة. جلسا آنذاك قبالة بعضهما يلوكان طعاماً ويحتسيان قهوة الشعير، وعلى الفور عرفه كولياجك.

لقد دعا ذلك الرجل الشديد الضخامة، الذي شاب مقدم رأسه الصلع، دعا الملاّحين لشرب الفودكا، وملأ لهم فناجين القهوة. وفي منتصف الشرب والمضغ، أي بينما كان رئيس النجارين يسقي الملاحين في طرف جناح الناقلة الخشبية، قدم نفسه قائلاً: «يجب أن تعلموا بأنني رئيس النجارين الجديد، واسمي دوكرهوف، وأحبّ الالتزام والانضباط!»

وبناءً على رغبته ذكر الملاّحون أسماءهم، واحداً تلو الآخر، وهم يفرغون فناجين الفودكا في أفواههم، فاهتزت حناجرهم. كان كولياجك أوّل من احتسى الكأس، فقدم نفسه: «فرانكا»، ثم ثبّت بصره في دوكرهوف الذي هزّ رأسه، مثلما كان يهزّه من قبل، مكرراً المفردة

الصغيرة «فرانكا» مثلما كرر من قبلها أسماء الملاحين. ومع ذلك فقد تراءى لكولياجك بأن دوكرهوف قد شدد على اسم الملاح الغريق، ليس بحدّة، لكن بتأمل واضح.

أخذت «راداونا» تمخر عبابَ الغرين، قاذفةً بأكوام الطمي والرمل، متفاديةً بمعونة النوتيين المتناوبين السيلَ العارم الذي لم يعرف سوى اتجاه واحد. وعلى اليمين والشمال أراض منبسطة تارةً، ومتموجة بالتلال طوراً، وقد حُصدت غِلالها. وثمةَ أسوار من الشجيرات ودروب ضيّقة وخسوف انتشرت فيه نباتات «الجينستا»، خسوف خال من التعرّج يقع بين البيوت الفلاّحية المنفردة المتباعدة، وكان معداً لهجوم سلاح الفرسان، ولفرقة الرمّاحين المتموضعة شمالاً في حقل رمليّ، وللخيّالة الذين كانوا يطاردون بعضهم البعض، غائرين عبر الأسوار الشجرية، ولأحلام ضبّاط الفروسية الفتيان، وللمعركة التي وقعت والتي ستقع من جديد دائماً، وللوحة الزيتية: حيث السطح المستوي استواءً تترياً، والفرسان المسلحين سلاحاً خفيفاً على الخيول المتهيجة، وهي تسقط الخيّالة الممتشقين السيوف، والقائد بمعطفه المحلّى بالنياشين والذي اصطبغ بالدماء، وحيث الدرع لا ينقصه ألا زرّ واحد، ذاك الذي قطعه نبيل مازوفين، والخيول البيضاء التي لم يشهد لها السيرك مثيلاً، تلك الخيول المستثارة المتوترة، المشرشبة الأعنة، بشرايينها المرسومة بعناية فائقة، وبمناخيرها القانية الاحمرار المنفوخة التي انبعثت منها سحب مطعونة بالرماح والحراب، ورفرفت فوقها البيارق، وثمة خيول مطأطئة الرؤوس وسيوف مستدقة، شطرت السماء والشفق نصفين، وهناك في الخلف - إذ أن لكلّ لوحة خلفية ما - ثمة قرية ملتصقة تماماً بالأفق، انبعث منها الدخان، قرية مستسلمة وسط السيقان الخلفية للجواد الأسود، وأكواخ منحنية ذليلة علاها الطحلب ومسقّفة بالقشّ، وفي الأكواخ نفسها ثمة مصفحات جميلة، محافظة على رشاقتها، حالمة بالغد، راغبة أيضاً في الخروج من اللوحة إلى السهل الواقع خلف سدود نهر فيستولا كالمهر النحيفة التي انتصبت بين كتائب الفرسان الثقيلة السلاح.

وبالقرب من «فلوكلافغ» نقرَ دوكرهوف على ظهر كولياجك: «قل لي، يا فرانكا، ألم تكن قد اشتغلت قبل كذا وكذا من السنوات في مطحنة (شفيتس)؟ تلك المطحنة التي التهمتها النيران؟»

فهزّ كولياجك رأسه نافياً بصعوبة وتثاقل كما لو أنه اصطدم بمقاومة ما، لكنه استطاع أن يمنح عينيه تعبيراً حزيناً ومتعباً، لدرجة أن دوكرهوف احتفظ بأسئلته الأخرى لنفسه بعد مواجهته لتلك النظرة. وعندما بصق كولياجك ثلاث مرّات وهو متكئ على سياج الناقلة في «مودلين» حيث يصب نهر «بوغ» في «فيستولا»، أي في الاتجاه الذي انحرفت فيه سفينة الجرّ «راداونا»، كان دوكرهوف يقف إلى جانبه، ممسكاً بسيجار، وطلب منه ناراً، فاخترقت هذه الكلمة ومعها لفظة «عود الثقّاب» جلد كولياجك على الفور، فقال دوكرهوف: «يا رجل! إنك لست بحاجة للشعور بالخجل عندما أطلب منك النار، لأنك لست فتاة، وإلا؟»

أثناء ذلك كانوا قد خلّفوا بلدة «مودلين» وراءهم، وهناك سرت في وجه كولياجك حمرة عجيبة، لا علاقة لها بحمرة الخجل، إنما كانت بمثابة انعكاس متأخر لحريق أنشبه كولياجك نفسه في إحدى ورش النجارة.

لم يحدث ما بين «مودلين» وكييف، حينما طلعوا نهر «بوغ» عبر القناة التي كان تربط بوغ بنهر «بريبت»، عندما عثرت «راداونا» على نهر الدنيبر، قادمة من «بريبت»؛ لم يحدث ما يمكن اعتباره حواراً أو سجالاً بين كولياجك-فرانكا ودوكرهوف. ومن الطبيعي أن يحدث شيء ما على ظهر سفينة الجرّ، أو بين الملاحين أنفسهم، أو بين الوقّادين والملاّحين، أو بين قائد الدفّة والوقّادين والربّان، أو بين الربّان والنوتية المتناوبين، مثلما يحدث عادة بين جميع الرجال، أو ربما حدث في الحقيقة شيء ما بينهم؛ إذ يمكنني أن أتخيل مشاجرة قد تحدث بين الملاّحين الكاشوبيين وقائد الدفّة المولود في «شتيتين» الألمانية، أو أتخيّل إمارة من إمارات التمرّد: كالتجمع مثلاً على سطح الناقلة، أو إجراء القرعة، أو رفع الشعارات، لكن دعونا نترك هذه التكهنات، إذ لم يحدث أي نزاع ذي طابع سياسي،

أو طعان بالسكاكين بين البولنديين والألمان، ولا ضجّة يستلزمها الجوّ الذي يسود عادة إثر تمرّد مكشوف ناشئ عن وطأة الظروف الاجتماعية.

لقد واصلت «راداونا» طريقها، ملتهمةً الفحم بشجاعة - حتى كادت أن تغرز ذات مرّة في طين القاع، حدث ذلك حسبما أعتقد بعد ناحية «بلوك» بقليل، إلا أن سفينة الجرّ حررت نفسها بقواها الذاتية. لم تجر سوى ملاسنة حادة وقصيرة بين الربّان باربوش القادم من «نويفارفاسر» وأحد النوتيين الأوكرانيين، فكان ذلك كلّ ما حدث - ولم يدوّن أي حدث آخر في محضر الناقلة.

وإذا ما عنّ لي أن أدوّن أفكاراً في سجلّ الرّمث، أو أحرر صحيفة خاصة بالحياة الداخلية الدوكرهوفية المتعلقة برئاسة ورشة النجارة، فيمكن أن أستعرض المغامرات والمنوعات والشبهات أو تأكيدها، فضلاً عن الشكوك التي كانت سرعان ما تتبدد. كان كولياجك ودوكرهوف خائفين كلاهما، متوجسين، بل أن دوكرهوف كان أكثر خوفاً من كولياجك؛ لأنهما قد دخلا آنذاك الأرضي الروسية، فكان يمكن أن يسقط دوكرهوف من سطح السفينة مثلما سقط فرانكا المسكين من قبله -والآن فإننا قد وصلنا إلى كييف - حيث أسواق الأخشاب الضخمة العملاقة التي لا يحيط بها البصر، حيث يمكن أن يفقد المرء الملاك المخصص لحمايته في فردوس ذلك الضياع والضلال الخشبيين، أو أن يقع ضحية لوح طويل انهار فجأة، أو أن تُنقذ حياته بعد إصابته بلوح؛ ينقذ من قبل كولياجك الذي انتشل رئيس النجارين في البدء من غرين نهر «بيربت»، أو نهر «بوغ»، حيث جذب دوكرهوف في اللحظة الأخيرة، في تلك العرصة، عرصة الأخشاب الواسعة الخالية من ملائكة الحماية، وأنقذه من الانهيار الجارف لتيار الأخشاب المتساقطة. فكم سيبدو جميلاً لو أنني أستطيع التحدث الآن عن دوكرهوف نصف الغريق، أو نصف المهروس بفعل الألواح الخشبية، والمتنفس بصعوبة، والذي حام حول عينيه طيف الموت، فيهمس في أذن فرانكا المزعومك «أشكرك شكراً جزيلاً يا كولياجك»، ثم يضيف بعد فترة توقف ضرورية: «لقد تعادلنا الآن، واحدة

بواحدة، فهيّا اعبر إلى الضفة الأخرى!» ولعلهما سينظران إلى بعضهما بعضاً بصداقة فيها شيء من المرارة، ثم يبتسمان بارتباك وحيرة، حتى يكاد الدمع يترقرق من مآقيهما الرجولية وهما يشدّان على أيديهما مودعين بعضهما بتردد لا يخلو من الجفاء.

ونحن نعرف تلك المشاهد من خلال الأفلام المصورة ببراعة تخلب الألباب حين يخطر في ذهن المخرج أن يجعل من شقيقين يناصب أحدهما الآخر العداء شريكين في مصير واحد بعد آلاف المغامرات المستمرة الناجحة بيسر وصعوبة، وذلك عبر قدرات تمثيلية بارعة. بيد أنّ كولياجك لم يجد آنذاك فرصة مناسبة يدع فيها دوكرهوف يموت غرقاً، أو ينقذه من مغبة الألواح الطويلة المتساقطة القاتلة. فبكلّ يقظة وحذر، والتزاماً بمصلحة شركته، رتّب دوكرهوف عملية شراء الأخشاب في كييف، وأشرف على تجهيز ناقلات خشب جديدة، ووزع كالعادة على الملاّحين نقوداً روسية صحيحة وغير مزيفة، وبسخاء تام، بغية تسهيل العودة الميمونة، واستقل قطاراً أوصله إلى شركته التي نصبت معدات النشارة التابعة لها في مرفأ الخشب بين مصنعي السفن في «كلافيتر» و«شيشاو»، مارّاً بطريقه بمدينة وارسو و«مودلين» و«آيلاو» الألمانية ثم «مارينبورغ» و«درشاو».

وقبل أن أترك الملاّحين يهبطون الأنهار والقناة، ليصلوا أخيراً إلى «فيستولا» بعد أسابيع من الجهد الشاق، عليّ أن أمعن التفكير جيداً فيما إذا كان دوكرهوف قد خمّن في فرانكا شخصية كولياجك مشعل الحرائق. وأودّ أن أقول: طالما جلس رئيس النجارين مع فرانكا الطيّع السليم الطوية والمحبوب عموماً على الرغم من محدودية فكره، طالما جالسه على متن ناقلة؛ فإنه تمنّى بلا شكّ أن لا يتخذ رفيقاً لرحلته لا يتورع عن ارتكاب أبشع الجرائم، رفيقاً على شاكلة كولياجك، وأنه قد تخلّى عن تلك الأمنية في المقعد الجلدي لمقصورة القطار. عندما وصل القطار إلى هدفه وتوقفت عجلاته في محطة «دانسغ» - لقد لفظتها الآن - كان دوكرهوف قد اتخذ قراره الدوكرهوفيّ، فأودع حقائبه في عربة لتنقلها إلى داره،

وقصد مديرية الشرطة القريبة من «فيبنفال» بعزيمة فائقة؛ لأنّه تحرر من الحقائب، وصعد الدرجات المؤدية إلى البوّابة الرئيسية قفزاً، وبعد برهة قصيرة من التفتيش المتمعن عثر على غرفة كانت معدّة ومنظّمة بشكل يوحي بالمنطق والموضوعية، أتاح لدوكرهوف تقديم تقريره المقتضب الذي لم يتناول سوى الوقائع. ولم يحدث ذلك بمعنى أن رئيس النجارين تقدم بدعوى، إنما ناشد بكل موضوعية أن تفحص قضية كولياجك-فرانكا، فوعدته الشرطة بتنفيذ تلك الرغبة.

وبينما كان الرّمث الخشبيّ ينزلق منحدراً في النهر ومعه أكواخ البردي والملاّحون طوال أسابيع، فقد دوّن أثناء ذلك الكثير من الورق في مكاتب عديدة، حتى وصل الأمر إلى الملفّ العسكري ليوسف كولياجك، ذلك المدفعي الحقير والذي خدم في كتيبة المدفعية المرقمة كذا وكذا، والتي كانت متموضعة في غرب بروسيا. كان ذلك المدفعي الخسيس قد أودع الحبس المتوسط الأحكام مرتين لمدة ثلاثة أيام، بسبب ترديده لشعارات فوضوية، بلغة نصفها كان ألمانياً ونصفها الآخر كان بولندياً، وبصوت عال وفي حالة من السُّكر. لكن لم يتم العثور على تلك الأفعال الشنيعة في أوراق العريف فرانكا الذي خدم في كتيبة الحرس الخاص الثانية المعسكرة في «لانغفور». لقد نال فرانكا هذا صيتا حسناً وحظي بانتباه ولي العهد، وحين كان ساعياً للكتيبة إبان مناورة حربية، فأتحفه الأمير ولي العهد بدرهم أميريّ، كان يحمل في جيبه الكثير من الدراهم الشبيه، أمّا الدرهم الآخر فأنه لم يكن مسجلاً في ملف العريف فرانكا، إنما اعترفت جدتي بوجوده وهي تنتحب بصوت عال، عندما استُجوبت مع شقيقها فنسنت.

لم تستطع جدتي مقاومة عبارة مشعل الحرائق بالدرهم الملكي وحده، بل عرضت أوراقاً تثبت عدّة مرّات بأن يوزيف فرانكا كان قد تطوّع في العام صفر وأربعة في سلك الإطفاء في منطقة «غدانسك-نيدرشتات»؛ وخلال أشهر الشتاء، حين كان الملاّحون يتوقفون عن العمل، كان رجل الإطفاء فرانكا يساهم في إخماد بعض الحرائق الصغيرة أو الكبيرة. وثمة وثيقة أخرى أعلنت عن أن رجل الإطفاء فرانكا لم يساهم فقط في إطفاء

الحريق الذي نشب في مصنع قطارات «ترويل» في العام صفر وتسعة، بل أنقذ حياة إثنين من متدربيّ الحدادة، وقد أدلى نقيب رجال الإطفاء هشت بشهادة مماثلة، وأضاف إلى المحضر: «أريد أن أعرف كيف يكون شكل مشعل الحرائق الذي يقوم بإخمادها في الوقت نفسه؟ ألم أره منتصباً على سلّم الإطفاء عندما أتت النيران على الكنيسة في «هويبوده»؟ فكان ينبعث كالعنقاء من النار والرماد، ولا يخمد النيران وحدها، إنما حريق العالم كلّه معها، ويروي ظمأ سيدنا المسيح! وأقول لكم حقّاً: إن كلّ من يطلق لقب (حنفية النار الحمراء) على الرجل الذي اعتمر خوذة الإطفائيين والذي كان له حقّ المرور قبل الآخرين ويتمتع بحب شركات التأمين، ويحمل في جيبه دائماً حفنة من الرماد، سواء أكانت شارةً، أم تصرفاً ما تتطلبه المهنة، فإن ذلك الرجل المدعي يستحق أن يربط عنقه إلى حجر الرحى...»

ربّما لاحظتم أن النقيب هشت كان يعتبر بنظر متطوعيّ الإطفاء قسيساً واعظاً بليغ العبارة، فكان يعتلي كلّ يوم أحد منبر كنيسة سانت باربرا في «لانغّارتن» ولا يتورع عن ضرب الأمثلة بكلمات مشابهة لتلك الكلمات التصويرية على غرار رجل الإطفاء السماوي ومشعل الحرائق الجهنمي، ليرسخها في أذهان رعاياه مادامت التحريات جارية بخصوص كولياجك-فرانكا.

ولأنّ موظفي الشرطة الجنائية لم يذهبوا إلى كنيسة سانت باربرا، فضلاً عن أن مفردة «العنقاء» ستتوغل في أسماعهم باعتبارها إهانة للسمو الملكي أكثر مما هي تبرير لأعمال فرانكا؛ فإن نشاط فرانكا التطوعي في فرقة الإطفاء قدّ أثّر عليه سلبيّاً. فتمّ استدعاء شهود من ورش نجارة عديدة، واستعين أيضاً بمعطيات الدوائر المختصة وتقييماتها: لقد أبصر فرانكا نور العالم في «توخل»، بينما كان كولياجك «تورنيّ» المولد، ثم إنّ تضارباً بسيطاً شابَ إفادات الملاّحين المسنين والأقرباء البعيديّ القرابة. لكن الجرّة كثيراً ما امتلأت بالماء، فلم يبق لها في آخر المطاف سوى أن تنكسر. فعندما بلغت الاستجوابات مداها الأقصى دخلت ناقلة الأخشاب الضخمة أراضيّ الرايخ، وبعدما اجتازت ناحية تورن جرى تفتيشها تفتيشاً

عادياً، لم يثر أي شبهة، ثم وضعت تحت الرقابة في المرافئ وأماكن الرسو.

لقد انتبه جدي إلى المراقبة بعد أن تخطّى «درشاو»، على الرغم من أنه كان يتوقع المراقبة، ولعلّ نوبة سهو كانت تجتاحه بين الحين والآخر فتدفع به إلى حافة اليأس، منعته آنذاك من الفرار بالقرب من «لتسكاو»، أو «كيزمارك»، والذي كان مقدراً له أن ينجح في ناحية مألوفة كتلك وبمعونة الملاّحين المتعاطفين معه. وبعد «آينلاغه»، حين توغلوا في ذراع «فيستولا» المطمور، حيث كانت الأرماث تسير ببطء وترتطم ببعضها البعض، كان ثمة قارب صيد شراعيّ ينزلق بمحاذاة الناقلة على نحو ملفت، أو غير ملفت للنظر، لكنه كان غاصّاً بالركاب؛ وبالضبط خلف «بليهنندورف» انطلق الزورقان البخاريان التابعان لشرطة الموانئ من الضفة الكثيفة البردي وشقّا طولاً وعرضاً المياه المالحة الراكدة لذراع «فيستولا» الذي كان ينبأ عادةً بالوصول إلى المرسى الأخير. وخلف الجسر المؤدي إلى «هويبوده» بدأ أصحاب «القيافات الزرقاء» يحكمون طوق الحصار؛ كان الرجال «الزرق» حاضرين في كل مكان: في مستودعات الأخشاب المقابلة لمصنع السفن وفي منشأة الزوارق الصغيرة، وميناء الأخشاب المتسع على الدوام حتى بلغ ناحية «موتلاو»، وجسور الرسو التابعة لورش نشارة مختلفة، التي كان يأتي بعدها جسر الورشة التابع للشركة المعنية، والذي كان أهالي الملاّحين وعائلاتهم ينتظرون العائدين، فقط في الناحية المقابلة عند «شيشاو»، حيث رفعت البيارق والأعلام، فقط هناك كان الأمر مختلفاً؛ إذ لابد أن تكون هناك سفينة جديدة جاهزة للتدشين، فاجتمع حشد غفير من الناس، حتى أنّ النوارس نفسها بدت مضطربة، فلابد أن يكون هناك حفل ما: فهل كان حفلاً لاستقبال جدّي؟

لم ينتبه الجدّ إلى حقيقة الأمر إلا بعد أن أبصر أكوام الأخشاب ملغومة بأصحاب القيافات الزرقاء والزوارق البخارية التي كانت تمخر المياه، منذرة بالشؤم، قاذفةً الأمواج على الناقلات؛ حينئذ فقط أدرك الجدّ بأنّ ذلك البذخ والإسراف كانا مخصصين له وحده، في تلك اللحظة

بالذات استيقظ قلب مشعل الحرائق، ذلك القلب الكولياجيكي العتيق، فنفض عن نفسه شخصية فرانكا الوديع، متنصلاً عن فرانكا المتطوع في فرقة الإطفاء، معلناً تخليه ملء شدقيه، وبصوت خال تماماً من التعثّر، عن فرانكا المتلعثم اللسان، فأطلق ساقيه للريح، هارباً عبر الناقلات والسطوح المتأرجحة، يعدو حافياً فوق الأرضيات الخشبية غير المستوية، قاطعاً اللوح الطويل بعد الآخر في اتجاه «شيشاو»، حيث كانت البيارق ترفرف بمرح في الريح، مخترقاً أكوام الأخشاب؛ إذ أن هناك دعائمَ للماء أيضاً، تلقى عليها أجمل الخطابات، وحيث لا يهتف أحد باسم كولياجك، ولا تُسمع سوى العبارة التالية: سأعمدك باسم SMS كولومبس، أمريكا، حيث تبلغ القدرة على إزاحة الماء تحت السفينة أربعين ألف طن، وتبلغ القوّة الحصانيّة ثلاثين ألفاً؛ إنها سفينة جلالته التي فيها صالة للدرجة الأولى، مخصصة للتدخين، ومطبخ للدرجة الثانية في الجناح الشمالي، وصالة ألعاب الجمباز من الرخام، ومكتبة؛ إنها أمريكا، سفينة جلالته المزودة بنفق للأمواج التي يقذفها المحرّك، ومتنزه فوق السفينة؛ فحييت خالداً تحت غار النصر، حيث كانت البيارق الملونة ترفرف في الميناء الوطني، وحيث وقف الأمير وراء دفّة القيادة، وحيث كان جدي يركض حافياً، وقدماه لا تمسان بالكاد جذوع الأخشاب المستديرة، متجهاً نحو موسيقى الآلات النحاسية؛ فياله من شعب يتمتع بأمراء مثل هؤلاء! كان الشعب كلّه يهتف باسمه، وهو يقفز من ناقلة إلى أخرى، فحُييت خالداً تحت غار النصر، وتحت صفّارات الإنذار في مصنع السفن، وصفّارات السفن الراسية في الميناء، وصفّارات سفن المهربين وسفن اللذّة والمتعة، وكولومبس والحريق، وثمة زورقان بخاريان جنّا من فرط الفرح وهما يمخران المياه إلى جانبه من ناقلة إلى أخرى، حتى قطعا الطريق عليه. لقد أفسد هذان المخربان لعبة المطاردة، فكان على الجدّ أن يتوقف، على الرغم من أنه كان في فورة الركض، فوجد نفسه يقف وحيداً فوق ناقلة وينظر إلى أمريكان فعاجله الزورقان من الناحية الأمامية، فكان عليه أن يقفز، ورأت الناس جدّي يعوم صوب ناقلة انحدرت في «موتلاو». كان

عليه أن يغوص في الماء هرباً من الزورقين، وأن يبقى هناك في الأعماق بسبب الزورقين، فتزحزحت الناقلة فوقه، ولم تبد راغبة في التوقف، فكانت تولّد ناقلات جديدة على الدوام، وإلى الأبد: ناقلة إير ناقلة.

أوقف الزورقان محركيهما وأخذت أزواج الأعين الصارمة الحادة تفتش فوق سطح الماء، بيد أنّ كولياجك ودّع الأشياء والناس كلهم وداعاً نهائياً، متجاهلاً الآلات النحاسية وصفّارات الإنذار وأجراس السفن وباخرة جلالته وخطبة تعميد الأمير هاينرش ونوارس جلالته المخبولة، غير قادر على أن يردد: حُييت خالداً تحت غار النصر، ومتجاهلاً رغوة الصابون بمناسبة تدشين باخرة جلالته، متوارياً تحت الخشب اللامتناهي عن أنظار أمريكا وكولومبس وعن تحريات الشرطة كلّها.

لم يعثر أحد أبداً على جثّة جدي. وأنا المقتنع تماماً بأنه قد لاقى حتفه تحت الناقلة، يجب عليّ أن أكلف نفسي، لكي أحافظ على الموضوعية، بإعادة سرد التصورات والروايات المدهشة المتباينة والمتعلقة بإنقاذه: قيل إنه عثر على فجوة بين أعمدة الناقلة الخشبية، كان حجمها كافياً لكي تبقى أجهزة تنفسه طافية فوق الماء. كانت تلك الفجوة ضيقة من الأعلى لدرجة أنّ الشرطة التي أمضت الليل كلّه تفتّش الناقلات وأكواخ القصب فوق الناقلات لم تتمكن من اكتشافها.

بعد ذلك، وتحت جنح الظلام -كما قيل- تسلل إلى ضفة «موتلاو» الأخرى، بجهد بالغ وبشيء من الحظ، حتى وصل إلى مبنى منشأة سفن «شيشاو»، فعثر على ملاذ في مستودع الخردة، وبعد فترة وجيزة تمكن من الوصول إلى ناقلة ملطخة بالسخام والشحوم، وصلها على الأرجح بمساعدة البحّارة اليونانيين الذين كانوا يعرضون اللجوء على بعض الفارّين.

وادعى آخرون بأن: كولياجك الذي كان ماهراً جدّاً في السباحة، ويتمتع برئة ممتازة، لم يغص تحت الناقلة، إنما قطع بقية نهر «متلاو» الواسع غوصاً، وبلغ اليابسة بعد أن حالفه الحظ، ودخل منشأة سفن «شيشاو» حيث اختلط بعمّال المنشأة دون أن يثير ريبة أحد، ومن ثم اختلط بعموم الجماهير المتحمسة، وردد معها أنشودة «حُييت منتصراً

ومكللاً بغار النصر»، فاستمع، وهو متأهب للتصفيق، إلى خطبة تعميد الأمير هاينرش على متن سفينة جلالته «كولومبس»، وانسل خلسةً من الجمع بعد التدشين الناجح للسفينة، مغادراً مكان الحفل بثياب كانت مبللة إلى حد ما، فاستقل في اليوم التالي - وهنا تلتقي رواية الإنقاذ الأوّلى بالرواية الثانية - استقل باخرة إغريقية شهيرة وسيئة السمعة، ثم اختبأ في زاوية ما.

ومن أجل إتمام الموضوع، فإنني سأذكر الأسطورة التالية التي أشاعت بأنّ جدّي انساب مع التيار على جذع شجرة طاف حتى بلغ عرض البحر، فانتشله صيادون من محلّة «بونزاك»، وسلموه إلى قارب بحري سويديّ خارج المياه الإقليمية، ومن هناك جعلته الأسطورة نفسها يستعيد عافيته ببطء وبصورة مدهشة على أرض السويد، ليواصل رحلته إلى مالمو، إلى آخره. . .لكن ذلك الكلام كلّه كان مجرد هراء وثرثرة حريّة بصيادي الأسماك.

لذلك فإنني لا أعير أدنى قيمة لأقوال أولئك الشهود غير الجديرين بالثقة والمنتشرين في موانئ المدن الساحلية، والذين ادعوا بأنهم رأوا جدّي في «بوفالو»، بالولايات المتحدة الأمريكية، عقب الحرب العالمية الأوّلى بفترة قصيرة، وأنّه أطلق على نفسه اسم جو كوجك؛ وجعل المتقولون تجارة الأخشاب مهنةً له، كما أنه يمتلك، حسب الادعاء، أسهماً مالية في مصانع الكبريت وعيدان الثقّاب، وأنّه صار أحد المقربين من شركات التأمين ضد الحرائق، وأصبح رجلاً ثريّاً فاحش الثراء، ومعزولاً، يقبع وراء مكتبه في إحدى ناطحات السحاب، ويضع في أصابعه كلّها خواتم مطعّمة بالأحجار الكريمة الوهّاجة، ويتمرن مع حرّاسه الشخصيين الذين يرتدون قيافات رجال الإطفاء، ويجيدون الغناء باللغة البولندية، ويطلقون على أنفسهم لقب «حرّاس العنقاء».

الفراشة والمصباح

كان هناك رجل قد ترك كلّ شيء وراءه، وقطع البحار العظيمة، وحطّ ركابه في أمريكا، فأصبح ثريّاً. وإنني أودّ الآن الاكتفاء بهذا القدر من الحديث عن جدّي، بغض النظر عمّا إذا كان قد لقّب نفسه بغولياجك باللغة البولندية، أو كولياجك باللسان الكاشوبي، أو جو كوجك بالصيغة الأمريكية. فمن الصعب جدّاً النقر على طبل من الصفيح بسيط للغاية، يمكن الحصول عليه في أي محلّ للعب الأطفال، أو في أي متجر، والطواف به فوق الناقلات المنتشرة على امتداد النهر حتى الأفق البعيد؛ ومع ذلك فقد تمكنت من قرع الطبل في موانئ الأخشاب والألواح العائمة، متجولاً حول الشواطئ، مقلّباً قصب البردي، حتى وصلت، وبجهد يسير، إلى أجزاء السفن والمراكب التي لم يكتمل بناؤها بعد في منشأة «شيشاو»، ومن ثم مصنع «كلافيت» للسفن، وكذلك ورش تصليح الزوارق، ومستودع خردة الحديد في مصنع عربات القطارات، ومخازن جوز الهند العطنة الرائحة التابعة لمعمل الزيوت، وجميع الأركان والمخابئ المعروفة لي فوق جزيرة العنابر والمستودعات.

لقد فارق جدّي الحياة، فلم يعد يجاوبني، أو يظهر اهتماماً بالتدشين القيصري للسفن الجديدة، أو بغرق سفينة بدأ بتدشينها واستمر عشرة أعوام، سفينة تدعى في هذه الحالة «كولومبس» والتي كان يطلق عليها لقب «مفخرة الأسطول»، تلك السفينة التي أبحرت بكلّ بداهة صوب أمريكا، وتمّ إغراقها فيما بعد، أو أنها هي التي أغرقت نفسها بنفسها، ولعلها انتُشِلتْ من جديد وأعيد بناؤها وعُمدت ثانية، أو تحوّلت إلى خردة من

حديد. ومن المحتمل أيضاً إنها طفت مرّة أخرى على السطح، تلك السفينة التي كان اسمها «كولومبس»، مقلدةً جدّي، وربّما إنها تتجول اليوم بأطنانها الأربعين ألفاً، وصالة تدخينها، وقاعة التمارين الرياضية المنحوتة من المرمر، وحوض السباحة، وقمرات التدليك؛ دعونا نقول إنّها تتجول في عمق ستة آلاف متر عند منخفض الفليبين، أو في خليج «أمدنتيف»، كما أنّ من الممكن الإطلاع على هذه التفاصيل في كتاب «فاير» عن الأساطيل، أو في تقويم الأساطيل - أظنّ أنّ «كولومبس» الأولى أو الثانية قد أغرقت نفسها بنفسها؛ لأنّ القبطان لم يعد راغباً في مواصلة الحياة، بسبب حالة العار التي أسفرت عنها الحرب.

لقد قرأت على برونو جزءاً من حكاية الرّمث، ثم طرحت عليه سؤالاً، طالباً منه الإجابة عنه بموضوعية؛ فقال بحماس: «إنّه لموت رائع!» وعاجل فوراً إلى تحويل جدّي الغريق إلى توليفة من الأشكال المعقودة التي كان يركبها من شرائط الهدايا. فكان عليّ أن أقتنع بإجابته وأن لا أهاجر إلى أمريكا مترصداً ميراث الجدّ.

اليوم زارني صديقاي كليب وفيتلار. وجلب كليب معه أسطوانة جاز تتضمن مقطوعتين لكنغ أوليفر، وناولني فيتلار بتكلّف (قلباً) من الشيكولاتة معلّقاً بشريط ورديّ، ثم أخذا يعبثان ويقلدان مشاهد من قضية محاكمتي، فتظاهرت أمامها بالارتياح وخلو البال من الهمّ والغمّ، لكي أدخل الفرح إلى قلبيهما، مثلما أفعل عادة في أيّام الزيارات، معلناً عن استعدادي لتلقي أكثر النكات سخفاً بالقهقهة. وقبل أن يلقي كِلِيب محاضرته المحتمة حول علاقة موسيقى الجاز بالماركسية، بدأت أقصّ، وبخفية تامة، حكاية رجل اندس ذات مرّة تحت ناقلة خشبية عملاقة بشكل مهول، وقد حدث ذلك في العام الثالث عشر، أي قبل فترة قصيرة من اندلاع الحرب؛ لكن الرجل لم يظهر على السطح ثانية، وكذلك لم يتم العثور على جثته قطّ.

ورداً على سؤال غير متكلّف طرحه بضجر شديد، أدار كِلِيب باستياء رأسه المعقود إلى رقبته الكثيرة الشحم، وفكّ أزراره ثم أطبقها من جديد،

وصار يقلّد حركات السباحة، ففعل ذلك كما لو أنه نفسه اندس تحت طوّافة خشبية. وأخيراً نفض يده عن سؤالي، وألقى بذنب التخلّي عن الإجابة على المساء المبكر. وبدا فيتلار في جلسته مثابراً تماماً، واضعاً ساقاً على ساق، حذراً من أن تتكسر ثنيات سرواله، مستعرضاً نمطاً من السخرية الهجينة الشديد النعومة والسخرية بملائكة السماء: «إنني موجود الآن على ظهر الناقلة. والجو أصبح رائعاً جدّاً على سطح الناقلة، فصار البعوض يقرصني. إنه إذاً لأمر جيّد عندما أكون تحت الناقلة، حيث لا يقرصني البعوض، وهذا أمر مريح للغاية. وأعتقد أن الحياة ممكنة تحت الناقلة، إذا لم يكن المرء راغباً في البقاء على سطحها لينهشه البعوض.»

وتوقف فيتلار عن الكلام توقفاً عتيداً أثبتت التجربة الطويلة فعاليته، وتفحصني بنظرة، ثم رفع حاجبيه اللذين كانا مرفوعين أصلاً بالفطرة، لكي يبدو مظهره شبيهاً بمظهر طائر البوم، وقال مشدداً على عباراته بشكل مسرحي: «إنني أفترض أن الغريق، أي الرجل الذي انزلق تحت الناقلة، هو شقيق جدك، إن لم يكن جدك نفسه. ولأنه كان يشعر بالمسؤولية إزاءك باعتباره شقيق جدك، أو جدك بصورة أوضح؛ فإنه لاقى حتفه؛ إذ ليس هناك شيء أشد بغضاً إليك من أنّ يكون لك جدّ حي. وعليه فإنك لست فقط قاتل شقيق جدّك، بل قاتل جدّك نفسه! ولأنّه أراد أنّ يعاقبك قليلاً، مثلما يفعل كلّ جدّ حقيقي، فإنه لم يخلّف لك ما من شأنه أن يدخل البهجة إلى قلوب الأحفاد، بحيث يجعلك تقف على الجثّة الغريقة المتفسخة والمترهلة، لتشير أليها بفخر واعتزاز، ثم تستخدم كلمات مثل: انظروا إلى جدي الميّت! لقد كان بطلاً حقّاً؛ فاقتحم الماء عندما كانوا يطاردونه. لقد اختلس جدّك الجثّة من العالم ومن الحفيد معاً، لكي ينشغل به الحفيد والأجيال القادمة زمناً طويلاً.» وبعد ذلك ينقلب فيتلار الطبيعي إلى فيتلار الماكر المنحني قليلاً إلى الأمام، موحياً بنزعة المصالحة، قافزاً من نبرة مسرحية مصطنعة إلى أخرى: «إنها أمريكا، فكن فرحاً يا أوسكار! لقد أصبح لك هدفاً في الحياة، ومهمة. وسيحكمون عليك هنا بالبراءة وسيطلقون سراحك؛ فإلى أين ستذهب إن لم تذهب إلى

أمريكا، حيث يستطيع المرء العثور على كلّ شيء مرّة أخرى، بما في ذلك الجدّ المفقود!»

ومهما غرقت إجابة فيتلار بالتجريح والتهكم المرّير، فإنها كانت تمنحني ثقة أكبر بكثير من تبرم كلِيب الضبابي العائم والذي لا يفرق بين الموت والحياة، وكذلك أفضل من إجابة الممرض الذي أطلق صفة الرائع على موت جدّي، لسبب واحد ليس إلا، وهو أن SMS كولومبس قد دُشّنت بعد رحيله بفترة وجيزة، وغمرتها الأمواج. حينئذ امتدحتُ أمريكا فيتلار المحافظة على الأجداد، أمريكا، ذلك الهدف المكتسب سلفاً، والمثل الأعلى الذي يجب أن أضعه نصب عيني إذا ما ألقيت بالطبل وريشة الكتابة جانباً ذات يوم ضجراً بأوروبا: «عليك أن تواصل الكتابة يا أوسكار! أفعل ذلك من أجل جدك كولياجك الثري والمتعب في آن، والذي يشتغل الآن في تجارة الأخشاب ويعبث بعيدان الثقّاب في جوف إحدى ناطحات السحاب!»

حالما ودعني كلِيب وفيتلار، منصرفين أخيراً، قام برونو بطرد رائحة الصديقين المزعجة من الغرفة عبر عملية تهوية فعّالة ومؤثرة. بعد ذلك تناولت طبلي وطبلّت، ليس لأخشاب الناقلات التي كانت تطبق على الموت، إنما عزفت ذلك الإيقاع السريع الشديد التبدل الذي لابد أن ينصت له جميع الناس في شهر أغسطس من العام الرابع عشر، ولهذا فمن الصعب عليّ أن أتفادى هنا، في هذا النصّ، وصف ذلك الطريق وصفاً أوليّاً تلميحياً على الأقل، قبل الوصول إلى ساعة ولادتي، ذلك الذي كانت تقطعه جموع المشيعين المفجوعين الذين خلّفهم جدي وراءه في أوروبا. فبعدما اختفى كولياجك تحت الناقلة اجتاح الخوف والقلق جدتي وابنتها آغنس وفنسنت برونسكي وابنه يان ذا التسعة عشر عاماً والذين بقوا بين أهالي الملاّحين وأقربائهم عند جسر المرسى التابع لورشة النجارة.

كان غريغور كولياجك، الشقيق الأكبر ليوزيف، والذي استدعي أيضاً للتحقيق والاستجواب، يقف بعيداً عن تلك التطورات. غريغور هذا الذي لم تكن لديه سوى إجابة واحدة مستعد لترديدها أمام الشرطة كلّ مرّة:

«إنني أكاد لا أعرف شيئاً عن شقيقي. بل إنني لا أعرف في الحقيقة سوى أن اسمه يوزيف، فعندما رأيته لآخر مرّة كان في العاشرة، أو في الثانية عشرة من عمره. وكان ينظف حذائي ويجلب لي البيرة، إذا ما رغبتُ، أو أمي، في شرب البيرة.»

إن إجابة غريغور كولياجك لم تنفع الشرطة شيئاً، حتى لو كانت والدة جدّي عاشقةً للبيرة حقّاً، لكنّ وجود كولياجك الأكبر قد نفع جدّتي كثيراً. فبقي غريغور الذي أمضى شطراً من حياته في «شتيتين» وبرلين وأخيراً في «شنايدهمول» في غدانسك وعثر على عمل في مطحنة بارود «القلعة»، وبعد انتهاء مهلة العام، وإيداع الأمور المعقدة التي ترتبت عن زواج جدّتي من فرانكا المزيّف أضابير الشرطة وملفاتها، عقد غريغور قرانه على جدّتي التي لم ترغب في التخلي عن آل كولياجك، ولعلها لم تسرع في زواجها الثاني لو لم يكن غريغور كولياجيكيّاً. وهكذا صان العمل في مطحنة البارود غريغور من مغبة الثوب الملوّن الذي كان يلحق دائماً بالثوب الرمادي الكالح.

وأقام الزوجان ومعهم أمّي في الدار نفسها ذات الغرفة ونصف الغرفة والتي كانت ملاذاً لمشعل الحرائق أعواماً طويلة. واتضح آنذاك بأنّ الرجلين كولياجك لايشبهان بعضهما البعض بالضرورة، فبعد أقل من عام على الزواج اضطرت جدتي إلى تأجير الدكان الذي فرغ للتوّ في قبو الدار في ترويل، لتعرض فيه جميع الحاجيات القابلة للبيع من الدبّوس إلى الكرنب، لتحصل على بعض النقود؛ لأن غريغور الذي كان يتقاضى في الحقيقة أجراً كبيراً، لم يجلب إلى الدار ما هو ضروري للعيش، إنما كان ينفق ماله على الشرب. وبينما كان غريغور معاقراً للخمر، ربما تحت تأثير والدة جدّي فإن جدي يوزيف كان يحتسي بسرور قدحاً صغيراً من الخمر بين الحين والآخر. ولم يشرب غريغور الخمر بسبب الحزن، بل كان يشربه حتى في حالات فرحه النادرة؛ ولأنّه كان يميل دوماً إلى الكآبة والانطواء فقد كان يعبّ الخمر ليس بتأثير الفرح وحده. فقد أحبّ الشرب أيضاً لأنه كان يحب الوصول إلى قاع الأمور كلها وإلى قرارها، بما فيها

الخمر، ولم يشهد أحد أنه رأى غريغور كولياجك تخلّى طوال حياته عن ثمالة قدح واحد من عرق العَرْعَرْ.

آنذاك أظهرت أمّي ذات الخمسة عشر عاماً والممتلئة بعض الشيء، أظهرت نفسها باعتبارها فتاةً نافعةً، فكانت تساعد أمّها في الدكان، فتلصق الأسعار على المواد الغذائية وتوزع البضاعة على الزبائن أيّام السبت وتكتب إنذارات خالية من اللباقة، لكنها مليئة بالفنطازيا، لكي تدفع المقترضين المقصرين إلى التعجيل في تسديد ديونهم.

ومما يؤسف له إنني لم احتفظ بواحدة من تلك الرسائل المتوعدة المنذرة، فكم سيبدو الأمر ممتعاً لو أنني اقتبست مقطعاً من صرخات الاستغاثة الصبيانية تلك التي سطرتها فتاة يتيمة الأبّ في خطابات عنيفة اللهجة؛ إذ أن غريغور كولياجك لم يكن صالحاً لتعويض الأب المفقود تعويضاً كاملاً.

كانت جدتي وابنتها تجدان صعوبة بالغة في إخفاء صندوق الدخل المليء أحياناً بالقطع النقدية النحاسيّة والفضيّة، والمؤلف من طبقتين خفيفتين من الألمنيوم، عن الأنظار الكولياجيكية السوداوية الشديدة الاكتئاب؛ أنظار طحّان البارود الدائم الظمأ. وعقب وفاة غريغور كولياجك في العام السابع عشر، إثر إصابته بالإنفلونزا، ارتفعت نسبة الأرباح التي كان يدرّها دكّان العطارة، لكن ليس إلى حدّ كبير؛ إذ ما الذي كان يمكن أن يباع في العام السابع عشر؟

أمّا الحجرة الصغيرة في الدار والتي ظلّت خالية منذ رحيل طحّان البارود، لأن جدتي لم ترد السكن فيها خشية الجحيم، فقد شغلها يان برونسكي، ابن خال أمّي، ذو العشرين عاماً آنذاك، والذي ترك «بيساو» وأباه، عازماً على تمضية فترة التدريب في دائرة البريد التابعة للمدينة المحلية، بعد نيله شهادة تخرّج جيدة من المدرسة المتوسطة في «كارتهاوز»، لكنه قَدِمَ آنذاك إلى دائرة البريد المركزية في غدانسك رقم ١، ليعدّ نفسه إلى وظيفة إدارية من النوع المتوسط. وبالإضافة إلى حقيبته جلب يان معه طوابع كثيرة إلى بيت خالته. فكان يجمع الطوابع منذ صباه

المبكّر، ولذلك فإن علاقته بالبريد لم تكن مجرد علاقة مهنية، بل شخصية أيضاً، ومتأنية على الدوام.

كان لذلك الفتى النحيف، المحدودب الظهر بعض الشيء، وجه وسيم بيضاوي الشكل، ولأنّه كان وسيماً وذا عينين زرقاوين، فقد شغفت به أمّي ذات السبعة عشر عاماً ووقعت في غرامة. لقد أخضع يان ثلاث مرّات للفحص الطبيّ العسكري، إلا أنه كان يعفى من الخدمة كلّ مرّة، بسبب قامته المعوجة وحالته السيئة على العموم التي انتشرت حولها شتّى الأقاويل، في ذلك الزمن الذي كان يساق فيه الأصحّاء ذويّ القامة المستقيمة إلى ناحية «فردان»، حيث كانت أجسادهم تمهد هناك في التراب الفرنسي على نحو أفقي.

كان على المغازلات أن تبدأ في الواقع أثناء التفرّج على ألبومات الطوابع، أي أثناء مقارنة الرؤوس المسننة للنسخ النادرة الثمينة، غير أنها بدأت، أو جاءت بالأحرى، إثر استدعاء يان للفحص الطبيّ للمرّة الرابعة. فرافقته أمّي التي أرادت المرور بالمدينة لحاجة ما، وانتظرته أمام مبنى القيادة العامة للمنطقة،حيث وقفت إلى جانب قمرة الحراسة التابعة للدفاع المدني؛ وكانت متفقةً مع يان على أنه سيساق هذه المرّة إلى فرنسا، ليشفي قفصه الصدري السقيم في هواء ذلك البلد المتخم بالرصاص. وربما أحصت أمّي آنذاك أزرار الحرس المدني مرّات عديدة، وخرجت بنتائج متباينة. وأستطيع أن أتخيّل أزرار أصحاب القيافات العسكرية محسوبةً بطريقة ما، بحيث أنّ الزرّ الذي يحسب في الأخير كان يعني معركة «فردان»، أي أحد هضاب هارتمانسفالير كوبف الكثيرة، أو نهراً صغيراً مثل سوم، أو مارن.

وحين فتح الشاب الظريف المفحوص للمرّة الرابعة بوابة القيادة العامة للمنطقة بعد حوالي ساعة، وهبط درجات السلّم الأمامي متعثراً، طوّق جيد أمي بذراعيه، ثم همس في أذنها مردداً تلك المقولة التي كانت محبوبة آنذاك: «لا مؤخرة ولا عنق، سنة كاملة إلى الوراء!»

فحضنت أمّي يان برونسكي لأوّل مرّة في حياتها، ولا أعرف فيما إذا

أخذته في أحضانها بسعادة غامرة بعد ذلك مثلما فعلت في تلك اللحظات.

إنني لم أطلع في الواقع على تفاصيل علاقة الحبّ الشابة تلك التي نشأت أبّان الحرب. فقد باع يان جزءاً من مجموعة طوابعه، ليرضي رغبات أمّي المولعة بكلّ ما هو جميل وأنيق وثمين، وفي ذلك الوقت بدأ أيضاً بتدوين يومياته التي فُقدت للأسف الشديد. وبدت جدّتي راضية بتحالف الشاب والفتاة، ذلك التحالف الذي يمكن أن يقال عنه إنه ذهب أبعد بكثير من مجرد صلة القرابة، لأن يان برونسكي سكن في ذلك البيت الصغير في ترويل حتى فترة قصيرة قبل اندلاع الحرب. وقد انتقل من هناك بعدما بات من الصعب إنكار وجود سيّد يدعى ماتسرات، وهو الوجود الذي اعترف به حقّا. لابد أن تكون والدتي قد تعرفت على ذلك السيّد أثناء خدمتها كمساعدة تمريض في المستوصف العسكري «سلبرهامر» قرب «أوليفا». كان ألفريد ماتسرات المولود في حوض نهر الراين راقداً في المستوصف إثر إصابته إصابة بالغة بشظية اخترقت فخذه، فأصبح بمرور الوقت محبوباً من قبل المضمدات جميعهن حبّاً مبهجاً جديراً برجل قادم من منطقة الراين؛ ولا يمكن استثناء الممرضة آغنس من ذلك الحبّ. فكان يتكئ على ذراع هذه الممرضة أو تلك، ويعرج في الردهات قبل أن يتماثل للشفاء، وكان يساعد الآنسة آغنس في أعمال المطبخ، لأن قلنسوتها البيضاء كانت متناسقة تماماً مع وجهها المستدير، ولأنّه، بصفته طاهياً متقاعداً، كان قادراً أيضاً على تحويل المشاعر الحسيّة إلى حساء.

بعدما اندمل الجرح بقي ألفريد ماتسرات في غدانسك، حيث عثر فوراً على عمل كوكيل تجاريّ لشركته الرينانية الكبيرة التي كانت تصنع الورق. وحين خفتت حدّة الحرب، بدأت الناس تتسلى بتحضير معاهدات للسلام، من شأنها أن تشكل منطلقاً لحروب قادمة: فتم إعلان قيام الدولة الحرّة في المنطقة المحيطة بمصب «فيستولا»، بدءاً من «فوغلزانغ»، امتداداً بموازة «نوغات» حتى «بيكل»، ومن هناك انحداراً مع «فيستولا» إلى «جاكتاو»، وضمّت من ناحية الشمال مثلثاً يمتد رأسه إلى

«شونفليس»، وقوساً منحنياً يحيط بغابة «ساسكوشينر»، وينتهي ببحيرة «أوتمين» مستغنيةً عن الأراضي الواقعة في «ماترن» و«رامكاو» «وبسياو - جدّتي»، ثم واصلت الدولة الوليدة طريقها حتى «كلاين-كاتس» على بحر البلطيق، ثمّ وضعت تلك الدولة تحت وصاية عصبة الأمم المتحدة. ومُنح إلى بولندا ميناء حرّ في أراضي غدانسك ذاتها، إضافة إلى الرصيف الغربي الذي كان يضم مستودع الذخيرة وإدارة القطارات ودائرة بريد مستقلة في ميدان «هيفيليوس».

وبينما كانت طوابع الدولة الحرّة تمنح الرسائل شعارات ورسومات سفن شراعية بأبهة تتناسب وأبهة المدن التجارية الألمانية، فإن البولنديين كانوا يكتفون بلصق المشاهد الجنائزية على رسائلهم، تلك المشاهد التي تصوّر تواريخ كازيمير وباتوريس.

وقد انتقل يان برونسكي إلى البريد البولندي، فبدا انتقاله تلقائياً وكذلك اختياره لبولندا. فكان هناك الكثير من الناس الذين رأوا في حصول أمّي على الجنسية البولندية سبباً رئيسياً لسلوكها. وفي العام العشرين هَزَمَ مارجالك بيلوزودسكي الجيشَ الأحمر بالقرب من وارسو، وظهرت المعجزة عند نهر فيستولا فاعتبرها الناس من أضراب فنسنت برونسكي من معجزات السيّدة العذراء، في حين اعتبرها الخبراء العسكريون من معجزات الجنرال سيكورسكي، أو الجنرال فايغاند؛ في ذلك العام البولندي الصرف خُطبت أمّي من قبل ماتسرات المحسوب على تبعية الرايخ الألماني. وإنني مازلت مقتنعاً إلى حدّ ما بأن جدتي آنا، شأنها شأن يان، لم تكن متفقة مع تلك الخطوبة، فتخلت عن الدكان، الذي انتعش آنذاك، إلى ابنتها، ورحلت لتقيم مع شقيقها فنسنت في «بيساو»، البولندية، واستلمت إدارة حقول البنجر والبطاطس، مثلما كانت تفعل في العهود ما قبل الكولياجيكية، متيحةً الفرصة لشقيقها الذي حلّت به الرحمة والبركة التحدث إلى ملكة بولندا العذراء ومناجاتها، ومقتنعةً بالتربع بثيابها الأربعة أمام نيران أعشاب البطاطس، متطلعة إلى الأفق الذي مازال يفصل أعمدة التلغراف عن بعضها البعض.

بعدما وقع يان برونسكي على فتاته هدفغ، الكاشوبية الأصل والقادمة من المدينة نفسها، والتي كانت تمتلك حقلاً زراعياً في «راسكو»، وزواجه منها، تحسنت العلاقة بينه وبين أمّي. وقيل إنها قدّمت يان إلى ماتسرات أثناء حفلة راقصة تشبه الحفلات التي يلتقي فيها الناس ببعضهم البعض بمحض الصدفة. وفي الحال أظهر السيّدان، المختلفان في الطبع، والمتفقان في علاقتهما بأمّي، إعجاباً متبادلاً بنفسيهما، على الرغم من أن ماتسرات قد وصف انتقال يان إلى البريد البولندي بلهجة الرينانية العالية النبرة والقاطعة بأنّه تصرف أحمق. ثمّ رقص يان مع أمّي في حين رقص ماتسرات مع هدفغ الخشنة العظام، الضخمة الجسد، والتي كانت نظرتها طافحة مثل نظرة البقرة، فكانت تشيع لدى الحاضرين المحيطين بها اعتقاداً بأنها حبلى على الدوام.

لقد رقصوا مع بعضهم وخلاف بعضهم بعضهاً، فبدا كلّ منهم يفكر أثناء الرقص في الرقصة القادمة، فصاروا يستبقون الإيقاعات في رقصة «الزحزحة»، ويتوقفون في رقصة «الفالس» الإنجليزية، إلى أن استعادوا ثقتهم من خلال رقصة «الجارلس»، بل إنّهم وجدوا في رقصة «الثعلب» متعة حسيّة تقترب من متعة التديّن.

وحين تزّوج ألفريد ماتسرات أمّي في العام الثالث والعشرين، الذي كان يمكن أن يكسو فيه المرء ورق جدران غرفة نومه بثمن علبة ثقّاب، أي بلا ثمن في الواقع، حضر يان شاهداً، أمّا الشاهد الآخر فكان تاجراً لبضاعة المستعمرات ويدعى مولن. وأنا ليس لدي الكثير مما يمكن أن أرويه عن مولن هذا الجدير بالذكر فقط، فهو قد سلّم أمّي وماتسرات متجر بضائع المستعمرات الكاسد والموشك على الإفلاس بفعل كثرة ديون الزبائن، والذي كان يقع في ضاحية لانغفور. فتسلما المتجر في الوقت الذي دخلت فيه العملة الجديدة. وخلال فترة قصيرة تمكنت أمّي التي اكتسبت خبرة ممتازة في التعامل مع الدائنين على اختلاف أصنافهم أثناء إدارتها للدكان في ترويل، لأنّها كانت تتمتع بحسّ تجاريّ وبروح السخرية وسرعة البديهية، نعم، تمكنت من إنعاش المتجر المهمل إلى الحدّ الذي

دفع بماتسرات إلى التخلّي عن وظيفة الوكيل التجاري في صناعة الورق المكتظة آنذاك بالعاملين والتفرّغ للعمل في المتجر.

كان كلّ منهما يتمم الآخر على نحو مدهش، فكان ابن الراين يصل في تعامله مع الوكلاء أو عندما يشتري البضائع من أسواق الجملة إلى القدرات والجهود ذاتها التي كانت تبذلها أمّي في تعاملها من زبائن المتجر. إضافة إلى ذلك جاء حبّ ماتسرات إلى مئزر الطهاة الذي كان صالحاً دائماً للعمل في المطبخ، أي العمل المتضمن غسل الأطباق والأواني أيضاً، مما خفف العبء عن أمّي التي كانت تؤثر الوجبات السريعة. كانت شقّة السكن الملحقة بالمتجر ضيقةً في الواقع ومقسمةً بطريقة سيئة، إلا أنها كانت تعتبر شقّة برجوازية بقدر كاف، مقارنة بالشقّة في ترويل، التي عرفتها عليها من خلال الأحاديث، بحيث أن أمّي لابد أن تكون قد شعرت بارتياح عميق هناك في الأعوام الأوّلى من زواجها.

وفيما عدا الممر الملتوي قليلاً الذي كُدست فيه علب مسحوق الغسيل، كان ثمة مطبخ واسع، امتلأ نصفه كذلك بالبضائع وبعلب الطعام المحفوظ وأكياس الطحين وقطائف الشوفان؛ أمّا غرفة الجلوس ذات النافذتين المطلتين على الشارع والمشرفتين على الحديقة الأمامية الموشاة صيفاً وشتاءً بأصداف بحر البلطيق فقد شكّلت عماد تلك الشقّة في الطابق الأرضي. وإذا ما كان ورق الكساء يشعّ لوناً أحمر خمريّاً، فإن المصطبة المنجدة كانت أرجوانية اللون. وثمة طاولة طعام قابلة للسحب، بأطراف مستديرة، أحاطت بها أربعة كراسي مكسوة بالجلد الأسود، إضافة إلى منضدة تدخين صغيرة متغيرة المكان باستمرار. وكانت تلك الأشياء كلّها تنتصب بقوائمها السوداء فوق سجادة زرقاء، وثمّة هناك ساعة سوداء مذهّبة قائمة بين النافذتين، وبيانو أسود استقر عند المصطبة الأرجوانية، كان قد أستأجر في البدء، ثم سُدد ثمنه بالتقسيط، ومقعد عزف دوّار وضع على جلد طويل الوبر. وفي الجهة المقابلة ثمة بوفية سوداء مشبكة بقضبان بيضاوية صقيلة وأبواب رسمت عليها صور فاكهة قاتمة السواد، نُضدت خلفها الأواني وشراشف السفرة، وقد رُكبت البوفية على دولاب أسود

اللون؛ وكانت هناك فجوة صغيرة بين إناء من البلّور وكأس سباق أخضر ربحه الزوجان في اليانصيب، واكتملت الغرفة، بفضل أمّي وشطارتها، بجهاز راديو ذي لون بنّي.

كانت حجرة النوم مطلية بالدهان الأصفر، وتطلّ على فناء البناية المؤجرة ذات الطوابق الأربعة. أرجو أن تصدقوا إذا قلت لكم إن قبّة سرير القلعة الزوجية كانت زرقاء فاتحة الزرقة، وتحت الضوء الأزرق الخفيف كانت ثمة صورة مؤطرة شفافة الزجاج تمثل مريم المجدلية وهي تكفّر عن ذنوبها في المغارة، شاحبة الجسد، تنفث بحسراتها إلى اليمين نحو الزاوية العليا للصورة، وقد برزت أطرافها العديدة من ناحية الصدر، لدرجة أن المرء كان يضطر كلّ مرّة إلى إحصائها من جديد لاعتقاده بأنها أكثر من عشرة أطراف. وقبالة سرير الزوجية ربضت خزانة الملابس البيضاء بأبوابها المزودة بالمرايا، وعلى شمالها منضدة أدوات الزينة، وعلى يمينها كومودينو ذات سطح من الرخام، وعُلّق تحت السقف مباشرة طبقان من الخزف الصيني، لم يربطا بالقماش مثلما ربطت الأطباق الخزفية الأخرى في غرفة الجلوس، إنما بذراعين من النحاس الأصفر، طبقان من خزف ورديّ تراءت من ورائه المصابيح الصغيرة جليةً للعيان، ناشرةً الضياء في كلّ مكان: هكذا كانت أضواء غرفة النوم.

لقد قرعت طبلي اليوم طوال فترة الضحى، طارحاً عليه الأسئلة، إذ أردت أن أعرف فيما إذا كانت مصابيح غرفة نومنا بأربعين، أم بستين واطاً. ولم تكن تلك المرّة الأوّلى التي طرحت فيها هذا السؤال الجوهري عليّ وعلى طبلي في آن واحد. وكنت غالباً ما أحتاج إلى ساعات طويلة لكي أجد طريقي إلى المصابيح من جديد. ألم يتوجب عليّ كلّ مرّة أن أنسى آلاف الأضواء أثناء دخولي ومغادرتي المنازل الكثيرة التي كنت أبعث فيها اليقظة، أو النوم، من خلال أزرارها الكهربائية المناسبة، لعلّي أخرج، عبر التطبيل الخارق للعادة، من غابة الأجساد الضوئية العادية المألوفة، متلمساً طريقي إلى غرفة نومنا؟

لقد وضعت أمّي في البيت، وعندما جاءتها الآم المخاض كانت تقف

في المتجر، تعبئ السكّر في أكياس الورق الزرقاء ذات نصف الكيلو أو ربعه. وقد تأخرت عملية نقلها إلى مستشفى الولادة، لذلك استدعيت قابلة عجوز كانت تسكن في شارع هيرتا، قريباً من دارنا، والتي لم تعد تمارس مهنتها إلا نادراً؛ فقدمت لنا المساعدة في غرفة النوم لكي ننفصل، أنا وأمّي، عن بعضنا البعض.

إنني أبصرت نور العالم هذا في هيئة مصباحين كلّ واحد منهما بقوّة ستين واطاً. لذلك فإن نصّ الكتاب المقدس يحضرني الآن: «أمر الربّ بالضوء فجاء»، تماماً مثلما كانت الدعاية الخطيّة الناجحة لشركة «أوسرام». وما عدا الشرخ الإجباري الذي حدث في الشرج، فإن ولادتي تمت بيسر، فتحررت بسهولة من الوضع الرأسي الذي كثيراً ما امتدحته الأمّهات وخبراء الأجنّة والقابلات على السواء. ودعوني أقول على الفور: إنني كنت من الأطفال الرضّع المرهفيّ السمع والذين حُسم تطورهم الذهني والروحي منذ الولادة، فلم يعد أمامهم سوى أن يؤكدوا شخصيتهم ويثبتون وجودهم على الدوام. وبمقدار ما كنت متحرراً من جميع شكل من أشكال التأثير عندما كنت جنيناً؛ فإنني لم أصغ قط إلا لنفسي وحدها، مقدراً في الوقت ذاته أهمية اللهو والعبث بسائل الرحم. فكنت أتنصت بحسّ نقديّ إلى التصريحات التلقائية الأوّلى التي كان يطلقها والداي تحت المصابيح. كانت أذنيّ متيقظتين مرهفتين إلى حدّ بعيد، ومهما شُيع عن صغرهما وانثنائهما والتصاق صيوانيهما وظرفهما، فإنهما كانتا تحتفظان لي بكلّ هتاف أو نداء مهم يطرح نفسه بصفته انطباعاً أوليّا. بل أكثر من ذلك: لقد كان دماغي الشديد الصغير يحلل كلّ ما كانت تلتقطه أذناي، لأقرر بعدها فيما إذا كنت سأنفذ تلك الفكرة، أو أن أتخلى عنها بالضرورة.

قال السيّد ماتسرات الذي أعتبر نفسه والدي: «إنه ولد، وسيستلم المتجر في المستقبل. أخيراً أصبحنا نعرف لماذا كنّا نكد ونكدح طوال الوقت.» لكن أمّي لم تفكر في المتجر، إنما في تجهيز لوازم ابنها: «كنت أعرف أنه صبي، حتى لو كنت قد صرّحت بعض المرّات بأنني سأنجب

بنتاً.» وهكذا نشأت علاقتي المبكرة بالمنطق النسائي، وكنت سمعت آنذاك كلاماً من وراء ظهري: «إذا بلغ أوسكار سنّ الثالثة فسيحصل على طبل.»

عندما كنت أعقد المقارنات والموازنات بين وعود الأمّ والأبّ وقتاً طويلاً، راقبت خلالها، أنا أوسكار شخصياً، فراشة ليلية ضلّت طريقها إلى الغرفة وكنت أصغي إليها بنفسي. فكانت تحوم، متوسطة الحجم ومشعرة، لتخطب ودّ المصباحين، وتلقي بظلالها على المكان بجميع محتوياته، حتى أنها أطبقت علية بحركات ظليلة مرتجفة، لم تكن تتناسب مع حجم جناحيها وامتدادهما، وأخذت تتحسسه وتجعله واسعا. لم تكن لعبة الضوء والظل أثارت اهتمامي بقدر ما أثاره الصوت الذي كان يتصاعد في المجال الفاصل بين المصباحين وخفق جناحيّ الفراشة. وصارت الفراشة تزبد، كما لو أنها لن تحصل أبداً على فرصة مماثلة في وقت لاحق للتحدث ساعةً إلى الضوء، كما لو أن محاورتها مع المصباح كانت آخر اعتراف لها، ونوعاً من الغفران وزعته اللمبتان، غفران لا يتيح فرصة قطّ للإثم والجنوح.

واليوم فإن أوسكار يقول بسذاجة: إن الفراشة كانت تُطبل. وقد سمعت الأرانب والثعالب والسناجب تطبل. كما أن بإمكان الضفادع جلب الزوابع والأمطار عبر التطبيل. ويقال عن نقّار الخشب إنه يستدرج الديدان من مخابئها بالتطبيل. وأخيراً فإن الإنسان يضرب على النقّارة الضخمة والصنّاجة والرقّ والطبل، ويتحدث عن مسدسات التطبيل ونيرانه، كما أنه يتحدى الإنسان الآخر بالتطبيل، أو يشاركه القرع؛ وكان هذا ما يفعله صبيان التطبيل ومراهقوه. بيد أنّ هناك مؤلفين موسيقيين يدونون النوطات لعازفي الآلات الوترية والإيقاعية، ولعلّي أستطيع هنا التذكير بالمعزوفات الموسيقية الكبرى والصغرى، والإشارة أيضاً إلى محاولات أوسكار حتى ذلك الوقت. وهذا الكلام لم يكن موجهاً إلى عربدة التطبيل التي أقامتها الفراشة الليلية على لمبتين بقوتي ستين واطاً بمناسبة ولادتي. وربّما هناك زنوج في أفريقيا السوداء، أو زنوج يعيشون في أمريكا دون أن ينسوا أفريقيا، وربّما هناك أناس منتظمو الإيقاع يضاهون فراشتي في العزف، أو

يقلدون الفراشات الأفريقية - التي هي عادةً أكبر حجماً وأشدّ فتنةً من فراشات أوروبا الشرقية - أناس يطبلون بجموح صارم وبانتظام أيضاً، لكنني سأحتفظ بمقاييسي الأوروبية الشرقية، متمسكاً بفراشتي الليلية المتوسطة الحجم والمنقطة باللون البنّي والتي حامت ساعة ولادتي، تلك الفراشة التي أعتبرها أستاذة لأوسكار.

وقع ذلك الأمر في الأوّل من سبتمبر: كانت الشمس تقف في برج العذراء، فقدمت الرعود والأعاصير الصيفية المتأخرة من بعيد، واهتزّت لها الصناديق والدواليب في الدار طوال الليل. لقد جعلني عطارد أتمتع ببصيرة نقدية مرهفة، وجعلني الكوكب السابع أتمتع بسرعة الخاطرة، ووهبني كوكب الزهرة نعمة الاقتناع بالسعادة الصغيرة، ودفعني المريخ إلى التمسك بتفوقي والإيمان بطموحي، ثم ارتفع برج الميزان في مواجهة الأفق الشرقي، فصيرني حساساً، وحثني على المبالغة. وحلّ نبتون في مجال الكوكب العاشر، أي برج منتصف العمر، فغرسني بين أرض المعجزة وخيبة الأمل. وكان زحل الذي وقف في مجال الكوكب الثالث قبالة المشتري هو الذي وضع أصلي ونسبي موضع الشكّ والتساؤل. لكن من ذا الذي أرسل الفراشة وسمح لها، وللجلبة التي ولّدتها الرعودُ والأعاصير ذات النكهة التعليمية، أن تُصعدا في ذلك الصيف المتأخر من حدّة الرغبة في اقتناء طبل الصفيح الذي وعدتني به أمّي، وتجعل من تلك الآلة المشتهاة شيئاً ملموساً ومدركاً وسهل الاستعمال؟

وأثناء تظاهري بالصراخ وتصنعي لبراءة الطفل الرضيع الأزرق والأحمر الجلد، توصلت إلى قرار يقوم على رفض اقتراح أبي المتعلق بمتجر بضاعة المستعمرات رفضاً قاطعاً، وتفحصّ الرغبة التي أفصحت عنها أمّي والمتعلقة بعيد ميلادي الثالث بعين الرضا وفي الوقت المناسب أيضاً. وإلى جانب تلك التأملات النظرية المرتبطة بمستقبلي أصبحت متأكداً من أن أمّي ومعها الأبّ ماتسرات لم يتمتعا بالعضو الجسدي اللازم لفهم احتياجاتي وقراراتي، والقبول بها عند الضرورة. وهكذا ظلّ أوسكار راقداً تحت المصباح دون أن يفهمه أحد، متوصلاً إلى نتيجة تفيد بأن الأمر

سيبقى على هذا المنوال خمسين أو ستين عاماً، إلى أن يحدث التماسُ الكهربائيّ الذي يقطع التيّار الكهربائي عن مصدر النور. لهذا السبب بالذات فقدت القابلية على الفرح والنشوة قبل أن تبدأ هذه الحياة تحت ضوء اللمبات، بيد أنّ الطبل الموعود هو الذي منعني من إعطاء فكرة العودة إلى الوضع الجنيني الرأسي أهميةً خاصةً، فضلاً عن أنّ القابلة قد قطعت آنذاك حبل السرّة، فلم يعد هناك في نهاية الأمر ما يمكن القيام به.

ألبوم الصور

إنني أحتفظ إلى اليوم بكنز، كنت أحرسه طيلة الأعوام الشداد التي يتألف منها التقويم اليومي، فأخبئه حيناً وأخرجه حيناً آخر، وأضمه إلى صدري بإجلال أثناء الرحلة بعربة الشحن. وكلما غفوت كان أوسكار نفسه يغفو على كنزه، أي على ألبوم الصور. فما الذي كنت سأفعله بدون هذه المقبرة العائلية التي تجعل كل شيء واضحاً للعيان ومكشوفاً تماماً؟

كان الألبوم يحتوي على مائة وعشرين صفحة، وفي كلّ صفحة لُصقت أربع أو ستّ صور وأحياناً صورتان، وكانت الصور متجاورة أو فوق بعضها البعض بشكل مستطيل، وموزعة بعناية، ومتناظرة في هذه الصفحة وخالية من الانتظام في الأخرى. وكان الألبوم مغلفاً بالجلد، وكلما ازداد عتقاً اشتدت رائحته قوةً. وقد مرّت عهود تعرّض فيها الألبوم إلى العواصف والأعاصير، فتزحزحت الصور من أماكنها، وأصبح وضعها الحائر المضطرب يجبرني أحياناً على البحث عن لحظات الهدوء وعن الفرص المناسبة، لأعيد تلك الصور الموشكة على الضياع إلى وضعها الأصلي. فأيّ شيء في هذا العالم، بل أي رواية، يمكن أن تتمتع بسرد ملحميّ مثلما يتمتع ألبوم الصور؟

كنت أسأل الله العزيز الذي كان يلتقط لنا، نحن الهواة النشيطين في أيّام الآحاد، الصورَ من الأعلى، على نحو مقتضب بشكل مرعب، ليلصق الجيدة والسيئة منها على السواء، أسأله أن يمنحني الثقة ويحميني من هذه الإقامة الطويلة، حتى وأن كانت مغرية، وأن يأخذ بيدي عبر هذا الألبوم، وأن لا يغذي في قلب أوسكار حبّه للمتاهة. إنني أرغب الآن، وبسرور

تام، في إعادة الصور إلى أصولها؛ وثمة ملاحظة في هذا السياق: وكانت هناك قيافات عسكرية مختلفة، إذ أن الموضة كانت تتغير بسرعة آنذاك وكذلك تسريحات الشعر، وكانت أمّي تزداد بدانةً، ويان يزداد خمولاً، وثمة أناس لم أستطع التعرف عليهم، لذلك على المرء أن يقوم بعملية تخمين حول من قام بالتقاط هذه الصورة أو تلك. وفي الأخير وصل الألبوم إلى مرحلة الانحدار، فتحولت الصور الفنية الملتقطة خلال دورة القرن إلى صور استهلاكية كما هو سائد في أيّامنا هذه. فدعونا نأخذ النصب التذكاري الذي مثلته صورة جدّي كولياجك، وصورة صديقي كليب. ويكفي أن نضع بورتريه جدّي المقلّم باللون البنّي إلى جانب صورة كليب المعدة للهوية الشخصية والتي كانت تصرخ بغية الحصول على ختم رسميّ، ليتضح لي المستوى الذي أوصلنا إليه التقدم التقنيّ على صعيد التصوير الفوتوغرافي، فيا لهذه الجعجعة التي جلبها لنا التصوير السريع!

لكن عليّ في الواقع أن أوجه اللوم إلى نفسي أكثر مما أوجهه إلى كليب؛ لأنني ملزم، بصفتي صاحب الألبوم، على المحافظة على مستواه. وإذا ما ازدان بنا الجحيم ذات يوم، فستكمن إحدى وسائل التعذيب في حجز الإنسان العاري وصوره المؤطرة في مكان واحد. وأضيف هنا بصيغة عاطفية وعلى وجه السرعة القولَ: أه منك أيّها الإنسان المنتصب أمام اللقطات الخاطفة وصور جواز السفر؛ أنت أيها الإنسان الواقف أمام الضوء الخاطف لآلة التصوير، والمنتصب باستقامة أمام برج بيزا المائل؛ والقابع في حجرة التصوير والذي يجب أن يصل الضوء إلى أذنه اليمنى دوماً، لكي يصبح جديراً بصورة جواز السفر! والآن أتحدث بصيغة غير عاطفية: ربما سيكون ذلك الجحيم محتملاً، لأنّ الصور البالغة الرداءة قد حُلِمَ بها، لكنها لم تلتقط أبداً، وإن كانت قد التقطت فأنها لم تحمّض.

لقد التقطنا، أنا وكليب، الصور في المرحلة الأوّلى من علاقتنا في يوليشر شتراسه، عندما كنّا نتناول المعكرونة، ثمّ حمضنا الصور وطبعناها هناك أيضا. فكنت حزيناً يومئذ، إذ كان عليّ أن أذهب إلى مكان آخر، لأقدم طلب الحصول على جواز سفر. وبسبب عدم قدرتي على تمويل

رحلة سياحية جيدة إلى روما ونابولي، أو على الأقل رحلة تتضمن زيارةً لباريس، فقد شعرت بفرح لذلك العجز المادي، إذ ليس هناك أكثر حزناً وتعاسةً من القيام برحلة سياحية في وضع ماليّ حرج.

وبما أننا كنّا نمتلك نقوداً كافية للذهاب إلى السينما، فقد زرت أنا وكليب «دور الألعاب الضوئية» التي كانت تعرض فيها أفلام رعاة البقر الأمريكية التي كان كليب يحبها، وأفلاماً كذلك كانت تتناسب مع ذائقتي، حيث ظهرت فيها ماريا شيل ذات مرّة بدور ممرضة أجهشت في البكاء، بينما وقف بطل الفيلم، الذي كان رئيساً للأطباء يعزف سوناتات بيتهوفن على شرفة يمكن رؤيتها من خلال شقّ في الباب، مظهراً قدراً من المسؤولية إزاء ماريا. وكنّا نعاني كثيراً من قصر فترة العرض التي كانت تستغرق ساعتين ليس إلا، بينما كنّا نودّ مشاهدة تلك الأفلام مرتين. فكثيراً ما كنّا ننهض بعد انتهاء الفلم مباشرة، لنقطع بطاقة دخول جديدة من شبّاك التذاكر، لرؤية العرض السينمائي نفسه مرّة ثانية. وكنّا حالما نغادر صالة العرض، ونرى طوابير المنتظرين الكثيرين أو القليلين أمام شبّاك التذاكر، تختفي جرأتنا على الفور. فقد كنّا نخجل ليس فقط من نظرات قاطعةِ التذاكر، إنما من نظرات تلك النماذج البشرية المتوحشة التي كانت تتفحص مظهرنا الخارجي بوقاحة حقيقية، لدرجة أننا لم نكن نجرؤ على الاصطفاف في الطابور ونجعله أكثر طولا. آنذاك كنّا نذهب بعد انتهاء الفلم إلى محل للتصوير بالقرب من ميدان غراف أدولف، لكي نلتقط لأنفسنا صوراً وثائقية. كان الناس هناك يعرفوننا، فيبتسمون لنا حين ندخل الأستوديو ويطلبون منّا بلطف الجلوس أمام آلة التصوير. لقد كنّا زبائن محترمين، وذلك يعني أناساً محترمين. وعندما تصبح حجرة التصوير خالية، تعاجل إحدى الفتيات التي لم أعد أتذكر منها سوى أنها كانت فتاة لطيفة، إلى دفعنا برفق واحداً خلف الآخر، ثم تزحزحنا وتجذبنا من هذه الناحية أو تلك، مبتدئة بكليب، ثم تأمرنا بأن نعتدل في جلستنا وننظر إلى نقطة معينة، حتى يبلّغنا الوميض المرتجف والجرس الصغير المرتبط به بأننا قد تمّ طبعنا على اللوحة الفوتوغرافية ستّ مرّات متتالية.

ومباشرة بعد التصوير، كانت الآنسة تقودنا، ونحن متشنجيّ الأفواه، إلى كرسيين من الخيزران مريحين، وتطلب منا بلطف بالغ - كانت ثيابها لطيفة أيضاً - أن نصبر خمس دقائق، فكنّا ننتظر بسرور؛ لأننا كنّا ننتظر شيئاً ما: ننتظر صورنا التي كنّا متلهفين إلى رؤيتها. وبعد مضي سبع دقائق كانت الآنسة التي لم تزل محافظة على لطفها، والتي لا يمكن أن تنعت إلا بتلك الصفة وحدها، تناولنا كيسين صغيرين، فنسارع إلى تسديد الحساب، فكنت ألاحظ علامات النصر باديةً على عينيّ كليب الجاحظتين. وحالما نحصل على الكيسين كنّا نجد فيهما باعثاً للدخول إلى أوّل حانة لشرب البيرة، إذ ليس هناك من يستطيع تأمل صوره الوثائقية في عرض الشارع المترب وسط الصخب والضجيج، حيث يعرقله تيّار المشاة. ومثلما كنّا أوفياء لمحلّ التصوير، فإننا بقينا أوفياء كذلك إلى الحانة الواقعة في فريدريش شتراسه. وكنّا نضع الصور الرطبة بعض الشيء على حافة الطاولة الخشبية بعدما نوصي على البيرة والخبز الأسمر والسجق النيء المخلوط بالبصل، ونمعن النظر بملامحنا المجهدة ونحن نحتسي البيرة ونلتهم السجق في تلك الحانة التي كانت تلبي الطلبات على الفور.

وكنّا نحمل معنا باستمرار تلك الصور التي كنا التقطناها بمناسبة زيارتنا الأخيرة لدار السينما، وهكذا كانت تتاح لنا فرصة جيدة للمقارنة، وحالما تتاح تلك الفرصة، فإننا نطلب كأساً ثانياً وثالثاً ورابعاً من البيرة، لكي ندخل البهجة إلى أنفسنا، أو لكي نخلق «جوّاً رائقا»، مثلما يقال في لغة أهل الراين.

ومع ذلك، فلا يجوز الادعاء بأن الإنسان المكتئب سيتاح له التخلّص من حزنه وكآبته عبر صوره الوثائقية وحدها، إذ أنّ الحزنَ الحقيقي هو في الواقع حزن غير ماديّ، أو على الأقل مثل حزنيّ وحزن كليب الذي لا يمكن إرجاعه إلى شيء ماديّ ملموس؛ ذلك الحزن الذي برهن، من خلال الانعدام التام لتجسّده الماديّ، على احتفاظه بقوّة هائلة لا تصل إليها المنغصات أبداً. وإذا كانت هناك إمكانية لمداعبة حزننا فإنها لا تمرّ إلا عبر الصور، لأننا كنّا ننظر إلى صورنا المتسلسلة والملتقطة بسرعة،

بالطبع ليس بوضوح ودقّة، إنما، وهذا هو المهم، بسلبية وحيادية تامتين. وكنّا نتصرف بأنفسنا حسبما نشتهي، فنحتسي البيرة ونتعامل بقسوة مع السجق النيء، ونخلق جوّاً رائقاً ونعبث، ونثني الصور ونطويها ونقصها بمقصّ كنّا نحمله معنا لتلك الغاية، ثم نخلط اللقطات القديمة بالجديدة، فنظهر تارة بعين واحدة وطوراً بثلاث أعين، ونضع لأنفسنا أنوفاً بدل الآذان، أو نخترع مشهداً صامتاً، أو مشهداً آخر تحدثنا فيه بآذاننا، أو نبرز الجبين لنتحدى به الذقن؛ وكان كليب يستعير منّي التفاصيل وأنا بدوري كنت استمد منه الملامح والطباع. وعلى هذا المنوال، نجحنا في ابتكار مخلوقات جديدة، وتمنينا أن تكون مخلوقات سعيدة، وأحياناً كان أحدنا يهدي الآخر صورة ما.

كنّا - وهنا أعني نفسي وكليب على وجه الحصر، متخلياً عمداً عن الشخصيات المركبة الأخرى - نهدي صورة ما لنادل حانة البيرة الذي أطلقنا عليه اسم «رودي» الذي كان يرى وجهينا مرّة واحدة في الأسبوع على الأقل.

و«رودي» هذا الذي كان يصلح أن يكون أباً لإثني عشر طفلاً، ووصياً على ثمانية أطفال آخرين، قد عرف احتياجاتنا ومعاناتنا، فتفهمها. فصار يحتفظ بعشرات الصور الملتقطة من الجانب، وبعدد أكبر منها من الصور الملتقطة للوجه. وبدا كلّ مرّة شديد الانشغال منهمكاً، فيقول شكراً بعدما نهديه صوراً كنّا اخترناها بدقة متناهية حدّ اللعنة وبعد مداولات واستشارات مستفيضة.

لم يهد أوسكار في الواقع صورة واحدة أبداً إلى عامل البوفيه، ولا إلى تلك الفتاة الحمراء الشعر التي كانت تتجول حاملةً صندوقاً لبيع السجائر، إذ لا يجوز أن تهدى الصور إلى النساء، لأنّهن سيعبثن بها بلا شك. أمّا كليب الذي لم يكن يتورع، على الرغم من تثاقله، عن التفاخر بنفسه أمام النساء، وعن استعداده لإفشاء أسراره وحماقاته أيضاً بشكل كامل أمامهن؛ فإنه لا بد أن يكون قد أهدى إلى بائعة السجائر صورة دون علمي؛ إذ أنه خطب تلك المخلوقة الجسورة المستهترة المخضرة الوجه،

ثم تزوجها ذات يوم، لأنّه أراد أن يستعيد منها صورته.

لقد استبقت الأمور وأفردت لأوراق الألبوم الأخيرة كثيراً من العبارات. والصور الغبية لا تستحق هذا الاهتمام، إلا من باب المقارنة التي من شأنها الكشف عن عظمة صورة جدّي كولياجك الملتقطة بفنية عالية منقطعة النظير والتي ما زالت إلى اليوم تخلّف أثراً كبيراً في نفسي كلّما تأملت الصفحة الأولى من الألبوم.

كان جدي القصير القامة، مربوعها، يقف إلى جانب طاولة من الخشب المخروط. لكنه، وهذا ما يؤسف له، التقط الصورة بوصفه فرانكا المتطوع في فرقة مكافحة الإطفاء، وليس بصفته مشعل الحرائق، فضلاً عن أنّ الشارب كان يعوزه. بيد أنّ بذلة الإطفائيين المفصلة على جسده بإحكام ودقّة، والتي علق على صدرها نوط الإنقاذ وكذلك خوذة إخماد النيران التي اتخذت من الطاولة مذبحاً كنسياً، قد عوضتا نوعاً ما عن شارب مشعل الحرائق. فكان ينظر بجديّة، مدركاً نهاية القرن، وبدت نظرته الواثقة المترفعة، على الرغم من المأساة التي أتت بها دورة القرن المنصرم، كما لو أنها نظرة مألوفة تماماً ومحبوبة في زمن المملكة القيصرية الثانية، لكنها كشفت عن غريغور كولياجك، طحّان البارود الغريق، الذي كان يبدو صاحياً بعض الشيء في الصور. وثمة لقطة صوفية، لأنها أخذت في «جنستوخاو» تمثل فنسنت برونسكي وهو يمسك بشمعة مقدسة، وصورة أخرى أظهرت يان برونسكي الهزيل البنية أيّام شبابه وقد التقطت بوسائل التصور الفوتوغرافي القديمة، كوثيقة كشفت بوعي عن الرجولة والفحولة المكتئبتين. ونادراً ما كانت نساء ذلك العهد ينجحن في إطلاق نظرة تتناسب مع وقفتهن أمام الكاميرا. وحتى جدتي، آنا نفسها، التي كانت شخصية بحقّ كانت تبدو متمنعة في الصور عشية اندلاع الحرب العالمية الأوّلى، مختفية وراء ابتسامة مصطنعة ومغفلة، لم تتح للرائي أن يستشعر مقدار السعة المانحة الملاذ واللجوء التي انطوت عليها أثوابها الأربعة المردودة على بعضها بصمت وسكون.

وكانت جدّتي تبتسم للمصور الذي أخذ يطقطق بأزرار آلته متراقصاً

تحت الوشاح الأسود. كما أنني شخصياً أدخلت الحياء في نفس ثلاث وعشرين ممرضة، من ضمنهم أميّ، مساعدة التمريض في مستوصف سيبلرهامر العسكري وهن يتدافعن للالتصاق بالطبيب الميداني، ليمنحنهن سنداً ومتكئاً، على ورق من المقوّى يعادل حجمه معايدتيّ بريد، في حين وقفت سيّدات المستوصف بارتخاء في لقطة جماعية كان الغرض منها الاحتفاء بالفساتين، وقد ساهم في ذلك المشهد بعضُ المحاربين المتماثلين للشفاء. وقد تجرأت أمّي على الغمز بعين واحدة، وعلى لمّ شفتيها كما لو أنها أرادت أن تمنح أحداً ما قبلةً، وتقول على الرغم من أجنحتها الملائكية وشعرها المسبل الشديد اللمعان: إنّ الملائكة تتمتع أيضاً بجنس معيّن. لقد اختار ماتسرات الذي جثا على ركبته أمام أمّي زيّاً كان يتمنى في قرارة نفسه لو يجعله لباساً يومياً له؛ فكان يلوّح بملعقة كما يفعل الطهاة، واضعاً على رأسه طاقية الطباخين المنشّاة. غير أنّه بدا على العكس من ذلك في قيافته العسكرية المزينة بنوط الصليب الحديدي من الدرجة الثانية وهو ينظر إلى الأمام باستقامة مثل نظرة كولياجك وبرونسكي، تلك النظرة المأساوية، فبدا متفوقاً على النساء في الصور كلّها. وعقب الحرب أصبحت الوجوه مختلفة ومتباينة، فكان الرجال يطلّون من الصور منهكين إلى حدّ ما، وصارت النساء يدركن سرّ الوقوف في قلب الصورة، فكنّ يتطلعن بجديّة، حتى وإن ابتسمن، فكان ذلك الدافع الأساسي لوقوفهن أمام آلة التصوير؛ لأنهن لم يرغبن في إنكار الألم الذي كان يليق بنساء سنوات العشرينات. أفلم تنجح أولئك النسوة في إقامة صلة بين حالة العذرية وبيع الهوى وهن يجلسن، أو يقفن، أو يضطجعن بمقدار النصف، بخصلات شعرهن الأسود، تلك الخصلات المنحنية على الصدغين انحناء الهلال؟

كانت صورت أمّي التي بلغت آنذاك الثالثة والعشرين عاماً - ربما التقطت قبل الحمل بفترة قصيرة - تكشف عن امرأة شابة، تميل قليلاً برأسها المستدير المرتخي بتناسق على جيدها المكتنز المشدود الأديم، وتحدّق مباشرة بالرائي، مفصحة عن معالمها الحسيّة المجردة بتلك

الابتسامة المنكسرة الآنفة الذكر، وبعينين اعتادتا تأمل أرواح البشر، فضلاً عن روحها، كما لو أنهما كانتا تتأملان جسماً مادياً - بل دعونا نقول صحن فنجان قهوة أو عقب سيجارة، بعينين ضاربتين إلى اللون الرمادي أكثر من الأزرق. وإذا ما عنّ لعبارة (الامتلاء الروحي) أن تكون قاصرة عن الوصف، فإنني سأجعلها هنا صفةً لنظرة أمّي.

ولم تكن الصور الجماعية في ذلك الزمان مثيرة، بيد أنّ من الممكن الحكم والتعليق عليها ببساطة، ومن هذه الزاوية فهي ذات دلالة كبيرة. ومما يثير الدهشة هو أنّ فساتين الزفاف آنذاك بدت أكثر جمالاً وعذريةً مما هي عليه اليوم؛ كان ذلك أثناء التوقيع على معاهدة «رابالو» بين الألمان والسوفيت. وكان ماتسرات يرتدي ياقة منشّاة فوق بذلة زفافه، فبدا وسيماً وأنيقاً ومتعلماً إلى حدّ ما، وهو يقدم ساقه اليمين خطوة إلى الأمام، لعلّه أراد التماهي مع ممثل سينمائي من زمانه، ربّما كان هاري ليتكه. وكانت الثياب قصيرة آنذاك، وكان فستان زفاف أمّي الأبيض العذريّ ذو الثنيات الألف لا يكاد يغطي ركبتيها، فكشف عن ساقيها الممشوقتين وقدميها المتدربتين على الرقص والملمومتين بالحذاء الأبيض ذي الإبزيمات. وفي لقطات أخرى يمكن رؤية ضيوف الزواج وهم يتدافعون. وكان مما يلفت النظر كلّ مرّة هو ذلك المظهر الريفي الصارم والاضطراب الذي نمّ عن ثقة بدت على ملامح جدتي آنا وشقيقها فنسنت المبارك وهما يقفان وسط المدعوين ذوي الملابس والوقفات الحضرية المظهر. أمّا يان برونسكي، الذي كان ينحدر من حقل البطاطس ذاته مثل أمّي وعمته آنا وأبيه الهائم في حبّ السيّدة العذراء المقيمة في ملكوت السماء، فقد عرف كيف يخفي أصله القروي الكاشوبي وراء البريق الاحتفالي لسكرتير في دائرة البريد البولندي. ومهما كان نحيفاً وعليلاً في وقفته بين الأصحاء وشاغلي الأماكن في الصور، فإن عينه غير العادية ووجهه المسطح والمستوي استواءً أنثويّاً كانا يشكلان دائماً، حتى لو وقف في الهامش، بؤرة الجذب والاستقطاب في كلّ صورة.

وقد تمعنت في مجموعة من الصور التقطت بعد مضي فترة وجيزة

على حفلة الزفاف، وعليّ الآن أن أهرع إلى الطبل لأستحضر من خلال عصيّ القرع على الصفيح المطليّ أولئك النجوم الثلاثة المطبوعين على الورق السميك في المربع البنّي. ربما جاءت الفرصة المناسبة لالتقاط هذه الصورة في زاوية ماغدبورغرشتراسه-هيرسأنغر، بمحاذاة بيت الطلبة البولنديين، أي في دار برونسكي؛ حيث أطلت في خلفية الصورة شرفة مشرقة، غُطي نصفها بالنبات المتسلّق على الطريقة التي كانت تزين بها الشرفات في المستوطنات البولندية. وكانت أمّي جالسة بينما وقف ماتسرات ويان برونسكي. لكن كيف كانت جلستها، وكيف وقف الآخران! وكم كنت أحمق عندما صرفت وقتاً طويلاً قمت خلاله باتخاذ القياسات لذلك المجلس الثلاثي بالمسطرة والمثلث والفرجار المدرسي الذي اشتراه لي برونو - لقد عوضت أمّي عن غياب الرجل الثالث في المجلس تعويضاً تاماً. فبدأت أوّل الأمر بقياس زاوية ميل العنق، ثم قست مثلثاً غير متساويّ الأضلاع، فحدث انحراف في المتوازيات، لكن حدث أيضاً تطابق بالإكراه، ورسوم دوائر بالفرجار كان محيطها يلتقي بعيداً تماماً عن خضرة النبات المتسلق، مخلفة نقطةً ما؛ إذ أنني كنت في الواقع أبحث عن نقطة محددة، لأنني كنت مؤمناً بالنقطة ومدمناً عليها، وكنت أسعى بغية الحصول على نقطة ارتكاز واحدة، أو نقطة انطلاق حتى، وأن كانت نقطة تحمل وجهة نظر. لكن لم يتمخض عن هذه القياسات الساذجة البدائية سوى ثقوب صغيرة مزعجة حفرتها بإبرة الفرجار في المواضع المهمة لهذه الصورة النفيسة. فما هي إذاً الخصوصية التي تمتعت بها هذه اللقطة؟ وما الذي دفعني إلى البحث عن علاقات رياضية وكونية تدعو إلى السخرية من هذا المربع، بل إلى إيجادها هناك؟ كانوا ثلاثة: امرأة جالسة ورجلان واقفان: المرأة بالتسريحة المتموجة لشعرها الفاحم السواد، وماتسرات بشعره الأشقر المجعّد ويان بشعره الكستنائي الناعم الممشط إلى الوراء. كان ثلاثتهم يضحكون: حيث ضحك ماتسرات أكثر من برونسكي، فبرز كلّ منهما أسنانه العلوية التي كانت أشدّ قوةً وحضوراً من أسنان أمّي بمقدار خمس مرّات، حيث لم يكن في زاويتيّ فمها سوى أثر

صغير للأسنان، بينما اختفى ذلك الأثر من عينيها. وكان ماتسرات يرخي يده اليسرى على كتف أمّي اليمين، واكتفى يان بملامسة مسند الكرسي بيمناه ملامسةً خفيفةً، وقد حرفت أمّي ركبتيها إلى الشمال، في حين جعلت جسمها مستقيماً اعتباراً من الردفين، ووضعت في حضنها دفتراً، كنت أحسبه لوقت طويل ألبوم طوابع آل برونسكي، ثم ظننته فيما بعد مجلة أزياء، وفي الأخير اعتبرته الكتاب المصوّر لسجائر مشاهير أبطال السينما، فظهرت يداها وكأنهما على وشك أن تتصفحا الكتاب حالما تنار لوحة التصوير فتلتقط الصورة. بدا الثلاثة سعداء، مستأنسين ببعضهم بعضاً ومتأهبين لدرئ الطوارئ التي لا تقع إلا إذا ما خبّأ أحد شركاء الاتحاد الثلاثي أشياءً خاصة، أو تستر عليها منذ البداية. ولم يكن أولئك الثلاثة بحاجة إلى الشخصية الرابعة، أي زوجة يان، هدفغ برونسكي، المولودة باسم «لمكه» والمرجّح أنها كانت حاملاً بشتيفان الذي أنجبته بعد ذلك بفترة قصيرة؛ فلم يكنوا بحاجة إلى الشخصية الرابعة، إلا إذا كانت آلة التصوير موجهة عليهم ثلاثتهم وعلى سعادتهم، لكي يتم على الأقل تسجيل تلك السعادة الاستثنائية المضاعفة التي شعّت من وجوه ثلاثة أشخاص عبر وسائل التصوير الفوتوغرافي.

لقد انتزعت لقطات مربعة أخرى من الألبوم وألصقتها إلى جانب هذه الصورة، وكانت عبارة عن مشاهد لأمّي برفقة ماتسرات، أو يان برونسكي. غير أن التحليل والتحميض الختاميين لم يكنا بارزين في أي صورة من تلك الصور مثل بروزهما في صورة الشرفة. وإذا ما ظهرت أمّي مع يان في صورة فوتوغرافية فإن ذلك يمكن أن يُشمَّ منه رائحةُ مأساة، أو رائحة تنقيب عن الذهب، مغالاة في الوقفة تصل إلى درجة القنوط، ومن ثمّ إلى القنوط نفسه الذي يقود بدوره إلى المغالاة. وإذا ما وقف ماتسرات إلى جانب أمّي؛ فيمكن رؤية الطاقة الجسدية لنهاية الأسبوع، متأرجحةً، تضوع رائحتها، وكذلك يمكن سماع فرقعة شرائح اللحم المحمرة على طريقة فيينا، حين أظهرُ بعض التذمّر من الطعام وبعض التثاؤب بعد تناوله، وحين يكون أحد الحاضرين قد روى نادرة قبل الذهاب إلى الفراش، أو

دوّن السجل الضريبي على الحائط، لكي تتخذ الزيجة خلفيةً فكريةً محددة. ومع ذلك فإنني كنت أفضل لحظات التذمر والضجر البادية في تلك الصور الملتقطة خلال الأعوام اللاحقة والتي كانت تصوّر أمّي جالسة في حضن يان برونسكي قبالة «كواليس أوليفرفالد» بالقرب من «فرويدنتال». لكنّ تلك التصرفات القذرة - كان يان قد أخفى يده ذات مرّة تحت ثياب أمّي - لم تتضمن سوى لحظات العاطفة الجيّاشة لهذين الخليلين التعيسين اللذين كانا يمارسان الخيانة منذ الأيام الأولى لزواج ماتسرات الذي سلّمهما بيدّ المصور المتبلّد الإحساس، حسبما اعتقدت؛ فلم يبق أثر للرزانة أو الحشمة، ولا التلقائية أو الطمأنينة، أو حتى للتلميحات المتعلقة باتخاذ الحيطة والتي كانت جليّة تماماً في صورة الشرفة، تلك التلميحات التي لم يكن لها أن تتحقق عادةً، إلا بعد وقوف الرجلين خلف أمّي، أو إلى جانبها، أو الجلوس تحت قدميها، مثلما كشفت صورة الشاطئ الرملي الملتقطة في مصيف استحمام «هويبوده». انظر الصورة!

كانت هناك أيضاً لقطة مربعة الشكل، عرضت أولئك الأشخاص الثلاثة الذين تركوا تأثيراً عليّ في أعوامي الأوّلى والذين شكلّوا في الصورة مثلثاً غير منقوص، حتى لو كانت الصورة خالية من التركيز؛ فإنها مع ذلك شعّت بالسلام المترع بالشوق والإثارة والذي لا يمكن الاتفاق على بنوده ومن ثمّ التوقيع عليها إلا بين أشخاص ثلاثة. ومن حقّ المرء أن يكيل الشتائم، كما يشتهي، إلى موضوعة المسرح الثلاثية المنظور والأبعاد، لكن ما الذي يفعله شخصان لا ثالث لهما على المنصة أكثر من أن يصدّع أحدهما رأس الآخر بالجدل والنقاش، مشتاقين في السرّ إلى حضور الشخص الثالث، لكنّ أولئك قد اجتمعوا ثلاثتهم في صورتي. كانوا يلعبون الورق، ذلك يعني أنّهم كانوا يحملون الورق بأيديهم كالمراوح اليدوية المضفورة بدقة، لكنهم لم يتطلعوا إلى أوراق «الطرنيب» الرابحة، لكي يكسب أحدهم الجولة، إنما تطلعوا إلى آلة التصوير. كان يان يضع يده على قطع النقود بارتخاء، بحيث لم ترتفع من أصابعه سوى

السبابة وحدها، وكان ماتسرات يضغط بأظافره على غطاء الطاولة، في حين بدت أمّي وكأنها أطلقت نادرة جيّدة. كانت قد سحبت ورقة، لكنها لم تعرضها على اللاعبين، بل على عدسة الكاميرا. فكم كان بسيطاً التأكيد على أحدّ الرموز الملحّة وإثباته عبر إشارة واحد، وهي عرض الورقة التي طبع عليها قلب وبنت أمام العدسة، فمن ذا الذي لا يُقسم بالقلب والبنت!

لم تكن لعبة «الورق»، التي يلعبها عادةً ثلاثة أشخاص، بالنسبة لأمّي وللرجلين أيضاً مجرد لعبة متكافئة تماماً، بل كانت ملاذاً لهم ومرفأً يجتمعون فيه كلّما أرادت الحياة إغرائهم بقبول هذا الوضع أو ذاك الذي يتيح لشخصين إثنين إمكانية الاجتماع دون رقابة الشخص الثالث، ليمارسا لعبة غبية مثل «الخمسة والخمسين»، أو أحد أنواع النرد.

والآن اكتفي بالحديث عن أولئك الثلاثة الذين أتوا بي إلى هذا العالم على الرغم من أنهم لم يكنوا بحاجة إلى شيء جديد. وقبل أن أعرّج إلى الحديث عن نفسي أودّ أن أذكر بكلمة واحدة غريتشن شفلر، صديقة أمّي، والكسندر شفلر، زوجها الخبّاز الأصلع، وغريتشن التي كانت تضحك ملء طقم أسنانها المصنوع نصفه من الذهب والذي يشبه قواطع الفرس. وكان للكسندر ساقان قصيرتان وحين يجلس فإن قدماه لا تمسان البساط قطّ، بينما كانت زوجته ترفل بثيابها المليئة بالنقوش والزخارف التي كانت تطرّزها بنفسها.

كانت هناك صور جمعت بين غريتشن وزوجها وهما مستلقيان على كرسيين للاضطجاع، أو يقفان أمام زوارق الإنقاذ التابعة للباخرة «فيلهلم غوستلوف»، أو سطح السفينة «تاننبيرغ» العائدة إلى الخدمات البحرية في شرق بروسيا. كان آل شفلر يسافران كلّ عام ويجلبان معهما هدايا تذكارية، لم تتضرر على الرغم من طول الرحلة التي قاما بها، يأتون بها من بيلاو والنرويج وجزر الآزور وإيطاليا، فيعودان إلى دارهما في جادة كلاينهمر، حيث كان الزوج يخبز أقراص الخبز والزوجة تطرّز بياضات الوسائد بنماذج تشبه أسنان الفأر. وكان الكسندر إذا ما توقف عن الكلام

يبلل شفته العليا، مما كان يثير امتعاض غريف، بائع الخضر الساكن قبالة دارنا، وصديق ماتسرات، الذي كان يعتبر تصرف الكسندر تصرفاً بذيئاً خالياً من الذوق.

وعلى الرغم من أن غِريف كان متزوجاً، إلا أنه كان قائداً للكشّافة أكثر مما هو زوج. وهناك لقطة كانت تظهره ببدانته وجفافه وعافيته الممتازة وسرواله الكشفي القصير وأربطة القيادة وقبعة الكشّافين. وإلى جانبه وقف في البذلة الكشفية ذاتها صبيٌ في الثالثة عشرة من عمره، أشقر الشعر، واسع العينين، وكان يمسك بيده اليسرى كتف غريف، معرباً عن ودّه له. إنني لم أستطع التعرف شخصياً على هذا الصبي، لكنني تعرفت فيما بعد على غريف هذا بواسطة زوجته لينا فوقعتُ على سرّه.

لقد أضعت نفسي الآن بين هذه اللقطات العاجلة للمسافرين تحت شعار «القوّة عبر السعادة»، ولشهادات الشهوة الكشفية الشديدة الرقة، إذ يجب عليّ أن أقلب بسرعة بضع صفحات لكي أصل إلى نفسي، أي إلى صورتي الفوتوغرافية الأوّلى. فقد كنت بلا شكّ طفلاً جميلاً حين أخذت لي الصورة في عيد العَنْصَرة في العام الخامس والعشرين، في شهري الثامن، أي أكبر بشهرين من شتيفان برونسكي المطبوعة صورته بالحجم ذاته في الصفحة اللاحقة، حيث شعّ وجهه بنمط من العادية غير القابلة للوصف. وكانت هناك بطاقة بريدية ذات حافة متموجة ومخرّمة الطرف بفنية عالية، وقد رسمت خطوط مستقيمة على ظهرها لكتابة العنوان، لعلّها طبعت آنذاك بنسخ كثيرة، لغرض الاستخدام العائلي. كان الجزء المصور من البطاقة المربعة الشكل الكبيرة الحجم يتضمن شكلاً بيضاوياً متناسقاً. كنت عارياً في الصورة، مجسداً صفار البيض تجسيداً حيّاً، وممدداً على بطني فوق فراء أبيض، لا بد أن يكون قد تبرع به أحد الدببة القطبيين لمصور محترف من مصوريّ أوروبا الشرقية المختصين بتصوير الأطفال. ومثلما كان الحال مع صور ذلك الزمان فقد اختاروا لصورتي لوناً بنيّاً دافئاً غير ملتبس، أودّ أن أسميه لوناً إنسانياً، على العكس من الصور السوداء-البيضاء المسطحة واللاإنسانية في أيّامنا هذه. وثمة أوراق خضراء كابية

اللون ومطموسة المعالم إلى حدّ ما، ربما رُسمت رسماً، كانت تمثل الخلفية المعتمة التي خففت عتمتها بضع نقاط من الضوء. وحين كان جسدي السليم يرقد بهدوء سطحي، وفيه انحراف خفيف عن الخط القطري للفراء، مستسلماً للتأثير الذي خلفه موطن الدبّ القطبي في نفسي، فقد كنت أرفع بمشقة رأسي الطفولي المستدير، محدّقاً بعينين ساطعتيّ البريق في كلّ من كان يتطلع إلى عربي. ويمكن أن يدعي المرء أنّ هذه الصورة لا تختلف عن صور الأطفال الأخرى، لكنني أرجو من حضرتكم أن تتأملوا يديّ: لتعترفوا حينئذ بأن مظهري الطفولي المبكر كان يختلف اختلافاً جوهرياً لا يفارق الذاكرة كالأثر المطبوع؛ نعم كان مظهري يختلف عن براعم الزهور اللامعدودة التي أشارت كلّها إلى نمط ظريف من الوجود في جميع الألبومات على اختلاف أنواعها. ويمكن أن يراني المرء بقبضتين مكورتين، إذ لم تكن أصابعي غليظة كالسجق، فتنصاع بفعل النسيان، وكذلك بفعل غريزة لمس غامضة، تدفعني إلى العبث بشعيرات فراء الدبّ القطبي. وكانت قبضتاي الصغيرتان المكورتان بجديّة تحومان حول صدغيّ وتخفقان، ثمّ تهبطان مصدرتين صوتاً، ولكن أي صوت كان ذلك؟ لقد كان صوت الطبل!

فكان الطبل يعوزني يومئذ، لأنني وعدت بالحصول عليه في عيد ميلادي الثالث، وبمناسبة ولادتي تحت المصابيح الكهربائية، لكن سيكون من السهل تماماً بالنسبة لمركّب صور متمرّس أن يلحق بي طبلة أطفال من خلال كليشة صغيرة مناسبة للصورة، دون إجراء أي رتوش على وضعيّ الجسدي، لكن عليه أيضاً أن يبعد عنّي لعبة القماش الغبية التي لم أعرها أدنى اهتمام؛ فهي كانت عبارة عن جسم غريب دخيل على تلك التوليفة الموفقة التي يمكن أن يشتغل عليها المرء باعتبارها موضوعاً ما، مقترناً بسنّ الألمعية والفطنة، ذلك السنّ الذي تنبت فيه الأسنان اللبنية، ومنذ ذلك الوقت لم يقدم أحد على وضعي فوق فراء الدبّ.

ويرجّح أن أكون قد بلغت العام ونصف العام عندما أدخلوني في عربة أطفال كبيرة العجلات، رأيتها تقف آنذاك أمام سياج من الألواح الخشبية

المسننة الرؤوس، وقد رسُم عليها بشكل واضح للعيان طبقةٌ من الثلوج، مما حملني إلى الاعتقاد بأن الصورة تلك التقطت في شهر يناير/ كانون الثاني من العام السادس والعشرين. وجعلتني طريقة عمل السياج البدائية التي أوحت أخشابه برائحة القطران، أرتبط بالضرورة بضاحية «هوخشتيس» التي كانت ثكناتها العسكرية المترامية الأطراف فيما مضي مقرّاً لأفواج الخيّالة «المكنزيين» الذين أصبحوا في زمني شرطة لحماية الدولة الحرّة. وبما أنني لم استطع التعرف على أي شخص كان يقيم في تلك الضاحية المذكورة، فلابد أن تكون تلك الصورة قد التقطت بمناسبة زيارة يتيمة قام بها والداي لبعض الناس الذين لم يعد أحد يراهم فيما بعد، أو يلتقي بهم، إلا بشكل عابر.

ولم يرتد ماتسرات، أو أمّي، اللذين وضعا عربة الأطفال بينهما، معاطفَ شتوية على الرغم من برودة الفصل، بل إنني رأيت أمّي وقد ارتدت بلوزة روسية بأكمام طويلة ومطرزة بنقوش تعطي انطباعاً كما لو أن تلك الصورة الشتوية التقطت لعائلة القيصر في أعماق روسيا، وقد أمسك راسبوتين شخصيّاً بآلة التصوير، وكنت أنا بمثابة ابن القيصر، بينما قبع وراء السياج المناشفة والبلاشفة، ليقرروا، وهم يصنعون القنابل، القضاء على عائلتي المستبدة بالحكم. وكان مظهر ماتسرات البرجوازي الصغير والأوربّي المتوسط الشديد الانضباط، الذي كان ينبئ بمستقبل واعد، مثلما سنرى فيما بعد، يكسر من حدةّ البعد الجنائزي القاسي الذي هيمن على الصورة. كانوا في «هوخشتيس» الضاحية المتطامنة وغادروا منزل المضيّف لفترة قصيرة، دون أن يرتدوا المعاطف الشتوية، فكان والداي قد طلبا من صاحب الدار أن يصوّر أوسكار الصغير في الوسط، حيث تطلع أوسكار بطريقة بعثت على الضحك، حسبما كانوا يشتهون، لكي يرجعوا بعد ذلك، ليتناولوا القهوة والكعك والقشدة بدفء ولذّة وسرور.

كانت هناك دزينة من اللقطات التي أظهرت أوسكار مضطجعاً وجالساً وزاحفاً وماشياً، أظهرت أوسكار وهو في عامه الأوّل وفي عامه الثاني وبعد بلوغه العامين ونصف العام. وكانت اللقطات جيدة إلى هذا القدر أو ذاك،

مشكّلة على العموم الخطوة الأوّلى للصورة الشخصية الكاملة التي التقطت لي بمناسبة عيد ميلادي الثالث.

كنت قد حصلت الطبل، وها هو معلق الآن فوق بطني، جديداً، مسنن الأطراف بالأبيض والأحمر؛ وها أنا أذا أقرع على الصفيح بمطرقتين خشبيتين صغيرتين، أقرع بوعي تام وبملامح مليئة بالجدّ والحزم. وها أنا أذا ارتدي بلوزة مقلّمة وحذاء لامعاً، وقد وقف شعري كالفرشاة التي أدمنت التنظيف، فانعكست في عيني الزرقاوين إرادة السلطة، تلك التي ستدبر أمرها بنفسها دون حاجة إلى أتباع وأنصار. وكنت تمكنت آنذاك من الحصول على منصب لم أر حاجة ماسة للتخلّي عنه، فقررت أن أقول، بل عقدت العزم على أن أكون سياسيّاً في كلّ حال من الأحوال، وليس تاجراً لبضائع المستعمرات، إنما يتوجب عيّ أن أضع نقطة محددة وهي أنني سأبقى كما أنا، محافظاً على حجمي الصغير، ومحتفظاً بهذه اللوازم والتجهيزات بضعة أعوام طويلة قادمة. وبغض النظر عمّا إذا كان هناك لسان بحريّ صغير أو كبيرة وحروف أبجدية صغيرة أو كبيرة وهانس الصغير أو شارلمان الكبير وداود أو العملاق، فإنني بقيت على حال القزم نفسه الذي بلغ طول الإصبع؛ وبقيت ذلك القزم ذا الأعوام الثلاثة والطفل الصغير غير القابل للمدّ أو الإضافة، بغية التحرر من أساليب التفريق التي تقوم بها التعاليم المسيحية كبيرها وصغيرها، حتى لا أكون رجلاً بالغاً يبلغ طوله متراً وواحداً وسبعين سنتمتراً، خاضعاً لنفوذ رجل آخر يطلق على نفسه لقب «أبي» أمام المرآة حيث يحلق ذقنه، ملتزماً بإدارة متجر لبضائع المستعمرات؛ وهو المتجر الذي كان سيعني بنظر أوسكار ذي الواحد والعشرين عاماً عالمَ الكبار البالغين. ولكي لا أضطر إلى العبث بخزانة النقود فقد تمسكت بالطبل، وتوقفت عن النمو منذ عيد ميلادي الثالث، فلم يزدد طولي مقدار إصبع واحد. وكنت في أعوامي الثلاثة متفوقاً بالذكاء مرّات عديدة على أولئك البالغين الذين لا يجوز أن أقيس ظلّي بظلّهم، على الرغم من أنني كنت ناضجاً تماماً وجاهزاً من الداخل والخارج معاً، بينما كان على الآخرين أن يصلوا إلى مرحلة الهذيان بفعل

التطوّر حين يبلغون سنّ الشيخوخة. واتضحت أمامي تجربة الآخرين المريرة الشاقة التي لم يتوصل إليها إلا عبر الألم والمعاناة، فلم أجد ضرورة لارتداء أحذية وسراويل كبيرة الحجم من عام إلى آخر، لأثبت بأن هناك شيئاً ما يواصل النمو.

في تلك الأثناء نما شيء ما - لابد أن يقرّ أوسكار بهذا التطوّر-، شيء لم يكن لمصلحتي كالعادة، بلغ في الأخير حجماً مسيحيّاً هائلا. لكن أي شخص بالغ كان يتمتع في زمني بسمع وبصر جيدين، فيبدي تفهماً لأوسكار ذي الأعوام الثلاثة، أوسكار القارع الدائم لطبل الصفيح؟

زجاج وزجاج محطّم

إذا كنت قد فرغت للتو من وصف صورة أظهرت أوسكار بهيئته الكاملة وطبله ومضربيه الخشبيين، معلناً عن قراراته البالغة النضج إبان اللقطات الفوتوغرافية، بحضور ضيوف عيد الميلاد الذين أحاطوا بالكعكة ذات الشمعات الثلاث؛ فإن عليّ الآن - بعد أن صمت ألبوم الصور الراقد إلى جانبي - التعرضَ إلى تلك الأشياء التي حدثت بفضلي أنا شخصياً، لكنها لم تفسر في الواقع استمرارية وضعي الثابت على الأعوام الثلاثة.

كان واضحاً لي منذ البداية بأن: الكبار سوف يعجزون عن فهمي، فإذا نموتَ أمامهم بشكل مرئي فإنهم يسمونك متخلفاً، ثم يجرجرونك، ومعم نقودهم، إلى الأطباء، ليبحثوا على الأقل عن تفسير لمرضك إذا لم تتماثل للشفاء. ويجب أن أسوق هنا من ناحيتي تعليلاً معقولاً لفقر النمو الجسدي، لاختصر الاستشارات الطبيّة إلى حجم مقبول قبل أن أفسح المجال للطبيب للإدلاء برأيه في هذا الشأن. جاء عيد ميلادي في يوم مشمس من أيّام سبتمبر/ أيلول، فكان ثمة نفخ دقيق في الزجاج، نفخ ما بعد فصل الصيف، طغى حتى على قهقهات السيّدة غريتشن شفلر. كانت أمّي تجلس أمام البيانو، مترنمةً بأغان غجرية؛ وكان يان يقف خلف كرسي العزف، ماساً كتفها، راغباً في دراسة النوتة الموسيقية؛ وكان ماتسرات يجهّز العشاء في المطبخ، وقد اجتمع الكسندر شفلر وهدفغ برونسكي وجدّتي حول غريف، بائع الخضر؛ لأن غريف كان يجيد رواية الحكايات، حكايات الكشّافة، والتي يجب أن يتمتع فيها الإخلاص والشجاعة بالصدق؛ وثمة ساعة كبيرة قائمة، غير متخلية عن أي ربع ساعة

من ذلك اليوم السبتمبريّ المنسوج بدقة متناهية. وبما أنّ الحاضرين كانوا منشغلين كما الساعة بالإصغاء إلى حكاية الكشافين الذين كانوا يجوبون جبال غريف بائع الخصر، تلك الجبال الكثيفة الشجر، منطلقين من بلد الهنغار، مروراً بمطبخ ماتسرات، حيث كان الفطر والبيض والشحم يفرقع في المقلاة، حتى وصلوا إلى المتجر عبر الدهليز؛ فتعقبت مسيرة الهرب تلك بخفة، متجولاً بالطبل، إلى أن وقفت في الدكان خلف طاولة البيع: بعيداً عن البيانو وعن الفطر وعن جبال غريف المشجرة، فلاحظت أن الباب الأرضيّ المؤدي إلى القبو كان مفتوحاً، ولعلّ ماتسرات قد أخرج قبل فترة علبة فاكهة محفوظة ليقدمها تحليةً للضيوف بعد الطعام، فنسي أن يقفل الباب. فاحتجت حينئذ إلى دقيقة تفكير كاملة قبل أن أدرك ما الذي كان يطلبه منّي الباب الأرضيّ المؤدي إلى قبو المخزن، فهو بل شكّ لم يطلب منّي الانتحار، أقسم بالله! لأنّ ذلك الأمر سيكون سهلاً للغاية فعلاً، بيد أنّ الشيء الآخر الذي طالبني به كان صعباً ومؤلماً، يستلزم التضحية، فجعل العرق ينضح من جبيني كما هي العادة دائماً عندما يتوجب عليّ القيام بتضحية ما. وقبل كلّ شيء يجب ألا يصاب الطبل بضرر، إنما لابد أن يبقى سالماً حين أهبط به درجات السلّم الست عشرة، لأضعه بين أكياس الطحين، متحسباً لئلا يصاب بضرر، ثم أصعد من هناك الدرجة الثامنة، كلا، إنما أقل منها بواحدة، أو ربّما تكون الدرجة الخامسة كافية. لكن من الصعب أن يجتمع الأمن والسلامة والضرر المحدق من ذلك الارتفاع. فأردت الصعود إلى الدرجة العاشرة، وفي التاسعة أسقطت رفّاً مليئاً بزجاجات مربى التوت، فسقطت أنا على رأسي فوق الأرضية الإسمنتية لقبو المخزن. وقبل أن أردّ الستارة على إدراكي ووعيّ تأكدت من نجاح التجربة: لقد أصدرت زجاجات مربى التوت التي جذبتها معي عمداً صوتاً عالياً، كان كافياً لاستدراج ماتسرات من المطبخ ومعه أمّي من آلة البيانو، وبقية ضيوف عيد الميلاد من رحلتهم الكشفية الجبلية، فهرعوا إلى الدكان ومن ثمّ إلى الباب الأرضيّ، حيث هبطوا السلّم. وقبل أن يصلوا إليّ جعلت مربى التوت يترك أثراً، فتيقنت بأن الدم سال من رأسي

أيضاً، وفكّرت عندما كانوا فوق السلّم فيما إذا كان التوت حلو المذاق، أم أنّ دم أوسكار، وأيهما جعلني متعباً، لكنني، مع ذلك، كنت سعيداً بأن كلّ شيء تمّ بنجاح وأن الطبل لم يصب بعطب بفضل احتراسي.

أعتقد أن غريف هو الذي حملني إلى الأعلى، حيث أستيقظ أوسكار في غرفة الجلوس وأطل من الغمامة التي كان نصفها من مربى التوت ونصفها الآخر من دمه الطفولي. ولم يكن الطبيب قد حضر بعد، فصرخت أمّي وضربت ماتسرات الذي أراد أن يهدأ من روعها، ضربته عدّة مرّات، ليس بكفها وحسب، بل بظاهر يدها أيضاً، وزعقت به ناعتةً إياه بالقاتل. كنت قدّمت بسقطتي الوحيدة تلك - وذلك ما أكده الأطباء كلّ مرّة من جديد - تلك السقطة التي لم تكن خفيفة، لكنني قدرت شدتها بنفسي، قدّمت ليس فقط تعليلاً وافياً لتفسير توقف النمو، إنما تعدى الأمر ذلك، وهذا لم يكن بإرادتي، إلى حدّ توجيه الاتهام إلى ماتسرات المسكين الطيّب القلب؛ إذ أنه ترك الباب الأرضيّ مفتوحاً، فحملته أمّي الذنب كاملاً، وبذلك أتيحت له الفرصة لتحمل الذنب أعواماً طويلة. فأخذت أمّي تتهمه بقسوة حتى وأن كانت الاتهامات لم تصل إليه دائماً. ومنحني السقوط إقامة أربعة أسابيع في المستشفى ووفر عليّ نوعاً ما فحوصات الأطباء، ما عدا فحوصات الدكتور هولاتس في أيّام الأربعاء. وبمناسبة التطبيل الأوّل تمكنت من إعطاء العالم إشارة ما، فاتضحت حالتي الصحية، قبل أن يدرك الكبار الوضع الحقيقي الذي كنت خلقته بنفسي. ومنذ ذلك الوقت كان يقال دوماً: إن صغيرنا أوسكار سقط من سلّم القبو، فبقيت أعضاؤه كلها سليمة، لكنه توقف عن النمو.

بدأت آنذاك بقرع الطبل، وكان بيتنا المؤجر يقع في بناية تتألف من أربعة طوابق، فكنت أطبّل البناية، من الطابق الأرضي إلى السقف، طلوعاً وهبوطاً، ومن لابسفيغ إلى ميدان ماكس هالبه، ومن هناك إلى محلة اسكتلندا الجديدة وجادة أنتون-مولر مارين شتراسه وحديقة كلاينهمر والبُركة فمصنع البيرة فحقول فروبل ومدرسة بستالوتسي ونويه ماركت، ومن ثم أعود مرّة أخرى إلى لابسفيغ. فكان طبلي يتحمل ذلك الجهد

كلّه، بينما كان الكبار يظهرون قليلاً من التحمل، راغبين في أن تطغي أصواتهم على صوت الطبل، والتصدي من ثمّة إلى صفيحة التطبيل واعتراض طريقها ووضع أقدامهم عثرة أمام مضربيّ الطبل - لكن الطبيعة منّت عليّ بالحماية اللازمة.

لقد تجلّت القدرة على خلق مسافة ضرورية بيني وبين البالغين من خلال التطبيل بطبل الصفيح الطفولي. نعم، تجلّت تلك القدرة عقب فترة قصيرة على سقوطي من سلّم القبو، وجاءت في وقت واحد مع حدّة الصوت التي مكنتي من الغناء المتواصل والمتهدج والقوي الذبذبة والمرتفع الطبقة، ومن الصراخ، أو الغناء بالصراخ، بحيث لم يستطع أحد قد أضرّ الطبل أذنيه انتزاعه من يدي عنوةً. وإذا ما انتزعه أحد من يدي فإنني كنت أصرخ، وإذا ما صرخت فإن كل ما هو نفيس كان يتحطم: إذ كنت قادراً على تحطيم الزجاج بالغناء، فكان صراخي يميت المزهريات، ويجعل زجاج النوافذ يكبو على ركبتيه كسيراً مندحراً، ويتيح لتيّار الهواء أن يسود، وكان صوتي الذي يشبه الماس الخجول، الصارم في آن بسبب خجله، فيقصّ الواجهات الزجاجية ويجوس في أعماقها دون أن يفقد براءته، ويعبث بأقداح الخمرة الحلوة، تلك الأقداح المتناغمة التكوين، المهذبة الطول، المتربة بعض الشيء والتي كانت قد أهدتها يد كريمة ذات يوم.

ولم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً حتى باتت قدراتي ومواهبي معروفة في شارعنا من جادة «بروزن» إلى مساكن ساحة الطيران، أي في منطقة المربع برمتها. وكلّما رآني أطفال الجيران الذين لم أكن أشاركهم ألعابهم مثل «علبة السردين الحامضة، واحد، أثنين، ثلاثة»، أو «الطاهية السوداء؛ أهي هنا؟» أو «أنا أرى ما لا تراه أنت»، كانت ينطلق حينئذ زعيق جوقة كاملة متسخة الثياب مردداً:

«زجاج، زجاج محطّم،
سكّر بلا بيرة،
والسيّدة هوله تفتح النافذة،
ثمّ تعزف على البيانو.»

بالتأكيد كانت هذه أنشودة أطفال تافهة، ساذجة، فلم أشعر بامتعاض إزاءها عندما كنت اخترق الجوقة بطبلي، ماراً بالزجاج وبالسيّدة هوله، مردداً الإيقاع البليد ذاته، الذي لم يكن خالياً من الإثارة، مطبّلاً (زجاج، زجاج، زجيّج محطّم)، دون أن أتحوّل إلى «قنّاص الفئران» الذي كان يضلل الأطفال فيستدرجهم وراءه.

واليوم أيضاً، عندما يقوم برونو بتنظيف نوافذ غرفتي، تراني أسارع إلى توفير مكان صغير لتلك الأنشودة ولإيقاع طبلي. بيد أن القضية الباهظة التكاليف، الأكثر إزعاجاً وقلقاً بالنسبة لوالديّ من الأنشودة الساخرة لأطفال الجيران، هي أن الناس يحملونني، أو على الأرجح يحملون صوتي، مسؤولية تحطيم زجاج النوافذ في منطقتنا، والتي كان تحطيمها يعود في الحقيقة إلى المشاكسين العابثين ذوي التربية السيئة.

كانت أميّ في بداية الأمر تعوّض الأضرار النامة غالباً عن قذف نوافذ المطابخ وتحطيم زجاجها بأحجار المصائد المطاطية؛ فكانت تدفع التعويضات بأدب جمّ وبأمانة، إلى أن انتبهت في الأخير إلى ظاهرة صوتي أيضاً، فصارت تطالب بتقديم الأدلة والبراهين على كلّ طلب للتعويضات، مظهرةً كلّ مرّة موضوعيةً صارمة، مشعّةً من عينيها الرماديتين الباردتين. لقد اتهمني الجيران ظلماً وبهتاناً، إذ لم تكن هناك دعوى جوفاء أكثر عبثاً من تلك التي قالت بأنني أمتلك نزعة تحطيم طفولية؛ لأنني كنت أرى الزجاج ومنتجاته جديراً بالكراهية بشكل عصيّ التفسير، مثلما كان الأطفال يعبرون عن غضبهم المنفلت والمدمر والمرتجل. فليس هناك من يقوم بأعمال التخريب إلا من كان يعبث، لكنني لم أكن عابثاً، بل كنت أشتغل على الطبل. أمّا فيما يتعلق بصوتي؛ فإنه لا يستجيب إلا لنزعة الدفاع الذاتي المحض. كان الخوف والقلق هما اللذان دفعاني إلى استخدام أوتار حنجرتي استخداماً هادفاً. فلو أتيحت لي إمكانية تمزيق شراشف الطاولات المملة والمطرزة بالطول والعرض والمنبثقة من فنطازية النماذج التي كانت تجود بها مخيلة غريتشن شفلر، أو إزالة الطلاء المعتم لآلة البيانو بواسطة الأصوات والوسائل المشابهة، لكنت تخليت عن كلّ ما هو زجاجيّ،

ولتركته سليماً برنينه. إلا أن الأصباغ وشراشف الطاولات بقيت بعيدة عن اهتمامات صوتي.

إنني لم أتمكن بصراخي الذي لا يكلّ من إزاحة نماذج كساء الحيطان، أو إشعال النار من خلال الحرارة المتولدة بفعل احتكاك أصوات شاقة وقديمة قدم العصر الحجري، لكي أصنع منها في آخر المطاف شرراً يكون ضرورياً لإشعال الستائر المشبعة برائحة التبغ والجافة لدرجة تغري بحرقها، وجعلها تتراقص في نوافذ غرفة الجلوس بلهب مزخرف أخّاذ؛ وكذلك لم أتمكن مرّة واحدة من أن أقطع بغنائي قائمة من قوائم الكرسي الذي كان يجرس فيها ماتسرات أو إلكسندر شغلر.

كنت أتمنى الدفاع عن نفسي بطريقة بريئة، أقلّ سحراً من هذه، لكن لم يقف في خدمتي ما هو بريء، ما عدا الزجاج الذي انصاع لرغبتي، فتوجب عليه أن يدفع الثمن.

وقدّمت أوّل عرض ناجح من هذا النمط بعد مضي مدّة قصيرة على عيد ميلادي الثالث، فامتلكت الطبل آنذاك حوالي أربعة أسابيع، كانت شديدة الثراء، حتى أنني مزقته خلالها بمثابرتي المعهودة. وعلى الرغم من أن الإطار المصبوغ بالأحمر والأبيض كما اللعب ظلّ محتفظاً بالإطار ورقعة التطبيل، غير أنه لم يعد من الممكن إخفاء الثقب في منتصف الجهة المولدة للصوت، بل صار يتسع على الدوام إثر تجاهلي لإطار الطبل، وأصبح في حالة يرثى لها، مهلهلاً، وبشعاف مسننة، وقد بليت جزيئات الصفيح وصارت رقيقة ثم تقشرت، ساقطة إلى الداخل، فكانت ترتجف بمزاج سيئ إثر كلّ ضربة، وبات من الممكن رؤية قشور الأصباغ البيضاء تتلألأ فوق سجّادة غرفة الجلوس، أو على أرضية غرفة النوم البنيّة الحمراء، تلك الفضلات التي لم تعد تحتمل البقاء على صفيحة التطبيل المبتلية بالعذاب. وأبدى البعض خشيته من أن تعلق بي حواف الصفيح الحادّة الخطرة، لا سيما ما تسرات الذي كان يزداد حذراً يوماً بعد آخر بعد سقوطي من سلّم القبو، بحيث أنّه نصحني باتخاذ الحيطة أثناء التطبيل. ولأنني كنت في الحقيقة أقترب باستمرار من الفوهة المسننة عبر حركاتي

العنيفة، فلا بدَّ من الاعتراف بأن مخاوف ماتسرات انطوت على بعض المبالغة، لكنها لم تكن بلا أساس. حينئذ بات ممكناً تجنب المخاطر جميعها بالحصول على طبل جديد، غير أنهم لم يفكروا في طبل جديد أبداً، بل أرادوا على العكس من ذلك انتزاع طبلي القديم العزيز الذي سقط معي في وقت واحد، والذي كان يقطع السلّم بمرافقتي صعوداً ونزولاً، ويسير معي على أحجار الطرق والأرصفة، مروراً بأناشيد «علبة السردين الحامضة» و«واحد، اثنين ثلاثة» و«أنا أرى ما لا تراه أنت» و«الطاهية السوداء»؛ لقد أرادوا انتزاع الطبل من يدي بلا تعويض، محاولين إغرائي بقطعة من الشيكولاتة الغبية التي أمسكت بها أمّي وكوّرت لها فمها.

كان ما تسرات هو الذي همّ بانتزاع الآلة المحطمة من يدي بعنف، لكنني تشبثت بهيكلها، فصار يجذبه وأنا أشده إليّ حتى تراخت قواي المخصصة للتطبيل، فانزلق منّي اللعب الأحمر ببطء، لساناً بعد آخر، وأوشك الإطار المدوّر أن يسقط من يدي؛ وفي تلك اللحظة أطلق أوسكار الذي كان يعتبر حتى ذلك اليوم طفلاً هادئاً ووديعاً إلى حدّ ما، أطلق الصرخة الأولى المدويّة المؤثرة والمدمّرة معاً: فانهارت الزجاجة المستديرة الصقيلة التي كانت تحمي الميناء الأصفر، صفرة العسل، لساعتنا القائمة، صادةً عنه التراب والذباب، فتحطمت، متشظية مرّة أخرى فوق الأرضية ابنيّة الحمراء؛ إذ أن السجادة لم تمتد إلى موضع الساعة، غير أن أحشاء الآلة الثمينة لم تصب بعطب؛ فتابع البندول ـ إذا صحّت تسميته بالبندول ـ ترنحه المألوف، وكذلك فعل الرقّاص. بل حتى الجرس الحسّاس عادةً، الذي كان يبدأ القرع بعصبية إثر أي حركة، بما فيها حرة عربة البيرة في الخارج، لم يعبأ بصرختي؛ فقط الزجاجة الواقية انفلتت وحدها، قافزةً بدقة متناهية، فهتف ماتسرات: «لقد تحطمت الساعة»! وتخلّى عن الطبل. وعبر نظرة خاطفة اقتنعت بأن صرختي لم تصب الساعة بأذى، ولم تنتزع منها سوى الزجاجة؛ وبدا الأمر لماتسرات وأمّي وخالي يان برونسكي الذي كان يزورنا عصر كل أحد أكثر من مجرد تحطيم الواقية الزجاجية لميناء الساعة. فصار أحدهم يرمق الآخر بنظرات

زائغة حائرة وهم يتحسسون المدفأة الحجرية، ثم توقفوا عند البيانو، فأخذ يان يحرك شفتيه المتيبستين تحت عينيه المتضرعتين الزائغتين، بحيث أنني ما زالت أعتقد إلى يومنا هذا بأن جهود الخال كانت قد انصبت آنذاك على إيجاد صيغة صلاة تنشد المعونة والرحمة مثل: أنت يا حمل الربّ، يا من يتحمل ذنوب العالم وخطاياه Miserere nobis؛ وقد ردد هذا النص ثلاث مرّات، ثم أعقبه بآخر: يا إلهي إنني لست آهلاً للدخول تحت سقف داري، لكن حدثني بكلمة...

غيرّ أنّ الربّ ظلّ صامتاً بطبيعة الحال، ثم أن الساعة نفسها لم تكن أصيبت بعطب، إنما الزجاجة وحدها. إن علاقة الكبار البالغين بساعاتهم ما هي إلا علاقة عجيبة جداً وصبيانية بالمفهوم الذي لا ينطبق عليّ. ولعلّ الساعة كانت من أعظم إنجازات الكبار واختراعاتهم. وكيف ما كان الأمر فإن: الكبار هم مبدعون وخالقون بفعل الكدّ والجهد والطموح وبعض الحظّ، بالقدر ذاته الذي يكونون فيه، بعد عملية الابتكار، مخلوقات لاختراعاتهم التاريخية. وبهذا القدر أيضاً فإن الساعة اليوم هي مثلما كانت عليه في السابق بحاجة إلى الإنسان البالغ، ليملأها ويقدمها ويؤخرها ويجلبها إلى الساعاتي ليفحصها ويختبرها ويصلحها عند الضرورة. كان الأمر شبيهاً بصياح ديك الساعة الذي هده التعب في وقت مبكر، وشبيهاً بوعاء الملح المنقلب (وعناكب الصباح والقطط السوداء التي تجلب النحس) حسب الأنشودة الألمانية، وشبيهاً بلوحة الخال الزيتية التي سقطت من الجدار؛ لأن مسمارها ارتخى في جصّ الجدار، وشبيهاً بالمرآة التي يرى الكبار خلفها الكثير من الأشياء، وكذلك الساعة التي كانت تمثل لهم أكثر من مجرد ساعة.

لكنّ أمّي عثرت يومئذ على عبارة الخلاص، تلك الأمّ الصاحية الذهن المتيقظة، الطائشة في الوقت نفسه كما يستلزم الأمر، والتي كانت تقيّم كلّ إشارة مفترضة لمصلحتها على الرغم من بعض الملامح الفنطازية المتحمسة التي كانت تطغي على شخصيتها، فهتفت وهي تطقطق أصابعها: «الشظايا تجلب الحظ والبركة»! ثم جلبت وعاءً صغيراً مسطحاً

ومكنسة يدوية لتجمع بقايا الشظايا ومعها الحظ أيضاً. وإذا ما حقّ لي الاستناد إلى عبارة أمّي فإنني أكون قد جلبت كثيراً من الحظ إلى والديّ وإلى أقربائي وإلى معارفي وإلى الناس المجهولين، في كلّ مرّة عندما يحاول أحد منهم انتزاع الطبل من يدي، عبر تحطيم زجاج النوافذ والكؤوس المليئة بالبيرة والزجاجات الفارغة وقوارير العطور الممهدة لحلول الربيع وآنية البلّور التي وضعت فيها فاكهة الزينة، وباختصار كلّ ما هو زجاج يقع خارج ورش الزجاج، أي الزجاج المنتج بفضل أنفاس العمّال النافخين. والذي كان يعرض في الأسواق باعتباره قيمة زجاجية صرف. أو نمطاً من النتاج الزجاجي الفنّي؛ كنت أحطمه كلّه وأشرخه وأشظّيه بالغناء. وحتى أسبب أضراراً كثيرة في المنتجات الزجاجية الجميلة الشكل التي أحببتها وما زلت أحبها إلى اليوم، فإنني كنت أسارع ـ إذا ما أراد أحد انتزاع طبلي في وقت المساء ـ إلى استنزاف قوى المصباح الملحق بسريري الصغير، أو استنزاف قوى جملة من المصابيح التابعة للثريا البلّورية المعلقة في غرفة الجلوس التي كانت تجهد نفسها أربع مرات أكثر من طاقتها الاعتيادية.

لقد أدخلت في عيد ميلادي الرابع مطلع شهر سبتمبر/أيلول من العام الثامن والعشرين ضيوفَ عيد الميلاد المجتمعين آنذاك، وهم أبي وأمّي وجدتي كولياجك وآل برونسكي وآل شفلر وآل غريف الذين جلبوا لي جنوداً من رصاص وزورقاً شراعياً وعربة لمكافحة إطفاء ـ لم يكن من ضمن الهدايا طبل ـ أولئك الضيوف الذين أرادوا إرضائي بجنود من رصاص، أنا الذي كنت أحسب جنون الإطفاء حريّاً باللعب؛ أولئك الذين ضنّوا عليّ بالطبل المهذب والممزق، وسعوا إلى مصادرة صفيحة القرع تلك، واضعين في يدي زورقاً شراعياً تافهاً لا معنى له ولا فائدة؛ أولئك كلّهم الذين كانوا يتمتعون بأعين، لكنهم تجاهلوا رؤية رغباتي، أدخلتم إلى ظلمة العصور البدائية بصراخي الدائري الذي أباد المصابيح الأربعة لثريتنا المعلقة.

وكما هي طباع الكبار دائماً، فقد اعتادوا جميعهم على الظلام مباشرة

إثر صرخات الرعب الأولى الصاعقة والساخنة المطالبة بإعادة النور، وعندما جلبت جدّتي كولياجك التي لم تستسغ العتمة شأنها شأن شتيفان الصغير الذي علق بأذيال ثوبها وهو يزعق فزعاً؛ عندما جلبت شموع الشحم من الدكان وأضاءت بها الغرفة حال عودتها، وجدت ضيوف عيد الميلاد المخمورين في أوضاع جماعية غريبة للغاية.

ومثلما كان متوقعاً، فقد تربعت أمّي التي انزلقت بلوزتها عن كتفها في حضن يان برونسكي. وبدا منر الخبّاز ألكسندر شغلر القصير الساقين مثيراً للقرف وهو يكاد يختفي بين ساقيّ السيّدة غريف. وكان ماتسرات يلطع ذهب السيّدة غريتشن وأسنانها الذهبية التي تشبه أسنان الفرس، بينما جلس يان برونكسي بعينيه البقريتين الخاشعتين تحت ضوء الشموع، مرخياً يديه في حضنه، على مقربة من بائع الخضر غريف الذي لم يتناول الخمرة، لكنه مع ذلك كان يغني بصوت شجيّ مترع بالأسى، داعياً السيّدة هوفغ برونسكي إلى مشاطرته الغناء، فغنّت مع أنشودة الكشّافة التي كان نصها يتحدث عن الشبح المخيف «روبهتسال» المتجول في جبال بوهيميا.
أمّا أنا فقد أصبحت منسياً تماماً، فقبع أوسكار تحت الطاولة، حاملاً معه بقية طبله، محاولاً إخراج إيقاع من الصفيح الممزق، فبدت أصوات الطبل الشحيحة المنتظمة مريحة وممتعة بالنسبة لآذان أولئك المسحورين المضطجعين أو المتربعين الذين تبادلوا الأدوار والمواقع: إذ أنّ صوت التطبيل طغى مثل غطاء كاذب على أصوات المصّ واللحس التي تسربت أثناء تقديم البراهين المحمومة المتلهفة لجهدهم ومثابرتهم. ومكثت قابعاً تحت الطاولة حين دخلت جدتي وكأنها ملاك غاضب، حاملةً الشموع بيدها، لتستطلع بضوئها سدوم وعمورة، ثم أخذت تزعق بشموع مرتعشة اللعب، ناعتة تصرفهم بالرعونة، منهيةً ذلك المشهد الممتع الذي كان يشبه تجوال روبهتسال في جبال بوهيميا، فوضعت الشموع في أطباق صغيرة وتناولت ورق اللعب من البوفيه ورمت به على الطاولة، محاولة في الوقت نفسه تهدئة شتيفان الباكي، معلنةً عن بدء الجزء الثاني من حفلة عيد الميلاد.

بعد ذلك قام ماتسرات بتثبيت مصابيح جديدة في الإطارات القديمة للثريا المعلقة، ثم تزحزحت الكراسي وارتجت زجاجات البيرة التي فارت رغوتها، وبدأ المحتفلون يطرقون الورق فوق رأسي. كان أحدهم اقترح أن يفتتح اللعب بربع فلس، لكن هذا المبلغ بدا بنظر الخال يان مبالغاً فيه وينطوي على مجازفة؛ ولولا لعبة الثنائي، وأحياناً لعبة «النزلة الكبرى» الرباعية التي أدّت إلى ارتفاع ملحوظ في قيمة الرهان، لبقي اللعب يدور في إطار عشر الفلس الواحد. وشعرت بارتياح تحت الطاولة، في ظل الشرشف المتدلي من أركانها، وصرت أواجه القبضات المنهالة بالورق على رأسي بالتطبيل، مخضعاً نفسي بصورة منتظمة لمجرى اللعب في الأسفل، معلناً عن وجودي بعد حوالي ساعة من بداية طرق الورق: عرفت أن يان برونسكي قد خسر، على الرغم من أن أوراقه كانت جيّدة؛ ولم يكن ذلك بالأمر المستبعد، لأنه لم يتخذ الحيطة الكافية. وكان ذهنه مشغولاً بأشياء أخرى لا علاقة لها بورقة «الديناري». ومنذ بداية اللعبة، عندما تحدث إلى خالته، محاولاً تسفيه المشهد الإباحي الذي رأته قبل لحظات، كان يتلمس الطريق إلى ركبة أمّي التي جلست قبالته، وقد خلع فردة حذائه اليسرى السوداء القصيرة، ثم عبر من فوق رأسي بقدمه ذات الجورب الرمادي، حتى عثر على الركبة. وحالما لامسها ازدادت أمّي قرباً من الطاولة، لدرجة أن يان الذي استفزه ماتسرات في تلك اللحظة مما اضطره إلى النزول عند الرقم ثلاثة وثلاثين، أصبح قادراً على رفع أذيال ثوبها بأطرافه أصابعه، ثم أدخل قدمه المغلفة بالجورب الجديد الطازج الذي حمل تاريخ اليوم نفسه، وأخذ يتجول بين فخذيها. فنالت أمّي الإعجاب الشديد، لأنّها وعلى الرغم من المضايقات ذات الملمس الصوفيّ، التي حدثت فوق شرشف الطاولة المشدود بتوتر، ومغامرتها بلعبة ورق كانت من أخطر الألعاب وأكثرها جرأة، كسبت اللعبة بثقة عالية بالنفس وهي تتحدث بكلام مرح متهكم، بينما خسر يان فوق الطاولة لعبات كثيرة كان حريّاً بأوسكار أن يكسبها بثقة السائر في نومه، لكن يان كان يزداد جرأة وعزماً في أسفل الطاولة. حينئذ زحف شتيفان الصغير

المتعب تحت الطاولة أيضاً، فغفا على الفور، ولم يدرك بفعل النعاس ما الذي بحثت عنه ساق السروال التابعة لأبيه تحت ثوب أمّي.

كان الطقس آنذاك يتراوح بين الصحو والتلّبد بالغيوم، وقد سقطت بعض الأمطار الخفيفة في العصر. وفي اليوم التالي قدِم يان برونسكي إلى الدار وأخذ معه هدية عيد ميلادي، تلك السفينة الشراعية الواهية، ليستبدلها بطبل من الصفيح لدى زيغسموند ماركوس في ممر تسويغهاوس، وعاد إلينا في المساء المتأخر حاملاً معه الطبل الأليف المصبوغ باللونين الأبيض والأحمر مثل ألسنة اللهب، وقدمه لي، وهو يمسك بهيكل الصفيح القديم الرائع الذي لم يبق منه سوى الطلاء الأبيض والأحمر. في ذلك المساء أمسك يان بالصفيح المتعب وأمسكت أنا بالصفيح الجديد، بقيت أعين يان وأميّ وماتسرات مسلطة كلّها على أوسكار، فكنت على وشك أن أبتسم. لكن هل ظنّوا بأنني كنت متمسكاً بالقديم وأحمل مواقف ومبادئ في نفسي؟

لقد تخليت عن الطبل المحطم دون أن أطلق الصرخة المرتقبة، أو أن يرتفع صوتي بالغناء الذي يبيد الزجاج، وفي الحال تفرغت للطبل وانهمكت أقرعه بيديّ معاً. وبعد ساعتين من التطبيل المتمعن البصير أصبحت قادراً على العزف، غير أن الكبار البالغين في حينا لم يظهروا الفطنة اللازمة والتفهم مثلما فعل يان برونسكي. وعقب عيد ميلادي الخامس في العام التاسع والعشرين ـ كان الناس آنذاك يتحدثون كثيراً عن انهيار البورصة المالية في نيويورك، حتى أنني فكرت في أن يكون جدي كولياجك المتاجر بالأخشاب في بوفالو النائية قد تعرض للخسائر ـ بدأت أمّي، التي بانت عليها علامات القلق بسبب توقف نموي الجسدي بحيث لم يعد خافياً على أحد، تأخذني أيّام الأربعاء إلى عيادة الدكتور هولاتس في شارع برونسهوفر. لقد تقبلت تلك الفحوص المزعجة التي لا آخر لها؛ لأن رداء التمريض الممتع للنظر الذي ارتدته الممرضة إنغا التي وقفت إلى جانب هولاتس تعاونه في مهمته، ذلك الرداء الذي همت إعجاباً به آنذاك؛ لأنه ذكرني بزمن مهنة التمريض التي مارستها أمّي إبان

الحرب العالمية الأولى مثلما شهدت على ذلك الصور الفوتوغرافية. كنت استطعت أن أصمّ سمعي عن سيل الكلمات الزاعقة البالغة الحدّة والإزعاج الشبيه بثرثرة الأعمام المشبعة بالحماس، تلك الكلمات التي تشدق بها الطبيب، وانشغلت برداء التمريض الذي كان ينطوي متكسراً على الدوام.

كان هولاتس قد هزّ رأسه بارتياب بعد الفحوص وأخذ يورّق في سجّل المستشفيات التي راجعتها، وقد انعكست محتويات العيادة أثناء ذلك على زجاجتي نظارته. كان هناك الكثير من معدن الكروم والنيكل والمعاجين، إضافة إلى رفوف دواليب زجاجية وضعت فيها قوارير عليها كتابة واضحة واحتوت على الثعابين والسلمندر والسلاحف وأجنة الخنازير والبشر والقرود. فكان هولاتس يقبض بزجاج نظارته على جميع تلك الثمار المنقوعة في محلول الإسبرتو، تاركاً أمّي تقصّ عليه من جديد حكاية سقوطي من سلّم القبو؛ فكان يطمئنها كلّما جاءت على ذكر ماتسرات الذي ترك الباب مفتوحاً، كائلةً إليه الشتائم المقذعة بلا وازع، محملةً إياه الذنوب جميعها إلى أبد الآبدين.

عندما حاول هولاتس انتزاع الطبل من يدي بعد أشهر عديدة، وبمناسبة زيارتي الأربعائية لعيادته، ولعله أراد أن يبرهن للممرضة إنغا على نجاحه في معالجتي حتى ذلك الوقت، حطمت القسم الأعظم من مجموعة ثعابينه وسلحفاته، إضافةً إلى كلّ ما كان قد جمعه من أجنة مختلفة الأصول والمصادر. وباستثناء أقداح البيرة الممتلئة والمكشوفة وقارورة عطر أمّي؛ فإن تلك كانت المرّة الأولى التي حاول فيها أوسكار تحطيم كميجة كبيرة من الأقداح الممتلئة والمغلقة بدقة وإحكام. فكان النجاح رائعاً وساحقاً ومفاجئاً بنظر المعنيين المساهمين كلّهم، وحتى بنظر أمّي التي خبرت من قِبل علاقتي بالزجاج. ودفعة واحدة شرخت بأوّل صرخة مشذبة بحرص دولابَ الزجاج الذي حفظ فيه هولاتس مخلوقته الغريبة المثيرة للتقزز، وقطعتها طولاً وعرضاً، وفتحت بوابة مربعة إلى حدّ ما في واجهة الدولاب وجعلتها تكبو على أرضية العيادة المفروشة بالمشمّع، فانهارت على نحو أفقيّ واحتفظت بشكلها المربع، ثم تشظّت ألف شظية

ومنحت الصراخ ملمحاً خاصاً وإلحاحاً مسرفاً، ثم أخذت تلامس بذلك الصوت المسلّح، وببذخ مفرط، أنبوبة اختبار بعد أخرى، وقفزت الأقداح محدثة جلبةً وفرقعة، فتدفق الكحول المخضر، المتخثر بعض الشيء وساح جارفاً معه الكائنات المحنطة الشاحبة والمتطلعة بهمّ وكآبة فوق مشمّع العيادة الأحمر، وعبأت المكان برائحة، يمكن وصفها بالرائحة الملموسة المجسّدة، فشعرت أمّي بالغثيان، فهرعت الممرضة إنغا إلى فتح الشبّاك المطلّ على شارع بونسهوفر.

غير أنّ الدكتور هولاتس عرف كيف يحوّل خسارة مجموعة مخلوقاته إلى قضية مربحة. فبعد أسابيع قليلة على محاولة الاعتداء التي قمت بها خرجت من يراعه مقالة كاملة حول الظاهرة الصوتية لأوسكار والتي كانت قادرة على تحطيم الزجاج بالغناء، ونشرت المقالة في المجلة المختصة «الطبيب والعالم»، ولفتت فرضية الدكتور هولاتس المفصلة في أكثر من عشرين صفحة أنظار الأوساط العلمية المتخصصة في الداخل والخارج، ولاقت اعترافاً واستحساناً أيضاً من لدن هذه المرجعية العلمية المقتدرة أو تلك. وشعرت أمّي التي أرسلت إليها نسخ عديدة من المجلة بالفخر بطريقة دفعتني إلى التأمل وإمعان الفكر، فصارت الوالدة لا تترك مناسبة إلا وتقرأ فيها مقطعاً من المقالة على آل غريف وآل شفلر وكذلك على خليلها يان، أو تطلع بعلها ماتسرات بعد وجابت الطعام على بعض الفقرات من المقالة كلّ مرّة. ولم ينج من قراءتها لنص المقالة حتى زبائن متجر بضائع المستعمرات، فكانوا يعبرون عن إعجابهم بأمّي التي كانت تلفظ المصطلحات العلمية بطريقة خاطئة، لكن بنوع من التشديد الفنطازي، حسبما يقتضي الأمر. أمّا بالنسبة لي، فلم تعن لي قضية نشر اسمي الأوّل في مجلة ما شيئاً البتة. وجعلني شكّي الثاقب آنذاك أقيّم إنجاز الدكتور هولاتس مثلما هو، أو بدقة أكثر مثلما كان يعرضه: أي مجرد لفّ ودورن صاغهما طبيب بأسلوب لا يخلو من براعة في صفحات طويلة، طمعاً في الحصول على كرسيّ للتدريس في الجامعة. واليوم فإن أوسكار الذي لم يعد صوته قادراً على مسّ حتى قدح المضمضة الزجاجي الصغير في

مصحّة الأمراض العقلية، حيث كان الأطباء الذين يشبهون الدكتور هولاتس يدخلون عليه ويخرجون، مخضعين أوسكار إلى ما يسمى بطريقة «رورشاخ» التحليلية، أو طريقة التداعي، وغيرها من الفحوص، لكي يتخذ تحويله الإجباري إلى المصحّة اسماً رائجاً في آخر المطاف.

نعم: إن أوسكار يستعيد الآن بفرح غامر ذلك الزمن المبكر المنسي الذي عاشه صوته. وإذا كان أوسكار يحطم في تلك المرحلة الحياتية الأولى منتجات الرمل الزجاجي عندما يقتضي الأمر وبدقة حاسمة؛ فإنه أصبح فيما بعد، أي في مرحلة ازدهار فنّه وانحطاطه، يستخدم قدراته ومواهبه دون أدنى شعور بالإكراه أو بالعسف الخارجي. وانصياعاً لنزعة عبثية، حين كان أوسكار خاضعاً لتأثير مرحلة متأخرة من الأدب البرجوازيّ المتكلّف، ومنغمساً في نظرية الفنّ للفن، صار يستخدم الأقداح لتحقيق رغبة داخلية، فأصبح يتقدم في السنّ شيئاً فشيئاً على هذا المنوال.

جدول الدروس

كان كليب يقتل الساعات أحياناً في تخطيط جداول الدروس. أمّا حقيقة أنه كان يلتهم السجق وحساء العدس معاً فقد أكدت بشكل قاطع نظريتي القائلة: بأن الأشخاص الحالمين هم الآكلون النهمون. فحقيقة أنه كان يملأ الحقول الفارغة على الورق بهمّة ومثابرة أكدت نظريتي الأخرى القائلة: بأن التنابلة الحقيقيين هم وحدهم الجديرون بالتوصل إلى اختراعات موفرة للجهد العلمي. ففي هذا العام بالذات أنفق من وقته أربعة عشر يوماً لكي يجدول يومه في ساعات. وعندما زارني في الأمس قام بتصرفات غامضة لوقت طويل، ثم انتشل من جيب سترته الأمامي ورقةً مطوية تسع طويات وناولني إياها وهو يشعّ مستبشراً ومعجباً بنفسه؛ إذ أنه أوجد اختراعاً جديداً لتوفير الجهد العلمي.

ألقيت على قصاصة الورقة نظرة سريعة، فلم أكتشف فيها شيئاً جديداً: الإفطار في الساعة العاشرة، ثم مداراة الفكر حتى وقت الغداء، وبعد تناول الطعام تأتي فترة القيلولة لمدة سويعة، ومن ثم تناول القهوة ـ من الأفضل تناولها في الفراش ـ وبعد ذلك تأتي فترة العزف على الناي في وضع الجلوس على الفراش، وكذلك النفخ على القربة قرابة الساعة وقوفاً وسيراً في الغرفة، تعقب ذلك نصف ساعة نفخ على القربة في فناء الدار؛ وبعد كلّ يومين القيام بزيارة إمّا للسينما أو للحانة لتناول البيرة والسجق لساعتين أيضاً وبالتناوب. وفي كلّ الأحوال لا بدَّ من القيام بأعمال دعائية، غير ملفتة للنظر، لصالح الحزب الشيوعي الألماني السرّي ـ لمدة نصف ساعة أمام دار السينما، أو أثناء شرب البيرة، وليس هناك أي داع للمبالغة!

وملأ كليب ثلاثة أيّام من الأسبوع بالموسيقى الراقصة مساءً في حانة «وحيد القرن»، وفي يوم السبت قام بتأجيل شرب البيرة المصاحب للدعاية لصالح الحزب الشيوعي الألماني إلى وقت المساء، لأنّ فترة العصر كانت محجوزة للاستحمام والتدليك في «غرون شتراسه»؛ وبعد ذلك الذهاب إلى «النفق رقم ٩» وتمضية ثلاثة أرباع الساعة في أعمال الوقاية والرعاية الصحية مع فتاة ما، وتناول القهوة الألمانية والكعك مع الفتاة نفسها، وصاحبتها، ثم القيام بحلق الذقن قبل إقفال المحلات، وقصّ الشعر عند الرورة، والتقاط الصور الفوتوغرافية السريعة، ويأتي بعد ذلك دور البيرة والسجق والدعاية لصالح الحزب الشيوعي الألماني، ومن ثمّ الارتياح اللذيذ. كنت امتدحتُ الأشكال الزخرفة التي صنعها كليب بدقة متناهية، ورجوته أن يعطيني نسخة منها، وأردت أن أعرف منه كيف كان يتغلب بين الحين والآخر على النقاط الميتة في الخطّة، فأجابني بعد تأمل قصير بأنه يتغلب عليها: «بالنوم، أو بالتفكير في الحزب الشيوعي الألماني». لكن هل رويت له كيف تعرّف أوسكار على أوّل جدول لدروسه؟

وبدأ ذلك بنيّة سليمة وبراءة في روضة أطفال العمّة كاور، وكانت السيّدة هدفغ برونسكي تأخذني مع ابنها شتيفان كلّ صباح إلى العمّة كاور المقيمة في جادة بوزادوفسكي، حيث كنّا نلعب مع أطفال مشاكسين كان عددهم يتراوح من ستة إلى عشرة؛ وقد بدا البعض منهم مريضاً باستمرار، لكننا كنّا نلعب ونمرح إلى حدّ التقيؤ. ولحسن الحظ فقد حُسب طبلي لعبةً، كما أنني لم أجبر على استعمال قطع البناء الخشبية وعلى ركوب الحصان الخشبي، إلا إذا كانت هناك حاجة إلى فارس طبّال ذي خوذة من ورق. وكنت أستفيد آنذاك من الثوب الحريري الأسود للعمّة كاور كمشروع ونموذج للتطبيل، ذلك الثوب المزوّد بألف زرّ. وأستطيع القول، بعزاء تام، إنني كنت قادراً من خلال صفيحة التطبيل على خلع ثياب الآنسة كاور ذات الجسد الرقيق التقاطيع المؤلف من الطويات والثنيات وحدها، ومن ثم ردّ ثيابها عليها مرّات عديدة في اليوم الواحد. كنت أنزعها وألبسها بالتطبيل الساتر والنازع للثياب، دون أن أكون قد عنيت جسدها تحديداً.

كانت جولات المشي في أوقات الأصيل عبر الشوارع المغروسة بأشجار الكستناء، التي كنّا نمر خلالها بغابة «يشكنتالا»، لنتسلق من هناك مرتفع «إيربسبيرغ»، بمحاذاة نصب «غوتنبيرغ»، جولات مريحة في ضجرها وبليدة تماماً في صفائها، حتى بتّ أتمنى اليوم أن تأخذني العمّة كاور بيدها الورقية الملمس في جولاتها تلك التي كانت تضاهي كتب التجوال المصورة. وبغض النظر عما إذا كنّا ثمانية أو أثنى عشر طفلاً مشاكساً فقد كان علينا أن نمسك جميعاً بالعنان الذي كان عبارة عن حبل حياكة ذي لون أزرق يشبه حبل جرّ العربات. وكان ثمة ستة مواضع ذات ملمس صوفيّ لمسك اللجام على يمين ذلك الحبل وستة أخرى على شماله، مخصصة لإثني عشر طفلاً عابثاً، وقد عُلقت فيه أجراس صغيرة تفصل بينها مسافة عشرة سنتمترات. فكنّا نسير بارتخاء أمام العمّة كاور، مثرثرين وقارعين الأجراس، وكانت العمّة كاور تدندن بين الحين والآخر بأغنية «أنا أعيش وأموت من أجلك يا سيّدي يسوع»، أو «أحييك يا نجمة البحر»، فكان المارّة يتأثرون عندما يسمعوننا نردد أغنية «أعيننا يا مريم العذراء، يا أمّ الربّ الحلو. . .ة»، واضعين ثقتنا الكاملة بهواء أكتوبر / تشرين الأول العذب النقي. فأصبح على السير أن يتوقف كلّما قطع موكبنا الشارع الرئيسي. كانت السيارات ومقطورات الترام وعربات النقل التي تجرها الخيول تزدحم في عرض الشارع كلّما أنشدنا «يا نجمة البحر»، وكلّ مرّة كانت العمّة كاور تلّوح بيدها العجفاء المطقطقة، شاكرةً شرطي المرور الذي أتاح لنا للتو فرصة العبور، فتعد الشرطي بالقول «سيهبك ربنا يسوع الأجر». ثم تتبختر بثوبها الحريري مصدرةً حفيفاً.

وشعرت في الواقع بأسف وحسرة، إذ أنني أجبرت على مغادرة الروضة إلى جانب شتيفان، وبسببه أيضاً، متخلياً عن تعرية الآنسة وإلباسها عقب عيد ميلادي السادس. وكما هو الأمر عادةً، فإن السياسة عندما تدخل في اللعبة تتسبب في أعمال العنف. كنّا آنذاك فوق مرتفع «إيربسبيرغ»، فانتزعت العمّة كاور منا لجام الصوف، وكانت الأشجار الفتية تلمع، والأغصان الجرداء تجدد ريشها، فجلست العمّة كاور على

صخرة في الدرب أحاطت بها الطحالب الكثيفة وبدأت تشير إلى اتجاهات عديدة صالحة للتجوال لمدة ساعة أو ساعتين، وصارت تترنم بأغنية، مثل أي فتاة لا تعلم ما الذي حلّ في روحها أثناء فصل الربيع، وتحرّك رأسها بحركات سريعة وعصبية تشبه حركات الدجاج الحبشي، ثم أخذت تحيك لنا لجاماً جديداً، لونه أحمر مثل لون الشيطان، لكنني لم أنعم به للأسف الشديد؛ إذ تعالى فجأة صراخ وسط الأحراش، فرفرفت العمّة كاور بجناحيها وتقدمت من الأحراش ترف بفستانها، ساحبة وراءها خيط الصوف الأحمر الذي كانت تشتغل عليه. فتبعتها متعقباً الخيط، فتوجب عليّ أن أشهد الكثير من اللون الأحمر؛ لأن أنف شتيفان صار ينزف بغزارة، وقد جثا على صدره صبيّ صغير مجعّد الشعر وعلى صدغيه أوردة زرقاء، وبد كما لو أنه أراد بكلماته أن يدس أنف شتيفان المشاكس الشاكي داخل وجهه، هاتفاً به بين ضربة وأخرى «بولاك، بولاك».

عندما ربطتنا العمّة كاور في العنان الأزرق الفاتح بعد خمس دقائق من الحادث ـ كنت وقتها طليقاً، ألمّ الخيط وراءها ـ تلت علينا صلاة تقال عادةً بين طقس الأضحية وطقس التحوّل: «لقد شعر بالخجل من فرط الألم والندم». . .

ثم هبطنا مرتفع «إيربسبيرغ» وتوقفنا أمام نصب غوتنبيرغ. فأوضحت الآنسة وهي تشير بيدها إلى شتيفان الذي أخذ يولول ويضغط على أنفه بمنديل صغير، قائلة إن: «ليس من ذنبه أن يكون طفلاً بولندياً». وبناءً على نصيحة العمّة كاور أُبعد شتيفان عن روضتها، فأعلن أوسكار الذي لم يكن بولندياً، ولم يحترم شتيفان، تضامنه معه.

بعد ذلك جاء عيد الفصح، فحاول المرء إيجاد حلّ سهل لقضيتي، فعثر الدكتور هولاتس على العلّة من وراء نظارته السميكة الإطار، وقال إنها علّة لا تضرّ، فجعل العلّة تعبر عن نفسها صارخةً بصوت صاخب: «أنها لا تضر الصغير أوسكار قط». ولم يعر يان برونسكي الذي أراد إدخال ابنه في المدرسة الشعبية البولندية الاعتراضات التي ترددت آنذاك أدنى اهتمام، فأعاد قوله لأمّي ولماتسرات بمناسبات عديدة بأنّه موظف

يعمل في الخدمات البولندية، وأن الحكومة البولندية تسدد أجوره بدقة وانتظام، حسبما يستلزم عمله من دقّة وانضباط في دائرة البريد البولندي. فضلاً عن أن طفلاً نابهاً، يتمتع بموهبة أكثر من المعدل المتوسط، سيكون قادراً على تعلّم اللغة الألمانية في بيت أهله؛ وفيما يتعلق بأوسكار ـ كان يطلق حسرة دائماً عندما يذكر اسم أوسكار ـ فإنه قد بلغ سن السادسة مثل شتيفان، وحتى لو أنه لا يستطيع الكلام، ويبدو متخلفاً بالنسبة إلى سنّه، إضافة إلى مظهره وشكله، لكنه مع ذل يمكن أن يدخل إلى المدرسة؛ لأن التعليم الإجباري هو في آخر المطاف تعليم إجباري؛ على شرط أن لا تعترض إدارة المدرسة على ذلك.

وفعلاً أعربت إدارة المدرسة عن شكوكها وترددها، مطالبةً بتقديم تقرير طبّي. فوصفني هولاتس بأنني صبي صحيح البدن، أشبه من حيث النمو طفلاً في سنّ الثالثة، لكنني، حتى لو وجدت صعوبة في الكلام، لا أختلف من ناحية ذهنية عن طفل في الخامسة أو السادسة من عمره، كما أنّ هولاتس تحدث أيضاً عنه غددي الدرقية. وكنت في الواقع أتعامل بهدوء مع الفحوص الطبيّة التي تحولت إلى عادة روتينية بالنسبة لي، فكنت أتعامل معها بلا مبالاة وبارتياح أحياناً، لا سيما أن أحداً لم يحاول خلالها انتزاع طبلي من يدي؛ إذ أنّ قضية تحطيم مجموعة الثعابين والسلاحف والأجنة التابعة لهولاتس باتت شائعة بين الناس وحاضرة في أذهان أولئك الذين أخضعوني لفحوصات طبيّة، فصارت تثير في نفسهم الخوف والفزع. فقط مرّة واحدة ـ حدث ذلك في بيتنا ـ وجدت نفسي مضطراً في اليوم الأوّل من دخولي المدرسة لإظهار تأثير الرهافة الماسيّة لصوتي، حينما طلب منّي ماتسرات، على الرغم من معرفته بأن هناك حلاً آخر أفضل من مطالبته بأن أقطع مسافة الطريق إلى مدرسة «بيستالوتسي» الواقعة قبالة حدائق «فروبل» دون أن أحمل معي الطبل. عندما اضطر أخيراً إلى استخدام العنف محاولاً انتزاع ما لا يخصه وما لا يستطيع التعامل معه، لأنّه لم يكن يمتلك العصب الحسّاس اللازم لذلك التعامل، وجهت على الفور صرخة إلى مزهرية مصنوعة من الصلصال الأصيل فشطرتها نصفين.

وبعدما حوّلت المزهرية الأصيلة إلى جملة من الشظايا ذات الأصالة، همّ ماتسرات الذي كان متعلقاً بالزهرية بصفعي. بيد أن أمّي وثبت أليه، ثم وضع يان الذي أطلّ علينا صدفةً هو وشتيفان وكيس المدرسة، وضع نفسه حاجزاً بيننا، وقال بطريقته الهادئة المعسولة: «أرجوك، يا ألفريد»، فتراخت قد ماتسرات بفعل نظرة يان الزرقاء ونظرة أمّي الرمادية حتى أدخلها جيب سرواله.

كانت مدرسة بيستالوتسي عبارة عن علبة مستطيلة جديدة، بثلاثة طوابق وسقف مستو، ومشيدة بالآجر الأحمر ومزينة بنقوش ورسوم ملونة، أقامها المجلس الحكومي بفعل إلحاح الاشتراكيين الاجتماعيين الذين كانوا نشيطين آنذاك، لتستوعب أطفال الضاحية الكثيرين. وحظيت تلك العلبة بإعجابي بعض الشيء، ما عدا رائحتها والصبيان أبناء زمن «المعمار الشبابي» الحديث الذين كانوا يقومون بالألعاب الرياضية فوق الرسوم والنقوش الملونة. وانتصبت هناك شجيرات خضراء صغيرة بشكل غير طبيعي بين القضبان الحديدية النابتة في الحصى أمام البوابة، تشبه العصي المعوجة. كانت الأمهات يتقاطرن من جميع الجهات، حاملات الأكياس المخروطية المستدقة الرأس، ساحبات وراءهن أطفالاً صارخين أو نموذجيين في تصرفهم. ولم يحدث أن رأى أوسكار في حياته ذلك العدد الوفير من النساء الساعيات في اتجاه واحد، فتراءى له وكأنهم كنّ يحججنّ إلى السوق، ليساومن على وليدهن الأوّل أو الثاني. ومباشرة في رواق المدرسة انتشرت الرائحة التي كانت توصف عادةً بأنها تطغي في خصوصيتها وألفتها حتى على أكثر العطور شهرة في العالم بأجمعه. ففي بلاط الصالة كانت ثمة خمسة أحواض من حجر الصوان مصفوفة إلى جانب بعضها بغير ما كلفة أو إكراه، يتدفق الماء منها من منابع عديدة في وقت واحد. فكان يحيط بها الأطفال الذين كانوا في سنّي وهم يتدافعون، فذكرني ذلك المشهد بأنثى خنزير خال أمّي، فنسنت، في بيساو التي كانت تلقي بنفسها إلى الجانب لتروي العطش البهيم العديم الرحمة لصغارها، والمشابه لعطش هؤلاء التلاميذ. كان الصبيان ينحنون متعامدين مع

أحواض الماء العميقة تاركين شعرهم يسقط إلى الأمام ثم يكرعون الماء من النافورات بأفواه مفتوحة. لم أكن عرفت وقتها فيما إذا كانوا يشربون الماء حقّاً أم كانوا يلعبون. أحياناً كان يستقيم صبيّان في وقت واحد بأوداج ووجنات منتفخة ثم يرشق أحدهما الآخر بالماء الممزوج باللعاب وفتات الخبز؛ وكان الصبيان يفعلون ذلك بطريقة بذيئة للغاية. أمّا أنا الذي كنت، حالما أدخل الرواق، ألقي بنظرة طائشة على قاعة الجمباز المفتوحة المتفرعة من يسار الرواق، كنت أستشعر عطشاً لا يمكن التخفيف من غلوائه كلّما لمحت حصان القفز المكسو بالجلد والمزوّد بالقضبان وحبال التسلّق والعقلة المرعبة المظهر المطالبة بوثبة سريعة على امتداد الجسد، فكنت أتمنى لو أنني أحظى أيضاً بجرعة من الماء مثل الصبيان الآخرين. لكن بدا من غير الممكن أن أطلب من أمّي التي كانت تمسك بيدي رفع أوسكار القزم، لكي يتمرن على عقلة كتلك. وحتى لو وضعت الطلب تحت قدمي؛ فإنني سوف لا أصل إلى النافورات. وحين رمقت حافة أحد تلك الأحواض، وأنا أقفز قفزات خفيفة، لاحظت كيف سدّ فتات الخبز مجاري الماء، وكيف تجمّع السائل السمي النتن الرائحة في قعرها، ذهب عني العطش الذي خزنته في أفكاري، بل حملته مجسداً عندما ضللت الطريق بين أجهزة الجمباز في صحراء قاعة التمارين.

كانت أمّي قد طلعت بي درجات سلّم هائلة، مصممة للعمالقة، وأدخلتني عبر دهاليز صاخبة، ترددت فيها أصوات كثيرة، إلى غرفة عُلقت في بابها لافتة صغيرة كتب عليها Ia. كانت الغرفة مليئة بالصبيان الذين كانوا في سنّي، وقد التصقت أمهاتهم بالجدار قبالة النوافذ، عاقدات أذرعهن على الأكياس المدببة الملونة والمغلفة بأوراق حريرية، تلك الأكياس التقليدية التي كانت أطول من قامتي، والمخصصة ليوم المدرسة الأوّل، فكانت أمّي أيضاً تحمل كيساً مشابهاً، وحين دخلت الصفّ، واضعاً يدي في يدها، انفجر الشعب في الضحك ومعه شعب الأمهات. ولمّا أراد صبي مائل إلى السمنة أن يقرع الطبل توجب عليّ، لكي أتجنب تحطيم الزجاج، أن أركله عدّة مرّات على عظم ساقه، فسقط الولد الوقح،

وارتطمت تسريحة شعره بمقعد الصفّ، فتلقيت دون سابق إنذار ضربة من أمّي على هامة رأسي. وصرخ الولد، لكنني لم أصرخ بطبيعة الحال، فأنا لا ألجأ إلى الصراخ إلا عندما يحاول أحد انتزاع الطبل من يدي. ودفعتني أمّي إلى أوّل مقعد في صفّ المقاعد الأمامية، لصق نافذة، شاعرةً بالخجل من الأمهات ومن المشهد برمته. ثم إنّ من البديهي أن يكون المقعد واسعاً جدّاً بالنسبة لي، لكنّ المقاعد في الخلف، حيث كان الشعب يزداد خشونةً وفظاظة ونمشاً، بدت أكبر حجماً من المقاعد الأمامية. فقبلت بالأمر الواقع وجلست بهدوء، بينما حشرت أمّي، المضطربة الحائرة، نفسها بين الأمهات الواقفات. فمن المحتمل أنها شعرت بالخجل مما اصطلح عليه بتخلفي الخلقي أمام بنات جنسها اللواتي كنّ يتصرفن، حسبما أحسست، كما لو أنهن فخورات بسرعة نمو أبنائهن الأفظاظ.

لم يكن باستطاعتي النظر إلى حدائق فوبل عبر النافذة التي لم تصمم حافتها على مقاس قامتي كما هو الحال مع المقاعد المدرسية. فكم كنت أتمنى لو أنني ألقيت بنظرة على حدائق فوبل التي كان الكشّافون ينصبون فيها خياماً، على حدّ علمي، بقيادة بائع الخردة غريف، ويمثلون مسرحية الجندي المرتزق أو يقومون بأعمال خيرية مثلما يفعل الكشّافة عادة. لم تنبع تلك الأمنية من رغبتي في المساهمة بتجميد حياة المخيمات الكشفية تجميداً مبالغاً فيه، بل لأن منظر غريف ذي السروال القصير كان وحده كفيلاً بإثارة اهتمامي. لقد كان حبّه للصبيان ذوي العيون الواسعة والبِنية النحيفة حبّاً كبيراً للغاية، حتى لو كانت وجوههم شاحبة، لدرجة أنه كان يهدي لهم بدلات «بادن بويل» مخترع زي بوي ـ سكوت.

وتطلعت إلى السماء، لأنّ المعمار الشنيع حرمني من الإطلالة المجزية على الحدائق، فوجدت في السماء ما يكفي للتأمل. كانت السحب تنتقل من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي، كما لو كان الاتجاه سيقدم لها شيئاً ذا قيمة خاصة. حينئذ حشرت طبلي، الذي لم يفكر لحظة واحدة بالرحيل، بين ركبتي ودرج المقعد. أمّا المسند الخلفي المخصص

للظهر فقد وفّر الحماية اللازمة لمؤخرة رأسي. ومن خلفي ضجّ ما كان يطلق عليه الزملاء التلاميذ بالثرثرة والصراخ والضحك والصخب والبكاء، وصار البعض يقذفني بكرات من الورق، إلا أنني لم ألتفت، إذ تراءت لي السحب ذات الهدف الواعي والمحدد أكثر جمالاً من مرأى الشلل الهمجية، أولئك الأجلاف الوقحين المنفلتين تماماً الذين كانوا يقومون بإيماءات ساخرة. وفجأة ساد الصمت في الصفَ Ia حين دخلت امرأة قدمت نفسها فيما بعد بصفتها الآنسة شبولنهاور، غير أنني لم أكن بحاجة للالتزام بالهدوء، لأنني كنت قبل ذلك شديد الهدوء مستغرقاً في التفكير، منتظراً قدوم الأشياء من ذاتها. ولكي أكون صادقاً حقّاً فلا بدَّ من القول: إن أوسكار لم يجد ضرورة لانتظار الأشياء القادمة، إذ أنّه لم يكن بحاجة إلى اللهو والترفيه، لذلك فهو لم يكن ينتظر، إنما جلس في مقعده يتحسس طبله، متسلياً بمراقبة السحب وراء نافذة الصفّ، أو أمامها في الحقيقة، والتي نُظّفت جيّداً بمناسبة عيد الفصح.

كانت الآنسة شبولنهاور ترتدي حُلةً مفصلة فصالاً سيئاً، بحيث اتخذت هيئتها ملامح رجولية جافة. وقد تعزز هذا الانطباع من خلال ياقة القميص الضيقة المنشّاة، المطبقة على حنجرتها والقابلة للغسيل، حسبما لاحظت، تلك الياقة التي أخفت وراءها تجاعيد الرقبة. وحالما وطأت غرفة الصفّ بحذاء التجوال القصير، أرادت أن تكون محبوبة، فطرحت سؤالاً: «نعم يا أعزائي الصغار، هل بإمكانكم أن تنشدوا نشيداً؟»

فجاءها الصراخ الحاد الذي اعتبرته استجابة لسؤالها، إذ أنها بدأت تنشد بصوت عال أغنية الربيع «لقد حلّ مايو»، مع أننا كنّا في منتصف أبريل/ نيسان. وحالما أعلنت عن قدوم مايو/ آيار انفجر الصراخ والزعيق. فدوّى صياح ثلّة الصبيان من خلفي، دون أن ينتظروا إشارة البدء، ودون أن يعرفوا النصّ، أو دون أيّ إحساس بإيقاع الأغنية البسيط، فارتخى بفوضى أصواتهم حتى الجصّ في الجدران. وعلى الرغم من اصفرار جلدها وتسريحة شعرها الصبيانية وربطة العنق الرجولية التي أطلت تحت الياقة؛ فإنني شعرت بالأسف والحزن على الآنسة شبولنهاور. فتحررت

من السحت التي كانت تتمتع بالعطلة المدرسية، واستجمعت قواي، فسحبت مقرعتي الخشب من حمالة سروالي وصرت أنقر لحن الأغنية على الطبل بحدّة ومعرفة راسخة. بيد أن العصابة ورائي كانت تفتقد السمع والإحساس السليمين. فقد الآنسة شبولنهاور أخذت تهزّ رأسها تشجيعاً، مبتسمةً لزمرة الأمهات الملتصقات بالجدار، وتغمز بعينيها لأمّي بصورة خاصة، مما دفعني إلى تقييم تلك الإشارة باعتبارها موافقة على مواصلة التطبيل بهدوء، واستعراض قدراتي لفنية المعقدة في نهاية المطاف. فتوقفت العصابة من ورائي عن مزج الأصوات البربرية، فتخيلت طبلي وكأنه هو نفسه الذي كان يلقي الدرس فيعلّم، جاعلاً زملائي التلاميذ تلاميذَ لي، فوقفت الآنسة شبولنهاور أمام مقعدي ورمقتني بنظرة اهتمام، ثم ابتسمت لمرأى يديّ ومقرعتيّ الطبل ابتسامة لم تكن خالية من اللباقة، بل كانت تنم نكران ذات، حتى أنها حاولت أن تنقر المقعد بإيقاع الطبل ذاته، وتصرفدت باعتبارها شابة كبيرة ولطيفة، وقد نسيت وظيفتها التعليمية، متخلية عن وجودها الكارتوري المفروض عليها، متمتعة بمشاعر إنسانية، بمعنى المشاعر الطفولية المليئة بالفضول، المتعددة الجوانب والمخالفة للأخلاق.

وبعدما فشلت الآنسة شبولنهاور في تقليد إيقاع الطبل ارتدّت عائدةً إلى دورها القديم البليد المستقيم الذي كانت أجوره زهيدة للغاية، فتغلبت على نفسها مثلما يتوجب على المعلمات أنّ يفعلن في ظروف مماثلة، ثم قالت: «إنك بالتأكيد أوسكار الصغير الذي سمعنا عنه الكير. إنك تعزف عزفاً جميلاً على الطلب. أليس صحيحاً هذا الكلام يا صغاري؟ أليس أوسكار طبّالاً رائعاً؟».

فزعق الأطفال والتصقت الأمهات ببعضهن البعض، إذ أن شبولنهاور قد استعادت سلطتها، فأضافت بصوت ناعم: «لكننا الآن نريد أن نحتفظ بالطبل في خزانة الصفّ، لا بدَّ أنه أصبح متعباً ويحبّ أن ينام. وستستلم الطبل بعد انتهاء المدرسة». وبينما كانت تلقي خطبتها تلك أبرزت لي أطرافها العشرة المقصوصة الأظفار على طريقة المعلمات، وحاولت أن

تمدّ أصابعها العشرة المقصوصة الأظفار لتصادر طبلي الذي أقسم بأنه لم يكن متعباً ولا راغباً في النوم. في البدء تمسكت بالطبل، وأدخلت ذراعي في كمّي البلوزة، حاضناً دائرة التطبيل ذات اللعب الأبيض الأحمر، ورمقت الآنسة بنظرة. وعندما أخذت تنظر إليّ نظرة معلمات المدارس الشعبية القديمة، تلك النظرة الآلية التي لا تعرف الكلل، تطلعت إليها بنظرة خارقة، فتوغلت في أعماق الآنسة شبولنهاور، حيث عثرت على تفاصيل جديرة بالقصّ، كافية لثلاثة فصول كاملة، مجردة من الأخلاق؛ بيد أنني انتزعت بصري من حياتها الداخلية، لأنّ الأمر كان متعلقاً بطبلي. وعثرت حين توغل بصري بين صفحات كتفيها على خال بحجم الدرهم، مليء بالشعر، أستقرّ في وسط بقعة جلد لم تزل محتفظة بطراوتها. ولعلّها شعرت بأنها كانتِ مخترقة من قبلي، غير أنّ صوتي الذي هددتها به، أخذ يحكّ في زجاجة نظارتها اليمنى دون أن يحدث فيها عطباً: فاستسلمت للعنف المنفلت الغاشم الذي علّم مفاصل أصابعها بالطباشير البيضاء، فلم تعد تحتمل الكشط في نظارتها، واقشعر جلدها من الرعب، فتخلت عن الطبل، مرتعدة الأوصاف، ثم قالت: «إنك يا أوسكار شخص خبيث شرير»، ورمقت أمّي، التي لم تعد تعرف إلى أين تتجه ببصرها، بنظرة عتاب، وتركت لي طبلي المتيقظ، ورجعت إلى منصّة الدرس، تخطو بكعبي حذائها المسطّحين، وأخذت تنبش بحقيبتها وأخرجت نظّارة أخرى، لعلها كانت نظّارة القراءة، فرفعت الإطار الذي خدشه صوتي مثلما يخدش المرء زجاجة شبّاك بظفره؛ رفعته عن أنفها بحركة انطوت على حزم وإصرار كما لو أنني انتهكت حرمة نظارتها، ووضعت وهي تفرج إصبعها الرقيق، الإطارَ الآخر أنفها، وقوّمت أصابعها ت صارت تطقطق، ثمّ قالت وهي تدخل يدها بضع مرّات في الحقيبة المدرسية: «سأقرأ عليكم الآن جدول الدروس». فأخرجت من حقيبة المدرسة المصنوعة من جلد الخنزير رزمة أوراق، ورفعت منها قصاصةً، واحتفظت بها لنفسها، ثم وزّعت البقية على الأمهات، ومن ضمنهن أمّي، وأعلنت أخيراً للتلاميذ القلقين ذوي الأعوام الستة عن جدول الدروس. «الإثنين: دين وكتابة

وحساب ولعب. الثلاثاء: حساب وخطّ وغناء وعلوم طبيعية. الأربعاء: حساب وكتابة ورسم، ومن ثم رسم. الخميس: جغرافية وطنية وحساب وكتابة ودين. الجمعة: حساب وكتابة ولعب وخطّ. السبت: حساب وغناء ولعب، ومن ثم لعب».

أعلنت الآنسة شبولنهاور ذلك الجدول باعتباره قدراً محتماً، صادراً عن مؤتمر معلمي المدارس الشعبية، لذلك فإنها لم تستهن بحرف واحد من ذلاك النتاج الذي أعلنته بصوت حازم قاطع، بيد أنها سرعان ما تذكرت أعوام دراستها، فأصبحت رقيقة على نحو تقدميّ، فتهللت فرحاً وهتفت ببهجة تربوية: «يجب أن نكرر معاً يا صغاري الأعزاء كلّ ما جاء في الجدول. رجاءً ـ الاثنين؟».

فزعق القطيع: الإثنين.

ثم سألت الآنسة من جديد: «دين؟» فردد الوثنيون المعمدون كلمة دين. لكنني صنت صوتي، مطبّلاً حروف الدين على الصفيح. ومن ورائي كانوا يصرخون بناءً على رغبة شبولنهاور: «كتابة»! فأجاب طبلي مرّتين. «حسا. . .ب؟» فأصدر الطبل صوتين آخرين. وهكذا استمر الصراخ من خلفي وصلاة شبولنهاور من أمامي، فأخذت أقرع مقاطع الكلمات بأسلوب متواضع، قانعاً بسوء الحظ على مضض، إلى أن وثبت الآنسة شبولنهاور ـ لا أعرف لأيّ أمر أو في أيّ مناسبة ـ وأتضح أنها شعرت باستياء، لكن ليس بسبب الضغار الأفظاظ ورائي، إنما بسببي أنا الذي جعلت خديها المحمومين يصطبغان بحمرة الخجل، واتضح أن طبل أوسكار المسكين هو الذي أعطاها الذريعة الكافية لضمّ الطبّال المنضبط الإيقاع إلى صَلاتها: «أوسكار يجب أن تصغي لي، فيوم الخميس هو: جغرافية وطنية؟» فتجاهلتُ كلمة الخميس وقرعت الطبل أربع مرّات من أجل الجغرافية الوطنية، ومرّتين لكل من الكتابة والحساب، ولم أمنح الدين أربع قرعات مثلما يستلزم الأمر، إنما فقط ثلاث قرعات مباركة، لكن شبولنهاور لم تلحظ الفرق. وأثار التطبيل برمته امتعاضها، حتى أنها أفردت أمامي عشر مرّات أظفارها المقصوصة كما فعلت من قبل وهمّت بالهجوم على الطبل.

وقبل أن تمسّ طبلي، أطلقت صرختي القاتلة للزجاج، فأزالت الزجاجات العلوية الثلاث من نوافذ الصفّ الكبيرة. وسقطت الزجاجات الوسطية ضحيةً للصرخة الثانية، فتدفق هواء الربيع العليل في الغرفة بلا عائق أو مانع. وينبغي القول هنا إن إجهازي على الزجاجات التحتية للنوافذ بصرخة ثالثة كان فائضاً على الحاجة، بل كان نوعاً من البطر والغرور المحض، إذ أن شبولنهاور سارعت س سحب مخالبها أثناء تحطيم الزجاجات العلوية والوسطى. فبات حريّاً بي، بدلاً من ارتكاب جرم بحق الزجاجات الأخيرة بفعل نزوة تحطيم فنيّة هوجاء مشكوك فيها، التصرف بفطنة ومراقبة شبولنهاور التي رجعت تتمايل. ولعل الشيطان وحده كان يعلم كيف أنها أحضرت خيزرانة، على أية حال، كانت عصا الخيزران حارة دفعة واحدة أتت تهتزّ في خواء الغرفة المختلطة بهواء الربيع، فأخذت تلوّح بها مصدرةً صفيراً في ذلك الخليط الهوائي، وجعلتها تتثنى جائعة ظمآنة متهلفة بنهم للجلد المتشقق وللصفير وللستائر الكثيرة التي يمكن أن تضللها عصا من الخيزران، ولإشباع الرغبات، ثم هوت بها على غطاء لوحة الكتابة أمام مقعدي، بحيث قفزت من دواة الحبر بقعة حبر بنفسجية، وصارت المعلّمة تقرع الطبل على الرغم من أنني لم أسمح ليدها بالقرع، لكنها مع ذلك قرعت طبلي. نعم، لقد قرعت الآنسة شبولنهاور على طبلي. فما الذي كان بإمكانها أن تعزفه على الطبل؟ حسناً! إذا كان لا بدَّ لها من التطبيل فلم على طبلي أنا؟ ألم يجلس خلفي ما يكفي من الرعاع النظيفين المغسولين؟ وهل من الضروري أن يكون القرع على صفيحتي بالذات؟ وهل يجب أن تتسلط على طبلي على الرغم من أنها لا تفقه شيئاً أبداً عن التطبيل؟ ما الذي كان يلمع ويبرق في عينيها؟ ما هو اسم الحيوان الذي أرادت أن تضربه؟ ومن أي حديقة حيوانات كان قد هرب، وعن أي قوت يبحث، وفي أي اتجاه مضى؟ فوصل ذلك إلى أوسكار، وتوغل فيه، ولا أعرف بالضبط لأي سبب صعد عبر نعل الحذاء وباطن القدم، فوجد طريقه إلى الأعلى ليحتل أوتار حنجرته فيرغمه على إطلاق صرخة من الصدر عنيفة كافية لكسر زجاج

كنيسة قوطيّة عملاقة، جميلة الشبابيك، آتية بالضوء من كلّ مكان، وجعله حطاماً.

أو بعبارة أخرى: قمت بتكوين صرخة مضاعفة حولت زجاجتي نظّارة شبولنهاور إلى تراب حقّاً. فتراجعت بحاجبيها المدميين قليلاً، تحملق من خلف إطاريها الفارغين، ثم بدأت تولول في الأخيرة، نائحةً بطريقة بشعة وبانفعال لا يليق بمعلمة مدرسة شعبية، بينما لاذت عصابة التلاميذ من ورائي بالصمت، مذعورةً، وقد اختفى بعض التلاميذ تحت المقاعد، وار البعض الآخر يصرّ بأسنانه، بل أن عدداً منهم تزحزح من مقعد إلى آخر، لكي يلتحق بأمّه. وفي الحال أخذت الأمهات اللواتي أدركت حجم الأضرار يبحثن عن المذنب، فحاولن الهجوم، وكنّ على وشك أن يهجمن حقّاً عليها، لولا أنني تداركت الموقف وتحررت من مقعدي حاملاً معي الطبل. وتلمست طريقي عبر الآنسة شبولنهاور نصف العمياء إلى أمّي المهددة بالنسوة المولعات بالشجار، فأمسكت بيدها وسحبتها من غرفة الصفّ شبيه التي جال بها التيار الهوائي، حيث الأروقة الصاخبة والسلالم الحجرية المقامة للأطفال العمالقة، وحيث فتات الخبز في مجاري الأحواض الرخامية. وفي صالة الجمباز المفتوحة كان الصبيان يرتجفون تحت العُقل، وكانت أمّي لم تزل ممسكةً بقصاصة الورق التي حملتها عنها في بوّابة مدرسة بستالوتسي، صانعة من جدول الدروس كرة ورق لا معنى لها.

وقد سمح أوسكار للمصور الفوتوغرافي الذي وقف بين أعمدة البوابة ينتظر التلاميذ الجدد بأكياسهم المخروطية وأمهاتهم، أن يلتقط صورة له ولكيس المدرسة الذي لم يفقده على الرغم من الفوضى التي ضربت أطنابها قبل حين كانت الشمس ساطعة، فتناهى إلى سمعنا اللغط من الصفوف، وأوقف المصوّر أوسكار أمام سبورة كُتب عليها: يومي الأوّل في المدرسة.

راسبوتين وحروف الأبجدية

رويت لصديقي كليب والمعين برونو الذي كان يصغي بنصف أذنه لقصّة لقائي الأوّل بجدول الدروس، فقلت: لقد كُتب على تلك السبورة الّتي كانت تمنح المصوّر الفوتوغرافي خلفيةً تقليدية لالتقاط صور بحجم البطاقات البريدية للتلاميذ ذوي الأعوام الستة بأكياسهم المدرسية وجُرُبِ أقلامهم: يومي الأوّل في المدرسة. وبلا شكّ أنّ تلك العبارة كانت مقروءة فقط من قبل الأمهات اللواتي وقفن خلف المصوّر منفعلات أكثر بكثير من أبنائهن. وسيستطيع الصبيان التوصل، بعد عام، إلى أنّ تلك اللقطة الجميلة أخذت بمناسبة يومهم المدرسي الأوّل، وذلك إمّا أثناء إدخال تلاميذ الصفّ الأوّل إلى المدرسة في الفترة المرافقة لعيد الفصح، أو من خلال الصور التي سيحتفظون بها.

كان خط الكتابة الدائري يزحف بخبث، مدبباً وخاطئاً في انحنائه، لأنه حُشي بالطباشير على السبورة، ذلك الخط الذي علّم بداية المرحلة الحياتية الجديدة. وفي الحقيقة أنّ هذا الخطّ لا يصلح إلا لما هو متميّز، أو للتعبير المقتضب المختصر، أو للشعارات اليومية على سبيل المثال. فهناك بعض الوثائق التي لم أرها في الواقع، لكنني يمكن أن أتخيلها مكتوبة بخط زوترلنغ، وأذكر في هذا السياق وثائق التطعيم ضد الأمراض وشهادات الألعاب الرياضية وأحكام الإعدام المكتوبة بخطّ اليد. ومنذ ذلك الوقت كان حرف الميم الذي يبدأ به الخطّ «الزوترلنغي» المخاتل الذي كانت تنبعث منه رائحة القنّب، والذي لم أستطع في الواقع قراءته، لكنني كنت أعرف نمطه، ذلك الحرف المعقود كالمشنقة ذات الحبلين،

فيذكرني في منصّة الإعدام. ومع ذلك فإنني كنت أتمنى قراءته حرفاً حرفاً بدلاً من الشعور به وإدراكه على نحو غامض. يجب أن لا يظنن أحد بأنني صنعت من لقاي بالآنسة شبولنهاور لقاءً لتحطيم الزجاج من ذاك العلوّ الشاهق، وممارساً تطبيل الاحتجاج الثوري؛ لأنني كنت أتقن الأبجدية. كلا، بل كنت أعلم تماماً بأن الإدراك الحسيّ للخط الزوترلنغي لا يعني شيئاً البتة، إذ أنني كنت أفتقر إلى أبسط مبادئ التعليم المدرسي. وللأسف الشديد كانت الطريقة التي أرادت بها الآنسة شبولنهاور أن تجعلني عازفاً لم تعجبني. وبناءً على ذلك فإنني لم أقرر أبداً، حين غادرت مدرسة بيستالوتسي، بأن يومي الأوّل في المدرسة هو اليوم الأخير. لقد انتهت المدرسة، والآن سنذهب إلى البيت. فيا له من حدث لا مثيل له! وقبل أن يخلّدني المصوّر الفوتوغرافي في الصورة، فكّرت في أنني كنت أقف أمام سبورة المدرسة تحت الخطّ الذي من المحتمل أن يكون أكثر الخطوط أهميةً وشؤماً. فبإمكانك الحكم على الخطّ من خلال الشكل، فتتخيل الحبس الانفرادي والحجز الاحترازي والمراقبة المباشرة ويمكنك إحصاء المربوطين بالحبل، لكنك لن تستطيع فكّ رموزه. ومع ذلك فإنك وضعت في حسابك أن لا تطأ هذه المدرسة المجدولة الدروس قطّ، على الرغم من جهلك الصارخ بمبادئ القراءة والكتابة. فأين ستتعلم يا أوسكار حروف الهجاء الصغيرة والكبيرة؟

لقد تعرفت على الحروف الكبيرة، برغم أن الصغيرة منها كانت كافية تماماً، من خلال الوجود الثابت، الساطع الوضوح، للناس الكبار، الوجود الذي لا يمكن إلغائه من الكون أبداً. وفي آخر المطاف سوف لا يملّ المرء من إثبات شرعية وجوده بحروف الهجاء الكبيرة والصغيرة، ومن خلال مبادئ التعليم الديني وما إلى ذلك من مبادئ تعليمية، كما أن المرء يتحدث عادةً أثناء الزيارات الرسمية عن محطات استقبال الوفود الصغيرة والكبيرة حسب كثافة الوجهاء ورجال السلك الدبلوماسي من حملة الأوسمة والنياشين.

ولم تكن قضية تعليمي تشغل ذهن ماتسرات أو ذهن أمّي خلال تلك

الشهور التي مرّت، فاكتفى الزوجان بزيارتي الأولى للمدرسة، تلك الزيارة التي أرهقت أعصاب أمّي وأشعرتها بالخجل، وكانا يقذفان الحسرات، مثل خالي يان برونسكي، كلّما تطلعا إلى من علوّ، وينبشان الحكايات القديمة، ومنها حكاية عيد ميلادي الثالث: «الباب الأرضيّ الذي كان مفتوحاً. لقد تركته مفتوحاً، أليس كذلك؟ إنك كنت في المطبخ وقبل ذلك في القبو، أليس صحيحاً؟ كنتَ جلبت علبة فاكهة محفوظة كتحلية بعد الطعام، هل صحيح هذا الكلام؟ فتركت الباب المؤدي إلى القبو مفتوحاً، مضبوط؟»

كانت اتهامات أمّي لماتسرات صحيحة كلّها، ومع ذلك فإنها لم تكن صائبة تماماً مثلما نعلم اليوم. لكنه تحمّل الذنب كاملاً، فكان يبكي أحياناً عندما ترقّ عاطفته، حتى يتوجب على أمّي وعلى يان برونسكي أيضاً القيام بمواساته، مطلقين عليّ لقب الصليب القسري الذي على المرء أن يحمله، أو القدر الذي لا مفرّ منه، أو المحنة التي لا يعرف المرء كيف حلّت به وعلى أي أساس.

وكان من المستحيل الحصول على معونة من أولئك الممتحنين المبتلين بالقدر، المتورطين بحمل الصليب. وكذلك لم أضع في حسابي خالتي هدفغ برونسكي التي كانت تأخذني دوماً، لكي ألعب مع مارغا، ابنتها، ذات العامين في صندوق الرمال التابع لمتنزه شتيفن: كانت في الواقع طيبة القلب، إلا أنها غبية بشكل صارخ. ويجب أن أقلع عن ذهني التفكير في ممرضة الدكتور هولاتس الآنسة إنغا التي لم تكن غبية بشكل صارخ ولا طيبة القلب؛ لأنها كانت فطنةً للغاية، ولم تكن مجرد ممرضة عادية، بل مساعدة طبيب لا تعوض، ولذلك لم يكن لديها وقت لتصرفه من أجلي. فكنت أتغلب بضع مرّات في النهار على سلّم البناية ذي الدرجات البالغة أكثر من مائة، مطبلاً في كل طابق بغية الحصول على مشورة أو نصيحة، وأشمّ ما كان يعده المؤجرون التسعة عشر من طعام للغداء، ومع ذلك فإني لم أطبل في عتبات الأبواب؛ لأنني لم أفكّر في العجوز هايلاند أو في مصلّح الساعات لاوبشاد، ولم أفكّر قطّ في السيّدة

كاتر البدينة، أو في الأم تروجنسكي، مع احترامي لها، باعتبار أن أحدهم سيكون معلمي في المستقبل. وكان هناك موسيقي وعازف بوق اسمه ماين يسكن تحت سقف البناية. لكن السيّد ماين كان سكرانَ طوال الوقت ويربّي في بيته أربع قطط، ويعزف الموسيقى الراقصة في ناحية «سينغلرهوهه»، وكان يجود مع خمسة من السكارى مثله في ليلة عيد الميلاد الطرقات وكتل الثلوج ويتصارع هو وجوقته مع الصقيع الصعب المراس. لقد التقيت به ذات مرّة على السطح حيث كان يستلقي على ظهره، مرتدياً سروالاً، أسود ويدحرج قنينة عرق العرعر بقدميه العاريتين وينفخ ببوقه لحناً رائعاً. ودون أن ينقطع عن العزف أو يلقي بآلته النحاسية، قلب عينه قليلاً، ليقذفني بنظرة جانبية، أنا الذي وقفت خلفه، وتقبّل أن أرافقه العزفَ على طبلتي. ولم تكن آلته النحاسية أكثر قيمةً من طبلتي الصفيحية. غير أن العزف الثنائي دفع قطط ماين الأربع إلى الهرب فوق السطح، وجعل القرميد يرتج ارتجاجاً خفيفاً.

وبعدما انتهينا من العزف وخفضنا آلتي الصفيح، أخرجت من تحت بلوزتي جريدة «أحدث الأخبار»، وسويتها أمامه، وتربعت إلى جانب بوقه، ثم رفعت مادة القراءة تلك أمامه، وطلبت منه أن يعلمني أشكال الحروف الصغيرة والكبيرة. بيد أن السيّد ماين انتقل مباشرة من العزف إلى النوم؛ إذ أنه كان ملتزماً بثلاث قضايا حقيقية، وهي: قنينة عرق العرعر والبوق والنوم. كنّا قد عزفنا معاً مرّات عديدة، قبل أن يلتحق بفرقة خيّالة العاصفة ويقلع عن شرب العرق بضعة أعوام. نعم؛ لقد عزف الثنائي الموسيقي فوق السطح لمدخنة البناية وللقرميد والحمام والقطط، لكنه لم يصلح مرّة أن يكون معلماً. فحاولت الأمر نفسه مع بائع الخضر غريف، متخلياً عن طبلي؛ لأن غريف لم يستسغه، فزرت قبو دكانه الواقع قبالة بيتنا بانحراف. بدت جميع المقدمات الضرورية للتعليم الشامل العميق متوفرة هناك: حيث انترت الكتب في كل مكان، في البيت ذي الغرفتين ونصف الغرفة وفي الدكان أيضاً وأمام طاولة البيع وخلفها، وحتى في قبو البطاطس الجاف إلى حدّ ما؛ كتب المغامرات والأغاني والأوبرا والباليه

وحياة الفنانين، إضافة إلى أكوام من المجلات الرياضية، ومجلدات مصوّرة للصبيان شبه العراة، التقطت كلها لأسباب مجهولة بين تلال الرمل والشاطئ وهم يقفزون وراء كرة، مبرزين عضلاتهم اللامعة المدهونة بالزيت. كان غريف يعاني آنذاك من مصاعب كثيرة في الدكان؛ إذ أن بعض مفتشي مكتب مراقبة المكاييل والأوزان قد عثروا أثناء فحص الميزان والأوزان على بعض النواقص، فاستخدموا وقتها عبارة «الغش»، فكان على غريف أن يدفع غرامة مالية ويشتري أوزاناً جديدة. ولم يكن أمامه هناك شيء يسري عنه الهمّ ويرفهه سوى كتبه وسهراته الليلية وجولاته في أيّان العطل الأسبوعية مع كشّافته. وحالما لمحني أدخل المحلّ تابع كتابة الأسعار على رقع صغيرة من المقوّى، فاغتنمت فرصة كتابة الأسعار وتناولت ثلاث أو أربع رقع بيضاء وقلماً أحمر وحاولت بهمّة وحماس تقليد كتابة القطع الصغيرة تلك بخطّ زوترلنغ، مستخدماً إيّاها نماذجَ لكي أثير بها اهتمام غريف.

لكن أوسكار بدا له صغيراً ومصفرّ الوجه أكثر من اللازم، كما أن عينيه لم تكنا واسعتين بشكل كاف. أخيراً تخليت عن القلم الأحمر، وتناولت مجلداً عتيقاً مليئاً بالعراة الذين قفزوا مباشرة أمام غريف، فاتحاً المجلد بطريقة ملفتة للنظر، لكي أعرض له صور الصبيان المنحنيين أو الذين تمطوا بأجسامهم، أولئك الصبيان الذين كانوا يعنون شيئاً ما لغريف حسب اعتقادي، واضعاً المجلد أمام بصره مباشرة، أو منحرفاً قليلاً. ولأن بائع الخضر كان منهمكاً في كتابة الأسعار بدقة وعناء، إذا لم يكن هناك زبائن يشترون اللفت الأحمر، فقد اضطررت إلى طبق أغلفة الكتب بقوة محدثاً جلبة أو إلى تقليب الصفحات بسرعة، لعلّها تولّد صوتاً ينتشل غريف من استغراقه في خطّ الأسعار وينتبه لي، أنا الذي أجهل القراءة.

ولكي أعبر عن الوضع دون لفّ أو دوران فإنني أقول: إن غريف لم يستطع فهم ما كنت أعنيه وإدراكه. ولم يكن يلق بالاً قطّ إلى أوسكار إذا كان هناك كشافة في المحل ـ غالباً ما يكون اثنان أو ثلاثة من مساعديه الكشفيين في المحل. أما إذا كان غريف بمفرده فإنه كان يثب بعصبية

متوتراً بفعل الاضطراب ويوزّع أوامره: «دع الكتاب في محله يا أوسكار! إنك لا تفقه منه شيئاً، بل غبيّ وصغير أكثر بكثير من قدرتك على فهمه، ولذلك فإنك ستمزقه. وقد كلفني ثمنه أكثر من ست غولدات. إذا كنت تريد اللعب فأمامك ما يكفي من البطاطس والكرنب الأبيض»!

فانتزع المجلّد المصوّر من يدي، وصار يورّق به دون أن يطرأ أي تغيير على ملامحه، ثم جعلني أقف وحيداً بين رؤوس الملفوف والقرنابيط والكرنب الأحمر واللفت، إذ أنّ أوسكار لم يكن يحمل طبله معه. وكانت هناك السيّدة غريف أيضاً، فأصبحت غالباً ما أجرجر خطاي إلى مخدع الزوجين غريف بعدما يوبخني بائع الخضر. كانت لينا غريف تضطجع أسابيع كاملة في الفراش، متظاهرة بالمرض، وتنبعث من جسمها رائحة قميص نوم عفن، وتلتقط جميع الحاجيات، ما عدا الكتاب الذي يمكن أن أتعلم منه شيئاً. وكنت أمضيت الأسابيع اللاحقة شاعرًا بالحسد إزاء أقراني كلّما رأيتهم يحملون عدّة المدرسة التي كانت تطلّ من جوانبها قطع الإسفنج وخرق مسح السبّورات، يتبخترون مغترين بأنفسهم. ومع ذلك فإنني لم أتذكر قط بأنني حملت أفكاراً ذات يوم من قبيل: إنّك أقحمت نفسك يا أوسكار في هذه الورطة. وكان عليك أن تتصرف نحو حسن في المدرسة. فما كان يتوجب عليك أن تفسد علاقتك بالآنسة شبولنهاور إلى أبد الآبدين. إن هؤلاء الصبيان قد تجاوزوك وفهموا حروف الأبجدية الكبيرة والصغيرة، بينما أنت لم تكن قادراً حتى على أن تمسك بجريدة «أحدث الأخبار» بصورة صحيحة!

كان ذلك شعوراً خفيفاً بالحسد مثلما قلت قبل ثوان، لا أكثر ولا أقل. وإنني لا أحتاج سوى أن أشمَّ المدرسة على نحو عابر لأنفر منها نفوراً أبدياً. فهل جربت يا سيّدي أن تشمّ قطع الإسفنج والخرق الممزقة المغسولة على نحو سيئ والتي تمسح بها تلك الألواح الإردوازية المقشرة الأصباغ والمحفوظة بالحقائب المدرسية المصنوعة من الجلد الرخيص والمشبعة بأبخرة الخطّ الجميل وجداول الضرب الصغيرة والكبيرة وبعرق أقلام الكتابة على الألواح، تلك الأقلام المتعثرة المنزلقة دائماً، والمصدرة

للصرير والمبللة باللعاب؟ وحين يعود التلاميذ من المدرسة ويلقون حقائبهم بالقرب مني أحياناً، لكي يلعبوا كرة القدم، أو كرة الشعوب، فإنني أنحني على قطع الإسفنج الجافة بفعل الشمس، متخيّلاً الشيطان، الذي كان موجوداً ربما، وقد استبنت هذه السحب المختمرة في إبطه. ولم تكن مدرسة الألواح الإردوازية تناسب رغبتي ومزاجي؛ غير أن أوسكار لا يريد الادعاء بأن السيّدة غريتشن شفلر التي وضعت مسؤولية تعليمه على عاتقها بعد ذلك بفترة قصيرة قد جسّدت رغبتي تجسيدً حيّاً.

كنت أشعر بالإهانة في الواقع من رؤية محتويات دار الخبّاز شفلر الواقعة في جادة كلاينهامر. كان مفرش السرير مزين بالألوان والوسائد المطرزة بالشعارات وألعاب القماش المترصدة في زوايا الأريكة والخزف الصيني الذي يصرخ مطالباً بالحصول على فيل ليرضّه رضّاً فيحطمه، فضلاً عن تذكارات السفر الملقاة في جميع الاتجاهات، تلك الأشياء المطرزة والمعقودة والملحقة بمشبكات الدانتيلا والمؤطرة بالحواف المدببة التي تشبه أسنان الفئران. فلم يطرأ في ذهني في ذلك البيت اللطيف المبهج في بساطته، والضيّق حدّ الاختناق والساخن في الشتاء، الفاسد الهواء في الصيف بسبب كثرة النباتات، سوى تصوّر واحد: وهو أن غريتشن شفلر لم يكن لها أطفال، وربما أنها كانت تتمنى طفلاً، ليخلب لبّها، وربما تمنت طفلاً إلى درجة الجنون، ربما نشأ بتأثير زوجها، أو برغبة منها، لتحيك له وترصعه باللآلئ وتحفّه بالدانتيلا وتقصّبه بالمطرّزات الصليبية الشكل.

إنني دخلت هذه الدار لأتعلم حروف الأبجدية الصغرى والكبرى، فبذلت قصارى جهدي لئلا يتحطم الخرف الصيني وتذكارات السفر، ولذلك فإنني تركت صوتي القاتل للزجاج في البيت كما يقال، وصرت أغض الطرف عندما تأمرني غريتشن بالكفّ عن التطبيل، فقد طبلت بما يكفي، ثم تسحب الطبل من بين ركبتي كاشفةً عن أسنانها المحشوة بالذهب والتي تشبه أضراس الفرس، لتضع الطبل بين دمى الدببة. وقد أقمت علاقة آنذاك بلعبتين مخيطتين بشكل فنّي، فكنت أضمّها إلى صدري

بانتباه واحترس، فبات يواسيني كلّما أساء لي غوته. فتعلّم القراءة والتظاهر بالجهل في وقت واحد ليس بالأمر السهل. لقد كان ذلك أصعب بالنسبة لي من تصنّع التبوّل في الفراش طيلة أعوام الطفولة، فإذا ما كان التبول في الفراش يعني التظاهر كلّ صباح بنقص ما يمكن التغلب عليه؛ فإن تصنّع الجهل كان يعني إخفاء تقدمي السريع خلف الجبال، وخوض صراع مرير ومتواصل ضد الغرور الفكري والثقافي الذي بانت ملامحه في ذهني آنذاك. كنت تقبلت من الناس البالغين تهمة التبوّل في الفراش بلامبالاة، لكنني شعرت، وكذلك معلمتي، بالإهانة من تهمة الغباء التي رافقتني أعواماً.

لقد أدركت غريتشن وظيفتها التعليمية وهي تتهلل فرحاً بعد أن أنقذت الكتب من الملابس الداخلية للأطفال الرضّع، فنجحت إلى حدّ ما في إدخال السعادة إلى قلب تلك المرأة المحرومة من الأولاد وانتشالها من كرات الصوف والحياكة. كانت في الحقيقة، تودّ أن أستخدم «الحسابات النقدية» كتاباً مدرسياً للتعلّم، لكنني أصررت على راسبوتين، وعندما اشترت في حصّة الدرس الثانية كتاباً حقيقياً لتعليم حروف الأبجدية للمبتدأين طالبتها براسبوتين، ولمّا أحضرت لي قصص فلاّحي الجبال مثل (أنف القزم أو الرجل الذي يبلغ طوله طول الإبهام) قررت أن أرفع صوتي، فصرخت بها: «رابوبين»! أو «راشوشين»! وكنت أحياناً أبدو كالأبله المغفّل، فأهتف: «راشو، راشو»، فكانت تسمع رغاء أوسكار، لعلها تدرك أي كرّاسة كنت أستسيغ، ولكي أبقيها أيضاً جاهلةً بعبقرية أوسكار الناضجة المقتنصة الحروف.

واستطعت التعلّم بسرعة وبانتظام، دون أن أفكر كثيراً في الأمر. وبعد عام واحد كنت أرى نفسي في بطرسبورغ، أطوف في المخادع الخاصة لسلطان الروس المتفرد، وفي غرفة ابن القيصر الذي لم يزل مريضاً يومئذ، بين المتآمرين وقساوسة الكنيسة الأرثوذكسية، فأصبحت شاهداً بطبيعية الحال على حفلات راسبوتين الماجنة. كان لذلك وقع كبير في نفسي؛ إذ أن الأمر كان يتعلق بشخصية مركزية. وبدت النقوش

وأغمز برمشي إلى السيّدة التي كانت تتطلع إليّ بدهشة، متظاهراً بصداقتي الزائفة لتلك اللعبتين؛ صداقتي التي بدت حقيقة لهذا السبب بالذات، لكي أسرّ قلب غريتشن المطرّز بنماذج ناعمة وخشنة.

لم تكن خطتي سيئة، ففي الزيارة الثانية فتحت غريتشن قلبها، بمعنى أنه استفاق، مثلما ينفض المرء جواربه، وأرتني الخيط الوطيل المنسول والمعقود في بعض المواضع، وهي تفتح أمامي الخزانات والصناديق والعلب، عارضة الثياب القديمة البالية؛ أكداس من ستر الأطفال وسراويلهم الصغيرة، تكفي لخمسة توائم، فلتبسني إياها، ثم تخلعها عنّي. وأظهرت لي وسام الرماية الذي حاز عليه زوجها من جمعية المحاربين القدماء، ثم ألحقته بالصور التي لا يختلف بعضها عن صورنا. ولأنها نبشت مرّة أخرى في ثياب الأطفال الرضّع، باحثةً عن بنطلون مناسب، فقد برزت الكتب للعيان. كان أوسكار يتوقع تقريباً العثور على كتب تحت ثياب الأطفال؛ لأنه سمع غريتشن تتحدث إلى أمّه حول الكتب. وكان يعلم كيف كانتا تتبادلان الكتب بهمّة وحماس عندما خطبتا وتزوجتا في وقت واحد وهما في عزّ شبابهما، ويستعرنها من المكتبة في قصر السينما؛ فيتزودان بمواد للقراءة، لتضفيان على الزواج من الخبّاز وتاجر بضائع المستعمرات بعداً عالمياً وسعة اطلاع وبريقاً. ولم يكن كثيراً هذا الذي عرضته عليّ غريتشن، ولا بدّ أن تكون قد أهدت المجلدات الضخمة لجمعية الكتاب التي بحوزتها إلى الناس القرّاء؛ لأنهم لم يمارسوا الحياكة، ولم يكن لهم شخص مثل يا برونسكي الذي انقطعت أمّي بسببه عن القراءة، بعد ذلك تفرغت غريتشن إلى أعمال الحياكة.

فالكتب الرديئة هي كتب أيضاً، لذلك يعني أنها أيضاً مقدسة. لكن ما عثرت عليه من كتب كان يتناول الأعشاب واللفت والبنجر، وكان قسماً من الكتب يعود إلى ملكية شقيقها تيو الذي لقي حتفه غرقاً في قاع بحر الشمال. كانت هناك سبعة أو ثمانية مجلدات ألفها كوهلر عن الأساطيل، وكانت مليئة بصور السفن التي غرقت منذ زمن، وصور الحماية التابعة للبحرية القيصرية، ومنها «باول بينكه، بطل البحر ـ «فلا يمكن أن تناسب

هذه الكتب ذائقة غريتشن وتداعب قلبها. كذلك فَقَدَ تاريخ دانسغ لأريش كايزر والصراع حول روما الذي قاده رجل يدعى فيلكس دان بمعونة توتيلا وتيّا وبليسار ونارسس، أهميتها وبريقهما على يدّ شقيقها الذي ركب البحر.

واخترت كتاباً من «رفّ» كتب غريتشن، كانت له علاقة بحساب الواردات والصادرات، وكتاباً آخر لغوته «فالفيرناندشافتن» وثالثاً ضخماً مصوراً: راسبوتين والنساء. وبعد فترة طويلة من التردد ـ كان الخيار أصغر من أن يتيح لي إمكانية الحسم السريع ـ التقطت، دون علم بما التقطت، بل انصياعياً لصوتي الداخلي العتيد، كتاب راسبوتين أوّل الأمر، ثم تناولت بعده غوته.

كان من شأن هذه القبضة المضاعفة أن تثبت حياتي، أو على الأقل تثبيت تلك الحياة التي اخترتها خارج إطار الطبل، وتترك فيها أثراً كبيراً. وإلى يومنا هذا أصبحت ـ بعد أن استدرج أوسكار مكتبة المصحة الطبيّة طلباً للمعرفة إلى غرفته شيئاً فشيئاً ـ أتأرجح، مستهيناً بشيلر ورفاق الشرّ معاً، بين غوته وراسبوتين، بين ذاك الآخر الذي يشفي الناس بالصلاة وذاك العالم بكل شيء، بين المتجهم المكفهر الذي يأسر قلوب النساء وأمير الشعراء المشرق النفس الذي يدعالنسوة يسحرنه. وإذا ما كنت أحسب نفسي بعض الأحيان منتمياً إلى راسبوتين، خشيةً من غوته غير المتساهل، فإنّ ذلك يعود إلى شبهة مفادها أن: غوته سيرى فيك، يا أوسكار، إذا كنت قد طبّلت في زمنه، مسخاً طبيعياً، وسيحكم عليك باعتبارك تجسيداً لنقائض الطبيعة، وسيطعم طبيعته بالفطائر الشديدة الحلاوة ـ حتى لو كانت طبيعته تنضح بالشذوذ عن الطبيعة؛ فإنك ستعجب بها في آخر المطاف وستسعى بغية اللحاق بها ـ وسيصرعك أيها المسكين التافه بمؤلفه الضخم عن علم الألوان، هذا إذا لم يقتلك بقبضته.

لكنني أعود مرّة أخرى الى راسبوتين الذي علمني، بمساعدة غريتشن شفلر، حروف الأبجدية الصغيرة والكبيرة، وعلمني كيفية التعامل مع النساء

المحفورة المعدن والمنتشرة الكتاب التي أظهرت راسبوتين الملتحي ذا العينين الفاحمتي السوداء وسط السيّدات العاريات، إلا من الجوارب الشفّافة السوداء، تؤيد هذه الحقيقة.

لكن موت راسبوتين ترك في نفسي أثراً بليغاً، فقد سُمم بالكعك والنبيذ، وعندما أراد أن يتناول الكثير من الكعكة أطلقوا عليه الأعيرة النارية من المسدسات، وحين أخذ الرصاص يتراقص منتشياً في صدره، أوثقوه وألقوا به في ثقب جليد بالقرب من نيفا. لقد فعل ذلك الضبّاط الرجال وحدهم؛ لأن نساء العاصمة بطرسبورغ كنّ سيعطين «لأبيعنّ» راسبوتين كلّ ما يطلبه منهن، ما عدا الكعك المسموم؛ لأنن كن مؤمنات براسبوتين، بينما كان الضبّاط يسعون إلى إزالته عن طريقهم، لكي يؤمنوا بأنفسهم يومئذ.

فهل من الغريب أن أجد إعجاباً في حياة ونهاية ذلك المتعبد الذي كان يشفي المرضى بالصلاة؟ كانت غريتشن تتلمس طريقها مرّة أخرى إلى كرّاسة أيّام زواجها الأولى، ثم تقلع عنها أحياناً تقرأ عبارة (حفلة ماجنة)، فترتجف وهي تنفخ الكلمة السحرية مجون بصورة خاصة، فكانت حين تنطق المجون تكون مستعدة أيضاً لممارسته، وحين تمارسه لم تعد حينئذ قادرةً على تخيّل الحفلة الماجنة. كان الدرس يتخذ منحى سيئاً عندما ترافقني أمّي إلى بيت الدار الواقعة فوق فرن الخبز إلى جادة كلاينهامر وتحضر معي الدرس الذي كان يتحوّل أحياناً إلى مجون، وإلى غاية بحدّ ذاته، وليس درساً لتعليم الصغير أوسكار. فكانت القهقهة تنطلق في كل ثالث عبارة بصوتين وتجفّ الشفاه وتبدو متشققةً، مما يجعل المرأتين المتزوجتين تقتربان من بعضهما، إذا ما رغب راسبوتين في ذلك، شاعرتين بالاضطراب فوق الأريكة، فيبدأ عصر الأفخاذ، وتستحيل القهقهة الأوليّة إلى تأوهات، وهذا ما لم يكن يتوقعه المرء بعد اثنتي عشرة صفحة من كتاب كرّاسة راسبوتين، أو ربما لم يرغب في تحققه، إلا أنّ المرء سيتقبله في ساعات الأصيل، بحيث إن راسبوتين نفسه لن يعترض قط، بل سيوزعه مجاناً وإلى أبد الآبدين.

أخيراً بعدما تقول المرأتان «يا إلهي، يا إلهي» وتسويان تسريحتيهما من جديد فإن أمّي تبادر إلى السؤل: «هل ترين أن أوسكار لا يفقه شيئاً من هذه الأفعال؟» فترد عليه غريتشن مهدأةً من روعها: «أرجوك، كيف له أن يفقه ذلك؟ إنني أبذل جهداً كبيراً، لكنه لم يتعلم شيئاً، كما أنه سوف لا يتعلم القراءة أبداً».

ولكي تبرهن على جهلي المطبق فإنها كانت تضيف: «تصوري يا آغنس أنه ينتزع صفحات صاحبنا راسبوتين، ويكوّرها، فتختفي بعد ذلك إلى الأبد. كنت في بعض الأحيان أفكّر في التوقف عن التعليم، لكنني كنت أراه سعيداً بالكتاب، فأتركه يمزقه. لقد أبلغت ألكسندر بأن يهدي لنا راسبوتينَ جديداً بمناسبة عيد الميلاد».

إنني نجحت، ومثلما لاحظتم خلال ثلاثة أعوام أو أربعة، وطالما كانت غريتشن شفلر تعلمني، في فصل نصف صفحات راسبوتين عن بعضها البعض بحذر، متظاهراً بالعبث، ثم صرت أكورها، لكي أخرجها فيما بعد من تحت بلوزتي في زاوية التطبيل المخصصة لي في دارنا، وأسويها وأصفها من جديد، لغرض استخدامها بمثابة كرّاسة سريّة للقراءة، بعيداً عن أنظار النساء ومضايقاتهن. وكذلك فعلت مع غوته الذي نطقت اسمه في الحصّة الرابعة «دوته»، طالباً من غريتشن إحضاره لي؛ إذ يمكنني الاعتماد على راسبوتين وحده، فأصبح واضحاً لي بعد فترة قصيرة بأن كلّ راسبوتين في هذا العالم كان يقف بمواجهته غوته، بمعنى أنّ راسبوتين سيستدرج وراءه غوته، أوغوته سيستدرج وراءه راسبوتين، لكي يمكن الحكم عليه بعد ذلك بالمقارنة.

وعندما يتربع أوسكار بكتابه المفكك على سطح البناية أو في المخزن الخشبي للسيّد هايلاند العجوز، خلف حوامل الدرّاجات الهوائية، خالطاً الأوراق لرواية غوته «فالفيرفاندشافتن» بملزمة من راسبوتين مثلما يخلط المرء أوراق اللعب، ويقرأ الكتاب المؤلف توّاً بدهشة متنامية، ومضحكة في الوقت ذاته، كان يرى أوتلي، بطلة غوته، وهي تمسك بذراع راسبوتين بأدب وحياء، لتتجول في جنائن ألمانيا الوسطى، وغوته يجلس إلى جانب

النبيلة أولغا، الخليعة الفاجرة، ويطوف معها في زَلاّقة جليد من حفلة ماجنة إلى أخرى في نواحي بطرسبورغ الشاتية.

لكنني أعود الآن إلى حجرة المدرسة في جادة كلاينهامر: كانت غريتشن تجد في حضوري متعة صبيانية واضحة، على الرغم من أنني لم أتقدم، مثلما بدا لها خطوة، واحدة في التعلّم. فكانت تنبض بالفتنة والحيوية بقربي، وكذلك تحت اليدّ المباركة المشعرة، غير المرئية في الواقِع، لذلك القديس الروسي الذي كان يشفي الناس بالصلاة، فكانت حتى نباتات الصبّار والزيزفون في غرفتها تتفتح مزدهرة. فيا ليت الخبّاز شفلر قد سحب أصابعه من العجين في تلك الأعوام فاستبدل أرغفة العيش الصغيرة المدورة بأقراص أخرى مختلفة، لكانت غريتشن قد سمحت له بعجنها ودكّها وطرشها بالفرشاة ومن ثم خبزها مرّة أخرى. فمن يدري ما الذي سيخرج حينئذ من الفرن؟ لعله سيكون طفلاً في نهاية المطاف، وبلا شكّ أن غريتشن كانت تستحق هذه الفرحة الفُرنيّة.

بيد أنّها كانت تقبع بعد كرّاسة راسبوتين المجهدة وتتطلع بعين حمراء مشتعلة وشعر مشعّث ثم تحرك أسنانها الذهبية التي تشبه أضراس الفرس، دون أن تقضم بها شيئاً، وتردد «يا إلهي، يا إلهي»، قاصدةً بذلك خميرة العجين. وبما أن أمّي لم تستطع مساعدة غريتشن، لأنها كانت تحتف بصابها يان، فإن تلك الدقائق التي تعقب هذا الجزء من الدرس كان لها أن تنتهي نهاية تعيسة للغاية لو لم تكن غريتشن نفسها تتمتع بقلب فرح مستبشر. فكانت تهرع إلى المطبخ لتأتي بمطحنة القهوة اليدوية وتحضنها كما العشيق، ثم تغني وتطحن القهوة، وتعاونها أمّي في الغناء الشجي المغرق في العاطفة، فترددان أغنية «العيون السود»، أو «الفستان الروسيّ الأحمر»، ثم تأخذ غريتشن العيون السود معها إلى المطبخ وتضع الماء على النار، وتتركه يغلي على شعلة الغاز، وتهبط إلى فرن الخبز، لتجلب معها قطع الكعك والفطائر الطازجة والبائتة، على الرغم من احتجاجات زوجها عادةً، فتعد المائدة بفناجين القهوة المنتقاة الموشاة بالزهور، وبإبريق القشدة ووعاء السكّر الزجاجي وشوك اليك، ثم تنثر بينها زهور

البنفسج، وتصبّ القهوة، وتنتقل إلى الألحان المأخوذة من «ابن القيصر»، مقدمةً الفطائر الناشفة كالعظام وكعك العسل، و«ثمة جندي يقف على شاطئ نهر الفولغا» وكعكة فرانكفورت المحشوة باللوز، و«هل حلّت لديك الملائكة هناك؟» وكذلك كعك البيض المكسو بالقشدة، الحلو المذاق، الشديد الحلاوة؛ وبعد ذلك تعرّج المرأتان أثناء المضغ إلى الحديث عن راسبوتين، فتقطعان مسافة مناسبة للحديث عنه، معربتين بنزاهة، بعد فترة من الوقت المتخم بالفطائر والكيك، عن استنكارهما لزمن القياصرة الفظيع المغرق في الفساد.

وكنت ألتهم في تلك الأعوام الفطائر والكعك بشكل مفرط، ومثلما يستشف المرء من الصور فإن أوسكار لم ينمو قيد شعرة إثر ذلك، لكنه أصبح بديناً وغير متناسق الهيئة. فكنت غالباً ما أضطر بعد ساعات التدريس البالغة الحلاوة في جادة كلاينهامر إلى ربط قطعة من الخبز الناشف في متر لابسفيغ بعدما يتوارى ماتسرات عن الأنظار، ثم أنقّع قطعة الخبز في برميل سمك السردين النرويجي المملح، ولم أسحب الخيط إلا بعد أن يتشرّب بالملح تماماً، والآن بإمكانكم أن تتصوروا أي وسيلة ناجعة للتقيؤ هذه التي اخترتها بعد إفراطي في التهام الكعك! فصار أوسكار ينفق في مراحيض الدار ما تبلغ قيمته درهماً غدانسكيّاً كاملاً من كيك آل شفلر، وكان ذلك يعدّ مبلغاً كبيراً آنذاك.

وكان عليّ أن أسدد ثمن تدريس غريتشن بمقابل آخر، ولأنها كانت تحب خياطة ثياب الأطفال والحياكة، فقد وضعت نفسي تحت تصرفها كدمية لتجربة الملابس. فتوجب عليّ أن أقيس المرايل والطاقيات والسراويل والمعاطف ذات القلانس والمعاطف الخالية من القلانس، وكذلك مختلف أنواع الملابس والأقمشة والألوان وأتقبلها.

ولم أعد أعرف فيما إذا كانت أمّي، أو غريتشن، قد حوّلتني بمناسبة عيد ميلادي الثامن إلى ابن قيصر صغير جدير بالتصفية، فعبادة راسبوتين وصلت آنذاك إلى مداها الأقصى بالنسبة للمرأتين. كانت هناك صورة تظهرني واقفاً إلى جانب كعكة عيد ميلادي الثامن المؤطرة بالشموع التي

لم تسح بعد، مرتدياً مريلة روسية مطرّزة وقبعة قوقازية مائلة، تشي بالوقاحة نوعاً ما، وأحزمة مصلّبة على جسمي فيها خراطيش وسروالاً واسعاً وحذاءً قصيراً. كنت سعيداً برؤية طبلي في الصورة، وثمّة سعادة أخرى غمرتني حين فصّلت لي غريتشن شفلر، ربما بناءً على رغبتي، بذلةً فخيطتها وفرضتها عليّ فرضاً في آخر الأمر، وبدت مغرقة في التقليد وتحاكي عصر غوته وتستحضر روحه إلى يومنا هذا، شاهدةً على وجود روحين جسدي، متيحة لي إمكاني التواجد في بطرسبورغ وفايمر في آن، بمرافقة طبلي الوحيد، مع الأمهات من ناحية ومع نساء الحفلات الماجنة من ناحية ثانية.

غناء بعيد الأثر ينطلق من البرج

ادّعت الآنسة الدكتورة هورنشتيتر التي كانت تزورني كلّ يوم تقريباً وتمضي في غرفتي الفترة التي يستغرقها تدخين سيجارتها، والتي صارت تأتي بصفتها طبيبة معالجة، إلا أنني كنت في الواقع أعالجها بنفسي حتى تخرج من الغرفة متوترة الأعصاب، تلك السيدة التي أقامت علاقة ممتازة بسجائرها، ادّعت دائماً: بأن علاقاتي في فترة صباي كانت فقيرة جدّاً، وبأنني كنت نادراً ما ألعب مع الأطفال الآخرين. نعم، إنها لم تكن مخطئة تماماً في ما يتعلق بالأطفال الآخرين، إذ كنت منشغلاً بدروس غريتشن شفلر، وموزعاً بين غوته وراسبوتين، لدرجة أنني لم أجد وقتاً لألعاب الأطفال والرقص في دوائرهم، حتى لو كنت راغباً في ذلك. وكلّما أبعدت الكتب عن نفسي مثلما يفعل المتعلّم، لاعناً مهمة التنقيب في الحروف، وباحثاً عن العلاقة والاتصال بالشعب، كنت اصطدم بالأطفال المشاغبين المقيمين في البناية المؤجرة، فأكون سعيداً حقّاً إذا رجعت إلى الدار سالماً بعد الاتصال بأولئك الهمجيين، أكلة لحوم البشر.

كان أوسكار يستطيع مغادرة دار والديه إما عن طريق المتجر، ليكون في لابسفيغ، أو أنه يطبق الباب خلف ظهره فيجد نفسه على سلّم البناية، أي أمام إمكانية الخروج إلى الشارع مباشرةً، أو أنه كان يطلع السلالم الأربعة إلى السطح، حيث اضطجع الموسيقي ماين نافخاً في البوق، وكانت باحة البناية تعرض نفسها لأوسكار بصفتها خياراً أخيراً. وكان الشارع مرصوفاً بالحجارة الصغيرة، وقد انتشرت في رمل الباحة المدكوك الأرانبُ والبسط والسجاجيد التي كان ينفض عنها الغبار. وكان سطح

البناية يتيح، فضلاً عن العزف الثنائي المتباعد الأوقات مع السكير ماين، مناظر ومشاهد بعيدة، تولّد شعوراً بالحرية رائعاً ومخادعاً معاً، ذلك الذي يبحث عنه متسلقو الأبراج كلّهم والذي يجعل ساكني الشقق العالية هائمين يسبحون في خيالهم.

وفي الوقت الذي بدت فيه الباحة لأوسكار مليئة بالمخاطر، فإن السطح كان يمنحه الاطمئنان، إلى أن طرده أكسل ميشكه وجماعته من هناك. كانت مساحة الباحة بقدر مساحة البناية، لكن عمقها بلغ فقط سبع خطوات، وكانت تحاذي بسياجها الخشبي المطليّ بالقطران والمزود بالأسلاك الشائكة، ثلاث باحات أخرى، بحيث يمكن رؤية تلك المتاهة بشكل جيّد من السطح: كان الشارعان المتقاطعان، هيرتا شتراسه ولويزين شتراسه، إضافة إلى مارين شتراسه المقابل للمنازل في لابسفيغ، يشكلاّن مع الباحات مربعاً كاملاً، يضمّ معملاً لإنتاج أقراص الكُحّة المحلاة وعدداً من الورش المنتجة للأعشاب. وكانت الأشجار والأدغال تتدافع متزاحمة هنا وهناك، معلنةً عن فصل السنة. وما عدا ذلك فإن الباحات بدت مختلفة المساحة، إلا أنها متساوية من حيث عدد الأرانب والقضبان التي تُنفض عليها البسط، كما لو أنها من طراز واحد. وبينما كانت الأرانب متواجدة طوال العام؛ فإن البسط كانت تنفض فقط في يومي الثلاثاء والجمعة، عملاً بنظام البناية. في تلك الأيام كانت عظمة الباحة تتأكد على أحسن وجه، فكان أوسكار يرى من الأعلى: أكثر من مائة بساط وسجادة صغيرة وأغطية الأسرّة وهي تدهن بالكرنب المخلل ثم تنظف بالفرشاة وتنفض، ثم تجبر على إبراز نماذج نسيجها. وكانت مئات من ربات البيوت يحملن جثث السجّاد والبسط من البيوت، ويرفعن أذرعهن الممتلئة العارية محافظات على شعرهن وتسريحاتهن تحت مناديل رأس معقودة، ثم يلقين بالسجّاد والبسط على قضبان النفض، فيتناولن العصي ويوسعن من ضيق الباحات بالضرب الناشف.

لقد كره أوسكار تلك الأنشودة الخاصة بالتنظيف، فكان يهرع إلى طبله لكي يقاوم الصخب، معترفاً، وهو فوق السطح الذي كان يمنحه بُعداً

كافياً، بعجزه أمام ربّات البيوت. إن بإمكان مائة من الإناث النافضات السجّاد اقتحام السماء وقصّ قوادم فراخ السنونوات بضربات قليلة وتقويض معبدَ أوسكار الذي شيده في هواء أبريل/ نيسان بالتطبيل.

وفي الأيام الخالية من نفض السجّاد كان الأطفال المشاكسون القاطنون في البناية يمرحون فوق القضبان الخشبية لتنظيف السجّاد، بينما كنت أنا نادراً ما أنزل إلى الباحة، إذ أن مخزن السيّد هايلاند العجوز كان يوفر لي بعض الطمأنينة؛ فالعجوز هايلاند لم يكن يسمح لأحد سواي بالدخول إلى مخزن أدواته، بل كان يمنع الصغار من إلقاء نظرة على ماكينات الخياطة المتّسخة والدرجات الهوائية الناقصة الأجزاء والملازم الحديدية وبكرات رفع الأثقال والمسامير المعوجة والمستوية بالطرق والمحفوظة في علب السيجار. كانت تلك مشغلة تقضي على الفراغ؛ فإذا لم يكن العجوز هايلاند ينتزع المسامير من ألواح الصناديق؛ فإنه كان يقوّم اعوجاج المسامير المنتزعة في الأمس على السندان. وبالإضافة إلى أنه لم يدع مسماراً واحداً يعوّج؛ فإنه كان يساعد في حمل الأثاث أثناء الانتقال، ويذبح الأرانب بمناسبة الأعياد والاحتفالات، فضلاً عن أنه كان يبصق تبغه الممضوغ أينما حلّ، في الباحة أو سلّم البناية، أو على السطح.

عندما حضّر الأطفال المشاكسون حساءً ذات يوم، مثلما يفعل الأطفال عادةً، إلى جانب مخزنه، توسل نوجي آيك بالعجوز هايلاند أن يبصق ثلاث مرّات في الماء الذي كان يغلي، فبصق العجوز عن بُعد، ثم اختفى في حجرته الخشبية، وأخذ يطرق المسامير؛ أثناء ذلك أضاف أكسل ميشكه إلى الشوربة حجر قرميد مدقوقاً، فراقب أوسكار تجارب الطهي تلك بفضول، إلا أنه وقف إلى الجانب. ومن الأغطية والخرق نصبَ أكسل ميشكه وهاري شلاغر شيئاً ما يشبه الخيمة، لكي لا ينظر الكبار البالغون إلى الشعوربة. عندما بدأ مسحوق الحجر بالغليان أفرغَ هانس كولين حقيبتيه وتبرع للحساء بضفدعتين حيتين كان قد اصطادهما في بركة أكسين. فعبرت زوزي كاتر، الفتاة الوحيدة داخل الخيمة، عن امتعاضها وخيبة أملها فزمّت فمها عندما غرقت الضفدعتان في الحساء دون

أيّ محاولة أخيرة للقفز. في البدء فتح نوجي آيك أزرار سرواله وبالَ في قدر الشوربة دون أنت يعر زوزي انتباها، فأعقبه في فعلته أكسل وهاري وهانس كولين. وحين أراد القصير المسمّى بقطعة الجبن الصغيرة أن يبزّ أقرانه ذوي الأعوام العشرة لم يخرج منه شيء، فالتفت جميعهم إلى زوزي، وناولها أكسل ميشكه قدراً منخسف الحافة طُلي باطنه بلون أزرق لامع. لقد أراد أوسكار أن يغادر المكان حالاً، لكنه انتظر إلى أن أقعت زوزي التي لم ترتد ساعتها سروالاً داخلياً وطوقت ركبتيها، بعد أن دستّ القدر تحتها، وأخذت تتطلع إلى الأمام بعينين جامدتين، ثم قطبت جبينها حين أصدر القدر رنيناً معدنياً معلناً عن أن زوزي كان لديها ما تضيفه إلى الشوربة. فأطلقت ساقيّ للريح، فيا ليتني انسحبت آنذاك بهدوء، لأنني عندما ركضت نظروا إلي، أولئك الذي كانوا حتى ذلك الحين يحدقون في قدر الطهي ويصطادون ما تتمناه أعينهم، فسمعت صوت زوزي كاتر يهتف خلف ظهري: «إنه يريد أن يفسد علينا الأمر، وإلا فلماذا يركض هكذا؟» فوخزني صوتها حتى تعثرت بالدرجات الأربع ولم أستطع التنفس ثانيةً إلى أرضية السطح.

كان عمري يومئذ سبعة أعوام ونصف وكان لزوزي من السنّ تسعة أعوام ربّما، أمّا قطعة الجبن الصغيرة فقد بلغ الثمانية تقريباً، وكانت أعمار أكسل و نوجي وهانس وهاري تتراوح ما بين التسعة والعشرة أعوام، إضافة إلى ماريا تروجنسكي التي كانت تكبرني في السنّ، لكنها لم تكن تلعب أبداً في الباحة، بل مع لُعبها في مطبخ أمّها، أو مع شقيقتها البالغة، غوسته، التي كانت تشتغل مساعدة في الروضة البروتستانتية. فليس من العجب أنني ما زلت إلى اليوم لا أستطيع سماع النسوة يتبولن في أوعية التبوّل. فعندما كانت إيقاعات الطبل تداعب سمع أوسكار وتهدأ من روعه، شاعراً على السطح بغيابه التام عن الحساء الذي كان يغلي تحت الخيمة، جاءوا كلّهم، حفاةً أو بأحذية ذات أربطة، ساهمت بقسطها في الشوربة التي جلبها نوجي معه. فأحاطوا بأوسكار، والتحق بهم قطعة الجبن الصغيرة، فأخذ أحدهم ينغز الآخر بمرفقه ويتهامس: «هيّا أفعلها»!

فوثب أكسل ومسك بأوسكار من الخلف ثم طوى ذراعيه وجعله طيّعاً، بينما بدأت زوزي تظهر أسنانها المنتظمة المبللة وتحرك لسانها وتضحك مشيرة إلى أن ليس هناك ما يخشاه المرء حين يتذوق الحساء. فانتزع نوجي الملعقة منها ومسحها في فخذها لكي يعيد لها بريقها المعدني، ثم نقّع الملعقة في القدر الذي تصاعد منه البخار وأخذ يختبر بهدوء صلابة الحساء ومقاومته مثلما تفعل ربّة البيت الخبيرة، وصار ينفخ فيها ليبردها وأخيراً دسّها في فمّ أوسكار؛ لقد ألقمني إياها حقّاً، أنا الذي لم أذق مثل طعمها طوال حياتي.

وحالما غادر الشعب الذي كان قلقاً بإفراط على جسدي وسلامته، لأن نوجي شعر بالغثيان من القدر، زحفتُ نحو زاوية تجفيف الغسيل التي نشرت في حبالها يومئذ بضعة شراشف، فقذفت ملاعق الحساء الأحمر دون أن أكتشف أثراً للضفادع في القيء وتسلقت فوق صندوق تحت كوة السطح المفتوحة، وتطلعت إلى الباحات النائية، وبقايا القرميد الأحمر تصرّ بين أسناني، فشعرت برغبة جامحة للقيام بفعل ما، فتفحصت النوافذ البعيدة للمنازل في مارين شتراسه، ذلك الزجاج البرّاق المتغامز، فصرخت، بل غنيّت عن بعد في ذلك الاتجاه بالضبط. وعلى الرغم من أنني لم أحقق نجاحاً يذكر، غير أنني كنت مقتنعاً بإمكانية تأثير الغناء البعيد المسافة، لدرجة أن الباحات أصبحت ضيّقة بنظري على الدوام؛ فأصبحت توّاقاً إلى الأبعاد والمسافات، جائعاً للمشاهد النائية، مغتنماً كلّ فرصة تنأى بي بمفردي أو برفقة أمّي، بعيداً عن لابسفيغ، وعن الضاحية، لتحررني من مطاردات طهاة الحساء جميعهم في باحتنا الضيقة.

كانت أمّي تذهب كلّ خميس إلى المدينة لتتسوق حوائجها من المدينة، فكانت غالباً ما تأخذني معها؛ لا سيما عندما يتعلق الأمر بشراء طبل جديد من زيغسموند ماركوس في ممر تسويغهاوس قرب سوق الفحم. ففي الفترة الواقعة بين السابعة والعاشرة من سنّي كنت أقضي على الطبل خلال أسبوعين قضاءً تاماً، ومن سنّ العاشرة إلى الرابعة عشر كنت أحتاج إلى مجرد أسبوع واحد لأخرق الصفيح خرقاً، ثم أصبح بمقدوري

فيما بعد أن أحوّل الطبل إلى حطام في يوم تطبيل واحد، لكنني كنت قادراً من ناحية أخرى، في حالة اعتدال مزاجي، على التطبيل ثلاثة أو أربعة أشهر متواصلة على طبل واحد، بحذر وبقوّة أيضاً، دون أن يتعرض طبلي إلى الضرر، باستثناء بعض الخدوش في الطلاء.

والآن يجب أن أتحدث عن ذلك الزمن الذي كنت أغادر فيه باحة بنياتنا، مخلفاً القضبان المخصصة لنفض السجّاد والعجوز هايلاند الذي كان يطرق المسامير والصبيان الذين كانوا يخترعون الحساء، لأرافق أمّي كلّ أربعة عشر يوماً، فأنتقي بنفسي طبلاً جديداً من طبول الأطفال المتنوعة في محلّ ريغسموند أستمتع بالتجوال المسائي في المدينة القديمة ذات الطابع المتحفيّ والألوان الزاهية والتي كانت نواقيسها الكنسية تضجّ صاخبةً باستمرار.

وكثيراً ما كانت الزيارات تسير بانتظام وترتيب، فكنّا نشتري حاجياتنا من لايزر وشتيرنفيلد أو ماخفيتس، لنعرّج من هناك إلى ماركوس الذي اعتاد على مخاطبة أمّي بعبارات المجاملة الرقيقة والطريفة المنتقاة بعناية. فهو بلا شكّ كان يغازلها، لكنه لم يصل إلى درجة الحماس في اندفاعه نحوها، حسب اعتقادي، فكان يتناول يدها، التي تعادل الذهب مثلما كان ينعتها، بحرارة ثم يطبع عليها قبلةً صامتة، ما عدا تلك الزيارة التي أنا بصدد الحديث عنها حيث بلغ بها الأمر إلى حدّ التوسل والجثو على الركبتين.

كانت أمّي التي ورثت عن جدتي كولياجك القوام الممتلئ، المشدود بصلابة، والغرور الممتزج بالطيبة والنيّة الحسنة، تتقبل برضا خدمات ماركوس الذي كان يتحفها بخيوط الحرير المختلفة الزهيدة الثمن التي كانت تباع بالجملة، لكنه كان يهدي لها جوارب نسائية من النوع الفاخر أكثر ما كان يبيعها. بالإضافة إلى المبلغ المضحك الذي كان يتقاضاه كلّ أسبوعين ثمناً للطبل الجديد الذي كان يقدمه لي من وراء طاولة البيع.

أثناء تلك الزيارة طلبت أمّي من زيغسموند في تمام الساعة الرابعة والنصف عصراً أن يضعني تحت حراسته في المحل، لأنها ستشتري بعض

الحاجيات العاجلة والضرورية. فانحنى ماركوس مبتسماً على نحو غريب وعاهد أمّي بعبارات مغرقة في المجاملة والتزلّف على أنه سيحافظ عليّ، أنا أوسكار، مثلما يحافظ على حدقة عينه أثناء متابعتها لمشاغلها الهامة. فكان ثمة نوع خفيف من التهكم غير الجارح منح عباراته سمةَ تأكيد ملفتة للنظر، جعلت وجه أمّي يحمّر خجلاً، وخامرها شعور بأن ماركوس كان مطلعاً على الأمر.

لكنني، أنا أيضاً، كنت على إطلاّع بالمشاغل التي أسبغت عليها صفة الأهمية، تلك المشاغل التي كانت تنجزها بهمّة عالية. لقد أتاحت لي أن أرافقها فترة طويلة إلى أحد الفنادق الرخيصة في تشلر شتراسه، حيث كانت تختفي في سلّم البناية لتغيب حوالي ثلاثة أرباع الساعة، بينما كان عليّ أن أنتظر وراء قدح الليمون الرديء الطعم الذي كانت تقدمه لي صاحبة الحانة بلا كلام وهي تحتسي شراب «المامبه»، إلى أن تعود أمّي من جولتها دون أن يطرأ على ملامحها أي تغيير، فتحيي صاحبة الحانة التي عادةً ما تكون مشغولة باحتساء شرابها، ثم تتناول يدي فأتحسس حرارتها الفاضحة. فكنّا نمضي يداً بيد إلى مقهى فايتسكه في فولفيربركاسه، حيث كانت أمّي توصي بفنجان قهوة تركية لنفسها ومرطّب الليمون لأوسكار، منتظرة مرور يان برونسكي بالصدفة المحض وبسرعة، فيشاطرنا الطاولة ويطلب فنجاناً من القهوة التركية أيضاً، فيقدم له في الحال على طاولة المرمر المنعشة البرودة.

كانا يتحدثان عنّي بلا تكلّف، فكان حديثهما يؤكد ما أعرفه من قبل: كانت أمّي تلتقي كلّ خميس بخالي يان في رفة الفندق في شارع تشلر شتراسه، أجّرها يان على حسابه، لكي يمضيا معاً ثلاثة أرباع الساعة. ولعلّ يان هو الذي عبّر عن رغبته في عدم اصطحابي في المرّات القادمة إلى تشلر شتراسه ومن ثم إلى مقهى فايتسكه. لقد بان عليه الحياء أكثر بكثير من أمّي التي لم تجد ضرراً في أن أكون شاهداً على ساعة غرام تنتهي على عجل، فبدت مقتنعة تماماً بشرعية تصرفها، حتى فيما بعد. ونزولاً عند رغبة يان كنت أقضيّ فترة المساء ما بين الساعة الرابعة

والنصف إلى حوالي السادسة في محل زيغسموند ماركوس، فكان يتيح لي تأمل طبوله الصفيح واستعمالها ـ ففي أي مكان آخر كانت هذه الفرصة متاحة لأوسكار ـ وقرع طبول عدّة في وقت واحد والتطلع إلى وجه ماركوس الحزين الذي يشبه وجه الكلب. لم أعرف في الواقع من أين كانت تأتي أفكاره، بيد أنني عرفت إلى أي مكان كانت تذهب؛ لقد كانت تقيم في «تشلر» شتراسه، محتكةً بأبواب الغرف المرقمة؛ فكان يقبع هناك، لكن ماذا كان ينتظر؟ هل كان ينتظر الفُتات؟

غير أن أمّي ويان لم يخلفا وراءهما فُتاتاً قط، فكانا يلتهمان كلّ شيء، بفضل شهيتهما العظيمة التي لا يمكن إشباعها، والتي كانت تعضّ على ذيلها من فرط النهم. لقد انشغلا بأنفسهما لدرجة أنهما نظرا إلى أفكار ماركوس القابع تحت الطاولة باعتبارها مجرد نسمة هواء عذبة، شديدة الرقّة، ليس إلا. وفي ذلك المساء ـ لا بد أن ذلك قد وقع في شهر سبتمبر/ أيلول لأن أمّي ارتدت بذلة خريفية بنيّة داكنة ـ انطلقت بطبل جديد إلى ممر تسويغهاوس، مخلفاً ماركوس غارقاً ومدفوناً وضائعاً في أفكاره خلف طاولة البيع، وقطعت النفق البارد المعتم الذي اصطفّت على جانبيه المتاجر الرموقة كمحلات المجوهرات والأطعمة الفاخرة والمكتبات ذات الواجهات الزجاجية المتلاقة. لكن شبابيك العرض المعتدلة الأسعار، الباهظة بالنسبة لي، لم تستطع إيقافي، بل إنها، على العكس من ذلك، أخرجتني من النفق ودفعت بي في اتجاه كولنماركت. فوقفت هناك في منتصف الشارع تحت الضوء العكر المغبر أمام واجهات تسويغهاوس الرمادية اللون كرماد البازلت، المطعمة بقنابل المدفعية الثقيلة المتنوعة، المنحدرة من أزمان الحصار المتعاقبة، لكي تذكّر تلك الحدبُ الحديدية المارةَ بتاريخ المدينة. لم تعني لي القنابل شيئاً، لا سيما أنني كنت أعرف بأنها لم تحشر نفسها هناك بقواها الذاتية، بل إن دائرة البناء والأعمار، وبالاتفاق مع مكتب حماية الآثار القديمة، قد كلّفت عامل بناء بحشو واجهات الكنائس العديدة ودور البلدية بالإضافة إلى واجهة تسويغهاوس وخلفيته بعتاد القرون المنصرمة، دافعة له أجراً لقاء ذلك.

وأردت الدخول إلى المسرح البلديّ الذي أطلّت أعمدة بوابته العالية على زقاق ضيّق مظلم فصله من ناحية اليمين عن تسويغهاوس. ولأنني وجدت المسرح مغلقاً في هذا الوقت مثلما توقعت ـ وكان شبّاك تذاكر العرض المسائي يفتح في الساعة السابعة ـ فقط طبّلت بتردد، مؤثراً الانسحاب، ثم وقف أوسكار في جهة اليسار بين برج الطوابق وبوابة «لانغ غاسه». لكنني لم أجرؤ على الدخول عبر البوابة إلى لانغ غاسه ومن ثم الانحراف شمالاً في «فولفيبر غاسه»، أي الشارع الأكبر، إذ أن أمّي ويان كانا يجلسان هناك، وإن لم يكنا هناك، فسيكونان في تشلر شتراسه أو في الطريق إلى قهوتهم التركية المنعشة المنتصبة على طاولة المرمر.

لا أعرف كيف أنني عبرت كولنماركت حيث كانت عربات الترام تسير باستمرار، إمّا لتمرّ من البوابة، أو لتستدير مزمجرةً في المنعطف، وفي أبوابها تقرع الأجراس، مخترقةً كولنماركت و«هولتسماركت» في اتجاه المحطة الرئيسية. ربما كان أحد شرطة المرور أو أحد المشاة قد أخذ بيدي وقادني بعناية ليجنبني مخاطر السير. فوقفت أمام بناية برج الطوابق المنتصبة باستقامة في السماء، ثم حشرت بالصدفة، أو فعل الضجر الذي بدأ يجتاحني شيئاً فشيئاً، مضربي الطبل بين حجارة الجدار وإطار باب البرج المكسو بالحديد. وكلّما أرسلت بصري إلى الأعلى عبر الآجر وجدت صعوبة في أن أجعله يمرّ بمحاذاة الواجهة؛ لأن الحمائم كانت تحلّق على الدوام منطلقةً من أركان الحيطان ونوافذ البرج، لتهجع بعض الوقت فوق خزانات الماء والأطراف الخارجة من البناء لتهبط الحيطان مرّة أخرى خاطفةً بصري معها.

لقد أثارت حركات الحمائم امتعاضي، وشعرت بالندم على بصري، فسحبته، واستخدمت مضربيّ الطبل بمثابة رافعة، لكي أتخلّص من غيظي وامتعاضي، فطاوعني الباب، وأصبح أوسكار داخل البرج، قبل أن يفتح بابه على مصراعيه، فطلع السلّم الحلزوني، مقدماً ساقه اليمنى، ساحباً وراءه ساقه اليسرى، ووصل إلى المعتقلات الأولى المسوّرة بالقضبان، صاعداً إلى الأعلى كالقلاووظ، مخلفاً غرف التعذيب وآلاتها المحفوظة

بعناية التي كتبت عليها كتابة توضيحية، ثم ألقى بنظرة وهو يواصل الصعود ـ لقد أخذ يقدم الآن ساقه اليسرى، ساحباً وراءها ساقه اليمنى ـ عبر نافذة مشبكة بقضبان رفيعة، مقدراً الارتفاع، متحسساً متانة الجدار، مطارداً الحمام ليلتقي به من جديد في الدورة القادمة للسلّم الحلزوني، ثم قدّم قدمه اليمنى ليسحب وراءها يسراه، وحين وصل أوسكار إلى الأعلى بعد تغيير آخر في تقديم هذه الساق على تلك، بدا مستعداً لمواصلة الصعود على الرغم من أنه شعر بتثاقل في ساقيه، إلا أن السلّم انتهى على حين غرّة. لقد أدرك عبثية مبنى البرج وانعدام سلطته وعجزه. إنني لم أكن أعلم في الحقيقة كم هو ارتفاع البرج؛ إذ أنه قد اجتاز الحرب سالماً؛ كما أنني من ناحية ثانية لم أجد رغبة في نفسي لأرجو من معيني برونو أن يوفّر لي مرجعاً شاملاً حول المباني الألمانية الشرقية المشيدة بالآجر على الطراز القوطي. وحسب تقديري فإن ارتفاع البرج بلغ خمسة وأربعين متراً بالتمام والكمال.

وبسبب السلّم الحلزوني المتعب اضطررت إلى التوقف في الرواق الذي طوّق البرج، فجلست وأخرجت ساقي من بين أعمدة الدرابزين، وانحنيت إلى الأمام لأنظر من خلال عمود، تشبثت به بيمناي، إلى كولنماركت، بينما مددت يدي اليسار لأطمئن على طبلي الذي تحمل معي عناء الصعود.

إنني لا أودّ أبداً أن أبعث الملل في أنفسكم من خلال وصف مشهد شامل مليء بالأبراج والنواقيس التي لا تكفّ عن القرع، مشهد مدينة غدانسك المهيب الذي ما زال يحمل أنفاس العصور الوسطى، مثلما يُدعى، المشهد المحفور على آلاف اللوحات المعدنية الجيدة، فأصفه من علو شاهق. لكنني في الوقت نفسه سأحجم عن ذكر أمر الحمائم، حتى لو قِيل عشرات المرّات وأعيد القول بأن المرء يستطيع الكتابة عن الحمام بشكل ممتاز. فالحمامة تبقى بالنسبة لي ليست بذات قيمة، بل أنني أرى النورس أكثر أهمية منها. أمّا مصطلح (حمامة السلام) فإنه يبدو لي صحيحاً فقط باعتباره مصطلحاً مغلوطاً ومتناقضاً. فمن الممكن أن أحمّل

الصقر، أو حتى الحدأة مفترسة الفطائس، رسالة سلام بدلاً من أن أضع ثقتي بحمامة مولعة بالشجار والمشاكسة أكثر من مستأجري السماء كلهم. ويمكن القول باختصار: إن هناك حمائمَ فوق البرج. لكن الحمائم تتواجد عادةً فوق كلّ برج محترم يعتبر نفسه جديراً بهذه التسمية، بمعونة مرممه المسؤول عن حماية الآثار العمرانية القديمة. فوقع بصري على شيء آخر مختلف تماماً: وقع على مبنى المسرح البلديّ الذي وجدته مقفلاً أثناء مروري به قادماً من ممر تسويغهاوس. كان البناء المربّع يكشف من خلال قبته عن تشابه شيطاني مع مطحنة البنّ الكلاسيكية الضخمة الحجم بلا داع، على الرغم من أن عتلة الطحن كانت تعوز رأس القبّة تلك العتلة التي سيكون وجودها ضرورياً، لكي تهرس معبد آلهة الفنّ والثقافة، هذا الغاص بالمشاهدين كلّ مساء، وتهرس مسرحياته الدرامية ذات الفصول الخمسة بإيماءاتها وكواليسها وملقنيها ولوازم المسرح والستائر فتحيلها إلى خردة وحطام. كان هذا المبنى يثير اشمئزازي، كما أن شمس الأصيل الغاربة المصطبغة بالحمرة العميقة لم تكن راغبة مغادرة نوافذ بهواءٍ المحاذية لأعمدته الرافعة.

فتحولت في تلك الساعة وأنا أقف على ارتفاع ثلاثين متراً عن كولنماركت وعربات الترام والموظفين المبتهجين إثر مغادرتهم أعمالهم، ومحل ماركوس الرائع الذي يبيع الحاجيات الرخيصة وفوق طاولة المرمر مقهى فايتسكه، وفنجانيّ القهوة التركية، مرتفعاً فوق قامتيّ أمّي ويان برونسكي وبيتنا والباحة، بل الباحات والمسامير المعوجة والمستقيمة وأطفال الجيران وحساء القرميد الذي طبخوه، تحوّلت، متخلياً عن ذلك كلّه، إلى صارخ بلا دافع أو إكراه، أنا الذي كنت قبل اعتلائي البرج موقفاً أصواتي الملحّة على بِنية الأقداح وتكوينها وعلى باطن اللمبات كلّما حاول أحد ما انتزع الطبل من يدي، صرخت من البرج إلى الأسفل دون أن يكون لطبلي علاقة بالأمر.

لم يكن هناك أحد أراد انتزاع الطبل من أوسكار، لكنه صرخ، ليس لأن حمامة ذرقت على طبله، لكي تبتاع منه صرخة. كان ثمة صدأ علا

الألواح النحاسية بالقرب منه، لكنّ لا أثرَ للزجاج فيه، ومع ذلك فإن أوسكار أطلق صرخته. وكانت للحمائم أعين حمراء تلمع، لكن لم تكن هناك عين سحرية حملقت به، لكنه صرخ عالياً. ففي أي اتجاه صرخ، وأيّ بُعد أغراه؟ وهل أراد أن يستعرض هنا، وبتصميم، ما حاول استعراضه بلا هدف أو خطّة عبر باحات البنايات حين وقف على السطح بعد تذوقه لشوربة القرميد المهروس؟ وأيّ زجاجٍ عنى أوسكار؟ وعلى أيّ نوع من الزجاج ـ إذ أن الزجاج وحده كان معنياً بالأمر ـ سيجري أوسكار تجاربه؟

كانت بناية المسرح البلديّ، أي مطحنة البنّ الدرامية، هي التي أغرت أصواتي الجديدة المتكلّفة التي جربتها فوق سطحنا، فوجهتها نحو نوافذها المصطبغة بحمرة الشمس الغاربة. وبعد دقائق من الصراخ المتنوع الشحن والاحتقان والذي لم يسبب ضرراً تمكنت من استخلاص صوت غير مسموع إلى حدّ ما، فأصبح بإمكان أوسكار أن يعلن بفرح وبفخر خائن غدّار: لقد توجب على زجاجتين في الوسط من الجهة اليسرى لنوافذ البهو التخلّي عن شمس الغروب، حتى بات يمكن التعرُّف عليهما كمربعين سوداوين، يحتاجان إلى تركيب زجاج جديد على وجه السرعة.

وكان لا بد من تأكيد النجاح، فعرضت نفسي كما يفعل الفنّان الحديث الذي عثر على أسلوبه بعد أعوام طويلة من البحث ومن خلال سلسلة أعمال عظيمة، اتسمت بالجرأة، وكانت ذات قيمة وحكم متساو غالباً، أعمال جادت بها أصابعه المتدربة، فوهبها هديةً إلى العالم المصاب بالذهول.

واستطعت خلال أقل من ربع ساعة إزالة الزجاج عن البهو وعن عدد من الأبواب، فاحتشد الناس أمام المسرح وقد بانت عليهم من الأعلى إمارات الانفعال. ثم صار الفضوليون ومحبو الاستطلاع يلتحقون بالحشد بلا انقطع. لكنني لم أتأثر كثيراً بالمعجبين بفنّي، بل إنّهم، على أيّ حال، دفعوا بأوسكار ليعمل بدقة ومراعاة للشكل صارمتين. فتأهبت لتعرية أعماق الأشياء كلّها بتجربة أشد جرأة من السابقة، مستعداً لإطلاق صرخة خاصة

تخترق البهو المفتوح مروراً بثقب مفتاح باب المقصورات وصولاً إلى قاعة المسرح المظلمة، صرخة تحطّ من كبرياء هواة المسرح المشتركين ونجفته ذات الملحقات المبهرجة الصقيلة العاكسة الضوء والكاسرة له، وفي تلك اللحظة لمحت ثوباً بنيّاً داكناً وسط الحشد أمام المسرح: لقد عادت أمّي للتو من مقهى فايتسكه بعد أن احتست القهوة التركية، تاركةً يان برونسكي خلفها.

يجب الاعتراف هنا بأن أوسكار قد أطلق صرخة أخرى في اتجاه الثريّا المغرورة المتباهية، غير أنّ ما فعله لم يكلل بالنجاح، فالصحف الصادرة في اليوم التالي لم تتحدث إلا عن التحطيم المجهول الأسباب والشديد الغموض الذي لحق بنوافذ البهو والباب. وبدأت الأبحاث والتحريات العلمية ونصف العلمية في الصفحات الأدبية للصحف اليومية تشيع طوال أسابيع ضرورياً في الهراء المليء بالخيال في أعمدة ضافية. فأشارت صحيفة «نويستن ناخرشتن» إلى وجود أشعة كونيّة في الأمر، وتحدث علماء المرصد الفلكي المحسوبين على رجال الفكر عن بقع شمسيّة. فهبطت حينئذ السلّم الحلزوني للبرج بالسرعة التي سمحت بها ساقاي القصيران ووصلت، مقطوع النفس إلى حدّ ما، الحشدَ المجتمع أمام بوّابة المسرح. لم أبصر فستان أمّي الخريفيّ البنّي يشعّ في المكان، فلا بدّ أن تكون في دكّان ماركوس، لتبلغه عن الأضرار التي أحدثها صوتي. وسيقوم ماركوس الذي كان ينظر إلى وضعي البدني المتخلف وإلى صوتي الماسي باعتبارهما من الظواهر والأحداث الطبيعية بتحريك طرف لسانه ليحكّ به أسنانه الصفراء البيضاء، مثلما فكّرت.

وفي مدخل المحلّ رأيت مشهداً جعلني أنسى على الفور نجاح غنائي القصيّ المبيد للزجاج، رأيت ماركوس جاثياً على ركبتيه أمام أمّي وقد بدت حيوانات القماش، من دببة وقرود وكلاب، وكذلك الدمى ذات الأجفان القابلة للانطباق، وعربات الإطفاء والحصن الهزّازة ومعها الدمى الصغيرة المشدودة بالخيوط التي كانت تحرس المحلّ، كأنها أرادت أن تجثو على ركبها معه أيضاً. كان يغطي بيديه يديّ أمّي، كاشفاً عن ظاهر

يديه اللتين علاهما شعر أشقر خفيف وبقع سمراء ويجهش في البكاء. وكانت أمّي تتطلع إليه بجديّة اقتضاها الموقف، ثم قالت: «كلا يا ماركوس، أرجوك، ليس في المحلّ».

بيد أن ماركوس لم ينته من الموضوع، فبدت لي خطبته آنذاك مشحونة بنبرة حاسمة لا تنسى وإن شابتها المبالغة: «لا تفعلي هذا مع برونسكي، ما دام هو بالبريد، أيّ بالبريد البولندي، وهذا ما لا يبشر بخير، وأقول لك ذلك، لأنه مع البولنديين. فلا تضعي ثقتك بأهل بولندا، إذا كان لا بدَّ من وضع الثقة، فضعيها بيد الألمان، لأنهم سيرتقون وينهضون، وإذا لم ينهضوا اليوم فغداً، وإذا لم ينهضوا أصلاً، وأنتِ ما زلت تثقين ببرونسكي. إذا كان لا بدًّ من ذلك فقي بماتسرات، فهو تحت يدك على الأقل. وإذا كان الأمر ملّح فثقي بماركوس الذي أمامك، والذي عمدوه قبل فترة. دعينا نرحل إلى لندن، يا سيدة آغنس، عندي هناك معارف وأوراق رسمية كافية، إذا أردت طبعاً المجيء مع ماركوس، وإذا لم تحتقريه، فقد لأنك تحتقرينه. ماركوس يرجو من القلب أن تكفي عن برونسكي المخبول، لأنه باق في البريد البولندي الذي سينتهي أمره عاجلاً إذا جاء الألمان»!

وحين أوشكت الدموع أن تتساقط من مآقي أمّي من فرط الحيرة التي أوقعتها فيها تلك الإمكانيات والمستحيلات الكثيرة، لمحني ماركوس واقفاً في باب المحلّ، فرفع إحدى يديه من أميّ وأشار إليّ بأصابعه الخمسة الناطقة، ثم أضاف: «تفضلي، هذا أيضاً سنأخذه معنا ويجب أن يعيش كالأمير في لندن، نعم كالأمير»! فرمقتني أمي أيضاً بنظرة فكادت تبتسم، لعلّها فكّرت في نوافذ مسرح المدينة المنزوعة الزجاج، أو أن إمكانية الإقامة في العاصمة الكبرى لندن جعلتها منشرحة الصدر. غير أنها، على الرغم من ذلك، هزّت رأسها رافضةً، مما أثار دهشتي، كما لو أنها رفضت طلب رجل دعاها للرقص، قائلة ببساطة: «أشكرك يا ماركوس، لكن ما طلبته لا يمكن أن يتحقق، نعم، إنه صعب فعلاً ـ بسبب برونسكي».

وقع اسم الخال برونسكي على ماركوس وقع العبارة المقتضية الصارمة، فانتفض قائماً وانحنى تحيةً مثل انحناء المطواة في غمدها، متذرعاً بالقول: «أرجوك اعذري ماركوس، كنت فكّرت في أن الأمر مستحيل بسببه». وحالما خرجنا قفل البائع المحلَّ من الخارج، مع أن وقت الإقفال لم يحن بعد، ورافقنا حتى محطة الترام المخصصة للخطّ رقم خمسة. كان ثمة عدد من المشاة مجتمعاً أمام المسرح البلديّ ومعه نفر من الشرطة. بيد أنني لم أشعر بالخوف، فضلاً عن أن نجاحاتي في مقارعة الزجاج لم تعد إلى حدّ ما حاضرة في ذهني. مالَ ماركوس نحوي وهمس كما لو أنه حدث نفسه أكثر مما كان مخاطباً لها: «ليس هناك شيء إلا ويقدر عليه هذا الأوسكار. يضرب الطبل فيخلق ضجّة أمام المسرح». ثم صار يلوّح بيديه ليهدأ من روح أمّي التي بانت على وجهها علامات القلق بسبب الشظايا التي تطايرت من نوافذ المسرح، وعندما قدم الترام ووضعنا أقدامنا على الدوّاسة، أسرّ لها خشية أن ينصت له أحد، هامساً بتوّسل ملحّ: «أرجوك أبقي على ولائك لماتسرات، ولا تضعي ثقتك أبداً بالبولنديين».

إذا ما عنّ لأوسكار اليوم وهو راقد، أو جالس، في سريره المعدني، لكنه قادر في كلّ وضع على التطبيل، أن يبحث عن ممر تسويغهاوس وعن الشخبطة على جدران معتقل البرج وعلى البرج نفسه وآلات تعذيبه المدهونة بالزيت وعن نوافذ بهو مسرح المدينة خلف الأعمدة الرخامية ومن ثم يعود إلى تسويغهاوس، ليفتش عن محلّ ماركوس، ويستعيد تفاصيل ذلك اليوم من أيام سبتمبر، فإن عليه في الوقت ذاته البحث عن بلغ البولنديين. فبماذا كان يفتش عنه؟ كان يفتش عنه بمضربي الطبل. وهل كان يبحث عن بلد البولنديين بروحه أيضاً؟ لقد فتش عنه بأعضائه كلها، غير أن الروح ليس عضواً. كنت أبحث عن بلد البولنديين الذي فُقد والذي لم يفقد بعد، أو بعبارة أخرى: الذي سيفقد قريباً، أو بالأحرى فُقد، مرّة أخرى. في الفترة الأخيرة بدأ البحث هنا عن بلد البولنديين بالقروض المصرفية وبكاميرا «لايكا» وبالبوصلة والرادار ومجسّ البحث

عن الماء والوفود ومبادئ الإنسانية وقادة المعارضة وأزياء جمعيات الألمان المطرودين من ديارهم، تلك الأزياء التي قرضتها العثّة.

وبينما كان المرء يبحث هنا بروحه عن بلد البولنديين ـ حاملاً شوبان في نصف قلبه وفي النصف الآخر الحقد والانتقام ـ، وبينما كان المعنيون يلغون التقسيمات من أولها إلى رابعها، مخططين لتقسيم بولندا للمرّة الخامسة، وبينما كانت طائرات الخطوط الجوية الفرنسية تحلّق في سماء وارسو لتهبط في مطارها، وحيث كان الناس يضعون شمعةً في مجمّع الغيتو اليهودي الذي كان قائماً هناك زماناً، وفي الوقت الذي سيبحث فيه المرء عن بلد البولنديين بالصواريخ التي ستنطلق من هذه الأرض نفسها، سأقوم أنا بالبحث عن بولندا في طبلي فأقرعه: لقد ضاع، ضاع، كلا، إنه لم يضع، بل ضاع ثانية، لكن على يدّ من؟ إنما سيضيع عمّا قريب، بل ضاع، ضاع بلد بولندا، ضاع كلّ شيء لكن بلد بولندا نفسه لم يضع بعد.

المنصّة

بعدما حطمت بصوتي زجاج بهو مسرح مدينتنا أخذت أبحث عن اتصال بفنّ المسرح، فتمكنت من إقامته للمرّة الأولى. لا بدَّ أن تكون أمّي قد لاحظت في ذلك المساء علاقتي المباشرة بالمسرح، على الرغم من المطالبات الملحّة لبائع اللعب ماركوس، فاشترت أثناء فترة أعياد الميلاد التي أعقبت ذلك أربع تذاكر لدخول المسرح، واحدة لها والأخرى لشتيفان وثالثة لمارغا برونسكي، ورابعة لأوسكار، فأخذتنا ثلاثتنا في آخر يوم أحد قبل عيد الميلاد لمشاهدة حكايات عيد الميلاد. جلسنا في مقاعد الدرجة الثانية، في الصفّ الأوّل. كانت الثريّا المغترة بنفسها معلقةً في الصالحة، تفعل ما بوسعها أن تفعله، فشعرت بالفرح لأنني لم أحطمها بغنائي من البرج.

كان هناك الكثير من الأطفال، أكثر من الأمهات، يجلسون الصفوف المنحنية، بينما كانت نسبة الأطفال بالقياس إلى أمهاتهم في الصالة، حيث جلس الأثرياء الموسرين والناس الحذرون من الإنجاب، متعادلة إلى حدّ ما. لكن الأطفال لا يستطيعون الجلوس بهدوء! فتزحزحت مارغا برونسكي التي جلست بيني وبين شتيفان المهذّب بعض الشيء، وسقطت من المقعد المنطبق، ثم حاولت أن تجلس ثانية، لكنها رأت أن من الأفضل لو تمرح وتقفز أمام الصفّ، وحصرت نفسها في المقعد المنطبق آليّاً، فصرخت، لكن بصوت متمل مقارنة بزعيق الأطفال الآخرين، ولفترة قصيرة؛ لأن أمّي حشرت قطعة حلوى في فمها الصغير الأخرق. فأخذت تمصّ إلى أن هدها التعب م كثرة التزحلق على المقعد فغفت شقيقة شتيفان

في وقت مبكّر، أي بعد لحظات من بداية العرض، وتمّ إيقاظها حالما انتهت المسرحية، لكي تصفقّ، فساهمت بحيوية ونشاط في التصفيق.

لقد عرضت مسرحية «القزم الذي يبلغ طوله طول الإبهام» تلك المسرحية التي سحرتني منذ أوّل مشهد وخاطبت مشاعري شخصياً بطبيعة الحال. كان الإخراج ينطوي على براعة؛ إذ لم يظهر «الإبهام» على المنصّة قط، بل كان صوته وحده يُسمع، وكان الأشخاص البالغون يقفزون وراء بطل المسرحية غير المرئي، الشديد الحيوية، الذي جلس مرّة في أذن الحصان، قَبلَ أن يبيعه أبوه بثمن غال إلى صعلوكين، وأخذ يتنزه حول إطار قبعة أحدهما، متكلماً من ذلك العلو، ليزحف فيما بعد ويدخل في جحر فأر، ومن ثم في بيت قوقعة، ليساهم في عملية سطو مع اللصوص، فيسقط في التبن ويصل عبر التبن إلى معدة البقرة. فتُذبح البقرة؛ لأنها أصبحت تتكلم بصوته، لكن معدة البقرة انتقلت إلى القمامة ومعها البطل المعتقل، فابتلعها الذئب. غير أن «الإبهام» غرر بالذئب بكلمات فطنة حكيمة فقاده إلى بيت أبيه وإلى مخزن الأطعمة، حيث ضجّ «الإبهام» بالصخب بعدما أوشكَ الذئب على السرقة. كانت الخاتمة مثلما هي الخاتمة عادةً في الحكايات الخرافية: إذ أجهز الأب على الذئب الشرير، وشرعت الأم تقطع بالمقصّ جسد المخلوق النهم الأكول، فخرج «الإبهام»، الذي بات صوته مسموعاً: «يا أبتاه! كنتُ في جحر فأر وبطن بقرة وكرش ذئب: لكنني سأبقى الآن معكم». فتركت فيّ هذه الخاتمة أثراً بليغاً، وحين رمقت أمّي بنظرة لاحظت أنها أخفت أنفها بمنديل، محولةً العرض المسرحي إلى معايشة شخصية محض، مثلما فعلت أنا.

كانت أمّي تحبّ أن تبدو متأثرة، فصارت تحضنني بذراعيها خلال الأسابيع التي أعقبت المسرحية، لا سيما أثناء احتفالات عيد الميلاد، وتقبلني وتنادي على أوسكار تارة بدعابة وأخرى بحسرة: إبهام. أو: يا إبهامي الصغير. أو: يا إبهامي البائس المسكين.

وفي صيف العام الثالث والثلاثين أتيحت لي فرصة زيارة المسرح مرّة ثانية. لكن المشروع فشل إثر سوء فهم كنت أنا سببه، بيد أن الحدث ولّد

في نفسي انطباعاً فيما بعد، ما زال تأثيره يرنّ في أعماقي ويتمايل؛ إذ إن ذلك حدث في ناحية تسوبرت، حيث عرضت أوبرا في الغابة، وحيث كانت موسيقى فاغنر تعزف صيفاً بعد آخر، متوددة للطبيعية في الهواء الطلق.

وكانت أمّي في الواقع تهوى الأوبرا، بينما كان ماتسرات يتثاقل حتى من التمثيليات الغنائية، وكان يان يتبع أمّي في ذوقها، ويتحمّس للغناء المنفرد بمرافقة موسيقى الأوبرا؛ فكان على الرغم من مظهره الموسيقي متبلّد السمع تماماً فيما يتعلق بالأنغام الرقيقة. لكنه كان يعرف الإخوة فورمبلا، زملائه السابقين في مدرسة كارتهاوس المتوسطة، المقيمين في تسوبوت، حيث كانت أضواء المرسى ونافورات المياه التابعة للمصحة وللكازينو تقع تحت مسكنهم، وتستخدم للإضاءة أيضاً أثناء المهرجانات الخاص بأوبرا الغابة.

كان الطريق إلى تسوبرت يمرّ بأوليفا، فكنّا نمضي فترة الضحى في حديقة القصر حيث الأسماك المرجانية والإوز وحيث كانت أميّ تتجول مع يان برونسكي في «مغارة الهمس» الشهيرة، ومن ثمة الأسماك المرجانية والإوز التي تعمل مع المصور الفوتوغرافي يداً بيد. كان ماتسرات قدوضعني على كتفه أثناء التقاط الصور، فأسندت الطبل إلى مفرقه، فأصبحت الصورة تثير الضحك عموماً، حتى بعد أن لصقت في الألبوم. ثم ودعنا الأسماك المرجانية والإوز ومغارة الهمس. لكن يوم الأحد لم يقتصر على حديقة القصر، بل تضمن القضبان الحديدية والركوب في الترام إلى غلتكاو ومن هناك إلى مصحّة غلتكاو، حيث تناولنا طعام الغداء، في حين كان بحر البلطيق يدعو إلى الاستحمام بلا كلل، كأنه لا عمل آخر له سوى ذلك؛ إذ إن يوم الأحد قد حلّ في كلّ مكان. وعندما قادنا متنزه الشاطئ نحو تسوبوت، استقبلنا الأحد نفسه، فتوجب على ماتسرات أن يسدد بمفرده رسوم الدخول إلى مركز الاستجمام. واغتسلنا في حمّام الجنوب، لأنه، كما زُعم، كان فارغاً أكثر من حمّام الشمال. فقام الرجال بتغيير ملابسهم في الحمّام المخصص

لهم؛ وأخذت أمّي بيدي إلى مقصورة النساء، ثم طلبت منّي أن أظهر عارياً في حمّام العائلات، حين كانت تصبّ لحمها في لباس استحمام أصفر كالتبن، ففاض جسدها آنذاك على الجانبين. ولكي أقابل حمّام العائلات ذي العيون الألف مجرداً؛ فإنني وضعت الطبل على قضيبي، ثم انبطحت بطني فوق رمال البحر، غير راغب في تلبية نداء بحر البلطيق بالنزول إلى الماء، إنما حفظت عورتي في الرمل، متبعاً سياسية النعامة. كان منظر ماتسرات ويان برونسكي بكرشيهما اللذين بان عليهما الشحم منظراً مضحكاً، يدعو إلى الرثاء بعض الشيء، لدرجة أنني شعرت بفرح عندما عاد بعض المستحمين إلى كابينان الاستحمام في الغروب ليدهنوا أجسامهم الملّوحة بالشمس بمرهم نيفيا، ويرتدون ثيابهم المدنية المخصصة ليوم الأحد.

وفي «قنديل البحر» تناولنا الكعك والقهوة. فطلبت أمّي قطعة كيك ثالثة من الكعكة الضخمة ذات الطوابق الخمسة، فاعترض ماتسرات، بينما بدأ يان موزعاً بين الموافقة والاعتراض، لكني أمّي أوصت على القطعة وأعطت ماتسرات لقمة منها، وصارت تطعم يان، حتى أرضت رجليها معاً، قبل أن تلتهم القطعة الشديدة الحلاوة ملعقةً بعد أخرى.

فيا أيتها القشدة المقدسة، وأنت يا عصر الأحد الصاحي الغائم والمرشوش بالسكر الناعم! كان هناك نبلاء بولنديون يجلسون بنظارات زرقاء وأمامهم عصير الليمون المركّز الذي لم يُمس بعد. وثمة سيّدات كنّ يعبثن بأظفارهن المطلية باللون البنفسجي، تاركات رائحة عباءات الفراء التي كنّ يستعرنها في حلول الموسم تهبّ علينا، تلك الرائحة التي تشبه رائحة مسحوق مكافحة العثّة. رأى ماتسرات في العباءات مبالغة وتكلّف. لكن أمّي تمنت أن تستعير عباءة فرو مشابهة ولو لعصر واحد. ثم ادعى يان بأن ظاهرة السأم في أوساط النبلاء البولنديين بلغت في الوقت الحاضر مداها الأقصى، لدرجة أن المرء لم يعد يتحدث باللغة الفرنسية على الرغم من الديون المتراكمة، المتفاقمة، بل كان يتحدث باللغة البولندية كما يفعل المتكبرون النفّاجون.

والمرء لا يستطيع البقاء جالساً في «قنديل البحر» ليتطلع بلا انقطاع إلى النبلاء البولنديين ذويّ النظارات الزرقاء والأظافر البنفسجية. فطالبت أمّي المتخمة بالكعك القيام بحركة ما. فاستقبلنا متنزه المصحّة، وتوجب عليّ أن أمتطي حماراً، وأكفّ عن الحراك عدّة مرّات لغرض التصوير الفوتوغرافي. ثم أتت الأسماك المرجانية والإوز ـ وما إلى ذلك من عجائب الطبيعة ـ وبعدها الأسماك والإوز من جديد والماء العذب الذي يجعل المرء ذا قيمة.

والتقينا بالإخوة فورميلا بين أحراش الصنوبر المقصوصة وغير الهامسة، كما يُزعم، التقينا بفورميلا المسؤول عن إنارة الكازينو وفورميلا المعنيّ بإنارة أوبرا الغابة. فكان على الصغير منها أن يتخلص من نكاته التي تناهت إلى أذنيه أثناء عمله بالإنارة، وكان الأخ الأكبر يعرف النكات كلها، ومع ذلك فإنه كان يضحك بحبّ أخويّ ضحكاً معدياً في المواضع الصحيحة، كاشفاً عن أسنانه الذهبية الأربعة، متفوقاً على أخيه بسنّ واحد. ذهب الجميع إلى «شبرنغر» لاحتساء عرق العرعر. وكانت حبّذت أمّي مشروب «كورفورست». ودعا الأخ الأصغر الكريم إلى تناول طعام العشاء في مطعم «الببغاء» متبرعاً في الوقت ذاته بالنكات التي كان يستلها من مخزنه. هناك تعرفنا على توشل الذي كان يملك نصف تسوبرت، إضافة إلى جزء من أوبرا الغابة وخمس دور للسينما. فضلاً عن أنه كان أيضاً رئيساً للإخوة فورميلا، ففرح جدّاً بتعرفه علينا مثلما فرحنا نحن بتعرفنا عليه. كان «توشل» يقلّب بلا كلل خاتماً في إصبعه، إلا أنه لم يكن خاتماً سحرياً أو ملبياً للأماني والرغبات؛ إذ لم يحدث أي شيء غير مألوف، سوى أن توشل بدأ يروي لنا نكات، هي النكات ذاتها التي رواها فورميلا، لكنها كانت أكثر تعقيداً وإشكالاً؛ لأن أسنان توشك الذهبية كانت أقل من أسنان الأخوين. ومع ذلك ضحك الحاضرون على الطاولة جميعهم؛ لأن توشك هو الذي كان يروي النكات. فقد أنا وحدي تمسكت بالجديّة، محاولاً بملامحي الجامدة القضاءَ على المُلَح والنوادر. فكم كانت القهقهات تشيع، حتى لو لم تكن صادقة، جوّاً من الارتياح،

مثل الزجاج الخالص في نوافذ ركن التهام الطعام العائد إلى دارنا. بدا توشل ممتناً، يروي النكات، ويوصي بالشراب الذهبي، ويقلب خاتمه بسعادة، فحدث حقّاً شيء ما. إذ دعانا توشل كلنا إلى أوبرا الغابة؛ لأنه كان يملك جزءاً منها، لكنه لم يستطع مرافقتنا بسبب المواعيد إلخ، ويمكن أن نكتفي بالمقاعد التي سيحجزها لنا، فالمقصورة منجدة، والطفل يستطيع النوم إذا شعر بالتعب، ثم دوّن بقلم جاف فضيّ كلمات توشليّة على بطاقات تحمل اسم توشل، من شأنها أن تفتح الباب على مصراعيه، كما قال وكان محقّاً في قوله.

فما حدث يمكن إيجازه بعبارات قليلة؛ كان مساءً دافئاً، وكانت أوبرا الغابة أجنبية تماماً وعاصةً بالمشاهدين. وقبل أن تبدأ أتى البعوض. بيد أن البعوضة الأخيرة كانت تأتي متأخرة قليلاً دائماً، ارتأت أن من الوجاهة الإعلان عن قدومها بأزيز ماصٍّ للدماء، ثم بدأت الأوبرا فعلاً والتي كانت عبارة عن أوبرا «الهولندي الطائر»؛ فتسللت سفينة من الغابة، التي استمد منها اسم الأوبرا، بحركة أوحت بالإثم والدنس أكثر مما أوحت بالقرصنة. وكان البحّارة يغنون للأشجار، أمّا أنا فقد هجعت على مقعد توشل، وعندما استيقظت ثانية كان البحّارة يواصلون الغناء، أو جاء بحّارة جدد: يا قائد الدفّة كن ساهراً... لكنني غرقت في النوم مرّة أخرى، شاعراً بالفرح في رقادي لأمّي كانت تتابع أوبرا «الهولندي» باهتمام، سارحة بخيالها كما لو أنها ركبت الأمواج الغامرة، وباتت تسحب أنفاسها ثم تزفرها على نحو فاغنريّ. لم تلحظ بأن ماتسرات وصاحبها يان كانا يقطعان الأشجار المختلفة الأحجام بمنشار الشخير، وبأنني سقطت من جديد أيضاً من أصابع فاغنر، إلى أن استيقظت نهائياً؛ إذ إن امرأة ما كانت تقف وحيدةً تماماً وسط الغابة وتصرخ. كان شعرها أصفر وتصرخ؛ لأن عامل الإضاءة، ربما كان الأخ فورميلا الأصغر، قد خطف بصرها بالكشّاف الضوئي وضايقها: «كلا! يا ويلي»! و«من ذا الذي يفعل بي هذا؟» غير أنّ فورميلا الصغير الذي فعل بها ذلك لم يطفئ الكشّاف الضوئي، فتحوّل صراخ المرأة الوحيدة التي لقبتها أمّي بالعازفة المنفردة إلى نحيب أزبد

بغضب فضّيّ اللون، جعل أوراق أشجار الغابة في تسوبوت تذوي مبكرة، لكنه لم يصب الضوء الكشّاف لفورميلا ليقضي عليه. لقد فشل صوتها تحقيق ذلك على الرغم من موهبتها، فكان على أوسكار أن يتدخل ويقع على مصدر الضوء فيقتل الكشّاف بصرخة بعيدة واحدة تكون حدتها الصوتية أدنى حتى من الإلحاح الهادئ للبعوض. ولم أكن تعمدت التماس الكهربائي ولا التعتيم أو الشرر المتطاير الذي أضرم النار في الغابة وأدّى إلى إصابة الناس بالذعر، الرغم من إخماده، ففقدت في الزحام والفوضى ليس أمّي والسيّدين اللذين أستفاقا بفظاظة، إنما طبلي أيضاً.

حَمَلَ لقائي الثالث بالمسرح أمّي - التي ضمّت فاغنر، بعد أمسية أوبرا الغابة، إلى معزوفاتها على البيانو في البيت، إثر تحوير طفيف - حملها إلى التفكير في إدخالي إلى جوّ السيرك في ربيع العام الرابع والعشرين.

أوسكار لا يريد الثرثرة هنا حول السيّدات الفضيّات المتأرجحات فوق عقلة السيرك أو حول نمور السيرك «بوش» وكلاب البحر البارعة، إذ أنّ أحداً لم يسقط من قبّة السيرك، ولم يتعرض أيّ مروّض حيوانات للعضّ. كذلك لم تفعل كلاب البحر سوى ما تدربت عليه: أي التفنن بالكرات، لترمى لها أسماك الرنجة الحيّة. إنني أشكر السيرك لأنه أتاح لي التمتع بالعروض المخصصة للأطفال، وأتاح لي الفرصة المهمة في التعرُّف على بيبرا، المهرج الموسيقي للسيرك الذي كان يعزف مقطوعة Jimmy the Tiger في «شعبة الحيوانات»، بينما وقف رجُلا أمّي أمام قفص القرود متحملين الإهانة، واستعرضت هدفغ برونسكي، التي قدمت إلى السيرك بالصدفة، لولديها الأفراس الصغيرة الحجم. وحين تثاءب أحد الأسود في وجهي، تخلّيت عنه وأقبلت بتهور على بومة، فحاولت تثبيت بصري فيها، إلا أنها، هي نفسها، ثبتت بصرها في عينيّ، فانسلّ أوسكار مذهولاً متأثراً، وقد سخنت أذناه وطعن في الصميم، منسحباً إلى عربات السكن البيضاء الزرقاء؛ إذ لم تكن هناك حيوانات، ما عدا بضع عنزات صغيرة مربوطة.

مرق بيبرا أمامي يتبختر بسروال ذي حمّالات وقبقاب، حاملاً جردل ماء، فتقاطعت نظراتنا بشكل خاطف. ومع ذلك استطعنا التعرف على بعضنا حالاً، فطرح الجردل على الأرض، ومال برأسه الضخم إلى الجانب، ثم تقدم نحوي، فقدّرت أنه كان أطول منّي بتسعة سنتمترات.

قال بصوت كالصرير: أنظر، أنظر! إن ذوي الأعوام الثلاثة لا يريدون النمو هذه الأيام».

ولأنني لم أردّ عليه؛ فإنه ازداد قرباً منّي، ثم أضاف: «أنني أدعى بيبرا وانحدر مباشرة من صلب الأمير أويغن الذي كان أبوه لودفيغ الرابع عشر، وليس مجرد أي أمير من آل بورغوند، مثلما يزعم البعض». وبما أنني لذت بالصمت مرّة أخرى، بادر بيبرا إلى القول: «لقد توقف نموي في عيد ميلادي العاشر، متأخراً بعض الشيء، على كلّ حال»!

ولأنه تحدث بصراحة فقد قدمت نفسي، دون أن اختلق أصلاً ملفقاً، قائلاً ببساطة «أوسكار».

فأجاب: «قل يا عزيزي أوسكار، إنك بلغت الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة أو ربما السادسة عشرة. فلا يعقل، حسبما تقول، أن سنّك تسعة أعوام ونصف العام؟» ثمّ طلّب منّي أن أقدر عمره، فخفضته عمداً، فقال: «إنك مجامل فعلاً، يا صديقي الفتى. خمسة وثلاثون عاماً؟ كان هذا زماناً! سأحتفل في أغسطس القادم بعيد ميلادي الثالث والخمسين، وبهذا المعنى فإنني يمكن أن أكون جدّاً لك»! فأبلغه أوسكار بعبارات رقيقة طيبة عن قدراته البهلوانية كمهرّج، ولقبه بالموسيقي البارع، وعرض أمامه قطعة فنيّة بفعل الشعور بالتفوق الذي استحوذ عليه، فآمنت بفعله ثلاثة مصابيح من مصابيح إضاءة السيرك فهتف بيبرا «برافو! برافيسيمو»!! وأراد إدخال أوسكار في السيرك الفور.

وأحياناً أشعر بالأسف، وإلى اليوم، لأنني رفضت عرضه. وكنت قد أبلغته آنذاك مبرراً رفضي: «هل تعلم، يا سيّد بيبرا، أنني أحسب نفسي من جمهور المشاهدين، فأترك فنّي الصغير خفيّاً، يزدهر بعيداً عن التصفيق، لأنني آخر من يمتنع عن التصفيق إعجاباً بفقراتك الفنيّة». فرفع السيّد بيبرا

سبابته المجعدة، وقال محذراً: «يا عزيزي أوسكار، أرجو أن تضع ثقتك بزميل خبير. فأمثالنا يجب أن لا ينضموا إلى الجمهور، إنما إلى المنصّة، إلى الحلبة. إن أمثالنا يجب أن يقدموا العروض ويحددون محتواها، وإلا فستتم معاملتهم حسبما يشتهي الآخرون. والآخرون هناك سيؤذوننا جدّاً وعن طيب خاطر»! ثم همس في أذني كما لو أنه تسلل إليها: «إنهم سيأتون! سيحتلون أفضل المقاعد! سينظمون مسيرات المشاعل! سيقيمون المنصّات، سيشغلونها، وسيعلنون نهايتنا من المنصّات. فكن حذراً يا صاحبي الفتي من ذاك الذي سيحدث فوق المنصّات! حاول أن تحتل موقعك على المنصّة، وأن لا تقف أبداً أمامها»! ثم التقط السيّد بيبرا جردله؛ إذ نودي باسمي. «سأبحث عنك، يا صديقي العزيز. سنرى بعضنا مرّة ثانية. فنحن أصغر من أن نفقد بعضنا. وبهذا الصدد فإن بيبرا يقول ويكرر القول: إنّ الناس الصغار مثلنا سيجدون مكانهم على المنصّات حتى لو غصّت بالناس، فإذا لم نعثر على مكان فوق المنصّة، فتحتها، لكن ليس أمامها، ولا بأي حال من الأحوال. هذا ما يقوله بيبرا الذي ينحدر مباشرة من صلب الأمير أويغن».

ولمحت أمّي التي خرجت من وراء مقطورة سكن وهي تهتف باسمي، لمحت السيّد بيبرا في اللحظة الأخيرة عندما قبلني على جبيني والتقط جردله، ساحباً نفسه نحو مقطورة مخصصة للسكن.

أسرّت أمّي لماتسرات ولآل برونسكي بغضب فيما بعد: «تصوروا! كان يقف بين الأقزام! رأيت بأمّ عيني القزم الخرافي وهو يقبله على جبينه. أتمنى أن لا تعني هذه القبلة شيئاً»!

وقُدّر لتلك القبلة أن تعني لي الكثير في المستقبل، ثم إنّ الأحداث السياسية في الأعوام التي أعقبت ذلك أكدت صواب نظرته: فقد بدأت مسيرات المشاعل والاستعراضات أمام المنصّات.

ومثلما التزمت باقتراحات السيّد بيبرا، اتبعت أمّي جزءاً من النصائح التي أسداها لها زيغسموند ماركوس في ممر تسويغهاوس والتي سمعتها منه باستمرار خلال زيارات الخميس. وعلى الرغم من أنها لم ترحل إلى لندن

ـ لم يكن لدي أدنى اعتراض على الانتقال إلى لندن ـ فإنها بقيت بمعية ماتسرات، فلم تعد ترى يان بروتسكي إلا في أوقات مناسبة، هذا يعني أنّ اللقاءات كانت تتم في تشيلر شتراسه على حساب يان أو أثناء لعب ورق الشدّة مع العائلة، لعب الورق الذي بات، بمرور الأيّام، مكلّفاً بالنسبة ليان؛ لأنه كان يخسر دائماً. أمّا ماتسرات التي وضعت أمّي ثقتها به، متبعةً نصيحة ماركوس، دون أن تضاعف من مقامرتها عليه، فقد انضمّ إلى الحزب في العام الرابع والثلاثين، مدركاً في وقت مبكّر نسبياً قوّة التنظيم، فتدرج إلى موقع مسؤول خليّة. وبمناسبة تلك الترقية التي اعتبرت سبباً لاحتفال العائلة شأنها شأن المناسبات غير الاعتيادية، وجه ماتسرات تحذيراته التي طالما وجهها إلى يان برونسكي بسبب عمله الوظيفي في البريد البولندي، لكنه وجهها آنذاك بلهجة حادة لأوّل مرّة وبنبرة قلقة أيضاً.

وما عدا لك لم يتغير الكثير، فرفعت صورة بيتهوفن المتجهم الوجه من المسمار فوق بيانو الأمّ ووضعت محلها صورة هتلر العابس النظرة مثل بيتهوفن. لقد أراد ماتسرات الذي لم يكن يهوى الموسيقى الجديّة إبعاد الموسيقار الأصمّ من البيت كلّه. لكن أمّي التي كانت تحبّ الإيقاعات البطيئة لسوناتات بيتهوفن التي تمرنت على عزف اثنتين أو ثلاثٍ منها على البيانو وبأسلوب أشدّ بطئاً من اللحن نفسه فتدعها تتقاطر بين الحين والآخر، أصرّت على تعليق بيتهوفن فوق البوفيه، إن تعذر وضعه فوق الأريكة. وبذلك حلّت أشدّ المواجهات اكفهراراً وتجهماً: فعُلق هتلر والموسيقار العبقري قبالة بعضهما بعضاً، فصار أحدهما يتطلع في الآخر، متفرساً فيه، سابراً أغواره، دون أن تنم ملامح أيّ منهما عن فرح أو ارتياح. وقطعةً إثر قطعة اشترى ماتسرات القيافة الرسمية، فبد بدأ، حسبما أتذكر، بطاقية الحزب المزودة بحزام العواصف المحتك بالحنك، والطاقية التي كان يرتديها حتى في الطقس المشمس، إلى جانب قمصان بيضاء ورباط أسود، أو سترة مشمعة بشارة على الذراع. وعندما اشترى أوّل قميص بنيّ ابتاع بعده بأسبوع سرّوال الخيّالة الخاكيّ اللون والجزمة

الطويلة. لكن أمّي اعترضت على ذلك، فاستغرق الأمر أسابيع طويلة ليكمل ماتسرات قيافته الرسمية.

كانت تتاح الفرصة لارتداء القيافة الحزبية آنذاك مرّات عديدة في الأسبوع الواحد، لكنّ ماتسرات كان يكتفي بتجمعات يوم الأحد في حدائق مايو قرب قاعة الرياضة، حيث برهن على صموده الفولاذي أمام الطقس السيئ، فكان يرفض أن يحمل مظلة فوق البذلة الرسمية، وكنّا نسمع تعبيره الذي كان يتردد آنذاك والذي تحوّل إلى قول مأثور: «الخدمة هي الخدمة والخمر هو الخمر»!

وأخذ يترك أمّي صباح كلّ أحد، بعدما يحضر شرائح لحم الغداء، فيجعلني في موقف حرج، إذ أنّ يان برونسكي الذي امتلك حسّاً ما بطبيعية الوضع السياسي لتلك الآحاد، كان يزور أمّي الوحيدة بثيابه ذات الطراز المدني الواضح، في الوقت الذي انخرط فيه ماتسرات في صفوف الحزب وطوابيره. وفما الذي بقي أمامي سوى الانسحاب بهدوء؟ إذ لم يكن في نيتي إزعاج الخليلين على الأريكة أو مراقبتهما. فكنت أهرع إلى التطبيل حالماً يختفي والدي بقيافته الرسمية عن الأنظار، ويحين وقت قدوم الرجل المدني الذي كنت أسميه والدي المحتمل، خارجاً من البيت في اتجاه حدائق مايو. والآن بإمكانكم أن تسألوا: هل كان من المفروض الذهاب إلى حدائق مايو بالتحديد؟ صدقوني أن الميناء خالياً من الناس ومهجوراً أيّام الآحاد، كما أنني لم أعقد العزم على التجوال في الغابة، ولم تكن «كنيسة ـ قلب ـ يسوع» تعني لي شيئاً. كان هناك في الواقع كشّافو السيّد غريف، لكنني آثرت زحام حدائق مايو وضجيجها على الرغبات الجنسية المكبوتة لغريف وأصحابه، حتى لو حسبتموني تابعاً حزبياً.

وكانت الخطبة تُلقى عادةً إمّا من قبل غرايزر أو من قبل مدير تربية الإقليم لوبزاك. ولم يكن غرايزر قد لفت انتباهي من قبل أبداً، إذ إنه كان شخصاً معتدلاً، بحيث أنه استُبدل فيما بعد بالبحّاثة القادم من بافاريا والمدعو فورستر الذي أصبح مديراً للإقليم. نعم؛ لو لم تكن للوبزاك هذا

حدبة لبات من الصعب على الرجل القادم من مدينة «فورت»أن يثبت أقدمه على رصيف الميناء الساحلي. كان الحزب قد رأى في حدبة لوبزاك علامة على الذكاء الخارق، فقدره حقّ تقديره، وعينه مديراً لتربية الإقليم، فأظهر الرجل فهماً لوظيفته. وبينما كان فورستر يزعق بلكنة بافاريّة منفردة كلّ مرّة من جديد: «العودة إلى الرايخ»، آثر لوبزاك الدخول في التفاصيل، فكان يتحدث بلهجات دانسغ العامية كلّها، ويروي النكات عن «بولرمان» و«فولوتسوتسكي»، عارفاً كيف يخاطب عمال الميناء في شيشاو والشعبَ في أوهرا ومواطني «أيماوس» و«شدليتس» و«بورغرفيزن» و«باوست». وكان له شأن مع الشيوعيين المبالغين في الجديّة والاجتهاد وكذلك مع هتافات الاشتراكيين الاجتماعيين الواهية المتراخية، فكان من الممتع تماماً الاستماع إلى الرجل القصير الذي برزت حدبة بفعل القيافة البنيّة بروزاً حادّاً.

كان لوبزاك ساخراً، يستل نكاته من حدبته، ويسميها بالاسم، وكان هذا الأسلوب يعجب الناس دائماً. فادعى مرّة بأنه مستعد للتضحية بحدبته للحيلولة دون ارتفاع نجم الكومونة لشيوعية. وكان من المتوقع أنه سوف لا يفقد حدبته؛ إذ لا يجوز المسّ بالحدبة ولا حتى هزّها من موقعها، وبناءً على ذلك فإنه كان مصيباً مع الحزب، بحيث يمكن الاستنتاج بأن الحدبة مثّلت المبادئ الأساسية للفكرة الأيديولوجية. وإذا ما تكلم غرايزر أو لوبزاك من بعده أو فورستر؛ فإنهم كانوا يفعلون ذلك من المنصّة ذاتها التي امتدحني فوقها السيّد بيبرا القصير القامة. ولهذا السبب فإنني حسبت خطيب المنصّة الأحدب الموهوب، مثلما أظهر نفسه على المنصّة. مبعوثاً شخصيّاً لبيبرا، يناصر من على المنصّة، وبثيابه البنيّة، يناصر قضية بيبرا وكذلك قضيتي من حيث المبدأ. فكيف كانت المنصّة في الحقيقة؟ بصرف النظر عمن نُصبت له المنصّة أو أمامه فهي لا بدَّ أن تكون دائماً متناسقة. فكانت منصّة حدائق مايو المجاورة لقاعة الرياضة متناسقة جدّاً مثلما أريد لها. وعُلقت عليها من الأعلى إلى الأسفل ستة أعلام تحمل الصليب المعقوف إلى جوار بعضها، وتبعتها رايات وبيارق مثبتة. إضافة إلى صفّ

طويل من قوّات الحرس القومي بثياب سوداء وأنطقةٍ تحت الأحناك، ثم صفّين من قوّات الصاعقة الذين وضعوا أيديهم فوق الأحزمة الحربية أثناء الخطابات والأناشيد. وجلست صفوف عديدة من الرفاق الحزبيين ذوي القيافات الرسمية، واحتل البعض منهم المقاعد خلف منبر الخطابة، بالإضافة إلى قائدات المنظمات النسوية اللواتي بانت على وجوههن ملامح الأمومة، فضلاً عن ممثلي البرلمان بالثياب المدنية، وضيوف من الرايخ الألماني ورئيس الشرطة، أو نائبه.

وقامت «شبيبة هتلر» بتجديد حيويّة قاعدة المنصّة، أو بعبارة أدق: مسيرة أبواق المناطق التابعة لتنظيم الفتيان وموكب فرقة الموسيقى العسكرية التابعة لشبيبة هتلر. في بعض التجمعات الحزبية العامة كان يتاح لجوقة إنشاد مختلطة، موزعة بانتظام على يمين المنصّة وشمالها، إطلاق الشعارات أو الغناء، احتفاءً بريح الشرق الحبيبة التي تصلح، حسب ما ورد في النص، لتطوير أقمشة الأعلام والرايات وازدهارها أكثر من الرياح الأخرى كلّها.

لقد ذكر بيبرا أيضاً الذي قبلني على جبيني: «يا أوسكار، تقف أبداً أمام المنصّة، لأن أمثالنا يجب أن يقفوا على المنصّة»! وأحياناً كنت أجد لنفسي مكاناً بين بعض قائدات التنظيم النسائي. وللأسف الشديد لم تتخل أولئك السيّدات أثناء الاجتماع عن مداعبتي والربت على رأسي لأغراض دعائية. كما أنني، وبسبب طبلي، لم أتمكن من دسّ نفسي بين النقّاريات الضخمة والأبواق والطبول؛ وكان أوسكار يرفض تطبيل المجندين المرتزقة وتبويقهم. وكذلك أخفقت محاولة قمت بها للتقرب من لوبزاك، مدير تربية الإقليم. كنت أخطأت الظنّ في الرجل، فهو لم يكن مبعوثاً لبيبرا مثلما تمنيت ولم يظهر أي تفهّم لحجمي الحقيقي على الرغم من حدبته الواعدة.

وعندما تقدمت منه يوم أحد مخصص للمنصّات وأصبحت على مسافة قصيرة من منبر الخطابة، فحييته بتحية الحزب، ورمقته في البدء بنظرة خاطفة، ثم همست له وأنا أغمز بعيني: «إن بيبرا هو قائدنا»! فلم

تشع روحه بالنور، بل ربتّ على رأسي، مثلما فعلت عضوات الحزب النازي؛ ولأنه أراد أن يلقي خطبة فقد أمر بإبعاد أوسكار عن المنصّة، حيث وضعتني قائدتان من «اتحاد الفتيات الألمانيات» في وسطهما وقامتا باستجوابي عن «ماما وبابا» طوال فترة الاجتماع.

فليس من العجب أن يخيب ظنّي بالحزب في صيف العام الرابع والثلاثين، دون أن يكون لانقلاب الجنرال «روهم» أي تأثير على ذلك. وكنت كلّما نظرت إلى المنصّة وأنا أقف أمامها بدا لي تناسقها مشبوهاً، ذلك التناسق الذي لم تخفف حدبة لوبزاك من حدته على نحو كاف. بلا ريب كان انتقادي موجهاً قبل كلّ شيء إلى الطبّالين ونافخيّ الأبواق. ففي أغسطس من العام الخامس والثلاثين وجدت نفسي في يوم أحد رطب خانق، خصص للاجتماع الحزبي العام، أشارك في استعراض المرتزقة وعازفي الأبواق عند قاعدة المنصّة.

وكان ماتسرات خرج من البيت حوالي الساعة التاسعة، بعدما ساعدته في تلميع واقيات حذائه الجلدية البنيّة، لكي يغادر الدار في وقت مناسب. كان الجو ساخناً بشكل لا يطاق حتى في تلك الساعة المبكرة، فكان ماتسرات ينضح بالعرق الذي اتسعت بقعة على الدوام تحت ردني قميصه الحزبي قبل أن يخرج إلى الخلاء. وفي الساعة التاسعة والنصف حضر يان برونسكي، مرتدياً بذلة صيفية خفيفة فاتحة اللون وحذاءً قصيراً رمادياً مفتوحاً من أعلى الرسغين وقبعةً من القشّ. فأخذ يلعب معي دون أن يكفّ عن النظر إلى أمّي التي كانت قد غسلت شعرها مساء الأمس. وعلى عجل لاحظت بأن حضوري كان يقيّد حديثهما ويجعل تصرفاتهما متشنجةً ويعيق حركات يان. بدا سروال يان الصيفي ضيقاً، فانسحبت من المكان لأقتفي آثار ماتسرات، دون أن أرى فيه قدوةً لي. كنت أتحاشى المرور بالشوارع الغاصة بأصحاب القيافات المتجهين نحو حدائق مايو، فاقتربت من ميدان التجمع، قادماً من ساحات لعب كرة المضرب المجاورة لقاعة الرياضة، ومديناً للمنظر الخلفي للمنصّة بالعثور على ذلك الطريق الملتوي.

فهل رأيتم ذات مرّة منصّة من الخلف؟ يجب على الناس جميعاً ـ

وهذا مجرد اقتراح ـ أن يألفوا منظر المنصّة الخلفي، قبل أن يتم تجميعهم أمامها. كلّ من كان رأى المنصّة من الخلف فعلاً سيجدها ترتسم في مخيلته وسيكون محصناً ضد أنواع السحر التي تصاغ بهذا الشكل أو ذاك على المنصّات. ويمكن أن ينطبق الأمر نفسه على المشاهد الخلفية للمذابح الكنسية، إلا أن هذا موضوع حديث آخر.

ولم يكتفِ أوسكار المولع بالدقّة والإتقان برؤية السقّالة الجرداء القبيحة في الحقيقة، متذكراً كلمات معلمه بيبرا، فدسّ نفسه في المنصّة المصممة للمشهد الأمامي وحد، متوغلاً مع طبله الذي لا يفارقه قطّ، من الناحية الجافة المنظر بين الدعائم والعوارض، فارتطم بلوحة سقف خشبية، فجرح ركبته مسمار في اللوحة ناتئ خبيث، وسمع اصطفاف جزمات الرفاق الحربية، ومن بعدها أحذية الرفيقات، ثم تسلل أخيراً إلى أشدّ المواضع سخونة بما يلائم شهر أغسطس/آب: فعثر أمام القائمة الداخلية للمنصّة، خلف قطعة من الخشب الرقيق مكاناً وحماية كافيين للاستمتاع بهدوء تام بالفتنة الصوتية التي سيتمخض عنها الاجتماع السياسي، دون أن يشغل نفسه بالأعلام والرايات أو يشعر بالإهانة من رؤية أصحاب القيافات الرسمية.

وقبعت تحت منبر الخطابة، ووقف على يميني وعلى شمالي ومن فوقي الطبّالون الصغار المنضوين تحت لواء «تنظيم الأحداث» وشبيبة هتلر، مفرجين سيقانهم ومقلصين أعينهم بفعل أشعة الشمس. ومن ثم أتى الحشد الذي شممت راحته عبر فجوات العوارض الخشبية. فاجتمع الحشد حيث أصبح كلّ واحد يلامس الآخر بمرفقيه وبثياب يوم الأحد، وكان البعض من الناس قد جاء على الأقدام أو بالترام أو حضر القداس الكنسي الصباحي، إلا أنه لم يشعر بالارتياح بما فيه الكفاية، وثمة من جاء بخطيبته لكي يسليها بعض الشيء، فكان المرء يحب الاشتراك في التجمع العام حيث كان التاريخ يصنع حتى لو أدّى ذلك إلى تبديد وقت الضحى.

وخاطب أوسكار نفسه بالقول: كلا، إنهم لا يمكن أن يأتوا هاهنا عبثاً. ثم قرّب عينه من شق في الجذع الخشبي المستخدم دعامة، فلاحظ

الفوضى تضرب أطنابها في «هندنبورغ أليه». لقد جاءوا! فارتفع صوت الأوامر من فوقه، وكان رئيس فرقة الموسيقى العسكرية يلوّح بصولجان الإيقاع والجوقة من ورائه تنفخ في الأبواق، مكيفةً نفسها حسب مباسم الآلات وتزفر في الصفيح الملمّع بالورنيش مصدرةً أصواتاً منفردة تليق بالمجندين المرتزقة، لدرجة أن أوسكار شعر بالألم فهتف في سرّه: «يا براند، يا رجل العاصفة المسكين، وأنت يا كفكس أيها الشاب الهتلري، لقد ذهب موتكما هباء»!

وكما لو أن أحداً ما أراد تأكيد الرثاء الذي قدمه أوسكار لضحايا الحركة القومية الألمانية اختلطت قرقعة مدويّة أحدثتها الطبول التي شُدت بجلود العجل، اختلطت بأصوات الأبواق النحاسية، واستشعرت الجادة التي كانت تفصل بين صغي الحشد مؤديةً إلى المنصّة، قدومَ المتلفعين بالقيافات العسكرية، فطفق أوسكار يهتف: «والآن يا شعبي انتبه، انتبه يا شعبي»!

كان الطبل يرتخي إلى جانبي على نحو مثالي، فطوحت بالمضربين بخفّة سماوية ثم ضبطت على الطبل إيقاع رقصة الفالس المرحة التي كنت أرفع من حدتها بإلحاح، مستحضراً مدينة فيينا ونهر الدانوب، إلى أن أثرت إعجاب الصفّين الأوّل والثاني من صفوف المرتزقة الطبّالين برقصة الفالس، لكن الفتيان الكبار المطلبين بسطحية بالغة استقبلوا إيقاعات لحني باستحسان بهذا القدر أو ذاك. وبين أولئك كان ثمة نفر من المتعصبين القساة الذين لا يتمتعون بحسّ سمعي فأصرّوا على «البم بم» والبمبمبم»، بينما كنت أنقر إيقع الفالس المحبوب من قبل الشعب. وحين كاد اليأس يتسرب إلى نفس أوسكار انطلق بصيص من الضوء من الفرقة الموسيقية فعزف أصحاب المزامير، بحق الدانوب، عزفاً سماوياً. ما عدا قائد فرقة الموسيقى العسكرية وقائد جوقة المرتزقة اللذان لم يقتنعا بموسيقى ملك الفالس، فزعقا مصدرين أوامرهما المزعجة، بيد أنني ألغيتها بحيث لم تبق هناك سوى موسيقاي. فقابلين الشعب بالشكر والامتنان، وتصاعدت قهقهات الضاحكين أمام المنصّة، وصار البعض يردد اللحن، يا نهر

الدانوب، فانتشر في أرجاء المكان كلّه، أزرق سماوياً، وامتد إلى هندنبورغ أليه، هكذا أزرق رائعاً حتى وصل إلى متنزه شتيفن، فصار إيقاعي يثبّ ويزداد قوةً بفعل صوت المكبرات المفتوحة إلى مداها الأقصى فوق رأسي. وحين تطلعت بعين مرهفة إلى الفضاء الخارجي، مواصلاً التطبيل بنشاط، لمحت الشعب منغمراً بالفالس ببهجة، ويحجل منفعلاً، ملتزماً بالإيقاع: فتشكل تسعة أزواج وتبعهم زوج آخر وأخذوا يرقصون معاً بفضل ملك الفالس. إلا لوبزاك الذي كان يغلي وسط مسؤوليّ الضواحي وقادة قوات الصاعقة وفورستر وغرايزر ورواشننغ ورهط طويل من أركان الحرب النازيين؛ لوبزاك الذي كان على الجادة أن تنغلق أمامه على هيئة منصّة لم يعجبه إيقاع الفالس، مما أثار دهشتي حقّاً. فكان معتاداً على أن يُرشد إلى المنصّة بمرافقة الموسيقى العسكرية الموحدة الإيقاع، غير أن هذه النغمات التلقائية انتزعت منه آنذاك ثقته بالشعب. كنت أبصرت معاناته وعذابه من خلال فجوة اللوح الخشبي، حتى أحسست بتيار هواء مرق من الفجوة. وعلى الرغم من أن عيني كادت تصاب بالالتهاب، فإنه أثار شفقتي، فاستبدلت الفالس برقصة الشارلستون، فنقرت Jimmy the Tiger على الطبل، آتياً بالإيقاع ذاته الذي عزفه المهرّج بيبرا في حلبة السيرك على زجاجات ماء فارغة، غير أن الشباب الواقفين أمام المنصّة لم يفهموا الشارلستون؛ لأنهم كانوا ينتمون بلا شكّ إلى جيل آخر، ولذلك لم تكن لهم معرفة بالشارلستون أو بمعزوفة Jimmy the Tiger فلم يعزفوا جيمي وتايغر ـ آه يا صديقي الطيب بيبرا ـ! بل نقروا بلا نظام أو ترتيب، فنفخوا الأبواق مستحضرين سدوم وعمورة. لقد فكّر عازفو المزامير في أن الحجل كالقفز، وأخذ قائد الفرقة الموسيقية يكيل الشتائم كيف ما اتفق. ومع ذلك فإن شباب جوقة المرتزقة والفرقة العسكرية؛ كانوا يطبّلون ويزمرون وينفخون الأبواق بسرعة جنونية، إذ إن جيمي تحوّل إلى متعة وبهجة في منتصف أغسطس، حتى أدرك رفاق الشعب المحتشدون آلافاً مؤلفةً أمام المنصّة بأن Jimmy the Tiger: هو الذي دعا الشعب إلى رقصة الشارلستون!

فبادر كلّ من لم يدخل بعد حلبةَ الرقص في حدائق مايو إلى طلب آخر سيّدة حاضرة يومها ليراقصها؛ ما عدا لوبزاك وحده الذي ظلّ يراقص حدبته؛ لأن كلّ من ارتدت فستان امرأة من حوله، فضلاً عن سيّدات التنظيم النسائي اللواتي كان حريّ بهن مساعدته، ابتعدن عن لوبزاك المنعزل الوحيد، فجلسن على مصاطب المنصّة الخشبية الصلبة، لكنه واصل الرقص وحده، امتثالاً لمشورة حدبته، مستمراً على مضض موسيقى جيمي، محاولاً إنقاذ ما يمكن إنقاذه.

لكن لم يعد هناك في الواقع ما يمكن إنقاذه، والشعب ظلّ يرقص على حدائق مايو ويدوس الحشائش التي لم تزل خضراء خالية. ثم اختفى الشعب برفقة Jimmy the Tiger في أركان متنزه شتيفن، حيث قدمت الأحراش التي وعد بها جيمي، والتي سارت إليها النمور على أقدام من القطيفة، غابةً متشابكة الأشجار كتعويض، ليجتمع فيها الشعب الذي ما زال يتدافع فوق الحشائش، فاختلط الحابل بالنابل. وكل من أحبّ الثقافة كان بإمكانه الاستماع إلى موسيقاي في ممتنزه هندنبورغ أليه الذي غُرست أشجاره في القرن الثامن عشر، ثم اجتثت إبّان الحصار الذي فرضته قوّات نابليون في العام ١٨٠٧، ثم أعيد غرسها من جديد في ١٨١٠ تكريماً لنابليون واحتفاءً به؛ فقد أتحت للراقصين فرصة الاستمتاع بموسيقاي على الأرض التاريخية في هندنبورغ أليه، لأن المكبرات الصوتية لم تقفل ولأن الناس كانوا يسمعونني حتى بوابة أوليفر، ولم ترتخ قبضتاي إلى أن تمكنت، بمعونة الشبان المجتمعين عند قائمة المنصّة، من إخلاء حدائق مايو، فما فيها زهور الحشائش الصغيرة، وذلك بفضل نمر جيمي المنفلت.

وحتى بعدما ضنيّت على طبلي بالراحة التي استحقها فإن شبّان التطبيل لم يعثروا على نهاية لمرحهم، فانصرف وقت طويل قبل أن يبدأ تأثيري الموسيقي يتلاشى رويداً رويداً. وبقي أن أذكر أو أوسكار لم يستطع في الحال مغادرة وكره تحت المنصّة، لأن مبعوثي قوّات الصاعقة وفرقة الحرس النازي دبكوا بجزماتهم فوق الألواح الخشبية طوال ساعة،

وتمزق لباسهم الأسود البنّي على شكل مثلثات صغيرة، وفتشوا قليلاً في هيكل المنصّة، لعلهم يعثرون على عضو «اشتراكي اجتماعي» أو أحد أعضاء «الكومونة». ودون أن أعدد حيل أوسكار ومناوراته التمويهية فإنني سأكتفي في هذا المجال بالتأكيد على أنهم، لم يتمكنوا من القبض على أوسكار، لأنهم لم يكنوا آهلين له.

أخيراً عمّ الهدوء في متاهة الخشب التي كان حجمها بحجم الحوت التي أقام يونس في بطنها حتى تشبّع بالزيت. كلا ثم كلا؛ إن أوسكار لم يكن نبيّاً، لذلك شعر بالجوع! ولم يكن هناك ربّ يأمر: «جهّز نفسك وارتحل إلى مدينة نينوى الكبرى وعظ الناس ضدها»! فالرب لا يحتاج أن ينبت لي شجرة خروع، لتنخرها الديدان فيما بعد بأمر من الربّ. إنني لا أنوح على الخروع التوراتي والإنجيلي أو على نينوى حتى لو كان اسمها غدانسك. فأخفيت طبلي الذي لم يكن توراتياً ولا إنجيلياً تحت بلوزتي وانشغلت بنفسي، متحرراً من أحشاء المنصّة المخصصة لمختلف التجمعات، التي كان لها بالصدفة المحض شكل الحوت التي ابتلعت النبي، فغادرتها دون أن أصطدم بالمسامير.

فمن ذا الذي كان ينتبه إلى صبيّ صغير يصفر ويجر خطاه بتثاقل من له ثلاثة أعوام سائراً في أطراف الحدائق في اتجاه قاعة الرياضة؟ كان أصحابي الفتيان يقفزون قبالة المنصّة مشرعين طنابيرهم وطبولهم المسطحة ومزاميرهم وأبواقهم. وكمن يقوم بتدريب إضافي لاحظت أولئك الذين كانوا يتقافزون بتواضع على صفّارة مسؤول منطقتهم، فتأسفت عليهم. انفرد لوبزاك بحدبته الوحيدة عن أركان قيادته المحتشدين يخطو جيئةً وذهاباً، فنجح في هرس الحشائش والزهور الصغيرة كلها عند نقاط رجوعه من مساره القصير الشديد الاستقامة، إذ إنه كان يستدير بكعب جزمته الطويلة.

عندما عاد أوسكار إلى الدار كان طعام الغداء جاهزاً فوق الطاولة: لحم مفروم وبطاطس مقشره ومملحة وكرنب أحمر ومحلبية الشيكولاتة بالفانيلا كتحلية. لم ينطق ماتسرات بحرف واحد، وقد نأت أمّ أوسكار

بأفكارها إلى نواح بعيدة أثناء تناول الطعام. لكن في فترة العصر حدث شجار عائلي بسبب الغيرة والبريد البولندي. وفي المساء قدمت الرعود الرطبة المصحوبة بهطول الأمطار وانهمار البرد الرائع التطبيل عرضاً مستفيضاً، وآن لصفيح أوسكار المتعب أن يستريح ويصيخ السمع.

واجهات العرض

تمكنت فترةً طويلةً، أو بعبارة أدقّ، ابتداءً من نوفمبر/ تشرين الثاني من العام الثامن والثلاثين، تمكنت بهذا القدر أو ذاك، ومثلما راقبت ذلك، من تخريب الاجتماعات وجعل الخطباء يتلعثمون، كما نجحت في تحويل الموسيقى العسكرية والتراتيل التي كانت تؤديها جوقات المنشدين إلى موسيقى رقصة الفالس والفوكس تروت. واليوم فإنني اتخذت المسافة اللازمة حقّاً للتطبيل تحت المنصّات، حيث أصبحت نزيلاً على حسابي الخاص في إحدى مصحات الأمراض العقلية والنفسية، بعد أن استحال كلّ شيء إلى تاريخ وإلى حديد بارد لا يستوجب الطرق حتى وإن بدت تلك الأشياء تثير الهمة والحماس. الآن ليس في نيتي قطّ أن أرى في نفسي مناضلاً ضد النازية؛ لأنني قدمت بتخريب بضعة تجمعات حزبية وإرباك ثلاث أو أربع مسيرات تعبوية طارئة، بفضل طبلي. لقد تحوّلت عبارة مناضل في المقاومة إلى موضة رائجة. بل كان من يرى في المقاومة أمراً شخصياً داخلياً، اصطلح عليه بالهجرة الداخلية. ناهيك عن الرجال الأفاضل المتبحرين في الكتاب المقدس الذين أجبروا دفع غرامة نقدية فرضها مرصف الحماية الجوية؛ لأنهم غفلوا عن تعتيم شبابيك غرف نومهم إبّان الحرب العالمية الثانية فباتوا يطلقون على أنفسهم لقب رجال المقاومة ومناضليهم.

لكننا سنلقي الآن نظرة على أوسكار وهو تحت المنصّة: فهل جرب أوسكار التطبيل بحضور أولئك؟ وهل أخذ زمام المبادرة بيده، عملاً بنصيحة معلمه بيبرا، فدفع الشعب إلى الرقص أمام المنصّة؟ وهل أفسد

خطّة لوبزاك مدير الإقليم، الرجل المحنّك، السريع البديهية؟ وهل قام بحلّ تجمعات النازيين ذات أحد من آحاد أغسطس / آب من العام الهامس والثلاثين، ثمّ فعل ذلك مرّات عدة فيما بعد، بطبله ذي اللونين الأبيض والأحمر والذي لم يكن في الواقع طبلاً بولندياً؟

لقد فعلت تلك الأشياء كلّها، ولا بدَّ أن تقرّوا بذلك. فهل أصبح أنا، نزيل المصحّة، رجل مقاومة لهذا السبب؟ يجب أن أجيب بالنفي على هذا السؤال، راجياً منكم، أنتم يا من لم تقيموا في مصحّة الأمراض العقلية، أن تنظروا إليّ باعتباري لست سوى إنسان انفراديّ التصرّف بعض الشيء، إنسان رافضٍ للون القيافات العسكرية وطرازها وإيقاع الموسيقى المألوفة وصخبها فوق المنصّات، لأسباب خاصة وجمالية أيضاً، التزاماً بتحذيرات المعلم بيبرا، فأعلن عن رفضه بالتطبيل على لعبة أطفال ليس إلا.

آنذاك كان من الممكن استمالة الناس من فوق المنصّات وأمامها عبر طبلة صفيح بائسة، ويجب الإقرار بأنني أوصلت حيلي الفنيّة إلى حد الإتقان المطلق، تماماً مثلما فعلت بصوتي المحطم للزجاج عن بعد. إنني لم أطبّل ضد التجمعات النازية وحدها، إنما ثنى أوسكار ركبته تحت المنصّة للتطبيل ضد الحمر والسود والكشّافة وأصحاب القمصان الخضر جماعة وشهود يهوى واتحاد «كيفهويزر» والنباتيين وعصبة بولندا الفتاة وحركة الهواء النقي. ومهما أنشدوا ونفخوا وصلّوا وأعلنوا عن شيء ما؛ فإن طبلي كان يفعل ذلك أفضل منهم.

فكان عملي إذاً عملاً تخريبياً، فمن لم أنله بطبلي كنت أقضي عليه بصوتي. لقد بدأت بالنشاط الليلي إلى جانب تلك الممارسات الموجهة ضد المنصّات الانتظامية في وضح النهار: فلعبت دور الشيطان الموسوس في شتاء العام السادس ـ والسابع والثلاثين. استلمت أولى الإرشادات في إغواء الناس من جدّتي كولياجك التي افتتحت في ذلك الشتاء القاسي بسطةً صغيرة في السوق الأسبوعي في ضاحية لانغفور، وذلك يعني أنها: قبعت بأثوابها الأربعة وراء لوحة خشبية فصارت تنادي بصوت نائح،

عارضةً للأعياد «البيض الطازج والزبد الأصفر كالذهب والبطّ الذي لا هو بالسمين ولا بالضعيف»!

كان السوق يقام كلّ ثلاثاء، فكانت الجدة تأتي بالترام الصغير من فيرأك، ثم تخلع نعلها المصنوع من اللبّاد قبل الوصول إلى لانغفور لتركب القطار، فتنزل بخفين مفلطحين، متمايلةً بسلتيها، باحثةً عن بسطها في شارع المحطة، تلك البسطة التي خُطت عليها رقعة: آنا كولياجك، بيساو. كما كان البيض زهيد الثمن آنذاك! كان المرء يدفع «غولداً» واحداً ثمناً للبطّة، بينما كان سعر الزبد الكاشوبي أرخص من السمن النباتي. كانت جدتي تتربع بين بائعتي أسماك، تهتفان «سمك مفلطح» و«سمك القد»! حيث كان الصقيع يحوّل الزبد إلى حجر ويحافظ على البيض طازجاً ويشحذ أصداف الأسماك حتى تستحيل إلى شفرات حلاقة مرهفة، ويقدم وظيفة وأجراً لرجل أعور يدعى «شفيرتفيغر» كان يسخّن حجر الآجر الأحمر على موقد فحم مفتوح، ثم يلفها في ورق جرائد ويؤجرها للنساء.

كانت جدتي قد اتفقت مع شفيرتفيغر على أن يدس حجراً أحمر ساخناً تحت أثوابها الأربعة كلّ ساعة. وكان شفيرتفيغر يفعل ذلك بسيخ من حديد، فيدفع الطرد المبخر تحت القماش الذي لا يكاد يرتفع، ثم يقوم بحركة تفريغ تتبعها حركة تحميل، فيدس بسيخه الحجرَ الذي أوشك أن يبرد أثواب جدتي.

كم كنت أشعر بالحسد إزاء الآجر الملفوف بأوراق الجرائد، الآجر المشبع بالحرارة، المانح للدفء! وما زلت إلى اليوم أتمنى لو أنني كنت حجراً دافئاً دائم البقاء تحت أثواب جدتي. فلعلّكم تسألون ما الذي كان يبحث عنه أوسكار تحت أثواب جدّته؟ فهل أراد تقليد جدّه كولياجك ليفعل ما فعله بالمرأة العجوز؟ أم أنه كان يبحث عن النسيان وعن الوطن والسعادة الذاتية القصوى؟ فيجيب أوسكار بالقول: إنني كنت أبحث عن أفريقيا تحت الثياب، أو نابولي بالأحرى التي لا بدَّ أن يكون المرء قد شاهدها، حيث الأنهار تجري مجتمعةً، مع خطّ تقسيم المياه، والرياح الشديدة الخصوصية تهبّ، وتهجع أيضاً، والمطر ينهمر فيرتخي المرء في

مكان جاف، والسفن ترسو أو ترفع المرساة، وحيث يجلس الربّ العزيز إلى جانب أوسكار، الربّ المستمتع بالدفء منذ أبد الآبدين، وحيث ينظّف الشيطان التلسكوب الخاص به، وتلعب الملائكة لعبة «البقرة العمياء»؛ فتحت ثياب جدّتي كان صيفاً دائماً حتى لو كانت الشموع متوقدةً فوق شجرة عيد الميلاد. ولم يكن هناك مكان آخر يمكن أن أعيش فيه حسب التقويم اليومي مثل المكان الواقع تحت أثواب جدتي.

إلا أنها لم تدعني أنعم بالراحة والطمأنينة تحتها في السوق الأسبوعي إلا نادراً، فكنت أقبع على صندوق إلى جانبها، وأستعيض بدفء ذراعها فأرى كيف كانت الآجر يأتي ويذهب، تاركاً لجدتي فرصة تعليمي حيلة الوقيعة والإغراء. لقد رمت جدتي محفظة فنسنت برونسكي العتيقة، بعد أن ربطتها بخيط، على الجليد الموحل فوق الرصيف الذي وسخه عمّال رش الرمال لدرجة أن أحداً آخر سوى جدتي وسواي لم يكن قادراً على العثور عليها ثانية. فكانت ربّات البيت تأتين ويذهبن دون أن يشتري شيئاً على الرغم من الأسعار كانت زهيدة للغاية، ولعلهن كن يرغبن في أن تهدى لهن البضاعة مجاناً، بل كنّ يطمعن في الحصول على أكثر من ذلك، مثل تلك السيّدة التي انحنت لتلقط محفظة نقود فنسنت المرمية على الأرض، فلامست جلد المحفظة، بيد أن جدتي سارعت إلى جذب الخيط ومعه المرأة العطوفة التي وقعت في اضطراب، فأوصلت السمكة ذات الثياب الفاخرة إلى طرف الصندوق وخاطبتها بلطف: «نعم؛ يا سيّدتي، قليل من الزبد؟ من فضلك؟ أصفر مثل الذهب أو بضع بيضات، وهل اللّوز بغولدن واحد؟» وعلى هذا المنوال كانت آنا كولياجك تبيع منتجاتها الطبيعية، فاستوعبت سحر الغواية، لكن ليس تلك الغواية التي استخدمها الصبيان المشاكسون ذوو الأربعة عشر عاماً لاستدراج زوزي كاتر إلى القبو ليلعبوا معها لعبة الطبيب والمريض. فذلك لم يستطع إغرائي، بل تنصلت عنه، بعد أن جعلني أطفال الجيران في البناية الكبيرة ذاتها مريضاً وزوزي كاتر طبيبةً، فتبرع أكسل ميشكه ونوجي أيكه بأمصال الدم، فكان عليّ أن ابتلع الدواء الذي لم يكن رملياً مثل حساء القرميد، بيد أنّ طعمه كان مثل

طعم السمك الفاسد؛ لقد كانت غوايتي بلا جسد نوعاً ما فاحتفظت بمسافة فاصلة بينها وبين شركائها.

كنت أفلت أحياناً من أمّي وماتسرات بعد حلول الظلام، أي بعد ساعة أو ساعتين على إقفال المحلات، فأقف بمفردي في مواجهة ليل الشتاء. وفي الشوارع الساكنة الخالية من الناس إلى حدّ ما كنت أراقب من مدخل البيوت الواقية من الريح واجهات المتاجر في الجهة المقابلة التي كانت تعرض الأطعمة الفاخرة ولوازم الخياطة والحياكة والأحذية والساعات والمجوهرات وكلّ ما هو سهل الاستعمال ومرغوب فيه. ولم تكن واجهات العرض مضاءة كلّها، حتى أنني آثرت المتاجر البعيدة على مصابيح الشوارع، تلك المتاجر التي عرضت بضاعتها في شبه العتمة، فالضوء كان يجذب إليه المشاة الاعتياديين في حين شبه الظلام لم يكن يستوقف إلا المختارين من الناس.

ولم يتوقف الأمر بالنسبة لي على الناس الذين كانوا يلقون نظرة عابرة أثناء السير على الوجهات الساطعة الإنارة، نظرة تستهدف قطعة الأسعار أكثر من البضاعة ذاتها، أولئك الذين كانوا يتوصلون من خلال انعكاس الواجهة الزجاجية إلى أنّ هذه القطعة المعروضة ستكون مناسبة من حيث الحجم. فالزبائن الذين كنت انتظرهم في البرد الساكن الجاف بعد انهمار ندف الثلج الكبيرة، أو أثناء هطول الثلج الكثيف الصامت، أو تحت القمر الذي كان حجمه يتسع بفعل الصقيع؛ هم أولئك الزبائن الذين كانوا يقفون أمام واجهات المحلات كمن نودي عليه بالتوقف، فلا يبحثون كثيراً في الواجهات، إنما تستقر أبصارهم بعد برهة قصيرة أو مباشرة على بضاعة بعينها. وكانت مهمتي تشبه مهمة الصيّاد، فبدا الأمر بحاجة إلى صبر ورباطة جأش وإلى عين واثقة حرّة. بعدما تتوفر هذه المقدمات الضرورية؛ فإن صوتي يكون قادراً على صرع حينئذ الحيوان الوحشي بطريقة غير دموية، خالية من الألم، أو يغويه ويضلله، لكن لماذا؟

من أجل السرقة: إذ أنني كنت أقطع بصراخي العديم الصوت واجهات العرض من الأسفل، وإذا كان ممكناً فإنني كنت أقصّ قطعة

دائرية أمام البضاعة المرغوبة، ثم أدفع القطعة المقصوصة إلى داخل واجهة العرض من خلال الرفع من حدّة الصوت، فكانت تحدث جلبة مختنقة سريعة لا تشبه جلبة الزجاج المنكسر، لكنها كانت مسموعة، ليس من قبلي في الواقع؛ لأن أوسكار كان يقف بعيداً، بل من قبل المرأة الشابة التي كانت ترتدي فراء الأرانب فوق ياقة المعطف الشتوي البنّي الذي قُلبت بطانته ذات مرّة بالتأكيد، فسمعت المرأة ارتطام القطعة الدائرية وهمّت بالانصراف عبر الثلوج، لكنها ظلّت واقفة ربما بسبب هطول الثلج، ولأن كلّ شيء كان مسموحاً به عند سقوط الثلج، حتى وإن لم يسقط بكثافة. ومع ذلك فإنها تلفتت حولها مرتابة في ندف الثلج، ثم تطلعت مرّة أخرى وكأن لم تعد هناك ندف جديدة، ثم انزلقت يدها اليمنى من فراء الأرانب الذي أحاط بذراعيها وهي تتطلع، لكنها انقطعت عن التلفت، فمدت يدها في الفجوة المستديرة، وأبعدت الزجاج المحطم إلى الجانب الذي أطبق على القطعة المعروضة والمشتهاة، ثم أخرجت من الثقب فردة حذاء ذي كعب عال خافت اللمعان، دون أن يحدث ضرر في الكعب أو أن تجرح يدها بحواف الزجاج الناتئة. وأخفت فردتي الحذاء في جيبي معطفها. فأبصر أوسكار برهة قصيرة، أو لحظة سقوط خمس ندف من الثلج، وجهاً وسيماً من الجانب، لكنه لم يكن مثيراً، ففكر في أنّها قد تكون دمية عرض تابعة لمتجر شتيرنفيلد، تتجول في الطريق بطريقة سحرية قبل أن تتحلل في ندف الثلج، بيدأن ملامحها اتضحت ثانيةً تحت مصباح الشارع الأصفر الضياء، ثم اختفت خارج كتلة الضوء، بغض النظر عما إذا كانت امرأة عذراء أم متزوجة أم مجرد دمية أزياء متحررة.

وبعد إنجاز عملي ـ القائم على الانتظار فالترصد فالعجز عن التطبيل ومن ثمّ القصّ بالصوت وتذويب الجليد عن الزجاج ـ لم يبق أمامي سوى أن أفعل ما فعلته المرأة السارقة، لكن دون غنيمة، وهو الذهاب إلى البيت بقلب منفطر، متجمّد من البرد.

ولم يحالفني الحظ في ممارسة فنّ الإغواء بشكل واضح مثلما الحال مع النموذج الذي ذكرته للتو، فآل بي طموحي إلى أن أجعل من رجل

وزوجته لصّين. لكن إما أنهما كان يرفضان الشروع بالسرقة معاً، أو أن الزوج وحده كان يمدّ يده فتجذبها الزوجة بعنف؛ أو أنها تكون شديدة الجرأة، فيجثو الزوج على ركبتيه ويتوسل بها فتستجيب له، ثم تنظر إليه باحتقار.

ذات يوم أغويت أثناء هطول الثلج عاشقين كانا يوحيان بالفتوّة، فوقفا أمام متجر للعطور، فأراد الفتى أن يلعب دور البطل، فسرق ماء كولونيا المعطر، لكن الفتاة أخذت تبكي وتولول، معلنة عن أنها سوف تتنازل عن العطور كلّها، إلا أنه كان حريصاً على عطرها فنفذ إرادته حتى وصلا إلى عمود الضوء القادم، حيث وقفت الفتاة على أطراف أصابعها ثم قبّلت صاحبها بتظاهر جليّ كما لو أنهما قصدا إغاظتي، فعاد الفتى أدراجه وأرجع ماء كولونيا المعطر إلى الواجهة من جديد. وشهدت بعض المرّات الشيء ذاته مع الرجال المتقدمين في السنّ الذين توقعت منهم أكثر مما وعدت به خطواتهم الباحثة في ليل الشتاء. كانوا يتوقفون ليتأملوا بانتباه واجهة محل للسيجار، فتحلّق أفكارهم إلى هافانا والبرازيل أو جزر البيساغو، وإذا ما صنع صوتي الثغرة حسب القياس المناسب، جاعلاً قطعة الزجاج تنطبق على علبة سيجار «شفارتسه فايزهايت»؛ فإن ثمة سكيناً كانت تنطبق لدى أولئك الرجال. فكانوا يتراجعون إلى الوراء ويقطعون الشارع متوكئين على عصيهم، فيمرون بي وبمدخل البيت حيث اختبأت، متيحين لأوسكار فرصة السخرية من وجوههم الشائخة المشدوهة كما لو الشيطان نفسه قد عصف بها، تلك السخرية المصحوبة بالقلق؛ إذ إن السادة الذين بدا معظمهم مدخن سيجار مسنّ، كانوا يعرضون أنفسهم للإصابة بالبرد، لا سيما في ذلك الطقس المتقلب، عندما تنضح أجسامهم بالعرق الحار والبارد.

فاضطرت شركات التأمين في ذلك الشتاء إلى دفع تعويضات باهظة لمتاجر حيّنا المؤمنة ضد السرقة. وعلى الرغم من أنني لم أفسح المجال للقيام بسرقات كبيرة، إنما تعمدت قطع الزجاج على نحو لا يتيح سوى انتشال قطعة أو قطعتين من البضائع المعروضة، فإن الأحداث التي أطلق

عليها لقب «أعمال السطو» قد كثرت لدرجة أقلقت الشرطة الجنائية، ومع ذلك فإن الصحافة قامت بتوبيخ الشرطة باعتبارها هي المقصّرة. لقد بلغ عدد محاولات السرقة أربعاً وستين محاولة، في حين بلغ عدد السرقات الفعلية ثمان وعشرين من النمط ذاته، وذلك من نوفمبر العام السادس والثلاثين إلى مارس العام السابع والثلاثين، أي إبّان «حكومة الجبهة القومية» في وارسو بقيادة العقيد كوك. في الواقع استطاع موظفو الشرطة الجنائية إعادة قسم من المسروقات من بعض العجائز وصبيان المحلات المهندمين والخادمات والمعلمين المتقاعدين الذين لم يكنوا كلهم مولعين بالسرقة، أو كان يخطر في ذهن جرذان الواجهات الهواة الذهاب في اليوم التالي إلى الشرطة بعد أن أفسدت عليهم حاجياتهم المشتهاة ليلتهم، ليقولوا: «معذرةً، إن هذا لن يحدث مرّة أخرى. وحدث فجأة ثقب في الواجهة، وعندما استفقت من الصدمة، مخلفاً الواجهة المفتوحة ورائي بأربع مفترقات طرق، لاحظت بأنني احتفظت بطريقة غير قانونية بقفّاز رائع نفيس لا يقدر بثمن، قفّاز رجالي فاخر من الجلد، وضعته في جيب معطفي». ولأن الشرطة لم تؤمن بالمعجزة فقد كان يعاقب أولئك كلّهم الذين يلقى عليهم القبض أو الذين يسلمون أنفسهم للشرطة طوعاً بعقوبة سجن تتراوح بين أربعة أسابيع وأربعة أشهر.

أما أنا شخصياً فقد فُرضت عليّ الإقامة الجبرية في البيت، إذ أنّ أمّي شعرت بالأمر بطبيعة الحال، إلا أنها تصرفت بذكاء ولم تعترف للشرطة بأن صوتي المتمكن من الزجاج كان له دور في تلك اللعبة الإجرامية. وامتنعت بدوري من التصريح بأي أقوال أمام ماتسرات التي كان يودّ أن يظهر بمظهر الرجل المحترم، فأخضعني للتحقيق، لكنني تسترت ببراعة فائقة خلف طبلي الصفيح وخلف الحم المتخلف الدائم للطفل ذي الأعوام الثلاثة. فأصبحت أمّي تنادي بعد تلك التحقيقات قائلةً: «إن القزم عو الذي يتحمل الذنب؛ لأنه قبّل أوسكار على جبينه. فشعرت حالاً بأن القبلة لا بدَّ أن تعني شيئاً ما؛ فأوسكار كان من قبل مختلفاً تماماً».

إنني أعترف بأن السيّد بيبرا قد مارس عليّ تأثيراً طفيفاً ومستديماً

أيضاً. لكنّ الإقامة الجبرية لم تمنعني من الحصول، بفضل الحظّ، على سماح لمدة ساعة، دون موافقة أحد، إنما بترخيص منّي وحدي، لأقصّ تلك القطعة الدائرية السيئة الصيت في واجه محلّ للوازم الخياطة والحياكة، فنال شاب مليء بالتفاؤل رضاه من شبّاك المتجر، فجعلته مالكاً لربطة عنق من الحرير الخالص خمرية اللون. وإذا ما سألتموني فيما إذا كان الشرّ هو الذي أمر أوسكار بالتصعيد من حدّة الإغواء السحري، القوّي أصلاً، عبر فتح ثغرة دخول بحجم اليدّ في زجاج الواجهات الشديد النظافة، فإنني سأجيب: بنعم، إنه الشرّ. ولمجرد أنني كنت أقف في مداخل البيوت المظلمة فإن ذلك وحده هو الشرّ بعينه، إذ إن مداخل البيوت، مثلما يفترض أن يكون معروفاً، هي المكان المفضل للشر. ومن ناحية أخرى، دون أن أقلل من الطبيعة الشريرة لعمليات الإغواء التي قمت بها، لا بدَّ أن أقول اليوم لممرضي برونو ولنفسي، طالما لم تعد الفرصة مواتية للقيام بالإغواء، فضلاً عن أنني لم أعد أشعر بميل لممارسته: يا أوسكار، إنك حققت ليس فقط الرغبات والأمنيات الصغيرة والمتوسطة الحجم لعشاق المنتجات المعروضة، أولئك المتجولين في الشتاء، بل إنك قمت أيضاً بمساعدة الناس أمام واجهات العرض، لكي يتعرفوا على أنفسهم. فثمة سيّدة أمينة مستقيمة الأخلاق، وثمة عمّ كريم الخلق فاضل وعانس لم تزل طازجة التدين، لكنّ هؤلاء كلّهم لم يكتشفوا في أعماقهم حتى ذلك الوقت طبيعة الجنوح نحو السرقة، إن لم يكن صوتك هو الذي أغراهم بالسرقة، إضافة إلى أنّه حوّل بعض المواطنين الذين كانوا يرون في أصحاب اليد الطويلة الصغار أوغاداً جديرين باللعنة والشتيمة.

فأصبح الدكتور «أرفن شولتس»، المدعي العام المرهوب الجانب في المحكمة العليا، إلى رجل قضاء متساهل رحيم، وإنسانيّ إلى حد ما في أحكامه، لأنه ضحّى من أجلي، أنا ربّ الحرامية الثاني، فسرق فرشاة حلاقة مصنوعة من شعر الغُرَيْر الحقيقي، بعد أن كنت أترصده كلّ مساء، إلا أنه امتنع ثلاث مرّات من أن يسرق انصياعاً لي، قبل أن يقبض على غنيمته، فلم تكتشفه الشرطة أبداً.

وفي يناير / كانون الثاني من العام السابع والثلاثين وقفت مرتجفاً من البرد فترة طويلة قبالة محل مجوهرات، كان يتمتع بسمعة واسم جيّدين، على الرغم من أنه كان يقع في مكان هادئ، عند شارع ضاحية مغروس بأشجار الإسفندان. كانت الطرائد الوحشية تطلّ من واجهة العرض التي رقدت فيها المجوهرات والساعات؛ ولو أنني وقفت أمام واجهات تعرض جوارب النساء وقبعات القطيفة وزجاجات العرق لحطمتها بلا تردد. ومثلما تعبر المجوهرات عن نفسها: فإن المرء يصبح ذوّاقاً دقيق الاختيار، متمهلاً، ينتظم في السلسلة اللامتناهية لمجرى الأشياء، ويقيس الزمن ليس بالدقائق كما يفعل عادةً، بل بالسنوات اللؤلئية، منطلقاً من تصوّر يقول إن اللؤلؤ يعمّر أكثر من الجيد نفسه، وإن المعصم هو الذي يصاب بالضعف والهزال وليس المعضد، وإن الخواتم كان يعثر عليها في القبور، حيث لم تقو الأصابع على حملها؛ باختصار: إن المرء يطلق على متأمل الواجهة هذا متباه، وعلى الآخر لقب متصاغر يهتم بالتوافه، ليضنّ عليه بتعليق المجوهرات.

لم تكن واجهة صائغ المجوهرات «بانزيمر» مفرطة في الأبهة والفخامة، إنما احتوت بعض الساعات المختارة المشغولة بإتقان سويسريّ، وتشكيلة من خواتم الزواج المنضدّة فوق القطيفة الفاتحة الزرقة، وفي منتصف الواجهة ثمة ست أو على الأرجح سبع قطع ذهبية منتقاة: واحدة منها عبارة عن أفعى ملتوية على نفسه ثلاث مرّات، مشغولة بالذهب المختلف الألوان، رأسها المزخرف المنقوش بعناية مطعّم بفصّيّ ماس والعينان عبارة عن حجري ياقوت، مما جعلها غالية الثمن. إنني في الواقع لا أحب القطيفة السوداء، غير أن الخلفية السوداء كانت تناسب أفعى الصائغ بانزيمر، وكذلك القطيفة الرمادية التي كانت تشيع هدوءاً مدغدغاً للمشاعر تحت المصوغات الفضيّة المتناهية البساطة المتناسقة الأشكال على نحو ملفت للنظر. وثمة خاتم مطعّم بشذرة منقوشة نقشاً رقيقاً بارزاً، بدا وكأنه سيستهلك أيدي الناس الرقيقات كذلك، فيصبح نحيفاً شيئاً فشيئاً حتى يصل إلى درجة الخلود الموقوفة على المجوهرات وحدها. كانت

هناك قلائد لا يستطيع المرء وضعها على عنقه دون عقاب؛ قلائد تجلب التعب، مرتخية على قطيفة منجدة بيضاء مصفرّة، لها شكل مقدمة الجيد؛ وثمة عِقْدٌ مشغولة برهافة عالية، رائع التنسيق، إطاره جميل التفنن، نسيج بارع كثير الزخرفة؛ فأي عنكبوت أفرز هذه الشرنقة الذهبية لتعلق بها خمسة فصوص صغيرة من الياقوت وفصّ كبير؟ هكذا قبع العنكبوت، فماذا كان ينتظر؟ إنه بالتأكيد لا ينتظر المزيد من الياقوت، بل ينتظر أحداً ما شعّت في نفسه فصوص الياقوت التي علقت بالشبكة كما يشعّ الدم المتناسق مثلها، فتسمّر نظره؛ أو بعبارة أخرى: من ذا الذي سأهديه هذا العقد بالمغزى الذي أتمناه أو الذي عناه العنكبوت ذو التأثير الذهبي؟

في الثامن عشر من يناير العام السابع والثلاثين، وعلى الجليد المرصوص، أي في ليلة لها رائحة الثلج، مشبعة برائحة الثلج، وبالكثير من الثلج، مثلما يشتهي المرء الذي يرغب في ترك كلّ شيء للثلج، أبصرت يان برونسكي يقطع الشارع على يمين الموضع الذي كمنت فيه، متجاوزاً محلّ المجوهرات، دون أن يتطلع إليه، ثم وقف بتردد، أو كمن نودي عليه، والتفت، أو أن شيئاً ما جعله يلتفت ـ ودفعة واحدة انتصب يان أمام الواجهة بين أشجار الإسفندان المتوجة بالبياض.

يان برونسكي الرشيق الكثير الشكوى، الخاضع وظيفته، والطموح في حبّه الغبي المولع بالجمال في الوقت ذاته، الذي يعبد أمّي من أعماق دمّه ولحمه، والذي أنجبني باسم ماتسرات مثلما أنا متيقن وشاكّ اليوم، انتصب بمعطفه الشتوي الأنيق، كما لو أنه قد فصله عند ترزيّ من وارسو، واستحال إلى تمثال لنفسه، متحجراً هكذا، يان الذي أراد الوقوف أمام الواجهة رمزاً لي، مثبتاً بصره مثلما فعل «بارتسيفال»، الذي وقف في الثلج ورأى فيه دماً؛ ثبّت بصره في ياقوت العقد الذهبي.

كان بإمكاني أن أناديه بالعودة، أو أن أطبّل له ليعود أدراجه؛ إذ إن طبلي كان معي، وكنت أتحسسه تحت معطفي، فلم أكن بحاجة إلى أكثر من فتح زرّ واحد، فيتدحرج الطبل من ذاته نحو الجليد، أو أن أمد يديّ إلى جيب معطفي فانتشل المضربين على الفور، فالقنّاص القدّيس

هوبرتوس(*) لم يطلق سهمه حالاً عندما أبصر الكبش الغريب في موضع الرمي. إن شاؤول قد تحوّل إلى بولص(**). ثم إنّ أتيلا(***) قد انقلب على عقبيه عندما رفع البابا إصبعه الذي حمل الخاتم. إلا أنني رميت دون أن أتحوّل أو أنقلب على عقبيّ، بل بقيّ أوسكار صيّاداً، أراد إصابة الهدف، فلم أفكّ زرّي ولم أدحرج طبلي على الجليد، ولم أقرع الطبل المبيض بياض الشتاء بمضربيّ، ولم أجعل ليلة يناير تستحيل إلى ليلة تطبيل، إنما صرختُ بلا صوت، صرخت ربما مثلما تصرخ النجمة، أو السمكة في القاع، صرخت في البدء ببنية الثلج وتركيبته، لكي ينزل الثلج الطازج أخيراً، ثم صرخت بالزجاج، الزجاج السميك، الزجاج الثمين، الزجاج الرخيص، الزجاج الشفّاف، الزجاج العازل، الزجاج الفاصل بين العوالم، زجاج الواجهة الباكر الغامض، صرخت فاتحاً ثغرة بين يان برونسكي وعقد الياقوت، فتحة تتسع لقفّازه الذي كنت أعرف حجمه، ثم تركت الزجاج ينطبق كما ينطبق البابا المطوي والمثبت في الأرض، أو كما ينطبق باب السماء وبوابة الجحيم: فلم يرتعد يان، إنما جعل يده الرقيقة الجلد تمتد من جيب المعطف وترحل إلى السماء، مغادرةً الجحيم، بعد أن انتزعت عقداً من السماء أو من الجحيم، عقداً كان ياقوته يقابل وجوه الملائكة، بما فيهم القتلى - ثم ترك قبضته تعود إلى الجيب، محملةً بالذهب والياقوت، فظلّ منتصباً أمام الواجهة المفتوحة، على الرغم من خطورة الأمر، وعلى الرغم من الياقوت الذي لم ينزف دماً، ليجبر بصره أو بصر بارتسيفال على المضي في اتجاه محدد.

(*) Hubertus أسقف مدينة لوتش المتوفى في العام ٧٢٧ الذي تقول عنه الأسطورة إنه كان حامي الصيّادين المقدس، وقد رأى كبشاً كان يحمل صليباً ذهبياً في قرونه، مما دفع به إلى التوبة والتكفير عن ذنوبه؛ لأنه كان يصطاد الطرائد أيّام العطل.

(**) الرسول بولص الذي كان اسمه شاؤول قبل تنصّره.

(***) Attila ملك الهونيين، المتوفى في العام ٤٥٣، وقد هزمه القائد الروماني أيتيوس في العام ٤٥١ في معركة دارت بالقرب منترويس الكاتالانية.

آه، أيها الأب والابن والروح القدس! لا بدَّ أن يكون قد حدث شيء للروح، إن لم يحدث ليان، الأب، شيئاً. ففتح أوسكار الابن زرّ المعطف، وتناول مضربيه على عجل ثم نادي بالطبل: أبي، يا أبتاه! إلى أن التفت يان برونسكي، ببطء، ثم قطع الشارع ببطء أشدّ، فعثر عليّ، أنا أوسكار، في مدخل بيت.

كم كان جميلاً أن يهبط الثلج من جديد بعد فترة قصيرة على ذوبان الجليد، في تلك اللحظة التي أبصرني فيها يان بوجه خال من التعبير، فناولني يده، وليس القفاز الذي لامس الياقوت، وقادني بصمت، لكن بدون همّ ولا حزن، إلى الدار، حيث كانت أمّي قلقةً، وكان ماتسرات يهدد بإبلاغ الشرطة، صارماً كعادته، لكنه لم يكن جاداً على نحو كاف. لم يقدم يان أي تفسير ولم يمكث طويلاً، بل امتنع عن تلبية دعوة ماتسرات في لعب الورق، الذي وضع ماتسرات من أجله البيرةَ فوق الطاولة. وحين غادر الدار مسحّ على رأس أوسكار الذي لم يكن يعلم: هل طلب منه يان التكتّم أم الصداقة؟ وبعد مدّة قصيرة أهدى يان العقدة لأمّي، فحملته بضع ساعات، أثناء غياب ماتسرات، وهي تعلم بمصدر الحلية الذهبية، حملته إرضاءً ليان أو لنفسها أو ربما لي أيضاً.

وعقب انتهاء الحرب بفترة وجيزة استبدلته في السوق السوداء لمدينة دوسلدورف بإثنتي عشرة خرطوشة من سجائر لوكي ـ سترايك الأمريكية ومحفظة من الجلد.

ليس هناك معجزة

واليوم، حيث أرقد في المصحّة، أصبحت أفتقد دائماً القوّة التي كانت زماناً تحت تصرفي على نحو عاجل وملحّ، تلك القوة التي أتاحت لزهور الثلج بالظهور عبر الجليد وظلمة الليل فتفتح الواجهات وتأخذ بيد اللص. فكم تمنيت أن أخلع مثلاً زجاجة العين السحرية في الجزء العلوي من باب الغرفة من خلال الصوت، لكي يستطيع معيني برونو أن يراقبني مباشرة. وكم كنت أعاني قبل عام واحد من إدخالي المصحّة من عجز صوتي وقصوره. فحين كنت أطلق صوتي في شارع ليلي، ملتمساً النجاح، إلا أنه لم يتحقق، كان يحدث أحياناً أن أعاجل إلى رفع حجارة، أنا الذي أبغض العنف. وأهدّف نحو نافذة مطبخ في شارع بائس من شوارع ضواحي دوسلدورف. لقد وددت لو أنني استطعت أن أستعرض قدراتي تلك أمام مصمم الديكور فيتلار بشكل خاص. وإذا ما تعرفت على شكله بعد منتصف الليل، حين يكون جذعه العلوي مغطى بستارة، وهو يقف بجواربه الصوفية الخضراء الحمراء خلف واجهة زجاجية لمتجر الموضة الرجالية في كونغس أليه، أو في محل للعطور بالقرب من قاعة الموسيقى السابقة؛ فإنني كنت أتمنى من كلّ قلبي لو أنني استطعت تحطيم الزجاج من أجل ولدي هذا، أو الذي يمكن أن يكون ولداً لي، إذ أنني ما زلت حائراً فيما إذا كنت سأسميه يهوذا الإسخريوطي الخائن أم يوحنّا. إن فيتلار نبيل ويطلق على نفسه اسم غوتفريد. وإذا ما أثرت انتباه مصمم الديكور عبر تطبيل خفيف على زجاجة الواجهة السليمة، بعد فشلي المشين في تحطيمها بالغناء، فيلتقي بي ربع ساعة في عرض الشارع،

ويتحدث إليّ، ويسخر من فنونه الديكورية، فيتوجب عليّ وقتها أن أسميه غوتفريد، إذ إن صوتي لم يخلق المعجزة التي تتيح لي أن أطلق عليه اسم يوحنّا أو يهوذا.

كان غنائي قبالة محلّ المجوهرات الذي حوّل يان برونسكي إلى لصّ أمّي إلى مالكة لعقد من الياقوت قد أنهى مؤقتاً ترنمي أمام الواجهات العامرة بما تشتهي الأنفس. لقد أصبحت أمّي تقية متدينة. لكن ما الذي جعلها تصبح متدينة؟ إن علاقتها بيان برونسكي والعناء اللذيذ الذي كان يتخلل حياة الزانيات والعقد المسروق، ذلك كلّه هو الذي جعلها ورعة متدينة تتشهى القرابين المقدسة. فكم هو بسيط التمهيد للخطيئة وترتيبها: كانت الأمّ تلتقي بصاحبها يوم الخميس في المدينة، بعدم تودع وليدها أوسكار الصغير لدى ماركوس، فتقضي وطرها في تشلر غاسه بطريقة مرضية وبجهد شق، ثم تنعش نفسها في تناول القهوة والكعك في مقهى فاتيسكه، لتأخذ ابنها من اليهودي الذي كان يغدق عليها بعبارات الإطراء والمغازلة أو يهبها علبة من خيوط الحرير مجاناً إلى حدّ ما، لتستقل إثر ذلك الترام رقم خمسة، فتستمتع بسير الترام عبر بوّابة «أوليفر»، مروراً بهندنبورغ أليه، مبتعدة بأفكارها إلى مكان ناء، حتى إنها لم تنبته إلى حدائق مايو المجاورة لقاعة الرياضة التي كان ماتسرات يمضي فيها ضحى الأحد، فتعجبها استدارة الترام حول القاعة ـ فكم سيبدو المبنى المربع قبيحاً حين يكون المرء قد استمتع للتو بالجمال ـ ثم ينعطف الترام إلى اليسار خلف أشجار ثانوية «كونرادينوم» المتربة، بتلاميذها الذين يرتدون الطوقي الحمراء؛ فكم سيبدو لطيفاً لو يضع أوسكار طاقية حمراء بحرف C مطلّ على وجهه! فهو قد بلغ السنّ الثانية عشرة والنصف وسيكون الآن جالساً في الصفّ السابع ليبدأ بدراسة اللغة اللاتينية ويتصرف كأي تلميذ صغير، شاطر ووقح بعض الشيء، ومتكبر، شأنه شأن التلاميذ في ثانوية كونرادينوم.

استغرقت السيّدة آغنس ماتسرات في أفكارها حول الثانوية والفرص التي ضاعت على ابنها أوسكار حالما انعطف الترام في اتجاه مستوطنة

الرايخ ومدرسة هيلينا ـ لانغه خلف نفق القطارات. وبعد استدارة واحدة نحو اليسار، مروراً بكنيسة المسيح ذت المنارة التي تشبه رأس البصل وميدان ماكس ـ هالبه وقبل متجر ـ قهوة ـ القيصر نزلنا من الترام، فألقينا نظرة على واجهات المحلاّت المنافسة، ثم شققنا طريقنا عبر لابسفيغ وكأننا قطعنا مفترق طرق: حيث بداية الضجر والطفل غير الطبيعي في اليد وتأنيب الضمير والرغبة في إعادة الكرّة ثانية والشعور بالسأم وعدم الاكتفاء والاشمئزاز وكذلك بالمودّة الصادقة إزاء ماتسرات، فأجهدت أمّي نفسها لتقودني ومعي الطلب الجديد وعلبة خيوط الحرير شبه المهداة عبر لابسفيغ إلى المتجر، حيث غذاء الأطفال المستخلص من الشوفان، وإلى براميل النفط المحاذية لبراميل سمك الرنجة، وإلى الزبيب واللوز والتوابل المخصصة للكعك وإلى خميرة الدكتور أوتكر(*) ومسحوق الغسيل برزيل الذي تقول عنه الدعاية إن البرزيل يبقى برزيلاً، ومنتجات أوربين وماجي وكنور وكاترانيا وقهوة الهاغ وفيتللو وسمن الطهي بالمين وخلّ كونه ومربى الثمار الأربعة، وإلى قانصات الذباب التي كانت تصدر أصوات متعددة الطبقات، والتي كنّا نعلقها مشبعةً بالعسل فوق طاولة البيع في دكاننا ثم نغيّرها في الصيف كلّ يومين، بينما كانت أمّي تغري الآثام بروحها الشديدة الحلاوة كالعسل أيّام السبت صيفاً وشتاءً، تلك الآثام المطنطنة طوال العام كلّه المرتفعة حيناً والهابطة طوراً، حتى ذهبت أمّي إلى كنيسة ـ قلب ـ يسوع لتعترف بخطاياها في حضرة القسيس «فيهنكه».

ومثلما كانت تصحبني معها إلى المدينة كلّ خميس، لتجعلني مذنباً معها كما يقال؛ فإنها صارت أمّي تأخذني أيّام السبت لنعبر البوابة نحو الأرضية الكاثوليكية الباردة، فتحشر طبلي تحت بلوزتي أو تحت معطفي؛ إذ أنني لا أستطيع أن أفعل شيئاً دون طبلي، وعندما لا يكون طبل الصفيح معلقاً على بطني؛ فإنني أصبح عاجزاً تماماً عن رسم علامة الصليب الكاثوليكي على جبيني وصدري وكتفيّ، ولما استطعت أن أثني ركبتي

(*) Dr. Oetker مصانع ألمانية شهيرة لإنتاج المواد الغذائية.

كمن يرتدي حذاءً، ولما مسحت أنفي بالماء المقدس الذي ينشف ببطء ولا تصرفت بهدوء على خشب الكنيسة اللامع.

إنني أتذكر كنيسة ـ قلب ـ يسوع من خلال التعميد؛ فقد حدثت بعض الصعوبات بسبب اسم أوسكار الوثني، إلا أن أهلي أصرّوا على أوسكار، ونطقه يان، العرّاب، على هذا النحو أيضاً في بوابة الكنيسة، ثم نفخ حضرة فيهنكه الموقر بوجهي ثلاث مرّات، لكي يطرد عنّي الشيطان، ورُسمت علامة الصليب، وشرعت يدي، بغية نثر الملح، ثم اتخذت إجراءات أخرى ضد الشيطان، فتوقفنا في الكنيسة عدّة مرّات أمام ركن التعميد. كنت التزمت الهدوء عندما قدموا لي شهادة الإيمان وأبانا الذي في السماء. بعد ذلك رأى حضرة فيهنكه أن يقول من جديد «ابتعد يا شيطان»! وظنّ أنه فتح لي حواسي حين لمس أنفي وأذنيّ، أنا الذي كنت عارفاً بالأمور دائماً، فأراد بعد ذلك أن يسمع الإجابة المكررة بوضوح وبصوت عال فسأل: «هل تتبرأ من الشيطان؟ ومن أفعاله جميعها؟ وبهرجته وأبهته برمتها؟».

وقبل أن أهزّ رأسي ـ إذ أنني لم أفكر في الاستغناء عن ذلك ـ كرر يان القول ثلاث مرّات نيابة عنجي: «نعم، إنني أتبرأ».

ودون أن أكدر صفو الشيطان، دهن حضرة فيهنكه صدري وكتفيّ، ذاكراً الشهادة مرّات عديدة أمام بئر التعميد ثم سكب الماء على رأسي بدفعات ثلاث، فمسح فروة رأسي بالزيت الكاثوليكي، وألبسوني ثوباً أبيض لكي ألوثه وحملوني شمعة للأيام المظلمة، ثم انصرفنا ـ لقد دفع ماتسرات التكاليف كلّها وعندما حملني يان في بوّابة كنيسة ـ قلب ـ يسوع، حيث انتظرت التاكسي في الطقس المتقلب بين الصحو الغيم، سألت الشيطان في أعماقي: «هل اجتزت كلّ شيء بسلام؟».

فوثب الشيطان وهمس: «هل رأيت نوافذ الكنيسة يا أوسكار؟ فكلّ شيء فيها من زجاج، كلّ شيء من زجاج»!

لقد شُيدت كنيسة ـ قلب ـ يسوع إبّان «أعوام الانتعاش الاقتصادي ما بين ١٨٧١-١٨٧٣»، بناءً على ذلك فإنها برهنت على أن طرازها كان

ينتمي إلى المعمار القوطيّ الحديث؛ إذ إنها سوّرت بالآجر السريع الدكنة، فاتخذ رأس المنارة المكسو بالنحاس لون الصدأ التقليدي في وقت قصير، ولم تعد الفوارق بين كنيسة الآجر القوطية القديمة ومعمار الآجر القوطيّ المحدث واضحة إلا للعارفين، وبشكل يدعو إلى الحرج. كان الاعتراف بالخطايا يتمّ بالطريقة ذاتها في الكنائس القديمة والحديثة على السواء. فكان هناك المئات من أمثال حضرة القسيس فيهنكه الذين كانوا يضعون آذانهم الكهنوتية المشعرة كلّ سبت بعد انتهاء الدوام وإقفال المحلاّت، جالسين بمحاذاة مشبّك أسود لامع، فيحاول أبناء الطائفة إيلاج خيط الذنوب في أذن الكاهن عبر ثغرات المشبّك؛ ذلك الخيط الذي انتظمت فيه اللآلئ واحدة إلى جنب الأخرى، مشكلةً حِلْيَة رخيصة مشبعةً بالخطايا والآثام.

وعندما أبلغت أمّي الجهات الكنسية العليا المعنية بالخلاص عبر قناة سمع الكاهن الموقر فيهنكه، معترفة بما فعله وما تركته، وبما جرى في تفكيرها وكلامها وأعمالها، غادرتُ، أنا الذي لم يكن لديّ ما اعترف به، خشبَ الكنيسة الشديد النعومة بالنسبة لي، ووقفت أنتظر على الأرضية الصقيلة البلاط.

إنني اعترف بأن البلاط في الكنائس الكاثوليكية، ورائحة الكنيسة الكاثوليكية، بل المذهب الكاثوليكي برمته، ما زال كلّه يأسرني إلى يومنا هذا بشكل لا يفسر، مثلما تأسرني فتاة حمراء الشعر، على الرغم من أنني كنت أرغب في تغيير لون الشعر الأحمر، وعلى الرغم من أن المذهب الكاثوليكي أوحى لي بالكفر الذي كان يشي بأنني قدتحتم عليّ التعميد الكاثوليكي حتى لو حدث ذلك هباءً. فغالباً ما كنت أقبض على نفسي متلبساً بنظم التعليقات حول القدّاس الكنسي أثناء قيامي بأفعال روتينية بالغة التفاهة مثل تنظيف الأسنان أو التغوّط: في القدّاس المقدس يسفح دم المسيح من جديد، يهرق الدم ليطهرك، فهذا هو نخب دمك، الذي يستحيل نبيذاً حقّاً وحقيقةً، طالما سُفح دم المسيح، دم المسيح الحقيقي المتوفر أبداً، وعبر رؤية الدم المقدس؛ فإن الروح ستُرش بدم المسيح، ذلك الدم النفيس، ستغسل بالدم، وسيُسفح الدم إبان التقديس والتكريس

الكاثوليكي، قماشة القربان الملطخة بالدم، صوت دم المسيح يخترق السماوات كلّها، دم المسيح يعبق عطراً أمام وجه اللّٰه.

لا بدَّ أن تعترفوا بأنني ما زلت أحتفظ بنبرة كاثوليكية محددة. زماناً كنت غير قادر على انتظار الترام دون أن أردد في الوقت نفسه ذكر مريم العذراء. كنت أسميها الفاتنة، البارّة، المباركة، عذراء العذارى، أمّ الرحمة؛ أنتِ أيتها المبجلة، يا من تستأهلين الإجلال والإكبار كلّه، يا من أنجبتيه أنتِ، يا أيتها الأم الحلوة، الأمّ العذراء، العذراء المجيدة المظفرة، دعيني أتذوق حلاوة الاسم يسوع مثلما تذوقتِ حلاوته بقلبك الرؤوم الحقّ الجالب للشفـاء، الجدير بالاحتفاء، أيتها الملكة المباركة، المباركة...

كانت تلك العبارة «المباركة» تطيب نفسي أحياناً بحلاوتها وتسممها في آن، لا سيما عندما كنت أزور بمعية أمّي كنيسة ـ قلب ـ يسوع كلّ سبت، لدرجة أنني كنت أشكر الشيطان؛ لأنه اجتاز التعميد بنجاح وهو في داخلي، موفراً لي الدواء المضاد للسمّ، فجعلني أخطو باستقامة على بلاط كنيسة ـ قلب ـ عيسى، وإن كنت أفعل ذلك بتجديف. كان يسوع الذي لقبت الكنيسة بقلبه يظهر مرّات كثيرة مرسوماً على صور صغيرة ملونة في رواق الكنيسة، ما عدا ظهوره في القرابين المقدسة؛ ظهر مجسداً ثلاث مرّات بالألوان وبأوضاع مختلفة.

فكان منقوشاً بالألوان على الجبس، منتصباً على قاعدة ذهبية بثوبه البروسيّ الأزرق وشعره الطويل ونعله. كان قد فتح رداءه من ناحية الصدر، حيث برز القلب في منتصف القفص الصدري، على الرغم من قوانين الطبيعة برمتها؛ القلب المدمّى المصاغ ببساطة فنيّة والذي كان لونه لون الطماطم الحمراء، لكي يتسنى للكنيسة أن تطلق على نفسها اسم هذا العضو. ومنذ أوّل معاينة ليسوع المخلص ذي القلب المكشوف أصبحت متيقناً من التشابه التام والدقيق بين المسيح وعرّاب تعميدي العمّ والأب المحتمل يان برونسكي. هاتان العينان الزرقاوان البسيطتان الواعيتان المتأملتان! هذا الفم المكتنز المتأهب دائماً للبكاء والتقبيل! هذا الألم الرجالي المرتسم على الحاجبين! الوجنتان الممتلئتان المتوردتان والراغبتان

في الصفع. كان لكلاهما وجه يصلح للصفع ويغري النساء بتحسسه، إضافة إلى اليدين الأنثوية المتعبة المصانة التي لم تمارس عملاً والتي عرضت آثار الجروح التي خلفتها مسامير الصلب مثلما يعرض صائغ الأمراء أكثر مشغولاته جودة. لقد عذبتني مسامير الصلب مثلما يعرض صائغ الأمراء أكثر مشغولاته جودة. لقد عذبتني عينا برونسكي اللتان أساءتا فهمي على نحو أبويّ، هاتان العينان اللتان رسمتا بالفرشاة في وجه يسوع. صرف أوسكار نظره عن قلب يسوع المعلّق في الجانب اليمين من باطن الكنيسة، فحثّ خطاه مبتعداً عن محطة طريق الصليب الأولى، حيث حمل يسوع الصليب حتى المحطة السابعة، منهاراً تحته وطأته مرتين، في اتجاه المذبح الرئيسي، الذي علق فوقه المسيح مجسداً ثانيةً تجسيداً تامّاً. كان يتطلع بعينين مجهدتين هدهما التعب، أو أنه أغمضهما لكي يستطيع التركيز بصورة أفضل. فأي عضلات هذه التي كان يتمتع بها الرجل! هذا الرياضي الذي له هيئة من يمارس ألعاب الساحة والميدان جعلني أنسى على الفور قلب ـ يسوع ـ برونسكي، فاستجمعت قواي بانتباه، طالما كانت أمّي تواصل اعترافاتها في حضرة فيهنكه، وأخذت أتأمل لاعب الجمباز أمام المذبح. أرجو أن تصدقوا إذا قلت لكم إنني صلّيت! فأطلقت عليه اسم معلّم الجمباز الجميل، رياضي الرياضيين أجمعين، بطل التعلّق في الصليب بمعونة المسامير التي يبلغ طولها الشبر. ومع ذلك فإنه لم يرتعد! بل ارتعش النور السرمدي، بيد أنه كان يجمع أكبر عدد من النقاط في صنف الألعاب التي كان يمارسها. فكانت ساعات التحكيم تتك. لقد رُفع عنه الزمن. وفي المَوْهف الكنسي كانت أصابع مساعد القسيس القذرة بعض الشيء تلمّع الميدالية التي أستحقها عن جدرة، غير أن المسيح لم يمارس الرياضة من أجل التكريم أو الفوز بالجوائز. حينئذ خطر الإيمان في ذهني، فجثوت بقدر ما سمحت لي ركبتي، فقرعت علامة الصليب على طبلي، وحاولت أن أربط مفردات من قبيل «المبارك» و«المتوجع الكبير» بالعدائين «جيسي أوينس» ة و«رودولف هاربش» محطمي الأرقام القياسية، وبالألعاب الأولمبية في برلين التي أقيمت في العام المنصرم، إلا

أنني لم أنجح في ذلك؛ إذ توجب عليّ أن أقول عن يسوع بأنه كان غير عادل مع من صُلبوا معه، ولهذا فإنني أبعدته عن المنافسة، وأدرت رأسي ناحية اليسار، حيث التصوير المجسّم الثالث للمتمرّن السماوي في داخل كنيسة ـ قلب ـ يسوع، فعقدت الأمل من جديد.

فتلجلجت بالقول: «دعني أصلّي أوّلاً طالما رأيتك ثلاث مرّات «لكنني عثرت بنعلي على البلاط مرّة ثانية، فاستخدمت نموذج رقعة الشطرنج لكي انحرف في اتجاه المذبح الجانبي، وشعرت في كلّ خطوة، بأنه كان يتابعني بنظره، وأن القديسين يلاحقونك ببصرهم يا أوسكار؛ بطرس الذي سمّروا رأسه إلى الأسفل، وأندرياس المسمّر على صليب مائل؛ لذلك جاءت التسمية «صليب أندرياس». إضافة إلى صليب إغريقيّ إلى جانب آخر لاتينيّ أو صليب الآلام، وثمة صلبان المجددين(*) وصلبان تشبه العكاكيز وصلبان مدرجة الشكل مرسومة على الأقمشة واللوحات والكتب. فرأيت الصليب المماثل لكفّ الحيوان والصليب المرساة والصليب المشابه لورقة البرسيم المتقاطعة مع بعضها. إن صليب «غليفن» لجميل، ثم صليب فرسان مالطا المحبوب، والصليب المعقوف الممنوع وصليب ديغول وصليب لوترنغر الذي يسمى بصليب القديس أنطونيوس في المعارك البحرية..

وفي السلسلة ثمة صليب ذو مقبض، وقبيحاً كان الصليب الذي أعدم عليه المتهمون بالقتل والسطو ساعة صلب المسيح، وبابويّاً كان صليب الباب، أمّا ذلك الصليب الروسيّ فكان المرء يطلق عليه اسم صليب القديس لاتسروس. كان هناك أيضاً الصليب الأحمر. والصليب الأزرق يتقاطع من نفسه أزرق من فرط السكر بلا كحول، والصليب الأصفر فيسممك، والبوارج الحربية تغرق بعضها، والحملة الصليبية تعيدني إلى

(*) يستخدم غراس هنا وفيما بعد عبارة صليب Kreuz استخدامات متباينة المعنى دينياً وبلاغياً؛ فهو يحاكي في هذه العبارة على سبيل المثال طائفة المعمدين التي نشأت أثناء عصر الإصلاح الديني في ألمانيا بمثابة حركة تطالب بالإبقاء على تعميد البالغين، وقد قُمعت بشدة، وعلّق قادتها أحياءً في الأقفاص على أبراج الكنائس.

الإيمان، والعناكب المصلبّة الظهر تفترس نفسها، وأنا أتقاطع معك في الطرق المتقاطعة كالصلبان طولاً وعرضاً، والاستجواب أمام الشاهد، والكلمات المتقاطعة تقول: حلّني. وبظهر مشلول التفتّ مخلفاً الحمل وراء ظهري، كذلك أدرت ظهري للاعب الجمباز فوق الصليب، تحت خطر أن يرفسني في ظهري، لأنني اقتربت من مريم العذراء التي وضعت الصبي يسوع على فخذها اليمين.

كان أوسكار يقف على يسار المذبح الجانبي في الشقّ اليسار من الكنيسة، فبدت لماريا ملامح الوجه ذاتها التي كانت لأمّي أثناء خدمتها في دكان ضاحية ترويل، وهي في السابعة عشرة من عمرها، حين لم تكن وقتها تملك نقوداً كافية لدخول السينما، فكانت تعوض عن ذلك برؤية ملصقات الأفلام التي حملت صور الممثلة أستا نيلسن تأملاً حسياً.

ولم تكن منشغلة بيسوع، إنما كانت تتأمل الصبي الآخر فوق ركبتها اليمنى؛ الصبي الذي يمكن أن أسميه الآن يوحنّا المعمدان دفعاً للالتباس. كان للصبيين حجمي الجسديّ ذاته. ويمكن أن أعطي يسوع، إذا ما سألني أحد، سنتمترين زيادةً، على الرغم من أنه كان أصغر سنّاً، حسب النصوص القديمة، من الصبي المعمدان. لعلّ النحّات كان قد تسلّى بتجسيد المسيح ذي الأعوام الثلاثة عارياً ورديّ الأديم. أمّا يوحنّا، ولأنه سيذهب إلى الصحراء، فقد ارتدي لباساً جلدياً مشعراً جوزيّ اللون، غطّى نصف صدره وبطنه وإبريقه.

وكان من الأفضل لأوسكار لو أنه انتظر أمام المذبح الرئيسي أو إلى جانب كرسي الاعتراف دون أن يتقيد بشيء، بدلاً من المثول أمام صبيين نابغين يتكلمان كالكبار، ويشبهانه حدّ الرعب، ويتفرسان به بدقة شديدة. بالطبع كانت أعينهما زرقاء، لهما لون شعره الكستنائي، فلم ينقص الحلاّق النحتيّ سوى أن يضع لهما تسريحة أوسكار ويقصّ شعرهما على شكل خصلات لولبية بليدة تشبه مفتاح سدادات الفلّين.

لم أرغب في المكوث طويلاً عند الصبيّ المعمدان الذي كان يشير بسبابته اليسرى إلى الفتى يسوع، كأنه يريد أن يلعب لعبة العدّ «أنا وأنت

وبقرة مولر . . . والدور الآن عليكَ» . . . ودون أن أساهم بلعبة العدّ، فإنني سأسمي يسوع باسمه وأؤكّد على : أننا من نطفة واحدة! إذ إنه يمكن أن يكون شقيقي التوأم. كانت هيئته مثل هيئتي وإبريقه يشبه إبريقي الذي كنت استخدمه آنذاك مجرد إبريق للصبّ. كان ينظر إلى العالم بعينيّ برونسكي الزرقاوين، مستخدماً إيماءاتي نفسها، فآخذته كثيراً على ذلك.

وكان شبيهي يرفع ذراعيه معاً، ويكور قبضتيه لدرجة تغري المرء بأن يدسّ فيهما شيئاً ما بكلّ ثقة، أن يدسّ مضربي طبلي على سبيل المثال. ولو جصص النحّات طبلي الأبيض الأحمر على وركه الورديّ، لأصبحت أنا نفسي، أوسكار بالتمام والكمال، الذي جلس على ركبة العذراء، فصار يطبّل لأبناء الطائفة أجمعين. وثمّة أمور في هذا العالم يجب أن يتركها المرء كما هي، مهما كانت مقدسة!

كانت هناك ثلاثة أدراج مفروشة ببساط تؤدي إلى العذراء المتلفعة برداء أخضر فضياً، وإلى جلدة يوحنّا البنية الغامقة المشعرة والصبيّ يسوع ذي اللون الوردي مثل شرائح الخنزير المطبوخة. كانت هناك هياكل لمريم مغروسة بشموع وزهور باهتة الألوان بجميع الأسعار التقديرية. وقد التصقت بهامة رأس العذراء الخضراء ويوحنا البني الغامض اللون ويسوع الورديّ هالات مقدسة بحجم أطباق الطعام. ولو لم تكن الأدراج موجودة قبالة المذبح لما تمكنت من الصعود، إذ أرشدت الأدراج وأُكَرُ الأبواب والنوافذ أوسكارَ إلى ذلك الزمن وجعلته اليوم أيضاً، طالما كان سرير المصّحة يسعه، مهتماً وليس غير مكترث. فأتاح لنفسه الانقياد من درج إلى آخر، لكنه بقي دائماً على البساط نفسه. وبات الثلاثة قريبين تماماً من أوسكار، وهم يحفّون بهيكل مريم، سامحين لأصابعه أن تنقر على مجموعة الثلاثة بازدراء واحترام معاً. وأتاح الكشط لأظافره أن تكشف عن الجبس بجلاء تحت قشرة اللون. وكانت طيّات رداء العذراء تتعقب نفسها بطريق ملتو حتى أطراف قدميها فوق قاعدة الغيوم. وحمل عظم ساق العذراء الملمّح إليه تلميحاً على الاعتقاد بأن النحّات قد وضع اللحم في البدء ومن ثم غمره بالطيات.

وعندما تحسس أوسكار بتمعن «إبريقَ» الصبي عيسى الذي لم يكن مختوناً خطأً وتزويراً، ضاغطاً عليه بحذر، وكأنه أراد أن يحرّكه، شعر بإبريقه نفسه على نحو ممتع، مضطرب، وجديد عليه في آن، فتخلى عن إبريق يسوع ليتركه إبريقه بسلام.

وسواء أكان مختوناً أم أقلف فإنني تركته وشأنه، وانتشلت طبلي من تحت بلوزتي، وأخرجته من رقبتي ثم علقته في رقبة عيسى دون أن ألحق ضرراً بالهالة المقدسة، وقد كلّفني ذلك جهداً بالغاً، نظراً إلى قصر قامتي. كان عليّ أن أعتلي التمثال، لكي أتمكن عبر قاعدة الغيوم التي عوضت القاعدة الطبيعية من تزويد يسوع بالآلة. ولم يفعل أوسكار ذلك بمناسبة زيارته الأولى للكنيسة بعد التعميد في يناير من العام السادس والثلاثين، إنما أثناء أسبوع الآلام من العام ذاته. كانت أمّه قد لاقت صعوبة كبيرة طيلة الشتاء في تقديم الاعترافات بخصوص علاقتها بيان برونسكي. وهكذا فإن أوسكار وجد وقتاً وأيّام سبت كافية لكي يدقق النظر في مشروعه المزمع، فيلعنه ثم يبرره ويخطط له من جديد ويتفحصه من جميع الجوانب، لينبذ في آخر المطاف الخطط السابقة كلّها، وينفذ ما خطط له ببساطة، بشكل مباشر بمعونة صلاة الأدراج في يوم الاثنين الحزين. ولأن أمّي كانت تنزع إلى الاعتراف قبل بلوغ ذروة المتاجرة وبيع البضائع أثناء عيد الفصح؛ فإنها أخذت بيدي في يوم اثنين وقادتني عبر لابسفيغ وزارية نوير ماركت في الزنشتراسه وموارين شتراسه، مروراً بمحل القصّاب فولغمرت، حيث انعطفنا في اتجاه نفق القطارات الشاحب الضوء الذي كان يرشح منه بلل يثير الغثيان، حتى وصلنا كنيسة ـ قلب ـ يسوع مقابل سدّة القطارات.

وصلنا متأخرين، حيث لم يبق في الكنيسة سوى عجوزين وشاب وجل، كانوا ينتظرون أمام كرسيّ الاعتراف. وبينما كانت أمي تقوم بتفحص ضميرها ـ كانت تقلّب صحيفة غفران الذنوب، وهي تبلل إبهامها، كما لو أنها تقلّب بسجلاّت المتجر، مختلفةً بياناً ضريبياً تقدمه لمديرية الضرائب ـ انسللت من خشب البلّوط وأخذت أبحث عن المذبح

الجانبي في يسار الكنيسة دون أن أقع تحت بصر لاعب الجمباز فوق الصليب أو قلب يسوع.

وعلى الرغم من أن الأمر سيتم بسرعة، إلا أنني لم أفعله قبل أن أرتل الصلاة الافتتاحية. ثلاثة أدراج Introibo ad altare Dei: إلى ربيّ الذي أسعدني منذ صباي. ثم حررت الطبل من عنقي، مادّاً حروف الصلاة «يا ربيّ ارحمنا» حتى أوصلتها إلى قاعدة الغيوم، لكنني لم أمكث طويلاً عند الإبريق، بل علقت الصفيح في رقبة يسوع قبل أن أصل مقطع «العزّة والمجد» من التلاوة، محترساً من ملامسة الهالة المقدسة، ثم ترجلت من قاعدة الغيوم، مردداً الصفح والمغفرة والإبراء من الدَّيْن، ووضعت الهراوتين في قبضتي المسيح المصممتين بمثالية لهذا الغرض، وأحصيت درجاً، درجين، ثلاثة أدراج، فرفعت بصري إلى الجبال، والبساط لم يزل تحت قدميّ، أخيراً وصلت البلاط، حيث انتصبت دكّة سجود لأوسكار، فجثا على ركبتيه فوق الدكّة المنجدة، وشبك راحتيه القارعتين للطبل على وجهه Gloria in excelsis Deo ثم أخذ يرمش بأطراف عينيه عبر راحتيه المعقودتين إلى وجهه، رامقاً يسوع وطبله بنظرة، منتظراً حدوث المعجزة: فهل سيطبل أم أنه لا يستطيع التطبيل أم لا يجوز له التطبيل، فإمّا أنه يطبل وإلا فإنه ليس يسوع الحقيقي، بل إنّ أوسكار هو الذي سيكون يسوع الحقيقي، فيما لو امتنع يسوع عن التطبيل.

وإذا ما أراد المرء حدوث المعجزة فعليه الانتظار. فانتظرت وقد فعلت ذلك في البدء بصبر، ربما لم يكن صبراً طويلاً، إذ كلّما رددت النص «إنّ الأبصار تتطلع إليكَ يا ربيّ» مضيفاً الآذان إلى العيون خدمة للهدف، خاب أملي وأنا أجثو على دكّة السجود. أنه أتاح في الواقع فرصاً مختلفة للربّ، فاغمض عينيه، لكي يبدأ الربّ بأوّل محاولة غير ماهرة دون أن يراقبه أحد، لكن أخيراً، وبعد شهادة الإيمان «الرب، الخالق، المرئي والغائب، والابن الوليد، من الربّ، الحقّ من الحقيقي، المولود، غير المخلوق، المتوحد معه ومن خلاله ومن أجلنا، الهابط من السماء متخذاً هيئتنا، جاء منه، وصار هو ذاته، فدفن في الأسفل ثم بعث بأمره، وجلس إلى يمين الربّ،

يحكم على الأحياء والأموات في يوم القيامة، وبلا نهاية، آمن به، ومعه، في الوقت ذاته، لقد تحدث عبره، إنني آمنتُ بالكاثوليكية المقدسة و. . .

كلا، أنني لم أعد أشمّ سوى رائحته، ذلك المذهب الكاثوليكي. فالحديث عن الإيمان غير ممكن الآن. وأنا لم أقدم شيئاً مقابل الرائحة، فأردت أن استلم عرضاً آخر مختلفاً: أردت أن أسمع طبلي، وعلى يسوع أن يقدم لي شيئاً ما حسناً، معجزةً صغيرة خافتة الصوت! وليس من الضروري أن يتحوّل إلى دويّ يصكّ الآذان، يجعل الشمّاس «راجايا» يهرع مصعوقاً وحضرة القسيس فيهنكه يجرجر شحمه حيث المعجزة، لتُبعث فيما بعد المحاضر إلى مقر الأسقف في أوليفا والتقارير الأسقفية في اتجاه روما. كلا، إنني لم ألمس في نفسي أي طموح، ولم أرغب في أن أقدس من قبل البابا. كان أوسكار يسعى بغية الحصول على معجزة صغيرة شخصيّة، لكي يسمع ويرى ويصبح متأكداً دفعة واحدة فيما إذا كان سيطبل معها أو ضدها، ولكي يتضح أي واحد من هذين الصبيين ذوي العيون الزرقاء، اللذين خرجا من نطفة واحدة، يحق له أن يطلق على نفسه اسم يسوع في المستقبل.

وجلست وانتظرت، معللاً نفسي بالقول بأنّ أمّي لا بدَّ أن تكون قد جلست الآن في كرسيّ الاعتراف، بل من المحتمل أنها قد خلفت الوصية السادس وراءها. كان هناك رجل عجوز يجوب الكنائس دائماً بجسد مترنح، رأيته يترنح عند المذبح الرئيسي، مارّاً في آخر المطاف بالمذبح الجانبي في الجناح اليسار من الكنيسة، فألقى تحية على السيّدة العذراء والصبيّ، ولعله أبصر الطبل، لكنه لم يفقه معناه، فجر ساقيه وصار يزداد شيخوخة.

ثم تقدم الوقت، حسب اعتقادي، غير أن يسوع لم يقرع الطبل. ومن أسفل الجوقة تناعت أصوات إلى سمعي، فتمنيت أن لا يعزف أحد على الأرغن، وشعرت بقلق. لا شكّ أنهم سيفعلونها، ويتمرنون تمهيداً لعيد الفصح، وسيطغي ضجيجهم ربما على الزوبعة الرقيقة التي سيثيرها الصبي يسوع.

بيد أنهم لم يعزفوا على الأرغن، ولم يقرع يسوع الطبل، ولم تحدث أي معجزة، فنهضت من المسند المنجّد، وطقطقت ركبتي ثم خطوت فوق البساط على مضض، متبرماً ضجراً ومتجهماً، أجرجر نفسي من درج إلى آخر، متخلياً عن صلوات السلالم المعروفة بالنسبة لي، فاعتليت سحابة الجبس، وأسقطت بتسلقي زهوراً متوسطة السعر، كنت أردت انتزاع طبلي من الصبيّ الأحمق العاري.

إنني أقولها اليوم، وسأعيد قولها في المستقبل: لقد كان من الخطأ القيام بتعليمه. ففكرت في البدء في انتزاع المضربين من قبضتيه، على أن أترك له الطبل، وأطبل بالمضربين بهدوء، لكن مثلما يفعل المعلّم النافذ الصبر أمام يسوع المزيّف، فأظهر له كيفية التطبيل الصحيح، ثم أحشر المضربين في قبضتيه، لكي يبيّن ما تعلمه من أوسكار.

وقبل أن أحرر الهراوتين والصفيح من التلميذ الذي بدا من أكثر التلاميذ عناداً، دون أي مراعاة للهالة القدسية، كان حضرة القسيس فيهنكه يقف خلف ظهري ـ لقد مسح تطبيلي الكنيسة طولاً وعرضاً ـ ووقف الشمّاس راجيا، وأمّي أيضاً وراء ظهري، فجذبني الشمّاس إليه، لكن حضرة القسيس صفّق بيديه إشارة التهدئة، فبكت أمّي من أجلي، ثم همس حضرة القسيس في أذني وركع الشمّاس ثم نهض لينتزع الهراوتين من يسوع، بيد أنه جثا مع الهراوتين على الأرض ثانيةً، ثم نهض ليلتقط الطبل، فانتزعه منه، لكنه ثلم الهالة القدسية، وصدم الطبل بالإبريق، فانكسر جزء صغير من الغيم، وسقط من السلّم، وجثا الشمّاس من جديد مرّة أخرى، قبل أن يعود أدراجه، لكنه لم يعطني الطبل، فازددت غيظاً أكثر مما كنت أصلاً، مما اضطرني إلى أن أدوس بقدمي حضرة القسيس حتى خجّلت أمّي التي انتابها الحياء حقّاً، لأنني أخذت أرفس وأعضّ وأخربش، إلى أن فككت نفسي من حضرة القسيس ومن الشمّاس وأمّي والرجل العجوز، وانتصبت أمام المذبح الرئيسي، مستشعراً الشيطان يثب في أعماقي ويحجل، بل سمعته يهمس مثلما همس في أذني يوم التعميد: «يا أوسكار! أنظر من حولك، نوافذ في كلّ مكان، فهي كلّها من زجاج، كلّها من زجاج»!

وعبر لاعب الجمباز الصامت فوق الصليب والذي لم ترتعد فرائصه، أطلقت صوتي في اتجاه نوافذ المذبح العالية الثلاثة التي جسّدت الرسل الإثني عشر باللون الأحمر والأصفر والأخضر. لكنني لم أستهدف متّي أو ماركوس، إنما صوّبت على الحمامة التي وقفت على رأسها فوقهما، محتفلةً بعيد العَنْصَرَة وعلى الهالة القدسية، فصرت أتهدج، وأصارع الحمامة بصوتي الماسيّ: فهل كان السبب يرجع إليّ؟ أم إلى لاعب الجمباز الذي أبدى اعتراضه، لأنه لم يرتعد خوفاً؟ فهل كانت هذه هي المعجزة التي لم يفقها أحد؟ لقد رأوني أرتجف محتبس الصوت، مترصداً ركن المذبح من الأعلى، فحسبوا ذلك صلاة، ما عدا أمّي، بينما سعيتُ في الواقع إلى الحصول على شظايا الزجاج، لكن أوسكار أخفق، إذ إن وقته المناسب لم يحن بعد. فقذفت نفسي على البلاط وأجهشت في البكاء، لأن يسوع أخفق ولأن أوسكار أخفق ولأن حضرة القسيس والشمّاس راجيا فهماني خطأً، فصارا يهذيان ويثرثران حول الندم والمغفرة. فقد أمّي وحدها لم تخفق، ففهمت دموعي، مع أنها لا بدَّ أن تكون قد شعرت بفرح؛ لأن شظايا الزجاج لم تنهمر. فحملتني أمّي على ذراعيها، ورجت من الشمّاس أن يعيد لي الطبل والهراوتين ثم تعهدت لحضرة القسيس بإصلاح الأضرار، وتلقت منه الغفران بشكل متأخر، لأنني قطعت عليها الاعتراف؛ فنال حتى أوسكار نفسه قسطاً من البركات، لكن ذلك لم يعن له شيئاً.

حين حملتني أمّي لتخرجني من كنيسة ـ قلب ـ يسوع كنت أعدّ بأصابعي: اليوم هو يوم الاثنين، وغداً هو يوم الثلاثاء الحزين، ثم الأربعاء، فالخميس الأخضر، فالجمعة الحزينة التي ستنتهي فيما علاقتي بيسوع العاجز عن التطبيل، فبخل عليّ بالشظايا، يسوع المزيّف الذي كان يشبهني، لكنه ذهب إلى القبر بينما ذهبت أنا لأواصل التطبيل، ومع ذلك فإنني سأتوقف عن المطالبة بتحقيق أيّ معجزة.

طعام الجمعة الحزينة

كانت المفردة التي يمكن أن تصف مشاعري في الفترة الواقعة بين يوم الاثنين الحزين والجمعة الحزينة، كانت ثنائية المعنى، فمن ناحية شعرت بالاستياء من الصبي يسوع المنحوت من الجصّ، لأنه لم يرغب في التطبيل، لكنني من ناحية ثانية استطعت الاحتفاظ بالطبل بمفردي. وإذا ما تعرض صوتي من ناحية للإخفاق إزاء نوافذ الكنيسة، فإن أوسكار ظفر من ناحية ثانية ببقية من الإيمان الكاثوليكي بفعل الزجاج الملوّن السليم؛ ذلك الإيمان الذي سيوحي له فيما بعد بالكثير من الكفر ولتجديف.

بيد أنني سأبقى ضمن إطار التناقض نفسه: إذا كنت قد نجحت، من ناحية، حينما رجعت إلى البيت، قادماً من كنيسة ـ قلب ـ يسوع، في تحطيم نافذة سقف على سبيل التجربة، فإن نجاح صوتي هذا إزاء ما هو دنيويّ جعلني، من ناحية أخرى، انتبه إلى فشلي على النطاق الدينيّ. لقد سميت ذلك تناقضاً. فظلّ هذا الشرخ قائماً، عصيّاً على العلاج، وصار يتسع إلى اليوم، لأنني ما زلت لم أجد لنفسي مستقراً في ما هو دينيّ أو دنيويّ على السواء، ونظير ذلك فأنني بتّ مقيماً مصحّة الأمراض العقلية، وحيداً، معزولاً بعض الشيء.

لقد سددت أمّي تكاليف الأضرار التي أصابت المذبح الجانبي على يسار الكنيسة. كانت مبيعات المحلّ خلال فترة عيد الفصح جيدة، على الرغم من أن المحلّ أُغلق يوم الجمعة الحزينة بناءً على رغبة ماتسرات الذي كان بروتستانتيا. وكانت أمّي التي تفرض إرادتها دائماً، مستجيبة لرغبته كلّ جمعة حزينة، قد أغلقت المحلّ ثم طالبت بحقها في إغلاق

محلّ بضائع المستعمرات في عيد القربان لأسباب كاثوليكية، واستبدال علب مسحوق الغسيل وعلب قهوة «الهاغ» الفارغة المخصصة للعرض في واجهة المحل بصورة مريم العذراء المضاءة بالكهرباء والمشاركة في موكب محاكاة طريق الآلام الذي كان يقام في أوليفا.

كانت هناك رقعة من الورق المقوّى كُتب عليها من جهة: مقفل بسبب الجمعة الحزينة، وفي الجهة الأخرى: مقفل بسبب عيد القربان. في تلك الجمعة الحزينة التي أعقبت يوم الاثنين الحزين الخالي من التطبيل، العديم الصوت، قام ماتسرات بتعليق الرقعة التي خطّ عليها: «مقفل بسبب الجمعة الحزينة» على الواجهة، وبعد الإفطار ركبنا على الفور الترام الذاهب إلى بروزن. ولكي أستخدم العبارة ذاتها: فإن لابسفيغ بدا شديد التناقض، فكان أتباع المذهب البروتستانتي يذهبون إلى الكنائس، في حين بقي أبناء الطائفة الكاثوليكية في بيوتهم، ينظفون زجاج النوافذ وينفضون الغبار في الأفنية الخلفية للمباني عن كل ما له علاقة بالسجّاد والبسط، فكانوا يفعلون ذلك بقوة مصدرين دويّاً هائلاً، لدرجة تحمل على الاعتقاد بأن أتباع الكتاب المقدسة كانوا يسمرون في أفنية المباني المؤجرة أجساداً مستنسخة عن المسيح على صلبان كثيرة مستنسخة أيضاً في وقت واحد.

لكننا خلفنا وراء ظهرنا تنفيض البسط الزاخر بمحاكاة موكب المسيح، فتحركنا بتشكيلنا المعهود الذي أثبت فعاليته دائماً والمؤلف من: أمّي وماتسرات ويان برونسكي وأوسكار الذين أخذوا الترام رقم ٩، منطلقين في جادة بروزن، مروراً بالمطار وساحة التمارين القديمة والجديدة، ثم وقفوا ينتظرون القطار القادم من الاتجاه المعاكس لنويفارفاسر ـ بروزن عند تحويله القطار، في جوار مقبرة سازبه. استغلت أمّي فرصة الانتظار لإصدار بعض التعليقات المتأملة وهي تبتسم لكن بيأس وملل من الحية، فأطلقت عبارات مثل جميل ورومانسي وساحر على المقبرة الصغيرة المهجورة التي تناثرت فيها شواهد القبور من القرن المنصرم والتي علتها الأعشاب، تلك المقبرة الراقدة في ظل أشجار الصنوبر الهرمة المتداعية على شاطئ البحر. فقالت أمّي كالحالمة: «آه لو أضطجع هنا ذات مرّة،

لو لم يكن معطلاً»! لكن ماتسرات وجد الأرض رملية جداً، فشتم النباتات الساحلية الشائكة المتكاثرة النمو هناك ومعها الشوفان البريّ. ثم لفت يان برونسكي النظر إلى أن ضجيج المطار وتحويلات سكك الترام المحاذية للمقبرة من شأنها أن تعكّر صفو البقعة الهادئة تلك.

كاد الترام القادم من الجهة المعاكسة أن يدهسنا لولا أنه انحرف نحو التحويلة الأخرى، لكن المحصّل قرع جرس الإنذار مرتين. أخيراً ركبنا الترام مخلفين سازبه ومقبرتها وراءنا وسرنا في اتجاه منطقة بروزن التي كانت عبارة عن منتجع للاستحمام، بدا مقفراً مقبضاً في ذلك الوقت، حوالي نهاية إبريل. كانت أكشاك المرطبات مسمّرة الأبواب، وزجاج نوافذ المنتج غائمة مهملة، وجسر البحر الصغير بلا بيارق، وفي المنتجع نفسه اصطفت كابينات الاستحمام المائتين والخمسين فارغةً إلى جوار بعضها. وعلى سبّورة الطقس ثمة آثار طباشير من العام الماضي: درجة حرارة الهواء: عشرون؛ الماء: سبع عشرة درجة؛ الرياح: شمالية شرقية، الأحوال الجوية المتوقعة: سيكون الطقس صاحياً إلى غائم.

وفي البدء أردنا الذهاب إلى غلتكاو سيراً على الأقدام، إلا أننا خطونا في الطريق المعاكس تماماً دون أي نقاش أو تبادل لوجهات النظر، فسرنا في اتجاه حاجز الأمواج. كان بحر البلطيق يلعق الشاطئ بخمول وسعة، حيث لم يكن هناك أثر لإنسان بين الفنار الأبيض وحاجز الموج الذي حمل علامة البحر، وحتى مدخل الميناء. كان المطر الذي سقط في الأمس قد طبع على الرمل نموذجه المتناسق بحيث كان من الممتع تخريبه وترك طبعات الأقدام العارية عليه كالأختام. وأخذ ماتسرات يقذف قطع الآجر الناعمة الصقيلة التي تشبه القطع النقدية المدورة، فيجعلها تتقافز فوق صفحة الماء المخضرة، وبدا عليه الشعور بالتفوق. أمّا يان برونسكي، الأقل مهارة، فقد صار يفتش، خلال محاولات رمي أقراص الآجر، عن حجر الكهرمان، فعثر على بعض الحصاة المثلومة، وعلى قطعة بحجم نواة الكرز، فأهداها إلى أمّي التي كانت تسير مثلي حافية القدمين وتلتفت على الدوام كما لو أنها وقعت في غرام آثارها. كانت الشمس تشعّ بحذر، لكن

الجو بدا بارداً، ساكناً وصافياً بحيث يمكن رؤية الخطوط في الأفق التي كانت تمثل شبه جزيرة هيلا، وكذلك اثنتين أو ثلاث سحب من الدخان المتبدد، إضافة إلى حمولة سفينة تجارية تطاولت في الأفق البعيد.

وصلنا إلى صخور الغرانيت في أطراف سدّة الموج العريضة، واحداً تلو الآخر، وعلى مسافات متباينة، فارتدينا أنا وأمي جواربنا وحذاءينا من جديد، وعاونتني أمّي في شدّ الربّاط، حين كان ماتسرات ويان يقفزان من صخرة إلى أخرى على مفرق السدّة الوعر في اتجاه البحر المفتوح. وعبر فجوات الدعامات الصخرية نمت ذقون وشوارب من الطحلب رطبة غير مشذبة. فتمنى أوسكار أن يمشطها. لكن أمّي أخذت بيدي فتعقبنا الرجلين اللذين كانا يتصرفان كتلميذين صغيرين. كان طبلي يرتطم بركبتي في كلّ خطوة، ومع ذلك فإنني لم أسمح بانتزاعه مني حتى في ذلك المكان. ارتدت أمّي آنذاك معطفاً ربيعياً أزرق فاتحاً بياقة وكمّين لهما لون التوت البري. وسبب لها حذاؤها ذو الكعب العالي بعض الصعوبات فوق صخور الغرانيت. وتلفعت أنا، كما كنت أفعل في أيّام الآحاد والعطل، بمعطف البحّارة ذي الأزرار الذهبية التي تشبه شكل المرساة. وثمة شريط عتيق من مجموعة تذكارات السيّدة غريتشن شفلر كُتب عليه «SMS Seyudlitz» كان يؤطر قبعتي البحرية، ولولاه لرفرفت بفعل الريح، بينما فتح ماتسرات أزار معطفه البنيّ.

وقد ارتدى ويان، المتأنق كعادته، معطفاً متين النسيج بأزرار كثيرة من الجانبين وياقة لامعة من المخمل. وقفزنا حتى وصلنا العلامة البحرية في نهاية السدّة. كان هناك رجل عجوز يجلس تحت علامة البحر وقد ارتدى سترة مبطنة بالقطن واعتمر طاقية عمّال الشحن والتفريغ. كان يضع إلى جانبه كيس بطاطس فيه حركة واهتزاز. كان الرجل، الذي لعلّه من أهالي بروزن أو نويفارفاسر، يمسك بطرف حبل غسيل ملطّخ بحشائش البحر ومدلى في مياه نهر موتلاو الشديدة الملوحة التي لم تكرر المصبّ وتتلاطم بصخور السدّة دون معونة البحر المفتوح.

أردنا أن نعرف لماذا كان الرجل ذو الطاقية العمّالية يصطاد السمك

بحبل غسيل عاديّ وربما بلا غمّاز شصّ طاف. فسألته أمّي بنيّة صادقة، وبتهكّم، ثم خاطبته بصيغة العم. فابتسم الرجل بابتسامة لا تخلو من شماتة، وكشف لنا عن أسنان مثلومة نخرها التبغ ثم بصق، دون يعطي إيضاحاً، فتطاير لعابه الغليظ الجاف في الهواء واستقر في المياه المتعفنة بين صخور الغرانيت الملوثة بالقطران والزيوت. فتأرجح الإفراز هناك فوق العفن وقتاً طويلاً إلى أن انتشله نورس وهو محلّق، متفادياً الاصطدام بالصخور بمهارة، ثم سحب وراءه سرباً من النوارس الناعقة.

كنّا هممنا بالمغادرة، إذ أنّ الجو على السدّة أصبح بارداً، حين بدأ الرجل ذو الطاقية يسحب الحبل جذبةً بعد أخرى. وبالرغم من ذلك أرادت أمّي الذهاب، إلا أن ماتسرات لم يرد لتحرك من مكانه. وكذلك فعل يان الذي لم يتردد يوماً في تلبية رغبات أمّي، فأحجم تلك المرّة عن تقديم المساعدة لها. وكان الأمر بالنسبة لأوسكار سيّان إذا ما كنّا سنبقى أم نغادر. ولأننا بقينا فقد أخذت أتفرج. عندما جمّع الرجل الحبل بين ساقيه وهو يمسح عنه حشائش البحر عند الجذب المنتظم، تأكد لي بأن السفينة التجارية التي لامست بالكاد حمولتها أفق البحر قبل حوالي نصف ساعة، قد غيّرت اتجاها الآن في المياه العميقة متجهةً صوب الميناء، فإذا كانت تمخر البحر عميقاً على هذا النحو؛ فإنها لا بدَّأن تكون باخرة شحن سويدية محملةً بالحديد الخام، حسب تقدير أوسكار.

لكنني صرفت نظري عن الباخرة السويدية عندما استقام الرجل بتكلّف وخاطب ماتسرات بالقول «تشوف شوية، ما الذي جرى وما جرى له»، لكن ماتسرات لم يقفه منه شيئاً، ومع ذلك أيدّ قوله. «نعم، بلى، تحب». . . و«تشوف شوية» وصار عامل الشحن والتفريغ يردد عبارته باستمرار وهو يتابع جرّ الحبل. وإن بجهد هذه المرّة، ثم نزل عبر الصخور في الاتجاه المعاكس للحبل، ودس ـ لم تستطع أمّي أن تشيح بصرها إلى الجانب في اللحظة المناسبة ـ دسّ ذراعيه العريضين في مياه الخليج المبقبقة بين صخور الغرانيت، وأخذ يبحث، حتى أمسك بشيء ما، ثم ثبتّ مسكته، وجذب فقذف بشيء ما، ونادى بصوت عال لكي

نهيّاً مكاناً؛ وقذف في وسطنا بشيء ثقيل كان يقطر ماءً، قذف بكتلة حيّة يتطاير منها الرذاذ: قذف برأس حصان طازج كأنه حقيقيّ، رأس حسان أسود، حصان ذو عرف أسود، لعلّه كان يصهل في الأمس أو قبله؛ إذ إنه لم يتعفن بعد، ولم تصبح رائحته نتنة؛ كانت له على الأكثر رائحة مياه مولتاو، إلا أن كلّ شيء هناك كان ينضح برائحة السدّ حاجز الأمواج...

ثمّ وقف ذلك الرجل صاحب الطاقية التي تزحزحت نحو قفاه، مخيماً بذراعيه الواسعين على تلك القطعة من جسد الحصان، التي انزلقت منها أسماك الحنكليس الرفيعة كالثعابين، انزلقت غاضبة بلونها الأخضر الفاتح. لاقى الرجل صعوبة في القبض عليها؛ لأن أسماك الحنكليس تحركت بسرعة وخفّة على الصخور الناعمة والمبللة إضافة إلى ذلك. فضلاً عن أن النوارس حضرت على الفور، تنعق فوق رؤوسنا، ثم هجمت باندفع، وتمكنت خلال مجموعات ثلاثية ورباعية من القبض، وهي تعبث محلقةً، من القبض على سمكة ثعبان صغيرة أو متوسطة الحجم، ولم تنصاع لأوامر الطرد؛ إذ إن السدّة كانت ملكها. وبالرغم من ذلك استطاع الرجل الذي كان يطوّح بذراعيه ليبعد النوارس، من القبض على حوالي عشرين سمكة صغيرة ليدسّها في الكيس الذي أمسك به ماتسرات، معلناً بسرور رغبته في المساعدة. ولذلك فإنه لم ير وجه أمّي الذي استحال لونه أصفر كالجبن، قبل أن تضع ذراعها ومن ثم رأسها على كتف يان وعلى ياقة معطفه المخملية.

لكن بعدما أصبح سمك الثعبان الصغير والمتوسط الحجم في الكيس وبدأ الرجل ـ الذي سقطت طاقيته عن رأسه أثناء انشغاله ـ يعصر ثعابين الحنكليس الغليظة الداكنة اللون ليخرجها من الرِمّة، اضطرت أمّي إلى الجلوس، فحاول يان أن يدير رأسها إلى الجانب، غير أنها رفضت، وثبتت عينيها الواسعتين كعيني البقرة وبقوّة في مشهد ديدان الماء الضخمة التي جذبها الرجل. فزفر الرجل حينئذ قائلاً «تحبين تشوفي؟ تشوفين شوية؟» ثم فغر فمّ الرِمّة مستعيناً بجزمته الطويلة، ليحشر عصاً بين فكّيها، فتولد انطباع وكأن فكّي الحصان السليمين الصفراوين كانا يقهقهان. عندما

دس الرجل ـ الآن أصبح من الممكن التعرّف على أنه كان أقرع بيضويّ الرأس ـ يديه معاً في بلعوم الحصان وأخرج دفعة واحدة سمكتي ثعبان بطول الذراع وبعرضه، فتحت أمّي فكّيها أيضاً وقذفت بإفطار الصباح، خُثارة زلال البيض وخيوط صفاره الموزعة بين فتات الخبز الأبيض المخلوطة بالقهوة والحليب، قذفت ذلك كلّه فوق صخور السدّة، ثم أخذت تخنق بلعومها لتفرغ جوفها بالكامل، لكن لم يخرج منه المزيد؛ إذ إنها لم تأكل كثيراً أثناء الإفطار، لأنها كانت مصابة بالسمنة، لذلك كانت تجرب أنواعاً مختلفة من وسائل الرجيم التي كانت نادراً ما تلتزم بها ـ كانت تأكل خفيةً ـ إلا أنها لم تنقطع عن حضور ألعاب الرياضة البدنية كلّ ثلاثاء في جمعية النساء، حتى لو سخر منها يان وماتسرات كذلك، كلّما حملت معها خرج الألعاب الرياضية ذاهبة إلى النساء الغريبات الأطوار، لتمارس الألعاب السويدية، دون أن تخف سمنتها.

لقد قذفت أميّ ذلك بنصف رطل على الصخر، وأرادت أن تعصر نفسها لتقذف أكثر فأكثر، لكنها لم تتمكن من تخفيف وزنها. ولم يخرج منها سوى المخاط المخضرّ، فأقبلت النوارس على الفوار. أتت النوارس عندما بدأت أمّي تبصق، وصارت تحوم دانيةً نحو الأسفل، هابطة بنعومة وبأحجام ضخمة سمينة في آن، ثم صارت تتصارع على فطار أمّي، غير عابئة بخطر الإصابة بالسمنة، وبات من الصعب إبعادهن ـ فمن ذا الذي سيفعل ذلك؟ ـ إذا كان يان يخاف من النوارس ويضع يديه أمام عينيه الزرقاوين الجميلتين لغرض الوقاية.

إلا إنّهم لم يصغوا حتى إلى أوسكار الذي استخدم طبله ضد النوارس، مثيراً بهراوتيه الصغيرتين فوق الطلاء الأبيض زوبعةً في وجه البياض الملحّق في السماء. ولم يجد ذلك كلّه نفعاً، بل جعل النوارس تزداد بياضاً أكثر فأكثر. أمّا ماتسرات فلم يشغل نفسه بأمّي قط، وصار يضحك مقلّداً الرجل صاحب الطاقية، متظاهراً بقوّة الأعصاب، وعندما أوشك الرجل على الانتهاء من مهمته بعدما أخرج أخيراً سمكة ثعبان ضخمة من أذن جمجمة الحصان، ساحباً معه المخاط الأبيض لمخّ

الحصان، لاحت علامات الاصفرار على محيا ماتسرات، ومع ذلك لم يتخلّ عن ادعائه، فاشترى من الرجل سمكتي ثعبان كبيرتين واثنتين متوسطتي الحجم بثمن بخس، وحاول إضافة إلى ذلك أن يخفضّ السعر.

آنذاك امتدحتُ يان برونسكي الذي بدا وكأنه أراد البكاء، لكنه أعان أمّي على الوقوف على قدميها، فوضع ذراعه خلف ظهرها وأبقى على الأخرى أمامها، ثم قادها بعيداً عن المكان، وقد بدا ذلك التصرف غريباً، إذ أن أمّي كانت تتعثر منتقلةً بكعبها العالي من صخرة إلى أخرى في اتجاه الشاطئ، وتنحني عند كلّ خطوة، غير أن كاحلها لم ينفسخ على الرغم من ذلك.

وبقي أوسكار وماتسرات واقفين إلى جانب الرجل الذي اعتمر طاقيته من جديد وشرح لنا لماذا عبأ كيس البطاطس بالملح الخشن إلى النصف. كان الملح موجوداً في الكيس لكي تضلّ أسماك الحنكليس طريقها فيه فتموت أثناء اللفّ والدوران فيسلخ الملح قشرتها المخاطية ويمتصّ الأخلاط المخاطية من الداخل؛ لأن أسماك الثعبان عندما تكون في الملح لا تتوقف عن الطواف، فتدور وتطوف إلى أن تفطس، فتترك مخاطها في الملح. والمرء يفعل ذلك إذا ما أراد إنضاج الحنكليس بالدخان فيما بعد. كان هذا في الواقع ممنوعاً من قبل الشرطة ومن قبل جمعية الرفق بالحيوان، لكن أسماك الحنكليس يجب أن تجري وتطوف في كلّ الأحوال. وإلا فكيف يتسنى للمرء إزالة المخاط من أسماك الثعابين الميتة، من الداخل أيضاً، بدون الملح؟ بعد ذلك تُدعك بالجلّة البحرية الناشفة دعكاً محترماً، ثم تُعلق فوق برميل الدخان على خشب الزان المتفحم، لتنضج بالدخان.

فرأي ماتسرات أن من العدل ترك أسماك الثعبان تجري في الملح؛ فقال إنها تسير حتى في قحفة الحصان، فأضاف الرجل صاحب الطاقية شيئاً على كلام ماتسرات: وأيضاً في جثث البشر؛ فخصوصاً بعد المعركة البحرية في «سكاغراك» أصبحت أسماك الثعبان دسمة ضخمة كما شيّع عنها. فقد حدثني طبيب في المصحّة قبل بضعة أيام عن سيّدة متزوجة

كانت تقضي وطرها بالحنكليس الحيّ. لكن السمكة عضتها من الداخل، فاستوجب إدخال المرأة إلى المستشفى، ولهذا السبب فإنها انقطعت عن إنجاب الأطفال.

وربط الرجل الخرج بأسماكه وملحه ثمّ ألقى به على كتفه بما أوتي من خفّة. أمّا حبل الغسيل الطويل فقد لفّه حول رقبته، وسار في الوقت الذي سارت فيه السفينة التجارية صوب نويفارفاسر. كانت الباخرة تحمل على متنها ألفاً وثمانمائة طنّ، ولم تكن سويدية، بل فنلندية، ولم تشحن الحديد الخام، بل الخشب. اتضح أن الرجل صاحب الخرج كان يعرف بعض الناس على ظهر السفينة الفنلندية؛ لأنه أخذ يلوّح بيده إلى القارب الصدئ في الجهة الأخرى، مطلقاً صيحة ما، فلوّح إليه نفر من بحّارة السفينة الفنلندية وزعقوا أيضاً. لكن لماذا لوّح ماتسرات بيده وهتف بكلام سخيف «تحيّة يا سفينة!» فأن ذلك أمراً بقي غامضاً إلى اليوم، إذ أنه باعتباره من مواليد حوض الراين، لا يفقه شيئاً من لغة البحّارة، كما أنه لم يكن يعرف فنلندياً واحداً أبداً. بيد أنه اعتاد على أن يلوّح بيده إذا ما لوّح الآخرون، وأن يزعق ويضحك ويصفّق إذا ما زعق الآخرون أوضحكوا أوصفّقوا. ولهذا السبب بالذات، فإنه انتسب إلى الحزب في وقت مبكر نسبيّاً، حين لم يكن الأمر ضرورياً، ولم يحظ منه بشيء، سوى أنه استلزم منه أن يمضي ضحى كلّ أحد في شؤون الحزب.

وسار أوسكار على مهل خلف ماتسرات والرجل القادم من نويفارفاسر والسفينة الفنلندية المحملة فوق طاقتها. فصرت ألتفت بين الحين والآخر، لأن الرجل صاحب الطاقية ترك رأس الحصان ملقى تحت علامة البحر، لكن لم يعد ممكناً رؤية الرأس، فالنوارس أحاطت به من كلّ جانب كما لو أنها رشته بمسحوق البودرة البيضاء. فاستحال إلى ثقب أبيض خفيف تماماً في البحر الأخضر كقنينة الزجاج الخضراء. كانت ثمة سحابة مغسولة توّاً - بدا بإمكانها أن ترتفع أيّ لحظة في الهواء وبدقة شديدة - قد أطبقت على رأس الحصان فغطته وهي تصرخ بصوت مدوّ؛ أطبقت على رأس حصان لم يعد يصهل، بل كان يصرخ ليس إلا.

بعدما اكتفيت من المشهد أخذت أحث الخطى مبتعداً عن النوارس وعن ماتسرات، قارعاً بقبضتي على الطبل أثناء القفز، فتجاوزت الرجل صاحب الطاقية الذي بدأ يدخن غليوناً قصيراً، حتى وصلت إلى يان برونسكي وأمّي في مقدمة السدّة. كان يان مازال يمسك بأمّي، إلا أنه أخفى يده تحت كمّ المعطف، وكانت أمّي من ناحيتها تضع يدها في جيب بنطلون يان، لكن ماتسرات لم يستطع رؤية ذلك؛ لأنه كان بعيداً خلفنا منشغلاً بأسماك الحنكليس الأربع التي خدرها له الرجل ذو الطاقية بحجر، فلفها بجريدة كان قد قرأها بين صخور الحاجز البحري.

حينما لحق ماتسرات بنا هزّ لفّة الأسماك وصرّح قائلاً: «إنه طلب منّي درهما ونصف، لكنني أعطيته درهماً واحداً وانتهى الأمر.»

فطراً تحسن على وجه أمّي، واستعادت يديها من جديد، ثم قالت: «لا توهم نفسك يا رجل بأنني سآكل أيضاً من هذه الأسماك. إنني لا آكل السمك مطلقاً، ناهيك عن الحنكليس.» فضحك ماتسرات: «لا تقولي هذا الكلام يا بنت! كنت تعلمين بأن الأسماك موجودة بوفرة هنا، وكنت تأكلينها وهي طازجة. سنرى بعدما يقوم خادمك وعبدك بتحضيرها بكل ملحقاتها، إضافة إلى قليل من الخضرة.» وصمت يان برونسكي الذي سحب يده من معطف أمّي في الوقت المناسب، وصرت أنا أطبل، لكي لا يعودوا إلى سيرة الأسماك حتى نصل إلى بروزن. وأيضاً في محطة انتظار الترام، كذلك في المقطورة حلتُ دون استمرار الثلاثة البالغين في الحديث، حيث بدت أسماك الحنكليس هادئة نوعاً ما. عند محطة «سازبه»، لأنّ الترام السائر في الاتجاه الآخر كان موجوداً، وبعدما اجتزنا المطار بمسافة قصيرة، بدأ ماتسرات يتحدث عن جوعه الهائل، على الرغم من تطبيلي. فلم تعره أمّي انتباهاً، ولم تنظر له أو لنا، إلى أن قدم لها واحدة من سجائره «الريغاتا» وعندما أشعلها وهي تضغط بشفتيها على عقب السيجارة الذهبي، ابتسمت لماتسرات، لأنها كانت تعلم بأنه لا يحب أن تدخن علناً أمام الناس.

ونزلنا في ساحة ماكس-هالبه، فمسكت أمّي بذراع ماتسرات وليس

بذراع يان، مثلما توقعت. فسار يان إلى جانبي، وهو يقبض على يدي ويدخن سيجارة أمّي إلى النهاية. وفي لابسفيغ كانت ربّات البيوت الكاثوليكيات يواصلن نفض بسطهن. وحينما فتح باب البيت أبصرت في السلّم السيّدة كاتر الساكنة في الطابق الرابع إلى جوار ماين، نافخ البوق. كانت تسند بذراعيها الحمراوين الزرقاوين الشديدتيّ الضخامة بساطاً بنيّاً ملفوفاً حملته على كتفها اليمنى. ومن تحت إبطيها لاح شعرها الأشقر الملتف على بعضه، شعرها المالح بفعل العرق. كان البساط منثنياً من الأمام ومن الخلف. بدا أن بإمكانها حمل زوجها السكّير على هذا النحو، إلا أن زوجها كان قد غادر الحياة. وعندما مرقت تحمل شحمها الملفوف بثوب رقيق أسود لامع، خفقتني رائحة عرقها: التي كانت عبارة عن خليط من محلول النشادر والقِثّاء وفحم الكاربيد - لابد أن تكون عليها العادة. وفي الحال تناهى إلى سمعي ضرب البسط المنتظم القادم من أفنية البنايات، فطاردني في البيت نفسه، وصار يلاحقني إلى أن تخلصت منه أخيراً عندما تربعت في خزانة الملابس في غرفة النوم، إذ أن المعاطف الشتوية المعلقة هناك كانت قادرة على امتصاص القسم المزعج من ذلك الصخب السابق لعيد الفصح.

لكنّ السيّدة كاتر النافضة البساط لم تكن وحدها التي اضطرتني إلى الهرب داخل الصندوق. فقبل أن يلقي ماتسرات ويان وأمّي معاطفهم اندلع الشجار حول وجبة طعام الجمعة الحزينة. غير أن الأمر لم يقتصر على الحنكليس وحده، إنما لعبت أنا أيضاً دوراً في الموضوع عبر سقطتي الشهيرة من سلّم القبو: «أنتَ المذنب، بل إنتِ المذنبة والآن سأجهز حساء الحنكليس، لا داعي للحساسية، أفعلْ ما تشاء، إلا الحنكليس، وهناك علب كثيرة طعام محفوظة في القبو، أجلب الفطر إلى الأعلى، وأقفل الباب جيّداً حتى لا تتكرر الحادثة مرّة أخرى، دعي هذه الأحاديث القديمة المكررة، سأعمل أسماك الحنكليس، وكفى، سأعملها بالحليب والخردل والبقدونس والبطاطس المملحة ثم أغطيها بورقة من الغار وقرنفلة، كلا يا ألفريد، اتركها وشأنها إذا لم تكن راغبة؛ لا تدخل

نفسك، إنني لم اشتر أسماك الحنكليس عبثاً وهدراً، سأنظفها وأنقعها، كلا، كلا، سنرى عندما تنصب المائدة، من هو أوّل من سيقف أمام المائدة، دعونا نرى من ذا الذي سيأكل ومن ذا الذي سيمتنع.» ثمّ أطبق ماتسرات باب غرفة الجلوس وراءه واختفى في المطبخ، فصرنا نسمع صوت انشغاله بشكلٍ واضح، حيث أجهز على الأسماك من خلال قطع بالسكين مثل علامة الصليب خلف الرأس، أمّا أمّي التي كانت تتمتع بخيال واسع فقد أرخت نفسها على الأريكة، وقام يان برونسكي على الفور بتقليدها، ثم شبكا أصابعهما وأخذا يتهامسان باللغة الكاشوبية.

وحين توزع الثلاثة في أنحاء البيت، لم أكن قد جلست في الخزانة، إنما في غرفة الجلوس أيضاً. كان ثمة مقعد للأطفال إلى جانب المدفأة الحجرية، حيث أخذت أهز ساقيّ، تاركاً يان يثبت بصره فيّ، فشعرت بأنني كنت أقف في طريقهما، على الرغم من أنهما لم يكنا قادرين على أن يفعلا شيئاً، مادام ماتسرات كان حاضراً خلف الجدار، وإن بصورة غير مرئية، لكنه كان يهدد بالأسماك نصف الميتة ويلوّح بها كما السياط. وهكذا تبادلا الأيدي، واحتضنا بعضهما وتجاذبا أطرافهما العشرين، حتى بدأت مفاصلهما تطقطق، فأجهزا عليّ بتلك الأصوات. ألم يكن نفض بساط السيّدة كاتر في الفناء كافياً؟ ألم يخترق صوت النفض الجدران كلها، مقترباً باستمرار على الرغم من أنه لم يزدد حدة؟

وتزحزح أوسكار من المقعد الصغير وأقعى لحظةً إلى جوار الموقد الحجري، لكي لا يجعل انسحابه ملحوظاً، ثم انزلق ثانيةً بالتمام والكمال عبر عتبة الباب إلى غرفة النوم، وهو منشغل بطبله. ولكي أتفادى أي جلبة تركت باب غرفة النوم مفتوحاً إلى النصف وتيقنت بارتياح من أن لا أحد نادى عليّ بالعودة. وفكّرت في فيما إذا كان على أوسكار الاختباء تحت السرير أم في الخزانة، فآثرت الخزانة؛ لأنني سأوسخ ملابس البحرية الزرقاء المعقدة التفصيل لو دسست نفسي تحت السرير. استطعت بمشقة الوصول إلى مفتاح الخزانة، فأدرته مرّة واحدة، وأفردت مصراعيه المزودين بالمرايا، وأزحت إلى الجانب بهراوتيّ شماعاتِ الملابس

المصفوفة على القضيب والتي علقت بها المعاطف والثياب الشتوية. لم تكن الفجوة التي نشأت أخيراً عن الزحزحة كبيرة، لكنها بدت كافية لصعود أوسكار وجلوسه فيها. بل فتمكنت بجهد من جذب البابين وحشر عروتيهما بشال عثرت عليه في أرضية الخزانة، فنشأ شق يتيح الرؤية وتسريب الهواء، ثم وضعت الطبل على ركبتي، لكنني لم أقرعه، ولا حتى بصوت خفيض، بل تركت نفسي سارحة بلا إرادة، تخترقها أبخرة المعاطف الشتوية مستحوذةً عليها.

كم هو رائع أن تكون الخزانة موجودة، ومعها الخامات الثقيلة التي لا تكاد تتنفس تلك التي أتاحت لي الفرصة لتجميع أفكاري، وربطها في باقة وإهدائها بصورة مقبولة، كافية لتقبّل هذه الهدية بفرح معقول، غير ملحوظ إلى حدّ ما. وكما هو الأمر دائما عندما أركّز أفكاري وأستغل طاقتي بعدالة؛ فإنني أنتقل إلى عيادة الدكتور هولاتس في «بونسهوفرفيغ»، فاستمتع بذلك الجزء من زياراتي الأسبوعية كلّ أربعاء إذ أنه كان يهمني. كانت أفكاري تطوف قليلاً حول الطبيب الذي كان يفحصني دائماً بطريقة بالغة التعقيد، إنما استهدفت الممرضة إنغا، مساعدته. كان مسموحاً لها أن تخلع عني ثيابي ثم تلبسني إيّاها، فكانت وحدها المخولة بأخذ قياساتي ووزني واختباري، باختصار: لقد كانت تقوم بجميع التجارب التي أجراها عليّ الدكتور هولاتس، فتؤديها بدقّة تامة، لكن بشيء من التجهم، معلنةً كلّ مرّة، وبطريقة لا تخلو من التهكم، عن فشل التجارب التي كان هولاتس يسميها نجاحات جزئية. غير أنني نادراً ما كنت أتطلع إلى وجه الممرضة إنغا. فكان بصري وقلبي المتهيج المحرّض على التطبيل من وقت إلى وقت يقعان على بياض ردائها الطبّي النظيف المنشّى وعلى تلك التوليفة العديمة الوزن التي كان تضعها على رأسها بمثابة قلنسوة، وعلى دبّوس الزينة المحلّى بصليب أحمر. كم كان رائعاً الانتباه إلى ثنيات ثياب مهنتها. هل كانت بجسد تحت القماش؟ فوجهها الذي كان يزداد قدماً باستمرار ويداها العظميتان الخشنتان، برغم العناية، تحمل على الاعتقاد بأن الممرضة إنغا كانت امرأة. في الواقع لم تعتني الممرضة إنغا بالروائح

والعطور التي يمكن أن ينضح بها قوام جسديّ مشابه مثلما كانت تنبعث من قوام أمّي حين ينضو عنها يان أو ماتسرات ثيابها أمام ناظري. كانت لإنغا رائحة الصابون والأدوية التي تصيب المرء بالتعب والفتور. فكم مرّة غلبني النعاس حين كانت تجسّ جسدي السقيم مثلما يدعون: نعاس خفيف كان ينبعث من ثنيات القماش الأبيض، وسنٌ مغلّف بحامض الفينول، إغفاءة بلا حلم؛ إلا إذا ما كبر دبوّسها واتسع عن بعد، متحوّلاً، لكن لا أعلم إلى أي شيء: إلى بحر من الرايات والأعلام، إلى احمرار قمم جبال الألب عند الغروب، إلى حقل زهور الخشخاش الحمراء، مستعداً للانتفاض، لكن ضد من، فذلك أمر لم أكن أعرفه: ضد الهنود الحمر، ضد ثمار الكرز، ضد الرُعاف، ضد أعراف الديكة، وكريات الدم الحمراء أيضاً، إلى أن تشكّلت خلفية من الوله القائم على الاحمرار المستحوذ على البصر برمته؛ خلفية كانت زماناً بديهية ومازالت إلى اليوم، لكنها عصيّة على الوصف، إذ لا يمكن التعبير عنها بكلمة أحمر، كما أن الرُعاف لا يفعل ذلك أيضاً، وقماش الرايات كان يصبغ نفسه بنفسه، وإذا ما نطقت بالرغم من ذلك بعبارة أحمر؛ فإن الأحمر لا يريدني، فيقلب معطفه: أسود، ثم أتت الطاهية، لوناً أسود يرهبني فيجعلني أصفر، ويخدعني فيجعلني أزرق، فلا آمن بالأزرق، ولا تكذب عليّ، ولا تجعلني أخضر: أخضر هو التابوت الذي أرعى فيه، سيغطيني الاخضرار، الأخضر يجعلني أبيض: ذلك يعمدني أسودَ، أسود يرهبني فيجعلني أصفرَ، والأصفر يخدعني أزرقَ، والأزرق لا أحسبه أخضر، والأخضر يجعلني متفتح حمرةً، وأحمرَ كان لون دبّوس الممرضة إنغا، وإنني حملت صليباً أحمرَ، وبعبارة أدق، حملته في ياقة فستانها الخاص بالممرضات؛ بيد أن الأمر لم يقتصر إلا نادراً على هذه الانطباعات الأحادية اللون، حتى في خزانة الملابس نفسها.

كان هناك صخب عديد الألوان انبعث من غرفة الجلوس، فارتطم ببابيّ الخزانة، حتى أيقظني من غفوتي النصفية المهداة إلى الممرضة إنغا، والتي استسلمت لها للتو. جلست صاحياً، بلسان غليظ، واضعاً الطبل على ركبتي، بين المعاطف الشتوية المتباينة النماذج، أتشمم قيافة ماتسرات

الحزبية التي علقت إلى جانبي بحزامها وحمّالاتها الجلدية، ومِشْبَك السلسلة، فافتقدت الثنيات البيضاء لرداء الممرضة: صوف ساقط، نسيج ناعم يُطبق على نسيج مضلّع، وفوق رأسي عُلقت موضة القبعات التي سادت في الأعوام الأربعة الأخيرة، وعند قدميّ أحذية، واقيات الأحذية اللامعة، الكعوب العالية، المسمرة وغير المسمرة، شعاع من النور جاء من الخارج، فنوّه إلى وجود الأشياء، فشعر أوسكار بالأسف؛ لأنه ترك شقّاً بين البابين.

فما الذي يمكن أن يقدمه لي أولئك في غرفة الجلوس؟ لعلّ ماتسرات باغت يان وأمّي حين كانا على الأريكة، لكن ذلك بدا صعب الاحتمال؛ لأن يان كان يحتفظ دائماً بقدر من الحذر ليس فقط أثناء لعب الورق. من المحتمل، وهذا ما حدث فعلاً، أن يكون ماتسرات قد وضع الحنكليس الميّت المعصور والمنقوع والمطبوخ والمتبّل والمذاق كحساء إلى جانب البطاطس المملحة الجاهزة للأكل في طبق الشوربة الضخم فوق طاولة غرفة الجلوس، ولأن أحداً لم يجلس إلى المائدة، فقد تجرأ على تعداد مقادير طبخته، فامتدحها من الأعلى إلى الأسفل باعتبارها وصفة طعام كاملة. فصرخت أمّي؛ صرخت بلغتها الكاشوبية. وماتسرات لم يفقه هذه اللغة ولم يحبها، غير أنه أضطر إلى سماعها ففهم ما عنته أمّي؛ إذ لابد أنها تحدثت عن سمك الحنكليس، وعن سقوطي من سلّم القبو كما هو الحال عادةً عندما تصرخ أمّي، فردّ عليها ماتسرات. كانوا كلهم يتقنون أدوارهم. فأخذ يان يعاتبه، إذ بدون يان لا وجود لمسرحية. أخيراً بدأ الفصل الثاني: فجأة رفع غطاء البيانو، وبلا نوتات موسيقية، أي على الغيب، وضعت قدميها على بندولي البيانو، ثم ضجّت جوقة الصيادين تنشد لا على التعيين لحن «فرايشوتس»: «ما الذي يتشابه على الأرض.» وفي منتصف إشارة البوق المعلنة نهاية الصيد والمنبعثة من غطاء البيانو الرنّان، تخلت عن البندولين، فانقلب كرسي العزف، ثم أقبلت أمّي، فوصلت إلى غرفة النوم، وقذفت مرايا الخزانة بنظرة عاجلة، ثم ألقت بنفسها على نحو عرضيّ فوق فراش الزوجية تحت قبّة السرير الزرقاء، رأيت ذلك من خلال الشقّ، ثم أخذت

تنتحب وتولول وتفرك أصابعها مثلما فعلت مريم المجدلية التائبة المطبوعة صورتها وسط إطار مذهّب في طرف القلعة الزوجية. فأصغيت فترة طويلة لنحيب أمّي، وإلى طقطقة خشب السرير الخفيفة، والهمهمة الخفيضة في غرفة الجلوس. وكان يان يهدّأ ماتسرات، فتوسل ماتسرات بيان أن يهدّأ أمّي أيضاً. فخفتت الهمهمة، ودخل يان إلى غرفة النوم. الفصل الثالث: وقف يان أمام السرير، فتأمل بالتناوب أمّي والمجدلية التائبة، ثم جلس على حرف السرير بحذر شديد، وأخذ يتحسس ظهر أمّي المضطجعة على بطنها، ملتمساً مؤخرتها، ثمّ تكلم معها باللغة الكاشوبية ليسكن من روعها؛ وبما أن الكلمات لم تنفع معها فقد سرح بيده تحت ثوبها، حتى انقطعت عن النحيب، وانتزع يان بصره عن المجدلية الكثيرة الأصابع. يا ليت أن يكون المرء قد رأى يان وهو ينهض بعدما أنجز مهمته، وصار يمسح أصابعه بمنديل جيب، ثم خاطب أمّي بصوت مرتفع، ليس باللغة الكاشوبية هذه المرّة، لكي يفهم ماتسرات الموجود في غرفة الجلوس أو في المطبخ، مشدداً على كلّ كلمة: «تعالي يا آغنس؛ دعينا ننسى الموضوع. ألفريد أبعد الحنكليس، ورماه في المرحاض. سنطرق الآن ورق «السكات» المحترم، فتلكن من ناحيتي لعبة ربع الفلس، فإذا ما تجاوزنا كلّ شيء، وتفاهمنا من جديد، فإن ألفريد سيقلي لنا البيض والفطر والبطاطس.»

لم تعلق أمّي بشيء، إنما نهضت من الفراش، وسوّت اللحاف الأصفر، وسرحت شعرها قبالة مرايا الخزانة، ثم غادرت غرفة النوم خلف يان. فانتشلت بصري من الفتحة، وسمعتهم بعد برهة قصيرة وهم يخلطون الورق. كان ذلك مصحوباً بقهقهات متوجسة، فقطع ماتسرات ووزع يان، وأخذوا يزايدون متحدين بعضهم، وأعتقد أن يان بدأ يزايد ماتسرات الذي تنازل عند الرقم ثلاثة وعشرين، بينما صعّدت أمّي من مزايدتها حتى أوصلت الرقم إلى ستة وثلاثين، فتنازل يان أيضاً، ثم لعبت أمّي لعبة حاسمة، خسرتها على نحو طفيف. أمّا لعبة «الديناريّ» التي أعقبت ذلك فقد كسبها يان ببساطة وثقة مطلقة، في حين أمّي ربحت اللعبة الثالثة، «ورق الكوبة غير الزوجي» وإن بصعوبة.

وبلا شكّ أنّ ورق اللعب الذي تخلله البيض المقلي والفطر والبطاطس المملحة سيستمر إلى الليل، فلذلك لم أعد أصغي إلى اللعبات الأخرى، وحاولت أن اللحاق بالممرضة إنغا ورداء مهنتها المشجع على النوم. إلا أنّ الإقامة في عيادة الدكتور هولاتس شابها الكدر والغمّ، ليس لأنّ الألوان الحمراء والزرقاء والصفراء بدأت تتكلم في سياق النصّ الأحمر لدبوّس الصليب الأحمر، بل لأنّ حوادث فترة الضحى أقحمت نفسها بإلحاح وسط تلك التصورات: فكلّما انفتح باب العيادة، المؤدي إلى الممرضة إنغا؛ فإن المنظر الصافي والشفّاف الذي يولده زيّ الممرضات لم يطل وحده فحسب، إنما شخص ذلك الرجل أيضاً الذي وقف في مرفأ السدّة عند نويفافاسر شتراسه تحت علامة البحر، ويستل الحنكليس من رأس حصان مكتظ بسمك الثعبان ويقطر ماءً. ولم يكن ذلك البياض الذي أفصح عن نفسه بصورة جليّة، حتى أنني أوشكت أن أرجعه إلى إنغا، سوى أجنحة نوارس خدعت الأبصار للحظة حين أطبقت على الرِمة والحنكليس معاً، إلى أن تفتق الجرح، لكنه لم ينزف أو ينزّ دماً، بل ظلّ أسود، رأس الحصان المقطوع، والبحر كان أخضر كالقنينة الخضراء، ثم جلبت السفينة الفنلندية بعضاً من الصدأ إلى المشهد، حيث شحنت خشباً، والنوارس - على المرء أن لا يحدثني بعد الآن عن الحمائم - خيّمت على الضحية، وصارت تغمس قوادمها وترمي بالحنكليس إلى ممرضتي إنغا، التي كانت تتلقفه، مبتهجة به، حتى تحولت هي نفسها إلى نورس، متخذةً شكلاً، ليس بشكل حمامة، بل روحاً مقدسة، ثم انقلبت إلى هيئة أخرى، تدعى نورساً هناك، هابطاً على اللحم كسحابة، محتفلاً بعيد العَنْصَرَة.

فتخليت آنذاك عن الخزانة، وعن العناء، فاصلاً بابي الخزانة بتبرم ثم ترجلت من الصندوق، ورأيت نفسي بلا تغيير في المرآة، فكنت مع ذلك فرحاً؛ لأن السيدة كاتر توقفت عن نفض البسط. كانت الجمعة الحزينة قد انتهت بالنسبة لأوسكار، غير أن فترة آلام المسيح ستحل بعد عيد الفِصْح.

تضييق التابوت من ناحية القدمين

لكن بالنسبة لأمّي فقد بدأت رحلتها مع المعاناة بعد جمعة رأس الحصان المليء بالحنكليس، بعد عيد الفصح الذي أمضيناه مع عائلة برونسكي في ريف بيساو عند الجدّة والعمّ فنسنت، بحيث أن طقس مايو المعتدل نفسه لم يلطّف من حالتها. ولم يكن صحيحاً أن ماتسرات كان يجبرها على أكل السمك. إذ أنها بدأت برغبتها، مدفوعة بعزيمة شديدة الغموض، بعد مضي أسبوعين تقريباً على عيد الفصح، تلتهم الأسماك بكميات كبيرة، دون أدني مراعاة لشكلها، حتى أن ماتسرات خاطبها ذات مرّة: «لا تأكلي هكذا بنهم كما لو أنك مجبورة على الأكل.»

غير أنها بدأت تفطر بالسردين المنقوع بالزيت، وبعد ساعتين، عندما يخلو الدكّان من الزبائن، تهرع نحو صندوق سمك الرنجة الصغير، وفي الغداء توصي على سمك مقلي أو سمك القُدّ مع الخردل، وفي وقت العصر تكون ممسكة بمفتاح العلب: حنكليس منقوع بالجليةْ وسمك الرنجة الملفوفة والسردين المقلي، وإذا ما امتنع ماتسرات عن قلي السمك أو طبخه للعشاء، فإنها لم تنطق بحرف واحد، فلا تشتمه أو تعنفه، بل تنهض من الطاولة بهدوء، وتعود من الدكّان حاملة قطعة من الحنكليس المدخن، فتنعدم شهيتنا على الفور؛ لأنها كانت تحكّ بالسكين بقايا السمن الداخلي والخارجي عن الحنكليس، بل أنها لم تعد تتناول بالسكين شيئاً آخر سوى السمك. وفي النهار كانت تتقيأ مرات عديدة. فوقع ماتسرات باضطراب وقلق، وسألها: «هل أنت حامل ربما، وإلا فما الذي حدث لك؟» فكانت أمّي تردّ: «لا تقل هذا الهراء!» هذا إذا ما كانت تردّ أصلا.

ذات أحد، وفي فترة الغداء، عندما صفعت الجدّة كولياجك الطاولة براحتيها بين الأطباق حين رأت الحنكليس يعوم أخضر في الزبد ومعه البطاطس الطازجة، قائلة: «هيّا يا آغنس، انطقي، ما الذي حلّ بك؟ لماذا تأكلين السمك إذا لم تتقبليه، ولا تقولين السبب وتتصرفين مثل المجانين؟» اكتفت أمّي بهزّ رأسها، وأزاحت البطاطس إلى الجانب، ثم غمست الحنكليس في الزبد وصارت تلتهم بلا كلل كما لو أنها تنجز مهمة تستلزم الجدّ والمثابرة. ولم يقل يان برونسكي شيئاً قطّا. ومرّة أخرى عندما باغتها معه فوق الأريكة، حيث شبكا أيديهما كعادتهما، وقد انزلقت ثيابهما، أثار انتباهي الفتور الذي اعترى أمّي والدموع في مآقيّ يان، بيد أن ذلك المشهد انقلب فجأة إلى نقيضه، فوثبت أمّي ومسكتني ثم رفعتني وحضنتني، مظهرة لي هوّة لا يمكن ردمها بكميات هائلة من الأسماك المقلية والمسلوقة والمنقوعة والمدخنة.

وبعد ذلك بأيّام قليلة رأيتها في المطبخ ليس فقط تلتهم السردين اللعين المنقوع في الزيت، بل تسكب في مقلاة صغيرة زيتَ العلب القديمة التي احتفظت بها، ثم تسخن الخليط السائل فوق شعلة غاز، وتشربه، فسقطت يداي من الطبل وأنا أقف في باب المطبخ. وفي المساء ذاته نُقلت أمّي إلى المستوصف البلدي. فصار ماتسرات ينتحب باكياً قبل أن تصل سيارة الإسعاف: «لماذا لا تريدين الاحتفاظ بالطفل؟ لا يهم من هو أبوه. أم أن الموضوع مازال يدور حول رأس الحصان التافه؟ يا لتنا لم نذهب إلى هناك!

أرجوك أن تنسي يا آغنس، فلم أكن أقصد ذلك.»

وجاءت عربة الإسعاف، وحُملت أمّي إلى داخلها، فاجتمع الصغار والكبار في الشارع، ثم نقلت إلى المستوصف، فاتضح أنها لم تنس السدّة ولا رأس الحصان، وأنها حملت معها ذكرى الحصان، بغض النظر عما إذا كان اسمه هانس أم فرتس! كانت أعضاؤها تتذكر، بكلّ وضوح وألم، نزهة الجمعة الحزينة؛ لذلك أتاحوا لأمّي التي كانت متفقةً مع أعضائها على رأي واحد، أن تغادر الحياة خشيةَ أن تتكرر تلك النزهة. وتحدّث

الدكتور هولاتس عن إصابتها باليرقان والتسمم بالسمك. وفي المستشفى ثبت أن أمّي كانت حاملاً في شهرها الثالث، فخصصت لها غرفة بمفردها، وصارت تظهر لنا، نحن الذين استطعنا زيارتها طوال أربعة أيّام، وجهها المشمئز الذي هدّته التشنجات، الذي ابتسم لي أحياناً عبر غثيانه. وعلى الرغم من أنها بذلت جهداً كبيراً لتدخل الفرح إلى زوّارها، مثلما أبذل جهدي في هذه الأيّام لكي أجعل أصحابي يشعرون بالسعادة خلال أوقات الزيارة، إلا أن نوبات التقيؤ المتعاقبة باتت تطيح بجسدها، فأخذ ينهار ببطء، حتى وإن لم يخرج منه شيئ، إلى أن جاء اليوم الرابع للاحتضار الصعب، فلفظت أنفاسها الأخيرة التي لابد أن يلفظها كلّ إنسان في آخر المطاف، ليمنح بعدها شهادة الوفاة.

فتنفسنا الصعداء عندما تأكدنا من عدم وجود أية أسباب أخرى قد تؤدي إلى إثارة التقيؤ الذي شوّه جمالها. وحالما وضعوها في الكفن بعد الغسل، أطلت علينا مرّة ثانية بوجهها المستدير الأليف الذكي والساذج على السواء. فأطبقت رئيسة الممرضات جفني الراحلة؛ إذ أن ماتسرات ويان برونسكي أجهشا في البكاء إلى حدّ العمى.

لم استطع البكاء ساعتها، لأن الآخرين جميعهم، أي الرجال وجدّتي وهدفغ برونسكي وشتيفان الذي أوشك على بلوغ الرابعة عشرة، قد انخرطوا في البكاء دفعة واحدة. كذلك لم يفاجئني موت أمّي، إذ لم يخطر في بال أوسكار الذي كان يرافقها كلّ خميس إلى المدينة القديمة وكلّ مساء أحد إلى كنيسة-قلب-يسوع بأنها كانت تجهد نفسها بالبحث منذ أعوام عن إمكانية للتخلص من العلاقة الثلاثية الأطراف بطريقة تتيح لها أن تورث ماتسرات، الذي ربما لم تكن أحبته، مسؤولية موتها، وأن يواصل يان برونسكي، حبيبها يان، الخدمة في البريد البولندي وهو يحمل فكرة مثل: أنها ماتت من أجلي، أو أنها لم ترد أن تقف عثرة في طريقي، فلذلك ضحّت بنفسها.

وعلى الرغم من الحسابات الدقيقة التي كان يان وأمّي يشغلان ذهنهما بها، تلك الحسابات المتعلقة بتوفير فراش هادئ مناسب لغرامهما، فإنهما

كانا يتحليان في الوقت ذاته بموهبة رومانسية: بحيث يستطيع المرء أن يرى فيهما روميو وجوليت، أو ابنيّ ملكين، لم يتمكنا من الالتقاء؛ لأن المياه الفاصلة بينهما كانت شديدة العمق. بينما كانت أمّي التي تناولت قربان الوفاة المقدس راقدة بلا حراك، باردة البدن أمام صلوات القسيس، فإنني وجدت وقتاً وراحة بال لمراقبة الممرضات اللواتي كنّ بروتستانتيات المذهب على الأغلب، فكنّ يشبكن أيديهن بطريقة مختلفة عن الممرضات الكاثوليكيات، وأودّ هنا أن أقول بوعي، بأنهن كنّ يؤدين صلاة «أبانا الذي في السماء» بكلمات محرفة عن النصّ الأصلي، فلم يضربن علامة الصليب مثلما كانت تفعل الجدّة كولياجك، أو آل برونسكي أو حتى أنا. أمّا والدي ماتسرات - اسميه والدي في بعض المناسبات، حتى لو كان إنجابه لي مجرد قضية احتمالية بحتة - البروتستانتي المذهب فقد اختلف في صلاته عن البروتستانتيين الآخرين؛ فهو لم يصلب يديه على صدره، إنما وضع أصابعه المتشنجة بمستوى أعضائه التناسلية، منتقلاً من مذهب إلى آخر، فبدا متردداً خجلاً من صلواته. وجثت جدتي إلى جانب شقيقها فنسنت أمام النعش وصلّت باللغة الكاشوبية بصوت عال وبلا تردد، في حين أخذ فنسنت يحرك شفتيه، ربما باللغة البولندية، بينما اتسعت عيناه، ممتلئتين بهذا الحدث الروحاني الجلل. يا ليتني استطعت التطبيل! لأنني في آخر المطاف كنت أدين لأمّي بهذه الطبول الحمراء البيضاء الكثيرة. لقد برّت بوعدها الأموميّ عبر إحضار الطبل إلى المهد، كمقابل لرغبات ماتسرات. كذلك خدمني قوام أمّي الجميل بين الحين والآخر، لا سيما عندما كانت رشيقة، غير مضطرة بعد إلى ممارسة التمارين الرياضية؛ خدمني كقاعدة للتطبيل. أخيراً لم أستطع السيطرة على نفسي، فجعلت الصورة المثالية لجمال عينيها الرماديتين تتجسد على الصفيح في حجرة وفاتها، فتعجبت في الحال من أن ماتسرات هو الذي بادر بنفسه إلى إيقاف اعتراض رئيسة الممرضات، معلناً عن تحزبه لي، فهمس للممرضة: «دعيه وشأنه، يا أخت، إنهما متعلقان ببعضهما.»

وكانت أمّي قادرة على أن تبدو ظريفة جدّاً، وشديدة الخوف أيضاً،

وقادرة على النسيان بسرعة. ومع ذلك كانت تتمتع بذاكرة ممتازة، فكانت تقذفني مع ماء الاغتسال، لكنها كانت تشاطرني الاستحمام في الوقت ذاته. وكنت أحياناً أضيعها، بيد أن حاسة العثور عليّ من جديد كانت ترافقها على الدوام. حين كنت أحطم الزجاج بالصوت، فإنها كانت تعالجه بمعجون التثبيت. وقد جلست أحياناً إلى جانب الباطل، على الرغم من وجود الكثير من الكراسي الفارغة حولها. وحتى لو أطبقت أزرارها بإحكام؛ فإنها تتراءى مكشوفة في نظري، فكانت تخشى تيّار الريح، لكنها لم تنقطع يوماً عن إثارة الزوابع. لقد عاشت على نفقة الآخرين، لكنها لم تدفع الضرائب إلا على مضض. أمّا أنا فقد كنت أمثّل الجانب الآخر لقشرتها الخارجية. وكلّما لعبت ورقة «الكوبة»؛ فإنها كانت تكسب دائماً. لكن عقب وفاة أمّي بهتت نوعاً ما ألسنة اللهب الحمراء على إطار طبلي، فازداد اللون أبيض بياضاً وأصبح حاداً تماماً، يغشي الأبصار حتى أن أوسكار كان يغمض عينه خوفاً من حدته.

لم تدفن أمّي المسكينة في مقبرة سازبه، مثلما عبّرت عن أمنيتها مرّات عديدة، بل في مقبرة برنتاو الصغيرة الهادئة، حيث رقد أيضاً جثمان زوج أمّها طحّان البارود غريغور كولياجك الذي توفي إثر إصابته بالأنفلونزا في العام السابع عشر. كان موكب التشييع كبيراً، يليق بجنازة امرأة محبوبة صاحبة متجر لبضائع المستعمرات، لكن لم تحضر فيه وجوه الزبائن المترددين دائماً على المتجر، بل الممثلين التجاريين لمختلف الشركات، وحضر المنافسون أيضاً من أمثال هاينرش تاجر بضائع المستعمرات والسيّدة بروبست صاحبة محلّ المواد الغذائية في هيرتا شتراسه، فلم تستوعب الكنيسة الصغيرة التابعة للمقبرة ذلك الجمع الغفير من المشيعين، فتصاعدت رائحة الزهور وثياب الحداد المعفرة بمبيدات العثّة.

في التابوت أظهرت أمّي المسكينة وجهاً أصفر مكدودا. وخلال مراسيم التشييع المعقدة كلها خامرني إحساس ملحّ بأن رأسها سينتفض فوراً، وستضطر إلى التقيؤ ثانيةً؛ إذ أنها مازالت تحمل شيئاً ما في بدنها يريد الخروج: ليس فقط الجنين ذو الأشهر الثلاثة الذي كان يجهل - شأنه

شأن أوسكار إلى أي أبّ عليه أن يدين بالشكر والامتنان -، ليس فقط الجنين وحده أراد الخروج ليطالب بطبل مثل طبل أوسكار، إنما السمك أيضاً الذي لم يبق منه حتى سمكة رنجة واحدة، ناهيك عن السمك المفلطح، أعني أيّ قطعة من الحنكليس، أو خيوط مخاطية بيضاء من لحم الحنكليس، أو من سمك المعركة البحرية في سكاغيراك، أو سمكة ثعبان من سدّة المرفأ في نويفافاسر، أو من الجمعة الحزينة، أو سمكة قفزت من رأس الحصان، أو من جسد أبيها يوسف كولياجك الذي تزحزح تحت الناقلة، فصار من نصيب الحنكليس؛ حنكليساً من حنكليسك؛ إذ أن الحنكليس يستحيل حنكليسا...

بيد أنهها لم تكن راغبة في التقيؤ، فاحتفظت به في أعماقها، حملته معها، عازمة على دفن السمك تحت التراب، لتعمّ السكينة في آخر المطاف. حين همّ الرجال برفع غطاء التابوت ليطبقوه على وجه أمّي المسكينة المشمئز المليء بالعزيمة والإصرار، ارتمت آنا كولياجك بين أذرع الرجال، ثم ألقت نفسها على جثمان ابنتها، ساحقةً على الزهور أمام التابوت، ثم أخذت تنتحب وتجذب أطراف الكفن الأبيض الثمين وتولول باللغة الكاشوبية.

كثيرون ادعوا فيما بعد أنها شتمت أبي المفترض ماتسرات، ناعتةً إيّاه بقاتل ابنتها. وقيل إنها أتت على ذكر سقوطي من سلّم القبو. لقد تلقفت الأسطورة عن أمّي، فلم تتح لماتسرات قطّ نسيان ذنبه المزعوم في مصيبتي المزعومة. فكانت تكيل له الاتهامات، على الرغم من أن ماتسرات كان يكنّ لها احتراماً بالغاً، لكنه انطوى على مضض إلى حدّ ما، بغض النظر عن كلّ ما يتعلق بالسياسة، فكان يزودها خلال أعوام الحرب بالسكّر والعسل الاصطناعي والقهوة والنفط.

وأبعدَ بائع الخضر ويان برونسكي، الذي كان ينتحب بصوت أنثويّ حاد، جدّتي عن النعش؛ فتمكن الرجال من وضع الغطاء على التابوت، ثم افتعلوا الملامح التي يفتعلها حملة النعش دائماً عندما يرفعون التابوت. وللمرّة الأولى أعجبت بشكل التابوت، عندما سرت خلف ماتسرات في

مقدمة الموكب في مقبرة برنتاو شبه الريفية، بين صفّيّ القبور الممهدة على جانبي أشجار الدردار، وبصومعتها الصغيرة التي بدت مثل ملصقات معدة لتمثيلية مولد المسيح وبئرها العتيق وطيورها الصاخبة الشديدة الحيويّة. لقد واتتني فرص عديدة فيما بعد لأجعل بصري يسرح إلى ذلك الخشب البنّي الأسود المعدّ للغاية الأخيرة. كان تابوت أمّي أسود، وبدا أن خشبه كان يضيق على نحو هارمونيّ بديع كلّما أنحدر في اتجاه القدمين. فهل يوجد في العالم برمته قالب مثل هذا القالب يتطابق مع تفاصيل الإنسان الجسدية؟

فهل تتمتع الأسرة بهذا الانكماش التدريجي في النهاية المخصصة للقدمين؟ آن لمضاجعنا المألوفة التي نستخدمها بين وقت وآخر أن تتخذ هذا الشكل الانكماشيّ الواضح، الضيّق من القدمين. ولو عنّ لسيقاننا أن تنفرج؛ فإنها ستصطدم بهذه القاعدة الملمومة المخصصة للأطراف التي تضيق شيئاً فشيئاً نازلة من الجانب العريض للتابوت والذي يسع الرأس والكتفين والجذع، حتى تستدق قليلاً عند القدمين.

كان ماتسرات يسير مباشرة وراء الجنازة، حاملاً قبعته الأسطوانية بيده، باذلاً جهداً أثناء السير البطيء، لكي يمدّ ركبته باستقامة على الرغم من الألم الكبير. وكلما نظرت إلى قفاه شعرت بالحزن: إذ كنت أرى قحفة رأسه البارزة وخصلتي الشعر النافرتين اللتين برزتا من ياقته فارتطمتا بشعر رأسه.

لكن لماذا أخذتني الأمّ تروجنسكي من يدي بدلاً من غريتشن شفلر أو هدفغ برونسكي؟ كانت الأمّ تروجنسكي تقيم في الطابق الثاني من بنايتنا المؤجرة، ولم يكن لها اسم أوّل، فكان يقال لها في كلّ مكان الأمّ تروجنسكي.

لقد سار حضرة القسيس فيهنكه والشمّاس والبخور أمام النعش، فانزلق بصري من قفا ماتسرات إلى أقفية حملة النعش المليئة بالأخاديد طولاً وعرضاً. فقاومت لحظتها رغبة جامحة: إذ أن أوسكار أراد الركوب فوق التابوت ليطبل: ليس على الصفيح، إنما على غطاء التابوت أراد أوسكار أن يقرع بمضربيه، ثم همّ في اعتلائه حين حملوه وهم يترنحون؛

فبينما كان الآخرون يصلون وراء حضرة القسيس أراد أوسكار أن يطبل لهم. عندما أنزلوه في الحفرة بالحبال والألواح الخشبية، أراد أوسكار أن يتمالك نفسه فوق الخشب. وبينما كان القسيس يلقي موعظته وجرس القدّاس يقرع و البخور يتصاعد والماء المقدس يرشّ، أراد أوسكار أن يفرغ ما في جعبته على الخشب فيصمد متجلداً إلى ينزلوه بالحبل في الحفرة مع الصندوق. أراد أوسكار أن يدخل الحفرة مع أمّه والجنين. أن يبقى في الأسفل، بينما يبقى أهل الراحلة ينثرون التراب ملء أيديهم. لم يكن أوسكار راغباً في الصعود ثانية، إنما في الجلوس على الطرف الضيّق من التابوت، وفي التطبيل، وإذا كان من ممكناً فتحت التراب، حتى يتفتت مضرباه بيديه ويتفتت الخشب تحت الهراوتين وتتحلل أمّه ذائبة حبّاً به فيذوب هو حبّاً بها، ويتحلل كلّ واحد منها من أجل الآخر، فيعيد اللحم إلى الأرض وسكانها؛ وتمنى أوسكار أيضاً أن يطبل بكاحليه لغضاريف الجنين الهشّة، إن كان ذلك ممكناً ومسموحاً به.

بيد أنّ أحداً لم يجلس فوق التابوت، فظلّ يتمايل منفرداً بين أشجار الدردار والصفصاف في مقبرة برنتاو، حيث نقرت دجاجات الشمّاس الزاهية الألوان الديدان، حاصدةً دون أن تبذرشيئا. ثم وصلنا أشجار البتولا، فسرت وراء ماتسرات، ممسكاً بيد الأم تروجنسكي وقد سارت جدّتي ورائي مباشرة يسندها غريف ويان، وأمسك فنسنت برونسكي بذراع هدفغ، وسار شتيفان ومارغا الصغيرة يداً بيد أمام آل شفلر. ثم لحق بهم الساعاتي لاوبشاد والشيخ هايلاند ماين، عازف البوق، لكنه جاء بدون آلته النحاسية، فبدا بالإضافة إلى ذلك صاحياً تقريبا.

بعدما انتهى كلّ شيء وبدأ المشيعون يقدمون التعازي لاحظت زيغسموند ماركوس. انظمّ، أسود الثياب مضطرباً، إلى أولئك الذين ناولوا أيديهم لماتسرات ولي ولجدّتي وآل برونسكي، متمتمين بشيء ما. في البدء لم أفقه ما طلبه ألكسندر شفلر من ماركوس؛ إذ أنهما لم يعرفا بعضهما على نحو كاف، هذا إذا كانا يعرفان بعضهما أصلاً؛ ثم تحدث الموسيقي ماين أيضاً إلى تاجر ألعاب الأطفال. كانوا يقفون عند سياج

مشجّر منخفض، أحراشه خضراء مرّة الطعم، تصبغ اليدين إذا ما فركها المرء بأصابعه. ولم تتخلف السيدة كاتر وابنتها زوزي التي كانت تداري ضحكتها وراء منديل صغير، البنت التي طالت قامتها بسرعة خارقة، عن تحسس رأسي بعد أن قدمتا التعازي. وخلف السياج ارتفع اللغط، لكنه ظلّ لغطاً غير مفهوم. فبدأ ماين، نافخ البوق، ينقر بسباته على بذلة ماركوس السوداء ودفعه أمامه، ثم أمسك بذراعه من اليسار، بينما تعلّق به شفلر من اليمين، واتخذ كلاهما الحذر لكي لا يتعثر ماركوس، المتراجع إلى الخلف، بإطارات القبور، ثم دفعا به إلى الممر الرئيسي المغروس بالأشجار، وأطلعا ماركوس على بّوابة المقبرة. بدا كما لو أن شكرهما على هذه الخدمة الإرشادية ومضى في اتجاه البوّابة، واضعاً القبعة الأسطوانية على رأسه، ولم يلتفت إلى الخلف، على الرغم من أن ماين والفرّان كانا يراقبانه. لكن ماتسرات أو الأم تروجنسكي لم يلحظا بأنني تنصلت عنهما، متجاهلاً تعازيهما. فتظاهر أوسكار بأنه أراد أن يتبول، ثم تملص منسحباً إلى الوراء، مارّاً بحفّار القبور ومعاونه ثم حثّ خطاه، غير عابئ باللبلاب، حتى بلغ أشجار الدردار ومن ثم ماركوس أيضاً قبل بوّابة الخروج. فقال ماركوس متعجباً: «آه يا أوسكار الصغير؛ قلّ لي ما هذا الذي فعلوه بماركوس؟ فما الذي فعله لكي يعاملونه بهذا الأسلوب؟»

كنت في الواقع لا أعرف ما الذي فعله ماركوس، فتناولت يده المبللة بالعرق، وقدته عبر باب حديدي مفتوح من أبواب المقبرة، فالتقينا، أنا الطبّال وحامي طبلي، الذي كنت ربما طبالاً له، التقينا بشوغر ليو المؤمن بالجنّة مثلنا.

كان ماركوس يعرف ليو؛ إذ أن ليو كان شخصاً معروفاً في المدينة. وكنت سمعت عن ليو وأدركت بأن الكون والقرابين المقدسة والمذاهب والسماوات والجحيم والحياة والممات قد تخلخلت ذات يوم مشرق فتزحزحت تماماً عن مواقعها بنظر ليو الذي كان طالباً في كلّية اللاّهوت، ومنذ ذلك اليوم تزحزحت في الحقيقة صورة الكون في ذهنه، لكنها، على الرغم من كلّ شيء، ازدادت جلاءً وبريقا.

كانت وظيفة ليو - الذي لا تفوته أي محاولة للتنصل والانسحاب - والذي كان متلفعاً برداء أسود لامع خفّاق، مرتدياً قفّازاً أبيض، تقتصر على انتظار المشيعين. ففهمنا، ماركوس وأنا، بأن ليو كان موجوداً هنا أمام الباب الحديديّ بحكم وظيفته، منتصباً بقفّازه المثابر على تقديم التعازي وعينيه الزائغتين الفاتحتين مثل لون الماء وفمه المليء دوماً باللعاب، بحيث كان يقذف بالرذاذ في وجه المشيعين.

منتصف مايو: يوم مشرق شديد الصفاء. أحراش وأشجار مأهولة بالطيور. دجاج ينقّ مشكّلاً رمزاً للخلود من خلال بيضه وبه معاً، وثمة طنين في الهواء. فيا لها من خضرة يانعة لا غبار عليها. كان شوغر ليو يحمل قبعته الأسطوانية الناصلةَ اللون في شماله ذات القفّاز، فأقبل يتهادى نحونا، متراقصاً؛ لأنه كان فعلاً شخصاً حلّت به البركة، مفرداً أصابعه الخمسة المضمومة في القفّاز العفن، فوقف أمامنا بشكل مائل، كما لو أن ريحاً شديدة تجاذبته، على الرغم من السكون، ثم مال برأسه، مطلقاً لعابه، فسال خيوطاً حين مدّ له ماركوس يده العارية بتردد في البدء، ومن ثمة بعزم، داسّاً إيّاها في القماش المتأهب للشدّ والقبض: «يا له من يوم رائع. هاهي قد انتقلت إلى هناك، حيث يكون كلّ شيء زهيدا. هل رأيتما الربّ؟ Habemus ad Dominum. لقد مرّ الربّ من هنا، لكنه كان على عجلة من أمره. آمين.» فقلنا آمين وأكد ماركوس لليو روعة النهار، مدعياً أنه أبصر الربّ أيضاً.

سمعنا موكب التشييع في المقبرة يتصاعد لغطه مقترباً منّا. فترك ماركوس يده تنزلق من قفّاز ليو، إلا أنه وجد متسعاً من الوقت لينقده ببقشيش، ثم رمقني بنظرة ماركوسية قبل أن يعاجل في الخروج، مندفعاً نحو سيارة الأجرة التي كانت تنظره قبالة بريد برنتاو. فلمّا تعقبت زوبعة الغبار التي أطبقت على ماركوس المختفي أمسكت الأمّ تروجنسكي بيدي من جديد. وجاء المشيعون جماعاتٍ صغيرة وكبيرة؛ فقدم إليهم ليو تعازيه، لافتاً انتباههم إلى النهار الرائع، ثم سأل كل واحد منهم عما إذا رأى الربّ، ليتلقى مقابل ذلك، كما هو مألوف، بقشيشاً صغيراً أو كبيراً

أو لم يتلق شيئا. وقام ماتسرات ويان برونسكي بتسديد أجور الحمّالين والدفّان والشمّاس وحضرة القسيس فيهنكه، الذي ترك، باضطراب وحسرة، شوغر ليو يقبل يده، ثم أخذ حضرته يوزع البركات على موكب التشييع المتفرق ببطء.

وأخذنا أماكننا، أنا وجدتي وشقيقها فنسنت وآل برونسكي مع أطفالهم وغريف بدون زوجته وغريتشن شفلر، في عربتين ربطت إليهما الحصن بطريقة عمليه بسيطة؛ ثمّ اجتزنا غولدكروغ، مخترقين الغابة، مروراً بالحدود البولندية بالقرب من بيساو-أبّاو لكي نتناول وليمة الجنازة.

كان بيت فنسنت الريفي يقع في وهدة، حيث انتصبت أمامه أشجار حور، كان من شأنها أن تصرف عنه البرق. رفعوا بوّابة مخزن الحبوب من رزّاتها ثم طرحوها على حوامل خشبية، وفرشوا فوقه الشراشف، وقد التحق بهم نفر من الجيران. استغرق تحضير الطعام وقتاً كالعادة، فتناولناه في مدخل المخزن. كانت غريتشن شفلر قد وضعتني في حضنها. كان الطعام دسماً، أعقبته الحلوى، ثم جاء دور الدسم مرة ثانية، فعَرق البطاطس، فالبيرة، ومن ثم بطّة مشوية وفرخ خنزير، والكعك الذي لحق به السجق، فالقرع المخلل والمحلّى بالسكّر، فالجريش الأحمر بالقشدة الحامضة، ثم هبّت الريح مساءً عبر صومعة الحبوب المفتوحة، فانطلقت الفئران وأبناء برونسكي أيضاً الذي احتلوا فناء البيت مع أطفال الجيران. بعد ذلك قدمت أوراق اللعب إلى الطاولة برفقة فوانيس الزيت؛ بيد أن عرق البطاطس ظلّ منتصباً فوق الطاولة. كانت ثمة خمرة بيض معمولة منزلياً، تجعل المرء مرحاً، لكن غريف، الذي لم يحتس عرقاً، طفق يغنّي، ففعل الكاشوبيون مثله. وكان ماتسرات أوّل من وزّع الورق، فتبعه يان فالعامل في مصنع القرميد. والآن تذكرت بأن أمّي المسكينة كانت غائبة. لعبوا الورق حتى حلّ ظلام الليل. بيد أن أحداً من الرجال لم يفلح في الحصول على ورقة «قلب-كوبه». بعدما خسر يان برونسكي ورقة «قلب-كوبه» على نحو غير مفهوم، سمعته يهمس إلى ماتسرات: «لو كانت آغنس هنا لكسبت اللعبة بالتأكيد.»

حينئذ انزلقت من حضن غريتشن شفلر، وعثرت على جدتي في الخارج إلى جانب شقيقها فنسنت. كانا يجلسان على ذراع العربة، وكان فنسنت يناجي النجوم بصوت خافت باللغة البولندية، وبدت جدتي عاجزة عن البكاء، إلا أنها سمحت لي بالدخول تحت أثوابها.

فمن ذا الذي سيضمني بعد اليوم تحت ثيابه؟ ومن الذي سيطفأ لي ضوء النهار والمصابيح؟ ومن ذا الذي سيهبني رائحة ذلك الزبد الأصفر الذائب الفاسد بعض الشيء، الذي كانت جدّتي تغذيني منه، وهي تكدسه تحت أثوابها، أو تخزنه، وتزودنني به زماناً، لكي ازداد حجماً، وأستطيب مذاقه. وكنت قد غفوت تحت الأثواب الأربعة، قريباً تماماً من بدايات أمّي المسكينة، حيث كنت أنعم بالسكينة، لكن ليس بأنفاس مقطوعة مثلها في تابوتها الضيّق من القدمين.

ظهر هربرت تروجنسكي

ليس هناك ما يعوّض عن الأمّ، كما يقال. فكان عليّ أن أتعرف على فقدان أمّي المسكينة بعد فترة قصيرة من مراسيم الدفن، إذ وألغيت زيارات زيغسموند ماركوس في أيّام الخميس، فلم يعد هناك من يأخذني إلى رداء المضمدة إنغا المهني الناصع البياض، بل كانت أيّام الآحاد تجعل موت أميّ مؤلماً بشكل خاص: لأن أمّي انقطعت عن الذهاب إلى الكنيسة، لتكفّر عن ذنوبها.

لقد حُرمت من المدينة القديمة ومن عيادة الدكتور هولاتس وكنيسة-قلب-يسوع. فكيف يتسنى لي أن أغرر بالمارة أمام واجهات المحلاّت، لاسيما أن مهنة الموسوس أوسكار باتت بلا طعم ولا إثارة؟ فليس هناك أمّ تصحبني معها إلى المسرح البلدي لمشاهدة حكايات عيد الميلاد، وإلى سيرك «كرونة» أو «بوش». أصبحت أتابع بمفردي دراساتي بانتظام، وإن بتذمر في الوقت ذاته، أجوب شوارع الضواحي المستقيمة بضجر في طريقي إلى كلاينهامرفيغ، حيث كنت أزور غريتشن شفلر التي حدثتني عن رحلات شركة «ك. د. ف» إلى البلاد التي تشرق فيها الشمس منتصف الليل، في حين تشبثت بعقد المقارنات بلا كلل بين غوته وراسبوتين، دون أن أصل إلى نهاية، فكنت أنسحب من هذه الدوّامة المعتمة المشرقة في آن، منزوياً على الأغلب في الكتب التاريخية: الصراع حول روما، حكاية القيصر عن مدينة غدانسك، تقويم كولر الخاص بالأساطيل، فكانت مراجعي العتيقة تهبُني جزءاً من معرفة كونية شاملة. وهكذا فأنني مازلت إلى اليوم في وضع يتيح لي أن أزودكم بمعلومات دقيقة عن قوّة المدرعات

وتجهيزات البوارج بالمدافع الإضافية، أو تدشين السفن، أو عملية التصنيع، أو عدد جنود البحرية على السفن التي خاضت المعركة البحرية في سكاغراك، فتمّ إغراقها هناك أو أصيبت بأضرار.

كنت أشرفت آنذاك على بلوغ الرابعة عشرة، وعلى حبّ العزلة والتجوال الكثير. فصار طبلي يرافقني، لكنني أصبحت مقتصداً، إذ أن تزويدي بالطبول في الوقت المناسب أضحى أمراً مشكوكاً فيه بعد رحيل أمّي، وبقي كذلك أيضاً. فهل حدث ذلك في خريف العام السابع والثلاثين أو في ربيع العام الثامن والثلاثين؟ على أية حال كنت أحثّ خطاي في شارع هندنبورغ المشجّر في اتجاه المدينة، فوجدت نفسي على مقربة من مقهى الفصول الأربعة. كانت الأوراق تتساقط، أو لعلّ البراعم كانت تتفتح، على أية حال، كان هناك شيء ما يعتمل في الطبيعة. وهناك بالتحديد التقيت بصديقي المعلّم بيبرا الذي كان ينحدر مباشرةً من صلب الأمير أويغن، أي من نسب لودفيغ الرابع عشر.

لم نكن قد رأينا بعضنا منذ ثلاثة أعوام، ومع ذلك تعرفنا على بعضنا على مسافة عشرين خطوة. لم يكن بيبرا بمفرده، بل تأبط فاتنة جنوبية الملامح، رقيقة، كانت أقصر منه ربما بإصبعين، وأكبر منّي بثلاثة أصابع، فقدمها لي باسم روزفيتا راغونا، أشهر «سرنمية» في إيطاليا. ثم دعاني إلى تناول فنجان قهوة في مقهى الفصول الأربعة. وجلسنا إلى حوض أسماك الزينة، وبدأت عجائز المقاهي يهمسن على الفور: «انظري الأقزام يا ليزا، هل رأيتهم من قبل؟ وهل تعتقدين أنهم سيظهرون على مسرح كرونة؟ يجب أن نذهب إلى هناك إن أمكن ذلك!»

فابتسم لي بيبرا، مظهراً آلاف التجاعيد الرقيقة، غير المرئية إلى حد ما. كان نادل المقهى الذي جلب لنا القهوة طويل القامة جدّاً؛ فعندما أوصت السيّدة روزفيتا على قطعة كيك نظرت إلى الرجل المتلفع بلباس النُدُل، وكأنها تنظر إلى برج.

قال بيبرا وهو يراقبني: «يبدو أن وضعه سيئ؛ صاحبنا هذا قاتل الزجاج. ماذا بك يا صاحبي؟ هل أن الزجاج لم يعد راغباً، أم أن عجزاً

أصاب الصوت؟» فأراد أوسكار أن يقدم فوراً عينة من فنّه الذي لن يذوي أبداً، وهو مفعم بروح الفتوة والعنفوان. فتطلعت من حولي باحثاً عن شيء ما، فثبّت بصري على السطح الزجاجي أمام أسماك الزينة والنبات المائي في الحوض؛ عندئذ نطق بيبرا قبل أن أطلق صوتي: «أليس صحيحاً يا صاحبي؟! إننا نصدقك هكذا أيضاً. أرجوك بلا تخريب ولا فيضانات ولا قتل أسماك!» فاعتذرت بخجل إلى السنيورة روزفيتا قبل كلّ شيء، والتي أخرجت مروحة مطوية مزينة بمنمنمات وأخذت تروّح بانفعال.

وحاولت أن أوضح رأيي: «لقد رحلت أمّي. كان عليها أنّ لا تفعل ذلك. إنني مستاء من تصرفها هذا. الناس يدعون دائماً: أن الأمّ تلاحظ كلّ شيء فتشعر بكل شيء وتغفر كلّ شيء، لكن هذه مجرد أقوال تردد في عيد الأمّ! كانت ترى فيّ قزماً، فكانت تتمنى التخلص من القزم لو أنها استطاعت ذلك. لكننها لم تتخلص منّي، لأنّ الأطفال، حتى لو كانوا أقزاماً، مسجلين في الأوراق الرسمية، بحيث لا يمكن التخلص منهم بسهولة. ولأنني كنت قزمها، فإنها، في حالة تخلصها منّي، ستتخلص من نفسها أيضاً. لقد سألت نفسها إمّا أنا أو القزم، بيد أنها حسمت الأمر مع نفسها، فلم تعد تأكل شيئاً آخر سوى السمك، بل كانت تلتهم السمك غير الطازج أيضاً، ثم ودّعت عشاقها. والآن، حيث رقدت في مقبرة برنتاو؛ فإن عشّاقها وزبائن دكّانها يقولون: إن القزم هو الذي شيعها إلى القبر بالتطبيل. وبسبب أوسكار الصغير؛ فإنها لم تعد راغبة في مواصلة الحياة؛ لقد قتلها القزم!»

كنت أغالي في المبالغة، إذ أنني أردت أن أوقع تأثيراً في نفس السنيورة روزفيتا، في الحقيقة كان معظم الناس قد ألقى مسؤولية وفاة أمّي على عاتق ماتسرات، بل على عاتق يان بدرجة خاصة. لكن بيبرا تمكن من كشف سرّي، فقال: «إنك تبالغ يا عزيزي. إنك وبفعل الغيرة وحدها ناقم على والدتك الراحلة؛ لأنها لم تذهب إلى القبر من أجلك، إنما من أجل عشاقها المُتعِبين؛ فشعرتَ بالظلم والخذلان. إنك في الحقيقة مغرور وخبيث مثلما هم العباقرة دائماً!» ثم أضاف بعدما قذف بحسرة مصحوبة

بنظرة جانبية إلى السنيورة روزفيتا: «ليس من السهل البقاء صابرين ضمن حجمنا؛ فأي مهمة صعبة، وأي مهنة هذه حين نتصرف بإنسانية على الرغم من توقف نمونا الخارجي!»

وبدأت روزفيتا راغونا، السرنمية النابولية ذات الأديم الناعم والمجعّد بالقدر نفسه، التي خمنت عمرها بثمانية عشر ربيعاً - لكن معجبتي بدت لي بعد برهة قصيرة عجوزاً بسنّ الثمانين أو التسعين حتّى - بدأت تداعب السيّد بيبرا ببذلته الإنجليزية الأنيقة المفصلة على قياسه، ثمّ رمقتني بنظرة من عينيها الإيطاليتين المستديرتين كالكرز الأسود، قائلة بصوتها العميق المبشر بالخير والثمار، صوتها الذي جعلني منفعلاً مسحوراً: «يا أوسكارنيللو العزيز، آه، إنني أفهمه جيّداً، إنه الألم! دعونا نرحل! تعال معنا: ميلانو، باراجي، توليدو، غواتيمالا!»

فكاد الدوار يجتاحني، لكنني أمسكت باليد الفتية الهرمة، فباتت أمواج البحر المتوسط تتلاطم على ساحلي، وأشجار الزيتون تهمس في أذني: «روزفيتا ستكون مثل أمّك، وستفهمك روزفيتا، هذه السرنمية العظيمة التي تسبر أغوار كلّ شيء، فتدركه، ماعدا نفسها، فيا للعجب! ماعدا نفسها وحدها، يا إلهي!»

ومما أثار دهشتي هو أن السيّدة راغونا سحبت يدها فجأة برعب حالما أوشكت على اكتشافي من الداخل وسبر أغواري بنظرتها السرنمية. فهل أفزعها قلبي الجائع ذو الأربعة عشر ربيعاً؟ أم أتضح لها بأن روزفيتا، سواء أكانت فتاةً أو عجوزاً، عنتني فقط بصفتها روزفيتا؟ كانت تهمس باللهجة النابولية، وترتجف، وترسم علامة الصليب باستمرار، كما لو أن المخاوف التي قرأتها في أعماقي لم تتوقف، ثم اختفت وراء مروحتها اليدوية. فطلبت تفسيراً بعدما تناهبني القلق، متوسلاً بالسيّد بيبرا أن يقول كلمة. بيد أنّ بيبرا نفسه فقد السيطرة على نفسه على الرغم من انحداره المباشر من صلب الأمير أويغن، فصار يتلعثم قبل أن أفهم منه في الأخير قوله: «إن عبقريتك يا صديقي الشاب، عبقريتك الإلهية، والشيطانية أيضاً بكل تأكيد، قد أوقعت عزيزتي روزفيتا الطيبة القلب باضطراب، وكذلك

أنا يجب أن أعترف بأن إسرافك ومبالغاتك المتفجرة على نحو فجائي غريبة بالنسبة لي، حتى لو كانت مفهومة بعض الشيء، لكن الأمر سيّان.»
ثمّ تابع بعد أنّ استجمع قواه ثانية: «فمهما كانت طبيعتك بإمكانك أنّ تلتحق بنا، لتساهم بالاستعراضات السحرية لمسرح بيبرا. فبشيء من ضبط النفس والتقيّد سيكون باستطاعتك أن تعثر على جمهور حتى في ظل الظروف السياسية السائدة هذه الأيّام.»

وعلى الفور أصبحت مدركاً بأن بيبرا الذي نصحني بالوقوف أبداً على المنصة وليس أمامها انحدر هو نفسه إلى أوساط عموم الشعب، حتى لو أنه لم يزل يظهر على حلبة السيرك. فهو لم يشعر بخيبة أملّ عندما رفضت عرضة بلطف. فتنفست السنيورة الصعداء بصوت ارتفع خلف مروحتها، ثم كشفت لي من جديد عن عينيها الجنوبيتين المتوسطيتين.

وثرثرنا سويعةً أخرى، وطلبت من النادل أن يحضر لي قدح ماء زجاجي فارغ، ففتحت في الزجاج قلباً بصوتي، وخطيّت تحت بشكل نصف دائري مزخرف نقشاً: «من أوسكار إلى روزفيتا»، ثم أهديتها القدح، مدخلاً الفرح إلى قلبها، فدفع بيبرا الحساب، مكثراً من البقشيش، قبل أن ننصرف.

رافقني كلاهما إلى قاعة الرياضة، فأشرت بمضرب الطبل نحو المنصّة الخالية في الطرف الآخر من حدائق مايو، ثم - الآن تذكرت أن ذلك حدث في ربيع العام الثامن والثلاثين - تحدثت إلى معلّمي بيبرا عن سيرتي كطبّال تحت المنصّات. فابتسم بيبرا ابتسامة حائرة، وأظهرت راغونا وجهاً متجهماً صارماً. وعندما انحرفت السنيورة مبتعدة بضع خطوات إلى الجانب همس بيبرا في أذني وهو يودعني: «لقد تخاذلت يا صديقي العزيز، فكيف يمكن أن أستمر بصفتي معلّماً لك؟ فيا لها من سياسة قذرة!» ثم قبّلني على جبيني مثلما فعل قبل أعوام بين عربات النوم التابعة للسيرك، أمّا السيّدة روزفيتا فقد ناولتني يداً كالخزف الصينيّ، فانحنيت أمام أصابع السرنمية بأدب انطوى على تمرّس إلى حدّ ما أكثر مما يمكن أن يفعله فتى في الرابعة عشرة.

فلّوح بيبرا بيده وهتف: «سنرى بعضنا مرّة أخرى يا ولدي، ومهما تقلبت الأزمان، فإن الناس من أمثالنا لا تنقطع آثارهم.» وحذرتني السنيورة بالقول: «سامح والديك واغفر لهما! عوّد نفسك على حياتك نفسها لكي يطمئن قلبك ولكي يحصد الشيطان الخيبة.»

بدا لي كما لو أن السنيورة عمدتني من جديد، لكن بلا جدوى، قائلة: ابتعد أيها الشيطان، ابتعد، بيد أنه لم يتزحزح من مكانه. فشيعتهما بحزن وبقلب مقفر، ثم لوّحت لهما بيدي عندما استقلا تكسيّاً، حيث اختفيا فجأة؛ إذ أن سيارة «الفورد» كان مصممةً للكبار، فبدت فارغةً تبحث عن ركّاب عندما انطلقت بصاحبيّ.

كنت حاولت في الواقع أن أدفع ماتسرات لعلّه يذهب إلى سيرك كرونة، لكن ماتسرات لم يستجب، لأنه كان غارقاً في الحزن على أمّي المسكينة التي لم يكن قد استحوذ عليها في حياتها بشكل كامل. لكن من ذا الذي استحوذ على أمّي بالكامل؟ حتى يان برونسكي لم يتحقق له ذلك؛ على أية حال، أنا، أوسكار، الذي عانى كثيراً إثر فقدانها، بحيث نغّص عليه حياته اليومية، بل وضعها موضع التساؤل. لقد خدعتني أمّي، إذ لم يعد هناك ما يمكن انتظاره من ناحية أبويّ؛ أمّا بيبرا فقد وجد في وزير الدعاية غوبلز معلّماً له، وغريتشن شفلر التحقت بجمعية «معونة الشتاء». كانوا يقولون: يجب أن لا يجوع أحد ولا يموت من البرد. فتمسكت بطبلي وأصبحت منقطعاً، منعزلاً تماماً فوق الصفيح الذي كان أبيض ذات يوم فصار رقيقاً بفعل التطبيل. في المساء كنّا، أنا وماتسرات، نجلس متقابلين. كان يقلّب بكتب الطهي وأنا كنت أشكو همّي إلى آلتي. أحياناً كان ماتسرات يبكي فيخفي وجهه في كتب الطهي. وأصبحت زيارات يان برونسكي نادرة على الدوام. وفيما يتعلق بالسياسة بدا الرجلان متفقين على الرأي بأن من الضروري الالتزام بالحيطة والحذر؛ إذ أن المرء لا يعلم في أي اتجاه ستسير الأمور. وصارت جلسات لعب الورق، التي كانت تضم ثلاثة رجال بالتناوب، قليلة، متناقصةً باستمرار، وإذا ما نُظمت، ففي ساعة متأخرة من المساء، فيتجنب المشاركون الخوض في

المواضيع السياسية؛ كانت جولات اللعب تلك تنظم في غرفة الجلوس تحت المصباح المعلّق. واتضح أن جدّتي آنا لم تعد تعثر على الطريق من بيساو إلى بيتنا في لابسفيغ. كانت غاضبة، ساخطة على ماتسرات، وربما عليّ أيضاً، إذ سمعتها تقول ذات مرّة: «إن ابنتي آغنس ماتت؛ لأنها لم تتحمّل التطبيل.»

وعلى الرغم من أن طبلي المهان تحمّل الذنب في موت أمّي، إلا أنني تشبثت به بقوّة، إذ أنه لم يمت مثلما ماتت الأم، إنما يمكن شراء مثله من جديد، أو إصلاحه عطبه لدى العجوز هايلاند أو الساعاتي لاوبشاد؛ فكان يفهمني، ويعطي دائما الإجابة الصحيحة، ويتمسك بي مثلما تمسكت به.

وإذا ما ضاقت بي الدار أو بدت الشوارع قصيرة أو طويلة بالنسبة لأعوامي الأربعة عشرة، وإذا لم تتح لي في النهار فرصة لألعب دور الموسوس أمام واجهات المحلاّت، أو حين لا يكون الإغراء ملحّاً بما يكفي في المساء، لكي أتقمص دور الموسوس الجدير بالاحترام في ممرات البيوت المعتمة؛ فإنني كنت أدكّ بقدمي على نحو إيقاعي منتظم، صاعداً السلالم الأربعة، محصياً درجاتها المائة وست عشرة، متوقفاً في كلّ طابق، فأشمّ الروائح المنبعثة من أبواب البيوت الخمسة في كلّ طابق؛ إذ أن الروائح كانت تشعر مثلي بالضيق من البيوت ذات الغرفتين ونصف الغرفة.

في البدء كنت أحظى بين الحين والآخر بلقاء ممتع مع نافخ البوق ماين الذي كان يضجع على الشراشف فوق سطح البناية المخصص لتجفيف الغسيل، مخموراً تماماً، وينفخ بالبوق ألحاناً موسيقية مدهشة، يستأنس بها طبلي ويتلهى. وفي مايو من العام الثامن والثلاثين أقلع عن شرب الخمر، مصرّحاً أمام الناس كلّهم بالقول: "إنني سأبدأ حياةً جديدة!" فأصبح عضواً في الجوقة الموسيقية لفرقة الخيّالة التابعة لقوّات الصاعقة. وذات يوم رأيته بالجزمة الحربية وبمؤخرته المكسوة بالجلد، صاحياً تماماً، يقفز على السلّم خمس درجات دفعةً واحدة. بيد أنه ظل

محتفظاً بقططه الأربع التي أطلق على واحدة منها اسم بيسمارك، إذ كان من المرجح أنّ ينتصر خمرُ العرعر في هذا اليوم أو ذاك، فيجعله ذا حسّاً موسيقياً مرّة ثانية.

وصرت نادراً ما أقرع باب الساعاتي لاوبشاد، الرجل الصموت بين مئات الساعات الصاخبة. كنت على أية حال أتحمل التفريط بذلك الوقت الميّت مرّة واحدة في الشهر.

كان العجوز هايلاند يحتفظ بحجرته الصغيرة في فناء البناية، ومازال يقوّم المسامير المعوجة. وثمّة هناك أيضاً أرانب، وأرنب من الأرانب مثلما في الأزمان القديمة، بيد أنّ الأطفال في الفناء الخارجي قد تغيّروا، فصاروا في الوقت الحاضر يرتدون الأزياء الموحدة والأربطة السوداء، وتوقفوا عن طهي حساء القرميد. إن هذا الذي أراه ينموا يافعاً، مشرفاً عليّ بقامته السامقة، لا أعرفه بعد بالاسم. فهو جيل آخر، خلّف المدرسة ورائه، ودخل في مرحلة التعليم المهني: نوجي آيكه أصبح حلاّقاً؛ واكسل ميشكه أراد أن يشتغل لحّاماً في شيشاو، و زوزي كاتر كانت تتدرب على مهنة بائعة في متجر شتيرنفيلد، وأصبح لها صديق ثابت. فكيف تغيّرت الأشياء كلّها خلال ثلاثة أو أربعة أعوام؟ صحيح أن القضبان القديمة لنفض البسط مازالت قائمة، وأن نظام الدار مازال معمولاً به: كانت البسط تنفض في يومي الثلاثاء والجمعة؛ بيد أن النفض نفسه بات متفرقاً جدّاً، وإن تمّ فيبدو متردداً في هذه الأيّام: فمنذ استيلاء هتلر على السلطة كثُرت مصاصات الغبار الكهربائية في المنازل، وازدادت بالقدر نفسه عزلة قضبان النفض، فأصبحت لا تخدم إلا العصافير.

وهكذا خلت لي ردهة السلّم الخارجية في البناية وسطح التجفيف، فصرت أتابع مطالعاتي العتيدة تحت آجر السقف المتموج. وفي ردهة السلّم كنت أقرع أوّل باب في الطابق الثاني إذا ما اشتقت إلى رؤية إنسان. كانت الأم تروجنسكي تفتح لي الباب دوماً، فمنذ أن أمسكت بيدي في مقبرة برنتاو حيث قادتني إلى قبر أمّي فإنها لم تنفك من فتح الباب كلّما مسّه أوسكار بمضربيه.

«لا تطبل عالياً هكذا يا أوسكار، هربرت يحتاج إلى شوية نوم، لأنه قضّى ليلة صعبة، فجلبوه بالسيارة إلى البيت.» كانت تقول وتجذبني، لتصبّ لي القهوة المستخلصة من الشعير فتخلطها بالحليب، ثم تقدم لي قطعة من سكر القند، مربوطة بخيط، لأنقعها في القهوة وأمصها، فكنت احتسي القهوة وأمصّ سكّر القند وأترك طبلي يستريح.

كان للأم تروجنسكي رأس صغير مستدير، يحفّ به الشيب الرمادي الرقيق على نحو شفّاف، لدرجة أن فروة رأسها كانت تشعّ لوناً ورديا. وكانت شعيراتها المتفرقة تجنح إلى النقطة الناتئة في قحفتها، حيث تشكّل عقدة شعر، أصغر من كرة البليارد، يمكن رؤيتها من جميع الجهات، على الرغم من ضآلة حجمها، كلّما التفتت أو حركت رأسها. كانت ثمة إبر حياكة تمسك بالعقدة. كانت تدهن وجنتيها الكرويتين اللتين تبدوان كما ول أنّها مركبتين تركيباً على وجهها كلّما ضحكت، تدهنهما بورق الهندباء الأحمر الذي يترك فيهما صبغة؛ وكانت نظرتها تشبه نظرة الفأر. وأبناؤها الأربعة يسمون: هربرت وغوسته وفرتس وماريا. وكانت ماريا في مثل سنّي، وقد أنهت المدرسة الشعبية للتو وكانت تقيم وتواصل تدريبها على الشؤون المنزلية لدى عائلة موظفين في شدليتس، حيث أقامت. وفرتس الذي عمل في مصنع عربات القطار كان من النادر أن يراه أحد. كانت له علاقات متناوبة بفتاتين أو ثلاث، يمهدن له الفراش ويذهب معهن إلى «أوهرا» ليرقص معهن في مرقص «رايتبان».

وكان فرتس يربي الأرانب في فناء البناية، أرانب نمساوية النوع، بيد أن الأم تروجنسكي كانت تضطر للاعتناء بها؛ لأن فرتس كان منشغلاً جدّاً بصاحباته. أمّا غوسته الهادئة التي بلغت حوالي الثلاثين من العمر فقد كانت تشتغل ساقيةً في فندق «ايدن» عند محطة القطارات الرئيسية؛ كانت غير متزوجة، وتسكن في الطابق العلوي من فندق الدرجة الأولى، شأنها شأن عمّال الفندق كلّهم. وأخيراً هربرت الذي كان أكبرهم سنّاً، والوحيد الذي كان يقيم مع أمّه - إذا ما استثنينا مبيت الميكانيكي فرتس الذي لا يتم إلا في المناسبات. وقد عمل هربرت نادلاً في مرفأ ضاحية نويفارفاسر،

وعنه بالضبط سيكون الحديث هنا. إذ أن هربرت أصبح، ولفترة قصيرة بعد وفاة أمّي المسكينة، هدفاً للمساعي والجهود التي بذلتها آنذاك، ومازلت اعتبره إلى يومنا هذا صديقاً لي.

كان هربرت يخدم لدى «شتاربوش»، وهذا هو اسم صاحب حانة «تسوم شفيدن» الواقع قبالة كنيسة البحّارة البروتستانتية، فكان معظم روادها، مثلما يشير الاسم «تسوم شفيدن»، من الاسكندنافيين. ومع ذلك كان يأتي الروس والبولنديون من الميناء الحرّ وعمّال الشحن القادمين من هولم وبحّارة الرايخ الألماني الذين كانوا يقومون بزيارات فترسو سفنهم الحربية في غدانسك. لم تكن الخدمة في تلك الحانة، الأوروبية فعلاً، خاليةً من المخاطر. فالخبرة التي جمعها في مرقص «رايتبان أوهرا» - اشتغل هربرت فترة في ذلك المرقص المتواضع قبل أن ينتقل إلى «فارفاسر» - جعلته آهلاً للسيطرة على الفوضى اللغوية الضاربة أطنابها في حانة «شفيدن» من خلال لهجته الألمانية المحلية المطعمة بالإنجليزية وبقليل من المفردات البولندية. كانت هناك سيارة إسعاف تنقله إلى البيت مرّة أو مرتين في الشهر برغم إرادته. حينئذ كان يتوجب عليه الاستلقاء على بطنه، فيتنفس بصعوبة؛ إذ أنه كان يزن أكثر من قنطارين، ويثقل فراشه بضعة أيّام. فكانت الأم تروجنسكي تقذف في تلك الأيام بسيل لا ينقطع من الشتائم، في الوقت التي كانت تحرص فيه بلا كلل على الاعتناء به، ساحبة كلّ مرّة إبرة حياكة من عقدة شعرها، بعدما تجدد ضماداته، وتطعن الهواء في اتجاه صورة مؤطرة ومرتّشة عُلقت قبالة سريرة، تظهر رجلاً متهدل الشاربين ينظر إلى الأمام بجديّة وتخشّب. كان شاربه يشبه بعضاً من تلك الشوارب القاطنة في الصفحات الأولى من ألبوم الصور الذي كنت احتفظ به. ولم يكن ذلك السيّد الذي أشارت إليه الأم تروجنسكي بإبرة الحياكة أحد أفراد أسرتي، إنما والد هربرت وغوسته وفرتس وماريا.

كانت الأمّ تروجنسكي تلسع أذن هربرت المتأوّه والمتنفس بصعوبة بكلمات مثل: «ستنتهي مثل ما انتهى أبوك.» إلا أنها لم تنطق صراحة،

ولا لمرّة واحدة، كيف كانت نهاية ذلك الرجل الموضوع في إطار أسود لامع، أو على الأقل كيف بحث عن نهايته.

،أرادت الفأرة التي وخط الشيب شعرها أن تعلم وهي تشبك ذراعيها : «ما الذي حدث هذه المرّة؟» فأجاب هربرت وهو يتقلب ومن تحته السرير يطقطق «سويديين ونرويجيين كالعادة!»

«كالعادة دائماً! لا تقل هذا الهراء دائماً وكأن لا يوجد غير هؤلاء. في المرّة السابقة كانوا جماعة من سفينة الطلاب، ما هو اسمها؛ نعم؛ قل لي ما اسمها؛ من سفينة «شلاغيتر»، ماذا أقول لك أنا، وأنت تقول لي سويد ونرويج!»

فاصطبغت أذن هربرت - لم أستطع رؤية وجهه - بحمرة الغضب التي انتشرت حول صيوانها: «هؤلاء الحقراء الأوغاد، يرفعون عقيرتهم ويتظاهرون بالرجولة!»

«اتركهم، فهؤلاء الشبّان الصغار. لماذا تشغل نفسك بهم؟ عندما نراهم يتنزهون بالمدينة يبدون دائماً منتظمين ومرتبين. إمّا تحدثت لهم عن أفكارك حول لينين، أو دخّلت نفسك بحرب الأهالي في أسبانيا؟» لكنّ هربرت لم يجبها هذه المرّة، فانصرفت الأم تروجنسكي، مرتجفة الأطراف إلى قهوتها في المطبخ.

كان يتاح لي معاينة ظهر هربرت حالما يتماثل للشفاء، فيرتخي على كرسي المطبخ، ويدع حمالات سرواله تسقط على فخذه الملفوفة بسروال أزرق، ثم يخلع قميصه الصوف ببطء، كما لو أن أفكاراً معقدةً جعلته متردداً. كان ظهره مستديراً، متحركاً بحيوية. فيا له من مشهد ورديّ موشّى بالنمش! أسفل عظام الكتف نما شعر كثيف على جانبي العمود الفقري المطمور بين الشحم، ثم كان الشعر يبدأ بالتجعد هابطاً نحو الأسفل إلى أن يختفي في سروال هربرت الداخلي الذي كان يرتديه في الصيف أيضا. وكانت الندب الغليظة،العديدة الألوان، المتدرجة من الأسود الضارب إلى الزرقة حتى اللون الأبيض المخضر، والتي غطّت ظهره من حافة السروال الداخلي إلى شارين الرقبة، فأطبقت على النمش

حتى أوقفت الشعر عن النمو بنتوئها، مولدةً التجاعيد والحكّة أثناء تقلبات الجوّ؛ هذه الندب بالذات كان مسموحاً لي بأن ألمسها. فأي شيء مسكته أنا الراقد في فراشي والمتطلع من النافذة إلى الخارج، أنا الذي أراقبُ منذ أشهر ملحقات المصحّة وغابة «أوبراته» الواقعة خلفها دون أن أدركها أو أشملها فعلاً بنظري؛ نعم أي شيء مسكته إلى يومنا هذا كان يضاهي في صلابته وحساسيته وفوضاه الندب التي امتلأ بها ظهر هربرت تروجنسكي؟ فتلك الأشياء التي مسكتها كانت عبارة عن أعضاء فتيات ونساء وكذلك عضوي التناسلي نفسه وإبريق الصبي يسوع المصنوع من الجبس، إضافة إلى ذلك البنصر الذي جلبه لي الكلب من حقل الشوفان قبل حوالي عامين وسمح لي قبل عام في الاعتناء به ووضعه في زجاجة محكمة الإقفال، حيث لا يمكن مسّه أبداً، ومع ذلك كان واضحاً وكاملاً لدرجة أنني مازلت إلى الآن أتحسس كلّ جزء من الإصبع فأحصيها إذا ما تناولت فقط مضربي طبلي. كلّما أردت تذكّر الندب التي في ظهر هربرت تروجنسكي، أجد نفسي جالساً، مطبّلا أمام البرطمان الذي حفظت فيه الإصبع؛ فكنت أطبّل لكي أعين ذاكرتي على التذكّر. وكلّما تفحصت جسد امرأة - كان ذلك نادراً ما يحدث على نحو واف - كنت أستحضر ندب هربرت تروجنسكي؛ لأنني وجدت نفسي غير مقتنع نحو كاف بتلك الأعضاء التي تتمتع بها المرأة والتي تشبه الندب. بيد أنني يمكن أن أقول كذلك: إن تحسس النتوءات التي امتلأ بها ظهر صاحبي العريض بشرني آنذاك بالتعرف على الكتل المتصلبة وامتلاكها مؤقتاً، تلك الكتل التي تمتلكها النساء المستعدات لممارسة الحبّ فترةً قصيرة. وبشرتني العلامات التي كانت في ظهر هربرت بالحصول منذ وقت مبكر على البنصر؛ وقبل أن تقوم ندب هربرت بتبشيري بشيء ما، بشرتني مضارب طبلي بالندب والأعضاء التناسلية وبالعثور أخيراً على البنصر قبل عيد ميلادي الثالث. لكن يجب أن أغور بعيداً في الماضي: عندما كنت جنيناً، أي قبل أن يطلق عليّ اسم أوسكار، كان لعبي بحبل السرّة قد بشرني بالحصول فيما بعد على المضارب وعلى ندب هربرت والفوهات البركانية المتفجرة للنساء الشابات

والمتقدمات في السنّ وعلى البنصر وإبريق الصبي يسوع، وعضوي التناسلي الذي أحمله معي بلا كلل مثل نصب مزاجيّ لعجزي وإمكانياتي.

واليوم فإنني رجعت إلى عصي التطبيل من جديد، فلم أعد أتذكر الندب والأعضاء الجسدية الحسّاسة، بما فيها أعضائي، إلا عبر طريق ملتو، وبمعونة المعدات التي أمدتني بالقوة، والتي كان فضلها يعود إلى طبلي. فعليّ أن أصل إلى سنّ الثلاثين، لكي أحتفل بعيد ميلادي الثالث للمرّة الثانية. لا بد أنكم قد أدركتم قصدي: إن هدف أوسكار هو العودة إلى حبل السّرة؛ لهذا السبب بالذات بذلت تلك الجهود كلّها، إضافة إلى ملازمة الندب في ظهر هربرت تروجنسكي.

وقبل أن أصف ظهر صاحبي وأحلله يجب أن أقول القول في البدء إن الجانب الأمامي لجسده الهائل الذي من الصعب حمايته، لأنه كان يشكّل هدفاً مثالياً، خالياً من الندب، ماعدا جرح خلفته عضة غانية في يسار عظم الساق. فقط من الخلف يستطيع المهاجمون التعرض إليه؛ وفقط من الخلف يمكن الوصول إليه. فكانت السكاكين الفنلندية والبولندية تترك علامتها على ظهره فحسب، كذلك فعلت مباضع عمّال الشحن من جزيرة المخازن ومطاوي الصواري التي كان يحملها طلبة الكلّية الحربية في سفن الطلاّب.

وإذا ما انتهى هربرت من تناول الغداء - كانت تُقدم أقراص البطاطس ثلاث مرّات في الأسبوع، الأقراص التي يوجد أحد غيرها جعلها رقيقة، قليلة السمن، وهشّة في الوقت نفسه مثلما كانت تفعل الأمّ تروجنسكي - نعم، إذا ما دفع هربرت الصحن إلى الجانب؛ فإنني كنت أناوله جريدة «دي نويستن ناخرشتن»، فكان يدع حمّالات سرواله تهبط إلى الأسفل، ثم يخلع قميصه، ويسمح لي، وهو يقرأ الجريدة، أن أستجوب ظهره. فكانت الأمّ تروجنسكي تجلس غالباً إلى الطاولة أثناء ساعات الاستجواب، تحلّ أصواف الجوارب العتيقة، وتطلق ملاحظات تأييد أو استهجان، دون أن تتوانى، كما كان متوقعاً، عن الإشارة إلى الموت الرهيب المصوّر والمرتّش خلف الزجاج المعلّق في الحائط مقابل سرير هربرت.

كان الاستجواب يبدأ بعدما أنقر بإصبعي على ندبة. فكنت أحياناً أنقر بمضرب طبلي. «أضغط مرّة ثانية، يا ولد! لا أعرف أي واحدة منها. يبدو أنها اليوم نائمة.» فأضغطُ مرّة ثانية وبإلحاح.

«آه، هذه الندبة! كان واحد أوكراني، اشتبك مع واحد من غدنغن. وفي البداية جلسا على الطاولة مثل أخوين. بعد ذلك قال القادم من غدنغن للأوكراني: روسكي! فلم يتحمل الأوكراني هذه الكلمة؛ لأنه كان يحب أن يكون كل شيء ما عدا أن يكون روسياً. كان هذا الأوكراني قد عبر نهر فايكسل بقطعة خشب، وعبر أنهاراً أخرى، حتى امتلأت جزمته بالنقود، فأفرغ نصفها على الشرب والعزائم في حانة شتاربوش قبل أنّ يقول ذاك القادم من غدنغن روسكي، فقمت أحجز بينهما؛ فصلت بلطف مثل ما هو أسلوبي. وبينما كنت منشغلاً بالفكاك بينهما سمعت الأوكراني يقول لي. يا شبّوط الماء! لكن شبّوط الماء الحقيقي الذي كان يرفع في النهار الطين بالحفّارة، أضاف كلمة كان لها وقع مثل كلمة نازي أو شيء من هذا القبيل. فيا أوسكاري العزيز، أنت أعرف بهربرت تروجنسكي، ودفعة واحدة انبطح سائق الحفّارة على ظهره، وكان له شكل الوقّاد في البحرية، ووجه أصفر، لقد انبطح تحت مشجب الملابس وظل يعوص وينوص. وقبل أن أوضح للأوكراني الفرق بين شبّوط الماء وابن غدانسك، طعنني من الخلف - وهذا هو الأثر.»

وعندما نطق هربرت بعبارته «هذا هو الأثر» تصفّح الجريدة في الوقت ذاته، مشدداً على العبارة، ثم احتسى جرعة من القهوة، قبل أن يسمح لي بالضغط على الندبة الأخرى مرّة أو مرتين.

«آه هذه! هذه في الحقيقة بسيطة جدّاً. حدثت هذه الندبة قبل عامين عندما رست زوارق بيلاو الحربية المتواضعة، فصارت تدّعي وتتظاهر، وتلعب دور الكابوي وتجنن الفتيات. أمّا كيف التحق ذلك الطائش بصنف البحرية فهذا ما لا أستطيع تفسيره إلى اليوم. كان هذا الطائش قادماً من دريسدن؛ فتصور يا عزيزي أوسكار؛ من دريسدن! لكنك لا تفهم أبداً ماذا يعني أن يأتي بحّار من دريسدن.»

ولكي أبعد حواس هربرت التي تشبثت بمدينة دريسدن الساحرة الواقعة على نهر ألبه، وأوطنها من جديد في نويفارفاسر، نقرت مرّة أخرى على تلك الندبة التي قال عنها بسيطة جدّاً.

«آه، معك حقّ؛ قل لي من هو هذا! بحّار في شعبة الإنذار على زورق بخاري. أراد أن يغامر بإطلاق أصوات حادة ثم تحرّش بواحد اسكتلندي هادئ كان يجفف قاربه على الشاطئ. يعني تحدث عن تشمبرلين وقصّة المظلّة وإلى آخره. نصحته بالهدوء مثلما هي عادتي، لكي يتوقف عن حديثه هذا، خصوصاً وأن الاسكتلندي لم يفقه من كلامة حرفاً واحداً، إنما كان يرسم بالخمر أشكالاً على الطاولة. قلت له أترك هذا يا فتى؛ فإنك لست في بلدك، وإنما في عصبة الأمم، فردّ عليّ بحّار الزورق: (أنت يا غنيمة الألمان)، قالها باللهجة الساكسونية، فهل فهمتني؟ فأكل عدداً من الصفعات التي جعلته يهدأ. لكن بعد نصف ساعة، عندما انحنيت لألتقط قطعة نقدية سقطت تحت الطاولة حيث ساد الظلام، فلم أستطيع أن أرى الساكسوني عندما سحب سكينه وطعنني بسرعة شديدة.»

وأخذ هربرت يتصفح «دي نويستن ناخرشتن» ضاحكاً، ثم أضاف: «وهذه هي الندبة.» ودفع بالجريدة نحو الأمّ تروجنسكي المتذمرة، وهمّ بالنهوض. وقبل أن يدخل هربرت إلى المرحاض - أدركت مراده من خلال تعبيرات وجهه، إذ أنه ضغط على حافة الطاولة لكي ينهض - نقرت بسرعة على ندبة سوداء بنفسجية ومخيطة بخيوط، كانت عريضة بحجم ورقة لعب الكوتشينة، فقال إن: «هربرت يريد يروح للحمّام يا ولد. بعد ذلك أحكي لك.» لكنني نقرت مرّة أخرى، وصرت أدبك وأخبط بقدمي، كما يفعل الطفل ذو الأعوام الثلاثة، فينفعني كالعادة.

«لا بأس إذاً، لا بأس. حتى تكفّ عنّي. لكن باختصار.» فجلس هربرت ثانيةً: «حدث هذا في عيد الميلاد من العام الثلاثين. يوم كان الميناء خاوياً تماماً، وعمّال الشحن يتسكعون في الشوارع ويتراهنون على من سيكون أبعدهم في لعبة إطلاق البصاق. بعد منتصف الليل - كنا انتهينا للتو من تحضير النبيذ الساخن - وإذا بالسويديين والفنلنديين يأتون

ممشطين شعرهم ومرتدين ثياباً زرقاء وأحذية لامعة، أتوا قادمين من كنيسة البحّارة المقابلة. فلم استبشر بقدومهم خيراً، فوقفت في الباب أتطلع في تلك الوجوه المتدينة بشكل واضح. ففكرت لماذا كانوا يعبثون بأزرارهم التي نقشت عليها علامة المرساة، فشهرت السكاكين على الفور، فكانت السكاكين طويلة والليل قصير يا أوسكار! نعم؛ السويد والفلنديين لديهم حساباتهم مع بعضهم. لكن ما علاقة هربرت تروجنسكي بهم، فذلك أمر لا يعرفه إلا الشيطان. وكما لو أن قرداً عضني! فإذا اندلعت يجب أن لا يتخلف عنها هربرت. فما أسرع انطلاقي من الباب! فهتف بي شتاربوش: «انتبه، انتبه أمامك، يا هربرت!» لكن هربرت كانت عنده مهمة، أراد أن ينقذ القسيس الشاب الذي جاء تواً من مالمو، أنهى الكليّة، لكنه لم يحضر أي عيد ميلاد مع السويد والفنلند في كنيسة واحدة، أردت أن أعينه حتى يصل إلى داره سالماً. وحالما أمسكت برجل الله من شاله النظيف من الداخل، وإذا بي أودع السنة (في صحتك يا سنة جديدة!) برغم أننا كنّا في أوّل عيد الميلاد. عندما انتبهت وجدت نفسي ملقى على طاولة الحانة ودمي الجميل ينزف في كؤوس البيرة مجانا. فجاء شتاربوش بشريط لاصق من صندوق الصليب الأحمر، ليسعفني برباط مؤقت كما يقال.»

فعلقت الأم تروجنسكي بامتعاض: «لماذا تدخل نفسك بهذه المشاكل؟» ثم أضافت بعد أن سحبت إبرة حياكة من كرة شعرها، «عدا ذلك فأنت لم تذهب إلى الكنيسة أبداً، بل بالعكس.»

ولوّح هربرت بيده استهجاناً ومضى إلى المرحاض يجرجر قميصه، وحمّالات سرواله تدلت بارتخاء. سار بغيظ وانزعاج ثم هتف بغيظ أيضاً: «وهذه هي الندبة!»، مضى في الممر وكأنه أراد التنصل دفعة واحدة عن الكنيسة وعن طعنات السكاكين المرتبطة بها، كما لو أن المرحاض هو المكان الذي يكون فيه المرء مفكّراً حرّاً، أو سيصبح مفكّراً وسيبقى.

وبعد أسابيع قليلة وجدت هربرت لائذاً بالصمت، غير مستعد لأي استجواب. فبدا لي متكدراً حزيناً، مع أن ظهره لم يكن قد ضُمّد بالرباط المألوف. بل أنني وجدته يستلقي بشكل طبيعي على ظهره فوق الأريكة.

لم يكن قد أضطجع كجريح في الفراش، ومع ذلك بدا كما لو أنه أصيب بجرح بالغ. سمعت هربرت يقذف الحسرات بلوعة، ويتضرع يا إلهي، يا ماركس، يا انجلس، ويطلق الشتائم. كان بين الحين والآخر يهزّ قبضته في هواء الغرفة، ثم يتركها تهوي على صدره، فيلحق بها قبضته الأخرى، ويلطم على صدره كما يفعل الكاثوليكي الذي يهتف: يا معصيتي، يا معصيتي العظمى mea culpa, mea maxima culpa .

كان هربرت قد أجهز آنذاك على قبطان لتوانيّ، وقد برأته المحكمة في الواقع، إذ أنّه استخدم حقّه المشروع في الدفاع عن النفس كما يحدث عادة في عمل كعمله، بيد أن القبطان بقي لتوانيّاً ميتاً على الرغم من البراءة، فأثقل كاهل النادل بقناطير من الذنوب، برغم كلّ ما قيل عن القبطان بأنه كان هزيلاً، مصاباً بمرض في المعدة. فلم يذهب هربرت بعدها إلى عمله. وقدم استقالته. فصار صاحب الحانة شتاربوش يتردد على زيارة هربرت، ويجلس على الأريكة إلى جانبه إو إلى جانب الأمّ تروجنسكي في المطبخ، ويخرج من حقيبته اليدوية زجاجة عرق العرعر، ماركة صفر صفر، أو يجلب للأم تروجنسكي ربع كيلو من القهوة غير المحمصة التي كان حصل عليها من الميناء الحرّ. فكان يحاول إمّا إقناع هربرت نفسه، أو الأمّ تروجنسكي لكي تقنع ابنها بدورها. لكن هربرت بقي متصلباً أو ليّناً، حسبما يشتهي المرء، مصرّاً على التوقف عن عمله كنادل حانة، في نويفارفاسر، لا سيما مقابل كنيسة البحّارين. بل لم يعد راغباً قط في العمل نادلاً؛ إذ أن كلّ من يخدم في حانة سيُطعن ذات يوم، وكلّ من يُطعن سيضرب ذات يوم قبطاناً لتوانيّاً صغيراً حتى الموت؛ لأنه أراد أن يُبعد القبطان عن جسده ولأنه لم يرد السماح للسكين الليتوانية أن تخلّف أثراً إلى جانب الآثار الفنلندية والسويدية والبولندية وتلك القادمة من المدن الحرّة ودولة الرايخ الألماني، أن تخلف ندبة إلى جانب الندب على ظهر هربرت تروجنسكي المحروث طولاً وعرضا.

وقال هربرت: «أنني أفضل الذهاب إلى دائرة الجمرك على العمل في حانة من حانات فارفاسر.» بيد أنه لم يلتحق بدائرة الجمرك.

نيوبا

في العام الثامن والثلاثين ارتفعت نسبة الرسوم الجمركية، وأغلقت الحدود مؤقتاً بين بولندا والدولة الحرّة. ولم تستطع جدتي إثر ذلك الذهاب بالترام إلى السوق الأسبوعي في لانغفور، فتوجب عليها أن تقفل «بسطتها» وتبقى جالسة على بيضها كما يقال، دون أن تواتيها الرغبة الصادقة في التفقيس. فتصاعدت نتانة أسماك الرنجة حتى السماء، وتكدست البضائع، وصار رجال السياسة يلتقون ببعضهم، متفقين في الآراء، باستثناء صاحبي هربرت الذي رقد على الأريكة موزع النفس، عاطلاً عن العمل، ويقلّب أفكاره مثل متأمل حقيقي.

كان الجمرك يقدم عملاً وقوتاً وقيافات خضراء وحدوداً خضراء جديرة بالحماية. لكن هربرت لم يذهب إلى الجمرك، ولم يرغب في العمل نادلاً، بل أراد الاستلقاء على الأريكة ليمعن الفكر.

بيد أن الإنسان يجب أن يجد عملاً ما. ولم تكن الأمّ تروجنسكي وحدها التي فكرّت بهذه الطريقة. ومع أنها رفضت إقناع ابنها، بناءً على طلب صاحب الحانة شتاربوش، في العمل نادلاً في فارفاسر من جديد، فقد اقتنعت بإبعاد هربرت عن الأريكة. فضلاً عن أنه نفسه ضاق ذرعاً بالدار ذات الغرفتين، فأخذ يمعن الفكر في الظاهر، إلى أن بدأ ذات يوم في معاينة فرص العمل في «دي نويستن ناخرشتن» وأيضاً في جريدة «فوربوستن» النازية، ففعل ذلك على مضض.

كم تمنيت أن أساعده! فهل يعقل أن يضطر رجل مثل هربرت إلى ممارسة أشغال أخرى عدا تلك الأشغال المناسبة التي كان يؤديها في ميناء

الضاحية؟ العمل العاديّ في الموانئ أو الأشغال المؤقتة أو دفن أسماك الرنجة المتعفنة! إنني لا أستطيع أن أتخيل هربرت يقف فوق جسر متلاو ويبصق في اتجاه النوارس، ويقذف بتبغ المضغ. فوردت في ذهني فكرة القيام بشركة تجارية مع هربرت: ساعتان من العمل المركّز في الأسبوع، أو حتى في الشهر، ثم نكون من أصحاب الجاه. إن أوسكار قد أثبت براعته من خلال خبرته الطويلة في مضمار قطع واجهات المحلاّت المحترمة بواسطة صوته الماسّي؛ كما أنه سيكون قادراً على القيام بدور المراقب في الوقت الذي يخفّ فيه هربرت يده كما يقال. فنحن لسنا بحاجة إلى جهاز لحام أو إلى مفاتيح احتياطية أو صندوق أدوات. لقد نجحنا في مهمتنا دون أن نكون بحاجة إلى مسدّس أو خاتم حديديّ للضرب. كنّا و «عربة المساجين الخضراء» عالمين لا يحتاجان إلى ملامسة بعضهما أبداً، إذ أن عطارد، إله اللصوصيّة والتجارة، باركنا؛ لأنني ولدت في برج العذراء، فامتلكت خاتمه الذي أختم به أحياناً على الحاجيات الصلبة.

وسيكون من الحماقة إغفال هذه الواقعة، بل سأقصها على عجل، دون الاعتراف بالذنب: تمكنا، أنا وهربرت عندما كان عاطلاً عن العمل، من تحقيق عمليتي سطو من النوع المتوسط شملتا محلين للأطعمة الفاخرة، إضافة إلى عملية اقتحام نظيفة لمحلّ فراء، فغنمنا فراء الثعلب «الأزرق» وقطعة من جلد عجل البحر، إضافة إلى فراء عجمي لليدين، ومعطف من جلد الخيل جميل الفصال، وإن لم يكن ثمنه غالياً، لكن أمّي المسكينة كانت سترتديه بكلّ سرور.

غير أن ما دفعنا إلى التخلي عن السطو والاقتحام لم يكن تأنيب الضمير وحده، والذي لم يكن في محله تماماً، إنما الصعوبات المتفاقمة المتعلقة بتصريف البضاعة. فلكي يتمكن هربرت من بيع تلك الحاجيات بما يناسبنا، كان يتوجب عليه الذهاب إلى نويفارفاسر، إذ أن الوسطاء النافعين كانوا متواجدين فقط في الضاحية. لكن بما أن تلك الضاحية كانت تذكر هربرت بالقبطان الليتواني الهزيل الجسد، الملتهب المعدة، فإنه كان

يحاول التخلص من البضاعة في جادة شيشاو ومصنع هاكل وبورغرفيزن، لكن ليس في منطقة فارفاسر، حيث كان الفرو يباع بسهولة كالزبد. وهكذا تأخر تصريف غنائمنا، لدرجة أن الأطعمة الفاخرة انتقلت في آخر المطاف إلى مطبخ الأمّ تروجنسكي، كما أن هربرت أهدى لها فراء اليدين العجمي، أو بالأحرى حاول أن يهديه لها.

وعندما رأت الأمّ تروجنسكي الفراء توقف المزاح وصار الأمر جديّاً، فتقبلت المأكولات بصمت في الواقع، إذ لعلّها فكرة في تغاضي القانون عن السرقة الاضطرارية لسدّ الرمق، بيد أن الفراء عني في نظرها الترف والترف يعني عادةً الطيش والطيش يعني السجن. هكذا فكرت الأمّ تروجنسكي ببساطة وعلى نحو صائب، وضيّقت عينيها اللتين تشبهان عينيّ الفأرة، ثم جذبت بعصبية إبره الحياكة من عقدة شعرها، وهددت بها قائلة: «ستنتهي ذات يوم مثل ما انتهى أبوك!» ودفعت بجريدة «دي نويستن ناخرشتن» إلى ابنها، أو جريدة «فوربوستن» بحركة تعني: الآن يجب أن تفتش لك عن وظيفة محترمة، وليس عن هذه الخزعبلات، وإلا فسوف لا أحضر لك الطعام أبداً.

رقد هربرت بعد ذلك أسبوعاً كاملاً على الأريكة، فأصبح ثقيل الظلّ، غير مستعد للاستجواب المتعلق بندبه، ولا بتحطيم زجاج الواجهات الواعد بالخير. لقد أبديت تفهماً لموقف صاحبي، وتركته ينعم ببقية عذابه، فمكثت برهة عند الساعاتي لاوبشاد وساعاته المستعرضة الوقت بحركات سريعة، وحاولت الأمر ذاته مع الموسيقي ماين، بيد أنه لم يعد يمنح نفسه فسحة صغيرة من الزمن، إذ بدا منهمكاً، هو وبوقه، بمتابعة النوتات الموسيقية لكتيبة الخيّالة التابعة لقوّات الصاعقة، مهتماً بمظهره، نشيط الحركَة، حازماً، في الوقت الذي تدهور فيه وضع قططه الأربع شيئاً فشيئاً بسبب سوء التغذية، تلك القطط التي استحالت إلى مخلفات من الزمن الموسيقي الرائع، برغم تشبّعه بالسكر. في مقابل ذلك صرت أرى ماتسرات الذي لم يكن يحتسي الخمر في زمن أمّي إلا بصحبة الآخرين، جالساً على الدوام في وقت متأخر خلف كأس صغير مخصص

لجرعة واحدة، ويتطلع بنظرة مخمورة. كان يقلّب ألبوم الصور، محاولاً، مثلما فعلت أنا الآن، إحياء أمّي المسكينة بصور صغيرة سيئة أو جيدة الإضاءة، ثم يبكي في منتصف الليل عندما تحين ساعة البكاء فيخاطب هتلر أو بيتهوفن المتجهمين المعلقين قبالة بعضهما، مستخدماً ضمير المخاطب الذي يستخدم بين المعارف والأصدقاء، وبدا أيضاً كما لو أنه كان يتلقى إجابة من ذلك العبقري الأصمّ، في حين كان القائد الزاهد بالشرب يلوذ بالصمت؛ لأن ماتسرات الذي كان مسؤول خليّة صغيرة وسكيّراً، تراءى غير جدير بالتنبؤ بالمستقبل.

وذات ثلاثاء - أستطيع تذكّر اليوم بدقة تامة بفضل طبلي - آن الأوان: فتهندم هربرت، هذا يعني أنه ترك الأم تروجنسكي تفرك له السروال الضيّق من الأعلى، الواسع من الأسفل، بالقهوة الباردة، فحشر قدميه في حذاءه الخفيف الوقع، ثم سكب نفسه في سترة بأزرار تشبه المرساة، وعطّر الوشاح الحريري الأبيض الذي حصل عليه من الميناء الحرّ بماء كولونيا الذي بات من الممكن الحصول في الميناء الحرّ، وانتصب متصلباً بقامته المربوعة وقبعته الزرقاء ذات الواقية الأمامية.

قال هربرت: «سأذهب للبحث عن عمل!» ثم أزاح القبعة، التي تذكّر بالأمير هاينريش، إلى جهة اليسار، على نحو يوحي بالجسارة، فتركت الأمّ تروجنسكي الجريدة تسقط من يدها.

وفي اليوم التالي عثر هربرت على وظيفة وعلى بذلة رسمية، فارتدى اللون الرمادي الغامق، وليس اللون الجمركي الأخضر، فعُيّن حارساً في متحف الملاحة. ومثل جميع الأشياء الجديرة بالحفظ، في تلك المدينة نفسها الجديرة بالحفظ، ملأت كنوز متحف الملاحة منزل نبيل عتيد متحفيّ المظهر، له من الخارج مدخل مدّرج وزخرفة في الواجهة مرحة، لكنها غنيّة بالتفاصيل، وفي داخله خشب بلّوط داكن محفور بنقوش وسلّم لولبي. كان المتحف يستعرض تاريخ المدينة ذات الميناء البحري، بفهرسة منتظمة، تلك المدينة كمن صيتها دائماً في أنها كانت وبقيت زاخرة بالرخاء والنعيم وسط جيران أقوياء وفقراء في الغالب. فيا لتلك الامتيازات المدونة

بالوثائق بصياغات معقدة والمشتراة من رؤساء الدير الكنسية والملوك البولنديين! تلك النقوش الفنيّة الملونة التي صوّرت مختلف حالات الحصار التي ضربت حول الحصن البحري في مصبّ فيستولا! وهنا، بين أسوار المدينة، أقام «ستانسلاوس ليجيجنسكي» السيئ الطالع المندحر، هارباً من الملك الساكسونيّ المنافس، حيث أمكن بوضوح رؤية إمارات الخوف مرتسمةً على وجهه. وكذلك بدا كبير الأساقفة «بوتوسكي» والمبعوث الفرنسي «دو مونتي» خائفين؛ إذ أن الروس بقيادة الجنرال «لاسكي» كانوا يطوقون المدينة. تلك الأشياء كلّها كانت مدونة بدقة، بحيث يمكن قراءة أسماء السفن الفرنسية تحت العلم الذي حمل رسم زهرة السوسن في المرسى. وثمة سهم أشار إلى: أن ستانسلاوس ليجيجنسكي كان قد هرب بهذه السفينة إلى «لوترنغن» عندما استسلمت المدينة في الثالث من أغسطس/ آب. كانت الغنائم التي حصل عليها في معارك النصر تشكّل القسم الأعظم من الآثار المعروضة، فالحروب الخاسرة كانت نادراً ما تحال غنائمها إلى المتاحف، أو أنها لم توردها بالتحف منذ البداية.

وهكذا كان الشكل الخشبي المحفور العائد لسفينة شراعية ضخمة من فلورنسا كانت ترسو عادةً في بروغه، لكنها كانت ضمن ملكية التاجرين «بورتناري» و«تاني» المنحدرين من فلورنسا، نعم؛ كان ذلك الوجه البارز يمثل مفخرة المتحف. وقد تمكن القرصانين وربّاني السفن الغدانسكيين باول بينكه ومارتن باردهفيك من الاستيلاء في أبريل / نيسان من العام ١٤٧٣ على السفينة الشراعية المبحرة قرب جزيرة زيلاند، ليس بعيداً من ميناء سلايس. وبعد عملية الاستيلاء مباشرة أمرا بقتل جميع طاقم السفينة الكبير العدد، إلى جانب الضبّاط والقبطان، ثم جُلبت السفينة بمحتوياتها إلى دانسغ.

وثمة لوحة قابلة للانطباق للرسّام «مملنغ» تمثّل يوم القيامة وحوض تعميد مذهّب - أنجز هذان العملان بناءً على طلب تاني الفلورنسيّ لمصلحة كنيسة في فلورنسا - وقد عُرض هذان العملان في كنيسة مريم.

ومازال يوم القيامة يسّر العين البولندية الكاثوليكية إلى يومنا هذا حسب معرفتي. بيد أن مصير الشكل المنحوت من الخشب ظل يشوبه الغموض بعد نهاية الحرب، ففي زمني كان متحف الملاحة يحتفظ به.

كانت المنحوتة الخشبية الفخمة تصوّر أنثى خضراء الجسد، عارية، تتطلع إلى الأمام بعينين منحوتتين من الكهرمان، تتطلع عبر ثدييها النافرين المليئين بالعزيمة، رافعة ذراعيها إلى الأعلى، حيث تشابكتا مع بعضهما بتراخ، مبرزة في الوقت ذاته أصابعها كلّها. كان هذه الأنثى، المنحوتة الشكل، هي التي جلبت النحس. وكان التاجر بورتناري قد أوصى بصنع التمثال وجعله على مقاييس فتاة بلجيكية كان مولعاً بها، فنحته له أحد حفّاري الخشب من ذوي السمعة الجيدة في صناعة الأشكال البارزة. وحالما علّق التمثال الأخضر في حيزوم السفينة جرت محاكمة الفتاة بتهمة السحر مثلما كان مألوفاً آنذاك. وقبل أن تتحول الفتاة إلى شعلة من لهب، وبفعل الاستجواب المحرج الدقيق، وجهت أصابع الاتهام إلى ولي أمرها التاجر الفلورنسي وكذلك إلى النحات الذي أخذ مقاييسها ببراعة متناهية. وكما يقال فإن بورتناري شنق نفسه، لأنه كان يخشى النار. أمّا النحّات فقد قطعوا يديه الموهبتين، لكي لا يحوّل الساحرات إلى أشكال خشبية في المستقبل. فبينما كانت المحاكمات تجري في ناحية «بروغه» وتلفت إليها الأنظار، إذ أنّ بورتناري كان رجلاً واسع الثراء، وقعت السفينة ومعها الشكل الخشبي تحت اليد القرصانية باول بنكه. أمّا السنيور تاني، التاجر الآخر، فقد لاقى مصرعه بفأس بحرية؛ ثم جاء الدور لباول بنكه نفسه: فبعد مضي أعوام قليلة لم يحظ بأدنى رحمة من لدن أعيان مدينته، إذ تمّ إغراقه في باحة البرج ذي الطوابق. فالسفن التي يُركّب على مقدمها الشكل الخشبي عقب موت بنكه صارت سرعان ما تحترق بعد التركيب بفترة قصيرة وهي راسية في الموانئ، وكانت الحرائق تنشب في سفن أخرى، ما عدا الشكل الخشبي بطبيعة الحال؛ فقد كان ضد الحريق، فحظي بسبب شكله المتوازن المنتظم بالكثير من العشّاق من بين أصحاب السفن. فكلّما استقر شكل الأنثى في مكانه المخصص له كان طاقم السفينة يتعرض إلى

عملية إبادة إثر حدوث تمرّد خلف ظهر التمثال، على الرغم من أن الطاقم كان ينعم بالسكينة والأمن قبل فترة قصيرة.

كانت الحملة الخائبة لأسطول غدانسك الحربي تحت إمرة الداهية ايبرهارد فيربر ضد الدانمرك في العام ١٥٢٢ قد أدّت إلى انتفاضات دموية في المدينة. كان التاريخ يتحدث في الواقع عن خلافات دينية - إذ قاد القسيس البروتستانتي هيغه في العام الثالث والعشرين من ذلك القرن حشداً غفيراً من الناس لتحطيم الصور الدينية في الأبرشيات السبع للمدينة - بيد أننا ألقينا الذنب في تلك الانتكاسة، التي كان لها أثر بالغ بعيد المدى، على الشكل الخشبي الذي زيّن مقدم سفينة فيربر.

وحين قام شتيفان باتوري بعد خمسين عاماً بمحاصرة المدينة دون فائدة، ألقى كازبار يشكه، رئيس دير أوليفا، ألقى بالذنب في مواعظه عن التوبة على الشكل المنحوت، أي على تلك الأنثى الآثمة. لقد استلم ملك بولندا المنحوتة تلك هديةً من المدينة، فصار يحملها معه إلى المعسكرات في الخلاء، متقبلاً منها المشورة الخاطئة. فنحن لا نعلم مبلغ تأثير السيدة الخشبية على الحملات السويدية ضد المدينة والتي أدّت إلى سجن رجل الدين المتعصب الدكتور «أغيديوس شتراوخ» أعواماً طويلة، بعد أن كان يتآمر مع السويديين، وكذلك إلى احتراق الأنثى الخضراء التي وجدت طريقها إلى المدينة من جديد. وثمة خبر ملتبس أفاد بأن شاعراً هارباً يسمّى أوبتس وجد فيها ملاذاً بضعة أعوام، إلا أنه توفي مبكراً جدّا، لأنه اقتفى آثار المنحوتة المهلكة في عنبر للغلال محاولاً مدحها بالقصائد.

وفي نهاية القرن الثامن عشر، إبان تقسيم بولندا، أصدر البروسيون الذين احتلوا المدينة بالقوّة أمراً ملكيّاً-بروسيّاً بحضر «الشكل الخشبي نيوبا». فكانت تلك هي المرّة التي تذكر بالاسم في الوثائق وأجليت من مكانها، أو بالأحرى حُبست في البرج ذي الطوابق الذي أغرق في فنائه باول بنكه والذي جرّبت من رواقه إرسال صوتي البعيد الأثر بطريقة ناجحة للمرّة الأولى، لكي تتصرف طوال القرن التاسع عشر بهدوء، بمواجهة المنتجات المختارة للخيال الإنساني الجامح، أي أمام آلات التعذيب.

وعندما ارتقيت البرج في العام الثاني والثلاثين ثم غزوت بصوتي نوافذ بهو المسرح البلدي كانت نيوبا - سمّيت باللهجة الشعبية «البُنية الخضّراء» أو «الفتاة الخضيراء»- قد أبعدت، ولله الحمد، منذ أعوام من غرفة التعذيب في البرج. وإلا فمن ذا الذي سيعلم بأن هجومي على المبنى ذي الطراز الكلاسيكي كان سيكتب له النجاح؟ فلابد أن يكون مدير المتحف الذي حرّر نيوبا من معقل غرفة التعذيب الكابح لقواها، ليسكنها في متحف الملاحة المشيد حديثاً بعد تأسيس الدولة الحرّة، شخصاً جاهلاً، ليس من أبناء المدينة. وبعد فترة قصيرة على ذلك الإجراء توفى إثر تسمم بالدم، أصيب به ذلك الرجل المغالي في حماسه أثناء تثبيته لرقعة يمكن أن يستشف منها بأن ما عُرض فوق الرقعة هو شكل خشبي يحمل اسم نيوبا.

أمّا خليفته الذي كان مطلعاً على تاريخ المدينة حذراً، فقد أراد إبعاد نيوبا مرّة أخرى. ففكر في أن يهدي الفتاة الخشبية الخطيرة إلى مدينة لوبك؛ ولأن أهالي لوبك لم يتقبلوا الهدية؛ فإن مدينتهم الواقعة على نهر ترافه اجتازت حرب القنابل سالمة نسبياً ما عدا كنيستها المبنية بالآجر. وهكذا بقيت نيوبه أو «الفتاة الخضيراء» في متحف الملاحة وتسببت في وفاة مديرين خلال أربعة عشر عاماً من تاريخ المتحف - لم يكن المدير الحذر من ضمنهما؛ إذ أنه طلب أن ينقل إلى مكان آخر - وفي وفاة قسيس عجوز عند قدميها، ورحيل طالب في المعهد التقني العالي إضافة إلى تلميذين في الصف المنتهي لثانوية بيتري، اجتازا المرحلة الإعدادية للتوّ وبفرح غامر، وتسببت كذلك في نهاية أربعة من حرّاس المتحف الأمينين الذين كان ثلاثة منهم متزوجين.

وتمّ العثور عليهم كلّهم، بما فيهم طالب المعهد التقني، بوجوه متغيرة المعالم، وقد غرست في صدورهم أدوات حادة على غرار الأدوات التي يعثر عليها المرء في متحف الملاحة: سكاكين الصواري، كُلاّبات البحارين، أو الحربون أو النصال المرهفة المجتلبة من الساحل الذهبي وإبر خياطة قماش الأشرعة، باستثناء التلميذ الأخير الذي سارع إلى إشهار

مديته في البدء ومن ثمّ الفرجار؛ لأن جميع أدوات المتحف الحادة وضعت إمّا في سلاسل أو خلف الزجاج قبل وفاة التلميذ بفترة قصيرة.

وعلى الرغم من أن المحققين الجنائيين في جرائم القتل قد تحدثوا عن أن عملية انتحار مأساوية كانت تختفي وراء كلّ حالة موت؛ فإن شائعةً انتشرت في المدينة وعلى صفحات الجرائد قالت بأن: «هذا ما عملته البُنية الخضيراء بيديها». فاتجهت التهم بجديّة إلى نيوبا التي كانت تنقل الرجال والصبيان من الحياة إلى الموت. فأخذ الناس يخوضون نقاشات حامية وأفردت الجرائد زاوية خاصة بقضية نيوبا للتعبير عن الآراء بحريّة. تحدّث الناس عن وقائع خطيرة للغاية، وتحدثت إدارة المدينة عن خرافات لا تساير العصر: لا يجوز التفكير باتخاذ إجراءات طائشة قبل البرهنة على أن ما يسمى بالشيء الرهيب قد حدث حقّاً وفعلا.

فصار الخشب الأخضر معروضةً نادرةً في متحف الملاحة، إذ رفض المتحف المحلّي في أوليفا والمتحف البلدي في فلايشرغاسه وإدارة أرتوسهوف قبول تلك الشخصية الشبقة. ونشأ نقص في حرّاس المتحف، إذ لم يحجم هؤلاء الحرّاس وحدهم عن حراسة العذراء الخشبية، بل أن الزوّار كانوا يتجنبون أيضاً المرور بالصالة التي آوت الفتاة ذات العينين الكهرمانيتين. فهجعت هكذا هادئة فترة طويلة خلف نوافذ البناية القائمة منذ عصر التنوير والتي أتاحت للتمثال المنحوت من الخشب قدراً كافياً من الضوء الجانبي. لكن الغبار تراكم المنظفات انقطعن عن المجيء. وتوقّف المصورون الفضوليون بعد أن لاقى أحدهم حتفه بطريقة طبيعية في الواقع، لكن موته جاء مقترناً بالصورة الملتقطة على نحو يثير الاستغراب، توقفوا عن توريد صحف الدولة الحرّة وبولندا والرايخ الألماني وحتى فرنسا بصور ذلك النصب القاتل، بل أنهم أقدموا على إتلاف اللقطات الشخصية لنيوبا في أرشيفاتهم، مكتفين منذ ذلك الحين بتصوير مراسيم قدوم مختلف الرؤساء وزعماء الدول والملوك المنفيين ومغادرتهم، معتاشين على معارض الدواجن التي يتضمنها برنامج الزيارة وعلى مؤتمرات الحزب القومي الألماني وسباق السيارات وفيضانات فصل الربيع.

وبقي الأمر على هذا المنوال إلى أن احتل هربرت تروجنسكي، الذي لم يكن راغباً في الخدمة نادلاً ولا في العمل بالجمرك بأي ثمن، احتل له مكاناً على الكرسي الجلدي متلفعاً بقيافة حرّاس المتحف الرمادية كلون الفأرة، إلى جانب باب تلك القاعة التي أطلق عليها لقب «قاعة البُنية الاحتفالية». ومنذ اليوم الأول للعمل تبعت هربرت إلى محطة الترام في ماكس-هالبه-بلاتس، إذ كنت قلقاً جدّاً عليه. فقال: «ارجع يا عزيزي أوسكار إلى البيت. أنا لا أستطيع أخذك معي!» لكنني وقف في عين صاحبي الكبير بطبلي ومضربي، مبدياً إلحاحاً شديداً، فقال هربرت: «تعال معي إلى حد هوهنتور، ثم ارجع بالترام وكن عاقلاً!» لكن عند هوهنتور رفضت الرجوع في الخطّ رقم خمسة، فاصطحبني هربرت حتى جادة هايلغه-غاسه، ثم حاول التخلص مني ثانية حين وصلنا إلى السلّم الكلاسيكيّ الطراز المؤدي إلى المتحف، بيد أنه قطع لي من شبّاك التذاكر بطاقة دخول للأطفال وهو يتأفف. كنت في الواقع قد بلغت الرابعة عشرة، وكان عليه أن يسدد ثمن الدخول كاملاً، لكن من ذا الذي سيشغل نفسه بهذا الموضوع!

كنّا قد حظينا بنهار هادئ لطيف، فلم يكن هناك زوّار ولا مراقبون. وكنت بين الحين والآخر أطبّل نصف ساعة، بينما كان هربرت يرقد نصف ساعة بين الحين والآخر، ونيوبا تتطلع ساهمة بعينيها الكهرمانيتين متجهة بثدييها النافرين صوب هدف محدد، لم يكن هدفنا، لذلك لم نشغل نفسنا بها. رسم هربرت علامة النفي بيده وقال: «إنها ليس على هواي. انظر إلى تجاعيد الشحم وإلى لغدها الضخم.» ثم مال هربرت برأسه، مقدماً تصوراته لنفسه: «الظهر مثل دولاب عائلة بكاملها. هربرت يحب السيدات الرشيقات، يحب الصغيرات اللعوبات.» وأخذت أصغي إلى هربرت وهو يستفيض بوصف نموذج المرأة التي يهوى فرأيت كيف أنه بدأ ينحت بيديه الهائلتين مثل مجرفتين معالمَ شخص لطيف من جنس النساء، تلك المعالم التي بقيت فترة طويلة، في الواقع إلى يومنا هذا، تشكل نموذج المرأة المثال بالنسبة لي، حتى لو كانت مموهة تحت رداء الممرضات.

وفي اليوم الثالث من زمننا المتحفي تجرأنا على مغادرة الكرسي المجاور للباب. وبحجة القيام بأعمال تنظيف -بدا منظر القاعة بشعاً حقّاً - اقتربنا من الأنثى الخشبية الخضراء المضاءة التي ألقت بالظلال حين مسحنا الغبار وأزلنا نسيج كلمة العنكبوت عن ألواح البلّوط، جاعلين من المكان «قاعةَ البُنية الاحتفالية» بالمعنى الحقيقي للعبارة. لم يكن الأمر بمعنى أن نيوبا لم تخلّف فينا أثراً، بل أنها كانت ترفل بلامبالاة بفتنتها الأخّاذة التي لم تخلو من التجانس بالتأكيد. غير أننا لم ننعم بنظرتها بعين من يرغب في تملكها، إنما تطلعنا إليها بعين العارف النزيه الذي يتفحّص ويقيّم جميع التفاصيل. فعثرنا، أنا وهربرت - باعتبارنا من عشّاق الجماليات الهادئين المأخوذين بالسحر بتجرّد من العواطف، مقدمين بحركات إبهامنا ملاحظاتٍ تتعلق بتناسب جسد الأنثى - عثرنا على قياس من القياسات الكلاسيكية الثمانية للرأس يتناسب من حيث الطول مع جسد نيوبا، باستثناء وركها القصير إلى حدّ ما، بينما كانت أعضاؤها الممتدة بالعرض مثل الحوض والكتفين والقفص الصدري، تتناسب مع القياسات الهولندية للتركيب الأنثوي أكثر من تناسبها مع القياسات الإغريقية.

وقد أرخى هربرت إبهامه نحو الأسفل ثمّ قال: «ستكون بالنسبة لي نشيطة جدّا في الفراش. هربرت يعرف المصارعة من أيّام أوهرا وفارفاسر. فأنا لا أحتاج إلى امرأة لهذا الغرض.» كان هربرت طفلاً ملوعاً بالتجارب. «بلى، لو كانت لها يد هشّة وممتلئة هكذا، من ناحية الخصر مثلاً، فلا اعتراض لدى هربرت.»

ولو بلغ الأمر مداه لما اعترضنا على نيوبا أو على روح المصارعة الكامنة فيها، وكان هربرت على علم تام بأن ما تمناه وما لم يتمنه من استكانة سلبية أو نشاط متعلّق بالنسوة العاريات أو أنصاف العاريات لا يمكن أن تقدمه النساء الرشيقات اللدنات، بينما تمتنع الممتلئات البدينات عن تقديمه؛ فهناك نسوة رقيقات لا يستطعن الاضطجاع بهدوء، وثمة إناث ضخمات يشبهن ممرات مائية هادئة لا تفصح عن تدفّق أو انهمار. فبسّطنا الموضوع عن قصد، مختصرين كلّ شيء إلى قاسمين مشتركين، موجهين

الإهانة لنيوبا بطريقة متعمدة لا تغتفر. فرفعني هربرت على ذراعه لكي أنقر بمطرقتي الطبل ثديي الأنثى، فنقرت حتى تطايرت سحب تافهة من نشارة الخشب من ثقوب ديدان الخشب الكثيرة المرشوشة بالمبيدات وغير المأهولة لذلك السبب. وأثناء النقر على التمثال حدّقنا بالكهرمان المشير إلى العينين، بيد أنّ العينين لم يرف لهما جفن ولم ترمشا أو تترقرقا أو تفيضاً بالدموع؛ كذلك لم يتقلّصا على نحو خطير يشي بالحقد. إنما عكست عيناها المشحوذتان المائلتان للاصفرار أكثر من ميلهما للاحمرار، حتى وأن تقلصتا بشكل محدودب؛ عكستا محتويات قاعة المعروضات وجزءاً من النافذة المضاءة بالشمس بطريقة تامة. والكهرمان يخدع البصر، فمن لا يعرف ذلك! كنّا نحن أيضاً نعلم بالسلوك الخبيث لذلك الإنجاز الخشبي الذي رفع إلى مستوى الحلية المزخرفة. ومع ذلك فسّرنا جمود نيوبا الظاهر لمصلحتنا حين قسّمنا ما هو أنثوي إلى شيّ فعّال وسلبي على طريقة الرجال الضيقة الأفق، فشعرنا بثقة في النفس. ثم طرق هربرت مسماراً في صابونة ركبتها وهو يقهقه بشماتة، فصارت ركبتي تؤلمني عند كل ضربة، في حين أنها لم ترفع حتى حاجبيها. وقمنا بمختلف الأعمال العابثة على مرمى بصر الخشب الناضح بالخضرة: فقذف هربرت نفسه في معطف أميرال إنجليزي، متسلحاً بمنظار ثم انتصب تحت القبعة المناسبة لأميرال البحر. وتلفّعت أنا بصديريّ أحمر صغير ووضعت على رأسي باروكة شعر بذوائب طويلة، جاعلاً نفسي خادماً للأميرال. فمثلّنا معركة الطرف الأغر وقصفنا كوبنهاغن وشتتنا أسطول نابليون في أبو قير وأبحرنا بسفننا الشراعية مجتازين هذا الرأس البحري أو ذاك، ووقفنا وقفات تاريخية فمعاصرة أمام المنحوتة الخشبية ذات القياسات الهولندية المستسيغة لكلّ شيء، مثلما اعتقدنا، والتي لم تلحظ شيئا.

واليوم بتّ أعلم بان كلّ شيء كان يتطلع إلينا، فلم يبق شيء دون أن يُرى، بل بتّ أعلم أن ورق كساء الجدران نفسه كانت له ذاكرة أفضل من ذاكرة البشر. فليسْ الله العزيز وحده من يرى كل شيء! إذ أن كرسي المطبخ أو علاّقة الملابس أو منفضة السجائر نصف الممتلئة أو التمثال

الخشبي لامرأة اسمها نيوبا كان كافياً لتقديم الشهود غير القابلين للنسيان لكلّ فعل. وكنّا خدمنا في متحف الملاحة أربعة عشر يوماً أو أكثر. فاشترى لي هربرت طبلاً وأعطى الأمّ تروجنسكي مرتين أجرته الأسبوعية، إضافة إلى بدل الخطورة.

وذات ثلاثاء - كان المتحف يقفل أبوابه يوم الاثنين - أمتنع محاسب الدخول أن يقطع لي تذكرة أطفال ومنعني أيضاً من الدخول. فأراد هربرت أن يعرف السبب. فتحدث المحاسب الذي كان متجهماً نزقاً في الواقع، لكنه لم يكن يخلو من الطيبة ، عن تنازل قدمه ذات مرّة، أمّا الآن فقد أصبح دخول الأطفال غير ممكن. لأن والد الصبي قد اعترض على الدخول، لكنه لا يمانع إذا ما بقيت أنا عند شبّاك التذاكر؛ إذ أن الوالد بصفته تاجراً مترملاً، ليس لديه الوقت للمراقبة، لكن الابن لا يمكن بعد اليوم أن يدخل قاعة البُنية الاحتفالية؛ لأن ذلك يعد تصرفاً غير مسؤول.

وبدا هربرت موشكاً على الاستسلام، فنغزته بتحريض، فأعطى المحاسب الحقَّ من ناحية، وسمّاني من ناحية أخرى طلسمه وملاكه الحارس، ثم تحدث عن براءة الأطفال التي من شأنها أن تحميه، وباختصار: كاد هربرت أن يصاحب المحاسب، فحصل على موافقته بدخولي إلى متحف الملاحة للمرّة الأخيرة حسبما قال المحاسب.

فارتقيت مرّة أخرى السلّم الحلزوني المنمّق، الذي كان يُدهن دائماً من جديد، ، واضعاً يدي بيد صاحبي الكبير، حتى وصلنا الطابق الثاني، حيث أقامت نيوبا. كان وقت الضحى هادئاً، لكن فترة العصر بدت أكثر هدوءا. جلس هربرت بعينين نصف مغمضتين في الكرسي الجلدي الذي أطلت منه رؤوس المسامير الصفراء، وتربعت أنا عند قدميه. وبقي الطبل صامتاً، ثم أخذنا نرمق البوارج من فوقنا والفرقاطات والطرادات والسفن ذات الصواري الخمس والسفن الحربية ذات المجاديف والمراكب وزوارق السواحل والقوارب الشراعية السريعة التي كانت معلقة كلّها تحت ألواح البلّوط، منتظرين الرياح المناسبة للإقلاع. وصرنا نستطلع الأسطول النموذجي ونتفحصه، مترصدين معه هبوب نسمة ريح منعشة، خائفين من

سكون القاعة الاحتفالية، وفعلنا كلّ ما في وسعنا لكي لا نتفحص نيوبا فنخشاها. فما الذي كنّا سنهبه لأصوات النخر التي ستصدرها دودة الخشب التي من شأنها البرهنة على أن أعماق الخشب الأخضر يمكن اختراقها بإصرار، ومن ثم تجويفها، حتى وأن تمّ ذلك ببطء، وعلى أن نيوبا مخلوقة فانية. لكننا لم نلمح أي حركة لدودة. فقد قام مطهّر الأخشاب بتطعيم جسد الخشب ضد الديدان وجعله خالدا. فلم يبق لنا سوى نموذج الأسطول وحده، إلى جانب الأمل الأحمق بهبوب ريح الإقلاع وبالمغالاة في التخوّف من نيوبا التي كان من الممكن التخلّي عنها ونسيانها، وإن بمشقة، أو لعلّنا سننساها لو لم تصب شمس الأصيل، فجأةً، عينها الكهرمانية اليسرى إصابة مباشرة فجعلتها متأججة.

لكنّ هذا الالتهاب لم يكن من شأنه أن يفاجئنا، إذ أننا كنّا على معرفة بالأصائل المشمسة في الطابق الثاني لمتحف الملاحة، وكنّا نحدد الوقت من خلال دقّات الساعة وعبر سقوط الضوء من إفريز الحائط ليحتل البارجة الحربية. كذلك فعلت كنائس الجهة اليمنى من المدينة وكنائس المدينة القديمة ما في وسعها بغية إمداد أشعة الشمس المثيرة للغبار بالأوقات مقدمة خدمة لتحفنا التاريخية من خلال قرع نواقيسها التاريخي. فليس من العجب أن تبدو لنا الشمس تاريخيةً، جاهزةً للعرض ومتهمةً بالتآمر مع عينيّ نيوبا الكهرمانيتين.

وفي ذلك الأصيل، حين كنّا غير مستعدين للّعب، وبلا مزاج أو جرأة لممارسة العبث الاستفزازي، أصابتنا النظرة البرّاقة المنطلقة من الخشب المتبلّد عادة، إصابة مزدوجة، فانتظرنا بانقباض انصراف نصف الساعة الأخير الذي علينا أن نتحمله. وفي تمام الساعة الخامسة أغلق المتحف.

وخلال اليوم التالي التحق هربرت في الخدمة بمفرده، فرافقته إلى المتحف، لكنني لم أرغب في الانتظار عند شبّاك التذاكر، فبحثت عن مكان مقابل منزل الأعيان الذي استحال إلى متحف. وجلست مع طبلي على كرة من حجر الصوان، نبت لها من الخلف ذيل كان البالغون يستخدمونه بمثابة درابزين. وغني عن القول إنّ الجناح الآخر للسّلم كان

محروساً من قبل كرة مماثلة صُبّ ذيلها من حديد الزهر. كنت نادراً ما أطيل، وإن فعلت ذلك فبدويّ مروّع، احتجاجاً على النساء عابرات السبيل اللواتي كنّ يتسلين بالوقوف أمامي، ليسألني عن اسمي ويتحسسن بأيديهن المعروقة شعري الجميل، القصير والخفيف التجعّد آنذاك، حتى انقضت فترة الضحى. وفي نهاية جادة «هايلغن-غايست» قفّت دجاجة سانت ماريا، حمراء وسوداء وخضراء، حاضنة بيضها تحت البرج الغليظ المنتفخ. كانت الحمائم تنطلق من جدران البرج المتصدعة، وتهبط على مقربة منّي ثم تلغط بكلام مخرف، غير عارفة كم من الوقت سيستغرق التفقيس أو ما الذي سيتمخض عنه، أو فيما إذا سيتحول هذا التفقيس الذي دام مئات الأعوام في نهاية المطاف إلى غاية بحدّ ذاتها.

وفي الظهر جاء هربرت إلى الجادة، وناولني قطعة مدهونة بالسمن، في وسطها سجق نيء بعرض الإصبع، استلها من علبة إفطاره التي ملأتها الأمّ تروجنسكي لدرجة فتعذر غلقها، ثم أومأ لي برأسه على نحو آلي، مشجعاً؛ لأنني رفضت الأكل. في الأخير أكلت، وبدأ هربرت، الذي لم يرغب في الأكل، يدخّن سيجارة. وقبل أن يستعيده المتحف من جديد، اختفى في حانة جادة بروتبنكن غاسه ليحتسي كأسين أو ثلاثة من عرق العرعر. كنت تطلعت إلى حنجرته الناتئة عندما عبّ العرق، فلم يعجبني تفريغه للكؤوس في جوفه. بعد فترة طويلة من تغلّبه على السلّم اللولبي للمتحف، وبعد أن عدت إلى الجلوس على كرة الصوان، بقي أوسكار محتفظاً في عينه بحنجرة صديقه الرجراجة.

وشيئاً فشيئاً زحف المساء نحو واجهة المتحف الملونة الشاحبة، فأخذ يقفز من نموذج دائري إلى آخر، معتلياً الحوريات وقرون الشرب، ملتهماً الملائكة الغلاظ الممسكين بالزهور، جاعلاً الأعناب الناضجة بالرسم شديدة النضج حقّاً، ليحل في منتصف حفل ريفيّ، ويلعب لعبة «البقرة العمياء»، ويتأرجح في أرجوحة الزهور. ثمّ صار يشرّف المواطنين الذين كانوا يمارسون التجارة بسراويل فضفاضة ضيقة من الأسفل، فاصطاد أيّلاً طاردته الكلاب، حتى وصل المساءُ أخيراً إلى ذلك الشبّاك في الطابق

الثاني الذي سمح للشمس بإضاءة عين كهرمانية على نحو قصير لكنه دائم. فتزحزحت على مهل من كرة الصوان، فارتطم الطبل بالحجر، فتطاير طلاء الإطار الأبيض للطبل وأجزاء من اللهب المسنن المصبوغ، متساقطةً بيضاء وحمراء على السلّم المؤدي إلى المدخل.

وربما كنت أنشدت مقطعاً ما، أو لهجت بصلاة، أو أحصيت شيئاً ما: فبعد برهة وجيزة كانت سيارة الإسعاف تقف أمام بوّابة المتحف. وفوراً أحاط المارّة بالمدخل، فتمكن أوسكار من التسلل إلى المنزل مع رجال الطوارئ. فطلعت السلّم على نحو أسرع من أولئك الذين يفترض أنهم يعرفون التفاصيل المكانية للمتحف من خلال الحوادث السابقة.

فيا عجبي من أنني لم أضحك حين رأيت هربرت! كان معلقاً بهيكل نيوبا من الأمام، يريد سفد الخشب، فكان رأسه يغطي رأسها، وقد تشبثت ذراعاه بذراعيها المرفوعتين المتشابكتين. كان منزوع القميص، حيث عثّر عليه مثنياً بانتظام على كرسي الجلد إلى جانب الباب، وقد عرض ظهره الندب جميعها، فقرأت تلك الكتابة، وأحصيت الحروف، فوجدتها كاملة غير منقوصة، كذلك لم تكن هناك أي إشارة إلى ندبة جديدة.

ووجد رجال الطوارئ الذين اقتحموا القاعة ورائي صعوبة بالغة في فصل هربرت عن نيوبا. كان هربرت المتهيّج للتعشير قد انتزع من سلسلة الأمان ساطوراً بحرياً مرهف النصلين، فطعن نيوبا بنصل عميقاً في الخشب، لكن النصل الآخر ارتطم بلحمه أثناء هجومه على الأنثى. ومثلما نجح في الالتحام من الأعلى، فإنه لم يعثر على شيء في الأسفل، حيث انفتح سرواله، وحيث أطلّ عضوه منتصباً بلا وعي، غير عاثر على مستقر لمرساته. وعندما فرشوا البطانية المنقوش عليها «خدمات الطوارئ البلدية» على جسد هربرت، تلمس أوسكار طريقه إلى طبله كعادته حين يفقد شيئاً، فقرع الطبل بقبضتيه عندما أخرجه رجال المتحف من «قاعة البُنية الاحتفالية» وأنزلوه السلّم، ثم نقلوه أخيراً بعربة الشرطة إلى البيت.

والآن أيضاً، أي في المصّحة، وبعدما استعاد أوسكار في ذهنه محاولة الحبّ بين الخشب واللحم، توجب عليه أن يشتغل بيديه، لكي

يهيم مرّة أخرى في متاهة الندب على ظهر هربرت تروجنسكي الغليظة، الملونة، الصلبة، السريعة التأثر، المتنبئة بكلّ شيء، المستبقة كلّ شيء، المتجاوزة لكلّ صلابة وحساسية: الآن، بعدما انتزعوا هربرت من منحوتته القاسية القلب، دخل برونو، معيني، برأسه اليائس الكمثريّ الشكل، فأبعد قبضتي عن الطبل بحذر، ثمّ علقه في القائمة اليسرى للسرير، في طرف سريري المعدني، وردّ عليّ البطانية على نحو مستو.

قال منبهاً: «يا سيّد ماتسرات؛ إذا ما واصلت التطبيل بحّدة على هذا المنوال؛ فإن الناس في الأماكن الأخرى سيسمعون بأن هناك من يطبّل بصخب وحدّة. ألا تريد أن تتوقف فترة، أو تطبّل بهدوء على الأقل؟» نعم يا برونو، إنني أريد أن أملي على طبلي الصفيح فصلاً آخر هادئاً، على الرغم من أن هذا الموضوع بالذات ينزع صارخاً نحو فرقة موسيقية صاخبة، جائعة حدّ الخواء.

إيمان ورجاء ومحبّة

كان هناك موسيقي اسمه ماين، يستطيع النفخ في البوق ببراعة تامة. وقد سكن في الطابق الرابع، تحت سقف المبنى المؤجر، وكان ماين يحتفظ بأربع قطط، واحدة اسمها بيسمارك ، ويحتسي خمر العرعر من الفجر حتى وقت متأخر. وصار فعل ذلك زمناً طويلاً إلى أن حلّت به نكبة جعلته يصحو.

إنّ أوسكار لا يودّ اليوم أن يؤمن أيماناً كاملاً بعلامات التنبؤ، ومع ذلك كان هناك ما يكفي من العلامات المنذرة بالشؤم الذي كان يرتدي على الدوام أحذية عسكرية ضخمة، ويقطع خطوات واسعة بأحذيته العسكرية المتضخمة دائماً، الأحذية التي عقدت النيّة على حمل الشؤم معها حيثما حلّت. لقد مات صاحبي هربرت تروجنسكي جريحاً في الصدر، إثر طعنة سددتها له أنثى خشبية، لكن الأنثى لم تمت. فخُتم عليها بالشمع الأحمر وحُفظت في قبو المتحف بحجة الترميم والصيانة. بيد أن المرء لا يستطيع خزن النكبة في القبو. فوجدت طريقها مع مياه الصرف إلى المجاري، واختلطت بقنوات توزيع الغاز حتى وصلت إلى جميع البيوت، ولم يدرك أحد من أولئك الذين كانوا يضعون قدور حسائهم على اللهب الأزرق بأن النكبة قد جلبت معها طعامها الرديء للطهي.

وعندما دُفن هربرت في مقبرة لانغفور، رأيت للمرّة الثانية شوغر ليو الذي حظيت بمعرفته في مقبرة برنتاو. فقدم لنا كلنّا، الأمّ تروجنسكي وغوسته وفرتس وماريا تروجنسكي والسيّدة كاتر البدينة والعجوز هايلاند

الذي كان يذبح الدجاج للأمّ تروجنسكي أثناء حفلات فرتس و أبي المفترض ماتسرات الذي بدا سخياً كما كان يحلو له أن يظهر، فدفع نصف تكاليف الدفن، ويان برونسكي الذي كان قليل المعرفة بهربرت، لكنه حضر لكي يلتقي بماتسرات، وربما بي أيضاً، على أرض مقبرة حيادية؛ قدم لنا كلّنا تعازيه المرتبكة التي لا تفرّق بين الفرح والحزن، ثم ناولنا، والرذاذ يتطاير من فمه، قفّازه المرتجف الأبيض من فرط العفونة. عندما وصل شوغر ليو إلى الموسيقي ماين الذي ارتدى ثياباً نصفها مدني ونصفها الآخر من قيافة قوّات العاصفة الألمانية، رفرف قفّازه، فتشكلت علامة ثانية لكارثة نكبة محدقة. إذ حلّق قماش قفّاز ليو الماحل اللون، مستنفراً إلى الأعلى، ثمّ طار بعيداً، ساحباً معه ليو عبر القبور. فسمعناه يصرخ، بيد أن خرق الكلمات تلك التي بقيت عالقةً في أغراس المقبرة لم تكن كلمات تعزية.

وعلى الرغم من أن أحداً لم يتزحزح مبتعداً عن ماين، إلا أنه وقف منعزلاً وحيداً بين المشيعين، فتعرّف عليه شوغر ليو وشخّصه، فبان عليه الاضطراب وهو منشغل ببوقه الذي جلبه معه خصيصاً، وعزف أنغاماً رائعة على قبر هربرت. أنغام رائعة؛ لأن ماين كان قد شرب من عرق العرعر الذي لم يذقه منذ زمن طويل، لأن موت هربرت، الذي كان في سنّه، قد هزّ أعماقه، بينما جعلني موت هربرت ألوذ بالصمت أنا وطبلي على السواء.

فكان هناك موسيقي اسمه ماين، يستطيع العزف على البوق ألحاناً عذبة. وكان يسكن في الطابق الرابع، تحت سقف البناية المؤجرة، ويحتفظ بأربع قطط، واحدة منها اسمها بيسمارك، ويشرب من زجاجة العرعر منذ الصباح حتى المساء، إلى أن التحق بصنف خيّالة العاصفة في نهاية العام السادس والثلاثين حسبما أعتقد، أو بداية العام السابع والثلاثين، فصار ينفخ على البوق مع الجوقة الموسيقية، بإتقان في الواقع، لكن ليس على نحو رائع؛ لأنه تخلّى عن زجاجة العرعر واندسّ في سروال الخيّالة الجلدي، فلم يعد يستطيع النفخ إلا صاحياً وبضجيج عال.

وبعدما فقد رجل الصاعقة ماين صديق صباه هربرت تروجنسكي الذي أنضم معه في العشرينات إلى الشبيبة الشيوعية أوّل الأمر، قبل أن يقوم بدفع بدل العضوية في منظمة «الصقور الحمر»، بعدما دُفن هربرت تحت التراب، هرع ماين إلى البوق وإلى زجاجة العرعر من جديد. إذ أنه أراد أن يعزف ألحاناً عذبة، دون أن يكون صاحياً؛ فهو قد احتفظ بأذنه الموسيقية حتى عندما اعتلى صهوة الجواد البنّي، فأخذ لهذا السبب رشفة، وظلّ محتفظاً أثناء العزف بمعطفه ذي القماش المدني فوق قيافته العسكرية، على الرغم من أنه عقد العزم على النفخ في البوق عبر تراب المقبرة بقيافة بنيّة، حتى لو كان حاسر الرأس.

كان هناك رجل عاصفة احتفظ بمعطفه فوق قيافة الخيّالة التابعة لقوّات العاصفة عندما عزف على البوق أنغاماً رائعة تماماً وصافية كخمر العرعر على قبر صديق صباه. حين أراد شوغر ليو، الموجود في المقابر كلّها، أن يبلّغ تعازيه إلى المشيعين، سمع المشيعون جميعهم تعازي شوغر ليو. إلا رجل العاصفة الذي لم يسمح له أن يلمس قفّاز ليو الأبيض؛ لأن ليو قد عرف رجل الصاعقة، فخاف منه، وزعق به وحرمه من القفّاز والتعزية معاً. فانصرف رجل العاصفة إلى داره بلا تعزية، حاملاً معه بوقه الهامد، فعثر هناك في داره، تحت سقف البناية المؤجرة، على قططه الأربع.

وثمّة رجل عاصفة اسمه ماين، احتفظ، منذ الأزمان التي كان يحتسي فيها عرق العرعر كلّ يوم ويعزف على البوق عزفاً جميلاً، بأربع قطط في داره، واحدة منها اسمها بيسمارك. وعندما عاد رجل الصاعقة ماين إلى داره ذات يوم، قادماً من جنازة صديق صباه هربرت تروجنسكي، وبدا حزيناً وصاحياً من جديد، لأن أحداً ما امتنع عن تقديم التعزية له، فوجد نفسه وحيداً في الدار مع قططه الأربع التي أخذت تتمسح في جزمته، جزمة الخيّالة الطويلة، فقدم لها ماين جريدة مليئة برؤوس السمك، مما جعل القطط تصرف النظر عن الحذاء. وبدت الدار في ذلك اليوم مشبعةً برائحة القطط الأربع، التي كانت في الواقع هررة جميعها، أحدها اسمه بيسمارك، ويسير على قوائم سوداء منقطة بالأبيض. لكن ماين لم يكن

لديه عرق العرعر في الدار. لذلك ضجّت الدار برائحة القطط أو الهررة. لعلّه كان سيشتري من متجر بضاعة المستعمرات الذي نملكه زجاجة خمر لو لم يكن سكنه في الطابق الرابع تحت السقف؛ إذ أنه كان يخشى من السلّم ومن الجيران الذين أغلظ لهم اليمين مرّات عديدة بأنه لن يضع أبداً قطرة من العرعر على شفتيه الموسيقيتين، وبأنه سيبدأ حياة جديدة شديدة الصحو، وسيكرّس نفسه اعتباراً من ذلك اليوم للنظام وليس لنزوات الشباب الباطلة.

كان هناك رجل اسمه ماين، وبعدما وجد نفسه ذات مرّة بمفرده في داره تحت السقف، مع قططه الأربع، التي كان أحدها يدعى بيسمارك، استهجن رائحة القطط على نحو خاص؛ إذ أنه شهد اليوم أمراً محرجاً، وكذلك لأن داره كانت خالية من عرق العرعر. وبما أن الظمأ والحرج قد اشتدا وتصاعدت معهما رائحة القطط، هرع ماين، الذي كان موسيقياً من حيث المهنة وعضواً في جوقة خيّالة العاصفة، إلى الكلاّب المعدني الملقى بجانب موقد النار المنطفئ، وهوى به على الهررة حتى وصل إلى قناعة بأن الهررة الأربعة، بما فيها الهرّ بيسمارك، قد قضى نحبها وانتهى أمرها، على الرغم من أن رائحتها في الدار لم تفقد من قوتها الملحّة شيئاً.

وكان هناك ساعاتي اسمه لاوبشاد، يسكن في الطابق الأوّل من البناية المؤجرة، حيث كنّا نسكن، مقيماً في دار من غرفتين، أطلت نوافذهما على الباحة الخارجية. وكان الساعاتي لاوبشاد غير متزوج وكان عضواً في «رعاية الشعب» التابعة للحزب القومي الألماني وعضواً كذلك في جمعية الرفق بالحيوان ويتمتع بقلب رقيق عطوف، فكان يساعد الناس المتعبين والحيوانات المريضة والساعات الخربة على النهوض من جديد. وعندما كان الساعاتي يجلس في المساء عند النافذة متأملاً، ممعناً التفكير في تشييع جنازة جاره الذي شهدها وقت الضحى، رأى الموسيقي ماين الذي كان يسكن في الطابق الرابع من البناية المؤجرة ذاتها، حاملاً في باحة البناية كيس بطاطس مملوء إلى النصف، لكنه بدا مبللاً من الأسفل ويقطر،

فحشره في أحد صندوقي القمامة. ولأن صندوق القمامة كان مليئاً بمقدار ثلاثة أرباع، فلم يفلح الموسيقي في قفل غطاء الصندوق إلا بمشقة.

وكان هناك أربعة هررة، أحدها اسمه بيسمارك، وكان صاحبها موسيقي اسمه ماين. ولأن الهررة غير المخصيّة كانت لها رائحة لاذعة وقوية، فإن الموسيقي قضى عليها ذات يوم بكلاّب معدني معد لإذكاء النار؛ إذ أن الرائحة بدت له، لأسباب خاصة، مزعجة تماماً، فدس الرمم في كيس بطاطس، ثم هبط به السلالم الأربعة، وكان على عجلة من أمره، فحشر الصرّة في صندوق القمامة بجانب قضيب نفض البسط؛ لأن الكيس كان خفيف النسيج فبدأ يقطر في الطابق الثاني. ولمّا كان صندوق القمامة ممتلئاً إلى حدّ ما، فقد توجب على الموسيقي أن يضغط الكيس والقمامة معاً لكي يتمكن من إغلاق الصندوق. وقبل أنّ يغادر البناية المؤجرة إلى الشارع الجانبي - إذ أنه لم يرغب في العودة إلى داره الخالية في الواقع من القطط، والمشبعة برائحتها - بدأت القمامة المضغوطة تتمدد حتى رفعت الكيس ومعه غطاء الصندوق. وكان هناك موسيقي صرع هرره الأربعة ودفنها في صندوق القمامة ثم غادر البناية ليفتش عن أصحابه. وكان هناك ساعاتي يجلس متأملاً عند النافذة، فلاحظ كيف أن الموسيقي ماين حشر كيساً نصف ممتلئ في صندوق القمامة، ثم غادر الباحة الخارجية، ولاحظ أيضاً بأن غطاء صندوق القمامة ارتفع بعد لحظات قليلة على انصراف ماين وصار يرتفع باستمرار.

كان هناك أربعة هررة، قُتلت ضرباً، لأن رائحتها كانت قويّة ذات يوم غير عادي، فحشرت في كيس ودفنت في صندوق القمامة، بيد أن الهررة التي كان أحدها يدعى بيسمارك، لم تزهق روحها تماماً، إنما كانت ذات سبع أرواح كما هي القطط عادة. فأخذت تتحرك في الكيس فجعلت صندوق القمامة يتحرك، ووضعت الساعاتي لاوبشاد الذي مازال يمعن التفكير عند النافذة أمام سؤال محدد: احزر ما الذي يوجد في الكيس الذي حشره الموسيقي ماين في صندوق القمامة؟ وكان هناك ساعاتي لم يطق رؤية شيء ما يتحرك في صندوق القمامة، فخرج من داره في الطابق الأوّل

من البناية المؤجرة، فاتجه نحو باحة البناية المؤجرة، وفتح غطاء صندوق القمامة والكيس، ثم حمل إلى داره القطط المهشمة التي مازال بها رمق، ليعتني بها. بيد أنها فارقت الحياة تحت أنامل الساعاتي في الليلة اللاحقة، فلم يبق أمامه سوى أن يرفع دعوة لدى جمعية الرفق بالحيوان، التي كان عضواً فيها، ثم أبلغ القيادة المحلية للحزب القومي الألماني عن عملية تعذيب الحيوانات، تلك العملية التي من شأنها أن تضرّ بسمعة الحزب.

كان هناك رجل عاصفة قتل أربعة من الهررة، فقامت القطط التي لم تمت تماماً بإفشاء سرّه، مما حدا بالساعاتي إلى أن يقيم دعوة عليه. فوصل الأمر إلى حدّ الإجراءات القضائية، وتوجب على رجل العاصفة أن يدفع غرامة نقدية. بيد أنّ الأمر نوقش أيضاً من قبل قوّات العاصفة، فقررت فصل رجل العاصفة من الحزب بسبب قيامه بتصرفات مشينة مخلة بالآداب. وعلى الرغم مما أظهره رجل العاصفة من شجاعة فائقة في الليلة الواقعة بين الخامس والعاشر من نوفمبر العام الثامن والثلاثين، التي أطلق عليها فيما بعد «ليلة الرايخ البلّورية»، حين ساهم مع آخرين في إحراق بِيعَة لانغفور اليهودية في «ميشائيلسفيغ»، وحين اشترك وبفعالية أيضاً في صباح اليوم التالي بتصفية المحلاّت التجارية الموصوفة مسبقاً بدقة؛ فإن اندفاعه المتحمس لم يحل دون طرده من صنف خيّالة العاصفة. وبسبب عملية تعذيب الحيوان اللاإنسانية جُرّد من رتبته ومن ثم شُطب اسمه من قائمة العضوية؛ بحيث أنه لم يتمكن من الانتساب إلى كتائب الدفاع المحلية إلا بعد عام كامل، تلك الكتائب التي ضمتها قوّات الحزب النازي المسلحة إليها فيما بعد.

كان هناك تاجر بضائع مستعمرات، قفل متجره ذات يوم من أيّام نوفمبر/ تشرين الثاني، لأنّ المدينة برمتها كان هائجة مائجة، فأخذ ابنه أوسكار معه، واستقلا الترام رقم خمسة حتى بوّابة لانغاسه؛ إذ أن البِيعة اليهودية نشبت فيها النار هناك، مثلما حدث للبيع في تسوبوت ولانغفور. كانت النار قد أتت على البيعة حتى آخرها فاتخذ رجال الإطفاء الاحتياطات اللازمة لئلا ينتقل الحريق إلى المنازل المجاورة. كان أصحاب

القيافات العسكرية والمدنيون منهمكين في تجميع الكتب والأدوات المقدسة والأقمشة الغريبة أمام البيعة، ثم أضرمت النار في الجبل المتراكم. فاستغل تاجر بضائع المستعمرات الفرصة ليدفئ أصابعه ومشاعره فوق النار العلنية العامة. بيد أن ابنه أوسكار، الذي لاحظ بأن أباه كان منشغلاً، متأجج المشاعر، انسحب خلسةً، ثم حثّ خطاه في اتجاه رواق تسويغهاوس، بفعل القلق على طبوله المصنوعة من الصفيح الأبيض الأحمر الطلاء.

وكان هناك تاجر لعب أطفال اسمه زيغسموند ماركوس يبيع ضمن ما يبيع طبولاً بيضاء حمراء الطلاء. كان أوسكار الذي تحدثنا عنه قبل برهة أكبر شارٍ لتلك الطبول؛ لأنه كان طبّالاً من حيث المهنة، وغير قادر على العيش بلا طبل صفيح. لذلك أسرع مبتعداً عن البيعة المشتعلة، قاصداً رواق تسويغهاوس، إذ أن حامي طبوله كان يقيم هناك. ألا أنه وجده في وضع جعل عليه بيع الطبول مستحيلاً بعد الآن، هنا أو في العالم برمته.

وزار رجال الألعاب النارية، الذين اعتقدت بأنني فررت منهم، زاروا ماركوس قبلي، فغمسوا الفرشاة بالصبغ وكتبوا على الواجهة بالخطّ الألماني القديم عبارة «خنزير يهودي»، ثم أخذوا يركلون بكعوب أحذيتهم، ربما بسبب الانزعاج من خطّ أيديهم نفسه، الواجهة الزجاجية، حتى بات اللقب الذي خلعوه على ماركوس لا يقرأ إلا عن طريق الحدس. دخلوا المحل عبر الواجهة المحطمة، محتقرين الباب، وأخذوا يلعبون بلعب الأطفال على طريقتهم الصريحة الواضحة. فعثرت عليهم أثناء اللعب بعدما توغلت في المحل عبر الواجهة الزجاجية كذلك. كان البعض منهم قد أنزل سرواله إلى الأسفل، فأطلق سجقاً بنيّاً من مؤخرته، اختلطت فيه حبّات بازلاء غير مهضومة جيّداً، أطلقه على السفن الشراعية والقرود العازفة الكمان وعلى طبولي. كلّهم كانوا يشبهون الموسيقي ماين، إذ ارتدوا قيافة ماين التابعة لقوّات العاصفة، لكن ماين لم يكن معهم، نعم، مثلما كان هؤلاء الموجودون هنا غير موجودين في مكان آخر. وشهر أحدهم خنجره وصار يطعن الدمى فيفتقها، وبدا كلّ مرّة خائب

الظنّ محبطاً، لأن شيئاً آخر عدا النشارة لم يتدفق من هياكلها وأعضائها المنتفخة. فشعرت بالقلق على طبولي التي لم تثر إعجابهم، وكان طبلي لم يتحمل غضبهم، لكنه أجبر على الصمت فخرّ على ركبتيه. لكن ماركوس كان قد فلت من غضبهم. ولمّا أرادوا التحدث إليه في مكتبه؛ فإنهم لم يطرقوا الباب، بل خلعوه، على الرغم من أنه لم يكن مقفلا.

لقد جلس تاجر لعب الأطفال خلف طاولته، واضعاً على كمّي بذلة عمله الرمادية الغامقة واقيات من القماش كعادته، فكشفت قشرة الرأس المتساقطة على كتفيه عن مرض شعره. كان أحد الرجال يحمل بين أصابعه دمية من مسرح العرائس، فصدم ماركوس بعجوز «القرقوز» الخشبية، غير أن ماركوس لم يكن قابلاً للكلام، أو الإهانة والأذى. كان أمامه على الطاولة قدح ماء، استوجبت شربه نوبةُ ظمأ، تولدت في اللحظة التي نشّفت فيها واجهةُ محلّه المتصدعة بجلبةٍ لهاته.

وثمّة طبّال على الصفيح اسمه أوسكار، بعدما انتزع منه بائع لعب الأطفال وخُرب محلّ بائع لعب الأطفال أدرك بأن أزماناً عصيبة ستمر بطبّالي الصفيح الأقزام من أمثاله. فانتقى من وسط الأنقاض، وهو يوشك على مغادرة المحلّ، طبلاً سليماً واثنين آخرين متضررين قليلاً، ثم خلّف رواق تسويغهاوس وراء ظهره، معلقاً الطبول في رقبته، ليفتش في كولنماركت عن أبيه الذي ربما كان يفتش عنه. في الخارج كان الوقت وقت ضحى تشرينيّ متأخر. وإلى جانب المسرح البلدي، بالقرب من محطة الترام وقفت نساء متدينات وفتيات قبيحات كنّ يرتجفن من البرد ويوزعن كُتيبات عن التقوى ويجمعن النقود في علب من صفيح وحملن لافتة ثبتت في عمودين خشبيين، اقتبست نصّاً من رسالة بُولص الأولى إلى أهالي كُورِنثُوس ورد في الإصحاح الثالث عشر. استطاع أوسكار أن يقرأ: "الإيمان-الرجاء-المحبّة"، فتعامل أوسكار مع تلك المفردات الثلاث كما يتعامل البهلوان مع الزجاجات: سريع الإيمان ومعصرة عرق الرجاء ودُرر الغرام وكوخ الرجاء الصالح وخمرة النساء المشتهاة واجتماع الدائنين. هل تؤمن بأنها ستمطر غداً؟ شعب ساذج الإيمان تماماً يؤمن ببابا نُويل. بيد أن

بابا نويل كان في الواقع بابا الغاز. أعتقد أن هناك رائحة الجوز واللّوز، بيد أنها كانت رائحة غاز. والآن فسيحل عما قريب، حسبما أعتقد، أوّل عيد بشارة قبل عيد الميلاد كما قيل. وفعلاً فُتحت مفاتيح الغاز على آخرها في عيد البشارة الأوّل والثاني حتى الرابع، مثلما يفتح المرء حنفيات الغاز، لكي تبدو رائحة الجوز واللّوز جديرة بالتصديق، ولكي يستطيع كاسروّ الجوز الإيمان بكلّ ارتياح: بأنه سيأتي. سيأتي. لكن من ذا الذي أتى؟ أهو الطفل يسوع، المخلّص؟ أم رجل الغاز وساعة القياس تحت إبطه تتكُ بلا انقطاع؟ وجاء ليقول: أنا منقذ هذا العالم، فبدوني لا يمكنكم أن تطهوا الطعام. فبدا ليّن الطبع، أتاح للآخرين فرصة التحدث معه، فعرض عليهم تعريفة مناسبة، وفتح صنبور الغاز المنظّف حديثاً، فأطلق الروح المقدسة، ليتسنى لهم سلق اليمام، ثم وزّع جوزاً ولوزاً قابلاً للكسر، فكُسر الجوز واللّوز على الفور فتضوّع منها كذلك: الروح والغاز، لدرجة أصبح معها سهلاً على أولئك السهلي التصديق بأنهم نظروا وسط الهواء الأزرق الكثيف إلى جميع رجال الغاز الواقفين أمام المحلاّت التجارية باعتبارهم موزعي هدايا عيد الميلاد، ونظروا إلى الطفل يسوع معروضاً في جميع الأحجام والأسعار. فآمنوا هكذا بمؤسسة الغاز باعتبارها المنقذ الوحيد الذي يرمز القدر عبر منظّم نسب الغاز المتصاعدة والمنخفضة، وينظم احتفالات الزمن السابق لعيد الميلاد بأسعار معقولة؛ زمن البشارة، ذاك الذي آمن كثيرون بعيد الميلاد الذي سيتمخض عنه كما كان مقدّراً، والذي لم يستطع تجاوز أيّامه الاحتفالية العصيبة، إلا أولئك الذين نفد مخزونهم من الجوز واللّوز - مع أنهم كانوا كلهم على اعتقاد بأن لديهم منه ما يكفي.

بعدما أتضح أن الإيمان ببابا نويل، موزع هدايا الميلاد، كان يعني الإيمان برجل الغاز، لجأ المرء، دون أن يضع تسلل رسالة بُولص إلى أهالي كورنثوس بنظر الاعتبار، إلى المحبّة: أحبّك، هكذا قيل، أوه، إنني أحبّك. فهل تحبني أنت؟ هل تحبني؛ قُل، هل تحبني حقّاً؟ إنني أحبّك أيضاً. ومن فرط الحبّ فقد سمّى أحدهما الآخر فجلاً، فأحبّا الفجل، ثم

قضم أحدهما الآخر، فجلٌ قضم فجلاً الآخر من شدّة الحبّ. فصارا يقصان على بعضهما أمثلة من الحبّ السماوي المدهش والأرضيّ أيضاً بين الفجل، ويهمسان قبل القضم بانتعاش وجوع وحدّة: قل ليّ يا فجل هل تحبني؟ إذ أنني أحبّ نفسي أيضاً. وحينما قضموا الفجل من فرط الحبّ، معلنين الإيمان برجل الغاز ديناً للدولة، لم يبق بعد الإيمان والمحبّة المكتسبة سلفاً، سوى البضاعة الثالثة الكاسدة التي وردت في رسالة بولص إلى أهالي كورنثوس: الرجاء. فبينما كانوا يقضمون الفجل والجوز واللوز تمنوا أن يُحسم الأمر قريباً، لكي يواصلوا القضم أو يبدءوا من جديد، متمنين أثناء موسيقى الختام أو بعدها أن يحسم أمرّ الحسم قريبا. فكانوا لا يعلمون ما الذي يجب أن يحسّم، بل تمنّوا أن يُحسم الأمر عاجلاً، أن يحسم غداً، متأملين أن لا يكون الحسم اليوم؛ إذ ما الذي يمكن أن يفعلوه بالحسم المفاجئ. وعندما حُسم الأمر، خلقوا منه سريعاً بداية جديدة حافلة بالأمل؛ إذ أن الحسم هنا، في بلادنا هذه، يعني دائماً بداية وأملاً لكل حسم بما فيه الحسم النهائي. فقد ورد أيضاً: طالما بقي الإنسان يأمل؛ فإنه سيبدأ دائماً من جديد بالحسم الزاخر بالأمل.

لكنني لا أعرف، نعم: لا أعرف مثلاً من ذا الذي يختفي تحت لحية بابا نويل، وما الذي يخفيه خادمه في خرجه، لا أعرف كيف يفتح المرء صنابير الغاز وكيف يحدّ من تدفقها؛ إذ أن عيد البشارة انهمر منها، أو مازال ينهمر، فذلك ما لم أعرفه، فهل تمّ على سبيل التجربة، لكن لمن هذه التجربة، فذلك ما لم أعرفه، ولم أعرف فيما إذا عليّ الاعتقاد بأنهم، حسبما أتمنى، سينظفون صنابير الغاز بحنان، لعلّها تنعب لا أعلم في أي فجر، أو في أي مساء. ولا أعلم فيما إذا كان الأمر يتوقف على أوقات اليوم، إذ أنّ المحبة لا تعرف مواقيت يوم محددة، كما أن الرجاء يكون عادةً بلا نهاية، والإيمان بلا حدود، باستثناء العلم أوالجهل، فهما مقيدان بأزمان وحدود، وغالباً ما ينتهيان قبل الأوان باللحية الكثّة والخرج واللّوز، فيتحتم عليّ القول ثانيةً: إنني لا أعرف شيئاً، أوه، لا أعرف مثلاً بأي شيء سيتخمون الأمعاء، ولا أعرف أي مصران ضروري للامتلاء؛ لا

أعرف ما الذي يتضمنه السعر من ملحقات، حتى لو كانت أسعار الحشو، ناعماً كان أم خشناً، مقروءةً؛ لا أعرف من أي معاجم سينتقون أسماء الحشو؛ لا أعرف بأي شيء سيملئون المعاجم والأمعاء أيضاً؛ لا أعرف بأي لحم؛ ولا أعرف بأي لغة: فللكلمات معنى، لكن الجزارون يتكتمون، وأنا أقطع شرائح، وأنتَ تفتح الكتب، فأقرأ ما يطيب لي، إلا أنك لا تعلم ما يطيب لك: شرائح سجق ونصوص مقتبسة من الأمعاء - سوف لا نعلم أبداً من ذا الذي سيجبر على الصمت، ومن ذا الذي سيُخرس، لكي تتخم الأمعاء وتضج الكتب باللغط، فتحشر وتُقحم لتوصف بكثافة تامة، لا أعرف ذلك كلّه، بل أشعر: بأن الجزّارين أنفسهم هم الذين سيملئون الأمعاء باللغة والسجق، وبأن ليس هناك رسول اسمه بولص، بل كان ذلك الرجل يدعى شاؤول وكان حقّاً شاؤولاً، فتحدث لأهالي كورنثوس بصفته شاؤولاً، تحدث لهم عن السجق الزهيد الثمن بشكل غير معقول، فسمّاه إيماناً ورجاءً ومحبةً، ثم امتدحه باعتباره سهل الهضم، بحيث أنه ما زال يجلبه إلى الناس حتى يومنا هذا، بهيئات شاؤول المتغيرة باستمرار:

بيد أنهم خطفوا مني بائع لعب الأطفال، وبه أردوا محو لعب الأطفال من الوجود.

كان هناك موسيقي اسمه ماين يعزف على البوق بشكل رائع تماماً،

وبائع لعب أطفال اسمه ماركوس؛ كان يبيع الطبول البيضاء والحمراء الطلاء.

وثمّة موسيقي اسمه ماين امتلك أربعة هررة واحد منها اسمه بيسمارك.

وطبّال على الصفيح اسمه أوسكار، كان معتمداً على بائع لعب الأطفال.

وموسيقي يدعى ماين، قتل قططه الأربع بخطّاف النار.

وساعاتي اسمه لاوبشاد؛ كان عضواً في جمعية الرفق بالحيوان.

وطبّال على الصفيح اسمه أوسكار، فخطفوا منه بائع لعب الأطفال.

وبائع لعب أطفال اسمه ماركوس، أخذ معه لعب الأطفال كلّها في هذا العالم.

وموسيقي اسمه ماين، فلو أنه لم يمت، لعاش إلى يومنا هذا لينفخ على البوق ألحاناً رائعة.

الكتاب الثاني

حطام

يوم الزيارة: لقد جلبت لي ماريا طبلاً جديداً، وحين أرادت أن تناولني إياه مع إيصال محلّ لعب الأطفال من فوق قضبان السرير، أشرت بالنفي، وضغطت على زرّ الجرس عند رأس السرير، إلى أن دخل برونو، معيني، مثلما كان يفعل كلّ مرّة عندما تجلب لي ماريا طبلاً مغلّفاً بالورق الأزرق. ففكّ رباط الطرد وترك ورق التغليف يسقط إلى الجوانب، لكي يثنيه بعناية بعد رفع الطبل على نحو احتفالي نوعاً ما، ثم خطا برونو، وعندما أقول خطا؛ فإنني أعني ما أقول، فقد خطا مع الطبل في اتجاه المغسلة، ثم فتح الماء الساخن، وأزال بحذر السعرَ الملصوق عن حافة الطبل، دون أن يخدش الطلاء الأبيض الأحمر. وحين أوشكت ماريا على المغادرة، إثر زيارة قصيرة غير مرهقة كثيراً، حملت معها الطبل القديم الذي عطبته أثناء وصفي للظهر التروجنسكيّ والمنحوتة الخشبية، إضافة إلى تفسيري المجحف إلى حدّ ما لرسالة الرسول بولص الأولى الموجهة إلى أهالي كورنثوس، لكي تضعه في قبو دارنا، إلى جانب الطبول المستهلكة التي خدمتني لأغراض بعضها مهني وبعضها شخصي. لكن ماريا قالت قبل أن تنصرف: «بلى، بلى، لا يوجد مكان كثير في القبو. أحبّ أن أعرف أين أخزن بطاطس الشتاء.»

فتجاهلت عتاب ربّة البيت الناطقة بلسان ماريا مبتسماً، ورجوتها أن ترقّم الطبل المسرّح من الخدمة بالحبر الأسود حسب الأصول، وأن تنقل المعلومات التي دوّنتها على قصاصة ورق، إضافة إلى البيانات المقتضبة حول سيرة حياة الطبل، في دفتر اليوميات المعلّق منذ أعوام في الجهة

الداخلية لباب القبو المطلع على أحوال طبولي في العام التاسع والأربعين.

هزّت ماريا رأسها مستجيبةً بطاعةٍ ثمّ ودعني بقبلة. وكان ولعي بالترتيب والنظام قد بقي غير مفهوم بالنسبة لها، بل مخيفاً بعض الشيء. وبات أوسكار يتفهم تردد ماريا وشكوكها بصورة جيدة، فهو نفسه لم يكن يعرف كيف جعلته تلك الحذلقة المتطرفة في دقتها يتحوّل إلى جامع للطبول المصابة بالعطب. فضلاً عن أنه كان يتمنى، ومازال، أن لا يرى أبداً كومة الحطام في قبو البطاطس العائد للدار الواقعة في حيّ بلكه. إنه يعلم عبر التجربة بأن الأبناء يستهينون بما يجمعه الأباء فيتنكرون له، وأن ولده كورت سيستهزأ، في أحسن الأحوال، بجميع الطبول التعيسة حينما يستولي على الميراث ذات يوم.

فما الذي كان يدفعني إلى الإعراب عن رغبتي أمام ماريا كلّ ثلاثة أسابيع بالاحتفاظ بطبولي التي كان مقدراً لها أن تملأ قبو دارنا لو أن ماريا نفذت رغباتي بانتظام، بحيث أنها ستحتل مكان البطاطس؟

كانت الفكرة الثابتة النادرة التي كان بريقها يزداد ندرة، وهي أن متحفاً ما ربما سيهتم ذات يوم بآلاتي العاجزة المصابة بالعاهات، خطرت في ذهني لأوّل مرّة بعدما تجمعت في القبو عشرات الطبول. وبناءً على ذلك، فإن مصدر ولعي بالتجميع لا يمكن أن يكون قد أتى من هذه الزاوية، إنما كان - وهذا التعليل بات يزداد رسوخاً كلّما أمعنت التفكير - يعود إلى مركّب بسيط: عسى ولعلّ الطبول ستنفد ذات يوم، وتصبح نادرة، أو توضع تحت الحضر، أو تتعرض للإبادة. ذات يوم سيجد أوسكار نفسه مضطرّاً إلى إيداع بعض الطبول غير المتضررة كثيراً لدى سمكري ليصلحها، فيساعدني على تجاوز الزمن الرهيب الخالي من الطبول من خلال تزويده لي بالمحاربين القدماء المرقعين.

وبهذا المعنى، لكن بصيغ أخرى، أدلى أطباء مصحّة الأمراض العقلية بآرائهم فيما يتعلق بباعث نزعة التجميع الكامنة في أعماقي. بل أن الآنسة الدكتورة هورنشتيتر أرادت أن تعرف اليوم الذي تحوّل إلى يوم ميلاد

عقدتي. فذكرت لها العاشر من نوفمبر من العام الثامن والثلاثين بالتحديد، إذ أنني فقدت في ذلك اليوم زيغسموند ماركوس، المعني بإدارة مخزن طبولي. حتى لو كان الحصول على طبل جديد في الموعد المناسب قد أصبح عسيراً عقب وفاة أمّي المسكينة؛ إذ أن زيارات يوم الخميس لرواق تسويغهاوس قد توقفت بصورة حتمية، بينما كان ماتسرات لم يهتم بآلاتي إلا بإهمال وتراخ، وبات يان برونسكي نادراً ما يأتي إلى دارنا، فأصبحت حالتي ميئوساً منها، عندما أقتحم محل بائع لعب الأطفال، بحيث أن نظرة ماركوس القابع وراء الطاولة التي أبعدت عنها جميع الأشياء خاطبتني بوضوح تام: سوف لا يهديك ماركوس طبولاً بعد اليوم، فهو لم يعد يتاجر بلعب الأطفال، إنما قطع علاقاته التجارية بتلك الشركة التي كانت تنتج الطبول البيضاء الحمراء الرائعة الطلاء وتزودك بها.

ومع ذلك، فإنني لم أكن مقتنعاً آنذاك بأن زمن اللعب المبكر، المبهج نسبياً، قد انتهى بنهاية تاجر لعب الأطفال، فانتقيت من محلّ ماركوس الذي تحوّل إلى كومة أنقاض طبلاً سليماً وآخرين منبعجين من الحافة، ثم حملتها غنيمةً إلى الدار، بنيّة أنني اتخذت احتياطات كافية. فتعاملت مع تلك القطع باحتراس، مقللاً من التطبيل، لاغياً أمسيات التطبيل برمتها، وامتنعت، على كره منّي، عن تطبيل الإفطار الذي كان يجعل نهاري قابلاً للتحمّل. فكان أوسكار يمارس الزهد، حتى أصابه الهزال، فعُرض على الدكتور هولاتس ومساعدته المضمدة إنغا المخشوشنة العظام على الدوام. فكانا يناولاني دواءً حلواً وحامضاً ومرّاً وخالياً من الطعم، مقليان بالذنب على غددي التي كانت تنغص راحتي وعافيتي بإفرازاتها الزائدة أو الناقصة حسب رأي الدكتور هولاتس.

ولكي يفلت أوسكار من يد هولاتس، فإنه أصبح يمارس زهده باعتدال، فزاد وزنه من جديد، واتخذ تقريباً شكل أوسكار القديم ذي الأعوام الثلاثة الذي استعاد اكتنازه من خلال تحطيمه النهائي لآخر طبل عائد إلى ماركوس.

كان طبل الصفيح يتشقق متهالكاً بلا انضباط، متنازلاً عن الطلاء

الأحمر الأبيض، فعلاه الصدأ وهو معلق فوق بطني بأصواته النشاز. وبدا من العبث مناشدة ماتسرات لتقديم مساعدة ما، على الرغم من أنه مستعد للمساعدة بطبيعته، بل إنّه كان سخيّاً. لكنّ الرجل أصبح لا يفكر إلا بخزعبلات الحزب بعد رحيل أمّي المسكينة، ملهياً نفسه بمناقشات شؤون الخلية الحزبية التي كان يقودها، أو أنه كان يتسلّى عند منتصف الليل، بعد تناوله الكثير من الكحول، بمخاطبة صورتي هتلر وبيتهوفن بإطاريهما السوداوين المعلقتين في غرفة الجلوس، وكان يخاطبهما بسريّة وبصوت عال معاً، طالباً من العبقري أن يوضح له المصير ومن القائد أن يتنبأ له بالمستقبل، ناظراً إلى قيامه بتجميع معونات الشتاء في حالات الصحو باعتباره مصيره المحتوم. وتذكرت على كره تلك الآحاد التي كانت تجمع فيها المعونات، لكنني قمت بمحاولة واهية للحصول على طبل في يوم من تلك الأيّام. كان ماتسرات قد عاد ظهراً إلى البيت بعد أن أمضى فترة الضحى في الشارع العام، يجمع المعونات أمام دور السينما، وكذلك أمام متجر شتيرنفيلد، فسخّن لي وله كفتة كونغسبريغز. بعد الطعام اللذيذ حسبما أتذكر إلى اليوم -كان ماتسرات يطبخ بشغف وبشكل ممتاز، في زمن ترمّله - استلقى مجمِّع المعونات على الأريكة ليأخذ قيلولة. وحالما بدأ يتنفس بأنفاس النائم، قبضت على علبة النقود نصف الممتلئة فوق البيانو، واختفيت في الدكّان تحت طاولة البيع، ومعي تلك الحاجة التي كان لها شكل علبة المواد الغذائية المحفوظة، وجنيت على علبة الصفيح المضحكة. ليس بمعنى أنني أردت أن أصبح ثرياً بقطع النقود الصغيرة تلك! بل أن شعوراً أحمق أمرني بتجريب العلبة كطبل. وكيف ما قرعت العلبة، خالطاً النقود، فإنها لم تصدر سوى إجابة واحدة مطالبة: بتبرع صغير لمعونة الشتاء! يجب أن لا يجوع أيّ أحد أو يموت من البرد! فتبرع بمبلغ صغير لمؤسسة معونة الشتاء!

وبعد نصف ساعة استسلمت بيأس فتناولت من خزينة الدكان خمس قطع نقدية من فئة خمسة فلوس، وتبرعت بها لمؤسسة معونة الشتاء، ثم أعدت علبة النقود التي ازدادت ثروة إلى مكانها فوق البيانو، لكي يعثر

عليها ماتسرات ويقتل يوم الأحد في قرقعة علبة جمع التبرعات لمعونة الشتاء.

لقد برأتني تلك المحاولة الفاشلة إلى الأبد، فلم أعد استخدم للتطبيل أي علبة صفيح أو جردل مقلوب أو قعر طست غسيل. وإذا ما فعلت ذلك، فبفعل السعي إلى نسيان تلك الأحداث العابرة غير المشرّفة، فلا أفرد لها مكاناً، أو لا أتعرض إليها في هذه الأوراق إلا بأقل ما يمكن. فعلبة حفظ الطعام ليست طبلاً من صفيح، والدلو يبقى دلواً والطست يبقى الوعاء نفسه الذي يغتسل المرء جسده فيه أو يغسل جواربه. وإذا لم يوجد اليوم ما يمكن أن يعوض عن الطبل، فإنّ الوضع زماناً كان مماثلاً؛ إذ أن طبل الصفيح الأبيض الحمر اللهب يفصح عن نفسه بنفسه، فلا يحتاج إلى شفيع أو وسيط.

كان أوسكار وحيداً، مغدوراً، ومستباحاً، فكيف يستطيع المحافظة على ماء وجهه ذي الأعوام الثلاثة إذا كان ينقصه كلّ ما هو ضروري، أي الطبل؟ فكان علي أن أقوم بمحاولات التضليل والخداع أعواماً طويلة: مثل التبوّل في الفراش أحياناً، أو الذكر الطفولي المتعجل لصلاة المساء كلّ يوم، وإظهار الخوف من بابا نويل الذي كان يدعى غريف في حقيقة الأمر، أو الطرح غير المنقطع للأسئلة المضحكة الحريّة بذوي الأعوام الثلاثة مثل: لماذا توجد عجلات في السيارات؟ كلّ هذه الأمور القديمة المستهلكة التي كان البالغون ينتظرونها منّي توجب عليّ إنجازها من غير الاستعانة بطبلي، حتى أوشكت على الاستسلام، فأخذت أبحث بيأس عن ذلك الذي لم يكن أبي في الواقع، لكنه أنجبني على أكثر الاحتمالات. فوقف أوسكار منتظراً يان برونسكي في رنغ شتراسه، بالقرب من الحيّ البولندي.

وكانت وفاة أمّي المسكينة قد فككت العلاقة الوديّة أحياناً بين ماتسرات والخال الذي ترتقّى إلى درجة سكرتير في دائرة البريد، حتى أنهتها، وإن ليس بصورة مفاجئة، لكن شيئاً فشيئاً، كلّما تفاقمت الأوضاع السياسية، على الرغم من الذكريات الجميلة المشتركة. وبانهيار روح أمّي

الهيفاء وجسدها المكتنز انهارت أيضاً علاقة رجلين، انعكست شخصيتهما في تلك الروح، فكانا يتغذيان من لحمها، لكن عقب زوال الغذاء والمرآة المحدّبة لروحها، لم يعثرا على ما هو أكثر نقصاً وقصوراً من تجمعاتهما الرجالية المتناقضة المبادئ سياسيّاً، على الرغم من تدخينهما للتبغ نفسه. لكن لا دائرة البريد البولندي ولا نقاشات قيادة الخلية، التي كانت تخاض بلا تكلّف، كان من شأنها التعويض عن المرأة الرائعة الرقيقة الإحساس، حتى وإن ارتكبت الخيانة الزوجية. وعلى الرغم من الحذر - كان ماتسرات يراعي الزبائن والحزب، ويان إدارة البريد- فقد تمّت بضعة لقاءات بين أبويّ المفترضين خلال الفترة التي أعقبت وفاة أمّي المسكينة حتى نهاية زيغسموند ماركوس.

وكنّا نسمع مرةّ أو مرتين في الشهر وقع براجم يان على زجاج غرفة الجلوس في دارنا بعد منتصف الليل. وإذا ما سحب ماتسرات الستارة ليفتح النافذة فتحة واسعة؛ فإن الارتباك كان يعتري الرجلين دفعة واحدة وبلا حدود، إلى أن يعثر أحدهما على عبارة الإنقاذ، مقترحاً لعبة ورق في ساعة متأخرة. فكانا يأتيان بغريف من دكّان الخضر، وإذا ما رفض اللعب بسبب وجود يان ، أو لأنه كان في السابق قائداً لفرقة كشفية - لقد حلّ فرقته في تلك الأثناء - فعليه أن يلزم جانب الحذر، فضلاً عن أنه لم يكن يجيد لعب الورق، أو أنه لا يلعبه بشغف، فإن الخبّاز ألكسندر شفلر كان يقدم نفسه عادة باعتباره الرجل الثالث. ومع أن الخبّاز المحترف لم يرتح إلى الجلوس قبالة يان على طاولة واحدة، في حين أنه كان يحمل قدراً من التعلّق بأمّي المسكينة، فانتقل هذا التعلق إلى ماتسرات مثل قطعة ميراث، إضافة إلى أن مبدأ شفلر القائل بأن تجّار المفرق عليهم أن يتضامنوا ويوحدوا كلمتهم؛ كلّ ذلك حدا بالخبّاز القصير الساقين إلى القدوم من كلاينهامرفيغ بخطى حثيثة، ملبياً نداء ماتسرات، ليأخذ مكانه على طاولة غرفة الجلوس ويخلط الورق بأصابعه المصفرة الطحينية المصابة بالتسوس، ثم يوزعه كمن يوزع أرغفة الخبز على شعب جائع.

وبما أن تلك الألعاب المحظورة كانت تبدأ عادة بعد منتصف الليل

وتتوقف في الثالثة فجراً، لأن شفلر يجب أن يلتحق بفرنه، فكان يصعب عليّ الفرار من الفراش من فراشي بقميص النوم، إلا نادراً، متفادياً إصدار أي جلبة، لأصل بلا طبل إلى الزاوية المظللة تحت الطاولة.

ومثلما لاحظتم في السابق، فإن أسفل الطاولة كان يمنحني أجود وضع للمراقبة: حيث كنت أعقد المقارنات. لكن كيف تغيّر كلّ شيء منذ رحيل أمّي المسكينة! إذ لم يعد يان برونسكي محتاطاً من الأعلى، فيخسر اللعبة تلو الأخرى، وجريئاً من الأسفل فيشنّ الغزوات بجواربه الخالية من الحذاء بين فخذيّ أمّي. لقد اختفت الشهوة الحسيّة من تحت الطاولة في تلك الأعوام، ناهيك عن الغرام. ستة بنطلونات كانت تشدّ ست سيقان رجالية عارية، أو مؤثرة السراويل الداخلية، كاشفة عن نماذج مختلفة لهياكل أسماك، ست سيقان كثيفة الشعر أو خفيفته، باذلة قصارى جهدها أضعاف المرّات، لكي لا تلامس بعضها البعض، حتى عن طريق الصدفة، بيد أنها انبسطت من الأعلى، فاتخذت شكل أبدان ورؤوس وأذرع، منهمكة في اللعب الذي كان يجب أن يمنع لأسباب سياسية، ذلك اللعب الذي كان يحتمل الاعتذار والانتصار في حالتي الكسب أو الخسارة: لقد خسرت بولندا اللعبة الكبرى، في حين كسبت مدينة غدانسك الحرّة ورقة الديناري بثقة وبساطة لمصلحة الرايخ الألماني الكبير.

وبات من الممكن التكهن باليوم الذي سيأتي، بحيث تجد ألعاب المناورات نهايتها -مثلما تنتهي جميع المناورات ذات يوم، لتتحول إلى حقائق عارية عند الضرورة كما يقال، وعلى مساحة شاسعة. وفي بداية صيف العام التاسع والثلاثين استطاع ماتسرات العثور، أثناء النقاشات الأسبوعية للخلية الحزبية، على أشقّاء للعب الورق لا يثيرون الريبة والإحراج، بدلاً من موظف البريد البولندي وقائد الكشّافة السابق. فعاد يان برونسكي مرغماً إلى المعسكر الذي عُيّن له، فتمسك بأصحاب البريد، من أمثال البوّاب المعوّق كوبيلا الذي كان يقف على ساق أقصر من الساق الأخرى بخمسة سنتمترات منذ خدمته في كتيبة بلزوردسكي الأسطورية. وعلى رغم رجله العرجاء؛ فإن كوبيلا كان بوّاباً ممتازاً فضلاً

عن أنه كان حرفياً ماهراً، وقد كنت أمنّي نفسي بأنه سيصلح طبلي العليل بحسن نيته المتوقعة. وفقط لأن الطريق إلى كوبيلا كان يمرّ عبر يان برونسكي فقد صرت أقف قرب حيّ البولنديين كلّ عصر تقريباً حوالي الساعة السادسة، حتى أثناء السخونة المقبضة لشهر أغسطس، منتظراً رجوع يان المنظم من الدوام إلى أهله. لكنه لم يأت. ودون أن أضع أمامي السؤال الآتي: ما الذي كان يفعله أبوك المفترض بعد الدوام؟ كنت غالباً ما انتظر إلى الساعة السابعة، أو السابعة والنصف. ومع ذلك؛ فإنه لم يأت. كان بإمكاني الذهاب إلى الخالة هدفغ. من المحتمل أيضاً أن يكون يان متوعكاً، أو محموماً، أو واضعاً ساقه المكسورة في الجبس. بيد أن أوسكار بقي ثابتاً في موضعه، مكتفياً بتشخيص بصرة بين الحين والآخر إلى نوافذ بيت سكرتير البريد وستائره. كان ثمة حياء غريب يحيل دون زيارته للخالة هدفغ التي كانت نظرتها المنبعثة من عيني البقرة الدافئتين الحنونتين تجعله حزيناً؛ كما أنه لم يكنّ كثيراً من الودّ لأطفال الزوجين برونسكي، الذين هم على أكثر الاحتمالات أخوته غير الأشقاء. إذ أنهم كانوا يتصرفون معه كما لو أنه دمية، ويريدون أن يلعبوا معه، فيستخدمونه كلعبة أطفال. فبأي حقّ كان شتيفان ذو الخمسة عشر عاماً، أي في سنّ أوسكار نفسه، يعامله معاملة أبوية متعالية ويقدم له النصائح والتعاليم دائماً؟ وكذلك مارغا ذات الأعوام العشرة المضفورة الجدائل بوجهها الممتلئ والمستدير استدارة البدر التي كانت تنظر إليه كما لو أنه دمية تلبسها ثم تجردها من ملابسها حسبما تشاء أو تمشطها أو تفرّشها أو تسوّي شعرها أو تربيها؟ بالطبع إنهما كانا يريان فيّ ذلك الطفل القزم غير الطبيعي السيئ الحظ، حاسبين نفسيهما أصحّاء واعدين بمستقبل زاهر، وكانا أيضاً من أحبّاء جدتي كولياجك التي جعلت من الصعب عليها، للأسف الشديد، أن ترى فيّ واحداً من أحبّائها؛ إذ كان من الصعب إرضائي أو السيطرة عليّ من خلال الحكايات والكتب المصورة. فما كنت انتظره من جدّتي ومازلت أتخيله إلى يومنا هذا بمتعة وإسهاب كان واضحاً تماماً، لذلك كنت نادراً ما أناله: لقد أراد أوسكار أن يقتدي بمثال جدّه كولياجك

أن يستتر لديها عن الأعين، وأن لا أتنفس الهواء أبداً خارج جانبها الساكن الريح، إن كان ذلك ممكنا.

وإنني لم أبقي على شئ إلا وفعله بغية الوصول إلى أسفل أثواب جدتي! لا أريد القول هنا إنها لم تكن راغبة في أن يجلس أوسكار تحتها؛ إنما كانت تتردد، فتصدني في أغلب الأحيان، ولعلها كانت ستهب أي أحد آخر شبيه بكولياجك ملاذاً، إلا أنا الذي لم أمتلك أصابعه أو عود الثقّاب المطاوع لمشعل النيران؛ فيجب أن تغير خيول طروادة أوّل الأمر قبل أن أصل إلى الحصن المنيع.

وأوسكار ألفى نفسه يلعب بكرة من المطّاط مثل طفل حقيقي ذي ثلاثة أعوام، ملاحظاً كيف أنه كان يدحرج الكرة بمحض الصدفة تحت الأثواب، ثم يتسلل خلف الذريعة المدورة، ليستعيد الكرة ثانية، قبل أن تكتشف جدّته الحيلة. إذا كان الناس الكبار حاضرين هناك؛ فإن جدتي لا تسمح لي بالبقاء طويلاً تحت الأثواب، إذ أنّ الكبار البالغين كانوا يستهزئون بها، ويذكرونها بفترة خطوبتها فوق حقل البطاطس الخريفي، مستخدمين دائماً عبارات مقذعة، جاعلين جدّتي، التي لم تكن شاحبة بطبعها، تصاب بحمرة الخجل على نحو حاد ولفترة طويلة، فتكون الحمرة منسجمةً، أسفل شعرها الأشيب إلى حدّ ما، مع وجه المرأة ذات الستين عاماً.

وعندما تكون جدتي آنا بمفردها - كان ذلك نادراً ما يحدث، وفي القليل النادر كنت أراها عقب وفاة أمّي المسكينة، لاسيما بعدما هجرت بسطتها في سوق لانغفور الأسبوعي - تبدو أكثر ميلاً للسماح لي في البقاء متطوعاً فترة طويلة تحت ثيابها التي لها لون البطاطس. حينئذ أكون لست بحاجة إلى الحيلة الغبية أو كرة المطّاط الأغبى منها، لكي يتاح لي الدخول؛ فتزحلقت ذات مرّة بطبلي على الأرضية الخشبية، طاوياً إحدى ساقي، ومثبتاً الأخرى في قطعة أثاث، منحدراً في اتجاه جبل الجدّة، وحين وصلت إلى قدميها رفعت بمضربي الطبل الدثار المضاعف أربع مرّات، وأصبحت تحته على الفور، ثم أسدلت الستارة بطبقاتها الأربع في

آن واحد، ومكثت ساكناً طوال دقيقة، مستسلماً تماماً لرائحة الزبد اللاذعة، الزنخة بعض الشيء، التي استنشقتها بمسامّي كلّها، تلك الرائحة المهيمنة دائماً تحت الأثواب والتي لم تخضع قطّ لتقلبات المواسم. بعد ذلك بدأ أوسكار يطبل. كان يعرف ما تحبّ جدته سماعه، فقرع لها أصوات مطر أكتوبر، الشبيهة بتلك التي لابد أن تكون قد سمعتها آنذاك حين تربعت خلف نار أعشاب البطاطس، عندما زحف تحتها كولياجك مشعل الحرائق المطارد ذو الرائحة القوية. جعلت رذاذاً من المطر مائلاً يسقط على صفيح التطبيل، إلى أن تعالت التأوهات وأسماء القديسين من فوقي، وبقي الأمر متروكاً لكم لتتعرفوا من جديد على التأوهات وأسماء القديسين التي ارتفعت حدتها آنذاك في العام التاسع والتسعين، عندما جلست جدتي تحت المطر بينما قبع كولياجك في المكان الجاف.

لمّا كنت أنتظر يان برونسكي قبالة حيّ البولنديين في أغسطس من العام التاسع والثلاثين، فكّرت كثيراً في جدّتي. فمن المتوقع جداً أن تكون الآن في زيارة للخالة هدفغ. وعلى الرغم من إغراء فكرة الجلوس تحت الأثواب واستنشاق رائحة الزبد الزنخة؛ فإنني لم أصعد درجتي السلّم، ولم أقرع الباب ذا الرقعة المكتوب عليها اسم: يان برونسكي. فما الذي كان يمكن أن يقدمه أوسكار لجدّته؟ لقد كان طبله محطماً،لم يعد بوسعه أن يعطي شيئاً، لأنّه نسي صوت المطر في أكتوبر وسقوطه الناعم المائل على نار أعشاب البطاطس. وبما أن جدّة أوسكار لا يمكن إقناعها إلا بخلفية من أصوات سقوط المطر الخريفي؛ فإنه لبث في رنغشتراسه، يتطلع إلى عربات الترام القادمة من الجهة المقابلة، وكذلك خلفها، حيث كانت أجراسها تقرع في شارع هيرسأنغر ذهاباً وإياباً، سائرة كلّها على الخط رقم خمسة.

فهل كنت أنتظر يان؟ ألم استسلم فبقيت مغروساً في مكاني، لأن شكلاً مقبولاً للاستسلام لم يحضرني بعد؟ إن الانتظار الطويل يلعب دوراً تربوياً، يمكن أن يؤدي بالمنتظِر إلى تصوير مشهد اللقاء والتحية في ذهنه تصويراً تفصيلياً من شأنه أن يصادر من المنتظَر أي فرصة لمفاجأة ناجحة.

ومع ذلك فإن يان فاجئني. فبقيت مشدوداً إلى مكاني بمضربين متأهبين، مسكوناً بهاجس رؤية يان غير المتأهب، لكي أطبّل له ببقية طبلي. ودون إعطاء تفسير أردت الإعلان بوضوح عن حالتي اليائسة من خلال ضربة على الصفيح أو صرخة منه، فخاطبت نفسي: بعد خمس عربات ترام، بعد ثلاث، بعد هذا الترام، فتصورت، راسماً الرعب في ذهني، بأن عائلة برونسكي انتقلت إلى مودلين أو وارشو تلبيةً لرغبة يان، فتخيلته رئيس سكرتارية البريد في برومبيرغ أو تورن، لكنني بقيتَ أنتظر تراماً آخر، حانثاً بكلّ ما قسمت به من قبل، واستدرت في اتجاه دارنا؛ وإذا بأوسكار يُمسك من الوراء، فوضع أحد البالغين يديه على عينيه فأغمضهما.

وشعرت بيدي رجل ناعمتين، جافتين على نحو لطيف، انبعثت منهما رائحة صابون فاخر؛ لقد شعرت بيان برونسكي. وبعدما تخلى عنّي واستدار حول نفسه، مقهقهاً بصوت عال ملفت للنظر، كان الأوان قد فات فلم استعرض على الصفيح حالتي اليائسة. لذلك أودعت مضربي خلفَ حمّالات سروالي القصير حدّ الركبة، القذر الذي بليت جيوبه آنذاك؛ لأن ليس هناك من كان يعتني بي. فرفعت بيدي الطليقتين طبلي المربوط بخيط قنّب بائس، رفعته إلى الأعلى شاكياً، رفعته إلى مستوى عينيّ، بل إلى الحد الذي يرفع فيه حضرة القسيس فيهنكه القربان أثناء القدّاس؛ كان بإمكاني القول: هذا هو لحمي ودمي، لكنني لم انطق بحرف، إنما اكتفيت برفع الصفيح الرثّ المفكك إلى الأعلى، ولم أعلن عن رغبتي في التغيير الجذري، أو الرائع حسب الإمكان، بل طالبت فقط بتصليح طبلي، ولاشيء سوى ذلك. فقطع يان فوراً قهقهته غير المبررة، المتوترة عصبياً، مثلما أنصتّ لها. فأبصر طبلي الذي لم يكن ممكناً إغفاله، ثم حرر بصره من الصفيح المنكمش، وصار يبحث عن عينيّ اللامعتين اللتين مازالتا تنمان حقّاً عن طبيعية مَنْ كان في سنّ الثالثة، لكنه لم يلمح في البدء سوى قزحية عين زرقاء لا تنفع ولا تضر، فيها بريق أضواء وانعكاسات، وكلّ ما يحسبه المرء على العين من تعبيرات؛ أخيراً استجمع نواياه الطيبة، أي ما كان في متناول ذاكرته، بعد تأكده من أن نظرتي لا تختلف قيد شعرة عن أي نقرة

ماء في عرض الشارع فرحة بالانعكاس، ثم أجبر نفسه على أن يستعيد في عينيّ نظرة أمّي ذات المعالم المشابهة، وأن كانت عيناها رماديتي اللون، تلك النظرة التي عكست له على العموم حظوةً وهوى لأعوام عديدة. ربما أدهشه انعكاسه فيها، الذي مازال لا يعني شيئاً، بمعنى أنه كان أبي، أو والدي بتعبير أدق. إذ أن عينيه وعينيّ أمّي وكذلك عينيّ اتسمت كلها بنمط من الجمال الماكر السذاجة، المشعّ بالغباء، والذي كان يرتسم على وجوه آل برونسكي كلّهم، بما فيهم شتيفان، لكن ذلك لا ينطبق على مارغا برونسكي إلا قليلاً، غير أنه شديد الانطباق على جدتي وشقيقها فنسنت. وعلى الرغم من زرقة عيني المحاطة برموش سوداء؛ فإن أحداً لا يمكن أن ينكر وجود نفحة من دماء مشعلي النيران الكولياجيكية تسري في عروقي - على المرء أن يتذكر فقط تحطيمي للزجاج - بينما كان اختلاق الملامح الماتسراتية-الرينانية من شأنه أن يكلفني جهداً فائقاً.

ولو سئُل يان مباشرة في تلك اللحظة، يان الذي كان يحبّ التهرب، حين رفعت طبلي، تاركاً لعينيّ أن تمارسا تأثيراً، لاعترف بالقول: إن عينيّ أمّه آغنس هما اللتان ترمقاني الآن. ربما كنت أنا نفسي أنظر إلى نفسي. لقد كان لي ولأمه الكثير من الأمور المشتركة. ومن المحتمل أن عمّي كولياجك المقيم في أمريكا، أو في قاع البحر، هو الذي يرمقني الآن. إلا ماتسرات وحده، فهو لا يتطلع إليّ، وهذا أمر جيّد. وأخذ يان الطبل من يدي، ثم قلّبه وصار ينقر عليه؛ يان، غير العملي الذي لا يعرف كيف يبري قلم الرصاص بصورة صحيحة، تظاهر وكأنه يفهم شيئاً عن تصليح الطبول، ثم أتخذ قراراً بيناً، وذلك كان نادراً ما يفعله، وأمسك بيدي -مما لفت انتباهي؛ لأن الأمر لم يكن عاجلاً- وقطع بي الشارع، وعثر وأنا بيده على رصيف محطة الترام «هيرسأنغر»، ثم استقل الترام رقم خمسة حين جاء، وسحبني معه إلى مقطورة المدخنين.

كان أوسكار قد عرف بأننا سنذهب إلى المدينة، قاصدين ميدان «هيفيلوس»، حيث البريد البولندي والبوّاب كوبيلا الذي يملك العدّة والقدرة اللتين يطالب بها طبل أوسكار منذ أسابيع.

وكان بإمكان رحلة الترام تلك أن تتحول إلى سفرة فرح وبهجة، لو لم يحدث ذلك عشية الأوّل من سبتمبر من العام التاسع والثلاثين، بحيث أن عربة الترام رقم خمسة ومقطورته امتلأت منذ محطة ماكس-هالبه بالمصطافين المتعبين القادمين من حمّام البحر في «بروزن» فصارت تقرع أجراسها في اتجاه المدينة. فأي مساء من أماسيّ الصيف المتأخر كان سيدعونا بعد تسليم الطبل إلى قهوة فايتسكه لنتناول عصير الليمون بقصبة المصّ لو لم ترسو البارجتان «شليزين» و«شليزفغ-هولشتاين» في مدخل الميناء، قبالة فتسربلاته، عارضتين أمام حوض التزوّد بالذخائر المشيّد بالآجر الأحمر هياكلهما الفولاذية وأبراجهما المضاعفة المتحركة وفوهات مدافعها. فكم سيكون المشهد جميلاً لو قرعنا جرس بوّاب البريد البولندي لنودع في عهدته طبل طفل لا يؤذي أحداً ليصلحه، لو لم يكن البريد محصناً من الداخل بالصفائح المدرعة، موضوعاً في حالة دفاع، بعدما تحوّل عاملوه وموظفوه وموزعو رسائله إلى حماة قلعة أثناء حلقات التعليم التي كانت تعقد نهاية الأسبوع في ناحيتي غدنغن و أوكسهوفت. واقتربنا من بوّابة أوليفا، فأخذ العرق ينضح من جسم يان برونسكي عندما حدّق في الاخضرار المترب لأشجار شارع هندنبورغ وأخذ يدخّن من سجائره ذات العقب الذهبي أكثر مما كان يسمح له به تقتيره. لم يكن أوسكار رأى أباه المفترض يتصبب عرقاً بهذا الشكل، باستثناء مرتين أو ثلاث، حين راقبه مع أمّه فوق الأريكة.

بيد أن أمّي المسكينة رحلت منذ زمن، فلماذا يتصبب يان برونسكي عرقاً؟ اتضح لي بعد أن لاحظت بأنه كان يهّم بالنزول قبل الوصول إلى أي محطة، إلا أنه كان ينتبه إلى حضوري في لحظة تأهبه للنزول، فيعود إلى مكانه من جديد، انصياعاً لي ولطبلي، اتضح لي بأنه كان يتصبب عرقاً بسبب البريد البولندي الذي توجب عليه حمايته باعتباره موظفاً حكوميا. كان قد تهرّب من تلك المهمّة، فاكتشفني وطبلي المتصدع في رنغشتراسه عند زاوية هيرسأنغر، فقرر الرجوع إلى واجبه الرسمي، فجرجرني معه، أنا الذي لم اكن موظفاً ولا مؤهلاً للدفاع عن مبنى البريد، ثم صار يسحّ

عرقاً ويدخن بشراهة. لمَاذا لم يغادر الترام في محطة ما؟ بالتأكيد إنني سوف لا أثنيه عن ذلك. كان في أفضل سنوات عمره، فهو لم يبلغ الخامسة والأربعين بعد. زرقاء كانت عينه، وبنيّاً كان شعره، ويداه ناعمتان ترتجفان، ولو أنه لم ينضح عرقاً لبدا مضمّخاً بماء كولونيا المعطّر، وليس بالعرق البارد الذي توجب على أوسكار الجالس إلى جانب أبيه المفترض أن يشمه.

نزلنا في سوق الأخشاب، وانحدرنا على الأقدام في خندق المدينة القديمة. حدث ذلك في مساء صيف متأخر ساكن الريح. فكانت كنائس المدينة القديمة تقرع أجراسها النحاسية للسماء كعادتها، معلنة الساعة الثامنة. لعبة أجراس دفعت أسراب الحمام إلى التحليق: «عليكَ أن تمارس الإخلاص والنزاهة أبداً حتى اللحد البارد.» كان وقع هذه العبارة جميلاً يحثّ على البكاء. لكن القهقهات انتشرت في كلّ مكان. نساء مع أطفال لوحتهم الشمس، برانس استحمام من الصوف المنفوش، كرات شاطئ ملونة وسفن شراعية كانت تترجل من الترامات التي أقلت آلاف المستحمين توّاً في حمامات غلتكاو وهويبوده البحرية. كانت الفتيات الصغيرات يلعقن مرطبات التوت المثلجة بألسن متحركة تحت النظرات التي لم تزل ناعسة. صبية ذات أربعة عشر ربيعاً أسقطت «دوندرمتها» المثلجة، فانحنت لتلتقط الجليد المتسخ ثانيةً، لكنها ترددت فجأة، تاركةً السائل المنعش طعماً للرصيف ونعال المشاة القادمين، إن هذه الفتاة ستلتحق قريباً بركب الكبار البالغين، فلم تعد تلعق المرطبات المثلجة في عرض الشارع.

وانعطفنا إلى اليسار عند جادة شنايدرمولن. كان رهط من رجال الدفاع الوطني التابع لأمن الرايخ الألماني قد منعوا المرور عبر ميدان هيفيليوس الذي تصبّ فيه الجادة: كانوا فتياناً، وكذلك أرباب أسرٍ حملوا شارات على أذرعهم وتسلحوا ببنادق الشرطة القصيرة. وكان من السهل تجاوز هذا الحاجز بالالتفاف عليه والوصول إلى البريد من ناحية «ريهم». لكن يان برونسكي تقدم مباشرة نحو قوات الدفاع الوطني. كان واضحاً

واضحاً؛ إذ أراد أن يوقفوه على مرأى من مسئوليه الذي أمروا بالتأكيد بمراقبة ميدان هيفيليوس من مبنى البريد نفسه، ويجبروه على الرجوع من حيث أتى، ليقدم صورة ناصعة بصفته بطلاً تعرض للمنع، لكي يستقل الترام رقم خمسة مرّة أخرى، ويذهب إلى داره.

وسمح لنا رجال الدفاع الوطني بالمرور، لعلّهم لم يفكروا في أن هذا السيّد الشديد الأناقة، وبمعيته الصبي ذو الأعوام الثلاثة، ينويان الدخول إلى مبنى البريد. فنصحونا بلطف باتخاذ الحذر، ثم زعقوا بنا «قف» بعد أن نفذنا عبر البوّابة المسلحة بالقضبان ووقفنا أمام مدخل البريد. فالتفت يان إلى الخلف بارتباك، حينئذ فُتح باب المبنى الثقيل بمقدار شقّ، ثم سُحبنا إلى الداخل: فوقفنا في صالة زبائن البريد البولندي شبه المظلمة، المنعشة البرودة. لم يستقبل يان برونسكي استقبالاً وديّاً من قبل جماعته. كانوا ينظرون إليه بريبة، فأسقطوه من حسابهم، واعترفوا صراحةً بأن الشبهة قد أثبتت عليه، أي أن سكرتير البريد برونسكي أراد أن يفلت. فوجد يان صعوبة بالغة في نفي الشبهات عن نفسه؛ لكن أحداً لم يصغ له، فأحيل إلى مجموعة كانت مكلفة بنقل أكياس الرمل من القبو ووضعها خلف واجهات النوافذ في صالة الزبائن الرئيسية. وأخذوا يكومون هذه الأكياس وسواها من الخزعبلات خلف النوافذ، ويدفعون قطع الأثاث الثقيلة مثل دواليب الملفات قرب المدخل الرئيسي، لكي يحصنوا الباب على عجل عند الضرورة.

وأراد أحد منهم أن يعرف من أنا، غير أنّ وقته لم يكن كافياً لانتظار إجابة يان. وبدا الناس متوترين، ويتحدثون تارة بصوت عال وطوراً بصوت خفيف مبالغ في حذره. وصار طبلي وعناؤه وعوزه في حكم النسيان، لأنّ كوبيلا الذي اعتمدت عليه ليعيد الاعتبار إلى ذلك كومة الحطام المعلقة فوق بطني، بقي غير مرئي؛ ربما كان في الطابق الأوّل أو الثاني من مبنى البريد، يحمل بهمة ونشاط أكياس الرمل الممتلئة التي يُفترض أن الرصاص لن يخترقها، شأنه شأن موظفي البريد القائمين على خدمة الزبائن وموزعي الرسائل. بدا حضور أوسكار محرجاً ليان

برونسكي. فانسحبت على الفور حين تلقّى يان توجيهات من رجل أطلق عليه الآخرون لقب الدكتور «ميشون». بعد قليل من البحث والتفادي الحذر للسيّد ميشون - الذي ارتدي خوذة بولندية من الفولاذ، فاتضح أنه كان مدير البريد - وبعد قليل عثرت على السلّم المؤدي إلى الطابق الأوّل وعلى قاعة متوسطة الحجم، خالية من النوافذ، في نهاية الممر تقريباً، وليس فيها رجال يحملون صناديق عتاد أو أكياس رمل. وكانت على أرضيتها الخشبية سلال غسيل متحركة على عجلات ومعبئة بالرسائل التي لُصقت عليها طوابع ملونة. وبدت القاعة خفيضةً، وكساء جدرانها بنّيّاً فاتحاً. وثمة رائحة مطّاط خفيفة، ومصباح مشعّ بلا غطاء. كان أوسكار متعباً أكثر بكثير من قدرته على البحث عن زرّ الكهرباء. ومن بعيد كانت أجراس كنيسة القديسة ماريا والقديسة كاترينا والقديس يوحنا والقديسة بريغيتن والقديسة بابرا وترينتاتس والنعش المقدس: تعلن مجتمعةً قيام الساعة التاسعة. فيا أوسكار عليك أن تذهب إلى الفراش! فاضطجعت في سلّة الرسائل ومهدت الطبل المنهك إلى جانبي ثم غفوت.

البريد البولندي

نمت في سلّة غسيل مليئة بالرسائل التي تريد الذهاب إلى «ووج» و«لوبلين» و«لفوفوتورون» و«كراكوف» و«جستوخاوا» أو القادمة من ووج ولوبلين و«لمبيرغ» و«ترون» وكراكوف وجنستوخاو(*). غير أنني لم أحلم بمتاكا بوسكا جستوخوفسكا ولا بتمثال العذراء الأسود، وكذلك لم أقضم في الحلم قلب مارجالك بلزودسكي المحفوظ في كراكوف ولا كعك مدينة تورن الذي اشتهرت به المدينة. بل إنني لم أحلم حتى بطبلي الذي مازال بلا تصليح، فاضطجع أوسكار على الرسائل في سلّة غسيل متحركة، خالياً من الأحلام، ولم ينصت قطّ للهمس والوسوسة والثرثرة، أي أنّه لم ينصت إلى البوح الذي كان يرتفع حسب اعتقاد المرء كلّما تكدست رسائل كثيرة فوق بعضها. بيد أن الرسائل لم تبح لي بشيء، لأنني لم أنتظر أي بريد، فليس هناك من يرى فيّ مستلماً لبريده، ناهيك عن أن يرى فيّ مرسلا. ورقدت بكلّ صلف وعجرفة، ساحباً سلك الإرسال الهوائي فوق جبل الرسائل الزاخر بالأخبار التي يمكن أن تهمّ العالم برمته. ولذلك كان من البديهي أن لا توقظني تلك الرسالة التي كتبها المدعو بان ليج ملفيجك من وارشو إلى ابنة أخيه في غدانسك-شيلدلتس، تلك الرسالة المنذرة بالخطر التي كان من شأنها أن توقظ سلحفاة عمرها ألف عام، فلم توقظني إلا نيران المدافع الرشاشة القريبة أو اللعلعة المدوّية

(*) استخدم غراس صيغة الكتابة البولندية لتلك الأماكن التي كانت موضع النزاع بين بولندا وبروسيا، ثم وضع لها الأسماء الألمانية المقابلة.

البعيدة، المنطلقة من فوهات الأبراج المزدوجة للمدمرات البحرية الراسية في الميناء الحر.

إن هذه الأشياء تُكتب ببساطة: مدافع رشاشة وأبراج مزدوجة. ألم يكن ذلك مجرد زخّات مطر، أو هطول جليد، أو قصف رعود الصيف المتأخر الشبيهة بتلك الرعود التي جاءت بمناسبة ولادتي؟ كنت غارقاً في النوم، غير مستعد للخوض في مضاربات على هذا النحو، فاستنتجت، والأصوات مازالت تتردد في أذنيّ، استنتاجاً صحيحاً مثلما يفعل الغاطون في نومهم حين يسمون الوضع باسمة هاتفين: إنهم يطلقون النيران الآن!

وحالما تسلّق أوسكار سلّة الغسيل، ليخرج منها، وقبل أن يستقر في نعله، توجس خيفةً على طبله الحسّاس السريع التأثر. وبيديه الاثنتين نبش السلّة التي هجع فيها وصنع حفرة وسط الرسائل المرتخية طولاً وعرضاً، بيد أنه لم يتعامل معها بقسوة وخشونة، فلم يمزقها أو يثنيها، أو يختمها أيضاً، إنما فرقها عن بعضها بحذر، مظهراً عناية خاصة بالرسائل المزودة بالختم البنفسجي «بوجكا بولسكا»، وبالبطاقات البريدية كذلك، محترساً لئلا ينفتح ظرف، إذ أن الأسرار البريدية يجب أن تصان حتى في ظل الأحداث المحتومة المغيرة لكل شيء.

وفي القدر الذي تصاعدت فيه نيران المدافع الرشاشة اتسعت الحفرة المخروطية في سلّة الغسيل المعبئة بالرسائل. أخيراً اكتفيت، فوسدت طبلي المحتضر بمضجعه الممهد توّاً، وأسدلت عليه الغطاء الكثيف، ليس فقط ثلاث مرّات، كلا، بل عشر أو عشرين مرّة، وجعله متداخلاً بالظروف، حلاً وشدّاً، مثلما يفعل البنّاء بالآجر عندما يريد إقامة جدار وطيد. وحالما نفضت يدي من تلك الإجراءات الاحترازية التي قصدت منها توفير حماية لطبلي من الأعيرة النارية والشظايا، انفجرت أوّل قذيفة مضادة للدبابات أمام واجهة مبنى البريد المحاذية لميدان هيفيليوس، على مستوى ارتفاع صالة خدمات الزبائن.

وكان باستطاعة مبنى البريد البولندي المشيد بمتانة أن يتحمل، وببساطة، عدداً من تلك الانفجارات، دون خشية من أن يتمكن أفراد

الحرس القومي من القيام بتنفيذ لعبتهم بسهولة، فيفتحون على وجه السرعة ثغرة، تتسع لعملية اقتحام من الأمام قد تدربوا عليها دائماً تدريباً ميدانيا.

وغادرت قاعة تخزين الرسائل الآمنة الخالية من النوافذ والمفصولة عن ثلاثة مكاتب ورواق في الطابق الأوّل، وبدأت أبحث عن برونسكي. وإذا ما صرت أفتش عن أبي المفترض يان برونسكي، فإنني كنت أفتش بداهة، وبتلهّف أكبر من تلهفي على يان، عن البوّاب المعوّق كوبيلا. لقد ركبت الترام عشية الأمس، متخلياً عن عشائي، فأتيت إلى المدينة، ومن هناك إلى ميدان هيفيلوس، ثم دخلت مبنى البريد الذي لم يعن لي شيئاً في السابق، لكي أصلح طبلي. وإذا لم أعثر على البوّاب في الوقت المناسب، أي قبل الهجوم المتوقع حدوثه بالتأكيد؛ فسيكون من الصعب التفكير في أي إمكانية تثبيت متقنة لطبلي المتداعي.

إذاً، كان أوسكار يفتش عن يان، قاصداً كوبيلا في حقيقة الحال، فصار يذرع الممر الطويل المرصوف بالبلاط، جيئةً وذهاباً، شابكاً ذراعيه على صدره، بيد أنه ظلّ وحيداً مع خطاه. لقد استطاع التفريق في الواقع بين رصاص البنادق المتفرق الذي انطلق بلا شكّ من مبنى البريد وبين إسراف الحرس القومي المتواصل في تبديد الذخيرة، لكن لابد أن يكون الرماة المقترون قد استبدلوا أختام البريد في مكاتبهم بآلات مشابهة، دامغة هي الأخرى. لم يكن هناك في الممرر أي أثر لاستعداد أو تحرك من أجل التصدي لأي هجوم محتمل. كان أوسكار وحده يقوم بأعمال الاستطلاع والتفتيش، غير أنه كان يقف أعزل، بلا طبل، أمام صلاة القدّاس الافتتاحية الصانعة للتاريخ في ساعة مبكرة من ساعات الصباح التي لم تحمل في فمها ذهباً، كما يقال عادة في الأمثال، بل الرصاص وحده.

وكذلك لم أعثر على أي مخلوق في المكاتب المطلّة على باحة البريد. فقلت مؤكداً إنه لتصرف أخرق . فتوجب عليهم أن يحصنوا المبنى من جهة شارع شنايدِهمولن، بسبب أنّ مركز الشرطة الواقع هناك، والذي لا يفصله عن باحة البريد سوى سياج خشبي ومنصة شحن الطرود البريدية، شكّل هدفاً مثالياً للمهاجمة، لا يمكن العثور عليه إلا في الكتب

التعليمية المصورة. طفت على المكاتب وعلى قاعة الرسائل المسجلة وغرفة موزعيّ الحوالات البريدية وصندوق توزيع الأجور ومكتب استلام البرقيات: فوجدتهم هناك، خلف الصفائح الفولاذية وأكياس الرمل، منتصبين خلف أثاث المكاتب المقلوب، يطلقون الرصاص بتعثر واقتصاد شديد.

كانت النوافذ الزجاجية لمعظم الغرف قد أقامت علاقة ما مع المدافع الرشاشة للحرس القومي. وتفحصّت الأضرار على نحو عابر، وعقدت مقارنات بين زجاج النوافذ الذي كان يتحطم تأثير صوتي الماسي في أزمان السلام الهادئة المنتظمة الأنفاس. والآن، إذا ما طلب منّي أحد المساهمة في الدفاع عن البريد البولندي؛ كأن يتقدم منّي الدكتور ميشون القصير المفتول العضلات، ليس بصفته مديراً بريدياً، بل بصفته مديراً عسكرياً للبريد، ليجعلني مدافعاً في خدمة بولندا، لما بخلت عليه بصوتي: أنني مستعد، من أجل بولندا ومن أجل اقتصاد بولندا المزدهر ازدهاراً بريّاً، الاقتصاد الذي مازال يحمل ثماراً يانعة، أن أحطم وبكلّ سرور زجاج نوافذ المنازل المواجهة لنا في ميدان هيفيليوس، ومعها زجاج منازل ناحية ريهم وخطّ البناء الزجاجي في شارع شنايدهمولن، بما فيه مركز الشرطة، وزجاج نوافذ خندق المدينة القديمة، وكذلك جادة الفرسان، أي الزجاج المنظّف بشكل ممتاز، لأحيله بصوتي، وخلال دقائق، وعن بعد مؤثر أكثر من ذي قبل، إلى ثقوب سوداء تسرح فيها الريح وتمرح. كان من شأن ذلك أن يشيع الاضطراب في صفوف الحرس القومي والمواطنين المتفرجين، وربما سيعوض عن التأثير الذي يمكن أن يحدثه عدد كبير من المدافع الرشاشة، وسيحمل، منذ بداية الحرب، على الاعتقاد بوجود سلاح سرّي، على الرغم من أن ذلك لم يكن بوسعه إنقاذ البريد البولندي.

لكن أوسكار ظلّ بعيداً عن المساهمة، فالدكتور ميشون ذا الخوذة البولندية لم يطالبني بتأدية يمين الولاء، بل وجه لي صفعة موجعة عندما ارتطمت بساقيه وأنا أهبط السلّم بعجلة نحو صالة خدمات الزبائن، ثمّ بدأ يطلق الشتائم بصوت عال وباللغة البولندية، قبل أن يتفرّغ لمهماته الدفاعية

مرّة أخرى. فلم يبق أمامي سوى أن أتقبل الصفعة؛ لأن الناس، بمن فيهم الدكتور ميشون الذي تقع عليه المسؤولية في نهاية المطاف، كانوا مستنفرين، خائفين، ولذلك فهم معذورون.

لقد أبلغتني الساعة المعلقة في صالة خدمات الزبائن بأنها أشارت إلى الرابعة وعشرين دقيقة، وبعدما وصلت إلى الدقيقة الواحدة والعشرين بعد الرابعة استنتجت بأن المناوشات القتالية الأولى لم تصب الساعة بضرر. كانت تدور، وأنا لم أعد أعرف فيما إذا كانت طمأنينة الزمن ورزانته علامة سيئة أم علامة حسنة. وعلى أية حال، أمضيت فترة في صالة خدمات الزبائن، باحثاً عن يان وكوبيلا، متحاشياً الارتطام بالدكتور ميشون، غير أنني لم أعثر على خالي ولا على البوّاب، إنما تأكدت من حجم الأضرار التي لحقت بزجاج الصالة، وكذلك من الشروخ والتصدعات والثغرات البشعة في الجصّ إلى جانب المدخل الرئيسي، فسُمح لي أن أكون شاهداً حين جيء بأوّل جريحين محمولين. كان أحدهما، وهو سيّد متقدم في السنّ، شعره الأشيب مفروق بعناية، فكان يتحدث بلا انقطاع وبانفعال، بينما كان الآخرون يضمدون جرحه في عضده. وحالما انتهوا من لفّ الجرح البسيط بالشاش الأبيض، أراد أن يثب ويتناول بندقيته ليقذف بنفسه مرّة ثانية خلف أكياس الرمل التي لم تكن في الواقع واقية من الرصاص. فكم كان حسناً عندما أصيب بعارض ضعف خفيف نتج عن نزيف حاد، ألقى به أرضاً، فأجبره على اتخاذ جانب الهدوء الذي بدونه لا يستعيد رجل عجوز عافيته من جديد. فضلاً عن أن السيّد المتوتر الأعصاب ذو الخمسين عاماً والخوذة الفولاذية، الذي أطلّ من جيب سترته المدنية مثلث منديل رجل شديد التأنق، هذا السيّد ذو الحركات التي نمّت عن سمو ونبل لائقين بفارس موظّف، كان مديراً، اسمه ميشون، وقد أخضع يان برونسكي عشية الأمس إلى استجواب صارم؛ أصدر هذا السيّد أمراً إلى الرجل المصاب بأن يتخذ جانب الهدوء باسم بولندا.

كان الجريح الآخر ملقى، وهو يتنفس بصعوبة، على جُوال تبن، ولم يبد أي رغبة في الانبطاح ثانية خلف متاريس الرمل، إنما بقي يصرخ بإيقاع

منتظم وبصوت عال وبلا خجل؛ لأنه كان مصاباً في بطنه. وحالما همّ أوسكار بتفقد رهط الرجال خلف أكياس الرمل، لعله يعثر أخيراً على صاحبيه، اهتزت قاعة خدمات الزبائن إثر انفجار قذيفتين في وقت واحد تقريباً، انفجرت الأولى فوق البوابة الرئيسية والثانية إلى جانبها، فقفزت الدواليب التي زُحزحت وراء البوّابة، كاشفةً عن أكداس الأضابير التي أخذت ترفرف بعد ذلك، فاقدة وضعها النظامي، هابطةً على البلاط، لتلامس في انزلاقها قصاصات الأوراق فتغطيها، تلك القصاصات التي لا يجوز لها أبداً أن تتعرف عليها بمقتضى الحسابات الإدارية الأصولية. من العبث القول إن زجاج النوافذ الأخرى تطايرت شظاياه وإن مربعات كبيرة أو صغيرة من الجصّ تساقطت من السقف والجدران. وثمة جريح ثالث أخذوا يجرجرونه إلى منتصف الصالة عبر زوابع الجصّ والجير، ليطلعوا السلّم إلى الطابق الأوّل، بناءً على أمر الدكتور ميشون ذي الخوذة الفولاذية. واقتفى أوسكار آثار الرجال المرافقين لموظف البريد الذي كان يطلق التأوهات والحسرات بين درجة سلّم وأخرى، دون أن ينادي عليه أحد بالرجوع، أو يحاسبه، أو يوجه له صفعة كتلك التي وجهها له الدكتور ميشون قبل فترة قصيرة بيده الرجولية الخشنة. بيد أنه، من ناحية ثانية، بذل قصارى جهده، لكي لا يرتطم بساق من تلك السيقان البالغة الحجم المدافعة عن البريد.

عندما بلغت الطابق الأوّل خلف الرجال الذي قطعوا السلّم ببطء شديد، تحقق ما حدثني به قلبي: لقد جلبوا الجريح إلى تلك القاعة الخالية من النوافذ، التي حُوّلت إلى مخزن للرسائل، وكنت قد حجزتها لنفسي. كما أنهم توصلوا إلى قناعة بأن سلال الرسائل، حتى لو كانت قصيرة، تمثل مضجعاً مريحاً للجريح، لانعدام وجود الفراش. في الحال شعرت بالندم؛ لأنني أسكنت طبلي في واحدة من سلال الغسيل المتحركة المليئة بالرسائل التي لم توزع بعد. فهل ستتسرب دماء موظفي البريد وموزعي رسائله الممزقين، المنخوبين بالرصاص، مخترقةً طبقات الأوراق المتكدسة فوق بعضها عشر أو عشرين مرّة، لتمنح طبلي ذلك

اللون الذي لم يتعرف عليه إلى الآن إلا بصفته طلاء؟ فما الذي يجمع بين طبلي ودماء بولندا؟ فليصبغوا ملفاتهم ومعها أوراق النشّاف بذلك العصير! فليسكبوا المداد الأزرق من محابرهم، وليعبئونها باللون الأحمر! فَلْيُحمَروا نصف مناديلهم وقمصانهم البيضاء المنشّاة على نحو بولندي! إذ أن الأمر في نهاية المطاف يتعلق ببولندا وليس بطبلي! وإذا كان من المهمّ بالنسبة لهم، في حالة ضياع بولندا، أن تضيع وهي باللونين الأبيض والأحمر، فهل من الواجب أن يضيع معها طبلي المشبوه بما فيه الكفاية بفعل الطلاء الطازج؟

وشيئاً فشيئاً رسخت في ذهني فكرة أن الأمر لم يكن له علاقة ببولندا؛ إنما بطبلي المتصدع. لقد استدرجني يان إلى البريد، لكي يزوّد الموظفين غير المكتفين ببولندا كإشارة مضيئة لاندلاع حدث جسيم، وكعلامة ميدان متوهجة لغرض التفريق بين الجيوش المتحاربة. أثناء الليل، وبينما كنت راقداً في سلّة الرسائل المتحركة، دون أن أتحرك في الواقع أو أحلم، همس موظفو البريد المكلفين بالحراسة بعبارة شبيهة بكلمة السرّ: لجأ إلينا طبل أطفال محتضر. أننا بولنديون ويجب أن نوفر له الحماية، لا سيما أن إنجلترا وفرنسا وقعتا معنا معاهدة حماية.

وفي الوقت الذي كانت فيه تلك التأملات التجريدية غير المجدية تحدّ من حريتي في اتخاذ خطوات عملية قبالة باب مخزن الرسائل المفتوح بمقدار النصف ارتفعت للمرّة الأوّلى أصوات المدافع الرشاشة في باحة البريد. ومثلما تنبأت، فقد تجرأ الحرس القوميّ على القيام بأوّل هجوم، انطلاقاً من مركز الشرطة في شارع شنايدهمولن. وبعد فترة وجيزة ارتفعت أقدمنا عن الأرض: إذ أن رجال الحرس القومي نجحوا في نسف باب قاعة الطرود المشرفة على منصة شحن سيارات البريد. وتوغلوا على الفور في القاعة نفسها، ومن ثم في مكان تسليم الطرود، حيث كان باب الرواق المؤدي إلى صالة خدمات الزبائن مفتوحا.

كان الرجال الذين حملوا الجريح ووضعوه في سلّة الرسائل التي أخفيت فيها طبلي قد اندفعوا إلى الخارج، فلحق بهم آخرون. ومن

خلال الجلبة استنتجت بأن القتال نشب في ممر الطابق الأرضي، ثم انتقل إلى مكتب استلام الطرود، فاضطر الحرس القومي إلى الانسحاب. فوطأ أوسكار مخزن الرسائل بتردد في البدء، ومن ثم بوعي وإدراك. كان وجه الجريح أصفر رمادياً، فكشّر بأسنانه وصار يقلّب مقلتيه خلف أجفانه المطبقة، ثم يبصق دماً كالفتائل المتخثرة. وبما أن رأسه كان متدلياً فوق حافة سلّة البريد؛ فإن خطر تلويثه الرسائل لم يكن قائما. كان على أوسكار أن يقف على أطراف قدميه، ليصل إلى السلّة. لكن مؤخرة الرجل بدأت تضغط بشدةّ، هناك، حيث دُفن الطبل بالتحديد. فتمكن أوسكار من النبش، متخذاً الحيطة إزاء الرجل والرسائل معاً، ثم غار عميقاً وصار يجذب بقوّة، ثم مزّق في الأخير عشرات الظروف تحت الرجل المتأوّه.

واليوم أودّ أن أقول بأنني حالما لمست حافة طبلي، اقتحم مجموعة من الرجال السلّم، منطلقين إلى الأعلى على امتداد الممر، ثم رجعوا من جديد، بعدما طردوا الحرس القومي من قاعة الطرود، فأصبحوا منتصرين إلى حين؛ إذ أنني سمعتهم يضحكون. وبقيت انتظر قرب الباب، مختبئاً خلف إحدى سلال البريد، إلى أن تقدم الرجال من الجريح، فضمدوه وهم يتحدثون بصوت عال، ويلوحون بأيديهم، ثم أخذوا يطلقون الشتائم بهمس خافت.

وعلى حدّ ارتفاع القاعة المخصصة لخدمات الزبائن انفجرت عبوتا مدفعية ثقيلة -- ولحقت بهما قذيفتان، ثم ساد الصمت من جديد. بينما كانت صليات المدمرات الحربية الراسية في الميناء الحرّ تذهب بعيداً، هادرةً بطيبة قلب، وبانتظام، بعدما اعتاد المرء عليها. ودون أن يلاحظني الرجال المجتمعون لدى المصاب، انسحبت من مخزن الرسائل، خاذلاً طبلي، وطفقت أبحث مرّة أخرى عن يان، أبي المفترض وخالي وعن البوّاب كوبيلا.

كان المسكن الرسمي لرئيس سكرتارية البريد ناجالنك، الذي أرسل عائلته إلى برومبيغ أو إلى وارشو، يقع في الطابق الثاني. فتشت في البدء

بعض المخازن المشرفة على باحة البريد، فعثرت بعد ذلك على يان وكوبيلا في غرفة الأطفال العائدة لمسكن ناجالنك الرسمي. وبدت غرفة لطيفة منيرة، مكسوة بورق جدران طريف، لكن رصاص البنادق الطائش خرقه للأسف الشديد في بعض المواضع. كان بإمكان المرء الوقوف عند نافذتين أيّام السلم، ليتأمل ميدان هيفيليوس، فيجد متعة في ذلك. كان هناك حصان هزّاز وكرات مختلفة وقلعة مليئة بجنود مشاة وخيّالة مصنوعين من الرصاص، وقد كبوا على وجوههم، وثمة علبة كرتون مفتوحة، ومعبئة بسكك قطارات ونماذج مصغرة لعربات شحن ودمى مستهلكة كثيراً أو قليلاً، وحجر عرائس مليئة بالفوضى، باختصار كانت هناك وفرة في لعب الأطفال، نمّت عن أن رئيس السكرتارية ناجالنك لابد أن يكون والداً لطفلين، صبيّ وفتاة مدللين. كم كان رائعاً إجلاء الطفلين إلى واشو؛ فوفرت على نفسي فرصة اللقاء بشقيقين، تعرفت على أمثالهما عير ولديّ يان. ثم تخيلت بقليل من الشماتة كيف أن ولد رئيس السكرتارية قد شعر بألم حين ودّع جنته الطفولية الزاخرة بجنود الرصاص؛ ربما دسّ في جيب سرواله بعضاً من رماة الرماح، ليعزز بهم فرقة الخيّالة البولندية فيما بعد، إذا ما دارت المعارك حول حصن مودلين.

أوسكار يتحدث الآن كثيراً عن جنود الرصاص، ومع ذلك فإنه لا يستطيع التملّص من الاعتراف: لقد نُضدت على الرفّ العلوي لدولاب مخصص للعب والكتب المصورة والألعاب الجماعية آلاتٌ موسيقية صغيرة الأحجام، حيث اصطف بوق عسليّ الصفرة أخرس إلى جانب لعبة نواقيس منصاعة الاشتباكات المسلحة، بمعنى أنّها كانت تقرع أجراسها كلّما انفجرت قذيفة. وفي أقصى اليمين تمطّت آلة أكورديون ملّونة ممتدة باعوجاج. كان الوالدان غريبي الأطوار تماماً، لدرجة أنها أهديا لذريتهما آلة كمان حقيقية صغيرة بأربعة أوتار حقيقية أيضا. وانتصب إلى جانب الكمان - يمكن للمرء أن لا يصدق ذلك - انتصب طبل صفيح ذو طلاء أبيض أحمر، مستعرضاً دائرته البيضاء الخالية من أي عطب والمحصورة بين قطعتين من لعب البناء، منعتاه من التدحرج. لكنني لم أحاول قطّ

سحب الطبل من الرفّ بقدراتي الذاتية؛ إذ أن أوسكار كان على علم بالمدى المحدود الذي تصل له يده، فكان يسمح لنفسه في بعض الأحيان بأن يلتمس من البالغين تقديم هذا الصنيع أو ذاك، بعدما يستحيل وضعه القزمي إلى حالة عجز.

كان يان برونسكي وكوبيلا منبطحين وراء أكياس الرمل التي ملأت الثلث السفلي من النافذة المحاذية للأرضية. فأصبحت النافذة اليسرى من نصيب يان، بينما تموضع كوبيلا خلف اليمنى. فأدركت على الفور بأن البوّاب لم يكن له ما يكفي من الوقت لكي يسحب طبلي الراقد تحت الرجل الجريح الباصق دماً، والذي انضغط شيئاً فشيئاً بكلّ تأكيد، ليصلحه؛ إذ أن كوبيلا بدا منشغلاً تماماً، فكان يصوّب ببندقيته في فترات منتظمة من خلال فجوة في متراس الرمل، مطلقاً النيران نحو زاوية شارع شنايدرمولن عبر ميدان هيفيليوس، حيث تموضع مدفع مضاد للدبابات قبل جسر راداونا بمسافة قصيرة.

كان يان قد اضطجع، مكوّراً جسده، ومخبئاً رأسه، ويرتجف. فتعرفت عليه من خلال بدلته الأنيقة الرمادية الملطخة بالجصّ والرمال، وقد انحلّ ربّاط فردة حذائه اليمنى الرمادية اللون كذلك، فانحنيت وربطتها على هيئة عقدة لطيفة، وعندما جذبت العقدة، ارتعد يان، فحرف عينيه العميقتيّ الزرقة نحو كُمّه اليسار، ثم رمقتني بنظرة بليلة زرقاء على نحو لا يصدق. وعلى الرغم من أنه تأكد بشكل عابر مثلما تأكد أوسكار بأنه لم يصب؛ فإنه بكى بصمت. لقد كان يان خائفا. فتجاهلت نحيبه وأشرت إلى طبل ابن ناجالنك المجليّ، طالباً من يان بحركات واضحة أن يتقدم من الرفّ بحذر، مستغلاً الزاوية الميتة لغرفة الأطفال، فيأتي لي بالطبل. لكن خالي لم يفهمني. إن أبي المفترض لم يفقه ما أردت، إذ بدا عشيق أمّي المسكينة منهمكاً بخوفه، ممتلئاً به، لدرجة أن إشارتي المتوسلة به من أجل تقديم المساعدة بدت صالحة أيضاً لمضاعفة خوفه. كان على أوسكار أن يصرخ به، لكنه خشي من أن يكتشفه كوبيلا الذي بدا كما لو أنه لم يعد يصغي إلا لصوت بندقيته. فاضطجعت إلى يمين يان خلف أكياس الرمل،

ملتصقاً به، لكي أنقل إلى الخال التعيس الحظّ، والأبّ المفترض، جزءاً من رباطة جأشي المعهودة. فتراءى لي إثر ذلك وكأن شيئاً من الاطمئنان بان عليه.

لقد تمكنت أنفاسي المنتظمة تماماً أن تسدي نصيحة لنبضه بخصوص الانتظام التقريبي. ولمّا لفتّ أوسكار نظر يان مرّة ثانية إلى طبل ناجالنك الابن، وبصورة مبكرة في الواقع، حين أدرت رأسه ببطء وبرفق، ومن ثم بحسم في اتجاه الرف الخشبي المعبأ بألعاب الأطفال، فإن يان لم يفهمني هذه المرّة أيضاً؛ إذ أن الخوف تملكه من الأسفل إلى الأعلى، ثم غمره رجوعاً من الأعلى إلى الأسفل، إلا أنه اصطدم بمقاومة عنيفة هناك، ربما بسبب الحذاء المزود بنعلين داخليين، فأراد الخوف أن يحرر نفسه، لكنه ارتد عبر المعدة والطحال والكبد، حتى استقر هارباً في رأسه التعيس، لدرجة أن عينيه الزرقاوين جحظتا، فكشفتا عن شرايين دقيقة بيضاء شديدة التعقيد، لم يجد أوسكار من قبل فرصة لإدراكها في مقلة أبيه المفترض.

لقد كلفني صدّ مقلتي الخال ومنح قلبه بعضاً من اللياقة وحسن السلوك جهداً ووقتا. غير أن جهدي الذي بذلته في خدمة علم الجمال ذهب هباءً في اللحظة التي استخدم فيها جماعة الحرس القومي مدفعاً ميدانياً من العيار المتوسط للمرّة الأولى، فقوضوا السياج الحديدي أمام مبنى البريد بإصابات مباشرة، بعدما رصدوه بالماسورة، موجهين إليه ضربات في الصميم، دعامةً حجرية إثر أخرى، وبدقة جديرة بالإعجاب، نمّت عن مستوى تدريبي رفيع، فاجبروها على الركوع على ركبتها نهائياً، مكتسحة معها القضبان الحديدية. شهد خالي يان المسكين انهيار الدعّامات، التي بلغ عددها خمس عشرة إلى عشرين دعّامة، بقلبه وروحه، فأصيب بالذهول على نحو طاغ، كما لو أن المرء لم يحوّل القواعد الحجرية وحدها إلى تراب، بل قوّض معا أيضاً قواعدَ تماثيل الآلهة الوهمية الأليفة، العزيزة على قلب الخال والضرورية بالنسبة له ضرورة حياتية.

وعلى هذا النحو فقط يمكن تفسير السبب الذي حدا بيان إلى مقابلة

كل إصابة مدفع بصرخة حادة، من شأنها أن تتمتع بفضيلة الماس القاطع للزجاج مثل صراخي القاتل للزجاج لو أنها كانت واعية، محددة الهدف. لقد صرخ يان من كلّ أعماقه في الواقع، لكن صراخه كان طائشاً، فلم يحقق شيئاً، ماعدا أن كوبيلا قد ألقى بجسده الخشن العظام المعوق، اللائق ببوّاب مثله، ألقى به في اتجاهنا، ثم رفع رأسه النحيل الخالي من الأهداب والذي يشبه رأس الطير، وحرك حدقتيه الرماديتين المترقرقتين بالبلل نحو اتحادنا الاضطراري، ثم أخذ يهزّ يان ويان ينهنه بلا انقطاع. ففتح قميصه، وصار يتحسس جسد يان بلهوجة بحثاً عن الإصابة - كنت على وشك أن أضحك-، ثم قلبه على ظهره، بعد أن فشل في العثور على أي أثر لجرح، فقبض على فكّه، وحرفه عن مكانه وجعله يطقّ، وأجبر نظرة يان البرونسكيّة الزرقاء على تحمّل وميض الأضواء الكوبيلانيّة الرمادية المترقرقة بالماء، ثم صبّ عليه الشتائم باللغة البولندية وبصق في وجهه، وقذفه في الأخير بتلك البندقية بالذات التي تركها يان أمام كوّة المتراس التي سُويت من أجله، دون أن يستخدمها إلى الآن؛ إذ لم يُسحب من البندقية حتى صمّام الأمان. فلطمه أخمص البندقية على صابونة ركبته لطمة جافة. بدا وكأن الوجع الجسدي القصير الذي أعقب للمرّة الأولى تلك الآلام الروحية قد فعل فعلاً حسناً؛ إذ أنه تناول بندقيته، وكاد أن يصاب الرعب حين لامست أصابعه الأجزاء الحديدية الباردة التي انتقلت برودتها إلى دمه على الفور، ثم زحف نحو كوّة متراسه، مشفوعاً بلعنات كوبيلا وتشجيعه.

كان لأبي المفترض تصوّر واقعي عن الحرب، على الرغم من خياله الرقيق الثري، بحيث كان من الصعب عليه، بل من المستحيل، أن يكون شجاعاً بفعل انعدام قوّة التخيّل. فقبل أن يدرك مجال الرماية من خلال كوّة المتراس المعينة له، ودون أن يبحث عن هدف مجزّ، أفرغ مخزنه فوق سطوح المنازل المشرفة على ميدان هيليفيوس، ببندقية مائلة وبسرعة وتخبّط، ليختبأ بيدين طليقتين خلف ستار الرمل. فقرأت تلك النظرة المتوسلة بالتساهل والتسامح، التي قذف بها يان البوّاب من مخبئه،

بصفتها اعتراف بالذنب، متردداً ومتذمّر معاً، أقدم عليه تلميذ مقصّر في أداء واجباته. فحرّك كوبيلا فكّه السفلي، ثم انفجر بالضحك، كمن لا يريد التوقف، لكنه انقطع فجأة عن القهقهة على نحو يثير الرعب، ورفس يان برونسكي، الذي كان رئيساً له بصفته سكرتيراً في البريد، رفسه ثلاث أو أربع مرّات في صابونة الركبة، ثم تأهب ليركل خاصرة يان بحذائه غير المتناسق، لكنه تخلى عن ذلك بعد أن مشّط رصاص المدافع الرشاشة بقية الزجاج العلوي في غرفة الأطفال، جاعلاً السقف يخشوشن والحذاء الطبّي يهبط إلى الأسفل، فألقى بنفسه وراء بندقيته وأخذ يطلق بتجهم ولهوجة رصاصة إثر أخرى، كما لو أنه أراد أن يعوّض الوقت الذي أضاعه مع يان - فحسب ذلك أيضاً على الاستهلاك الإجمالي للذخيرة إبان الحرب العالمية الثانية.

ألم يلحظ البوّاب كوبيلا وجودي؟ إلا أن هذا الرجل الذي يمكن أن يكون متزمتاً عبوساً ومتعجرفاً يصعب الاقتراب منه، شأنه شأن معوقي الحرب المطالبين بالاحتفاظ بقدر من الاحترام والإجلال، تركني حرّاً في تلك الحجرة التي عصفت في أركانها الريح والتي كان هواؤها مشبعاً بالرصاص. فهل ظنّ كوبيلا بأنها كانت غرفة أطفال، حيث يمكن لأوسكار البقاء فيها ليلعب أثناء فترات توقف الاشتباكات؟ إنني لا أعلم كم من الوقت أمضينا: فكنت أنا مستلقياً بين يان وجدار الغرفة اليسار، أي أننا أصبحنا معاً خلف أكياس الرمل وكوبيلا وراء بندقيته يطلق الرصاص نيابةً عن شخصين. وفي حوالي الساعة العاشرة هدأت حدّة الاشتباكات؛ فساد السكون لدرجة أنني استطعت أن أسمع طنين الذباب، وأصوات مرتفعة وأوامر قادمة من ميدان هيفيليوس، فأرهفت سمعي أيضاً لالتقط الهَزِيم العميق للمدمرات العاملة في حوض الميناء. كان اليوم من أيّام سبتمبر الصاحية والمصحوبة بالغيوم، فكانت الشمس ترسم الأشياء كلّها بلون الذهب القديم برقّة وحسّاسية شديدتين، لكنها بدت ثقيلة السمع في الوقت ذاته. كنت أنتظر قدوم عيد ميلادي الخامس عشر في الأيّام القادمة، فتمنيت أن أحصل على طبل صفيح كما هو الحال كلّ عام في شهر

سبتمبر، وليس أقل من طبل صفيح؛ فوجهت حواسي بثبات على طبل من صفيح مطليّ بالأبيض والأحمر، متنازلاً عن كنوز العالم جميعها.

كان يان قد توقف عن الحراك، وأخذ كوبيلا يتنفس بانتظام، مما حمل أوسكار على الاعتقاد بأنه نام، مستغلاً الفترة القصيرة لتوقف القتال ليأخذ قيلولة؛ لأن الناس كلّهم، بما فيهم الأبطال، يحتاجون في نهاية المطاف إلى قيلولة منعشة. إلا أنا وحدي، فقد كنت متيقظاً تماماً، طامعاً في الحصول على الصفيح بكلّ ما أوتي به سنّي من صرامة وعناد. ليس لأن طبل الفتى ناجالنك خطر في ذهني الآن، أثناء السكون المتنامي وانعدام طنين ذبابة أنهكها الصيف، بل أن بصر أوسكار لم تغادر الطبل لحظة واحدة أثناء الاشتباك، عندما كان ممتلئاً بصخب المعركة. والآن فإن الفرصة عرضت نفسها عليّ، بحيث منعتني أي فكرة عن التقصير إزاءها.

فنهض أوسكار على مهل، وتقدم بهدوء، متجنباً شظايا الزجاج، ومن ثم اندفع بتصميم نحو الرفّ الخشبيّ المليء باللعب، فشيّد منصّة من كرسيّ أطفال ومن قطع لعبة البناء، وهو مشغول الفكر، حتى ارتفعت المنصة وباتت مأمونة بما يكفي لجعل أوسكار مالكاً لطبل جديد كلّ الجدّة؛ حينئذ أدركني صوت كوبيلا ومن ثم لحقت بي قبضة البوّاب الخشنة.

فأشرت بيأس إلى الطبل القريب، لكن كوبيلا جذبني إلى الخلف. فرفعت ذراعيّ معاً مطالباً بالحصول على الصفيح، فبدا المعوّق متردداً، وأوشك أن يمد يده ليتناوله فيجعلني سعيداً، إلا أن نيران المدافع الرشاشة اجتاحت في تلك اللحظة غرفة الأطفال، فانفجرت قذائف مدفعية أمام البوابة الرئيسية؛ فقذفني كوبيلا نحو الزاوية حيث قبع يان برونسكي، وارتمى، هو نفسه، من جديد خلف بندقيته وحشا مخزنه مرتين في الوقت الذي علقت فيه عيناي بطبل الصفيح.

وحين هجع أوسكار إلى جانب يان برونسكي، خالي الوسيم الأزرق العينين، الذي لم يقو على رفع أنفه، اكتسحني رأس الطير الأحنف القدم ذو النظرة المائعة كالماء والعديم الأهداب، فألقى بي جانباً خلف أكياس

الرمل قبل أن يبلغ هدفه. لكن أوسكار لم ينتحب بقدر ما ازداد غضبه.

لقد تكاثرت الديدان الضخمة العديمة العيون، البيضاء الزرقة، تبحث عن رمّة مجدية: فما شأني أنا ببولندا! وكيف كانت بولندا هذه؟ إن لهم فرسانهم؛ فعليهم أن يركبوا خيولهم! كانوا يقبلون أيدي السيدات، ثم يلاحظون في الأخير بأنهم لم يقبلوا الأصابع المتعبة لتلك السيّدة، إنما قبّلوا فوهة مدفع خال من الزينة. حينئذ كانت الآنسة العذراء المنحدرة من صلب مصانع كروب تنفجر وتمصمص بشفتيها مقلّدةً أصوات المعارك بشكل سيئ، لكنه حقيقي، تماماً مثلما يسمعها المرء في برامج الأخبار الأسبوعية، فتقذف بحلوى المفرقعات غير المستساغة في اتجاه بوّابة البريد، ساعية إلى فتح ثغرة فيها، ففتحتها، فأرادت أن تعضعض الردهة الخارجية المحيطة بالسلّم منطلقةً من قاعة خدمات الزبائن المخلوعة الباب، حتى لا يستطيع أحد الصعود أو الهبوط بعد ذلك. أمّا أتباعها المنتصبون خلف المدافع الرشاشة، أو في عربات الاستطلاع الأنيقة المدرعة التي حملت أسماء بديعة، مخطوطة بالفرشاة، مثل «أوستمارك» و«زوديتنلاند»؛ فإنهم لم يكتفوا بذلك، فانطلقوا بجعجعة، مدرعين ومستطلعين ذهاباً وإياباً قبالة البريد: سيدتان في عمر الشباب مولعتان بالتعليم والتدريب رغبتا في تفقّد قصر، لكن القصر كان مقفلا. فأدّى ذلك إلى التصعيد من لهفة وقلق الفاتنتين المدللتين المعتادتين على الدخول أينما حلتا، وأجبرهما على إلقاء نظرات رمادية الزرقة خارقة، ومن العيار ذاته، على مخادع القصر القابلة للرؤية، لكي يشعر أمناء القصر بالسخونة والبرودة والضيق.

وحالما تحركت إحدى عربتي الاستطلاع المدرعة في اتجاه البريد - أظنّ أنها كانت «أوستمارك» - قادمة من جادة رتر، دفع يان، خالي الهامد منذ فترة محددة، دفع بساقه اليمنى نحو كوّة الرماية، ثم رفعها إلى الأعلى على أمل أن تلمحها عربة استطلاع، فتطلق عليها النار؛ أو تشفق عليها رصاصة طائشة، فتمس بطّتها أو كعبها، وتصيبها بجرح يتيح للجندي الانسحاب الأعرج المبالغ فيه. بدا وضع ساقه هذا متعباً على المدى

الطويل، فصار يتخلى عن رفعها بين الحين والآخر. أخيراً عندما انقلب على ظهره، وأسند باطن ركبته بيديه معاً، وجد ما يكفي من القوّة لعرض بطّة الساق وكعبها بصورة متواصلة، وبأمل أكبر في النجاح، أمام القذائف المتناثرة أو الدقيقة التصويب.

ومع تفهمي ليان آنذاك، والذي لم يزل قائماً إلى اليوم، لكنني أبديت تفهماً أيضاً لما أظهره كوبيلا من غضب بعدما رأى رئيسه في تلك الحالة اليائسة المزرية. فانتفض البوّاب قافزاً إلى الأعلى وفي القفزة الثانية أشرف علينا، بل أصبح فوقنا مباشرة، فأمسك بتلابيب يان، ومعها يان نفسه، ونهض بالصرّة، ثم طرحها أرضاً، وقبض عليها ثانية، فترك التلابيب تنهار من علو، وأخذ يوجه الضربات يمنياً وشمالاً، متأهباً بيمناه، متخلياً عن يسراه، فأدركه بيمناه وهو محلّق، وأراد أن يوجه اللكمة الكبرى بيمناه ويسراه معاً، فأرسلهما لكي تصيبا يان برونسكي، أبي المفترض، إصابة بليغة - فحدث في تلك اللحظة ارتطام وصليل، مثل ارتطام الملائكة إجلالاً لله، أو مثلما يغني الأثيرُ في المذياع، فلم يصب برونسكي، بل أصاب كوبيلا؛ إذ أن قذيفة ما سمحت لنفسها بتذوق متعة الاحتفال، فضحك الآجر حتى استحال إلى حطام واستحالت الشظايا إلى تراب والجصّ إلى طحين، فعثر الخشب على الساطور، وأخذت غرفة الأطفال الغريبة تحجل كلّها على قدم واحدة، ثم تفتقت الدمى، وجمح الحصان الهزّاز، ممنياً نفسه بفارس لكي يسقطه، فانكشفت عيوب التصميمات في لعبة قطع البناء، واحتلت كتائب الرمّاحين البولندية أركان الغرفة الأربعة في وقت واحد - أخيراً انقلب حامل الرفوف ومعه لعب الأطفال: فصارت لعبة النواقيس تقرع أجراس الفِصْح، وصرخت آلة الأكورديون، ونفخ البوق لشخص ما؛ لقد أصدر كل شيء نغمة، كما الجوقة المتمرنة: فصارت تزعق وتصهل وتقرع وترتطم ببعضها، متصدعة تصرّ وتعج بالصياح والصخب فطمرت أسساً في أقصى الأعماق. أمّا أنا الذي كنت متواجداً لحظة الانفجار في زاوية الحماية الملائكية لغرفة الأطفال، مثلما يليق بطفل ذي ثلاثة أعوام، فقد سقط عليّ الطبل، وصار من نصيبي - لم

يصب طبل أوسكار الجديد إلا بخدوش بسيطة في الطلاء، دون أن يحدث فيه ثقب واحد.

وحين رفعت بصري عن ملكيتي المكتسبة توّاً التي تدحرجت مباشرة أمام قدميّ وجدت نفسي مجبراً على مساعدة يان برونسكي. كان من الصعب عليه أن يزيح عنه جسد البوّاب الثقيل. في البدء ظننت أن يان قد أصيب أيضاً؛ إذ أنه كان يئن وينشج بصورة طبيعية كما هو النشيج. أخيراً عندما زحزحنا كوبيلا إلى الجانب، كوبيلا الذي كان يتأوه بصورة طبيعية كذلك، اتضح بأن الأضرار التي لحقت بجسد يان كانت طفيفة للغاية، فقد خدشت شظايا الزجاج خدّه الأيمن وظاهر يده ليس إلا. فتأكدت من خلال مقارنة عاجلة بأن دم أبي المفترض كان فاتحاً أكثر من دم البوّاب الذي اصطبغ سرواله على حدّ ارتفاع الفخذ بلون قان ريّان. وكان من الصعب التعرف على من تسبب في تمزيق سترة يان الرمادية وقلبها على بطانتها، فهل كان كوبيلا أم القذيفة؟ فقد تفتقت بصورة بشعة من ناحية الكتفين، فبرزت بطانتها وتحررت أزرارها وتقطعت خيوطها وانقلبت جيوبها.

إنني أطلب الرفق بياني المسكين والتساهل معه، لأنه جمّع من جديد كلّ ما أفرغته العاصفة القاسية من جيوبه قبل أن يخرج كوبيلا بمعونتي من غرفة الأطفال، فعثر على مشطه وعلى صور أحبائه -كانت من ضمنها صورة نصفية لأمّي المسكينة- ومحفظة نقوده التي لم تُفتح عندما تبعثرت أشياؤه. بدا متعباً، بل خطيراً جداً بالنسبة له، خاصةً وأن أكياس الرمال قد عُصف بها جزئياً، أن يقوم بمفرده بتجميع ورق اللعب المتناثر في أرجاء الغرفة؛ لأنه أراد أن يحصل على الأوراق الاثنتين والثلاثين كلها، وحين لم يعثر على الورقة الثانية والثلاثين شعر بالغمّ، لكن أوسكار وجدها مختبئة بين حجرتين للدمى مخربتين وناولها له، ابتسم على الرغم من أنها كانت سبعة «ماجة».

وبعدما سحبنا كوبيلا من غرفة الأطفال وأوصلناه أخيراً إلى الممر وجد البوّاب المعوّق القدرة على النطق ببعض المفردات المفهومة من قبل يان، فسأل بقلق: «هل أن كلّ شيء على ما يرام؟» فقبض على سرواله بين

ساقيه الشائختين، فامتلأت قبضته وهزّ رأسه بالإيجاب. فكم كنّا فرحين كلّنا: فاستطاع كوبيلا الاحتفاظ بعزّة نفسه وكرامته، وعثر يان على أوراقه الاثنتين والثلاثين، بما فيها الورقة سبعة ماجة، وحصل أوسكار على طبل جديد صار يرتطم بركبته في كلّ خطوة أثناء قيام يان وشخص آخر سمّاه يان فكتور بحمل البوّاب الذي أنهكه النزيف ونقله إلى الطابق الأسفل حيث مخزن الرسائل.

بيت الورق

ساعدنا «فكتور فيلون» في نقل البوّاب الذي كان يزداد ثقلاً كلّما ازداد نزيفه. كان فكتور القصير النظر تماماً قد وضع في تلك الساعة نظارته فلم يتعثر بدرجات السلّم الحجرية. لقد اشتغل آنذاك موزعاً للحوالات النقدية، بحيث بدا وقع هذه المهنة غريباً بالنسبة لشخص يعاني من قصر النظر. واليوم فإنني أطلق على فكتور لقب فكتور المسكين. ومثلما تحولت أمّي إلى أمّي المسكينة بعد رحلة عائلية إلى سدّة المرفأ، تحوّل فكتور إلى فكتور المسكين المنزوع النظّارة بعدما فقد نظّارته - لكن هناك أسباب أخرى لعبت دوراً أيضاً في الأمر.

وكنت أسأل صديقي فيتلار أثناء الأيام المخصصة للزيارة: «هل رأيت فكتور المسكين مرّة أخرى؟» بيد أننا فقدنا آثار فكتور فيلون منذ رحلة الترام من فلنغيرن إلى غيرسهايم -سوف أتحدث عن تلك الرحلة فيما بعد. ولم يبقى سوى الأمل بأن لا يقبض عليه مطاردوه وأن يعثر على نظّارته أو على نظّارة أخرى مناسبة له وأن يسعد الناس بتوزيع الحوالات النقدية مثلما كان يفعل زماناً، حتى لو لم يكن في خدمة البريد البولندي، بل في خدمة البريد الاتحادي، بنظره القصير ونظّارته. قال يان الذي أمسك بكوبيلا من جانبه اليسار وهو يلهث: «أليس هذا أمر فظيع؟» فأعرب فكتور المحمّل بجهة البوّاب اليمنى عن قلقة: «كيف سينتهي الوضع إذا لم يأت الإنجليز والفرنسيون؟»

«لكنهم سيأتون لا محالة! لقد صرّح روج-سمغلي في الإذاعة يوم أمس: (لدينا تعهّد بأن فرنسا ستقف وقفة رجل واحد إذا نشبت الحرب!)»

فوجد يان صعوبة في الحفاظ على توازنه حتى نهاية الجملة؛ إذ أن مرأى دمه على ظاهر يده المخدوشة جعله يخشى، حتى لو لم يضع التعهّد البولندي-الفرنسي موضع الشكّ، بأنه سينزف دمه كلّه قبل أن تهبّ فرنسا هبّة رجل واحد، فتكتسح الحزام الأمني على الحدود الألمانية الغربية. «إنهم بالتأكيد في الطريق الآن. وإن أسطول إنجلترا يمخر عباب بحر البلطيق!»

كان فكتور فيلون يحبّ الألفاظ الفخمة البليغة، حين كان جانبه الأيمن محملاً بجسد البوّاب المصاب، مطوحاً بيده من ناحية اليمين كما لو أنه وقف على منصة مسرح، تاركاً أصابعه الخمسة تتكلم فوق السلّم: «هلمّوا، هلمّوا أيها البريطانيون المتبجحون!»

وبينما كان الرجلان يواصلان على مهل تقييم العلاقات البولندية-الفرنسية-الإنجليزية، كان أوسكار يقلّب أفكاره في ذهنه كتب غريتشن شفلر بحثاً عن تلك التفاصيل المتعلقة بذلك. فقد جاء في تاريخ كايزر عن مدينة دانسغ: «إبّان الحرب الألمانية-الفرنسية من العام ١٨٧٠-١٨٧١ توغلت أربع سفن حربية فرنسية إلى خليج دانسغ في عصر الواحد والعشرين من شهر أغسطس في العام ١٨٧٠، ثم تقاطعت في المرسى ووجهت فوهات مدافعها نحو الميناء والمدينة، غير أن الطرّاد «نمفه» الذي كان تحت قيادة القبطان فايكلمان تمكن في الليلة اللاحقة من إجبار قطع الأسطول الراسية في خليج بوتسغ الضحل المياه على الانسحاب.»

وقبل أن نصل مخزن الرسائل في الطابق الأوّل اهتديت إلى رأي أثبتته الوقائع فيما بعد وهو: أن الأسطول البريطاني كان راسياً محمياً أو غير محميّ عند لسان بحريّ في اسكتلندا والجيش الفرنسي الجرّار كان مجتمعاً للغداء، معتقداً بأنه نفّذ ميثاق التعهد البولندي-الفرنسي عبر بضعة دوريات استطلاعية عسكرية في خطّ-ماجنو الدفاعي وذلك قبل فترة وجيزة على اجتياح البريد البولندي وأراضي بولندا المنبسطة. قبض علينا الدكتور ميشون أمام المخزن والمستوصف المؤقت، وكان مازال يعتمر خوذته الفولاذية، تاركاً طرف المنديل الأنيق يطلّ من جيب سترته عند الصدر،

وبرفقته مبعوث وارشو المسمّى كونراد. ومباشرة دبّ الذعر بيان برونسكي الذي تظاهر بشتى أنواع الإصابات وبجميع ضروب التمثيل. حينما قدم فكتور فيلون غير الجريح والمسلّح بنظّارته نفسه باعتباره رامياً يمكن الاستفادة منه، سُمح لنا بدخول القاعة الخالية من النوافذ والمضاءة بالشموع على نحو شحيح؛ لأن محطة توليد الطاقة لمدينة دانسغ لم تكن مستعدة لتزويد البريد البولندي بالكهرباء.

أصدر الدكتور ميشون الذي لم يكن مقتنعاً بإصابات يان، ولم يكن قد وضعه بالضرورة في حسابه باعتباره مقاتلاً صالحاً للدفاع عن البريد، أصدر أمراً لسكرتير البريد بالعمل كرجل إسعاف والاعتناء بالجريح وبي أيضاً، بعدما ربت على رأسي بيأس مثلما شعرت، وأن يضعني نصب عينيه لئلا أتورط في الاشتباكات.

ثم انفجرت قذيفة مدفع على حد ارتفاع قاعة خدمات الزبائن، فصرنا نختضّ مثل زهر النرد. فارتمى ميشون ذو الخوذة الفولاذية وكونراد المبعوث الرسمي لوارشو وموزّع الحوالات النقدية فيلون في الاتجاه المعاكس لمواضعهم القتالية. ووجدنا أنا ويان أنفسنا مع سبعة أو ثمانية من الجرحى في قاعة مقفلة، لا يصل إليها ضجيج القتال. حتى الشموع لم يتراقص لهبها بشكل غير طبيعيّ حين أظهرت المدافع جديتها. كان الجو هادئاً تماماً على الرغم من كثرة المتأوهين أو بسببهم. لفّ يان فخذ كوبيلا بشرائط الشراشف الممزقة وقد فعل ذلك بلهوجة وعلى نحو بدئي خال من المهارة، ثم فرغ للاعتناء بنفسه، غير أن وجنة الخال وظاهر يده توقفا عن النزيف، فصمتت الجروح متيبسةً، لكنها كانت مؤلمة، فصارت تغذي مخاوف يان؛ تلك المخاوف التي لم تجد لها منفذاً في تلك القاعة الخفيضة الخانقة. وأخذ يفتش جيوبه باضطراب، فعثر على اللعبة الكاملة العدّة والعدد: لعبة «سكات»، فسنعلب سكات إلى أن ينهار خطّ الدفاع.

خُلطت الأوراق الإثنتان والثلاثون، وقُطعت، ثم وُزعت على الحاضرين. وبما أن سلال البريد كانت محجوزة كلّها من قبل، فقد أسندنا كوبيلا إلى سلّة ثم ربطناها أخيراً بحمّالات سروال جريح آخر؛ لأنه كان

يميل بين الحين والآخر إلى الانهيار، وجعلناه في وضع لا يسمح له بإسقاط ورقه؛ إذ أننا كنّا بحاجة إلى كوبيلا. فما الذي كنّا سنفعله بدون الرجل الثالث الضروري للعبة سكات؟ كان من الصعب على أولئك الراقدين في سلال البريد التفريق بين الأسود والأحمر، فلم يرغبوا في أن يلعبوا السكات. في الواقع لم يكن كوبيلا راغباً في لعب السكات؛ بل أراد الرقاد. لقد أراد البوّاب أن يترك الأمور تجري على هواها. كما أنه كان يرغب في رؤية أعمال التقويض الأخيرة وهو مكتوف اليدين، مغمضاً عينيه الخالتين من الرموش. بيد أننا لم نسمح له باتخاذ هذه الحالة القدرية، فربطناه، واجبرنها على أن يلعب دور الرجل الثالث، ولعبت أنا دور الرجل الثاني -فلم يتعجب أحد من أن هذا القزم يستطيع أن يلعب السكات.

نعم، عندما منحت صوتي لغة الكبار للمرّة الأولى وقلت «ثمانية عشر»، رمقني يان وهو يرفع رأسه من الورق بنظرة قصيرة، لكنها كانت نظرة زرقاء على نحو لا يوصف، ثم هزّ رأسه استجابةً، فأضفت «عشرون؟» فأجاب يا بلا تردد «أرفع أكثر.» قلت: «اثنان. والثلاثة؟ أربعة وعشرون؟» فتأسف يان: «اكتفيت.» وكوبيلا؟ لقد أوشك أن يخرّ على الأرض على الرغم من الحمّالات. لكننا رفعناه إلى الأعلى، وانتظرنا الصخب الذي ستقدمه قذيفة مدفعية في الخارج، بعيدة عن غرفة لعبنا، حتى تمكن يان من الهمس خلال الهدوء الذي عمّ فور ذلك: «كوبيلا، أربعة وعشرون! ألم تسمع برهان الصبي؟»

لم أكن أعلم من أيّ أغوار سحيقة طفا البوّاب، فبدا كما لو أنه رفع أجفانه برافعة لولبية. وأخيراً شرد بصره المندّى في اتجاه الأوراق العشر التي دسها يان في يده بسرّية وبلا أيّ أثر للدسيسة.

قال كوبيلا «اكتفيت.» ذلك يعني أننا قرأنا العبارة من شفتيه اللتين جفتا أكثر من قدرتهما على الكلام.

فقذفت بورقة «سنك» عادية. ولكي يقدم يان الذي نافس متحدياً على أوّل «بَصْرَة» فقد كان عليه أن يزعق بالبوّاب، ويلكزه في الخاصِرَة بفظاظة انطوت مع ذلك على صفاء نيّة، لكي يتمالك نفسه، وأن لا ينسى

«الأكل»، لأنني كنت انتزعت منهما أوراق «الطرنيب» كلّها، وضحيّت بملك سنك، أكله يان بماجة شاب؛ ولأنني احتفظت بورقة واحدة من نوع الديناري، فقد رجعت إلى اللعب، فأكلت آس يان الديناري، وسحبت منه العشرة بالكوبا ولد - رمى كوبيلا تسعة ديناري، فأصبحت واثقاً تماماً من الفوز عبر ناي الكوبا الذي كان في حوزتي: بلعبة اثنين ضد ثلاثة القائمة على أكثر من ثلاثين نقطة وأربع مرّات سنك تساوي اثني عشر فلساً(*). وبعدما تمكن كوبيلا الذي أمتلك الولدين معاً من أن يسحب منّي الشاب الديناري بالولد السنك في الجولة الثانية - كنت أقدمت لحظتها على مجازفة كبيرة في نزلة حاسمة- دبّت الحيوية في اللعب. إثر ذلك نزل البوّاب الذي بدا كالملسوع وبسبب الأكل، نزل بآس، فتوجب على أن أبصرَ في اللعب، ثم رمى يان بالعشرة التي التهمها كوبيلا على الفور، فسحب الملك. فتوجب عليّ أن آكل، لكنني لم أفعل ذلك، إنما قذفت بثمانية سنك، فبذل يان قصارى جهده، ليلتحق باللعب من خلال العشرة كوبا، فأكلتها، ويا للعنة؛ لقد التهم كوبيلا فوقها مباشرة بكوبا ولد التي نسيتها أو ظننتها عند يان، بيد أنها كانت عند كوبيلا، فأكل مباشرة وأخذ يصهل، ثم ألحق بها ورقة الماجة الولد بطبيعة الحال، فتوجب على أن أنزل، بينما كان يان يحاول اللحاق وسع جهده، أخيراً أتحفوني بورقة كوبا، بيد أنها لم تنفع شيئاً: أحصيت اثنتين وخمسين نقطة: نزلة حاسمة بلا تكرار ثلاث مرّات نزلة كبرى تساوي ستين أضاعت مائة وعشرين أو ثلاثين فلساً(**). فنقّدني يان «غولدنين» في قطع نقد صغيرة، فسددت الحساب، لكن كوبيلا، انهار ثانيةً على الرغم من أنه كسب اللعب، فلم يدعني أدفع له النقد، وحتى القذيفة التي انفجرت عند ردهة السلّم في تلك اللحظة، لم تثر اهتمام البوّاب قطّ، مع أنها انفجرت عند ردهة سلّمه التي كان يغسلها ويمسحها منذ أعوام دون أن يشعر بالكلل.

(*) وضع غراس هنا ٨٢ حرفاً في كلمة واحدة.
(**) كلمة واحدة من ثمانية وسبعين حرفاً.

فجأة اجتاح الخوف يان حين ارتجّ باب قاعة الرسائل، حيث جلسنا، وبات لهب الشمع لا يعرف ما الذي حلّ به وفي أي اتجاه عليه أن يلقي بنفسه. لكن عندما فرقعت قذيفة المدفعية الأخرى عند الواجهة الخارجية البعيدة، بدا يان مخبولاً وهو يخلط الورق، فغلط في التوزيع مرتين، بيد أنني آثرت الصمت. طالما كانوا يطلقون النيران، فإن يان لم يكن مستعداً لتقبّل التشجيع أو المواساة، فأصبح مرهف الأعصاب من فرط التوتر، يأكل خطأً، وينسى الفتح أو النزول، وينصت إلى الخارج بأذنيه الصغيرتين المكتنزتين حسيّاً، في حين كنّا ننتظر بصبر نافد عودته إلى ميدان اللعب. وبينما كان يان يواصل دعم اللعب بلا تركيز، فإن كوبيلا كان حاضراً دائماً، هذا إذا لم يكن منهاراً للتو، أو محتاجاً إلى أحد يسنده من الجانب. لم يكن لعبه في الواقع سيئاً أبداً مثلما توقعنا منه. فكان لا ينهار إلا بعد أن يكسب الجولة، أو يخسّرنا نزلة كبرى بتحدّ، فبدا حاضراً من أجل اللعب وحده. وإذا ما كنّا نحسب ونعيد الحساب؛ فإنه كان يتعلق منحرفاً بحمالآت السروال المستعارة، ولم يسمح إلا لعقدة حنجرته، المرتجفة بشكل مخيف، أن تفصح عن بقاء البوّاب كوبيلا على قيد الحياة.

كان أوسكار قد شعر بالإرهاق من لعبة الورق الثلاثية هذه. ليس بسبب الأصوات والانفجارات الناجمة عن محاصرة البريد أو الدفاع عنه، تلك الأصوات التي أثقلت على أعصابي بإفراط، إنما بفعل انهيار كساء الجدران المباغت المبتكر والمحدد زمنياً مثلما تراءى لي. وإذا كنت إلى اليوم لم أكشف نفسي على حقيقتها، بلا تزويق، إلا أمام المعلّم بيبرا وعقيلته السائرة في نومها؛ فإنني قدمت نفسي الآن أمام خالي وأبي المفترض، وأمام البوّاب المعوّق، أي أمام الناس الذين لا يمكن أن يكونوا شهوداً عليّ في أي حال من الأحوال، قدمت نفسي حسبما ورد في شهادة الميلاد باعتباري مراهقاً ذا أربعة عشر ربيعاً، ويلعب الورق بطريقة لا تخلو من مهارة، وإن بدا مجازفاً. لقد أسفرت هذه الجهود المرهقة المنسجمة مع إرادتي، وغير المتناسبة مع قياساتي القزمية، عن آلام حادة في الرأس والمفاصل بعد حوالي ساعة من لعبة الورق.

كان أوسكار راغباً في التوقف عن اللعب، وقد أتيح له ما يكفي من الفرص للفرار في الفترة الفاصلة ما بين انفجار قذيفتين متواليتين في وقت قصير، بحيث أن المبنى كان يرتج برمته لوقعهما، لو لم يأمرني الشعور بالمسؤولية، الذي بدا مجهولاً بالنسبة لي حتى تلك الساعة، بالبقاء لمواجهة خوف أبي المفترض بالدواء الناجع الوحيد إلا وهو الاستمرار في لعب «السكات».

لقد واصلنا اللعب، مانعين كوبيلا عن الموت، فلم يبلغ به الأمر إلى ذلك الحد. إذ أنني كنت حريصاً على أن يبقى الورق في متناول اليد. بعدما ما سقطت شموع الشحم إثر انفجار عند ردهة السلّم، واستسلم اللهب، كنت حاضر الذهن الذي ففعلت ما يجب فعله، إذ انتشلت علبة الكبريت من جيب يان، فسحبت معها سجائره ذات عقب مذهّب، وجلبت الضوء إلى العالم ثانيةً، فأشعلت ليان سيجارة ريغاتا المهدئة، وأقحمت اللهب الصغير على العتمة ومضةً إثر أخرى، قبل أن ينسل كوبيلا مستغلاً الظلام.

ثبّت أوسكار شمعتين على طبله الجديد، ثمّ وضع السجائر في متناول اليد، إلا أنه نفسه أعرض عن التبغ، فصار يقدم إلى يان سيجارة بين آونة وأخرى، ثم حشر واحدة بين شفتي كوبيلا الملتويتين، فتحسن الوضع قليلاً، وانتعش اللعب، وصار أوسكار يقدم لهما التبغ التسلية والعزاء ويهدئهما، لكنه لم يحل دون خسران يان اللعب جولة بعد جولة. كان يان ينضح بالعرق ويدغدغ شفته العليا بطرف لسانه كلّما ركزّ على اللعب. كان متأججاً لدرجة أنه دعاني في نوبة حماس ألفريد أو ماتسرات، ثم حسب كوبيلا أمّي المسكينة التي شاطرته اللعب. وعندما صرخ أحد ما في الممر معلناً عن أن: «كونراد قد أصيب» رمقني بنظرة مليئة بالعتاب ثم قال: «أرجوك يا ألفريد أغلق المذياع. لأن أحداً لم يعد قادراً حتى على سماع كلامه!» وشعر يان المسكين بالانزعاج حقّاً عندما فُتح الباب على حين غرّة فسحب عبره كونراد الخائر القوى، فقال باحتجاج: «أغلقوا الباب، حيث يأتي تيّار الهواء!». فعلاً كان هناك تيّار هوائيّ، فارتعش لعب الشموع

بتردد، ولم يهدأ إلا بعد أن كوّم الرجال كونراد في زاوية ما، ثم أغلقوا الباب خلفهم. بدا مظهرنا، نحن الثلاثة، مليئاً بالمخاطرة، إذ كان ضوء الشموع يغمرنا من الأسفل، ويمنحنا مظهر السحرة القادرين على كلّ شيء. أخذ كوبيلا يزايد بورقة كوبا وقال سبعة وعشرون ثم ثلاثون، كلا لم يقل، بل غَرْغَرَ، تاركاً في الوقت نفسه عينيه تزوغان، وثمة شيء ما استقر في كتفه اليمنى وأراد الخروج، فاهتزّ، متظاهراً بالحياة على نحو عابث تماماً، ثم همد أخيراً، بيد أنه جعل كوبيلا يتداعى إلى الأمام، فحرّك معه سلّة الغسيل المليئة بالرسائل ومعها الرجل الميّت المنزوع الحمّالات، لكن يان بادر بحركة وخز واحدة، معلناً عن استعداده الكامل إلى إيقاف كوبيلا وسلّة الغسيل معاً، وحين أعيق كوبيلا مرّة ثانية من أن يجأر في الأخير «كوبا يد» فيهمس يان «أتحدى!»، حتى يعصر كوبيلا نفسه على القول «جواب!» أدرك أوسكار بأن الدفاع عن البريد البولندي قد كُتب له النجاح، وأن أولئك الذي شنّوا للتوّ هجوماً فأشعلوا فتيل الحرب خسروها حال اندلاعها؛ حتى لو تمكنوا في مجرى الحرب من احتلال بلاد التّبِت والآسكا والجزر الشرقية والقدس.

لكن المصيبة هو أن يان لم يستطع أن يلعب اللعبة الحاسمة التي كان سيكسبها بكّل ثقة، فينزل بأكثر من ثلاثين نقطة بأربع أوراق. وأخذ يان يعزف النغمة ذاتها، فصار يناديني الآن بآغنس وحسب كوبيلا غريمه ماتسرات، سحب بتكلّف ورقة ديناري ولد - فضّلت أن أتظاهر أمامه باعتباري أمّي المسكينة وليس ماتسرات -، والحق بها كوبا ولد - إنني لا أحب، ولا بأي حال من الأحوال، أن أستبدل بماتسرات -، فانتظر يان بنفاد صبر إلى أن نزل ماتسرات المزعوم الذي كان في الواقع بوّاباً معوقاً يدعى كوبيلا؛ فاستغرق ذلك وقتاً طويلاً، لكن يان طرق الأرضية الخشبية بآس كوبا، دون أن يفقه شيئاً أو لم يستطع أن يفقه ما حدث، بل لم يكن له أن يفقه شيئاً على وجه صحيح، فكان أزرق العينين على الدوام، وينضح بعطر الكولونيا، فلم يفهم أو يدرك لماذا أسقط كوبيلا الأوراق كلّها من يده، ثم قلب سلّة الغسيل مع الرسائل والرجل الميّت معها، إلى

أن انقلب الميّت وفوقه كتلةٌ من الرسائل وأخيراً السلّة المضفورة من الخيزران بعناية، فوزعت علينا سيلاً من الرسائل، كما لو أننا كنّا المرسل إليهم، كما لو أنه توجب علينا أن نلقى بالورق إلى الجانب فنقرأ خطابات التوبيخ ثم نجمع الطوابع. لكن يان لم يرغب في القراءة ولا في الجمع، فهو قد جمّع الكثير في طفولته، وأراد أن يلعب، ويخوض اللعبة الحاسمة إلى النهاية، أراد أن يكسب وينتصر ليس إلا. فقوّم كوبيلا وأوقف السلّة على عجلاتها، لكنه ترك الميّت ملقى، ولم يدفن الرسائل في موضعها ثانيةً، فأثقل السلّة على نحو واه، ومع ذلك بانت عليه الدهشة عندما عجز كوبيلا المعلّق بالسلّة الخفيفة الحركة عن البرهنة على وجود لحم كاف للجلوس فصار ينحرف باستمرار، حتى زعق به يان: «الفريد؛ أرجوك، لا تفسد علينا اللعبة، هل تسمعني؟ فقط هذه اللُعيبة القصيرة ثم نذهب إلى البيت، فاسمعني!»

ونهض أوسكار متعباً، لكنه تغلّب على آلام المفاصل والرأس المتزايدة، ووضع يديه المطبلتين الصلبتين الصغيرتين على كتفي يان برونسكي وأجبر نفسه على التكلّم بصوت خافت لكنه شديد الإلحاح: «اتركه يا بابا. إنه ميّت وما يقدر يلعب بعد. إذا تريد يمكن نلعب ستة وستين.»

أخلى يان، الذي ناديته بأبي للتو، سبيل ما بقي من لحم البوّاب، وبحلق فيّ بعين زرقاء طافحة بالزرقة، ثم أجهش في البكاء لا، لا، لا . . . فأخذت أتحسسه بحنو، بيد أنه واصل النفي. فقبّلته قبلات ذات معنى، غير أنه لم يفكّر إلا باللعبة الحاسمة التي يجب أن تخاض حتى النهاية. فأخذ يشكو لي بصفتي أمّي المسكينة: «كنت سأكسبها يا آغنس. كنت سأحملها معي بالتأكيد إلى البيت.» وأتقنت -أنا ابنه- الدور، فأيدته وأقسمت له بأنه كان سيكسب، بل أنه كسب في الواقع، وما عليه إلا أن يؤمن بذلك ويصغي إلى آغنس. لكن يان لم يقتنع بي ولا بأمّي، بل صار ينتحب بصوت عال ويتظلّم شاكياً، ثم هبط إلى نوع من الوأوأة غير المنغّمة، وصار يستل روق اللعب من تحت جبل كوبيلا الذي أصابه

الفتور، ناكشاً ما بين ساقي البوّاب، فجادت كتلة الرسائل بوابل منها، لكن يان لم يهدأ له بال إلى أن جمع الأوراق الاثنتين والثلاثين كلّها، ونظّفها من العصير اللزج الذي نزّ من سروال كوبيلا، وبذل جهداً مع كلّ ورقة بمفردها، ثم خلط بغية اللعب وهمّ بالتوزيع، فأدرك في آخر المطاف، ومن خلف أديم جبينه المهذب المظهر، غير المنخفض، الناعم الذي لا يخلو من الشفّافية، بأن لا رجل ثالثاً في هذا العالم يمكن أن يشاطره لعبة السكات.

حينئذ ساد الصمت في قاعة الرسائل، أمّا في الخارج فقد تبرّع المرء بدقيقة حداد مديدة من أجل زميل السكات والرجل الثالث. فتراءى لأوسكار كما لو أن الباب فُتح بهدوء، فتطلع عبر الأكتاف، متوقعاً حضور كلّ ما هو لا أرضي، فأبصر وجه فكتور فيلون الغريب الفارغ، الكفيف البصر. «لقد فقدت نظّارتي، يا يان. هل أنت بعدك موجود هنا؟ إننا نريد أن نهرب. فقدني، لأنني أضعت نظّارتي!»

ربما تصوّر فكتور المسكين أنه ضلّ طريقه إلى هذه القاعة، فسحب وجهه العديم النظّارة، إذ أنه لم يحظ بإجابة ولا بنظّارته ولا بذراع تقوده، ثم أغلق الباب، فسمعت برهةً قصيرة كيف كان فكتور يتلمس طريقه في الممر، وهو يشقّ الضباب ليهرب. لكن ما هذه الدعابة التي دارت في رأس يان فجعلته يستغرق في الضحك، بهدوء في البدء وفي ظلّ الدموع، ومن ثمّ بصوت فرح مرتفع، لاعباً بلسانه الطري الوردي المدبب من أجل كل ما هو ناعم ورقيق، قاذفاً بالورق إلى الأعلى، وهناك، حين عمّ سكون الرياح وسكون الآحاد في الحجرة التي احتوت الرجال الصامتين والرسائل، بدأ يشيد بيتاً من الورق حسّاساً، يشيده بحركات متأنية رزينة وأنفاس مكتومة: فتشكل الأساس من سبعة كوبا وسنك بنت، وسقفهما بالديناري والملك. وأقام إلى جانب الأساس الأول الرصين أساساً آخر من تسعة كوبا وماجة آس، وربط الأساسين بالأولاد والعشرات القائمة عمودياً وبالبنات و«الآسات» على نحو عرضي، بحيث أن كل شيء صار يسند بعضه البعض. حينئذ قرر أن يضيف طابقاً ثالثاً على الطابق الثاني، ففعل

ذلك بيدين مليئتين بالعزيمة اللتين لابد أن تكون أمّي المسكينة قد تعرفت عليهما، راضخة لطقوس شبيهة بهذه. وعندما أسند كوبا بنت على الملك ذي القلب الأحمر؛ فإن البناية لم تتقوض، كلا؛ إنما انتصبت شامخة، سريعة التأثر، تتنفس بخفّة في تلك القاعة المليئة بالقتلى المقطوعي الأنفاس والأحياء الذين حبسوا أنفاسهم، فسمحت لنا أن نطوي أيدينا، ودفعت بأوسكار، المتشكك، الذي تفحّص بيت الورق حسب قواعد البناء جميعها، إلى نسيان الدخان الكاوي والنتانة التي تسللت عبر فجوات باب قاعة الرسائل باقتصاد والتواء، مولدة انطباعاً بأن هذه القاعة الصغيرة، وبداخلها بيت الورق، كانت تتاخم الجحيم باباً على باب.

لقد استخدموا قاذفات اللهب، متجنبين الهجوم الأمامي، مصممين على تطهير المكان من آخر المدافعين بالتدخين، إلى درجة أن الدكتور ميشون اضطر في الأخير إلى خلع خوذته الفولاذية، وهرع نحو شرشف أبيض. ولأنه لم يكتف بذلك، فقد تناول منديل سترته وصار يلوّح بهما، معلناً التنازل عن البريد البولندي. فغادر مبنى البريد عبر المخرج الجانبي على جهة اليسار ثلاثون رجلاً، ملفوحين بحرارة الدخان، وبأعين نصف عمياء، شابكين أيديهم على مؤخرة رؤوسهم، فاصطفوا أمام جدار الباحة، منتظرين رجال الحرس القومي المتقدمين ببطء. فيما بعد قيل إن ثلاثة أو أربعة رجال تمكنوا من الفرار أثناء فترة اصطفاف المدافعين في الباحة عندما كان المهاجمون في الطريق إليهم: هربوا عبر موقف سيارات البريد، مروراً بموقف سيارات الشرطة المحاذي لكراج البريد، حتى دخلوا البيوت الفارغة في حيّ ريهم، البيوت الفارغة لأنها أخليت من أهلها. فعثروا هناك على ثياب، بل عثروا على شارات الحزب ونياشينه، فاغتسلوا، وهذبوا مظهرهم الخارجي، ثم تسللوا واحداً تلو الآخر؛ وقيل عن أحدهم: إنه دخل إلى محل نظّارات، فركّب له نظّارة جديدة؛ لأن الأوّلى فُقدت إثناء الاشتباكات في مبنى البريد. وسمح نفسه، وهو مسلح بعدساته الجديدة باحتساء كأس من البيرة، أردفه بآخر في سوق الأخشاب؛ لأنه كان ظمآن بفعل قاذفات اللهب؛ تلك النظّارة التي أزاحت بعضاً من الضباب أمام

بصره، لكنها لم تزيحه تماماً مثلما فعلت النظّارة القديمة، ثم هرب هرباً مازال قائماً إلى يومنا هذا؛ إذ أن مطاردوه كانوا صعبي المراس. غير أن الآخرين - وأقول هنا بأنهم كانوا حوالي ثلاثين رجلاً لم يصمموا على الهرب - اصطفوا عند الجدار، قبالة البوّابة الجانبية، في الوقت الذي أسند فيه يان قلب الملكة على قلب الملك وسحب يديه بسعادة غامرة.

فما الذي يمكن أن أضيفه بعد ذلك؟ لقد عثروا علينا. ففتحوا الباب بغتة وصرخوا بنا: «اُخرجوا!» وجلبوا معهم الهواء والريح، فجعلوا بيت الورق ينهار، إذ لم يكن لديهم أدنى إحساس بالمعمار. كانوا يحلفون بالخرسانة ويبنون من أجل الخلود. فلم يلقوا بالاً إلى وجه سكرتير البريد الغاضب المهان. وعندما ساقوه إلى الخارج لم يلحظوا بأن يان هجم على الورق فخطف بعضاً منه، وأنني، أي أوسكار، قمت بإزالة أعقاب الشموع من طبلي المكتسب حديثاً، ثم حملته معي، معرضاً عن بقايا الشموع؛ لأن أضواء الكشّافات كانت ساطعة حين سُلطت علينا؛ غير أنهم لم ينتبهوا إلى أن مصابيحهم اليدوية قد أعمتنا، فلم نعثر حتى على الباب. كانوا يزعقون خلف المصابيح الميدانية والبنادق القصيرة المشرعة «اخرجوا!» ومازالوا يصرخون «اخرجوا» حتى بعد أن أصبحنا أنا ويان في الممر. كانوا يعنون كوبيلا بأمرهم «اخرجوا» وكونراد المبعوث الرسمي لوارشو وبوبك أيضاً وفيشنفسكي الصغير، الذي أشتغل عندما كان حيّاً في استلام البرقيات. فشعروا بالخوف لأن أولئك لم يستجيبوا لهم. وبعد أن أدرك رجال الحرس القومي بأنهم أصبحوا موضع سخريتنا، أنا ويان؛ لأنني كنت أقهقه بصوت عال كلّما زعقوا «اخرجوا!»، فتوقفوا عن الزعيق وقالوا «هكذا إذاً!»، ثم قادونا إلى باحة البريد حيث وقف الثلاثون شابكين أيديهم خلف رؤوسهم، شاعرين بالعطش، وحيث صورهم برنامج أخبار الأسبوع.

وحالما اقتدنا عبر البوّابة الجانبية اتجهت نحونا كاميرات برنامج أخبار الأسبوع المثبتة فوق عربات الركّاب، فصوّرت لنا فيلماً، عرض فيما بعد في جميع دور السينما. لكنني عُزلت عن الجمع الواقف عند الجدار، فتذكّر أوسكار حالته القزمية، أي ضآلة حجمه التي تغفر له كلّ شيء،

فاجتاحته أيضاً آلام المفاصل والآم الرأس، فسقط هو وطبله على الأرض، وأخذ يتخبّط ويتلّوى، معانياً من نوبة ألم بمقدار النصف، متصنعاً نصفها الآخر، بيد أنني لم أتخل عن طبلي أثناء النوبة المؤلمة. وعندما أمسكوا به وحشروه في سيارة رسمية تابعة للحرس القومي النازي، لمح أوسكار، بعدما تحركت به السيارة، يان المسكين وهو يبتسم ببلادة وفرح معاً، قابضاً على حفنة من ورق السكات في يديه المرفوعتين، وأخذ يلوّح بكوبا بنت، حسب ظنّي، مودعاً ابنه الذي أقلته السيارة.

راقد في «سازبه»

قرأت للتو الفقرة التي كتبتها في الأخير، وإذا لم أكن راضياً، فعلى الأقل يجب أن يكون قلم أوسكار راضياً في هذا الخصوص؛ إذ أنه تمكن من السرد المقتضب والاختصار والمبالغة بين الحين والآخر بذريعة المعالجة المقتضبة بوعي، هذا إذا لم يكن قد مارس الكذب. إلا أنني أودّ أن أتمسك بالحقيقة، معرضاً على حين غرّة عن قلم أوسكار، لأصحح هنا: أوّلاً أن اللعبة الأخيرة ليان، التي لم يستطع خوضها إلى النهاية وكسبها، لم تكن لعبة النزلة الحاسمة، إنما لعبة «ديناري» غير مزدوجة؛ ثانياً أن أوسكار لم يحمل معه طبل الصفيح الجديد وحده عندما غادر قاعة الرسائل، إنما أيضاً الطبل المتصدع الذي سقط من سلّة الغسيل مع الرسائل والرجل القتيل المنزوع الحمّالات. إضافة إلى أنه عندما غادرنا، أنا ويان، قاعة الرسائل، لأن رجال الحرس القومي طلبوا منّا مغادرتها بمصابيحهم الميدانية وبنادقهم القصيرة، وقف أوسكار لائذاً في ظل رجلين من رجال الحرس القومي لهما ملامح الأعمام الموحية بالطيبة، فانخرط في بكاء زائف يدعو إلى الرثاء، مشيراً إلى يان، أبيه، إشارات اتهام، حوّلت المسكين إلى رجل شرّير جرجر معه طفل برئ إلى البريد البولندي لكي يستخدمه بمثابة واقية رصاص على الطريقة البولندية غير الإنسانية.

لقد مني أوسكار نفسه بما يرضي طبليه السليم منهما والمعطوب من خلال تلك المسرحية الخيانية المفتعلة، فكان محقّا في ذلك: إذ ركل رجال الحرس القومي يان في ظهره ثمّ لكزوه بأعقاب البنادق، وتركوا لي طبليّ معاً، وربتّ حارس قوميّ عجوز، أحاطت بفمه وأنفه تجاعيد الهموم

التي يتعرض لها أرباب العوائل غير المرتاحين، ربتّ على خدي، بينما احتضنني رجل آخر أشقر الشعر، أبيضه، ذو عينين ضاحكتين بلا انقطاع، استحالتا شقّين طوليين، فأصبحتا غير مرئيتين، بحيث أن أوسكار تأثر باشمئزاز. وكلّما شعرت اليوم بخجل أحياناً من ذلك الموقف المشين فإنني أسارع إلى القول: إن يان لم يلحظ ما فعلتُ؛ لأنه كان مشغولاً بالورق، وبقي مشغولاً به بعد ذلك أيضاً، فلم يستطع أحد أن ينحيه عن ورق السكات، حتى ولا أكثر أفكار الحرس القومي مرحاً أو شيطانية كان من شأنها أن تغريه بالانصراف عن الورق. وبينما كان يان يقيم في مملكة بيوت الورق الأبدية، قاطناً بفرح غامر في بيت منها يؤمن بالسعادة، وقفنا، رجال الحرس القومي وأنا، - إذ أن أوسكار كان محسوباً على الحرس القومي- وقفنا بين جدران الآجر، على أرضية الرواق المبلطة، تحت السقوف المزخرفة بالجبس، المتداخلة بالحيطان والحواجز على نحو متشنج، لدرجة أن المرء خشي أسوأ العواقب في ذلك اليوم؛ لأن أعمال اللصق تلك التي نسميها معماراً كان بإمكانها أن تصيخ السمع مستسلمةً لهذا الظرف الطارئ أو ذاك فتفقد تماسكها.

بالطبع أن هذا الإدراك المتأخر ليس من شأنه أن يغفر لي شيئاً، لاسيما وأن - كنتُ أفكّر في أعمال الهدم دائماً كلّما رأيت سِقالة بناء - بيوت الورق لم تكن غريبة عليّ بصفتها السكن الوحيد الصالح للبشر. فهناك تتشكل نقطة التحمّل العائلي، إلا أنني كنت مقتنعاً في عصر ذلك اليوم بأنني رأيت في يان برونسكي ليس فقط صورة خالي فحسب، إنما أبي المفترض. فهذه إذاً أسبقية ميّزته عن ماتسرات إلى آخر الأزمان؛ لأن ماتسرات كان إمّا أباً لي أو لم يكن.

وفي الأوّل من سبتمبر / أيلول- أتكهن هنا بأنكم قد تعرفتم على لاعب الورق المسرور يان برونسكي خلال ذلك اليوم المنحوس باعتباره أبي - في ذلك اليوم بالذات أرّخت لخطيئتي الثانية الكبرى. فبتّ لا أطيق السكوت أبداً، على الرغم من النبرة المتوجعة، عن أن طبلي، كلا، بل أنا

نفسي، الطبّال أوسكار، أوصلت أمّي المسكينة إلى القبر أوّل الأمر ومن ثم خالي وأبي يان برونسكي.

لكنني، ومثل أي شخص آخر ، أخذت أتذرع بضعة أيّام بجهلي الذي أصبح موضة آنذاك ومازال إلى الآن يلائم بعض الوجوه مثل قبعة أنيقة؛ لأن شعوراً بالذنب غير مهذّب، لا يمكن طرده من الغرفة بالبكاء، جعل الألم يعتصرني على وسادة المصحّة. وجُلب أوسكار الجاهل الماكر، الضحية البريئة للبربرية البولندية، جُلب محموماً متهيّج الأعصاب إلى المستوصف البلدي. فأبلغ ماتسرات في اليوم ذاته، إذ أنه أبلغ عن غيابي في المساء الذي سبق ذلك، مع أنه لم يتأكد بعد بأنني ملك له. غير أن الرجال الثلاثين الذين يمكن أن يضاف إليهم يان، أولئك الرجال الذين رفعوا سواعدهم وعقدوا أيديهم على أقفيتهم، فقد جُلبوا بعد أن صوّرهم برنامج الأخبار الأسبوعي إلى مدرسة فكتوريا الفارغة ، فاستقبلهم معتقل «شيسشتانغه» ومن ثم الرمال الرخوة خلف جدران مقبرة سازبه البالية المتداعية. لكن كيف عرف أوسكار ذلك؟ لقد عرفته من خلال شوغر ليو، إذ لم يُعلن رسمياً بطبيعة الحال على أي رمال أو خلف أي جدار تمّ إعدام الرجال الواحد والثلاثين، وفي أي رمال دُفن أولئك الثلاثون شخصاً وواحد.

كانت هدفغ برونسكي أوّل من تلقى أمراً بإخلاء السكن الواقع في رنغ شتراسه لأنه حُجز لسكن عائلة أحد كبار ضبّاط القوّة الجويّة. وبينما كانت تحزّم أمتعتها بمعونة شتيفان، متحضّرة للانتقال إلى رامكاو، حيث كانت تمتلك بضعة هكتارات من الأراضي الزراعية بالإضافة إلى غابة ومسكن ريفيّ مستأجر، بلغ الأرملة خبر وهب عينيها اللتين عكستا معاناة هذا العالم كلّها دون أن تفقه منه شيئاً، وبمعونة ابنها شتيفان، وهبها القدرة، وإن ببطء، على فكّ رموزه التي حولتها إلى مجرد أرملة على نحو شديد الصراحة. ورد في الخبر:

«قلم محكمة شعبة ايبرهارد س.ت.ل. ٤١\٣٩-
تسوبوت، في ٦ أكتوبر ١٩٣٩

السيّدة هدفغ برونسكي،

نوّد أن نبلغك بناءً على الأوامر الرسمية بأن برونسكي، يان، قد حُكم عليه بالإعدام من قبل المحكمة العسكرية بسبب العصيان المسلّح فتمّ إعدامه.

تسيليفسكي

(مراقب القضاء الميداني)»

فها أنتم قد رأيتم بأنهم لم يذكروا سازبه بكلمة واحدة. لقد راعوا مشاعر أهاليهم وأردوا أن يوفّروا عليهم تكاليف الاعتناء بقبر جماعيّ رحب يلتهم الكثير من الزهور، فتحملوا بأنفسهم نفقات العناية وربما الدفن أيضاً، من خلال تسوية أرض سازبه الرملية، وتجميع الخراطيش الفارغة، ما عدا واحدة - إذ أن واحدة منها لابد أن تبقى ملقاة على الأرض دائماً- لأن الخراطيش المتناثرة ستشوّه منظر أيّ مقبرة محترمة، حتى لو كانت مهملة. وتلك الخرطوشة التي تبقى عادةً ملقاة والتي يتوقف عليها كلّ شيء، عثر عليها شوغر ليو الذي لم تخف عليه أي عملية دفن، مهما بلغت سريتها. بدا ليو الذي تعرّف عليّ أثناء تشييع جنازة أمّي المسكينة وجنازة صديقي هربرت تروجنسكي المليء بالندب، والذي علم بالتأكيد في أي موضع طمروا زيغسموند ماركوس - لكنني لم أسأله عن ذلك قطّ، بدا سعيداً، بل كان يطفح بالسرور، عندما ناولني في أواخر نوفمبر -كنت غادرت المستوصف توّاً - تلك الخرطوشة الفارغة المفشية للسرّ.

بيد أنني وقبل أن أقودكم متعقباً شوغر ليو إلى مقبرة سازبه مع الخرطوشة المتأكسدة قليلاً، والتي ربما آوت الرصاصة المخصصة ليان، أرجو منكم أن تعقدوا مقارنة بين السرير المعدني للمستوصف البلدي في دانسغ، قسم الأطفال، والسرير المعدني للمصحّة المحلية الأمراض العقلية. فكلاهما كان مطلياً بالدهان الأبيض، ومع ذلك فقد كانا مختلفين. فكان سرير قسم الأطفال أقصر إذا ما قيمنا الطول، لكنه أكثر ارتفاعاً إذا ما قسنا القضبان العمودية. وعلى الرغم من أنني كنت أفضل

صندوق العام التاسع والثلاثين ذا القضبان العالية؛ فإنني اليوم وجدت راحتي، التي باتت قنوعة متواضعة، في هذا السرير المخصص للكبار على طريقة الحلّ الوسطي، تاركاً لإدارة المصحّة البتّ الإيجابي أو السلبي في التماسي الجاري منذ بضعة أشهر والمتعلق بمحني سريراً عالياً، معدنياً في الواقع ومطلياً باللون الأبيض. وبينما أصبحت اليوم أعزل متروكاً لرحمة الزوّار، فقد كان هناك حاجز شديد الارتفاع في قسم الأطفال يفصلني أيّام الزيارة عن ضيوفي الزوّار ماتسرات والزوجين غريف وشفلر، فيقسّم حين أوشكت إقامتي في المستوصف على الانتهاء ذلك الجبل المتحرك بأربعة أثواب فوق بعضها والذي كنت أطلق عليه اسم جدّتي آنا كولياجك، يقسّمها إلى أجزاء حزينة متكدرة وتتنفس بصعوبة. كانت تأتي فتقذف الحسرات وترفع بين الحين والآخر يديها الضخمتين المتنوعتين، مظهرة راحتيها الواسعتين الورديتين، ثم ترخي يديها وراحتيها بانكسار وقنوط، لتصفع بهما فخذيها، لدرجة أن صوت هذا الصفع مازال حاضراً في ذهني إلى اليوم، لكنني لم أستطع تقليده على الطبل إلا بصورة تقريبية. ومنذ زيارتها الأوّلى اصطحبت معها شقيقها فنسنت برونسكي الذي كان يتحدث بهدوء في الحقيقة، لكن بإلحاح وبلا انقطاع، عن ملكة بولندا، مريم العذراء، أو يغنّي لها أو يروي عنها بالغناء. وكان أوسكار يشعر بالارتياح عندما تكون هناك ممرضة بالقرب منهما. أخذ فنسنت وجدّتي يفتحان أمامي أعينهم البرونسكية الصاحية، منتظرين منّي، أنا بذلت قصارى جهدي لتجاوز عواقب لعبة الورق في البريد البولندي وحمّى التوتر العصبي، أن أقدم لهما دليلاً أو كلمة تعزية أو تقريراً ملطّفاً عن الساعات الأخيرة ليان التي أمضاها بين الخوف ولعب السكات. أرادا أن يسمعا اعترافاً، أو شهادة براءة أقدمها ليان؛ كما لو أنني كنت قادراً على تبرئة ساحته، أو أن شهادتي سيكون لها وزن وقوّة إقناع.

فما الذي كان سيقوله هذا التقرير لمحكمة شعبة ايبرهارد: أنا، أوسكار ماتسرات، اعترف بأنني كمنت ليان الذي كان في طريق العودة إلى داره في عشية الأوّل من سبتمبر، فاستدرجته، بواسطة طبلي المحتاج إلى

تصليح، استدرجته إلى البريد البولندي بالذات والذي كان قد غادره قبل قليل؛ لأنه لم يكن راغباً في الدفاع عنه. ولم يدل أوسكار بهذه الشهادة، ولم يبرأ ساحة أبيه المفترض، بيد أنه كان يصاب بالتشنج العنيف كلمّا عزم على الإدلاء بهذه الشهادة بصوت عال، فقُصّرت أوقات الزيارة بناءً على طلب رئيسة الممرضات، ومُنع جدّي المفترض فنسنت وجدّتي آنا من الزيارة.

وحالما غادر العجوزان اللذان قدما من بيساو مشياً على الأقدام، جالبين لي معها تفّاحاً، حالما غادرا ردهة الأطفال بحذر مبالغ فيه ينمّ عن عجز وارتباك، شأنهما شأن أهل الريف كلّهم، ازداد إحساسي الكبير بالذنب بالقدر نفسه الذي ابتعدت فيه أثواب جدّتي المتمايلة وبذلة العيد السوداء التي ارتداها شقيقها، والناضحة بروث الأبقار.

وثمة وقائع عديدة جرت في وقت واحد: فبينما كان ماتسرات وآل غريف وآل شفلر يتدافعون بالفاكهة والكعك أمام سريري، وبينما كان الناس يقدمون لزيارتي من بيساو، مارين ب بغولدكروغ وبرنتاو، سيراً على الأقدام، لأن خطّ الترام الموصل بين كارتهاوز ولانغفور لم يكن مفتوحاً، وبينما كانت الممرضات البيضاوات الثياب الساحرات يثرثرن ثرثرة المستشفيات، معوضات عن الملائكة، لم تكن بولندا قد فُقدت آنذاك، إلا أنها فقدت فيما بعد، بل أنها باتت مفقودة عقب الأيّام الثمانية عشرة الشهيرة، حتى لو كان سيتضح قريباً بأن بولندا مازالت لم تُفقد؛ ومثلما هو الأمر اليوم، ونكاية بفريقي شليزين وأوستبرويسن، فإن بولندا لم تُفقد بعد.

آه، أنت يا فرقة الفرسان المشتطة! المدمنة على التوت الأزرق وأنت على صهواتها، وبرماح وبيارق بيضاء حمراء. كآبة كتائب الخيّالة وعراقتها. هجمات مثالية. في الميادين عند وودج وكونتو. مولدين، أنقذت قلعتها. آه، إنها تخبّ بألمعية، منتظرةً حلول الغروب دائماً! وبعد ذلك فقط تهجم فرقة الخيالة، أي حين تصبح الواجهة الخلفية والأمامية بديعة فاتنة، فتصبح المعركة رائعة على ضوئها، ويستحيل الموت موديلاً

للرسام، يقف ثابتاً على ساق، أو غير ثابت، فترتمي على التوت الأزرق لتلتهمه، أو الزعرور البرّي، فتجمح هائجةً متفجرةً، فتحثّ على الإثارة التي بدونها لا ينطلق الفرسان مندفعين بخيولهم. حملة رماح، أغراهم حبّ المغامرة من جديد، يحرفون خيولهم حيث أكوام الغلال المغطاة بالطين والقشّ - أيضاً هذا المشهّد يمثّل صورة حيّة - ويجتمعون خلف رجل يسمونه في أسبانيا دون كيخوته، إلا أن اسمه كان بان كيهوت، وهو بولندي قحّ، ذو هيئة نبيلة يرنو عليها الحزن، وقد رسخّ في أذهان رمّاحيه تقبيل اليد على الخيل، فصاروا الآن يقبّلون يد الموت كلّ مرّة من جديد باحترام وإجلال كما لو أنهم يقبّلون يد سيّدة؛ إلا أنهم اجتمعوا في البدء، مخلفين الشفق وراء ظهورهم - إذ أن الجو الملائم كان رصيدهم الاحتياطي-، ومن أمامهم المدرعات الألمانية، تلك الجياد التي خرجت من مؤسسات كروب فون بوهلن أوند هالباخ لتربية الخيول، فلم يعتلى أحد من قبل صهوة كريمة مثل صهواتها. لكن ذلك الفارس نصف الأسباني ونصف البولندي الذي ركب الموت - بان كيهوت الموهوب، النابغة - خفّض الرمح الذي شُدت إليه الراية البيضاء الحمراء، فدعاكم إلى تقبيل يده، ثم نادى، في لحظات الشفق، حيث تطقطق اللقالق بمناقيرها بيضاء حمراء على السطوح وحيث الكرز الأحمر يقذف نواته، نادى على فرسانه: «أنتم أيها البولنديون النبلاء؛ إن هذه ليست مدرعات من الفولاذ، بل مجرد طواحين هواء، أو خراف؛ إنني أدعوكم إلى تقبيل اليد!»

هكذا إذاً غارت كتائب الخيّالة على الفولاذ من الجناح الرمادي، فزادت الشفق احمرارا. لعلّ المرء سيغفر لأوسكار هذه القافية الختامية، وكذلك الوصف الشعري المرهف لتلك المعركة. ربما كان من الأصح لو أتيت على حجم الخسائر التي منيت بها فرقة الخيّالة البولندية، وأضع هنا إحصائية تذكر ما سمي بغزوة بولندا بصورة جافة وملحّة. إنني سأضع هنا علامة إيضاح حسب الطلب، أو أعلن عن وجود هامش ما، وبذلك سأبقي على القصيدة كما هي. فحتى العشرين من سبتمبر/ أيلول كنت أسمع، وأنا راقد في فراش المستوصف، صليات البطاريات المدفعية المنصوبة في

اتجاه مرتفعات يشكنتالر وغابات أوليفر. ثم استسلمت آخر جيوب المقاومة في شبه جزيرة هيلا. وبذلك أصبح بمقدور مدينة دانسغ التجارية الحرّة أن تضم آجرها القوطيّ الطراز إلى مملكة الرايخ الألمانية العظمى، وتهلل احتفاءً بالقائد المستشار أدولف هتلر المنتصب بلا كلل في عربة المرسيدس السوداء، مؤدياً التحيات بلا توقف من زاوية قائمة تماماً، متطلعاً بتلك العينين الزرقاوين اللتين كان النجاح المشترك يجمعهما مع عيني يان برونسكي، فيما يتعلق بالحظوة لدى النساء.

وفي منتصف أكتوبر أخرج أوسكار من المستوصف البلدي، فوجدت صعوبة بالغة في توديع الممرضات. وعندما ناولتني إحدى الممرضات، أعتقد أن اسمها كان «بيرني» أو «أيرني»، عندما ناولتني أيرني أو بيرني طبليّ، المحطم منهما الذي جعلني مذنباً والسليم الذي غنمته إبّان الدفاع عن البريد البولندي، أدركت بأن ثمة شيئاً آخر، ماعدا طبول الصفيح، كان يقف إلى جانبي في هذا العالم ألا وهو: الممرضات!

وغادرت المستوصف البلدي مؤللاً ومسلحاً بمعرفة جديدة، يقودني ماتسرات من يدي؛ لكي أقوم في لابسفيغ وأنا أقف على قدمي الطفل الأبدي ذي الأعوام الثلاثة، بتطبيع نفسي على الحياة والضجر اليوميين وعلى أيّام الآحاد في سنوات الحرب الأولى الأشد ضجرا.

وذات ثلاثاء في أواخر نوفمبر/ تشرين الثاني - كنت وطأت الشارع العام للمرّة الأولى بعد أسابيع من النقاهة - التقى أوسكار وهو يطبل لا على التعيين، متذمراً، غير عابئ بالطقس البارد الممطر، التقى بطالب اللاهوت السابق شوغر ليو في زاوية ماكس-هالبه-بلاتس-بروزنر فيغ. فوقفنا قبالة بعضنا مترددين وقتاً طويلاً ونبتسم، وبعدما أخرج قفّازيه الشتويين من جيبي سترته السوداء الطويلة التي بلغت ركبتيه، وترك القرابين المصفرّي البياض الشبيهين بجلده يزحفان على أصابعه وعلى راحتيّ يديه، صرت على علم بمن التقيت، وبما سيجلبه لي هذا اللقاء -فاعترى أوسكار الخوف.

كنّا مازلنا نتفرّج على واجهات متجر-قهوة-القيصر، مشيعين بأبصارنا

عربات الترام الذاهبة في خطّي خمسة وتسعة التي كانت تتقاطع عند ماكس-هالبه-بلاتس، ومن ثم تطلعنا إلى المنازل المتماثلة البناء في بروزنر فيغ، دائرين بضع مرّات حول أعمدة الإعلانات، حيث تدارسنا ملصقاً كان يتحدث عن تغيير عملة «الغولدن» الغدانسكية بمارك الرايخ الألماني، فقمنا نحكّ ملصقاً عن مسحوق الغسيل، فعثرنا في أسفل اللونين الأبيض والأزرق على شيء من اللون الأحمر، فاكتفينا بذلك، وهممنا بالعودة إلى ميدان ماكس-هالبه، حينئذ دفع شوغر ليو أوسكار بيديه الملفوفتين بالقفّاز نحو مدخل بيت، وأخذ يلّوح بأصابعه اليسرى المغلفة بالقفّاز خلف ظهره، لينزلها إلى أذيال سترته، فصار يتحسس بها داخل جيب سرواله، ثم كوّرها؛ إذ أنه عثر على شيء، فتفحص اللُقْطَة وهي في جيبه، وسحب قبضته الملمومة، فرحاً بما عثر عليه، فنفض أذيال سترته من جديد، دافعاً بقبضته المستورة بالقفّاز إلى الأمام، وصار يمدها حتى أقحم أوسكار في زاوية جدار المدخل - كانت ذراعه طويلة وكان الجدار غير مطاوع، بل غير راغب في التمدد - آنذاك فتح الجلد ذا الأصابع الخمسة، بعدما أوشكت على الاقتناع بأن ذراعه ستقفز من رمّانة كتفه، لتصبح حرّةً طليقةً، فتلطم صدري، وربما ستخترقه، خارجةً من بين عظام الكتف، لترتطم ثانية بجدار الممر المتعفن - ومع ذلك؛ فإن أوسكار لم ير قطّ ما خبأه ليو في قبضته؛ إلا أنه احتفظ على أية حال بنصّ النظام السكني المعلق في الممر الذي لا يختلف من حيث الجوهر عن نظام السكن في لابسفيغ.

وقبل أن يصل إلى معطفي البحريّ، ضاغطاً على أحد أزراره التي لها شكل المرساة، فتح ليو قفّازه بسرعة، لدرجة أنني سمعت مفاصل أصابعه تطقطق : لقد رقدت الخرطوشة الفارغة فوق القماش اللامع المتعطن الذي حمى الجانب الداخلي ليده.

وحين كوّر ليو قبضته من جديد، بتّ مستعداً لإتباعه؛ إذ أحسست بأن القطعة المعدنية تلك قد خاطبتني مباشرة. فسرنا إلى جانب بعضنا، أوسكار على يسار ليو، هابطين بروزنر فيغ، دون أن نتوقف أمام أي واجهة متجر أو عمود إعلان، فقطعنا ماغدهبورغر شتراسه، مخلفين وراءنا

البنايتين العاليتين في نهاية بروزنر فيغ اللتين لهما شكل الصندوق، حيث برقت فوقهما كشّافات الإنذار للطائرات المقلعة والهابطة، ثم سرنا في البدء بمحاذاة سياج المطار، ثم تحولنا أخيراً إلى الشارع الجاف المبلّط، متعقبين سكّة ترام الرقم خمسة الممتدة في اتجاه بروزن.

ولم نتبادل حرفاً واحداً، لكن ليو مازال قابضاً على الخرطوشة بقفّازه. وإذا ما بان عليّ التردد، راغباً في العودة من حيث أتيت بسبب البرد والبلل؛ فإنه كان يفتح قبضته، جاعلاً قطعة المعدن تحجل على راحة يده، فيغريني بمائة خطوة من السير، ومن ثم مائة خطوة صغيرة أخرى، حتى أنه صار يتصرف على نحو موسيقيّ عندما قررت فعلاً الرجوع قبل الوصول إلى مزرعة المدينة سازبه. فاستدار على كعب حذائه، وأمسك بالخرطوشة، واضعاً فتحتها إلى الأعلى، ثم ضغط بالثقب على شفته السفلى البارزة، المبللة باللعاب، كما لو أنه كان يضغط بمبسم ناي، فأصدر خليطاً من الأصوات المبحوحة والحادة والمدغمة كالتي أتخمها الضباب تحت المطر المشتد على الدوام. فشعر أوسكار بالبرد: ليس فقط موسيقى الخرطوشة جعلتني أشعر بالبرد، إنما الجوّ العام، الذي بدا وكأنه أوصي به وصاية، وبسبب الطقس البالغ السوء الذي لا تطيقه حتى الكلاب والذي منعني من بذل أيّ جهد لإخفاء ارتجافي البائس.

فما الذي أغراني بالتوجه إلى بروزن؟ حسناً؛ إنه صائد الفئران ليو الذي بدأ يصفر في الظرف الفارغ. لكن هناك من كان يصفر لي أكثر فأكثر. كان الصفير يأتي من المرسى ومن ناحية نويفارفاسر الواقعة خلف الضباب النوفمبري الذي بدا وكأنه انطلق من حجرات الغسيل، فتناهت إلى أسماعنا صفّارات البواخر والعواء الجائع للزوارق البخارية الداخلة إلى الميناء والخارجة منه، عبر شوتلاند وشيلمول ومستعمرة الرايخ الألماني، بحيث أصبح من اليسير جداً بالنسبة لليو أن يستدرج أوسكار المرتجف من خلال أبواق الضباب وصفّارات الإنذار وعزف الخرطوشة الفارغة.

وقف شوغر ليو بمحاذاة الأسلاك الشائكة المواجهة لناحية بيلونكن التي فصلت المطار عن ميدان التدريب الجديد وعن خنادق تسنغلن، وظلّ

يراقب بدني المرتعد فترة طويلة برأس مائل وبلعابه السائل عبر الخرطوشة. فارتشف لعاب الخرطوشة، وأمسك بها بشفته السفلى ثم خلع سترته الطويلة ذات الفتحتين كالذيل، تلبية لخاطر عنّ له، فصار يطوّح بذراعيه بعنف، وألقى على رأسي وكتفي بالقماشة الثقيلة المشبعة برائحة التراب الرطب. فواصلنا طريقنا من جديد؛ لم أعد أتذكر فيما إذا خفّ البرد عن أوسكار آنذاك. لكن ليو صار يثب أحياناً خمس خطوات إلى الأمام، ثم يقف، فبدا بقميصه الكثير التجاعيد، الأبيض بشكل مرعب، مثل مخلوق خرج للتو بطريقة مليئة بالمجازفة من غياهب معتقلات القرون الوسطى المماثلة للبرج ذي الطوابق؛ مخلوق رسم بنفسه النموذج المثالي للعته والجنون.

حالما كان ليو يلمح أوسكار مترنحاً تحت السترة السوداء الطويلة؛ فإنه كان ينفجر بالضحك دائماً، ثم يرفرف بجناحيه كما الغراب الناعب، مختتماً القهقهة كلّ مرّة من جديد. يبدو أنني كنت أشبه فعلاً طائراً غريباً، فإذا لم يكن هذا الطائر غُدافاً أسحم اللون، فهو بلا شكّ غراب ناعق، لاسيما وأن أذيال السترة الطويلة أخذت ترفل ورائي مسافة من الطريق، ماسحة إسفلت الشارع، مخلفاً ورائي أثراً ملكياً جليلاً جعل أوسكار يشعر بالفخر كلّما تطلّع عبر كتفيه إلى الخلف مرّة ثانية، مفصحةً عن مأساة راقدة في أعماقه ولم تتضح معالمها بشكل كامل بعد، إن لم تكن جسّدتها تجسيداً حيّا.

وعند وصولنا إلى ماكس-هالبه-بلاتس أدركت بأن ليو لم يفكر في قيادتي إلى بروزن أو نويفارفاسر، إنما كان هدف المسيرة هذه، منذ البداية، مقبرة سازبه وخنادق «تسنغل»، حيث وقع ميدان الرماية الحديث المخصص للشرطة بالقرب منها مباشرة.

وكانت خطوط الترام الذاهبة إلى الحمّامات البحرية أو القادمة منها لا تأتي منذ نهاية سبتمبر حتى نهاية إبريل إلا كلّ خمس وثلاثين دقيقة. بعدما خلفنا آخر منازل ضاحية لانغفور وراء ظهرنا، أقبل نحونا ترام بلا مقطورة، وبعد فترة قصيرة تجاوزتنا عربة الترام التي انتظرت الترام القادم من الاتجاه

المعاكس عند تحويّلة ماغدهبورغر شتراسه. وقبل أن نصل إلى مقبرة سازبه بمسافة قصيرة تجاوزنا الترام قارعاً أجراسه، ثم أقبلت نحونا عربة كنّا رأيناها منذ فترة طويلة تنتظر واقفةً وسط الضباب، لأنها حملت في مقدمتها مصباحاً أصفر رطب الاصفرار بسبب سوء الرؤية.

وبينما بدأ أوسكار يحتفظ في عينه بوجه سائق الترام المسطّح المتجهم الملامح قاده شوغر ليو من إسفلت الشارع إلى الرمل الرخو الذي أوحى منظره بمنظر كثبان الرمل في الشاطئ. كان هناك جدار مربّع أحاط بالمقبرة؛ وثمة بوّابة صغيرة تشرف على الجنوب، حديدها كثير الزخارف، بدت مقفلة، بيد أنها سمحت لنا بالدخول. للأسف لم يتح لي ليو وقتاً كافياً لتأمل شاهدات القبور المتزحزحة، الآيلة إلى السقوط، المقلوبة على أنفها، والتي كان معظمها منحوتاً بخشونة من الخلف ومن الجوانب، تلك الشاهدات التي قُدت من حجر الصوان السويدي أو من الصخور البركانية. وثمة بضعة شجيرات صنوبر ساحلية عجفاء انتصبت على الممرات الملتوية قد عوّضت عن الزينة الشجرية للمقبرة. كانت أمّي تفضّل في حياتها، كلّما استقلت الترام، هذه البقعة المتداعية على جميع الأماكن الهادئة الأخرى. والآن فإنها رقدت في برنتاو، حيث التربة الخصبة التي نبتت فيها أشجار الدردار والإسفندان.

قبل أن أثبّت قدميّ وسط ذلك الخراب المهيّج للعواطف اقتادني ليو من المقبرة عبر بوّابة مشرعة خالية القضبان في الناحية الشمالية من الجدار؛ فوقفنا على أرض رملية ممهدة خلف الجدار مباشرة. كانت أشجار الصنوبر والغنستر وأحراش الزعرور البريّ تخوض في مياه راكدة بجلاء، متجهةً نحو الساحل. وحين تطلعت إلى المقبرة لفت نظري على الفور بأن جزءاً من جدار المقبرة كان مبيضاً حديثاً بالجصّ. وبدا ليو منشغلاً تماماً أمام الجدار ذي البياض الفاقع الموجع مثل قميصه المجعّد والذي كان يشي بالجدّة. فصار يخطو خطوات واسعة مجهدة، وبان عليه بأنه كان يحصي خطاه، بل كان يحصيها بصوت عال وبالحساب اللاتيني مثلما اعتقد أوسكار ويعتقد إلى يومنا هذا، وكذلك رتّل نصّاً مثلما تعلّم

في كلّية اللاهوت. فرسم ليو علامة على مسافة عشرة أمتار من الجدار، ووضع قطعة من الخشب أمام الجصّ المطلي، المرقع حديثاً، مثلما توصلت في تفكيري؛ وقد فعل ذلك كلّه بيده اليسار؛ لأنه أمسك الخرطوشة بيمناه، وبعد بحث وقياسات مطوّلة، وضع إلى جوار قطعة الخشب تلك الخرطوشة المعدنية الضيّقة قليلاً من الأمام، والتي كانت تأوي نواة من رصاص، إلى أن فتّش أحد ما بسبابته المعقوفة عن مركز الضغط، فألغى عقد إيجار الرصاصة دون أن يلجأ إلى القطع أو التمزيق فأمرها بالانتقال الحامل للموت. فوقفنا وأطلنا الوقوف، حتى ترك شوغر ليو لعابه يسيل خيوطاً فخيوطاً، ثمّ شبك قفّازيه ببعضهما وأنشد في البدء شيئاً ما باللاتينية، لكنه توقف على حين غرّة؛ إذ لم يجد من له القدرة على الإجابة ترتيلا. فاستدار ليو ونظر بانزعاج ونفاد صبر عبر الجدار إلى طريق بروزنر الريفي، ثم صار يلوّح برأسه في ذلك الاتجاه، حيث كانت عربات الترام الفارغة غالباً تتوقف عند التحويلة، متفادية الارتطام ببعضها من خلال قرع الأجراس. لعلّ ليو كان ينتظر أهالي الموتى. بيد أن أحداً منهم لم يأت سيراً على الأقدام أو في الترام، لكي يقدم له التعازي بقفّازه.

فقط مرّة واحدة هدرت فوق رأسينا طائرات أرادت الهبوط، لكننا لم نتطلع إلى الأعلى، فتحملنا صخب المحركات، دون أن نكون راغبين في الاقتناع بأن تلك الإشارات المضيئة والمنطفئة في مقدمة الجناح كانت عائدة إلى ثلاث طائرات من طراز «يو ٥٢»، متأهبة للهبوط. وبعدما غادرتنا المحركات بفترة وجيزة - بدا الهدوء شديد الحرقة مثل بياض الجدار المنتصب أمامنا- دسّ ليو يده في قميصه، فسحب شيئاً ما، ثم وقف إلى جانبي، وخطف رداء الغربان من كتف أوسكار ثم هرع قافزاً في اتجاه الجينستا والزعرور وصنوبر الشواطئ حتى أسقط أثناء القفز حاجة ما، وقد فعل ذلك بحركات موحية، فيها محاكاة لمن سيلتقط تلك الحاجة. وحين اختفى ليو كلياً - هام على وجهه، لكنه بقي في مجال الرؤية إلى أن ابتلعه أبخرة الضباب الحليبية البياض الملتصقة بالأرض -

وجدت نفسي بعد ذلك وحيداً مع المطر، فهرعت نحو رقعة الكرتون: التي كانت عبارة عن ورقة سبعة «ماجة». وعقب أيّام قلائل على لقاء مقبرة سازبه التقيت بجدّتي آنا كولياجك في سوق لانغفور الأسبوعي. بعدما ألغيت الضرائب الجمركية والحدود في بيساو أصبح بمقدورها أن تجلب بيضها وزبدها، إضافة إلى الكرنب الأخضر وتفّاح الشتاء إلى السوق. كان الناس يشترون بكثرة وبسرور أيضاً؛ لأنّ زراعة المحاصيل باتت وشيكة مما كان يتطلب توفير المخزون الغذائي. وفي اللحظة التي لمح فيها أوسكار جدّته تقف وراء بضاعتها، استشعر ورقة السكات تلامس جلده مباشرة، تحت المعطف والبلوزة وبدنه الصغير. في البدء هممت بتمزيق السبعة ماجة عندما عدت بالترام من سازبه إلى ماكس-هالبه-بلاتس، حين سمح أحد الجباة بالركوب مجانا.

لكن أوسكار لم يمزق الورقة، إنما سلمها إلى جدته. لابد أنها شعرت بالعرب حين أبصرته، إذ ربما ظنّت بأن أوسكار لا يأتي بأيّ خبر سار. بيد أنها لوّحت إلى الفتى ذي الأعوام الثلاثة المختبئ بمقدار النصف خلف سلال السمك، بالقدوم إليها. فعقّد أوسكار الأمر، متفحّصاً في البدء سمكة قدّ بلغ طولها ذراعاً كاملة، ثم أراد أن يتفرّج على السرطان الصغير القادم من بحيرة أوتومين والذي مازال يتمرن على المشي السرطانيّ جماعات وبهمّة عالية؛ فأخذ أوسكار نفسه يتمرن على طريقة التحرّك تلك، فاقترب من ناحية معطفه الخلفية من بسطة الجدّة، فأطلعها أوّل الأمر على أزرار البحرية المذهبة حين ارتطم بالحامل الخشبي لطاولة معروضاتها، دافعاً بالتفّاح إلى التدحرج. وقدم شفيتفيغر بحجر البناء الساخن الملفوف بالجرائد، فدسّ الآجر تحت أثواب جدّتي، وانتشل بخطّاف حديدي الحجارة الباردة كسابق عهده، ورسم خطّاً على رقعة معلقة في رقبته، ثم انتقل إلى بسطة أخرى؛ حينئذ ناولتني جدتي تفّاحة لامعة.

فما الذي يمكن أن يقدم لها أوسكار إذا ما ناولته تفّاحة؟ لقد قدّم لها في البدء ورقة السكات، ثمّ الخرطوشةَ التي لم يتركها ملقاة في سازبه.

فأخذت آنا برونسكي تنظر وقتاً طويلاً، وبلا إدراك، إلى الحاجتين المتباينتين تماماً؛ حينئذ قرّب أوسكار فمه من أذنها الغضروفية الشائخة تحت منديل رأسها ثم همس، منخلياً عن كلّ حذر، مفكّراً في أذن يان الصغيرة المتوردة المكتنزة، ذات الشحمة الطويلة الجميلة التكوين: «إنه يرقد في سازبه»، هكذا همس أوسكار وانطلق مسرعاً، مكتسحاً معه سلّة مليئة بالكرنب الأخضر.

ماريا

بينما كان التاريخ يتشدق بالأنباء الخاصة كالمركبة المشحمة جيّداً التي أخذت تجوب شوارع أوروبا وطرقها البحرية والجويّة، بعد أن احتلها خائضةً في الماء والهواء، فإن أعمالي التجارية المقتصرة على تحطيم طبول الأطفال المصبوغة أو المصنوعة من الصفيح قد سارت على نحو سيئ، مترددة، بل أنها توقفت. وبينما كان الآخرون يقذفون بالمعدن النفيس بإسراف وبذخ، فإن صفيحي قد نفد. لكن أوسكار نجح في إنقاذ آلة جديدة من البريد البولندي خالية من الخدوش نوعاً ما، بحيث أنه منح قضية الدفاع عن البريد مغزى، ومع ذلك فما الذي يمكن عناه طبل السيّد ناجالنك الابن لأوسكار الذي كان يحتاج في أفضل أوقاته إلى ثمانية أسابيع تقريباً ليحيل الطبل الجديد إلى حطام! وبدأت فور خروجي من المستوصف البلدي بالعمل على الطبل، محدثاً زوابع عنيفة، شاكياً فقدان الممرضات. كان العصر الممطر في مقبرة سازبه لم يدع صنعتي تلتقط أنفاسها، بل على العكس، إذ أن أوسكار ضاعف من جهوده، مستخدماً مهارته وشطارته بغية إفناء الشاهد الأخير على العار الذي لحق به من قبل أفراد الحرس القومي، أي إبادة الطبل.

بيد أنه صمد، وصار يردّ عليّ، ويقرع مردداً الشكوى كلّما قرعته. ومما أثار عجبي هو أنني بدأت أتذكر موّزع الحوالات فكتور فيلون أثناء تلك الضربات التي هدفت إلى محو جزء محدد زمنياً من الماضي الذي شهدته، على الرغم من أن فيلون لا يمكن أن يشهد ضدي بسبب قصر نظره. لكنه ألم يتمكن من الهرب وهو قصير النظر؟ فهل يمكن أن يبصر

قصار النظر أكثر من غيرهم، وأن فيلون هذا الذي كنت أطلق عليه لقب المسكين قد قرأ إشاراتي مثل صورة خيّال الظلّ السوداء البيضاء، فأدرك خيانتي وحمل معه سرّ أوسكار وعاره بفراره إلى أنحاء العالم كلّها؟

وفي منتصف ديسمبر / كانون الأوّل فقدت اتهامات ضميري الأحمر اللهب المعلق في رقبتي قوّة الإقناع: فكشف الطلاء عن تشعبات دقيقة كالشعر، وأخذ يتقشّر. لقد خارت قوى الطبل، فبات رقيقاً متشققاً دون أن يصبح شفّافا. وكما هو الأمر عادة حين يعاني شيء ما فيسعى جاهداً للوصول إلى النهاية؛ فإن الشاهد الذي شهد المعاناة يودّ عادةً أن يختصر المعاناة، ويضع لها نهاية عاجلة. فأسرع أوسكار خلال أسابيع البشارة الأخيرة التي سبقت عيد الميلاد ليشتغل حتى استغرب الجيران ومعهم ماتسرات، إذ أن أوسكار أراد أن يفرغ من حساباته قبل حلول ليلة عيد الميلاد؛ لأنني منيّت نفسي بالحصول على طبل جديد في تلك المناسبة، فأنجزت مهمتي. وقبل الواحد والعشرين من ديسمبر بيوم واحد استطعت أن أجرّد ذلك الشيء المنكمش المهزوز والصدئ الشبيه بسيارة محطمة بفعل الاصطدام، أجرده من بدنه، ومن روحه أيضاً، كما أنني، ومثلما تمنيت، طويت صفحة الدفاع عن البريد البولندي إلى الأبد.

لم يكن هناك أي إنسان - هذا إذا ما كنتم مستعدين للنظر إليّ باعتباري إنساناً - شهد خيبة أمل في ليلة عيد الميلاد تلك مثل أوسكار الذي قُدمت له الكثير من الهدايا تحت شجرة الميلاد، ما عدا طبل الصفيح. وثمة لعبة بناء في صندوق لم أفتحه أبداً، إضافة إلى إوزة متأرجحة اعتبرت هدية خاصة، من شأنها أن تجعلني البطل الأسطوري لوهنغرين، فارس الإوز. وهناك أيضاً من تجرأ، فوضع على طاولة العطايا ثلاثة أو أربعة كتب مصوّرة، لكي يغيظني؛ إلى جانب قفّاز وحذاء برقبة ورباط وبلوزة حمراء حاكتها غريتشن شفلر صالحة للاستعمال. وبفزع وذهول انزلق بصر أوسكار من صندوق البناء إلى الإوزة، ثم حدّق في دبّ الكتب المصورة الذي أريد له أن يكون طريفاً مضحكاً، فوضع كفوفه على مختلف الآلات الموسيقية. كان الحيوان المزعج الكاذب يمسك بطبل،

فبدا كما لو أنه قادر على التطبيل، وسيبدأ حالاً بفقرة تطبيل، وكأنه منهمك في التطبيل؛ بينما كانت حصتي إوزة، وليس طبلاً، فأصبح لدي ربما أكثر من ألف قطعة بناء خشبية، لكن لم يكن بينها طبل واحد؛ فحصلت على قفّاز يصلح لليالي الشتاء المثلجة الشديدة البرد، لكنني لم أحصل في قبضتي على شيء مستدير ناعم، بارد كالصقيع، مصبوغ، ومصنوع من الصفيح، فأحمله معي في ليل الشتاء، لكي يستمع الصقيع إلى بعض البياض!

آنذاك فكّر أوسكار في: أن ماتسرات مازال يخفي الطفل، أو أن غريتشن شفلر التي جاءت بصحبة خبّازها من أجل إبادة بطّة عيد الميلاد جلست على الطبل. لعلّهم أرادوا الاستمتاع أوّلاً بفرحي بالإوزة وبقطع البناء والكتب المصوّرة قبل أن يسلّموا الكنز الحقيقي. فاستسلمت وصرّت أتصفح الكتب المصورة كالأحمق ثم اعتليت ظهر الإوزة وأخذت أتأرجح، شاعراً باشمئزاز فظيع طوال نصف ساعة على الأقل. ثم توجب عليّ أن أجرب البلوزة على الرغم من سخونة البيت التي لا تطاق، وأن أضع قدميّ في الحذاء بمعونة غريتشن شفلر - أثناء ذلك حضر الزوجان غريف أيضاً؛ لأن البطّة كانت معدة لستة أشخاص- وبعد التهام البطّة المحشوة بالفاكهة القابلة للقلي التي حضّرها ماتسرات بطريقة ممتازة، وخلال تناول التحلية التي كانت عبارة عن برقوق أصفر وكمثرى، وحين أمسكت يائساً بكتاب، وضعه لي غريف زيادة على الكتب المصورة الأربعة الأخرى، بعد الحساء والبطّة والكرنب الأحمر والبطاطس المملحة والبرقوق والكمثرى، أي بعدما تشربنا بدخان المدفأة الحجرية، غنينا كلّنا، بما فينا أوسكار، أغنية عيد الميلاد ثم أردفنا إليها مقطعاً: أفرحي يا شجرة التنّوب أوه يا شجرة التنوب أوه يا شجرة التنّوب كم هي خضراء جلاجلك، نعم، جلاجلك القارعة في كلّ عام من جديد، لكنني أردت الحصول أخيراً على طبلي - بذلت الأجراس في الخارج كلّ ما في وسعها- كنت أريد الحصول أخيراً على طبلي، وجوقة نافخي الأبواق الثملة التي انتمى إليها الموسيقي ماين في السابق والتي نفخت لدرجة أن فصوص الجليد المتجمدة على حواف

النوافذ. . . لكنني أردت الحصول عليه، وهم لم يعطوه، لم يسلموه لي، فكان أوسكار يقول «نعم» وهم «لا»، حينئذ صرخت؛ لأنني لم أصرخ منذ زمن، فشحذت صوتي دفعة واحدة بعد استراحة طويلة على شكل آلة مدببة شارخة للزجاج، لكنني لم أقتل به مزهريات أو كؤوس بيرة أو مصابيح، ولم أقص به واجهات مخازن تجارية ولم انتزع قوّة البصر من أي نظّارة، بل أن صوتي لم يكن حمل شيئاً إلا ضد الكريات المشعّة على أنشودة أوه يا شجرة التنّوب المشيعة جوّاً احتفالياً، وضد الأجراس الصغيرة المصنوعة من الزجاج الإسفنجي الهشّ وضد أطراف شجرة الميلاد: فتناثرت حلي شجرة المسيح مرددة أصوات التكسر، وتساقطت بلا موجب أشواك التنّوب بما يملأ مكانس ومقشّات عديدة، غير أن الشموع ظلت متوهجة بصمت وقدسية، ومع ذلك فإن أوسكار لم يحصل على طبل. فلم يظهر ماتسرات أي تفهّم، كما أنني لم أعد أعرف فيما إذا أراد أن يؤدبني أو أنه لم يفكر ببساطة في تزويدي بالطبول في الوقت المناسب وبوفرة. كان كلّ شيء يسير حثيثاً في اتجاه الكارثة، وبحكم أن الفوضى الضاربة أطنابها في متجر بضائع المستعمرات والتي بات من الصعب التستر عليها جاءت متزامنة مع الهلاك المدمر الذي هددت به، فقد قدّم ماتسرات لي وللمتجر، مثلما يفعل المرء عادةً خلال أيّام الضيق، مساعدة في الوقت المناسب. وبما أنّ أوسكار لم يكن يتمتع بالقامة المطلوبة، فضلاً عن أنه كان يرفض الوقوف وراء طاولة المتجر ليبيع الخبز المجفّف والسمن والعسل الاصطناعي؛ فإن ماتسرات الذي سأسميه أبي من جديد، تسهيلاً للأمر ليس إلا، استقدم ماريا تروجنسكي، شقيقة صديقي المسكين هربرت، لإدارة المتجر.

لم يكن اسمها ماريا فحسب، بل أنها كانت ماريا بالفعل. إضافة إلى أنها تمكنت خلال أسابيع قليلة من تحسين سمعة المحل، مبديةً إلى جانب إدارتها اللطيفة الصارمة التي رضخ لها ماتسرات متصاغراً قدراً من الفطنة فيما يتعلق بتقدير حالتي. وقبل أن تحتل ماريا مكانها وراء طاولة البيع قدمت لي عدّة مرات طست غسيل مستهلك كبديل للطبل عندما كنت

أجوب سلّم البناية ذي الدرجات التي تربو على المائة، طلوعاً وهبوطاً، شاكياً وأنا معلق كومة الحطام على بطني. بيد أن أوسكار رفض البديل، ممتنعاً بكلّ صبر وصمود عن التطبيل على قعر طست. وحالما وضعت ماريا قدميها في المحلّ عرفت كيف تفرض إرادتها على ماتسرات، مما أدّى إلى تلبية رغباتي. غير أنه بات من الصعب في الواقع دفع أوسكار إلى الدخول إلى محلاّت لعب الأطفال إلى جانب ماريا، إذ أن دواخل تلك المحلاّت الممتلئة بجميع الألوان والأشكال كانت ستجبرني بالتأكيد على عقد مقارنات مؤلمة مع محلّ زيغسموند ماركوس الذي سحقته الأقدام. فكانت ماريا تتركني برقة وطاعة انتظر خارج المحلّ، أو أنها كانت تنظّم عملية الشراء بمفردها، وصارت تأتي لي بطبل صفيح جديد كلّ أربع أو خمسة أسابيع، حسب الحاجة، واضطرت إبّان السنوات الأخيرة للحرب التي شحّت فيها حتى الطبول حيث وضعت تحت إشراف الدولة إلى تقديم السكّر أو أوقية من القهوة للباعة لكي تحصل على طبلي لي خفية، أي تحت الطاولة كما يقال. لقد فعلت ذلك كلّه دون أن تتأفف أو تهزّ رأسها أو تقلب عينيها، إنما باهتمام جديّ وبالبداهة ذاتها التي كانت تبديها كلّما ألبستني سراويلي المرقعة وجواربي ومعاطفي البيضاء. وعلى الرغم من خضوع علاقتي بماريا إلى التغيير المستمر في الأعوام اللاحقة، والتي لم تتضح معالمها تماماً إلى يومنا هذا؛ فإن الطريقة التي كانت تسلمني بها الطبل بقيت على حالها، حتى لو ارتفع سعر طبل الأطفال اليوم ارتفاعاً كبيراً مقارنةً بالعام ١٩٤٠.

واليوم أصبحت ماريا مشتركة في مجلة للموضة؛ فأضحت ترتدي ثياباً أنيقة من زيارة إلى أخرى. وآنذاك؟ هل كانت ماريا جميلة؟ كان لها وجه مستدير نضر، ونظرة باردة، لكنها لم تنطلق بفتور وبلادة من عينين مجللتين برموش كثيفة قصيرة، عينين رماديتين وبارزتين إلى حدّ ما تحت الحاجبين الكثيفين المتصلين فوق عرق الأنف. وكانت عظام وجهها المتميزة التي كان أديمها يتوتر أزرقَ عند اشتداد البرد، فينفلق بألم، تمنح وجهها سطحاً مستوياً يشي بالهدوء الذي لا يعكر صفوه الأنف الصغير غير

المنفر أو الغريب الشكل، بل المتناسق على رغم دقته؛ بينما كان جبينها مستديراً، خفيضاً، وقد بانت عليه، منذ زمن مبكّر، تجاعيد التأمل العمودية فوق عرق الأنف الذي علاه شعر الحاجبين. وقد التصق بصدغيها شعرها الخفيف التجعّد البنّي الذي بات لونه اليوم مثل لون الجذوع المبللة، ليطبق من هناك على جمجمتها الصغيرة الثابتة الخالية من القحفة الناتئة مثلما كانت جمجمة الأمّ تروجنسكي. عندما ارتدت ماريا المريلة البيضاء وانتصبت وراء طاولة محلنا بدأت تضفر جدائل خلف أذنيها الصلبتين الضاجتين بالعافية، حيث كان الدم يسري فيهما على عجل، والتي لم تنفصل شحمتاهما بحريّة، للأسف الشديد، بل بدتا ضعيفتي الخلايا والأنسجة، خارجتين مباشرة من اللحم فوق الفكّ الأسفل، دون أن تخلفا تجاعيد قبيحة، لكنها كافية للاستدلال على طباع ماريا. فيما بعد ثرثر ماتسرات في رأس الفتاة لكي تكوي شعرها: لكن الأذنين ظلتا مختفيتين. أمّا اليوم فقد أضحت ماريا تعرض علناً أذنيها الملتحمتين تحت شعر رأسها الكثيف، المقصوص على طريقة الموضة الحديثة، بيد أنها صارت تموّه ذلك العيب الجمالي الطفيف بأقراط ضخمة خالية من الذوق. ومثلما كان رأس ماريا يمكن القبض عليه بكف واحدة؛ فإن وجنتاها كانتا مكتنزتين، وعظام وجنتيها بارزتين، وكانت لها عينان واسعتان تمددتا بسخاء على جانبي الأنف غير المثير للانتباه، وكان كتفاها عريضين بالقياس إلى حجم جسدها الصغير أكثر من المعدل المتوسط، وكان ثدياها ممتلئين نافرين أسفل الذراعين مباشرة ولها حوض متناسب مع المؤخرة الثرية، على العكس من الساقين الرشيقتين القويتين اللتين تتيحان الرؤية من أسفل العانة واللتين حملتا المؤخرة.

لعلّ ماريا كانت حنفاء القدمين آنذاك، وتراءى لي كذلك بأن يديها المحمرتين دائماً كانتا صغيرتين وأصابعها غليظة كالسجق على النقيض من التناسب النهائي لقوامها اللطيف. فهي لم تستطع نكران يديها الطفوليتين نكراناً تاماً إلى يومنا هذا. أمّا قدماها اللتان كانتا تعانيان زماناً من وطأة أحذية التجوال الضخمة، وفيما بعد من أحذية المسكينة أمّي الأنيقة

المظهر، القديمة الطراز، التي لم تكن تناسب حجم قدميها بالضبط، فقدتا، على الرغم من الأحذية غير الصحّية المستعملة، الحمرة الطفولية والطرافة، متكيفتين مع نماذج الأحذية الألمانية الغربية الحديثة وحتى الإيطالية المنشأ. ولم تكن ماريا تتكلم كثيراً، لكنها كانت تغني بسرور أثناء غسل الأطباق وأثناء ملأ أكياس السكّر الزرقاء من فئة نصف الكيلو أو ربعه. بعد إغلاق المحلّ حين يقوم ماتسرات بحساب المدخول [الدخل] اليومي، أو حين تسمح ماريا لنفسها باستراحة قصيرة لمدّة نصف ساعة؛ فإنها تسارع إلى التقاط هرمونيكا الفمّ التي أهداها لها شقيقها فرتس قبل أن يستدعى ليساق إلى غروس-بوشبول.

كانت ماريا تعزف كلّ شيء على هرمونيكا الفم: من أغاني الجوالين التي تعلمها في الأمسيات المحلية لاتحاد الفتيات الألمانيات إلى ألحان الأوبريتات الهزلية والأغاني الشائعة التي استرقت سمعها من المذياع ومن شقيقها فرتس الذي أمضى في العام الأربعين أثناء سفرة رسمية بضعة أيّام في دانسغ. مازال أوسكار يتذكر كيف أن ماريا كانت تعزف لحن «قطرات المطر» بطقطقة لسانها وكيف أنها استدرجت من هرمونيكا الفم أغنية «الريح روت لي لحناً» دون أن تقلّد المغنيّة سارة لياندر. بيد أن ماريا لم تخرج آلتها قط أثناء العمل، حتى لو لم يكن هناك زبائن، إنما تمتنع عن الموسيقى، وتكتب بأحرف دائرية صبيانية الشكل قطع الأسعار أو قوائم الإنذار. وعلى الرغم من أنها كانت تقود المحل، بحيث لا يمكن غض النظر عن كسبها للزبائن من جديد الذين، أولئك الذين باتوا يشترون بضاعتهم من المنافسين عقب وفاة أمّي المسكينة وجعلتهم من العملاء الدائمين؛ فقد احتفظت إزاء ماتسرات بقدر من الخضوع الذي يضاهي الاحترام دون أن يحمل ذلك الرجل المقتنع بنفسه دائماً على الحيرة أو الاضطراب ولو لمرّة واحدة.

كان غالباً ما يكرر حجته القائلة: «أنا الذي أتيت في آخر الأمر بالبنت إلى المحلّ وعلمتها» عندما يطلق بائع البقّال غريف وغريتشن شفلر تلميحات لاذعة. بتلك البساطة كانت استدلالات ذلك الرجل الذي لا

يبدو في الواقع مرهف المشاعر متميزاً وجديراً بالاحترام إلا أثناء هوايته المفضلة، أي أثناء الطهي. يجب على أوسكار أن يترك له هذا الأمر: فالضلوع التي كان يطبخها بالكرنب المخلل وكلى الخنزير المخلوطة بصلصة الخردل وشرائح اللحم المرشوشة بمدقوق البقسماط المحضرة على طريقة فيينا، لاسيما سمك الشبّوط مع القشدة والفجل المتخصص به تخصصاً كاملاً؛ ذلك كلّه كان يمكن رؤيته وشمّه وتذوقه. وإذا لم يكن يقدم الكثير لماريا في المحلّ؛ لأن البنت كانت تتمتع أوّلاً بحاسة فطرية في التعامل مع المبالغ النقدية الصغيرة، وثانيا لأن ماتسرات لم يكن يفقه إلا القليل من حيل التجارة بالمفرق ودقائقها، ولم يكن صالحاً إلا للمشتريات من أسواق الجملة، لكنه علّم ماريا الطهي والقلي والطبخ بالبخار؛ إذ أنها حين بدأت بالعمل في المحل كانت غير قادرة على جلب ماء للسلق، وإن كانت قد اشتغلت خادمة لمدّة عامين لدى عائلة موظفين في «شدلتس». وما لبث ماتسرات أن أصبح يرى نفسه مثلما كان يراها إبّان حياة أمّي المسكيّنة: كان يحكم في المطبخ، مصعداً مهاراته من أكلة فاخرة إلى أخرى، فصار يمضي ساعات طويلة في غسل الأواني بكلّ سرور وارتياح، ويجهز إلى جانب ذلك المشتريات التي بات الحصول عليها إبان أعوام الحرب عسيراً باستمرار، ويقيّد الحسابات والطلبيات المتعلقة بشركات مبيعات الجملة والمكتب التجاري، مواظباً على تبادل الرسائل مع دائرة الضرائب، باستثناء بعض الانقطاع، مرتباً الحاجيات في واجهة كلّ أربعة عشر يوماً، ترتيباً لا يخلو من مهارة، بل كشف عن خيال وذوق، منفذاً بمسؤولية واعية أموره الحزبية، فكان منشغلاً جملة وتفصيلاً؛ لأن ماريا كانت تنتصب بثبات ورباطة جأش وراء طاولة المحل.

وربما ستسألونني ما الذي تعنيه كلّ هذه المقدمات وهذه الاستطرادات المسهبة حول عظام حوض البنت وحاجبيها وشحمتي أذنيها ويديها وقدميها؟ إنني أقف إلى جانبكم تماماً، وأدين معكم هذا الطريقة في وصف الناس. فأوسكار مقتنع بما لا يقبل الشكّ بأنه نجح إلى حدّ الآن في تشويه صورة ماريا، إن لم يكن قد أخطأ في رسمها إلى الأبد. لذلك فثمة جملة

أخيرة في هذا الصدد، أتمنى أن تكون جملة إيضاحية: إن ماريا كانت الحبّ الأوّل لأوسكار، إذا ما استثنيت الممرضات المجهولات الهوية. فأدركت تلك الحالة بعدما أنصتّ ذات يوم، وكنت نادراً ما أفعل ذلك، فلاحظت بأي قدر من الجدّة والإلحاح والاحتراس في الوقت نفسه، أفضى أوسكار بهواه إلى طبله، فاستقبلت ماريا ذلك التطبيل بالاستحسان. ومع ذلك، فإنني لم أظهر أي تفهّم كلّما هرعت إلى هرمونيكا فمها، لتقطّب جبينها فوق طبلة الحلق، معتقدةً بأنها يجب أن تصاحبني في العزف. لكنها كانت غالباً ما تنكس يديها وتتطلع إليّ بجديّة، من خلال مضربي الطبل وبوجه عميق الهدوء، ثم تسرح بيدها، قبل أن تمسك ثانيةً بجورب الرتق، لتتحسس شعري القصير بحركة رقيقة ولذيذة كالنعاس.

كان أوسكار الذي لم يحتمل عادةً أي لمسة حتى لو كانت حانية كتلك، قد سمح ليد ماريا بذلك، فوقع تحت تأثير التحسس لدرجة أنه كان يقرع ساعات طويلة على الصفيح، وبوعي، إيقاعاً يغري بالتحسس، إلى أن تصغي له يد ماريا أخيراً، فتفعل به فعلاً حسنا. وإلى جانب ذلك كانت ماريا تأخذني كلّ مساء إلى الفراش، فتجردني من ثيابي وتغسلني وتساعدني على ارتداء البيجامة، وتنصحني بتفريغ مثانتي قبل النوم، وتصلّي معي الصلاة الربّانية الكاثوليكية، على الرغم من أنها كانت بروتستانتية المذهب، وتلحق بها ثلاث مرّات دعاء حييت يا مريم، مضيفة بين الحين والآخر: أهيم بك حبّا يا يسوع وأموت دونك، ثم تردّ عليّ الغطاء بوجه لطيف، يجعل المرء متعبا. ومهما بدت جميلةً تلك الدقائق التي كانت تسبق إطفاء الضوء - كنت شرعت آنذاك تدريجياً في تغيير الصلاة الربّانية (وأهيم بك حبّا يا يسوع) إلى (أحييك يا نجمة البحر وحبّا بمريم)، ملمحاً تلميحات رقيقة- فإن ذلك التحضير المسائي لهجعة الليل كان مؤلماً بالنسبة لي فكاد يقوّض سيطرتي على أعصابي ويمنحني، أنا الذي كنت أحافظ كلّ الوقت على ماء وجهي، حمرة الخجل الغادرة التي تضرّج خدود المراهقين والشباب المعذبين.

أوسكار يقرّ بأن: كلّما كانت ماريا تخلع عني ثيابي بيديها لتضعني في

حوض الغسيل المصنوع من الزنك، مزيلة عن جلدي غبار التطبيل بممسحة الشطف والفرشاة والصابون ثم تجليني؛ نعم كلّ مرّة، عندما أردك، أنا الذي بلغت السادسة عشرة، بأنني كنت أقف عارياً أمام فتاة ذات سبعة عشر عاماً تقريباً، تجتاحني حمرة الخجل بعنف، فأصبح متوهجاً على نحو متواصل. ومع ذلك، بدا كما لو أن ماريا لم تلحظ تغيّر لون جلدي. فهل اعتقدت بأن ممسحة الغسل والفرشاة جعلتاني ساخناً؟ أم أنها قالت لنفسها إن النظافة هي التي سخّنت أوسكار؟ أم أنّ ماريا كانت خجولة ومؤدبة بما يكفي لاكتشاف الشفق المسائي اليومي على جلدي، إلا أنها تغاضت عنه عمداً؟ وأصبحت إلى اليوم عرضة لتلك الصبغة المفاجئة التي لا يمكن التستر عليها قطّ والتي تدوم خمس دقائق أو أكثر. كان الدم يندفع متدفقاً في عروقي كلّما أتى أحد ما بقربي، من أولئك الذين لست بحاجة إلى التعرف إليهم، على ذكر الأطفال الصغار الذين يجلون في حوض الحمّام بممسحة الشطف والفرشاة، تماماً مثلما كانت حمرة الزناد النارية تتمكن من جدّي كولياجك مشعل النيران حين يأتي أحد على ذكر كلمة عود الثقّاب في حضوره.

كان أوسكار يقف كما الهندي الأحمر، كان المحيط الخارجي يبتسم، ويعتبرني غريب الأطوار، بل شاذّاً: فما الذي كان يعني محيطي إذا ما صوبن الأطفال الصغار برغوة الصابون ودعكت أجسامهم ومررت على مناطقهم الصامتة ممسحة الشطف؟ فكانت ماريا، ابنة الطبيعة، تسمح لنفسها بالقيام بأفعال شديدة الجرأة في حضوري، وبدون أي تردد. فباتت تخلع جوربها الطويل، مبتدئةً من الأعلى، قبل أن تمسح أرضية غرفتي الجلوس والنوم؛ تلك الجوارب التي أهداها لها ماتسرات فأرادت أن تحافظ عليها. وذات سبت بعد إغلاق المحل - ذهب ماتسرات إلى مكتب اللجنة المحلية للحزب لإنجاز بعض الأشغال، فبقينا بمفردنا- خلعت ماريا جونلتها وبلوزتها وبقيت واقفة إلى جانبي عند طاولة غرفة الجلوس بالتنورة الداخلية البائسة، النظيفة أيضاً، وبدأت تزيل بالبنزين بعض البقع المتسخة من الجونلة والبلوزة.

كيف كان ممكناً أن تنضح ماريا بعطر الفانيلا اللطيف الخلاّب بسذاجة حالما تنضو ثيابها الخارجية فتتبدد رائحة البنزين؟ فهل كانت تفرك نفسها بعرق الفانيلا؟ أم كان هناك عطر رخيص يمثل ذلك الاتجاه العطري؟ أم كان ذلك العطر خاصاً بها مثلما كان محلول النشادر بالنسبة للسيّدة كاتر أو مثلما كانت رائحة الزبد الزنخ قليلاً تحت ثياب جدّتي كولياجك؟ فأخذ أوسكار الذي كان يبحث عن حقيقة الأمور يتقصّى عطر الفانيلا: ماريا لم تفرك جسدها، بل كانت رائحتها هكذا. نعم؛ إنني مقتنع إلى اليوم بأنها لم تنتبه أبداً إلى عطرها الملازم لها؛ لأن إذا ما ارتجفت حلوى «فانيلا البودنغ» على الطاولة في يوم أحد بعد لحم العجل المشوي والبطاطس المهروسة والقرنبيط المطيّب بالزبد البنيّ؛ ترتجف لأنني كنت أضرب قائمة الطاولة بحذائي الطويل؛ فإن ماريا التي كانت تحبّ الجريش الأحمر لم تأكل من البودنغ إلا قليلاً وعلى مضض، بينما كان أوسكار ومازال مغرماً بهذا النوع البسيط من الحلوى، والذي هو ربما أكثر أنواع الحلوى ابتذالاً.

وفي يوليو/تمّوز من العام الأربعين، عقب فترة وجيزة على النبأ الخاص عن مجرى الهجوم العاجل والناجح على فرنسا بدأ موسم الاصطياف على شواطئ بحر البلطيق. وفي الوقت الذي بعث فيه رئيس العرفاء «فرتس» شقيق ماريا بأوّل بطاقات البريد من باريس اتخذ ماتسرات وماريا قراراً بأن يذهب أوسكار إلى البحر، لأنّ هواء البحر سيكون نافعاً جدّاً لصحته. فكان على ماريا أن ترافقني إلى شاطئ بروزن أثناء استراحة الظهر - كان المحلّ يغلق من الساعة الواحدة إلى الثالثة - حتى لو تأخرت إلى الرابعة فإن ذلك لا يضر؛ إذ أنه سيقف عند الضرورة وبكل سرور، وراء طاولة البيع ويعرض نفسه للزبائن. فتمّ شراء لباس سباحة لأوسكار، أزرق اللون بأزرار على شكل المرساة، وجلبت ماريا معها لباساً أخضر وشيّت حواشيه بالأخضر، كانت أهدته لها الراهبة «غوسته» ترسيخاً للانتماء المذهبي. وثمة برنس حمّام أبيض من الصوف المنفوش حُشر في حقيبة استحمام تعود إلى أزمان أمّي المسكينة التي خلّفتها مثلما خلّفت

المعطف، إضافة إلى جردل من البلاستك ومجرفة صغيرة وقوالب مختلفة للكعك الرملي لم يكن لها أي موجب، فحملت ماريا الحقيبة، وحملت أنا الطبل.

كان أوسكار يشعر بالخوف من المرور بالترام بمحاذاة مقبرة سازبه. ألم يخشى أن تفسد عليه رؤية ذلك المكان الصامت، البليغ العبارة معاً، رغبة الاستحمام التي لم تكن كبيرة أصلاً؟ فسأل أوسكار نفسه: كيف ستتصرف حينئذ روح يان برونسكي عندما يمرّ مهلكهُ قرب قبره، راكباً الترام ذا الأجراس، حتى لو كان مرتدياً ثياب صيف خفيفة؟

وتوقف الخط رقم تسعة، فنادى الجابي باسم محطة سازبه، فتطلعت بضيق عبر ماريا نحو اتجاه بروزن، حيث كان الترام المعاكس يتقدم زاحفاً وحجمه يكبر ببطء. والآن فعلى البصر أن لا ينحرف! فما الذي يمكن مشاهدته هناك؟ أشجار صنوبر ساحلية هزيلة ومشبّك حديدي مزخرف وفوضى الشواهد المتداعية التي لم يعد هناك من يقرأ سطورها سوى الحسك وأعواد الشوفان الصمّاء. فمن الأفضل التطلع عبر النافذة إلى الأعلى: حيث هدرت طائرات يو ٥٢ المتينة بما لا تستطيع فعله إلا الطائرات ذات المحركات الثلاثة أو الذباب العظيم الضخامة في سماء يوليو/ تموزالصاحية. ثمّ تحرك ترامنا قارعاً أجراسه، فتركنا الترام القادم من الجهة المقابلة يحجب عنّا الرؤية، وبعد المقطورة الأخيرة مباشرة استدار رأسي إلى الخلف، فأحطت بالمقبرة المتداعية وكذلك بجزء من الجدار الشمالي الذي وقع الموضع الأبيض منه، والذي كان ملفتاً للنظر، في الظلّ، إلا أن الأمر برمته بدا مؤلما...

وتناءى ذلك الموضع شيئاً فشيئاً، واقتربنا من بروزن، فرمقت ماريا من جديد. كان جسدها يملأ ثوباً صيفاً خفيفاً منقوشاً بالزهور، وقد انتظمت سلسلة من الكرز الخشبي القديم المتماثلة الخرز على جيدها البضّ والشاحب معاً، مرتخية فوق عظم الترقوة الصلب، طافحة بالنضج مثلما أوحت. فهل شعرت بذلك أم شممته فعلاً؟

انحنى أوسكار إلى الأمام قليلاً - حملت ماريا رائحة الفانيلا معها إلى

بحر البلطيق، فاستنشقت الطيب بعمق، متجاوزاً برهةً يان برونسكي الرميم. لقد تحوّل الدفاع عن البريد البولندي إلى تاريخ قبل أن ينسلخ لحم المدافعين عن عظامهم، لكن أوسكار، الناجي، تنسّم عطوراً أخرى، مختلفة عن تلك التي حملها الأب المفترض الشديد التأنق زماناً والذي بات اليوم ليّناً مستوياً.

وفي بروزن اشترت ماريا رطلاً من الكرز، وأمسكت يدي - كان تعلم بأن أوسكار لا يسمح بذلك إلا لها وحدها - وقادتنا سويةً عبر غابة الصنوبر الساحلية إلى شاطئ الاستحمام. وعلى الرغم من بلوغي الستة عشر عاماً تقريباً فإن مراقب المسبح الذي لم يكن يمتلك قدرة على التخمين سمح لي بدخول قسم السيّدات. كانت حرارة الماء بلغت ثماني عشرة درجة والهواء ستاً وعشرين والريح شرقية - وسيكون الطقس المتوقع صاحياً؛ دُوِّنت هذه الأشياء على اللوحة السوداء إلى جانب ملصق جمعية الإنقاذ الذي تضمن نصائح تتعلق بإسعافات ردّ الحياة، فضلاً عن رسوم ساذجة بالية الأسلوب. كان الغرقى يرتدون كلّهم ملابس سباحة مقلّمة، وحمل المنقذون شوارب وقبعات قشّ، عائمين فوق مياه غدّارة خطرة. وسارت خادمة المسبح الحافية القدمين أمامنا، وقد لفّت حول جسدها حبلاً كما التائبة، معلقةً في طرف الحبل مفتاحاً ضخماً يصلح لفتح أكشاك الاستحمام جميعها. ثمة ممرات والدرابزين كانت على الممرات. وأحاط حصير من ليف جوز الهند المتيبس بالأكشاك. فحصلنا على الكشك رقم ٥٣. كان خشبه دافئاً وجافاً، ولونه أبيض طبيعياً، مائلاً إلى الزرقة، أودّ أن ألقبه باللون الأعمى. وثمة مرآة إلى جانب كوّة الكشك، لم تأخذ حتى نفسها مأخذ الجد.

كان على أوسكار أن يخلع ثيابه في البدء، ففعلت ذلك مولياً وجهي إلى الجدار، ولم أفسح لها المجال لتساعدني إلا على كره. ثم أدارتني ماريا إليها بقبضتيها المشدودتين العمليتين، ورفعت لباس السباحة الجديد لتحشرني بلا مبالاةٍ في ذلك الصوف الضيّق الفصال. حالما زرّرت حمالات سروالي رفعتني فوق مصطبة خشبية أمام الجدار الخلفي للكشك

وضغطت الطبل والمضربين على فخذيّ وبدأت تنضو ثيابها بحركات قويّة سريعة. وفي البدء طبلّت قليلاً، وأحصيت أيضاً ثقوب الخشب الداكنة على ألواح الأرضية، ثم تخليت عن التطبيل والإحصاء على السواء. كان من غير المفهوم بالنسبة لي هو أن ماريا بدأت تصفر باستقامة وبشفتين مزمومتين على نحو غريب حين ترجلت عن الحذاء، فصفرت نغمتين عاليتين، ومن ثم منخفضتين، فخلعت جوربيها، وأخذت تصفر مثلما يصفر سائق عربة البيرة، متجردة من القماش المطبوع بالزهور لتعلّق التنّورة الداخلية فوق الثوب وهي تصفر، ثم أسقطت مشدّ الثديين غير منقطعة عن الصفير، وصارت تصفر بمشقة دون أن تعثر على لحن مناسب عندما خلعت سروالها الداخلي إلى حدّ الركبة والذي كان في الواقع عبارة عن شورت رياضي، تاركة إيّاه ينزلق على القدمين، وخرجت من فردتي السروال الملفوفتين، ثم أزاحته إلى الزاوية بأطراف قدمها اليسرى.

وأرعبت ماريا أوسكارَ بمثلثها المشعر، فهو كان يعلم وعن طريق أمّه، المسكينة في الواقع، بأنّ النساء لسن قرعاوات من الأسفل، بيد أن ماريا لم تكن امرأة بالمعنى التي كانت عليه أمّه حين برهنت لماتسرات ويان برونسكي على أنها امرأة حقيقية.

وحينئذ عرفتها على الفور، فجعلني الغضب والخجل والاستياء وخيبة الأمل والتصلّب نصف الغريب ونصف المؤلم الذي دبّ في رشاشة مائي الصغيرة تحت لباس السباحة، جعلني أنسى الطبل والمضربين من أجل ذلك المضرب الجديد الذي امتد واستطال أمامي. فوثب أوسكار على ماريا. فتلقفته بشعرها، فترك وجه يلتحم بالشعر، حتى نبت بين شفتيه. فضحكت ماريا وهمّت بإزاحته عنها. لكنني صرت أجذبها إليّ أكثر فأكثر، حتى اقتفيت آثار عطر الفانيلا. بينما واصلت ماريا الضحك، وتركتني ملتصقاً بعطرها، بدا كأنها شعرت بمتعة، إذ أنها لم تتوقف عن الضحك. غير أنني لم أتخل عنها إلا بعد أن تزحلقت قدماي، فجلب لها تزحلقي ألماً، حينئذ فقط، أي بعد أن حصرت الفانيلا الدمعَ في عينيّ كما لو أنني تذوقت فطراً أو شيئاً شبيهاً له في حدّته، وليس طعم الفانيلا، أي بعدما

لوثتني الرائحةُ الأرضية التي أخفتها ماريا خلف الفانيلا بطعم الفناء إلى أبد الآبدين، تلك الرائحة التي تسمّرت على جبين يان برونسكي الرميم.

وانزلق أوسكار على أرضية الكشك العمياء، وكان مازال يبكي حين رفعته ماريا التي عادت إلى الضحك ثانيةً، وحضنته في ذراعيها، وصارت تداعبه وتضمه إلى عقد الكرز الخشبي الذي كان بمثابة قطعة الملبس الوحيدة التي بقيت على جسدها. ثم استعادت شعرها من شفتي وهي تهزّ رأسها متعجبة: «أنت فعلاً وغد صغير! تدفع نفسك وما تعرف ما هي القصّة، ثمّ تبكي بعد ذلك!»

المسحوق الفوّار

هل يعني لكم هذا المصطلح شيئاً معيناً؟ كان يمكن الحصول على هذا المسحوق في أكياس مسطّحة خلال فصول السنة كلّها. كانت أمّي تبيع في محلنا جوَيْسِيَة المسحوق الفوّار في أكياس خضراء حدّ التقيؤ، وقد استعارات لونها من النارنج، وأطلقت على نفسها اسم: مسحوق فوّار مخلوط بطعم البرتقال. وثمة مسحوق فوّار بطعم التوت الشوكي، وكذلك مسحوق فوّار إذا ما صبّ فوقه المرء ماءً صافياً من الحنفية، فإنه يصدر وشوشةً ويفور ويتفاعل، وإذا ما شربه المرء قبل أن يهدأ يكون طعمه، عن بُعد، مثل طعم الليمون، ويكون اللون في القدح أكثر حدّةً: لوناً أصفر اصطناعياً يتظاهر بمظهر السمّ. فما الذي كُتب على الأكياس إضافة إلى نوعية الطعم؟ كُتب: منتج طبيعي - محميّ قانونياً - يحفظ بعيداً عن البلل- وجاء تحت خطّ منقوط: افتح من هنا.

أين يمكن، ما عدا ذلك، شراء المسحوق الفوّار؟ وليس فقط في محلّ أمّي، إنما في جميع محلاّت بضائع المستعمرات، باستثناء قهوة-كايزر ومتاجر البضائع الاستهلاكية، يمكن شراء المسحوق الموصوف أعلاه. وكان الكيس الواحد منه يباع هناك أو في دكاكين المرطبات جميعها بثلاثة فلوس. وكنّا، أنا وماريا، نحصل على المسحوق الفوّار مجّاناً، إلا إذا ما عجزنا عن الانتظار حتى الوصول إلى البيت؛ حينئذ نضطرّ إلى دفع ثلاثة أو ستة فلوس، لأننا لم نكن نحصل على ما يكفي، فنطلب كيسين من المسحوق من محلاّت بضائع المستعمرات أو دكاكين المرطبات.

فمن منّا بدأ بالمسحوق الفوّار؟ هذه هي مسألة الخلاف بين العشّاق!

فأنا أقول إن ماريا هي التي بدأت. ماريا لم تدع يوماً بأن أوسكار هو الذي بدأ. إنما تركت السؤال مفتوحاً، وحين تُحرج بالسؤال؛ فإنها تجيب على أية حال: «المسحوق الفوّار هو الذي بدأ.» وبالطبع أن أي إنسان سيعطي الحقّ لماريا، إلا أوسكار الذي لم يقتنع بحكم الإدانة هذا. إنني لا أودّ أبداً الاعتراف بأن: كيساً من المسحوق الفوّار من المحلّ بسعر ثلاثة فلوس هو الذي أغرى أوسكار. كنت آنذاك في السادسة عشرة وكان يهمني أن أدين نفسي أو ماريا عند الضرورة، لكن لا أوجه الإدانة إلى كيس من مسحوق الفوّار، يجب حفظه عن الرطوبة.

حدث ذلك بعد أيّام قلائل على عيد ميلادي، فكان موسم الاستحمام قد انتهى حسب التقويم السنوي. بيد أن الطقس لم يحبّ أن يعرف شيئاً عن شهر سبتمبر / أيلول. فعقب أغسطس ممطر استعرض الصيف كلّ ما قدر عليه؛ فكان يمكن قراءة إنجازاته المتأخرة على اللوحة المجاورة لملصق جمعية الإنقاذ الذي سُمّر على قمرة مراقب المسبح: الهواء ٢٩ درجة - الماء ٢٠ - الريح جنوبية شرقية - الطقس صحو عموما.

وبينما كان فرتس تروجنسكي يكتب، بصفته رئيساً للعرفاء في القوّة الجوية، بطاقات البريد من باريس وكوبنهاغن وأوسلو وبروكسل - كان الملعون يقوم دائماً بسفرات رسمية -حظينا، أنا وماريا، ببعض السمار بفعل الشمس. في يوليو كان مكاننا الثابت قبالة جدار الشمس التابع لحمّام العائلات. ولأن ماريا كانت تشعر بالاضطراب من الممازحات السمجة لبعض تلاميذ مدرسة «كونراديموس» ذوي السراويل القصيرة الحمراء، ومن المغازلات المملة المتكلّفة لتلميذ في ثانوية-بتري، فقد تخلينا في منتصف أغسطس عن الحمّام العائلي، وعثرنا على مكان هادئ في حمّام النساء، قريباً من الماء، حيث خاضت نساء بدينات في المدّ حدّ دوالي بطّة الساق، ضيّقات الأنفاس مثل موجات بحر البطليق القصيرة، وحيث كان الأطفال الصغار العراة، غير المؤدبين يكافحون ضد القدر، بمعنى أنهم كانوا منهمكين بتشييد قلاع من الرمل سرعان ما كانت تنهار.

وحمّام النساء: إذا ما اختلت النساء بأنفسهن، معتقدات بأن ليس

هناك من يراقبهن؛ فإن على الفتى الذي أضمره أوسكار في شخصه آنذاك أن يغمض عينيه لئلا يتحوّل إلى شاهد إجباريّ على الأنوثة غير المتكلّفة.

كّنا قد اضطجعنا على الرمل، ماريا بلباس السباحة الأخضر الأحمر الحواف وحصرت نفسي أنا باللباس الأزرق. وبدا الرمل هاجعاً والبحر غافياً، والقواقع سحقتها الأقدام، فلم تعد تصغي إلى أيّ شيء. أمّا الكهرمان الذي يقال عنه إنه يجعل المرء حيّاً متيقظاً فقد رقد في مكان آخر، والريح التي حددت لوحة الطقس اتجاهها الجنوبي الشرقي غفت على مهل، والسماء القصيّة المرهقة لم تنقطع بالتأكيد عن التثاؤب، وكذلك كنّا، ماريا وأنا، متعبين. والآن فإن الكرز هجع كنواة رطبة إلى جانب نواة كرز العام الماضي الخفيفة الجافة البياض. فصار أوسكار، وبتأثير مشهد الفناء الكبير، يهيل الرمل ومعه نواة الكرز ذات العام الواحد، أو الألف عام، أو تلك التي مازلت فتيّة، على طبله، صانعاً منه ساعة رمل، ثم حاول أن يمثل دور الموت من خلال عبثه بالعظام. فتخيلت أجزاءً من هيكل ماريا العظمي الشديد اليقظة تحت اللحم الغافي الدافئ، مستمتعاً برؤية ما بين الزند وعظم الكُعْبُرَة، وجعلت لعباتي الإحصائية تصعد وتهبط فوق عمودها الفقري، متوغلاً في نقرتي الوركين، متسليّاً بعظم القص.

وعلى الرغم من اللهو كلّه الذي شملت نفسي به باعتباري الموت المصحوب بساعة الرمل، فإن ماريا تحركت. ثم مدّت يدها إلى حقيبة الشاطئ، بلا تبصّر، معتمدة على أصابعها وحدها، باحثة عن شيء ما، بينما جعلت بقية الرمل تنساب مع نواة الكرز الأخيرة في الطبل المليء بمقدار النصف. ولأن ماريا لم تعثر على ما بحثت عنه، ولعلّه كان هرمونيكا الفمّ، فقد قلبت الحقيبة: لكن لم تسقط على ملاءة الاستحمام أي هرمونيكا، إنما كيس من جويسئة المسحوق الفوّار.

وتصنعت ماريا الدهشة، أو ربما فوجئت بالفعل. بينما أصبت أنا بالمفاجأة حقّاً، فأخذت أقول في نفسي، معيداً القول ومازلت أعيده إلى اليوم: «كيف وصلت هذه السلعة الرخيصة التي لا يشتريها سوى الأطفال أبناء العاطلين عن العمل وعمّال الشحن؛ لأنهم لا يملكون النقود الكافية

لشراء الليمون العادي، كيف وصلت هذه البضاعة الكاسدة إلى حقيبة الشاطئ؟»

وأثناء ما كان أوسكار يفكّر في الأمر، شعرت ماريا بالعطش، فتوجب عليّ أنا كذلك الاعتراف بالعطش الملحّ، على الضدّ من إرادتي، قاطعاً تأملاتي. لم يكن لدينا قدح، وكان على أحدنا أن يقطع خمساً وثلاثين خطوة على الأقل للوصل إلى ماء الشرب، هذا إذا ما ذهبت ماريا. وإذا ما عنّ لأحد أن يخطو بين جبال اللحم اللامعة بدهان الجلد المستلقية على الظهر أو البطن، ليستعير قدحاً من مراقب المسبح، ويفتح حنفية الماء المجاورة لقمرة المراقب؛ فإن ذلك يعني تحملّ آلام الرمل الساخن. فتوجسنا من الذهاب، وتركنا الكيس الصغير ملقى على ملاءة الاستحمام. أخيراً تناولته قبل أن تتناوله ماريا، بيد أن أوسكار وضعه ثانيةً على الملاءة، لكي تلتقطه ماريا. لكن ماريا لم تمدّ يدها إليه. فمددت يدي وناولته إلى ماريا، فأعادته إلى أوسكار، فشكرتها وأهديته لها ثانيةً، إلا أنها لم تتقبل أي هدية من أوسكار. فرقد هناك وقتاً طويلا، بلا حراك.

لقد أصبح أوسكار متيقناً من أن ماريا هي التي تناولت الكيس بعد استراحة مقبضة للصدر. لكن ذلك لم يكن كافياً: فمزقت ماريا شريطاً من الورق، حيث كُتب تحت الخطّ المنقوط: افتح من هنا! ثم قدمت لي الكيس المفتوح. فرفض أوسكار شاكراً تلك المرّة. فأفلحت ماريا في أن تبدو مهانةً، ووضعت الكيس المفتوح على الملاءة بكلّ إصرار. فما الذي بقي أمامي سوى التقاط الكيس وتقديمه إلى ماريا قبل أن يدركه رمل البحر؟!

وبات أوسكار واثقاً من أن ماريا هي التي دسّت إصبعاً في فتحة الكيس، وهي التي استدرجت الإصبع للخروج، وعرضته للرؤية بشكل قائم: فبان على قبّة الإصبع شيء أبيض وأزرق؛ المسحوق الفوّار. ثم قدمت لي إصبعها، فتقبلته بالطبع. وعلى الرغم من أن رائحته صعدت إلى أنفي على الفور، إلا أن وجهي تمكن من أن يعكس انطباعاً باستساغة الطعم. كانت ماريا هي التي جوّفت يدها، فلم يسع أوسكار إلا أن ينثر

بعضاً من المسحوّق الفوّار وسط الطبق الوردي. غير أنها لم تكن تعلم ما الذي ستصنعه بتلك الكومة الضئيلة. بدا لها التل الذي هجع في صحن يدها جديداً ومدهشا. فانحنيت إلى الأمام، واستجمعت بصاقي كلّه، فجعلته يصبح من حصّة المسحوق الفوّار، وفعلت ذلك مرّة أخرى، ثم أسندت ظهري إلى الخلف بعدما نفد بصاقي. فبدأ يوشوش ويفور في يد ماريا، وتفجر المسحوق مثلما يتفجر البركان. فاستشاط، لأعلم غضب أي شعب أخضر. لقد حدث شيء ما لم تره ماريا من قبل ولم تشعر به أبداً، إذ أن يدها أخذت تهتزّ وترتجف، تريد التحليق؛ لأن المسحوق لدغها، ولأن المسحوق حلّ في يدها، ولأن المسحوق جعلها منفعلة، ومنحها إحساساً، إحساساً، إحساساً...

ومع أن الاخضرار ازداد باطراد؛ فإن ماريا احمرّت، فسرحت بيدها نحو فمها، لتلعق باطن اليد بلسان طويل، وصارت تكرر ذلك بيأس، لدرجة أن أوسكار أوشك على الظنّ بأن اللسان لم يلغ مجرد إحساسها الانفعالي بالمسحوق، إنما تضاعف حتى بلغ الذروة، وربما تجاوز حدود الذروة التي توضع عادةً لكلّ إحساس. لكنّ الإحساس تراخى بعد حين، فأخذت ماريا تكركر وتتطلع حولها لتتأكد فيما إذا كان هناك شهود للمسحوق الفوّار، ثم ألقت نفسها على ملاءة الاستحمام؛ لأنها أبصرت بقرات البحر المتنفسات تحت ملابس السباحة يضطجعن حولها من كلّ جانب، بلا اكتراث وبأجسام بنيّة بفعل الدهان؛ فاختفت منها حمرة الحياء شيئاً فشيئاً فوق ذلك الغطاء الأبيض. وربما كان بإمكان طقس حمّام الاستجمام في ساعة الظهيرة تلك أن يغوي أوسكار بالنوم لو لم تنهض ماريا مرّات عديدة عقب نصف ساعة، لتتجرأ على الإمساك بكيس المسحوق الفوّار؛ لم أعد أعلم فيما إذا كانت تتصارع مع نفسها قبل أن تفرغ بقية المسحوق في يدها المجوّفة، تلك اليد التي لم يكن تأثير المسحوق غريباً عليها. قبضت على الكيس بيدها اليسار فترة بمقدار الفترة التي يحتاجها المرء لتنظيف نظّارته، وأمسكت بيمينها الطبق الوردي الساكن المعاكس ليسراها. ليس بمعنى أن ماريا ركّزت بصرها على الكيس

أو اليد المجوّفة، وليس بمعنى أنها جالت ببصرها بين ما هو فارغ ونصف ممتلئ، إنما اخترق بصر المسافة الفاصلة بين الكيس واليد، فجعلت عينيها أثناء ذلك صارمتين معتمتين. فأتضح إلى أي قدر كانت النظرة الصارمة أضعف من الكيس الممتلئ إلى حد النصف. فاقترب الكيس من اليد المجوّفة، فنزلت اليد على رغبة الكيس، وفقدت النظرة صرامتها المنقّطة بالكآبة، وأصبحت فضولية، وفي الأخير نهمةً ليس إلا. وبرزانة مصطنعة بجهد كوّمت ماريا ما بقي من المسحوّق في صحن يدها المكتنز الناشف على الرغم من سخونة الجوّ، فتركت الكيس والرزانة يسقطان معاً، ثم أسندت بيدها الطليقة الأخرى قبضتها الممتلئة، ونظرت طويلاً إلى المسحوق بعينين رماديتين، ورمقتني بنظرة رمادية، طالبةً منّي، بعينيها الرماديتين، أن أقدم لها شيئاً؛ أرادت أن أمنحها بصاقي، لكن لم لا تأخذ بصاقها هي؛ إذ أن أوسكار قد نشف ريقه! ثم أنها تملك أكثر منه بالتأكيد، فاللعاب لا يتجدد بتلك السهولة، فلتأخذ بصاقها، فهو جيّد كذلك، إن لم يكن أفضل من بصاقي، ثم أنها لا بد أن تكون تملك منه أكثر مما ملكت في كلّ الأحوال؛ لأنني لم أستطع أن أنتج منه بتلك السرعة، ولأنها كانت أيضاً أكبر من أوسكار.

وأرادت ماريا الحصول على لعابي، فبدا واضحاً منذ البداية بأن لعابي وحده كان موضوعاً في الحسبان، فلذلك لم تنتزع منّي نظرتها المطالبة بإلحاح، فألقيت الذنب في هذا العناد الغاشم على أذنيها الملتحمتين غير الطليقتين. لقد ابتلع أوسكار ريقه، متخيّلاً أشياءً يسيل لها لعابه عادةً، لكن غددي اللعابية منيت بالفشل، ولعلّ ذلك كان بسبب هواء البحر أو الهواء المالح أو هواء البحر المالح، فتوجب علي النهوض، مدفوعاً إلى ذلك بفعل نظرة ماريا، لأضع قدميّ على الدرب. وتوجب عليّ أن أقطع أكثر من خمسين خطوة، دون الالتفات إلى اليمين أو اليسار، عبر الرمل الساخن، ثم أرتقي السلّم الأشد سخونة، وأفتح الحنفية، وأدير رأسي وأضع فمي المفتوح تحت الحنفية، لأشرب وأتمضمض وابتلع ريقي، لكي يحصل أوسكار على اللعاب من جديد.

وعندما تغلبت على المسافة الفاصلة بين قمرة مراقب الحمّام وملاءتنا البيضاء، بغض النظر عن الدرب اللامتناهي المحاط بمنظر مرعب، وجدت ماريا مضطجعة على بطنها، محافظة على رأسها بين ذراعيها المتشابكتين، وقد ارتخت ضفائرها بكسل على ظهرها المقوّس. فلكزتها؛ إذ أن أوسكار أصبح يملك لعاباً، لكنها لم تتحرك، فلكزتها ثانية. غير أنها لم ترغب في النهوض. ففتحت يدها اليسرى بحذر. بدت راضية بذلك؛ ثم قوّمت أصابعها اليمنى: كان الصحن وردياً، ساخناً وفارغاً، وثمة رطوبة بين الخطوط.

فهل استحضرت ماريا لعابها؟ ألم تسطع الانتظار؟ أم أنها نفخت المسحوق الفوّار عن يدها، وخنقت إحساسها قبل أن تحسّ به، وفركت يدها بملاءة الاستحمام لتنظفها، حتى تكشفت يد ماريا الطفولية الأليفة ومعها نتوءات راحتها الصالحة لقراءة الحظّ السهلة التصديق بالخرافات وعطارد الدسم وحزام الزهرة المفتول بمتانة. وعقب فترة قصيرة على ذلك ذهبنا إلى البيت، وبات أوسكار لا يعلم أبداً فيما إذا كانت ماريا قد تركت المسحوق يفور للمرّة الثانية في اليوم ذاته، أم أنها جعلت ذلك الخليط المؤلف من المسحوق الفوّار ولعابي يستحيل، خلال تكراره بعد بضعة أيّام، وزراً عليّ وعليها.

لعلّها كانت مصادفةً، أو مجرد صدفة خضعت لرغباتنا، تلك التي دفعت بماتسرات إلى مفاتحتنا على نحو ملتبس معقّد في مساء الاستحمام الموصوف توّاً - وكنّا تناولنا وقتها حساءً من التوت البريّ المطبوخ وبطاطس مفرومة ومقلية - فاتحنا بأنه أصبح عضواً في ناد صغير للعب الورق ضمن إطار منظمته المحليّة، وأنه سيلتقي في حانة شبرنغر مرتين في الأسبوع بأشقاء الورق الذي كانوا كلّهم من مسؤولي الخلايا الحزبية، إضافة إلى زيلكه، قائد المنظمة المحلية الذي كان يودّ الحضور أحياناً، ولهذا السبب بالذات يجب أن يذهب إلى هناك، وتركنا للأسف بمفردنا. فمن الأفضل إيواء أوسكار خلال أمسيات الورق في بيت الأمّ تروجنسكي. وأبدت الأمّ تروجنسكي موافقتها، لاسيما وأن هذا الاقتراح قد حظي

برضاها أكثر من الاقتراح الذي قدمه إليها ماتسرات عشية ذلك اليوم، دون معرفة ماريا، الذي أفاد بأن ماريا نفسها، وليس أوسكار، يمكنها أن تجعل أريكة بيتنا مبيتاً لها مرتين في الأسبوع.

كانت ماريا تنام قبل ذلك على السرير الواسع الذي كان صديقي هربرت يوسد فيه زماناً ظهره المليء بالندب. كانت الأثاث الكبيرة الحجم موضوعة في الغرفة الخلفية الصغيرة. كان سرير الأمّ تروجنسكي في غرفة الجلوس. أمّا غوسته تروجنسكي التي مازالت تشتغل في تقديم الأطعمة الباردة في فندق «عدن» حيث أقامت، فكانت تأتي أحياناً أثناء أيّام استراحتها، ونادراً ما كانت تنام في البيت، وإذا ما فعلت ذلك فعلى الأريكة. لكن إذا ما أتت إجازة من الجبهة بفرتس تروجنسكي إلى البيت، محملاً بالهدايا من البلدان البعيدة؛ فإن مُجاز الجبهة، أو المتنقل الرسمي بين الدول، كان يرقد في سرير هربرت وماريا في فراش الأمّ تروجنسكي والمرأة العجوز تجعل الأريكة مأوى ليلياً لها.

بيد أنّ هذا النظام اختلّ نتيجة مطالبي، ففي البدء كان عليّ أن أرقد على الأريكة. فرفضت هذا المطلب رفضاً قصيراً لكن بشكل قاطع، ثم أرادت الأمّ تروجنسكي أن تتخلى لي عن فراشها المخصص للنساء العجائز، مكتفية لنفسها بالأريكة. غير أن ماريا اعترضت، إذ أنها لم تكن راغبة في أن تقض تلك المنغصات مضجع الأمّ العجوز، فأعلنت عن استعدادها، دون أن تستخدم كلمات كثيرة، لاقتسام سرير النذل السابق الذي كان يرقد فيه هربرت، معبرة عن رأيها على النحو التالي: «ستمشي الأمور مع أوسكار الصغير في سرير واحد. فالمسكين ليس أكثر من نص-ربع حصّة.»

وهكذا صارت ماريا تحمل بياضات فراشي من سكننا في الطابق الأرضي إلى الطابق الثاني مرتين في الأسبوع خلال الأسابيع التي أعقبت ذلك الاتفاق، ونصبت على شمالها مرقدي ومرقد طبلي. وفي الليلة الأولى للعبة ورق ماتسرات لم يحدث شيء قط. كان سرير هربرت تراءى لي واسعاً جدّاً، فرقدت فيه أوّل الأمر، ثم تبعتني ماريا. كانت قد اغتسلت

في المطبخ ودخلت إلى غرفة النوم بثوب نوم مضحك طويل قديم الطراز ومنكمش. كان أوسكار ينتظر قدومها عارية ومشعرة، فخاب ظنّه في البدء، ألا أنه شعر بالارتياح؛ إذ أن القماش المنتزع من دُرج الجدّة قد أقام له جسراً لطيفاً خفيفاً، ذكّره بثنيات أزياء الممرضات البيضاء.

وحلّت ماريا ضفائرها وهي تقف قبالة دولاب الزينة وتصفر في الوقت ذاته. كانت تصفر دائماً كلّما خلعت ملابسها أو ارتدتها أو ضفرت جدائلها أو حلتها. وحتى أثناء التمشيط أخذت تعصر بلا كلل هاتين اللحنين عصراً من بين شفتيها المزمومتين، ومع ذلك؛ فإنها لم تأت بلحن واحد متناسق. وأضحى صفير ماريا ينقطع حالما تنحّي المشط جانباً. لقد استدارت ونثرت شعرها ثم رتّبت الدولاب بحركات قليلة، فجعلها الترتيب مستخفة: فقذفت أباها المصوّر، المرتّش والملتحي والموضوع في إطار أسود من خشب الأبنوس، قذفته بقبلة يدوية، ثمّ قفزت إلى السرير بقوّة مبالغ فيها، وصارت تهتزّ وأمسك بلحاف الريش أثناء الهزّة الأخيرة، مختفيةً تحت جبل اللحاف إلى حدّ حنكها، فلم تمسني قطّ، أنا الذي رقدت إلى جانبها في فراشي الخاص بي، ومدّت يدها من تحت اللحاف لتطال بذراعها الطويلة التي انزاح عنها كمّ ثوبها، باحثة عبر رأسها عن السلك الكهربائي العازل الذي يمكن من خلاله إطفاء النور فعثرت عليه وضغطت على الزرّ، ثم قالت بصوت شديد الارتفاع «تصبح على خير!»

وبسرعة انتظمت أنفاس ماريا، وربمّا لم تكن تظاهرت بذلك، إنما غرقت حقّاً في النوم، لأنّ إنجازها اليومي لا بد أن يعقبه إنجاز نوميّ متماثل ومجز. لكنّ صوراً صغيرة جديرة بالتأمل وطاردة للنوم عرضت نفسها على أوسكار وقتاً طويلاً. وعلى الرغم من ضغط السواد القاتم المنتشر بين الجدران وورق التعتيم أمام النافذة؛ فإن ممرضات شقراوات كنّ ينحنين فوق ظهر هربرت، ثم تشكّل من قميص ليو شوغر الأبيض المجعّد نورس، وهذا أمر منطقي، وحلّق، ثم حلّق ليتحطم مرتطماً بجدار مقبرة بدت مرممة حديثاً بالجصّ و هلمّ جرّا...

وأخيراً، وبعدما قامت رائحة الفانيلا المتزايدة باطّراد بتعكير صور

الفيلم ومن ثم قطعه تماماً قبل النوم، وجد أوسكار طريقه إلى الأنفاس الهادئة المماثلة التي تمرّست عليها ماريا منذ فترة طويلة.

وبعد ثلاثة أيّام قدمت لي ماريا عرضاً شبيهاً محتشماً، يتعلق بذهاب الفتيات إلى الفراش. لقد جاءت بقميص النوم، وصارت تصفر أثناء ما كانت تحلّ شعرها، فصفرت أيضاً أثناء التمشيط، وألقت بالمشط جانباً، ثم رتبت دولاب الزينة، وقذفت الصورة بقبلة يدوية ووثبت الوثبة ذاتها المبالغ فيها، فأخذت تهتز، ثم أمسكت باللحاف وبدأت تتطلع - كنت أتأمل ظهرها - فأبصرت كيساً - كنت أعجبت بشعرها المسبل الجميل - فاكتشفتْ شيئاً أخضر - كنت أغمضت عينيّ منتظراً حتى ألفت منظر كيس المسحوق الفوّار - حينئذ صرخت لوالب السرير تحت ماريا الملقية بلحافها إلى الوراء، فانضغط الزرّ، وحين فتحت عينيّ بسبب ضغط الزرّ تأكد ما ظنّه أوسكار: لقد أطفأت ماريا الضوء وصارت تتنفس بلا انتظام في الظلام، فلم تألف منظر كيس المسحوق الفوّار؛ لكن بقي من غير المؤكد فيما إذا كان الظلام الذي أوصت به قد كثّف من وجود المسحوق الفوّار، وعانه على التفتّح وأمر لليل بالحوامض المولدة للفقاعات.

كنت على وشك الاعتقاد بأن العتمة أتت إلى صالح أوسكار، إذ أنني انتبهت بعد دقائق قليلة - إذا ما حقّ للمرء التحدّث هنا عن دقائق في الظلام الدامس - إلى حركات في طرف السرير؛ كانت ماريا تحاول اصطياد السلك الكهربائي، فعضّها السلك، أثناء ذلك امتلأت مرّة أخرى إعجاباً بشعر ماريا الطويل المرتخي على قميص نومها. فكم كانت أشعة المصباح تحت قماش المظلة المنثني صفراءَ متساويةً في غرفة النوم، وبدأ اللحاف المنتفخ، الممهد دون أن يمسه أحد، يتكوّم باستمرار في طرف الأقدام. فلم يجرؤ الكيس على التحرّك فوق التلّ في الظلمة. وأخذ ثوب نوم ماريا القادم من عصر الجدّات يحفّ، فارتفعت ذراع منه ومعها اليد الطفولية، فجمّع أوسكار اللعاب في تجويف فمه.

كنّا أفرغنا في الأسابيع التي لحقت ذلك أكثر من دستة من أكياس المسحوق الفوّار ذات الطعم الحامض على الأغلب، وأخيراً، بعدما نفد

الحامض، لجأنا إلى طعم الليمون والتوت البرّي، بالطريقة ذاتها، بحيث كنّا نفوّره ببصاقي، فيوّلد شعوراً كانت ماريا تعطيه حقّ قدره. لقد تكوّنت لي تجربة في تجميع اللعاب، وصرت أستخدم الحيَل التي كان من شأنها أن تُسيل الماء بسرعة وكثرة في فمي، وبتّ قادراً على غمر ماريا بالإحساس المبتغى من خلال محتوى الأكياس الفوّار ثلاث مرّات متتابعة قصيرة المدّة.

وبدت ماريا مرتاحة لأوسكار، فكانت تضمّه إلى صدرها أحياناً، وتقبله مرتين أو ثلاثاً في ناحية ما من وجهه، ثم تغط سريعاً في النوم، بعد أن يلمحها أوسكار تطلق في الظلام ضحكة صبيانية صغيرة. وأضحيت أجد صعوبة مستمرة في النوم. وقد بلغت السادسة عشرة، متحليّاً بروح خفيفة حيويّة، شاعراً بحاجة طاردةً للنوم وهي أن أقدم، من أجل حبّي لماريا، إمكانيات أخرى لا عهد لنا بها من قبل، غير تلك التي كانت تغفو في المسحوق الفوّار، فيوقظها بصاقي، ويتوّلد منها الشعور ذاته دائماً.

ولم تقتصر أفكار أوسكار على الوقت الذي كانت يعقب إطفاء النور، إنما صرت أحتضن الطبل نهاراً، وأظلّ أقلب في ملخصّات راسبوتين المستهلكة من كثرة القراءة، متذكراً حالات المجون السابقة المرافقة للدروس بين غريتشن شفلر وأمّي المسكينة، مستنطقاً غوته أيضاً الذي كنت أملك قصاصات من روايته «فالفيرفاندشافتن»، كما الحال مع راسبوتين، فأخذت من مبرأ الناس بالصلاة شهوانيتهُ فهذبتها بالإحساس الطبيعي لأمير الشعراء، ذلك الإحساس الذي شمل العالم برمته، ثم منحت ماريا ملامح ملكة قيصرية، إضافة إلى ملامح الأميرة «أناستازيا»، واخترت سيّدات من أتباع راسبوتين النبلاء، الغريبي الأطوار، لأرى ماريا عما قريب، وقد طردها ذلك الشبق المتهيج جنسياً، متحلية بالشفّافية السماوية لأوتلي أو تسير خلف شهوة «شارلوتن» التي سيطرت عليها بكلّ عفّة. أمّا أوسكار فقد تخيّل نفسه مرّة راسبوتين شخصيّاً ومن ثمّ قاتله، وتمثّل كثيراً شخصية النقيب، ونادراً مت تخيّل بعل شارلوتن المتقلّب المزاج المضطرب، ورأيت نفسي مرّة واحدة - يجب أن أعترف بذلك -

روحاً ملائكية تحوم في هيئة غوته المعروفة حول ماريا الغافية. ومما كان يدعو إلى الاستغراب هو أنني انتظرت من الأدب حوافز أكثر من الحياة الحقيقية العارية. وعلى هذا النحو؛ فإن يان برونسكي الذي طالما رأيته يحرث لحم أمّي المسكينة، لا يمكن أن يقدم لي شيئاً يذكر في هذا الصدد. ومع أنني كنت أعلم بأن هذا التشابك القائم بالتناوب بين أمّي ويان أو ماتسرات وأمّي؛ التشابك المرهِق الزافر الحسرات المتحوّل في الأخير إلى تأوّه خائر، التشابك المهلهل المنشرخ الذي يسحب أسلابه كان يعني الحبّ، غير أن أوسكار وعلى الرغم من ذلك لم يقتنع بأن الحبّ يعني ممارسة الحبّ، فصار يبحث بفعل الحبّ عن حبّ آخر، لكنه أضحى يعود إلى الحبّ المتشابك نفسه، فأضمر الكره لهذا الحبّ قبل أن يتمرّن عليه بوصفه حبّاً، وأن يدافع عنه أمام نفسه باعتباره الحبّ الحقيقي الوحيد والممكن.

والتهمت ماريا المسحوّق الفوّار وهي مضطجعة. ولأنها أخذت ترجّف ساقيها، متقلبةً حالما فار المسحوق، فإنّ ثوب نومها أنزلق أثناء الإحساس الأوّل مرّات عديدة إلى حدّ الفخذين. وخلال الفوران الثاني تمكن الثوب، في معظم الأحوال، من الالتفاف والتدحرج إلى ثدييها، متسلقاً البطن. وبتلقائية، ودون أن أضع إمكانية قراءة غوته أو راسبوتين بنظر الاعتبار، أفرغت بقية مسحوق التوت البرّي في نقّرة السّرة، بعد أن كنت ملأت به يدها اليسرى أسابيع طويلة، فتركت بصاقي يسيل قبل أن تستطيع الاحتجاج، وعندما بدأ يغلي على فوهة البركان، أضاعت ماريا جميع الحجج اللازمة للاحتجاج: إذ أن السرّة المتأججة الغليان تميّزت كثيراً عن اليدّ المجوّفة. لقد كان المسحوق الفوّار نفسه، وظلّ بصاقي هو البصاق نفسه، وكذلك الإحساس لم يكن مختلفاً عمّا سبقه من إحساس، بيد أنه كان أكثر حدّةً، وأشدّ فعالية. فحلّ حينئذ ذلك الإحساس المفرط القوّة بحيث أن ماريا لم تعد قادرة على إيقافه. فانحنت وأرادت أن توقف بلسانها غليان التوت في قِذْر سرّتها، مثلما كانت تقضي من قبل على مسحوق الجويسئة في يدها المجوّفة بعدا أدّى واجبه، لكن لسانها لم يكن

طويلاً، فبدت لها سرتها متنائية أبعد مسافةً من أفريقيا ومن أطراف أمريكا الجنوبية. غير أن سرّة ماريا كانت قريبة منّي، فأوغلت لساني فيها، باحثاً عن التوت، فعثرت على الكثير، حتى أضعت نفسي أثناء التجميع، ووصلت إلى نواحٍ، ليس فيها مكان لغفير غابات يسأل عن تصريح خاص بالتجميع، شاعراً بالمسؤولية أمام كلّ حبّة توت بمفردها، بحيث أنني لم أضع أمام بصري وحواسي وقلبي وسمعي سوى التوت، ولم أعد أشمّ سوى التوت وحده، فأخذت أطارد التوت، لدرجة أن أوسكار لم يلحظ إلا عرضاً بأن ماريا كان مرتاحة لمثابرة التجميع، لذلك أطفأت النور، تاركة لنفسها النوم المليء بالطمأنينة، وسمحت لك بمواصلة البحث؛ إذ أن ماريا كانت حافلةً بالتوت.

وحين عجزت عن العثور عليه، عثرت على الفطر في مكان آخر، كما لو أن ذلك حدث بالصدفة المحض. ولأنه نبت مختفياً تحت الطحلب، فقد عجز لساني، فاستنبت لي إصبعاً آخر إضافة إلى أصابعي العشرة التي بدت عاجزةً أيضاً. وعلى هذا النحو حصل أوسكار على مضرب طبله الثالث - كان بالغاً بما يكفي لذلك. فقرعت الطحلب ولم أقرع الصفيح. وبتّ لا أفقه شيئاً: فهل كنت أنا الذي طبلت، أم أنّها ماريا؟ وهل كان ذلك طحلبي أنا، أم طحلبها؟ فهل كان الطحلب والإصبع الحادي عشر يعودان إلى أحد آخر، بينما كان الفطر يعود لي؟ وهل كان لذلك السيّد المنتصب في الأسفل رأسه الخاص به وإرادته؟ فمن ذا الذي سينجب أهو أوسكار، أم السيّد المنتصب، أم أنا؟

وماريا التي كانت نائمة من الأعلى ومنهمكة من الأسفل، وعطر الفانيلا البريء والفطر المختبئ تحت الطحلب الشديد الصرامة الذي كان مسحوقاً فوّاراً على أية حال، والذي لم يكن راغباً به، كذلك لم أكن راغباً به أنا نفسي، ذاك الذي أستقل بنفسه، مبرهناً على وجود رأس له، واهباً شيئاً من نفسه، المستيقظ في رقادي، الذي كانت أحلامه غير أحلامي، والذي لم يكن يعرف القراءة أو الكتابة، لكنه مع ذلك وقّع بدلاً منّي، فصار اليوم يمضي في طريقه الخاص به؛ لأنني أدركت وجوده للمرّة

الأوّلى، فكان عدوّاً لي، مما اضطرني دائماً إلى التحالف معه، ذاك الذي خانني وخذلني، فنويت على خيانته وبيعه بثمن بخس، ذاك الذي كنت أخجل منه حتى ضاق ذرعاً بي، وكنت أغسله، فيجلب لي الوسخ من جديد، ذاك الذي كان لا يرى شيئاً لكنه يشمّ كلّ شيء، الغريب عليّ، حتى أنني وددت أن أخاطبه بلغة الاحترام، المتمتع بذاكرة مختلفة عن ذاكرة أوسكار: إذا ما دخلت ماريا إلى غرفتي اليوم ويتنحى لها برونو بمراعاة في الممر؛ فإنه لم يعد يتعرف على ماريا مرّة أخرى، ولم يودّ ذلك، بل يعد قادراً عليه؛ فأصبح يسترخي بكسل وعدم اكتراث، بينما كان قلب أوسكار المنفعل يجعل فمي يتلجلج: «اسمعي، يا ماريا، فهذه اقتراحات رقيقة: إنني أستطيع شراء فرجار، لأرسم دائرة حولنا، وأقدر أن أقيس بالفرجار نفسه زاوية ميل رقبتك بينما أنت تقرئين أو تخيطين، أو تحركين مؤشر مذياعي الصغير كما تفعلين الآن. اتركي المذياع وشأنه؛ فهذه اقتراحات رقيقة: إنني أستطيع تطعيم عينيّ بلقاح لتدمعا من جديد. إن أوسكار سيضع قلبه في مفرمة أوّل قصّاب إذا ما وضعت روحكِ في الوقت ذاته. وكان يمكننا أيضاً أن نشتري حيواناً من قماش ليعمّ الهدوء بيننا، وإذا ما عزمت أنا على تحضير الديدان وأنت على الصبر فيمكننا الذهاب لنصطاد السمك، فنكون أكثر سعادة. أو المسحوق الفوّار لذلك الزمان الماضي، هل تتذكرينه؟ عندما كنت تسمينني حامضَ الفوّار، فأغلي، وأنت تطلبين المزيد، فأعطيك البقية - ماريا، المسحوق الفوّار، إنها اقتراحات رقيقة! فلماذا تقلبين مؤشر المذيع، فهل تنصتين إلى المذياع وحده كما لو أن شهوة ضارية لسماع الأنباء الخاصة سكنتك؟»

بلاغات عاجلة

لا يمكن إجراء التجارب على صحن طبلي الأبيض إلا بشكل سيئ، فيجب أن أدرك ذلك؛ لأن صفيحي كان ينشد الخشب ذاته دائماً، مفضّلاً أن يُسأل بالقرع ليجيب بالقرع، أو أن يترك السؤال والجواب معلقين وهو يتجاذب أطراف الحديث بتكلّف تحت الدوّامة. فطبلي ليس مقلاة يمكن تسخينها اصطناعياً، ليرمى بها اللحم النيء، ولا هو حلبة رقص للأزواج الذين لا يعلمون أصلاً فيما إذا كانوا مرتبطين ببعضهم. لهذا السبب فإن أوسكار لم ينثر، حتى في ساعات العزلة، المسحوق الفوّار على طبله، ليخلط به بصاقه، صانعاً منه مشهداً لم ير مثيلاً له منذ أعوام، مشهداً أفتقده كثيرا. بلا شكّ أن أوسكار لم يستطع الامتناع تماماً عن المحاولة بالمسحوق المذكور؛ بيد أنه تصرف على نحو مباشر، فأبعد الطبل عن الموضوع برمته. لقد عرضت نفسي مجرداً من كلّ شيء، إذ أنني بلا طبل مجرد شخص منكشف على الدوام.

وفي البدء كان من الصعب العثور على المسحوق الفوّار، فبعثت برونو إلى جميع محلاّت بضائع المستعمرات في ناحية غرافنبيرغ، ثم تركته يأخذ الترام إلى غيرسهايم، ورجوته أيضاً أن يحاول الحصول عليه في المدينة، بيد أن برونو لم يحصل على المسحوق الفوّار حتى في أكشاك المرطبات التي يجدها المرء في نهاية خطوط الترام. كانت البائعات الفتيات لم يعرفنه قطّ، وأصحاب الأكشاك الكبار السنّ كانوا يتذكرونه بإطناب وهم يفركون جبهاتهم متفكرين - كما أبلغني برونو -، ثم يقولون: «يا رجل؛ ماذا تطلب؟ المسحوق الفوّار؟ أوه! لقد مضى الزمان الذي كان موجوداً

فيه؛ زمن فيلهلم، في البداية تماماً، في ظلّ أدولف، كان موجوداً في الدكاكين. كانت تلك أزمان! لكن إذا تريد ليمون أو كوكا؟»

كان معيني يشرب على حسابي بضع زجاجات من الليمون أو الكوكا كولا، غير أنه لم يوفر لي ما طلبته منه، ومع ذلك أصبح ممكناً إعانة أوسكار. فأظهر برونو نفسه بأنه لا يكل ولا يتعب: إذ أنه جلب لي يوم أمس كيساً خالياً من الكتابة؛ كانت عاملة المختبر الكيماوي التابع لمصحّة الأمراض العقلية، التي كانت تسمى بالآنسة كلاين، أعلنت عن استعداها، وبتفهّم تام، لفتح علبها وأدراجها الصغيرة ومعاجمها العلمية، لتأخذ بضعة غرامات من هنا وبضعة غرامات من هناك، ثم تخلط، إثر اختبارات عديدة، مسحوقاً فوّاراً، قال عنه برونو: إنه قابل للفوران والدغدغة واتخاذ اللون الأخضر وله طعم محترز جدّاً كطعم المسحوق الفوّار.

اليوم كان يوم زيارة، لكن في البدء جاء كليب، فضحكنا معاً حوالي ثلاثة أرباع الساعة على أشياء جديرة بالنسيان. كنت قد راعيت كليب ومشاعر كليب اللينينية، فلم أعرّج بالحديث على ما كان موضوع الساعة، ولم أذكر شيئاً عن النبأ العاجل حول وفاة ستالين، الذي أبلغني به المذياع الصغير الذي أهدته لي ماريا قبل أسابيع. إلا أن كليب بدا عارفاً بالأمر، إذ أن هناك شريط حداد أسود خيّط بطريقة بدائية كان مشدوداً على ذراع معطفه ذي المربعات الرمادية. بعد ذلك نهض كليب فدخل فيتلار وبدا كأن الصديقين كان متخاصمين من جديد، إذ أن فيتلار حيّا كليب ضاحكاً، صانعاً من أصابعه قرون شيطان، فقال متهكما وهو يعاون كليب على ارتداء المعطف لقد: «فاجئني موت ستالين اليوم صباحاً أثناء الحلاقة!» وبخشوع أملس كشحم الخنزير، وبوجه عريض، كشف النقاب عن القماش الأسود فوق كمّ معطفه، قائلاً بحسرة: «لذلك حملت شارة الحداد»، ثم بدأ يترنم بلحن من بوق آرمسترونغ، فعزف مطلع لحن الجنازة New Orleans Function - ثم تسلل عبر الباب.

إلا أن فيتلار بقي واقفاً، فلم يبد رغبة في الجلوس، إنما صار يتبختر أمام المرآة، فابتسمنا لبعضنا بتفاهم حوالي ربعة ساعة، دون أن نقصد

ستالين. وكنت لا أعلم فيما إذا أردت أن أجعل منه أميناً لأسراري، أم أن الأمر أرتبط بنيتي على إخراج فيتلار. فلوّحت له لكي يدنو من السرير، ثم أوحيت لأذنه بالاقتراب فهمست في صيوانها العريض الشحمة: «مسحوق فوّار؟ هل تفهم معنى هذا يا غوتفريد؟»

وثمة وثبة مروعة حملت فيتلار على الابتعاد عن سريري ذي القضبان، فلجأ إلى اللهجة المنبرية وإلى حركات مسرحية عُرف بها، فأفرد لي سبابته ثم فحّ: «لماذا تريد بحقّ الشيطان إغرائي بالمسحوق الفوّار؟ أما زلت تجهل بأنني ملاك؟» وأخذ يرفرف بجناحيه كالملاك مبتعداً، دون أن ينسى استنطاق المرآة المعلقة فوق المغسلة. إن الشباب خارج مصحّة الأمراض العقلية غريبو الأطوار ويميلون إلى التصنّع.

ثمّ جاءت ماريا. كانت قد فصلت فستاناً ربيعياً جديداً، واعتمرت قبّعة أنيقة رمادية مثل لون الفئران، ذات زخرف بارع أصفر صفرة القش ومقتصد، لكنها لم ترفع هذه التوليفة عن رأسها حتى داخل غرفتي. فألقت عليّ بتحية عابرة، عارضة لي خدها، ثم فتحت على الفور المذياع الصغير الذي أهدتني إيّاه في الواقع، غير أنها وضعته في خدمتها، مثلما بدا لي، إذ كان على ذلك الصندوق البلاستيكي الكريه أن يعوّض عن جزء من حديثنا أثناء وقت الزيارة. «هل تلقيّت الخبر اليوم في الصباح؟ رائع، وإلا؟» فأجبت بصبر: «نعم، يا ماريا. فالمرء لم يخفِ موت ستالين حتى عنّي أنا، لكن أرجوك اقفلي المذياع.» فانصاعت ماريا بصمت، ثم جلست وهي لم تزل معتمرة القبّعة، فتحدثنا كالعادة عن كورت.

«تصوّر يا أوسكار، الوغد لا يريد أن يلبس الجوارب الطويلة بعد الآن، واليوم نحن في مارس/آذار فمحتمل أن تبرد الدنيا، قالوا ذلك في المذياع.» فتغافلت نبأ المذياع وتحزبت لكورت فيما يتعلق بقضية الجوارب الطويلة: «الولد صار عمره اثنا عشر عاماً يا ماريا، وصار يخجل من جوارب الصوف الطويلة أمام زملائه التلاميذ.»

«نعم، إنّ صحته بالنسبة لي أهمّ، ولابد أن يلبس الجوارب حتى عيد الفصح.»

نطقت بهذا الميعاد بصورة قاطعة، لدرجة أنني حاولت التخفيف والتلطيف بحذر: «إذاً يجب أن تشتري له سروال تزحلق على الجليد، لأن جوارب الصوف قبيحة فعلاً. ارجعي بتفكيرك إلى الوراء عندما كنت في العمر نفسه. أيّام باحة بنايتنا في لابسفيغ؟ ما الذي فعلوه آنذاك بالقزم الذي توجب عليه أن يلبس الجوارب الطويلة حتى حلول الفصح؟ نوجي آيكه الذي بقى في كريتا وأكسل ميشكه الذي فُقد في هولندا قبل نهاية الحرب بفترة قصيرة وهاري شلاغه، ما الذي فعلوه بالقصير؟ لطّخوا جواربه الصوفية الطويلة بالقطران، فبقيت ملتصقة به، فنقل القزم إلى المستشفى على أثرها.»

قذفت ماريا كلماتها بغضب: «كانت زوزي كاتر قبل كلّ شيء، فهي صاحبة الذنب، وليس الجوارب.» وعلى الرغم من أن زوزي كاتر التحقت بصنف المخابرة في بداية الحرب ومن ثم رحلت إلى بافاريا فيما بعد، وقيل إنها تزوّجت؛ فإن ماريا كانت تحمل ضغائن مستمرة على زوزي التي كانت تكبرها ببضعة أعوام، كما هي النساء عادةً اللواتي يعرفن كيفية الاحتفاظ بالبغض من أيّام الشباب إلى زمن الجدّات. ومع ذلك فإن الإشارة إلى جوارب القزم الصوفية الملطخة بالقار تركت بعض التأثير. فتعهدت ماريا بشراء سروال تزحلق على الجليد لكورت. ثم تمكنا من إعطاء الحديث وجهة أخرى. فتم تناول الإطراء الذي حظي به كورت، عبّر مدرّس الثانوية كونمان خلال الاجتماع الأخير لأولياء الأمر عن استحسانه «فتخيّل الآن يا أوسكار؛ إنه ثاني أحسن واحد في الصفّ! ويساعدني في المحلّ، لا أستطيع أن أقول لك كيف!» فهززت رأسي اعترافاً وإعجاباً، ودعوتها أن تصف لي آخر مقتنيات محلّ المأكولات الفاخرة. ثمّ شجعتها على تأسيس فرع جديد في أوبركاسل. إذ أن الوقت كان مناسباً، كما قلت لها، والانتعاش الاقتصادي مازال مستمراً - التقطت ذلك، بالمناسبة، من المذياع ، فوجدت الظرف مناسباً لقرع الجرس على برونو ليأتي، فدخل وناولني الكيس الأبيض الذي احتوى على المسحوق الفوّار.

كانت خطّة أوسكار محكمة، فبلا أي إيضاح رجوت ماريا أن تعرض يدها اليسرى. في البدء أرادت أن تقدم لي يمناها، لكنها صوبت نفسها بنفسه، فقدمت لي ظاهر يدها اليسرى وهي تهزّ رأسها ضاحكة، متوقعةً قبلة على اليد. فتعجبت عندما قلبت راحتها وكوّمت المسحوق بين خطّي نتوءات راحة اليد. لقد سمحت لي بذلك، ثم أصابها الرعب عندما انحنى أوسكار على يدها وأفرز بصاقه الوافر على جبل المسحوق الفوّار. فاستنكرت ما قمت به «آه، أترك هذا العبث يا أوسكار!» ثم قفزت متخذةً مسافةً وصارت تحدّق بهلع في المسحوق الذي فار وأزبد حتى استحال لونه أخضر. فاحمرّت ماريا من الجبين إلى الأسفل. وأوشكت أن أمني نفسي بالنجاح، إلا أنها أصبحت أمام المغسلة في ثلاث خطوات، ودعت الماء المقرز يسيل على مسحوقنا، بارداً في البدء ومن ثم ساخناً فغسلت يديها بصابونتي.

«إنك فعلاً لا تطاق أحياناً يا أوسكار، فما الذي سيقوله عنّا السيّد مونستربيرغ؟» فرمقت برونو، الذي أحتل موقعه في طرف السرير أثناء محاولتي، بنظرة طالباً منه التساهل معي. ولكي لا تشعر ماريا بالخجل أكثر من ذلك فقد صرفت المعين من الغرفة، وحالما أطبق الباب على القفل رجوت ماريا أن تقترب ثانيةً من السرير: «ألا تتذكرين؟ أرجوك تذكّري. المسحوق الفوّار! كان سعر الكيس الواحد ثلاثة فلوس! أرجعي بتفكيرك إلى الوراء: طعم الحميّض والتوت، كم كانت رغوته جميلة، بل فورانه والإحساس، الإحساس يا ماريا!»

لكن ماريا لم تتذكر، إذ ركبها منيّ خوف أخرق، فارتعد جسمها قليلاً، وأخفت يدها اليسرى، ثم حاولت بتشنج إيجاد موضوع آخر للحديث، فحدثتني مرّة أخرى عن تفوّق كورت في المدرسة، وعن موت ستالين، وعن الثلاجة الجديدة في محلّ ماتسرات للمأكولات الفاخرة وعن الفرع المزمع تأسيسه في أوبركاسل. بيد أنني بقيت مخلصاً للمسحوق الفوّار، فقلت مسحوقاً فواراً، ونهضت، فتوسلت مسحوقاً فوّاراً، فودعتني على عجل، وصارت تنتش قبعتها، غير عارفة فيما إذا كان عليها الذهاب،

ثم أخذت تقلب بالمذياع الذي صرّ، فطغيت عليه بصوتي: «المسحوق الفوّار يا ماريا، أما تتذكرينه!»

وقفت ماريا عند الباب، وبكت وهي تهزّ رأسها، وتركني وحيداً مع المذياع الصغير الصافر حين أغلقت الباب بحذر كما لو أنها غادرت محتضرا. وماريا لم تعد تتذكر المسحوق الفوّار! أمّا بالنسبة لي، فإن المسحوق الفوّار لن ينقطع عن الفوران مادمت أتنفس وأطبل. وكان بصاقي في أواخر صيف العام الأربعين هو الذي أنعش الحميّض والتوت البرّي، وأيقظ الإحساس وهو الذي أوكل مهمة التفتيش إلى لحمي، ودربني على تجميع الفطر و«الغوشنة» وغيرها من الفطريات الصالحة للأكل والمجهولة بالنسبة لي، ثم جعلني أباً، نعم، أباً، أباً فتيّاً، جامعاً ومنجباً؛ إذ لم يكن هناك شكّ بأن ماريا حملت في مطلع نوفمبر، وأصبحت في شهرها الثاني، وأنا، أوسكار، كنت الأب. ومازلت إلى اليوم مؤمناً بذلك؛ لأن القصّة مع ماتسرات حدثت بعد ذلك بفترة طويلة. فعقب أسبوعين، كلا، عقب عشرة أيّام، بعدما حبّلت ماريا النائمة في فراش شقيقها هربرت المليء بالندب، بمناسبة البطاقات البريدية الميدانية لشقيقها الأصغر، رئيس العرفاء، في الغرفة المظلمة، وفيما بعد بين الجدران وورق التعتيم، ظفرت بماريا، ليس نائمة، إنما اضطجعت، منهمكةً تماماً، تنهج مقطوعة الأنفاس على مصطبة بيتنا، وفوقها اضطجع ماتسرات.

ودخل أوسكار من الممر، قادماً من المكان الذي تحت السقف، حيث كان يتأمل؛ نعم، دخل بطبله إلى غرفة الجلوس. فلم يلحظا دخولي. كان رأساهما متجهين نحو المدفأة الحجرية. كما أنهما لم يخلعا ثيابهما على وجه صحيح. فعلق سروال ماتسرات الداخلي بباطن ركبته. وتكوّم سرواله فوق البساط. وقد تكوّر ثوب ماريا ولباسها الداخلي فوق مشدّ ثدييها حتى وصل الإبطين. والتفّت سراويلها الأنثوية حول قدمها اليمنى التي علقت مع الساق، ملويّةً ببشاعة، أمام المصطبة القصيرة. وارتخت ساقها اليسرى منثنية على ظهر الأريكة، كأنها غير معنية بشيء.

وماتسرات مندس بين الساقين. كان قد أدار بيمناه رأسها إلى الجانب ووسع باليد الأخرى من فتحتها، فأعانه ذلك على اقتفاء الأثر. وعبر أصابع ماتسرات المنفرجة بحلقت ماريا بالبساط من الجانب؛ بدأ كما لو أنها تتبعت نموذج الحياكة إلى حدّ الطاولة. فأطبق بأسنانه على مخدّة كان كيسها من القطيفة، لكنه لم يتخل عن المخدّة، إلا إذا ما تبادلا الكلام. إذ أنهما كان يتحدثان أحياناً دون أن يقطعا عملهما. فقط عندما دقّت الساعة الثالثة تعثّر كلاهما طالما كان ناقوس الساعة يؤدي واجبه، فقال، وهو يشتغل ضدها مثلما كان قبل قرعِ الجرس «أصبحت الآن إلا ربعاً»، ثم أراد أن يستفهم منها فيما كان جيّداً ما فعله بها. فردّت عدّة مرّات بالإيجاب، وتوسلت به أن يكون حذرا. فوعدها بأنه سيكون حذراً بكلّ تأكيد. فأمرته، كلا، بل ناشدته بأن يحتاط تلك المرّة بصفة خاصة. ثم استعلم منها فيما إذا سيحين أوانها عمّا قريب. فقالت إنه سيحين حالاً. حينئذ أصاب التشنج قدمها التي كانت عالقة أمام المصطبة، إذا أنها صارت ترفس بها هواء الغرفة، إلا أن سراويلها الأنثوية ظلّت ملتفةً حولها. فعضّ المخدّة من جديد، فزعقت به أن يبتعد؛ فأراد الابتعاد، لكنه لم يقدر؛ لأن أوسكار ركب فوقهما معاً، قبل أن يبتعد؛ ولأن أوسكار لطمه على ظهره بالطبل ثم قرعِ الصفيح بمضربيه؛ لأنني لم أعد أطيق سماع: ابتعد وأذهب عنّي، ولأن صوت طبلي كان أكثر ارتفاعاً من عبارتها «ابتعد»، لأنني لم أسمح له بالابتعاد مثلما كان يبتعد يان برونسكي دائماً عن أمّي؛ إذ أن أمّي كانت تقول ليان دائماً ابتعد، ابتعد، ولماتسرات، ابتعد. فكانا ينفصلان، ويتركان المخاط يتساقط في مكان ما، على منديل وضع خصيصاً لذلك الغرض، وإذا لم يكن المنديل في متناول اليد، فعلى المصطبة وعلى البساط حسب الإمكان. إلا أنني كنت لا أستطيع رؤية ذلك. ثم أنني في نهاية المطاف لم ابتعد أيضاً. فأصبحت أوّل من لم يبتعد؛ ولهذا السبب بالذات فأنا الأبّ وليس ماتسرات الذي اعتقد وإلى الأبد بأنه أبي. بينما يان برونسكي هو الذي كان والدي. وهذا ما ورثته أنا عن يان، فأنني لم ابتعد قبل ماتسرات، إنما بقيت في الداخل، وقذفت في الداخل، وما

خرج من الداخل كان ابني، وليس ابنه. فهو ليس له أي ابن! حتى لو كان تزّوج بأمّي المسكينة عشر مرّات، وتزوّج بماريا كذلك؛ لأنها كانت حبلى. وكان يعتقد بأن الناس في البناية والشارع سيفكرون في ذلك بالتأكيد. بالطبع أنهم اعتقدوا بأن ماتسرات هو الذي سمّن ماريا، فتزوجها حينئذ وهي في السابعة عشرة والنصف وهو في الخامسة والأربعين. بيد أنها كانت بارعة بالقياس إلى سنّها، أمّا بالنسبة لأوسكار فإن بإمكانه أن يفرح بالرابّة، لأن ماريا كانت للطفل المسكين ليس رابّةً، بل مثل أمّ حقيقية، على الرغم من أن أوسكار لم يكن صافي الرأس، وأن مكانه في الواقع هو زلبرهامر أو مصحّة تابياو «غفارديسك».

وقرر ماتسرات عملاً بنصيحة غريتشن شفر الزواج من عشيقتي. وإذا ما كنت وصفته، أي أبي المفترض، بأنه أبي، فيجب أن أشدد القول على أن أبي قد تزوّج زوجتي المستقبلية، وأخذ فيما بعد يسمي ابني كورت ابنه كورت، وطالبني بالاعتراف بحفيده باعتباره أخي غير الشقيق وبأن أسمح لعشيقتي ماريا الناضحة بعطر الفانيلا أن ترقد في فراشه الذي فاحت منه نتانة بيض الأسماك بصفتها رابّتي. وإذا ما برهنت لنفسي على أنّ: ماتسرات لم يكن أباك المفترض، إنما شخص غريب، لم يكن لطيف المعشر ولم يستحق نفورك عنه، إنما كان يجيد الطبخ، ذلك الطاهي ببراعة الذي اعتنى بك على نحو صالح وطالح على السواء، لأنّ أمّك المسكينة تركتك في عهدته، هذا الذي اختطف منك أعزّ النساء إلى نفسك من بين الناس كلّهم، ثم جعلك شاهداً على زواجه وعلى تعميد الطفل إثر ذلك بخمسة أشهر، أي جعلك ضيفاً لاحتفالين عائليين كنت أنت حريّاً بإقامتهما؛ إذ أنك كنت جديراً بقيادة ماريا إلى مكتب الأحوال الشخصية، وأنت الذي كنت آهلاً لتحديد عرّاب التعميد. وإذا ما تأملت الشخصيات المحورية لهذه المأساة وتوجب علي أن ألاحظ بأن عرض المسرحية قد تأثر سلباً بفعل احتلال خاطئ للأدوار الرئيسية؛ فإنني أصاب باليأس من المسرح نفسه: إذ أنهم أسندوا إلى أوسكار الممثل الجوهري الحقيقي دوراً من أدوار الكومبارس، كان يمكن أن يلغى أصلاً.

وقبل أن أطلق على ابني اسم كورت، وألقّبه بما لا يمكن أن يُلقّب به قط - إذ أنني كنت سأسمي الصبي باسم جدّه الحقيقي فنسنت برونسكي - ، نعم قبل أن أرضى بكورت فأن أوسكار لا يودّ أن يحجب كيف أنه قاوم الولادة المنتظرة إبّان حمل ماريا. وفي مساء ذلك اليوم، حين باغتّهما على المصطبة، وتربعت مطبلاً على ظهر ماتسرات المتفصد عرقاً، حائلاً دون تحقيق الحذر الذي طالبت به ماريا، بذلت محاولة يائسة لاستعادة عشيقتي.

لقد تمكن ماتسرات من إزاحتي عن ظهره، بعدما بات الأمر متأخراً، لذلك ضربني. فسارعت ماريا إلى حماية أوسكار، وأخذت تعاتب ماتسرات وتلومه لأنه لم يستطع أن يكون حذرا. فدافع ماتسرات عن نفسه كالرجل العجوز، بأن ماريا هي السبب، وصار يتعلل بالحجج بأن عليها الاكتفاء بمرّة واحدة، إلا أنها لم تستطع الاكتفاء. فبكت ماريا وقالت إنها لا تستطيع أن تفعل ذلك بسرعة، أدخل وأخرج ثم انتهى كلّ شيء، فعليه إذاً أن يبحث عن امرأة أخرى، ثمّ أنّها في الواقع غير خبيرة، لكن شقيقتها غوسته التي تعمل في فندق «عدن» كانت خبيرة بالأمر، فأبلغتها بأن القضية لا تتم بسرعة، وعلى ماريا أن تتخذ جانب الحذر؛ لأن هناك رجالاً لا هم لهم سوى أن يفرغوا مخاطهم، وماتسرات واحد من هؤلاء الرجال، لكنها سوف تمتنع منذ الآن عن ممارسة هذا الفعل، فلابد أن يدقّ ناقوسها مثلما حدث قبل قليل. ولهذا السبب بالذات كان عليه أن يحترس، وهذا كلّ ما كان يدين لها به، هذه المراعاة الصغيرة ليس إلا، ثمّ انخرطت في البكاء وهي لم تزل مسترخية على المصطبة. فزعق بها ماتسرات وهو في سرواله الداخلي، بأنه غير مستعد لسماع هذا العويل؛ لكنه ندم على ثورته العصبية، فمدّ يده إلى ماريا، بمعنى أنه حاول أن يداعب ما تحت ثوبها، أي ذلك الشيء الذي مازال عارياً، فأغضب تصرفه ماريا.

لم يرها أوسكار من قبل في تلك الحالة قطّ، بحيث أن بقعاً حمراء انتشرت في وجهها وأخذت عيناها الرماديتان تزداد قتامة. وأطلقت على ماتسرات اسم القضيب المرتخي، فتناول سرواله إثر ذلك، فحشر نفسه فيه

وزرره. صرخت ماريا أن بإمكانه الفرار ببساطة إلى مسؤولي الخلايا الحزبية؛ فهم أيضاً سريعيّ القذف. وتناول ماتسرات سترته ومن ثم أُكرة الباب وقال مؤكداً بأنه سيضرب منذ الآن على أوتار أخرى، وإنه شبع حتى التخمة من خزعبلات النسوان وترهاتهن؛ وإذا كانت متهيجة فعليها أن تصطاد أحد العمّال الأجانب، مثل ذاك الفرنسي الذي يجلب البيرة، فهو يجيد العملية أحسن منه بلا شكّ، وإنه، أي ماتسرات، كان يتصور شيئاً أخر تحت مفهوم الحبّ غير هذه القذارات، والآن فأنه سيلحق بلعبة السكات؛ لأنه يعرف على الأقل ما ينتظره هناك.

وآنذاك أصبحت بمفردي مع ماريا في غرفة الجلوس، وقد توقفت عن البكاء، وأخذت ترتدي سراويلها الداخلية بفكر مشغول وهي تصفر باقتصاد شديد. وأمضت وقتاً طويلاً تسوّي ثوبها الذي عاني كثيراً من وطأ المصطبة، ثم فتحت المذياع، وبذلت جهداً للاستماع له عندما أعلن منسوبات المياه في نهري فيستولا ونوغات، إلا أنها خلعت سراويلها فجأة حين بثّ المذياع أنغام الفالس بعدما ذكر مستوى المياه في نهر موتلاو السفلي، فوجدت لها آذاناً صاغية، ثم مضت ماريا إلى المطبخ وجعلت الطست يقرقع والماء يسيل، وسمعت أنا الغاز يفحّ فتوصلت إلى احتمال بأن ماريا عقدت العزم على حمّام جلوسي. ولكي يصرف أوسكار ذهنه عن ذلك التصوّر المحرج فقد ركّز انتباهه على أنغام الفالس. وإذا لم تخنني الذاكرة، فإنني قرعت بضعة إيقاعات من موسيقى شتراوس، فحظيت بإعجابي. إلا أن أنغام الفالس قُطعت من قبل دار الإذاعة ليبثّ نبأ خاص. وخمّن أوسكار نبأً من المحيط الأطلسي، فلم يخب ظنّه. لقد تمكن عدد من الغوّاصات الحربية غرب ايرلندا من إغراق سبع أو ثمان سفن تبلغ الحمولة الإجمالية لكلّ واحدة منها كذا وكذا ألف من الأطنان. إضافة إلى أن عدداً أخر من الزوارق الغوّاصة قد نجح في إغراق عدد مماثل من السفن في قاع المحيط الأطلسي. وثمة غوّاصة تحت إمرة القبطان النقيب «شيبكه» - لعلّه كان النقيب البحري كريتشنر - أظهرت تفوقاً خاصاً. وعلى أية حال، كان أحد هذين القبطانين، أو قبطان مشهور

أخر، استطاع أن يغرق مدمرةً إنجليزية من الطبقة الفلانية والعلانية، على الرغم من أنه كان محملاً بالكثير من الأطنان، فأنجز مهمته على الرغم من ذلك كّله.

وبينما أخذت أنوّع على أنشودة إنجلترا التي أعقبت النبأ الخاص، وأوشكت أن أحوّلها إلى لحن رقصة الفالس، دخلت ماريا إلى غرفة الجلوس بمنشفة على ذراعها، وقالت بصوت خافت: «هل سمعت نبأً خاصاً مرّة ثانية يا أوسكار الصغير! لو أنهم يواصلون على هذا المنوال...»

ودون أن تبلغ أوسكار ما الذي سيحدث بعد ذلك، جلست على كرسيّ، كان ماتسرات يعلّق عادةً سترته على مسنده، ثم لفّت المنشفة المبللة على شكل سجق، ثم أخذت تصفر أنشودة إنجلترا بمرافقة المذياع على نحو عال حدّ ما وصحيح أيضاً، مكررة المقطع الختامي بعدما توقّف بثّه في المذياع، وقفلت صندوق الراديو الموضوع فوق الصوان حالما ارتفعت من جديد أنغام الفالس الخالدة. ألقت ماريا بلفّة المنشفة التي تشبه السجق على الطاولة وجلست ثانيةً وأرخت يديها الطفوليتين على فخذيها. وحينها ساد الصمت التام في غرفة جلوسنا، باستثناء الساعة القائمة التي كانت تتحدث بصوت مرتفع على الدوام، فبدت ماريا تفكّر فيما إذا كان من الأفضل لو تفتح جهاز الراديو مرّة ثانية، بيد أنها اتخذت قراراً آخر. وضغطت رأسها بسجق المنشفة على سطع الطاولة ومررت ذراعيها عبر ركبتيها وتركتهما تتدليان فوق البساط وبدأت تبكي بصمت ورتابة.

وتساءل أوسكار في نفسه فيما إذا كانت ماريا قد خجلت؛ لأنني باغتها وهي في موقف محرج، فقررت أن أرفّه عنها، وانسللت من غرفة الجلوس وعثرت على كيس علب مسحوق المحلبيّة وأوراق الحلوى الجلاتينية على كيس كشف عن نفسه في الممر نصف المعتم باعتباره كيس مسحوق فوّار بطعم الجويسئة . بدا أوسكار فرحاً بما أمسك؛ إذ أنني حسبت نفسي قد أدركت لحظة بأن ماريا كانت تفضّل مذاق الحميّض على جميع الأصناف الأخرى.

وعندما دخلت الغرفة، كانت وجنة ماريا اليمنى ترتخي فوق المنشفة الملفوفة على شكل سجق، وترنح ذراعاها بحيرة بين فخذيها كما كانتا من قبل. واقترب منها أوسكار من ناحية اليسار، فشعر بخيبة أمل حين وجد عينيها مغمضتين، بلا دموع. فانتظر صابراً إلى أن ارتفعت الأهداب التي علق بها شيء ما، فعرضت عليها الكيس، بيد أنها لم تلحظ المسحوق الحامض الطعم؛ بدت تتطلع عبر الكيس وأوسكار معاً. ولابد أن الدمع قد غشي بصرها، هكذا عذرت ماريا وقررت بعد استشارة داخلية قصيرة أن أتعامل معها بشكل مباشر، فزحف أوسكار تحت الطاولة وأقعى عند قدمي ماريا المنحرفتين قليلاً إلى الداخل، وأمسكت بيدها اليسرى التي كادت أناملها تلامس البساط، وحرفتها حتى استطعت أن أبصر راحتها، فمزقّت الكيس بأسناني ونثرت نصف محتوى الورقة في الوعاء المستسلم لي بلا إرادة، وأردفته ببصاقي، ثم أخذت أراقب أوّل رغوة للمسحوق، فتلقيت من ماريا رفسة موجعة فعلاً على صدري، قذفت بأوسكار على البساط إلى منتصف طاولة غرفة الجلوس.

وعلى الرغم من الألم وقفت على قدميّ حالاً ثم انتصبت تحت الطاولة، ونهضت ماريا كذلك، فوقفنا قبالة بعضنا. تناولت ماريا المنشفة ومسحت يدها اليسرى، ثم قذفت بالممسحة أمام قدميّ وأطلقت عليّ اسم الخنزير القذر اللعين وقزم السمّ والجنّ القصير المخبول الذي يجب وضعه في مستشفى المجانين. ثم أمسكت بي وصفعت مؤخرة رأسي، وشتمت أمّي المسكينة التي جلبت إلى الدنيا وغداً مثلي، ثم حشرت المنشفة في فمي حين أوشكت على الصراخ، واضعاً نصب عينيّ زجاج غرفة الجلوس ومعه زجاج العالم برمته، بحيث أنني عندما عضضت عليه بأسناني بدا لي كأنني عضضت على لحم بقر نيء.

لكنها لم تحررني إلا بعد أن أصبح أوسكار محتقناً من الأحمر حتى الأزرق. كان بإمكاني في تلك اللحظة، وبغير عناء، أن أحطم الزجاج كلّه، أحطم زجاج النوافذ وغطاء ميناء الساعة الزجاجي للمرّة الثانية. لكنني لم أصرخ، بل سمحت للغضب أن يتمكن منّي، فاستقر في نفسي

إلى اليوم، لدرجة أنني كنت أشعر بالمنشفة بين أسناني كلّما دخلت ماريا غرفتي. ومثلما كانت ماريا مزاجية الطبع فقد أخلت سبيلي، وصارت تضحك عن طيبة قلب، وفتحت لي المذياع من جديد بحركة واحدة، ثم تقدمت منّي وهي تصفر لحن الفالس مع المذياع، لكي تداعب شعري، مثلما كنت أتمنى من كلّ قلبي، وقد فعلت ذلك بلطف متصالح.

وتركها أوسكار تقترب منه تماماً، ثم لطمها بقبضتيه من الأسفل إلى الأعلى، في ذلك الموضع بالذات الذي أتاحت لماتسرات اقتحامه. وحين صدّت لكمتي الثانية قبضت بأسناني على ذلك الموضع اللعين، حتى انقلبت معها على المصطبة وأنا ممسك بمتاع ماريا، وسمعت في الواقع نبأً علاجلاً أذاعوه في الراديو، بيد أنّ أوسكار لم يكن راغباً في الاستماع له؛ وهكذا فأنه سيخفي عليكم من، وماذا، وكم أغرق من السفن؛ إذ أن نوبة بكاء عارمة جعلت أسناني ترتخي، فرقدت بلا حراك على ماريا التي بكت من الألم، بينما بكى أوسكار من شدّة الكره والحبّ الذي استحال إلى عجز كبير، لكنه لم يستطع التوقف.

حملُ العجز إلى السيّدة غريف

لم أكن أحببت غريف، وهو، غريف نفسه، لم يكنّ لي حبّاً قط، وبالرغم من أنّه صمم لي ماكينة التطبيل، لكنني لم أحبّه. واليوم أيضاً، وبعدما أوسكار عاجزاً إلى حدّ ما عن إبداء النفور المتواصل، فإنني لم أشعر بالوّد إزاء غريف، حتى بعد غيابه عن الوجود.

كان غريف بائع خضر، ولا تنخدعوا بذلك، فهو لم يكن يؤمن بالبطاطس ولا بالكرنب، بل كان يتمتع بمعرفة شاملة في زراعة الخضر، عارضاً نفسه بسرور باعتباره بستانيّاً وصديقاً للطبيعة ونباتياً. وبالذات لأنّ غريف لم يأكل اللحم، فإنه لم يكن بائع خضر حقيقياً، فمن المستحيل بالنسبة له التحدّث عن ثمار الحقل كمن يتحدث عن ثمار الحقل. كنت اسمعه دائماً يخاطب زبائنه بالقول: «تأمل حضرتك حبة البطاطس غير الاعتيادية هذه. وتأمل لحم الفاكهة المكتنزة الفائضة بالحيوية والمولدة للأشكال على الدوام، العذرية والعفيفة في الوقت ذاته. فأنا أحبّ البطاطس، لأنها تتحدث لي شخصيّاً!» بالطبع إن بائع خضر حقيقياً يجب أن لا يتكلم على هذا النحو فيوقع الزبائن في حيرة واضطراب. فجدّتي آنا كولياجك التي شاخت بين حقول البطاطس لم تطلق من بين شفتيها حتى أثناء المواسم الجيدة للبطاطس أكثر من العبارة التالية: «نه؟ البطاطس هذه السنة أكبر من السنة الماضية!» على الرغم من أن آنا كولياجك وشقيقها فنسنت برونسكي كانا معتمدين على محصول البطاطس أكثر من بائع الخضر غريف الذي كان يعوّض موسم البطاطس السيئ بموسم الأجاص الجيّد.

وبدا كلّ شيء لدى غريف مبالغاً فيه. وهل كان من الضروري أن يرتدي مِئزَراً أخضر في الدكّان؟ وأي تبجّح دفع به إلى تسمية مريلته الخضراء خضرة السبانخ وهو يبتسم أمام زبائنه متظاهراً بالحكمة: «مريلة الله العزيز البستانية الخضراء»؟ فضلاً عن أنه لم يتخل نهائياً عن كشّافته. فكان عليه في الواقع أن يحلّ جمعيته خلال العام الثامن والثلاثين - حين أُلبس الأولاد قمصاناً بنيّة وقيافات شتوية سوداء لائقة المظهر - ومع ذلك كان الكشّافون السابقون يأتون بأعداد غفيرة وبانتظام في ثياب مدنية أو أزياء رسمية جديدة إلى رئيس كشّافتهم السابق، ليغنوّا مع غريف الذي كان ينتف بقيثارته أمام مريلته الخضراء التي استعارها من الله العزيز أغاني الصباح والمساء وأغاني الجوّالين والجنود المرتزقة، إضافة إلى أناشيد الحصاد والأغاني الشعبية، المحلية منها والأجنبية. وبما أنّ غريف أصبح في الوقت المناسب عضواً في فرقة الحزب النازي الآلية فصار يلقب نفسه بعد العام الواحد والأربعين ليس فقط ببائع الخضر، إنما بمراقب الحماية من القصف الجوّي، ثمّ إنّه كان يستطيع الاعتماد على اثنين من الكشّافة السابقين اللذين وصلا إبّان ذلك إلى موقعين متقدمين في «اتحاد الشبيبة» الألمانية، أحدهما أصبح آمر فوج والأخر قائد مجموعة؛ فإن أمسيات الأغاني التي كانت تقام في قبو غريف لخزن البطاطس يمكن أن يعتبرها المرء مشروعة من قبل القيادة الإقليمية لشباب هتلر. وكذلك دُعي غريف من قبل مدير التعليم الإقليمي «لوبزاك» لإقامة أمسيات غنائية أثناء الدورات التعليمية التي كانت تعقد في حصن «ينكاو» للتعليم المحلّي. وفي مطلع العام الأربعين كلّف مع أحد معلميّ الابتدائية بمهمة وضع كتاب لأغاني الشباب خاص بإقليم الرايخ غدانسك- بروسيا الغربية تحت عنوان «غنّي معنا!» فأصبح الكتاب كتاباً جيداً جدّاً، وتلقى بائع الخضر رسالة من برلين بإمضاء قائد شبيبة الرايخ تضمنت دعوة للقاء رؤساء أقسام الغناء.

لقد كان غريف رجلاً بارعاً تماماً، ليس لأنه كان يعرف مقاطع الأغاني كلّها، بل لأنه عرف نصب الخيم أيضاً، فكان يوقد نيران المخيّم

ويطفئها، لكي لا تنشب الحرائق في الغابات، ويسير بعزم حسب البوصلة، ويسمي النجوم المرئية بأسمائها الأولى، ويؤلف حكايات طريفة، مليئة بالمغامرات، ويعرف أساطير بلاد فيستولا، ثم أنه كان يقيم ندوات مسائية تحت عنوان «غدانسك واتحاد المدن التجارية (هانزا)»، بل كانت له القدرة على تعداد رؤساء أوسمة الفروسية بالتواريخ، ولم يكتف بذلك، بل أنه كان يتحدث عن كلّ ما له علاقة بالإرسالية الألمانية في بلد التبشير الكاثوليكي، وكان نادراً ما يضمّن محاضراته قولاً مأثوراً متميزاً من أقوال الكشّافة.

وكان غريف يحبّ الشباب، ويحبّ الغلمان أكثر من الفتيات، بل أنه في الحقيقة لم يحبّ الفتيات أبداً، إنما كان يحب الغلمان فحسب. وغالباً ما كان يحبّ الغلمان أكثر مما كان يعبر عنه أداء الأغاني من خلال قراءة نصوصها. ومن المحتمل أن زوجته المهملة ذات الجوارب الطويلة المثقوبة والتي كان مشدّ ثدييها يتضخم على الدوام قد أجبرته على البحث عن المعيار الخالص للحب لدى الصبيان المفتوليّ العضلات، اللامعين من فرط النظافة. وكان من الممكن أيضاً التنقيب عن جذر آخر للشجرة التي زهت الثياب الداخلية القذرة للسيّدة غريف على أغصانها طوال فصول السنة. أعني بذلك: أن السيّدة غريف كانت «تفلّت»، لأن بائع الخضر ومراقب الحماية من القصف الجوّي لم يكن يمتلك النظرة السديدة إلى ثرائها المهمل، البليد قليلا. فأحبّ غريف كلّ ما هو مدملج، مفتول العضلات، صلب العود. وإذا ما لفظ عبارة الطبيعة، فإنه كان يعني بها الزهد، وإذا ما قال بالتقشف؛ فإنه كان يعني نوعاً محدداً من الاعتناء بالجسد، إذ أن غريف كان يتفهم جسده. فبات يعتني به بطريقة معقدة، ويعرضه للسخونة، وللبرودة على نحو يمكن اعتباره ابتكاراً شديد الخصوصية. وبينما كان أوسكار يحطم الزجاج عن بعد أو قرب، ويذيب أحياناً زهور الثلج أمام الزجاج وضفائر الجليد فيجعلها تصلّ مقرورةً، فإن بائع الخضر كان رجلاً يقتحم الجليد بعدّة سهلة الاستعمال.

فقد دأب غريف على حفر الثقوب في الجليد. وفي ديسمبر/كانون

الأول ويناير/ كانون الثاني وفبراير / شباط كان يحفر بالساطور ثقوباً في الجليد. وكان يخرج دراجته الهوائية من القبو في الفجر، قبل انبلاج الصباح، ويلفّ الساطور بجوال بصل فارغ، ويركب دراجته إلى بروزن عبر سازبه، متجهاً من بروزن إلى غلتكاو على رصيف البحر المغمور بالثلوج، ويترجل من الدراجة بين بروزن وغلتكاو، ليدفعها، بعدما ينبلج الضياء شيئاً فشيئاً، ويدفع معها الساطور الملفوف بجوال البصل فوق الشاطئ الذي تراكمت عليه الثلوج، فيسير مائتين أو ثلاثمائة متر فوق بحر البلطيق المتجمّد، حيث كان ضباب السواحل يطبق على البحر، فلم بإمكان أحد رؤية غريف وهو يضع الدراجة جانباً، منتزعاً الساطور من جوال البصل، ليقف برهةً ساكناً منتبهاً، ينصت إلى نفير أبواق الضباب المنطلق من سفن الشحن المغروزة في المياه المتجمدة، ثم يخلع سترته، ويؤدّي بعض التمارين الرياضية، ويبدأ أخيراً بتوجيه الضربات القوية ليحفر بالساطور نقرةً دائريةً في بحر البلطيق. فكان غريف يحتاج إلى ثلاثة أرباع الساعة لكي ينجز نقرته. وأرجو أن لا تسألونني من أين علمت بذلك. فأوسكار كان يعلم آنذاك كلّ شيء تقريباً، فكنت أعلم أيضاً مقدار الوقت الذي كان غريف يحتاج إليه ليثقب نقرته في سقف الصقيع، حتى يتصبب جسمه عرقاً، فيقفز عرقه المالح من جبينه العالي المقوّس نحو الثلج. وكان يؤدي مهمته بشطارة، مشبعاً آثار الثقب بالضرب، جاعلاً إيّاه مستديراً، فيعثر على بدايته ثانيةً، ثمّ يرفع، بلا قفّاز، كتلة الجليد البالغ سمكها حوالي عشرين سنتمتراً، يرفعها من سطح الجليد الواسع الذي كان يصل حسب الاعتقاد إلى شبه جزيرة هيلا الغدانسكية، بل إلى السويد حتّى. فكانت النقرة تمتلئ بالمياه العتيقة الرمادية المختلطة بالخثارة المتجمدة، وينبعث منها البخار. ومع ذلك، فإنها لم تكن عين ماء ساخنة. كانت النقرة تجذب الأسماك، وبات بإمكان غريف أن يصطاد بالشصّ سمكة ضخمة أو قطّاناً يبلغ حجمه عشرين رطلاً. لكنه لم يلق بشصّه، إنما يبدأ يخلع ثيابه، حتى يصبح عارياً، لأن غريف إذا نزع ثيابه فلا ينزعها إلا ليصبح عارياً تماماً.

وأوسكار لا يريد أن يروي عليكم حكايات شتاء، لكي تعتري رجفة الخوف أوصالكم، إنما لأقول باختصار: كان غريف يأخذ حمّامين في بحر البلطيق كلّ أسبوع أثناء شهور الشتاء. ففي الأربعاء كان يستحم بمفرده في الصباح الباكر، فينطلق في السادسة، ليصل في السادسة والنصف، فيحفر النقرة حتّى السابعة والربع، ثم يتحرر من ثيابه بحركات سريعة مبالغ فيها، ويقفز في النقرة، بعد أن يكون قد فرك جسمه بالثلج قبل النزول إلى الماء، ويظلّ يصرخ في النقرة، وكنت أسمعه يغنّي أحياناً: «البطّ البرّي يحفّ عبر الليل»، أو «إننا... نحبُّ العواصف...»، ثم يواصل استحمامه صارخاً مرتين، لمدة ثلاث دقائق على الأكثر، ثم ينكشف بوضوح مرعب على سطح الجليد بقفزة واحدة: لحماً أحمر حمرة السرطان ويبعثّ بخاراً، ثمّ يعدو لاهثاً حول النقرة، ويواصل الصراخ، متهيجاً، ليعود أخيراً إلى ثيابه ودراجته. وقبل الثامنة بقليل يكون غريف قد عاد إلى لابسفيغ، ليفتح دكّان خضرته في موعده المحدد.

أمّا الحمّام الثاني فكان غريف يأخذه في الأحد بصحبة عدد من الغلمان. فكان أوسكار لا يحبّ أن يرى ذلك، ولم يره أيضاً، إنما أخذت الناس تتحدث عنه فيما بعد. وكان الموسيقي ماين يعرف قصصاً عن غريف، أشاعها في الحيّ برمته، واحدة من هذه الحكايات تقول: إنّ غريف كان قد أخذ حمّاماً في ذلك الأحد بصحبة عدد من الغلمان، خلال شهر من أشد الشهور برداً، لكنّ ماين نفسه لم يدع بأن بائع الخضر أجبر الغلمان على القفز في نقرة الجليد عراةً مثله. بل بدا راضياً إذا ما أصطحب الغلمان نصف عراة، أو عراةً إلى حدّ ما، وبعضلات مفتولة، ومكتنزي اللحم، ويفرك بعضهم بعضاً بالثلج. نعم، كان الغلمان يدخلون الفرح الغامر إلى قلب غريف وهم على الثلج، لدرجة أنه كان يتقلّب معهم أحياناً قبل الحمّام أو بعده، ويعاون هذا أو ذاك على فرك الثلج، سامحاً للزمرة كلّها بأن تفرك جسمه بالثلج، وهذا ما كان الموسيقي ماين يدعي رؤيته من كورنيش البحر في ناحية غلتكاو على الرغم من ضباب السواحل، وادعى أنه رأى غريف العاري حدّ الرعب، والمغنّي، والضاج

بالصراخ وهو يجذب إليه اثنين من ربائبه العراة، ويرفعهما محمولاً بهما عارياً بعاريين، طقماً ثلاثياً صاخباً منفلت العقال يقفز ثائراً على سطح بحر البطليق المتجمد.

وعلى المرء أن يضع في نظر الاعتبار بأن غريف لم يكن ابن صيّاد سمك، على الرغم من أن هناك العديد من صيّادي الأسماك في بروزن ونويفارفاسر الذين يحملون لقب غريف. لقد قدم بائع الخضر غريف من ناحية تيغهوف؛ إلا أن لينا غريف المولودة بلقب «بارتش» قد تعرفت على زوجها في «براوست». كان يقوم آنذاك بمساعد معاون قسيس شاب ذي همّة كبيرة في رعاية جمعية الصبيان الكاثوليك المهنيين، بينما كانت لينا تذهب كلّ يوم أحد إلى الدائرة الكنسية بسبب معاون القسيس نفسه. وحسب إحدى الصور التي لا بد أن يكون آل غريف قد أهدوها لي؛ إذ أنها مازالت إلى يومنا هذا ملصقة في ألبوم صوري؛ فإن لينا ذات العشرين عاماً آنذاك كانت قوّية الجسد، ممتلئة، طريفة، طيبة القلب، طائشة، وغبية. كان أبوها يمتلك مشتلاً كبيراً في سانت آلبرشت. فتزوجت من غريف، بناءً على نصيحة معاون القسيس، وهي في سنّ الثانية والعشرين، مثلما كانت تؤكد على ذلك دائماً، أي أنها كانت عديمة الخبرة تماماً، ثم افتتحت دكان الخضر في لانغفور بمال أبيها. ولأنها كانت تحصل على معظم بضاعتها، أي الفواكه كلّها تقريباً، من مشتل أبيها بسعر زهيد؛ فإن أمور الدكان سارت على نحو جيّد، ومن ذاتها نوعاً ما، بحيث لم يتح لغريف إفساد الكثير.

بلى، لو لم تكن لغريف تلك النزعة التقنية الطفولية، فلما كان صعباً عليه أن يحوّل الدكان الذي كان يقع في مكان مناسب، في ضاحية كثيرة الأطفال، بعيداً عن أي منافسة، إلى منجم ذهب. لكن عندما قدم موظّف مديرة الأوزان للمرّة الثالثة أو الرابعة، وتفحّص قبّان الخضر، وقام بمصادرة الأوزان وحجز القبّان، فارضاً على غريف غرامات نقدية صغيرة وكبيرة، ابتعد عنه جزء من الزبائن الدائمين وصار يشتري بضاعته من السوق الأسبوعي؛ فقيل: إن بضاعة غريف هي دائماً من الدرجة الأوّلى،

كما أنها لم تكن غالية أبداً، لكن الأمور لا تسير عنده بشكل يبعث على الثقة؛ فقد دخل عليه جماعة مديرة الأوزان مرّة ثانية.

وبتّ متأكداً في هذا الصدد بأن غريف لم يكن ينوي ممارسة الغشّ، إنما حدث الأمر بالشكل التالي: كان قبّان البطاطس الكبير يوزن البضاعة ليس لصالح غريف بعد أن أجرى بائع الخضر بعض التعديلات عليه. فركّب على القبّان عشية اندلاع الحرب لعبة أجراس تصدر لحناً حسب حجم البطاطس الموزونة. فكان الزبون يستطيع في العشرين رطلاً من البطاطس الإصغاء إلى: «على شاطئ (زاله) المشرق» كزيادة كما يقال، وكانت الخمسين رطلاً البطاطس تطلق لحن: «مرّن نفسك على الإخلاص دائماً والنزاهة»، وكان قنطار البطاطس الشتوية يستدرج من لعبة الأجراس ألحان أغنية «أنشن فون تاراو» الساذجة والمضللة.

وحتى لو كنت أتفهم امتعاض مديرة الأوزان من تلك الدعابات الموسيقية، فإن أوسكار كان يتذوّق نزوات بائع الخضر، وبدت لينا غريف تتساهل أيضاً مع تصرفات بعلها الغريبة الأطوار. لأن، نعم، لأن الزواج «الغريفيّ» كان قائماً على أن يظهر كلّ من الزوجين تساهلاً مع تصرفات الآخر. وبهذا المعنى يمكن القول إنّ الزيجة الغريفية كانت زيجة جيّدة. فبائع الخضر لم يكن يعتدي بالضرب على زوجه، ولم يخنها مطلقاً مع النساء الأخريات، وكذلك لم يكن سكيّراً أو مبذّراً، بل كان شخصاً مرحاً، حسن الهندام، ومحبوباً ليس من قبل الغلمان وحدهم، بل من قبل ذلك القطاع من الزبائن الذي كان يتقبل موسيقى البقّال مع البطاطس، بسبب طبيعته الأنيسة المستعدة لتقديم المساعدة. وهكذا كان غريف يراقب زوجته لينا بهدوء وتسامح وهي تتحول من عام إلى آخر إلى امرأة مهملة نتنة الرائحة. فكنت أراه يبتسم عندما يسمي الناس، وبنيّة حسنة، تلك المرأة المهملة بالاسم، وأسمعه أحياناً يخاطب ماتسرات الذي كان يعلن عن استيائه، بقوله وهو ينفخ في يديه الناعمتين ويفركهما: «بالطبع إنك محقّ تماماً يا ألفريد. إنها مهملة بعض الشيء، لينا الطيبة. لكن هل أنت وأنا بلا عيوب؟»

وإذا ما تمسك ماتسرات برأيه؛ فإن غريف ينهي الجدال بحزم وبلطف معاً: «يمكن أن يكون معك حقّ في هذه النقطة أو تلك، لكن لينا تتمتع بقلب طيّب. فأنا أدرى منك بليناي!»

ولعلّه كان يعرفها جيّداً، لكنها لم تكن تعرفه إلا قليلاً، فربما رأت، شأنها شأن الجيران والزبائن، في علاقات غريف بالغلمان والشبّان الذين كانوا يزورون البقّال بما فيه الكفاية، مجرد إعجاب فتيان صغار برجل هاو في الواقع، لكنه مربّ وصديق للشباب وشغوف بهم.

غير أن غريف لم ينل إعجابي ولم يستطع تربيتي، كذلك لم يكن أوسكار على هواه، ولو أنني عقدت العزم على النمو، فربما أصبحت نموذجه المفضّل؛ إذ أنّ ولدي كورت البالغ من العمر ثلاثة عشر عاماً كان يجسّد بقامته الطويلة وحركته المتراخية وعظامه القويّة النموذج المثالي لغريف تجسيداً حيّاً، حتى لو كان شديد الشبه بماريا، ولم يأخذ منّي إلا القليل، فضلاً عن أنه لم يأخذ شيئاً من ماتسرات قط.

وحضر غريف وفرتس تروجنسكي الذي كان في إجازة من الجبهة عقد الزواج بين ماريا تروجنسكي وألفريد ماتسرات. ولأن ماريا كانت بروتستانتية المذهب مثل زوجها، فتمّ الاكتفاء بالذهاب إلى مكتب الأحوال الشخصيّة. وحدث ذلك في منتصف ديسمبر/ كانون الأوّل، فنطق ماتسرات بنعمه، وهو في بذلة الحزب الرسمية، في حين كانت ماريا حاملاً في شهرها الثالث. وكلّما أزدادت ماريا بدانةً، ازداد كره أوسكار لها، مع أنّه لم يكن لديه اعتراض على الحمل. بيد أن الثمرة التي أنبتها بنفسي، والتي ستحمل ذات يوم لقب ماتسرات، قد صادرت فرحتي كلّها بالولد المنتظر الذي سيحفظ اسم الأسرة من الضياع. ولذلك قمت بأوّل محاولة لإسقاط الجنين من ماريا عندما كانت في شهرها الخامس، بحيث أن الوقت بات متأخراً بلا شك. وقع ذلك إبان فترة الكرنفال. لقد أرادت ماريا أن تثبّت في قضيب من النحاس فوق طاولة البيع، علّق عليه السجق وشحم الخنزير، بضعة ثعابين ورقية وقناعين من أقنعة المهرجين ذات الأنوف الكرويّة الشكل. فبدا السلّم المستقر عادةً بثبات على الرفوف

مختلاً في متكئه على الطاولة، فوقفت ماريا أعلاه واضعة يديها بين ثعابين الورق، بينما وقف أوسكار عند قدمي السلّم. فدفعت السلّم إلى الأعلى مستخدماً مضربي بمثابة رافعتين، ومستعيناً بكتفي وبإصرار ثابت، ثم حرفته إلى الجانب: فصرخت ماريا برعب وصوت خفيض وسط أفاعي الورق وأقنعة المهرجين، فأخذ السلّم يترنح، فقفز أوسكار إلى الجانب، وسقطت ماريا بمحاذاته تماماً، منتزعة معها الورق الملوّن والسجق والأقنعة.

وتراءى ذلك أكثر سوءاً مما كان في حقيقة الحال، فلم يحدث لها سوى أن قدمها التوت، فتوجب عليها الاستلقاء لتتعافى. وما عدا الالتواء؛ فإنها لم تصب بضرر، وباتت تزداد ترهلاً على الدوام، لكنها لم تقل شيئاً حتى لماتسرات عن الشخص الذي أعانها على فسخ قدمها. لكنني بعدما أقدمت على محاولة الإسقاط الثانية في مايو / آيار من العام اللاحق، وقبل حوالي ثلاثة أسابيع من موعد الوضع، عرفت بأنها تحدثت لزوجها ماتسرات عن الأمر دون أن تبلغه بالحقيقة كاملة. قالت له أثناء الطعام وفي حضوري: «أوسكار صار في الفترة الأخيرة عنيفاً جدّاً أثناء اللعب، وصار يضربني بعض المرّات على بطني. يمكن نضعه عند أمّي إلى ما بعد الولادة، فهناك يوجد مكان.»

فكان هذا ما أصغى له ماتسرات وأقتنع به أيضاً، فثمة نزعة قتل جامحة أعانتني على الاجتماع بماريا اجتماعاً من نوع مختلف تماماً. وكانت قد تمددت على المصطبة أثناء استراحة الظهيرة، وكان ماتسرات في الدكان، يرتّب البضائع في واجهات العرض، بعدما غسل أطباق طعام الغداء، فساد الهدوء في غرفة الجلوس. ربما كان هناك طنين ذبابة أو صوت الساعة كالمعتاد وفي المذياع ثمة تقرير بصوت خفيض عن انتصارات المظليين في كريت. إلا أنني لم أصغ للمذياع إلا بعد أن فُسح المجال للملاكم العظيم «ماكس شمينلغ» في التكلّم. وحسبما فهمت فإن قدمه العالمية البطولة قد التوت أثناء قفزه وهبوطه بالمظلة على أرض كريت الصخرية، فتوجب عليه أن يخلد إلى الراحة ويتعافى، مثل ماريا

التي لزمت الفراش بعد سقوطها من السلّم. كان شميلنغ يتحدث بهدوء وتواضع، ثم بدأ مظليون قليلو الشهرة يتحدثون من بعده، فتوقف أوسكار عن الإصغاء: ثمة سكون، ربما طنين بعوضة والساعة كالعادة والمذياع الخفيض الصوت.

كنت أجلس على مقعدي الصغيرة أمام النافذة أراقب جسد ماريا على المصطبة. فرأيتها تتنفس بصعوبة وقد أغمضت عينيها، فأخذت أقرع بتبرّم على طبلي بين الحين والآخر، لكنها لم تتحرك وأجبرتني على التنفس مع بطنها في غرفة واحدة. وبالطبع كانت هناك الساعة والذبابة بين زجاجة النافذة والستارة والمذياع المنشغل بجزيرة كريت الحجرية في الخلفية. غير أن ذلك كلّه غاب عنّي بعد فترة قصيرة، ولم أعد أرى سوى البطن، ولم أعلم بأي غرفة أصبح هذا البطن مستديراً، ولا لمن يعود، ولم أعد أعرف من ذا الذي نفخ البطن بهذا الشكل، بل أحسست برغبة واحدة: وهي أن لابد من إزالته، فهو غلطة حجبت عنك الرؤية، وما عليك إلا أن تنهض وتفعل شيئاً ما، فنهضت. عليك أن ترى ما الذي يمكن عمله. فمضيت إلى البطن والتقطت شيئاً ما في طريقي. يجب أن تقوم بقليل من التنفيس، فهذا انتفاخ خبيث. فرفعت ما التقطته، باحثاً على موضع بين يديّ ماريا الطفوليتين المتنفستين مع البطن. وعليك أن تتخذ قرارك الآن قبل أن تفتح ماريا عينيها. وحينئذ شعرت بنفسي مراقباً، إلا أنني بقيت أتطلع إلى يد ماريا اليسرى التي ارتجفت على نحو خفيف، ولاحظت في الواقع بأنها سحبت يدها اليمنى التي عزمت على القيام بشيء ما، لكنني لم أصب بالدهشة بشكل خاص عندما لوت ماريا بيمينها المقصّ من قبضة أوسكار. ربما مكثت لحظات مشرعاً قبضتي الفارغة، منصتاً للساعة والذبابة ولصوت المذيع الذي أعلن نهاية تقرير كريت، ثم رجعت أدراجي وغادرت غرفة الجلوس التي باتت ضيقة بالنسبة لي بفعل الجسد الذي ملأ المكان، قبل أن يبدأ البثّ من جديد بالطرب من الساعة الثانية إلى الثالثة.

وبعد ذلك بيومين زودتني ماريا بطبل جديد وأخذتني إلى بيت الأمّ تروجنسكي في الطابق الثاني الذي كان يعبق برائحة القهوة البديلة

والبطاطس المقلية. وفي البدء كنت أنام على الأريكة، بسبب أنّ أوسكار رفض النوم في سرير هربرت السابق، إذ من الممكن أنه مازال مشبعاً بعطر الفانيلا الذي تضمّخ به جسد ماريا. وبعد أسبوع جرجرت عجوز الإنقاذ سرير الأطفال الخشبي عبر السلّم. فسمحت لها بأن تنصبه إلى جانب المضجع الذي لم يحرّك ساكناً تحتي وتحت ماريا والمسحوق الفوّار. وأصبح أوسكار هادئاً، أو لا مبالياً في عهدة الأمّ تروجنسكي، إذ أنني لم أعد أرى البطن، لأنّ ماريا كانت تخشى صعود السلّم، مفضلاً تجنّب مسكن الطابق الأرضي والمحل والشارع وحتى الباحة الخارجية للبناية المؤجرة التي باتت تستخدم لتربية الأرانب من جديد، لأنّ الوضع الغذائي بدأ يزداد صعوبة يوماً بعد يوم.

كان أوسكار غالباً ما يجلس أمام البطاقات البريدية التي بعث بها نائب الضابط فرتس تروجنسكي أو التي جلبها معه من هناك. كنت قد تخيلت هذا المشهد أو ذاك تحت اسم باريس، وبدأت أطبل على باريس بعدما أعطتني الأمّ تروجنسكي بطاقة بريدية فيها صورة برج أيفل، عازفاً موسيقى القربة الفرنسية، متجاوباً مع التركيب الحديدي الجريء للأثر المعماري، دون أن أكون قد سمعت موسيقى القربة قبل ذلك أبداً. وفي الثاني عشر من يونيو / حزيران ولد ابني كورت في برج الجوزاء، وليس في برج السرطان كما توقعت، قبل أربعة عشر يوماً من تقديراتي الحسابية. لقد ولد الأب في عام المشتري والابن في عام الزُّهرة. فكان الأب محكوماً بعطارد في برج العذراء الذي يجعل المرء متشككاً، ثريّ الخواطر، وكذلك حظي الابن بالخواص ذاتها من عطارد، إلا أن برج الجوزاء زوّده بذهن بارد طموح. وإذا ما كان من شأن زهرة برج الميزان في بيت الطالع أن يخفف عنّي بعض الشيء فقد كان من شأن برج الحَمَل في الطالع نفسه العائد لابني أن يجعل الأحوال سيئة؛ فتوجب عليّ أن أشعر بتأثير مريّخه فيما بعد.

لقد أبلغتني الأمّ تروجنسكي بالمستجدات بانفعال ومثلما تفعل الفأرة: «نه يا أوسكاري، إنّ اللقلق جلب لك أخاً. أنا كنت أفكر، نه، يا

ليت ما يكون بنية، تخلق مشاكل من بعد!»وبالكاد كنت توقفت عن التطبيل أمام نموذج برج أيفل وأمام مشهد قوس النصر الذي وصل توّاً، فبدا كأن الأمّ تروجنسكي، بصفتها الجدّة تروجنسكي، لم تنتظر مني أي تهنئة. وعلى الرغم من أن اليوم لم يكن يوم أحد، إلا أنها قررت أن تخضّب وجهها بالحمرة، فهرعت إلى ورق الهندباء المحفوظ لديها دائماً وفركت به وجنتيها لتخضبهما، ثم غادرت الدار بلونها الطازج، لكي تقف إلى جانب الأب المفترض ماتسرات في مسكن الطابق الأرضي.

وحدث ذلك كما قلت خلال شهر يونيو / حزيران المخاتل. فثمة انتصارات على جميع الجبهات - إذا صحّ تسمية انتصارات البلقان انتصارات حقّاً - ونظير ذلك أصبح المرء يقف على أعتاب انتصارات كبرى في الشرق. كان هناك جيش جرار يزحف، وكانت سكك الحديد مشغولة، وحتى فرتس تروجنسكي الذي كان يمضي وقتاً ممتعاً في باريس توجب عليه أن يذهب في مأمورية نحو الشرق، عنّ لها أن لا تتوقف عند حدّ، ولم تُستبدل بإجازة من الجبهة إلى الأهل. وقبع أوسكار أمام البطاقات البريدية اللامعة، مقيماً في باريس المبكرة الصيف المعتدلة المناخ، مطبّلاً ببساطة لحن "Trois jeunes tambours"، دون أن يكون له ارتباط بجيش الاحتلال الألماني، كذلك لم يكن يخشى الأنصار الذين يمكن أن يلقوا به من فوق جسر السين. كلا؛ إنما تسلقت برج أيفل بثيابي المدنية، بصحبة طبلي، واستمعت بالمشهد البعيد من القمّة كما ينبغي، شاعراً بارتياح عميق، خالياً من التفكير الحلو أو المرّ في الانتحار على الرغم من إغراء العلو الشاهق، فلم أعي ميلاد ابني ألا بعد أن ترجلت لأقف عند قدم البرج بقامتي البالغة أربعة وتسعين سنتمتراً. ففكّرت قائلاً: ‘Voila إنه ولد! وسيحصل على طبل من صفيح بعدما يبلغ الثالثة. ثم أننا نريد أن نرى من هو الأب، أهو السيّد ماتسرات أم أنا، أوسكار برونسكي!

لقد عُمد ولدي في أغسطس القائظ - أظن أنهم أعلنوا للتو نبأً عن النهاية المظفرة لموقعة حصار في سمولنسك. لكن كيف دُعيت جدّتي آنا

كولياجك وشقيقها فنسنت برونسكي لحضور التعميد؟ إنني إذا ما عزمت على التفكير في الرواية التي جعلت من يان برونسكي أباً لي ومن فنسنت الهادئ، المستغرب دائماً، جَدّاً لي من ناحية الأب؛ فإن أسباباً كافية للدعوة ستنشأ حينئذ. ثم إنّ الجدّين هما في نهاية المطاف والدا جدّيّ ابني كورت. بالطبع أن هذا البرهان لم يخطر أبداً في ذهن ماتسرات الذي وجّه الدعوة. فقد كان ينظر إلى نفسه، حتى في لحظات الشكّ العميق، بعد أن يخسر لعبة ورق خسارة ماحقة على سبيل المثال، بأنه هو المنجب بالمعنى الثنائي: باعتباره أباً ومعيلاً. لكن أوسكار رأى جدّيه ثانية لأسباب أخرى مختلفة. فقد تم إدخال العجوزين في التبعية الألمانية، فلم يعدا بولنديين وصارا لا يحلمان إلا باللغة الكاشوبية. فكان يطلق على هؤلاء لقب التابعين الألمان، أي الأقلية القومية رقم ثلاثة. إضافة إلى أن هدفغ برونسكي، أرملة يان، قد تزوجت من أحد الألمان البلطيقيين، وكان قائداً للتنظيم الفلاّحي في رامكاو. وثمة طلبات رسمية جارية آنذاك، تقضي بأنّ يحمل شتيفان ومارغا برونسكي اسم إهلرز، زوج أمّهما، في حالة الموافقة على العرائض الرسمية. وكان شتيفان ذو السبعة عشر عاماً قد تطوّع فالتحق بمعسكر تدريب «غروس-بوشبول» كمتدرب في سلاح المشاة، فأصبح أمله كبيراً بزيارة ميادين القتال في أوربا كلّها، بينما كان على أوسكار الذي سيبلغ قريباً سنّ التجنيد الانتظار وراء طبله إلى أن تتاح فرصة لاستخدام طبّال الصفيح ذي الأعوام الثلاثة في الجيش، أو في سلاح البحرية، أو ربما في القوّة الجوية.

لقد قطع مسؤول التنظيم الفلاّحي الخطوة الأولى، فاخترق شارع لابسفيغ بعربة يجرها حصانان قبل أربعة عشر يوماً من التعميد مصطحباً معه هدفغ على مقعد الحوذي. كانت ساقاه مقوستين، كما أنه كان يعاني من مرض في المعدة، بحيث لا يمكن في كلّ الأحوال مقارنته بيان. فأخذ مكانه في غرفة الجلوس إلى جانب هدفغ البقرية العينين فبدا أقصر منها بمقدار رأس، وقد فاجأ مظهره حتى ماتسرات نفسه. لم ينشأ وقتها أي حديث مهم، إنما تحدثوا عن الطقس، مؤكدين على أن الدنيا في الشرق

مقلوبة، وأن هناك تقدماً فعّالاً أسرع بكثير من العام الخامس عشر، حسبما تذكّر ماتسرات الذي اشترك بأحداث العام الخامس عشر. وبذل الجميع جهداً فائقاً لتجنب ذكر يان برونسكي، إلى أن أحبطتُ خطتهم الصامتة، فناديت باسم عمّ أوسكار مرّات عديدة وبصوت عال، مدوّراً فمي على نحو طفولي مضحك. فارتعد ماتسرات، وأطرى ذكر صاحبه السابق وغريمه بلطف وبشيء من التأمل. فأيدّ إهلرز قوله على الفور، وبثراء لغوي، على الرغم من أنه لم ير سلفه. بل أن هدفغ ذرفت دموعاً سخية صادقة، عاثرة على كلمة الختام لموضوع يان: «كان إنساناً طيّباً، لا يؤذي حتى شعرة من شعر الذبابة. من كان يتصور أنه سينتهي هذه النهاية، كان يخاف من خياله، وضحّى بنفسه من أجل لا شيء.»

وبعد تلك العبارات طلب ماتسرات من ماريا التي وقفت ورائه أن تجلب بضع زجاجات من البيرة، ثم سأل إهلرز فيما إذا كان يجيد لعب السكات. لكن إهلرز لم يكن يعرف لعبة ورق السكات. ومع ذلك بدا ماتسرات كريماً بما يكفي ليغفر لقائد التنظيم الفلاّحي ذلك العيب البسيط. وربت على كتفه مشدداً، بعدما سكبت البيرة في الكؤوس، على أن ليس من المهم أن يجيد لعب السكات، و يمكن للمرء أن يبقى صديقاً جيداً على الرغم من ذلك كلّه.

وهكذا وجدت هدفغ إهلرز طريقها إلى بيتنا، مصطحبةً معها، إضافة إلى مسؤول التنظيم الفلاّحي، حماها السابق فنسنت برونسكي وشقيقته آنا، لحضور تعميد ولدي كورت. بدا ماتسرات عارفاً بالأمر، فحيّا العجوزين بصوت مدوّ وبحرارة أسفل نوافذ الجيران، ليقول بعد أن انتشلت جدّتي من تحت ثيابها الأربعة هدية التعميد التي كانت عبارة عن بطّة ضخمة: «هذا شيء غير ضروري يا والدتي. وسأكون سعيداً بك حتى لو لم تجلبي معك شيئاً.» فلم يكن هذا الكلام يناسب جدّتي التي أرادت أن تعرف قيمة بطّتها، فصفعت الطير السمين براحة يدها وقالت محتجةً: «نه، نه، لا داعي لهذا الكلام يا ألفريدي. هذه البطّة ليست كاشوبية، هذه بطّة من التبعية الألمانية وطعمها مثل ما كان قبل الحرب!» فوضع بذلك

حلّ للمشاكل الشعبية برمتها، ولم تبق سوى بعض الصعوبات قبل البدء بالتعميد؛ إذ أن أوسكار امتنع عن الانضمام إلى الكنيسة البروتستانتية. حتى بعد أن جلبوا الطبل من سيارة الأجرة وحاولوا استمالتي بالصفيح، ألا أنني بقيت مصراً على كاثوليكيتي الحالكة السواد، مع أنهم أكدوا لي كلّ مرة من جديد بأن المرء يستطيع أن يحمل طبله علانية في الكنائس البروتستانتية، مؤثراً الاعتراف بالذنوب؛ ذلك الاعتراف المختزل والقصير في أذن حضرة القسيس فيهنكه، على سماع موعظة تعميد بروتستانتية. فرضخ ماتسرات لما أردت. لعلّه خشي من صوتي وما يرتبط به من طلبات لتعويض الأضرار. فبقيت في سيارة الأجرة، بينما جرى التعميد في الكنيسة، أتأمل رأس السائق من الخلف، متفحصاً وجه أوسكار في المرآة، متذكراً تعميدي منذ سنوات بعيدة ومحاولات حضرة القسيس فيهنكه كلّها في طرد الشيطان من شخصيّ المعمّد.

وتمّ تناول الطعام بعد التعميد، فوضعت طاولتان لصق بعضهما وأخذوا يرتشفون حساء رأس العجل. مغرفة واحدة ثم يمتلأ الطبق حتى الحافة. فبدأ القرويون يرتشفون، وأفرد غريف إصبعه الصغيرة، وأخذت غريتشن شفلر تعض الحساء عضّاً، وابتسمت غوسته ابتسامة عريضة من وراء الملعقة، وتحدث إهلرز عبر الملعقة، وصار فنسنت يبحث بيد مرتجفة عن شيء ما إلى جانب الملعقة، باستثناء العجوزين، الجدّة آنا والأمّ تروجنسكي، اللتين انهمكتا تماماً مستسلمتين للملعقة، في حين سقط أوسكار من الملعقة كما يقول في المثل، فانسل بينما كان الآخرون يغرفون بالملاعق، ليبحث في غرفة النوم عن مهد ولده؛ لأنه أراد أن ينعم الفكر في ابنه، في حين بدا الآخرون ينكمشون خلف ملاعقهم شاردين الذهن خالين الوفاض، مكنوسين كنساً بالملاعق، حتى لو أنهم كانوا يعبون الحساء عبّا. ثمّة وشاح من الحرير الناعم الفاتح الزرقة فوق السلّة ذات العجلات. ولأن حافة السلّة كانت مرتفعة، فقد تبينت أوّل الأمر شيئاً أحمر-أزرق متقلصا. فوضعت طبلي تحتي وتأملت ولدي الغافي الذي ارتعد بعصبية في نومه. آه، يا مفخرة الأب التي تفتش دائماً عن كلمات

بليغة! وبما أنّه لم تحضرني كلمات تتعلق بالرضيع سوى الجملة القصيرة: إذا بلغ الثالثة فإنه سيستلم طبلاً - وبما أن ابني لم يطلعني على عالمه الفكري، إضافة إلى أنه لم يعد بوسعي أكثر من التمني بأن يكون من الأطفال الرضع المرهفين السمع مثلي؛ فإنني وعدته من جديد بطبل صفيح في عيد ميلاده الثالث، ثم ترجلت من طبلي وحاولت مرّة أخرى أن أكون مع البالغين في غرفة الجلوس، حيث وضعوا حدّاً لشوربة رأس العجل. وجلبت ماريا علب البازلاّء الخضراء الحلوة المخلوطة بالزبد. فجهّز ماتسرات الذي كان مسؤولاً عن شواء لحم الخنزير صينية الطعام بيده، مزيحاً السترة عن كتفيه، فصار يقصّ اللحم بقميصه الطويل الردنين شريحة بعد أخرى، مظهراً وجهاً رقيقاً خالياً من الحرج فوق اللحم الطري اللين، لدرجة أنني تفاديت النظر إليه.

وأحضر طعام خاص لبائع الخضر غريف، فقدمت له أصابع الهليون المعلبة، والبيض المسلوق جيّداً والقشدة مع الفُجل؛ لأن النباتيين لا يأكلون اللحم. إلا أنه تناول كالآخرين حفنة من البطاطس المهروسة، وغمسها ليس بمرق الخنزير، إنما بالزبد البنّي اللون الذي جلبته له ماريا المنتبهة من المطبخ مفرقعاً بمقلاة صغيرة. وبينما أخذ الآخرون يشربون البيرة؛ فإن كأس غريف كان ممتلئاً بنبيذ الفاكهة الحلو المذاق، ثم تحدثوا عن موقعة الحصار في كييف، وصاروا يحصون الأسرى بأصابعهم. وبدا إهلرز البلطيقي أكثرهم مهارة في الحساب، فكان يرفع إصبعاً من أصابعه إلى الأعلى عند كلّ مائة ألف، وبعدما شملت أصابع يديه المنفرجة مليون أسير، صار يثني أعناق أصابعه واحداً تلو الآخر متابعاً الإحصاء. وبعدما استنفدوا موضوع الأسرى الروس الذي بات مملاً وبلا قيمة نتيجة الأعداد المتزايدة على الدوام، بدأ شفلر يتحدث عن الغواصات في غوتنهافن، ثم همس ماتسرات في أذن جدّتي آنا بأن ثمة غواصتين تُدشن كلّ أسبوع في شيشاو. هنا شرح بائع الخضر غريف لضيوف التعميد لماذا تمّ إنزال الغواصات في البحر من الجانب أوّل الأمر، وليس من المؤخرة. لقد أراد أن يصور تصويراً مجسداً، فكان يجد لكلّ شيء حركة يد مناسبة، وصار

بعض الضيوف المسحورين ببناء الغواصات يقلّد حركاته بانتباه وعدم مهارة. فقلب فنسنت برونسكي كأس البيرة عندما حاول أن يقلد بيده اليسرى غواصة نازلة إلى قاع البحر. فأرادت جدّتي أن تقرّعه بسبب هذا التصرف، إلا أن ماريا هدأتها بقولها إن ذلك لا يهم قط؛ لأن شرشف الطاولة سيذهب إلى الغسيل غداً في كلّ الأحوال، وإنه من الطبيعي أن تكون هناك بقع من الوسخ أثناء تناول طعام التعميد. حينئذ جاءت الأمّ تروجنسكي حاملة خرقة، فمسحت البيرة، وفي يدها اليسرى إناء من البلّور مليء بمحلبية الشيكولاتة المطعمة بكسر اللوز.

آه، يا ليت لو كانت هناك صلصة أخرى، أو لم تكن هناك أي صلصة تضاف إلى محلبية الشيكولاتة! لكن كانت هناك صلصة فانيلا، بل صلصة فانيلا كثيفة وصفراء. وبدت صلصة عادية مبتذلة، ومع ذلك كانت فريدة في نوعها. فلا يوجد في هذا العالم شيء مفرح أو محزن أكثر من صلصة الفانيلا. فكانت الفانيلا تبعث رائحة طيّبة، أحاطتني بماريا شيئاً فشيئاً، لدرجة أنني لم أعد أطيق رؤيتها وتحملها حين جلست إلى جانب ماتسرات، ممسكة بيده، ماريا، خالقة الفانيلا كلّها. فانزلق أوسكار من كرسيه المخصص للأطفال، وأمسك بسترة السيّدة غريف التي كانت تغرف بملعقتها من فوق، وبقي ملقى عند قدميها، مستمتعاً للمرة الأولى برائحة لينا غريف الخاصة التي كانت تشوش على أي فانيلا فتبتلعها وتقتلها.

وبقدر ما تشبعت بالحموضة بقيت متمسكاً باتجاه الرائحة الجديدة إلى أن بدا لي وكأن جميع الذكريات المرتبطة بالفانيلا قد أصابها الخدر. وببطء وصمت وبدون تشنّج اجتاحتني نوبة غثيان منقذة. حينما انفلتت مني حساء رأس العجل ولحم الخنزير المشوي قطعةً إثر أخرى، والبازلاء الخضراء التي كانت سليمة إلى حدّ ما وبضع ملاعق من محلبية الشيكولاتة المخلوطة بصلصة الفانيلا، أدركت غيبوبتي، وأصبحت أعوم فيها، فانتشرت غيبوبة أوسكار حتى وصلت إلى قدمي لينا غريف - فقررت منذ ذلك الوقت أن أحمل غيبوبتي كلّ يوم إلى السيّدة غريف.

خمسة وسبعون كيلوغراماً

أولاً مدينتا «فياتسما» و«بريانسك» ثمّ بعدهما بدأت مرحلة الوحل. وبدأ أوسكار أيضاً يخوض بكلّ قوته في الوحل منتصف أكتوبر من العام الواحد والأربعين. ولعلّ المرء سيسامحني إذا ما وضعت انتصاراتي على أراضي السيّدة غريف الوعرة المسالك، الموحلة على السواء، مقابل الانتصارات الموحلة لفيلق الجبهة الوسطى. ومثلما غرزت المدرعات وعربات النقل على أعتاب موسكو؛ فإنني غرزت كذلك، وعلى الرغم من أن العجلات هناك كانت تدور وتقلب الطين؛ فإنني لم أستسلم - بل أنني استطعت أن أخرج الرغوة من وحل السيّدة غريف بالمعنى الحرفي للعبارة(*)-، إلا أنه لا يمكن الحديث عن إحراز تقدم على أعتاب موسكو أو في غرفة نوم الزوجين غريف.

لكنني مازلت متمسكاً بتلك المقارنة: مثلما تلقّن إستراتيجيو المستقبل في ذلك الزمن دروساً من العمليات المطموسة بالوحل؛ فإنني تعلمت دروسي من خلال صراعي ضد الظاهرة الطبيعية لآل غريف. فعلى المرء أن لا يقلل من أهمية الحملات الجارية على الجبهة الداخلية خلال الحرب العالمية الأخيرة. كان أوسكار آنذاك في السابعة عشرة من عمره؛ لكنه وعلى الرغم من صغر سنّه تحول إلى رجل في ساحة تدريب لينا غريف ذات المزالق الخطيرة. الآن أصبحت أقيس تقدم أوسكار بمصطلحات فنيّة، متخلياً عن المقارنات العسكرية، فأقول: إذا ما كانت ماريا قد نبهتني

(*) أخرج زبداً، أو صار يقذف الزبد؛ مثل ألماني يعني: ألقى خطبة عظيمة.

من خلال ضباب الفانيلا الساذج الفتنة إلى الشكل الصغير، وأحاطتني علماً بالغنائيات مثل المسحوق الفوّار والبحث عن الفطر؛ فإنني توصلت إلى النفس الملحمي عبر دائرة البخار الشديدة التخمّر المفتولة عدّة مرّات التابعة لآل غريف، النفس الذي أتاح لي اليوم أن أذكر انتصارات الجبهة وانتصارات الفراش بجملة واحدة. إنها الموسيقى! فمن هرمونيكا ماريا العذبة الصبيانية المغرقة في العاطفة إلى منصة قيادة الفرقة الموسيقية، إذ أن لينا غريف قدمت لي جوقة موسيقية واسعة، دقيقة الترتيب، مثل تلك التي يجدها المرء على أية حال في «بايرويت» أو «سالسبورغ». فتعلمت التزمير والضرب على البيانو والنفخ والنقر والعزف على الكمان، وفيما إذا كان الأمر يتعلق بنغمة أصيلة تامة أو مفتتح مقطوعة خفيفة مرحة أو إيقاع الجملة الموسيقية الهادئة الحركة، فإن عاطفتي بدت جافة صارمة وفياضة متدفقة في الوقت ذاته؛ لقد أتى أوسكار بآخر الأشياء من آل غريف ومع ذلك بقي غير مرتاح، إن لم يكن غير راض، كما هو الأمر بالنسبة لفنّان حقيقي.

وكنت أحتاج إلى عشرين خطوة قصيرة من محل بضائع المستعمرات العائد لنا إلى بقالية غريف. كان الدكان يقع قبالتها على نحو مائل، في موقع قريب جدّاً، أقرب من بيت الخبّاز ألكسندر شفلر في كلاينهامرفيغ. ولعلّ الموقع المناسب كان سبباً في أنني ارتقيت في دراستي للتشريح الأنثوي أكثر بكثير من دراستي للأستاذين غوته وراسبوتين. ربما يمكن تفسير الفارق التعليمي العميق القائم إلى اليوم من خلال الفرق بين معلمتيّ، بل ربما يمكن تبريره. فبينما كانت لينا غريف غير راغبة في تعليمي، مهتمةً فقط في أن تضع أمثلتها وتجاربها المادية تحت تصرفي؛ فإن غريتشن شفلر التزمت بوظيفة التعليم بكلّ جديّة. كانت تريد أن ترى النجاح والتقدم، وأن تسمعني أقرأ بصوت عال، وتتطلع إلى فنّ الخط الذي يخرج من بين أصابعي القارعة الطبل وتجعلني أتآلف مع قواعد اللغة الجميلة لتستفيد هي نفسها من هذه الصداقة. لكن عندما امتنع أوسكار عن تقديم أي علامة مرئية للنجاح، فقدت غريتشن شفلر صبرها، وعادت من

جديد إلى حياكتها عقب فترة قصيرة على وفاة أمّي المسكينة، وبعد سبع سنوات من التعليم، صارت تبهجني بين الحين والآخر، لاسيما في أيّام الأعياد الكبرى، بالبلوزات والجوارب والقفّازات التي كانت تحيكها بنفسها، إذ أن زاوج الخبّازين بقي بلا ذُرّيّة. ولم نعد نتحدث فيما بيننا عن غوته وراسبوتين؛ فبات أوسكار يدين فقط إلى تلك الملخّصات المأخوذة من أعمال الأستاذين التي مازلت أحتفظ بها مرّة هنا ومرّة هناك، وفوق أرضية سقف البناية في أغلب الأحيان، والتي بدونها كان سيمحى جزء من تلك الدروس بالتمام والكمال؛ فأخذت أعلم نفسي بنفسي، متوصلاً إلى الحكم على الأشياء ذاتياً.

كانت لينا غريف المعتلة الصحّة تلازم الفراش؛ فلذلك لم تستطع أن تتجنبي أو تغادرني، إذ أن مرضها كان في الواقع مزمناً، لكنه لم يكن جدياً على نحو كاف بحيث أن الموت يمكن أن ينتشل مني معلمتي لينا بشكل مبكّر. وبما أن ليس هناك ما هو دائم على هذا الكوكب، فإن أوسكار غادر تلك المرأة الطريحة الفراش؛ لأنه كان يمكن أن ينظر إلى دروسه باعتبارها قد خُتمت. وربما ستقولون: في عالم محدود اضطر هذا الإنسان الشاب إلى التعلّم، فتوجب عليه أن يعد عدته للحياة المقبلة الحقّة بين محلّ بضائع مستعمرات وفرن خبز وبقالية. وإذا ما تأتى لي الاعتراف بأن أوسكار كان قد جمّع انطباعاته الضرورية الأولى في بيئة برجوازية صغيرة متعفنّة حقّاً؛ كان هناك معلم ثالث أيضاً في آخر المطاف؛ معلم تُركت له مهمة فتح العالم أمام أوسكار، ليجعل منه شخصاً، مثلما هو اليوم، شخصاً سأطلق عليه، نظراً لانعدام مصطلح أفضل، لقب الكوزموبوليتي.

إنني أتحدث هنا، كما لاحظ المنتبهون منكم، عن معلمي وأستاذي بيبرا، المنحدر مباشرة من صلب الأمير أويغن، نعم، أتحدث عن سليل قبيلة لودفيغ الرابع عشر، عن «الليليبوتاني» والمهرّج الموسيقي بيبرا. وعندما أقول بيبرا فأنني أعني أيضاً بطبيعة الحال السيّدة التي إلى جانبه، السرنمية العظيمة «روزفيتا راغونا،» الفاتنة السرمدية التي كنت أفكّر فيها أثناء تلك الأعوام المكفهرة بعدما سلب مني ماتسرات صاحبتي ماريا. كم

سيكون عمرها هذه السنيورة؟ هكذا كنت أسأل نفسي. فهل هي فتاة ذات عشرين عاماً تنبض بالحيوية إن لم تكن في التاسعة عشرة؟ أم أنها عجوز نحيفة البنية في التاسعة والتسعين، تجسّد، وهي في المائة من سنّها، القطعَ الصغير من الشباب الخالد الذي لا يبلى؟

وإذا ما استطعت التذكّر جيّداً، فأقول إنّني قابلت هذين الشخصين القريبين جدّاً مني عقب فترة وجيزة على وفاة أمّي المسكينة، واحتسينا معاً قهوتنا التركية في مقهى الفصول الأربعة، ثمّ افترقت بنا الدروب. فكانت هناك خلافات سياسية خفيفة في الواقع، لكنها لم تكن هينة، وكان بيبرا على صلة بوزارة الدعاية الألمانية، فيقدم عروضه، مثلما استشفيت بسهولة من تلميحاته، في الحجر الخاصة للسيّدين «غوبلز» و«غورنغ،» وحاول أن يشرح لي هذه الزلّة بمختلف السبل ليبررها. فتحدث عن المواقع المؤثرة لمهرجي البلاط في القرون الوسطى، وأطلعني على نسخ مقتبسة عن لوحات الرسامين الأسبان التي كانت تظهر شخصاً ما، «فيليب» أو «كارلوس»، مع حاشية الملك، وفي وسط هذه المجالس المتخشبة يمكن التعرف على بعض المهرّجين بملابس مجعّدة مدببة الأطراف ومهلهلة، أولئك الذين كانت لهم نسب وتفاصيل بيبرا، ومن المحتمل تفاصيل جسدي أنا كذلك. وبالذات لأن تلك الصور أثارت إعجابي - ويمكن أن أحسب نفسي اليوم من المعجبين المتحمسين للرسام العبقري «دييغو فيلاثكيث» - فإنني لم أسهل الأمر على بيبرا. فتخلى كذلك عن المقارنة بين الكائن القزميّ في بلاط فيليب الأسباني الرابع وموقعه هو بالقرب من الوصولي يوسف غوبلز القادم من الراين. ثم تحدث عن الأوقات العصيبة، وعن الضعفاء الذين يتنحون عن الطريق أحياناً، وعن المقاومة التي كانت تزدهر في الخفاء، باختصار، كانت عبارة «الهجرة الداخلية» قد استخدمت آنذاك، لذلك افترقت دروب أوسكار عن دروب بيبرا.

ليس لأنني حقدت على الأستاذ؛ إذ أنني بحثت طوال الأعوام اللاحقة عن اسم بيبرا في ملصقات مسارح المنوعات وألعاب السيرك، وعثرت مرتين على اسمه مكتوباً إلى جانب السنيورة راغونا، غير أنني لم

أفعل شيئاً من شأنه أن يمهد الالتقاء بصديقيّ. فتركت الأمر للصدفة، بيد أن تلك الصدفة لم تتحقق، فلو أنّ دروبنا أنا وبيبرا تقاطعت في خريف العام الثاني والأربعين، وليس في العام الذي لحق ذلك، لما أصبح أوسكار تلميذاً للينا غريف، بل غلاماً للأستاذ بيبرا. لكنني كنت أقطع لابسفيغ يومياً في الضحى المبكر، لأدخل إلى دكّان الخضر، فأمكث، مراعاةً للأدب، نصف سويعة قرب البقّال الذي كان يتحوّل على الدوام إلى مخترع هاو غريب الأطوار، وأراقب كيف كان يركّب ماكيناته العجيبة المولولة والزاعقة وذات الرنين. فكنت ألكزه كلّما دخل زبون إلى المحل؛ إذ أن غريف لم يعد يشعر آنذاك بما كان يحيط به. ما الذي حدث له؟ ما الذي أسكت هذا البستاني المنفتح المستعد دائماً للدعابة والمزاح، صديق الشباب، ما الذي جعله يصبح معزولاً غريب التصرفات وعجوزاً أهمل إلى حدّ ما مظهره الخارجي؟ فالشبيبة لم تعد تأتي إليه، ومن وصل سنّ البلوغ آنذاك لم يكن عرفه. لقد شتت الحرب أتباعه من زمن الكشّافة على جبهات القتال جميعها. فكانت الرسائل تأتي من الميادين، ومن ثم لم تعد تأتي سوى بطاقات البريد. ذات يوم تلقّى غريف خبراً بشكل غير مباشر أفاد بأن محبوبه هورست دونات الذي كان كشّافاً أوّل الأمر، ثم أصبح قائد فوج في منظمة الشبيبة الألمانية، ليسقط قتيلاً برتبة ملازم في ناحية دونيتس.

ومنذ ذلك اليوم أضحى غريف يشيخ ويهرم، حتى أنه لم يعد يعتني بمظهره، وانهمك تماماً في هواية الاختراعات، بحيث أن المرء كان يرى في دكّان الخضر ماكينات ذات أجراس قارعة وآلات مولولة أكثر من البطاطس على سبيل المثال أو رؤوس الكرنب. بلا شكّ أن الوضع الغذائي العام قد لعب دوراً ما؛ فكان الدكّان نادراً ما يُزود بالبضاعة وعلى نحو غير منتظم، إذ أن غريف لم يكن يتمتع بما تمتع به ماتسرات الذي كان يظهر نفسه في سوق الجملة باعتباره مشترياً جيّداً، مستغلاً علاقاته.

بدا الدكّان كئيباً، وكان على المرء أن يبدو فرحاً في الواقع؛ لأن غريف عبّأ المكان بأجهزة الضجيج العديمة الجدوى وزيّنه بطريقة

مضحكة، لكنها لطيفة في الوقت ذاته. لقد أعجبتني المنتجات التي كانت تنبثق من دماغ غريف المخترع المبلبل الأفكار. وإذا ما رأيت اليوم توليفات معيني برونو المعقودة من الخيوط؛ فإنني أتذكر معرض غريف. ومثلما كان برونو يستمتع باهتمامي المتبسم والجدّي معاً بألعابه الفنيّة؛ فإن غريف كان يفرح وهو شارد الذهن إذا ما لاحظ بأن هذه الماكينة الموسيقية أو تلك قد أدخلت السرور إلى نفسي. وكان يبدو خائب الظن، هذا الرجل الذي لم يهتم بي طوال سنوات، إذا ما غادرت دكّانه الذي تحوّل إلى ورشة، بعد نصف سويعة، لكي أذهب لزيارة زوجته لينا غريف.

ما الذي يمكن أن أرويه لكم عن زياراتي للمرأة الطريحة الفراش، تلك الزيارات التي كانت تستغرق عادة من ساعتين إلى ساعتين ونصف. كان أوسكار يدخل إليها فتلوّح له من فراشها «آه؛ هذا أنت يا أوسكاري. تعال؛ أقترب بعد أكثر؛ إذا تريد تندس في الفراش، طالما الغرفة باردة، وغريف لم يسخنها بشكل جيّد!» فكنت أندس إلى جانبها تحت لحاف الريش، وأضع المضربين اللذين كنت استخدمتهما للتو أمام السرير، سامحاً فقط بمضرب ثالث مستهلك مهلل النسيج إلى حدّ ما، للقيام معي بزيارة للينا.

وذلك لا يعني أنني كنت أخلع ثيابي قبل أن أذهب إلى فراش لينا؛ إنما كنت أصعد بملابس الصوف والقطيفة والحذاء الجلدي، فأجد طريقي من فراش الريش المكوك المتلبّد بعد فترة معينة، على الرغم من العمل المجهد الساخن، خارجاً في الثياب نفسها التي لم تتعرض للتجعّد نوعاً ما.

وبعدما كنت أقوم بزيارة بائع الخضر مرّات عديدة إثر مغادرة فراش لينا، وأنا لم أزل أعبق بأبخرة زوجته وتعرقاتها، فإنّ تقليداً قد سُنّ آنذاك، فاستجبت له بكلّ سرور. وأثناء ما كنت أمكث لدى السيّدة «الغريفية» وأطبّق آخر التمارين كان بائع الخضر يطأ غرفة النوم بطست مليء بالماء الساخن، فيضعه على كرسي بلا مسند، ويضع إلى جانبه منشفة وصابونة، ثم يغادر المكان دون أن ينبس بكلمة أو أن يثقل على الفراش بنظرة

واحدة، فينتزع نفسه على عجل من العش الدافئ المقدم له، ويجد طريقه إلى الطست، ليخضع نفسه ومضرب الطبل السابق الذي كان شديد الفعّالية في الفراش لعملية تنظيف دقيقة؛ وأظهرت تفهماً لغريف الذي لم يطق رائحة زوجته حتى لو هبّت عليه بواسطة شخص ثان. ولكن المخترع كان يستقبلني بترحاب حين أقبل عليه مغتسلاً للتو، فيستعرض عليّ ماكيناته وأصواتها المختلفة؛ إلا أنني مازلت إلى اليوم أتعجب من أن أي صداقة لم تنشأ بين أوسكار وغريف على الرغم من تلك الثقة المتأخرة، بحيث أن غريف ظلّ غريباً بالنسبة لي، فلم يثر سوى اهتمامي، لكنه لم يحظ بتعاطفي.

وفي سبتمبر/أيلول من العام الثاني والأربعين ركّب غريف ماكينة التطبيل - خلّفت للتوّ عيد ميلادي الثامن عشر ورائي بلا وداع، وكان الجيش السادس قد استولى آنذاك على ستالينغراد. لقد علّق غريف على سقّالة خشبية كفتيّ قبان متوازنتين معبئتين بالبطاطس، ثم رفع من الكفّة اليسرى حبّة بطاطس فمال القبّان: فانزاح مزلاج وحرر آلية التطبيل المركبة على السقّاة: فحدثت زوبعة وفرقعة وطقطقة ثم اصطدمت الصنّاجات ببعضها البعض، فدوّى الجرس، ثم وجدت الأشياء مجتمعة كلّها تصلّ واضعةً خاتمة ذات لحن مأساويّ نشاز.

لقد أعجبتني الماكينة، فصرت أترك غريف يعرضها لي كلّ مرّة من جديد، حتى أصبح أوسكار على قناعة بأن بائع الخضر المخترع قد أخترع الماكينة وركّبها من أجله وحده. إلا أن هذا الاعتقاد الخاطئ انكشف لي عما قريب على نحو سافر. ربما استلم غريف الإيحاءات مني، لكنّ الماكينة كانت مصممة له وحده؛ إذ أن نهايتها أصبحت نهايته هو. وقد حدث ذلك ذات صباح صاف من صباحات أكتوبر التي لا توردها إلا الريح الشمالية الشرقية أمام البيت بلا مقابل. كنت غادرت بيت الأمّ تروجنسكي مبكراً، ودخلت الشارع في الوقت الذي سحب فيه ماتسرات الستارة القابلة للطي أمام باب المحل. فوقفت إلى جانبه حين رفع العوارض المصبوغة باللون الأخضر، فلفحتني سحابة من روائح بضائع المستعمرات التي

خُزنت داخل المحلّ أثناء الليل، ثم استقبلت قبلة الصباح من قبل ماتسرات. وقطعت شارع لابسفيغ قبل أن تتيح لي ماريا الفرصة لرؤيتها، وألقيت بظلي الطويل على حجارة في اتجاه الغرب، ثم إلى اليمين وإلى الشرق عبر ماكس-هالبه-بلاتس، حيث سحبت الشمس إلى الأعلى بقوتها الذاتية، مستخدمةً الطريقة نفسها التي لابد أن يكون البارون «منشهاوزن» قد استخدمها حين رفع نفسه من الوحل مستعيناً بضفيرته.

وكان كلّ من يعرف بائع الخضر غريف، مثلما عرفته أنا، سيصاب بالدهشة مثلي حين يجد واجهات الدكّان مسدلة وبابه مقفلا. إذ جعلت الأعوام الأخيرة غريف يبدو غريب الأطوار شيئاً فشيئاً، إلا أنه كان يلتزم حتى ذلك الوقت بموعد فتح الدكّان وقفله التزاماً دقيقا. ولعلّه بات مريضاً، هكذا فكّر أوسكار ثم أبعد هذه الفكرة من رأسه على الفور. إذ كيف يمرض غريف الذي كان يحفر نقراً في جليد بحر البلطيق حتى الشتاء الأخير، وإن بشكل غير منتظم مثلما فعل في السنوات السابقة، لكي يأخذ حمّاماً كاملاً، وكيف يمرض إنسان الطبيعة هذا بين ليلة وضحاها على الرغم من بعض مظاهر الشيخوخة؟ فقد كانت زوجته تمارس أحقيّة الالتزام بالفراش بمثابرة؛ وعلمت كذلك بأن غريف كان يحتقر الوسائد الناعمة الوثيرة، مؤثراً النوم في الأسرة المتنقلة أو المضاجع الخشبية الصلبة. فليس هناك مرض من شأنه أن يقيّد بائع الخضر إلى السرير.

وانتصبت قبالة دكّان الخضر، ونظرت إلى الوراء حيث محلنا، فلاحظت بأن ماتسرات كان موجوداً في داخله؛ فقرعت طبلي بحذر في البدء، عاقداً أملي على الأذن الحساسة للسيّدة غريف، مصدراً بعض الإيقاعات، فلم أحتج إلى أكثر من بعض الصخب حتى فُتحت النافذة الثانية الواقعة على اليمين إلى جانب باب الدكّان. فأطلّت السيّدة غريف عبر صندوق الزهور الخريفية بقميص النوم ورأسها مليء ببكرات لفّ الشعر، حاضنة المخدّة: «نه؟ تعال أدخل يا أوسكاري. لماذا تنتظر في الخارج تحت البرد؟» فقرعت بمضرب الطبل على صفيح الدكان أمام الواجهة مستفسراً. فهتفت «البرشت!» ثم « يا البرشت أين أنت؟ وماذا

حدث الآن؟» ثم أخلت النافذة وهي تنادي على بعلها. فأخذت أبواب الغرف تُصفع، وسمعت وقع خطواتها في الدكّان ثم بدأت بعد بالصراخ. فصرخت في القبة، إلا أنني لم أر لِمَ صرخت؛ إذ أن طاقة القبو التي كانت البطاطس تفرّغ عبرها في أيّام توريد البضاعة التي باتت تشحّ على الدوام في أعوام الحرب كانت مقفلة أيضا. وعندما ضغطت بعيني على اللوحة الخشبية المطلية بالقطران أمام الطاقة رأيت المصباح الكهربائي مضاءً في القبو. وتبينت كذلك شيئاً أبيض فوق الجزء العلوي من سلّم القبو، لعلها كانت مخدّة السيّدة غريف.

ولابد أنها فقدت المخدّة على السلّم؛ لأنها لم تعد موجودة في القبو، إنما صرخت في الدكّان من جديد ومن ثمّة في غرفة النوم. ورفعت سمّاعة التلفون وصرخت عندما أدارت القرص، صرخت في التلفون، لكن أوسكار لم يفهم ما حدث، ولم يلتقط سوى كلمة حادث، إضافة إلى عنوان لابسفيغ الذي كررته صارخةً مرّات عديدة، ثم وضعت السمّاعة، وملأت النافذة إثر ذلك بقميص نومها، بلا مخدّة، لكن ببكرات لفّ الشعر وهي تصرخ، منسابةً ورصيدها الضخم من اللحم المعروف تماماً بالنسبة لي في صندوق الزهور الخارجي، ثم صفعت النباتات الغليظة الشاحبة الحمراء، صارخةً من الأعلى فضاقت الجادة لدرجة أن أوسكار أعتقد بأن السيّدة غريف ستبدأ أيضاً بتحطيم الزجاج في تلك اللحظة؛ لكن لم تتحطم أي زجاجة. ففتحت النوافذ بقوّة وخرج الجيران وأخذت النساء ينادين على النساء، ثم اندفع الرجال ، الساعاتي لاوبشاد حاشراً ذراعيه بالسترة إلى النصف، والعجوز هايلاند والسيّد «رايسبيرغ» والحلاّق «ليبيشيفسكي» والسيّد أش عبر البواب القريبة، وكذلك بروبست، لكن ليس المزيّن، الذي جاء مع ولده من دكّان الفحم. وقدم ماتسرات يتبختر بمريلة المحلّ، بينما بقيت ماريا في باب محلّ بضائع المستعمرات حاملةً كورت الصغير على ذراعيها.

كان من السهل بالنسبة لي الاختفاء عن الأنظار وسط حشد البالغين المنفعلين، والتملّص من ماتسرات الذي كان يبحث عني. كان ماتسرات

والساعاتي لاوبشاد أوّل من هبّ إلى مكان الحدث. فحاول المرء النفاذ إلى البيت من خلال النافذة. بيد أن السيّدة الغريفية لم تدع أحداً يتسلق إلى الأعلى، ناهيك عن الدخول إلى البيت. وبينما أخذت تخدّش وتلطم وتعض؛ فإنها وجدت وقتاً كافياً للصراخ بصوت عال، بدا بعضه صراخاً مفهوماً. في البدء يجب أن يأتي فريق الإنقاذ؛ إذ أنها اتصلت منذ فترة طويلة، ولم يعد أحد بحاجة إلى الاتصال مرّة أخرى، فهي تعرف ما الذي على المرء أن يفعله حين يقع حادث مثل هذا. فعليهم أن يهتموا بدكاكينهم، إذ أن الأمر هنا سيئ بما فيه الكفاية. فضول، بل لا شيء سوى الفضول؛ فهنا يرى المرء أين يبقى أصحابه إذا ما وقعت المصيبة.
لابد أنها اكتشفتني أمام نافذتها أثناء عويلها من بين الحشد، فقد نادت عليّ، مشرعةً ذراعيها العاريتين بعد أن أبعدت عنها الرجال، فرفعني أحد ما - أوسكار يعتقد إلى اليوم بأنه كان الساعاتي لاوبشاد - وأراد أن يسلمني لها على الضدّ من رغبة ماتسرات الذي كاد أن يمسك بي قبل صندوق زهور الخريف بمسافة قصيرة، غير أن لينا غريف قبضت عليّ ، وضمتني إلى قميصها الدافئ وانقطعت عن الصراخ، مكتفيةً بالنحيب المرتفع، ملتقطة أنفاسها وهي تنهنه. وبالقدر الذي حرّض فيه صراخ السيّدة غريف الجيران على القيام بإشارات وإيماءات انفعالية مفضوحة خالية من الحياء؛ فإن نحيبها الرفيع الحاد أحال الزحام أسفل صندوق الزهور إلى حشد أصمّ مضطرب يدبك على الأرض استنكاراً، لا يجرؤ على النظر مباشرة إلى البكاء، موقفاً آماله كلّها وفضوله واهتمامه على سيارة الإسعاف المنتظرة. وبدا أوسكار غير مرتاح أيضاً للنشيج الغريفي. فحاولت أن أتزحزح إلى العمق لكي لا أكون قريباً جدّاً من طنينها المؤلم الحزين. فاستطعت التخلّي عن متكأ عنقها، جالساً بمقدار النصف على صندوق الزهور. فشعر أوسكار بنفسه مراقباً؛ إذ أن ماريا وقفت في باب المحل والولد على ذراعها. فتخلّيت عن وضع الجلوس هذا، مدركاً حالة الحرج التي وقعت بها، ولم أفكّر إلا في ماريا - لم أكن اكترثت بالجيران - فابتعدت عن شاطئ السيّدة غريف المرتجّة تحتي فذكرتني بالفراش.

لم تلحظ لينا غريف هروبي، أو أنها لم تجد في نفسها القوّة الكافية لصدّ الجسد الصغير الذي قدم لها البديل زمناً طويلاً وبهمّة عالية. ربما شعرت لينا بأن أوسكار تنصل منها إلى الأبد، وأن ثمة صوتاً جاء إلى العالم بفعل صراخها الذي تحوّل إلى جدار وأصوات في خلفية المشهد بين طريحة الفراش والطبّال من ناحية، لكنه أسقط، من ناحية ثانية، الجدار القائم بيني وبين ماريا. فوقفت في غرفة نوم آل غريف وطبلي معلّق برقبتي على نحو مائل، متأرجح. لقد كان أوسكار يعرف الغرفة جيّداً وبات بإمكانه أن يعيد قراءة ورق كساء الجدران الأخضر الغامق عن ظهر قلب. كان طست الماء برغوة الصابون العكرة من يوم الأمس لم يزل مستقراً فوق الكرسي العديم المسند. كان كلّ شيء في مكانه ومع ذلك؛ فإن قطع الأثاث المستهلكة المحكوكة، البالية من كثرة الجلوس، بدت لي جديدة أو على الأقل مجددة، كما لو أن كلّ من استند متصلباً على الجداران فوق سيقانه أو أقدامه الأربع أصبح بأمسّ الحاجة إلى عويل السيّدة غريف لكي يحظى ببريق جديد بارد حدّ الرعب.

وكان الباب المؤدي إلى الدكّان مفتوحاً، لكن أوسكار لم يرغب في الدخول، ومع ذلك ترك المكان العابق برائحة التربة الجافة والبصل يجذبه إليه؛ المكان الذي وزّعه ضوء النهار النافذ عبر فجوات نوافذ الدكّان إلى رقائق مشبعة بالغبار. وهكذا فإن معظم ماكينات غريف المصدرة للصخب والموسيقى ظلّت راقدة في الظلمة الوانية، لم يكشف الضوء سوى بعض التفاصيل، كالجرس أو دعائم الخشب أو الجزء الخلفي من ماكينة التطبيل، وكشف لي عن البطاطس المتعادلة الكفّة. وكان ذلك الباب الأرضي الذي يطبق على القبو خلف طاولة البيع مثل محلنا بالضبط مفتوحاً. فلم يكن هناك ما يسند غطاء الفتحة الخشبية الأرضية الذي فتحته السيّدة غريف في سرعتها الصارخة، لتسدّ الفجوة بطاولة الدكّان. وكان بوسع أوسكار أن يطبق الغطاء بدفعة خفيفة فيقفل القبو. لكنني وقفت بلا حراك واضعاً قدماً واحدة خلف اللّوح المتشرب برائحة الغبار والعفونة، وأحدّق في المربّع المضاء على نحو ساطع والذي أطّر جزءاً من السلّم

وقسماً من أرضية القبو المبلطة بالإسمنت. وبرز من ناحية اليمين جزء من منصّة مدرجة على اليمين، لابد أنه كان من مستجدات غريف الأخيرة، إذ أنني لم أره من قبل ذلك خلال زياراتي للقبو بين الحين والآخر. لعلّ أوسكار لم يطل النظر إلى القبو مأخوذاً بمنصته، لو لم يبرز من زاوية الصورة اليمنى جوربان من الصوف ممتلئان في فردتي حذاء سوداوين متقلصتان بشكل عجيب. وحتى لو لم أر نعل الحذاء، إلا أنني عرفت على الفور حذاء غريف المخصص للتجوال. ففكرت في أنه لا يمكن أن يكون قطّ غريف نفسه الذي يتأهب الآن للتجوال في القبو، لأن فردتي الحذاء لم تكنا منتصبتين بثبات، بل متأرجحتين بحريّة فوق المنصة؛ اللّهمّ إلا إذا عنّ لمقدمة الحذاء المنحرفة إلى الأسفل بشكل حاد ملامسة الألواح الخشبية، على الرغم من أن ذلك يدا أمراً عسيرا. فتخيّلت للحظة غريف واقفاً على طرف حذائه، إهذا التمرين الغريب، الشاق أيضاً، لا يستبعد أن يقوم به غريف، لاعب الجمباز والإنسان المتمسك بالطبيعة. ولكي أتأكد من صحّة ظنّي، فأضحك أيضاً من بائع الخضر كما ينبغي، هبطت درجات السلّم الحادة الانحدار، متخذاً جانب الحذر، وبدأت أقرع الطبل مصدراً إيقاعاً يولّد الخوف ويطرده معاً إذا ما استطعت التذكر حقّاً: «هل جاءت الطاهية السوداء؟ بلى بلى بلى!»

وبعدما وقف أوسكار بثبات على الأرض الإسمنتية ترك بصره يسرح على نحو غير مباشر عبر حزمة أكياس بصل فارغة وصناديق فواكه فارغة أيضاً ومكدسة فوق بعضها، إلى أن أقترب من ذلك الموضع، ماسحاً ببصره تركيبة الدعائم الخشبية التي لم يلمحها أوّل الأمر، أقترب من ذلك الموضع، حيث تأرجح حذاء غريف المخصص للتجوال أو وقف على طرفيه.

وبالطبع علمت بأن غريف كان معلقاً، وقد عُلّق الحذاء ومعه الجوربان الخضراوان الغامقان الخشنا الحياكة. وثمة ركبة رجالية مكشوفة فوق حافة الجورب والفخذ مشعر حتى حافة السروال؛ فاجتاحتني قشعريرة مدغدغة في أعضائي التناسلية، أعقبت مؤخرتي، فصعدت الظهر الذي دبّ

فيه الخدر ثم تسلّقت العمود الفقري إلى الأعلى، وتابعت سيرها إلى القفا، فأصابني بالسخونة والبرودة ولطمني من هناك بين ساقيّ، فجعلت كيس خصيتي الضئيل الحجم أصلاً يصاب بالضمور، ثم استقرت ثانية في قفاي قافزةً عبر ظهري المعوج، فتقلّصت هناك - مازال هذا الشعور يلدغ أوسكار إلى اليوم ويخنقه إذا ما تحدث أحد في حضرته عن التعليق بالحبل، حتى لو تحدث عن نشر الغسيل -؛ لم يكن فقط حذاء غريف المخصص للتجوال وجواربه الصوف وركبته وسرواله القصير معلقاً؛ إنما غريف كلّه كان مشنوقاً من رقبته، وقد بدا وجهه منهكاً، إلا أنه لم يكن خالياً من التمثيل المسرحي.

وفجأة تراخت حدّة الجذب والوخز بسرعة، إذ أن منظر غريف جعلني أكون طبيعياً؛ فهيئة جسد الرجل المشنوق بدت مألوفة وطبيعية من حيث الأساس مثل منظر الرجل السائر على قدميه، أو الرجل الذي يقف على رأسه، الرجل الذي يبدو تعيس الهيئة فعلاً حين يعتلي جواداً بأربع قوائم، ليخبّ به. ثمّ جاء الديكور إضافة إلى المشهد كلّه، فأدرك أوسكار الآن البذخ والإسراف اللذين تكبدهما غريف. كان الإطار، أي المحيط الذي شُنق فيه غريف من النوع الفريد إلى حدّ ما المنتقى بعناية. لقد بحث بائع الخضر عن شكل موت يليق به، فعثر على موت رزين ومتوازن. فهذا الذي خاض صارعاً مريراً طوال حياته مع موظفي مديرية الأوزان وتبادل معهم الرسائل المحرجة، هذا الذي صادروا منه قبّانه ومكاييله وأوزانه مرّات عديدة، والذي فرضت عليه الغرامات المالية بسبب الغش في وزن الخضر والفاكهة، وزن نفسه مع البطاطس إلى حدّ الغرام.

كان الحبل الخافت اللمعان المشحّم ربما بالصابون، الملفوف على بكرات، يمرّ عبر عارضتين خشبيتين سمّرهما فوق السقّالة خصيصاً ليومه الأخير، تلك السقّالة التي لا هدف لها سوى أن تكون سقّالته الأخيرة. ومن خلال الإسراف في استخدام خشب البناء الممتاز أستطيع التكهن بأن بائع الخضر لم يرد أن يدخر شيئا. فلابد أن يكون توفير مواد الدعامات والعوارض في أعوام الحرب الشحيحة بمواد البناء أمراً عسيراً للغاية.

ولابد أن يكون غريف قد قام بعملية تبادل، فقايض الخشب بالفاكهة. وهكذا فإن السقّالة ظهرت خالية تماماً من كلّ ما هو زائد عن اللزوم أو لا يفيد سوى الزخرفة. كانت المنصة المدرجة ذات الأقسام الثالث - استطاع أوسكار أن يرى طرفاً منها عبر الدكّان - ترفع المقعد الخشبي بجملته إلى علو شاهق متسام إلى حدّ ما. وكما هو الحال مع ماكينة التطبيل التي لابد أن يكون المخترع الهاوي قد استخدمها نموذجاً؛ فإن غريف وكفته المقابلة كانا معلقين ضمن إطار السقّالة. فعلى النقيض تماماً من العوارض الأربع المثبتة في الزوايا والمطلية بالبياض؛ فإن ثمة سلّماً صغيراً رفيعاً أخضر اللون انتصب بينه وبين ثمار الحقل المتأرجحة مثله. لقد ربط غريف سلال البطاطس بالحبل الرئيسي ربطاً فنيّاً محكماً بعقد من النوع الذي يجيده الكشّافون. ولأن باطن السقّالة أضيء بأربعة مصابيح بيضاء الطلاء، ساطعة النور على الرغم من الطِلاء؛ فإن أوسكار تمكن من قراءة رقعة من الكرتون مربوطة فوق سلال البطاطس بسلك ومثبتة في عقدة من عقد الكشّافة، دون أن أطأ السقّالة الاحتفالية أو أضطر إلى تدنيسها: «خمسة وسبعون كيلوغراماً (إلا مائة غرام).»

عُثر غريف مشنوقاً في قيافة قائد الكشّافة بعد أن عاد في أيّامه الأخيرة مرّة أخرى إلى قيافة الأعوام السابقة للحرب. فأصبحت ضيّقة عليه، لذلك لم يتسن له إغلاق الزرّين العلويين ليشدّ حزامه، مما أكسب مظهره الحسن نوعاً ما طابعاً محرجاً، وقد عقد سبابة يده اليسرى فوق إصبعه الوسطى على هيئة قسم حسب تقليد الكشّافة. وفي معصم يمناه ربط المشنوق قبل أن يشنق نفسه قبعته الكشفية، مستغنياً عن الشال. ولأنه لم يتمكن من غلق الأزرار العليا لسرواله القصير وياقة قميصه فقد برز شعر صدره الأسود المجعّد كثيفاً من وراء القماش. وكانت هناك بضعة زهور نجميّة تناثرت على المنصّة، إضافة عيدان البقدونس التي لم تكن مناسبة للمشهد. لعلها سقطت منه أثناء نثر الورود، إذ أنه أنفق الزهور النجميّة وكذلك بعض الورود على تكليل الصور الأربع المعلقة على القوائم الأربع للسقّالة. كان صورة السير بادن-بويل، مؤسس الكشّافة، معلقة خلف الزجاج على

العارضة الأمامية اليسرى. وفي الخلف، إلى اليمين، علّق رأس دافيد لمايكل أنجلو بلا زجاج. وقد ابتسم مزججاً ومؤطراً في العارضة الأمامية اليمنى فتى، لعلّه كان في السادسة عشرة من عمره، ذو طلعة بهية كثيفة التعبير. كانت تلك صورة قديمة لمعشوقه «هورست دونات» الذي قتل برتبة ملازم في دونتس. وربما سأذكر قصاصات الورق الأربع على مدرج المنصّة بين الزهور النجميّة والبقدونس الملقاة بطريقة يمكن أن يركّبها المرء دون جهد. ففعل أوسكار ذلك، واستطاع أن يتبين فحوى استدعاء إلى المحكمة خُتم عليه بدمغة شرطة الآداب عدّة مرّات. والآن لم يعد أمامي سوى التطرّق إلى أن النداء الملحّ لسيارة الإسعاف قد أيقظني من تأملاتي لموت بائع الخضر. بعد ذلك بفترة قصيرة أخذوا يتعثرون هابطين السلّم، معتلين المنصّة، حيث وضعوا يدهم على غريف المشنوق. وحالما رفعوا البقّال انقلبت سلال البطاطس التي شكّلت الكفّة المتعادلة، فبدأت الآلية الحرّة بالعمل، تماماً مثل ماكينة التطبيل، التي كساها غريف برقائق الخشب بمهارة كبيرة. وبينما تناثرت حبّات البطاطس محدثة جلبة، تعالى الضرب على الصفيح والخشب والنحاس والزجاج من الأعلى، فصدحت جوقة تطبيل ألبرشت غريف تعزف خاتمته الكبرى. فترديد صدى الصخب المنظّم لماكينة تطبيل غريف وصوت انهيار البطاطس - التي أثرى منها بعض رجال الإسعاف - على طبلي الصفيحي بات اليوم من المهمّات الشاقة بالنسبة لأوسكار. ولأن طبلي قد ترك تأثيراً حاسماً على صورة موت غريف، فإنني نجحت أحياناً في قرع المقطوعة المدوّرة المترجمة لموت غريف على طبل أوسكار، حتى أنني كنت أسميها «خمسة وسبعين كيلوغراماً» حين يسألني أصدقائي ومعيني برونو عن عنوانها.

مسرح بيبرا الميداني

بلغ ابني كورت في منتصف يونيو من العام الثاني والأربعين عامه الأوّل. فتقبل أوسكار ذلك الأمر بصبر وهدوء، مفكّراً: لقد بقي عامان! كان بائع الخضر غريف قد شنق نفسه في أكتوبر من العام الثاني والأربعين بمشنقة متكاملة الشكل، لدرجة أن أوسكار أصبح منذ ذلك اليوم يعدّ الانتحار من أسمى أنواع الموت. وأصبح المرء يتحدث كثيراً عن مدينة ستالينغراد في العام الثالث والأربعين. ولأن ماتسرات كان ينطق هذا الاسم نطقاً مشدداً مثلما كان يشدد لفظ «بيرل هاربر» و«توبروك» و«دونكرشن»، فإنني لم أعر أحداث تلك المدينة النائية أهميةً أكبر من المدن الأخرى التي باتت معروفة بالنسبة لي من خلال الأنباء الخاصة؛ إذ أن تقارير الجيش الألماني والأنباء الخاصة كانت تعني لأوسكار دروساً في الجغرافية. وإلا فكيف لي أن أعلم أين تقع أنهار «كوبان» و«ميوس» والدون، ومن ذا الذي كان سيشرح لي الوضع الجغرافي لجزر «الألويتن آتو» و«كيسكا» و«آداك» أفضل من تقارير الراديو المستفيضة حول الأحداث في الشرق الأقصى؟ وهكذا عرفت في يناير من العام الثالث والأربعين بأن ستالينغراد تقع على نهر الفولغا، إلا أنني شعرت بالقلق على الجيش السادس أقل من شعوري بالقلق على ماريا التي أصيبت بإنفلونزا خفيفة أثناء ذلك.

وفي الوقت الذي بدأت فيه تبرأ من نزلة البرد كان المذياع يواصل إلقاء دروسه في الجغرافية: فأضحى أوسكار يتعرف اليوم فوراً وبلا تردد على موضعي «رسيف» و«دميناسك» في أي خريطة لروسيا السوفيتية. وحالما برأت ماريا أصيب ابني كورت بالسعال الديكي. وبينما كنت

أحاول الاحتفاظ بالأسماء المعقدة لبعض الواحات التونسية التي دارت فيها معارك طاحنة وجد سعال كورت الديكي نهايته أيضاً مع نهاية الفيلق الألماني في أفريقيا.

آه يا بهجة شهر مايو/آيار: فقد كان ماتسرات وماريا وغريشتن شفلر يعدون العدّة لميلاد كورت الثاني. وكذلك أوسكار علّق أهمية كبيرة على يوم الحفل المقبل، فهو كان يحتاج فقط إلى عام واحد اعتباراً من اليوم الثاني عشر من العام الثالث والأربعين. وكان بوسعي، لو أنني كنت حاضراً، أن أهمس في أذن ابني كورت أثناء عيد ميلاده الثاني: «انتظر قليلاً، فقريباً ستطبل أنت أيضاً.» بيد أن القدر شاء أن لا يكون أوسكار مقيماً في غدانسك-لانغفور في الثاني عشر من يناير من العام الثالث والأربعين، إنما في المدينة الرومانية القديمة «ميتس». نعم، لقد طال غيابه، حتى أنه وجد صعوبة لكي يشارك في حفل عيد ميلاد كورت الثالث في الوقت المناسب، ويصل إلى مدينته الأليفة التي لم تتضرر بعد بالقنابل. فأي مشاغل ساقته إلى هناك؟ سأروي هنا القصّة بلا لفّ أو دوران: لقد التقيت بأستاذي بيبرا أمام مدرسة بستالوتسي التي حولوها إلى ثكنة لسلاح الجو، بيد أن بيبرا لم يكن بوسعه إقناعي بالسفر، فقد كانت السنيورة روزفيتا، السرنمية العظيمة، متشبثة بذراع بيبرا.

كان أوسكار يتهادى قادماً من كلاينهامرفيغ، بعد أن قام بزيارة إلى غريتشن شفلر، وطالع بعض الشيء في كتاب «الصراع حول روما»، فاهتدى إلى أن الأمور كانت تجري على نحو شديد التقلب آنذاك في زمن «بيلزار» قائد جيوش القيصر الروماني، حتى أن المرء آنذاك كان يحتفل بالانتصارات ويمنى بالهزائم عند معابر الأنهر والمدائن وعلى رقع جغرافية شاسعة.

وكنت قطعت حدائق فروبل التي تمّ تحويلها في السنوات الأخيرة إلى معسكر احتياطي للقوات الشرقية، سارحاً بأفكاري عند «تاغينا» - حيث هزم «نارسس» «توتيلا» في العام ٥٢٥ - غير أنّ أفكاري لم تحط رحالها لدى الأرميني العظيم نارسس، إنما شخصية القائد الميداني هي

التي استهوتني؛ إذ أن نارسس كان أحدب ذا عاهة، وصغيراً كان نارسس، قزماً، ضئيل الحجم ليليبوتانيّا. ربما كان نارسس أطول من أوسكار بمقدار رأس طفل، هكذا فكّرت ووقفت أمام مدرسة بستالوتسي، فلمحت بضعة ضبّاط في سلاح الجوّ بدوا لي سريعي النمو مقارنة بالأوسمة والنياشين التي حملوها، فقلت في نفسي إن نارسس لم يحمل يكن يحمل وساماً بالتأكيد؛ لأنه لم يكن بحاجة إليه؛ حينئذ رأيت قائد الميدان شخصيّاً يقف في منتصف البوّابة الرئيسية للمدرسة، وثمة سيّدة ممسكة بذراعه - لم لا يحق لنارسس أن تتشبث بذراعه سيّدة؟ - فاقبلا نحوي بحجمهما الضئيل إلى جانب عمالقة السلاح الجوّي، ومع ذلك كانا مركز الاستقطاب، يحفّ بهما التاريخ من كلّ جانب، سحيقي القدم وسط أبطال الجوّ الحديثي التخرّج. فما قيمة هذه الثكنة المليئة بأمثال توتيلا والملك تيخياس، وبأمثال القوطيين الشرقيين الطوال القامة إزاء القزم الأرميني المدعو نارسس - فاقترب نارسس من أوسكار خطوة إثر خطوة، ولوّح بيده لأوسكار، ملّوحاً السيّدة الممسكة بذراعه: لقد ألقى بيبرا والسنيورة روزفيتا راغونا التحية عليّ - فتنحت عنا القوّة الجوّية باحترام تام - فقربت فمي من أذن بيبرا وهمست: «أستاذي العزيز، لقد حسبتك نارسس قائد الميدان العظيم، الذي أقدّر أهميته أكثر بكثير من ذلك الفشّار بيلزار.» فأشار بيبرا نافياً ذلك التشبيه بكلّ تواضع. إلا أن السيّدة راغونا أعجبت بمقارنتي. فما أجملها وهي تحرّك فمها أثناء الكلام: «أرجوك يا بيبرا ألم يكن صاحبنا الشاب محقّاً؟ ألم يسري في عروقك دم الأمير أويغن؟ ألم يكن هذا سلفك؟» فأخذ بيبرا بذراعي وقادني إلى الجانب؛ إذ أن سلاح الجوّ نظر إلينا بإعجاب غير منقطع النظير، حتى أشعرنا بالضيق. أخيراً، بعدما ألقى أحد الملازمين التحية العسكرية على بيبرا ولحقه اثنان من نوّاب الضبّاط - كان الأستاذ يحمل على قيافته رتبة نقيب وعلى ذراعه شريطاً كُتب عليه «سريّة الدعاية» - وبعدما ترجّى بعض الفتيان المزينين بالنياشين من راغونا أن توقع لهم بإمضائها، فتحقق لهم ما أرادوا، أصدر بيبرا للسيارة الخاصة إشارة

بالتحرّك نحونا، فركبنا، وتوجب علينا أن نتحمل أثناء الانطلاق التصفيق المتحمس لسلاح الجو .

واخترقنا شارع بستالوتسي وشارع ماغدهبورغ وهيرسأنغر. كان بيبرا يجلس إلى جانب السائق. وأثناء ما كنّا نسير في شارع ماغدهبورغ اتخذت راغونا طبلي ذريعةً للحديث فهمست لي بصوتها القادم من البحر المتوسط والذي لم أسمعه منذ زمن طويل : «أما زلت مخلصاً لطبلك، أيها الصديق العزيز؟» ثم أضافت: «كيف الحال عموماً مع الإخلاص؟» لكن أوسكار لم يحر جواباً، فأراحها من قصص نسائه المتعبة، وبدلاً من ذلك سمح للسرنمية العظيمة أن تتحسس طبله ومن ثم يديه اللتين حضنتا الصفيح بتشنّج إلى حدّ ما، ثم أخذت تهبط إلى الجنوب شيئاً فشيئا. وحينما انعطفنا في هيرسأنغر، متعقبين سكّة ترام الرقم خمسة، أعطيتها إجابة في الواقع، بمعنى أنني تحسست يسراها بيدي اليسار، بينما كانت يمناها تمارس الرقّة مع يمناي. ثم تركنا ماكس-هالبه-بلاتس خلفنا ، ولم يكن أوسكار قادراً على النزول، فأبصرت في مرآة السائق الأمامية عينيّ بيبرا الفطنتين الرماديتين الهرمتين اللتين راقبتا تدليكنا. إلا أن راغونا ظلّت ممسكة بيديّ، في حين أنني أردت سحب يديّ منها، رأفة بصاحبي وأستاذي. فابتسم بيبرا في المرآة، مبعداً بصره، وبدأ يتحدث إلى السائق، بينما افتتحت روزفيتا من ناحيتها، وهي تتحسس بيدها وتضغطهما بحرارة، حديثاً من فمها القادم من المتوسط، حديثاً عذباً مباشراً، كان يعنيني أنا وحدي، فسرى في أذن أوسكار، ثم اتخذ منحى موضوعياً، ليطيح بعد ذلك من خلال عذوبته المتزايدة بترددي كلّه وبمحاولاتي للهرب. فواصلنا سيرنا في اتجاه مستشفى النساء ومستوطنة الرايخ الألماني، فأباحت راغونا لأوسكار بأنها كانت تفكّر فيه طوال الأعوام الماضية، وأنها مازالت تحتفظ بالكأس الذي خطّ عليه أوسكار إهداءً بصوته في مقهى الفصول الأربعة، وأن بيبرا في الواقع صديق رائع وشريك ممتاز؛ لكنهما لم يفكرا في الزواج؛ إذ أن بيبرا يجب أن يبقى بمفرده، ثم ردّت راغونا على سؤال اعتراضي طرحته عليها بالقول إنها تتيح له الحريّات كاملة، وكذلك هو

نفسه أدرك مع مرور الوقت بأنه لا يستطيع تقييد راغونا، على الرغم من أنه شخص غيور بطبيعته، فضلاً عن أن بيبرا الطيّب لا يجد متسعاً من الوقت، باعتباره مديراً لمسرح الجبهة، للقيام بواجباته الزوجية المحتملة؛ وعلى العكس من ذلك فأن مسرح الجبهة يُعد من الدرجة الأوّلى، فكان بإمكان المرء أن يرى البرنامج في دور الأوبرا مثل «فنترغاردن» و«سكالا»، وفيما إذا كان أوسكار، أنا، لا يشعر برغبة ما على الرغم مما يمتلكه من موهبة إلهية معطلة، فيرافقهما عويماً واحداً للتجربة، وأنها ستتعهد بذلك، لكنني، أوسكار، لدي التزامات أخرى؛ وإلا؟ هذا شيء حسن بطبيعة الحال، سيسافرون اليوم، لأنهم قدموا آخر عرض لفترة العصر في قاطع الدفاع غدانسك-فستبرويسن، وسيمضون الآن إلى لوترنغن ومن هناك إلى فرنسا، إذ يصعب التفكير في الوقت الحاضر في الجبهة الشرقية؛ لقد خلفها المرء وراءه للتو وبكلّ سرور، وأنا، أوسكار، يجب أن أكون سعيداً؛ لأن الشرق انتهى أمره، وسيرحلون الآن إلى باريس، بالتأكيد سيذهبون إلى باريس، وفيما إذا كان أوسكار، أنا، قد قام برحلة إلى باريس قبل ذلك. هيّا إذاً Amico ، إذا لم تتمكن راغونا من إغواء قلبك، قلب الطبّال القاسي، فدع باريس تغويه andiamo! وتوقفت السيّارة عند آخر كلمة لفظتها السرنمية العظيمة. كانت أشجار شارع هندنبورغ خضراء منتظمة المسافات، بروسية الطراز. فغادرنا السيّارة، وترك بيبرا السائقَ ينتظر، لكنني لم أظهر رغبة في الذهاب إلى مقهى الفصول الأربعة؛ إذ أن رأسي المضطرب كان ينزع إلى الهواء الطلق. لذلك قصدنا متنزه شتيفن: فأصبح بيبرا على يميني وروزفيتا على يساري. بدأ بيبرا يشرح لي معنى سريّة الدعاية وهدفها. وروت لي روزفيتا حكايات طريفة عن الحياة اليومية لسريّة الدعاية. وأجاد بيبرا الحديث عن رسّامي الحرب والمراسلين الحربيين وعن مسرحه الميداني. ثم جعلت روزفيتا تقذف من فمها المتوسطيّ أسماء مدن قصيّة، كنت قد سمعت بها من الراديو حين كان يضجّ بالأنباء الخاصة؛ فكان بيبرا يقول كوبنهاغن، فتجيبه روزفيتا نافخةً باليرمو. كان بيبرا يغنّي بلغراد، فتشكو روزفيتا كالمأساة أثينا. لكنهما هاما

معاً حبّاً بباريس، متعهدين بأن باريس تعادل جميع المدن التي ذكرت للتو، ثم تقدم لي بيبرا بعرض يمكن أن أقول عنه بأنه كان عرضاً رسمياً حسب الأصول باعتباره مديراً لمسرح الجبهة ونقيباً: «التحق بنا يا رجل، طبّل وحطّم أقداح البيرة ومصابيح الكهرباء، وسوف تشكرك قوّات الاحتلال الألمانية في فرنسا الجميلة وفي باريس الخالدة الشباب، بل ستهتف باسمك وتصفّق لك.» فطلب منه أوسكار مهلة للتفكير من ناحية شكلية فحسب، وأخذت أخطو بين أدغال مايو اليانعة الخضرة، بعيداً عن راغونا وعن صديقي الأستاذ بيبرا، ممعناً التفكير، معذباً، أفرك جبهتي، وصرت أصغي للمرّة الأوّلى في حياتي إلى الطيور في الغابة، وفعلت كما لو أنني كنت أنتظر معلومة أو استشارة من طائر «أبو الحنّاء»؛ فقلت بعدما صرّ شيء ما وسط الخضرة على نحو مرتفع ملفتاً للانتباه: «لقد نصحتني الطبيعة الطيبة الحكيمة بأن أتقبل عرضكم يا أستاذي الموقّر. يمكنكم أن تنظروا إليّ منذ هذه اللحظة بصفتي عضواً في مسرحكم الميداني!»

ومضينا بعد ذلك إلى مقهى الفصول الأربعة، وشربنا قهوة تركية خفيفة الدمّ، وناقشنا تفاصيل هربي، والذي لم نسمه هرباً بل خروجاً. وأمام المقهى أعدنا مرّة أخرى تفاصيل المشروع المرسوم. ثم ودعت راغونا وبيبرا نقيب سريّة الدعاية الذي لم يفوّت على نفسه الفرصة، فوضع سيارته الرسمية في خدمتي. عندما بدأ بيبرا وروزفيتا يتجولان في شاعر هندنبورغ متجهين إلى المدينة، أرجعني سائق النقيب الذي كان رجلاً عجوزاً برتبة رئيس عرفاء إلى لانغفور، ومن ثم إلى ماكس-هالبه-بلاتس؛ إذ أنني لم استطع، وكذلك لم أرغب في الدخول إلى لابسفيغ: فأوسكار الذي سيأتي مستقلاً سيارة خاصة بالجيش الألماني كان سيلفت إليه الأنظار بصورة كبيرة غير مناسبة. ولم يبق أمامي متسع من الوقت، ثمة زيارة وداعية لماتسرات وماريا. فمكثت فترة طويلة عند قفص ولدي كورت المزود بالعجلات، وعثرت حينها على بعض الأفكار الأبوية إذا ما استطعت التذكر جيّداً، وحاولت أن أتحسس الطفل الأشقر، إلا أن كورت رفض ذلك، على العكس من ماريا التي تقبلت رقّتي غير المألوفة لها منذ

أعوام، وبادلتني إيّاها عن طيب خاطر. كان مما يعجب له هو أن وداعي لماتسرات قد عزّ عليّ كثيراً. كان الرجل يقف في المطبخ يطبخ الكلى بمعجون الخردل، وبدا ملتحماً تماماً بملعقة الطهي، ربما كان سعيداً، لذلك لم أجرؤ على إزعاجه. وبعدما بدأت يده تبحث لا على التعيين عن شيء ما فوق الطاولة، سارعت إلى التقاط لوحة الفرم الصغيرة بالبقدونس المفروم وناولتها له - إنني مازلت أعتقد إلى اليوم بأن ماتسرات أصيب بدهشة ووقع في حيرة لفترة طويلة حين أمسك بلوحة البقدونس المفروم، حتى بعد أن غادرت المطبخ؛ إذ أن أوسكار لم يناول ماتسرات في حياته شيئاً ولم يمسك له شيئاً أو يرفعه له.

كنت تناولت طعامي لدي الأمّ تروجنسكي، وتركتها تغسلني، وتأخذني إلى الفراش، فانتظرت إلى أن اندست تحت لحافها وبدأت تشخر شخيراً خفيفاً صافراً، فعثرت على نعلي، وأخذت ثيابي وعثرت على طريقي في الغرفة التي كانت تصفر فيها الفأرة ذات الشعر الأشيب، وتشخر وتهرم على الدوام. كنت صادفت بعض الصعوبات في الممر مع المفتاح، إلا أنني استطعت أخيراً إخراج المزلاج من العروة الكلاّب، ثم هرولت حافياً في قميص النوم وصرّة ثيابي، وقفزت السلّم قفزاً حتى بلغت سطح البناية، فدخلت في مخبأي خلف أكوام الآجر ورزم الجرائد التي خُزنت هناك على الضد من أوامر الحماية من القصف الجوّي، متعثراً برمل إطفاء الحرائق وجردل الحماية الجويّة، حتى عثرت على طبل جديد حقّ الجدّة، كنت ادخرته دون علم ماريا، ووجدت ما كان يطالعه أوسكار: راسبوتين وغوته في جزء واحد. فهل سآخذ معي كاتبيّ المفضلين؟ وأثناء ما كان أوسكار يدس نفسه في ثيابه وحذائه ويعلق طبله في رقبته ويحشر مضربيه في حمّالات السروال، بدأ يتفاوض مع إلهيه باخوس وأبولو معاً. وبينما كان إله النشوة المغيبة للشعور ينصحني بأن لا أحمل معي أي مادة للقراءة، وإن كان لابد من ذلك فعليّ أن آخذ معي فقط كومة من أوراق راسبوتين؛ فإن أبولو الشديد الرزانة والدهاء أراد أن يصرفني كليّاً عن التفكير في رحلة فرنسا، بيد أنه أصرّ بعدما لاحظ تمسّك أوسكار بالرحلة

على أن أحمل معي أمتعة سفر غير منقوصة؛ فكان عليّ أن أصطحب ذلك التاؤب المهذّب الذي نفثه غوته قبل مئات الأعوام، وأرفقت معه راسبوتين أيضاً، بسبب العناد ومعه عالم نسائه العاري، الأسود الجوارب؛ لأنني كنت أعرف بأن «فالفيرفاندشافتن» لا تستطيع حلّ جميع المشاكل ذات الطابع الجنسي. إذا كان أبولو يسعى إلى الانسجام وباخوس إلى النشوة والفوضى؛ فإن أوسكار كان نصف إله صغير ينظّم الفوضى ويحيل التعقّل والرزانة إلى حالات من النشوة، متفوقاً على جميع الآلهة الكليّة المحددين منذ أزمان ما عدا قابليته على الفناء: كان أوسكار يستطيع القراءة، ويجد متعة في ذلك، بينما كانت الآلهة تمارس الرقابة على أنفسها. وكما يألف المرء بناية مؤجرة وروائح مطبخ لتسعة عشر طرفاً مؤجر؛ فإنني ودّعت كلّ درجة سلّم وكلّ طابق وكلّ باب مزوّد برقعة تحمل الاسم: آه يا أيها الموسيقي ماين الذي أرجعوه إلى داره باعتباره غير صالح للخدمة، فأصبح ينفخ في بوقه ثانيةً ويحتسي عرق العرعر من جديد، منتظراً أن يسوقوه مرّة أخرى - فساقوه فعلاً بعد ذلك؛ إلا أنهم لم يسمحوا له بأن يأخذ بوقه معه. آه أيتها السيّدة كاتر ذات الشكل غير المتناسق التي ابنتها زوزي لقّبت نفسها بمساعدة مخابرات. آه يا أكسل ميشكه، بم استبدلت سوطك؟ السيّد والسيّدة «فوفوت» اللذان يأكلان اللفت دائماً! السيّد هاينرت الذي كان يعاني من مرض في المعدة؛ لذلك بقي في شيشاو وليس لدى سلاح المشاة. وإلى جانبه والدا هاينرت اللذان مازالا يحملان لقب هايموفسكي. آه أيتها الأمّ تروجنسكي، لقد كانت الفأرة ترقد برقّة خلف باب البيت. وسمعتها أذني تصفر عبر الخشب. أمّا القصير الذي كان اسمه في الحقيقة ريتسل فقد وصل إلى رتبة ملازم، على الرغم من أنه كان يرتدي جوارب من الصوف في طفولته. كان ابن شلاغر قد فارق الحياة، وابن آيكه مات وابن كولين مات أيضاً. لكن الساعاتي لاوبشاد مازال حيّاً، يبعث الحياة في الساعات الميتة. والعجوز هايلاند واصل العيش ومازال يطرق المسامير ليقوّم اعوجاجها. وبدت السيّدة شفيرفنسكي متوعكة، وكان السيّد «شفيرفنسكي» سليماً معافى، ومع ذلك فقد توفي قبلها. وعلى الطابق

الأرضي، في الجهة المقابلة، من ذا الذي يسكن هنا؟ لقد سكن هنا ألفريد وماريا ماتسرات وطفل يكاد يبلغ عامه الثاني يسمونه كورت. ومن ذا الذي سيغادر البناية الضخمة المؤجرة المتنفسة بمشقة في وقت النوم الليلي؟ إنه أوسكار، والد كورت. ما الذي حمله معه إلى الخارج في الشارع المظلم؟ حمل معه طبله وكتابه الضخم الذي ثقّف نفسه به. لماذا بقي واقفاً من بين كلّ تلك البيوت المعتمة المؤمنة بإجراءات الحماية الجويّة أمام بيت واحد معتم مؤمن بإجراءات الحماية الجوّية؟ لأن الأرملة غريف سكنت هنا؛ الأرملة التي لا يدين لها أوسكار في الواقع بتعليمه لكن بمهاراته اليدوية البالغة الحساسية. ولماذا رفع طاقيته أمام البيت الأسود؟ لأنه أراد أن يحيي ذكر بائع الخضر غريف ذي الشعر المجعّد والأنف الصقري، لكن ذا العينين البنيّتين، والذي وزن نفسه وشنقها في آن، فبقي بعد شنقه أجعد الشعر، صقريّ الأنف، لكن بعينين بنيّتين كانتا قد رقدتا متأملتين في محجريهما، فتركهما تجحظان بمشقة. لماذا وضع أوسكار قلنسوة البحّارة المفلولة الأشرطة على رأسه مرّة أخرى وانطلق معتمراً قلنسوته؟ لأنه أتفق على موعد عند محطة قطارات البضائع في لانغفور. فهل وصل إلى مكان اللقاء في الوقت المحدد؟ نعم؛ لقد جاء. وذلك يعني أنه وصل في الدقيقة الأخير إلى جسر سكّة الحديد بالقرب من نفق «برونسهوفرفيغ.» ليس لأنني توقفت عند عيادة الدكتور هولاتس القريبة من هناك، إنما ودّعت في الواقع الممرضة إنغا في أفكاري وبعثت تحياتي إلى بيت الخبّاز في كلاينهامرفيغ، بيد أنني فعلت ذلك كلّه أثناء المشي، ماعدا بوّابة كنيسة-قلب-يسوع التي اضطرتني إلى التوقف، فكادت تؤخرني عن موعدي. كانت البوّابة موصدة، وعلى الرغم من ذلك، تخيلت بدقّة متناهية الصبي يسوع الورديّ العاري الجسد يستقر على فخذ مريم العذراء، فحضرت أمي المسكينة من جديد، والتي جثت على ركبتها في كرسي الاعتراف، ثم ملأت أذن حضرة القسيس فيهنكه بآثامها المستمدة من المتاجرة ببضائع المستعمرات، مثلما كانت تعبئ السكّر في أكياس من وزن نصف الكيلو وربعه. إلا أن أوسكار قد جثا أمام المذبح الجانبي، وأراد أن يعلّم الصبي يسوع التطبيل،

بيد أن الطفل لم يطبل، ولم يظهر لي أي معجزة. لكن أوسكار أقسم آنذاك وأعاد القسم قبالة بوّابة الكنيسة المقفلة الآن: بأنني سأعلمه التطبيل لا محالة. وإذا لم أفعل ذلك اليوم، فغدا! ولأنني كنت مزمعاً على القيام برحلة طويلة فقد جعلت تنفيذ القسم بعد غد، ثم أدرت ظهري، ظهر الطبّال، إلى بوّابة الكنيسة، وبتّ متأكداً من أن يسوع لن يفلت مني، ثم تسلقت جسر السكّة الحديدية إلى جانب نفق الأرصفة، فأضعت بعضاً من غوته وراسبوتين، ومع ذلك فقد جلبت معي القسم الأعظم من زادي التعليمي إلى الجسر بين سكك القطارات، وصرت أتعثر مسافة مرمى حجر بالحصى والموانع، وهرعت نحو بيبرا المنتظر حتى كدت أرتطم به، كان الظلام يسود إلى هذه الدرجة. فهتف النقيب والمهرج الموسيقي: «هاهو صاحبنا عبقري الصفيح!» ثم صار أحدنا يأمر الآخر باتخاذ الحيطة والحذر، فأخذنا نتلمس طريقنا عبر الأرصفة والتقاطعات، ضائعين بين عربات البضائع المتحركة إلى الخلف، المتحوّلة من سكّة إلى أخرى، حتى عثرنا أخيراً على قطار العائدين من الجبهة الذي خصص جناح منه لمسرح بيبرا الميداني.

كان أوسكار قد خلّف وراءه قدراً من الرحلات بالترام، والآن عليه أن يستقل القطار أيضا. عندما دفعني بيبرا إلى المقصورة، رفعت راغونا بصرها عن قطعة للخياطة وابتسمت، وقبلتني على خدّي وهي باسمة، ثم قدمت لي بقية فرقة مسرح الجبهة دون أن تنقطع عن الابتسام أو توقف أصابعها عن الخياطة: البهلوانان فيلكس وكيتي. لم تكن كيتي، الشقراء الشعر، الرمادية الجلد قليلاً، خالية من الجاذبية، إنما تمتعت بقامة السنيورة تقريبا. كانت لهجتها السكسونية الخفيفة قد جعلتها تزداد فتنة. كان البهلوان فيلكس أطول أعضاء الفرقة قامةً، بحيث بلغ طوله مائة وثمانية وثلاثين سنتمتراً كاملة بكلّ سرور. فكان المسكين يعاني من هذا القياس الملفت للنظر. وقد بلغت عقدته النفسية مداها الأقصى بعدما ظهرت أنا بسنتمتراتي الأربعة والتسعين. إضافة إلى أن هذا البهلوان كان يتمتع بمظهر جانبي يشبه مسقط حصان السباق المدجن أبّاً عن جدّ؛

فلذلك كانت راغونا تناديه بـ "Cavallo" أو "Felix Cavallo". وقد ارتدى بذلة ميدان رمادية مثل النقيب بيبرا، إلا أنه كان يحمل في الواقع رتبة رئيس عرفاء. وكانت السيّدات قد تلفعن بفساتين ميدان رمادية معدة المسفر وخالية من الأناقة. ثم أتضح أن تلك المشغولة اليدوية التي رقدت تحت أصابع راغونا كانت عبارة عن قطعة قماش ميدانية رمادية اللون: فتحولت فيما إلى قيافة لي، تبرّع لي بها فيلكس وبيبرا، وتناوبت كيتي وروزفيتا على خياطتها، فكانتا تقصقصانها من هذا الطرف أو ذاك حتى نشأ منها سروال وسترة وطاقية حربية حسب قياساتي. إلا أنهم لم يعثروا على حذاء مناسب لي في أي مستودع من مستودعات ملابس الجيش الألماني، فتوجب علي الاكتفاء بحذائي المدني ذي الربّاط، ولم استلم حذاءً ميرياً مخصصاً للجنود.

لقد قاموا بتزوير أوراقي الرسمية، فبدا البهلوان فيلكس بارعاً للغاية في هذا الميدان الحسّاس، بحيث أنني لم استطع الاحتجاج قطّ بسبب الأدب والمجاملة على الأقل، فجعلتني السرنمية العظيمة انتحل شخصية شقيقها؛ شقيقها الأكبر سناً بالمناسبة: أوسكارنيللو راغونا، المولود في الواحد والعشرين من أكتوبر من العام ألف وتسعمائة واثني عشر بنابولي. لقد حملت ومازلت أحمل إلى اليوم مختف الأسماء. فكان أوسكاريللو راغونا واحداً منها، ولم يكن أسوأها وقعاً بالتأكيد.

ثم انطلقنا كما يقال، مخترقين «شتولب» و«شتيتين» وبرلين وهانوفر وكولونيا حتى وصلنا ميتس. فلم أر شيئاً من برلين، حيث توقفنا خمس ساعات. بالطبع كان هناك إنذار بشنّ غارة جوّية. فتوجب علينا الذهاب إلى سرداب توماس. كان العائدون قد انحشروا تحت القباب مثل سمك السردين. وألقيت علينا تحية سريعة عندما حاول أحد رجال الجندرمة أن يمررنا إلى السرداب. كان بعض الجنود العائدين من الجبهة الشرقية يعرفون بيبرا وجماعته من خلال عروض مسرحية قدموها في الجبهة، فصاروا يصفقون ويصفرون وأخذت راغونا تقذف بالقبلات اليدوية. فطولبنا بتقديم عرض مسرحي، وتمّ نصب شيء يشبه المنصّة في نهاية

سرداب البيرة المقوس وعلى نحو ارتجالي خلال دقائق. فبدا من الصعب على بيبرا أن يرفض، لاسيما أن رائداً في سلاح الجوّ ترجى منه بحرارة واحترام مبالغ فيهما أن يجود على هؤلاء الناس بأفضل ما عنده. فتوجب على أوسكار أن يساهم في عرض مسرحيّ حقيقي للمرّة الأولى في حياته. وعلى الرغم من التحضيرات التي قمت بها - لقد أجريت بعض البروفات على دوري مع بيبرا أثناء رحلة القطار -، إلا أن اضطراباً اعتراني قبل الظهور على المنصّة، حتى أن راغونا وجدت في ذلك فرصة لتهدأ خواطري من خلال لمسات يديها.

حالما نقلت أمتعتنا الفنيّة خلفنا - كان الجنود متحمسين جدّاً - بدأ فيلكس وكيتي بتقديم فقراتهما الاستعراضية. كان كلاهما بشراً من مطّاط، فكانا يعقدان جسديهما ويجدان طريقهما عبر جسديهما أو يخرجان منهما أو يلتفان حولهما؛ ويقتطعان جزءاً ويضيفان إلى بعضهما شيئاً جديداً، ثم يتبادلان هذه الجزء أو ذاك، مولدين لدى الجنود المبحلقين المحتشدين آلاماً عضويةً شديدةً وتصلباً في العضلات سيدوم أيّاماً طويلة. وبينما كان فيلكس وكيتي يطويان جسديهما أو يقومانهما، اعتلى بيبرا المنصّة لاعباً دور المهرّج الموسيقي. فأخذ يعزف الأغاني الشائعة لتلك الأعوام على قنان فارغة وممتلئة، مثل «أريكا» و «يا أميمتي أهدي لي جواداً»، تاركاً أنغام «نجومك يا وطن» تصدح من أعناق الزجاجات وتتألق، ثم عمد إلى ترديد أفضل فقراته بعدما لا حظ بأن ما قدمه لم يلهب حماس الجمهور، فانطلق من الزجاجات لحن "Jimmy the Tiger". فلم يعجب اللحن الجنود العائدين وحدهم، بل وجد طريقه إلى أذن أوسكار المدللة؛ بعدما قدم بيبرا بعض الألعاب السحريّة الصبيانية في الواقع، لكنها كانت أكيدة النجاح، معلناً عن قدوم روزفيتا راغونا السرنمية العظيمة وأوسكارنيللو راغونا الطبّال قاتل الزجاج، فبدا الجمهور حامياً تماماً: فلا يمكن لروزفيتا وأوسكار إلا أن يكللا بالنجاح. فافتتحت عروضنا بزوبعة تطبيل خفيفة، ثم أحضرت الذروة بزوبعة مستفيضة، مستحثاً الجمهور بعد العروض من خلال ضربة فنيّة بارعة على التصفيق وتقديم إعجابه. كانت راغونا تنادي

على جنديّ ما من الجمهور، حتى لو كان ضابطاً، طالبةً من رؤساء العرفاء المسنين أو من طلاّب الكلّية العسكرية الوجلين أو الوقحين، باتخاذ مقعداً إلى جانبها، ثم تبصر في قلبه - كانت تتقن ذلك - وتفشي إلى الحشد ببعض من خصوصيات الحياة الشخصية لرؤساء العرفاء أو طلاّب الكليّة الحربية، فضلاً عن التواريخ والمعلومات العامة المستمدة من بطاقات الجنود الشخصية التي تكون صحيحة دائماً. كانت تفعل ذلك بمتعة، هاتكة الأستار بخفّة روح ودعابة، فتهدي لكلّ من عرّته مثلما يقول الجمهور زجاجة بيرة ممتلئة، وتطلب من المنعم عليه بالهدية أن يرفع الزجاجة بوضوح إلى الأعلى لكي تكون مرئية من قبل الجميع، ثم تصدر لي، أي لأوسكاريللو، إشارة: فأطلقت زوبعة تطبيل بدت بمثابة لعبة أطفال بالنسبة لصوتي الذي أعتاد على إنجاز مهمات أخرى، فجعلت زجاجة البيرة تتفجر شظاياً، مصدرةً صوت فرقعة؛ فلم يبق سوى وجه رئيس العرفاء الظمآن المرشوش بالبيرة والمغسول بمياه الأرض كلّها أو وجه طالب الكليّة الحربية اللبنيّ الأديم - ليتعالى التصفيق العاصف فترة طويلة، مختلطاً بصخب القصف الجوّي العنيف الموجّه إلى عاصمة الرايخ الألماني.

لم يكن ما قدمناه من الطراز الرفيع، إلا أنه رفّه عن الناس فجعلهم ينسون الجبهة والإجازة وفكّ الأسر عن ضحكهم وقهقهتهم غير المتناهية، إذ بعدما بدأت الألغام الجويّة تتقاطر علينا وصارت ترجّ السرداب بمحتوياته وتطمره معها، مصادرةً الضوء ومعه ضوء الطوارئ تعالت أصوات القهقهة في التابوت المظلم الخانق، فأخذت الناس يلهجون باسم «بيبرا!» و «نريد نسمع بيبرا!» فجاء بيبرا الطيّب القلب الذي لا يبلى أبداً، ولعب دور المهرج في العتمة، حاثاً الحشد المطمور على إطلاق دفعات من الضحك، ثم نفخ في البوق عندما صار البعض يطالب براغونا وأوسكاريللو، عازفاً لهم: «سنيورة راغونا متعبة تماااماً، يا أعزائي جنوووود الرصاص. أيضاً أوسكاريللو-الصغير يجب أن يأخذ قيلووولة صغيرة من أجل الرايخ الألماني العظييم ومن أجل النصر الحاسم!»

وقد رقدت روزفيتا إلى جانبي خائفةً، لكن أوسكار لم يخف، ومع ذلك رقد إلى جانب راغونا. فجعل خوفها وشجاعتي أيدينا تلتقي ببعضها، فصرت أبحث عن خوفها وهي بدورها بحثت عن شجاعي. أخيراً تسرب الخوف لي أنا، لكنها ظفرت بالشجاعة. ولمّا أبعدت الخوف عنها في المرّة الأولى، ومنحتها الشجاعة، ارتفعت شجاعتي الرجولية للمرّة الثانية. وبينما أحصت شجاعتي أربعة عشر عاماً رائعة؛ فإنها استسلمت لخوفها الذي تدربت عليه فجعلني أشعر بالشجاعة، لكنني لا أعرف كم مرّة وقعت ضحية الخوف، ولم أعد أعرف في أي عام من أعوام الحياة كانت تقف. إذ أن جسدها الكامل والمفصل عليها باقتصاد، لم تكن له أدنى علاقة، شأنه شأن وجهها، بآثار الزمن وتجاعيده. لقد استلمت لي روزفيتا بشجاعة سرمدية وخوف سرمدي. فليس هناك من سيعلم بأن تلك القزمة التي نفضت عنها خوفها بفعل شجاعتي في سرداب توماس المطمور إثر قصف جوّي مركّز على عاصمة الرايخ الألماني، إلى أن انتشلنا رجال الحماية الجوّية من الأنقاض، قد بلغت التاسعة عشرة أو التاسعة والتسعين من السنّ؛ إذ سيكون من السهل على أوسكار التكتم طالما كان هو نفسه غير عارف فيما إذا كان ذلك العناق الأوّل حقّاً، المناسب تماماً لقياسات جسده، قد منحته إيّاه عجوز شجاعة أم فتاة استلمت له بفعل الخوف.

تفقّد الخرسانة -
أو الضجر الذي لا يحتمل

قدمنا عروضاً مسرحية طوال ثلاثة أسابيع، مساءً بعد آخر، على خشبة المخبأ المضاد المقاوم للقصف في الحامية- والمدينة الرومانية ميتس. ثم عرضنا البرنامج نفسه في مدينة نانسي لمدة أسبوعين. وقد استضافتنا مدينة شالون-سور-مارن أسبوعاً كاملاً بكلّ لطف. كان بإمكان المرء أن يعجب بمرأى الأضرار التي خلفتها الحرب العالمية الأولى في مدينة ريم. فكان معرض الحيوانات المشيد بالحجر التابع للكاتدرائية الذائعة الشهرة في أرجاء العالم يبصق الماء بلا انقطاع على رصيف المشاة، مشمئزاً من بني آدم : ذلك يعني مطراً كلّ يوم في ريم، حتى أثناء الليل. بدلاً من ذلك، حظينا بسبتمبر مشرق في باريس. كان قد سمح لي بالتجوال على الأرصفة، متأبطاً ذراع روزفيتا، محتفلاً بعيد ميلادي التاسع عشر. وعلى الرغم من أنني عرفت العاصمة من خلال البطاقات البريدية لنائب الضابط فرتس تروجنسكي، إلا أن باريس لم تخيب ظنّي أبدا. فعندما وقفنا، روزفيتا وأنا، عند قدم برج أيفل - أنا بسنتمتراتي الأربعة والتسعين وهي بقامتها البالغة تسعة وتسعين سنتمتراً - أدركنا، ذراعاً بذراع، وللمرّة الأولى، حجمنا الحقيقي وخصوصيتنا النادرة. فقبلنا بعضنا في عرض الشارع، غير أن ذلك لم يكن يعني شيئاً في باريس.

آه يا صحبة الفنّ والتاريخ الرائعة! حين قمت بزيارة لكنيسة العجزة، وأنا لم أزل ممسكاً بذراع روزفيتا، أحييت في ذهني ذكرى القيصر غير

الممشوق القامة، القريب منّا لهذا السبب بالذات، فتكلمت مستخدماً عبارات نابليون نفسها. فمثلما قال نابليون على قبر فريدرش الثاني الذي لم يكن بدوره عملاقاً: «لو كان هذا يعيش الآن لما وصلنا إلى هنا!» فهمست برقة في أذن روزفيتا: «لو كان الكورسيكي حيّاً إلى اليوم فلما وقفنا هنا، ولما قبّلنا بعضنا تحت الجسور وعلى الأرصفة، sur le «trottoir de Paris. أو وجه طالب الكلّية الحربية الحليبوضمن إطار برنامج ضخم قدمنا عروضاً في Salle Pleyel ومسرح ساره بيرنهارد. فتأقلم أوسكار بسرعة مع ظروف المنصّات في المدن الكبرى، مهذباً من ذخيرتي الفنيّة، مكيّفاً نفسي مع الذوق المترف لقوات الاحتلال الباريسية: فلم أعد أحطم زجاجات البيرة الألمانية العادية، كلا؛ إنما حطّمت بصوتي مزهريات أو آنية فاكهة جميلة الانسياب منفوخة بأقصى ما يمكن من رقة ومنتقاة من القصور الفرنسية. لقد أقمت برنامجي على أسس ثقافية تاريخية، فبدأت بأقداح زمن لويس الرابع عشر، محيلاً الإنتاج الزجاجي لعصر لويس الخامس عشر إلى تراب من زجاج. وغزوت بعنف كؤوس لويس السادس عشر المنكوب وعقيلته ماري أنطوانيت المقطوعة الرأس، مستعيداً زمن الثورة، ثم تناولت بعضاً من زجاجيات لويس فيليب، وفي الأخير دخلت في معترك مع منتجات الفنطازيا الزجاجية لطراز المعمار الفرنسي الحديث. وإذا ما عجز الحشد الرمادي على المقاعد الأرضية والشرفات من متابعة التسلسل التاريخي لعروضي، مصفقين للشظايا باعتبارها مجرد شظايا من زجاج؛ فإن هناك أحياناً ضباط أركان وصحفيين من الرايخ الألماني يعربون عن إعجابهم بإدراكي لما هو تاريخي. فقد نطق أحد المتعلمين من أصحاب القيافات العسكرية بعبارات مجاملة حول عروضي الفنيّة عندما قدمونا له بعد عرض أقيم على شرف القادة العسكريين. واعترف أوسكار بالجميل لمراسل إحدى الصحف البارزة في دولة الرايخ الذي كان مقيماً في مدينة السين والذي برهن على أنه كان مختصاً في الشؤون الفرنسية، فصوّب لي بسريّة تامة بضعة أخطاء طفيفة، هذا إذا لم يكن ينتبه إلى خروجي عن السياق في برنامجي الاستعراضي.

لقد أمضينا الشتاء في باريس، حيث أقمنا في فندق من الدرجة الأولى، ولا أودّ أن أكتم هنا بأن روزفيتا كانت تجرّب دائماً مزايا الفراش الفرنسي إلى جانبي طوال فترة الشتاء الطويل. هل كان أوسكار سعيداً في باريس؟ وهل نسي أحبائه في بلدته، ماريا وماتسرات وغريتشن وألكسندر شفلر، وهل نسي أوسكار ابنه كورت وجدّته آنا كولياجك؟ إلا أنني لم أفتقد أيّاً من أفراد أهلي، حتى لو كنت لم أنسهم. لذلك لم أبعث إليهم ببطاقات بريد، ولم أعطهم أي علامة على بقائي حيّاً يرزق، إنما منحتهم فرصة العيش عاماً كاملاً بدوني؛ إذ أنني كنت قد اتخذت قراراً بالعودة أثناء سفري، وكنت مهتماً في معرفة كيف أنهم كانوا يدبرون أمورهم في غيابي. فكنت أحياناً أبحث في وجوه الجنود عن الملامح المعروفة بالنسبة لي، فكنت أفعل ذلك في الشوارع أو أثناء العروض أيضا. فربما سُحب فرتس تروجنسكي أو أكسل ميشكه من الجبهة الشرقية ونقلا إلى باريس؛ هكذا كان أوسكار يقلّب أفكاره، بل أنه ظن ذات مرّة أو مرتين بأنه لمح شقيق ماريا النشيط بين رهط من جنود المشاة، لكنه لم يكن موجوداً بينهم: فاللون الرمادي خدّاع!

كان برج أيفل وحده الذي جعلني أشعر بالحنين إلى أهلي. وليس بمعنى أنني صعدته فأغراني المشهد البعيد، موقظاً في نفسي نزعة الحنين إلى الوطن. لقد تسلق أوسكار البرج على البطاقات البريدية وفي أفكاره مرّات عديدة، بحيث أن الصعود الحقيقي لم يعد يعني لي سوى الهبوط المخيّب للآمال. حينما كنت أجلس، أو أتربع بمفردي، عند قدم برج أيفل، دون صحبة روزفيتا، هناك في أسفل بداية التركيب المعدني الجريء؛ فإن القبة المقفلة من الأعلى التي تتيح الرؤية على الرغم من ذلك كانت تستحيل بنظري إلى قلنسوة جدتي آنا التي تغطي كلّ شيء: إذا ما جلست تحت برج أيفل؛ فإنني كنت اجلس في الوقت ذاته تحت أثوابها الأربعة، ويتحوّل ميدان الاستعراضات العسكرية عند البرج بنظري إلى حقول بطاطس كاشوبية، فيسقط مطر أكتوبر/ تشرين الأوّل الباريسي مائلاً بلا كلل بين بيساو ورامكاو، فتكون لباريس برمتها، بما فيها مترو الأنفاق،

رائحة في أنفي خلال تلكّ الأيّام، تشبه رائحة الزبد الزنخ قليلاً، فأصبح واجماً متأملاً، فتتحاشاني روزفيتا بحذر، مراعية ألمي؛ إذ أنها كانت من الصنف المرهف الإحساس.

وفي إبريل / نيسان من العام الرابع والأربعين - أعلن عن اختصارات ناجحة على جميع الجبهات - توجب أن علينا أن نحزّم أمتعتنا الفنيّة ونغادر باريس، لكي نُسعد ساتر المحيط الأطلسي المنيع بمسرح بيبرا الميداني. بدأنا جولتنا المسرحية في «لوآفر». بدا لي بيبرا قليل الكلام، شارد الذهن، فحتى لو أنه لم يكن يفشل في عروضه أبداً، جاعلاً الضاحكين إلى جانبه، كما كان عهده في السابق؛ فإن وجهه السحيق القدم الذي يشبه وجه نارسس كان يصاب بالتحجّر حالما تسدل آخر ستارة. في البدء ظننته غيوراً، بل أسوأ من ذلك؛ فرأيته مستسلماً أمام عنفوان شبابي. وأوضحت لي روزفيتا الأمر همساً، على الرغم من أنها لم تكن مطلعة عليه بدقّة، فجاءت على ذكر الضبّاط الذي كانوا يجتمعون إلى بيبرا خلف الأبواب الموصدة بعد انتهاء العروض. فبدا كأن الأستاذ قد تخلّى عن هجرته الداخلية، وبدأ يخطط لشيء مباشر كما لو أن دم سلفه الأمير أويغن استولى عليه وصار يتحكم به. لقد أبعدته خططه عنّا، ودفعت به إلى آفاق شاسعة، حتى أن علاقة أوسكار الوثيقة بصاحبته السابقة روزفيتا استدرجت من وجهه المتغضن ابتسامة متعبة. فعندما باغتنا حين كنّا منهمكين بالعناق فوق بساط حجرة ملابسنا المشتركة - حدث ذلك في تروفيل، حيث أقمنا في فندق للاستجمام - غضّ النظر عنّا حين حاولنا الانفصال عن بعضنا، وقال مخاطباً مرآة الزينة الخاصة به: «تعانقوا يا أبنائي، قبّلوا بعضكم بعضاً، فغداً ستتفقّد الخرسانة، وبعد غد ستصرّ الخرسانة بين شفاهم، وستسلب منكم لذّة القبل!»

وقع ذلك في يونيو / حزيران من العام الرابع والأربعين، فكنّا في تلك الأثناء قد طفنا حول ساتر الأطلسي من خليج بسكايا إلى هولندا، إلا أننا بقينا معظم الأحيان في ظهير البلاد، فلم نرى الكثير من المخابئ الأسطورية، وبدأنا بالتمثيل على الساحل مباشرةً في تروفيل أوّل الأمر.

فعُرض علينا أن نشاهد ساتر الأطلسي. فأبدا بيبرا موافقته. كان ذلك هو العرض الأخير في تروفيل. وفي الليل نُقلنا إلى قرية بافن الصغير الواقعة قبل كين بمسافة قصيرة، أربعة كيلومترات خلف رمال الشاطئ. وثمة مراع وأسوار من أحراش وأشجار تفّاح وكان الناس هناك يقطّرون خمرة الفاكهة التي تدعى كالفادوس، فكنّا نرتشف منها لننام بعمق. ثمّة هواء لاذع هبّ عبر النافذة، وبركة ضفادع نقّت حتى الصباح. فهناك ضفادع تجيد التطبيل. لقد سمعتها تنذرني وأنا غاف: يجب أن تذهب إلى البيت يا أوسكار، فقريباً سيبلغ ابنك كورت سنّ الثالثة، وعليك أن تزوده بالطبل الذي وعدته به!

كان أوسكار عندما يفزّ من نومه مُحذِّراً ساعة إثر ساعة بصفته أباً معذباً يبدأ بتحسس ما في جانبه، ليتأكد من وجود روزفيتا، فيستنشق عبيرها: كانت لراغونا رائحة القِرفة والقرنفل المدقوق وجوز الطِّيب؛ بل كانت رائحتها مثل رائحة توابل فطائر ما قبل عيد الميلاد، وتبقى متحفظة بها حتى في الصيف. وفي الصباح مرقت من أمام البيت الفلاّحي عربة مصفحة، فسرت رجفة خوف في أوصالنا كلّنا عند بوّابة ذلك البيت. كان الوقت مبكراً بارداً، وكّنا نثرثر في مواجهة الريح المنطلقة من البحر، ثم ركبنا: بيبرا وراغونا وفيلكس وكيتي وأوسكار وذلك الملازم الأوّل المدعو هيرتسوغ الذي اصطحبنا إلى سريته المتموضعة غرب كابورغ. وعندما أقول إن منطقة النورماندي كانت خضراء؛ فإنني أخفي ذكر الأبقار المبقعة بالأبيض والأحمر المتناثرة على يمين الشارع القروي المستقيم وعلى شماله، منهمكةً في ممارسة مهنة القضم وسط المراعي التي غشيها الضباب الخفيف والطلل، ملتقيةً بمركبتنا المصفحة برباطة جأش من شأنها أن تجعل درع المركبة الفولاذي يصطبغ بحمرة الخجل لو لم يكن مموهاً أصلاً بالطلاء. مررنا بأشجار حور وسياجات شجريّة وأحراش زاحفة، وبأولى الفنادق الساحلية المتداعية الخاوية التي كانت مصاريع نوافذها ترتطم ببعضها البعض، ثم انعطفنا في المتنزه، وترجلنا، وسرنا خلف الملازم الأوّل الذي كان يتصرف إزاء النقيب بيبرا باحترام عسكري بالغ،

وإن كان لا يخلو في الواقع من العجرفة، عبر الكثبان في مواجهة الريح المليئة بالرمال وصخب الأمواج المتلاطمة.

ولم يكن ذلك بحر البلطيق الهادئ الذي كان ينتظرني بلونه الأخضر خضرة الزجاج، منتحباً نحيب الفتيات. فالمحيط الأطلسي أخذ يجرّب هنا مناورته القديمة: فكان يفيض عند المدّ ويتراجع عند الجزر. أخيراً ظفرنا بها، أي الخرسانة. فسُمح لنا بأن نتحسسها لنعلن عن إعجابنا بها، لكنها لم تحرك ساكناً، فهتف أحد ما «حذار!» ثم قذف بنفسه من وراء المخبأ الذي كان له هيئة السلحفاة المستوية الظهر والمنتصب بين كثيبين، مخبأ اسمه «دورا سبعة» وكان مزوداً بكوّة للرماية وشقّ طولي للرؤية وأسلحة من العيار الخفيف. أمّا الرجل الذي قدم نفسه للملازم الأوّل هيرتسوغ ونقيبنا بيبرا فقد كان يدعى رئيس العرفاء لانكس.

لانكس محيياً: دورا سبعة، رئيس عرفاء، أربعة جنود. لا أحداث مهمة!

هيرتسوغ: شكراً! استرح يا رئيس العرفاء لانكس. - لقد سمعتم يا سيادة النقيب بأن لا أحداث مهمة. وهذا هو الوضع منذ أعوام.

بيبرا: على الأقل هناك مدّ وجزر! فهذه عروض الطبيعة!

هيرتسوغ: هذا هو بالضبط ما يجعل جماعتنا يشعرون بالإرهاق، ولهذا السبب بالذات أقمنا مخبأ جنب آخر. فصارت تقع بالنسبة لنا في مجال الرماية المتبادلة بيننا أنفسنا. فقريباً سوف ينسفون بعض المخابئ، ليهيئوا مكاناً للخرسانة الجديدة.

بيبرا يقرع الخرسانة بيده، فيقلده أعضاء مسرحه الميداني: وهل يؤمن السيّد الملازم الأوّل بالخرسانة؟

هيرتسوغ: ليست هذه بالعبارة المناسبة. إننا لم نعد نؤمن هنا بأي شيء. وإلا يا لانكس؟

لانكس: أجل يا سيّدي الملازم الأوّل؛ لا نؤمن بعد بأي شيء!

بيبرا: لكنكم تخلطون وتدوسون بأقدامكم.

هيرتسوغ: يقيناً. فنحن نجمع خبرات وتجارب أثناء ذلك. لم أكن في البدء أفقه شيئاً عن البناء؛ كنت درست قليلاً، ثم انفلتت الأمور. أتمنى الاستفادة من خبراتي في مجال تحضير الإسمنت بعد الحرب. فيجب أن يعاد بناء كلّ شيء، في الوطن. انظروا إلى الإسمنت عن قرب. بيبرا وجماعته يقربون أنوفهم من الخرسانة. ماذا رأيتم؟ أصدافاً؟ فكل شيء ملقى أمام الباب، ولا نحتاج أكثر من أن نجمعه ثم نخلطه. الحجر والأصداف والرمل والإسمنت... ما الذي يجب أن أقوله لكم يا حضرة النقيب؛ إنكم ستتفهمون الأمر بصفتكم فناناً وممثلاً. لانكس! احكي للسيّد النقيب عما هرسناه وخلطناه في المخبأ.

لانكس: أجل يا سيّدي الملازم الأوّل. لقد خلطنا جراء الكلاب بالإسمنت. تحت كلّ أساس من أسس المخابئ يرقد جرو مدفونا.

جماعة بيبرا: كُليب!

لانكس: سيخلو القاطع كلّه من كين إلى أفره من جراء الكلاب.

جماعة بيبرا: لم تعد هناك كُليبات!

لانكس: نعم؛ كانت همتنا عالية.

جماعة بيبرا: عالية بهذا الشكل!

لانكس: سنضطر قريباً إلى استخدام فراخ القطط.

جماعة بيبرا: مياو!

لانكس: لكن القطط ليست بذات قيمة كاملة كصغار الكلاب. لذلك فنحن نأمل أن تنطلق قريبا.

جماعة بيبرا: الحفلة التشريفية! يصفقون بحماس.

لنكس: لقد تمرنا بما فيه الكفاية. فإذا ما نفدت لدينا جراء الكلاب...

جماعة بيبرا: آه!

لانكس: ... فإننا لا نستطيع إقامة أي مخبأ. لأن القطط لا تعني فألاً حسنا.

جماعة بيبرا: مياو، مياو!

لانكس: إذا ما رغب السيّد النقيب في أن أذكر له باختصار لماذا نحن بحاجة إلى صغار الكلاب...

جماعة بيبرا: الكُلَيبات!

لانكس: فلا يسعني إلا القول بأنني لا أومن بذلك!

جماعة بيبرا: يا للعار!

لانكس: غير أن الزملاء هنا معظمهم قادم من الريف. فهناك مازال الناس يفعلون الشيء ذاته إذا ما شيّدوا بيتاً أو مخزن غلال أو كنيسة قرويّة، حينئذ يجب أن يُدفن فيها شيء ما حيّ، و...

هيرتسوغ: كفى! لا بأس بذلك. استرح! مثلما استنتج حضرة النقيب فإن الناس هنا عند ساتر الأطلسي منغمسين في الخرافات. تماما كما هو الحال عندكم في المسرح؛ إذ لا يجور أن يصفر أحد قبل العرض الافتتاحي حين يقوم الممثلون بتشجيع بعضهم بعضاً فيبصقون

جماعة بيبرا: بالتوفيق والنجاح. ثم يبصقون عبر أكتافهم(*).

هيرتسوغ: دعوا المزاج جانبا. على المرء أن يترك الناس يستمتعون بلهوهم. فقد سُمح لهم حسب الأوامر العليا بأن يوضعوا فسيفساء من الأصداف الصغيرة وزخارف الإسمنت في مخارج المخابئ. فالناس يريدون أن يشغلوا أنفسهم. لذلك فإنني أقول وأكرر القول لرئيسي الذي تزعجه منمقات الإسمنت بأن المنمقات في الإسمنت أفضل يا حضرة الرائد من المنمقات في الدماغ. فنحن الألمان هواة أصحاب هوايات. فما الذي يمكن أن نفعله إزاء ذلك!

بيبرا: نحن أيضاً نساهم في الترفيه والتسرية عن الجيش المنتظر في ساتر الأطلسي...

(*) عبارة تعني حرفيّاً البصاق عبر الأكتاف قبل القيام بعمل ما، لاسيما أعمال الفروسية. والبصاق عبر الكتف يعني في الأساطير الألمانية طرد الشيطان وجلب الحظّ.

جماعة بيبرا: مسرح بيبرا الميداني يغني لكم ويمثل لكم ليعينكم على تحقيق النصر الأخير!

هيرتسوغ: صحيح تماماً ما ترونه ويرونه أصحابكم. لكن المسرح لا يستطيع أن يؤدي تلك المهمة وحده. فغالباً ما نعتمد نحن على أنفسنا، فيساعد أحدنا الآخر حسب استطاعته. وإلا يا لانكس؟

لانكس: أجل يا سيّدي الملازم الأوّل، حسب استطاعة المرء!

هيرتسوغ: لقد سمعتم الكلام. - إذا ما كان السيّد النقيب يسمح لي؛ يجب أن أتفقّد دورا رقم أربعة ودورا رقم خمسة في الناحية المقابلة. انظروا بكلّ هدوء إلى الخرسانة، فإنها عالم قائم بذاته. لانكس سيطلعكم على كلّ شيء...

لانكس: سأطلعهم على كلّ شيء يا حضرة الملازم الأوّل!

هيرتسوغ وبيبرا يتبادلان التحيّة العسكرية. وهيرتسوغ ينصرف من جهة اليمين. فيقفز أوسكار وراغونا وفيلكس وكيتي الذين مكثوا حتى ذلك الحين خلف بيبرا إلى الأمام. أوسكار يمسك بطبله، وراغونا تحمل سّلة مُؤنَة، فيلكس وكيتي يتسلقان على السطح الإسمنتي للمخبأ، ويبدأن هناك بتمارينهما البلهوانية. أوسكار وروزفيتا يلعبان بالجردل والمجرفة الصغيرين في الرمل، متظاهرين بأنهما واقعان في غرام بعضهما، يهتفان لفيلكس وكيتي ويمازحانهما.

بيبرا مسترخياً بعدما عاين المخبأ من جميع الجهات: قل لي يا رئيس العرفاء لانكس ما هي مهنك بالأصل؟

لانكس: رسّام يا حضرة النقيب. لكن هذا كان منذ زمن طويل.

بيبرا: تقصد صبّاغ بيوت.

لانكس: بيوت أيضاً، يا حضرة النقيب، لكن عدا ذلك فإنني منشغل أكثر بالفن.

بيبرا: اسمعوا، اسمعوا؛ هذا يعني أنك تسير على منوال رمبرانت العظيم، وربما فيلاثكويث

لانكس: بين الاثنين تماماً.

بيبرا: يا إلهي! يا رجل!؟ فهل ترى نفسك مضطراً إلى خلط الخرسانة وسحقها وحراستها؟ إن مكانك بلا شكّ في سريّة الدعاية؛ فأنت رسّام حربي، ونحن بحاجة إليك!

لانكس: كلا يا حضرة النقيب؛ هذه ليست وظيفتي. إنني أرسم بشكل منحرف بالنسبة لمصطلحات هذه الأيّام. لكن إذا كان السيّد النقيب يهب سيجارة لرئيس العرفاء؟ بيبرا يناوله سيجارة.

بيبرا: هل يعني الانحراف حداثة إلى حدّ ما؟

لانكس: ماذا تعني الحداثة؟ قبل أن يأتوا لي بخرسانتهم كان الانحراف حداثة لفترة طويلة.

بيبرا: هكذا إذاً؟

لانكس: آه!

بيبرا: إنك ترسم بطريقة التلطيخ الكثيف. يحتمل أن تكون صقّال جص؟

لانكس: نعم، أيضاً؛ إنني استخدم إبهامي بصورة آلية تماماً، فألصق المسامير والأزرار في الخرسانة. قبل العام الثالث والثلاثين كنت أضع الأسلاك الشائكة في حمرة الزنجفر فترة طويلة. فحظيت بمديح الصحافة. وهذه الأعمال معلقة الآن في منزل أحد جامعيّ الأعمال الفنية السويسريين، وهو صاحب مصنع للصابون.

بيبرا: هذه الحرب، يالها من حرب سيئة! واليوم أراك تسحق الخرسانة! معيراً عبقريتك لأعمال التحصين! بلا شكّ أن ليوناردو دافنشي ومايكل أنجلو فعلا الشيء ذاته في عصرهما. فكانا يضعان التصاميم للمقاصل ويشيدون الحصون إذا لم يكلفا بوضع صور وتماثيل السيّدة العذراء.

لانكس: إنك ترى هذه الحقيقة بنفسك! لابد أن تكون هناك ثغرة ما. فالفنان الحقيقي يجب أن يعبّر عن نفسه. هناك! إذا ما أراد السيّد النقيب رؤية الزخارف على مدخل المخبأ، فهي من أعمالي.

بيبرا بعد تفحّص دقيق: شيء مدهش! ياله من ثراء في الشكل، يا لها من قوّة تعبيرية صارمة!

لانكس: يمكن للمرء أن يطلق على هذا الأسلوب اسم تشكيلات بنيوية.

بيبرا: وهل يحمل نقشك البارز أو نحتك عنواناً؟

لانكس: لقد قلت للتو تشكيلات. لا مانع لي من أن نسميها تشكيلات منحرفة.

بيبرا: ومع ذلك؛ يجب عليك، بصفتك مبدعاً، أن تجد عنوناً ثابتاً غير قابل للالتباس لعملك هذا...

لانكس: عنواناً؟ ماذا يعني العنوان؟ إنه موجود فقط لأن هناك دليلاً لمعارض الفن.

بيبرا: إنك تتظاهر بالتواضع. فأرجو أن ترى فيّ صديقاً فنّاناً، وليس شخصية النقيب. سيجارة؟ لانكس يمدّ يده. إذاً؟

لانكس: إذا ما تعاملني بهذا الشكل. - لقد فكّر لانكس: إذا ما انتهى الأمر هنا. وسينتهي الأمر ذات يوم - بهذه الطريقة أو تلك - وستبقى المخابئ قائمة؛ لأن المخابئ يجب أن تكون قائمة دائماً، حتى لو تحطمت الأشياء الأخرى كلّها. ثم يحين الوقت المناسب! وستأتي القرون، حسب رأيي - يخفي السيجارة الأخيرة. هل لدى سيّدي النقيب سيجارة أخرى؟ شكراً وطاعة! - وستأتي القرون وتمرّ كما لو أنها لاشيء. لكن المخابئ ستبقى مثلما بقيت الأهرامات. وذات يوم جميل سيأتي ما يسمى بباحث العصور القديمة، فيفكّر: أي عصر فقير فنيّاً ذاك الذي ساد آنذاك بين الحرب العالمية الأولى والسابعة: خرسانة بليدة رمادية؛ سبائك مبتدئين فقيرة التعبير، مشغولة على الطراز المحلّي في مداخل المخابئ. - ثم يقع صدفةً على دورا أربعة ودورا خمسة، وستة وسبعة، فيرى تشكيلاتي البنيوية المنحرفة، فيخاطب نفسه: انظر إلى هذا. طريف. ويكاد يقول إنه عمل آسر، متوعد، وذو مستوى عقليّ خارق. لقد جاد به عبقري، ربما كان العبقري الوحيد في القرن العشرين، وقد فعل ذلك بوضوح تام من أجل العصور القادمة كلّها. - لكن فيما إذا كان هذا العمل يحمل عنواناً؟ وهل سيعبّر الإمضاء عن الفنّان نفسه؟ إذا ما أمعن السيّد

النقيب النظر، ومال برأسه؛ فإنه سيرى ما بين التشكيلات المنحرفة...

بيبرا: إليّ بنظارتي. ساعدني يا لانكس.

لانكس: لقد كُتب هنا: هربرت لانكس، العام ١٩٤٤. العنوان: غامض، بربريّ، متضجر.

بيبرا: إنك بذلك قد منحت قرننا اسمه.

لانكس: نعم؛ مثلما رأيتم!

بيبرا: ربما سيعثر المرء بعد خمسمائة عام أو بعد ألف عام أيضاً على بعض عظام الكلاب أثناء أعمال الترميم.

لانكس: وهذا من أن شأنه تأكيد عنواني.

بيبرا منفعلاً: ماذا يعني الزمن، بل ما هي قيمتنا نحن، يا صديقي العزيز، لولا أعمالنا... لكن انظر: هاهما فيلكس وكيتي، البهلوانان. إنهما يمارسان ألعاب الجمباز على الإسمنت.

كيتي ثمة ورقة تتنقل بين روزفيتا وأوسكار وبين فيلكس وكيتي ويكتبون عليها. كيتي تتحدث بلهجة سكسونية مخففة: انظر فقط يا سيّد بيبرا ما الذي يمكن أن يفعله المرء على الإسمنت. تسير على يديها.

فيلكس: لم يحدث أن قفز أحد (قفزة الموت) على الإسمنت. ينقلب في الهواء.

كيتي: كان علينا في الواقع أن نمتلك منصّة كهذه.

فيلكس: لكن الريح هنا شديدة إلى حدّ ما.

كيتي: في المقابل إن الجوّ هنا ليس ساخناً أو خانقاً كما في دور السينما العتيقة. يطويان جسديهما.

فيلكس: ثمة قصيدة خطرت في ذهننا هنا في الأعالي.

كيتي: ماذا تعني بقولك في ذهننا! لقد خطرت في ذهنيّ أوسكاريللو والسنيورة روزفيتا.

فيلكس: طبعاً كنّا نساعدهما إذا لم تكن القافية متجانسة.

كيتي: لا ينقص القصيدة سوى كلمة واحدة فتكون جاهزة.

فيلكس: أوسكاريللو يريد أن يعرف أسماء العيدان، هناك على الشاطئ.
كيتي: لأنها يجب أن تدخل في القصيدة.
فيلكس: وإلا سينقصها ما هو ضروري.
كيتي: قل يا حضرة الجندي ما هي أسماء العيدان تلك؟
فيلكس: ربما أنه لا يستطيع؛ لأن العدو سيسمع أيضاً.
كيتي: سوف لا ننقل الكلام إلى أيّ أحد.
كيتي: لقد بذل أوسكاريللو جهداً كبيرا.
فيلكس: إنه يعرف كذلك أن يكتب كتابة جميلة بالحروف الألمانية القديمة.
كيتي: أريد أن أعرف أين تعلّم ذلك.
فيلكس: لكنه فقط لا يعرف أسماء العيدان.
لانكس: هل يسمح السيّد النقيب؟
بيبرا: إذا كان الأمر لا يتعلق بسرّ حربيّ خطير؟
فيلكس: مادام أوسكاريللو يصرّ على معرفتها.
كيتي: وإلا ستختل القصيدة.
روزفيتا: طالما أصبحنا كلّنا فضوليين إلى هذا الحد.
بيبرا: حتى لو أمرتك أمراً رسميّاً؟
لانكس: بلى؛ لقد أقمناها ضد الدبابات وزوارق الإنزال حسب الاحتمال. وأطلقنا عليها اسم هليون رومل، لأن شكلها بدا هكذا.
فيلكس: رومل...
كيتي: ...هليون؟ هل هذه عبارة مناسبة يا أوسكاريللو؟
أوسكار: نعم؛ إنها مناسبة. يدوّن الكلمة على الورقة، ثم يناول القصيدة إلى كيتي الذي فوق المخبأ. يطوون أنفسهم أكثر فأكثر ثم ألقت كيتي الأبيات التالية كما لو أنها تلقي قصيدة مدرسية.
كيتي: **عند ساتر الأطلسي**
كانوا يحدقّون في السلاح، بأسنان مموهة،

ساحقين الإسمنت، أي هليون رومل،
في الطريق إلى بلد النعل،
حيث البطاطس المملحة،
وفي الجمعة السمك والبيض المقلي:
فها نحن اقتربنا من عصر البرجوازية!

مازلنا نرقد في شبكة شائكة الأسلاك،
نغرس الألغام في مراحيض بدائية،
حالمين بعرائش البساتين،
وحمامات السجع وزملاء لعبة الكرات الخشبية،
وبالثلاّجات والنافورات الجميلة التكوين:
فهانحن نقترب من عصر البرجوازية!

إذا ما قُتل البعض،
وإذا ما تقطعت قلوب الأمهات،
وإذا ما ارتدى الموت حرير مظلاّت الهبوط،
مضيفاً إلى ثيابه كشكشة صغيرة،
وإذا ما نتف ريش الطاووس ومالك الحزين،
فهانحن نقترب من عصر البرجوازية!

يصفقون جميعهم، بما فيهم لانكس.

لانكس: جاء الجزر.

روزفيتا: إذاً حان الوقت لكي نفطر! تلوّح بسلّة المؤنة المزينة بالشرائط وزهور القماش.

كيتي: أه؛ بلى، سنتناول إفطارنا في الهواء الطلق!

فيلكس: إنها الطبيعة التي تفتح شهيتنا!

روزفيتا: آه يا طقس الطعام المقدّس الذي يوحّد الشعوب طالما هناك إفطار!

بيبرا: دعونا نتناول الطعام على الإسمنت، حيث تكون القاعدة جيّدة! الجميع يتسلق المخبأ، باستثناء لانكس. روزفيتا تفرش مفرش سفرة لطيفة منقوشة بالزهور، ثم تخرج من السلّة التي لا ينضب معينها وسائد منسولة الخيوط. ثمة خيمة ورديّة وخضراء فاتحة تُنصب، وجهاز غراموفون صغير بسمّاعة؛ إضافة إلى أطباق وملاعق وسكاكين وفناجين البيض المسلوق ووزعت مناديل السفرة.

فيلكس: أتمنى أن أحظى بلحمة الكبد المعجونة!

كيتي: هل لديكم شيئاً من الكافيار الذي أنقذناه معنا من ستالينغراد؟

أوسكار: يا روزفيتا لا تدهني الخبز بكلّ هذا القدر من الزبد الدنماركي.

بيبرا: لك الحقّ يا ولدي إذا ما أبديت قلقك على رشاقتها.

روزفيتا: لكن إذا ما كنت أستسيغ طعمه وأستمرئه. آه! حين أفكّر في الكعكة المتوجة بالقشدة التي قدمها لنا سلاح الجوّ في كوبنهاغن!

بيبرا: الشيكولاتة الهولندية مازالت ساخنة في الترمس.

كيتي: إنني، وبكل بساطة، مغرم تماماً بعلب البسكويت الأمريكية.

روزفيتا: لكن فقط عندما يضع عليها المرء مربّى الزنجبيل الأفريقي الجنوبي.

بيبرا: لا تبالغي حد الإفراط، يا روزفيتا، أرجوك!

روزفيتا: لكنك ستتناول أيضاً شرائح لحم البقر الإنجليزي الكريهة، الغليظة غلظ الإصبع!

بيبرا: وأنت يا حضرة الجندي؟ ألا تريد قطعة رقيقة من الخبز المطعّم بالزبيب مع مربّى الخوخ؟

لانكس: لو لم أكن في الواجب الرسمي يا سيادة النقيب...

روزفيتا: أصدر له أمراً رسميّاً!

كيتي: نعم؛ أمراً رسميّاً!

بيبرا: إنني آمرك رسميّاً يا رئيس العرفاء لانكس بأن تأكل خبز الزبيب مع مربّى الخوخ الفرنسي، إضافة بيضة دنماركية مسلوقة وكافيار سوفيتي

وقطعة من الشيكولاتة الهولندية الأصلية!

لانكس: سمعاً وطاعةً يا سيادة النقيب! سآكل. يأخذ مكاناً أيضاً على المخبأ.

بيبرا: ألا توجد لدينا مخدّة زائدة للسيّد الجندي؟

أوسكار: يستطيع أن يأخذ مخدّتي. سأجلس على الطبل.

روزفيتا: لكنك ستصاب بالبرد يا عزيزي! فالإسمنت غدّار، وأنت لست معتاداً عليه.

كيتي: يستطيع أن يأخذ مخدتّي كذلك؛ لأنني سأطوي نفسي فترة وجيزة، لكي ينزلق حينئذ الخبز المخلوط بالعسل بشكل جيّد.

فيلكس: لكن عليك ألا تغادري مفرش السفرة؛ لكي لا تلوثين الإسمنت بالعسل. فهذا يعتبر ترويجاً لروح الهزيمة!

الجميع يكركر.

بيبرا: آه، كم كان هواء البحر منعشاً لنا.

روزفيتا: بلى؛ لقد أنعشنا.

بيبرا: سيغيّر القلب جلده العتيق.

روزفيتا: بلى؛ سيفعل القلب هذا.

بيبرا: وستنجلي الروح.

روزفيتا: كم سيبدو المرء جميلاً إذا ما نظر إلى البحر!

بيبرا: لأن البصر سيكون حرّاً، يغادر عشّه...

روزفيتا: أصبح يرفرف...

بيبرا: يحلّق فوق البحر، البحر اللاّمتناهي. قل لي يا رئيس العرفاء لانكس؛ إنني أرى خمسة أشياء سوداء على الشاطئ.

كيتي: أنا أيضاً. مع خمس مظلات!

فيلكس: بل ست.

كيتي: خمس! واحدة، اثنتان، ثلاث، أربع، خمس!

لانكس: هؤلاء هنّ الراهبات القادمات من ليزيه. لقد أجلوهن، هنّ وروضتهن، من هناك إلى هنا.

كيتي: لكن كيتي لا ترى أطفالاً بصحبتهن! فقط خمس مظلاّت.

لانكس: إنهن يتركن الأطفال في القرية، في بافو؛ يأتين أحياناً أثناء الجزر، فيجمعن القواقع والسلطعون التي تعلق بهيلون رومل.

كيتي: يا لهن من مسكينات!

روزفيتا: ألا يمكن أن نقدم لهنّ بعض شرائح اللحم المملح والبسكويت المعلّب.

أوسكار: أوسكار يقترح خبز الزبيب مع مربّى الخوخ؛ لأن اليوم هو يوم جمعة، لذلك فإن اللحم المملح محرّم على الراهبات.

كيتي: لقد بدأن يركضن الآن! يبحرن فعلاً بمظلاتهن!

لانكس: إنهن يفعلن ذلك دائماً، بعدما يجمعن ما يكفيهن. ثم يبدأن باللعب. لاسيما المترهبنة المبتدئة آغنيتا، تلك الفتاة الصغير السنّ حقّاً التي لا تعرف أين الخلف وأين الأمام - لكن إذا كان السيّد النقيب يملك سيجارة لرئيس العرفاء؟ شكراً جزيلاً -؛ والمرأة الضخمة هناك التي لم تسطع اللحاق بهن فهي الراهبة المسؤولة شولاستيكا. فهي لا تريد أحداً يلعب على الشاطئ، لأن ذلك قد يتعارض مع أحكام طائفتهن الدينية.

راهبات يحملن مظلاّت يهرولن في خلفية المشهد. روزفيتا تفتح الغراموفون، فيصدح لحن (نزهة التزحلق في بطرسبورغ). الراهبات يرقصن على الإيقاع ويهللن فرحاً.

آغنيتا: هوهوووه! أيتها الأخت شولاستيكا!

شولاستيكا: آغنيتا، يا أخت آغنيتا!

آغنيتا: يا أخت شولاستيكا!

شولاستيكا: ارجعي إلى مكانك يا بنيتي! يا أختي آغنيتا!

آغنيتا: لا أستطيع الرجوع! فهذا ليس بإرادتي، إنما ثمة شيء يركض من ذاته.

شولاستيكا: إذاً صلّي من أجل الرجوع، يا أخت!

آغنيتا: من أجل رجوع مليء بالألم؟

شولاستيكا: بل مليء بالرحمة!

آغنيتا: ومليء بالفرح؟

شولاستيكا: صلّي، يا أخت آغنيتا!

آغنيتا: لقد صليت صلاة (هوهوووه) باستمرار، لكنه لم يتوقف عن الركض.

شولاستيكا بصوت خفيض: آغنيتا، يا أخت آغنيتا!

الراهبات يختفين. ولا يظهرن في خلفية المشهد إلا بين آونة وأخرى. تنتهي الأسطوانة. إلى جانب مدخل المخبأ يرنّ جرس التلفون الميداني. لانكس يقفز من سقف المخبأ فيلتقط السمّاعة؛ الآخرون يأكلون.

روزفيتا: حتى هنا في وسط الطبيعة اللامتناهية يوجد تلفون!

لانكس: هنا دورا سبعة. رئيس العرفاء لانكس.

هيرتسوغ: يتقدم ببطء من جهة اليمين، حاملاً سمّاعة وسلكاً، يتوقف عدّة مرّات ويتكلم في تلفونه: هل كنت نائماً يا رئيس عرفاء لانكس! هناك حركة أمام دورا سبعة. يمكن تحديدها بوضوح تام!

لانكس: هؤلاء راهبات يا حضرة الملازم الأوّل!

هيرتسوغ: ماذا يعني راهبات! وإذا لم يكن راهبات؟

لانكس: لكنهن كذلك. يمكن تمييزهن بشكل واضح.

هيرتسوغ: ألم تسمع بالتمويه، نعم؟ الطابور الخامس، نعم؟ هذا ما يفعله الإنجليز منذ مئات الأعوام؛ يأتون حاملين الكتاب المقدّس ثم يطلقون النيران دفعة واحدة!

لانكس: لكنهن يجمعن السرطان، يا حضرة الملازم الأوّل...

هيرتسوغ: يجب إخلاء الشاطئ فوراً، هل فهمت؟

لانكس: أجل يا حضرة الملازم الأوّل. ومع ذلك فهنّ يجمعن السرطان فقط.

هيرتسوغ: يجب أن تتموضع خلف بندقيتك الرشاشة يا رئيس العرفاء!

لانكس: وإذا كنّ لا يجمعن سوى السرطان بسبب الجزر ومن أجل روضة الأطفال...

هيرتسوغ: إنني أوجه إليك أمراً رسميّا. . .

لانكس: أجل يا حضرة الملازم الأوّل! لانكس يختفي في المخبأ.

وينصرف هيرتسوغ مع التلفون من جهة اليمين.

أوسكار: روزفيتا، صمّي أذنيك، ستُطلق النار الآن مثلما في نشرة الأخبار الأسبوعية.

كيتي: أوه؛ شيء مرعب! سأطوي نفسي أكثر فأكثر.

بيبرا: إنني أعتقد أيضاً بأننا سنسمع شيئاً ما.

فيلكس: علينا أن نفتح الغراموفون من جديد؛ فهذا من شأنه أن يخفف قليلا! يفتح الغراموفون: فرقة The Platers تغني أغنية The Great Pretender ثم تطقطق البندقية الأوتوماتيكية، متكيفة مع الموسيقى المأساوية البطيئة المتثاقلة. فيلكس يقف على رأسه. في الخلفية تحلّق خمس راهبات بمظلاتهن نحو السماء. الأسطوانة تتعثر وتكرر المقاطع ذاتها، ثم يعم الهدوء. روزفيتا ترفع بقايا الإفطار من السفرة وتضعه في سلّة المتاع بسرعة ولهوجه. أوسكار وبيبرا يعاونانها. يغادرون سقف المخبأ. يظهر لانكس في مدخل المخبأ.

لانكس: إذا كان السيّد النقيب يملك سيجارة لرئيس العرفاء؟

بيبرا: تقف جماعته خلفه برعب: السيّد الجندي يدخن بشراهة!

جماعة بيبرا: يدخن بشراهة!

لانكس: يعود هذا الأمر إلى الإسمنت، يا حضرة النقيب.

بيبرا: وإذا ما نفد الإسمنت ذات يوم؟

جماعة بيبرا: إذا نفد ذات يوم.

لانكس: بل هو أبديّ يا حضرة النقيب. فقط نحن وسجائرنا. . .

بيبرا: أعرف ذلك؛ أعرف بأننا نتبخّر ونتطاير مع الدخان.

جماعة بيبرا منصرفين على مهل: مع الدخان!

بيبرا: إن بإمكانهم مشاهدة الخرسانة بعد ألف عام.

جماعة بيبرا: بعد ألف عام!

بيبرا: سيعثرون على عظام الكلاب!

جماعة بيبرا: براجم الكلاب وكعابها.
بيبرا: ومعها تشكيلاتك المنحرفة في الإسمنت.
جماعة بيبرا: **غامض، بربري، متضجر.**
يبقى لانكس المدخّن وحده.

وحتى لو كان أوسكار لم يتكلم أثناء الإفطار فوق الإسمنت إلا قليلاً، إلا أنه مع ذلك لم يستطع أن يغفل التعرض إلى الحديث الذي دار عند ساتر الأطلسي؛ لأن المرء استخدم الكلمات ذاتها عشية الاجتياح؛ كما أننا سنلتقي مرّة ثانية برئيس العرفاء وفنّان الإسمنت لانكس إذا ما تناولت بالثناء زمن ما بعد الحرب على صفحة أخرى، أي عصرنا البرجوازي المزدهر اليوم.

كانت العربة المصفحة مازالت تنتظرنا عند متنزه الشاطئ، فالتحق الملازم الأوّل هيرتسوغ بمن كان في عهدته، واثباً وثبات طويلة، معتذراً لبيبرا عن الحدث الصغير وهو يلهث مقطوع النفس، قائلاً إن «المنطقة المحرمة تبقى منطقة محرمة!» ثم أعان السيّدتين على الركوب في العربة، وأصدر بعض التوجيهات للسائق، فعدنا أدراجنا إلى بافو. كان علينا أن نسرع؛ لذلك لم نجد وقتاً كافياً لتناول الغداء؛ ففي الساعة الثانية ثمة عرض قد أعلن عنه، يجب أن نقدمه في صالة الفرسان التابعة للقصر النورماندي اللطيف الواقع خلف أشجار الحور في مخرج القرية. ولم يبق أمامنا سوى نصف ساعة لاختبار الإنارة، فأجبر أوسكار على رفع الستارة وهو يقرع الطبل. قدمنا العرض لضباط الصفّ والجنود، فانطلقت ضحكات فظّة جافة وبشكل متواصل. كنّا قد بالغنا في العرض. كنت حطمت بصوتي مبولة زجاجية توضع في غرفة النوم كان فيها سجق من النوع المعروف في فيينا والمنقوع في الخردل، فذرف بيبرا الكثيف الزينة دموعه التهريجية على الوعاء المحطم، وصار يلتقط السجق من بين الشظايا ويسكب عليها الخردل ثم يلتهمها، مما جعل المتلفعين بالقيافات الرمادية يضجّون في الضحك والمرح. كان فيلكس وكيتي يظهران على المنصّة منذ

فترة بسراويل جلدية تحدث طقطقة وقبعة تيرولية، مما كان يمنح أداءهما ميزة خاصة. وارتدت روزفيتا التي ظهرت بفستان فضيّ ضيق قفّازاً أخضر شاحباً قابل للثني وخفّاً مقصّباً بالذهب في قدميها الصغيرتين، وكانت تغمض دائماً أجفانها الضاربة للزرقة، مدللة من خلال صوتها السرنمي القادم من المتوسط على قدراتها الشيطانية المعهودة. هل قلت بأن أوسكار لم يكن بحاجة إلى كسوة تنكرية؟ لقد ارتديت قبعتي البحرية القديمة العزيزة التي طُرّزت عليها كتابة SMS Seydlitz وقميصاً أزرق بحريّاً أيضاً وفوقه سترة ذات أزرار مذهبّة لها شكل المرساة، ومن الأسفل أطلّ السروال القصير جليّاً وتحته جوربان طويلان حدّ الركبة وملفوفان من الأعلى ومثبتان من الأسفل بالحذاء المستهلك ذي الرباط، إضافة إلى الطبل الأبيض الأحمر الطلاء، ومثله خمس مرّات في جعبتي الفنيّة.

وفي المساء أعدنا العرض أمام الضبّاط وفتيات شعبة المخابرات في كابورغ. فبدت روزفيتا متوترة الأعصاب في البدء؛ وعلى الرغم من أنها لم ترتكب خطأً، لكنها وضعت على أنفها، في منتصف فقرتها، نظّارة شمسية ذات إطار أزرق، ثم أخذت تغيّر من لهجتها، وأصبحت شديدة المباشرة فيما يتعلق بتكهناتها، فقالت على سبيل المثال لفتاة مخابرات شاحبة الوجه أصدرت تعليقات وقحة من فرط الارتباك، بأن لها علاقة غرامية بمسؤولها؛ إيحاء جعلني أشعر بالحرج، إلا أنه حظي بإعجاب الكثير من الضاحكين، إذ أن المسؤول جلس إلى جانب الفتاة مباشرة. وبعد العرض أقام ضبّاط الأركان المعسكرون في القصر حفلة، فبقي بيبرا وكيتي وفيلكس، في حين انسحب أوسكار وراغونا بشكل غير ملفت للانتباه ذاهبين إلى الفراش، فرقدا فوراً على أعتاب ذلك اليوم الشديد التنوّع، ولم يستيقظا إلا بعد أن بدء الاجتياح في الساعة الخامسة فجرا. فما الذي يمكن أن أرويه عليكم؟ في قاطعنا، وبالقرب من مصبّ نهر أورن، هبط الحلفاء. كنّا قد كدسنا أمتعتنا، فاضطررنا إلى التراجع مع أركان الكتيبة إلى الخلف. في باحة القصر انتصب مطبخ ميداني آلي، انبعث منه البخار. فترجت منّي روزفيتا بأن أجلب لها قدحاً من القهوة؛

لأنها لم تتناول إفطارها بعد. لكنني رفضت طلبها بعصبيّة، خشية أن تفوتني عربة النقل، بل كنت جافاً معها بعض الشيء. فقفزت هي نفسها من العربة، راكضة بقصعة الطعام الصغيرة وحذائها ذي الكعب العالي نحو المطبخ الميداني، فأدركت قهوة الصباح في الوقت ذاته الذي انفجرت فيه أوّل قذيفة أطلقتها سفينة حربية في ذلك المكان.

آه يا روزفيتا، إنني لا أعرف كم هو سنّك، إنما أعلم بأن قامتك بلغت تسعة وتسعين سنتمتراً، وأن البحر المتوسط كان يتحدث عبر شفتيك، وأن لك رائحة القِرفة وجوز الطيب، وأنك كنت تخترقين بنظرتك قلوب الناس كلّهم؛ إلا أنك لم تنظري إلى قلبك؛ وإلا لبقيت الآن إلى جانبي، ولما جلبت لنفسك تلك القهوة الشديدة السخونة! وتمكن بيبرا في «ليزيو» من الحصول على تصريح يتيح لنا التحرّك إلى برلين. عندما التحق بنا قادماً من مقر القيادة العسكرية تحدث للمرّة الأولى عقب رحيل روزفيتا: «يجب علينا نحن الأقزام والمهرجين أن لا نرقص على الخرسانة المسلحة التي خُلطت وتصلبت من أجل العمالقة وحدهم! يا ليتنا بقينا تحت المنصّات حيث لم يتوقع وجودنا أحد.» وفي برلين انفصلت عن بيبرا الذي ودعني بقوله «ما الذي ستفعله في ملاجئ الحماية من القصف الجوّي بدون صاحبتك روزفيتا!» ثم ابتسم ابتسامة رقيقة مثل نسيج العنكبوت، وقبّلني على جبهتي، وزودّ فيلكس وكيتي بالتصاريح الرسمية جعلهما يصطحباني حتى محطة القطارات الرئيسية في غدانسك، واهدي لي الطبول الخمسة المتبقية في الجعبة الفنيّة؛ فقدمت إلى العاصمة الوطنية التي لم ينلها الخراب بعد، حيث انبعث الصخب من كنائسها المشيدة منذ القرون الوسطى ساعة إثر ساعة، من أجراس مختلفة الأحجام ومن أبراج متباينة الارتفاع؛ وصلتها في الحادي عشر من يونيو، أي قبل عيد الميلاد الثالث لابني بيوم واحد، مزوداً بالطبول وبكتابي الذي مازلت أحمله.

خلفاء المسيح

نعم، العودة إلى الوطن! وفي تمام الساعة الثامنة مساءً وصل قطار العائدين من الجبهة إلى محطة دانسغ الرئيسية. لقد أوصلاني فيلكس وكيتي إلى حد ماكس-هالبه-بلاتس، ثم ودّعاني وذهبا إلى شعبة التوجيه الخاصة بهما في «هوخشتيس»، فأخذ أوسكار يجرجر نفسه وأمتعته عبر لابسفيغ قبل حلول الساعة التاسعة بقليل. فهي العودة إلى الوطن، وثمة عادة سيئة منتشرة هذه الأيّام تجعل من كلّ شاب أقدم مرّة على تزوير كمبيالة الديون الشهرية، فانظم بسبب ذلك إلى فرقة المرتزقة، فتقدم به السنّ بعد بضع أعوام حين عاد إلى وطنه وصار يروي الحكايات عوليساً حديثاً. فهناك من كان يجلس في القطار الخاطئ بذهن شارد، فيذهب إلى أوبرهاوزن بدلاً من فرانكفورت، فيعيش أحداثاً أثناء الطريق - فكيف لا تتحقق له تلك المعايشة! - ثم يقذف حال وصوله بأسماء مثل الساحرة الإغريقية سرسه وعقيلة عوليس بينيلوبه وابنهما تيليماخوس.

لكن أوسكار لم يصبح عوليساً لسبب واحد، وهو أنه عندما عاد إلى أهله وجد كلّ شيء على حاله مثلما تركه. فلم تكن عشيقته ماريا التي كان عليه أن يسميها بينيلوبه، لو كان هو نفسه عوليساً، مطوقةً بالرجال المنتصبين، بل مازالت تحتفظ بماتسرات الذي وقع عليه اختيارها قبل رحلة أوسكار بزمن طويل. أتمنى أيضاً أن لا ينظر المثقفون منكم إلى روزفيتا المسكينة بسبب مهنتها السرنمية السابقة باعتبارها ساحرة الرجال سرسه. وفيما يتعلق أخيراً بابني كورت، فإنه لم يلق بالاً لأبيه، فبدا مثل «تيليماخوس» حقّاً، حتى لو أنه لم يستطع تذكّر أوسكار ثانية.

وإذا كان لابد من المقارنة - إنني أرى العائد ملزماً دائماً بعقد المقارنات - فأحبّ أن أكون بنظركم الابن الضال حسبما ورد في الكتاب المقدس؛ إذ أن ماتسرات هو الذي فتح الباب، فاستقبلني كما يستقبلني أب حقيقيّ و ليس أباً مفترضا. بلى؛ إنه فهم كيف يفرح بعودة أوسكار إلى أهله، بل ذرف دموعاً صادقة مذهولة، لدرجة أنني، اعتباراً من ذلك اليوم، لم أعد أطلق على نفسي اسم أوسكار برونسكي وحده، إنما أوسكار ماتسرات أيضاً. واستقبلتني ماريا بهدوء ورزانة، لكنها لم تكن خالية من اللطف. كانت تجلس إلى الطاولة وتلصق بطاقات التموين للمكتب الاقتصادي، وقد كوّمت على طاولة التدخين بعضاً من هدايا عيد ميلاد المغلفة. لقد فكّرتْ أوّل الأمر في صحتي كما اقتضت طبيعتها العملية، ثم خلعت عنّي ثيابي وغسلتني مثلما كانت تفعل في الأزمان السابقة، متجاهلة حمرة خجلي، ثم أجلستني بمنامتي إلى الطاولة، حيث قدم لي ماتسرات طبقاً من البيض المقلي والبطاطس المحمّرة. فشربت إضافة إلى ذلك حليباً؛ وبينما كنت آكل وأشرب، بدأت الاستفسارات والتساؤلات: «أين كنت؟ لقد بحثنا عنك في كلّ مكان؛ حتى الشرطة نفسها بحثت عنك بجنون؛ فكان علينا أن نؤدي اليمين، متعهدين أمام المحكمة بأننا لم نتخل عنك. والآن فأنت هنا أمامنا. لكنك فعلت الكثير من المتاعب وستفعلها في المستقبل؛ ويجب أن نقيدك في سجل الشرطة الرسمي مرّة أخرى. نتمنى أن لا يحشرونك في المصحّة. فأنت تستحقها. تهرب ولم تقل شيئاً!»

بيد أن ماريا أثبتت بأنها بعيدة النظر، فنشأت بعض المنغصّات. إذ جاء أحد موظفي وزارة الصحّة، وتحدث مع ماتسرات على انفراد وبسرّية تامة، لكن ماتسرات صرخ بصوت عال يمكن سماعه بكلّ وضوح: «هذا مستحيل؛ لقد تعهدت بذلك لزوجتي وهي على فراش الموت؛ فأنا الأب وليس شرطة الصحّة!» وهكذا فإنني لم أدخل المصحّة. لكن منذ ذلك اليوم صارت تأتي رسالة رسمية كلّ أسبوعين، تطالب ماتسرات بإمضاء صغير، إلا أن ماتسرات كان يرفض الإمضاء، وفي مقابل ذلك أصبح

وجهه عرضة للهمّ والقلق. فتدخل أوسكار، إذ يجب أن تنبسط أسارير ماتسرات ذات مرّة. وفي مساء عودتي صار وجهه يشعّ متألقاً، ولم يعد يشغل فكره في الأمر مثل ماريا، بل أصبح نادراً ما يطرح أسئلة، مكتفياً بعودتي الميمونة، وأخذ يتصرف مثل أب حقيقي، فقال عندما أخذوني لكي أنام عند الأمّ تروجنسكي المندهشة قليلاً: «يا لها من فرحة كبيرة لكورت الصغير حين يعلم بأن أخاه عاد من جديد. وفوق ذلك كلّه سنحتفل غداً بعيد ميلاد كورت الثالث.» وعثر ابني كورت، في طاولة عيد ميلاده، على بلوزة حمراء غامقة حاكتها يد غريتشن شفلر، غير أنه لم يعرها اهتماماً، إضافة إلى الكعكة ذات الشمعات الثلاث. وثمة كرة من المطّاط صفراء، فاقعة الصفرة، قد جلس عليها، ثم صار يخبّ بها ليطعنها أخيراً بسكين المطبخ؛ ثم مصّ من الجرح المطّاطي ذلك السائل الحلو المذاق، المثير للغثيان الذي يترسب عادةً في الكرات المنفوخة كلّها. حالما فرغ من بعج الكرة، بحيث أصبحت مسطحّة، بدأ كورت بتفكيك السفينة الشراعية حتى حولها إلى حطام. لكنه لم يمسّ السوط ولعبة الدوّارة الصافرة، فبقيا جاهزين للاستعمال على نحو مخيف.

كان أوسكار الذي فكّر في عيد ميلاد ابنه كورت منذ زمن طويل، وعجّل قادماً نحو الشرق، منطلقاً من عمق الحدث الآني المغرق في وحشيته وعنفوانه، لكي لا يتخلف عن حضور عيد الميلاد الثالث لوليّ عهده، قد وقف إلى الجانب، يراقب أعمال التخريب، معجباً بالولد القويّ العزيمة، مقارناً بين مقاساته الجسدية ومقاسات ابنه؛ فاعترفت لنفسي متأملاً بعض الشيء: بأن كورت بات أكثر طولاً منك أثناء غيابك؛ فقد تجاوز السنتمترات الأربعة والتسعين التي استطعت الاحتفاظ بها منذ عيد ميلادك الثالث الذي يعود إلى سبعة عشر عاماً مضت؛ تجاوزها بمقدار سنتمترين أو ثلاثة. لقد آن الأوان لتجعل منه طبّالاً، وأن تهتف أمام هذا النمو المتعجل بمفردة «كفى!»

وأخرجت طبل صفيح جديداً لامعاً من جعبتي الفنيّة التي أودعتها مع كتابي التعليمي الضخم فوق سطح تجفيف الغسيل، خلف الآجر، وأردت

أن أمنح ابني الفرصة ذاتها - لأن البالغين لم يفعلوا ذلك - تلك الفرصة التي منحتني إيّاها أمّي المسكينة، وفاءً بوعدها خلال عيد ميلادي الثالث. أصبح بإمكاني الاعتقاد، ولأسباب وجيهة، بأن ماتسرات الذي عينني زماناً لأستلم محلّ بضائع المستعمرات، صار يرى في كورت تاجر بضائع المستعمرات المستقبلي بعدما خيّبت ظنّه. وإذا ما قلت اليوم: بأن هذا العمل يجب أن يتقّى، فأرجو منكم لا تنظروا إلى أوسكار باعتباره عدوّاً صريحاً للتجارة بالمفرق. فحتى لو كنت أنا نفسي، أو ابني، موعوداً برئاسة مجموعة من المصانع، أو بوراثة مملكة مع مستعمراتها، لتصرفت على النحو ذاته. إن أوسكار لا يريد أن يستلم أمراً عبر يد أخرى ثانية، فرغب لهذا السبب بالذات في أن يحمل ابنه على القيام بتصرف مماثل، لكي أجعل منه - وهنا بالتحديد يقع خطأي الفكري - طبّال على الصفيح بأعوام ثلاثة ثابتة، كما لو أن استلام طبل صفيح سوف لا يكون أمراً بشعاً بنظر إنسان فتيّ متفائل بمقدار البشاعة التي ينطوي عليها استلام محلّ لبضائع المستعمرات.

وعلى هذا المنوال أصبح أوسكار يفكّر اليوم. بيد أن رغبة وحيدة قد استولت عليه آنذاك: كان القصد هو أن يُنصّب ولداً طبّالاً إلى جانب أب طبّال، بل كان القصد هو النظر إلى البالغين مرتين من الأسفل بالتطبيل، إضافة إلى تأسيس سلالة طبّالين قادرة على الإنجاب؛ إذ أن عملي يجب أن ينتقل صفيحه المطلي بالأبيض والأحمر من جيل إلى جيل. فأي حياة تلك التي مازالت قائمة أمامنا! كان بمقدورنا أن نطبّل بجوار بعضنا، لكن في غرف مختلفة، أو يقف أحدنا إلى جانب الآخر، لكن يمكن أن يكون هو في لابسفيغ وأكون أنا في لويزن شتراسه، أو هو في القبو وأنا على السطح، كورت في المطبخ وأوسكار في المرحاض. كان بمقدور الأب والابن أن يقرعا أحياناً طبل الصفيح معاً في هذا المكان أو ذاك، وأن تكون لدينا فرصة مناسبة لنندس تحت ثياب جدّتي وأمّ جدّته آنا كولياجك، فنسكن هناك ونستنشق رائحة الزبد الزنخ قليلا. وسيكون بإمكاني مخاطبة كورت وأنا مقرفص أمام بوابتها بالقول: «انظر إلى الداخل يا ولدي؛ فإننا

كلّنا قد خرجنا منه. وإذا ما أصبحت مؤدباً فإمكاننا العودة إليه سويعة أو أكثر، لنزور الجماعة المنتظرة هناك.» وسينحني كورت أسفل الأثواب، ويرمقه بنظرة ثم يسأل أباه، أنا، بأدبّ طالباً منه تفسيراً، فيهمس أوسكار «تلك السيّدة الجميلة ذات الوجه البيضوي الناعم لدرجة أن المرء يودّ أن يبكي من نعومته، الجالسة في الوسط، وتعبث بيديها الرقيقتين، هي أمّي المسكينة، أي جدّتك الطيّبة التي عاجلتها المنية إثر وجبة من حساء الحنكليس، وبفعل قلبها البالغ الحلاوة.»

وحينئذ سيلحّ عليّ كورت «تابع، يا بابا، تابع! فمن هو هذا الرجل صاحب الشوارب؟» فسأخفض صوتي ساعتها على نحو مليء بالغموض: «هذا هو أبو جدّك، يوسف كولياجك. انتبه إلى عينيه المتوهجتين المشعلتيّ الحرائق؛ انتبه إلى المغالاة البولندية الإلهية وإلى المكر الكاشوبي العملي المستقر فوق عرق الأنف. لاحظ، رجاءً، الأغشية اللحمية بين أصابع قدميه. كان قد انزلق تحت ناقلة خشبية أثناء تدشين «كولومبس»، فاضطر إلى العوم فترة طويلة حتى وصل إلى أمريكا، فأصبح مليونيرا. إلا أنه كان ينزل أحياناً إلى البحر، فيعود سباحةً، ثم يختفي عن الأنظار هنا، حيث كان يجد ملاذاً باعتباره مشعل حرائق، فيتبرع بحصة من ماله لأمّي.»

«غير أن هذا السيّد الجميل الذي اختفى آنذاك تحت ثياب السيّدة التي هي جدّتي، ثم جلس الآن إلى جانبها وأخذ يتحسس يديها، عيناه زرقاوان مثلك يا بابا!» وسأضطر في تلك الحالة إلى لمّ أطراف شجاعتي لكي أستطيع الإجابة على سؤال ولدي المهذّب، بصفتي ابناً خسيساً خائناً: «هاتان هما العينان الساحرتان لبرونسكي اللتان تنظران إليك يا ولدي كورت. بيد أن نظرك رماديّ في الواقع؛ لأنك ورثته عن أمّك. ومع ذلك فأنت رماديّ النظرة مثل يان الذي كان يقبّل يد أمّي المسكينة الذي هو كاشوبيّ رائع وواقعي مثل أبيه فنسنت. وذات يوم سنعود إلى هناك، لنقتفي أثر المنبع الذي يشيع رائحة الزبد الزنخ قليلاً؛ فأبتهج فرحا!»

ووفقاً لنظرياتي فإنّ السابقة الحياة العائلية الحقيقية ستتأسس في

أعماق جدّتي كولياجك قبل كلّ شيء، أو في شكوة الزبد التابعة للجدّة كما أسميها مزحاً. وبما أنني مازلت إلى يومنا هذا قادراً على الوصول إلى الأب، بل إلى ما هو أهمّ من ذلك، أي الوصول إلى الابن المحلّي والروح القدس بشكل شخصيّ، وبطفرة واحدة من إبهامي، متجاوزاً ذلك أيضاً، وبما أنني ألزمت نفسي بخلافة المسيح دون رغبة كما هو الحال مع وظائفي الأخرى كلّها؛ فإنني أتخيّل الدخول إلى جدّتي الذي لم يكن هناك ما هو أصعب منه، خالقاً أجمل المشاهد العائلية في حلقة أسلافي.

وهكذا أصبحت، ولاسيما في الأيّام الماطرة، أتخيّل: جدتي وهي تبعث الدعوات، فنجتمع كلّنا في بيتها، فيأتي يان برونسكي، شاكاً في جروح صدره البولندي المدافع عن البريد، زهوراً، زهور قرنفل على سبيل المثال. ثم تقترب ماريا التي تلقت دعوة بناءً على توصية مني؛ تقترب من أمّي بوجل، فتظهر لها سجل المحلّ الذي بدأته أمّي وواصلته ماريا بشكل لا غبار عليه، لعلها تحظى بودّها، فتطلق أمّي ضحكتها الكاشوبية المقتضبة، وتجذب حبيبتي إليها، ثم تقبّل خدّها، وتغمز لها بعينها: «لكن يا بنيتي؛ لا تؤنبي نفسك. أنا وأنت كنّا متزوجتين من ماتسرات وكنّا نعيل يان!» وكان عليّ أن أمتنع عن متابعة تصوراتي، كأن أتخيّل مثلاً ابناً أنجبه يان وحملت به أمّي في أعماق الجدّة كولياجك، ثم ولد أخيراً على شكوة الزبد. إذ أن حالة كهذه ستجرّ معها بلا شكّ حالة أخرى. فمن المحتمل أن يقع أخي غير الشقيق شتيفان برونسكي الذي ينتمي في نهاية المطاف إلى هذه الحلقة على الفكرة البرونسكية ذاتها، فيقذف في البدء ماريا بنظرة، ثم يقذفها عما قريب بشيء آخر. لذلك حبّذت مخيلتي أن تقتصر على لقاء عائلي بريء، يتيح لي التخلّي عن الطبّال الثالث والرابع، مكتفياً بأوسكار وكورت، فأروي بطبلي الصفيح على الحاضرين شيئاً عن برج أيفل الذي عوضني عن الجدّة في البلاد الغريبة، شاعراً بالفرح إذا ما وجد الضيوف، بمن فيهم آنا كولياجك، متعة في عزفنا على الطبل، فيقرع بعضهم ركبة الآخر، ملتزمين بالإيقاع.

وهكذا توجب على أوسكار أن يتمسك من جديد- لأنه كان مجرد

أب مفترض مثل ماتسرات - بوقائع الثاني عشر من يونيو / حزيران من العام الرابع والأربعين، أي بعيد الميلاد الثالث لكورت، مهما كانت أعماق الجدّة مغرية من أجل إجلاء العالم وشؤونه، فأكون متعدد الاهتمامات على مستوى محدد.

وأعيد القول هنا مرّة أخرى: بأنّ الصبي حصل على بلوزة وكرة وسفينة شراعية وسوط ولعبة الدوّارة الصافرة، وكان من المنتظر إضافة إلى ذلك أن يحصل مني على طبل صفيح أبيض-أحمر الطلاء. حالما فرغ من تفكيك السفينة الشراعية، اقترب منه أوسكار، مخفياً هدية الصفيح خلف ظهره، وقد جعل طبله المستعمل يتدلى على بطنه. فوقفنا قبالة بعضنا على مسافة خطوة واحدة: أوسكار القزم وكورت القزم الآخر الذي كان أطول من أوسكار بسنتمترين. بدا وجهه متجهماً وشريراً - لقد انشغل بتحطيم السفينة حتى تلك اللحظة - وفي اللحظة التي رفعت فيها الطبل إلى الأعلى انهار آخر شراع من السفينة الكثيرة الأشرعة التي حملت اسم «بامير». فترك كورت الهيكل يتداعى، وتناول الطبل، وظلّ ممسكاً به، ثم أخذ يقلبه، فلاح شيء من الهدوء على ملامحه التي لم تزل متوترة. فبات الوقت مناسباً لكي أرفع أمامه مضربي الطبل؛ إلا أنه، للأسف الشديد، أساء فهم هذه الحركة المزدوجة، فشعر بنفسه مهدداً، فأسقط المضربين الخشبيين من يديّ بحافة الطبل، ثم مدّ يده خلفه حين انحنيت لألتقط المضربين، فصفعني بهديّة عيد ميلاده بعدما قدمت إليه خشبتيّ التطبيل مرّة أخرى: لقد أصابني أنا، وليس اللعبة الدوّارة، أصاب أوسكار، وليس الدوّارة المخددة لهذا الغاية، بل أراد أن يعلّم أباه الأزيز والدوران، فجلدني بالسوط؛ انتظر يا أخيّاه! هكذا جلد قابيل هابيل إلى أن استدار هابيل وأخذ يغني أغنية الدوّارة،، بصوت خفيض في البدء، مترنحاً، ثم صار يزداد خفّة وسرعة ودقّة، فاستحالت الغمغمة الفجّة إلى غناء راق. استدرجني قابيل بسوطه إلى الارتقاء عالياً، حتى أصبح صوتي رخيماً، فصدح المغني القوّي الصوت منشداً صلاته الصباحية، بلا شكّ أن الملائكة التي قُدت من الفضة تغني على هذا المنوال، أو جوقة الفتيان المنشدين في فيينا،

الخصيان المهذبين تهذيباً صارماً - فلابد أن يكون هابيل قد غنّى على هذا النحو قبل أن يرتد على عقبيه، مثلما سقطت منهاراً تحت سياط الصبي كورت.

وحين رآني منهاراً، مولولاً على نحو بائس، أخذ يجلد هواء الغرفة، كما لو أن ذراعه لم تكتف بما فعلته بي. كان قد وضعني أثناء المعاينة المستفيضة للطبل نصب عينه بتوجّس تام. في البدء صفق الطبل المطلي بالأبيض والأحمر بقائمة كرسيّ، ثم سقطت الهديّة على الأرضية الخشبية، فأخذ كورت يبحث عنها حتى عثر على الهيكل المتين للسفينة الشراعية سابقاً، فضرب الطبل بكتلة الخشب تلك. لم يكن قد طبّل، بل حطّم الطبل. فلم تحاول يده تجريب أي إيقاع مهما كان بسيطا. بدأ يصفع الصفيح برتابة وبوجه عابس متوتر بحيث أن الصفيح لم يضع في حسابه طبّالاً كهذا، ذلك الصفيح الذي كان بمقدوره أن يحدث زوبعة لعوبة لو عزّف عليه بمضارب خفيفة، غير أنه لم يكن يتحمل صدمات هيكل مدكوك. فانثنى الطبل، وحاول أن يتجنب الضربات عبر تحرره من الإطار، وأراد أن يبدو غير مرئيّ حين تخلّى عن الطلاء الأبيض الأحمر، دافعاً بالصفيح الرمادي إلى التوسل بالرحمة. لكن الابن لم يظهر أي شفقة إزاء هديّة الوالد الخاصة بعيّد الميلاد. عندما حاول الأب التوسّط مرّة أخرى، فتقدم من الابن زاحفاً على الأرضية على الرغم من الآلام الكثيرة المتزامنة، فوقع من جديد تحت رحمة السوط: كانت اللعبّة الدوّارة تعرف هذا السيّد السوط، فنفض يده عن الدوران والدمدمة، وتخلّى الطبل بدوره نهائياً عن الطبّال الشديد الحساسيّة المثير لزوابع التطبيل الذي كان يخلط المعزوفات خلطاً عنيفاً لكنه لم يكن فظّا. عندما دخلت ماريا أصبح الطبل في عداد النفاية، فحملتني على ذراعها وقبلّت عينيّ المتورمتين وأذني الجريحة، ولعقت دمي ويديّ المليئة بالخدوش.

فيا ليت ماريا لم تقبّل فقط الطفل المنكّل به الشاذ والمتخلّف والسيئ الحظّ! ويا ليتها تعرفت على الأب المضروب وتعرفت على الحبيب عبر كلّ جرح! فكم سيكون ذلك عزاءً كبيراً، وكم سأكون لها بعلاً حقيقياً سريّاً

أثناء تلك الشهور القادمة المظلمة. ووقع المصاب أوّلاً على أخي غير الشقيق - دون أن يعني ذلك بالضرورة شيئاً ما لماريا -؛ شتيفان برونسكي الذي رُقّي آنذاك إلى رتبة ملازم ثان، الذي حمل حتى ذلك الوقت لقب زوج أمّه إهلرز، وقع له ذلك بالصدفة المحض وهو على جبهة المحيط المتجمد، مما وضع تنقله في سلّم الترقية العسكرية موضع الشكّ والتساؤل إلى الأبد. ففي الوقت الذي حمل فيه يان، أبو شتيفان، ورقة لعب (السكات) تحت قميصه عندما صُفّي جسديّاً في مقبرة سازبه؛ لأنه دافع عن البريد البولندي؛ فإن وسام الصليب الحديدي من الطبقة الثانية وشعار سلاح المشاة-الهجومي أو ما سمّي بشارة اللحم المتجمد كانت تزين سترة الملازم.

وفي أواخر يونيو / حزيران تعرضت الأمّ تروجنسكي إلى جلطة دماغية خفيفة؛ لأن البريد حمل لها خبراً سيّئا. كان نائب الضابط فرتس تروجنسكي قد سقط شهيداً من أجل ثلاثة أشياء مجتمعة في آن واحد، أي أنه ضحّى بحياته: من أجل القائد ومن أجل الشعب ومن أجل الوطن. حدث ذلك في جبهة القاطع الأوسط، فبعث أحد الضبّاط، وكان نقيباً يدعى كاناور، بمحفظة فرتس مع صور فتيات جميلات، ضاحكات على الأغلب، قادمات من هايدلبيرغ وبريست وباريس وباد كرويتسناخ وسالونيكي، إضافة إلى صلبان حديدية من الطبقتين الأولى والثانية، لا أعرف أي وسام منها كان مخصصاً للجرحى، وميدالية القتال بالسلاح الأبيض، ووشاحين مفصولين عن القيافة خاصين بسلاح مقاومة الدبابات؛ بعث بها مباشرة من الجبهة الوسطى إلى لابسفيغ في لانغفور. وقدم ماتسرات مساعدته بما استطاع، فتحسنت حالة الأمّ تروجنسكي قليلاً، هذا إذا لم تكن قد أصبحت جيّدة. كانت تتشبث بالجلوس في كرسيّها عند النافذة، وتريد أن تعرف منّي ومن ماتسرات الذي كان يصعد إليها مرتين أو ثلاثاً في اليوم، جالباً لها بعض الحاجيات، أين تقع هذه «الجبهة الوسطى؟» وهل هي بعيدة أو هل يمكن الوصول إليها بالقطار من يوم السبت إلى الأحد. وعلى الرغم من نواياه الحسنة، إلا أن ماتسرات لم

يستطع تزويدها بأي معلومات. وهكذا لم يبق أمامي أنا الذي تتلمذت جغرافياً على الأنباء الخاصة وتقارير الجيش الألماني إلا أن أقرع على طبلي أثناء ساعات العصر الطويلة أمام الأمّ تروجنسكي الراسخة في مكانها، المترنحة الرأس، بعض التصورات والروايات عن الجبهة الوسطى المتنقلة باستمرار.

لكنّ ماريا التي كانت متعلقة جدّاً بفرتس المرح اللطيف أصبحت متدينة، فحاولت في البدء تطبيق ما تعمله من دينها، وصارت تذهب كلّ أحد إلى القسيس هشت في كنيسة المسيح، وكان ماتسرات يرافقها أحياناً على الرغم من أنها كانت تودّ الذهاب بمفردها، بيد أن القدّاس البروتستانتي لم يشبع رغبة ماريا. وفي منتصف الأسبوع - هل حدث ذلك يوم الخميس أو الجمعة؟ - أخذتني ماريا معها قبل موعد إقفال المحلاّت وقبل أن يغادر ماتسرات الدكّان، اصطحبتني معها، أنا الكاثوليكي، ومضينا في اتجاه نوير ماركت، ثم انحرفنا في أليزين شتراسه ومن بعدها في مارين شتراسه، مروراً بالقصّاب فولغيموت، إلى أن بلغنا متنزه كلاينهامر - ففكّر أوسكار في أننا سنذهب إلى محطة لانغفور، لنقوم برحلة قصيرة، ربما إلى بيساو، موطن الكاشوبيين - وذلك حين انعطفنا إلى اليسار، قبل نفق القطارات، حيث وقفنا ننتظر مرور أحد قطارات الشحن، إيماناً منّا بدفع البلاء، ثم قطعنا النفق الذي كان الماء يقطر منه بشكل مقزز، لكننا لم نواصل سيرنا إلى الأمام، حيث قصر السينما، إنما مشينا يساراً بمحاذاة سدّة القطار. حينئذ أخذت أخمّن: إمّا أنها ستجرجرني إلى برونسهوفرفيغ، حيث عيادة الدكتور هولاتس، أو أنها ستعتنق الكاثوليكية وتريد الذهاب إلى كنيسة-قلب-يسوع.

كانت بوّابة الكنيسة تطلّ على سدّة القطار. بقينا واقفين بين السدّة والبوّابة المشرعة. حدث ذلك ذات أصيل متأخر في أغسطس كان هواؤه مشبعاً بالطنين. ثمة عاملات شرقيات عقدن رؤوسهن بمناديل بيضاء كنّ يحفرن ويجرفن خلفنا في الحصى بين أرصفة القطارات. فوقفنا وأخذنا نتطلع إلى باطن الكنيسة الكثيف الظلال المنعش البرودة. وفي المؤخرة

تماماً ثمة عين ملتهبة بحدّة، تمارس الإغراء ببراعة - إنها الضياء الأبدي! ومن ورائنا توقفت العاملات الأوكرانيات عن النكش والجرف فوق سدّة السكك الحديدية. إذ كان هناك نفير بوق، فثمة قطار اقترب، بل قدم هاهنا، ليتوقف ولم يتابع طريقه، لكنه تحرّك من جديد وانطلقت الصفّارة، فعادت الأوكرانيات إلى الجرف والنكش. بدت ماريا مترددة، لا تعرف أي قدم ستقدمها على الأخرى، ملقيةً المسؤولية عليّ أنا الذي كنت قريباً من الكنيسة المنقِذة منذ ولادتي وتعميدي؛ فتركت ماريا أمر القيادة لأوسكار للمرّة الأوّلى منذ أعوام، أي منذ الأسبوعين المليئين بالحبّ والمسحوق الفوّار.

وهكذا ودّعنا سدّة القطار وأصواتها وشهر أغسطس وطنينه في الخارج، فتذكرت بلوعة القدّاسات الكنسية ومكاتب الأساقفة وصلوات المساء والاعتراف بالخطايا أيّام الآحاد التي كنت أشهدها برفقة أمّي المسكينة، وأنا أنقر الطبل بأناملي على نحو متراخ تحت جلبابي الأبيض، تاركاً المجال لوجهي وللوعة أن يتخذا الصفة التي يشاءان؛ بل تذكرت أمّي المسكينة التي أصبحت متدنية إثر علاقتها المشبوبة بيان برونسكي، فصارت تذهب كلّ أحد إلى الكنيسة لتعترف بخطاياها، وتشدّ من عزيمتها بتناول أقراص القربان المقدس، لكي تلتقي خلال الخميس المقبل بيان في جادة النجارين وقد خففت عن نفسها وصارت تنضح بالعافية. ماذا كان اسم حضرته آنذاك؟ كان حضرته يدعى فيهنكه، ومازال إلى اليوم راعياً لكنيسة-قلب-يسوع؛ يلقي مواعظه بصوت خفيض عذب وغير مفهوم ثم يرتّل شهادة الرسل على نحو رقيق باك، بحيث أن قدراً من الأيمان أوشك آنذاك أن يتسلل إلى قلبي أنا بالذات لو لم يكن المذبح الجانبي الواقع على الشمال موجوداً ومعه السيّدة العذراء والصبي يسوع والفتى يوحنّا المعمدان. ومع ذلك؛ فإن هذا المذبح هو الذي حملني على سحب ماريا من أشعة الشمس إلى البوّابة ومن ثمة إلى قلب الكنيسة عبر البلاط.

كان أوسكار متمهلاً، فجلس على مقعد خشب البلّوط إلى جانب ماريا بهدوء وبأعصاب أخذت تبرد على الدوام. لقد مرّت أعوام طويلة،

لكن بدا لي وكأن الناس أنفسهم مازالوا ينتظرون أذن حضرة القسيس ويقلبون في صفائح التساؤلات المتعلقة بالذنوب وفق المنهج المنتظم. جلسنا على انفراد إلى حدّ ما، قرب الجناح الأوسط للكنيسة. أرادت أن أترك الخيار لماريا نفسها فأخفف عليها الأمر. إذ أنها، من ناحية، لم تكن قريبة من كرسي الاعتراف بشكل يثير الاضطراب، فكان بإمكانها أن تصبح كاثوليكية على نحو هادئ وبصفة غير رسمية، لكنها رأت، من ناحية أخرى، عملية التحضير للاعتراف، فكان باستطاعتها أثناء المراقبة أن تتخذ قراراً كأن تجد طريقها إلى أذن حضرة القسيس وهي جالسة في صندوق الاعتراف، أو أن تناقش معه تفاصيل انتسابها إلى الكنيسة المنقذة. لقد شعرت بالشفقة والرثاء على حالها حين جثت على ركبتها أمام الرائحة والغبار وزخارف الجبس وأسفل الملائكة الملتويين والضوء المنكسر والقديسين المتشنجين وأمام المذهب الكاثوليكي العذب المليء بالآلام وتحته وما بينه لتضرب علامة الصليب بشكل مقلوب. فأخذ أوسكار ينقر لماريا بخفّة، وأطلعها على الطريقة الصحيحة، مظهراً لماريا التوّاقة إلى التعلّم كيف أن الأب والابن والروح القدس يسكنون خلف جبينها أو عميقاً تحت صدرها أو عند مفاصل منكبيها بالضبط، وكذلك كيف يطبق المرء راحتيه، ليختم صلاته. فانصاعت لي ماريا ثمّ جعلت يديها ترتخي عند مرحلة الختام لتبدأ بالصلاة بعد الآمين. وحاول أوسكار في البدء أن يأتي على ذكر بعض الموتى ليصلي من أجلهم، لكنه أغرق نفسه في التفاصيل عندما توسّل بربه ليترحم على روزفيتا فيدخلها فسيح جنّاته ويمنّ عليها بالراحة الأبدية؛ أغرقها في تفاصيل دنيوية بحيث أن الراحة الأبدية والسعادة السماوية استقرتا أخيراً في فندق باريسي. فأنقذت نفسي بصلاة القربان، حيث تجري الأمور على نحو غير إلزاميّ إلى حدّ ما، فقلت من الأبدية إلى الأبدية، sursum corda, dignum et justum، فهذا عمل كريم وعمل حقّ، مكتفياً بذلك القدر، وصرت أراقب ماريا من الجانب.

كانت الصلاة الكاثوليكية تليق بها، فبدت فاتنةً جديرة بأن تُرسم أثناء

تعبّدها. فقد أطالت الصلاة من رموشها، وزججت حاجبيها، وسخنّت وجنتيها، وأثقلت جبينها ثم جعلت الجيد ليناً وحرّكت طرفي أنفها. كاد وجه ماريا المترع بالحزن أن يغويني بالاقتراب منها، لكن على المرء أن لا يعكر صفو المصلين، وأن لا يغويهم أو يقع تحت إغرائهم، حتى لو بدا ممتعاً بنظر المصلّي ومفيداً لصلاته حين يكون جديراً بتأمل المتأمل. ولقد انزلقت من خشب الكنيسة الأملس، واضعاً يديّ بأدبّ على الطبل الذي قبب جلبابي. لقد هرب أوسكار من ماريا، ووجد نفسه يخطو فوق الأرضية المبلطة، متسللاً مع الطبل حيث محطات طريق المسيح إلى الصلب في جناح الكنيسة اليسار، لكنني لم أتوقف عند القدّيس أنطونيوس - تقبّل الله دعاؤه -؛ إذ أننا لم نفقد محفظة نقودنا ولا مفتاح بيتنا، وتركنا كذلك القدّيس أداليبرت فون براغ الذي قتله البروزنيون البلطيقيون القدماء؛ تركناه ملقى إلى اليسار، بيد أننا لم نرتح لذلك، فصرنا نقفز من بلاطة إلى أخرى - كان يمكن استخدام الأرضية بمثابة رقعة شطرنج - إلى أن ظهرت السجادة المفروشة على مدرج المذبح في الجناح اليسار.

ولعلّكم ستصدقونني إذا ما قلت بأن كنيسة-قلب-يسوع المقامة بالآجر على الطراز القوطيّ الحديث بقيت على حالها ومعها مذبح الجناح اليسار. فمازال الصبي عيسى الوردي اللون العاري يتربع على الفخذ اليسرى للسيّدة العذراء والتي لا أريد أن أسميها عذراء، لكي لا يتم الخلط بين السيّدة العذراء وماريا صاحبتي التي نوت الدخول إلى المذهب الكاثوليكي. وكان الصبي المعمدان، المتلفع بجلد الماعز الناعم البنيّ الذي لا يكاد يستر عورته، يقحم نفسه بإلحاح نحو الفخذ اليمنى للسيّدة العذراء، أمّا السيّدة نفسها فقد أشارت بسبابتها اليمنى إلى يسوع متطلعةً في الوقت ذاته إلى يوحنّا. غير أن أوسكار لم يهتم بكبرياء الأمومة الذي أظهرته السيّدة العذراء حتى بعد أعوام طويلة من الغياب بقدر اهتمامه ببنية الصبيين. فعيسى كان تقريباً بحجم ولدي كورت في عيد ميلاده الثالث، أي أكبر من أوسكار بسنتمترين. أمّا يوحنّا الذي كان أكبر سنّاً أثناء الناصريّ حسب الشواهد التاريخية فقد كان بحجمي. ألا أن كلاهما حمل

ملامح النبوغ ذاتها المعروفة بالنسبة لأوسكار ذي الأعوام الثلاثة الثابتة. لم يتغيّر فيهما شيء أبداً؛ إذ أن علامات الذكاء الخارق مازالت تشع منهما كما في السابق عندما كنت أزور كنيسة-قلب-يسوع برفقة أمّي المسكينة قبل كذا وكذا من الأعوام. فتسلقت الدرجات عبر السجّادة دون صلاة القدّاس الافتتاحية. فتفحصت الغضون والطيّات كلّها، وتحسست الجبس المصبوغ للفتيين العاريين بمضرب الطبل الذي كان أشدّ رهافة من أصابعي جميعها، مررت المضرب ببطء، دون أن استثني جزءاً: على الفخذ والبطن والذراع، وأحصيت طيّات الشحم ومواضع الخسوف - فهذه هي بُنية أوسكار بالتمام والكمال، هذا هو لحمي المعافى وركبتي القوّية المكتنّزة الشحم، وذراعاي المطبلتان القصيرتان، المفتولتا العضلات. فكان الصبي يشرع ذراعيه كما كنت أشرعهما، جالساً على فخذ العذراء رافعاً ذراعيه وقبضتيه كما لو أنه موشك على قرع الصفيح، وكما لو أن يسوع نفسه كان الطبّال وليس أوسكار، وكما لو أنه لم يكن ينتظر سوى طبلي الصفيح، أو أنه عقد النيّة وبصورة جديّة لكي يعزف للعذراء ويوحّنا ولي أنا أيضاً بعض الإيقاعات المثيرة على الطبل.

وفعلت ما كنت أفعله قبل أعوام، أي أنني انتزعت الطبل المتدليّ على بطني وأعطيته ليسوع لامتحنه. فقمت بزحزحة صفيح أوسكار الأبيض الأحمر بتروّ، لأثبته على الفخذ الورديّ، متخذاً الحذر لئلا أصيب الجبس المصبوغ بضرر. قمت بذلك ترضية لنفسي، وليس طمعاً بمعجزة كما يفعل الأحمق، بل أردت رؤية العجز مجسّداً أمامي؛ إذا أنه حتى لو جلس بالطريقة الصحيحة مشرعاً يديه، أو حتى لو تمتع بحجمي وبنيتي المتينة، ممثلاً ببساطة، وهو في الجبس، ذلك الفتى الثابت على أعوامه الثلاثة الذي احتفظت به أنا بمشقّة وحرمان كبيرين، لكنه لم يستطع التطبيل، وسيفعل كما لو أنه يعرف قرع الطبل، فيفكّر حينئذ يا ليتني كنت أعرف التطبيل، فأقول إنك لا تملك القدرة ولا الاستطاعة، ثم أثبّت المضربين في قبضتيه، ، أحشرهما بين أصابعه الغليظة، عشرتها، وأكوّر نفسي من فرط الضحك: طبّل يا يسوع، يا أحلى الناس، طبّل يا أيها الجبس

المصبوغ، فتراجع أوسكار، نازلاً الدرجات الثلاث، مغادراً السجّادة وصار يخطو على الأرضية المبلطة، طبّل يا يسوع الفتى، ثم تراجع أوسكار خطوة إلى الوراء، مبتعداً مسافة، فضحك؛ لأن يسوع جلس هناك، عاجزاً عن التطبيل، وربما رغب في التطبيل. -بدأ الضجر ينهشني مثلما ينهش المرء شحمة الخنزير- هنالك وأخذ يقرع، هنالك وصار يطبّل!

وفي الوقت الذي بقي فيه كلّ شيء ساكناً: بدأ يسوع يضرب يمنياً وشمالاً، ثم قرع الصفيح على نحو متقاطع بالمضربين معاً، ولم يكن قرعه سيئاً في الواقع، بل قد فعل ذلك بجديّة وهمّة عاليتين، فكان يحبّ التنويع، جيّداً في الإيقاع البسيط، مثلما أجاد العزف المعقّد، متخليّاً عن الخزعبلات كلّها، غير ملتزم إلا بالصفيح نفسه، فبدا لي كأن لا علاقة له بالتديّن، وكأنه ليس مرتزقاً متحمّساً، إنما موسيقي خالص، لم يستنكف من أيّ أغنية شائعة، فأتى بلحن كان على ألسنة الناس جميعهم آنذاك «كلّ شيء سيمرّ بسلام»، وبالطبع أغنية «ليلي مارلين» الشهيرة، فأدار رأسه وخصلاته والعينين الزرقاوين اللتين تشبهان عيون آل برونسكي، بل ربما أدار رأسه دفعةً إثر أخرى، ثم ابتسم بشيء من الترفع والغطرسة، محيلاً مقطوعة أوسكار المفضلة إلى لحن مختلط، فبدأ على النحو التالي: «زجاج، زجاج، زجيّج»، ثم مرّ بطريقه على «جدول الدروس»؛ كان الفتى قد مارس الوقيعة بين غوته وراسبوتين تماماً مثلما فعلت، وتسلق معي البرج ذا الطوابق، زاحفاً معي تحت المنصّة، وأصطاد سمك الحنكليس في سدّة المرفأ، ثم خطا إلى جانبي وراء تابوت أمّي المسكينة الضيّق عند القدمين، وكان يجد طريقه إلى أسفل ثياب جدّتي آنا كولياجك كلّ مرّة من جديد، مما جعلني أشعر بالذهول أكثر فأكثر. وحينئذ اقترب أوسكار، فثمة شيء جذبه، فأراد أن يطأ البساط، إذ لم يعد راغباً في الوقوف على الأرضية المبلطة. فسلمته درجة مذبح إلى أخرى. وهكذا صعدت إلى الأعلى، متمنياً أن يترجل. فاستجمعت بقايا صوتي وهتفت به: «يا يسوع أننا لم نعقد رهاننا بهذا الشكل. ويجب أن تعيد لي طبلي

حالاً، ففي حوزتك الصليب، ولابد أن تكتفي به!» فأنهى التطبيل دون أن يقطعه على حين غرّة، ثم عقد المضربين فوق الطبل بعناية مبالغ فيها، وناولني، وبلا اعتراض، طبل الصفيح الذي أعرته إيّاه على نحو طائش. وأوشكت أن أهبط على عجل، بسرعة عشرة شياطين، دون كلمة شكر، وأخرج من الكاثوليكية برمتها، إلا أن صوتاً لطيفاً، حتى لو كان آمراً، قد لامس كتفي: «ألا تحبني يا أوسكار؟» فأجبت دون أن ألتفت: «لا أعلم ذلك.» فأردف بالصوت نفسه دون أن يرفعه قيد شعرة: «ألا تحبني يا أوسكار؟» فرددت عليه بجفاء: «آسف تماماً، ليس هناك أي أثر للحب!» فأضجرني للمرّة الثالثة: «ألا تحبني يا أوسكار؟» حينئذ جعلت يسوع يرى وجهي: «إنني أكرهك يا صبي، أنت وأقاويلك ودعاواك الفارغة جملةً وتفصيلا!» وكان مما يعجب له هو أن ادعائي قد أعانه على تحقيق انتصار صوتيّ، فرفع سبابته مثل معلّمة مدرسة شعبية وكلفني بمهمة: «إنك أوسكار الصخرة، وعلى هذه الصخرة أريد أن أقيم كنيستي؛ فاتبعني!» والآن يمكنكم أن تتخيلوا مقدار استيائي من هذا الأمر. لقد جعلني الغضب أقشعر مثل جلد دجاجة الحساء، فكسرت أحد أصابع قدمه المجصصة، لكنه لم يحرّك ساكنا. فقال أوسكار بصوت مشبع بالفحيح: «أعد ما قلت وسوف أحك لك لونك!» فلم ينطق بحرف، فتقدم وقتئذ ذلك الرجل العجوز الذي كان يأتي كلّ مرّة، العجوز الذي كان يجوب الكنائس كلّها، وألقى التحية على المذبح الجانبي اليسار، لكنه يلحظ وجودي، فأخذ يجرجر أسلابه حتى بلغ «آدالبيرت فون براغ»، فتعثرت بالمدرج حين هبطت من السجّادة إلى البلاط، وعثرت على طريقي إلى ماريا عبر رقعة الشطرنج دون التفات إلى الوراء، فوجدت ماريا تضرب للتو علامة الصليب الكاثوليكية بشكل صحيح حسب تعليماتي. فأمسكت بيدها، وقدتها إلى حوض الماء المقدّس، ثم تركتها تضرب علامة الصليب ثانيةً في منتصف الكنيسة في اتجاه المذبح بالقرب تماماً من البوّابة الخارجية، لكنني لم أشاركها بما فعلت، إنما سحبتها نحو الشمس عندما أوشكت أن تجثو على ركبتها.

وبات الوقت مساءً وكانت العاملات الشرقيات قد غادرن سدّة القطارات، فحلّ في مكانهن قطار شحن تمّ تحويل سكّته قبل محطة ضاحية لانغفور بمسافة قصيرة. بدا البعوض معلقاً في الهواء كالعناقيد، والأجراس تقرع من الأعلى، لكن أصوات التحويل ابتلعت رنين الأجراس، وبقي البعوض معلقاً كالعناقيد. حينئذ ران البكاء على وجه ماريا، بينما ودّ أوسكار أن يصرخ: ما الذي سأفعله بيسوع؟ كان عليّ أن أشحن صوتي! لكن ما علاقتي أنا بصليبه؟ فقد كنت أعلم تماماً بأن صوتي سوف لا يرقى إلى مصاف نوافذ كنيسته. عليه أن يواصل تشييد معبده على أكتاف أناس يدعون بطرس أو «بيتري» أو «بيتريكايت» حسب اللهجة البروسية الشرقية. فهمس الشيطان في أعماقي «كن حذراً يا أوسكار واترك نوافذ الكنيسة بسلام؛ إذ أن يسوع سيفسد عليك صوتك.» وبناءً على ذلك قذفت فقط بنظرة واحدة إلى الأعلى، وأخذت قياسات النافذة المصممة على الطراز القوطيّ الحديث، ثم انتزعت نفسي منه، دون أن أطلق صوتي عليه، أو أتعقبه، بل سرت على مهل إلى جانب ماريا حتى نفق شارع المحطة، حيث عبرنا النفق الذي كان يقطر ماءً، طالعين نحو كلاينهامربارك، ثم انحرفنا يميناً في مارين شتراسه، مروراً بالقصّاب فولغيموت، ومن ثمة دخلنا يساراً في «إلزين شتراسه»، ومن هناك إلى نويرماركت عبر شتريسباخ، حيث كانوا يقيمون بركة مياه لإطفاء حرائق القصف الجوّي. كانت جادة لابسفيغ طويلة، ومع ذلك وصلنا: فانفصل أوسكار عن ماريا وطلع الدرجات التسع عشرة إلى سطح المبنى، حيث نُشرت الملاءات، وخلف الملاءات تكوّم رمل مكافحة الحرائق وخلف الرمل والجرادل وأكوام الجرائد وأحجار القرميد رقد كتابي واحتياطي طبولي المتبقي منذ زمن المسرح الميداني. كانت هناك بضعة مصابيح لها شكل الكمّثرى لم تزل موضوعة في إحدى علب الأحذية. فتناول أوسكار أوّل واحد منها، فحطمه بصوته، ثم تناول الثاني فأحاله إلى تراب زجاجيّ، كما أنه فصل عن المصباح الثالث الجزء السميك، وحطّم حروف يسوع المكتوبة على المصباح الرابع بقوّة صوته، محوّلاً الزجاج

والكتابة معاً إلى مجرد مسحوق، وأراد أن يكرر ذلك، إلا أن المصابيح نفدت. فتهالكت على رمل الحماية مرهقاً: إن أوسكار مازال يحتفظ بصوته. ومن المحتمل أن يسوع قد حصل على خليفة له؛ على أن يصبح النافضون حواريي.

النافضون

وحتى لو لم يكن أوسكار صالحاً لخلافة المسيح بسبب صعوبات جمع الحواريين التي لا يمكن تذليلها، فإن التكليف السابق استأثر بسمعي عبر هذه الطرق الملتوية أو تلك، وجعلني أصبح خليفة، على الرغم من أنني لم أكن آمنت بسلفي. وطبقاً للقاعدة التي تقول بأن: كلّ من يشكّ سيؤمن فيما بعد، وكلّ من لا يؤمن سيكون إيمانه أطول زمناً من إيمان الآخرين؛ فإنني لم أتمكن من دفن المعجزة الصغيرة التي قدمت لي بشكل شخصي في كنيسة-قلب-يسوع في غياهب الشكّ، بل حاولت استمالة يسوع لعلّه يعيد تقديم عروض تطبيله. وكان أوسكار قد زار كنيسة الآجر الآنفة الذكر مرّات عديدة بدون ماريا. فكنت غالبا ما أفلت من قبضة الأمّ تروجنسكي التي كانت تجلس متصلبة في الكرسي بحيث أنها لم تستطع اعتراض طريقي. فما الذي يمكن أن يقدمه لي يسوع؟ ولماذا كنت أقضي أنصاف الليالي في جناح اليسار من الكنيسة، تاركاً الشمّاس يقفل الباب عليّ؟ ولِمَ صمّ أوسكار أذنيه أمام المذبح الجانبي فجعلهما تصبحان كالزجاج الصلب، بل جعل كلّ عضو يصاب بالتشنج؟ لأنني لم أحظ بطبلي ولا بسماع صوت يسوع على الرغم من خشوعي الضروس وتجديفي الضروس أيضا.

إنّه المزمور الخمسون! وأنا لم أسمع نفسي، وطوال حياتي، أطقطق هكذا بأسناني مثلما فعلت آنذاك على بلاط كنيسة-قلب-يسوع عند منتصف الليل. فأي مهرّج سيجد ضارب صنّاجات أفضل من أوسكار؟ لقد استطعت محاكاة قاطع جبهة حربية مليء بالبنادق الآلية المسرفة في إطلاق

الرصاص، ثم وضعت بين كفّي إدارة مؤسسة تأمين كاملة بفتيات مكاتبها وآلاتها الطابعة. فثمة شيء كان يدوّي هنا وهناك مولّداً صدى واستحسانا. حينئذ أصيبت الأركان والدعائم برعشات البرد والقباب بالقشعريرة، فصار سعالي يحجل على ساق واحدة فوق رقعة شطرنج البلاط، راجعاً عبر درب الصلب، مخترقاً الجناح الأوسط إلى الأعلى، حتى وصل إلى جوقة الإنشاد، فسعلت ستين مرّة - جوقة إنشاد الموسيقار باخ، لكنها لم تنشد شيئاً، إنما كانت تتمرن على السعال -، وحين ساورني الأمل بأن سعال أوسكار زحف إلى قضبان الأرغن، معلناً عن نفسه أوّلاً أثناء تراتيل الأحد - فتعالى السعال وسط غرفة المقدسات وملابس الكهنة ثم اعتلى المنبر، ليحتضر أخيراً وهو يسعل خلف المذبح الرئيسي، في ظهر لاعب الجمباز على الصليب - ثم سعل روحه على عجل. لقد تحقق الأمر، فسهلت سعالي، ألا أنه لم يتحقق شيء خلال ذلك الوقت. فبقي الصبي يسوع ممسكاً بمضربيّ بوقاحة وتشنّج، واضعاً طبلي على الجبس الوردي دون أن يطبل، وكذلك لم يؤيد قضيّة خلافتي. فقد كان أوسكار يودّ لو أنه حصل على مبايعته بالخلافة الموصى بها له بصورة خطّيّة. ومنذ ذلك الوقت أصبح إطلاق السعال المتواصل أثناء زيارة الكنائس، بما فيها الكاتدرائيات الشهيرة عادة حسنة أو سيئة بالنسبة لي؛ فكنت أطلق السعال حالما أطأ الأرضيات المبلطة، فيتجلّى حسب الطراز المعماري والارتفاع والعرض، فيكون إمّا قوطيّاً أو رومانتيكيّاً أو حتى باروكيّاً، وأتيح لي بعد أعوام أن أقلّد صدى سعالي على طبل أوسكار في كنيسة أولم العملاقة أو الكنيسة الأسقفية «لشباير». ولأنني أخضعت نفسي آنذاك لتأثير المذهب الكاثوليكي البارد برودة القبر في منتصف شهر أغسطس فبدا من الصعب التفكير في السياحة وزيارة الكنائس في البلدان البعيدة، إلا إذا كان المرء منتسباً إلى القوّات المسلحة ومشاركاً في الوقت ذاته بالانسحاب المنظّم، ليدوّن ربما في دفتر مذكراته العبارة التالية: «لقد أخلينا اليوم بلدة «أورفيتو»، وكانت فيها واجهة كنيسة مدهشة، وسأزورها بعد الحرب برفقة مونيكا، لأتفرّج عليها عن كثب.» وكان من السهل عليّ أن أصبح من زوّار الكنائس

الدائمين، إذ لم يكن هناك ما يسليني في البيت. فكانت هناك ماريا، لكن لماريا ماتسرات، وكان هناك ابني كورت، لكن هذا الوغد أصبح لا يطاق على الدوام، فصار يذر الرمل في عينيّ، ويخدشني لدرجة أن أظفاره تظل نابتة في لحمي الأبويّ. كان لابني قبضتان ضاربتان لهما براجم بيضاء يكفي منظرها وحده ليجعل الدمّ ينهمر من أنفي. ومن الغريب حقّاً هو أن ماتسرات بدأ يعتني بي بحرارة صادقة، وإن خلا اعتناؤه من المهارة. وكان مما يدعو إلى الدهشة هو أن أوسكار قبل بأن يأخذه ماتسرات، الذي كان أوسكار ينظر إليه بعدم اكتراث، في أحضانه ويضمّه إليه ويمعن النظر فيه، بل أنه كان يقبّله أحياناً حتى تترقق مقلتاه بالدموع، فكان يخاطب نفسه أكثر مما يخاطب ماريا: «كلا؛ إن هذا لا يجوز. فمن المستحيل أن يفعل المرء بابنه هذا الشيء. حتى لو كرر الأطباء كلّهم التشخيص ذاته عشرات المرّات. إنهم يكتبون التقارير هكذا بكلّ ببساطة. فهم ليس لديهم أطفال.»

أمّا ماريا التي جلست إلى الطاولة لتلصق بطاقات التموين على صفحات الجرائد، مثلما كانت تفعل كلّ مساء فقد رفعت بصرها إلى الأعلى وقالت: «هدّأ نفسك يا ألفريد! فأنت تتصرف وكأن الأمر لا يعنيني. لكن عندما يقولون إن الناس صارت تفعل هذا الشيء فإنني وقعت الآن في حيرة وما عدت أعرف الصحيح من الغلط.» فأشار ماتسرات بسبابته إلى البيانو الذي لم تصدح منه الموسيقى منذ وفاة أمّي المسكينة: «بالتأكيد أن آغنس لن تفعل ذلك ولن تسمح به!» فرمقت ماريا البيانو بنظرة، ثم رفعت منكبيها وأنزلتهما حين تكلمت: «هذا شيء مفهوم، لأنها أمّه، وكانت تأمل دائماً أن تتحسن حالته. لكنك ترى بعينك اليوم كيف صار وضعه. في كلّ مكان يقذفونه من واحد إلى واحد حتى صار ما يقدر على الحياة ولا على الممات!» فاستمد ماتسرات القوّة من صورة بيتهوفن التي مازالت معلقة فوق البيانو تتفحص بتجهم هتلر المتجهم أصلاً، فصرخ: «كلا ثم كلا، أبداً!» وضرب طوابع التموين الرطبة الملصوقة على الجرائد فوق الطاولة وطلب من ماريا أن تأتي له برسالة إدارة المصحة،

فقرأها ثم قرأها ثانية فمزقها ورمى بها قصاصاتٍ ممزقةً بين طوابع الخبز والسمن والطعام والسفر والأعمال الثقيلة والأعمال الشاقة وبين بطاقات المرضعات أو اللواتي سيصبحن أمهات. وإذا كان أوسكار لم يسقط بين أيدي أولئك الأطبّاء بفضل ماتسرات، فإنه رأى نفسه، ومازال يراها إلى اليوم، في المستوصف الساحر الواقع تحت أنقى هواء جبليّ؛ حيث كان يرى غرفة عمليات حديثة لطيفة ساطعة النور، ويرى كيف أن ماريا الخجولة المبتسمة بثقة تسلمني أمام بوّابة غرفة العمليات المبطنة باللدائن إلى أطبّاء الدرجة الأولى الذين يبتسمون على نحو يوحي بالثقة، قابضين خلف مآزرهم البيضاء المعقمة على حقن من الدرجة الأولى توحي بالثقة وذات تأثير فوري. لقد تخلّى العالم عنّي برمته، ما عدا ظلّ أمّي المسكينة الذي كان يسقط على إصبع ماتسرات فيشله حين يوشك على توقيع كتاب رسمي قادم من وزارة صحّة الرايخ الألماني، مما أحال مرّات عديدة دون أن أغادر، أنا المقطوع المهجور، هذا العالم.

لكن أوسكار لا يود أن يكون ناكراً للجميل؛ فإنني مازلت أحتفظ بطبلي، وبصوتي الذي ليس من شأنه أن يقدم لكم شيئاً جديداً أنتم الذين شهدتم نجاحاتي كلّها في مواجهة الزجاج، ولعلّ من يحبّ التنوع بينكم سيشعر بالملل - بيد أن صوت أوسكار فوق الطبل كان بالنسبة لي دليلاً نضراً أبداً على وجودي، إذ أنني طالما بقيت أحطم الزجاج، فأنا إذاً موجود، وطالما بقي نفسي الهادف يقطع أنفس الزجاج، فإن جذوة الحياة مازالت متقدةً في أعماقي. وكان أوسكار يغني كثيراً آنذاك، وكثيراً ما كان يغني بيأس. فكلّما ما أغادر كنيسة-قلب-يسوع في ساعة متأخرة كنت أحطم بصوتي شيئاً ما. فكنت أذهب إلى البيت، مستهدفاً حجرة سيئة التعتيم تحت السطح أو مصباح شارع بلون أزرق يتوهج بمقتضى إجراءات الحماية من القصف الجوّي. فكنت اختار كلّ مرّة طريقاً جديداً إلى البيت بعد زيارة الكنيسة. فذات مرّة قدم أوسكار إلى مارين شتراسه عبر أنتون-مولر-فيغ؛ ومرّة أخرى جرجر خطاه طالعاً «أوبهاغنفيغ»، ملتفاً حول مدرسة كونرادينوم التي أطاح بزجاج بوّابتها أرضاً، قادماً نحو ماكس-

هالبه-بلاتس عبر مستوطنة الرايخ الألماني. وعندما أتيت إلى الكنيسة متأخراً ذات مرّة في نهاية شهر أغسطس ووجدت مدخلها مقفلاً، عزمت ساعتها على اتخاذ طريق كثير التعرّج والالتواء، لعلّه يخفف من حدّة غضبي. فطلعتُ شارع محطة القطارات صعوداً، محطماً كلّ ثالث مصباح فيه، ثم انعطفت خلف قصر السينما في شارع أدولف هتلر، حيث أحلت الواجهة الزجاجية لثكنة سلاح المشاة إلى ركام ملقى على شمالها، ثم خففت من سخونة جرأتي بترام كان خالياً تقريباً من الركاب قدم في اتجاهي من ناحية أوليفا، فانتزعت من طرفه اليسار جميع الزجاجات المطلية بدهان التعتيم.

لم يعبأ أوسكار بنجاحه، فترك الترام يزعق ثم توقفّ، ليترك الناس ينزلون، وصار أوسكار يبحث عن تحلية لغضبه، أي عن أكلة شهيّة في ذلك الزمن الفقير بالمأكولات الشهيّة، فبقي منتصباً في حذائه ذي الرباط حين وصل إلى الطرف الأقصى من ضاحية لانغفور إلى جانب نجارة بيرنت الواقعة في ظلّ معسكر المطار الاحتياطي الشاسع، حيث أبصرت المبنى الرئيسي لمصنع شيكولاتة البلطيق يرقد تحت أشعة القمر. ولكن غضبي لم يكن كبيراً لدرجة تحملني على تقديم نفسي للمصنع فوراً وحسب الطريقة المجربة. فأعطيت لنفسي وقتاً، وصرت أحصى زجاجات النوافذ التي كان القمر قد أحصاها قبلي إحصاءاً أوليّاً، فتوصلت التي النتيجة ذاتها التي توصل إليها القمر، وبات بمقدوري أن أبدأ بتقديم العرض، إلا أنني أردت أن أعرف في البدء ما الذي نوى عليه المراهقون أولئك الذين كانوا يتعقبونني من هوخشتريس إلى هنا؛ ربما كانوا يسيرون تحت أشجار الكستناء المحاذية لشارع المحطة. كان ستة أو سبعة منهم يقفون أمام مظلّة الانتظار أو في داخلها، إلى جانب محطة الترام في شارع «هوهنفريدبيرغر». وثمة خمسة آخرون اجتمعوا خلف الأشجار الأولى في الطريق العام المؤدي إلى تسوبوت.

كنت أوشكت على تأجيل زيارة مصنع الشيكولاتة، متحاشياً المرور بالصبيان، أي أن أتخذ طريقاً ملتوياً، فأتسلل عبر جسر سكّة القطار

بمحاذاة المطار، مروراً بالحدائق الصغيرة، لكي أصل إلى شركة البيرة التعاونية في كلاينهامرفيغ، عندما سمع أوسكار صفيرهم المتعاقب، المتفق عليه والذي كان له طابع الإنذار؛ سمعته يأتي من ناحية الجسر. حينئذ لم يبق أدنى شكّ: كنت أنا المقصود بالاستعداد للزحف. فالمرء يبدأ عادةً، في حالات كهذه، لاسيما خلال الفترة القصيرة التي يشخّص فيها المتعقبون، قبل بدء المطاردة، بإحصاء آخر إمكانيات الإنقاذ بإسهاب وتلذذ: فأصبح بمقدور أوسكار أن يصرخ ملء فمه مستغيثاً بماما وبابا. بل كان بإمكاني أن استحضر بطبلي كلّ شيء، أن آتي بشرطي على سبيل الافتراض. إنني سأحظى بلا شكّ بدعم الكبار البالغين نظراً لهيئته، إلا أنه رفض معونة عابري السبيل البالغين ووساطة رجل الشرطة، رفضاً قاطعاً مثلما كان أوسكار يفعل أحياناً، فجازفت، مبتلياً بالفضول والثقة بالنفس، ففعلت أغبى ما كان يمكن أن أفعله: أخذت أبحث عن ثغرة في سياج معمل الشيكولاتة المطلي بالقطران، لكنني لم أعثر على ثغرة، فرأيت المراهقين يغادرون محطّة الانتظار في موقف الترام وظلال أشجار طريق تسوبوت العام، متعقبين آثار أوسكار على امتداد السياج، وقدموا أيضاً من ناحية الجسر، ومع ذلك؛ فإن السياج الخشبي بقي خالياً من أي ثقب، لكنهم لم يتقدموا على عجل، بل جاءوا يسيرون الهوينى، متفرقين، بحيث أن أوسكار تمكن من مواصلة البحث، لقد منحوني وقتاً كافياً للعثور على فجوة في السياج، بيد أني أخيراً، عندما لمحت في السياج لوحةً ناقصة، وعصرت نفسي بهذه الطريقة أو تلك عبر الشقّ، ممزقاً قطعة من ثيابي على شكل مثلث، وجدت نفسي أقف في مواجهة أربعة صبيان في الناحية الأخرى من السياج، مرتدين ستراً مشمعة، واضعين براثنهم في جيوب سراويلهم الضيقة التي دُست أطرافها في الأحذية ويهزونها. ولأنني أدركت فوراً مصيري المحتوم، صرت أبحث في ثيابي عن المثلث الذي مزقته بفجوة السياج، فوجده في الخلف على الجهة اليمنى من السروال، فقسته بإصبعين منفرجين، فوجه كبيراً بما يدعو إلى الاستياء، وعلى الرغم من ذلك وقفت بلا مبالاة، منتظراً ببصر مرفوع لا رجعة حتى تسلّق الصبيان

القادمون من محطة الترام ومن الشارع العام ومن الجسر السياج؛ إذ أن الفجوة لم تكن تناسب أحجامهم.

حدث ذلك في أواخر أيّام أغسطس / آب، وكان القمر يمسك بسحابة من حين إلى آخر. فأحصيت عشرين صبيّاً، أصغرهم في الرابعة عشرة وأكبرهم في السادسة عشرة. لقد شهدنا صيفا حاراً وجافاً في العام الرابع والأربعين. وكان أربعة من الأولاد الكبار يرتدون قيافات مساعدين في سلاح الجوّ. إنني مازلت أتذكر بأن موسم الكرز في العام الرابع والأربعين كان جيّدا. لقد أحاطوا بأوسكار على شكل مجموعات صغيرة، ويتحدثون فيما بينهم بأصوات خافتة، مستخدمين لغة مصطلح عليها بينهم، فلم أتعب نفسي أصلاً في فهمها. كذلك كانوا ينادون على بعضهم بأسماء عجيبة، استطعت ملاحظة البعض منها. فكان أحد الصبيان البالغ خمسة عشر عاماً، والذي بدت عيناه مثل عينيّ الأيل مغمضتين قليلاً يدعى «ريتشهازه» وأحياناً دريشهازه أيضا. أمّا الذي وقف بجواره فكانوا يسمونه «بوته». والقصير الذي لم يكن بالتأكيد أصغرهم سنّاً، الذي كان ذا لثغة وشفة عليا بارزة، فقد كانوا ينادونه «بكولنكلاو». وثمة مساعد في سلاح الجو كانوا يخاطبونه بلقب مستر وآخر أطلقوا عليه بكلّ حقّ اسم ديك الحساء؛ وكانت هناك أسماء تاريخية أيضاً: قلب الأسد والشارب الأزرق الذي أطلق على صبي له وجه الطفل، منها أسماء معروفة بالنسبة لي مثل توتيلا وتيّا وأخرى جسورة بما يكفي عرفت من بينها بيلزار ونارسس؛ فتفحصت شتورتبكر الذي ارتدى معطفاً مطريّاً وقبعة من القطيفة الخالص منبعجة على شكل بركة بطّ، تفحصته باهتمام بالغ: إذ أنه كان قائد المجموعة على الرغم من أنه كان في السادسة عشرة. وقد تجاهلوا أوسكار تماماً، منتظرين أن تخور عزيمته فيصبح طيّعاً، لذلك جلست على طبلي خائر القدمين، ساخراً من نفسي وغاضباً عليها معاً، لأنني أقحمتها في هذه الرومانسية الصبيانية السافرة، متمعناً في رؤية القمر الذي كاد يكتمل، محاولاً إرسال بعضاً من أفكاري إلى كنيسة-قلب-يسوع.

ولعلّه كان سيطبل اليوم، أو ينطق بحرف؛ بينما كنت أنا أجلس في

باحة معمل شيكولاتة البلطيق، راضخاً لألعاب الفروسية واللصوصية. ربما كان ينتظرني، عاقداً النيّة على فتح فمه مرّة أخرى، بعد فاصل تطبيل قصير، ليشرح خلافة يسوع، بيد أن أمله خاب؛ لأنني لم آت، فرفع بالتأكيد حاجبيه بغطرسة. فماذا سيكون رأي يسوع بهؤلاء الصبيان؟ وما الذي سيفعله أوسكار، خليفته ووكيله الذي كان على شاكلته، مع هذه الشلّة؟ فهل يمكنه مخاطبة المراهقين بعبارات يسوع نفسه: «دعوا الطفل يقبل إليّ!»؛ أولئك الذي يطلقون على أنفسهم أسماء بوته ودرشهازه والشارب الأزرق وكولنكلاو وشتورتبكر؟

فتقدم شتورتبكر. وكولنكلاو، ويده اليمنى إلى جانبه. شتورتبكر: «انهض!»

فلم ينهض أوسكار الذي مازالت عيناه عالقتين بالقمر وأفكاره عالقة بالمذبح الجانبي من الناحية اليسرى لكنيسة-قلب-يسوع؛ وبناءً على إشارة من شتورتبكر ركل كولنكلاو الطبل فأبعده عن مؤخرتي.

وحين نهضت التقطت الطبل وخبأته تحت جلبابي لأحفظه من الأضرار الأخرى المتوقعة. ثم فكّر أوسكار: يا له من غلام جميل، شتورتبكر هذا. كان عيناه غائرتين قليلاً ومتلاصقتين، لكن معالم فمه كانت سريعة البديهية ومتحركة.

«من أين أنت؟»

لقد بدأ الاستجواب، فتمسكت من جديد بقرص القمر؛ لأن هذه التحيّة لم تعجبني، فتخيلت القمر - الذي كان يرضى بكلّ شيء - طبلاً، ثم ابتسمت ساخراً من جنون عظمتي الذي لم يخضع إلى رابط أو التزام.

«إنه يبتسم بشماتة يا شتورتبكر.»

وأخذ كولنكلاو يراقبني واقترح على رئيسه القيام بعمل ما، سمّاه «النفض». فأيّده الآخرون الذين اصطفوا في الخلف؛ قلب الأسد ذو الوجه المليء بالبثور والمستر ودرشهازه وبوته أيدوا عملية النفض. فتهجيّت مفردة النفض وأنا أتطلع إلى القمر. يا لها من مفردة طريفة، إلا أنها بالتأكيد ليست ممتعة.

فحسم شتورتبكر لغط عصابته بالقول: «أنا الذي يقرر هنا متى يتم النفض!»

ثم وجه كلامه لي: «كانوا يرونك دائماً في شارع المحطة. فما الذي كنت تفعله هناك؟ ومن أين أنت؟»

طرح سؤالين في آن واحد، ولابد أن يجيب أوسكار على واحد منهما على الأقل، إذا ما أراد أن يبقى سيّد الموقف. فسحبت وجهي من القمر، وقذفت شتورتبكر بنظرة من عينيّ الزرقاوين النافذتين ثم قلت بهدوء: «أنني قادم من الكنيسة.»

فتعالى اللغط وراء المعطف المطري. لقد أكملوا إجابتي. واهتدي كولنكلاو إلى أنني كنت أعني كنيسة-قلب-يسوع.

«ما اسمك؟»

وكان لا بد أن يأتي هذا السؤال، وذلك كان يعود إلى طبيعة اللقاء. فصيغة السؤال هذه تحتل دائماً موقعاً جوهرياً في محادثات الناس. فهناك مسرحيات قصيرة أو طويلة وكذلك أوبرات تعيش من خلال الإجابة على هذا السؤال - انظر أوبرا لوهنغرين!

وفي تلك اللحظة انتظرت أشعة القمر تطل من بين غيمتين، تاركاً اللمعان الكامن في زرقة عينيّ يؤثر على شتورتبكر بمقدار ثلاث ملاعق طعام، ثم قلت، مسميّاً نفسي، وحاسداً قوّة التأثير التي سيخلفها وقع الكلمة - إذ أنني لو سميتّ نفسي أوسكاراً لقابلوا الاسم بالقهقهة -؛ فقال أوسكار: «اسمي يسوع»، فخلّف اعترافه هذا صمتاً طويلاً إلى أن تجشأ كولنكلاو: «إذاً لابد من أن ننفضه، يا رئيس.»

لم يكن كولنكلاو وحده إلى جانب النفض، إنما أصدر شتورتبكر أمراً بالنفض من خلال طقطقة أصابعه، فقبض عليّ كولنكلاو وضغط بكوعه على عضدي اليمين، ثم بدأ يحركه بجفاف وسرعة، بسخونة وبألم، إلى أن طقطق شتورتبكر بأصابعه مرّات عديدة، طالباً منه التوقف - هكذا كان النفض إذاً! فتظاهر الرئيس ذو القبعة المخملية بالسأم: «والآن قل ما هو اسمك؟» ثم قام بحركة استعداد للملاكمة انزاح على أثرها كمّا

معطفه الطويلان، وكشف عن ساعته في معصمه تحت شعاع القمر، وهمس عبر أذني: «نعطيه مهلة دقيقة واحدة، ثم يأمر شتورتبكر بإنهاء العمل.»

وعلى أيّ حال، فقد بات بإمكان أوسكار أن يتأمل القمر طوال دقيقةً كاملة بلا عقاب، باحثاً في فوهاته عن مخارج، واضعاً قرار خلافة يسوع الذي اتخذه على حين غرّة موضع التساؤل. ولأن عبارة إنهاء العمل لم تحظ بإعجابي، ولأنني لم أكن أقبل في كلّ الأحوال بأن يخضعني الصبيان إلى التقيّد بأوقات الساعة فقد قال أوسكار بعد حوالي خمساً وثلاثين ثانيةً: «إنني يسوع.» وما حدث عقب ذلك كان ذا أثراً فعّالاً حقّاً، دون أن يكون من تدبيري. وحالما ألقيت بشهادتي للمرّة الثانية بأنني خليفة يسوع، وقبل أن يطقطق شتورتبكر بأصابعه ليقوم كولنكلاو بالنفض - انطلقت صفّارات من الغارة الجويّة. فندب أوسكار «يا يسوع»، مستعيداً أنفاسه من جديد، فأكدت ندائي صفّارات الإنذار التابعة للمطار القريب ومعها على التوالي صفّارات المبنى الرئيسي لثكنة سلاح المشاة في هوخشتريس والصفّارات المنصوبة على سطح ثانوية-هورست-فسل الواقعة قبل غابة لانغفور بمسافة قصيرة والصفّارات المنصوبة على السوق التجاري شتيرنفيلد وصفّارات كليّة الهندسة البعيدة تماماً والقادمة من شارع هندنبورغ. لقد استغرق الأمر وقتاً طويلاً حتى استلمت صفّارات الضاحية، الطويلة النفس حدّ الملل، والملحّة مثل رؤساء الملائكة، البشرى السارة التي بعثت بها، التي جعلت الليل يفيض تارةً ثم ينحسر والأحلام تتألق ثم تجتثها وزحفت نحو آذان النائمين، فمنحت القمر الذي كان من الصعب التأثير عليه تلك الأهمية الرهيبة التي يتمتع كلّ كوكب وضّاء لا يمكن التعتيم عليه. وبينما عرف أوسكار بأن الإنذار كان يقف إلى جانبه؛ فإن الصفّارات أصابت شتورتبكر بالاضطراب. كان الإنذار قد خاطب بعضاً من أفراد العصابة مخاطبة مباشرة ورسمية. فأرسل شتورتبكر أربعة من مساعديّ سلاح الجوّ إلى بطّارياتهم وراء السياج، ليتخذوا مواقعهم خلف مدافع منصوبة بين مخازن الترام والمطار. وكان ثلاثة من أصحابه، من بينهم بيلزار، مكلفون

بحماية مدرسة كونرادينوم من القصف الجوّي، فسارعوا على الفور إلى هناك. أمّا البقية التي ضمّت تقريباً خمسة عشر صبيّاً فقد حشدها شتورتبكر خلفه، وبدأ بالاستجواب مرّة أخرى، طالما لم يحدث شيء في السماء: «إذا ما فهمناك بصورة صحيحة فأنت يسوع. - لكن دعنا من هذا. هناك سؤال آخر: ما الذي كنت تفعله بالمصابيح وزجاج النوافذ؟ لا تحاول أن تتهرب، لأننا نعلم كلّ شيء!»

بيد أن هؤلاء الفتيان لم يعلموا شيئاً في الواقع. إنهم قد راقبوا بلا شكّ نجاح صوتي في هذه القضية أو تلك، فأمر أوسكار نفسه بإظهار بعض التساهل مع أولئك المراهقين الذي يمكن أن يطلق عليهم المرء في أيّامنا هذه لقب أنصاف الرجال بكّل صراحة واختصار. فحاولت تبرير اندفاعهم المباشر الخالي من المهارة نوعاً ما في تحقيق أهدافهم، فأظهرت نفسي أمامهم موضوعياً بلطف وتسامح. هؤلاء إذاً هم النافضون ذوو السمعة السيئة الذين كانوا حديث المدينة كلّها منذ أسابيع، عصابة المراهقين هذه التي تلاحقها الشرطة الجنائية ودوريات الشبيبة الهتلرية. ومثلما اتضح الأمر فيما بعد فقد كان هؤلاء: طلاّب ثانوية كونرادينوم ومتوسطة-بيتري ومتوسطة-هورست-فسل. كانت هناك مجموعة نافضين ثانية في نويفارفاسر، تقاد أيضاً من قبل طلاّب الثانوية، إلا أن ثلثي أعضائها تقريباً كانوا من المتدربين في مصنع بناء سفن شيشاو ومصنع القطارات. لم تكن المجموعتان تعملان بشكل مشترك إلا نادراً، أي عندما تنطلقان من جادة شيشاو، لتقوما بتمشيط متنزه شتيفن وشارع هندنبورغ أثناء الليل بحثاً عن مسؤولات اتحاد الفتيات الألمانيات اللواتي كن يرجعن إلى بيوتهم بعد انتهاء التدريب المسائي في بيت الشبيبة الواقع عند «بيشوفسبيرغ». كانت المجموعتان تتجنبان النزاع بينهما، وقد حددتا مناطق عملهما بدقة، وكان شتورتبكر يرى في قائد مجموعة نويفاسر صديقاً أكثر من منافس له. كانت عصابة النافضين تخوض صراعاً ضد كلّ شيء، فقامت باكتساح مكتب شبيبة هتلر، وقد وضعوا أوسمة العائدين من الجبهة ورتبهم العسكرية نصب أعينهم؛ أولئك الذين كانوا يمارسون الحبّ

مع الفتيات في زاويا المتنزه، وكان أفراد العصابة يسرقون السلاح والذخيرة والوقود بمعونة مساعدي سلاح الجّو المتدربين على المدافع المضادة للطائرات، وقد خططوا منذ البداية لشنّ هجوم شامل على مصلحة التموين. ومن دون أن يعلم شيئاً عن تنظيم النافضين وخططه؛ فإن شعوراً بالطمأنينة قد خامر أوسكار الذي بدا آنذاك معزولاً، وفي حالة تدعو إلى الرثاء، حين وقف في منتصف دائرة المراهقين. فخالطت في السرّ الفتيان، ضارباً باعتراض فارق السنّ عرض الحائط - كنت موشكاً على الدخول في عامي العشرين - معاتباً نفسي بالقول: لماذا لا تقدم للفتيان عيّنةً من فنّك؟ فالشبّان الصغار شغوفون بالمعرفة دائماً؛ فإنك كنت ذات مرّة في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من السنّ. قدّم لهم نموذجاً، أظهر لهم شيئاً مما تعرف، فهم سيعجبون بك، ومن المحتمل أنهم سيطيعونك ويأتمرون بأمرك منذ تلك اللحظة. فبإمكانك أن تمارس تأثيرك الماكر من كثرة التجارب؛ فاستجب الآن إلى اختيارك وحشّد حولك حواريك من حولك لتخلف يسوع في ولاية العهد.

لعلّ شتورتبكر أدرك أن استغراقي في التفكير حمل أسباباً وجيهة، فترك لي وقتاً كافياً، فشكرت له ذلك. أواخر أغسطس/آب. كانت ليلة مقمرة. ومصحوبة بسحب خفيفة. وإنذار بغارة جويّة. فربما كانت طائرة استطلاع. كوانت باريس قد أخليت في تلك الأيّام. وأمامي انتصب المبنى الرئيسي لمعمل شيكولاتة البلطيق الكثير النوافذ. وبعد مسيرة طويلة توقفت أفواج الجيش في وسط الفايكسل. لم يكن معمل البلطيق في الواقع ينتج الشيكولاتة لمحلات التجارة بالمفرق، إنما أوقف الإنتاج على أفراد القوّة الجويّة. كان على أوسكار أن يعود نفسه أيضاً على تخيّل جنود الجنرال باتن وهم يتبخترون بقيافاتهم الأمريكية تحت برج أيفل. وبدا هذا التصوّر مؤلماً بالنسبة لي، فرفع أوسكار مضرب طبله. آه لتلك الساعات الكثيرة المشتركة مع روزفيتا. فلاحظ شتورتبكر حركتي، وتعقب ببصره المضرب، ثم انزلق به نحو معمل الشيكولاتة. وفي الوقت الذي طُهّرت فيه إحدى الجزر الصغيرة في المحيط الهادئ من اليابانيين في رابعة النهار

سقط ضوء القمر هنا على نوافذ المعمل كلّها بالتساوي. فخاطب أوسكار جميع من أراد الإصغاء له قائلاً: «الآن سيقوم يسوع بتحطيم الزجاج.»

وقبل أن أجهز على الألواح الثلاثة الأولى انتبهت إلى طنين ذبابة حلّقت عالياً فوق رأسي. وبعدما استلمت لوحتان من الزجاج إضافة إلى الثلاثة الأولى أمام شعاع القمر فكّرت في: أنها ذبابة محتضرة، لذلك طنّت بصوت عال. ثم صبغت بفعل صوتي بقية الحشو في نوافذ الطابق العلوي للمعمل باللون الأسود، متيقناً من فقر الدم الذي أصيبت به عدّة كشّافات ضوئية قبل انتزاعي لانعكاسات الضوء، التي لا بد أن يكون موضعها في معسكر نارفيك النرويجي إلى جانب بطاريات المدفعية، من عدد كبير من نوافذ المعمل في الطابقين الأوسط والسفلي. في البدء أطلقت مدفعية السواحل قذائفها، ثم أجهزت أنا على بقية الألواح في الطابق الأوسط. وسمح فيما بعد لبطاريات أحياء اسكتلندا القديمة وبيلونكن وشيلمول بإطلاق النيران. كانت هناك ثلاث نوافذ في الطابق الأرضي - وثلاث مقاتلات ليلية انطلقت من المطار، حلّقت على نحو منخفض كاد يلامس المعمل. وقبل انتهائي من الطابق الأرضي توقف مدفع مقاومة الطائرات عن إطلاق النيران، تاركاً المجال للمقاتلات لإسقاط طائرة حربية بأربعة محركات، كانت قد احتفت بها ثلاثة كشّافات ضوئية معاً فوق أوليفا. وفي البدء انتابت أوسكار مخاوف من أن يوزّع توافق عروضي مع الجهود المثيرة لمدفعية مقاومة الطائرات اهتمام الشبّان، أو يحرفه من المعمل فيغريه بالتوجه نحو سماء الليل.

إلا أن ما أثار دهشتي هو أن العصابة كلّها لم تحرف بصرها قطّ عن معمل الشيكولاتة الخالي من زجاج النوافذ بعدما أنجزت عملي. وحتى بعد أن تعالت أصوات التصفيق والإعجاب مثلما يحدث في المسرح؛ لأن طائرة مقاتلة قد أصيبت بالقرب من شارع هوهنفريدبيرغر، ولأن كلّ ما يشتعل يكون جديراً بشاهدة المتفرجين؛ فإن عدداً قليلاً من أفراد العصابة، من ضمنهم بوته، قد أبعد بصره عن المعمل المنزوع الزجاج حين نزلت المقاتلة في غابة يشكنتال، ساقطةً أكثر منها هابطة. بيد أن شتورتبكر

وكولنكلاو اللذين كان الأمر يتعلق بهما في الواقع لم يعرا انتباها لإسقاط الطائرة. وبعد ذلك لم يبق في السماء سوى القمر وصغائر الكواكب كما كان الحال من قبل. كانت المقاتلات الليلية قد هبطت. ومن بعيد تناهت إلى أسماعنا صفّارات فرقة المطافئ. حينئذ التفت شتورتبكر، بارزاً فمه الذي مازال يرتجف باحتقار، وقام بحركة الملاكمة ذاتها، حاسراً كمّي معطفه المطريّ الطويلين، وخلع الساعة من يده، ثم ناولني إيّاها بلا كلام، لكن بأنفاس ثقيلة، وأراد أن يقول شيئاً، لكنه انتظر حتى تفرغ الصفّارات التي انشغلت برفع حالة الإنذار، ليعترف وسط التصفيق المتحمس لأتباعه: «حسناً يا يسوع. إذا شئت فعلى الرحب والسعة، تستطيع أن تعمل معنا. نحن النافضون، إذا كانت هذه التسمية تعني لك شيئا!» فوزن أوسكار الساعة اليدوية في راحته، ثم أهدى كولنكلاو هذه الحاجة المغرية فعلاً ذات الأرقام المضيئة التي أشارت إلى الساعة الثانية عشرة وثلاث وعشرين دقيقةً بعد منتصف الليل. فنظر إلى رئيسه متسائلا. فهزّ شتورتبكر رأسه موافقة. وبعدما وضع الطبل بطريقة مريحة بغية العودة إلى البيت قال: «إن يسوع سيتقدمكم؛ فاتبعوني!»

تمثيلية الميلاد

كان الناس يتحدثون آنذاك كثيراً عن السلاح المعجزة وعن النصر النهائي. أمّا نحن، النافضون، فلم نتحدث عن هذه القضية أو تلك، لكننا كنّا نمتلك السلاح السحري. فلمّا استلم أوسكار قيادة العصابة المؤلفة من ثلاثين إلى أربعين عضواً، تركت شتورتبكر يعرفني على قائد جماعة نويفاسر. كان «موركينه» الأعرج البالغ من العمر سبعة عشر عاماً، وابن الموظف الكبير في دائرة الملاحة البحرية، قد حرم من دخول سلك مساعدي القوّة الجويّة وحرم كذلك من الالتحاق بالجيش بسبب عاهة جسدية - كانت ساقه اليمنى أقصر من اليسرى بسنتمترين. وعلى الرغم من أن موركينه كان يعرض عرجه بصراحة وبثقة تامة، فإنه كان خجولاً، يتكلم بصوت خفيض. كان هذا الفتى المبتسم دائماً بمكر يعتبر من أفضل طلاّب السنة الأخيرة في ثانوية كونرادينوم، وكان من المتوقع تماماً أن يجتاز امتحان الدارسة الثانوية بصورة نموذجية، إذا لم تكن هناك اعتراضات من قبل الجيش الروسي - كان موركينه يرغب في دراسة الفلسفة.

وكما استقبلني شتورتبكر بهيبة واحترام دون قيد أو شرط؛ فإن الأعرج قد رأى فيّ شخص يسوع السائر أمام النافضين. ومنذ البداية تركهما أوسكار يطلعانه على المخزن والخزينة، إذ أن المجموعتين كانتا تجمعان غنائم غزواتهما في القبو ذاته. كان القبو الواسع والجاف يعود إلى فيلا فخمة في شارع يشكنتال عند لانغفور. كان والدا بوته اللذان يحملان لقب النبلاء «فون بوتكامر» يقطنان تلك الفيلا المحاطة بالنباتات المتسلقة،

والبعيدة عن الشارع بفضل مرج مترفع بهدوء - ذلك يعني أن السيّد فون بوتكامر كان موجوداً آنذاك في فرنسا الجميلة، يقود فرقة كاملة، وكان حامل لنوط الشجاعة ذي الأصل البومري-البولندي-البروسي؛ أما السيّدة اليزابيث فون بوتكامر فقد كانت على العكس منه امرأة معتلة الصحة، تقيم في مقاطعة بفاريا منذ عدّة شهور لغرض الشفاء. فكان فولفغانغ فون بوتكامر الذي أطلق عليه النافضون اسم بوته يسيطر على الفيلا؛ إذ أن تلك الخادمة العجوز التي كانت تقوم برعاية السيّد الشاب في الغرف العليا لم نرها قطّ؛ لأننا كنّا ندخل القبو عبر حجرة الغسيل.

كانت المعلبات والتبوغ والعديد من لفّات المظلاّت الحريرية مكدسة في المخزن، إضافة إلى دزينتين من الساعات الخاصة بالجيش الألماني المعلقة فوق أحد الرفوف والتي كان بوته يعتني على الدوام بتشغيلها وضبط أوقاتها بالاقتران مع بعضها البعض بناءً على أمر شتورتبكر؛ وكان عليه أن يقوم أيضاً بتنظيف الرشاشتين والبندقية الآلية والمسدسات. لقد عرضوا عليّ مدفعاً مضاداً للمدرعات يحمل على الأكتاف وذخيرة بنادق وخمساً وعشرين قنبلة يدوية. وكان هذا كلّه، مضافاً إليه طابور وافر من صفائح البنزين، معدّاً لاقتحام مصلحة التموين. فجاء أول أمر أصدره أوسكار بصفته يسوع على النحو التالي: «ادفنوا السلاح والبنزين في الحديقة. وسلّموا إبر إطلاق النار إلى يسوع. فأسلحتنا من طراز آخر!»

وعندما عرض عليّ الشبّان صندوق سيجار مليئاً بالأوسمة والنياشين سمحت لهم، مبتسماً، بامتلاك أوسمة الزينة تلك. لكن يا ليتني انتزعت منهم سكاكين المظليين، فهم قد استخدموا فيما بعد نصالها الراقدة في قبضاتها والمهيأة للاستعمال. ثم جلبوا لي الخزينة، فتركهم أوسكار يحصون محتواها، ثم أعاد الحساب بنفسه، وجعلهم يقيدون الرصيد الذي بلغ ألفين وأربعمائة وعشرين ماركاً ألمانيا. كان ذلك في مطلع سبتمبر من العام الرابع والأربعين. وعندما تمكن كونييف وشوكوف من اختراق الفايكسل في منتصف يناير من العام الخامس والأربعين، وجدنا أنفسنا مضطرين إلى الإبلاغ عن الخزينة المحفوظة في القبو. كان بوته هو الذي

اعترف بوجودها، فتكومت على طاولة المحكمة العليا ستة وثلاثون ألف مارك ألماني صرراً ورزما.

وكما هي طبيعتي، فإنني بقيت وراء الكواليس أبّان تلك العمليات. فكنت أبحث في النهار عن هدف مجز لمشروع ليليّ، بمفردي على الأغلب، وإن كان لا بد من رفيق فبصحبة شتورتبكر، تاركاً أمر المنظمة إلى شتورتبكر أو موركينه، لأحطم بسلاحي السحري - هاأنني قد ذكرته الآن - البعيد التأثير أكثر مما مضى زجاج نوافذ الطابق الأرضي لمكاتب الحزب ونافذة مطبعة أطلّت على الفناء الخارجي كانت تطبع فيها بطاقات التموين وحطمت كذلك زجاج نافذة مطبخ مدرّس بالثانوية في سكنه الخاص، على مضض في الواقع، وبناءً على رغبة الشبّان الذين أرادوا أن ينتقموا منه، وقد فعلت ذلك كلّه عبر نافذة غرفة النوم في ساعة متأخرة من الليل، ودون أن أغادر بيت الأمّ تروجنسكي. حدث ذلك في شهر نوفمبر/تشرين الثاني حين انطلقت صواريخ فاو ١ وفاو ٢ نحو إنجلترا وحين كنت أنا منشغلاً بالتهشيم عن بعد، عبر لانغفور، متعقباً صفّ الأشجار المغروسة في شارع هندنبورغ فمحطة القطارات الرئيسية، متجاوزاً المدينة القديمة وطرفها اليمين، باحثاً عن جادة القصابين والمتحف حيث أدخلت الفتيان وجعلتهم يفتشون عن تمثال نيوبا الخشبي؛ إلا أنهم لم يعثروا عليه.

كانت الأمّ تروجنسكي تجلس إلى الجانب ثابتة في كرسيها وتهزّ رأسها، مشتركة معي في بعض الشؤون، فعندما يرسل أوسكار صوته بعيداً، تبدأ الأمّ تروجنسكي بالتفكير بعيداً أيضاً، باحثة في السماء عن ولدها هربرت وفي جبهة القاطع الأوسط عن ولدها فرتس. كذلك كانت تضطر إلى البحث عن ابنتها غوسته التي تزوجت مطلع العام الرابع والأربعين في منطقة الراين، فتفتش عنها مدينة دوسلدورف القصيّة، حيث مسكن رئيس الندل كوستر المقيم في مصحّة، لكن غوسته لم تستطع الاحتفاظ به والتعرف عليه من جديد أكثر من أربعة عشر يوماً في العام. وبدت تلك أمسيات آمنة. فكان أوسكار يجلس عند قدميّ الأمّ

تروجنسكي، ويقرع على طبلة بتفنن وخيال، وذات مرّة التقط تفّاحة مشوية على قضبان المدفأة الحجرية، ثم اختفى في غرفة النوم المظلمة بتلك الثمرة المجعدة التي يستطيبها الأطفال الصغار والعجائز، فسحب ستارة التعتيم الورقية إلى الأعلى، وفتح النافذة بمقدار شقّ فترك شيئاً من البرد والليل يتوغل إلى الداخل، ثم أرسل غناؤه الموجّه، البعيد الأثر، إلى الخارج؛ بيد أنه لم يستهدف النجوم الصغيرة المرتعشة، ولم يكن لديه ما يبحث عنه في درب التبّانة، إنما قصد ساحة فنترفيلد، لكن ليس دار الإذاعة التي فيه، بل المبنى المربع الذي كان يقابلها والذي وضعت فيه القيادة المحليّة لشبيبة هتلر مكاتبها باباً إلى جانب باب.

لم تستغرق مهمتي دقيقة واحدة عندما يكون الطقس صاحيا. في تلك الأثناء بردت قليلاً التفاحة التي وضعتها عند النافذة المفتوحة. فعدت إلى الأمّ تروجنسكي وإلى طبلي وأنا ألوك، ثم سرعان ما ذهبت إلى فراشي، متيقناً من أن النافضين سينهبون باسم يسوع خزينة الحزب وبطاقات التموين عندما يكون أوسكار نائماً، بل أنهم، وهذا هو الأهم، سيسرقون الأختام الرسمية والاستمارات المطبوعة إضافة إلى القائمة التي تضم أعضاء دوريات الشبيبة الهتلرية.

لقد تساهلت مع شتورتبكر ومورركينه وتركتهما يعبثان ما شاءا ببطاقات الهوية المزورة؛ إذ أن الدوريات كانت تمثّل آنذاك العدو الرئيس للعصابة. إذاً عليهم أن يلقوا القبض على خصومهم حسب الرغبة والمزاج وينفضونهم نفضاً، ولا مانع لدي من أن يجلدوا خصاهم على حدّ تعبير كولنكلاو الذي نفّذ ذلك الإجراء في حقّهم.

كنت، على أية حال، بعيداً عن مسرح تلك الفعاليات التي كانت مجرد تمارين أوّلية لم تفش أسرار خططي الحقيقية، ولذلك فإنني لا أستطيع أن أشهد فيما إذا كان النافضون هم الذين القوا القبض على قائدين كبيرين من قادة الدوريات وقيدوهما، ثم ألقوا بهما ليغرقا في نهر موتلاو على مقربة من كوبروكه.

لابد أن أنفي هنا ما قيل عن وجود ارتباطات بين عصابة النافضين

وقراصنة «الوردة الجبلية» في كولونيا على الراين، وأن أنفي بأن الأنصار البولنديين في منطقة توخلرهايده كانوا يؤثرون في نشاطاتنا، أو يوجهونها، وذلك بصفتي المزدوجة كأوسكار ويسوع الذي يترأس العصابة، وأن أحيل تلك الإشاعات إلى عالم الأساطير.

وكذلك اتهمنا خلال المحاكمة بأننا كنّا نقيم علاقات مع المتآمرين ومن قاموا بتدبير اعتداء العشرين من يوليو / حزيرانِ على هتلر؛ لأن أبا بوته، أوغست فون بوتكامر، كان مقرباً جدّاً من الجنرال رومل، والذي انتحر. أمّا بوته الذي كان قد رأى أباه ربما أربع أو خمس مرّات على نحو عابر خلال الحرب فكان أبوه يحمل كلّ مرّة رتبة عسكرية مختلفة؛ فإنه علم أثناء محاكمتنا بقضيّة الضبّاط التي تعاملنا معها بلا مبالاة، فأخذ يبكي بصورة يرثى لها وبلا خجل، لدرجة أن جاره كولنكلاو اضطر إلى نفضه أمام القضاة. وإبّان عملنا كلّه لم يتصل بنا أحد من الكبار البالغين إلا مرّة واحدة. لقد حاول عمّال مصنع السفن - ذوي الأصول الشيوعية مثلما استنتجت على الفور - ممارسة بعض التأثير علينا بواسطة أصحابنا المتدربين في مصنع السفن وتحويلنا إلى منظمة سريّة حمراء. فلم يبد المتدربون اعتراضاً، بيد أن طلاّب الثانوية رفضوا أي ميل أو اتجاه سياسي. وقد عبّر مساعد سلاح الجوّ الملقب بمستر والذي كان لاذع السخرية ومنظّر عصابة النافضين بالصيغة التالية خلال اجتماع للعصابة: «نحن ليس لنا أدنى علاقة بالأحزاب، إنما نناضل ضد آبائنا وبقية البالغين الكبار؛ بغض عن النظر عما إذا كانوا مع هذا الحزب أو ضده.»

وعلى الرغم من صياغاته المبالغ في حدتها، فإن مستر كان يحظى بتأييد طلاّب الثانوية جميعهم؛ فحدث انشقاق في صفوف عصابة النافضين. وقام متدربو شيشاو بتأسيس جمعية خاصة بهم - فشعرت بالأسف لأن أولئك الفتيان كانوا مهرة حاذقين - لكنهم اعتبروا أنفسهم عصابة النافضين، متجاهلين اعتراض شتورتبكر موركينه. وأثناء المحاكمة - كان دكّانهم انكشف مع انكشاف دكّاننا في وقت واحد - ألقيت عليهم مسؤولية حرق سفينة إمداد الغوّاصات الراسية في منشأة السفن والذي أدى

إلى مصرع أكثر من مائة ملاّح وضابط صفّ بحريّ كانوا متأهبين للإبحار، وقتلوا على نحو شديد البشاعة. لقد نشب الحريق على سطح السفينة، فمنع طاقم الغوّاصات النائمين تحت السطح من مغادرة قمراتهم، وعندما حاول ضبّاط الصفّ الذين لم يبلغوا بعد الثامنة عشرة النفاذ من عيون السفينة الجانبية للوصول إلى مياه الميناء المنقذة بقيت أحواضهم محشورة في العيون، فأدركتهم النيران المتأججة من الخلف، ثم أطلقت عليهم الزوارق البخارية النيران من الأمام؛ لأنهم كانوا يزعقون بلا انقطاع. ولم نكن نحن من أضرم النار، ولعلّ متدربيّ منشأة السفن هم الذين أضرموها، وربما فعلها جماعة اتحاد فسترلاند. إذ أن النافضين لم يكنوا مشعليّ حرائق، على الرغم من أنني، بصفتي زعيمهم الروحيّ، يمكن أن أكون مضرم نيران بالفطرة بسبب انحداري من صلب الجدّ كولياجك.

ومازلت أتذكر جيّداً العامل الميكانيكي الذي نُقل آنذاك من مصنع الماكينات الألمانية في كيل إلى منشأة سفن شيشاو، والذي قام بزيارتنا قبل الانشقاق بفترة قصيرة. كان أيرش وهورست بيتسغر، ولدا عامل شحن من منطقة «فوكسفال»، قد جلباه إلينا في قبو الفيلا العائدة إليبوتكامر. فتفقد مخزننا باهتمام بالغ، إلا أنه أفتقد وجود الأسلحة الفعّالة الصالحة للاستخدام، وعثر على بعض مفردات المجاملة والمديح التي قالها على مضض، ثم استبدت به نوبة قهقهة متواصلة ومليئة بالتكبّر حين سأل عن رئيس العصابة فأحاله شتورتبكر إلى على الفور وفعل موركينه مثله لكن بتردد، بحيث أن الموقف بات لا يتطلب إلا القليل لكي يُسلّم الميكانيكي إلى النافضين لينفضونه بناءً على رغبة أوسكار.

فقال لموركينه وهو يشير إلي بإبهامه عبر منكبه: «أي نوع من الأقزام هذا؟»

وقبل أن يجيبه موركينه الذي ابتسم بارتباك بعض الشيء، بادر شتورتبكر إلى الردّ عليه بهدوء مشبع بالخوف: «هذا هو يسوعنا.»

فلم يتحمل الميكانيكي الذي كان يدعى فالتر تلك العبارة، وأباح لنفسه بأن يكون صاخباً وساخطاً في مقرنا: «قولوا لي هل أنتم في وضع

سياسي صحيح، أم أنكم سدنة قساوسة يتمرون على تمثيليات عيد الميلاد؟»

ففتح شتورتبكر بابا القبو، وأصدر إشارة إلى كولنكلاو، ثم جعل نصل سكيّنة المظليين تقفز من كُمّ سترته وخاطب أفراد العصابة أكثر مما هو مخاطب الميكانيكي: «نحن سدنة قساوسة ونتمرن على تمثيليات عيد الميلاد.»

بيد أن شيئاً مؤلماً لم يحدث للسيّد الميكانيكي، إنما عصّبوا عينيه وأخرجوه من الفيلا. وبعد فترة قليلة بقينا وحدنا؛ لأن متدربيّ مصنع سفن شيشاو قد انسحبوا وأسسوا جمعية خاصة بهم تحت زعامة الميكانيكي، وأنا الآن بتّ على يقين من أنهم هم الذين أضرموا النار في سفينة إمداد الغوّاصات. وأعطى شتورتبكر الإجابة الصحيحة بالمعنى ذاته الذي حملته في ذهني. كنّا غير معنيين بشؤون السياسة، وبعد أن أصيبت دوريات شبيبة هتلر بالذعر ولم تعد تقوى على مغادرة مكاتبها، أو أصبحت تكتفي على الأكثر بتفتيش البطاقات الشخصية للفتيات الصغيرات الطائشات في محطة القطارات الرئيسية، بدأنا بنقل ميدان عملنا إلى الكنائس لكي نتمرن على تمثيليات عيد الميلاد على حدّ تعبير الميكانيكي اليساري المتطرف.

كان علينا في البدء أن نجد تعويضاً لمتدربيّ شيشاو المهرة حقّاً والذين خضعوا للتأثر فانتسبوا إلى منظمة أخرى. في نهاية أكتوبر جعل شتورتبكر الشقيقين فيلكس وباول رنفاند يؤديان اليمين أمامي بصفتهما مساعديّ قساوسة في كنيسة-قلب-يسوع. وقد اهتدى إليهما شتورتبكر بواسطة شقيقتهما لوتسي التي لم تبلغ السابعة عشرة بعد، لكنها حضرت أداء اليمين على الرغم من احتجاجي. كان على الشقيقين أن يضعا يدهما اليسرى على طبلي الذي كان الشبّان ينظرون إليه بصفته رمزاً، مهما كانوا غريبيّ الأطوار، مرددين صيغة اليمين الخاص بالنافضين الذي كان عبارة عن نصّ أخرق مليء بالشعوذة حتى أنني لم أستطع تجميعه ثانية. وأخذ أوسكار يراقب لوتسي أثناء أداء اليمين حين رفعت منكبيها، حاملة في يسراها قطعة خبز وسجق ارتعشت على نحو خفيف، وتلوك بشفتها

السفلى. كان وجهها مثلثاً جامداً يماثل وجه الثعلب، وكانت ترمق ظهر شتورتبكر بنظرات حارقة، فشعرت بالقلق على مستقبل النافضين. وبدأنا بإعادة ترتيب حجر القبو، فأشرفت بنفسي، متعاوناً مع مساعديّ القساوسة، على توفير الأمتعة اللازمة، وقمت بذلك وأنا في بيت الأمّ تروجنسكي. فجلبنا من كنيسة «سانت-كاترينن» تمثالاً ليوسف، حقيقياً مثلما اتضح فيما بعد، متوسط الارتفاع ينحدر من القرن السادس عشر، وبعض الثُريّات الكنسية وعدداً من الأدوات التي تستعمل في القدّاس، إضافة إلى راية عيد الجسد. وقد أتحفتنا إحدى الزيارات الليلية لكنيسة الثالوث بملاك خشبي يعزف على مزمار، خالياً من الإثارة من وجهة فنيّة، وسجّادة ملوّنة، تحتوي على صور، وتصلح لتزيين الحائط. وثمة صورة مستنسخة عن أصول قديمة تظهر سيّدة ذات مظهر متكلّف ومعها حيوان خرافي مطيع، اسمه وحيد القرن. وحتى لو أكّد شتورتبكر بصواب على أن ابتسامة الفتاة المنسوجة في السجادة تشبه الابتسامة اللعوبة بشكل مرعب التي علت وجه لوتسي المماثل لوجه الثعلب؛ فإنني، مع ذلك، كنت أتمنى أن لا يكون قائد مجموعتي مستعداً للخضوع مثل وحيد القرن الخرافي. وبعدما علقنا السجّادة على الحائط الأمامي حيث رسوم «الكفّ السوداء» و«الجمجمة» السخيفة، حين هيمن موضوع وحيد القرن على مشاوراتنا، سألت نفسي: لماذا يا أوسكار، فقل لماذا تحتفظ بلوتسي هذه المنسوجة في السجّادة والتي ستحيل قادة أتباعك إلى وحيديّ قرن، لوتسي التي وضعتك نصب عينيها أصلاً، ولماذا آويتها وهناك لوتسي أخرى تروح وتجيء مكركرة خلفك كركرة صبيانية؟ ،إذ أنك، أنت بنفسك يا أوسكار، المخلوق الخرافي بلحمه ودمه؛ أنت بنفسك الحيوان المنعزل الوحيد ذو القرن المجدول بمبالغة. فكان جميلاً أن عيد البشارة قد أتى بحيث استطعت أن أغطي السجّادة تغطية تامة وعلى عجل بأشكال القديسين الخشبية ذات الحجم الطبيعي التي أجليناها من الكنائس القريبة، فلم يعد الحيوان الخرافي في وضع يتيح له أن يعرض نفسه للتمثيل في المقدمة. وفي منتصف ديسمبر / كانون الأوّل شنّ الجنرال «روندشتيت»

هجومه غرب منطقة الراين، فأنهينا نحن في الوقت ذاته الاستعدادات للضربة الحاسمة.

وبعدما قمت بزيارة قدّاس الساعة العاشرة بضعة آحاد متعاقبة برفقة ماريا التي أوقفت حياتها برمتها على الكاثوليكية، مما جلب الهمّ والغمّ لماتسرات، وبعدما أوصيت أفراد العصابة جميعهم بزيارة الكنيسة أيضاً، اقتحمنا كنيسة-قلب-يسوع في الليلة الواقعة بين الثامن عشر والتاسع عشر من ديسمبر، دون أن يضطر أوسكار إلى كسر الزجاج بصوته، إنما بمعونة مساعديّ القساوسة فيلكس وباول رنفاند، مستغلين معرفتنا الدقيقة للمكان. فقد هطل الثلج، دون أن يبقى في موضعه. فوضعنا العربات اليدوية الثلاث خلف غرفة «الموهف». كان مفتاح المدخل الرئيسي في حوزة رنفاند الصغير. فدخل أوسكار قبلهم، قائداً الشبّان خلفه إلى حوض المياه المقدسة، وأمرهم بأن يجثوا على ركبهم في منتصف الكنيسة عند المذبح الرئيسي. ثم أصدت أمراً عاجلاً بلفّ تمثال-قلب-يسوع ببطانية عادية، لكي لا تضايقنا النظرة الزرقاء أثناء العمل. وقام «درشهازه» و«مستر» بنقل عدّة العمل إلى الجناح الكنيسة اليسار، حيث المذبح الجانبي. كان علينا أن نبعد الحظيرة المليئة بتماثيل القديسين وخضرة شجر التنوّب إلى قلب الكنيسة. فزودتنا الحظيرة بما يكفي من الرعاة والملائكة والنعاج والحمير والأبقار. كان قبونا مليء بالكومبارس، ولم يكن هناك نقص إلا في الممثلين الرئيسيين. ورفع بيلزار الزهور عن طاولة المذبح وطوى «توتيلا» و«تيّا» البساط، وأخرج كولنكلاو عدّة العمل، بينما جثا أوسكار خلف طاولة الركوع، يشرف على عملية التفكيك. وفي البدء تمّ قطع الصبي المعمدان المتلفع بجبة من جلد الماعز بنيّة اللون. كم كنّا محظوظين لأننا جلبنا معنا منشار لقطع الحديد. ففي داخل الجبس ثمة قضبان معدنية بعرض الإصبع كانت تربط المعمدان بالسحابة. لقد تولى كولنكلاو أمر القطع بالمنشار، ففعل ذلك مثل أي طالب في الثانوية؛ فشعرنا من جديد بحاجتنا إلى متدربيّ سفن شيشاو. ثم حلّ شتورتبكر محلّ كولنكلاو، فطرأ على العمل تحسّن قليل، وبعد نصف ساعة من

الجعجعة والضوضاء تمكنّا من جندلة الصبي المعمدان ثم لففناه ببطانية من الصوف، وتركنا سكون الكنيسة بعد منتصف الليل يُحدث أثره فينا.

أمّا قطع الصبي يسوع، الذي كانت فردة مؤخرته تلامس بأكملها فخذ العذراء، فقد كان عملاً شاقاً ومضيعاً للوقت. فاحتاج درشهازه ورنفاند الكبير وقلب الأسد أربعين دقيقة بالتمام والكمال لإنجاز تلك المهمة. لكن لماذا تأخر موركينه عن الحضور؟ كان أراد أن يأتي مع جماعته من نويفارفاسر مباشرة ليلتحق بنا في الكنيسة، لكي لا تلفت المسيرة الأنظار. وبدا مزاج شتورتبكر سيئاً، بل تراءى لي متوتر الأعصاب، فسأل الأخوين رنفاند عن موركينه عدّة مرّات. أخيراً عندما ذُكر اسم لوتسي، توقف شتورتبكر عن طرح الأسئلة، فانتزع المنشار من يديّ قلب الأسد غير الماهرتين، وأجهز على ما تبقى من الصبي يسوع بوجه عابس الملامح، متجهّم. وحين طرحنا التمثال أرضاً انكسرت الهالة القدسية، فاعتذر لي شتورتبكر. وبجهد بالغ كتمت توتر الأعصاب الذي أوشك أن يتمكن منّي وطلبت منهم أن يلمّوا أجزاء الطبق الذهبي المصنوع من الجصّ ويحفظونها في برنيطتين. كان كولنكلاو يعتقد أنه من الممكن إصلاح الضرر بالمواد اللاصقة. لكننا حشونا تمثال يسوع المقطوع بالوسائد، ثم لففناه ببطانيتين من الصوف.

كانت الخطّة تقتضي أن نقطع العذراء بالمنشار من الخصر، وأن نعمل قطعاً آخر بين أخمص القدمين والسحابة. لقد أردنا أيضاً أن نترك السحابة في الكنيسة وأن نحمل معنا إلى قبو الفيلا شطريّ العذراء وحدهما، ويسوع في كلّ الأحوال، وربما الصبي المعمدان. وعلى العكس من المتوقع، حسبنا قطع الجبس أثقل مما كنت عليه في الواقع. كانت مجموعة التماثيل مصبوبة بالجبس، بحيث أنها كانت مجوّفة من الداخل، فأصبح سمك حافتها الخارجية يعادل إصبعين على أبعد تقدير، فكمنت الصعوبات في قضبان الهيكل الداخلي. وبدا الشبّان متعبين، لاسيما كولنكلاو وقلب الأسد. فكان لا بد أن تعطى فترة استراحة؛ إذ أن الآخرين، والأخوين رنفاند أيضاً، لا يعرفون استخدام المنشار. فجلس

أفراد العصابة متفرقين على مصاطب الكنيسة، يرتجفون من البرد. فانتصب شتورتبكر وطوي حافة قبعته القطيفة التي خلعها في باطن الكنيسة. وشاع جوّ عام لم يعجبني؛ فكان لابد من القيام بعمل ما. كان الفتيان يعانون تحت وطأة المعبد الليلي الموحش. فضلاً عن أن توتراً ساد بسبب غياب موركينه. وبدا الأخوان رنفاند كأنهما كانا يخشيان شتورتبكر، فوقفا إلى الجانب وأخذا يتهامسان، ثم لاذا بالصمت بناءً على أمر من شتورتبكر. فنهضت من مقعد الركوع الصغير، أظنّ أنني قذفت بحسرة ساعتها، وخطوت مباشرة نحو العذراء المتبقية. فبات بصرها الذي وجهته من قبل إلى يوحنّا مسلطاً الآن إلى المذبح الرئيسي المليء بنثار الجصّ. وكانت سبابتها اليمنى التي أشارت من قبل إلى يسوع توجهت الآن إلى الفراغ، أو إلى الجناح اليسار المعتم من الكنيسة. قطعت درجات المذبح واحدة إثر أخرى، ثم ألتفت إلى الوراء، باحثاً عن عينيّ شتورتبكر الغائرتين؛ فوجدهما زائغتين، فلكزه كولنكلاو، لكي يستجيب إلى طلبي. فنظر إليّ باضطراب وعلى نحو لم أره من قبل، إلا أنه لم يدرك ما عنيت، وأخيراً فهم ما أردت، أو فهمه جزئيّاً، فتقدم ببطء، أشدّ بطئاً من المعتاد، فقطع درجات المذبح في خطوة واحدة، ثم رفعني وأجلسني في مكان القطع الأبيض الحاد الحواف، المنشور بطريقة سيئة، على الفخذ اليسرى للعذراء الذي بانت عليه آثار عجيزة الصبي يسوع بارزة إلى حدّ ما. وعاد شتورتبكر فوراً إلى مكانه، وأصبح فوق الأرضية المبلطة في خطوة واحدة، وأوشكّ أن يسرح في خياله مرّة أخرى، لكنه أدار رأسه إلى الوراء، ثم ضيق عينيه المتقاربتين وأحالهما إلى مصباحيّ رقابة متوهجين، وبانت عليه علامات الدهشة والإعجاب أمام بقية أفراد العصابة المنتشرين على المصاطب عندما رآني أحتل موقع يسوع بكلّ بداهة وبشكل جدير بالتقديس والعبادة.

حينئذ لم يحتج شتورتبكر إلى وقت طويل، إنما فهم خطّتي بسرعة، بل تجاوزها في فهمه. فسلط عليّ المصباحين اليدويين الميدانيين اللذين استفاد منهما نارسس والشارب الأزرق أثناء التفكيك؛ سلطهما عليّ وعلى العذراء مباشرة، ثم أمر بإشعال الضوء الأحمر؛ لأن وميض المصباحين قد

بهرني، وأشار للأخوين رنفاند بأن يتقدما منه، وتهامس معهما، لكنهما لم يؤيدا ما نوى عليه، فاقترب كولنكلاو من الجماعة دون أن يعطيه شتورتبكر إشارة، وأبرز أمامها براجمه المتأهبة للنفض، فاستسلم الأخوان، واختفيا حالاً في حجرة الموهف، يحرسهما كولنكلاو ومساعد سلاح الجوّ مستر. فبقي أوسكار ينتظر بهدوء، متأهباً، ولم يصب بالدهشة عندما عاد الأخوان رنفاند بثوبين لونها أبيض وأحمر من ثياب سدنة القساوسة، ومعهما مستر الطويل يرفل برداء الكهنة، وجاء كولنكلاو مرتدياً لباس معاون القسيس، حاملاً معه كلّ ما يستلزمه القدّاس، ثم رفع عُدّة الأدوات من السحابة وانصرف. وأمسك رنفاند الكبير بمرجل البخور والصغير بالأجراس. فأخذ مستر يقلّد حضرة القسيس فيهنكه تقليداً لم يكن سيئاً، على الرغم من الرداء الفضفاض؛ وقد فعل ذلك في البدء بتهكم حريّ بتلميذ، بيد أنه سرعان ما انجرف نحو النصّ والحدث المقدّس، فلم يقدم لنا، لاسيما أنا شخصياً، محاكاةً ساخرةً، بل قدّاساً، أصطلح على تسميته أمام المحكمة فيما بعد بالقدّاس الشيطاني.

بدأ الثلاثة بأداء الصلاة التراتبية: فثنت العصابة ركبها فوق الأرضية المبلطة ورسمت علامة الصليب، ورفع مستر عقيرته، متقناً أداء النصّ إلى حدّ ما، يسنده مساعدا القساوسة المتمرسان، ليقيم القدّاس. وأثناء الصلاة الافتتاحية صرت أمرر مضربيّ على الطبل بحذر. ثم رفعتُ وتيرة الإيقاع عندما بدءوا يرتلون «يا ربّ ارحمنا»، وأخذت أمتدح سبحانه في السماء على طبل الصفيح، ودعوت إلى التراتيل القدسية، وعزفت مقطوعة طويلة على رقعة التطبيل بدلاً من الرسالة الإنجيلية التي تذاع في القدّاس النهاريّ. وقد تمكنت من عزف ترنيمة الشكر هللّويا بصورة رائعة. أثناء أداء الشهادة لاحظت كيف كان الشبّان مؤمنين بي، وفي صلاة جمع الصدقات سحبت الكأس قليلاً إلى الوراء، وأمرت مستر بأن يجلب الخبز ويخلط الماء بالنبيذ، ثم تركتهم يضمخونني والكأس بالبخور، وراقبت تصرفات مستر وهو يشطف يديه. وعزفت صلاة ربنا الذي في السماء مطالباً أخوة العقيدة تحت الضوء الأحمر للمصابيح اليدوية بالانتقال إلى

طقس التجسّد. فدعا مستر إلى أداء الصلاة، متعظاً بالأمر القدسي - لقد قدم لي الشبّان الجالسين على المصاطب قراءتين مختلفتين من صلوات ربنا الذي في السماء، بيد أن مستر عرف كيف يوحّد بين البروتستانتيين والكاثوليكيين أثناء تناول القربان المقدس. بينما كانوا يستمتعون بالمضغ عزفت لهم صلاة الاعتراف بالخطايا. كانت السيّدة العذراء تشير بإصبعها إلى أوسكار الطبّال؛ فتوليتُ خلافة يسوع. كانِ صوت مستر يرتفع ويهبط: كم جميلاً كان أداؤه للدعاء: البراءة والصفح والمغفرة، وعندما وصل إلى كلمات الختام ite, missa est انصرفوا فأنتم طلقاء، عندما أطلق هذه العبارات في فضاء الكنيسة حدث فعلاً انصراف روحيّ، حتى بات الاعتقال الدنيوي لا يشمل أفراد عصابة النافضين الذين قويّ إيمانهم وتعزز باسم أوسكار ويسوع.

كنت قد سمعت صوت السيّارات أثناء القدّاس، وحتى شتورتبكر كان أدار رأسه كذلك، فكنّا، كلانا، لم نصب بالدهشة عندما ارتفعت الأصوات من المدخل الرئيسي ومن المَوْهِف والبوّابة الجانبية اليمنى في آن واحد، وأخذت كعاب الأحذية الطويلة تدوّي فوق أرضية الكنيسة. وأراد شتورتبكر أن يرفعني عن فخذ العذراء. لكنني رفضت بحركة من يدي. ففهم أوسكار، وهزّ رأسه له، وأجبر أفراد العصابة على البقاء راكعين، وأن ينتظروا الشرطة الجنائية وهم في حالة ركوع، فبقي الشبّان في الأسفل، يرتعدون من الخوف في الواقع، وقد ركع بعضهم على ركبتيه معاً، بيد أن جمعيهم أنتظر بصمت، حتى وجدت الشرطة طريقها إلينا عبر قلب الكنيسة من جهة اليسار وعبر الموهف، لتطوّق المذبح الجانبي اليسار.

كانت الأشعة كثيفة، لأن المصابيح اليدوية لم تحوّل إلى الأشعة الحمراء. فنهض شتورتبكر، ورسم علامة الصليب، وعرض نفسه للمصابيح اليدوية، ثم سلّم قبعته القطيفة إلى كولنكلاو الذي لم يزل جاثياً، ومضى يتبختر بمعطفه المطري نحو ظل خال من أي مصباح يدويّ، في اتجاه حضرة القسيس فيهنكه، وسحب من خلف الظلّ شيئاً ما

نحيفاً أخذ يرفس مدافعاً عن نفسه، فجلبه إلى الضوء؛ سحب لوتسي رنفاند، وصار يوجه لكماته إلى وجه الفتاة المتقلّص، المدبب كالمثلث الذي ارتدى برنيطة إقليم الباسك، وظلّ يضربها حتى لاحته لكمة شرطي وألقت به بين المصاطب. فسمعت شرطياً يهتف بصاحبه من أسفل السيّدة العذراء: «ماذا فعلت يا يشكه! هذا هو ابن الرئيس!» فشعر أوسكار بسرور باطني لأنه عثر في شخص ابن رئيس الشرطة على مساعد له في القيادة يتمتع بالكفاءة، ثم تركهم يضعونه تحت الحماية بلا مقاومة، بعدما مثّل دور الطفل ذي الأعوام الثلاثة، النائح الذي غرر به المراهقون: فحملني حضرة القسيس فيهنكه على ذراعيه.

فلم يصرخ سوى رجال الشرطة الجنائية الذي اقتادوا الشبّان. غير أن حضرة القسيس اضطر إلى وضعي على بلاط الكنيسة؛ إذ أن وهناً اعتراه، اجبره على أن يلزم مصطبة الكنيسة. ووقفت إلى جانب عدّة العمل، فاكتشفت خلف المطارق والأزاميل سلّة مؤنة مليئة بالخبز والسجق كان قد جهّزها درشهازه قبل بدء العملية. فأخذت السلّة وخطوت نحو لوتسي الهزيلة المقشعرة برداً تحت معطفها الخفيف وقدمت لها الشطائر. فرفعتني وجعلتني إلى يمينها، ثم دسّت بين أصابع يدها اليسرى قطعة خبز محشوة بالسجق، وحشرها على عجل بين أسنانها. أخذت أراقب وجهها المهان المتألم المزدحم بمعالمه: العينان القلقتان خلف الشقّين الأسودين والجلّد الذي كأنه معدّل بالمطرقة والمثلث الذي يلوك والدمية والطاهية السوداء التي تلتهم السجق بغلافه، فتزداد هزالاً أثناء الالتهام، بل تزداد جوعاً وتدبباً وشبهاً بالدمية - ذلك المشهد الذي وسمني بطابعه. فمن ذا الذي سيرفع المثلث عن جبيني؟ وإلى متى يظل يلوك السجق في داخلي وغلافه ويلوك الناس، مبتسماً مثلما يبتسم المثلث وحده، ويلوك السيّدات اللواتي يروضن وحيد القرن على السجاجيد؟ وعندما اقتيد شتورتبكر من قبل شرطيين، مظهراً وجهه الملطّخ بالدم لأوسكار ولوتسي، تجاهلت رؤيته، وبقيت معرضاً عنه، حتى أخرجني خمسة أو ستة من رجال الشرطة خلف عصابة النافضين السابقة، محمولاً على ذراع لوتسي التي كانت تمضغ.

فما الذي بقي خلفنا؟ بقي حضرة القسيس فيهنكه مع مصباحيّ الميدان اليدويين اللذين حوّلنا أشعتهما إلى اللون الحمراء، بقي بمفرده مع ثياب مساعديّ القساوسة ورداء الكهنة المرمية على عجل فوق مدرج المذبح. وبقي يوحنّا ويسوع المقطوعان بالمنشار قرب العذراء التي كان عليها أن تجسّد في قبونا القوّة المضادة للسجّادة مع السيّدة ووحيد القرن. إلا أن أوسكار نقل إلى المحاكمة التي أطلقتُ عليها ومازلت أطلق عليها اسم محاكمة يسوع الثانية التي انتهت بتبرئتي وتبرئة يسوع في الوقت ذاته.

طريق النمل

أرجو أن تتصوروا حوض سباحة مبلّط بالحجر اللازوردي، حيث يستحم أناس ملوحون بالشمس، وذوو إحساس رياضي. وحيث يقبع حول حافة الحوض وفي قمرات الاستحمام رجالٌ ونساءٌ يحملون ويحملن إحساساً رياضياً مشابه لإحساس أولئك الأناس. ومن الممكن أن تتخيلوا أيضاً الموسيقى وهي تنبعث من سمّاعة مخفَّضة الصوت، وتتخيلوا الضجر الصحّي والإثارة الجنسية الخفيفة غير الملزمة المشدودة بتوتر في سراويل السباحة. فالحجر ناعم، لكنه لا يؤدي بالمرء إلى الانزلاق. لم يكن هناك سوى بضعة لافتات تشير إلى الممنوعات، لكن حتى هذه نفسها يمكن الاستغناء عنها، إذ أن المستحمين يأتون هاهنا لمدّة ساعتين، فيفعلون كلّ ما هو محظور خارج المسبح. وبين الحين والآخر كان أحدهم يقفز من منصّة القفز التي يبلغ ارتفاعها ثلاثة أمتار، إلا أنه لم يستطع مع ذلك أن يسترعي انتباه السابحين،أو يحرف أبصار ضيوف المسبح المضطجعين في أوضاع مختلفة عن الجرائد والمجلاّت المصورة. فجأة هبّت نسمة هواء؛ كلا لم تكن نسمة هواء، إنما رجل شاب يتنقل على مهل وبتصميم من درجة سلّم إلى أخرى ليعتلي منصة القفز ذات الأمتار العشرة. فتهبط المجلات مع تقاريرها القادمة من أوربا وما وراء البحار، وترتفع العيون مع صعود الرجل، وتستطيل الأجساد المستلقية، وتظلل امرأة شابة جبينها بكفها، وينسى أحد الحاضرين ما كان يفكر فيه، فتبقى كلمة ما غير منطوقة، وتنهي محاولة غزل بدأت للتو في منتصف العبارة - إذ أنه انتصب الآن على المنصة بجسده المتين المليء بالفحولة، يحجل ثم يتكأ

على قضبان المنصّة الملتوية بهدوء وطواعية، متطلعاً إلى الأسفل بضجر، محرراً حوضه برشاقة من السقّالة، ثم يجرؤ على اقتحام منصّة القفز الشاهقة الارتفاع، المتأرجحة إثر كلّ خطوة، مركّزاً بصره على الحوض اللازوردي المتصاغر من فرط الهلع، وحيث تختلط طاقيات السبّاحات حمراء وصفراء وخضراء وبيضاء أو حمراء وصفراء وخضراء أو بيضاء وحمراء وصفراء كلّ مرة من جديد. ولابد أن تكون النساء اللواتي يعرفنه يجلسن هناك: «دوريس» و«أريكا شولر» وكذلك «يوتا دانييلس» مع صديقها الذي لا يناسبها قط. فتلوّح له النساء وكذلك يوتا. فأعاد عليهن التلويح خشية من فقدان توازنه، فيهتفن به. فما الذي كنّ يطلبنه منه؟ لقد هتفن به أن يفعلها ونادته يوتا بأن يقفز. لكنه لم يضع ذلك في الحسبان، بل أراد فقط أن يشاهد مرّة واحدة كيف هو الأمر هنا في الأعلى، ثم يهبط السّلم درجةً بعد أخرى ببطء شديد. الآن أخذن يهتفن بصوت مرتفع يسمعه الجميع: اقفز! هيّا افعلها! اقفز!

إنكم بلا شكّ ستعترفون بأن المرء سيكون في وضع شيطاني مهما اقترب من السماء فوق منصّة قفز. وعلى نحو مشابه كان وضعي ووضع عصابة النافضين في يناير من العام الخامس والأربعين، حتى لو يكن الموسم موسم استحمام. فقد تجرأنا كلّنا على الصعود، وصرنا نتدافع فوق منصّة القفز، وفي الأسفل جلس القضاة والمستشارون والشهود وحجّاب المحكمة، مشكلين حدوة حصان فخمة حول حوض خال من المياه.

آنذاك وطأ شتورتبكر المنصّة المتأرجحة القائمة بلا هيكل، فهتفت به جوقة القضاة «اقفز!» لكن شتورتبكر لم يقفز. فنهض شبح فتاة نحيف يرتدي سترة بفاريّة وتنّورة رمادية ذات ثنيات، نهض من الأسفل حيث مقاعد الشهود. ارتفع وجه شاحب البياض، لكنه لم يكن مطموس المعالم - مازلت أدعي إلى يومنا هذا بأنه كان يشكّل مثلثاً - ارتفع مثل علامة هدف لامعة، لكن لوتسي لم تهتف، بل همست: «اقفز يا شتورتبكر، اقفز!» فقفز شتورتبكر وجلست لوتسي من جديد على طاولة الشهود

الخشبية، ساحبةً كمّي سترتها البافاريّة الحياكة إلى الأسفل لتغطي بهما قبضتيها. وأخذ موركينه يحجل على المنصّة، فطالبه القضاة بالقفز. لكن موركينه لم يرغب في القفز، إنما ابتسم ناظراً إلى أظفار أصابعه بارتباك وحيرة، وانتظر إلى أن رفعت لوتسي الكمّين لتجعل قبضتيها تنزلقان من سترة الصوف، مظهرةً له المثلث الأسود الإطار ذا العينين الضيقتين. فوثب حينئذ على المثلث، شغوفاً بتحقيق غايته كمن أصابه مسّ، ومع ذلك؛ فإنه لم ينلها. أمّا كولنكلاو وبوته اللذان لم يكن أحدهما يستسيغ الآخر أثناء الصعود فقد اشتبكا ببعضهما على منصّة القفز. فتمّ نفض بوته، ولم يكفّ عنه كولنكلاو حتى أثناء الوثب. وقبل القفز أغمض درشهازه عينيه الحزينتين بلا قرار اللتين تشبهان عيني الأيل برموشهما الحريرية الطويلة. واضطر مساعدو سلاح الجوّ إلى خلع قيافاتهم النظامية قبل الوثب. ولم يستطع الأخوان رنفاند الصعود إلى السماء بصفتهما مساعديّ القساوسة عبر منصّة القفز؛ إذ أن هذا الأمر سوف لا تسمح به شقيقتهما لوتسي التي جلست على مقعد الشهود، مرتدية الصوف الحربيّ المهلهل، تشجّع رياضة القفز.

وعلى العكس من الوقائع التاريخية؛ فإن بيلزار ونارسس قفزا قبل توتيلا وتيّا. ثم قفز الشارب الأزرق وقلب الأسد ولحق بهما المشاة من أفراد العصابة: الأنف، بوشمان، ميناء النفط، الصفّار، كولنزنف، ياتاغان، فاسبندر. وعندما قفز شتوخل الأحول المرتبك الذي كان تلميذاً في المتوسطة، فانظم إلى عصابة النافضين عن طريق الصدفة وبشكل ناقص في حقيقة الحال، بقي يسوع وحده على منصّة القفز فرفض يسوع أن يقفز تلبية لطلب جوقة القضاة التي اعتبرته أوسكار ماتسرات. بعدما نهضت لوتسي الصارمة ذات الضفيرة الرفيعة المماثلة لضفيرة موتسارت المتدلية على عظام كتفها، ناشرة ذراعيها المغطيتين بالصوف، لتهمس دون أن تحرّك شفتيها المتقلصتين: «اقفز يا يسوع الجميل اقفز»، أدركت الطبيعة المغرية لمنصّة القفز ذات الأمتار العشرة، فأخذت قطط صغيرة رمادية تتقلب حينئذ على باطن ركبتيّ وبدأت قنافذ تجامع بعضها تحت أخمص

قدميّ وباتت السنونوات قادرة حينئذ على مغادرة العشّ تحت إبطيّ، وأصبح العالم في متناول قدميّ، وليس أوربا وحدها. حينئذ صار اليابانيون والأمريكان يرقصون رقصة المشاعل على جزيرة لوزون. حينئذ فقد أصحاب العيون الضيقة المتدانية الجفون وأصحاب العيون المدورة أزراراً من قيافاتهم. في الوقت ذاته كان ثمة ترزي في ستوكهلم يخيط الأزرار لبذلة سهرة مقلّمة بخطوط هادئة الانسياب. حينئذ كان الأميرال «مونتباتن» يعلف فيلة بورما بقذائف من جميع الأعيرة. وثمّة أرملة ما في مدينة ليما تعلّم ببغاءها أن يردد عبارة «كارامبا». حينئذ أبحرت حاملتا طائرات عملاقتان مزخرفتان كأنهما كاتدرائيتين من الطراز القوطيّ في عرض المحيط الهادي في اتجاه بعضهما، ثم أطلقتا طائراتهما لكي تغرق أحدهما الأخرى، فبقيت الطائرات عاجزة، معلقة في الهواء على نحو مجازيّ خالص كالملائكة؛ لأنها لم تعد قادرة على الهبوط، واستهلكت وقودها في الهدير إلا أن ذلك كلّه لم يقلق قاطع التذاكر في الترام الذي انتهى عمله في مدينة هاباراندا السويدية، ثم بدأ يقلي البيض في المقلاة، بيضتين له وبيضتين لخطيبته التي كان ينتظر قدومها مبتسماً، واضعاً في ذهنه الحسابات كلّها. بالطبع كان يمكن للمرء أن يتكهن بأن جيوش المارشال كونييف والمارشال شوكوف ستواصل زحفها مرّة أخرى، وبينما كان المطر يهطل في أيرلندا فإن تلك الجيوش اخترقت جبهة فيستولا واستولت على وارسو مؤخراً بعد أن سيطرت على كونغسبيرغ بشكل مبكّر، ومع ذلك فإن تلك الجيوش لم تحل دون احتراق الحليب على موقد الغاز، حيث نصبته امرأة ما في بنما لها خمسة أطفال وزوج واحد. وهكذا أصبح من الصعب تجاوز حقيقة أن خيط الحدث المعاصر الذي مازال نهماً من الأمام، ملتفاً كما الأحابيل، صانعاً الوقائع، في حين أنه كان يحاك من الخلف، ليصبح تاريخاً مدوّنا. وخطر في ذهني أيضاً بأن فعّاليّات مثل: لويّ الإبهام، تقطيب الجبين، تنكيس الرأس، هزّ اليدين، إنجاب الأطفال، سكّ النقود المزوّرة، إطفاء الضوء، تنظيف الأسنان، القتل بالرصاص، التجفيف، كانت تمارس في كلّ مكان، وإن بمهارة

ليست متساوية. فجعلتني هذه الأفعال المقصودة الأهداف أشعر بالاضطراب. لذلك صرفتُ انتباهي من جديد إلى المحاكمة التي أقيمت على شرفي أسفل برج القفز. ثم همست الشاهدة المبكرة النضج لوتسي رنفاند: «اقفز يا يسوع، اقفز!» كانت لوتسي تجلس في حضن الشيطان مما جعل بكارتها تزداد حضوراً وقوّة. كان الشيطان يغرقها بالسعادة من خلال تزويده لها بالخبز والسجق. فكانت تقضم السندوتش، لكنها تبقى عذراء مع ذلك، وتهمس أثناء المضغ: «اقفز يا يسوع الجميل!» ثم تقدم لي مثلها السليم.

إنني لم أقفز ولن أقفز من أبراج القفز. وتلك لم تكن آخر محاكمة لأوسكار، فثمّة من حاول إغرائي مرّات عديدة، لاسيما في الفترة الأخيرة، لكي أقفز. ومثلما كان الحال إبّان محاكمة النافضين؛ فقد جلس ما يكفي من الشهود على حافة الحوض الخالي من المياه ليحضر قضية البِنْصِر التي أفضّل تسميتها بمحاكمة يسوع الثالثة. لقد جلسوا على مقاعد الشهود، راغبين في مواصلة الحياة خلال محاكمتي وبعدها. لكنني انقلبت على عقبيّ، فخنقت السنونوات القادرة على مغادرة عشّها تحت إبطيّ، وسحقتُ القنافذ المحتفلة بعرسها تحت أخمص قدميّ، وجوّعت القطط الرمادية في باطن ركبتيّ - ثم مضيت متشنجاً نحو هيكل المنصّة، مزدرياً نشوة الشعور بالقفز، فتأرجحت في السلّم، ثم هبطت السلّم، حيث أكّدت لي كلّ درجة منه بأن المرء لا يرتقي أبراج القفز فحسب، إنما يغادرها أيضاً بلا قفز.

كان ماتسرات وماريا ينتظرانني في الأسفل. فباركني حضرة القسيس فيهنكه دون أن يسأله أحد. وكانت غريتشن شفلر قد جلبت لي معها معطفاً شتوياً وكعكاً كذلك. وبان النمو على كورت الذي لم يتعرف عليّ بصفتي أباه ولا بصفتي أخاه غير الشقيق. وكانت جدّتي آنا كولياجك تمسك بذراع شقيقها فنسنت الذي كان يعرف العالم خير معرفة ويتحدث بكلام مضطرباً لا رابط له. وبعدما غادرنا مبنى المحكمة، أقبل نحو ماتسرات موظّف في ثياب مدنية، وسلمه مكتوباً، ثم قال: «يجب أن تفكّر حقّاً في الأمر مرّة

أخرى يا سيّد ماتسرات. لابد من إبعاد الطفل عن الشارع. لقد رأيت بعينك أي عناصر تلك التي أساءت التعامل مع هذا المخلوق البائس المسكين.» فبكت ماريا وعلقت في رقبتي الطبل الذي أمسك به حضرة القسيس فيهنكه أثناء المحاكمة. ذهبنا إلى موقف الترام في محطة القطارات الرئيسية. كان ماتسرات قد حملني بقيةَ المسافة. فنظرت إلى الخلف عبر منكبيه، باحثاً عن الوجه المثلّث بين جموع الناس، وأردت أن أعرف فيما إذا كان عليها أن تتسلق أيضاً برج القفز، أم أنها قفزت خلف شتورتبكر وموركينه، أم آثرت مثلي الالتزام بالإمكانية الثانية التي قدمها السلّم، أي إمكانية الهبوط.

وإلى يومنا هذا فإنني لم أقلع عن التفتيش في الشوارع والساحات عن تلك المراهقة التي لم تكن قبيحة ولا جميلة، لكنها مازالت تقتل الرجال بلا كلل. وصرت أشعر بالرعب، حتى وأنا على سرير مصحّة الأمراض العقلية، إذا ما أبلغني برونو بقدوم شخص مجهول الهوية لزيارتي. كان رعبي يكمن في أن لوتسي رنفاند هي التي ستأتي الآن، وستطالبك للمرّة الأخيرة بالقفز، بصفتها بعبع الأطفال والطاهية السوداء! وبقي ماتسرات يقلّب أفكاره عشرة أيّام كاملة فيما إذا عليه أن يوقّع الرسالة ويبعث بها إلى وزارة الصحّة. وعندما وقعّها وأرسلها في اليوم الحادي عشر، كانت المدينة نفسها وقعت تحت قصف المدفعية، فبات من المشكوك فيه بأن البريد سيجد فرصة مناسبة لإيصال الرسالة. كانت طلائع دبابات الجيش قد زحفت تحت إمرة المارشال روكوسوفسكي حتى وصلت إلى ألبنغ. أمّا الجيش الثاني، بقيادة «فايس»، فقد اتخذ مواقعه على التلال المحيطة بغدانسك، فبدأت حينئذ حياة الأقبية. وكما نعلم كلّنا فإن قبونا كان تحت المحل، حيث يمكن الوصول إليه من مدخل القبو نفسه في ممر البيت، قبالة المرحاض، على مسافة ثمانيّ عشرة درجة إلى الأسفل، خلف قبويّ هايلاند وكاتر وقبل قبو شلاغر. كان العجوز هايلاند مازال موجوداً في البناية. أمّا السيّدة كاتر والساعاتي لاوبشاد وآل آيكه وشلاغر فقد رحلوا مع بعض الصرر والأمتعة. فيما بعد قيل عنهم وعن غريتشن وألكسندر شفلر

بأنهم استقلوا في اللحظة الأخيرة سطح سفينة «القوّة عبر المرح» سابقاً، ثم ترجلوا عنها ومضوا في اتجاه شتيتين أو لوبك، أو ربما سحقوا على لغم فطاروا في الهواء؛ على كلّ حال، كان نصف المساكن والأقبية فارغا.

كان قبونا يتمتع بميزة أنه يمكن الوصول إليه عبر مدخل ثان كان عبارة، مثلما نعلم كلّنا، عن باب أرضيّ في المحلّ نفسه خلف طاولة البيع. ولذلك فإن أحداً لم يستطع رؤية ما يجلبه ماتسرات إلى القبو وما يأخذه منه. فلم يكن هناك من لا يحمل علينا ضغينة بسبب ما كدسه ماتسرات من خزين خلال أعوام الحرب. كانت القاعة الجافة الدافئة مليئة بالمواد الغذائية: من بقول ونشويات وسكّر وعسل اصطناعي ودقيق القمح والسمن. فكانت صناديق الخبز المجفف تلقي بثقلها على صناديق السمن من ماركة بالمين، كذلك كُدست علب الخضر إلى جانب علب البرقوق وصُفّت البازلاء والأجاص على الرفوف التي سمّرها على الجداران ماتسرات العملي بنفسه. وثمة دعائم خشبية ثُبتت بين السقف والأرضية، بناءً على طلب غريف، كان من شأنها أن تمنح مخزن المواد الغذائية طابع المكان الأمين المخصص للحماية من القصف الجوّي حسب التعليمات الرسمية. كان ماتسرات قد همّ عدّة مرات بتحطيم تلك الألواح العازلة؛ لأن دانسغ لم تشهد قصفاً مركّزاً ما عدا بعض الهجمات الذي كان تهدف إلى التشويش. لكن عندما توقف غريف عن تقديم إنذاراته، توسلت ماريا بماتسرات، لكي يبقى على دعائم الحماية؛ إذ أنها طالبت بتوفير الأمن لكورت، وأحياناً لي أيضاً. وخلال القصف الجوّي الأول في نهاية يناير/ كانون الأوّل حمل العجوز هايلاند وماتسرات، بما تيسر لهما من قوّة بدنية، حملا كرسيّ الأمّ تروجنسكي ووضعاه في قبونا. إلا أن الأمّ تروجنسكي تُركت فيما بعد في الدار، أمام النافذة، نزولاً عند رغبتها ربما، أو من المرجح أيضاً بسبب الجهود الشاقة التي يتطلبها حملها. عقب الهجوم الكبير الذي استهدف مركز المدينة عثر ماتسرات وماريا على المرأة العجوز وقد تدلّى فكّها السفلي، وزاغ بصرها كما لو أن ذبابة صغيرة دبقة التصقت في عينيها. وهكذا رفع باب غرفة النوم عن مفاصله، وأتى

العجوز هايلاند بعدّة العمل من كشكه ومعها بضعة ألواح من بقايا الصناديق، وبدأ يتخذ القياسات، مدخناً سجائر-دربي التي أعطاها له ماتسرات، وقد سارع أوسكار لمعاونته في عمله؛ بينما اختفى الآخرون في القبو؛ إذ أن القصف المدفعي من التلال قد بدأ.

كان عليه أن يسرع في عمله وأن يسمّر صندوقاً بسيطاً، ليس بالضرورة ضيقاً من ناحية القدمين. بيد أن أوسكار كان إلى جانب الشكل التقليدي للتابوت، وظلّ متمسكاً برأيه، واضعاً ألواح الخشب تحت منشار هايلاند إلى أن وافق أخيراً على تضييق التابوت من ناحية القدمين، حسبما تستحق أي جثّة بشرية. وفي النهاية بدا التابوت لطيفاً، مهذبا. وقامت السيّدة غريتشن بتغسيل الأم تروجنسكي، وتناولت من خزانة الثياب قميص نوم مغسول توّاً، ثم قلّمت أظافرها، ورتبت لفّات شعرها، ومنحتها الثبات اللازم بثلاث إبر للحياكة، باختصار: لقد بذلت غريتشن كلّ ما في وسعها لكي تتخذ الأمّ تروجنسكي، حتى بعد موتها، شكل الفأرة التي كانت تحتسي في سنيّ حياتها قهوة الشعير بكل سرور وتلتهم البطاطس المفرومة المقلية. وبما أن الفأرة كانت تشنجت في كرسيّها أثناء القصف المدفعي، فقد أرادت أن تضطجع في التابوت بركبتين مرفوعتين إلى الأعلى، مما اضطر العجوز هايلاند إلى كسر ساقيها، لكي يتمكن من تثبيت غطاء التابوت بالمسامير، مستغلاً فرصة خروج ماريا من الغرفة لبضع دقائق، حاملة كورت على ذراعها.

غير أننا لم نكن نمتلك للأسف الشديد إلا صبغاً أصفر، وليس أسود. فحمل نعش الأمّ تروجنسكي من الدار بلا طلاء، لكن بألواح ضيّقة من ناحية القدمين، وأنزل من السّلم. فحمل أوسكار طبله خلف النعش، وصار يتأمل غطاء التابوت قارئاً: سمن فيتللو - سمن فيتللو - سمن فيتللو -؛ تكررت هذه العبارة ثلاث مرّات فوق بعضها وعلى مسافات متساوية، مؤكدة ذوق الأمّ تروجنسكي، ولو على نحو متأخر. لقد كانت تؤثر سمن فيتللو المستخلص من النباتات على أفضل أنواع الزبد؛ لأنَ السمن النباتي صحيّ ومغذّي ويجعل المرء نضراً وسعيداً. وأخذ العجوز هايلاند يجرّ

العربة الخشبية التابعة لبقالة غريف وعلى ظهرها التابوت عبر شارع لويزا وشارع ماريا وجادة أنتون-مولر، حيث نشبت النيران بمنزلين في اتجاه مستشفى النساء. لقد أودع كورت لدى الأرملة غريف في قبونا، وكان ماتسرات وماريا يدفعان من الخلف، وكان أوسكار يجلس في العربة، متمنياً لو أنه اعتلى التابوت، لكن لم يُسمح له بذلك. كانت الشوارع غاصة باللاجئين الفارين من شرق بروسيا ومنطقة «فيردر». فبات اختراق قبو القطارات بغية الوصول إلى قاعة الألعاب الرياضية مستحيلاً؛ لذا اقترح ماتسرات أن تُحفر حفرة في حديقة مدرسة كونرادينوم، لكن ماريا اعترضت. وهزّ العجوز هايلاند الذي كان في عمر الأمّ تروجنسكي رأسه بالنفي. كنت أنا أيضاً ضد الحفرة في حديقة المدرسة. فتوجب علينا أن نتخلى في الواقع عن مقابر البلدية، لأن الطريق الموصل بين قاعة الألعاب الرياضية وشارع هندنبورغ المشجّر كان مفتوحا فقط أمام المركبات العسكرية. لذلك فإننا لم نستطع دفن الفأرة إلى جانب ولدها هربرت، واخترنا لها بدلاً من ذلك موضعاً صغيراً خلف مروج مايو في متنزه شتيفن الواقع قبالة المدافن البلدية. وأضحت الأرض متجمدةً من شدّة البرد، وبينما كان ماتسرات والعجوز هايلاند يتناوبان على المعول وماريا تحاول اجتثاث عروق اللّبلاب في جانب المصاطب الحجرية، استقل أوسكار بنفسه، فصار يتهادى بعد فترة قصيرة بين جذوع شارع هندنبورغ المشجّر. أيّ حركة سير كانت هناك! كانت الدبابات والمصفحات المسحوبة من المرتفعات ومن ناحية فيردر تجرّ بعضها بعضا. وفي الأشجار - كانت أشجار زيزفون حسبما أتذكر - عُلق أفراد المقاومة الشعبية والجنود. كانت لافتات الكرتون أمام أزيائهم العسكرية يمكن قراءتها إلى حدّ ما، حيث جاء فيها أن المعلقين في الأشجار وفي أغصان الزيزفون هم من الخونة. فتطلعت في الوجوه المتقلصة لعدد كبير من المشنوقين، عاقداً المقارنات العامة والخاصة بينهم وبين البقّال المشنوق غريف. أبصرت كذلك لفيفاً من الفتيان معلقين في زيّ موحد فضفاض، فظننت مرّات عديدة بأنني رأيت شتورتبكر - إن الشبّان المشنوقين يبدون متشابهين كلّهم - ومع ذلك

كنت أردد في نفسي: هاهم قد شنقوا شتورتبكر للتو - فيا ترى هل أنهم علقوا لوتسي رنفاند في شجرة؟

هذه الفكرة جعلت أوسكار يسرح بخياله بعيدا. فقام يفتش في يمين الأشجار وفي شمالها عن الفتاة الهزيلة المشنوقة، وتجرا على اختراق رهط الدبابات ليقطع الشارع المشجّر، لكنه لم يجد هناك سوى الجنود ورجال المقاومة الشعبية والفتيان الذين يشبهون شتورتبكر. فجرجرت خطاي بخيبة أمل، طالعاً الشارع حتى وصلت إلى مقهى الفصول الأربعة نصف المهدم، ثم عدت أدراجي على مضض فوقفت على قبر الأمّ تروجنسكي، ناثراً مع ماريا الأوراق واللّبلاب على التلّ الصغير، حيث مازلت أحمل في ذهني تصوّراً ثابتاً وتفصيلاً عن لوتسي المشنوقة. ولم نُرجع في الواقع عربة الأرملة غريف إلى دكّان الخضر. فقام ماتسرات والعجوز هايلاند بتفكيكها ووضعوا بعض أجزائها أمام طاولة الدكّان، فقال تاجر بضائع المستعمرات للرجل العجوز الذي دسّ في جيوبه ثلاث علب من سجائر دربي: «ربما نحتاج إلى العربة مرّة ثانية. فهي هنا تقريباً في مكان أمين.» فلم يقل هايلاند شيئاً، إنما تلقّف من الرفوف التي بدت خالية بضعة لفائف من المعكرونة وكيسين من السكّر. ثم جرجر قدميه من المحلّ بنعله المصنوع من اللبّاد الذي ارتداه أثناء تشييعه للجنازة ورجوعه منها، وخلّف وراءه ماتسرات الذي لمّ بقايا البضاعة من الرفوف ونقلها إلى القبو.

والآن بتنا لا نغادر هذه النقرة إلا نادرا؛ إذ قيل إن الروس وصلوا «تسيغانكنبيرغ» و«بيتسغندورف»، وأصبحوا على قاب قوسين من «شيدلتس». وكانوا في كلّ الأحوال يتربعون على التلال، لأنهم أخذوا يطلقون نيرانهم على المدينة بشكل مباشر. فكانت المدينة الواقعة على اليمين والمدينة القديمة ومدينة الفلفل وناحية الضاحية والمدينة القديمة-الجديدة والمدينة الجديدة والمدينة المنخفضة، هذه الأحياء كلّها التي أقيمت خلال سبعمائة عام قد احترقت في ثلاثة أيّام. ولم يكن هذا الحريق الأوّل الذي شهدته غدانسك، إذ أن «البومريين» و«البراندبورغيين» وفرسان التبشير والبولنديين والسويديين، فالسويديين مرّة أخرى والفرنسيين

والبرويسيين والروس والسكسونيين كانوا يجدون، إبّان صنعهم للتاريخ، بأن هذه المدينة جديرة بالحرق كلّ بضعة عقود - واليوم فإن الروس والبولنديين والألمان والإنجليز قاموا مجتمعين بشي الآجر المعمول على طراز الفنّ القوطيّ للمرّة المائة، دون أن يستخلصوا من شوائهم بقسماطاً. فاحترقت جادة النسّاجين والجادة الطويلة والجادة العريضة وجادتا حائكي الصوف الصغيرة والكبيرة، واحترقت جادة «توبيّاس» وجادة الكلاب واحترق خندق المدينة القديمة وخنادق الضاحية والأسوار والجسر الكبير. وكانت بوّابة كران مصنوعة من الخشب لذلك اشتعلت على نحو أخّاذ، وفي الجادة الصغيرة لخياطيّ السراويل بدأ الناس يتخذون القياسات لسراويل ساطعة الألوان بشكل ملفت للانتباه. واحترقت كنيسة مريم من الداخل نحو الخارج، كاشفةً عن ضوء احتفالي عبر نوافذها المدببة الأقواس. بينما ذابت النواقيس المتبقية في كنائس القدّيسة كاترين والقدّيس يوحنّا والقدّيسات «بريجيتا» و«باربرا» و«اليزابيث» والقدّيسين بطرس وبولص ونواقيس كنيستي الثالوث والجثمان المقدّس، منصهرة في أبراجها وباتت تقطر بلا رنين أو لحن. وثمة قمح أحمر كان يطحن في الطاحونة الكبرى؛ وانتشرت في جادة القصابين رائحة شرائح اللحم المحترقة. وفي المسرح البلدي عُرضت للمرّة الأولى مسرحية أحلام مشعل الحرائق ذات الفصل الواحد الملتبس المعنى. وتمّ في دار بلدية المدينة اليمنى رفع رواتب رجال الإطفاء بأثر رجعيّ اعتباراً من نشوب الحرائق. واحترقت جادة الروح المقدّسة باسم الروح القدس. واحترق دير الفرانسسكيين باسم القدّيس «فرانسيسكوس» الذي كان يحبّ النار وينشد لها الأناشيد. واحترقت جادة السيّدات من أجل الأب والابن في وقت واحد. ومن البديهي جدّاً هو أن النار قد أتت على سوق الخشب وسوق الفحم وسوق التبن. ولم تعد أرغفة الخبز تخرج من أفران جادة الخبّازين. وأخذ الحليب يفور فائضاً في جادة صحائف الحليب. ولم تبق سليمة إلا بناية التأمين ضد الحرائق في غرب بروسيا، وذلك لأسباب رمزية بحتة.

كان أوسكار لا يهتم كثيراً بالحرائق، ولو أنني لم أخزّن، وبتهوّر،

أمتعتي القليلة السريعة الاشتعال على سطح التجفيف، لبقيت في القبو عندما قفز ماتسرات درجات السلّم طالعاً إلى الأعلى، لكي يشاهد من سطح تجفيف الملابس مدينة دانسغ المحترقة. كان اهتمامي كلّه منصبّاً على إنقاذ طبلي الأخير المتبقي من خزين مسرح الجبهة وغوته وراسبوتين. كنت قد وضعت أيضاً بين صفحتين مروحة يدويّة خفيفة، مرسومة برقّة متناهية، كانت روزفيتا، الراغونية، تجيد تحريكها ببراعة أيّام حياتها. وبقيت ماريا في القبو، لكن كورت أراد أن يصعد معنا إلى السطح ليرى النيران. فشعرت، من ناحية، بالامتعاض من قابلية ولدي المنفلتة على التحمّس والانفعال، ومن ناحية أخرى كنت أقول لنفسي: إنه قد ورثها عن جدّه الأكبر، أي عن جدّي كولياجك مشعل الحرائق. احتفظت ماريا بكورت في الأسفل، وسُمح لي بمرافقة ماتسرات إلى الأعلى، فأخذت حاجياتي، وألقيت بنظرة من نافذة سطح التجفيف فتعجبت من تلك القوّة الفعّالة النابضة بالحيوية التي كان على المدينة المُهابة الموقرة أن تشدّ عزيمتها لملاقاتها. ولمّا طفقت القذائف تنفجر على مقربة منّا تركنا سطح التجفيف. وأراد ماتسرات أن يصعد إلى الأعلى مرّة ثانية، لكنه ماريا منعته؛ فانصاع لأمرها، وأخذ يبكي عندما وصف للأرملة غريف، التي بقيت في الأسفل، الحريقَ وصفاً مسهبا. ثم دخل إلى الدار من جديد وفتح المذياع: لكن لم يخرج منه شيء؛ ولم تعد تُسمع حتى طقطقة النيران في مبنى الإذاعة المشتعل ناهيك عن سماع الأنباء الخاصة. وانتصب ماتسرات في منتصف القبو، متردداً إلى حدّ ما مثل طفل لا يعرف فيما إذا عليه أن يبقى مؤمناً ببابا نويل، فصار يجذب حمّالات سرواله، وعبّر للمرّة الأولى عن شكّه بتحقيق النصر النهائي، فخلع شارة الحزب من ياقة سترته، عملاً بنصيحة الأرملة غريف، لكنه لم يعلم ما الذي سيفعله بها؛ إذ أن أرضية القبو كانت من الإسمنت، والأرملة غريف لم ترغب في أن تحملها عنه، فأدلت ماريا برأي يقول إن بإمكانه إخفاء الشارة بين بطاطس الشتاء، لكن البطاطس لم تبد مضمونة بما يكفي بنظر ماتسرات، ثم أنه لم يعد يجرؤ على الصعود إلى الدار؛ إذ أنهم سيقدمون حالاً، إن

لم يكنوا قد وصلوا أصلاً، أو في الطريق إلى هنا، فهم كانوا يقاتلون عند برنتاو وأوليفا عندما كان على سطح التجفيف، فشعر بالندم لأنه لم يلق بتلك العلامة في رمل الحماية من القصف الجوّي؛ فما الذي سيحصل لو عثر عليه هنا في القبو وفي يده الشارة! - حينئذ رمى بها على الخرسانة وأراد أن يسحقها بقدمه وأن يلعب دور الرجل الثائر الهائج، غير أنني وكورت سارعنا إليها معاً، فالتقطتها قبله، وبقيت ممسكاً بها حتى بعد أن أخذ كورت يوجه لي لكماته، مثلما يفعل عادة عندما يريد الحصول على شيء، غير أنني لم أعط ابني شارة الحزب؛ لأنني لا أريد أن أعرّضه للمخاطر؛ فعلى المرء أن لا يمزح مع الروس. كان أوسكار يعلم بذلك من خلال قراءة راسبوتين، ففكرت أثناء ما كان كورت يوجه الضربات لي وماريا تحاول فصلنا، في أن الروس البيض أو الروس العظام أو القوزاق أو الجيورجيين أو المغول الكالموكيين أو «الروتنيين» أو الأوكرانيين وربما القرغيزيين أيضاً سيعثرون على شارة ماتسرات الحزبية لدى كورت إذا ما استسلم أوسكار لضربات ابنه.

وبعدما فصلنا ماريا بمعونة الأرملة غريف، كنت أحمل الشارة في قبضي اليسرى منتصراً. وشعر ماتسرات بالارتياح، لأنه قد تخلّص من وسامه. وانشغلت ماريا بكورت المولول. لكن الشارة بدأت توخز راحة يدي بإبرتها المفتوحة. وكنت ومازلت لا استسيغ أبداً تلك الحاجة، وحالما هممت بشكّ العلامة في سترة ماتسرات من الخلف - فما علاقتي أنا بحزبه -، أصبحوا فوقنا في المحلّ دفعة واحدة، ومن المحتمل جداً أنهم دخلوا أقبية الجيران أيضاً، حيث كان صراخ النساء دليلاً على ذلك. وحين رفع الباب الأرضي وخزت الشارة راحتي كما من قبل فلم يبق لي سوى أتربع عند ركبة ماريا المرتجفة لأراقب النمل الذي كان شارع فلوله داخل القبو أوصل بين بطاطس الشتاء وكيس السكّر بخطّ منحرف. فخمنت وجود ستة من الروس العاديين تماماً، المخلوطين خلطاً خفيفاً يتدافعون فوق سلّم القبو ويترصدون بأعينهم من فوق بنادقهم الرشاشة. وعلى الرغم من الصراخ فإن النمل لم ينشغل قطّ بدخول الجيش الروسي،

مما أضفى على الجوّ شيئاً من الهدوء. فلم يكن في ذهن النمل سوى البطاطس والسكّر، بينما كان أولئك ذوي البنادق الرشاشة يطمحون إلى تحقيق نمط آخر من الفتوحات. رأيت من الطبيعي جدّاً أن يرفع الكبار أيديهم إلى الأعلى؛ فالمرء يعرف ذلك من خلال أخبار الأسبوع المصوّرة؛ هكذا كان الأمر أثناء الدفاع عن البريد البولندي، حيث تمّ الاستسلام بامتثال وطواعية. لكن لماذا قلّد كورت الكبار كما يفعل القرد؛ فذلك أمر لم أستطع إجلاء غوامضه. فقد كان عليه أن يحتذي بي، أي بأبيه، وإن لم يقتد بي فبالنمل على الأقل. وبما أن ثلاثة من أصحاب القيافات المربعة أظهروا شغفهم بالأرملة غريف فقد دبّت بعض الحركة في الجمع المتشنج. وفي البدء صرخت السيّدة غريف من شدّة المفاجأة؛ لأنها لم تتوقع كلّ ذلك الاندفاع السلس بعد زمن طويل من الترمّل ومن الصيام الذي سبقها، بيد أنها سرعان ما رأت نفسها تعود إلى حالتها المنسية إلى حدّ ما. وقد عرفت أثناء قراءتي لراسبوتين بأن الروس يحبون الأطفال، فأتيح لي أن أشهد ذلك في قبونا. كانت ماريا ترتجف بلا سبب، فلم تستطع فهم لماذا سمح أولئك الأربعة الذين لم تكن لهم علاقة بالسيّدة غريف؛ لماذا سمحوا لها بأن تأخذ كورت في أحضانها، بدلاً من أن يتخذوا، هم أنفسهم، وبالتناوب، مكانهم هناك، وقاموا يداعبون كورت الصغير ويقولون له كلاماً من قبيل «دادادا»، ويقرصون خدّي ماريا بخفّة ورقّة؟ وثمة أحد ما حملني أنا وطبلي من الإسمنت، فحرمني من مراقبة النمل على سبيل المقارنة، لكي أقيس اجتهاده ومثابرته بالحدث الآني. وكان طبلي يتدلى على بطني، فقام شاب ضخم الجثّة واسع المسام بالنقر على الطبل بأصابعه الغليظة نقراً لا يخلو من مهارة بالنسبة لشاب بالغ مثله؛ نقر بعض الإيقاعات التي يمكن للمرء أن يرقص عليها. فودّ أوسكار أن يثأر لنفسه، فيقرع على الصفيح بعض المقطوعات الفنيّة، بيد أنه لم يستطع ذلك؛ إذ أن علامة ماتسرات مازالت توخز باطن يده. فأصبح الجوّ لطيفاً ومؤنساً إلى حدّ ما في قبونا، حيث تمددت أرملة غريف التي كانت تزداد هدوءً على الدوام تحت ثلاثة شبّان، تناوبوا عليها واحداً تلو الآخر.

وبعدما شعر أحدهم بالاكتفاء، قام ذلك الطبّال الموهوب حقّاً بتسليم أوسكار إلى ذلك الشخص الناضح بالعرق، والذي كان في عينه ضيق خفيف، حملني على الاعتقاد بأنه مغولي الأصل. وبينما أمسك بي بيده اليسار فقد زرّر سرواله بيمناه ولم يشعر بالاستياء عندما فعل سلفه، الطبّال، العكس تماما. غير أن ماتسرات لم يحظ بنصيبه من الترفيه؛ إذ بقي واقفاً أمام الرفّ المليء بعلب الخضر المطبوخة البيضاء الصفيح، رافعاً يديه إلى الأعلى، كاشفاً عن الخطوط في راحتيه، لكن لم يكن هناك من يرغب في قراءة كفّه. وعلى الضدّ من ذلك برهنت الفطنة التي تحلت بها النساء على أنها فطنة مدهشة: فقد تعلمت ماريا أوّل المفردات باللغة الروسية، وتوقفت ركبتاها عن الارتجاف، بل أخذت تضحك، وكان بمقدورها أن تعزف على هرمونيكا الفمّ، لو كانت طبلة الفمّ تلك في متناول يدها.

لكنّ أوسكار الذي لم يكن سريع التكيّف، فقد انتقل إلى مراقبة الحيوانات المسطحة البنيّة الضاربة إلى اللون الرمادي، والتي زحفت على حافة ياقة صاحبي ذي الأصل المغولي، باحثاً عن تعويض للنمل. يا ليتني استطعت القبض على قملة منها لأتفحصها؛ إذ أن ذكر القمل قد تكرر في قراءاتي، لاسيما عند راسبوتين، وأقل منه عند غوته. ولأنني كنت عاجزاً عن القبض على القمل بيد واحدة فقد سعيت إلى التخلص من شارة الحزب. ولكي أبرر تصرفي قلت في نفسي: طالما كان المغولي يحمل على صدره أوسمة كثيرة؛ فإنني سأناول الشارة التي كانت توخز يديّ وتعيقني عن القبض على القمل، سأناولها إليكفّ مضمومة، أي إلى ماتسرات الواقف إلى جانبي. ويمكن القول الآن بأنني ما كان عليّ أن أفعل ذلك، لكن المرء يمكن أن يقول أيضاً بأن ماتسرات لم يكن في حاجة لمدّ يده؛ غير أنه مدّها، فتحررت من العلامة. وشيئاً فشيئاً شعر ماتسرات بالرعب بعدما تحسس شارة الحزب في يده. وبما أنني أصبحت طليق اليدين؛ فإنني لم أكن بحاجة لأصبح شاهداً على ما فعله ماتسرات بالعلامة. كان أوسكار مشتت الذهن لدرجة أنه لم يعد قادراً على متابعة

شؤون القمل، فأراد التركيز على النمل، بيد أنه انتبه إلى حركة يدٍ سريعة قام بها ماتسرات؛ ولأنه لم يتذكر ما فكّر فيه آنذاك؛ فإنه يقول اليوم: كان من الحكمة والتعقّل لو أنه بقي قابضاً على ذلك الشيء بيد مضمومة. غير أنه نوى على التخلص منه، فلم يجد له مخبئاً آخر سوى جوفه، على الرغم من خياله المجرّب دوماً بصفته طاهياً ومزيّناً لديكور محلّ بضائع المستعمرات.

وكم يمكن أن تكون حركة اليد القصيرة حاسمة على هذا النحو! فحركة قصيرة من اليد إلى الفم كانت كافية لإدخال الرعب في قلبيّ إيفان وإيفان الآخر اللذين جلسا بهدوء تام على يسار ماريا ويمينها واستنفرتهما من فراش الحماية من القصف الجوّي. فانتصبا أمام بطن ماتسرات مشرعين رشاشتيهما، وبات واضحاً للجميع بأن ماتسرات حاول أن يبتلع شيئاً ما. فلو أنه أغلق على الأقل إبرة الشارة الحزبية بثلاثة أصابع حتى! والآن فإنه غصّ بقطعة الحلوى الضخمة المدببة، فأصيب بالاحتقان واتسعت عيناه وصار يسعل، ثم بكى وضحك، لكنه لم يتمكن من إبقاء يديه مرفوعتين إبّان تلك الحركات العاطفية المتزامنة. إلا أن إيفان وإيفان الآخر لم يسمحا بذلك. فزعقا به، راغبين في رؤية راحتي يديه مبسوطتين. لكن ماتسرات أوقف قواه بالكامل على جهازه التنفسي، فلم يعد قادراً على السعال بشكل صحيح، فأخذ يتراقص مطوّحاً بيديه، فكنس بهما علب الخضر المطبوخة على طريقة لايبزغ المصفوفة على الرفّ، فتسبب في أن يقوم المغولي، الذي كان يتطلع حتى ذلك الوقت بهدوء وبعينين ضيقتي الأجفان على نحو خفيف، بإنزالي من حضنه على مهل، ويمدّ يده خلفه ليلتقط شيئاً ما ويضعه بشكل أفقي، ثم أطلق الرصاص من منطقة الخصر، فأفرغ مخزناً كاملاً، وصار يطلق ويطلق النار قبل أن يموت ماتسرات اختناقاً.

والمرء يفعل كلّ شيء عندما يتخذ القدر مجراه المحتم! فحالما ابتلع أبي المفترض شعار الحزب برمته ومات، فركت بأصابعي قملة دون علم بها أو دون رغبة، وكنت قد قبضت عليها في ياقة المغولي قبل برهة

وجيزة. لقد سقط ماتسرات في طريق النمل على نحو أفقي. ثمّ غادر إيفان والإيفانيون الآخرون القبو طالعين إلى المحلّ عبر السلّم، وتناولوا بضعة علب من العسل الاصطناعي. وكان صاحبي المغولي آخر من خرج، لكنه لم يتلقف أي علبة من علب العسل، لأنه انشغل بتعبئة مخزن جديد في بندقيته الرشاشة. كانت الأرملة غريف معلقة بشكل مكشوف ومقلوب بين صناديق السمن النباتي. وكانت ماريا تضمّ كورت إلى صدرها. فخطرت في ذهني جملة قرأتها عند غوته، ووجد النمل نفسه أمام موقف متغيّر، إلا أنه لم يتهيّب من السير في طريق ملتو، فأقام طريق جيشه حول ماتسرات المنحني الجذع، إذ أن السكّر الذي تسرّب من الكيس المفتوق لم يفقد شيئاً من حلاوته أبّان احتلال مدينة غدانسك من قبل قوّات المارشال روكوسوفسكي.

هل أفعلها أم لا أفعلها

في البدء جاء «الروغيون» ثم أعقبهم القوطيون «فالغيبيديون»، ولحق بهم «الكاشوبيون» الذين انحدر أوسكار من صلبهم مباشرة. بعد ذلك بفترة قصيرة بعث البولنديون بآدالبيرت فون براغ، فجاء حاملاً الصليب، فشجّ الكاشوبيون أو «البروتسيون» رأسه بالفأس. حدث ذلك في قرية صيّادين اسمها غيدانج، ثم تحوّلت غيدانج إلى دانجك ودانجك إلى دانتسغ التي صار المرء يكتبها فيما بعد دانسغ واليوم صار اسم دانسغ غدانسك. وقبل أن ينتهي المرء إلى هذه الطريقة في كتابة الاسم، قدم النبلاء البومريليون إلى غدانسك عقب الكاشوبيين. كانت لهم أسماء مثل: «سوبيسلاوس» و«سامبور» و«مستفين» و«سفانتوبولك». فأصبحت القرية مدينة. وجاء البروتسيون المتوحشون فدمّروا المدينة كلّها تقريبا. ثم لحق بهم «البراندبورغيون» الذين قدموا من مكان بعيد وقاموا أيضاً ببعض أعمال التدمير. وكذلك بولسلاف البولندي الذي أراد أن يمارس قليلاً من التخريب، وأظهر فرسان بعثة التبشير اهتماماً بالغاً لكي تكون الأضرار التي أزيلت واضحة من جديد.

لقد مورست لعبة التدمير وإعادة البناء بضع مئات من الأعوام بالتناوب من قبل نبلاء بومريلين وقادة بعثة الفرسان الألمانية وملوك بولندا والملوك المناوئين لهم ومن قبل أشراف براندنبورغ وأساقفة «فلوكلافيك». كان البناة والمخربون يدعون: «أتو فون فالدهمار» و«بوغوسا» و«هاينرش فون يبلوتسكه» و«ديتيرش فون آلتنبيرغ» الذي شيّد الحصن في «هافيلوسبلاتس»، حيث تمّ الدفاع عن البريد البولندي في القرن العشرين.

ثمّ جاء «الهوسيتيون»، فانشبوا النيران هنا وهناك، بيد أن فرسان البعثة طردوا من المدينة فهُدم الحصن، لأن أحداً في المدينة لم ير ضرورة في الاحتفاظ به. فأصبح الناس بولنديين وسارت أمورهم على نحو لم يكن سيئا. كان الملك الذي حقق ذلك يدعى كاتسميرتس، الملقّب بالعظيم وكان ابن فلاديسلاف الأوّل. ثم جاء لودفيغ وبعد لودفيغ جاءت هدفيغ التي تزوجت من «ياغيللو فون ليتاون»، فبدأ آنذاك عهد الياغيلليون. وخلف فلاديسلاف الثاني فلاديسلاف الثالث، ثم جاء «كاتسميرتس» آخر لم يكن ذا مزاج حربيّ، لكنه مع ذلك بدّد أموال تجّار دانسغ في الحرب ضد فرسان البعثة طوال ثلاثة عشر عاما. وعلى العكس من ذلك انشغل «يوهان ألبرشت» مع الأتراك. وخلّف الإسكندر زيغسموند الكبير الملقّب «بزيغمونت شتاري». ثم أعقب فصل كتاب التاريخ المتعلق زيغسموند أوغست الفصل الذي تحدث عن شتيفان باتوري، ووجد البولنديون متعة في تسمية بواخرهم العابرة للمحيطات باسمه. وقد طوّق المدينة وقام بقصفها زمناً طويلاً - مثلما يمكن قراءة ذلك - لكنه لم يستطع احتلالها. ثمّ جاء السويديون فتصرفوا على النحو ذاته، فوجدوا متعة كبير في ضرب طوق الحصار حول المدينة، لدرجة أنهم كرروه مرّات عديدة. كذلك أغرى خليج غدانسك الهولنديين والدنماركيين والإنجليز في ذلك الوقت، فأتيح للعديد من قباطنة السفن الأجانب المبحرين نحو ميناء دانسغ أن يتحوّلوا إلى أبطال بحريين.

ثم حلّ سلام أوليفا، فكم هو جميل ولطيف وقع هذه العبارة! فأدركت القوى العظمى آنذاك وللمرّة الأوّلى بأن بلد البولنديين يصلح للتقسيم بشكل رائع. و السويديون مرّة أخرى فالسويديون ومن ثم السويديون مرّة ثالثة - والمتراس السويدي والشراب السويدي المسكر فالقفز السويدي. وبعد ذلك جاء الروس فالسكسونيون، لأن الملك البولندي المسكين ستانيسلاف ليججنسكي قد اختبأ في المدينة. وبسبب ملك واحد تمّ تدمير ألفاً وثمانمائة منزل. عندما فرّ ليججنسكي المسكين إلى فرنسا حيث أقام لودفيغ زوج ابنته، أجبر مواطنو غدانسك على دفع

مليون من النقود. وإثر ذلك قُسمت بولندا ثلاث مرّات، فجاء البروسيون بلا دعوة ورسموا فوق صورة النسر الملكي البولندي صورة طيرهم على جميع بوّابات المدينة. ولحق بهم الفرنسيون في الوقت الذي انتهى فيه المدرّس يوحنّا فالك للتو من نظم قصيدة عيد الميلاد «أنت يا عيداً مجيداً...» كان الجنرال الذي بعثه نابليون يدعى راب، فتوجب على أهالي دانسغ أن يسددوا له عشرين مليون فرنك بعد حصار مرير. ليس هناك أي ضرورة للشكّ في أن زمن الفرنسيين كان زمناً مرعباً للغاية. ثم جاء الروس والبروسيون وسلّطوا نيرانهم على جزيرة العنابر فأحرقوها. بذلك انتهت الدولة الحرّة التي اختلقها نابليون. فوجد البروسيون فرصاً عديدة لرسم طيرهم على بوّابات المدينة، فأنجزوا ذلك بهمّة عالية ووضعوا في المدينة على الطريقة البروسية فوج رماة القنابل اليدوية الرابع ولواء المدفعية الأوّل والشعبة الهندسية الأوّلى وفوج خيّالة الحرس الأميري الأوّل. وعسكر في دانسغ بشكل مؤقت فوج المشاة الثلاثون وفوج المشاة الثامن عشر فوج رماة القنابل اليدوية الثالث وفوج المشاة الرابع والأربعين وفوج رماة البنادق رقم ٣٣. أمّا فوج المشاة رقم ١٢٨ الشهير فقد انسحب في عام ١٩٢٠. ولكي لا يُغفل شيء فقد ورد بأن لواء المدفعية الأوّل تمّ توسيعه إبّان الزمن البروسي ليشتمل على شعبة التحصينات الأولى وشعبة القوّة المترجلة العائدة لفوج المدفعية البروسي الشرقي رقم واحد. إضافة إلى فوج مدفعية المشاة البومري رقم ٢ الذي استبدل فيما بعد بفوج مدفعية المشاة البروسي الشرقي رقم ١٦. وخلّف فوج فرسان الحرس الأميري الأوّل فوج فرسان الحرس الأميري الثاني. أمّا فوج الفرسان المسلحين بالرماح فقد عسكر عند أسوار المدينة لفترة قصيرة. وبدلاً من ذلك اتخذت كتيبة التموين والإمدادات البروسية الغربية رقم ١٧ مواضعها خارج أسوار المدينة، أي في ضاحية لانغفور. وفي زمن مندوب عصبة الأمم المتحدة بوركهارد ورئيس برلمان دانسغ راوشننغ وغرايزر الذي خلفه في هذا المنصب لم تكن في الدولة الحرّة سوى الشرطة ذات الملابس الخضراء. بيد أن الأمر تغيّر خلال العام التاسع والثلاثين في ظلّ فورستر، إذ امتلأت

جميع الثكنات المبنية بالآجر بالرجال الفرحين الضاحكين المتلفعين بالقيافات العسكرية والمتمرسين على اللعب بجميع أنواع الأسلحة. والآن بات بإمكان المرء أن يحصى أسماء الوحدات التي تموضعت في غدانسك وما حولها وتلك التي أبحرت إلى جبهة البحر المتجمّد من العام التاسع والثلاثين إلى العام الخامس والأربعين. إلا أن أوسكار سيتجاهل الأمر ويقول ببساطة: بعد ذلك جاء المارشال روكوسوفسكي، كما علمنا، والذي تذكر أسلافه الأمميين العظام حين أبصر المدينة التي لم ينلها الخراب بعد، فقام دفعة واحدة بحرق كلّ شيء بنيرانه، لكي ينهمك أولئك الذين يأتون بعده في إعادة البناء. ومما يعجب له حقّاً هو أن الروس لم يعقبهم تلك المرّة البروسيون أو السويديون أو السكسونيون أو الفرنسيون، بل جاء بعدهم البولنديون.

وجاء البولنديون بصررهم وأمتعتهم من «فيلنا» و«بياليستوك» و«ليبيرغ» يبحثون لهم عن مساكن. وجاء إلينا سيّد قدّم نفسه باسم «فاينغولد». وكان أعزب وحيداً، لكن أوحى بتصرفاته دائماً كما لو أنه محاط بعائلة كثيرة الأفراد، يصدر إليها الأوامر والإرشادات. وعلى الفور استلم السيّد فاينغولد متجر بضائع المستعمرات، فعرض على زوجته فيرا التي لم تزل غير مرئية ولم تحر أي جواب أيضاً، عرض عليها قبّان الأوزان العشرية وخزّان النفط وقضيب تعليق السجق المصنوع من النحاس الأصفر وصندوق النقود الفارغ، وعرض عليها، بفرح غامر، خزين الأطعمة في القبو. أمّا ماريا التي عيّنها فاينغولد بائعة في المتجر على الفور وقدمها لزوجته الوهمية لوبا بإسهاب، فقد عرضت على فاينغولد ماتسرات الملفوف بالمشمّع منذ ثلاثة أيّام والذي لم نتمكن من دفنه بسبب خوفنا من الروس الكثيرين الذين كانوا يجربون الدرّاجات الهوائية وماكينات الخياطة ويجربون النساء. وعندما رأى السيّد فاينغولد الجثّة التي كنّا قلبناها على ظهرها، شبك راحتيه على رأسه بالطريقة المعبرة ذاتها التي كان أوسكار قد راقبها لدي صاحبه بائع لعب الأطفال زيغسموند ماركوس قبل أعوام. فنادى في القبو على عائلته كلّها، وليس فقط على زوجته لوبا، فرآهم

بالتأكيد يأتون جميعهم؛ إذ أنه خاطبهم بالأسماء، فنادى على لوبا وليف وياكوب وبيريك وليون وميندل وتسونيا، موضحاً لمن نادى عليهم شخصية ذلك الملقى ميتاً، ثم شرح لنا بأن جميع من نادى عليهم للتو اضطجعوا موتى على هذا النحو قبل أن تلتهمهم أفران« تربلنكا»، ومعهم أخت زوجته وزوج أختها الأخرى الذي كان له خمسة أطفال؛ ماعداه هو لأنه كان ينثر مسحوق الكلور للتعقيم. وساعدنا فاينغولد على حمل ماتسرات إلى المحلّ، بعد أن اصطحب عائلته معه، وناشد لوبا لعلها تساعد ماريا في تغسيل الجثّة. لكنها لم تقم بالمساعدة، فلم يلحظ السيّد فاينغولد ذلك؛ لأنه كان منشغلاً بنقل خزين المواد الغذائية من القبو إلى المحلّ. كذلك فلتت الأرملة غريف من أيدينا هذه المرّة، والتي كانت قد غسلت جثمان الأمّ تروجنسكي، إذ أن بيتها كان مليئاً بالروس، حتى أننا سمعناها تغنّي من فرط الطرب.

لقد امتنع العجوز هايلاند الذي عثر على عمل مصلّح أحذية منذ الأيّام الأولى للاحتلال وصار يرقّع أحذية الروس العسكرية التي بليت من فرط الزحف والتقدم؛ امتنع في البدء عن نجر التابوت. لكن بعدما أبرم معه السيّد فاينغولد صفقة، يمنحه على ضوئها سجائر دربي من محلّنا مقابل محرّك كهربائي يأخذه من كشك العجوز هايلاند، ألقى بالجزمة العسكرية جانباً وتناول عدّة أخرى وألواح صناديقه الأخيرة. وكنّا نسكن آنذاك في بيت الأمّ تروجنسكي الذي أفرغ محتواه الجيران والبولنديون القادمون، وذلك قبل أن نُطرد منه، لنقيم في قبو السيّد فاينغولد الذي تركه لنا. قام العجوز هايلاند برفع باب المطبخ المؤدي إلى غرفة الجلوس؛ لأن باب غرفة الجلوس المؤدي إلى غرفة النوم قد أستخدم لتابوت الأمّ تروجنسكي. فأخذ يدخن سجائر دربي في باحة البناية، ويسمّر ألواح الصناديق. وبقينا نحن في الأعلى، فاستوليت على الكرسي الوحيد الذي تُرك لنا من أثاث البيت، وصرت أرتطم بالنافذة المحطمة الزجاج، شاعراً بالضيق من العجوز الذي كان يصنع الصندوق بلا عناية وكذلك بدون تضييق ناحية القدمين حسبما تقتضي التعليمات.

لم يستطع أوسكار رؤية ماتسرات، فبعد أن وضع الصندوق على العربة اليدوية العائدة إلى أرملة غريف كان غطاء علب السمن النباتي فيتللو قد سُمر عليه، على الرغم من أن ماتسرات لم يمتنع فقط عن تناول السمن النباتي في حياته، بل إنّه كان يمقت استخدامه لأغراض الطهي. وتوسّلت ماريا بالسيّد فاينغولد لكي يرافقها، لأنها كانت تخشى الجنود الروس المنتشرين في الشوارع. فأبدا فاينغولد الذي جلس مخلفاً ساقيه على بعضهما، ويغرف بالملعقة العسلَ من قدح من الورق المقوّى، تردده، خشية من أن تظنّ به زوجته لوبا الظنون، إلا أنه تلقى من عقيلته موافقة بالذهاب، فتزحزح من طاولة البيع وناولني قدح العسل الاصطناعي الذي ناولته بدوري إلى كورت الذي أجهز عليه تماماً، بينما ترك السيّد فاينغولد ماريا تمنّ عليه بمعطف أسود طويل مبطن بفراء الأرانب. وقبل أن يقفل المحلّ ترجّى من زوجة أن لا تفتحه لأي أحد، وانتصب معتمراً القبعة الأسطوانية الضيقة عليه والتي كان ماتسرات يرتديها سابقاً في مختلف المآتم والأعراس. وكان العجوز هايلاند قد رفض جرّ العربة حتى المقابر البلدية، فهناك أحذية يجب أن يرقع نعلها، كما قال، وعليه أن يختصر المهمة. فانعطف في «بروزنرفيغ» عند ماكس-هالبه-بلاتس الذي مازال الدخان يتصاعد من أنقاضه، فأدركت بأنه مضى في اتجاه سازبه. كان الروس يجلسون أمام المنازل تحت شمس فبراير الخفيفة ويفرزون الساعات اليدوية وساعات الجيب، ويلمعون الملاعق الفضيّة بالرمل، ويضعون على آذانهم مشدّات النهود للتدفئة، ويتمرون على التفنن في ركوب الدراجات الهوائية، فأقاموا موانع من اللوحات الزيتية والساعات القائمة على الأرض وأحواض الاستحمام وأجهزة الراديو وقضبان مشاجب الملابس، وصاروا يسيرون باستخفاف على شكل دائريّ أو حلزونيّ أو لولبيّ، متحاشين أشياءً مثل عربات الأطفال والمصابيح التي تعلق في السقوف والتي رُميت من النوافذ؛ كانوا يتفادون الارتطام بها بألمعية، متلقفين التصفيق والاستحسان على مهارتهم. وحيثما مررنا كان اللعب يتوقف بضع ثوان. ويقوم بعض أصحاب الزيّ العسكري الذين ارتدوا

ملابس داخلية نسائية فوق ملابسهم بمساعدتنا في الدفع. لقد همّوا أيضاً بمدّ أيديهم إلى ماريا، لكن فاينغولد الذي كان يتكلم الروسية ويحمل هوية شخصية نهرهم بشدّة. وأهدى لنا جنديّ اعتمر قبعة نسائية قفصاً فيه ببغاء حيّ من النوع الصغير يقف على عود من الخشب. فسارع كورت الذي كان يحجل إلى جانب العربة إلى الإمساك بالريش ونتفه. فرفعت ماريا، التي لم تجرؤ على إعادة الهدية، القفصَ عن متناول يد كورت وجعلته جانبي فوق العربة اليدوية. لكن أوسكار الذي بدا له الببغاء ملوناً اكثر من اللازم وضع القفص والطير معاً على صندوق السمنة المتضخم، المخصص لماتسرات. كنت أجلس في نهاية العربة تماماً، مدلياً بساقيّ، متطلعاً إلى وجه السيّد فاينغولد المليء بالتجاعيد فولّد انطباعاً بأن معالمه كانت تتراوح بين الاستغراق في التفكير والغمّ، كما لو أنه كان يراجع وراء جبينه حساباً معقداً دون أن يجدّ له حلاً مناسباً. فقرعت قليلاً على الصفيح، مشيعاً جوّاً من المرح، لكي أطرد الأفكار السوداوية من ذهن السيّد فاينغولد . لكنه بقي محتفظاً بتجاعيده، مرسلاً بصرة إلى مكان لا أعرف أين يقع، ربما في ناحية غاليتسين، فلم يلمح طبلي. فتخلى أوسكار عن التطبيل، تاركاً وقع عجلات العربة اليدوية ونحيب ماريا يرتفعان وحدهما.

فأي شتاء معتدل كان هذا الذي شهدناه! كنت فكّرت على هذا النحو بعدما خلّفنا آخر البيوت في ناحية لانغفور ورائنا، ثم انشغلت بعض الشيء بمراقبة الببغاء الصغير الذي أخذ ينفش ريشه احتفاءً بشمس الظهيرة التي أشرقت على المطار. وكان المطار موضوعاً تحت الحراسة وكان الطريق إلى بروزن مقطوعاً، فتحدث أحد الضبّاط إلى السيّد فاينغولد الذي أمسك قبعته بأصابع معقوفة مفلطحة، كاشفاً عن شعره الخفيف الأحمر الشقرة المتمايل بفعل الريح. بعد أن قرع الضابط صندوق ماتسرات برهة قصيرة كما لو أنه كان يتفحصه وداعب الببغاء بإصبعه، سمح لنا بالمرور، بيد أنه وضع غلامين لا يتجاوزان السادسة عشرة على أبعد تقدير، اعتمرا طاقتين عسكريتين صغيرتين وتنكبا بندقيتين آليتين كبيرتين لحراستنا أو لمرافقتنا.

كان العجوز هايلاند يسحب النعش دون أن يلتفت إلى الوراء مرّة واحدة، عارفاً كيف يشعل السيجارة بيد واحدة دون أن يوقف العربة، وثمّة طائرات معلقة في الهواء، بحيث أن هديرها كان يُسمع بوضوح؛ لأننا كنّا في نهاية فبراير ومطلع مارس. ولم تكن هناك سوى بضع سحب صغيرة لاذت بالشمس فاصطبغت بالألوان شيئاً فشيئا. وكانت قاذفات القنابل تحلّق في اتجاه هيلا أو تعود من شبه جزيرة هيلا، إذ أن هناك فلولاً من الجيش الثاني مازالت تواصل القتال.

وجعلني الطقس وطنين الطائرات أشعر بالحزن. فليس هناك شيء أشدّ ضجراً وجلباً للضيق أكثر من سماء مارس الخالية من الغيوم، المليئة بالطائرات الهادرة بصخب تارةً وبهدوء طورا. إضافة إلى أن الفتيين الروسيين كانا يبذلان قصارى جهدهما بغية توحيد خطواتهما، لكن بلا جدوى. فربما تفككت أثناء السير بعض ألواح الصندوق المسمّر على عجل، بفعل حجارة الطريق ومطبّات الإسفلت فيما بعد، وكذلك بفعل سيرنا في مواجهة الريح، إذ انبعثت، على كلّ حال، رائحة الميّت ماتسرات، فشعر أوسكار بالارتياح بعدما وصلنا إلى مقبرة سازبه. ولم نستطع الارتفاع بالعربة إلى مستوى المدخل ذي القضبان الحديدية؛ إذ أن دبّابة محطمة من طراز ت ٣٤ قطعت الطريق قبل المقبرة بمسافة قصيرة. وثمة دبّابات أخرى توجب عليها اتخاذ طريق ملتو أثناء التقدم في اتجاه نويفاسرفيغ، فخلّفت آثارها في الرمل على يسار الطريق وهدمت جزءاً من سور المقبرة. ترجّى السيّد فاينغولد من العجوز هايلاند أن يسير في الخلف. فحملا النعش الذي تقوّس قليلاً من المنتصف، متعقبين آثار الدبّابات، ثم زحزحاه بمشقة بالغة عبر حجارة سور المقبرة، دافعين به بكل ما بقي لديهما من قوّة بين الشواهد المقلوبة الآيلة إلى السقوط. وأخذ العجوز هايلاند يمصّ بسيجارته كما يمصّ المدمن، ثم بدأ ينفخ الدخان على المكفّن بالتابوت. وحملت أنا قفص طائر الحبّ المنتصب على القضيب. وكانت ماريا تجرّ وراءها مجرفتين. وحمل كورت معولاً، أي أنه كان يطوح ذات اليمين وذات الشمال، فأصاب حجر الصوان الرمادي

في المقبرة، معرضاً نفسه ذلك إلى الخطر، حتى انتزعت ماريا المعول من يده، لتعاون الرجلين في الحفر كعادتها. ولحسن الحظّ إن الأرض هنا كانت رملية رخوة، لم تتجمد، حسبما تيقنت، فأخذت أبحث عن موضع يان برونسكي في الناحية الشمالية من الجدار. لابد أن يكون هنا أو هناك، إذ أن من الصعب تعيين المكان بدقّة، قد وأحالت تقلبّات الفصول بقعةَ الجصّ السابقة المفضية بالسرّ والتي طُليت حديثاً آنذاك، أحالتها إلى مجرد لون رمادي كالح شأنها شأن سوّر المقبرة برمته.

وعثرت على طرق العودة عبر البوّابة الخلفية المسلحة بالقضبان، وأرسلت بصري إلى أشجار الصنوبر المشوّهة العجفاء، وفكّرت في أنهم سيدفنون ماتسرات أيضاً؛ فكرّت في ذلك، لكي لا أضطر إلى التفكير في أمور لا قيمة لها. وحين تعمقت في البحث وجدت معنى ما جزئياً للظرف الذي جمع بين لاعبي الورق الحميمين برونسكي وماتسرات على الأرض الرملية ذاتها، حتى لو لم تضطجع أمّي المسكينة بينهما.

إنّ الجنائز دائماً ما تذكّر بالجنائز الأخرى!

فكان لابد من التغلب على الأرض الرملية، وذلك أمر يتطلّب حفّاريّ قبور متمرسين. فتوقفت ماريا لتستريح، مستعينة بالمعول فأخذت تتنفس بصعوبة، ثمّ أجهشت في البكاء من جديد حين رأت كورت يرمي الببغاء وهو داخل القفص بحجر من مسافة بعيدة. لكنه لم يصبه، فكان حجارته تذهب بعيداً، لكن ماريا كانت تنتحب بحرارة وصدق؛ إذ أنها رأت في ماتسرات شيئاً ما، لم يتمتع به فعلاً حسب رأيي، وعلى الرغم من ذلك فإنها بقيت متمسكة بكلّ وضوح بذلك الشيء العزيز عليها. فاستغل السيّد فاينغولد المواساة فرصة للقيام باستراحة، لأنّ الحفر أضناه. وبدا العجوز هايلاند وكأنه ينقّب عن الذهب حين حفر بالمجرفة بانتظام، ملقياً بالترب خلفه، ونافثاً دخان السجائر على دفعات محسوبة. بينما جلس الشابان الروسيان على مسافة فوق سور المقبرة، يثرثران بعكس اتجاه الريح، فضلاً عن الطائرات المحلّقة والشمس التي كانت تزداد نضوجا.

لعلّهم حفروا متراً حين وقف أوسكار مكتوف اليدين حائراً بين حجر

الصوان القديم؛ أي بين أرملة ماتسرات وكورت الذي كان يرمي الببغاء الصغير بالحجر. فهل أفعلها أم لا؟ إنك قد بلغت الواحد والعشرين من السنّ يا أوسكار، فهل ستفعلها أم لا تفعلها؟ إنك لست أكثر من يتيم، وما عليك إلا أن تفعلها أخيراً. فقد أصبحت نصف يتيم منذ رحيل أمّك المسكينة. وعليك أن تحسم أمرك منذ ذلك الوقت. ثم مهدوا أباك المفترض يان برونسكي تحت قشرة الأرض، فأصبحت يتيماً كامل اليتم حين وقفت هنا على هذا الرمل الذي يدعى سازبه، ممسكاً بخرطوشة فارغة متأكسدة بعض الشيء. وقد هطل المطر يومها وكانت ثمة طائرة يو ٥٢ تتأهب للهبوط. ألم يصبح هذا التساؤل «هل أفعلها، أم لا» واضحاً آنذاك في ظلّ هطول المطر، وإن لم يكن، فعلى الأقلّ في ظل هدير طائرة الشحن الهابطة؟ كنت قلت في نفسك إنه مطر وتلك أصوات محرّك؛ فهكذا رتابة يمكن أن ينسبها المرء إلى أي نصّ. لقد أردت أن تظفر بها بوضوح ساطع، وليس على نحو مفترض فحسب. فهل أفعلها، أم لا؟و ها هم قد حفروا نقرةً لماتسرات، أبيك الثاني المفترض. فلم يبق هناك، حسب علمك، آباء مفترضون. فلم أنك مازلت تلعب بزجاجتين خضراوين لعب البهلوان: فهل أفعلها أم لا؟ فمن ذا الذي تريد أن تسأله؟ أتسال الصنوبرات العجفاء التي هي نفسها موضع الشكّ والتساؤل؟ وحينئذ عثرت على صليب حديديّ هزيل، منمّق بنعومة، خطّ عليه بحروف بارزة اسم: «ماتيلده كونكل»، أو «رونكل». فوجد لحظتها - هل أفعلها، أم لا - وهل أفعلها في الرمل بين الحسك وهرطمان الساحل - ثلاثة أو أربعة - أم لا أفعلها - أكاليل معدنية صدئة متهاوية بحجم الماعون التي كانت - فهل أفعلها - تمثّل فيما سلف أوراق شجر البلّوط ربما، أو أوراق الغار - فهل عليّ أن لا أفعلها - فوزنتها في يدي - أم عليّ أن أفعلها - فسددت صوت الهدف - أ أفعلها - فنهاية الصليب الرائعة - أم لا - وقد بلغ قطرها - فهل أفعلها - أربعة سنتمترات ربما - أفعلها - فأمرت نفسي باتخاذ مسافة مترين - نعم هل أفعلها - هل أفعلها - فرميته - كلا - إلى الجانب - أ أفعلها مرّة أخرى - كان الصليب الحديديّ ينتصب باعوجاج - فهل أفعلها - أهي

ماتيلده كونكل، أم كان اسمها رونكل - فعل أفعل كونكل - أم أفعل رونكل - كانت تلك الرمية السادسة، وكنت سمحت لنفسي بسبع رميات، فلم أفعلها ستّ مرّات فرميت سبعاً - فهل أفعلها، ثم علقته عليه - أعليّ أن أفعلها - يا ماتيلده المكللة بالغار - أ أفعلها - غار للآنسة كونكل - فهل أفعلها؟ سألت الشابة رونكل المتوفاة مبكراً جدّاً، في سنّ السابعة والعشرين، التي ولدت في العام الثامن والستين. لكنني كنت بلغت سنّ الواحد والعشرين عندما نجحت في محاولة الرمي السابعة، مختصراً مقولة «هل أفعلها، أم لا» إلى مجرد كلمة «أفعلها!» البسيطة المتوجة بالغار، تلك الكلمة المبرهن عليها، المكتسبة والمستهدفة.

وحالما تقدم أوسكار من حافريّ القبور وعلى لسانه قرار «أفعلها» الجديد وفي قلبه أيضاً، أخرج طائر الحبّ صوتاً كالنعيب، لأنّ كورت أصابه فنفض ريشه الأزرق الضارب إلى الصفرة. فسألت نفسي: أي تساؤل ذاك الذي دفع بولدي كورت إلى رمي ببغاء صغير بحجارة طوال الوقت إلى أن ردّت عليه الإصابة الأخيرة؟!

وقاموا بزحزحة التابوت إلى جانب الحفر التي بلغ عمقها متراً وعشرين سنتمترا. كان العجوز هايلاند على عجلة من أمره، بيد أنه اضطر إلى الانتظار؛ لأن ماريا أدّت صلاتها على الطريقة الكاثوليكية ولأن السيّد فاينغولد أمسك بقبعته الأسطوانية قرب صدره، سارحاً ببصره إلى ولاية غاليتسين. كذلك ازداد كورت اقترابا. لعلّه اتخذ قراراً بعد تمكنه من الإصابة، فاقترب من القبر لهذه الأسباب أو تلك، تماماً مثلما فعل أوسكار. لقد عذبني هذا التردد، لكنه ولدي الذي قرر أن يكون مع ذلك الشيء أو ضده. فهل قرر في نهاية المطاف أن يعترف بي أباً له، وحيداً وحقيقياً، فيحبني؟ أم أنه عزم الآن على الاحتفاظ بطبل الصفيح طالما أصبح الوقت متأخرا؟ أم أن قراره كان عبارة عن شعار: الموت لأبي المفترض، أوسكار، الذي قتل أبي المفترض ماتسرات بشارة الحزب؛ لأنه ضاق ذرعاً بالآباء؟ فهل أنه لا يستطيع التعبير عن مشاعره الطفولية المنشود تحققها بين الآباء والأبناء إلا بالقتل المتعمد؟

وحالما أنزل العجوز هايلاند الصندوق الذي ضمّ ماتسرات وشارة الحزب النابتة في قصبته الهوائية ومعها ذخيرة رشاشة روسيّة رقدت في بطن ماتسرات، بل إنّه أسقطه في القبر أكثر مما أنزله، أعترف أوسكار في سرّه بأنه قتل ماتسرات عمداً مع سبق الإصرار، لأن ماتسرات لم يكن، في كلّ الاحتمالات، أباه المفترض فحسب، إنما أبوه الحقيقي بالذات؛ ولأنه أيضاً شبع من أن يجرجر معه أباً طوال حياته أينما حل. وكذلك لم يكن صحيحاً القول بأن دبّوس شارة الحزب كان مفتوحاً عندما تلقفت الشارة من أرضية الإسمنت، بل أنه انفتح أوّل الأمر في قبضتي المضمومة. فناولت تلك الحلوى اللزجة إلى ماتسرات مفرودةً واخزةً، لكي يعثروا على الوسام معه، ولكي يضع الحزب نفسه على لسانه ليختنق به - لكي يختنق بالحزب وبي، أي بولده؛ إذ لابد أن يصل الأمر إلى نهاية ما!

وطفق العجوز هايلاند يهيل التراب على التابوت، فأخذ كورت يعاونه بهمّة عالية وبلا مهارة. إنني لم أكن أحببت ماتسرات قط، لكنني كنت أودّه أحيانا. فكان يعتني بي باعتباره طاهياً أكثر منه أبا. لقد كان طاهياً ممتازاً، وإذا ما افتقدت اليوم ماتسرات فإنني أفتقد فيه الكفتة الكونغسبيرغية التي كان يحضرها على طريقته وافتقد كلية الخنزير المنقوعة بالخلّ وسمكك الشبُّوط مع الفجل والقشدة، إضافة وجبات الطعام على غرار حساء الحنكليس مع الخضر وأضلاع الخنزير بالكرنب المخلل ومشوياته التي لا تُنسى أيّام الآحاد التي مازال طعمها على لساني، بل بين أسناني. لقد نسوا أن يضعوا ملعقةً طهي على نعش الرجل الذي كان يحوّل الأحاسيس إلى حساء. ونسوا أن يضعوا على تابوته شدّة من ورق اللعب، على الرغم من انه كان يجيد الطهي أكثر من لعب الورق. ومع ذلك فقد كان يلعب أفضل من يان برونسكي، وإلى حدّ ما بمستوى لعب أمّي المسكينة . فكانت تلك هي قدرته ومأساته معاً. إنني لا أستطيع أن أغفر له ماريا، على الرغم من أن معاملته لها كانت معاملة جيدة، بحيث أنه لم يضربها قطّ، بل كثيراً ما كان يتنازل لها إذا ما بدأت باختلاق شجار. إضافة إلى أنه لم يسلمني إلى وزارة الصحّة الألمانية، ولم يوقّع رسالة الدعوة إلا بعد أن توقف البريد

عن توزيع الرسائل. وكان قد عهد لي بإدارة المحلّ لحظة ولادتي تحت المصابيح الكهربائية. ولكي لا يقف أوسكار وراء طاولة البيع في المحلّ؛ فإنه وقف طوال سبعة عشر عاماً خلف طبول من صفيح بيضاء حمراء. والآن رقد ماتسرات فلم يعد قادراً على النهوض أبدا. كان العجوز هايلاند يطمره بالتراب ويدخّن في الوقت ذاته سجائر «دربي» التي كانت تخصّ ماتسرات. فكان على أوسكار أن يستلم المحلّ في تلك الحالة. بيد أن السيّد فاينغولد صاحب العائلة الكثيرة الأفراد، غير المرئية، قد سبقه في استلام المحل. وألقيت البقية على عاتقي: ماريا وكورت والمسؤولية إزاءهما.

كانت ماريا لم تزل تبكي وتصلّي بصدق على الطريقة الكاثوليكية، بينما مكث فاينغولد في غاليتسين، أو صار يحلّ مسائل حسابية مستعصية. وشعر كورت بالتعب، لكنه واصل الدفن بشكل لا يعرف الكلل. وعلى سور المقبرة جلس الشابان الروسيّان المثرثران. كان العجوز يهيل رمل مقبرة سازبه على ألواح صناديق السمن النباتي، وقد فعل ذلك بانتظام وتذمّر. فتمكن أوسكار من قراءة ثلاثة حروف من كلمة فيتللو، ثم انتزع الصفيح من رقبته، ولم أقل «هل أعملها، أم لا؟»، بل «لابد أن أفعلها!»، ثم رميت الطبل هناك، حيث غطّى الرمل النعش بما فيه الكفاية، لكي لا يحدث جلبة. ورميت بالمضربين أيضاً، فبقيا مغروزين في الرمل. كان هذا هو طبلي الذي يعود إلى زمن النافضين، المنحدر من أيّام مسرح الجبهة، والذي أهداه لي بيبرا. فما الذي سيقوله أستاذي على هذا التصرف؟ لقد نقر عليه يسوع وروسيّ مربوع القامة كالصندوق وواسع المسام. وما عدا ذلك فإن الطبل لم يشهد الكثير من الأحداث. لكن عندما مسّت رشقة رمل سطحه رنّ. وفي الرشقة الثانية خفت رنينه، وفي الثالثة صمت، ولم يظهر سوى شيء من طلائه الأبيض، حتى صار الرمل يفعل ما فعله مع الرمل الآخر، مع الكثير من الرمل، فتراكم الرمل على طبلي، وارتفع، ثم نمى - فبدأت أنمو أنا أيضاً وقد تكشّف ذلك عبر الرعاف الشديد. فكان كورت أوّل من لاحظ الدم فصرخ: «أنه ينزف،

ينزف!» فاستعاد بصراخه السّيد فاينغولد من غيبته في ولاية غاليتسين، وصرف ماريا عن صلاتها، بل أجبر الشابين الروسيين الصغيرين اللذين كانا يجلسان على سور المقبرة ويثرثران في اتجاه بروزن إلى إلقاء نظرة قصيرة مشوبة بالرعب.

وركز العجوز هايلاند المجرفة في الرمل، وتناول المعول، ثم وضع الحديد الأزرق السواد على قفاي. فتركت البرودة أثرها على عجل، فخفّت حدّة النزيف. وعاد العجوز إلى المجرفة ثانية، وحين قلّ الرمل المكوّم إلى جانب القبر، انحسر النزيف تماماً، بيد أن النمو ازداد، مفصحاً عن نفسه من خلال الصرير والطقطقة الداخلية. وحين انتهى العجوز هايلاند من القبر سحب من قبر آخر صليب خشب هشّاً، خالياً من الكتابة، وغرزه في الربوة الجديدة بين رأس ماتسرات وطبلي المدفون تقريباً، ثم قال «انتهينا!» وحمل على ذراعه أوسكار الذي لم يعد قادراً على المشي، وسحب الآخرين معه من المقبرة، إضافة إلى الروسيين الشابين المسلحين بالغدّارتين الآليتين، عبر الجدار المهدّم، مقتفياً آثار الدبّابات، ليصل إلى العربة البدوية فوق سكّة الترام، حيث انتصبت الدبّابة على نحو عرضي. فأخذت أتطلع ببصري إلى مقبرة سازبه من وراء كتفي. كانت ماريا تحمل قفص الببغاء وحمل السيّد فاينغولد العدّة، بينما خلا كورت من أي حمل، وحمل الروسيان طاقيتين صغيرتين وبندقيتين كبيرتين جدّاً، انحنت صنوبرات الشاطئ العجفاء.

فسرنا من الرمل إلى شارع الإسفلت، حيث جلس شوغر ليو على هيكل الدبّابة المحطمة. في السماء ثمة طائرة قادمة من هيلا، محلّقة في اتجاه هيلا. كان شوغر ليو يبدي حذره لكي لا يلامس قفّازه سخام دبّابة ت ٣٤ المحترقة. كانت الشمس تشرق بسحبها المترعة بالمياه على جبل تورم عند تسوبوت. وانزلق شوغر ليو من الدبّابة وانتصب باستقامة. فشعر العجوز هايلاند بالارتياح لرؤية شوغر ليو: «نعم ، هل رأى أحد هذا الشيء من قبل! لقد قامت القيامة، لكنهم لا يستطيعون قهر شوغر ليو.» ثم ربت بيده الطليقة على سترة ليو السوداء، وقال موضحاً الأمر للسيّد

فاينغولد: «هذا هو صاحبنا شوغر ليو. إنه يريد أن يقدم لنا تعازيه ويشدّ على أيدينا.» فتحقق ما قاله العجوز هايلاند. صار ليو يرفرف بقفّازه، مقدماً للحاضرين تعازيه بفم سال من اللعاب، ثم سأل: «هل رأيتم الرب؟ هل رأيتم الرب؟» بيد أن أحداً لم يكن رأى الرب، فأهدت له ماريا القفص مع الببغاء، لا أعرف لأي سبب.

وحين أقبل شوغر ليو نحو أوسكار الذي وضعه العجوز هايلاند في العربة، تغيرت معالم وجهه، ونفخت الريح ملابسه، وغمرته نوبة رقص، فأخذ يطوّح بالقفص ويصيح: «الربّ الربّ، انظروا الآن إلى الربّ، انظروا إليه كيف أنه أخذ ينمو، انظروا الآن، كيف ينمو!» ودفعة واحدة حلّق في الهواء مع القفص، ثم سار، وطار، وصار يرقص، مترنحاً، ساقطاً، محلّقاً مع الطير الزاعق، متحولاً إلى طير قادر على مغادرة عشّه أخيراً، محلقاً طولاً وعرضاً في اتجاه أحواض تكرير المياه. ثمّ سمعناه يصرخ بين أصوات البندقيتين الآليتين: «أنه ينمو؛ أنه ينمو!» وواصل صراخه حتى بعد أن اضطر الشابان الروسيّان إلى حشو بندقيتيهما مرّة ثانية: «إنه ينمو!» وحتى بعد أن ارتفعت أصوات البندقيتين من جديد بعدما وقع أوسكار في حالة إغماء متفاقمة على الدوام، مستوعبة كلّ شيء، ساقطاً من سلّم خال من الدرجات، كنت أسمع الطير والصوت والغراب - ليو يعلنون: «أنه ينمو، أنه ينمو، ينمو...»

مطهّرات

زارتني أحلام نزقة في الليلة الماضية، أحلام تشبه ما كان يحدث أيّام الزيارات حين يأتي الأصدقاء. فكانت الأحلام تناول الباب لبعضها البعض، ثم تنصرف بعدما تكون قصّت عليّ ما تجده الأحلام جديراً بالقصّ: حكايات متهافتة مليئة بالتكرار، حوارات داخلية، لا يمكن تجاهلها للأسف، ؛ لأنها تُعرض بإلحاح شديد عبر إيماءات ممثلين سيئين. عندما حاولت أن أروي القصص على برونو أثناء الإفطار، عجزت عن التخلّص منها؛ إذ أنني نسيت كلّ شيء؛ فأوسكار لا يتمتع بأي موهبة للحلم. وحالما رفع برونو الإفطار سألته بشكل عابر: «يا برونو العزيز؛ كم بلغ طول قامتي حقيقةً؟» فوضع برونو طبق المربّى الصغير على صحن فنجان القهوة وقال بحزن: «لكنك يا سيّد ماتسرات امتنعت مرّة أخرى عن تناول المربى.»

بلى، إنني أعرف هذا العتاب الذي تتصاعد حدته دائماً بعد الإفطار. لكن برونو كان يجلب لي كلّ صباح تلك الحفنة الصغيرة من مربى الفريز، لكي أغطيها أنا بورقة؛ أي بجريدة كنت أثنيها على هيئة سقف، ثم أطبقها على المربى في الحال. إنني لا أطيق رؤية المربى ولا أستسيغ طعمه، لذلك نفيت تهمة برونو بهدوء وحزم: «إنك تعلم يا برونو كيف أفكّر أنا في المربى - فمن الأفضل أن تقول لي كم هو طول قامتي.»

وكانت عينا برونو تشبهان عينيّ حيوان منقرض، ثمانيّ القوائم. كان يرسل بصره ما قبل التاريخي إلى سقف الغرفة كلّما اضطر إلى التفكّر، وكان يتكلّم غالباً في الاتجاه ذاته، فخاطب صباح اليوم أيضاً سقف

الغرفة: «لكنه مربّى الفريز لا أكثر و لا أقل!» ثم تلقيت إجابة بأن قامتي بلغت متراً وواحداً وعشرين سنتمتراً، بعد فترة توقف طويلة - لأنني كنت أتمسك بسؤالي عبر الصمت بمقدار حجمي الجسدي - أي بعدما استعاد برونو بصره من السقف وثبّته في قضبان سريري. «ألا ترغب يا عزيزي برونو بأن تتخذ القياسات من جديد التزاماً بالنظام؟»

ودون أن يحرف بصره أخرج برونو مسطرة القياس القابلة للثني من جيب مؤخرته، فقذف بالغطاء إلى الخلف بعنف وحشيّ إلى حدّ ما، وردّ ثوب نومي على عورتي المكشوفة، ثم فتح أداة القياس الفاقعة الصفرة المثلومة عند المتر والثمانية والسبعين سنتمتراً، ثم أسندها على جسمي، وأخذ يدفع بها ويراقبها ويسويها بيديه بدقة، بيد أن بصرة ظلّ عالقاً بالأزمان الديناصورية، فتظاهر كما لو أنه قرأ النتيجة، ثم ترك المسطرة ترتخي على جسدي: «مازال قياسك متراً وواحداً وعشرين سنتمتراً!»

لماذا تراه يصنع جلبة كلّما طوى مسطرة القياس أو كلّما رفع صينية الإفطار؟ ألم يعجبه قياسي؟

وعندما غادر برونو الغرفة حاملاً صينية الإفطار التي وضع فيها المسطرة الصفراء صفار محّ البيض إلى جانب المرّبى ذي اللون الطبيعي الفاقع، ألصق عينه مرّة أخرى بالثقب السحري للباب وهو يقف في الممر - كان بصره يجعلني هرماً، شديد القدم، قبل أن يتركني بمفردي مع متري الواحد وسنتمتراتي الواحدة والعشرين.

إذاً هكذا هو طول أوسكار! غير أن هذه القامة تعتبر طويلة بالنسبة لقزم أو بالنسبة لرجل ليليبوتانيّ قصير. كم كان طول صاحبتي روزفيتا من القدمين حتى هامة الرأس؟ وبأي قامة احتفظ أستاذي بيبرا المنحدر من صلب الأمير أويغن؟ فبإمكاني اليوم أن أنظر حتى إلى كيتي أو فيلكس من الأعلى. بينما كان أولئك الذين أحصيتهم ينظرون زماناً بلطف يشوبه الحسد إلى أوسكار الذي بلغت قامته أربعة وتسعين سنتمتراً وهو في الواحدة والعشرين.

ولكنني بدأت بالنمو أوّل الأمر بعدما أصابني حجر في قحفة رأسي

أثناء دفن ماتسرات في مقبرة سازبه: لقد قال أوسكار حجرا. لذلك فإنني عزمت على تكملة التقرير الذي يتناول الأحداث التي وقعت في المقبرة. فعقب ما اهتديت خلال ممارستي للعبة إلى أنه لم يعد أمامي خيار فيما يتعلق بالسؤال «هل أفعلها، أم لا؟»، إنما فقط «عليّ أن أفعلها ويجب أن أفعلها وأريد أن أفعلها!» انتزعت الطبل عن بدني ورميته مع المضربين في قبر ماتسرات، عازماً على النمو، صرت أعاني لحظتها من طنين في أذنيّ أخذ يزداد حدّة على الدوام، ثم أصابتني حصاة في حجم ثمرة الجوز الصغيرة؛ أصابتني في قحفة رأسي، قذفها ولدي كورت بقدرته ذات الأعوام الأربعة والنصف. وعلى الرغم من أن تلك الإصابة لم تفاجئني - شعرت بأن ابني نوى على فعل شيء ما معي - إلا أنني سقطت مباشرة فوق موضع الطبل في حفرة ماتسرات. فانتشلني العجوز هايلاند بيده الهرمة الجافة، تاركاً الطبل والمضربين مطمورة في الرمل، وبعدما أصبح النزيف واضحاً طرحني على قفاي فوق حديد المعول. فخفّ النزيف على عجل مثلما علمنا من قبل، أمّا النمو فقد أحرز تقدماً، لكنه كان تقدماً ضئيلاً للغاية لم يلحظه سوى شوغر ليو فصرخ بصوت عال، معلناً عنه وهو يرفرف خفيفاً كالطير. وإلى هذا الحدّ انتهت التكملة الفائضة عن الحاجة في حقيقة الأمر، إذ أن النمو بدأ قبل رمي الحصاة وقبل السقوط في قبر ماتسرات. أمّا بالنسبة لماريا وللسيّد فاينغولد فإنهما لم يجدا منذ البداية إلا تفسيراً واحداً لنموي الذي سمياه مرضاً: الحصاة في قحفة الرأس والسقوط في الحفرة. ثم أوسعت ماريا كورت ضرباً في المقبرة نفسها، فشعرت بالحزن على كورت؛ إذ أن من الممكن تماماً بأنه خصّني بالحصاة لكي يساعدني على الإسراع في النمو. لعلّه أراد أن يحظى أخيراً بأب حقيقيّ؛ أبٍ بالغ، أو على الأقل كتعويض عن ماتسرات؛ إذ أنه لم يتعرف عليّ أبداً بصفتي أباً له ولم يظهر لي أدنى احترام.

وخلال فترة النمو التي استغرقت نصف عام كان ثمّة عدد كاف من الأطبّاء والطبيبات الذين أكدوا ذنب الحصاة المقذوفة والسقوط المنحوس فقالوا ودوّنوا في تاريخ مرضي: إن أوسكار ماتسرات هو أوسكار المعوّق

النمو؛ لأن حجارة أصابته في مؤخرة رأسه - وهلّم جرّا. وعلى المرء أن يتذكر هنا عيد ميلادي الثالث: فما الذي يعلمه البالغون عن بداية قصتي الحقيقية: لقد سقط أوسكار ماتسرات من سلّم القبو على أرضية الإسمنت وهو في الثالثة من عمره، فتوقف نموه إثر تلك السقطة، وهلّم جرّا.

لعلّ المرء سيعثر في هذه التفسيرات على محاولة الإنسان الفطرية لتقديم الأدلّة والبراهين لكلّ معجزة. ولابد أن يعترف أوسكار بأنه، هو نفسه، يقوم بفحص كلّ معجزة فحصاً دقيقاً قبل أن ينحيها إلى الجانب باعتبارها تخيّلات غير جديرة بالتصديق. وبعد قدومنا من مقبرة سازبه وجدنا مستأجرين جدداً في بيت الأمّ تروجنسكي. كانت هناك عائلة بولندية مكونة من ثمانية أفراد سكنت المطبخ والغرفتين. فبدا أفراد العائلة هؤلاء لطيفين، وأرادوا إيواءنا حتى نعثر على مكان آخر، بيد أن السيّد فاينغولد اعترض على ذلك السكن الجماعي، فتخلّى لنا عن غرفة النوم من جديد، على أن يكتفي بغرفة السكن. لكن ماريا لم ترغب في ذلك؛ إذ رأت أن من غير اللائق الإقامة مع رجل أعزب وهي حديثة الترمّل. أخيراً وجد السيّد فاينغولد الذي لم يدرك أحياناً بأن ليس هناك زوجة اسمها لوبا ولا عائلة أحاطت به، فاينغولد الذي كان يتحسس عقيلته الحازمة خلف ظهره دائماً؛ وجد الفرصة المناسبة لكي يتفهّم ظروف ماريا ودوافعها. وعملاً بأصول اللياقة وبسبب السيّدة لوبا؛ فإن تلك الفكرة لم تتحقق، لذا أراد أن يخلي لنا القبو. وقام أيضاً بمساعدتنا في ترتيب السرداب، غير أنه لم يسمح لي بالإقامة في القبو؛ لأنني كنت مريضاً، مريضاً بشكل يدعو إلى الشفقة، فنصبوا لي فراشاً مؤقتاً في غرفة الجلوس إلى جانب بيانو أمّي المسكينة.

كان من الصعب العثور على طبيب آنذاك، إذ أن معظم الأطبّاء غادروا المدينة في الوقت المناسب مع نقل القوّات؛ لأن مؤسسة التأمين الصحّي البروسية الغربية قد انتقلت في شهر يناير إلى الغرب، وبناءً على ذلك اتخذ مصطلح مراجع العيادة الطبيّة بعداً غير واقعي في نظر الكثير من الأطبّاء. بعد بحث مضن حصل السيّد فاينغولد على طبيبة من «أيلبنغ» في

مدرسة «هيلينه-لانغه» حيث كان جرحى القوّات الألمانية وجرحى الجيش الأحمر يرقدون إلى جانب بعضهم، وكانت الطبيبة تقوم هناك ببتر الأطراف. فوعدت فاينغولد بالمجيء، فجاءت فعلاً بعد أربعة أيّام، وجلست عند فراشي، ودخّنت ثلاث أو أربع سجائر متلاحقة وهي تفحصني، ثم غفت عند السيجارة الرابعة.

ولم يجرؤ السيّد فاينغولد على إيقاظها، فلكزتها ماريا بتردد. لكنها لم تفز من غفوتها إلا بعد أن لسعت السيجارة المحترقة سبابتها اليسرى. فاستيقظت على الفور، وسحقت على العقب فوق البساط، ثم قال باختصار وانفعال: «يجب أن تعذروني، إذ أنني لم أغمض جفنيّ خلال الأسابيع الثلاثة الأخيرة. كنت في كيزهماركت في العبّارة التي نقلت الأطفال البروسيين الشرقيين. لكننا لم نصل إلى الناحية الأخرى. وفقط القوّات وصلت. وكان عددهم حوالي أربعة آلاف طفل. كلّهم انتهوا.» ثم طبطبت على خديّ الناميّ الصغير مثل خدّ الطفل؛ طبطبت باقتضاب مثلما تحدثت عن الأطفال الصغار الذين انتهوا، ثم وضعت سيجارة جديدة في فمها، وشمرّت عن ساعدها اليسرى وتناولت حقنة من حقيبتها لتقول لماريّا وهي تحقن نفسها بمادة منشطة: «إنني لا أستطيع أبداً القول ما الذي حدث للصبي. فيجب أن ينقل إلى المستشفى. لكن ليس هنا. يجب أن تدبري أمرك وتغادرين، في اتجاه الغرب. مفاصل الركبتين واليدين الكتفين كلّها متورمة. بالتأكيد أن الأمر بدأ من الرأس. اعملي كمّامات باردة. وسأترك لكم بعض الأقراص هنا في حالة شعوره بالألم وعدم قدرته على النوم.»

لقد حظيت بإعجابي تلك الطبيبة المقتضبة التي لم تعرف ما الذي حلّ بي، فاعترفت بعجزها أيضا. فأعدّ لي السيّد فاينغولد وماريا الكمّامات الباردة خلال الأسابيع التي أعقبت ذلك فكان مفعولها حسنا، إلا أنها مع ذلك لم تمنع مفاصل الركبتين واليدين والكتفين والرأس من الانتفاخ والوجع. لاسيما رأسي الذي أخذ يزداد عرضاً حتى أن ماريا والسيّد فاينغولد انتابهما الهلع. فناولتني ماريا تلك الأقراص التي سرعان ما

نفدت. وبدأ فاينغولد يرسم منحنيات الحرارة ومنعطفاتها مستعيناً بقلم الرصاص والمسطرة، إلا أنه انغمر في التجريب، وصار يسجّل في تركيبات اخترعها بجرأة؛ يسجّل أرقام حمّاي التي كان يقيسها خمس مرّات يوميّاً بمقياس الحرارة الذي قايضه في السواق السوداء بعسل اصطناعي، بحيث أن جداول السيّد فاينغولد بدت مثل جبال رهيبة وعرة - فتخيلت جبال الألب وسلاسل ثلوج «الأندن» - على الرغم من درجات حرارتي لم تكن في الحقيقة خطرة إلى ذلك الحدّ: فكانت تصل إلى الثمانية والثلاثين صباحاً على الأغلب وكنت أوصلها إلى التاسعة والثلاثين وواحد من عشرة، ووصلت درجة حرارتي إلى التاسعة والثلاثين وأربعة من عشرة على الأكثر إبّان مرحلة نمويّ الجسدي. وهكذا صرت أرى وأسمع شتىّ الألوان والأفانين تحت تأثير الحمّى، فرأيت نفسي أجلس في دولاب الهواء، فأردت النزول، لكنني لم أستطع. لقد جلست مع الكثير من الأطفال الصغار في سيّارات الإطفاء والإوز المجوفة والكلاب والقطط والخنازير والأيائل، فكنت أدور وأدوار، ثم أهمكّ بالنزول، لكنني لم أقدر، فبدا الأطفال الصغار راغبين مثلي في الخروج من سيّارات الإطفاء والإوز المجوفة ومن القطط والكلاب والأيائل؛ إذ أنهم لم يعدوا راغبين في الدوران، لكنهم لم يقدروا على النزول. آنذاك وقف الأبّ السماوي إلى جانب صاحب الدولاب فدفع عنّا ثمن تذاكر جولة دوران أخرى؛ ونحن نتوسل به: «يا ربنا إننا نعلم بأن لديك الكثير من النقود الصغيرة، وأنك تريد بسرور أن ندور في الدولاب؛ لأنك تجد لذّة في أن تثبت لنا كروية هذا العالم. فدسّ محفظة نقودك في جيبك وقل قف، الزم مكانك، انتهى، كفى، انزلوا، اقفلوا الدكّان - لقد أصابنا الدوار نحن الأطفال المساكين، كانوا قد أتوا بنا، نحن الأربعة آلاف، إلى كيزهمارك في فايكسل، لكننا لم نستطع العبور إلى الضفة الأخرى، لأن دولابك، دولابك. . .» لكنّ الله العزيز، ربنا، صاحب دولاب الهواء، ابتسم مثلما جاء في الكتاب، تاركاً قطعة نقد صغيرة تنطّ مرّة ثانية من محفظة نقوده، لكي يحملنا الدولاب، نحن الأربعة آلاف طفل صغير، ومن ضمنهم

أوسكار، في سيّارات الإطفاء والإوز المجوّفة والقطط والكلاب والخنازير والأيائل، ليدور بنا، وكلّ مرّة حين يمرق أيّلي أمام ربنا - مازلت أظنّ إلى اليوم بأنني جلست في أيّل - يتخذ وجهه ملامح أخرى: فكان مرّة راسبوتين الذي عضّ على قطعة النقد بأسنانه الحريّة بمن يشفون الناس بالصلاة؛ قد أحضرها لجولة الدوران القادمة وهو يضحك؛ واتخذ مرّة أخرى ملامح أمير الشعراء غوته الذي كان ينتشل النقود من خرج دقيق التطريز، النقود التي حملت على وجهها صورة ربنا الجانبية المسكوكة كاملة، ثم راسبوتين النشوان من جديد، فالسيّد غوته المعتدل. فمورس قليل من الجنون مع راسبوتين والحكمة والتعقّل مع غوته. فرافق المتطرفون مع راسبوتين وقوى النظام والصلاح مع غوته. فرافقت جموع العامة والمشاغبين راسبوتين بينما حفلت حكم التقويم السنوي بمقولات غوته. في آخر المطاف انحنى - ليس لأن الحمّى خفتت، بل لأن أحداً يجب أن ينحني برفق دائماً على الحمّى -؛ انحنى السيّد فاينغولد فأوقف دولاب الهواء. أوقف الإطفاء والإوز والأيل، وحطّ من قيمة نقود راسبوتين، وبعث بغوته إلى الأمهات، وجعل أربعة آلاف طفل صغير مصابين بالدوار يرفرفون محلّقين إلى السماء في اتجاه كيزهمارك عبر نهر فيستولا - ثم رفع أوسكار من فراش الحمّى، وأجلسه على سحابة من محلول الليزول المطهّر، ذلك يعني أنه طهّرني. فارتبط هذا الأمر في البدء بالقمل، ثم أصبح عادة. فاكتشف القمل أوّل مرّة لدى كورت، ثم لدي ومن ثمّ لدى ماريا وأخيراً لداه هو. ولعلّ المغولي الأصل قد ترك لنا القمل، أي ذلك المغولي الذي انتزع ماتسرات من ماريا. وكم كانت حادةً صرخة السيّد فاينغولد حينما اكتشف القمل. فقد نادى على زوجته وعلى أبنائه واحداً بعد الآخر، متهماً عائلته كلّها بجلب الحشرات، فقام بمبادلة مختلف محاليل المطّهرات بالعسل الاصطناعي والشوفان، ثم بدأ يعقّم نفسه وعائلته بكاملها ومعها كورت وماريا وأنا وفراش مرضي كلّ يوم. فصار يدهننا ويرشنا ويذرّ علينا المسحوق المطهّر. وبينما كان يقوم بالدهن والرشّ والذرّ اشتدّت عليّ الحمّى، فأخذ فاينغولد يكثر من الحديث،

فعلمت بعربات الشحن المحملة بمحاليل الكاربول والكلور والليزول التي كان يرشها وينثرها وينقّطها عندما كان مُطهِّراً في معتقل تربلنكا وينقّط حوالي الساعة الثانية من ظهيرة كلّ يوم شارع المعتقل والسقائف وأماكن الاستحمام السريع وأفران الحرق وصرر الملابس والمنتظرين وأولئك الذين لم يأخذوا حمّاماً بعد، وكلّ ما يخرج من الفرن وكلّ ما يريد الدخول إليه، كان ماريوش فاينغولد المطهّر ينقّط ذلك كلّه يومياً بمحلول الليزول. ثم عدد عليّ الأسماء؛ إذ أنه كان يعرفها كلّها، فتحدث لي عن بيلاور الذي نصح المطهّر ذات يوم قائظ من أيّام أغسطس بأن لا ينقّط شارع المعتقل بماء الليزول، بل بالنفط، ففعل فاينغولد ما نصحه به؛ وجاء بيلاور بعيدان الثقّاب. فقام العجوز «تسيف كورلاند» من جماعة المعتقل باستحلاف الجميع. وتمكن المهندس «غاليفسكي» بكسر باب مستودع السلاح، فقام بيلار بإطلاق الرصاص على السيّد النقيب كورتنر فأرداه قتيلا. ثم أمسك «جتولباخ» و«فارينسكي» بتلابيب «تسيزينس». وهجم الآخرون على أعوان «ترافينكي»، بينما حاول آخرون قطع الشرك المُكهرب فلاقوا حتفهم. لكن العريف شوبكه الذي كان يروي النكات عندما يقود الناس إلى الدشّ وقف في مدخل المعتقل وأخذ يطلق الرصاص. بيد أن ذلك لم ينفعه شيئاً، لأن الآخرين هجموا عليه: آديك كافي وموتيل ليفيت وهينوخ ليرر، إضافة إلى هيرش روتبلات وليتيك زاغل وتوسياس باران ودبّورته. فصرخ لوليك بيغمان: «على فاينغولد أن يلتحق بنا قبل أن تأتي الطائرات.» لكن السيّد فاينغولد ظلّ ينتظر زوجته لوبا. إلا أنها لم تأت حين نادى عليها آنذاك. فأمسكوا به من اليمين ومن اليسار. أمسك به «ياكوب غليرنتر» من اليمين و«موردخاي شفارسبارد» من اليسار. ومن أمامه سار الدكتور أطلس القصير القامة الذي نصح باتخاذ إجراءات لتنقيط معتقل تربلينكا تنقيطاً دقيقاً ومن بعده غابات فيلنا، والذي ادعى بأن: محلول الليزول أهمّ من الحياة نفسها! ولم يكن بوسع السيّد فاينغولد إلا أن يؤكد على صحّة هذه المقولة؛ إذ أنه نقطّ أمواتاً، لم أقل ميتاً واحداً، بل أمواتاً، فما الذي يعنيه العدد هنا، أقول أمواتاً نقّطهم

فاينغولد بمحلول الليزول. كان يعرف أسماءهم لدرجة أنني ضجرت؛ أنا الذي كنت أستحم بالليزول بحيث لم يعد السؤال عن حياة أو موت مئات الآلاف من الأسماء يشغل اهتمامه بقدر السؤال عمّا إذا تمكن المرء من تعقيم الحياة، أو الممات، إن كان قد عجز عن تعقيم الحياة، بمطهّرات السيّد فاينغولد في الوقت المناسب وعلى نحو كاف.

وإثر ذلك خفّت حمّاي، فحلّ شهر إبريل. ثم اشتدت الحمّى، ودار الدولاب من جديد وبدأ السيّد فاينغولد يرشّ الليزول على الموتى والأحياء. نعم، بعد ذلك خفتت حدّة الحمّى، فانتهى شهر إبريل/ نيسان. وفي مطلع مايو / آيار قصرتْ رقبتي واتسع قفصيّ الصدري، وزحف إلى الأعلى، حتى صار بمقدوري أن أحكّ عظم ترقوة أوسكار بحنكي دون أن أنكّس رأسي. ثم عاد شيء قليل من الحمّى ثانية ومعه القليل من محلول الليزول. إضافة إلى أنني سمعت ماريا تهمس بعبارات عائمة بالليزول: «لو أنه فقط يتوقف عن النمو بهذا الشكل! فيا ليت أن لا تخرج له حَدَبة جديدة. ونتمنّى أنه لا يصاب بداء الاستسقاء في الدماغ!» فحاول السيّد فاينغولد أن يهدّأ من روع ماريا، وتحدث لها عن أناس عرفهم كانوا قد حققوا نجاحاً كبيراً في حياتهم على الرغم من حدبهم ورؤوسهم المصابة بالاستسقاء. ثم قصّ لها شيئاً من رواية فريدرش الذي نزح إلى الأرجنتين مع حدبته، وأفتتح هناك محلاً لبيع ماكينات الخياطة فتوسّع فيما بعد وبات مشهورا.

لم تقدم قصّة الأحدب «فريدرش» المتفوق العزاء لماريا، لكنها أدخلت الراوي، السيّد فاينغولد نفسه، في حماس منقطع النظير حمله على تغيير وجه محلّنا الذي كان يبيع بضائع المستعمرات. في منتصف مايو، عقب انتهاء الحرب بفترة وجيزة، استقبل المحلّ بضائع جديدة. فعرضت أولى ماكينات الخياطة وأدواتها الاحتياطية، غير أن المواد الغذائية بقيت إلى جانبها فترة من الزمن، فسهّلت من عملية التحوّل. يا لها من أزمان فردوسية! بحيث أضحى من النادر التعامل بالنقود، إنما بالمقايضة والمقايضة مرّة أخرى، فتحوّل العسل الاصطناعي وأقراص الشوفان

الصغيرة وأكياس الخميرة المنتجة في معامل الدكتور أوتغر والسكّر أو الدقيق أو السمن النباتي إلى درّاجات هوائية، فكانت الدرّاجات الهوائية وأدواتها الاحتياطية تتحوّل إلى محرّكات كهربائية سرعان ما تستحيل بدورها إلى عُدد وأدوات والعدد والأدوات إلى فراء، فكان السيّد فاينغولد يسحر الفراء ويحيله إلى ماكينات خياطة. وبدا كورت مفيداً جدّاً في لعبة المقايضة تلك، فكان يأتي بالزبائن ويتوسط بين الأطراف التجارية، وتأقلم في هذا المجال الاقتصادي الجديد أسرع بكثير من ماريا. فأصبح المحلّ مثلما كان عليه في زمن ماتسرات إلى حدّ ما. كانت ماريا تقف وراء طاولة البيع، وتخدم ذلك الجزء من الزبائن الذي آثر البقاء في البلد، محاولةً تلبية رغبات الزبائن القادمين حديثاً من خلال لغة بولندية استخدمتها بمشقة. في حين بدا كورت موهوباً من ناحية اللغة، وكان موجوداً في كلّ مكان، حتى أصبح موضع ثقة فاينغولد. لقد تخصص كورت في ذلك الميدان وهو لم يبلغ الخامسة من السنّ بعد، فكان ينتقي أجود ماكينات الخياطة من طراز «سنغر» و«بفاف» من مئات الماكينات المتوسطة أو المتدنية القيمة المعروضة في السوق السوداء المقامة في شارع المحطّة. كان فاينغولد يقدر معرفة كورت تقديراً عاليا. عندما جاءت جدّتي آنا كولياجك نهاية مايو قادمة مشياً من بيساو إلى لانغفور عبر برنتاو، لتقوم بزيارتنا، وألقت بنفسها على المقعد الصغير وهي تتنفس بصعوبة، أخذ السيّد فاينغولد يكيل المديح لكورت وقد خصّ ماريا كذلك بعبارات المديح. حين روى على جدّتي قصّة مرضي بإسهاب وتفصيل، مشيراً في الوقت ذاته إلى فائدة محاليله المطهّرة، وجد بأن أوسكار كان جديراً أيضاً بالتقريظ؛ لأنني كنت هادئاً جدّاً ووديعاً ولم أصرخ طوال فترة المرض كلّها.

وسعت جدّتي للحصول على النفط، لأن الكهرباء انقطعت في بيساو. فتحدث لها فاينغولد عن تجاربه مع النفط في معتقل تربلنكا، وعن مهامه المتنوعة بصفته مطهّراً للمعتقل، ثم طلب من ماريا أن تعبأ زجاجتين من النفط بسعة لتر، وأضاف إلى ذلك علبة من العسل الاصطناعي وتشكيلة من محاليل التعقيم، ثم استمع بذهن شارد وهو يهزّ رأسه حين

روت هل جدّتي ما حدث من حرائق في بيساو وبيساو-أبّاو إبّان العلميات الحربية، و عن الأضرار التي لحقت بناحية فيراك التي أصبحت تسمّى فيروغا مثلما في السابق. وصار الناس يطلقون على بيساو اسم بيسيفو الذي كان سارياً قبل الحرب. أمّا «إيهلر» الذي كان قائداً للتنظيم الفلاّحي في رامكاو، أي من رجال التنظيم النشطين؛ إيهلر الذي تزوج من هدفغ، زوجة يان، ابن شقيقها الذي بقي في البريد، فقد شنقه العمّال الزراعيون أمام مكتبه. وكانوا على وشك أن يشنقوا هدفغ أيضاً، لأنها كانت زوجة لبطل بولنديّ ثم قبلت أن تقترن بمسؤول فلاحين ألمانيّ الأصل، وأيضاً لأن ولدها شتيفان وصل إلى رتبة ملازم في الجيش الألماني، فضلاً عن أن ابنتها مارتا كانت منتمية إلى اتحاد الفتيات الألمانيات. فقالت جدّتي: «نعم، بلى، شتيفان ما حصلوا عليه. وشتيفان قضى نحبه في بحر الثلج، هناك فوق. لكن حاولوا يأخذون مارتا ويحجزونها في المعتقل. لكن فنسنت فتح فمه وحكى كأنه ما كان يحكي من قبل. اليوم صارت هدفغ ومارتا عندنا في البيت، وتساعدنا في الزرع. بس زيادة الكلام أثرت على فنسنت؛ يمكن صارت أيّامه معدودة. والجدّة صار عندها مرض في القلب وفي كلّ مكان، حتى في الرأس، بعد ما ضربها واحد أحمق على رأسها؛ كان يظن أنه لابد يضرب مرّة من المرّات.» وهكذا شكت آنا كولياجك، وأمسكت برأسها، وصارت تتحسس رأسي المتورم النمو، ثم توصلت إلى بعض الإدراك المتبصر الحصيف: «هذا هو قدرنا نحن الكاشوبيين يا أوسكاري. دائماً تجيئنا الضربة في الرأس. لكن أنتم تروحون إلى الجهة الثانية، هناك الوضع أحسن، بس الجدّة تبقى وحدها. الكاشوبيون لا ينتقلون من مكان إلى مكان. يجب أن يبقوا في مكانهم ويقدمون رؤوسهم لكي يخبط عليها الآخرون؛ لأننا لا من البولنديين الحقيقيين ولا ألمان بما يكفي. إذا كان الواحد من أهل كاشوب فهذا لا يكفي الألمان ولا يكفي البولاكن! كلّهم يريدون دائماً أن تكون الأمور واضحة!» ثم انفجرت جدّتي في ضحكة مجلجلة، واخفت زجاجات النفط والعسل الاصطناعي ومحاليل التطهير تحت أثوابها الأربعة تلك التي لم تفقد شيئاً من لونها

الأصفر صفرة البطاطس على الرغم من الأحداث السياسية والعسكرية العنيفة ذات الطابع التاريخي العالمي.

وقبل أن تذهب جدتي ترجّى منها السيّد فاينغولد أن تصبر لحظة حتى يقدم لها زوجته لوبا وبقية العائلة، إلا أن آنا كولياجك قالت له بعدما تأكدت من عدم مجيء لوبا: «أترك الأمر يا حضرة السيّد. أنا نفسي أنادي دائما: يا آغنس، يا آغنس يا بنيتي، تعالي وساعدي أمّك العجوز في عصر الثياب المغسولة. لكنها لا تجيء أبداً تماماً مثل زوجتك لوبا. وفنسنت، أخوي، يطلع في الليل، عندما تصير الدنيا ظلمة، ويوقف في الباب رغم المرض ويفزز الجيران من النوم؛ لأنه يناجي ابنه يان بأعلى صوته؛ يان الذي كان في البريد وراح...»

وقفت الجدّة آنذاك في الباب، وتلفعت بمنديلها، فهتفت بها من فراشي: «بابكا، بابكا!» بما يعني جدّتي، جدّتي. فالتفتت إلى الوراء ورفعت أذيال أثوابها قليلاً إلى الأعلى، كما لو أنها أرادت أن تدخلني تحتها لتقوم بإيوائي، لكنها تذكرت زجاجات النفط ربما، والعسل الاصطناعي والمطهّرات التي احتلت المكان - ثم غادرت، منصرفة بدوني، انصرفت بدون أوسكار.

وفي بداية يونيو / حزيران تحركت أولى شاحنات النقل في اتجاه الغرب، فلم تقل ماريا شيئاً، بيد أنني لاحظت بأنها ودعت أيضاً قطع الأثاث والمحلّ وبيت الإيجار والقبور على طرفي شارع هندنبورغ المشجّر والهضاب في مقبرة سازبه.

أحيانا كانت ماريا تجلس في المساء أمام بيانو أمّي المسكينة إلى جانب فراشي قبل أن تدخل إلى القبو مع كورت، فتمسك بهرمونيكا الفمّ بيدها اليسرى وتحاول أن تنقر بأحد أصابع يدها اليمنى مفاتيح البيانو لتصاحب اللحن. فكان السيّد فاينغولد يتألم كثيراً لسماعه تلك الموسيقى، فيناشد ماريا لعلّها توقف، ثم يتوسل بها أن تواصل العزف قليلاً حالما تخفّض آلة الهرمونيكا إلى الأسفل وتهمّ بإطباق غطاء البيانو.

وبعد ذلك تقدم لها باقتراح. وقد تكهّن أوسكار بذلك، إذ أن السيّد

فاينغولد أصبح نادراً ما ينادي على زوجته لوبا، وبعدما تأكد من غيابها التام ذات يوم مليء بأسراب الذباب والطنين، تقدم لها بطلبه. قال إنه مستعد لإيواء الطفلين، إضافة أوسكار المريض. ثم عرض عليها الدار والمشاركة في المحلّ. وكانت ماريا آنذاك في الثانية والعشرين، فبدا جمالها الأصلي الذي بدا كما لو أنه جاء بمحض الصدفة ثابتاً إن لم يكن صلباً، وقد ذهبت سنوات الحرب الأخير إضافة إلى الشهور التي أعقبت الحرب بتسريحة شعرها المكوي الذي كان ماتسرات يسدد ثمنه. وحتى لو أنها لم تكن تضفر جدائل في عهدي آنذاك؛ فإن شعرها كان ينساب على كتفيها، فتتيح للناظر أن يرى فيها فتاةً جديّةً إلى حدّ ما، متبرمة على الأرجح، تشعر بالمرارة - فقالت هذه الفتاة لا، رافضة طلب السيّد فاينغولد. كانت ماريا تقف على بساطنا القديم، حاملة كورت على ذراعها اليسرى، مشيرة بإبهامها اليمنى إلى المدفأة الحجرية، فسمعناها أنا والسيّد فاينغولد تقول: «إن هذا غير ممكن. لقد ضاع كلّ شيء هنا. سنرحل الآن إلى بلد الراين، إلى شقيقتي غوسته. فهي متزوجة هناك من رئيس ندل يعمل في الفندقة، اسمه كوستر، وسيستضيفنا مؤقتاً نحن الثلاثة.»

وفي اليوم اللاحق تقدمت بالطلبات، فأعيدت إلينا أوراقنا بعد ثلاثة أيّام. كان السيّد فاينغولد قد لاذ بالصمت، فقفل محلّه وجلس على طاولة البيع إلى جانب الميزان في الدكّان المظلم حينما بدأت ماريا تحزم الأمتعة، غير راغب في غرف العسل بالملعقة. ولم يتزحزح من مكانه إلا بعد أن أتت ماريا لتودعه، فانزلق من مقعده، وأحظر الدرّاجة الهوائية التي ألحقت بها مقطورة صغيرة وعرض علينا مرافقته لنا حتى محطة القطارات. فتم شحن أوسكار والأمتعة فوق المقطورة التي سارت على عجلتين مصنوعتين من المطّاط - كان يسمح لكّل شخص منا بحمل خمسة وعشرين كيلوغراما. أخذ السيّد فاينغولد يدفع العجلات، وأمسكت ماريا بيد كورت والتفتت مرّة ثانية إلى زاوية شارع اليزين حين انعطفنا شمالا. لكنني لم استطع الالتفات في اتجاه لابسفيغ، لأن الالتفات كان يؤلمني، فبقي رأس أوسكار هادئاً مستقراً بين الكتفين. فحييت مارين شتراسه

وكلاينهامرفيغ ونفق شارع المحطّة الذي مازال يقطر ماءً يثير الغثيان، ثم حييت كنيستي التي لم يصبها الدمار، كنيسة-قلب-يسوع ومحطّة ضاحية لانغفور التي أطلق عليها في ذلك الوقت اسم فرتسيجيج الذي لم يقو أحد على لفظه لفظاً صحيحاً؛ وقد فعلت ذلك كلّه بعينيّ وحدهما اللتين استطاعتا الاحتفاظ بحركتهما. وكان علينا أن ننتظر، وعندما تحرّك القطار اتضح أنه كان قطار شحن. ثمّة ناس هناك وأطفال كثيرون. فقام المعنيون بتفتيش أمتعتنا ووزنوه. كان الجنود يرمون باقة من التبن في كلّ عربة مقطورة. ولم يكن هناك أيّ أثر للموسيقى، لكن السماء لم تمطر ساعتها. كان الجوّ صاحياً إلى غائم وكانت الريح تهبّ من الشرق.

وركبنا في العربات الأربعة الأخيرة، فوقف السيّد فاينغولد بشعره الناعم الضارب إلى الحمرة، المتمايل بفعل الريح؛ وقف تحتنا على الرصيف، واقترب من العربة بعدما أعلن محرّك القطار عن قدومه، ثم ناول ماريا ثلاثة علب من السمن النباتي وعلبتين من العسل الاصطناعي، وأضاف إلى متاع السفر، حين تعالى الصراخ والبكاء والأوامر البولندية معلنة الرحيل، علبة مطهرّات - إذ أن الليزول كان أهمّ من الحياة - ثم تحركنا تاركين السيّد فاينغولد وحده خلفنا، فبات يصغر شيئاً فشيئاً بشعره الأحمر المتطاير، بشكل صحيح، ومثلما يقتضي الأمر عادة، حتى استحال إلى مجرد تلويح قبل أن يتلاشى نهائياً.

نمو في عربة الشحن

مازال الألم يجتاحني إلى اليوم. وقد قذف برأسي الآن على الوسادة. كان الألم يجعل مفاصل القدمين والركبتين بارزة، ويجعلني أصرّ بأسناني - ذلك يعني أن أوسكار كان يصرّ بأسنانه، لكي لا يسمع طقطقة عظامه في مقلاة المفاصل. كنت أتأمل أصابعي العشرة، حتى اضطررت إلى الاعتراف بأنها قد تورّمت. ثم برهنت آخر محاولة أجريتها على طبلي: على أن أصابع أوسكار لم تكن متورمة فقط، بل لم تعد صالحة الآن لهذه المهنة؛ إذ أن مضربي التطبيل كانا يفلتان منها. كذلك لم يرد قلم الحبر مطاوعتي؛ فكان عليّ أن أتوسل ببرونو، لكي يلفّني بالكمّادات البادرة. وقمت بتسليح معيني برونو بالورق وقلم الرصاص وأنا ملفوف اليدين والقدمين والركبتين واضعاً منشفة على جبيني؛ لأنني لا أحبّ إعارة قلمي الحبر إلى أحد آخر. فهل سيصغي برونو بشكل جيّد، أو هل يستطيع الإصغاء أصلاً؟ وهل ستعطي إعادته لقصّة الرحلة بعربة الشحن حقها؛ تلك الرحلة التي بدأت في ١٢ يونيو / حزيران من العام الخامس والأربعين؟

لقد جلس برونو إلى الطاولة تحت صورة شقائق النّعمان. وفي تلك اللحظة أدار لي رأسه، كاشفاً لي عن تلك الصفحة التي يسمونها الوجه، متطلعاً بعينيه اللتين هما عينا حيوان خرافي؛ متطلعاً إلى يميني وإلى شمالي دون أن يتطلع إليّ مباشرة. أمّا قلم الرصاص فإنه وضعه بشكل عرضي على فمه الرقيق العابس، متصنعاً حالة الانتظار. حتى لو افترضنا أنه كان ينتظر كلمتي فعلاً، أو ينتظر إشارة البدء بإعادة القصّة؛ فإن أفكاره دارت

حول تركيباته المعقدة. فهو سيعقد الخيوط، بينما ستبقى مهمة أوسكار قائمة على فلّ خيوط مقدمة القصّة المعقدة بثراء لغويّ؛

فكتب برونو:

أنا، برونو مونستربيرغ، القادم من ألتينا في زاورلاند، وأنا غير متزوّج، وليس لدي أطفال وأعمل معيناً في القسم الخاص التابع لمصّحة الأمراض العقلية. وإن السيّد ماتسرات المقيم هنا لغرض المعالجة منذ أكثر من عام هو مريضي الذي اعتني به. وهناك مرضى آخرون اعتني بهم أيضاً، لكنني لا أتحدث عنهم هنا. إن السيّد ماتسرات هو أكثر مرضاي براءة. فهو لم يفقد أعصابه لدرجة تضطرني إلى الاستعانة بالمعينين الآخرين. كما أنه يكتب ويطبّل كثيراً إلى حدّ ما. ولكي يرفق بأصابعه المكدودة فقد ناشدني اليوم لأكتب له وأتوقف عن تركيب عقد الخيوط. ومع ذلك فقد دسست في جيبي بعض الخيوط، وسأبدأ بتركيب الأعضاء السفلية لشكل جديد سأطلق عليه اسم «اللاجئ الشرقي» وأنا أتابع قصّة السيّد ماتسرات. فهذا لم يكن الشكل الوحيد الذي استلهمه من قصص مرضاي. فحتى ذلك الوقت كنت عقدت شكل جدّته التي أطلقت عليها اسم «تفاحة في أربعة أثواب» ونسجت شكل جدّه الرّمّاث الذي منحته اسماً ينطوي على مجازفة: «كولومبس»، وتحوّلت أمّه المسكينة إلى «آكلة السمك الفاتنة» بفعل خيوطي، وعقدت من أبويه ماتسرات ويان برونسكي مجموعة من الأشكال التي وضعتها تحت عنوان «لاعبا الورق»، وكذلك نسجت ظهر صديقه هربرت تروجنسكي المليء بالندب وأطلقت على هذا النقش البارز عنوان «المسافة غير المستوية» وفعلت الشيء ذاته مع بعض المباني مثل: البريد البولندي، البرج ذي الطوابق، المسرح البلدي، ممر تسويغهاوس، متحف الملاحة، قبو البقّال غريف، مدرسة بستالوتسي، حمّام بروزن وكنيسة-قلب-يسوع، مقهى الفصول الأربعة، معمل شيكولاتة البلطيق، إلى جانب الكثير من المخابئ المنتشرة على ساتر الأطلسي، برج أيفل في باريس، محطة قطارات شتيتين الذاهبة إلى برلين، كاتدرائية رام الفرنسية، فضلاً عن البيت الذي أبصر فيه السيّد ماتسرات نور العالم. ذلك كلّه

نسجته عقدةً إثر عقدة، وقد شكّلت قضبان مقبرتي سازبه وبرنتاو وشواهدهما الزخارف اللازمة لخيوطي، كما أنني جعلت نهري فيستولا والسين يجريان خيطاً إثر خيط، وجعلت أمواج الأطلسي وبحر البلطيق ترتطم بسواحل خيوطي، وأحلّت الخيوط إلى حقول بطاطس كاشوبية وإلى مراع في قطاع النورماندي، ثم أسكنت الناس في تلك البقعة الريفية المتكونة من الخيوط والتي سميتها ببساطة «أوربا»، حيث قطنتها مجموعات من الأشكال مثل: المدافعين عن البريد البولندي، تجّار بضائع المستعمرات، الناس على المنصّة، الناس أمام المنصّة، تلاميذ المدرسة الابتدائية مع أكياس اليوم الأوّل من المدرسة، حرّاس متاحف منقرضون، فتيان مجرمون يقوم بالتحضير لعيد ميلاد المسيح. خيّالة بولنديون في الغروب، نمل يصنع التاريخ، مسرح الجبهة الذي يقدم عروضه لضبّاط الصفّ والجنود، أناس واقفون يعقمون أناساً مضطجعون في معتقل تربلنكا. والآن سأبدأ بهيئة اللاجئ الشرقي الذي سيتحوّل على أكثر الاحتمالات إلى مجموعة من اللاجئين الشرقيين.

لقد رحل السيّد ماتسرات في ١٢ يونيو/ حزيران من العام الخامس والأربعين في حوالي الساعة الحادية عشرة ضحىً، رحل من غدانسك التي بات اسمها منذ ذلك الوقت غدانسك، وكان برفقته ماريا التي ادعى مريضي بأنها عشيقته السابقة وكورت ماتسرات، الابن المفترض لمريضي. إضافة إلى ذلك كان هناك اثنان وثلاثون شخصاً آخرون في عربة الشحن، من ضمنهم أربع راهبات كاثوليكيات في مسوح الطائفة الفرانسسكانية، وثمة شابة صغيرة غطّت رأسها بمنديل وقد تعرّف عليها السيّد أوسكار باعتبارها الآنسة لوتسي رنفاند من خلال شعرها. وبعد استفسارات عديدة من طرفي أنا أقرّ مريضي بأن تلك الفتاة كان اسمها رغينا رائيك، بيد أنه ظلّ يتحدث عن وجه ثعلب مثلّث بلا اسم، أطلق عليه فيما بعد لقباً، وأخذ يناديه بلوتسي، مما حال دون أن أدوّن تلك الفتاة تحت اسم الآنسة رغينا. كانت رغينا رائيك قد رحلت مع والديها وجديّها وعمّ مريض حمل معه سرطان معدة خبيثاً إلى الغرب بالإضافة إلى عائلته، وكان كثير الكلام، وأعلن

بعدما تحرّك القطار مباشرة بأنه عضو سابق في الحزب الديمقراطي الاجتماعي. وحسبما تذكر مريضي، فإن الرحلة مرّت بسلام من دانسغ إلى غدينيا التي كان اسمها غوتنهافن لمدة أربعة أعوام ونصف العام. كان ثمة امرأتان من أوليفا وبضعة أطفال ورجل عجوز من أهالي لانغفور قد بكوا حتى بعد أن اجتازوا ناحية تسوبوت بمسافة قصيرة، في حين انهمكت الراهبات في الصلاة. فتوقف القطار خمس ساعات في «غدينيا»، حيث أمرت امرأتان وستة أطفال بالركوب في العربة. غير أن الديمقراطي الاجتماعي احتج على ذلك، لأنه كان مريضاً، كما أنه طالب بأن يعامل معاملة خاصة بصفته ديمقراطياً اجتماعياً قبل الحرب. لكن الضابط البولندي الذي أشرف على الترحيل وجّه له صفعةً بعدما امتنع من فسح المجال، وقال بلغة ألمانية سلسة نوعاً ما بأنه لا يفهم ما تعنيه صفة الديمقراطي الاجتماعي. فقد كان عليه أن يقيم في أماكن متخلفة من ألمانيا إبّان الحرب، لكنه لم يسمع قطّ بكلمة ديمقراطي اجتماعي. فلم يفلح الديمقراطي الاجتماعي المريض بالمعدة في أن يشرح للضابط البولندي معنى الحزب الديمقراطي الاجتماعي الألماني وجوهره وتاريخه؛ لأن الضابط ترجّل من العربة وأوصد الأبواب وقفلها بالمزلاج من الخارج.

ونسيت أن أدوّن بأن الركاب كلّهم كانوا يجلسون، أو يرقدون على القش. لمّا تحرّك القطار في ساعة متأخرة بعد العصر هتفت بعض النساء: «سنعود مرّة ثانية إلى دانسغ.» لكن ذلك كان خطأً؛ إذ أن القطار حوّل فقط إلى سكّة أخرى، ثم تابع سيره في اتجاه الجنوب نحو شتولب. لقد استغرقت الرحلة إلى شتولب أربعة أيّام، لأن القطار أجبر مرّات عديدة على التوقف بين محطة وأخرى من قبل رجال الأنصار السابقين وعصابات الفتيان البولنديين. كان الشباب يفتحون الأبواب المنزلقة للعربات ويتركون شيئاً من الهواء الطلق يدخل إليها، ثم يخطفون الهواء الفاسد من العربات ومعه جزءاً من أمتعة السفر. وكلّ مرّة عندما يحتل الشبّان مقطورة السيّد ماتسرات تنهض الراهبات أربعتهن ويرفعن صلبانهن المعلّقة على مسوح الرهبنة إلى الأعلى. كانت الصلبان الأربعة تخلّف أثراً بليغاً في قلوب

الفتيان، فيرسمون علامة الصليب على عجل قبل أن يقذفوا بالأمتعة وحقائب الظهر العائدة للمسافرين على سدّة السكّة. حين عرض الديمقراطي الاجتماعي أوراقه على الفتيان التي كانت السلطات البولندية في دانسغ أو غدانسك قد صادقت عليها، تلك الأوراق التي ثبتت بأنه كان عضواً في الحزب الديمقراطي الاجتماعي من العام ١٩٣١ إلى ١٩٣٧ وقد كان يسدد اشتراكه بانتظام، فإن الفتيان لم يرسموا علامة الصليب، بل انتزعوا الأوراق من يده واستولوا على حقيبتيه وعلى مخلاة زوجته، وحملوا معهم المعطف الشتوي الفاخر ذا المربعات الكبيرة الذي رقد عليه الديمقراطي الاجتماعي؛ حملوه معهم في الهواء العذب لمقاطعة «بومرن». ومع ذلك ادعى السيّد أوسكار ماتسرات بأن الشبّان ولدوا لديه انطباعاً بأنهم كانوا على قدر كبير من الانضباط والتميّز. وقد أرجع ذلك إلى تأثير رئيسهم الذي مثل شخصية قائمة بذاتها على الرغم من أنه كان يبلغ بالكاد ستة عشر ربيعاً؛ شخصية دفعت بالسيّد ماتسرات إلى أن يتذكر بشكل مؤلم ومفرح في آن قائدَ عصابة النافضين شتورتبكر.

وعندما حاول ذلك الشاب الذي كان يشبه شتورتبكر أن يسحب مخلاة الظهر من أصابع ماريا، ونجح في سحبها، تمكن السيّد ماتسرات في اللحظة الأخيرة من التقاط ألبوم العائلة المحشور لحسن الحظّ في أعلى المخلاة. فأراد رئيس العصابة أن يغضب أوّل الأمر، لكن بعدما قام مريضي بتقليب صفحات الألبوم، مطلعاً الفتى على صورة جدّته كولياجك، ترك المخلاة تسقط على السيّدة ماريا من جديد؛ إذ أنه فكّر في جدّته، ووضع إصبعين على طاقيته البولندية المربعة محيياً، ثم قال موجها كلامه إلى عائلة ماتسرات: «دو فدتسنيّا!» وغادر مع جماعته عربة القطار، حاملاً معه حقيبة من حقائب المسافرين الآخرين بدلاً من مخلاة عائلة ماتسرات.

وفي المخلاة التي بقيت في حوزة العائلة بفضل ألبوم الصور كان ثمة بضع قطع من الملابس الداخلية وإيصالات ضريبة المبيعات الخاصة بمحلّ بضائع المستعمرات ودفاتر التوفير وعقد من الياقوت الأحمر، كان يعود زماناً إلى ملكية والدة السيّد ماتسرات، وقد أخفاه مريضي في إحدى علب

المطهّرات، كذلك تكبّد الكتاب التعليمي، المؤلف نصفه من مقتطفات راسبوتين ونصفه الآخر من كتابات غوته؛ تكبّد عناء الرحلة إلى الغرب.

لقد زعم مريضي بأنه وضع ألبوم الصور معظم الوقت على ركبته، وفعل الشيء ذاته مع الكتاب التعليمي أحياناً طوال الرحلة، وأنه أخذ يقلّب بالكتابين اللذين وهباه ساعات كثيرة من المتعة والتأمل على الرغم من آلام المفاصل المبرحة. إضافة إلى أن مريضي كان يود القول بأن الارتجاج والاهتزاز والمرور بتحويلات سكك القطار وتقاطعاتها والاضطجاع على المحور الأمامي لعربة الشحن المترجرج على الدوام قد ساهمت كلّها في التعجيل من عملية النمو. فهو لم يواصل نموه بالعرض كما في السابق، بل في الطول أيضاً وارتخت المفاصل المتورمة، لكن غير الملتهبة. فشمل التمدد أذنيه وأنفه وأعضاؤه التناسلية بفعل ارتجاج السكّة تحت عربة الشحن. طالما كان القطار يسير بلا عوائق؛ فإن السيّد ماتسرات لم يشعر بأيّ ألم، فقط عندما يتوقف ليقوم بعض رجال المقاومة وعصابات الفتيان بزيارته؛ فإنه يعاني من حدّة الألم المبرح الذي كان يعالجه كلّ مرّة، مثلما قيل، بألبوم الصور المسكن للآلام. وباستثناء شتورتبكر البولندي،كان هناك الكثير من اللصوص الفتيان وأحد رجال المقاومة الكبار في السنّ أظهروا اهتماماً بألبوم الصور. فاتخذ المحارب القديم مكانه في العربة وزوّد نفسه بسيجارة وصار يقلّب بالألبوم بتأن، دون أن يغفل مربعاً واحداً، مبتدئاً بصورة الجدّ كولياجك وتابع صعود العائلة المقرون بالصور، حتى وصل إلى السيّدة ماريا ماتسرات مع كورت ذي العام الواحد وذي العامين فالأعوام الثلاثة فالأربعة. لقد لمحه مريضي يبتسم وهو يتأمل بعض معالم النعيم والارتياح التي بانت على العائلة. ولم يبد رجل الأنصار استياءه إلا بعد أن أبصر شارات الحزب الشديدة الوضوح على ملابس المرحوم السيّد ماتسرات وعلى ياقة السيّد إيهلر، مسؤول التنظيم الفلاّحي في رامكاو والمتزوّج من أرملة يان برونسكي المدافع عن البريد. فحكّ المريض بحافة سكين الإفطار شارات الحزب الواضحة في الصور أمام عيني الرجل الناقدتين إرضاءً له.

كان ذلك النصير - مثلما لقنني السيّد ماتسرات للتو - نصيراً حقيقياً على العكس من الكثير من الأنصار المزيفين. فهناك ادعاء يقول بأن الأنصار هم ليسوا أبداً أنصاراً مؤقتين، إنما هم دائماً أنصار يعيدون الحكومات الساقطة إلى سدّة الحكم، أو يطيحون بالحكومات التي اعتلت للتو سدّة الحكم بمعونة الأنصار أنفسهم. والأنصار غير القابلين للإصلاح والمتغلغلين في أوساط بعضهم البعض، المكرسين حياتهم للسياسة الآخرين أكثر من الناس الآخرين هم حسب نظرية السيّد ماتسرات - التي بدت لي مقنعة تماماً - موهوبون فنياً بشكل كبير؛ لأنهم سرعان ما ينبذون ما أنجزوه للتو. وأنا أستطيع أن أقول الشيء ذاته عن نفسي. ألم يحدث دائماً أن أهوي بقبضتي على تشكيلات الخيوط حالما تتخذ هيئة مستقرة في الجبس فأحطمها؟ إنني أفكّر الآن، وبشكلّ خاص، في تلك المهمّة التي عهد إلي بها مريضي قبل شهور والقاضية بأن أنسج بخيوط بسيطة راسبوتين الروسي الذي كان يشفي الناس بالصلوات وأمير الشعراء الألماني غوته في هيئة شخص واحد، تلك الهيئة التي يجب أن تكون شبيهة به، أي بصاحب الطلب، شبهاً متناميا. ولم أعد أعرف كم كيلومتراً من الخيوط عقدتها لكي أحيل أخيراً هذين النقيضين إلى عقدة واحدة سارية المفعول. بيد أنني بقيت حائراً متبرماً شأني شأن النصير الذي امتدحه السيّد ماتسرات باعتباره نموذجاً، فعمدت إلى حلّ ما حاكته يميني بشمالي، محطماً بيمناي المكوّرة ما شكلته يدي الشمال.

لكنّ السيّد ماتسرات نفسه لم يستطع أن يروي قصته باستقامة دون لفّ أو دوران. فبغض النظر عن الراهبات الأربع اللواتي حسبهن تارةً على الطائفة الفرانسسكانية وطوراً على طائفة القديس فنسنت؛ لاسيما تلك الفتاة ذات الاسمين والوجه الواحد المثلّث المماثل لوجه الثعلب حسب ادعائه التي تفككت في تقريره كلّ مرّة، فتضطرني، أنا الراوي المعيد، إلى تدوين تفاصيل تلك الرحلة المنطلقة من الشرق إلى الغرب بصيغتين أو أكثر. فهذه ليست مهنتي، وسأتمسك بالرجل الديمقراطي الاجتماعي الذي لم تتغير معالم وجهه طوال الرحلة؛ فهو كان يروي للمسافرين جميعهم حتى مسافة

قصيرة قبل شتولب، حسب قول مريضي، بأنه كان يلصق الملصقات إلى العام السابع والثلاثين، وأنه قام بهذا العمل الذي يمكن اعتباره نوعاً من المقاومة الداخلية، مجازفاً بصحته، ومضحياً بوقت فراغه؛ لأنه كان ينتمي إلى عدد قليل من الديمقراطيين الاجتماعين الذين كانوا يلصقون الملصقات على الرغم من الطقس الممطر. وتحدث على هذا المنوال بعدما أوقف القطار للمرّة كذا وكذا؛ لأن عصابة فتيان أعلنت عن زيارتها له. وبما أنه لم تعد هناك أمتعة كافية فقد هرع الفتيات إلى سلب ثياب الركّاب من أجسادهم. بيد أنهم اقتصروا على نزع قطع الملابس العليا من الرجال وحدهم مثلما تقتضي الحكمة. فلم يفهم الديمقراطي الاجتماعي هذا التصرف؛ إذ أن أي خيّاط ماهر بإمكانه أن يفصّل من مسوح الراهبات الفضفاضة عدداً من الحلل الممتازة. كان الديمقراطي الاجتماعي ملحداً كما صرّح بكلّ إيمان. لكن الشبّان اللصوص كانوا مرتبطين بالكنيسة المنقذة دون أن يعلنوا انتماءهم، فلم يرغبوا في الاستيلاء على أقمشة الراهبات الواسعة، إنما على بذلة الملحد ذات الأزرار المصفوفة على جانب واحد، تلك البذلة المنشّاة بنشارة الخشب قليلا. بيد أنه امتنع عن نزع السترة والصديري والسروال، بل تحدث عن سيرته القصيرة في الحقيقة، المكللة في النجاح من ناحية أخرى، باعتباره ديمقراطياً اجتماعياً يلصق الملصقات، وحين أبدى عناده أثناء انتزاع بذلته منه مواصلاً حديثه، رفسه أحدهم على معدته بجزمة عسكرية قديمة من جزم الجيش الألماني. فتقيّأ الديمقراطي الاجتماعي بحدّة وبلا انقطاع حتى أخذ يقذف دما. إلا أنه لم يعد يلق بالاً لبذلته، وفقد الفتيان اهتمامهم بالبذلة الملوّثة التي يمكن إنقاذها بالغسيل الكيماوي الجيّد. فاستغنوا عن ملابس الرجال العليا وجردوا السيّدة ماريا ماتسرات من بلوزتها الزرقاء الفاتحة المصنوعة من الحرير الاصطناعي وانتزعوا سترة الفتاة الصغيرة التي لم يكن اسمها لوتسي رنفاند، بل رغينا رائيك، ثم ردّوا الباب ردّاً ولم يقفلوه، فسار القطار في اللحظة التي بدأ فيها الديمقراطي الاجتماعي يحتضر.

وقبل «شتولب» بكيلومترين أو ثلاثة دفعت عربات الشحن في رصيف

مهمل للقطارات المعطلة، وأمضى هناك ليلته المرصعة بالنجوم التي كانت باردةً بالنسبة لشهر يونيو. في تلك الليلة بالذات توفّي ذلك الديمقراطي الاجتماعي المتعلق ببذلته ؛ توفّي بصورة بذيئة - مثلما عبّر السيّد ماتسرات - وهو يكفر بالله ويدعو الطبقة العاملة إلى النضال، ويهتف بكلمات أخيرة تمجّد الحريّة - مثل تلك الكلمات التي يسمعها المرء في الأفلام -، ثم صرعته أخيراً نوبة تقيؤ ملأت عربة الشحن بالرعب. وقال مريضي بأن أي صراخ لم يعقب ذلك، فبقي الصمت مخيماً على العربة. فقط السيّدة ماريا كانت تطقطق بأسنانها التي اصطكت من شدّة البرد؛ لأنها كانت بلا بلوزة، وقد تلفعت بآخر ما تبقى من ملابس داخلية عائدة إلى الولد كورت والسيّد ماتسرات. في الصباح اغتنمت راهبتان جريئتان فرصة انفتاح باب المقطورة، فنظفتا العربة ورميتا بالقش المبلول وبراز الأطفال والكبار ومعه نُخامة الديمقراطي الاجتماعي على سدّة القطار. وفي شتولب نفسها تمّ تفتيش القطار من قبل ضبّاط بولنديين، ووزع في الوقت ذاته حساء فاتر الحرارة ومشروب يشبه قهوة الشعير. وصودرت الجثّة التي كانت في عربة السيّد ماتسرات خوفاً من انتشار وباء ما، فحملها رجال الصحّة على لوحة خشبية عريضة. وبعد تشفّع من قبل الراهبات سمح ضابط كبير لذويّ الميّت بإقامة صلاة قصيرة. وسمح أيضاً بتجريد الرجل الميّت من حذائه وجواربه وبذلته. كان مريضي يراقب ابنة أخ الرجل المنزوع الثياب أثناء مشهد نزع الثياب - لقد غُطيت الجثّة فيما بعد بكيسين إسمنت فارغين أطبقا على اللوح. فذكّرته تلك الفتاة مرّة أخرى بشكل منفر وأخّاذ في آن بلوتسي رنفاند التي شكّلت هيئتها بالخيوط وأطلقت عليها اسم ملتهمة الفطائر المحشوة بالسجق، على الرغم من أن اسمها كان رائيك. لم تهرع تلك الفتاة في الواقع إلى الخبز المحشو بالسجق لتلتهمه بقشوره بمناسبة سلب عمها، بل ساهمت في السلب فحسب، فورثت الصديري عن بذلة عمها، فارتده عوضاً عن سترتها التي نهبت، ثم أخذت تنظر في مرآة جيب إلى مظهرها الجديد الذي لم يكن خالياً من الأناقة، ويبدو أنها - وهنا يكمن ذعر مريضي الذي مازال قائماً إلى اليوم - شملت مضجعه بمرآتها

وصارت تراقبه بعينين صافيتين ضيقتين باردتين انطلقتا من مثلّث. وقد استغرقت الرحلة من شتولب إلى شتيتين يومين كاملين. وكان ثمة ما يكفي من الوقوف الاضطراري ومن الزيارات التي تحوّلت شيئاً فشيئاً إلى عادة والتي قام بها المراهقون المسلحون بحراب المظليين والبنادق الرشاشة، بيد أن تلك الزيارات باتت تزداد قصراً على الدوام؛ إذ لم يعد هناك ما يمكن نهبه من المسافرين.

وادعى مريضي بأن قامته طالت بمقدار تسع أو عشر سنتمترات على الأرجح خلال أسبوع واحد أثناء الرحلة من دانسغ-غدانسك إلى شتيتين. فتمدد وركه وساقه، لكن القفص الصدري والرأس بقيا على حالهما. ومع ذلك فإن نمواً خفيفاً طرأ على الحدبة التي زحفت نحو أعلى اليسار على الرغم من أن مريضي كان مضطجعاً على ظهره طوال الوقت. وأقرّ السيّد ماتسرات بأن الآلام تصاعدت حدتها بعدما خلّفوا شتيتين وراءهم - إبّان ذلك استلم طاقم ألماني مهمّة النقل - ولم يعد التقليب المحض لألبوم صور العائلة يسهل من نسيان الآلام. فاضطر إلى الصراخ مرّات عديدة وبشكل متواصل، لكنه في الحقيقة لم يصب زجاج أي محطة قطارات بأضرار - ماتسرات نصّاً: لقد فقد صوتي أدني قدرة له على تحطيم الزجاج. غير أنه جمّع الراهبات الأربع أمام مضجعه، وجعلهن لا ينقطعن عن الصلاة.

وغادر القسم الأعظم من المسافرين، بما فيهم ذوو الديمقراطي الاجتماعي المتوفّى وفي المقدمة منهم الآنسة رغينا، غادروا قطار الشحن في شتيتين. فشعر السيّد ماتسرات بالحزن؛ لأن مرأى الفتاة بدا له أليفاً وضرورياً، فتعرض بعد ذهابها إلى نوبات تشنّج عنيفة مصحوبة بحمّى عالية جعلته يرتجف. وحسب قول السيّدة ماريا ماتسرات فإنه أخذ ينادي على فتاة باسم لوتسي، ناعتاً نفسه بالحيوان الخرافي ووحيد القرن، خائفاً من السقوط، وراغباً في السقوط أيضاً من منصّة القفز البالغ ارتفاعها عشرة أمتار. ونُقل السيّد أوسكار ماتسرات إلى إحدى المستشفيات في لونهبورغ، حيث تعرّف على بضع ممرضات وهو في حالة الحمّى، لكنه

سرعان ما حوّل إلى مستوصف جامعة هانوفر، فتمكنوا هناك من تخفيف حمّاه. كانت السيّدة ماريا وابنها كورت لا يريان السيّد ماتسرات إلا نادراً، ثم أصبحا يريانه يومياً بعد وجدت السيّدة ماريا وظيفة منظفة في المستشفى. وبما أنه لم يكن هناك مكان في المستوصف أو قريب منه لتسكن فيه ماريا وابنها كورت، ولأن الإقامة في معسكر اللاجئين باتت لا تطاق - كان على ماريا أن تمضي ثلاث ساعات يومياً في قطار مزدحم، وكثيراً ما كانت تقف على موطئ العربة المخصص للصعود والنزول - هكذا كانت المسافة الفاصلة بين المستوصف والمعسكر؛ فقد وافق الأطباء بعد تردد كبير على تحويل المريض إلى المستشفى البلدي في دوسلدورف، خصوصاً أن السيّدة ماريا كانت تحمل ترخيصاً بالانتقال إلى هناك. فوضعت شقيقتها غوسته التي كانت متزوّجة من رئيس ندلٍ مقيم في دوسلدورف إبّان الحرب؛ وضعت غرفة من سكنها المؤلف من غرفتين ونصف الغرفة في خدمة السيّدة ماريا؛ لأن رئيس الندل لم يعد بحاجة إلى شغل أي مكان، إذ أنه كان في الأسر الروسي.

كان السكن يقع في ناحية مناسبة، بحيث أنه يمكن الوصول إلى المستشفى البلدي بجميع قطارات الترام المنطلقة من محطّة بيلك أو الذاهبة في اتجاه فيرستن وبينرات دون أن الانتقال من ترام إلى آخر. وقد رقد السيّد ماتسرات في ذلك المستشفى من أغسطس / آب ١٩٤٥ إلى مايو/ آيار ١٩٤٦. ومنذ أكثر من ساعة تحدث لي في وقت واحد عن بضع ممرضات يحملن أسماء مثل الممرضة «مونيكا» والممرضة «هلمترود» والممرضة «فالبورغا» والممرضة «إليزا» والممرضة «غيرترود». كانت يتذكر الأقاويل الشائعة في المستشفى، معطياً قيمة مبالغ فيها لكل ما يحيط بحياة الممرضات ولملابسهن المهنية. إلا أنه، حسب ما أتذكر، لم ينطق بحرف واحد حول طعام المستشفى السيئ جدّاً في ذلك الوقت ولا عن غرف المرضى السيئة التدفئة. لا شيء آخر سوى الممرضات وحكايات الممرضات المملة ومجتمع الممرضات. فكان يُهمس آنذاك ويذاع في السرّ بأن الممرضة إليزا قالت لرئيسة الممرضات شيئاً ما، وقيل إن رئيسة

الممرضات تجرأت على تفتيش سكن متدربات التمريض بعد استراحة الغداء بفترة قصيرة، وقيل إن ثمة أشياءً سُرقت، فوجهت التهمة إلى ممرضة من مدينة دورتموند - أعتقد أنه ذكر اسم غيرترود - وكانت تلك التهمة باطلة. وروى أيضاً بطريقة ملتوية ومسهبة حكايات عن أطبّاء شباب كانوا يحاولون الحصول على السجائر التي توزّع بالبطاقات من الممرضات. كما أنه وجد قصّة عملية إسقاط قامت بها عاملة مختبر كيميائي أو ممرضة، بنفسها أو بمعونة مساعد طبيب، وجدها جديرة بالقصّ. إنني في الواقع لا أفهم مريضي الذي يبدد روحه وعقله في تلك التفاهات.

والآن طلب منّي السيّد ماتسرات أن أصفه، وسأنفذ هذه الرغبة بسرور، لكنني سأقفز على ذلك الجزء من الحكايات التي كان يسهب في تصويرها على نحو مغر فيضفي عليها الكلمات الرنّانة الخطيرة، لمجرد أنها تتعلق بشؤون الممرضات. وكانت قامة مريضي تبلغ متراً وواحداً وعشرين سنتيمترا. وكان يحمل رأسه الضخم حتى بالنسبة للأشخاص الكبار الطبيعيين بين منكبيه فوق رقبة معوجّة إلى حدّ ما، وقد برز القفص الصدري والظهر الذي يمكن تسميته بالحدبة بروزاً واضحا. كان يتطلع بعينين زرقاوين حادتي البريق تتحركان بفطنة وذكاء، تتسعان أحياناً هائمتين. وكان له شعر بنيّ غامق كثيف، متموّج قليلاً، وكثيراً ما كان يظهر عن ذراعيه المتينتين بالمقارنة مع بقية جسده، كاشفاً عن يديه الجميلتين كما يسميهما. وإذا ما طبّل السيّد ماتسرات - كانت إدارة المصحّة تسمح بالتطبيل ثلاث أو أربع ساعات يوميّاً -؛ فإن أصابعه تبدو كأنها مستقلة عنه، وتعود إلى جسد آخر كامل. لقد أصبح السيّد ماتسرات ثرياً جدّاً من خلال الأسطوانات، ومازال إلى يكسب المال بالأسطوانات إلى اليوم. إن هناك أناساً مثيرين للاهتمام يقومون بزيارته في مواعيد الزيارات. كنت أعرف اسم السيّد أوسكار ماتسرات قبل محاكمته وقبل تحويله إلينا؛ إذ أنه كان فنّاناً مشهورا. إنني مقتنع شخصيّاً ببراءته، لذلك فأنني لست متأكداً فيما إذا سيبقى عندنا أم أنه سيخرج ذات يوم ويقدم

عروضه الناجحة من جديد كما في السابق. الآن عليّ أن أقيسه على الرغم من أنني قمت بذلك قبل يومين.

إنني، أوسكار، سأهرع إلى القلم ثانية دون أن أتفحص إعادة الرواية التي دوّنها معيني برونو. لقد قام برونو للتو بقياسي بمسطرته القابلة للطي فتركها على جسدي، ثم غادر غرفتي معلناً نتيجة القياس بصوت عال؛ بل أنه تخلى حتى عن تشكيلات خيوطه التي اشتغل عليها في الحفاء أثناء ما رويت عليه قصتي. أظنّ أنه أراد استدعاء الآنسة الدكتورة هورنشتيتر. لكن قبل أن تأتي الطبيبة لتأكد قياسات برونو؛ فإن أوسكار يريد التحدث إليكم: خلال تلك الأيّام الثلاثة التي رويت فيها قصّة نموّي على معيني كسبتُ قامتي - فيما إذا كان هذا يعدّ مكسباً حقّاً! - سنتمترين بالتمام والكمال. واعتباراً من هذا اليوم فإن طول أوسكار بلغ متراً وثلاثة وعشرين سنتيمترا. وسيروي الآن ما جرى له بعد الحرب، حينما غادر مستشفى دوسلدورف البلدي شاباً معافى إلى حدّ ما، قادراً على الكلام، لكنه بدا متردداً في الكتابة وطليقاً في القراءة، حتى وإن كان مشوّه الجسد، لكي يبدأ حياةً جديدةً حريّة بالبالغين مثلما يعتقد المرء بعد خروجه من المستشفى.

الكتاب الثالث

حجر صوان وشواهد

ثمّة سمنة ناعسة وطيّبة السريرة: إذ لم تضطر غوسته تروجنسكي إلى تغيير نفسها بصفتها غوسته كوستر، لاسيما أنها لم تشعر بوطأة كوستر فوقها إلا في أسرّة الملجأ أثناء فترة الخطوبة التي دامت أربعة عشر يوماً قبل إبحاره إلى جبهة البحر المتجمّد بفترة قصيرة، وبعد ذلك بمناسبة إجازته من الجبهة. وحتى لو لم تصل أخبار عن مكان كوستر عقب استسلام الجيش الكورلاندي؛ فإن غوسته كان تردّ حين يسألها أحد عن بعلها بثقة وهي تشير بإبهامها في اتجاه باب المطبخ: «بلى، بلى، هو هناك في الأسر عند إيفان. إذا ما يرجع يختلف كل شيء.» وقد توقفت التغييرات التي يمكن أن تطرأ على دار ضاحية بلكه، المحفوظة أصلاً لكوستر نفسه، على ماريا ومن ثمة على سلوك كورت. حين خرجت من المستشفى بعدما ودعت الممرضات اللواتي وعدتهن بالزيارة، وركبت الترام قاصداً بلكه حيث مسكن الشقيقتين وولدي كورت، رأيت مركزاً لتجارة السوق السوداء في الطابق الثاني من البناية المحترقة من السقف إلى حدّ الطابق الثالث، كان ولدي ذو الأعوام الستة الذي يحسب بأصابعه وماريا يشرفان على إدارته. وكانت ماريا المخلصة والمطيعة لماتسرات حتى في تجارة السوق السوداء تتعامل بالعسل الاصطناعي، فكانت تعبئه بالجرادل الخالية من الكتابة، ثم تصفقه على ميزان المطبخ، وأجبرتني، حالما دخلت الدار، أي قبل أن أتآلف مع صلات القرابة، على لفّ لطخات العسل الاصطناعي التي يبلغ وزنها ربع رطل.

كان كورت يجلس وراء صندوق مسحوق غسيل كما لو أنه جلس إلى

طاولة بيع، فتطلع إلى العائد إلى أهله، أي إلى الأب الذي برئ من مرضه، بيد أنه سلط عينيه الرماديتين الشتويتين على شيء آخر أصبح عبر حضوري، ومن خلالي أيضاً، جديراً بالرؤية. كان يمسك بورقة ويسطّر عليها متسلسلة من الأرقام الخيالية، فبدا منظره يشبه منظر المفكّر أو التلميذ الطموح بعد ستة أسابيع من زيارته لصفوف المدرسة المكتظة السيئة التهوية. وكانت غوسته كوستر تحتسي القهوة. قهوة البنّ مثلما لاحظ أوسكار بعدما قدمت لي فنجانا. وبينما كنت منهمكاً بتعبئة العسل الاصطناعي أخذت غوسته تتأمل حدبتي بفضول لا يخلو من الشفقة على شقيقتها، فكان يصعب عليها البقاء جالسة، فنهضت لتتحسس حدبتي؛ إذ أن تحسس الحدبة يجلب الحظّ إلى جميع النساء، والحظّ في نظر غوسته يعني: عودة كوستر الذي سيغيّر كلّ شيء. وبدت متحفظة تماماً، تتحسس فنجان القهوة لمجرد التعويض، لكن بلا حظّ، ثم قذفت بحسرة حرّى من ذلك الذي النوع الذي كُتب عليّ أن أسمعه كلّ يوم خلال الشهور القادمة: «يمكن أن نتراهن على جرع السمّ، إذا ما رجع كوستر فيتغيّر كلّ شيء هنا: كأن عينك ما شافت من قبل!»

كانت غوسته تدين تجارة السوق السوداء، بين أنها كانت تحتسي بسرور قهوة البنّ المكتسبة بالعسل الاصطناعي، فتغادر غرفة الجلوس حالما يأتي الزبائن، وتحث جلبة في المطبخ، مرتعدة بصوت احتجاجي عال.

وكان يأتي الكثير من الزبائن، فبعد الساعة التاسعة مباشرة، أي عندما يبدأ الإفطار يرنّ الجرس: رنةّ قصيرة، فطويلة، فقصيرة. وفي المساء المتأخر، حوالي الساعة العاشرة، توقف غوسته الجرس على الرغم من احتجاج كورت الذي لا يستطيع العمل إلا بمقدار نصف الوقت المخصص للبيع والشراء بسبب المدرسة. فكان الناس يقولون: «عسل اصطناعي؟» فتهزّ ماريا رأسها إيجاباً وبرقة: «ربع رطل أو نصف؟» لكن هناك ناس لا يطلبون عسلاً اصطناعياً، بل يقولون «حجر صوان؟» فيرفع كورت الذي كان يذهب إلى المدرسة في أوقات متناوبة ضحىً أو عصراً؛ يرفع رأسه

من أرقامه الحسابية، فيتحسس أكياس القماش الصغيرة تحت بلوزته ويطلق أرقاماً في فضاء غرفة الجلوس بصوته صبياني حاد متحدّ. «ثلاثة أو أربعة؟ من الأفضل أن تأخذ حضرتكم خمسة. إنها ستصعد قريباً إلى حدّ الأربعة والعشرين على الأقل. في الأسبوع الأخير كان الرقم الساري ثمانية عشر، واليوم صباحاً كان عليّ أن أنطق برقم عشرين، ولو أنكم أتيتم قبل ساعتين، حين رجعت للتو من المدرسة، لقلت لكم واحداً وعشرين.»

كان كورت التاجر الوحيد لحجر الصوان على امتداد أربعة شوارع طولاً وستة شوارع عرضاً. وكان له منجم لا يفشي سرّه أبداً، لكنه كان يردد قوله دائماً كما لو أنه يردد صلاة المساء، حتى قبل أن يذهب إلى الفراش: «إنني امتلك منجماً!» فحاولت أن استفيد من حقّي كأب، لكي أطلع على منجم ولدي. كلّما صرّح بوعي وبلا كتمان «بأنني امتلك منجماً»؛ فإن سؤالي كان يعقب تصريحه مباشرة: «من أين تأتي بالحجر؟ يجب أن تعترف فوراً من أين تأتي بالحجر؟» وأمّا خطبة ماريا الثابتة في تلك الشهور ردّاً على تحرياتي عن مصدر الحجر فقد كانت كالآتي: «دع الصبي وشأنه يا أوسكار. أولاً لأن هذا الأمر لا يخصك. ثانياً إذا كان هناك سؤال فسأطرحه أنا. ثالثاً لا تلعب هنا دور الأب. قبل بضعة شهور لم يكن بمقدورك أن تنطق بحرف واحد!»

وإذا ما أبيت الانصياع إلى ماريا، مصرّاً على معرفة المصدر الذي يستمد منه كورت حجره؛ فإنها تصفع أحد جرادل العسل الاصطناعي براحة يدها وينتابها الغضب إلى حدّ مرفقيها وتهاجمنا أنا وغوسته التي كانت تؤيد أحياناً تحرياتي عن المصدر: «أنتم تصلحون لي فعلاً! هل تريدون إفساد تجارة الولد؟ لكنكم تعيشون من نقوده. إذا ما فكرت في السعرات الحرارية التي قدمتها لأوسكار كعلاوة، لأنه مريض، فالتهمها خلال يومين فإنني أشعر بالغثيان، لكنني أضحك على ذلك فقط.» فأوسكار يعترف بأنه كان يتمتع آنذاك بشهية يُحسد عليها. بلا شكّ أن الفضل كان يعود إلى منجم كورت الذي أعاد لي عافيتي من جديد بعد طعام المستشفى الشحيح. وتوجب على الأبّ أن يصمت خجلاً، ثم يغادر

قدر الإمكان سكن ضاحية بلكه حاملاً مصروف جيب محترم من بركات كورت الطفولية، لئلا يرى عاره ماثلاً أمام عينيه. وهناك عدد وافر من نقّاد المعجزة الاقتصادية(*) المرموقين يزعمون اليوم وبحماس كلّما قلّ تذكرهم للحالة آنذاك: «كان زمنا رائعاً قبل إصلاح النقد! كانت الدنيا مقلوبة!»

كان الناس بطونها خاوية ومع ذلك تقف طوابير على تذاكر المسرح. كذلك الاحتفالات المرتجلة التي يُقدم فيها عَرَقُ البطاطس بدت خرافية بكل بساطة، أكثر نجاحاً من حفلات هذه الأيّام التي يقدم فيها الكونياك والشمبانيا. وهكذا كان رومانسيو الفرص الضائعة يتحدثون. أمّا أنا أيضاً فعليّ في الواقع أن أشكو مولولاً، إذ عندما كان منجم كورت يجود بحجر الصوان بدأت بتثقيف نفسي مجاناً إلى حدّ ما لدى دائرة من آلاف المهتمين بالتعليم وطالبي التزوّد بالعلم استدراكا. فأنهيت دورات تعليمية في الجامعة الشعبية، وأصبحت ضيفاً دائماً على المركز البريطاني الذي يدعى «الجسر»، وناقشت مسألة الذنب الجماعي مع الكاثوليكيين والبروتستانتيين، وشعرت بالذنب مع أولئك الذين شعروا على هذا النحو: دعونا نحسم الأمر الآن، لنتفرغ لأنفسنا فيما بعد ولم نعد بحاجة إلى تأنيب الضمير إذا ما حدث نهوض وتقدم.

وعلى أية حال، إنني أدين للجامعة الشعبية بمستواي التعليمي المليء بالثغرات، وإن كان متواضعا. كنت أقرأ كثيراً آنذاك. فلم يعد يكفيني كتاب القراءة ذاك الذي قسم العالم نصفين قبل مرحلة النموّ الجسدي، نصفاً لغوته ونصفاً لراسبوتين، ولا معلوماتي المستمدة من كتاب كوهلر عن تقاويم الأساطيل في الفترة الواقعة بين العام الرابع والعام السادس عشر. ولم أعد أعرف كلّ ما كنت قرأته. إذ أنني كنت أقرأ في المرحاض، أو أثناء الوقوف ساعات طويلة للحصول على تذكرة لدخول المسرح، محصوراً بين الفتيات ذوات الضفائر التي تشبه ضفيرة موتسرات،

(*) يقصد هنا مرحلة النهوض الاقتصادي التي رافقت عملية إعادة البناء في ألمانيا الغربية عقب الحرب العالمية الثانية والتي عرفت بالمعجزة الاقتصادية.

الفتيات اللواتي كنّ يقرأن كذلك. كنت أقرأ بينما كان كورت يبيع حجر الصوان، بل أقرأ وأنا ألفّ العسل الاصطناعي في الورق. إذا ما انقطع التيّار الكهربائي فكنت أقرأ على ضوء الشموع التي احتفظنا بها بفضل منجم كورت.

ومن الخجل القول إن القراءة في تلك الأعوام لم ترسخ في أعماقي بل تنصلت عنّي، فلم يبق منها سوى بضع كلمات متفرقة وبضع مقدمات مقتضبة على الأغلفة. والمسرح؟ أسماء ممثلين مثل: «ماريانا هوبه» و«بيتر أيسر» وحرف الراء الذي يلثغ به «فلكنشيلد»، والممثلات اللواتي يحاولن إصلاح لفظه لحرف الراء على مسارح الجيب، و«غروندغنس» المتلفع بالسواد تماماً وهو يمثل دور تاسو، فكان يرفع إكليل الغار الذي أوصى به غوته عن الباروكة؛ لأن الإكليل يخرّب، حسب اعتقاده، خصلات الباروكة، وثمة غروندغنس من جديد في سواد مماثل وهو يلعب دور هاملت. وزعم فلكنشيلد بأن هاملت كان بديناً. إضافة إلى رأس يوريك الذي ترك في نفسي وقعاً كبيراً لأن غروندغنس قال عنه أشياءً مؤثرة حقّا. لقد مثّلوا أمام الجمهور الحزين من فرط التأثر مسرحية «في الخارج خلف الباب»(*) على قاعات مسرح خالية من التدفئة. فتخيلت شخصية بكمان ذي النظّارة المحطمة في المسرحية وكأنها شخصية زوج غوسته، كوستر العائد إلى أهله، الذي سيغيّر كلّ شيء على حدّ تعبير غوسته فيطمر منجم حجر الصوان التابع لولدي كورت.

أمّا اليوم وبعد أن خلّفت ذلك ورائي؛ فإنني أعلم بأن نشوة ما بعد الحرب لم تكن أكثر من نشوة، تقود معها قطّاً يموء بلا انقطاع، محيلاً اليوم الذي بدا لنا في الأمس طازجاً ودموياً، بصفته عملاً ما أو جريمة اقترفناها ببساطة، محيلاً إيّاه إلى مجرد تاريخ. إنني اليوم أكيل الثناء في نفسي على دروس غريتشن شفلر التي تلقيها بين الشعارات النازية وقطع

(*) فولغانغ بورشرت (١٩٢١-١٩٤٧) قاص وكاتب مسرحي ألماني، اشتهر بعد الحرب العالمية الثانية بمسرحيته «خلف الباب»

الحياكة: قليلاً من راسبوتين وغوته باعتدال ونبذاً مختصرة من تاريخ مدينة دانسغ الذي كتبه كايزر وتجهيز سفينة مدنية غريقة بالمدافع، والسرعة المحسوبة بالعقد لجميع الطوربيدات اليابانية التي خاضت المعركة الحربية في تسوشيما، إضافة إلى بيلزار و نارسس وتوتيلا وتيّا وكفاح فيلكس دان من أجل روما.

وفي ربيع العام السابع والأربعين تخليّت عن الجامعة الشعبية والمركز البريطاني والقسّيس نيموللر(*)، مودعاً غوستاف غروندغنس من الصفّ الثاني الذي مازال اسمه موجوداً في برنامج العرض بصفته ممثلاً لشخصية هاملت. فلم يمض في الواقع عامان على اتخاذي لقرار النمو عند قبر ماتسرات، حتى باتت حياة الكبار البالغين لا تعني شيئاً في نظري، فصرت أحنّ إلى تقاسيم جسد الصبي ذي الأعوام الثلاثة، متمنياً العودة مرّة ثانية، وبشكل حاسم إلى السنتمترات الأربعة والتسعين، أي أن أكون أصغر من صديقي بيبرا ومن المرحومة روزفيتا. لقد افتقد أوسكار طبله، حين كانت جولاته الطويلة تجعله قريباً من المستشفى البلدي. وبما أنه فُرض عليه الذهاب كلّ شهر إلى البروفيسور إرديل الذي أطلق عليه مصطلح «حالة مثيرة»؛ فإنه بدأ يزور أيضاً الممرضات اللواتي تعرّف عليهن، شاعراً بالارتياح والسعادة إلى حدّ ما بالقرب من الثياب البيضاء المتعجلة المبشرة بالشفاء أو المنذرة بالموت، حتى لو كانت المعينات لا يملكن وقتاً كافياً له.

وكانت الممرضات يكنن لي ودّاً، فيمارسن المزاح الصبياني، لكن غير الخبيث، مع حدبتي، ويقدمن لي طعاماً جيّداً، ويبحن لي بحكايات المستشفى المتشابكة اللامتناهية التي تجعل المرء يشعر بالنعاس اللذيذ. فكنت أصغي وأسدي لهن النصائح، بل أقوم بأعمال الوساطة في

(*) مارتن نيموللر (١٨٩٢-١٩٨٤) راهب بروتستانتي، من أبرز قادة «كنيسة الالتزام» Die Bekennende Kirche المعارضة للنظام النازي، أعتقل من ١٩٣٧ إلى ١٩٤٥.

المشاجرات الصغيرة؛ لأنني كنت أتمتع بتعاطف رئيسة الممرضات واحترامها.

كان أوسكار منذ سنّ العشرين إلى الثلاثين الرجل الوحيد المرغوب بشكل نادر من قبل الفتيات المستترات تحت زيّ الممرضات. وقد قالها برونو: إن أوسكار يتمتع بيدين معبرتين وشعر خفيف التموّج وعينين زرقاوين بما فيه الكفاية، عيني برونسكي المغريتين. فلعلّ حدبتي والقفص الصدري الضيق، المحدودب بالقدر ذاته، المبتدأ أسفل الحنك مباشرة، يقفان على النقيض تماماً من جمال يدي وعيني وشعري؛ على أية حال، كان كثيراً ما يحدث أن تمسك الممرضات بيديّ حين أكون جالساً في غرفة القسم المخصصة لهن، فيداعبن أصابعي، وشعري كذلك، ثم يخاطبن بعضهن البعض عند الانصراف: «إذا ما تطلع المرء إلى عينيه فإنه ينسى جميع الأشياء الأخرى.»

كنت في الحقيقة متفوقاً على حدبتي، عاقداً العزم تماماً على القيام بغزوات داخل المستشفى لو أنني تمكنت آنذاك من طبلي ومن قدرتي المشهود لها في التطبيل. إلا أنني كنت أنصرف من المستشفى إثر هكذا مقدمات حسيّة رقيقة؛ انصرف بحياء وارتباك، غير واثق من انفعالات جسدي، متحاشياً القيام بفعل مثير، مسلماً نفسي للنسيم، فأتجوّل في الحديقة أو أطوف حول سياج الأسلاك الشائكة الذي كان يطوّق المصحّة بانتظام وبعيونه الضيقة السباكة التي كانت تعلل نفسي بالصبر. فأتطلع إلى مقطورات الترام الذاهبة في اتجاه فيرستن وبينرات، شاعراً بالملل الخفيف، مبتسماً بسخرية من إسراف الطبيعة التي كانت تلعب دور الربيع، جاعلةً البراعم تتفجر كالمفرقعات حسب البرنامج. ومقابل ذلك كان الرسّام الهاوي المخيّم فوقنا كلّنا يلوّن يوماً بعد يوم بفرشاته، وبصبغ طازج، أشجار مقبرة «فيرستن» بالاخضرار المرهف. إن المقابر كثيراً ما تستهويني وتستدرجني. كانت منتظمة معتنى بها، ساطعة الوضوح، منطقية، رجوليّة، حيويّة. والمرء يستطيع أن يستمد الشجاعة منها ويتخذ القرارات فيها، كما أن ملامح الحياة المحددة تتجلى أوّل الأمر في المقابر

- إنني لا أعني الإطارات - وفي المقابر أيضاً تكتسب الحياة معنى، إن شاء المرء.

كان هناك درب رجاء على امتداد السور الشمالي للمقبرة، حيث تنافست سبعة محلاّت للشواهد، محلاّت كبرى على شاكلة «س. شموغ» و «يوليوس بوبل»، لكن بينها دكاكين صغيرة بأسماء مثل «ر. هايدنرايش» و«ي. بويس» و«كون وموللر» و«ب. كورنيف»، وهي خليط من الأكشاك والاستوديوهات واللافتات المعلقة عند السقوف المطليّة حديثاً أو المقروءة نوعاً والتي حملت عبارات تحت أسماء أصحابها من قبيل: محلّ شواهد - وتماثيل قبور وإطارات- ومعمل الحجر الفنّي والطبيعي - أو فنّ تزيين القبور. و استطعت أن أتهجّى على كشك كورنيف الكلمات التالية: ب. كورنيف مصنّع الأحجار ونحّات تماثيل القبور.

واصطفت تماثيل القبور المخصصة للأفراد أو الجماعات التي يصل عددها إلى أربعة أفراد، أي القبور العائلية، موضوعة على قواعد بسيطة أو مركبة ومصفوفة بوضوح بين الورشة وسياج الأسلاك الشائكة المحيط بها. وثمة ألواح احتوت على رسوم قواقع متحجرة لتلبية الطلبات المتواضعة، وصخور بركانية نحت عليها سعف نخيل كابيّ البريق، وشواهد أطفال ذات ارتفاع تقليدي بلغ ثمانين سنتمتراً، غائرة من الأعلى المصنوعة من المرمر الألماني «الشليزيّ» الغائم الشكل قليلاً، مثّلت على الأغلب زهوراً مثنية في الثلث العلوي الغائر الذي احتوى على النقش البارز، مركونة مباشرة وراء الشرك الذي أتاح لنماذج الظلّ المربعة الشكل الظهور أثناء الطقس المشمس. ثم أتى بعد ذلك صفّ من الحجر الذي يبلغ ارتفاعه متراً واحداً؛ حجر نهر الماين الرمليّ الأحمر المنتزع أصلاً من واجهات البنوك والمحلاّت التجارية المقصوفة الذي احتفى آنذاك بانبعاثه إلى الحياة، إذا ما يحق للمرء أن يطلق تعبيراً كهذا على حجر. أمّا القطعة الفنيّة الرائعة فقد انتصبت في منتصف المعرض: كانت عبارة عن نصب مؤلف من ثلاث قواعد وقطعتين جانبيتين وجدار مليء بالنقوش البارزة، منحوت من المرمر التيرولي الأبيض. وعلى الجدار الرئيسي ارتفع بسموّ

ذلك الشيء الذي يطلق عليه النحّاتون اسم الجسد، فكان جسداً برأس، حليق الذقن، وبركبتين مائلتين إلى اليسار وإكليل أشواك وثلاثة مسامير، وبيدين مشرعتين، وجرح غائر في الصدر، نزف خمس قطرات حسبما ظننت. وعلى الرغم من جود الكثير من تماثيل القبور ذات الأجساد المتجهة يساراً - قبل بداية موسم الربيع يكون هناك أكثر من عشرة تماثيل مشرعة أيديها -، لكن مسيح كورنيف ولّد في نفسي انطباعاً خاصاً؛ لأنه، نعم؛ لأنه كان أكثر شبهاً بلاعب الجمباز فوق المذبح الرئيسي لكنيسة- قلب-يسوع الذي استعرض عضلاته، رافعاً قفصه الصدري إلى الأعلى. فأمضيت ساعات أمام السياج، حيث مررت عبر الشرك ذي الفتحات الضيقة عوداً صغيراً، معرباً عن هذه الأمنية أو تلك، وفكرّت في كلّ ما هو ممكن وفي لاشيء أيضا. فبقي كورنيف محجوباً فترة طويلة. ومن إحدى نوافذ الأستوديو اندفعت عدّة مرّات ماسورة مدخنة، منثنية، مرتفعة درجة أعلى من السطح. كان الدخان الأصفر للفحم الرديء يتصاعد بهدوء، ثم يهبط على ورق السقف المطلي بالقار، متسرباً إلى الأسفل عبر النوافذ والمزراب، ليتبدد بين الصخور الخام وألواح المرمر. أمام باب الورشة الذي كان يقفل ويفتح بالانزلاق وقفت سيّارة بثلاث عجلات مغطاة بالمشمّع كما لو أنها مموهة لكي لا تستهدفها الغارات الجويّة المنخفضة الارتفاع. ثمة أصوات انطلقت من الورشة - خشب يضرب فوق الحديد، وحديد يفلق الحجر - معلنةً عن انهماك النحّات في العمل.

في شهر مايو / آيار كان المشمّع يختفي من السيّارة ذات العجلات الثلاث فيكون الباب مفتوحا. فكنت ألمح في داخل الورشة صخوراً مكومة فوق بعضها وعارضة ماكينة الصقل والتنعيم، ورفوفاً مليئة بقوالب الجبس، وفي الأخير كورنيف نفسه. كان يخطو محدودباً بركبتين مثنيتين ورأس متشنّج بارزاً إلى الأمام. ثمة أشرطة لاصقة وردية سوداء متسخة بالشحم تقاطعت على قفاه. جاء كورنيف حاملاً مجرفة مسننة وصار يعالج الأعشاب بين الشواهد المعروضة، لأن الوقت كان ربيعا. ففعل ذلك بعناية كبير، مخلفاً آثاراً متغايرة على الحصى، وأخذ يجمع الأوراق

المتساقطة في العام المنصرم الملتصقة على بعض التماثيل. قبالة السياج مباشرة، وبينما كانت المجرفة تتحرك بحذر بين ألواح القواقع المتحجرة والصخور البركانية فاجئني صوته: «ماذا أيها الشاب؟ يبدو أنهم لا يريدونك في البيت؛ وإلا؟»

فقلت مجاملاً: «إن شواهدك أعجبتني تماما.»

«لكن يجب إن لا يقال ذلك بصوت عال، وإلا سيضعونها فوق الناس مباشرة.»

والآن بدأ يجهد قفاه المتصلّب، فشملني، أو بالأحرى شمل حدبتي ببصره المائل: «ما هذا الذي فعلوه بك؟ ألا يضايقك هذا الحمل أثناء النوم؟»

فتركته ينتهي من قهقهته، ثم أوضحت له بأن الحدبة ليست مزعجة بالضرورة، فهناك نساء وفتيات يتلهفن شوقاً إلى الحدبة، بل يتكيفن مع ظروف الرجل الأحدب وإمكانياته، ويجدن، بصراحة، متعة في ذلك. فأمعن كورنيف في التكفير وهو يسند حنكة إلى المجرفة: «هذا جائز تماماً، لكنني لم أسمع به من قبل.» ثم تحدث لي عن وقته الذي أمضاه في منطقة الآيفل حيث عمل في مقلع الصخور، وأقام علاقة بامرأة كان يمكن فكّ رباط ساقها الخشبية، اليسرى حسبما أعتقد، وعقد مقارنة بين ساقها و«صندوقي»، على الرغم من أن صندوقي لا يمكن حلّ وثاقه. كان النحّات يروي حكايته بإسفاف وإسهاب وتكلّف. فانتظرت إلى أن انتهى وقام بربط ساق المرأة من جديد، ورجوته أن يطلعني على ورشته.

فتح كورنيف باب الصفيح في منتصف السياج، وأشار بمجرفته يدعونني إلى المضي في اتجاه الباب المفتوح، فجعلت الحصى يطقطق تحت قدميّ، حتى تلقفتني رائحة الكبريت والجير والرطوبة. هراوات خشبية مستوية من الأعلى لها شكل الكمّثرى وبدت كخيوط منسولة، ومفصحة عن التصدعات ذاتها، وقد استقرت على سطوح خشنة الاستواء، إلا أنها كانت ممهدة بأربع ضربات. قضبان حديد مدببة لمطارق الزخرفة ذات الرؤوس الخشبية، قضبان حديد مدببة برؤوس هراوات وقضبان مسننة

طازجة الصبّ لم تزل زرقاء بفعل التقسية وحديد طرق وصقل المرمر طويل مطاوع وإزميل نحت عريض وقصير على مرمر إيطالي أزرق ومواد جلخ طينية موضوعة للتجفيف فوق حامل خشبي رباعيّ القوائم وفوق خشب دائري جاهز للدوران و لوح من الحجر الجيري، مركون بشكل عموديّ، باهت اللون مصقول جاهز، وبدا: ثخيناً ، أصفر، شاحباً، ذا مسام، بدا قبراً معدّاً لشخصين.

«هذه مطرقة خشب، هذا قلم حديد للحزّ، هذا قلم للحفر، وهذا»، رفع كورنيف لوحاً بعرض اليد وبطول ثلاث أقدام، ثم وضع حافته أمام عينه ليتفحصها، «هذه آلة برد أقلام الحديد إذا تثلّمت.»

بيد أن سؤالي لم يكن مهذباً فحسب: «هل تشغّل لديك متدربين؟»

فردّ كورنيف شاكياً: «أستطيع أن أضع خمسة منهم في العمل. لكن صعب الحصول على واحد منهم. اليوم يتعلم الأوغاد كلّهم التجارة في السوق السوداء!» فكان النحّات يقف مثلي على الضد تماماً من تلك الأشغال الملتبسة التي تمنع الشاب المستقيم المفعم بالأمل من تعلّم مهنة منتظمة. وبينما كان كورنيف يستعرض لي أحجار الصقل الناعمة منها والخشنة وتأثيرها على لوحة من الرخام، قلّبت في ذهني فكّرة صغيرة. فثمة حجر تنظيف، حجر بنّيّ معدّ للتنعيم الأوّلي، مسحوق ترابيّ يلمّع به المرء ما كان منطفئ اللون، ثم جاءت فكرتي الصغيرة التي مازالت تلمع بارقة. فأطلعني كورنيف على نماذج من الخطوط وحدثني عن الخط الجزل البارز والغائر، وعن طلاء الخطّ بماء الذهب، ذاكراً التعامل مع الذهب، الذي لم يكن أمراً عسيراً تماماً: فبدرهم قديم جيّد يستطيع المرء أن يطلي جواداً وفارساً، مما جعل تمثال القيصر غليوم الممتطي جواده في دانسغ، عند هويماكت، المتجه إلى حفرة الرمل، يزداد في مخيلتي وضوحاً، ذلك التمثال الذي بات أمر طلائه بالذهب متعلقاً بقرار مؤسسة حماية الآثار البولندية، بيد أنني لم أنبذ فكرتي الصغيرة التي بدأت تكتسب قيمة أكثر فأكثر على الرغم من الجواد والفارس المكسويين برقائق الذهب، فصرت أغازلها، وصغتها حين شرح لي كورنيف ماكينة التنقيط ذات القوائم

الثلاثة، والمخصصة للأعمال النحتية، ناقراً بمفصل إصبعه باعتزاز على مختلف نماذج الجبس المتجهة يميناً وشمالاً التي كانت تجسّد المصلوب: «إنك ستشغّل إذاً أحد المتدربين؟» ثم سارت فكرتي الصغيرة في دربها. «إنك تبحث في واقع الحال عن متدرب، وإلا؟» فحكّ كورنيف الشريط اللاصق على قفاه المتقيّح. «أعني فيما إذا ستعيّن متدرباً عند الضرورة؟» كان هذا السؤال قد طُرح بشكل سيئ، فأصلحته على الفور: «أرجو أن لا تستهين بقدراتي يا سيّد كورنيف المحترم! إن ساقيّ وحدهما ضعيفتان بعض الشيء. لكن لا يعوزني التشمير عن ساعديّ!» ومن فرط تحمسي بفعل عزيمتي شمّرت فعلاً عن ذراعي اليسرى، مغامراً بكلّ شيء، مقدماً لكورنيف عضلة صغيرة في الواقع، ليتحسسها، لكنها بدت صلبة صلابة لحم البقر؛ ولأنه لم يتحسس عضلتي فإنني التقطت إزميل نقش من فوق حجر جيريّ، وجعلت القطعةِ المعدنية السداسية الحواف تقفز على ربوتي التي كان حجمها بحجم كرة المضرب، ولم أتوقف عن استعراضي إلا بعد أن شغّل كورنيف ماكينة الشحذ، تاركاً قرص التنعيم الأزرق الرمادي يجأر دائراً فوق قاعدة الحجر الجيريّ للوح المخصص لفردين، وأخيراً علا صوته على زعيق الشحذ وهو يثبّت بصره في الماكينة: «نم يا فتى ليلتك. هذا ليس لحس عسل. فإذا أردت بعد ذلك أن تأتي فتعال كمتمرن.»

فأطعت النحّات ونمت على فكرتي الصغيرة أسبوعاً كاملاً، عاقداً المقارنات في النهار بين حجر الصوان العائد لكورت وشواهد درب الرجاء، منصتاً لتأنيب ماريا: «أنت تعتاش على محفظة نقودنا يا أوسكار. فأبدأ بمشغلة ما: في الشاي أو الكاكاو أو الحليب المجفف!» لكنني لم أبدأ بمشغلة منها، تاركاً غوسته التي كانت تثني أمامي على كوستر الغائب باعتباره نموذجاً، وتكيل المديح لي بسبب امتناعي عن التعامل مع السوق السوداء، غير أنني عانيت كثيراً تحت وطأة ولدي الذي كان يخترع متسلسلات من الأرقام ويدوّنها على الورق، متجاهلاً وجودي بالطريقة ذاتها التي تجاهلت بها ماتسرات أعواماً طويلة.

كنّا نجلس حول طعام الغداء، بعدما أوقفت غوسته جرس الباب،

لكي لا يفاجئنا زبون أثناء تناولنا عجّة البيض وشحم الخنزير. قالت ماريا: «هل ترى يا أوسكار أننا نتمكن من هذا؛ لأننا لا نضع أيدينا في أحضاننا بلا شغل ولا عمل.» فقذف كورت بحسرة. كان حجر الصوان قد هبط إلى ثمانية عشرة. لاحظت بأن غوسته كانت تأكل كثيراً وبصمت. فحذوت حذوها، مستطيباً طعماً ما، مخترعاً طعماً ما، بسبب مسحوق البيض المجفف على الأرجح، منكسر النفس، شاعراً بأنني عضضت على غضروف في الشحم، متلهفاً حتى أذنيّ، وبشكل طارئ بغية العثور على سعادة، فأصبحت توّاقاً إلى السعادة على الرغم من معرفتي باستحالة ذلك، فبات الشكّ كلّه عاجزاً عن التغلّب على رغبتي في تحقيق السعادة، إذ كنت أطمح إلى نيل السعادة بلا حدود، فنهضت بينما بقي الآخرون جالسين يتناولون الطعام، مرتاحين لمسحوق البيض المجفف، وخطوت نحو الخزانة، كما لو أن الحظ كان متأهباً جاهزاً، وأخذت أنبش في دُرجي، فعثرت، كلا؛ لم أعثر على الحظّ، إنما على عقد الياقوت الأحمر خلف ألبوم الصور وعلى كتاب التعليم وعلبتي المطهّرات التي زوّدنا بها السيّد فاينغولد؛ عثرت على عقد أمّي المسكينة الذي تلقفه يان برونسكي من إحدى الواجهات قبل أعوام وفي ليلة شتوية مترعة رائحة الثلج، واجهة متجر كان أوسكار السعيد آنذاك، القادر على كسر الزجاج، قد ولّد فيها ثغرة دائرية. ثم غادرت البيت حاملاً معي الحلية، مبصراً في الحلية المقدمة الموصلة إلى...، واضعاً قدمي على الطريق...، ثم ركبت الترام إلى المحطة الرئيسية، فإذا ما تمّ الأمر...، حسبما فكّرت، فإنني...، ثمّ تفاوضت وقتاً طويلاً...، فاتضح لي بأن...لكن الرجل المبتور الذراع والرجل السكسوني الذي أطلق عليه الآخرون لقب المرشّح اتفقا فقط على القيمة العينيّة، غير مدركين بأنهما جعلاني مهيئاً وناضجاً تماماً لنيل السعادة حين منحاني حقيبة يدوية من الجلد الطبيعي وخمس عشرة خرطوشة سجائر من ماركة لوكي سترايك الأمريكية ذات العشرين علبة، مقابل عقد أمّي المسكينة.

في وقت العصر التحقت بالعائلة في مسكن ضاحية بلكه، وأفرغت ما

أتيت به: خمس عشرة خرطوشة، يا لها من ثروة، لوكي سترايك، عشرون علبة في الخرطوشة الواحدة، فتركت الآخرين يصابون بالدهشة، ثم زحزحت جبل التبغ الأشقر المعلب أمامهم، وقلت إن هذا لكم، فاتركوني بسلام منذ اليوم، فهذه السجائر تضاهي ثمن تركي بسلام، إضافة إلى أنكم يجب أن تزودونني كلّ يوم، اعتباراً من الآن، «بقدر متاع سفرّي» مليء بطعام الغداء الذي سأحمله في حقيبتي يومياً من البيت إلى مكان عملي. ثم أضفت بلا سخط أو شكوى كونوا سعداء بالعسل الاصطناعي وحجر الصوان؛ فإن فنّي سيكون شيئاً مختلفاً، وسيُكتب حظّي على شواهد القبور منذ الآن، أو سينقش على الشواهد بشكل حرفيّ رائع.

وظّفني كورنيف متدرباً بمائة مارك ألمانيّ في الشهر، أي بمبلغ يكاد أن لا يساوي شيئاً، ومع ذلك فإنه كان مجزياً في نهاية المطاف. فبعد أسبوع واحد أتضح بأن قواي الجسمانية لم تكن كافية لأعمال النحت الأوّلية القاسية. إذ توجب عليّ أن أسطّح حجر غرانيت بلجيكيّ قُلع للتو، معدّاً لقبر رباعيّ، وبعد ساعة واحدة أصبحت عاجزاً عن الإمساك بالقضيب الحديدي، بل أنني أمسكت بإزميل التسطيح دون أيّ شعور به. فاضطررت إلى التخلي عن النحت المدبب الأوّلي ليقوم به كورنيف، في حين أظهرت مهارة في أعمال التنعيم الدقيق أو التسنين أو التأكد من استواء السطح من خلال شاقولين معاً، وسحب البلاطات الأربع، وحزّ إطارات الرخام بلاطة إثر أخرى. ثمة جذع خشبيّ عمودي رباعي الحواف، ينتهي من الأعلى بشكل T، جلست عليه، أعالجه بقضيب من حديد بيدي اليمنى، طارقاً بيدي اليسرى، على الرغم من اعتراض كورنيف الذي أراد أن يحوّلني إلى أيمنَ اليد، طارقاً الكمثرى الخشبية ومستخدماً الإزميل الحديدي والمطرقة الخشبية فجعلتها تقرقع وترّن، عاضةً على الحجر بأربعة وستين سنّاً خشبياً في وقت واحد، حتى أنهكته: حظّ، لكنه لم يكن طبلي، بل ما يعوّض عنه، ربما لم تكن هناك سعادة إلا باعتبارها تعويضاً، فالسعادة هي دائماً بديل للسعادة ذاتها، وهذا أمر يترسب شيئاً فشيئاً: سعادة المرمر، سعادة الحجر الرمليّ، حجر جبال الألب الرمليّ، حجر نهر الماين الرمليّ،

حجرك(*) الرمليّ، حجرنا الرمليّ، سعادة ناحية كيرشهايم، سعادة غرنسهايم، سعادة قاسية: مرمر إيطالي أزرق. سعادة غائمة متداعية: سعادة الرخام الأبيض. فولاذ يتوغل بسعادة في الصخر البركاني. رخام الدولوميت: سعادة خضراء. سعادة رقيقة: حجر مساميّ من رماد البراكين. سعادة متعددة الألوان قادمة من نهر لاهن. سعادة مساميّة: حجر البازلت الصلد. سعادة مصابة بنزلة برد: من منطقة آيفل. لقد تفجرت السعادة كالبركان، ثم ترسبت متربةً، وأخذت تصرّ بين أسناني.

لقد كشفت اليدّ السعيدة عن قدرتها أثناء حفر الخطوط، فتجاوزت بذلك حتى كورنيف نفسه؛ إذ أنني أنجزت الجزء الزخرفيّ من العمل النحتي: فزخرفت أوراق الأقنوث، وزهوراً منثنية مخصصة لقبور الأطفال، وسعف نخيل، ورموزاً مسيحية مثل: PX أو INRI، إضافة إلى الأشكال المقعرة أو الدائرية أو البيضوية أو المنحنية أو المزدوجة الانحناء. كان أوسكار يغبط شواهد القبور المتباينة الأسعار بشتّى المناظر النحتية فلم يدّخر وسعا. إذا ما نقشت خطّاً على لوح من الصخر البركانيّ مصقول، يصدر بريقاً كلّ مرّة تحت أنفاسي طوال ثمان ساعات، خطّاً من قبيل: هنا يرقد زوجي العزيز بين يد الله - سطر جديد - أبونا الطيّب، الأخ والعمّ - سطر جديد - يوسف أيسر - سطر جديد - المولود في ٣/ ٤/ ١٨٨٥ والمتوفّي في ٢٢/٦/١٩٤٦ - سطر جديد - الموت هو بوّابة الحياة -، فإنني أكون حينئذ سعيداً من ناحية تعويضية، ذلك يعني سعيداً على نحو ممتع، حينما أعيد قراءة النصّ، فأشكر يوزيف إيسر المتوفّى في سنّ الواحد والستين وأيضاً الصخر البركانيّ الأخضر أمام قلم الخطّ الحديديّ الذي استطعت من خلاله نقش الواوات العشرة على شاهدة إيسر بعناية فائقة؛ لذلك جاء حرف الواو الذي كان يحبه بشكل خاص كبيراً إلى حد ما، على الرغم من انتظامه واتساقه التام. وفي أواخر مايو بدأ زمني

(*) ينوّع غراس هنا على اسم نهر ماين، فيحيله إلى ضمير، ليلحق به ضمائر شخصية أخرى ذات إيقاع موحّد.

كمتدرب على النحت، وفي مطلع أكتوبر ظهر دمّلان جديدان على قفا كورنيف، فكان علينا آنذاك أن ننقل الحجر الجيريّ المعدّ لهيرمان فيبكنشت وإليزا فيبكنشت، المولودة باسم فرايتاغ إلى المقبرة الجنوبية. حتى ذلك الحين لم يكن النحّات الذي مازال غير واثق من قدراتي، راغباً في اصطحابي معه إلى المقابر. غالباً ما كان يعاونه في النقل عامل مساعد من معمل يوليوس فيبل، عامل أصمّ إلى حدّ ما، لكنه مفيد. فكان كورنيف يؤدي المهمة نفسه إذا لم يكن هناك أحد شاغر في معمل فيبل الذي كان يوظّف ثمانية عمّال. فدائماً ما عرضت عليه مساعدتي في أعمال المقابر، لكن بلا جدوى؛ ومع ذلك كنت أسحب نفسي إلى هناك حتى لو لم تكن القرارات قد صدرت في ذلك الحين. لحسن الحظّ بدأ الانتعاش المطّرد يعمّ معمل فيبل، فلم يستطع التخلي عن أي عامل قبل حلول فترة الصقيع، فاضطر كورنيف إلى الاعتماد عليّ.

وضعنا معاً لوح الحجر الجيريّ خلف العربة ذات العجلات الثلاث، ثم زحزحناه فوق خشب دائري صلب، ودحرجناه حيث مساحة مكان الشحن، ودفعنا القاعدة إلى جانبه، وغطيّنا الحواف بأكياس فارغة لغرض الحماية، ثم شحنّا عدّة العمل والإسمنت والرمل والحصى والأخشاب والصناديق للتنزيل، وأغلقت باب الشاحنة الخلفيّ، بينما جلس كورنيف وراء المقود، وأدار المحرّك، ثم أخرج من النافذة الجانبية رأسه وقفاه المتقيّح وصاح بي: «أسرع يا ولد. قليلاً من الهمّة. هات متاعك واصعد!»

وسرنا على مهل حول المستشفى البلدي. كانت هناك سحب بيضاء من ممرضات شخصت أمام المدخل الرئيسي. في وسطها معينة كنت أعرفها، تدعى الممرضة غيرترود. فلوّحت لها بيدي، فردّت عليّ التحية. يا لها من سعادة، هكذا فكّرت، لو أنها تقوم بدعوة مرّة أخرى، حتى لو أنني ما عدت أراها الآن؛ لأننا سرنا في اتجاه نهر الراين، حاملين معنا حاجةً لشخص ما، ولو أنها تقوم بدعوة في اتجاه (كابس هام) لزيارة السينما أو لرؤية غروندغنس في المسرح، فلاح لنا بناء القرميد الأصفر، ملوّحاً بيده، مقدماً لنا الدعوة، فأصبح ليس من الضروري الذهاب إلى

المسرح؛ إذ أن الدخان كان يتصاعد من قاعات حرق الجثث شبه الخالية، فما رأيك أيتها الممرضة غيرترود في تغيير كساء الجدران ذات يوم؟ مقابر أخرى ومحلاّت شواهد مختلفة: دورة أخرى على شرف الممرضة غيرترود أمام المدخل الرئيسي: معمل بويتس وكارنش، صخور بوتغيسر الطبيعية، معمل بومس لفنّ الشواهد، مشتل غوكل لزهور المقابر، ثمة تفتيش في الباب، لم يكن من السهل الدخول إلى المقبرة، فهناك إدارة ارتدت قبعة مقابر: حجر جيريّ لقبر بسعة شخصين، رقم تسعة وسبعين، حقل ثمانية، فيبكنشت، هيرمان، يضع يده على القبعة، متاع سفريّ يوضع في قلعة حرق الجثث لغرض التسخين؛ وأمام مبنى الجثث انتصب شوغر ليو.

قلت لكورنيف: «أليس هذا هو شوغر ليو بالقفّاز الأبيض؟»

فأجاب كورنيف وهو يحك دماملهٍ: «هذا الشخص هو مُطلِق الرذاذ فيللم وليس شوغر ليو، فهو يسكن هنا.» فكيف لي أن اكتفي بهذه المعلومة! إذ أنني في نهاية المطاف كنت موجوداً في دانسغ من قبل، والآن فأنا موجود في دوسلدورف، ومازال اسمي أوسكار: «كان عندنا شخص موجود في جميع المقابر، ويشبه هذا تماماً؛ كان اسمه شوغر ليو، ودخل في البداية في كلية الرهبان عندما كان اسمه مجرد ليو.» فانعطف كورنيف من أمام محرقة الجثث، واضعاً يده اليسرى على الدمامل واليمنى على مقود السيارة ذات العجلات الثلاث: «يمكن أن يكون هذا الكلام صحيحا. لكنني أعرف الكثيرين الذين يشبهونه وكانوا في البداية في كليّة الرهبان، وأصبحوا يعيشون اليوم في المقابر، فاتخذوا لهم أسماءً أخرى. هذا الذي هنا اسمه التفّال فيللم!» ومرقنا من أمام التفّال فيللم الذي حيّانا بقفّازه الأبيض، فشعرت وأنا في المقبرة الجنوبية كما لو أنني بين أهلي.

وحلّ شهر أكتوبر/ تشرين الأوّل، وثمة دروب مقابر مشجّرة، والعالم قد تساقط شعره وأسنانه، ومازلت أعتقد بأن ثمة أوراق صفراء تتأرجح في الأعلى والأسفل. صمت، عصافير، متنزهون، محرّك السيّارة ذات العجلات الثلاث يتحرك في اتجاه الحقل الثامن الذي مازال بعيدا. بيننا وبينه عجائز بأباريق رشّ ومعهن أحفادهن، ثمة شمس على الرخام السويدي

الأسود، مسلاّت، أعمدة حجرية متصدعة على نحو رمزيّ عميق، أو أنها أضرار حرب حقيقية، ملائكة خضراء اللون خلف شجيرات الصقّوس أو أحراش خضراء تشبه الصقّوس. وامرأة بيد من مرمر موضوعة أمام عينها، المرمر نفسه خطف بصرها. المسيح بنعل من حجر يبارك شجر الدردار، ومسيح آخر في الحقل رقم أربعة يبارك شجرة بتولا. أفكار جميلة على الدرب الشجريّ بين حقل أربعة وحقل خمسة: دعونا نقول: إنه البحر. والبحر يقذف، من جملة ما يقذف، جثّةً ما على الشاطئ. ثمة موسيقى كمان انبعثت من شاطئ تسوبوت وبدايات مترددة لألعاب ناريّة من أجل عميان الحرب. فانحني بصفتي أوسكار ذي الأعوام الثلاثة على حطام سفينة، متمنياً أن تكون ماريا، أو الممرضة غيرترود التي سأوجه إليها الدعوة ذات مرّة في آخر الأمر. لكنها كانت لوتسي، لوتسي الشاحبة مثلما أبلغتني الألعاب النارية المسرعة للوصول إلى ذروتها، فأكدت لي ذلك. لقد ارتدت أيضاً سترتها البافاريّة الحياكة التي كانت ترتديها حين تبدو سيئة النيّة. الصوف الذي خلعته عن جسدها كان مبللا. كذلك السترة التي ارتدتها تحت سترة الحياكة كانت مبللة. ثم تفتحت أمامي السترة البافاريّة مرّة أخرى. وفي الأخير تماماً، بعدما استنفدت الألعاب الناريّة طاقتها، ولم يبق سوى الكمان، عثرت على قلبها الملفوف في قميص «اتحاد الفتيات الألمانيات» المخصص للتمارين الرياضيّة، أي على قلب لوتسي، فوق الصوف وتحت الصوف وفي الصوف نفسه، عثرت على شاهدة ضئيلة الحجم مكتوب عليها: هنا يرقد أوسكار - هنا يرقد أوسكار - هنا يرقد أوسكار . . .

فقطع كورنيف أفكاري الجميلة التي فاض بها البحر وزينتها الألعاب النارية بالأضواء هاتفاً: «لا تنم يا فتى!». انحرفنا يساراً، فتراءى الحقل الثامن الجديد الخالي من الأشجار مسطحاً أمامنا وجائعا. وارتفعت التلال الذاوية للأكاليل البنيّة بشرائطها الممطورة الناصلة الألوان، ارتفعت بجلاء من سطح القبور الخمسة الطازجة التي لم تسوّى بعد. وعثرنا على الرقم تسعة وسبعين بسهولة في بداية الصفّ الرابع، بمحاذاة الحقل السابع مباشرة، الذي نبتت فيه بضع شجيرات فتيّة متعجلة النمو، وكذلك شواهد

قُدّ بعضها من المرمر الألماني الشليزيّ على الأغلب، فبدت منتظمة نسبيًا. تقدمنا نحو الرقم تسعة وسبعين من الخلف، ثم أنزلنا العدّة والإسمنت والحصى والقاعدة واللوح الجيريّ ذا اللمعان الزيتيّ الخفيف. فقفزت الشاحنة الثلاثية العجلات عندما دحرجنا قطعة الحجر فوق الصندوق من ظهر الشاحنة إلى الأسفل. فاستل كورنيف الصليب الخشبيّ المؤقت الذي كُتب على ضلعه الأفقيّ: ه. فيكنشت و ي. فيكنشت من رأس القبر، ثم طلب منّي أن أناوله المجرفة، فبدأ يحفر النقرتين بعمق متر وستين سنتمتراً لتثبيت عمودي الأسمنت حسبما تقضي لوائح المقبرة، بينما نقلت أنا الماء في حقل سبعة، وخلطت الإسمنت، وجهزته عندما قال (جاهز!) حين وصل الحفر إلى عمق متر وخمسين، فأصبح بمقدوري أن أدكّ الإسمنت في الحفرتين، في حين جلس كورنيف على اللوح الجيري، يلهث ويمدّ يده ليتحسس دماملِه. «قريباً سيحين الأوان. أنا أحسّ متى يحين الأوان وينتهي الأمر.» لكنني بقيت أدكّ بقدميّ ولم أشغل نفسي بما قاله إلا قليلاً. و انطلاقاً من حقل سبعة زحفَ موكبُ تشييع بروتستانتي قاطعاً حقل ثمانية نحو حقل تسعة. حين مرق الموكب بصفوفه الثلاثة من أمامنا تزحزح كورنيف من اللوح الجيريّ، فخلعنا طاقيتينا بدءاً من مرور القسيس حتى آخر المشيعين من ذوي الميّت بمقتضى تعاليم المقبرة. ثمة سيدة قصيرة عوجاء الجسد في ثياب حداد سارت بمفردها وراء النعش. ثم جاء بعدها أناس طوال كلّهم، ضخام الأجسام. فقذف كورنيف بحسرة إلى جانبي: «أنت لم تقفل الباب بصورة صحيحة! عندي إحساس أنهم سيغادرون قبل أن نتمكن من تثبيت جدار الحجر.»

وفي غضون ذلك وصل الموكب إلى الحقل الثامن، فاحتشد وتمخض عن صوت قسيس مرتفع تارةً ومنخفض طورا. كان بإمكاننا أن نضع القاعدة فوق الأساس؛ لأن الإسمنت تشربّ بالماء في تلك اللحظة. بيد أن كورنيف انبطح على بطنه فوق اللوح، ودسّ قبعته بين جبينه والحجر، ثم جذب ياقتي سترته وقميصه، فانكشف قفاه، عندما تناهت إلى آذاننا تفاصيل من سيرة حياة الفقيد، قادمة من الحقل التاسع إلى الحقل

الثامن. فتوجب عليّ ليس فقط أن أتسلق جدار الحجر الجيريّ، إنما اعتليت كورنيف نفسه من الخلف، فأدركت المفاجأة برمتها: كانت هناك نقرتان متجاورتان. ثمة مشيّع متأخر جاء يحثّ خطاه نحو حقل تسعة وفي اتجاه الموعظة التي أوشكت على الانتهاء. فقمت بمسح دهان الدمامل بورقة من شجر الزان بعدما انتزعت الشريط اللاصق بسحبة واحدة، وأبصرت الفوهتين المتصلبين المتساويتيّ الحجم إلى حدّ ما، بلونهما البنيّ الضارب إلى الصفرة. فهبّ علينا صوت انطلق من حقل تسعة: «دعونا نصلّي.» تلقيّت ذلك بمثابة إشارة، فأملت برأسي إلى الجانب، وصرت أعصر وأسحب بورق الزان تحت إبهاميّ. «أبونا الذي...» كورنيف أخذ يصرّ بأسنانه: «يجب أن تسحب، لا أن تعصر.» فسحبت «سآتي إلى ملكوتك...» فسحبت. «...سيكون اسمك.» استطاع كورنيف أن يصلّي معنا: «سآتي إلى ملكوتك.» هنا عصرت حقّاً؛ لأن السحب لم يجد نفعا. «ستحقق إرادتك كما لو، هنا أيضا.» لقد حدثت فعلاً معجزة؛ إذ أن فرقعة لم تحدث. ومرّة أخرى: «اعطنا اليوم.» فلحق كورنيف بالنصّ: «الذنب ولا تجعلنا نوسوس...» كان ذلك أكثر مما توقعت. «الملك والجبروت والعظمة.» أخرجت الخراج الملّون. «خالد أبديّ، آمين.» وبينما سحبت مرّة ثانية قال كورنيف: «آمين» فعصرت مرّة أخرى: «آمين»، وبينما بدأ الآخرون في حقل تسعة المقابل يقدمون العزاء لبعضهم كان كورنيف يكرر القول: «آمين»، وهو منبطح باستواء وارتياح على اللوح الجيريّ، يتأوه ويزفر من الأعماق: «آمين»، ثم سألني: «هل عندك إسمنت لنضعه تحت القاعدة؟» فكان عندي ما يكفي من الإسمنت، فصار يردد: «آمين.» وأفرغت آخر جاروف إسمنت للربط بين العمودين. حينئذ تزحزح كورنيف من مساحة اللوحة الملمعة المخطوطة، تاركاً أوسكار يريه أوراق الزان الخريفية الملونة ذات المحتوى الملون نفسه الذي امتصته من الدمّامل المتقيحة. ثم ثبتنا طاقيتينا، وبدأنا نخف أيدينا لننتهي من الحجر، فنصبنا تمثال القبر لـ«هيرمان فيبكنشت» و«إليزا فيبكنشت»، المولودة باسم «فرايتاغ» حينما تبدد موكب التشييع في حقل تسعة.

فورتونا الشمالية

آنذاك لم يكن بوسع الناس الحصول على شواهد، باستثناء أولئك الذي كانوا يخلفون أشياءَ ثمينة على وجه البسيطة. ليس بالضرورة أن يكون هذا الشيء فصّ ماس أو عقد لؤلؤ بطول الذراع. كان يمكن الحصول على متر من صخور «غرنسهايم» التي تحجرت فيها القواقع بخمس قناطير من البطاطس. فقد جلب لنا تمثال من الغرانيت البلجيكي بثلاث قواعد معدّ لقبر مزدوج قطعة قماش كافية لتفصيل بذلتين مع الصديري. وعرضت علينا أرملة الخيّاط التي امتلكت القماش أن تخيطه لنا مقابل إطار شاهدة من الرخام؛ لأنها مازالت توظّف في المحلّ مساعد خيّاط.

فحدث أن ركبنا الترام رقم عشرة في اتجاه شتوكوم لكي نزور الأرملة لينرت، وتركناها تأخذ قياساتنا. كان أوسكار يرتدي يومئذ قيافة جنود الدروع المضحكة للغاية بعد أن أعادت ماريا فصالها، إلا أن سترتها لم تعد تزرر بسبب قياساتي غير الطبيعية، على الرغم من أن مواضع الأزرار قد حوّلت من مكانها.

وصنع لي المساعد الذي نادته الأرملة باسم أنتون بذلة حسب القياس فصلها من قماش بنيّ غامق مقلّم بخطوط دقيقة: ذات صف واحد من الأزرار وبطانة رمادية، جلست على الكتفين بصورة جيّدة، دون المبالغة في حشو بطانة المنكبين بحيث يولدان انطباعاً مزيفاً، ولم تسع إلى ستر الحدبة، بل أنها قامت بإبرازها على نحو هادئ متحفّظ. كان السروال مزوّداً بثنيتين، لكنه لم يكن واسعاً؛ فالأستاذ بيبرا مازال يمثل لي نموذج

الأناقة وحسن الهندام. لذلك لم أر ضرورة لإبزيمات الحزام، إنما لأزرار حمّالة السروال، فبدا الصديريّ لامعاً من الخلف، كابياً من الأمام، مبطنا بقماش ورديّ داكن؛ وقد استلزمت العملية كلّها خمس بروفات. وعندما كان مساعد الخيّاط منشغلاً ببذلة كورنيف المزوّدة بصفّين من الأزرار وببذلتي ذات الصفّ الواحد من الأزرار جاء إسكافيّ يبحث عن إطار حجري لقبر زوجته التي توفيّت في عمر الثالثة والأربعين نتيجة أضرار القصف الجوّي. عرض علينا الرجل بطاقات تموين في البدء، لكننا طالبنا ببضاعة. تلقى كورنيف مقابل قطعة من الرخام الشليزيّ مع إطار من الحجر الفنّي بالإضافة إلى النصب، حذاءً قصيراً بنيّ غامق وخفّاً ذا نعل من جلد، وحصلت أنا على حذاء أسود طويل برباط، قديم الطراز، لكنه طريّ بشكل رائع، بقياس خمسة وثلاثين، فوهب قدميّ الضعيفتين سنداً ثابتاً وأنيقاً في آن.

تولّت ماريا مسألة القمصان بعدما وضعت أمامها على ميزان العسل الاصطناعي رزمة من ماركات الرايخ الألماني: «هل يمكنك أن تشترين لي قميصين، أحدهما بخطوط رفيعة مع ربطة عنق رمادية فاتحة وأخرى بلون كستنائي؟ البقية لكورت ولك يا ماريا العزيزة التي لا تفكر في نفسها، بل في الآخرين دائما.» وذات مرّة وبنزوة عطاء أهديت إلى غوسته مظلّة بمقبض من قرن الغزال ولعبة ورق لم تستخدم إلا قليلاً، إذا أنها كانت تحبّ اللعب بالصور على الطاولة، ولا تحبّ إعارة لعبة من الجيران إذا ما أرادت أن تطرح سؤالاً متعلّقاً بعودة كوستر. فسارعت ماريا إلى تلبية طلبي، وابتاعت لنفسها بما تبقى من النقود معطفاً مطريّاً، ولكورت جراباً مدرسيّاً من الجلد المقلّد، فحقق الغاية المرجوة منه ولو مؤقتاً، على الرغم من بشاعته. ونضدت إلى جانب قمصاني وربطتي عنقي ثلاثة أزواج من الجوارب الرمادية التي نسيت أن أوصيها بشرائها.

ولمّا ذهب كورنيف وأوسكار ليجلبا بذلتيهما وقفا أمام مرآة ورشة الترزي بحيرة، لكن بإعجاب إزاء بعضهما. فلم يقو كورنيف على إدارة عنقه المغروز من الخلف بندب الدمامل. وشرع ذراعيه أمامه عبر مفاصل

منكبيه المتراخيين وحاول أن يمدّ ساقيه المقوستين. أمّا أنا فقد منحتني الحلّة الجديدة مظهر المثقّف الشيطانيّ، لاسيما حين شبكت ذراعي على قفصيّ الصدري، جاعلاً قياساتي الأفقية تتسع، مستعيناً بقدمي اليمنى النحيفة للوقوف، طاوياً عليها اليسرى باسترخاء. اقتربت من المرآة مبتسماً من كورنيف ومن دهشته، حتى وقفت قبالة ذاك السطح المستوي الذي احتله صورتي المعكوسة عن كثب لدرجة أنني هممت بأن أقبلها، بيد أنني اكتفيت بالنفخ على وجهي، قائلاً على نحو عابر: «أهلاً يا أوسكار! الآن لا يعوزك سوى دبّوس الربطة.» وبعد أسبوع، حين دخلت المستشفى البلديّ ذات أصيل أحد، لكي أزور معيناتي، عارضاً نفسي بجدّة وغطرسة وتأنق من أفضل النواحي، كنت حينها مالكاً لدبّوس ربطة عنق فضيّ مزين بدرّة.

كانت الفتيات الطيبات يفقدن الكلام عندما يشاهدنيّ أجلس في غرفة القسم. وحدث ذلك في أواخر صيف العام السابع والأربعين. فكنت أعقد ذراعيّ البذلة على القفص الصدري بالطريقة المعهودة التي أثبتت فاعليتها، وأعبث بقفّازي الجلدي. لقد أمضيت آنذاك عاماً كاملاً متدرباً على النحت وأستاذاً في سحب الخراج. كنت أخلف فردة سروال على أخرى، ومع ذلك اتخذت الحيطة لئلا تصاب ثنية السروال بالتجعّد والانكماش. فاعتنت غوسته الطيّبة بذلك الزخرف كما لو أنه فصل من أجل غوسته العائد الذي سيغيّر كلّ شيء. وكنت اشتريت معطف جوخ رمادي مثل لون الفئران لكورت في خريف العام السابع والأربعين بمناسبة عيد ميلاده السابع الذي أحييناه بعرق البيض الذي مزجناه بأنفسنا وبالكعك المحبب - حسب الوصفة: خذ مقدار كذا وكذا! قدّمتُ للممرضات - كانت الممرضة غيرترود من ضمنهن - فطائر حلوى حصلنا عليها بالإضافة إلى عشرين رطلاً من السكّر الأسمر من خلال صخرة بركانية. كان كورت كثيراً ما يذهب إلى المدرسة بكل سرور على حدّ تقديري. أمّا المعلمة التي لم تستهلك بعد، والتي لم تكن، أقسم بالله، مثل «شبولنهاور»، تثني عليه، فقد كالت له الثناء، قائلة عنه إنه نيّر الذهن، لكنه جدّي بعض

الشيء. كم تبدو الممرضات سعيدات عندما تُقدم لهن الحلوى! حين اختليت لحظة بالممرضة غيرترود في غرفة القسم، سألتها مستفسراً عن أوقات عطلتها وفراغها. فأجابت الممرضة غيرترود بنبرة استسلام: «اليوم عطلتي مثلاً، بعد الخامسة أفرغ من عملي. لكن المدينة خاوية، ليس فيها شيء.» فأعربت لها عن رأيي بأن الموضوع كلّه يتوقف على القيام بمحاولة. بيد أنها لم ترغب أوّل الأمر في القيام بمحاولة، مؤثرة أن تشبع نوماً ذات مرّة. حينئذ أصبحت مباشراً، فتقدمت لها بدعوة، وختمتها بالكلمات التالية: «قليلاً من روح الأقدام يا غيرترود. الإنسان يكون شاباً في حياته مرّة واحدة. بالتأكيد لا يوجد نقص في بطاقات توزيع الكعك.» وصرت أنقر على المنديل في جيب الصدر بمرافقة النصّ، مضفياً عليه بعضاً من قوّة التعبير، ثم قدمت لها قطعة حلوى، وشعرت فوراً بحالة رعب خفيفة حين اتجهت الفتاة الفستفالية الفظّة التي لم تكن أبداً من النمط الذي أهواه؛ اتجهت إلى دولاب المراهم وسمعتها تقول: «جيّد، إذا كان هذا هو رأيك. دعنا نقول في السادسة، لكن ليس هنا، إنما في ميدان كورنليوس.»

لم يكن في نيتي الإثقال على الممرضة غيرترود في موعد لقاء في مدخل القاعة أو أمام المدخل الرئيسي للمستشفى. فانتظرتها في الساعة السادسة تحت الساعة الطبيعية لميدان كورنليوس؛ تلك الساعة التي لم تعد تعلن عن الوقت آنذاك بسبب أضرار الحرب. جاءت حسب الموعد بالضبط، مثلما استشفيت ذلك من ساعة جيبيّ غير الباهظة الثمن التي حصلت عليها قبل أسابيع. لم يكن باستطاعتي التعرف عليها لو أنني رأيتها تنزل في محطة الترام في الجهة المقابلة التي تبعد خمسين خطوة قبل أن تلمحني هي نفسها، ولكنت انصرفت خالي الوفاض خائباً؛ إذ أن الممرضة غيرترود أتت ليس بصفتها الممرضة غيرترود؛ لأنها لم تأت مرتدية البياض وشارة الصليب الأحمر، إنما أتت بصفتها الآنسة غيرترود فيلمز، مرتديةً ثياباً مدنية من النوع الشديد الضيق، كأي فتاة قادمة من مدينة دورتموند أو هام أو من مكان ما بين دورتموند وهام. ولكنها لم تلحظ استيائي، وروت

لي بأنها كادت تتأخر في المجيء؛ لأن رئيسة الممرضات كلّفتها بمهمّة قبل الساعة الخامسة بفترة وجيزة، خبثاً وتعنتاً ليس إلا.

«هل تسمحين لي يا آنسة غيرترود بأن أعرض عليك بعض المقترحات؟ ربما سنبدأ بلا تكلّف بمحلّ فطائر وبعد ذلك سنذهب، إذا ما رغبت، إلى السينما، لأننا سوف لا نحصل الآن على بطاقات لدخول المسرح، وإلا فما هو رأيك برقصة صغيرة؟»

«آه، يا لها من فكرة! دعنا نذهب إلى الرقص!» بدت متحمسة، ثم لاحظت أخيراً، دون أن تنجح في إخفاء رعبها، بأنني، وبصفتي زميلها في الرقص، سأفسد عليها كلّ شيء بهيتي هذه حتى لو كنت حسن الهندام. وبقليل من الشماتة - لماذا لم تأت بزيّ الممرضات القريب من نفسي! - قمت بتثبت خطتي التي استحسنتها، فتخلّت عن رعبها، أتت الفتاة التي كانت تعوزها قوّة المخيلة، وتناولت معي ثلاث قطع من الكعك، أمّا أنا فقد تناولت قطعة واحدة من الكعك المخلوط بالإسمنت، وبعدما دفعت الحساب نقداً وببطاقات التموين المخصصة للكعك، ركبنا معاً في الترام من محطة فيرهان، فذهبنا في اتجاه غيرسهايم، إذ أنّ هناك مرقصاً يقع أسفل «غرافنبيرغ» حسب معلومات كورنيف.

وقطعنا المسافة الأخيرة مشياً على الأقدام وببطء، لأن الترام توقف قبل صعود المرتفع. وكان الوقت مساءً من أمسية سبتمبر/ أيلول التي يشتهيها المرء. وكان صندل غيرترود الخشبيّ الذي يمكن الحصول عليه بدون بطاقة تموين يطقطق بصوت عال مثل الطاحونة على الجدول، فجعلني ذلك أشعر بفرح، وأخذ الناس الذين يهبطون المرتفع يلتفون إلينا، فشعرت الآنسة غيرترود بالحرج والارتباك. لكنني كنت معتاداً على ذلك، فلم ألقي له بالاً: فضلاً عن أن بطاقات تمويني هي التي أعانتها على تناول ثلاث قطع من كعك الإسمنت في محلّ الحلوى.

كان المرقص يدعى «فندش،» ويحمل اسماً فرعياً هو: قلعة السباع. وفي المدخل بدأت الكركرة، وبعدما دخلنا استدارت نحونا الرؤوس. تراءت الممرضة غيرترود غير واثقة من نفسها وهي في ثيابها المدنية،

فتعثرت بكرسيّ قابل للطبق وأوشكت على السقوط، لو لم يسارع النادل وأنا معه لإسنادها. أرشدنا النادل إلى طاولة قرب حلبة الرقص، فأوصيت على مرطبات، ثم أضفت بصوت خافت، لم يسمعه سوى النادل: «لكن مع جرعة من الشراب رجاءً.» وكانت قلعة السباع مؤلفة في الواقع من قاعة استخدمت زماناً بمثابة مدرسة لركوب الخيل. وقد عُلّقت الأماكن العليا من السقف المتضرر كثيراً بثعابين ورقيّة وقصاصات زينة تعود إلى الحفلة التنكرية السابقة. كانت الأضواء الملوّنة شبه المعتمة تدور لتلقي بالانعكاسات على شعر رؤوس تجّار السوق السوداء الشباب المتأنقين جزئياً، ذلك الشعر المسرح إلى الوراء بشكل متماسك صارم وعلى بلوزات الفتيات المنسوجة من الحرير الاصطناعي؛ الفتيات اللواتي أوحين كما لو أنهن كنّ يعرفن بعضهن بعضاً.

وحين قدم لنا المشروب البارد المخلوط بقطرة من الخمر، حصلت بالمزايدة على عشر سجائر أمريكية من النادل، وقدمت واحدة منها للممرضة غيرترود وأخرى للنادل الذي وضعها فوق أذنه، ثم أخرجت، حالما أوقدت سيجارة السيدة التي برفقتي، مبسم الكهرمان لأدخّن سيجارة (الجمل) إلى حدّ النصف تقريبا. ران الهدوء على الطاولات المجاورة لنا، فتجرأت الممرضة على رفع بصرها. عندما عصرت عقب السيجارة الراقية في المنفضة، وتركته ملقى هناك، التقطت الممرضة غيرترود العقب بحركة يدّ حياديّة، ثم دسته في الجيب الجانبي من حقيبتها الصغيرة المصنوعة من المشمّع.

فقالت: «أخذته لخطيبي في دورتموند. إنه يدخن كالمجنون.»

وأحسست بالفرح لأنني لم أكن خطيبها ولأن الموسيقى بدأت، فعزفت الفرقة الخماسية "Don’t fence me in". رجال بنعل من المطاط سارعوا إلى دخول حلبة الرقص بشكل قطريّ دون أن يرتطموا ببعضهم، اصطادوا في طريقهم فتيات سلمهن حقائبهن اليدوية إلى صاحباتهن. أبدى البعض منهم مرونة فعلاً كالمتدربين على الرقص الزوجي. ثم تحرك الكثير من العلكة في الأفواه، بعض الشبّان توقفوا عن الرقص أثناء عدد من

الإيقاعات، ممسكين بأذرع الفتيات المتلهفات إلى الرقص اللواتي بقين يراوحن في مكان واحد - لقد عوضت المفردات الإنجليزية المقتضبة عن الثروة اللغوية الرينانيّة. قبل أن يتابع الأزواج الرقص تبادلوا فيما بينهم حاجيات صغيرة: إن تجّار السوق السوداء لا يعرفون الاستراحة والتوقف عن العمل.

وتجاهلنا تلك الرقصة وكذلك رقصة الفوكس التي أعقبتها. فأخذ أوسكار يتطلع بيت الحين والآخر على أقدام الرجال، ثم طلب من الممرضة غيرترود أن تراقصه على أنغام فرقة «روزاموند»، بحيث أنها لم تعد تعلم ما الذي حلّ بها. وتجرأت على القيام بهزّة، أنا الذي كنت أصغر من الممرضة غيرترود برأسين ومطلعاً على طبيعة علاقتي العجيبة بها، التي نويت على تقويتها، متذكراً فنون الرقص التي كان يان برونسكي يظهرها: فأمسكت بها، فجعلتني أقودها بطواعية، واضعاً راحتي على مؤخرتها، متحسساً الصوف الذي بلغت نسبته ثلاثين في المائة، ودفعت الممرضة غيرترود، الضخمة الجسد، إلى الوراء بعدما لصقت خدّي على بلوزتها، وأدخلت ساقيّ بين ساقيها، طالباً فسح المجال أمامنا، متحركاً من زاوية إلى أخرى فوق حلبة الرقص؛ لأن أذرعنا المتشنجة بدأت تتجه نحو اليسار. فبدا الأمر أفضل مما تمنيت. وسمحت لي بالتنويع، وبقيت متشبثاً ببلوزتها من الأعلى وردفيها اللتين منحتاني مستقراً من اليمين ومن الشمال، وصرت أطوف راقصاً حولها، دون أن أتخلى لحظة واحدة عن الوضع التقليدي لرقصة «الزحزحة» الذي يولد عادةً انطباعاً كما لو أن السيّدة موشكة على السقوط إلى الوراء، وكما لو أن السيّد الذي أراد إسنادها، سيسقط عليها من الأمام، ومع ذلك فإنهما لم يسقطا؛ لأنهما من راقصي الزحزحة البارعين.

وسرعان ما حظينا بمتفرجين، فسمعت هتافات مثل: «ألم أقل لكم هذا هو جيمي! انظروا جيّداً إلى جيمي. هاللو جيمي!! Come on, Jimmy! Let's go, Jimmy» بيد أنني للأسف لم أستطع رؤية وجه الممرضة غيرترود، فاكتفيت بأمل أن تتلقى غيرترود الإعجاب بكبرياء

ورزانة، باعتباره إعجاب شباب لا يختلف عن مجاملات المرضى القليلة الحيلة و التي شهدتها بصفتها ممرضة. ولم ينقطع التصفيق حتى بعد جلوسنا، و أدّت الفرقة الخماسية سلاماً مربّعاً، لاسيما عازف الإيقاع، فآخر، فثالث. فتعالى الهتاف «جيمي، جيمي» أو «هل رأيتهما؟» حينئذ نهضت الممرضة غيرترود، وجاءت على ذكر المرحاض وهي تتلعثم، ثم تناولت حقيبتها اليدوية التي أخفت فيها عقب السيجارة لخطيبها المقيم في دورتموند، وحثت خطاها بوجنتين محمرتين نحو المرحاض، إلى جانب خزانة تسديد الحساب، مرتطمة بالكراسي والطاولات. لكنها لم تعد أبداً. فحقيقة أنها أفرغت كأسها بجرعة طويلة واحدة دفعتني إلى الظنّ بأن احتساء الكأس دفعة واحدة يعني الانصراف: هكذا تركتني الممرضة غيرترود أجلس وحيداً.

وأوسكار؟ لقد أوصى النادل الذي أبعد بتحفّظ كأس الممرضة الفارغ بأن يأتيه بجرعة عرق بلا مشروب بارد، حاشراً عقب سيجارته في مبسم التدخين. فليكلف الأمر ما شاء: لقد ابتسم أوسكار، بتوجع في الواقع، لكنه ابتسم على أية حال، ثم عقد ذراعيه على صدره، ووضع ساقاً على ساق، وأخذ يهزّ حذاءه الأسود اللطيف ذا الرباط البالغ حجمه خمسة وثلاثين، مستمتعاً بتفوق المهجور. وبدا الشباب، روّاد قلعة السباع، لطيفين، فغمزوا لي بأعينهم من أمام حلبة الرقص، وهتفوا قائلين «هاللو»، ثم هتفت النساء قائلات Take it easy. فشكرت بمبسم سيجارتي أولئك ممثليّ الإنسانية الحقيقيين، وابتسمت ابتسامة رضا وتسامح عندما أخذ عازف الإيقاع يقرع الطبول ببذخ؛ إذ أنه ذكرني بأزمان المنصّات العتيدة الرائعة، من خلال عزفه المنفرد على الطبلة والنقّارة والصنّاجة ومثلّث النقر، قبل أن تدعو النساء الرجال إلى الرقص. وعزفت الفرقة بكلّ حرارة مقطوعة Jimmy the Tiger، فكنت أنا المقصود بها، على الرغم من أن أيّاً من رواد قلعة السباع لم يكن يعلم شيئاً عن سيرتي الطبلية تحت هياكل المنصّات. على أية حال، همس في أذني ذلك الشيء الفتيّ الزئبقيّ ذو الرأس الغزير الشعر المصبوغ بالحنّاء الذي انتخبني سيّداً له: Jimmy the

Tiger بصوت أبحّ بفعل التبغ والعلك. وبينما استحضرنا الأدغال ومخاطر الأدغال على وجه السرعة، راقصين على أنغام جيمي، صار النمر يطوف على كفوف النمر وقد استغرق ذلك عشر دقائق. ثم عزفت الموسيقى تحيّة «سلام مربّع»، لحق بها تصفيق ومن ثم سلام مربّع آخر؛ إذ أنني كنت أتمتع بحدبة متأنقة الهندام، إضافة إلى أنني كنت خفيف القدمين، ولم أولد انطباعاً سيئاً بصفتي جيمي النمر. دعوت السيّدة التي انتقتني إلى المائدة، ثم طلبت مني هيلما - هكذا كان اسمها - أن تجلب معها صاحبتها «هانيلوره». كانت هانيلوره صامتة، مستكينة، تشرب بكثرة. في حين كانت «هيلما» تميل إلى السجائر الأمريكية، مما دفعني إلى طلب المزيد منها من النادل.

ونجح ذلك المساء تماماً فرقصت رقصات Hebaberiba و In the moon و Shoeshine boy وثرثرت إبّان ذلك، ممولاً فتاتين قنوعتين ببساطة بما احتاجتا إليه، فقصتا عليّ بأنهما تشتغلان في دائرة التلفونات في ميدان غراف-أدولف، لكن هناك الكثير من الفتيات اللواتي يأتين يوميّ السبت والأحد إلى مرقص فيدش في قلعة السباع. كما أنهما تأتيان إلى هنا كلّ نهاية أسبوع، إذا ما فرغتا من العمل، فواعدتهما أنا بدوري على المجيء دائماً إلى المرقص؛ لأن هيلما وهانيلوره كانتا لطيفتين جدّاً ولأن المرء يستطيع التفاهم مع فتيات مكتب التليفونات حتى إذا جلس بالقرب منهن - هنا أخذت ألعب بالكلمات، ففهمتني الفتاتان على الفور. وبعد ذلك انقطعت فترة طويلة عن الذهاب إلى المستشفى، وعندما بدأت أقوم بهذه الزيارة أو تلك كانت الممرضة غيرترود قد نُقلت من قسم النساء، فلم أعد أراها قطّ، إلا مرّة واحدة وبشكل عابر عندما ألقت عليّ التحيّةَ عن بعد. فأصبحت أحدّ رواد قلعة السباع الذين ينظر إليهم باحترام، فاستغلتني الفتيات بكثرة، لكن ليس بإفراط. ومن خلالهن تعرفت على بعض أفراد قوّات الاحتلال البريطانية، فتلقفت مئات المفردات الإنجليزية، وعقد صلات، كان بعضها حميماً، مع أعضاء الفرقة الموسيقية لقلعة السباع، كابحاً في نفسي رغبة التطبيل، فلم أجلس أبداً خلف آلة الإيقاع، بل

اكتفيت بالسعادة الصغيرة التي وفرها لي نقش الشواهد في سقيفة كورنيف للنحت.

بقيت على اتصال مع فتيات مكتب التلفونات طوال فترة الشتاء القاسية بين العامين ١٩٤٧ و١٩٤٨، وحظيت بشيء من الدفء غير الباهظ التكاليف من لدن هانيلوره الصامتة الهاجعة، بحيث أننا بقينا محافظين على مسافة ما بيننا، معتمدين على الأفانين غير الملزِمة. وكان مشغل نحت الأحجار يحظى بالصيانة في فصل الشتاء، فيتوجب أن تشّحم أدواته، ويتم تحديد المساحات المخطوطة على بعض من القطع القديم، وإذا ما تآكلت الحواف؛ فإن المرء ينحت أضلاعاً مائلة ويعد المساحات للنقش. فكنّا نقوم أنا و كورنيف بمليء مخزن الشواهد الذي فرغ في موسم الخريف، ثم ندكّ بعض الأحجار الفنيّة من ألواح الصخور المستخرجة من باطن الأرض. كذلك حاولت استخدام آلة التنقيط لجملة من الأعمال النحتية البسيطة، فنحت نقوشاً بارزة مثّلت رؤوس ملائكة ورأس المسيح المتوّج بالأشواك وحمامة الروح القدس. وحين يهطل الثلج، كنت أجرفه، وإذا لم يسقط الثلج، كنت أذيب الجليد عن مواسير المياه لغرض تشغيل ماكينة التنعيم.

وفي نهاية فبراير / شباط من العام الثامن والأربعين - كان الكرنفال قد خلّف في جسدي الهزال، فبدوت كالشبح؛ إذ أن بعض الفتيات في قلعة السباع أسبغن عليّ لقب الدكتور - جاء عقب أربعاء الرماد مباشرة أوائل الفلاّحين من الضفة اليسرى لنهر الراين، وتفقدوا مخزن شواهدنا. لم يكن كورنيف موجوداً في ذلك الوقت، إنما كان يتلقى علاجه السنويّ من الروماتزم، ويشتغل في مدينة «دوسبورغ» أمام فرن عال، وحينما عاد بعد أربعة عشر يوماً ناشفاً تماماً، خالياً من الدمامل، كنت قد بعت ثلاث صخور بسعر مناسب، من ضمنها واحدة لقبر ثلاثي. ثم باع كورنيف نفسه لوحين من الصخور المستخرجة من باطن الأرض، ومنتصف مارس بدأنا بنقلها ونصبها، فذهبت قطعة من المرمر الشليزيّ إلى «غريفنبروش»، وانتصب لوحان من المرمر الكيرشهايمي في مقبرة قروية قرب مدينة

نويس، أمّا حجر رمل الماين الأحمر الذي نحتّ منه رأس ملاك فمازال يثير إعجاب الرائي إلى يومنا هذا في مقبرة شتومل. ثم شحنّا لوح الصخر البركانيّ الذي نقشت عليه رأس المسيح المكلل بالأشواك، المخصص للقبر الثلاثيّ، وسرنا في اتجاه كابس-هام حتى جسر «نويس» على مهل؛ لأن العربة ذات العجلات الثلاث كانت محملة أكثر من طاقتها. فاتجهنا من نويس إلى «رومرسكيرشن» عبر «غريفنبروش»، وانحرفنا يميناً في الطريق المؤدي إلى «بيرغهايم أيرفت»، مخلفين «رايدت» و«نيدرأوسم» ورائنا، وأوصلنا اللوح سالماً مع القاعدة إلى مقبرة «أوبرأوسم» الواقعة على هضبة مطلة على القرية. فياله من منظر! كان منجم الفحم الحجريّ التابع لمنطقة أيرفت يقع تحت أقدامنا. ثمّة المداخن الثمانية التابعة لمصنع فورتونا التي انطلق دخانها نحو السماء. ومحطّة شمال «فورتونا» الجديدة لتوليد الطاقة الكهربائية ذات الأزيز والصفير والراغبة دوماً في الانفجار. الجبال الوسطى للركام والمخلفات والأسلاك المعلقة التي سارت عليها عربات الفحم. كلّ ثلاث دقائق كان يمرّ قطار كهربائيّ محمّل بالفحم أو فارغ. كان الخطّ الكهربائيّ ينطلق من محطة توليد الطاقة ويعود إليها، متصاغراً مثل لعبة، قبل أن يستحيل إلى لعبة ضخمة، متجاوزاً ركن المقبرة، متجهاً بثلاثة طوابير نحو كولونيا، يطنّ مشحوناً بالضغط العالي. ثمة طوابير اتجهت نحو الأفق، مسرعة في اتجاه بلجيكا وهولندا: عالم، نقطة تلاق - نصبنا لوح الصخر البركانيّ المخصص لعائلة فليز -، الكهرباء تتولد إذا ما فعل المرء... الدفّان ومساعده الذي عوّض عن شوغر ليو، جاءا بعدتهما، فوقفنا نحن في مجال التيّار الكهربائيّ، وبدأ الدفّان بتمهيد التربة أسفل مما وقفنا بثلاثة صفوف - ثمة تعويضات عن الحرب كانت تسدد هنا - جلبت إلينا الروائح المألوفة التي ترافق النقل المبكر للجثث من قبر إلى آخر - كلا؛ لم نشعر بأي غثيان؛ إذ أننا كنّا في شهر مارس. حقول مارس الهاجعة بين مخلفات الفحم. كان الدفّان يحمل نظارة مفتولة الإطار، ويتشاجر بصوت خافت مع صاحبه شوغر ليو، إلى أن تنفست صفارة إنذار فورتونا لمدة دقيقة؛ فصرنا نلهث، ناهيك عن

الحديث حول المرأة التي سينقل جثمانها إلى قبر آخر، فلم يصمد سوى تيّار الضغط العالي وحده، فهوّت صفارة الإنذار، ساقطة من سطح المركب، لتغرق - بينما كان الدخان القرويّ الرمادي المائل المنبعث من السطوح المائلة يلتف ملتوياً في الظهيرة وخلفه نواقيس الكنيسة: صلّي واعمل - الصناعة والدين يداً بيد. حلّت فترة المناوبة في فورتونا، فتناولنا شرائح بالزبد ورقائق شحم الخنزير، بيد أن تغيير مكان الجثمان لم يسمح بأي استراحة، كذلك كان التيّار الكهربائي الذي حثّ خطاه بلا استراحة إلى الدول المنتصرة، ليضيء هولندا، بينما كان التيّار ينقطع هنا دائماً - غير أن المرأة خرجت إلى الضوء! وعندما حفر كورنيف النقر اللازمة لوضع الأساس على عمق متر وخمسين سنتمتراً، ظهرت على السطح في الهواء البارد المنعش، إذ أنها لم ترقد هناك فترة طويلة، إنما رقدت في الظلمة منذ الخريف الماضي، ومع ذلك أظهرت تقدماً، مثلما جرت التحسينات في كلّ مكان، ومثلما تقدمت أعمال التفكيك في منطقتي الرور والراين؛ لقد خاضت تلك المرأة جدالاً جدّياً مع نفسها تحت قشرة الأرض المتجمدة التابعة لمنجم الفحم الحجري خلال فصل الشتاء كلّه - الذي بددته في قلعة السباع -، والآن يجب إقناعها جزءاً فجزءاً بضرورة تغيير قبرها في الوقت الذي دككنا فيه الإسمنت ونصبنا القاعدة. لهذا الغرض خصص تابوت الخارصين، بحيث أن شيئاً، مهما كان ضئيلاً، لم يفقد منه - مثلما كان الأطفال يفعلون أثناء خروج قوالب الفحم في فورتونا حين يركضون خلف عربات الشحن المحملة أكثر من طاقتها ليجمعوا قوالب الفحم المتساقطة؛ لأن الكردينال «فرنكس» خطب من المنبر ذات مرّة قائلاً: إنني أقول لكم الحق: إن سرقة الفحم لا تعد معصية. بيد أن أحداً لم يكن بحاجة إلى تدفئة المرأة. أعتقد أنها لم تتجمد بفعل هواء مارس البارد الذي يضرب به المثل، لاسيما أن هناك ما يكفي من الجلد، حتى لو كان منخوباً ومهلهل النسيج؛ وبدلاً من ذلك كانت ثمة بقايا من قماش وشعر مازال مصففاً بالكيّ - من هنا جاءت الكلمة -، وبدت زينة التابوت أيضاً حريّة بتبديل القبر، حتى أن قطع الأخشاب الصغيرة أرادت الانتقال

إلى المقبرة الأخرى، حيث صغار الفلاّحين وعمال المناجم الذين قطنوا فورتونا، كلا؛ إنما أرادت المرأة الرجوع إلى المدينة الكبيرة، إلى الحركة الكبيرة وحيث عرضت سبع عشرة دار سينما أفلامها في وقت واحدة؛ لأن المرأة كانت أصلاً مرحّلةً كما روى الدفّان، ولم تكن من أهالي المنطقة: «هذه هي غريتا، من أهالي كولونيا، ستذهب الآن إلى مولهايم، على الضفة الأخرى من النهر»، قال هذه العبارة، وهمّ بإضافة الكثير إليها، لو لم تبدأ صفارة الإنذار بإطلاق عويلها لمدة دقيقة كاملة، فاقتربت من مكان نقل الجثّة، مستغلاً صفارة الإنذار، مبتعداً عن تأثيرها عبر طرق ملتوية، فتلقفت في طريقي شيئاً ما، اتضح فيما بعد بأنه كان مجرفتي التي رُكنت على تابوت الخارصين، وأخذت أعمل بها على الفور، ليس لأنني رغبت في تقديم المساعدة، إنما فقط لأنني حملتها بيدي، وحملت معها شيئاً ما سقط إلى الجانب: فكانت هذه المجرفة عائدة في السابق إلى وحدة خدمات الرايخ الألماني. إمّا ذلك الشيء الذي حملته في مجرفة وحدة خدمات الرايخ فقد كانا الإصبعان الوسطيان أو مازال الإصبعان الوسطيان - وهذا ما أعتقده إلى اليوم - العائدان إلى المرأة المرحّلة، واللذان لم يسقطا، بل بترهما الباتر المجرد من الإحساس. وتراءيا لي جميلين ماهرين مثل رأس المرأة الذي مازال في صندوق الخارصين، فثمة تناسق ربما بتأثير شتاء العامين السابع والأربعين والتاسع والأربعين الذي أعقب الحرب؛ ذلك الشتاء القاسي كما هو معروف والذي ساهم بالحفاظ على التناسق، بحيث يمكن الحديث عن جمال سابق حتى وإن بات متداعياً الآن. فضلاً عن أن إصبعيّ المرأة ورأسها أصبحا أكثر قرباً لنفسي من جمال محطّة فورتونا لتوليد الطاقة الكهربائية، بل أكثر إنسانية. لعلّني تمتعت بروح التعاطف مع المشهد الصناعي مثلما كنت أستمتع بمشاهدة غوستاف غروندغنس على المسرح، بيد أنني بقيت في حالة شكّ إزاء ذلك الجمال الظاهر، حتى لو كان جمالاً فنيّاً رائعاً، أو حتى لو كانت المرأة المجلية طبيعية تماماً. لابد من الاعتراف هنا بأن تيّار الضغط العالي منحني شعوراً عالمياً كالشعور الذي منحني إيّاه غوته من قبل، بيد أن إصبعيّ المرأة منّا

قلبي، على الرغم من أنني تخيلت المجليّةَ رجلاً؛ لأن هذا التخيّل كان يناسب جعبة اتخاذ القرارات التي احتفظ بها ويناسب المقاربة التي صيرتني بمثابة يوريك وصيّرت المرأة التي كان نصفها في الأسفل ونصفها الآخر في صندوق الخارصين بمثابة الرجل هاملت، هذا إذا عنّ للمرء أن يطلق صفة الرجل على هاملت. لكنني، أنا يوريك، في الفصل الخامس، الأحمق، «كنت أعرفه، هوراتسيو»، المشهد الأوّل، أنا، الموجود على خشبات مسارح العالم كلّها - «آه يا يوريك المسكين!» - الذي أعار جمجمته إلى هاملت، لكي يصوغ شخص مثل غروندغنس أو السير «لورنس أوليفر» أفكاراً حول الموضوع، متقمصين شخصية هاملت: «أين ذهب تذبذبك؟ وأين صارت وثباتك؟» - لقد حملت إصبع هاملت العائد إلى غروندغنس على مجرفة شعبة الخدمات، ووقفت على الأرض الصلبة لمنجم الفحم الحجري في منخفض الراين، بين قبور عمّال المناجم والفلاّحين وذويهم، أتطلع من الأعلى إلى السقوف المائلة لقرية «أوبرأوسم»، محيلاً المقبرة القرويّة إلى بؤرة الاستقطاب العالمي، ومحطة كهرباء فورتونا الشمالية إلى معبودي الإلهيّ المؤثر، الشامخ، فاستحالت الحقول حقولاً دنماركية ومنطقة أرفت إلى منطقتي أنا البلطيقية التي تعفنت بين يدي في مملكة الدنماركيين - أنا، «يوريك»، الغريب الأطوار، المشحون توتراً، المطقطق، والمترنم الذي لم ينشد ملاكاً، ومع ذلك؛ فإن ملائكة تيّار الضغط العالي أخذت تنشد بطوابير ثلاثة في اتجاه الأفق، حيث كولونيا ومحطّة قطاراتها الواقعة بجانب الحيوان القوطيّ الخرافي التي زوّدت مكاتب الاستشارات الكاثوليكية بالكهرباء من السماء فوق حقول البنجر، بيد أن الأرض أعطت قوالب الفحم وجثّة هاملت، لكنها لم تعط جثّة يوريك. أمّا الآخرون الذين لا علاقة لهم بالمسرح فعليهم البقاء في الأسفل - «أولئك الذين وصلوا إلى ذلك الحدّ. - والبقية صمت» - فكانوا يُثقلون بالشواهد، مثلما أثقلنا على كاهل عائلة فليز بلوح ثلاثيّ من الصخر البركانيّ. لكن بالنسبة لي أنا أوسكار ماتسرات، برونسكي، فإن يوريك قد بدأ عهداً جديداً، فصرت أتأمل بسرعة، قبل

فوات الأوان، ودون أن أدرك العهد الجديد، أتأمل إصبعيّ الأمير هاملت المتداعيتين فوق مجرفتي. كان بديناً قصير النفس، فجعلت غروندغنس يسأل في الفصل الثالث، المشهد الأوّل، عن الوجود والعدم، ثم نبذت هذا التساؤل الأخرق، بل وضعت أشياءً محددة إلى جانب بعضها: ابني وحجر الصوان الذي امتلكه، أبويّ المفترضين السماويين والأرضيين، الثياب الأربعة الأربع لجدّتي، جمال أمّي المسكينة الخالدة على الصور، متاهة آثار الجروح على ظهر هربرت تروجنسكي، سلال رسائل البريد البولندي الماصةّ الدمّ، أمريكا - لكن ما هي قيمة أمريكا إزاء خطّ الترام رقم خمسة الذاهب إلى بروزن، تاركاً عطر الفانيلاّ المنتشر على الدوام المنبعث أحياناً من جسد ماريا يهبّ على الوجه الجنونيّ المثلّث لفتاة اسمها لوتسي رنفاند، متوسلاً بالسيّد فاينغولد المطهّر الموت لعلّه يبحث عن شارة الحزب التي بات من الصعب العثور عليها في القصبة الهوائية لماتسرات، قائلاً لكورنيف، بل لأعمدة تيّار الضغط العالي - إذ أنني توصلت شيئاً فشيئاً، شاعراً، على الرغم من كلّ شيء، بالحاجة إلى طرح سؤال يحتفي بي، أنا، يوريك، المواطن الحقيقيّ، ويوضع هاملت موضع التساؤل حسب ما يقتضي المسرح، قائلاً لكورنيف عندما نادى عليّ؛ لأن القاعدة يجب أن تربط بلوح الصخر البركانيّ، قلت بصوت واطئ، يحدوني الأمل بالتحوّل أخيراً إلى مواطن، قلت - مقلداً غروندغنس قليلاً، من وراء مجرفتي: «الزواج أو عدم الزواج؛ هذا هو السؤال.»

ومنذ ذلك التحوّل في المقبرة، قبالة فورتونا الشمالية، تخليّت عن مرقص فندش في قلعة السباع، وقطعت اتصالاتي بفتيات دائرة البريد والبرق، اللواتي كمنت مزيتهن الكبرى في إقامة الاتصالات بشكل عاجل ومرض. وفي مايو / آيار اشتريت لي ولماريا بطاقات لدخول السينما. بعد العرض مضينا إلى مطعم، فأكلنا طعاماً جيّداً نسبيّاً، وأخذت أثرثر مع ماريا التي شغلها القلق والهمّ؛ لأن منجم كورت لاستخراج حجر الصوان قد نضب ولأن المتاجرة بالعسل الاصطناعي أصبحت فاترة ولأنني- مثلما قالت - بتّ أتكفل إعالة العائلة برمتها منذ شهور. فهدأت من روع ماريا،

قائلاً إن أوسكار فعل ذلك بكلّ سرور، ولم يكن لديه شيء أكثر أهمية من تحمّل مسؤولية كبيرة، ثم أطريت مظهرها وتجرأت أخيراً على التقدم بعرض الزواج. فطلبت منّي مهلة للتفكير، غير أن سؤالي اليوريكيّ بقي بلا إجابة أسابيع طويلة، أو أجيب عليه بتهرّب، إلى أن تمّ الرد عليه في آخر المطاف من خلال عملية إصلاح النقد. وذكرت لي ماريا طائفة من الأسباب، ثم صارت تتحسس كمّ قميصي، وتناديني بلقب «أوسكار العزيز»، وقالت أيضاً بأنني طيّب القلب تماماً بالنسبة لهذا العالم، وطلبت منّي أن أتفهمها، وأن استمر بعلاقتي معها دون أي تعكير، فتمنت لي الخير كلّ الخير مستقبلاً بصفتي نحّاتاً، وامتنعت مرّة أخرى بعدما ألححت عليها بالسؤال من أن تتزوجني؛ وبذلك لم يتحوّل يوريك إلى مواطن، إنما إلى هاملت، أي إلى شخص أحمق.

عذراء ٤٩

جاءت عملية إصلاح النقد مبكرة جدّاً، فجعلتني أحمق حقّاً، وأجبرتني على إصلاح نقود أوسكار أيضاً، فوجدت نفسي مضطراً منذ ذلك الحين إلى كسب قوتي من حدبتي على الأقل، إذا ما عجزت عن كسب مال وفير. وكان بوسعي أن أظهر نفسي بمظهر المواطن الجيّد، فالمرحلة التي أعقبت إصلاح النقد التي انطوت على جميع المقدمات اللازمة للتبرجز المزدهر آنيّاً - مثلما نراه اليوم - كان بمقدورها أن تنمح أوسكار ملامح برجوازية، بحيث يكون باستطاعتي المساهمة في إعادة البناء بصفتي زوجاً ومواطناً برجوازيّاً، ويكون باستطاعتي امتلاك ورشة نحت متوسطة الحجم، تؤهلني لدفع أجور ثلاثين مساعداً وعاملاً معاوناً ومتدرباً، ولأصبحت رجلاً معتبراً ذا جاه بفضل عمارات المكاتب وقصور شركات التأمين المشيدة حديثاً التي زيّن الرخام والحجر الجيريّ المرغوب واجهاتها، بل لأصبحت تاجراً وبرجوازيّاً وزوجاً - لكن ماريا سلمتني سلّة.

حينئذ تذكر أوسكار حدبته فآل به الأمر إلى الفنّ! فقبل أن يُوضع وجود كورنيف المتعلّق بالشواهد موضع التساؤل بفعل إصلاح النقد فسخت، نعم أنهيت عملي، وصرت أجوب الشوارع من جديد، هذا إذا لم أجلس في غرفة غوسته كوستر المخصصة للسكن والطبخ، حيث أطقطق بأصابعي، بعد أن بليت بذلتي المفصلة شيئاً فشيئاً وبتّ مهملاً قليلاً. وعلى الرغم من أنني لم أدخل في شجار مع ماريا، لكنني كنت أخشى الشجار معها، لذلك صرت أغادر دار بلكه في الضحى الباكر،

لأزور في البدء الإوز في ميدان غراف-أدولف، ومن ثم الإوز المجتمع في حديقة القصر، فأجلس متصاغراً، غارقاً في أفكاري، ليس بمعنى الشعور بالمرارة؛ أجلس في ذلك المتنزه المقابل لمكتب العمل وأكاديمية الفنون الجميلة المتجاورين في دوسلدورف. وكان المرء يجلس ويطيل الجلوس على مصطبة المتنزه إلى أن يتخشب فيصبح توّاقاً لمكاشفة الآخرين. شيوخ مسنون مرتبطون بالطقس، نساء موهوبات ذوات قريحة يتحولن على مهل إلى فتيات مثرثرات، حسب الفصول، إوز أسود، أطفال يطاردون بعضهم صارخين، عشّاق يستطيع المرء أن يراقبهم فيضطرهم إلى الانفصال مثلما تنبأ المرء منذ البداية. كان البعض منهم يُسقط أوراقاً، فترفرف ساقطة، ثم يأتي رجل يعتمر طاقية، تدفع له بلدية المدينة راتباً، فيشكّها بعصا مدببة.

لقد أتقن أوسكار وضع الجلوس، فصار ينفخ نفخ سرواله بركبتيه على نحو متساو. بالطبع أثار انتباهي أولئك الفتيان الضامرون الذين كانوا يأتون برفقة فتيات يضعن نظّارات، قبل أن تخاطبني تلك المرأة البدينة التي ارتدت معطفاً جلدياً بحزام يعود إلى الجيش النازي. بلا شكّ أن فكرة مخاطبتي جاءت من قبل الشبّان ذوي الملابس السوداء الفوضويّة. فعلى الرغم من مظهرهم الباعث على الخوف، لكنهم لم يتجرأوا على مخاطبة أحدب مباشرة، بلا لفّ أو دوران؛ فلعلّهم كان يخشون من القوّة الكامنة فيه، فأقنعوا المرأة المتلفعة بالجلد. فأتت، وانتصبت على قائمتين عريضتين، متلعثمة في الكلام، إلى أن طلبت منها الجلوس، فجلست، وبدت نظارتها غائمة، لأن بخاراً، بل ضباباً إلى حد ما، أتى من حوض الراين، فأخذت تتكلم وتتكلم، إلى أن طلبت منها أن تنظّف نظّارتها، ثم تشرح لي مرادها بطريقة أكون قادراً على فهمها. حينئذ أشارت إلى الفتيات بالتقدم، فأطلق هؤلاء على أنفسهم لقب فنّانين على الفور، أي فنّانين رسم وتخطيط وتشكيل، دون أن أطالبهم بذلك. قالوا إنهم يبحثون عن موديل. أخيراً صرحوا لي، ليس بدون تحمّس، بأنهم يرون فيّ موديلاً جيّداً، ثم أخبروني حالاً إثر ما حركت إبهامي وسبابتي حركةً سريعةً عن إمكانيات الكسب النقدي المتوفرة أمام موديل-الأكاديمية: بأن أكاديمية الفنون

الجميلة تدفع ماركاً وثمانين فنكاً في الساعة الواحدة - لتصوير الجسم العاري - فقالت المرأة البدينة إن هذا مستحيل - حتى لو دفعت له ماركين.

لكن لماذا قال أوسكار نعم؟ فهل كان الفنّ يغريني؟ أم أن المكسب هو الذي أغراني؟ لقد أغراني الفن والمكسب معاً، فسمحا لأوسكار أن يقول نعما. فنهضت، مخلّفاً مصطبة المتنزه ورائي إلى الأبد، ومعها إمكانية الوجود التي توفره مصطبة المتنزه، فتبعت الفتيات ذوات النظّارات اللواتي سرن سير الجنود وتعقبت الفتيان المحدودبين كما لو أنهم حملوا عبقريتهم على ظهورهم، فمرقنا من أمام مكتب العمل في شارع آيزكللربيرغ، ثم دخلنا مبنى أكاديمية الفنون المهدم جزئيا. وكذلك البروفيسور «كوخن» - ذو الذقن الأسود، والعينين الفاحمتيّ السواد والقبعة السوداء الجريئة المرتخية على رأسه والدوائر السوداء تحت أظافره - لقد ذكّرني بصوان السفرة أيّام شبابي - رأى فيّ الموديل النموذجي، مثلما رآه تلاميذه، أي في ذلك الرجل الجالس على مصطبة المتنزه. فطاف البروفيسور حولي وقتاً طويلاً، وجعل عينيه تدوران حولي، ثم تمخّط فانفلت غبار أسود من منخاريه، وتكلم وهو يخنق بأظافره السوداء عدوّاً غير مرئيّ: «الفنّ هو شكوى الاتهام، التعبير، إنه المعاناة! الفنّ هو الفحم الأسود الذي يتهالك مستنزفاً نفسه على الورق الأبيض.»

لقد أصبحت موديلاً لهذا الفنّ المتهالك، فقادني البروفيسور كوخن إلى مشغل تلامذته، ثم رفعني بيديه ووضعني على قرص دوّار فأدراه، لا ليجعلني أشعر بالدوار، إنما ليعرض بوضوح تفاصيل جسد أوسكار من جميع الجوانب. فتقدم ستة عشر حامل رسم من المسقط الجانبي لأوسكار. وألقيت محاضرة قصيرة أخرى من قبل البروفيسور الذي كان يتمخّط غبار الفحم: مطالباً بالتعبير - كان مولعاً بمفردة التعبير - فقال: تعبيراً أسود قاتماً يائساً، مدعياً بأنني أعبّر عن صورة الإنسان المحطّم المتشكيّ بتحدّ وبشكل سرمديّ، إضافة إلى ذلك؛ فأنني عبّرت أيضاً عن جنون قرننا الحاليّ، ثمّ دوّى صوته مخترقاً حوامل الرسم: «لا ترسموا

هذا المشوّه، بل مزقوا أوصاله، اصلبوه، سمّروه بالفحم على الورق!»
فكانت تلك إشارة البدء، إذ أن الفحم احتك ستّ عشرة مرّة خلف الحوامل الخشبية صارخاً، مستنزفاً، ساحقاً نفسه من أجل تعبيري - كانت حدبتي هي المقصودة - فسودته، جعلته قاتمة السواد، وعلمته بالخطوط؛ لأن تلامذة البروفيسور كوخن تدافعوا كلّهم بغية اللحاق بتعبيري من خلال السواد الكثيف، بحيث تحتم عليهم أن يبالغوا، خاطئين في تقدير قياسات حدبتي، فكانوا يضطرون إلى تناول ورق رسم كبير الحجم على الدوام دون أن يتمكنوا من تجسيد الحدبة. وحينها أسدى البروفيسور كوخن نصيحة رائعة لمستهلكي فحم الرسم بأن لا يبدءوا بمعالم حدبتي الكثيفة التعبير - المتمردة على جميع الأحجام، حسب ادعائه - إنما عليهم البدء من الخمس العلويّ للورقة، وأن يسوّدوا رأسيّ أوّل الأمر في أقصى زاوية من جهة اليسار.

أخذ شعري الجميل يلمع بنيّاً داكنا، إذ جعلوني غجرياً بذوائب، ولم يلحظ أيّ من الفنّانين الشباب الستة عشر بأن عينيّ أوسكار زرقاوان. وعندما أمعنت بصري أثناء الاستراحة - لأن أي موديل له الحق في الاستراحة لمدة ربع ساعة بعد ثلاثة أرباع الساعة من الوقوف- في الجزء العلوي من يسار أوراق الرسم فاجأني في الواقع وجهي المهموم المتشكيّ اجتماعياً، المجسّد أمام الحوامل، لكنني افتقدت قوّة الإشعاع الكامنة في عينيّ الزرقاوين، مما أذهلني قليلاً، وأثار حيرتي: بحيث أمكن رسم الإشعاع بوضوح وجاذبية، تلوّت آثار الفحم الحجري القاتمة السواد وضاقت متفتتة فوقي حتى وخزتني. فخاطبت نفسي، واضعاً حريّة التعبير فنياً بنظر الاعتبار: لقد أدرك أبناء ربّات الفنّ الفتيان أو الفتيات المتورطات في الفنّ شخصية راسبوتين فيك؛ فهل سيكتشفون غوته الراقد في أعماقك فيوقظونه ليجسدونه على الورق، ليس من ناحية تعبيرية، إنما بقلم فضّة معتدل؟ لكن التلامذة جميعهم لم يتمكنوا، مهما بلغت موهبتهم، ولا حتى البروفيسور كوخن، مهما كان خطّه متميزاً، من رسم صورة صحيحة لأوسكار يمكن أن تهدى للأجيال القادمة. غير أنني كنت أكسب أجراً

جيّداً وحظيت بمعاملة محترمة، فكنت أقف ست ساعات على القرص الدوّار، حيث يدار وجهي دائماً في اتجاه المغسلة المسدودة المجرى، ومن ثمة يدار أنفي في اتجاه نافذة المرسم الرمادية الغائمة الزرقاء زرقة السماء، وأحياناً في اتجاه عازل خشبي أسبانيّ الأصل، متبرعاً بتعبير كان يجلب لي عائداً يبلغ ماركاً وثمانين فنكاً في الساعة الواحدة.

وعقب بضعة أسابيع نجح التلامذة في رسم عدد من الصور اللطيفة، ذلك يعني أنهم اعتدلوا بعض الشيء فيما يتعلق بالاستخدام المكثّف للفحم، وتوقفوا عن المغالاة غير المحدودة في تقدير قياسات حدبتي، فصاوا يضعونني على الورق بين الحين والآخر من هامتي إلى حافة قدميّ، ومن أزرار السترة على قفصي الصدري إلى الموضع الناتئ المحاذي لحدبتي تحت قماش بذلتي. بل أنني عثرت في الكثير من أوراق الرسم على مكان لخلفية اللوحة، فقد بدا الشبّان متأثرين بالحرب على الرغم من عملية إصلاح النقد، فكانوا يشيدون الخرائب والأنقاض بثقوب نوافذها الشاكية السوداء ورائي، جاعلين منّي متشرداً جائعاً يائساً بين جذوع الأشجار المقطوعة، بل أنهم اعتقلوني، ناصبين بالفحم الأسود المثابر سوراً من الأسلاك الشائكة، مبالغاً فيه، خلف ظهري، ثم وضعوني تحت رقابة أبراج الحراسة المتوعدة في خلفية اللوحة؛ فكان عليّ أن أمسك بقصعة من الصفيح، إضافة إلى نوافذ المعتقل أشاعت جوّاً من الإثارة البيانية خلفي وعلى جانبيّ - لقد حشروا أوسكار في ثياب السجناء - فما كلّ هذا الذي حدث من أجل التعبير الفنّي! فبقيت على وضعي موديلاً للرسم، لم أحرك ساكناً حتى بعد أن سوّدوني، جاعلين منّي أوسكار- الغجريّ ذا الشعر الأسود، واضعين ليّ عينين فحميتين أبصرتا البؤس كلّه، بدلاً من العينين الزرقاوين؛ نعم، بقيت على وضعي على الرغم من معرفتي بأن المرء لا يستطيع رسم الأسلاك الشائكة، ومع ذلك فقد شعرت بالسرور حين أحالني النحّاتون المعروف عنهم بأنهم لا يحتاجون بالضرورة إلى خلفيات ذات طابع آني معاصر، أحالوني إلى موديل، أي إلى نموذج مجرد من الثياب.

لم يخاطبني التلامذة تلك المرّة، إنما الأستاذ شخصيّا. وكان البروفيسور «ماروهن» صديقاً لبروفيسور الفحم، أستاذي كوخن. فذات يوم وقفت ساكناً في مرسم كوخن الخاص الذي كان عبارة عن مكان مظلم مليء بآثار رسوم الفحم الموضوعة في إطارات، لكي يقيدني الأستاذ الملتحي بخطّه المتميز على الورق، زاره بروفيسور ماروهن الذي كان قصير القامة متيناً وفي الخمسين من عمره، الذي بدا بمعطفه التشكيلي قريب الشبه بالطبيب الجرّاح، لولا أنه اعتمر قبعة إقليم الباسك المتربة التي شهدت على هويته الفنيّة. فرمقني ماروهن الذي كان مغرماً بالأشكال الكلاسيكية، مثلما لاحظت على الفور، بنظرة عدوانيّة بسبب تقاطيعي الجسدية. فقال ساخراً من صديقه: ألم يشبع كوخن من موديلات الغجر التي سوّدها حتى ذلك الحين والتي جلبت له لقب (كوخن الغجر) المتداول بين أوساط الفنّانين؟ فهل سيحاول الآن مع المشوّهين، أم أنه عقد النيّة على أن يبدأ بتخطيط مرحلة الأقزام الأكثر رواجاً بعد انتهائه من مرحلة الغجر الرائجة؟

لكن بروفيسور كوخن قلب سخرية صديقه إلى آثار فحم غاضبة، حالكة السواد: فأصبحت تلك الصورة الأشد سواداً من بين جميع الصور التي رسمها لأوسكار، بل كانت في الواقع عبارة عن سواد، ماعدا بعض نقاط الضوء الشحيحة على عظم الوجنتين والأنف والجبهة واليدين التي ضخمها كوخن باستمرار وزوّدها بمفاصل مصابة بالنقرس، قويّة التعبير، في منتصف رسومه الفحمية الماجنة. بيد أنني رأيت فيما بعد عيوناً زرقاء في تلك اللوحات داخل المعارض، عيوناً فاتحة مضاءة، وليس عيوناً تشعّ ظلاما. لقد أرجع أوسكار هذه الحالة إلى تأثير النحّات ماروهن الذي لم يكن سفّاح فحم تعبيرياً، بل كلاسيكياً برقت أمامه عينايّ بوضوح غوتيّ، ولعلّ نظرة أوسكار هي التي أغرت النحّات ماروهن الذي كان لا يحبّ إلا التناسق وحده فرأى فيّ موديل نحت، أي موديله النحتي الخاص به. وبدا مرسم ماروهن ساطع النور مغبراً، وخالياً إلى حدّ ما، ليس فيه أي عمل منجز. لكن هياكل التشكيل انتصبت جاهزة للأعمال النحتية فبدت على

درجة متناهية من الدقة والتكامل لدرجة أن الأسلاك والحديد وأنابيب الرصاص الملتوية المجردة أعلنت حتى وإن كانت خالية من صلصال التشكيل عن تجانس مستقبليّ متكامل الهيئة. فصرت أقف موديلاً للنحّات خمس ساعات يومياً فأتقاضى ماركين في الساعة الواحدة. فأضحى يعّلم نقطةً ما بالطباشير على القرص الدوّار، ليشير بعدها بأن عليّ الوقوف بثبات على ساقي اليمنى. إن خطّاً مستقيماً منطلقاً من الكاحل الداخلي لساق الوقوف نحو الأعلى لامس خسوف الرقبة بين عظمي الترقوة. كانت الساق اليسرى بمثابة ساق مهملة، لكن هذه مجرد تسمية مضللة. فإذا كنت منحرفاً قليلاً إلى الجانب وبارتخاء؛ فإنني لم أكن قادراً على زحزحة تلك الساق أو تحريكها بمرونة؛ لأن الساق المهملة ثبتت أيضاً بدائرة طباشير على القرص الدوّار.

وخلال الأسابيع التي انتصبت فيها موديلاً للنحّات ماروهن لم يوفق في العثور على وضع ثابت لذراعيّ، مثلما كان الحال مع ساقيّ، حينئذ توجب عليّ أن أترك ذراعي اليسرى معلقة وأطوي اليمنى على رأسي، ثم اضطررت إلى عقدهما أمام صدري، أو شبكهما أسفل حدبتي، أو أنني أخذت أسندهما إلى خصريّ. كان هناك ألف احتمال، وقد قام النحّات بتجريبها كلّها عليّ وعلى السقالة الحديدية المزودة بأنابيب الرصاص المطاوع. ولمّا اتخذ قراراً في نهاية المطاف وبعد شهر كامل من البحث الدءوب عن وقفة مناسبة بأن عليّ إمّا أن أعقد ذراعيّ خلف رأسي، أو أن أكون بلا ذراعين، فيصبني في قالب النحت على شكل تمثال نصفيّ، شعر ماروهن بالإرهاق من خلال تركيب السقالة وتغييرها، فصار في الواقع يتناول الصلصال من صندوق الصلصال، ويبدأ بالمحاولة، لكنه سرعان ما يصفع الطين الرطب غير المتناسق في الصندوق من جديد، ثم يتربع أمام السقالة ويرمقني والسقالة معاً بنظرات ثاقبة، مرتجفاً وأصابعه ترتجف معه من اليأس: كانت السقالة بالغة الكمال! فيستسلم وهو يقذف بحسراته، متظاهراً بوجع الرأس، لكن دون أن يغيظ أوسكار، متخلياً عن كلّ شيء، منحياً السقالة الحدباء بساقيها الثابتة منهما والمهملة وبذراعيها المرفوعتين

بأنابيب الرصاص والأصابع المثبتة على الأسلاك، المتشبثة بالقفا الحديدي، نحو الزاوية، إلى جانب السقالات الأخرى التي توقف إنجازها مبكراً؛ فأخذت قطع الخشب - التي يطلق عليها اسم الفراشات أيضاً - التي كان عليها أن تتحمل ثقل الصلصال تترنح بهدوء في سقالة حدبتي الواسعة، ليس بتهكم، بل أدركت عدم جدواها.

بعد ذلك شربنا شاياً ثم تحدثنا سويعة، سدد حسابها النحّات باعتبارها ساعة عمل. فروى لي عن الأزمان السابقة عندما كان مايكل إنجلو فتيّاً يحشو الطين قناطيرَ بلا حساب في السقالات، فيصنع التماثيل التي تحطم معظمها أثناء الحرب. ورويت له بدوري عن عمل أوسكار نحاتاً للصخر وخطاطا. ثم تحدثنا بلغة أهل المهنة قليلاً إلى أن أخذني إلى تلامذته الذين رأوا فيّ موديلاً للنحت، فنصبوا السقالات. وإذا ما دلّ طول الشعر على الصفة الجنسية؛ فإن ستة من تلاميذ بروفيسور ماروهن كانوا فتيات؛ من ضمنهن أربع فتيات قبيحات واثنتان جميلتان، ثرثارتان، لكنهما كانتا فتاتين حقيقيتين. لم أكن قد شعرت بالضيق والخجل قط، بل أن أوسكار استمتع بدهشة الفتاتين النحاتتين الجميلتين المثرثرتين، حين تفحصتاني للمرّة الأولى عندما انتصبت على القرص الدوّار، فلاحظتا بشيء من الحيرة والشكّ بأن أوسكار حمل معه عضواً تناسلياً يمكن مقارنته عند الضرورة بالأعضاء الأخرى التي يطلق عليها لقب الخاصية الرجولية الطبيعية، على الرغم من حدبته وقامته الشحيحة الطول. وبدا الوضع مع تلامذة الأستاذ ماروهن مختلفاً بعض الشيء مقارنة بالأستاذ نفسه. إذ نصبوا السقالات بعد يومين، وتراءوا كالعباقرة، فصاروا يلطخون الصلصال بين أنابيب الرصاص المثبتة بنزق وبلا إتقان، مسكونين بالتعجل العبقري، بيد أنهم علّقوا القليل من «فراشات» التثبيت الخشبية في سقالة حدبتي: فحالما وطأ ثقل صلصال التشكيل الرطب الأنفاس في السقالات، مانحاً أوسكار ملامح وعرة شديدة القسوة، مال أوسكار المنحوت توّاً عشر مرّات، فسقط رأسي بين قدمي، وانهار الصلصال من أنابيب الرصاص، ثم هوت حدبتي على باطن ركبتي، حينئذ أدركت قدر الأستاذ ماروهن الذي

كان بنّاء سقالات من الطراز الأوّل، بحيث أنه لم يعد بحاجة إلى ستر السقالة بتلك المادة الزهيدة.

وصارت دموع النحّاتات القبيحات، لكن الموهوبات، تسفح حالما يتساقط طين-أوسكار منهاراً من سقالة-أوسكار، في حين كانت النحّاتات الجميلات الثرثرات يضحكن كلّما يبصرن اللحم ينسلخ عن العظم انسلاخاً رمزيّاً نوعا ما وبشكل متسارع. وبعدما تمكن تلاميذ النحت من إنجاز بضعة تماثيل لطيفة مهذبة بعد أسابيع عديدة، صنعوها من الطين في البدء، ومن ثمة من الجبس والبريق بغية إقامة معرض بمناسبة انتهاء الفصل الدراسيّ، وجدت فرصة مناسبة لعقد مقارنات جديدة بين الفتيات القبيحات الموهوبات والجميلات الثرثارات. فبينما تمتعت الشابات البشعات اللواتي بشيء من الحسّ الفنّي وهن يقلدن رأسي وأعضائي وحدبتي بعناية، لكنهن يهملن جهازي التناسلي بسبب الحياء الغريب، أو يجسدنه بطريقة مغفلة حمقاء؛ فإن الشابات الظريفات ذوات العيون الواسعة والأصابع الرقيقة الفاتنة، لكن غير الماهرة، أظهرن اهتماماً ضئيلاً بتقاسيم جسدي، لكنهن أظهرن مثابرة فائقة الدقّة في تشكيل أعضائي التناسلية التي لا يستهان بها. ولكي لا أنسى في هذا السياق الشبّان الأربعة النحّاتين فإنني أقول: إنهم جردوني تجريداً، وصفوني صفّاً بلوح مسطّح ذي أخاديد، صانعين منّي مربعاً، جاعلين من أوسكار الذي أهملته القبيحات ونمقته الظريفات بأسلوب طبيعيّ مكتنز مجرد قطعة خشب مربعة أو مستطيلة قائمة على مكعبين متساويين في الحجم مثل عضو نهم الإخصاب، عائد إلى ملك لعبة البناء، يلوّح في المكان، وبمفهوم رجاليّ جاف. وبغض النظر عما إذا كان الأمر يتعلق بعينيّ الزرقاوين أم بالمدفأة الكهربائية التي جمّعت النحّاتين حولي، أي حول أوسكار العاري: فإن رسامين شباباً كانوا يزورون النحّاتات الوسيمات اكتشفوا فتنة ما جديرة بالرسم إمّا في زرقة العينين، أو في جلدي المتوهج الأحمر، حمرة السرطان، والمضاء بسطوع، فاختطفوني من أستوديو النحت والرسم

الواقع في أرضية مستوية إلى الطوابق العليا ثم خلطوا الأصباغ في ألواح اللون منذ تلك اللحظة بما يتناسب ولون جسمي.

كان الرسامون متأثرين جداً بداية الأمر بنظرتي الزرقاء، فبدا كما لو أنني نظرت إليهم بزرقة عميقة لدرجة أن فرشاة الرسم أرادت أن تصورنني أزرق على نحو كليّ تام. فذبل لحم أوسكار السليم وشعره البنّي المتموج وفمه النضر المتورّد، وبدت هذه المعالم متعفنة في ظلّ درجات اللون الأزرق الجنائزية؛ على أي حال، ثمة اخضرار محتضر هنا أو هناك، واصفرار تقيؤ حشر بين خرق لحميّ الزرقاء فعجّل في التفسّخ. وحصل أوسكار على ألوان جديدة بعدما اكتشف «أولا» أثناء الأعياد التنكرية التي أحتفل بها في أقبية الأكاديمية أسبوعاً كاملاً وقدمها للرسامين بصفتها إحدى ربّات الفن. فهل حدث ذلك في يوم الاثنين من الكرنفال؟ نعم؛ كان اليوم يوم الاثنين، حين قررت الاحتفال والذهاب إلى الأكاديمية متنكراً، لأخلط أوسكار المتنكر وسط الحشد. وقالت ماريا عندما رأتني أمام المرآة: «ابق في البيت يا أوسكار. لأنهم سيدوسونك بالأقدام.» ثم أعانتني على ارتداء الزيّ التنكري، وقطعت بقايا قماش خيطته شقيقتها غوسته حالاً بإبرة مصحوبة بالهذر، محولةً إياه إلى حلّة مهرّج. في البدء طاف بمخيلتي أسلوب الرسّام الأسباني «فيلاثكيث.» ثم تخيّلت نفسي قائد الحرب نارسس أو الأمير أويغن. وحين وقفت قبالة المرآة الضخمة التي أعانتها أحداث الحرب لتحصل على شرخ قطريّ يحرّف إلى قدر ما الصورة المنعكسة، إذ برز بوضوح كلّ شيء صارخ اللون فضفاض أو مفتوق أو مربوط بالأجراس والخلاخل مما دفع بابني كورت إلى الاستغراق في القهقهة والوقوع في نوبة سعال، فخاطبت نفسي أخيراً بصوت خفيض: الآن أصبحت يوريك المهرّج يا أوسكار. لكن من أين ستأتي بالملك الذي ستهرّج له؟! فخطر في ذهني وأنا في الترام الذاهب إلى بوّابة راتنغ، بالقرب من الأكاديمية، بأنني لم أقم بإضحاك الشعب المتنكر بزيّ رعاة البقر أو بزيّ الفتيات الأسبانيات، إنما أثرت الرعب في قلبه. فصار الناس يتخذون مسافة فاصلة بيني وبينهم، لذلك حظيت بمقعد للجلوس على

الرغم من الزحام الخانق في الترام. وأمام الأكاديمية هزّ رجال الشرطة هراواتهم المطّاطية الأصيلة الثابتة اللون، غير المتنكرة. كان الحفل الذي أقامه الفنانون الشباب تحت عنوان «بِرْكَة ربّة الفنّ» مكتظّاً بالحاضرين، ومع ذلك حاولت الجموع اقتحام المبنى، فدخلت في مصادمات مع الشرطة، كان البعض منها دموياً، لكنها بدت مصادمات ملوّنة على أية حال. وحين أنطق أوسكار جلجله الصغير المعلقّ على ذراعه اليمنى، انشطر الحشد نصفين، وأدرك أحد الشرطة حجمي الحقيقي من خلال تمرسه في المهنة فألقى عليّ بتحية من الأعلى، واستفسر عن مرادي، ثم رافقني ملوّحاً بهراوته إلى الأقبية المحتفلة حيث كان اللحم يغلي، بيد أنه لم ينضج بعد. فعلى المرء أن لا يعتقد بأن حفل الفنّانين هو حفل يحتفل فيه الفنّانون وحدهم، إنما وقف معظم طلبة الأكاديمية بوجه صارم جديّ، إن لم يكن مرسوماً بالألوان، وراء طاولات طريفة مبتكرة، لكنها متداعية بعض الشيء، ليبيع البيرة والشمبانيا الرخيصة والسجق والعرق المسكوب بالكؤوس بطريقة سيئة، بغية الحصول على قليل من الإيراد الإضافي. وقد استأثر بحفل الفنّانين المواطنون الذين كانوا ينثرون النقود بلا حساب مرّة واحدة في العام، راغبين في العيش والاحتفال على غرار الفنّانين. وبعدما قمت طوال سويعة بإدخال الرعب في قلوب الأزواج على السلالم والزوايا وتحت الطاولات، حيث حاولوا انتشال المتعة والإثارة من المتاعب المثيرة للإزعاج، تصادقت مع صينيتين لابد أنهما قد حملتا في عروقهما دماءً إغريقية؛ لأنهما طبقتا نوعاً من الحبّ كان الناس يتغنون به في جزيرة ليسبوس. على الرغم من أن إحداهما ألحّت على الأخرى بسرعة وبأصابع عديدة؛ لكنهما تخلتا عنّ المواضع الحساسة فتركتاني بسلام، وقدمتا لي عرضاً ممتعاً نوعاً ما، ثم احتسيتا معي الشمبانيا الساخنة، وجربتا بموافقة منّي صلابة حدبتي المتينة الملمس، الصلدة حقّاً، حتى شعرتا بفرح غامر - مما أكد فرضيتي القائلة بأن الحدبة تجلب الحظّ للنساء. ومع ذلك فقد جعلني هذا النمط من معاشرة النساء أشعر بالحزن كلّما طال أمده؛ فأخذت الأفكار تسرح بي، وصيرتني أمور السياسة قلقاً، فرسمت الحصار

المضروب على برلين بالشمبانيا فوق ظهر الطاولة، وأعملت فرشاتي بالجسر الجوّي، وانتابني اليأس فيما يتعلق بالصينيتين اللتين لم تتمكنا من التفاعل فيما بينهما، بل أصابني اليأس أيضاً فيما يتعلق بالوحدة الألمانية، ففعلت ما لم أفعله من قبل: إذ أخذ أوسكار يبحث عن معنى الحياة بصفته يوريك. وحالما توقفت السيّدتان عن تقديم ما هو جدير بالمشاهدة - لقد انتابتهما نوبة عارمة من البكاء خلّفت آثاراً فاضحة على وجهيهما المزينين بالطريقة الصينية - نهضت بفتوقي وثيابي الفضفاضة وخلاخيلي وأجراسي الصاخبة، راغباً في الذهاب إلى الدار بمقدار الثلثين، باحثاً في الثلث المتبقي عن حدث تنكريّ احتفاليّ، فأبصرت - كلا، إنما هو الذي كلمني - رئيس العرفاء لانكس.

فهل أنتم تتذكرونه؟ لقد التقينا به عند ساتر الأطلسي في صيف العام الرابع والأربعين، حيث كان يحرس الخرسانة ويدخّن سجائر الأستاذ بيبرا. وأردت أن أطلع السلّم الذي جلس عليه الناس لصق بعضهم، وأعطيت لنفسي ناراً، وإذا به يربت على كتفي، ثم نطق رئيس عرفاء الحرب العالمية الأخيرة: «هذا هو أنت يا زميلي؟ هل لديك سيجارة لي؟» فليس من العجب أن أتعرّف عليه فوراً عبر طريقته الكلام، وكذلك لأن حلته التنكرية كانت رمادية عسكرية. ربما ما كنت سأنعش تلك المعرفة لو لم يضع رئيس العرفاء والرسّام ربّةَ الفنّ عينها على ركبته الرمادية بلون الميدان.

فدعوني أتحدث في البدء إلى الرسّام ثم أعرّج فيما على وصف ربّة الفن. إذ أنني لم أعطه السيجارة وحدها، إنما أعملت فيه قدّاحتي وقلت حين سحب أوّل نفس من الدخان: «هل تتذكر يا رئيس عرفاء لانكس؟ مسرح بيبرا الميداني؟ غامض، بربريّ، متضجر؟!» فارتعب الرسّام عندما تكلمت معه بهذه الصيغة، فأسقط، ليس السيجارة، بل ربّة الفنّ من ركبته. فتلقفت الطفلة الثملة الطويلة الساقين، واعدتها إليه ثانية. أثناء ما كنّا، لانكس وأنا، نتبادل الذكريات حول النقيب هيرتسوغ الذي منحه لانكس لقب المهووس، ثم شتمه، وأحيينا ذكر أستاذي بيبرا والراهبات

اللواتي بحثن عن السرطان في هليون رومل، فأصابتني الدهشة إثر ظهور ربّة الفن. لقد جاءت كملاك، معتمرة قبعة من الورق المضغوط على نحو مجسّم مثل الورق الذي يستخدم لحفظ بيض التصدير، عاكسة بمظهرها فتنةً فيها جنوح لحرفة الفنّ، فتنة حريّة بمن سكن السماء، على الرغم من سكرها الشديد وأجنحتها المنكسرة الحزينة. وأوضح لي الرسّام لانكس: «هذه هي أولا. لقد تعلمت مهنة الخياطة في الواقع، لكنها تريد أن تشتغل بالفنّ، وهذا شيء لا يناسبني أبداً؛ لأنها تستطيع أن تكسب شيئاً بالخياطة، لكن بالفن فلا.» حينئذ رفع أوسكار، الذي كان يكسب بالفنّ نقوداً محترمة، الخيّاطة أولا إلى مرتبة موديل وربّة فنّ سيقدمها لرساميّ أكاديمية الفنون الجميلة. فتحمس لانكس لاقتراحي لدرجة أنه أستل من علبتي ثلاث سجائر دفعةً واحدة، وتقدم من ناحيته بدعوة لزيارة مرسمه، ثم اشترط أن أقوم أنا بدفع أجرة التاكسي التي ستأخذنا إلى المرسم. فركبنا في التاكسي على الفور، مخلفين الحفل التنكريّ ورائنا، وقمت أنا بتسديد الأجرة، بينما قام لانكس بتحضير قهوة لنا على شعلة موقد صغير داخل مشغله الواقع في سيتاردهشتراسه، من شأنها أن تنعش ربّة الفن. فبدت صاحية إلى حدّ ما بعدما أعنتها بسبابتي اليمنى على التقيؤ.

فلاحظت حينئذ بأنها بدت مندهشة باستمرار من خلال عينيها الفاتحتي الزرقة، وسمعت صوتها الذي بدا مزقزقاً بعض الشيء صفيحيّاً، لكنه لم يخلو من جاذبية مؤثّرة. حين فاتحها الرسّام لانكس باقتراحي المتعلق بوقوفها موديلاً في أكاديمية الفنون الجميلة، بلهجة آمرة، أكثر مما هي نبرة اقتراح، رفضت ربّة الفنّ في البدء العمل موديلاً في أكاديمية الفنون الجميلة؛ لأنها أحبّت أن تكون مخلصة للرسّام لانكس وحده. بيد أن الرسّام وجّه إليها صفعة جافة بيده الضخمة، وبلا كلام، صفعةً لا يوجهها عادةً إلا الفنانون الموهوبون، ثم سألها مرّة ثانية، وضحك بارتياح، بل بطيبة قلب، عندما أعلنت موافقتها على العمل موديلاً في أكاديمية الفنون الجميلة، ذلك العمل الذي سيدرّ عليها عائداً مالياً جيّداً، وهي تشهق باكيةً بكاء الملائكة. وعلى المرء أن يتصور بأن قامة أولا

بلغت متراً وثمانية وسبعين سنتمتراً، فكانت رشيقة القوام، ظريفةً، هشّة، تذكّر بالرسّام الإيطالي بوتيشللي والرسّام الألماني كراناخ على السواء. أخذنا نقف موديلاً مزدوجا، فكان لحمها الرشيق الناعم، الذي أطبق عليه زغب ناعم، يشبه لحم السرطان، وشعر رأسها أشقر شقرة التبن خفيفاً ومسبلاً. أمّا شعر العانة فقد كان أحمر مجعّداً، نبت فوق مثلّث صغير. وكانت «أولا» تزيل شعر إبطيها كلّ أسبوع. ومثلما كان متوقعاً لم يستطع تلامذة الفنّ إنجاز أي عمل بالاعتماد علينا، فكانوا يجعلون ذراعيها طويلتين، ورأسي كبيراً، واقعين بالأخطاء التي يرتكبها المبتدءون: فلم يتمكنوا من تجسيد أحجامنا الحقيقية.

لكن بعدما اكتشفنا راسكولنيكوف والعنزة، نشأت صور بدت متناسبة مع مظهر أوسكار وربّة الفن. فصوّروها نائمة وأنا أقوم بإرعابها: الشهواني والحوريّة. أو أنا مقرفصاً وهي تنحني فوقيّ بثديين صغيرين، مرتعشين قليلاً بفعل البرد، وتداعب شعري: الجميلة والوحش. أو هي راقدة، وأنا بين ساقيها الطويلتين، أعبث بقناع حصان ذي قرن: السيّدة ووحيد القرن. وأنجز ذلك كلّه بأسلوب العنزة أو راسكولنيكوف، مرّة بالألوان، وأخرى بدرجات محترمة من اللون الرمادي، وثالثة بفرشاة دقيقة مليئة بالتفاصيل، ومن ثم بمزاج العنزة ذات المقشطة العبقرية، وأخرى بخطوط غامضة لمّحت تلميحاً إلى أولا وأوسكار، أخيراً اهتدى راسكولنيكوف إلى السريالية بمعونتنا: فتحوّل وجه أوسكار بفضل السريالية إلى ميناء ساعة أصفر صفرة العسل، تماماً مثل ميناء ساعتنا الأرضية الضخمة، ثم تفتحت في حدبتي الزهور المتسلقة آلياً التي كان على «أولا» أن تقطفها، ثم أجلسوني في البطن المبقور لأولا المبتسمة من الأعلى، الطويلة الساقين من الأسفل، مقرفصاً بين طحالها والكبد، وأتصفح في كتاب مصوّر. كذلك حُشرنا في حلل تنكريّة، فجعلوا من أولا كولمبينه، أي الحمامة، عشيقة «أرليجينو»، ومنّي ممثلاً حزيناً مدهوناً بالمساحيق البيضاء. ثم تُرك الأمر لراسكولنيكوف - كان يدعى هكذا لأنه كثيراً ما كان يتحدث عن الجريمة والعقاب - ليرسم اللوحة العظيمة التي أظهرتني جالساً عارياً على

الفخذ اليسرى لأولا الناعم الزغب، أي أنه أظهرني مثل طفل مشوّه النمو، بينما مثّلت هي العذراء؛ فهجع أوسكار ساكناً بصفته يسوع.

وتجولّت هذه اللوحة بعد ذلك في الكثير من المعارض، حيث منحت اسم: عذراء ٤٩ - وقد أظهرت كفاءتها كملصق، فلمحتها ماريا المحافظة، فأحدثت ضجّة عائلية، ومع ذلك تمّ بيعها لرجال صناعة من منطقة الراين بمبلغ تقديري - لاشكّ أنها معلقة الآن في قاعة اجتماعات إحدى العمارات الشاهقة، لتترك تأثيرها في نفوس أعضاء مجلس الإدارة.

كانت تلك الأعمال العبثية الموهوبة المرتبطة بحدبتي وتقاطيع جسدي ترفّه عنّي. إضافة إلى أننا، أولا وأنا، كنّا نتقاضى «ماركين» ونصف «المارك» على الساعة الواحدة من الوقوف موديلاً مزدوجاً، بغض النظر عن مواهبنا. فشعرت أولا بالارتياح لعملها موديلاً للرسم، فصار الرسّام لانكس ذو اليد المتينة يعاملها بشكل أفضل منذ أن بدأت تجلب النقود إلى الدار، ولم يعد يضربها إلا بعد أن تطالبه تجريداته العبقرية باستخدام يده الغاضبة. وعلى هذا المنوال مثّلت بنظر الرسّام الذي لم يستخدمها قطّ بمثابة موديل من ناحية بصرية محض ربّة فنّ بمعنى ما؛ إذ أن تلك الصفعات التي كان يكيلها لها وحدها هي التي منحت يده تلك الطاقة الإبداعية الحقيقية. وكانت أولا تحرضني في الواقع بهشاشتها البكائية، التي لم تكن في الأصل سوى صلابة الملائكة، على القيام بأعمال عنف؛ ومع ذلك تمكنت من السيطرة على نفسي، فكنت أدعوها، إذا ما نازعتني شهوة إلى السوط، إلى محلّ فطائر، فأقودها من يدها بشيء من التكبّر الذي اكتسبته من خلال تعاملي مع الفنّانين، كما لو أنها نبتة فارعة إلى جانب تقاطيع جسدي، فأتجوّل معها عبر «كونغسشتارسه» الضاج بالناس المبحلقين، حيث أشتري لها سراويل داخلية بنفسجية وقفّازات وردية.

غير أن الأمر أصبح متخلفاً مع الرسّام راسكولنيكوف الذي كان يتعامل مع أولا تعاملاً حميماً، دون أن يسيء إليها. فكان يضعها فوق القرص الدوّار بساقين منفرجتين، إلا أنه لم يقم برسمها، إنما كان يجلس في كرسيّ بلا مسند على بعد خطوات؛ يجلس قبالة عانتها، ويمعن بصره

في اتجاه العانة، ثم يتهامس بصوت ملحّ بكلام عن الجريمة والعقاب، إلى أن ترشح عانة ربّة الفنّ بالرطوبة، فتنفرج، فيحظى راسكولنيكوف بنتيجة مريحة محررة من خلال التطلع والكلام المجرّد، فيقفز من مقعده، ليجسّد عذراء ٤٩ على حامل الرسم بضربات فرشاة رائعة. فصار راسكولنيكوف يرمقني أحياناً بنظراته، حتى وأن فعل ذلك لأسباب لا علاقة بها بأولا، معرباً عن رأيه ذات مرّة بالقول إن شيئاً ما ينقصني. فتحدث عن فراغ ما بين يديّ، فصار يحشر بين أصابعي حاجيات متتابعة كانت تخطر في مخيلته السريالية بوفرة. وهكذا قام بتسليح أوسكار بمسدس، وتركني، بوصفي يسوع، أصوبه نحو العذراء. توجب عليّ أن أمسك بساعة رمليّة ومرآة أمام وجهها، فشوهتها بصورة بشعة؛ لأن المرآة كانت محدّبة، ثم حمّلني مقصّات وعظام سمك وسمّاعات تلفون وجماجم وطائرات صغيرة وعربات مصفّحة وبواخر عابرة المحيطات، ومع ذلك فإنني لم أملأ الفراغ، مثلما لاحظ راسكولنيكوف على وجه السرعة. وبدا أوسكار متوجساً من أن يأتي ذلك اليوم الذي سيجلب فيه الرسّام ذلك الشيء المخصص لي وحدي، المهيأ أصلاً من أجل أن أمسك به. عندما أتى بالطبل في آخر المطاف صرخت: «كلاّ!»

فقال راسكولنيكوف: «خذ الطبل يا أوسكار؛ فإنني عرفتك!»

فأخذت أرتجف: «كلاّ، أبداً. لقد انتهى كلّ شيء!»

لكنه قال بوجه مكفهرّ: «إنما لم ينته كلّ شيء، بل إنّ كلّ شيء سيأتي، بما فيه الجريمة والعقاب، فالجريمة مرّة أخرى!»

فقلت بما بقي لي من قوّة: «لقد تاب أوسكار، فأعفيه من الطبل؛ فهو سيمسكّ بكلّ شيء، إلا طبل الصفيح!»

ثم بكيت حالما انحنت عليّ أولا، فلم أستطع منعها من أن تقبّلني على الرغم من الدموع التي غشيت عينيّ؛ قبّلتني ربّة الفنّ بشكل مرعب - إن جميع أولئك الذي تلقّوا قبلة من ربّة الفنّ سيتفهون كيف أن أوسكار أمسك بطبل الصفيح إثر تلك القبلة الدامغة، فتناول الطبل الذي نبذه ودفنه في رمال مقبرة سازبه.

لكنني لم أطبل، بل وقفت موديلاً فرسموني بصفتي يسوع المطبّل على الفخذ العارية اليسرى لعذراء ٤٩، فكان ذلك أمراً سيئاً بما فيه الكفاية. وهكذا رأتني ماريا على الملصق الفنّي الذي كان يعلن عن أحد المعارض. فزارت المعرض بدون علمي، ولعلّها وقفت طويلاً أمام تلك اللوّحة وجمعت غضبها؛ وعندما واجهتني بالموضوع ضربتني بمسطرة ولدي كورت. لقد واجهتني بصفتها امرأة تأقلمت جيّداً مع غرب ألمانيا؛ إذ أنها عثرت على عمل كبير الأجر في متجر للأطعمة الفاخرة، ثم تسلّمت وظيفة محاسبة بعد فترة قصيرة بفضل كفاءتها، فلم تعد مجرد امرأة لاجئة من الشرق، تتاجر في السوق السوداء؛ لذلك تمكنت من أن تطلق عليّ، وبقوّة إقناع لا بأس بها، صفة خنزير قذر وفاسق وإنسان منحلّ، ثم زعقت بي أيضاً قائلة إنها لا تريد النقود التي كسبتها بتلك الحقارات، بل لا تريد أن تراها أبداً أو أن تراني أنا أيضا. فعلى الرغم من أن ماريا سحبت عبارتها الأخيرة، وأضافت جزءاً ليس هيّناً من نقود وقوفي موديلاً إلى دخل الدار بعد أربعة عشر يوماً، إلا أنني قررت التخلي عن السكن المشترك معها وشقيقتها غوسته وولدي كورت، وودت الرحيل بعيداً، إلى هامبورغ، أو ربما إلى البحر مرّة ثانية، بيد أن ماريا التي ارتضت على عجل بانتقالي المزمع، أقنعتني بمساعدة شقيقتا غوسته، بالبحث عن غرفة بالقرب منها ومن كورت، غرفة في مدينة دوسلدورف في كلّ الأحوال.

القنفذ

لقد بنيّ من جديد، ثم اقتلع من جذوره، فشمله، ثم ضاع هباءً، فشعر به ثانية: وإنّ أوسكار لم يتعلم فنّ إعادة التطبيل إلا بعد أن أصبح مستأجراً. وليس الغرفة وحدها، بل القنفذ ومخزن التوابيت والسيّد مونتسر ساعدوني على العودة إلى التطبيل، كما أن الممرضة «دوروتيّا» عرضت نفسها كمنبّهة. فهل تعرفون «بارتسيفال»؟ أنا أيضاً لا أعرفه بشكل جيّد. إذ لم يبق في ذاكرتي منه سوى حكاية قطرات الدم الثلاث على الثلج. إن هذه الحكاية صحيحة؛ لأنها تنطبق عليّ. ربما تنطبق على كلّ من يحمل فكرة. لكن أوسكار يكتب عن نفسه، لذلك بدت له مريبة، لائقة، كأنها مفصلة عليه تفصيلاً. فقد كنت ما أزال في ذلك الوقت أخدم الفنّ، فكنت أتركهم يرسمونني أزرق أخضر أصفر أو في لون الأرض؛ أتركهم يسودونني ويضعونني في خلفية اللوحات، فأتحفنا، أولا وأنا معاً، أكاديمية الفنون الجميلة بفصل دراسيّ شتويّ كامل، خصب ومثمر - ومنحنا فصل الصيف الدراسيّ الذي أعقبه بركاتنا تألهنا الفنّي -، بيد أن الثلج قد سقط، فامتص تلك القطرات الثلاث من الدمّ التي سمّرت بصريّ مثلما سمّرت بصر المغفّل بارتسيفال الذي لم يفقه أوسكار بأنه سيشعر بنفسه متماثلاً معه دون أيّ قسر. وبلا شكّ أن صورتي الخرقاء ستكون واضحة لكم بما يكفي: إن الثلج هو الزيّ المهني للممرضة، والصليب الأحمر التي تعلقه معظم الممرضات، ودوروتيّا من ضمنهنّ، على الدبّوس الذي يثبّت ياقاتهن، هو الذي تألق أمامي بدلاً من قطرات الدمّ الثلاث. فجلست حينئذ، غير قادر على أن أصرف بصري بعيداً.

ولكنني قبل أن أقطن في غرفة الحمّام السابقة العائدة لمنزل «تسايدلر»، انشغلت في البحث عن تلك الغرفة. كان فصل الشتاء الدراسيّ قد انتهى للتوّ، فأخلى قسم من الطلبة غرفهم، وسافروا إلى أهاليهم لتمضية عيد الفصح، فعاد البعض منهم، أو لم يعد. كانت زميلتي، ربّة الفنّ أولا، قدّمت لي معونة في البحث عن غرفة، فذهبت معي إلى ممثلية الطلاّب، حيث زوّدت بعناوين كثيرة، إضافة إلى بتوصية خطيّة من أكاديمية الفنون الجميلة. وقبل البدء بعملية البحث عن سكن، زرت بعد فترة طويلة النحّات كورنيف في ورشته في درب الرجاء. كان الولع هو الذي مهّد الطريق أمامي، كذلك فتشت عن عمل أثناء العطلة الدراسيّة، إذ أن تلك الساعات القليلة التي وقفت فيها موديلاً خاصاً أمام عدد من الأساتذة مع أولا أو بدونها، لم تعيلني إلا بشكل سيئ خلال الأسابيع الستة اللاحقة - ناهيك عن قضية توفير إيجار غرفة مؤثثة. فوجدت كورنيف كما هو، لم يطرأ عليه أي تغيير، بدماملة الموشكة على الشفاء والأخرى التي لم تنضج بعد على قفاه، منحنياً على لوح من الرخام البلجيكي ويحزّه بالإزميل، ضربةً إثر أخرى. تجاذبنا أطراف الحديث قليلاً، وأخذت أعبث بأقلام الخطّ الحديدية تلميحاً، ثم أرسلت بصري إلى عدد من الصخور المصفوفة فوق بعضها المصقولة، المنعمة التي انتظرت الكتابة وحدها. كان هناك متران من الحجر الجيريّ وقطعة من المرمر الشليزيّ معدة لقبر مزدوج بدت كما لو أن كورنيف قد باعها، فتطلعت لهفة إلى خطّاط نحت عارف. فرحت لنحّات الصخور الذي عاش وقتاً صعباً عقب إصلاح النقد، غير أننا عزينا أنفسنا آنذاك بمقولة حكيمة مفادها: أن عملية إصلاح النقد سوف لا تمنع الناس من الموت ومن طلب الشواهد حتى لو بدا إصلاح النقد عملاً متفائلاً ومبتهجاً بالحياة. فأثبتت تلك المقولة صحتها، فكان الناس يموتون أو يشترون الشواهد، إضافة إلي الطلبات التي لم تكن معروفة قبل إصلاح النقد: بدأت محلاّت القصابين تكسو واجهاتها وبواطنها بالمرمر الملوّن، وكان لابد من حزّ مربعات في الحجر الرملي أو الصخر البركاني الذي كان يزيّن

واجهات بعض المصارف المالية والمتاجر المتضررة، بغية إعادتها إلى شكلها السابق.

لقد امتدحت نشاط كورنيف، وسألته فيما كان سينجز جميع تلك الأعمال الكثيرة، فتحاشى الإجابة في البدء، لكنه اعترف بأنه كان يتمنى أحياناً أربعاً من الأيدي، ثم اقترح عليّ أن أعمل نصف نهار في وضع الخطوط، على أن يدفع لي أجراً خمسة وأربعين فنكاً للحرف الواحد من الخطّ المسماريّ على اللوح الجيريّ، وخمسةً وخمسين فنكاً على حجر الصوان أو الصخر البركانيّ؛ أمّا الحروف الرفيعة السامية فسيدفع لها من ستين إلى خمسة وسبعين فنكاً. وتناولت في الحال حجراً جيريّاً، وانهمكت بسرعة في العمل ومن ثمة في حزّ الحروف، فحفرت في الخط المسماريّ: ألويس كوفر - ولد في ١٨٨٧/٩/٣ توفّى في ١٩٤٦/٦/١٠ - وانتهيت من الحروف والأرقام الثلاثة والثلاثين خلال أربع ساعات، فتلقيت جرّاء عملي ثلاثة عشر ماركاً وخمسين فنكاً حسب التعريفة المتفق عليها. وكان هذا المبلغ يعادل ثلث الإيجار الشهري الذي خوّلت نفسي بتسديده، فإنني لم أستطع، ولم أرد، أن أدفع أكثر من أربعين ماركاً، إذ أن أوسكار قطع عهداً على نفسه بمواصلة تقديم الدعم إلى ميزانية البيت في محلّة بلكه وإلى ماريا والصبي وغوسته كوستر، حتى لو بدا دعماً متواضعاً. ومن بين العناوين الأربعة التي أعطاني إياها الناس الطيبون في ممثلية طلاّب أكاديمية الفنون الجميلة اخترت العنوان التالي: تسايدلر، يوليشر شتراسه رقم ٧؛ لأنني سأكون قريباً من أكاديمية الفنون.

فوضعت قدميّ على الدرب مطلع مارس، حين كان الجوّ ساخناً، مغلفاً بوشاح من الرطوبة و«رينانياً» منخفضاً حقّاً، وكنت مزوداً بما يكفي من مصروف الجيب. لقد أصلحت ماريا بذلتي، فبدوت أنيقاً حسنَ الهندام. وكانت البناية التي شغل تسايدلر ثلاث غرف من طابقها الثالث تنتصب، مفتتة الجصّ، خلف شجرة كستناء متربة. وبما أن يوليشر شتراسه قد تحوّل نصفه إلى أنقاض؛ فإن من الصعب الحديث عن بنايات مجاورة أو منزل مقابل. فثمّة جبل اشتمل في شماله على عارضة من

الحديد الصدئ على شكل T وقد علته الحشائش والزهور الصغيرة الصفراء، مما يحمل المرء على الاعتقاد بوجود بناية من أربعة طوابق اتكأت على بيت تسايدلر. ومن اليمين ثمة قطعة أرض مخربة جزئياً أعيد بناؤها حتى الطابق الثاني. ولعلّ الإمكانيات لم تكن كافية، إذ لابد من ترميم واجهة الرخام السويدي الأسود المصقول الناقصة والمشروخة في عدة مواضع. كانت اللافتة التي كتب عليها «مؤسسة شورنهمان للدفن» يعوزها عدد من الحروف لا أعلم ما هي. لحسن الحظّ لم تتضرر سعفتا النخيل المخروطتان اللامعتان كالمرآة، المحفورتان في الرخام الأسود، حيث أعارتا المحلّ المنكوب مظهراً من البرّ والإحسان مقبولا.

كان مخزن توابيت هذه المؤسسة القائمة منذ خمس وسبعين عاماً موجوداً في باحة المبنى، وسيكون حريّاً على الدوام بمشاهدتي له من خلال غرفتي المطلة إلى الخلف. فصرت أراقب العمّال الذين كانوا يزحزحون التوابيت من السقيفة حين يكون الطقس صافياً، ثم يضعونها على الحوامل الخشبية، ليقوموا بتلميع هذه الصناديق الضيقة من ناحية القدمين بالشكل المألوف بالنسبة لي، مستخدمين جميع الوسائل. وفتح تسايدلر بنفسه الباب حين قرعت الجرس، فرأيته يقف قصيراً، متين البناء، ضيّق النفس ومتقنفذاً عند الباب، واضعاً نظّارة سميكة العدستين، وقد أخفى النصف السفلي من وجهه تحت رغوة صابون تشبه ندف الثلج، بينما رصّ بيمناه فرشاة الحلاقة على خدّه، فبدا مدمناً على الكحول وفستفالياً فيما يتعلق بلهجته.

«إذا لم تعجبك الغرفة، فقلّ لي فوراً، لأنني أحلق نفسي الآن ويجب أن أشطف رجليّ.»

كان تسايدلر رجلاً لا يحبّ اللف والدوران، فاستطلعت الغرفة التي كان من الممكن أن لا تحظى بإعجابي؛ لأنها بدت عبارة عن حمّام مرصع نصفه بالبلاط الفيروزيّ اللون وتمّ كساء نصفه الآخر بالورق المضطرب النماذج. ومع ذلك فإنني لم أقل إن هذه الغرفة لم تعجبني. فنقرت بأصابعي على حوض الاستحمام، غير عابئ برغوة الصابون الجافة على

تسايدلر، أو بقدميه غير المشطوفتين، إنما أردت أن أعرف فيما إذا كان السكن ممكناً بدون حوض الاستحمام هذا؛ إذ أنه في كلّ الأحوال لا يحتوي على أنبوب تصريف إلى البالوعة. فهزّ تسايدلر رأسه المليء بالشيب، مبتسماً، وحاول بلا جدوى إخراج رغوة صابون من فرشاة الحلاقة، فكانت هذه هي إجابته. وهكذا أعلنت عن استعدادي لتأجير غرفة حوض الاستحمام مقابل أربعين ماركاً في الشهر.

وحين وقفنا في الممر الشحيح الإنارة الذي يشبه خرطوم المياه، حيث تفرعت منه غرف كثيرة بأبواب مختلفة الألوان ومزججة جزئيّاً، أعربت عن رغبتي في معرفة من يسكن سوايّ في دار تسايدلر.

«زوجتي ومستأجر داخليّ.»

فقرعت على باب حليبيّ البياض وسط الممر يمكن أن يصله المرء من مدخل السكن في خطوة واحدة.

«هنا تسكن الممرضة. لكن هذا لا يخصّك. سوف لا تراها في جميع الأحوال. إنها تنام هنا فقط، وحتى هذا لا تفعله دائما.»

وأنا لا أريد القول هنا إن أوسكار ارتعد حين ذُكرت عبارة «ممرضة»، فهزّ رأسه، ولم يجرؤ على طلب معلومات عن الغرفة الأخرى، إذ أنه أصبح على علم بغرفته ذات حوض الاستحمام التي وقعت على يده اليمنى وينتهي عندها الممر بمقدار عرض الباب. فنقر تسايدلر على ياقة سترتي ثم قال: «تستطيع الطبخ إذا كان عندك مشعل غاز. ولا مانع لديّ أن تأتي بعض المرّات إلى المطبخ، إذا لم يكن موقد الطبخ مرتفعاً بالنسبة لك.» وكانت هذه هي ملاحظته الأولى حول قامة أوسكار. لكن توصية أكاديمية الفنون الجميلة قد تركت مفعولها عليه بعد أن قرأها قراءة خاطفة؛ لأنها كانت موقعة من قبل المدير البروفيسور رويزر. فأجبت على جميع تحذيراته بنعم وآمين، طابعاً في ذهني مكان المطبخ الواقع إلى اليسار بجانب غرفتي، وعاهدته على أن أغسل ملابسي خارج الدار؛ إذ أنه خشي على ورق كسار غرفة الحمّام من تأثير الرطوبة، فوعدته بتحقيق ما أراد بكلّ تأكيد؛ لأن ماريا أعلنت عن استعدادها لغسل ملابسي.

حينئذ أصبح بإمكاني الانصراف، لأجلب أمتعتي وأملأ استمارات تغيير السكن. بيد أن أوسكار لم يفعل ذلك، فبات عاجزاً عن مغادرة الدار. ودون أي داع ترجى من مؤجره المستقبلي أن يريه المرحاض، فأشار المؤجر بسبابته إلى باب مسّمر من الخشب الرقيق الذي يذكّر بأعوام الحرب وبأعوام ما بعد الحرب التي أعقبتها مباشرة. عندما أبدى رغبته في استعمال المرحاض فوراً ضغط تسايدلر، الذي تقشرت رغوة الصابون فوق وجهه وبدأت تحكّه، زرّ الكهرباء الخاص بالمرحاض. بيد أنني شعرت بامتعاض في داخله؛ لأن أوسكار لم يشعر بحاجة إلى المرحاض. فانتظرت بإصرار على الرغم من ذلك إلى أن أخرجت بعض الماء، بحيث أنني أجهدت نفسي بسبب الضغط الضعيف للمثانة - كذلك لأنني كنت قريباً من النظّارة الخشبية - لكي لا أبلل النظّارة والأرضية المبلطة في المكان الضيّق. فمسح منديلي الآثار عن الخشب المستهلك، غير أن نعلي أوسكار حملا معهما بضعة قطرات منحوسة إلى الأرضية المبلطة.

وعلى الرغم من أن الصابون تصلّب فوق وجه تسايدلر، إلا أنه لم يبحث عن مرآة الحلاقة أو الماء الساخن أثناء غيابي، بل أنتظر في الممر، وبدأ كما لو أنه استظرفني فقال: «يا لك من شخص غريب! إنك لم توقّع عقد الإيجار ومع ذلك تستخدم المرحاض!» فاقترب منّي بفرشاة حلاقة باردة، متجمدة، مخططاً بالتأكيد لدعابة سخيفة، غير أنه فتح باب السكن دون أن يضايقني. حينما انصرف أوسكار هابطاً سلّم البناية سائراً إلى الخلف، مارقاً أمام القنفذ، واضعاً إيّاه في مرمى بصره، لاحظت بأن باب المرحاض الذي ينتهي فيه الممر كان يفصل بين باب المطبخ والباب المزجج التي تمضي خلفه إحدى الممرضات لياليها بغير انتظام. وبعدما عاد أوسكار في المساء المتأخر مع أمتعته التي علّق فوقها الطبل الجديد ولوحة العذراء التي رسمها راسكولنيكوف، وقرع جرس تسايدلر عدّة مرّات ملّوحاً له باستمارة تغيير السكن، قادني القنفذ الحديث الحلاقة الذي غسل قدميه في تلك الأثناء إلى سكنه الشخصي.

كان لسكنه رائحة دخان سجائر باردة، فبدت رائحته مثل رائحة

السيجار المشتعلة مرّات عديدة. إضافة إلى الإفرازات التي انبعثت من السجاد الكثير المكدس الملفوف في أركان الغرفة والذي لعلّه كان سجّاداً نفيسا. كذلك انتشرت رائحة تقاويم قديمة، لكنني لم أر أي تقويم؛ لقد كانت هذه رائحة السجّاد. من العجيب أن مقاعد الجلوس المريحة المكسوة بالجلد لم تبعث أي رائحة، مما خيّب أملي، إذ أن أوسكار الذي لم يجلس قطّ في مقعد جلديّ، كان يجمل تصوّراً واقعياً عن جلد المقاعد ذي الرائحة القويّة، حتى أنه أخذ يشكك في كساء مقاعد تسايدلر وكراسيه وحسبه اصطناعياً. وكانت السيّدة تسايدلر تجلس على أحد المقاعد الجلدية الناعمة، الأصلية الجلد مثلما اتضح فيما بعد، الخالية من الرائحة. وقد ارتدت فستاناً رمادياً مفصلاً تفصيلاً رياضيّاً، متناسقاً مع جسمها وغير متناسق في آن. كانت تنوّرتها مزاحة عن الركبة فبان سروالها الداخليّ بمقدر ثلاثة أصابع. ولأنها لم تصلح من تنورتها المزاحة ولأن عينيها بدتا دامعتين، مثلما ظنّ أوسكار، فإنني لم أجرؤ على تقديم نفسي لأفتتح حديث تحيّة معها، فبقي انحنائي بلا كلام، والتفت في المرحلة الأخيرة إلى تسايدلر الذي قدم لي امرأته بحركة إبهام مصحوبة بنحنحة قصيرة. وبدت الغرفة رحبة مربعة، أمّا شجرة الكستناء المنتصبة أمام البناية فقد عتمت على المكان، فجعلته واسعاً صغيراً في آن. تركت الحقيبة والطبل قرب الباب ودنوت باستمارة تغيير السكن من تسايدلر الذي وقف بين نافذتين. لم يعد أوسكار يسمع وقع خطاه، إذ أنه سار على أربع سجّادات متفاوتة الأحجام مردودة على بعضها، بحيث أن الكبيرة منها كانت في الأسفل، فشكّلت بحوافها المتباينة الألوان، المهلهلة منها وغير المهلهلة، سلّماً ملوّناً، بدأت درجته الأولى القريبة من الجدران باللون البنيّ الضارب إلى الحمرة، واختفت معظم أطراف الدرجة الخضراء التي فوقها تحت قطع الأثاث مثل البوفيه الضخمة والدولاب الزجاجي المليء بكؤوس العرق التي بلغ عددها العشرات وفراش الزوجية الفسيح. أمّا حواف السجّادة الثالثة الزرقاء الكثيرة النقوش فقد امتدت من ركن إلى ركن على نحو مرئيّ، بينما وقعت على السجّادة الرابعة المخملية الحمراء حمرة

النبيذ مهمّة حمل الطاولة المستديرة القابلة للتوسيع المفروشة بمشمع للوقاية المحاطة بأربعة مقاعد مكسوة بالجلد المثبّت بالمسامير بشكل منتظم. وثمة سجّاد كثير كان معلقاً على الجدران على الرغم من أنه لم يكن سجّاداً جداريّاً، ومنه ما كان يسترخي مطوياً في الزوايا، فحمل أوسكار إلى التخمين بأن القنفذ كانت يتاجر بالسجّاد قبل عملية إصلاح النقد، ومن ثم ظلّ جالساً عليه بعد الإصلاح.

لم تكن هناك سوى صورة واحدة مزججة عُلّقت بين السجاجيد الشرقية الإيحاء على الجدار ذي النوافذ، مثلت الأمير بسمارك. فجلس القنفذ الذي عبّأ بجسده المقعد الجلدي تحت المستشار الذي كان يشبهه بعض الشبه العائلي. بعدما جذب استمارة تغيير السكن من يدي، وتفرّس في تلك الورقة الرسمية وجهاً وظهراً، ليتدارسها بيقظة وتفحّص ونفاد صبر، أجبره سؤال هامس طرحته زوجته على أن يصاب بنوبة غضب، دفعت به إلى الاقتراب من المستشار الحديديّ شيئاً فشيئا، ثم سرعان ما بصقه المقعد. فانتصب على سجاجيد أربع، ممسكاً بالاستمارة جانباً، فملأ صديريّه بالهواء، ثم أصبح بوثبة واحدة فوق السجّادة الأولى فالثانية، وأمطر زوجته المنحنية على قطعة للخياطة بوابل من الكلام من قبيل: من ذا الذي يتحدث هنا إذا لم يُسأل ولم يكن له ما يقوله إلا «أنا، أنا، أنا! فلا تنطقي بكلمة واحدة!» وبما أن السيّدة تسايدلر لاذت بالصمت بأدبٍ جمّ ولم تنطق بحرف، مكتفية بوخز قطعة الخياطة بإبرتها، تركزت حينئذ مشكلة القنفذ الذي بات يدوس على السجاد، مغلوباً على أمره، في التنفيس عن ما بقي من غضبه بشكل يوحي بالمصداقية لكي يتخلص من عبئه. وبخطوة واحدة أنتصب أمام الدولاب الزجاجي، ثم فتحه، بحيث أنه أصدر قرقعة، فقبض بأصابع منفرجة على ثمانية كؤوس بحذر، أمسك بمقابضها المزخرفة، وأخرجها من الدولاب دون أن يصيبها بضرر، اقترب خطوة إثر خطوة - مثل مضيّف أراد أن يسليّ نفسه وسبعة من الضيوف بتمرين على المرونة والمهارة -؛ اقترب من الفرن الدائم الاحتراق المغلّف بالبلاط الأخضر، ثم قذف بالحمل الهشّ باب الفرن البارد المسبوك من

حديد الزهر، متناسياً الحذر كلّه. ومما أثار العجب هو أن القنفذ استطاع أن يترصد بعينيه المختفيتين تحت النظّارة زوجته التي نهضت وحاولت أن تضع خيطاً في خرم الإبرة قرب النافذ اليمنى، أثناء المشهد برمته الذي تطلّب قدراً من دقّة التصويب. وبعد مرور ثانية على تحطيمه للأقداح، تمكنت امرأة القنفذ من تنفيذ محاولة إدخال الخيط الصعبة التي تطلبت يداً تتحلى بالهدوء. فرجعت السيّدة تسايدلر إلى مقعدها الدافئ، فجلست بحيث أن فستانها انزاح عن ركبتها مرّة أخرى فكشف عن سروالها الداخلي الورديّ الملتفّ بمقدار ثلاثة أصابع. كان القنفذ قد راقب طريق زوجته إلى النافذة وإدخال الخيط في سمّ الإبرة ثم رجوعها؛ راقبها منحنيّاً يلهث ومستسلماً بالإضافة إلى ذلك. حالما جلست سارع إلى مدّ يده خلف الفرن، فعثر على صفيح جمع القمامة ومكنسة صغيرة، فلمّ شظايا الزجاج وأفرغها في جريدة، كان نصفها مليئاً بشظايا كؤوس العرق، فلم يعد فيها مكان كاف لنوبة تحطيم زجاج ثالثة.

وإذا ما حسب القارئ بأن أوسكار عثر على نفسه في شخصية القنفذ المكسر للزجاج؛ لأنه كان يحطّم الزجاج بصوته طيلة أعوام؛ فإنني لا أظلم القارئ واتهمه بمجافاة الحقيقة؛ فقد كنت، أنا أيضاً، أنفس عن غضبي بتحطيم الزجاج - بيد أن أحداً لم يرني قطّ أهرع إلى صحيفة جمع القمامة والمكنسة! فبعدما أزال تسايدلر آثار غضبه وجد طريقة إلى كرسيه ثانية، فناوله أوسكار استمارة تغيير السكن التي أسقطها القنفذ أرضاً حين فتح الدولاب بيديه معاً. فوقّع تسايدلر على الاستمارة، ونبهني إلى ضرورة الالتزام بالنظام، وإلا ستسود الفوضى الدار، فهو يعمل منذ خمسة عشر عاماً وكيلاً، في الحقيقة وكيلاً لماكينات حلاقة الشعر، فهل أعلم ما هي ماكينات الحلاقة؟! فكان أوسكار يعلم ما هي ماكينات الحلاقة، ثم قام ببضع حركات إيضاحية في فضاء الغرفة، استشفّ تسايدلر منها بأنني مطلع على آخر التطوّرات فيما يتعلق بماكينات الحلاقة. كانت تسريحة شعرة الشبيهة بفرشاة التنظيف أتاحت لي أن أرى فيه وكيلاً ممتازا. بعدما شرح لي نظام عمله - كان يسافر دائماً لمدّة أسبوع، ثم يمضي يومين في بيته -

فقد اهتمامه بأوسكار، وصار يتأرجح متقنفذاً في المقعد الجلدي البنيّ الفاتح المطقطق. أخذ يومض بزجاجتيّ نظّارته ويقول بسبب وبدون سبب: نعم نعم نعم نعم نعم نعم - فتوجب عليّ الانصراف.

وفي البدء استأذن أوسكار من السيّدة تسايدلر التي كانت يد باردة، خالية من العظام، لكنها جافة؛ بينما لوّح إلى القنفذ من كرسيه، مشيراً إلى الباب، حيث أمتعة أوسكار. فجاءني صوته وأنا منهمك تماماً بحمل الأمتعة: «ما هذا الذي يتدلى على الحقيبة؟»

«هذا هو طبلي.»

«إذاً؛ إنك تريد أن تطبّل هنا؟»

«ليس بالضرورة. في السابق كنت أطبل كثيراً.»

«بالنسبة لي يمكنك أن تطبّل كما تشاء. فأنا في كلّ الأحوال لست موجوداً في البيت.»

«ليس هناك أي أمل في أن أعود إلى التطبيل ذات يوم.»

«لكن لماذا بقيت صغيراً هكذا؟ أي نعم؟»

«سقطة منحوسة أعاقت نموّي.»

«أرجو أن لا تصدع رأسي بالسقطات وما شابه ذلك.»

«لقد تحسن وضعي الصحّي في الأعوام الأخيرة. انظر إليّ كم أنا خفيف الحركة.» ثم أدّى أوسكار أمام السيّد والسيّدة تسايدلر بعض القفزات وقام ببعض الألعاب البهلوانية التي تعلمها في زمن المسرح الميداني، فأحلت السيّدة تسايدلر إلى امرأة مكركرة، وأحلته إلى قنفذ يكيل الضربات إلى فخذه حالما وقفت في الممر، متجاوزاً باب الممرضة الغائم البياض وبابيّ المرحاض والمطبخ، حاملاً إلى غرفتي أمتعتي والطبل. وقد حدث ذلك في الأوّل من مايو/ آيار، ومنذ ذلك اليوم تملكني سرّ الممرضة فأغواني واحتلني احتلالاً: إن المعينات يجعلنني سقيماً دائماً، بل مريضاً بلا شفاء، فاليوم، وبعد ما خلّفت كلّ شيء ورائي، وجدت نفس أخالف رأي برونو الذي زعم للتو بأن: الرجال وحدهم قادرون على القيام بمهمات العناية قولاً وفعلاً، وأن بحث النزلاء

المرضى عن ممرضات يعتنين بهم يعتبر ظاهرة مرضيّة؛ فبينما يجهد المعين نفسه بتقديم العناية للمريض، بحيث أنه يشفيه أحياناً؛ فإن الممرضة تتبع الطريق الأنثويّ: فتقوم بإغواء المريض، وتستدرجه إلى الشفاء أو الموت؛ إذ أنها تثيره جنسياً بسهولة وتوقظ شهوته. وهكذا كان رأي معيني برونو الذي أعيده هنا على مضض. فمن دأب على تثبيت حياته عبر الممرضات كلّ بضعة أعوام فإنه يحتفظ بالعرفان، ولن يسمح لمعين متذمر، حتى وإن كان لطيف المعشر، بالنفور من زميلاته الممرضات بسبب حسد المهنة.

لقد بدأ ذلك بالسقوط من سلّم القبو، بمناسبة عيد ميلاديّ الثالث. أعتقد أن اسمها كان الممرضة لوتا، وقد قدمت من «براوست». فبقيت محتفظاً بالممرضة إنغا التي عملت لدى الدكتور هولاتس لمدّة أعوام طويلة. عقب الدفاع عن البريد البولندي وقعت تحت رحمة عدد من الممرضات في وقت واحد. لكن لم يبق في ذاكرتي سوى اسم ممرضة واحدة: كانت تدعى الممرضة أرني أو برني. وثمّة ممرضات بلا أسماء في «لونهبورغ» ومستوصف جامعة هانوفر. جاءت بعد ذلك ممرضات المستشفى البلدي في دوسلدورف، وفي مقدمتهن الممرضة غيرترود. ثم جاءت تلك الممرضة التي لم أبحث عنها في أي مستشفى. فوقع أوسكار في غرام ممرضة سكنت مستأجرة داخلية في دار تسايدلر مثل أوسكار الذي كان في أتم الصحّة والعافية. منذ ذلك اليوم أصبح العالم في نظري مليئاً بالممرضات، فكنت أذهب في الصباح المبكر إلى العمل، أحزّ الحروف على الصخر لدى كورنيف، وكانت المحطة التي أستقل منها الترام تسمى مستشفى ماريا، حيث كان الكثير من الممرضات يغدون ويأتين بلا انقطاع أمام بوّابة المستشفى المقامة من الآجر وساحته الأمامية الكثيفة الزهور؛ ممرضات تركن عملهن الشاق ورائهن أو أمامهن. ثم يأتي الترام، فكنت أضطر إلى الجلوس في مقطورة واحدة مع عدد من أولئك المعينات المجهدات اللواتي يتطلعن بتوتر في معظم الأحيان، أو أقف على الرصيف ذاته. في البدء أخذت أتشممهن على كره، ثم صرت استقصي رائحتهن، بل صرت أقف إلى جانب ملابس عملهن أو بينها.

وبعد ذلك أتي درب الرجاء، حيث بدأت أنحتّ الخطّ في الخارج بين معرض الشواهد حين يكون الطقس جيّداً، فأراهن يأتين ذراعاً بذراع، اثنين اثنين، أو في مجموعات رباعية، يمضين ساعة استراحتهن، فكنّ يجبرن أوسكار على رفع رأسه وإهمال عمله، إذ كلّ رفعة رأس كانت تكلفني عشرين فنكاً. وإضافة إلى ملصقات دور السينما: كانت هناك أفلام كثيرة تعرض في ألمانيا لها علاقة بالممرضات، وقد أغرتني الممثلة ماريا شيل على دخول دور السينما؛ إذ أنها ارتدت زيّ الممرضات، فكانت تضحك وتبكي وتعتني بالآخرين بنكران ذات، ثم تعزف الموسيقى الجديّة مبتسمة. كانت تضع على رأسها قلنسوة الممرضات، لكن اليأس قد انتابها، فمزقت ثوب نومها، مضحيّة بحبها إثر محاولة انتحار - كان بطل الفلم طبيباً - لكنها بقيت مخلصة لمهنتها، متمسكة بالقلنسوة ودبّوس الصليب الأحمر. وبينما كان مخّ أوسكار ومخيخه يقهقهان ويحشران البذاءات في شريط الفلم، فقد اغرورقت عينا أوسكار بالدموع، وتاه، نصف مبصر، في صحراء من الممرضات المجهولات ذوات الملابس البيضاء، باحثاً عن الممرضة دوروتيا التي علمت بأنها استأجرت حجرة خلف زجاج ذي لون غائم في دار تسايدلر.

أحياناً كنت أسمع وقع خطاها حين تعود من الخدمة؛ نعم، أسمعها في حوالي الساعة التاسعة مساءً عندما تنتهي من عملها اليومي فتأتي إلى حجرتها. إذا ما سمع أوسكار الممرضة تخطو في الممر؛ فإنه لم يبق جالساً دائماً في كرسيّه. فكان كثيراً ما يعبث بأكرة الباب. فمن ذا الذي يتحمل تلك الحالة؟ ومن ذا الذي لا يتطلع إذا ما مرق أحد، فربما أنه يمرق من أجله؟ بل من ذا الذي سيبقى جالساً في كرسيّه إذا ما بدت الجلبة التي يصدرها الجوار لا تهدف إلا إلى دفع الجالسين بهدوء إلى القفز من مقاعدهم؟ لكن الأمر مع الصمت والسكينة بدا أكثر سوءاً! لقد عشنا من قبل وقائع المنحوتة الصامتة المستكينة المصنوعة من الخشب. آنذاك خرّ أوّل مستخدم في المتحف صريعاً غارقاً في دمه، فقيل إن نيوبا قتلته. فأخذ المدير يبحث عن حارس جديد، إذ لا يجوز إقفال المتحف. عندما قتل

الحارس الثاني صاحت الناس: نيوبا هي التي قتلته. حينئذ وجد المدير صعوبة بالغة في العثور على حارس ثالث - أم أنه كان الحارس الثالث عشر الذي بحث عنه؟ - فبغض النظر عن ذلك، قُتل هذا الحارس الذي عثر عليه بمشقة. فصرخت الناس: نيوبا، نيوبا المصبوغة بالأخضر المتطلعة بعينين من الكهرمان، نيوبا الخشبية، العارية، التي لم ترتجف ولم تشعر بالبرد ولم تعرق أو تتنفس، نيوبا الخالية من العثّة لأنها رشت بدواء مضاد للعثّة والديدان، لأنها كانت نفيسة وتاريخية. فقد حُرقت ساحرةٌ من أجلها، وقطعت اليد الموهوبة لناحتها، فغرقت السفن، لكنها نجت هي عائمة. كانت نيوبا ثمينة، غير قابلة للاحتراق، فكانت تقتل وتبقى نفيسة. فأسكتت تلميذ ثانوية وطالباً وكاهناً عجوزاً وجوقة من حرّاس المتحف، أسكتتهم كلّهم بصمتها. لكن صديقي هربرت تروجنسكي قد ضاجعها، فقذف بها ما قذف، بيد أن نيوبا ظلّت جافة وازداد صمتها.

وعندما تغادر الممرضة حجرتها والممر ودار القنفذ في الصباح المبكر، حوالي الساعة السادسة، يسود السكون التام، على الرغم من أنها لم تحدث ضجّة أثناء وجودها. ولكي يستطيع أوسكار التحمّل فإنه كان يصدر أصوات صرير من سريره أو يزحزح كرسياً، أو يدحرج تفّاحة من فوق حوض الاستحمام. عند الساعة الثامنة يبدأ الحفيف، فيكون ذلك موعد ساعي البريد الذي كان يسقط البطاقات البريدية والرسائل من شقّ الرسائل على أرضية الممر. إضافة إلى أوسكار، كانت السيّدة تسايدلر تنتظر هذا الحفيف، ثم تبدأ بالعمل كسكرتيرة في شركة «مانسمان» في الساعة التاسعة، فكانت تسمح لي بالتقدم قبلها، فبات أوسكار أوّل من يستطلع أمر الحفيف. فكنت أؤدي ذلك بهدوء، على الرغم من معرفتي بأنها كانت تسمعني، فأترك باب غرفتي مفتوحاً، لكي لا أضطر إلى إشعال الضوء، فالتقط البريد كلّه دفعة واحدة، وأدسّ في جيب منامتي عند الضرورة الرسالة التي تحدثت فيها ماريا بدقّة عن نفسها أو عن الطفل أو شقيقتها غوسته، وتبعث بها مرّةً في الأسبوع، ثم أتفحص بقية البريد،

فكنت أفلت من يدي، أنا الذي لم أقف باستقامة، إنما أجلس مقرفصاً، تلك الرسائل المعنونة إلى آل تسايدلر أو إلى سيّد يدعى مونتسر الذي سكن الطرف الثاني من الممر، فأجعلها تنزلق على الأرضية؛ بينما كنت أقلّب بريد الممرضة، وأشمّه وأتحسسه، غير مكتف بمعرفة المرسل.

كانت الممرضة دوروتيّا نادراً ما تتلقى بريداً، لكنها كانت تستقبل بريداً أكثر منّي. أمّا اسمها الكامل هو دوروتيّا كونغيتر، بيد أنني أطلقت اسم الممرضة دوروتيّا، ناسياً من وقت إلى آخر لقبها الذي يمكن الاستغناء عنه تماماً بالنسبة لممرضة. كانت تتلقى بريداً من أمها المقيمة في هلدسهايم، إضافة إلى رسائل وبطاقات بريدية كانت تأتيها من مستشفيات مختلفة في ألمانيا الغربية. ثمّة ممرضات أنهت معهن تعليمها على التمريض كنّ يكتبن إليها. غير أنها حافظت على اتصالها بزميلاتها على نحو متراخ، انطوى على عناء، عبر كتابة البطاقات البريدية، فكانت تتلقى إجابات تافهة سطحية مثلما تأكد أوسكار بشكل خاطف. ومع ذلك اطّلعت على شيء من الحياة السابقة للممرضة دوروتيّا من خلال البطاقات البريدية الكاشفة على الأغلب عن واجهات المستشفيات التي تسلقها اللبلاب: لقد اشتغلت الممرضة دوروتيّا فترة من الزمن في مستوصف فنسنس في كولونيا، ثم في مستشفى خاص قريب من مدينة آخن، وكذلك في هلدسهايم، حيث كانت أمّها تكتب الرسائل. إنها إذاً قدمت أصلاً من ولاية نيدرزاكسن، أو أتت لاجئة من الشرق مثل أوسكار، فوجدت لها ملاذاً هناك عقب الحرب. وعرفت بأن الممرضة دوروتيّا قد عملت في مستشفى ماريا القريب من السكن، وأنها لا بد أن تكون مرتبطة بعلاقة صداقة قويّة مع ممرضة تدعى بيآتا؛ إذ أن كثيراً من بطاقات البريد أشارت إلى تلك العلاقة، وحملت أحياناً تحيّات إلى بيآتا هذه.

لقد أثارت الصديقة قلقي، فصار أوسكار يمارس الحس والتأمل فيما يتعلق بوجودها. وأخذ يكتب لها رسائل، فتوسل بها في إحدى رسائله أن تتشفع له، لكنه تكتم في الأخرى عن دوروتيّا؛ لأنني أردت التقرب في البدء من بيآتا، ثم أنتقل إلى صديقتنا. فكتبت خمس أو ست رسائل، وقد

وضعت البعض منها في ظروف، بل وضعت قدميّ على الطريق إلى صندوق البريد، لكنني مع ذلك لم أبعث بأي واحدة منها. فربما كنت سأبعث برسالة إلى الممرضة بيآتا ذات مرّة، حينما عشت حالة الجنون تلك، لو أنني لم أعثر ذات يوم اثنين في الممر على تلك الرسالة التي أحالت ولهي الذي لم يكن يعوزه الحبّ إلى مجرّد غيرة - أقامت ماريا آنذاك علاقة بربّ عملها، شتنتسل، لكن مما يعجب هو أن تلك العلاقة لم تؤثر فيّ قطّ. وأبلغني اسم المرسل المطبوع على المظروف بأن الدكتور فيرنر - مستشفى ماريا - كتب رسالة إلى الممرضة دوروتيّا. وفي الثلاثاء وصلت رسالة ثانية. ثم جاء الخميس بالرسالة الثالثة. كيف كان الأمر في ذلك الخميس؟ كان أوسكار قد رجع إلى غرفته، فسقط على أحد كراسي المطبخ العائدة لأثاث الدار، فأخرجت رسالة ماريا الأسبوعية من جيب بيجامتي - على الرغم من علاقتها بمبجّلها الجديد واصلت ماريا الكتابة إليّ بانتظام ودقة، فلم تهمل شيئاً -، بل أنني فضضت المظروف، فقرأت دون أن أقرأ شيئاً، وسمعت السيّدة تسايدلر تخطو في الممر، ثم سمعت صوتها حين نادت على السيّد مونتسر الذي لم يردّ عليها، على الرغم من أنه لابد أن يكون موجوداً في الدار؛ إذ أن امرأة تسايدلر فتحت باب غرفته وناولته البريد وهي تلحّ بالقول. فصممت أذنيّ عن سماع صوت السيّدة تسايدلر عندما تكلمت. فأسلمت نفسي إلى جنون كساء الجدران، أي إلى الجنون العمودي فالأفقي فالقطريّ، بل إلى الجنون المنحني المضاعف ألف مرّة، وتقمصت شخصية ماتسرات، وتناولت معه خبز المخدوعين الهنيء المشكوك فيه، مستسهلاً جعل يان برونسكي مغرراً مضلِلاً يتنكر تنكراً رخيصاً، يظهر بمعطف عاديّ ذي صفيّن من الأزرار وياقة من القطيفة، فتركته يظهر بمريلة الدكتور هولاتس، ثم بمظهر الجرّاح فيرنر بعد ذلك مباشرة، لكي أضلل، وأفسد، وأدنس، وأهين، وأضرب، وأعذب - لكي أقوم بكلّ ما يفعله المضلِل من أجل الاحتفاظ بمصداقيته.

واليوم تراني أبتسم حين استعيد تلك الخاطرة التي جعلت أوسكار يصبح آنذاك ممتقع الوجه، مصاباً بجنون ورق الكساء: فأردت أن أدرس

الطبّ، بأقصى ما يمكن من سرعة. أردت أن أصبح طبيباً، طبيباً في مستشفى ماريا. لأنني أردت أن أطرد الدكتور فيرنر وأعريه، أتهمه بالإهمال والتقصير والقتل غير المتعمد أثناء إجرائه عمليه في الحنجرة. كلا، إنما اتضح بأن السيّد فيرنر كان طبيباً دارساً في الجامعة، وقد اشتغل إبّان الحرب في مستوصف ميدانيّ، حيث حصل على بعض المعارف: فليبتعد هذا المخادع! لقد أصبح أوسكار طبيباً رئيس أطباء، فكان شاباً ومع ذلك شغل وضيفة في موقع المسؤولية. حينئذ خطا الطبيب المشهور «زاوربروخ»، ترافقه الممرضة دوروتيّا كمساعدة في غرفة العمليات، محاطاً بحاشية من أصحاب الملابس البيضاء، عبر الردهة التي كان الصدى يتردد فيها، وقام بزيارة مريض، فقرر في اللحظة الأخيرة إجراء عملية. - لكن من حسن الحظ أن هذا الفلم لم ير النور أبدا!

في خزانة الثياب

لا يظنن أحد بأن أوسكار لم يعد يتحدث إلا مع الممرضات، بل إنني مازلت أحتفظ بحياتي المهنيّة! لقد بدا الفصل الدراسي في أكاديمية الفنون الجميلة، فتوجب عليّ التخليّ عن عمل نقش الحروف الذي كنت أمارسه حسب الظرف أو المناسبة، إذ أن على أوسكار الوقوف بهدوء مقابل أجر جيّد، فثمة أساليب قديمة لابد أن تثبت صلاحيتها أمامه وأمام ربّة الفنّ أولا، ولابد أن تُجرّب علينا الأساليب الجديدة؛ فرفع عنّا الشكل المادي المجسّم، فأصيب المرء باليأس، وصار يتنكر لنا، واضعاً خطوطاً ومربعات ولوالب وخزعبلات محفوظة عن ظهر قلب أثبتت جدواها، في كلّ الأحوال، على ورق كساء الجدران والأقمشة وأوراق الرسم، مانحاً إياها نماذج صالحة للاستعمال، لا يعوزها سوى أوسكار وأولا، أي كان يعوزها التوتر الغامض، حملت عنوانين تجارية صارخة: مجدولاً إلى الأمام؛ أو غناء على الزمن، أو أحمر في أماكن جديدة. وفعل ذلك طلاّب الفصول الأولى الذين كانوا لا يجيدون الرسم، أمّا أصدقائي القدماء المتحلقين حول البروفيسور كوخن والبروفيسور ماروهن، ومنهما التلميذان البارعان العنزة وراسكولنيكوف، فقد أثروا في السواد واللون، لكي يتحفوا الفقر بالمديح من خلال الخطوط الخفيفة الدم والمشبكات الشاحبة الصفراء.

لكن ربّة الفنّ أولاً، التي كانت تظهر في الواقع ذوقاً فنيّاً مهنياً إذا ما أصبحت دنيويّة، فقد تحمست لورق كساء الجدران الجديد، لدرجة أنها نسيت على عجل الرسّام لانكس الذي هجرها، وأخذت تنظر إلى أعمال

الزخرفة والديكور المختلفة الأحجام التي أنتجها رسّام آخر كبير في السنّ يدعى مايتل، باعتبارها أعمالاً جميلة، طريفة، مؤنسة، فنطازيّة، عظيمة، بل حتى أنيقة. أما حقيقة أنها خُطبت من قبل الرسّام الذي كان يفضّل الأشكال مثلما يفضّل بيض عيد الفصح الملون الشديد الحلاوة، فلم تعد بذي أهمية، إذ أنها وجدت فيما بعد فرصاً كثيرة للخطوبة، كما أنها وقفت اليوم - كشفت لي عن هذا السرّ عندما زارتني يوم أمس الأوّل وجلبت لي ولبرونو حلوى الملبّس - على أعتاب علاقة جديّة على حدّ تعبيرها. لقد أولت أولا بصفتها ربّة للفنّ جلّ اهتماما إلى الاتجاه الجديد الأعمّى، دون أن تدرك ذلك، فكان رسّام بيض عيد الفصح، مايتل، هو الذي أوحى لها بتلك الأشياء، وأتحفها بثروة لغوية كهدية للخطوبة، وقد جربته معي خلال أحاديثنا عن الفن. فتحدثت عن التقريريّة، وعن التركيبات الوضعية والنبرات والمنظورات والبنى الانسيابية وعمليات الانصهار وظواهر التعرية. تحدثت وهي تأكل الموز طوال النهار وتشرب عصير الطماطم، ثم تحدثت عن الخلايا الأولى، عن ذرّات اللون التي لا تعثر فقط على وضعها الطبيعي بسرعة ديناميكية في مجالات قوّتها، بل أكثر من ذلك. . .على هذا النحو تحدثت أولا معي أثناء استراحة قصيرة من الوقوف موديلاً، وكانت تستمر في حديثها حتى عندما نتناول القهوة في راتنغرشتراسه بين الحين والآخر. وبعدما فسخت خطوبتها من الرسّام الديناميكي لبيض عيد الفصح، لتقيم علاقة بأحد تلامذة كوخن، بغية الدخول إلى العالم الماديّ، إثر قصة غرام قصيرة بامرأة سحاقية، بقيت محتفظة بتلك الثروة اللغوية التي أجهدت وجهها الصغير لدرجة أن تجاعيدَ حادةً، متصلبةً بعض الشيء، بدأت تتشكل حول فمها، فم ربّة الفن.

ويمكن الاعتراف هنا بأن فكرة رسم ربّة الفنّ أولا كممرضة إلى جانب أوسكار لم تبدر عن راسكولنيكوف وحده. فبعد عذراء ٤٩ رَسَمنا تحت عنوان «اختطاف أوربّا» - فأصبحت أنا الثور. ثم نشأت لوحة «المهرّج يشفي الممرضة» وفقط كلمة واحدة أطلقتها فألهبتُ بها مخيلة راسكولنيكوف، فصار يطيل التفكير على نحو مكفهرّ، بشعره الأحمر،

وبمكر، ثم غسل فرشاته، وأخذ يتكلم عن الذنب والتكفير(*) وهو يتفرّس بعناء في أولاً. فنصحته بأن يرى فيّ الذنب وفي أولا التكفير، فذنبي جليّ، أمّا التفكير فيمكن أن يهبه المرء رداء ممرضة.

كان راسكولنيكوف هو الذي وضع عنواناً مضللاً لتلك الصورة الممتازة. فكان بودّي أن أمنح تلك الصورة اسم «الوسوسة»؛ إذ أن يدي اليمنى المرسومة قد قبضت على أكرة باب، وضغطتها إلى الأسفل، فاتحةً بذلك غرفة ما، انتصبت في وسطها الممرضة.

وكان يمكن إطلاق اسم «أكرة الباب» على لوحة راسكولنيكوف. ولو كان الأمر يقتصر على إعطاء اسم جديد للوسوسة، لاقترحت عبارة أكرة الباب، لأن ذاك النتوء البارز الذي يمكن مسكه بسهولة قد أغراني بالمحاولة ولأنني كنت أحاول يوميّاً إغواء تلك الأكرة المثبتة في باب حجرة الممرضة دوروتيّا، الباب الضبابيّ الزجاج؛ إذ أن القنفذ «تسايدلر» كان مسافراً والممرضة كانت في المستشفى، بينما جلست السيّدة تسايدلر في مكتب شركة مانسمان. وخرج أوسكار من غرفته المزودة بحوض استحمام خال من أنبوب التصريف، ووطأ ممر دار تسايدلر، ليقف قبالة حجرة الممرضة، ثم قبض على أكرة الباب. كنت أقوم بهذه التجربة كلّ يوم تقريباً منذ منتصف يونيو، بيد أن الباب لم يلن ولم يطاوعني. وأردت أن أرى في تلك الممرضة إنساناً تمت تربيته على النظام من خلال العمل المسؤول، فبدا لي من الحكمة أن أضع آمالي جميعها على باب قد يُفتح سهواً؛ لذلك بدر منّي ردّ الفعل الآلي الغبيّ الذي جعلني أقفل الباب ثانية بعدما عثرت عليه مفتوحاً ذات يوم.

وبلا شكّ أن أوسكار وقف في الممر دقائق طويلة تحت جلده المنفعل المتوتر، متيحاً المجال للكثير من الأفكار المتباينة المشارب تتجاذبه في آن واحد، لدرجة أن قلبه شعر بصعوبة بالغة في تسديد

(*) لحديث هنا عن رواية دوستويفسكي المعروفة بالجريمة والعقاب، وبالألمانية «بالذنب والتكفير».

النصيحة لذلك التدفّق لكي يسير وفق خطّة منتظمة. وحين تمكنت من التضحية بنفسي وفكري من أجل أوضاع أخرى: ففكرت في ماريا ومبجّلها - أصبح لماريا مبجّل - فأهدى لها المبجّل إبريق قهوة، وبات يذهب مع ماريا إلى «أبولو» أيّام السبت، لكن ماريا كانت نادراً ما تتحدث إليه بعد انتهاء الدوام، أما في المحلّ فقد دأبت على مخاطبة مبجّلها، أي صاحب المحلّ، بلغة الاحترام - بعدما أمعنت التفكير في ماريا ومبجّلها من هذه الزاوية وتلك، تمكنت من خلق بعض التنظيم المكانيّ في رأسي المسكين - ففتحت الباب الغائم الزجاج.

لقد تخيّلت هذا المكان في السابق باعتباره مكاناً خالياً من النوافذ، بفعل أنّ الجزء العلويّ من الباب الغائم الشفّافية لم يفصح أبداً عن أي شريط من ضوء النهار. فعثرت على زرّ الكهرباء على يميني مثلما الحال في حجرتي. كان المصباح ذو الأربعين واطاً كافياً تماماً لإنارة تلك الحجرة الضيقة جدّاً التي لا يجوز أن تطلق عليها تسمية الغرفة، نظراً لحجمها. فشعرت بالحرج حين وجدت نفسي أقف على الفور قبالة مرآة عكست نصف جسدي. بيد أن أوسكار لم يتجنب صورته المقلوبة التي لم تحمل أي دلالة بفعل انعكاسها؛ إذ أن الأشياء المعروضة على طاولة الزينة على امتداد عرض المرآة جذبتني إليها بقوّة، فوقف أوسكار على أطراف أصابعه. فكشف ميناء طشت الغسيل عن بقع زرقاء مائلة إلى السواد، وكذلك بدا لوح الممر الذي شكلّ طاولة الزينة، والذي غطس فيه طست الغسيل حتى الحافة، مصاباً أيضاً بأضرار. وطرحت زاوية لوح المرمر المثلومة أمام المرآة، كاشفة عن عروقها. ثمة آثار شريط لاصق مقشّر في موضع الثلم نمّت عن محاولة إصلاح غير ماهرة. فشعرت بأصابعي النحتية تحكّني، ففكرت في معجون ترميم المرمر الذي صنعه كورنيف بنفسه، فيحيل المرمر الهشّ القادم من حوض لاهن إلى ألواح واجهات متينة تلصق على محلاّت القصابة الكبرى. والآن، بعدما أتاحت لي صحبة الحجر الجيريّ الأليف نسيان صورتي التي شوهتها المرآة السيئة أفظع تشويه، تمكنت أيضاً من تعيين تلك الرائحة التي بدت لأوسكار رائحة خاصة أثناء دخوله.

كانت تلك رائحة خلّ، وقبل بضعة أسابيع عذرت ذلك الهواء الشديد الإلحاح من الافتراض القائل بأن الممرضة ربما غسلت شعرها يوم أمس. كان محلول خلّ ذاك الذي خلطته بالماء قبل أن تشطف فروة رأسها. لكن لم تكن هناك زجاجة خلّ على طاولة الزينة، كذلك لم أعثر على خلّ في القوارير التي لصقت بملصقات مواد مختلفة، فقلت في نفسي وكررت القول بأن الممرضة دوروتيا ما كانت لتغلي الماء في مطبخ تسايدلر، بعد حصولها على موافقة منه، لكي تغسل شعرها بطريقة معقدة، لو أنها عثرت في مستشفى ماريا على حمّام حديث. فمن الممكن، على أية حال، أن الممرضة دوروتيا اضطرت إلى غسل شعرها هنا في هذا الوعاء ذي الميناء المطلي، أمام المرآة غير الدقيقة، إثر منع عام من لدن رئيسة الممرضات أو من جهة عليا في المستشفى يحرّم على المعينات استعمال المرافق الصحيّة العائدة للمستشفى. وعلى الرغم من أنني لم أعثر على زجاجة خلّ على رفّ الزينة، غير أن هناك قوارير صغيرة وعلباً كثيرة على المرمر المبلول. وثمة علبة قطن وعلبة أخرى من حفاظ الحيض، نصف فارغة، أطاحتا بجرأة أوسكار فمنعتاه من فحص محتوى القوارير. ومع ذلك فإنني أصبحت مقتنعاً اليوم بأن محتوى تلك القوارير لم يكن سوى مستحضرات تجميل، أو مجرد مراهم طبيّة غير خطيرة.

وقد شكّت الممرضة المشط بفرشاة الشعر، فتطلب الأمر بعض المشقّة لكي انتزعه من الشعر الخشن وأعرضه أمام بصري الكامل. فبدا حسناً ما فعلته؛ إذ أن أوسكار توصل في تلك اللحظة إلى اكتشاف مهمّ: كان شعر الممرضة أشقر، ربما أشقر رمادياً، لكن على المرء أن يحاذر من إعطاء الاستنتاجات، لذلك فأنني أطلق التأكيد التالي فحسب: إن الممرضة دوروتيا شقراء الشعر، إضافةً إلى أن الشحنة الكثيفة المثيرة للريبة التي حملها المشط دللت على أن الممرضة كانت تعاني من تساقط الشعر، فألقيت سبب هذا المرض المخجل الذي يبلبل مشاعر الأنثى ويملأها بالمرارة على عاتق القلنسوة، بيد أنني لم أوجه الاتهام إلى القلنسوة؛ لأن الأمور لا تستتب بدونها في مستشفى جيّد الإدارة.

ولم تولّد حقيقة تساقط الشعر عن رأس الممرضة دوروتيّا سوى الحبّ المشحون بالقلق الذي أرهفه التعاطف ورقّة القلب، مهما كانت رائحة الخلّ مزعجةً بالنسبة لأوسكار. ومما له دلالة كبيرة عليّ وعلى الوضع الذي كنت فيه هو أن كثيراً من مستحضرات نمو الشعر الناجعة قد خطرت في ذهني على الفور، تلك التي سأقدمها إلى الممرضة في فرصة مناسبة. أثناء تفكيري في ذلك اللقاء - تخيله أوسكار يتمّ تحت سماء صيف صافية بين حقول القمح المتمايلة - أزلت الشعيرات المنفردة، فلففتها ببعضها، ثم طويتها معاً، ونفخت بعضاً من الغبار والقشرة عن الخصلة، ودسستها بحذر في أحد جيوب محفظتي الذي أفرغته على عجل. أمّا المشط الذي ألقاه أوسكار على رفّ المرمر، لكي يسيطر على محفظته، تناولته مرّة ثانية حين حملت المحفظة والغنيمة في سترتي. فرفعته إزاء المصباح الخالي من الغطاء، جاعلاً إيّاه يصبح شفّافاً، وأخذت أتابع أسنانه الشديدة التباين، فتثبت من خلو سنّين من صفّ الأسنان النحيفة، وانتهزت الفرصة فخرطت بظفر سبابتي اليمنى أسنان المشط من الناحية الغليظة، فشعر أوسكار بالبهجة في فترة الوقت الضائع عبر إضاءة بعض من الشعر القليل الذي تجاهلت نفضه عمداً، لكي لا أثير الريبة.

ثم غاص المشط داخل فرشاة الشعر بشكلّ نهائي. لكنني وجدت نفسي أبتعد عن رفّ الزينة الذي وجهني توجيهاً أحاديّ الجانب، فعثرت، وأنا في طريقي إلى فراش الممرضة، بكرسيّ مطبخ عُلّق عليه مشدّ أثداء. فلم يستطع أوسكار ملء تجويفيّ الحمّالة اللتين بُليت حوافهما من كثرة الغسل حتى نصل لونها، إلا بقبضتيه، لكنهما لم يستطيعا ملئهما، كلاّ، إنما تحركتا في الوعائين باغتراب وتعاسة وتصلّب وعصبية أيضاً، متمنياً تذوقهما يومياً، دون أن أعرف طعمهما، واضعاً إمكانية التقيؤ المؤقت في نظر الاعتبار؛ إذ أن كلّ حساء يستدعي الاستفراغ أحياناً، ثم يصبح حلو المذاق بعد ذلك، بل شديد الحلاوة، لدرجة أن التقيؤ يجد له طعماً ما، ويضع الحبّ موضع الاختبار.

وخطر في ذهني الدكتور فيرنر، فانتشلت قبضتي من حمّالة الأثداء،

وعلى الفور ذهبت صورة الدكتور فيرنر عن مخيلتي، فتمكنت من الوقوف على سرير الممرضة دوروتيّا. هذا هو إذاً سرير الممرضة! كم مرّة تخيله أوسكار، والآن فإنه يرى هذا الهيكل القبيح الذي أطّر هدوئي أو الأرق الذي كان ينتابني بين الحين والآخر بإطار بنيّ. كنت تمنيت لها سريراً حديدياً أبيض اللون برؤوس نحاسية، وبقضبان من النوع الخفيف، لكن ليس قطعة الأثاث هذه، الفظّة، الشديدة الجفاء. وقفت فترة طويلة قبالة مذبح النوم ذلك الذي بدت أضلاعه كما لو أنها قُدّت من الرخام؛ وقفت برأس عاجز عن التفكير وعن الشعور بالشهوة وحتى عن الشعور بالغيرة. إن أوسكار لم يتخيل أبداً الممرضة دوروتيّا وفراشها في قبر كريه كهذا. وأصبحت في طريقي إلى طاولة الزينة مرّة ثانية، مدفوعاً بهاجس فتح تلك القوارير المحتوية على المراهم المزعومة حين أمرتني خزانة الثياب بمراقبة قياساتها، وبإعطاء صبغها صفة اللون الأسود البنيّ، وبتعقّب معالم حاشيتها، لكي أفتحها أخيراً؛ إذ أن تلك الخزانة أرادت أن تُفتح. فلويت المسمار الذي أمسك بمصراعيّ الباب بدلاً من القفل إلى الأعلى، فانشطر الخشب نصفين دون معونتي، زافراً متنهداً، وقدم ليّ مشهداً حافلاً، أجبرني على التراجع بضع خطوات، لكي أتمكن من تأمله بهدوء وبذراعين متشابكتين. فأوسكار لم يود أن يضيّع نفسه في التفاصيل مثلما فعل مع طاولة الزينة، ولم يرغب في إصدار حكم جاهز وهو محملاً بالآراء المسبقة كما فعل مع السرير، إنما أراد الالتقاء بالخزانة على نحو طازج كما تمنّى في اليوم الأوّل؛ لأن الخزانة استقبلته بذراعين مشرعتين.

لكن أوسكار، المتمادي في ولعه الجماليّ، لم يستطع التخلّي كليّاً عن الانتقاد: فثمة بربريّ ما قطع بالمنشار أقدام الطاولة بتسرّع، مخلفاً شظايا كثيرة، لكي يضعها فوق الأرضية بشكل مستو ومعوج. وبدا النظام الداخلي للخزانة خالياً من كلّ عيب، فعلى اليمين تكدست الملابس الداخلية والبلوزات في رفوف ثلاثة عميقة، بيضاء ورديّة، متنوعة مع الأزرق الفاتح الأصيل الذي لا يمحل لونه في الغسيل. ثمة حقيبتان من المشمّع ذي المربعات الخضراء الحمراء ارتبطتا ببعضهما وعُلّقتا قرب

رفوف الملابس الداخلية في الناحية الداخلية لمصراع باب الخزانة اليمين، وقد احتفظتا من الأعلى بالجوارب المرتّقة ومن الأسفل بالجوارب المنسولة الخيوط. بدا نسيج الجوارب المحفوظة في حقيبتيّ المشمّع أكثر تماسكاً ومتانة من الجوارب التي تلقتها ماريا هديّة من ربّ عملها ومبجّلها ثم ارتدها أيضاً، وإن كانت لم تقلّ عنها خشونة. رأيت ملابس المستشفى المنشّاة الخافتة اللمعان ملعقةً على شمّاعات الثياب في الجزء الفسيح من يسار الخزانة. وعلى رفّ القبعات الذي فوقها اصطفّت قلنسوات الممرضات، البسيطة الجمال، بحسّاسية بالغة لا تتحمل أي لمسة غير مدرّبة. فلم ألقي إلا بنظرة قصيرة على الثياب المدنية المصفوفة إلى يسار رفوف الملابس الداخلية. فأكّد خيارها للملابس الزهيدة الذي نمّ عن إهمال ما رجوته في صمت: بأن الممرضة كانت تهتم اهتماماً متواضعاً بهذا الجزء من لوازمها وتجهيزاتها. ثم تراءت أغطية الرأس الثلاثة أو الأربعة التي كانت تشبه القدور المصفوفة فوق بعضها إلى جانب القلنسوات في رفّ القبعات بغير عناية، حيث احتكت زهورها الاصطناعية الغريبة الأشكال ببعضها، فبدت على العموم مثل كعكة حالفها الإخفاق. كذلك اتكأت على علبة حذاء محشوة بالقطن المستعمل في رفّ القبعات دستة صغيرة من الكتب الملوّنة الظهر. ثمّ أمال أوسكار برأسه، وتوجب عليه الاقتراب، لكي يستطيع قراءة العناوين. وأعدت رأسي إلى وضعه السابق مبتسماً بتسامح؛ لأن الممرضة دوروتيّا الطيبة القلب كانت تقرأ الروايات البوليسيّة. والآن يكفي الحديث عن الجزء المدنيّ من خزانة الملابس! لقد أغرتني الكتب في الاقتراب من هذا الصندوق، متخذاً المكان المناسب، بل قمت بأكثر من ذلك، إي أنني أنحيت إلى الداخل، ممتنعاً عن مقاومة الرغبة في الانتماء إلى هذا المكان، تلك الرغبة التي ازدادت قوّة، متحولاً إلى محتوى الخزانة الذي وهب الممرضة دوروتيّا جزءاً ليس ضئيلاً من مظهرها الخارجي. أمّا الحذاء الرياضيّ العمليّ ذو الكعب المسطّح المركون في القسم السفلي للصندوق، أي على اللوحة الخشبيّة السفلى، الملمّع بعناية فائقة، منتظراً الخروج، فلم أكلف نفسي

حتى بتنحيته إلى الجانب. كان نظام الخزانة مقاماً على نحو يشجّع على الدخول إليها بقصد واضح إلى حدّ ما، لدرجة أن أوسكار زحف على ركبتيه، عاثراً على مكان وملاذاً واسعين داخل الصندوق، مسترخياً على الكعبين، دون أن أزيح أي رداء. هكذا ركبت فيه، ممنياً النفس بالكثير.

ومع ذلك فإنني لم أتمكن حالاً من السيطرة على نفسي، إنما شعر أوسكار بمراقبة المحتويات ومصباح الحجرة. ولكي أجعل إقامتي داخل الخزانة إقامة حميمة حاولت جذب مصراعي الباب، فنشأت صعوبات جرّاء ذلك؛ لأن رزّات الباب كان مرتخية، فسمحت للخشب بالانفراج من الأعلى: حيث تسلل الضوء إلى باطن الخزانة، لكن الضوء لم يكن حاداً لدرجة إزعاجي. بيد أن الرائحة اشتدت على العكس من ذلك. فانبعثت الرائحة القديمة الخالية من أيّ شائبة، والتي لم تكن لها علاقة بالخلّ، إنما برائحة مواد لمكافحة العثّة؛ بمعنى أنها كانت رائحة جيّدة.

فما الذي فعله أوسكار حين جلس في الخزانة؟ لقد أسند جبهته على أوّل ثوب مهنيّ من أثواب الممرضة دوروتيا؛ كان عبارة عن مريلة بأكمام، تطبق من الرقبة، ومن خلالها وجدت على الفور جميع الأبواب إلى ردهات المستشفى مفتوحة أمامها - فامتدت يدي اليمنى التي ربما بحثت عن متكأ إلى الخلف، متجاوزة الثياب المدنية، ثم ضلّت طريقها، فاقدة ما استندت إليه، ثم أمسكت بشيء ما ناعم، لينّ مطاوع، وعثرت أخيراً - ويدي لم تزل ممسكة بذلك الشيء الناعم - على قضيب خشبيّ ساند، فانحدرت بموازاة عارضة، سُمّرت بشكل أفقيّ، فقدمت لي ولجدار الخزانة الخلفي مستقراً؛ بعد ذلك عادت يده إلى موضعها اليمين، فكان عليه أن يبدو راضياً، إذ أنني كشفت لنفسي ما قبضت عليه من خلف ظهري. فرأيت حزاماً أسود لامعاً، غير أنني لمحت ما هو أكثر من الحزام اللاّمع؛ لأن الصندوق نفسه كان معتماً رمادياً، بحيث أن حزاماً لامعاً لا يمكن أن يتكشف على هذا النحو فحسب، فمن الممكن أن يعني شيئاً آخر، شيئاً مشابهاً ناعماً، متمدداً، رأيته على سدّة المرفأ في نويفارفاسر عندما كنت طبّالاً لا يعرف الكلل، في الثالثة من السنّ: كانت أمّي

المسكينة ترتدي معطفاً ربيعياً أزرق بثنية كمّ لها لون التوت البريّ، وارتدى ماتسرات معطفاً بصفّين من الأزرار، وتلفّع يان برونسكي بياقة من القطيفة، إضافة إلى أوسكار بقبعته البحرية ذات الشريط التي طرّزت عليه عبارة SMS Seydlitz بخيوط مذهّبة، فقفز صاحب المعطف وصاحب الياقة صخرة بعد صخرة، مبتعدين منّي ومن أمّي التي لم تستطع القفز بسبب حذائها ذي الكعب العالي، حتى وصلا العلامة البحرية التي جلس أسفلها صيّاد الأسماك بصنّارته وحبل الغسيل وجوال البطاطس المليء بالملح والحركة. بيد أننا، نحن الذين رأينا الجوال والحبل، أردنا أن نعرف لماذا استخدم الرجل حبل غسيل لاصطياد السمك أسفل العلامة البحرية، لكن الرجل القادم من نويفارفاسر أو من بروزن، أو حيثما كان قادماً، بصق في الماء بصقة بنيّة، ظلّت تتأرجح فترة طويلة إلى جانب السّدة، ولم تتحرك من مكانها حتى تلقفها نورس؛ إذ أن النورس يتلقف كلّ شيء، فهو ليس كالحمامة الحسّاسة، ناهيك عن أن يكون كالممرضة - سيكون الأمر سهلاً لو أن المرء يقذف بكل من ارتدى البياض في قبعة واحدة، ثم يدسها في خزانة، ويمكن أن يقال الشيء ذاته عن كلّ من ارتدى السواد؛ إذ أنني لم أخف آنذاك من الطاهية السوداء، فجلست في الخزانة بلا خشية، وكذلك لم أجلس فيها، إنما وقفت ثابت الجنان مثلما كنت آنذاك؛ وقفت فوق سدة المرفأ قرب نويفارفاسر، حين كانت الريح ساكنة، ممسكاً هنا بحزام لامع وهناك بشيء آخر، أسود لزج، إلا أنه، مع ذلك، لم يكن حزاماً، فأخذت أبحث عن مقارنة؛ لأنني جلست في خزانة، والخزانات تجبر المرء على القيام بعقد المقارنات، فوجدت ذلك في الطاهية السوداء، لكن الأمر لم يشغل اهتمامي آنذاك، إذ كنت عارفاً بالأبيض أكثر منه، وغير قادر على التمييز بين النورس والممرضة دوروتيا، نابذاً الحمامات وما شابهها من خرافات، لاسيما وأن عيد العَنْصَرة لم يحن بعد، بل حلّت الجمعة الحزينة؛ إذ أننا رحلنا إلى بروزن ومن ثم ذهبنا إلى السدّة - كذلك لم تحم الحمامات حول علامة البحر التي جلس أسفها الرجل القادم من نويفارفاسر بحبل الغسيل، حيث كان جالساً ويبصق.

وعندما جذب الرجل القادم من بروزن حبل الغسيل إلى النهاية، آتياً بالدليل على ثقله، ساحباً إيّاه من مياه نهر موتلاو الشديدة الملوحة، وضعت أمّي المسكينة يدها على كتف يان وعلى ياقته؛ لأن وجهها أصبح شاحباً كالجبن ولأنها أرادت الانصراف، غير أنها أجبرت على رؤية الرجل وهو يصفع رأس الحصان فوق صخرة، فتساقطت منه ثعابين الماء الصغيرة الخضراء خضرة البحر، بينما جذب الكبيرة منها المعتمة اللون بقوّة، كما لو أنه كان يفكّ قلاووظ، وثمة أحد ما مزّق فراشاً من ريش، أعني أن النوارس جاءت، هابطةً على الأسماك، فظفرت بها؛ إذ أن النوارس كانت تتمكن من اقتناص ثعبان ماء صغير دون جهد إذا كان عددها ثلاثة أو أكثر، في حين شكّلت لها ثعابين الماء الكبيرة مصاعب. حينئذ فغر الرجل فم الرمّة على آخره، وحصر قطعة خشب بين فكّيه، أجبر معها الحصان على الضحك، ثم مدّ ذراعه الكثيفة الشعر، ليقبض على شيء ما، ومدّها مرّة أخرى، مثلما مددت يدي في الخزانة، فأمسك به، وأخرجه، مثلما فعلت أنا بالحزام اللامع، فجذب سمكتين دفعة واحدة، ثم طوّح بهما في الهواء، ليلطمها على الصخر، حتى طفر الإفطار من وجه أمّي المسكينة، ذلك الطعام الوفير المكوّن من القهوة بالحليب وزلال البيض وصفاره، فضلاً عن قطع الخبز الصغيرة و القليل من المربى، لدرجة أن النوارس تأهبت على الفور بشكل مائل، هابطة بمقدار طابق واحد، وبأقدام منفرجة، أمّا الصراخ فإننا لا نحبّ الحديث عنه، فمن المعروف لدى الجميع بأن النوارس لها عيون شريرة، ولم تستجب لمحاولات إبعادها، بل أنها لم تستجب بالتأكيد ليان برونسكي؛ إذ أنه بدا خائفاً من النوارس، فوضع يديه أمام عينيه الزرقاوين الواسعتين، كما أن النوارس تجاهلت طبلي، وصارت تتدافع فيما بينها، بينما استحدثت ساعتها إيقاعاً جديداً قرعته على الطبل بغضب وتحمّس، غير أن كلّ شيء بات سيّان بالنسبة لأمّي المسكينة، فقد انشغلت بنفسها تماماً، تتقيأ وتتقيأ، لكنها لم تقذف شيئاً؛ فهي لم تكن أكلت الكثير؛ لأنها أرادت أمّي الحفاظ على رشاقتها، لذلك بدأت تمارس الألعاب الرياضية مرتين أسبوعياً في منظمة النساء،

غير أن تلك التمارين لم تنفعها كثيراً؛ لأنها كانت تأكل في السرّ، مختلقة دائماً حجّة ما، مثلما فعل الرجل القادم من نويفارفاسر، على الضدّ من جميع النظريات، حينما سحب من أذن الحصان ثعبان ماء في الختام، بعدما ظنّ الحاضرون بأن ليس هناك ما يمكن سحبه. فكان ثعبان الماء مليئاً بالمخاط؛ لأنه احتك بمخّ الحصان، فصار يطوّح به إلى أن سقط عنه المخاط، فأظهر الثعبان طلاءه، لامعاً مثل حزام الجلد المدهون، فكلّ ما أرادت قوله هنا هو: أن الممرضة دوروتيّا لم تتمنطق بالحزام عندما تخرج في شأن خاص دون أن تشكّ في ثوبها دبّوس الصليب الأحمر.

لكننا ذهبنا إلى الدار، على الرغم من أن ماتسرات أراد البقاء؛ إذ أن سفينة شحن فلندية محملة بما يقرب من ألف وثمانمائة طنّ مخرت البحر، قاذفة بالأمواج من حولها. كان الرجل قد ترك رأس الحصان ملقى على السدّة. فاستحال لونه الأسود إلى أبيض، فصهل ليس كما تصهل الخيول، بل مثلما يصهل الغيم الأبيض، صارخاً بصوت صاخب يطبق بنهم على رأس حصان فيحجبه، بحيث بدا ذلك أمراً جيداً؛ لأن المرء لم يعد يرى الرأس حتى لو تخيّل الجنون الذي اختفى هناك. كذلك صرفت سفينة الشحن انتباهنا عنه، إذ أنها كانت محملة بالخشب وصدئة مثل القضبان التي سوّرت مقبرة سازبه. بيد أن أمّي المسكينة لم تلتفت إلى السفينة ولا إلى النوارس؛ لأنها رأت ما يكفي. وإذا كانت في السابق لم تكتف فقط بعزف أغنية «النوارس الصغيرة تحلّق نحو جزيرة هلغولاند»، إنما تغنيّها أيضاً؛ فإنها توقفت فيما بعد عن أداء تلك الأغنية، بل أنها انقطعت تماماً عن الغناء، وأرادت في البدء الامتناع عن تناول السمك، لكنها بدأت ذات يوم مشرق بالتهام الكثير منه، لاسيما الدسم منه، حتى لم تعد تطيقه، كلا؛ بل لأنها تجرّعت ما يكفي ليس فقط من سمك الثعبان، بل من الحياة نفسها، وبالأخص الرجال، وربما من أوسكار أيضاً، فقد اقتنعت فجأة بذلك القدر على أية حال، تلك المرأة التي لم تتنازل عن شيء قطّ، فصارت زاهدة، حتى دفنّاها في مقبرة برنتاو. لقد أخذت عنها صفة عدم التنازل عن أي شيء، من ناحية، وتدبير شؤوني، بالاستغناء عن كلّ

شيء، من ناحية أخرى؛ بيد أنني لم أستطيع العيش بدون سمّك الثعبان المشويّ بالدخان، مهما بلغ ثمنه. فكان هذا ينطبق أيضاً على الممرضة دوروتيّا التي لم أرها أبداً، والتي لم يحظ حزامها اللامع بإعجابي إلا قليلاً - ومع ذلك فإنني لم أستطع التخلص من الحزام الذي كان يطول بلا توقف، حتى أنني فتحت أزرار السروال بيدي الطليقة، لكي أتخيّل الممرضة التي أضحت صورتها غامضة بفعل الكثير من سمك الثعبان وكذلك بسبب سفينة الشحن المبحرة في اتجاه المرفأ.

وشيئاً فشيئاً تمكن أوسكار أخيراً، وبمعونة النوارس، من العثور على عالم الممرضة دوروتيّا، أو على ذلك الشطر من الخزانة التي آوت ثياب مهنتها، أي الثياب اللطيفة، الخالية من جسدها، مستعيداً باستمرار ذكرى سدّة المرفأ. حين رأيتها بوضوح في آخر المطاف، وظننت بأنني تبينت معالم وجهها، انفلتت المفاصل من مواضعها المتخلخلة: فانفرج مصراعا الباب، مولدين صريراً مزعجاً، وأوشك الضياء المفاجئ أن يربكني، فتوجب على أوسكار أن يجهد نفسه، لكي لا يلوّث مريلة الممرضة دوروتيّا ذات الأكمام المعلقة إلى جانبه. ولكي أحقق انتقالاً ضروريّاً، وأنهي إقامتي الشاقة داخل الخزانة، على العكس مما توقعت؛ أنهيها بصورة لعوبة فقد أخذت أطبل - لم أكن فعلت ذلك منذ أعوام - فنقرت على جدار الخزانة الخلفي الناشف عدداً من الإيقاعات الخفيفة الماهرة أو غير الماهرة، ثم غادرت الخزانة، بعدما تفحصت مرّة أخرى حالة نظافتها - لا يمكن أبداً أن أوجه اللوم إلى نفسي - فحتى الحزام اللامع بقي محتفظاً بلمعانه، كلا، ثمّة مواضع عكرة لابد من مسحها، فنفخت عليها لأمسحها حتى عاد الحزام إلى سابق وضعه التي يذكّر بسمك الثعبان الذي كان المرء يصطاده قرب سدّة المرفأ في نويفارفاسر أيّام صباي المبكّر.

أنا، أوسكار، كنت قد خرجت من حجرة الممرضة دوروتيّا بعدما قطعت تيّار الكهرباء عن مصباح الأربعين واطاً الذي راقبني طوال زيارتي.

كليب

وقفت آنذاك في الممر، حاملاً في محفظتي خصلة شعر شقراء شاحبة، فأجهدت نفسي لمدة ثانية، لكي أتحسس الخصلة عبر الجلد وبطانة السترة والصديري والثوب والقميص الداخلي، غير أنني كنت متعباً ومرتاحاً بطريقة متجهمة عجيبة، لدرجة أنني لم أر في تلك الغنيمة التي سلبتها من حجرة الممرضة أكثر من قمامة تجمعها الأمشاط. والآن فقط اعترف أوسكار بأنه بحث عن نفائس أخرى. لقد سعيت أثناء إقامتي في حجرة الممرضة دوروتيا من أجل التعرّف على آثار تشير إلى الدكتور فيرنر، حتى لو تحقق ذلك عن طريق ظروف الرسائل التي عرفتها. لكنني لم أعثر على شيء، ولم أجد أثراً لمظروف رسالة، ناهيك عن أي ورقة مكتوبة. فأوسكار يقرّ بأنه سحب الروايات البوليسية للممرضة دوروتيا من رفّ القبعات، واحدةً تلو الأخرى، فتصفحها، لعّله يعثر على إهداء أو مؤشّرة قراءة موضوعة بين صفحات الكتاب، وفتش أوسكار عن صورة؛ إذ أن أوسكار لم يكن يعرف في الحقيقة معظم أطبّاء مستشفى ماريا بالاسم، إنما من خلال الملامح - لكن لم تكن هناك أي لقطة فوتوغرافية تمثل الدكتور فيرنر. فبدا كما لو أن لم يتعرف على حجرة الممرضة دوروتيا، وإذا ما تحققت له رؤيتها ذات مرّة، فإنه لم يخلّف آثاراً وراءه. وهكذا احتفظ أوسكار بجميع الدوافع التي يمكن أن تجعله مسرورا. ألم أتقدم على الدكتور بجملة من المزايا؟ ألم يأت غياب جميع آثار الدكتور بالدليل القاطع على أن العلاقات القائمة بين الطبيب والممرضة اقتصرت على المستشفى وحده، أي أنها علاقة ذات طبيعية مهنية، وإن لم تكن

مهنية، فأحادية الجانب! وباتت غيرة أوسكار تفتّش عن دافع ما، وبمقدار ما ستتركه مخلفات الدكتور فيرنر من طعنات في نفسي فإنني سأحظى بارتياح بالقدر ذاته؛ ارتياح لا يمكن مقارنته بالنتيجة الضئيلة الأهمية والقصيرة العمر التي خرجت بها إثر إقامتي في خزانة الملابس.

إنني لم أعد أعرف كيف وجدت طريقي إلى غرفتي، لكنني أتذكر الآن بأنني سمعت سعالاً مصطنعاً، ملتمساً الانتباه، انطلق من وراء الباب الواقع في طرف الممر الذي كان يقفل غرفة ذلك السيّد المدعو مونتسر. فما الذي يعنيه لي السيّد مونتسر؟ ألا يكفيني ما شهدته من مستأجرة القنفذ؟ فهل أثقل كاهلي بأمر مونتسر - حيث أن أحداً لم يكن يعرف ما الذي اختفى وراء هذا الاسم؟ فتجاهلت السعال المطالب بالانتباه، أو بالأصح: إنني لم أفهم ما طلبه منّي، إلا أنني فطنت إلى قضية بعدما دخلت غرفتي، وهي أن السيّد مونتسر المجهول بالنسبة لي، الذي لا يعنني أمره شيئاً، قد سعل ليغريني، أنا أوسكار، لكي أدخل إلى غرفته. فاعترف: بأنني شعرت بالندم وقتاً طويلاً؛ لأنني لم استجب للسعال، إذ أن غرفتي ضاقت عليّ بما لا يطاق وأصبحت شاسعة فضفاضة، بحيث أن أي حديث مع السيّد مونتسر ذي السعال سيكون له وقع الصنيع الجميل، مهما كان مزعجاً وقسريًا. فأسلمت نفسي، بإرادة مسلوبة، إلى كرسيّ المطبخ المتصلّب، القائم الزوايا؛ لأنني لم أجد الجرأة الكافية لعقد صلة بذلك السيّد القابع خلف الباب في نهاية الممر، ولو بشكل متأخر، ربما من خلال حثّه على السعال مرّة أخرى، فأخذ القلق تنازعني، كالعادة، كلّما جلست على كرسيّ، فتناولت أحد المراجع الطبيّة من الفراش، ثم تركت هذا الأثر القديم الذي اشتريته بنقود كسبتها بشقّ النفس من خلال الوقوف موديلاً، فانثنى المرجع وتثلمت أركانه، فتناولت من الطاولة هديةَ راسكولنيكوف، أي الطبل، وأمسكت به، إلا أنني لم أستطع إرضاء الصفيح بالمضربين ولا بسفح الدموع التي ستسقط على الطلاء الأبيض المستدير بما يعني ارتياحاً خالياً من الإيقاع.

والآن يستطيع المرء البدء بكتابة بحث عن البراءة المفقودة، فيضع

أوسكار المطبّل الثابت على أعوامه الثلاثة إلى جانب أوسكار الأحدب المحبوس الدمع، المهموس الصوت، غير المطبّل. بيد أن هذا كان يجافي الحقيقة: لقد فقد أوسكار براءته مرّات عديدة عندما كان طبّالاً، ثم استعادها ثانيةً، وهيئ لها أسباب النمو؛ إذ يمكن مقارنة البراءة بالعشب المترعرع بمثابرة - أرجو أن تفكّروا في جميع الجدّات البريئات اللواتي كنّ، كلّهن، رضيعات لعينات حاقدات - كلاّ؛ إن أوسكار لم يدع لعبة البراءة-الذنب تثب من كرسيّ المطبخ؛ إنما حبّي للممرضة دوروتيّا هو الذي أمرني بإلقاء الطبل جانباً، دون أن أطبّل عليه، ودفعني إلى مغادرة الغرفة والممر ودار تسايدلر، لأذهب إلى أكاديمية الفنون الجميلة، على الرغم من أن البروفيسور كوخن قد طلبني للحضور أثناء الأصيل المتأخر.

حين خرج أوسكار من غرفته بخطى مضطربة، ودخل في الممر، ثم فتح باب الدار بجلبة وبطريقة متكلفة للغاية، أنصتّ برهةً لباب السيّد مونتسر. غير أنه لم يسعل، فغادرت الدار أخيراً ومن ثم البناية في «يوليشر شتراسه»، خجلاً، غاضباً، مرتاحاً، جائعاً، متخماً بالسأم، مليئاً بالظمأ إلى الحياة، مبتسماً في هذه الناحية أو تلك، موشكاً على البكاء في أماكن أخرى. وبعد أيّام قليلة نفّذت خطةً أعددت في السرّ لها طويلاً، بدا لي نبذها وسيلة ممتازة، حتى يتسنّى لي إعداد آخر تفاصيلها. في ذلك اليوم كنت بلا عمل طوال فترة الضحى. وفي الساعة الثالثة عصراً توجب على أوسكار وأولا الوقوف موديلاً أمام الرسّام راسكولنيكوف الثريّ المخيلة، أي أن أقف أنا بمثابة عوليس العائد إلى أهله فيهب زوجته بينيلوبه حدبة. فحاولت عبثاً صرف الرسّام عن هذه الفكرة، إذ أنه استولى آنذاك على الآلهة وأنصاف الآلهة الإغريقية سلباً ونهبا. بيد أن أولا شعرت بارتياح إلى الأساطير الإغريقية، فتراجعت عن موقفي، وتركته يرسمني باعتباري الإله بركان، ومن ثم إله العالم السفلي بلوتو بصحبة إلهة الخصب «بروسربينا»، ثم جعلني أخيراً «عوليساً» محدودب الظهر. لكن الأمر هنا يتعلق بوصف فترة الضحى تلك قبل كلّ شيء. لقد كتم عنكم أوسكار منظر ربّة الفنّ أولا باعتبارها بينيلوبه فقال: كان الصمت يطبق على دار تسايدلر، حيث

غادر القنفذ في رحلة تجارية مع ماكينات الحلاقة، والتحقت الممرضة دوروتيّا بعملها نهاراً، فأصبحت خارج البيت منذ الساعة السادسة، بينما رقدت السيّدة تسايدلر في فراشها عندما جاء البريد بعد الساعة الثامنة بفترة وجيزة. وفي الحال استطلعت البريد، فلم أعثر على خاص بي - وصلت آخر رسالة من ماريا قبل يومين فقط -، إلا أنني اكتشفت من النظرة الأولى مظروفاً قادماً من المدينة نفسها، حمل إمضاء الدكتور فيرنر على نحو واضح.

في البدء وضعتها بين البريد المرسل إلى السيّد مونتسر وآل تسايدلر، ثم رجعت إلى غرفتي وبقيت أنتظر إلى أن وطأت السيّدة تسايدلر الممر فسلّمت المستأجر مونتسر رسالته، ودخلت المطبخ ومن ثم غرفة النوم، لتغادر الدار بعد عشر دقائق؛ إذ أن عملها المكتبي في شركة مانسمان كان سيبدأ في الساعة التاسعة. فبقيّ أوسكار ينتظر تحسّباً، وزيادة في الحذر، فارتدى ثيابه ببطء شديد، ونظّف أظافر أصابعه بهدوء ظاهريّ، ثم قرر القيام بالعمل. فمضيت إلى المطبخ ووضعت قدراً من الألمونيوم مليئاً نصفه بالماء على العين الكبرى لموقد الغاز ذي الأعين الثلاث، ثم أدرت شعلة الغاز على آخرها، وحين بدأ الماء يتبخر خفضّت اللهب إلى الحدّ الأقصى، وتقدمت خطوتين أمام حجرة الممرضة دوروتيّا، محافظاً على أفكاري بعناية، واضعاً إيّاها، قدر المستطاع، بالقرب من الفعل المرتقب، ثم التقطت الرسالة التي دسّتها السيّدة تسايدلر مسافة تحت الباب الغائم الزجاج، وأصبحت فوراً في المطبخ، عارضاً ظهر المظروف على بخار الماء بحذر حتى استطعت فتحه دون أن أحدث فيه ضررا. وأصبح من البديهي أن يطفأ أوسكار الغاز قبل أن يجرؤ على وضع رسالة الدكتور ي. فيرنر فوق القدر.

غير أنني لم أقرأ خبر الطبيب في المطبخ، إنما قرأته وأنا مضجع على فراشي. في البدء شعرت بخيبة أمل، إذ لم تفصح المخاطبة الأولى أو صيغة المجاملة المتعارف عليها التي أتت في آخر الرسالة عن طبيعية العلاقة بين الطبيب والممرضة. فقد جاء فيها: «عزيزتي الآنسة دوروتيّا!»

ثم: «المخلص لكِ أريش فيرنر.» وكذلك لم أعثر أثناء قراءة المكتوب الحقيقي على عبارة رقيقة بصفة خاصة. كان فيرنر بتأسف لأنه لم يكلّم الممرضة دوروتيّا في اليوم السابق، على الرغم من أنه رآها أمام الباب المؤدي إلى قسم-الرجال-الخاص. غير أن الممرضة دوروتيّا عادت أدراجها لأسباب مجهولة، بعدما فاجأت الطبيب يتحدث مع الممرضة بيآتا - مع صديقة دوروتيّا. والآن فإن الدكتور فيرنر يطالب بتوضيح؛ إذ أن الحديث الذي خاضه مع الممرضة بيآتا انطوى على طابع مهنيّ بحت. ومثلما تعلم، أي الممرضة دوروتيّا، فأنه كان يبذل قصارى جهده دائماً بغية الإبقاء على مسافة بينه وبين بيآتا التي لا تستطيع السيطرة على نفسها. إن دوروتيّا التي تعرف بيآتا لابد أن تتفهم ذلك؛ إذ أن الممرضة بيآتا كثيراً ما أظهرت مشاعرها المتدفقة بغير رادع، لكن الدكتور فيرنر لم يستجب لها أبداً بطبيعة الحال. وقد جاءت الجملة الأخيرة من الرسالة على النحو التالي: «أرجو أن تصدقي بأن الفرصة متاحة أمامك كلّ وقت للتحدث معي.» وعلى الرغم من الكلفة الشكلية والبرودة، بل الغطرسة التي حملها هذا السطر، إلا أنه لم يكن من الصعب عليّ كشف القناع عن أسلوب رسالة الدكتور ي. فيرنر، لأفهم الرسالة مثلما ينبغي فهمها، أي باعتبارها رسالة غرامية ملتهبة. فدسست الورقة بالمظروف على نحو آلي، متخلياً هذه المرّة عن حذري، فبللت بلسان أوسكار الشريط اللاصق الذي ربما بلله فيرنر من قبل، ثم انفجرت في الضحك، وصرت أضرب براحتي يديّ جبيني وقحفة رأسي بالتناوب، مستغرقاً في الضحك، حتى تمكنت، وأنا في حمى الضرب، إبعاد يمناي عن جبين أوسكار ووضعها على أكرة باب غرفتي، ففتحت الباب ثم وطأت الممر وزحزحت الرسالة تحت ذلك الباب الذي قفل حجرة الممرضة دوروتيّا المعروفة لي بخشبها الرماديّ الطلاء وزجاجها الغائم اللون.

كنت لم أزل مقرفصاً على كعبيّ، ممسكاً الرسالة بإصبعين إثنين، حين سمعت صوت السيّد مونتسر قادماً من الغرفة التي في طرف الممر. ففهمت كلّ حرف من ندائه البطيء الملحّ الذي يصلح لكتابة الإملاء: «أه

يا سيّدي العزيز، ألا تأتي لي بجرعة من الماء!؟» فاستقمت، وفكّرت في أن هذا الإنسان قد يكون مريضاً، بيد أنني عرفت في الوقت ذاته بأن هذا الرجل القابع خلف الباب لم يكن مريضاً، وأن أوسكار أوهم نفسه بهذا المرض، ليكون له سبب لجلب الماء؛ إذ أن هتافاً مجرداً خالياً من أي باعث لا يمكن قطّ أن يغريني بدخول غرفة إنسان غريب عنيّ غربة وحشية. وفي البدء أردت أن أجلب له الماء الفاتر في قدر الألمنيوم الذي أعانني على فتح رسالة الطبيب. لكنني سكبت الماء المستعمل في المغسلة الحجرية، وملأته بالماء العذب، ثم حملت القدر والماء إلى ذلك الباب الذي سكن خلفه صوت السيّد مونتسر المطالب بالماء وبي، أو لعلّه لم يطلب سوى بالماء وحده. وقرع أوسكار الباب ودخل، فاصطدم بتلك الرائحة الخاصة بكليب. إذا قلت عنها إنها رائحة عفنة؛ فإنني سأتكتم في الواقع عن جوهرها الشديد الحلاوة. لم تكن هناك مثلاً أي علاقة بين الهواء الذي طوّق كليب وهواء غرفة المصحّة المتحمّض كالخلّ. وإذا قلت إنه حامض-حلو فسيكون ذلك خطأ أيضا. كان السيّد مونتسر أو كليب، كما أصبحت أسميه اليوم، عازفاً على الناي وعلى آلة الكلارنيت، كسولاً حتى السماجة، ومع ذلك لم يكن عديم الحركة، جسده ينضح بالعرق الخفيف؛ كان شخصاً خرافيّاً، لا يعرف الغسل، لكنه لم يصل إلى درجة التفسّخ، ممتنعاً دائماً عن الموت، فبدت رائحته رائحة الجثّة التي لم تنقطع عن تدخين السجائر ومضغ النعناع وفرز عرق الثوم. هكذا كانت رائحته زماناً وهكذا هي رائحة اليوم، ومعها رائحة أنفاسه؛ فكان يلقي بنفسه عليّ أيّام الزيارات، مشيعاً في الجوّ بهجة الحياة والفناء، مجبراً برونو، حالما يخرج خروجه المتكلّف المبشّر بالعودة، على القيام بإعمال التهوية.

والآن أصبح أوسكار طريح الفراش، أمّا آنذاك فقد وجدت كليب ممدداً في بقية سرير؛ كان كسولاً حتى وهو في مزاج رائع، واضعاً تحت يده موقد صغير قديم الطراز يوحي كما لو أنه قادم من عصر الباروك؛ موقد غاز يعمل على الكحول، ودستة من علب المعكرونة وعلب صفيح

تحتوي على زيت الزيتون ومعجون الطماطم المحفوظ في أنابيب تُعصر، وثمة ملح رطب متكتل مكوّم على ورق جريدة وصندوق من البيرة، اتضح فيما بعد أنها كانت فاترة الحرارة. فأخذ يتبوّل في الزجاجات الفارغة وهو مضطجع، ويقفل، مثلما أسرّ لي فيما بعد، تلك الأوعية الخضراء ذات السعة المناسبة له تماماً، ثم يطرحها جانباً، عازلاً إيّاها عزلاً دقيقاً عن زجاجات البيرة بالمعني الحرفيّ للكلمة، لكي يحيل دون الخلط بينها عندما يشعر طريح الفراش هذا بالظمأ إلى البيرة الحقيقية. وعلى الرغم من أن الماء كان موجوداً في غرفته - كان بإمكانه التبوّل في المغسلة لو أنه تحلّى بقليل من روح الإقدام -، لكنه كان تنبلاً، أو بعبارة أدقّ كانت إعاقته لنفسه دون النهوض أكثر بكثير من قدرته على مغادرة الفراش الممهد بجهد بالغ، ليجلب الماء العذب بقدر المعكرونة. ولأن كليب كان يطبخ منتجات القمح بالماء نفسه دائماً وأبداً عندما كان يدعى بالسيّد مونتسر، أي يطبخها بالماء ذاته المسكوب مراراً والذي استحال إلى عصارة متخثرة، محافظاً عليه بحرص كما لو أنه يحافظ على ماء عينيه، فقد نجح مرّات عديدة في الحفاظ أربعة أيّام كاملة على ذلك الوضع الأفقيّ المناسب للسرير، معتمداً على رصيده من زجاجات البيرة الفارغة. بيد أن حالة الطوارئ كانت تعلن كلّما استحالت خثارة المعكرونة إلى ثمالة كثيفة الملح لزجة من كثرة الغليان. كان بمستطاع كليب تجاهل الجوع، بيد أن المقدمات الإيديولوجية الضرورية لذلك كان تعوزه يومئذ، فضلاً عن أن زهده بدا محدداً منذ البداية بمراحل مؤلفة من أربعة إلى خمسة أيّام، وإلا لجعلته السيّدة تسايدلر التي كانت تجلب له البريد، أو قدر معكرونة كبير، أو مياه احتياطية تتناسب مع مخزونه من منتجات القمح، يستقل استقلالاً تاماً عن المحيط الخارجي.

حينما انتهك أوسكار سريّة البريد كان كليب يرقد مستقلاً في فراشة منذ خمسة أيّام: فبات بإمكانه أن يلصق ببقية ماء المعكرونة ملصقات دعائية على أعمدة الإعلانات. حينئذ سمع خطوتي المترددة في الممر، والتي أوقفتها على الممرضة دوروتيّا ورسائلها. بعدما علم بأن أوسكار لم

يستجب للسعال المصطنع الملحّ في طلبه، أجهد صوته في ذلك اليوم الذي قرأت فيه رسالة الدكتور فيرنر الغرامية الباردة العواطف: «آه يا سيّدي، ألا تأتي لي بجرعة من الماء!؟» فأخذت القدر وسكبت الماء الفاتر، ثم فتحت حنفية الماء، وتركت الماء يهدر حتى امتلأ القدر إلى حدّ النصف، وألحقته برشّة إضافية، وأتيت بالماء الجديد؛ لأنني كنت السيّد العزيز الذي ظنّه فيّ، فقدمت له نفسي تحت اسم ماتسرات، باعتباري نحّاتاً وخطّاطاً على الحجر.

أمّا هو فقد رفع جذعه العلوي بأدب وبمقدار بضع درجات، مطلقاً على نفسه اسم أيغون مونتسر، عازف الجاز، لكنه ترجّى منّي أن أسميه كليب؛ لأن أباه يسمّى مونتسر. ففهمت رغبته فهماً عميقاً، وسميّت نفسي كولياجك تحبباً، وأوسكار اختصاراً؛ إذ أنني كنت أحمل لقب ماتسرات تواضعاً، ولم استطع تسمية نفسي أوسكار برونسكي إلا نادرا. فلم يكن من الصعب عليّ تسمية هذا الشاب الراقد في فراشه - قدّرت سنّه بثلاثين عاماً، لكنه كان أصغر من ذلك - باسم كليب ببساطة وبشكل مباشر. فسمّاني أوسكار لأن لفظ اسم كولياجك كلّفه مشقّة بالغة. ثم خضنا حديثاً، باذلين جهداً لكي نرفع الكلفة فيما بيننا. فاحتككنا ببعض المواضيع من خلال الثرثرة: لأنني أردت أن أعرف فيما إذا كان يعتبر أن قدرنا محسوماً منذ البداية. فكان رأيه أنه قدر حتميّ. ثم أراد أوسكار أن يعلم فيما إذا كان يرى أن الناس سيموتون جميعهم. فاعتبر كليب أن الموت النهائي حقيقة مؤكدة، لكنه لم يكن متأكداً فيما إذا كان من الضروري أن يولد الناس كلّهم، متحدثاً عن نفسه كما لو أنه تحدث عن ولادة خاطئة، فشعر أوسكار مرّة أخرى بأنه مشابه له. كان كلانا يؤمن بالسماء - بيد أنه أطلق ضحكة قذرة بعض الشيء حينما أتى على ذكر السماء، وأخذ يحكّ جلده تحت اللحاف: يمكن للمرء أن يفترض بأن السيّد كليب كان قد خطط في حياته لبعض الأعمال الخليعة الفاحشة التي ودّ أن ينفذها في السماء. عندما عرّجنا على موضوعة السياسة أوشك كليب أن يكون محتدماً، فعدد لي أكثر من ثلاثمائة أسرة ألمانية نبيلة،

متمنياً أن يهبها، حالاً، الجاه والتاج والسلطان؛ ثم أوكل أمر المنطقة المحيطة بمدينة هانوفر إلى الإمبراطورية البريطانية. وحينما سألته عن مصير مدينة دانسغ الحرّة سابقاً، أعرب عن أسفه لأنه لم يعلم أين تقع، لكنه اقترح بلا مبالاة أحد النبلاء من منطقة بيرغش، المنحدر، مثلما ذكر، من صلب يان فللم مباشرة، اقترحه أميراً على تلك المدينة المجهولة بالنسبة له للأسف الشديد. أخيراً - كنّا منهمكين في تعريف مفهوم الحقيقة، محققين بعض التقدم - توصلت من خلال الأسئلة الاعتراضية التي طرحتها بمهارة إلى أن السيّد كليب كان يعيش مستأجراً هنا في دار تسايدلر منذ ثلاثة أعوام. فأعربنا عن أسفنا لأننا لم نتعرف على بعضنا من قبل. غير أنني ألقيت اللوم على القنفذ الذي لم يزودني بمعلومات كافية عن طريح الفراش هذا - تماماً مثلما لم يخطر بباله أن يبلغني بشيء ما عن الممرضة أكثر من الإشارة الصغيرة: هنا تسكن ممرضة خلف هذا الباب الغائم الزجاج.

ولم يودّ أوسكار أن يثقل على السيّد مونتسر، أو كليب، بهمومه الشخصية على الفور. فلم ألتمس منه تقديم معلومات حول الممرضة، إنما أبديت قلقي عليه، قائلاً: «بالنسبة لموضوع الصحّة؛ هل تشعر بأنك على ما يرام؟» فرفع كليب جذعه العلويّ مرّة ثانية بمقدار بضع درجات، إلا أنه سرعان ما تخلّى عن ذلك، ملقياً بنفسه إلى الوراء، حالما تأكد بأنه غير قادر على مثلّث قائم الزاوية، ثم أبلغني بأنه يرقد في الفراش، لكي يعرف فيما إذا كانت حالته جيّدة أو معتدلة أو سيئة، وأنه يتمنى أن يعرف خلال الأسابيع القادمة بأن حالته متواضعة. ثمّ حدث ما كنت أخشاه، مطمئناً نفسي على أنني سأحول دون تحققه عبر الأحاديث المتشعبة. «آه يا عزيزي، أرجو أن تتناول معي وجبة من المعكرونة.» فأكلنا المعكرونة المغلية بالماء الطازج الذي جلبته معي. لكنني لم أجرؤ على أن أطلب الموافقة على إخضاع القدر اللزج إلى عملية تنظيف دقيقة في المغسلة. فقام كليب بعملية الطهي بعدما انقلب إلى الجانب، وأحضر وجبة الطعام بصمت وبحركات سرنمية مليئة بالثقة، ثم صبّ الماء بحذر في علبة صفيح

فارغة، ومدّ يده إلى أسفل، دون أن يغيّر وضع جذعه العلويّ تغييراً ملموساً، فأخرج طبقاً جفّ عليه الزيت ومعجون الطماطم، بيد أن علامات الحيرة بانت على كليب برهة وجيزة، قبل أن يمدّ يده إلى أسفل السرير مرّة أخرى، ليتناول جريدة مجعّدة، ويمسح بها حافة الطبق؛ بعد ذلك أخفى ورق الجريدة تحت السرير، وأخذ ينفخ سطح الطبق الملوّث بأنفاسه، كما لو أنه أراد أن يزيح آخر ذرّة غبار، ثم ناولني طبقاً من أشد الأطباق بشاعةً والتمس من أوسكار أن يمدّ يده بلا كلفة.

غير أنني رغبت في الأكل بعده، فطلبت منه أن يبدأ. وبعدما زودني بملعقة وشوكة لزجتيّ المقبضين حقيرتين، وكوّم بملعقة حساء وشوكة جزءاً كبيراً من المعكرونة في طبقي وعصر فوقها بحركات لبقة شريطاً طويلاً من معجون الطماطم، على شكل زخرفة فوق المعكرونة الملتوية، وسكب عليها الكثير من زيت العلب، وفعل الشيء ذاته مع قدر الطهي، ثم رشّ الفلفل على الوجبتين، ومزج طعامه، وطلب منّي بنظراته أن أخلط طعامي بالطريقة نفسها. «أن يا سيّدي العزيز، أعذرني لأنني لا أملك هنا نثار الجبن؛ ومع ذلك أتمنى لك شهيّة طيّبة.» ومازال أوسكار لم يفهم، إلى يومنا هذا، لماذا حمل نفسه آنذاك على استخدام الملعقة والشوكة. لقد استسغت الطعام بشكل عجيب، بل أن المعكرونة الكليبية أصبحت منذ ذلك اليوم مقياساً أقيس به كلّ وجبة طعام تقدم لي. وأثناء الأكل وجدت فرصة مناسبة لاستطلاع غرفة كليب، الطريح الفراش، ومعاينتها باستفاضة، لكن بطريقة غير ملفتة للنظر. كان ثقب المدخنة المفتوح الدائري الملاصق للسقف من الأسفل أكثر الموجودات فتنة وجاذبية في المكان؛ كان ينفث أنفاسه السوداء من الجدار نفسه، وبدت الريح عاتية في الخارج، أمام النافذتين. على أي حال كانت هبّات ريح تلك التي نفخت سحب السخام من ثقب المدخنة بين الحين والآخر فعبّأت بها غرفة كليب، هابطة بانتظام على الموجودات، مقيمة قدّاساً جنائزيا. ولأن جميع الموجودات كانت عبارة عن السرير المنتصب في وسط الغرفة والسجّاد الملفوف المغطى بالجرائد، والعائد إلى تسايدلر؛ فإن المرء يستطيع

الادعاء بكل تأكيد بأن: لم يكن في الغرفة شيء آخر أكثر سواداً من شرشف الفراش الأبيض والمخدّة التي رقدت تحت جمجمة كليب والمنشفة التي كان طريح الفراش يغطّي بها وجهه على الدوام كلّما أمرت هبّة ريح بإطلاق سحابة سخام في الغرفة. وبدت نافذتا الغرفة مثل نافذتيّ غرفة نوم آل تسايدلر وغرفة جلوسهما المطلتين على يوليشر شتراسه، أو بعبارة أدقّ مثل ثوب أوراق شجرة الكستناء الأخضر الرمادي، تلك الشجرة القائمة أمام واجهة البناية. كانت لوحة الزينة الوحيدة عبارة عن صورة ملوّنة لملكة بريطانيا، اليزابيث، منزوعة ربما من مجلّة مصوّرة، وقد ثبتت بدبابيس بين النافذتين. وتحت الصورة ثمة خطّاف حائط عُلقت عليه قربة نفخ، بالكاد يمكن التعرف على مربعات قماشها الاسكتلندي الذي تراكم عليه السخام. وبينما كنت أتأمل الصورة الملوّنة، مفكرّاً في الممرضة دوروتيّا الواقفة بيني وبين الدكتور فيرنر، بيأس ربما، أكثر من تفكيري في اليزابيث وبعلها فيليب، أوضح لي كليب بأنه من الأنصار المخلصين المتحمسين للعائلة الملكية البريطانية، لذلك فإنه تلقى دروساً في النفخ على القربة لدى نافخي القرب في الكتيبة الاسكتلندية التابعة لقوّات الاحتلال البريطانية، لاسيما أن هذه الكتيبة كانت تحت إمرة اليزابيث؛ وهو، كليب نفسه، قد رآها في نشرة الأخبار الأسبوعية تفتش الكتيبة، مرتديةً تنوّرة اسكتلندية بمربعات من الأعلى إلى الأسفل. ومما يثير العجب هو أن النزعة الكاثوليكية حضرت في نفسي ساعتها، فأبديت شكيّ في أن اليزابيث قد لا تفقه شيئاً من موسيقى القربة، وأطلقت بعض الملاحظات حول النهاية المهينة للكاثوليكية ماريا ستيورات؛ باختصار: إن أوسكار أفهم كليب بأن اليزابيث امرأة خالية من الحسّ الموسيقي.

لقد توقعت في الحقيقة ثورة غضب من هذا الموالي للملكية، بيد أنه ابتسم ابتسامة العارف وطلب منّي إيضاحاً يمكن أن يستشف منه، إذا دعت الضرورة، بأنني، أي الرجل الصغير - مثلما أطلق عليّ كليب البدين - مؤهل لإطلاق حكم فيما يتعلق بالموسيقى. وحدّق أوسكار في كليب وقتاً طويلاً؛ لأنه خاطبي بالموضوع دون أن يعلم ما الذي خاطبه فيّ، فتملكني

الموضوع من الرأس إلى الحدبة. فكان ذلك مثل يوم القيامة المعدّ لطبولي القديمة المنهكة المحطمة بفعل القرع، حيث نهضت على الفور طبول الصفيح الألف التي أحلتها إلى حطام، فضلاً عن الطبل الذي دفنته في مقبرة سازبه؛ انبعثت كلّها من جديد محتفية بالخلاص والانبعاث، وصارت أصواتها تُسمع، فامتلأت بها، حتى حضتني على مغادرة طرف الفراش، منسحباً، بعدما اعتذرت لكليب، طالباً منه أن يمهلني لحظة واحدة، فخرجت من الغرفة، شاعراً بالطبول تجرجرني بعيداً عن باب الزجاج الغائم وحجرة الممرضة دوروتيا - مازالت الرسالة المربعة الشكل ترقد على أرضية الممر، مختفية بمقدار النصف -، وتسوقني قسراً إلى غرفتي، فجعلت الطبل يهرع نحوي، ذاك الذي أهداه راسكولنيكوف لي بعدما رسم عذراء ٤٩، فقبضت عليه، وعلى المضربين معاً، ثم استدرت، أم أنّ شيئاً ما جعلني أستدير، تاركاً غرفتي، فقطعت الحجرة الملعونة، ودخلت، مثل من كُتبت له النجاة، فعاد بعد زمن طويل من الضياع؛ دخلت مطبخ معكرونة كليب، وجلست على حرف الفراش بلا لفّ أو دوران، وأمسكت بالطبل المطلي بالأبيض والأحمر، أمسكت به باعتدال ومعرفة، وطوحت بالمضربين في الهواء، مداعبةً أوّل الأمر؛ إذ أنني كنت متردداً بعض الشيء، حين تطلعت إلى كليب الذي أخذته الدهشة، ثم هبطت بمضرب واحد على الصفيح كما لو أنني فعلت ذلك صدفةً، آه، لقد أتاني من الطبل جواب، فألحقت به المضرب الثاني على الفور، ثم بدأت أطبل حسب التسلسل، فأصبحت البداية هي البداية: يوم طبّلت الفراشة بين المصابيح احتفاءً بمولدي، ثم طفقت أنا أطبل للسّلم درجاته التسع عشرة، وكذلك سقوطي من السلّم إبّان الاحتفال بعيد ميلادي الثالث الأسطوري، وطبّلت لجدول الدروس في مدرسة بستالوتسي طولاً وعرضاً، وارتقيت بالطبل برج الطوابق، وجلست بالطبل تحت المنصّات السيّاسية، مطبّلاً لسمك الثعبان والنوارس ونفض السجّاد في الجمعة الحزينة، وقرفصت مطبلاً فوق تابوت أمّي المسكينة الضيّق من ناحية القدمين، مستعملاً ظهر هربرت تروجنسكي المليء بالندب قاعدةً

للتطبيل، فلاحظت بعدما طبّلت من أجل الدفاع عن البريد البولندي في ميدان «هيفيليوس» حركة أتت من رأس سرير جلست عليه، فرأيت بطرف عين كليب الناهض الذي أخرج من تحت المخدّة ناياً خشبيّاً مضحكاً، فوضع الناي على فمه وصار يصدر أنغاماً عذبة، غير طبيعية، منسجمةً تماماً مع تطبيلي، لدرجة أنني قدته إلى شوغر ليو في مقبرة سازبه، بل بدأت أرقص باعتباري شوغر ليو، وجعلت المسحوق الفوّار يزبد أمامه وله ومعه، مسحوق حبيّ الأوّل، وأخذت بيده إلى أدغال السيّدة لينا غريف، وجعلت ماكينة تطبيل غريف، بائع الخضر؛ الماكينة التي كانت تزن خمسة وسبعين كيلوغراماً، حيث جعلتها تقرقر، واصطحبت كليب معي إلى مسرح بيبرا الميداني، ثم تركت يسوع يضجّ على طبلي الصفيح، فطبلت لشتورتبكر وللنافضين كلّهم ليهبطوا من برج القفز - وفي الأسفل جلست لوتسي -، لكنني ظننت بأن النمل والروس احتلوا طبلي، بيد أنني لم أصطحبه ثانيةً إلى مقبرة سازبه، حيث ألقيت بالطبل خلف ماتسرات، بل قرعت قضيتي الكبرى التي لا تنتهي: ألا وهي حقول البطاطس الكاشوبية التي علاها مطلا أكتوبر، عندما جلست جدّتي بأثوابها الأربعة؛ فأوشك قلب أوسكار أن يستحيل إلى حجر حينما تناهي إلى سمعي مطر أكتوبر يخرّ من ناي كليب، وكيف تقصّى ناي كليب الآثار تحت المطر وتحت أثوب جدّتي الأربعة ومعها آثار جدّي يوسف، مشعل الحرائق، وكيف احتفل الناي نفسه بإنجاب أمّي المسكينة، مبرهناً عليه. فعزفنا ساعات طويلة، وبعدما نوّعنا بما يكفي على هرب جدّي بناقلة خشب، أنهينا الحفلة الموسيقية مجهدين قليلاً، لكن سعيدين، أنهيناها بتلميح ترنيميّ إلى عملية إنقاذ مدهشة لمشعل الحرائق المفقود.

ثمّ وثب كليب من سريرة المفكك، والنغمة الأخيرة لم يزل نصفها في الناي، فتبعته رائحة الجثث. لكنه فتح النافذة على آخرها، وحشا ثقب المدخنة بورق الجرائد، ومزّق الصورة الملوّنة لملكة بريطانيا اليزابيث، معلناً نهاية العهد الملكي، ثم ترك الماء يتدفق من حنفية الماء على المغسلة الحجرية: فاغتسل، نعم اغتسل، بدأ كليب يشطف نفسه بالماء،

بل أنه تجرأ على غسل كلّ شيء، فلم يكن ذلك مجرد غسل، إنما اغتسال تطهيرٍ، وبعدما كفّ المغسول عن الغسل وانتصب أمامي بديناً، يقطر منه الماء، عارياً ، يكاد ينفجر، وعضوه البشع المنظر يتدلى معوجاً، رفعني،نعم؛ رفعني بذراعيه المشرعتين - إذ أن أوسكار كان خفيفاً ومازال -، وحينما انفجر الضحك في أعماقه، مدركاً إيّاه، لاطماً سقف الغرفة، أدركت بأن طبل أوسكار لم يكن وحده الذي انبعث من مواته، بل أن كليب قد بُعث حيّاً - فهنأنا أنفسنا وقبلنا وجناتنا. وفي اليوم ذاته - كنّا خرجنا معاً وقت المساء، فشربنا بيرة، وأكلنا سجقاً مع البصل - اقترح عليّ كليب أن نؤسس سويّاً فرقة جاز. فطلبت منه في الواقع مهلة للتفكير، غير أنني عقدت العزم على التخلي ليس فقط عن مهنة حزّ الحروف لدى نحّات الرخام كورنيف، بل أيضاً عن الوقوف موديلاً برفقة ربّة الفنّ أولا، لأصبح عازف إيقاع في فرقة جاز.

على حصيرة الليف

هكذا أمدّ أوسكار صديقه كليب بأسباب النهوض آنذاك. وعلى الرغم من أنه قفز متحرراً من مفارشه العفنة، مغموراً بالفرح ، ساكباً الماء على جسده، فأصبح ذلك الرجل الذي يقول هيّا بنا، فما قيمة هذا العالم؛ فإنني أدعي اليوم، بعدما بات أوسكار نفسه طريح الفراش: بأن كليب أراد أن ينتقم منّي، وأن ينفّرني من سرير القضبان في مصحّة الأمراض العقلية؛ لأنني نفّرته من سرير مطبخ المعكرونة.

كان عليّ أن أتحمّل زياراته الأسبوعية، وأصغي لكلامه المتفائل المستفيض عن الجاز، وبياناته الموسيقية-الشيوعية؛ إذ أنه أصبح عضواً مشتركاً في الحزب الشيوعي الألماني، حالما انتزعته من فراشه ومن قربة-اليزابيث، بعدما كان من أتباع الملكية المخلصين، فأخذ يمارس انتماءه الجديد مثل هواية غير شرعية، من خلال شربه البيرة والتهامه السجق النيئ، وتعديده للأعمال الجماعية المبهجة التي كانت تؤديها فرقة جاز كاملة عملت بكلّ طاقتها، والجمعيات الفلاّحية السوفيتية، وذلك أمام الناس المساكين الجالسين إلى طاولات الحانات يتدارسون الكتابة على زجاجات البيرة.

لكن لم تبق أمام الحالم المستنفر هذه الأيام سوى القليل من الإمكانيات: إذا ما تغرّب كليب عن سريره المتداعي فإنه يتحوّل إلى رفيق، بل إلى رفيق سرّي؛ مما يصعّد من حدّة الإثارة. أمّا مذهبه الثاني فهو الولع بالجاز. وثالثاً عليه أن يغيّر دينه، وهو المعمّد بروتستانتيّاً، ليعتنق المذهب الكاثوليكي.

على المرء أن يدع كليب وشأنه: فهو قد ترك مداخل الشوارع المؤدية إلى الملل والأديان جميعها مفتوحة أمامه. لقد ألهمه الحذر لحمه البرّاق وتهكمه المعتاش على الاستحسان وصفةً أتاحت بذكائها الريفيّ خلط تعاليم ماركس بأسطورة الجاز. فلو صادف ذات يوم قسيساً يسارياً، من نمط قساوسة العمّال، مهتماً، بالإضافة إلى ذلك، بتجميع أسطوانات موسيقى الولايات الأمريكية الجنوبية؛ لأصبح منذ ذلك اليوم ماركسياً يجترّ موسيقى الجاز ويتناول في الآحاد أقراص القربان المقدس، فيخلط رائحة جسمه الموصوفة آنفاً بعرق كاتدرائية مشيّدة بأسلوب المعمار القوطيّ الحديث. فالفضل يعود إلى سريري الذي حفظني من نهج السبيل نفسه؛ سريري الذي أراد صاحبي الفتى إغرائي بمغادرته عبر وعود مبتهجة بالحياة، بحيث أنه كان يقدم للمحكمة التماساً بعد التماس، واضعاً يده بيد المحامي، مطالباً بإعادة المحاكمة من جديد: أراد أن يتوصل إلى تبرئة أوسكار، أي إلى تحقيق حريّة أوسكار - فليخرج عزيزي أوسكار من المصحّة - ففعل كليب ذلك كلّه فقط لأنه ضنّ عليّ بالسرير!

مع ذلك فإنني لم أشعر بالندم عندما دفعت بصديق مضطجع إلى النهوض، وأنا مستأجر داخليّ في دار تسايدلر، فجعلته صديقاً يدكّ الأرض دكّاً، بل يسير عليها أحيانا. وباستثناء الساعات المضنية التي كنت أخصّ بها الممرضة دوروتيا وأنا مثقل بالأفكار؛ فإنني عشت حياة خاصة خالية من المتاعب. فلطمت كليب على كتفه وقلت: «أهلاً يا كليب؛ دعنا نؤسس فرقة جاز.» فقام كليب بمداعبة حدبتي التي أحبها مثل كرشه تقريباً، معلناً للعالم بأن «أوسكار وأنا سنؤسس فرقة جاز. لكننا نحتاج فقط إلى عازف قيثارة منتظم، يجيد العزف أيضاً على آلة البانجو.» فبلا شكّ أن الطبل والناي يحتاجان إلى آلة نغمية ثانية. وليس من السيئ، من ناحية بصرية بحت، أن تكون آلة «باس» وتريّة، لكن بدا من الصعب الحصول على عازفيّ باس آنذاك، فبحثنا بهمّة عالية عن عازف القيثارة الناقص. فكنّا نذهب إلى كثيراً إلى السينما، ثم كنّا نلتقط الصور، كما ذكرت سابقاً، مرتين في الأسبوع، ممارسين شتّى أنواع العبث مع الصور

أثناء تناول السجق النيئ مع البصل والبيرة. كان كليب قد تعرّف آنذاك على إليزا الحمراء، فأهدى له صورته بأسلوب طائش، ثم تزوجها لهذا السبب بالذات - بيد أننا لم نعثر على عازف قيثارة. وعلى الرغم من أنني تعرفّت إلى حدّ ما، من خلال عملي كموديل في أكاديمية الفنون الجميلة، على مدينة دوسلدورف القديمة بنوافذها السميكة الزجاج المثبت بالرصاص، لكنني تعرّفت عليها حقّاً برفقة كليب. أخذنا نبحث عن عازف القيثارة حول كنيسة «لامبرتوس»، فجبنا جميع الحانات، لاسيما في راتنغرشتراسه، في «وحيد القرن» حيث عزف «بوبي» موسيقى للرقص، فكان يدعنا أحياناً نصعد معه بالطبل والناي، مظهراً إعجابه بطبلي الصفيح، على الرغم من أنه كان عازف إيقاع ممتاز، لكن يده اليمنى افتقدت إلى إصبع، للأسف الشديد. فحتى لو أننا لم نعثر في «وحيد القرن» على عازف قيثارة، لكنني تلقيت خبرة ومراناً، إضافة إلى خبراتي التي تزودت بها منذ زمن المسرح الميدانيّ، فبات بمقدوري، بعد مدّة قصيرة، أن أصبح عازف إيقاع مقبولاً، لولا أن الممرضة دوروتيّا كانت تفسد عليّ فرص البدايات تلك بين الحين والآخر.

لقد دارت نصف أفكاري حاولها، وكان من الممكن تحمّل ذلك لو أن النصف الآخر من أفكاري بقي ملازماً لطبلي نقطةً إثر نقطة. فسار الأمر على هذا النهج، بحيث أن الفكرة كانت تبدأ بالطبل لتنتهي بدبّوس الصليب الأحمر العائد للممرضة دوروتيّا. أمّا كليب الذي كان يتجاوز إخفاقي بعزفه على الناي بمهارة، فصار ينتابه القلق كلّما رأى أوسكار غارقاً في أفكاره إلى حدّ النصف: «هل أنت جائع؟ أتريد أن أوصي لك بسجق نيء؟» وكان كليب يشمّ رائحة جوع الذئاب خلف معاناة العالم برمتها، فبات يعتقد بأن كلّ معاناة، مهما بلغت من عمق، يمكن إزالتها بوجبة من السجق النيء. فصار أوسكار يأكل في ذلك الزمن الكثير من السجق النيء الطازج، مع البصل المقطّع على شكل حلقات، ثم يحتسي البيرة، لعلّ صديقه كليب يظنّ بأن معاناة أوسكار كان سببها الجوع النهم وليس الممرضة دوروتيّا. فكنّا نغادر دار تسايدلر في يوليشر شتراسه مبكرين جدّا، فنتناول إفطارنا في

المدينة القديمة. وقد انقطعت عن الذهاب إلى الأكاديمية إلا عندما نكون بحاجة إلى نقود لدخول السينما. في تلك الأثناء كانت ربّة الفنّ أولا قد شهدت خطوبتها من الرسّام لانكس للمرّة الثالثة أو الرابعة، فبدا وجودها ضرورياً، لأن لانكس تلقّى أولى عروضه الكبيرة من المؤسسات الصناعية. فلم يعد الوقوف موديلاً ممتعاً لأوسكار بدون ربّة الفنّ - فصار يُرسم من جديد ويخطط بالسواد بشكل بشع، فلذلك سلّمت نفسي تماماً بيد صديقي كليب، إذ أنني لم أحظ بالراحة حتى لدى ماريا أو كورت، حيث كان «شتنتسل»، ربّ عملها ومبجلها المتزوّج، حاضراً كلّ مساء.

وذات يوم، عندما غادرنا أنا وكليب غرفتينا في الخريف المبكر من العام التاسع والأربعين، والتقينا في الممر، بالقرب من الباب السميك الغائم الزجاج، راغبين في الخروج من الدار بآلاتنا الموسيقية، هتف بنا تسايدلر الذي فتح باب غرفة سكنه ونومه بمقدار شقّ، ثم زحزح أمامنا طيّة بساط ضيّق وطويل، طالباً منّا مساعدته في مدّ البساط وتثبيته. كان البساط عبارة عن حصيرة ليف، بلغ طولها ثمانية أمتار وعشرين سنتمتراً ولأن ممر دار تسايدلر بلغ فقط سبعة أمتار وخمسة وسبعين سنتمتراً، فقد اضطررنا، كليب وأنا، إلى قطع خمسة وسبعين سنتمتراً من الحصيرة. ففعلنا ذلك جلوساً؛ إذ أن قصّ ألياف الجوز الهندي بدا عملاً شاقاً للغاية. بعد القطع أصبحت الحصيرة قصيرة بمقدار سنتمترين تقريبا. ولأن الحصيرة كانت بعرض الممر فقد ترجانا تسايدلر بأن نتعاون على تثبيتها في الأرضية بالمسامير، مدّعياً أنه لا يستطيع الانحناء إلا بصعوبة. كانت فكرة مدّ الحصيرة أثناء التثبيت قد انبثقت عن ذهن أوسكار، فنجحنا في تعويض السنتمترين الناقصين، باستثناء فجوة ضئيلة. لقد سمّرناها بمسامير ذات رؤوس عريضة مسطحة؛ إذ أن المسامير ذات الرؤوس الضيقة لا يمكن أن تثبّت الحصيرة المفككة النسيج. ومع ذلك فإن أوسكار أو كليب لم يضربا إبهامها بالمطرقة. بيد أننا سمّرنا في الحقيقة بضعة مسامير بشكل معوجّ، بسبب نوعية المسامير التي أتى بها تسايدلر من مخزنه، أي أنها كانت قادمة من عهود ما قبل الإصلاح النقدي. بعدما ثبّتنا نصف الحصيرة على أرضية

الممر ألقينا بمطرقتينا فوق بعضهما على شكل علامة ضرب، وحدقنا في القنفذ المشرف على عملنا، لكننا لم ننظر إليه بإلحاح، إنما بانتظار شيء ما. فاختفى في غرفة سكنه ونومه، وعاد حاملاً ثلاثة أقداح للخمرة جلبها من مخزون أقداحه، ومعها زجاجة من عرق القمح. فشربنا نخب ثبات حصيرة الليف وديمومتها، معربين إثر ذلك ليس بإلحاح أيضاً، إنما بانتظار، عن أن ألياف جوز الهند تصيب المرء بالعطش. لعلّ أقداح القنفذ شعرت بالفرح لأن عرق القمح سيجد فيها مكاناً له للمرّة الثانية، قبل أن تدفع نوبة غضب عائلية بالقنفذ إلى جعلها مجرد شظايا. حين قلب كليب قدح عرق فارغ على الحصيرة بقي سالماً، لم ينكسر ولم يصدر صوتاً، فأطرينا كلّنا جودة الحصيرة. وبعدما امتدحت السيّدة تسايدلر التي راقبت علمنا من غرفة السكن والنوم الحصيرة مثلما فعلنا؛ لأن الحصيرة حفظت أقداح العرق الساقطة من الإصابة بأضرار، تناول السيّد تسايدلر الأقداح الثلاثة على وجه السرعة واختفى مشحوناً، متوتراً، في غرفة السكن والنوم التسايدلريّة، فسمعنا الدولاب يصلّ - إذ أنه تناول أقداحاً أخرى، غير مكتف بالثلاثة الفارغة، وبعد ذلك سمع أوسكار الموسيقى التي كان يعرفها جيّداً: فرسا المزاد على فرن تسايدلر الدائم الاحتراق، أمام عين أوسكار، حيث استلقت ثمانية أقداح محطمة عند أقدام الفرن، فانحنى تسايدلر ليلتقط المكنسة وصفيحة القمامة، ليكنس، بصفته تسايدلر، تلك الشظايا التي حطمها بصفته قنفذاً. غير أن السيّدة تسايدلر بقيت منتصبة عند الباب، بينما تصاعدت أصوات الشظايا ترّن خلفها، مظهرة اهتماماً كبيراً بعملنا، لاسيما وأننا هرعنا إلى مطرقتينا حالما اجتاح الغضبُ القنفذَ. إلا أنه لم يرجع، مع أنه ترك زجاجة الخمر لنا على الحصيرة. فاستحينا في البدء من السيّدة تسايدلر حين أخذنا نعبّ العرق في البلعوم بالتناوب. غير أنها هزّت رأسها بلطف، لكن اللطف لم يدفع بنا إلى أن نعرض عليها احتساء جرعة من الخمر. ومع ذلك فإننا اشتغلنا بانتظام، مسمّرين حصيرة الليف بالمسامير، واحداً إثر آخر. حين ثبّت أوسكار الحصيرة بالمسامير أمام باب حجرة الممرضة، بدأ زجاج الباب الغائم يهتزّ عند كلّ ضربة

مطرقة، فمسه ذلك على نحو مؤلم، فتوجب عليه أن ينكس المطرقة لحظة مشبعة بالألم، وحالما تجاوز باب حجرة الممرضة دوروتيّا الغائم الزجاج تحسنت حالته وحالة مطرقته. ومثلما ينتهي كلّ شيء ذات يوم، فقد انتهى تثبيت حصيرة الليف، حيث سارت المسامير من ركن إلى ركن، برؤوس عريضة ، منتصبة حتى العنق في الأرضية، رافعة رؤوسها بالكاد عن ألياف الجوز المتدفقة، العارمة السيل، التي ولّدت دوّامات. فصرنا نخطو بخيلاء، ذهاباً وإياباً في الممر، مستمتعين بطول الحصيرة، كائلين المديح لعملنا، مشيرين إلى أن ليس من السهل مدّ حصيرة ليف وتثبيتها بالمسامير بمعدة فارغة وبلا إفطار، فجعلنا السيّدة تسايدلر تتجرأ أخيراً، فوطأت الحصيرة العذراء الجديدة، ووجدت طريقها إلى المطبخ، لتصبّ لنا القهوة وتفرقع لنا البيض في المقلاة. تناولنا الطعام في غرفتي، فانسحبت السيّدة تسايدلر لتلتحق في مكتب شركة مانسمان، لكننا تركنا باب الغرفة مفتوحاً، فأخذنا، ونحن نلوك، متعبين تعباً خفيفاً، نراقب إنجازنا الذي كان عبارة عن حصيرة ليف متدفقة نحونا.

فلماذا كلّ هذه الكلمات من أجل بساط زهيد، لم تكن له في جميع الأحوال إلا قيمة تبادلية قبل إصلاح النقد؟ لقد سمع أوسكار هذا السؤال الوجيه، فأستبق الجواب بقوله: إنني التقيت في الليلة اللاحقة بالممرضة دوروتيّا للمرّة الأولى فوق تلك الحصيرة.

كنت قد عدت إلى الدار في وقت متأخر، حوالي منتصف الليل، متخماً بالبيرة والسجق النيء، تاركاً كليب في المدينة القديمة، يبحث عن عازف قيثارة. فعثرت في الواقع على ثقب المفتاح في دار تسايدلر، وعثرت على حصيرة الليف في الممر، متخطياً الباب الغائم المعتم، فعثرت على غرفتي وعلى سريري، وحررت نفسي من ثيابي، لكنني لم أعثر على بيجامتي - كانت في الغسيل عند ماريا -، بيد أنني عثرت على قطعة الحصيرة البالغة خمسة وسبعين سنتمتراً، التي اقتطعناها من البساط الطويل، فوضعتها بمثابة سجادة للسرير، فوجدت طريقي إلى الفراش، لكنني لم أجد النوم. فليس هناك داع لأروي لكم كلّ ما فكّر فيه أوسكار

وكلّ ما طاف في رأسه على نحو آلي، لأنه لم يعثر على النوم قطّ. أمّا اليوم فصرت أعتقد بأنني عثرت على سبب أرقي آنذاك. فقبل ارتقائي السرير وقفت عاريّ القدمين على السجّادة الجديدة، أي على قطعة حصيرة الليف. فأفضت ألياف جوز الهند بسرها لقدميّ المجردتين، متوغلةً فيّ عبر الجلد ثم اختلطت بدمي: وحتى بعدما استلقيت فترة طويلة في الفراش، وجدت نفسي أقف على حصيرة الليف، لذلك ذهب عنّي النوم، فليس هناك ما هو أشدّ إثارة و توليداً للأفكار وجلباً للسهاد من الوقوف بقدمين عاريتين على حصيرة من ليف جوز الهند. فوقف أوسكار واضطجع فترة طويلة عقب منتصف الليل، حتى الساعة الثالثة فجراً، مسهّداً على الحصيرة والفراش معاً، فتناهي إلى سمعه حينئذ صوت باب يفتح في الممر ثم أعقبه باب آخر. ففكرت في أن يكون كليب قد رجع إلى الدار بدون عازف قيثارة، متخماً بالسجق النيئ، لكنني علمت بأنه لم يكن كليب الذي حرّك للتو باباً فآخر. ثم واصلت التفكير في أنني إذا بقيت مضطجعاً في الفراش، متحسساً ألياف جوز الهند تحت باطن قدميّ، فإنني سأفعل حسناً لو غادرت الفراش، لأقف فعلاً على الحصيرة أمام سريري وليس في الخيال. ففعل أوسكار ما فكّر فيه، لكن ترتبت على ما فعله عواقب وخيمة. حالما انتصبت على الحصيرة ذكّرتني قطعة البساط ذات الخمسة والسبعين سنتمتراً عبر باطن قدميّ بأصلها الممدود في الممر البالغ سبعة أمتار وثلاثة وأربعين سنتمترا. وبغض النظر عما إذا كنت شعرت بتعاطف مع قطعة الألياف المقتطعة، أو سمعت البابين في الممر، فخمنت عودة كليب، دون أن أعنيها بالتحديد، فإنني انحنيت، ثم التقطت زاويتين من حصيرة السرير؛ لأنني لم أعثر على بيجامتي عندما ذهبت إلى الفراش، وفرجت ساقيّ، بحيث لم أعد واقفاً على الألياف، بل على الأرضية، فجذبت الحصيرة من بين ساقي إلى الأعلى، ثم وضع أوسكار السنتمترات الخمسة والسبعين أمام جسده البالغ قياسه متراً وواحداً وعشرين سنتمتراً، فستر عورته بمهارة، إلا أنه بات تحت رحمة ألياف جوز الهند من عظم الترقوة إلى الركبتين. تصاعدت حدّة ذلك الشعور بعدما خرج أوسكار من

غرفته المعتمة خلف ردائه الليفيّ وأصبح في الممر المعتم، أي على حصيرة الليف.

فلا العجب حين حثثت خطاي بفعل تشجيع البساط، متفادياً التأثير تحت قدميّ، محاولاً إنقاذ نفسي، ساعياً للوصول مكان لا أثر فيه لليف جوز الهند بمثابة حصيرة ممدودة - أي أنني سعيت إلى المرحاض، فوجدته مظلماً كما الممر وغرفة أوسكار، ومع ذلك كان مشغولاً، إذ أن صرخة أنثوية قصيرة أبلغتني بهذه الحقيقة، كذلك ارتطمت بجلدتي الليف بركبة إنسان جالس. ولأنني لم أبد رغبة في مغادرة المرحاض - لأن خطر بساط الليف كان محدقاً بي من الخلف - فقد أرادت تلك الجالسة أمامي أن تطردني: «من أنت؟ وماذا تريد، أنصرف عنّي!» تناهي صوتها إلى أذنيّ، لكنه لم يكن في جميع الأحوال صوت السيّدة تسايدلر. فيا لها من عبارة متوجعة شاكية: «من أنت؟» فتجرّأت على إطلاق دعابة على أمل التخفيف من الإحراج الذي رافق لقاءنا: «احزري يا دوروتيّا الممرضة!» لكنها لم ترد أن تحزر، بل نهضت ومدت يديها للإمساك بي في الظلام، وحاولت أن تخرجني من المرحاض وتدفع بي إلى بساط الممر، غير أنها ذهبت بيديها إلى الأعلى، متجاوزة رأسي إلى الفراغ، فخفضتهما إلى الأسفل، لكنها لم تمسك بي، إنما بالمريلة الليفية، إي بفرائي الليفي، ثم صرخت ثانية - فالنساء دائماً ما يصرخن على الفور -، وقد خلطت بيني وبين شخص آخر، لأن الممرضة دوروتيّا بدأت ترتجف وتهمس: «يا إلهي؛ إنه الشيطان!»، فاستدرجني ذلك إلى إطلاق كركرة خفيضة، دون أن أعنيّ بها شرّا. فحسبت كركرتي كركرةَ الشيطان، لكن عبارة الشيطان لم تحظ بإعجابي، وبعدما سألتني مرّة أخرى بيأس وخوار: «من أنت؟» أجابها أوسكار: «أنا الشيطان وقد زار الممرضة دوروتيّا!» فهتفت إثر إجابتي: «يا إلهي، لكن لأي سبب؟» فقلت، متقمصاً دوري على مهل، موظِّفاً الشيطان ملقّناً في أعماقي: «لأن الشيطان يعشق الممرضة دوروتيّا.» فانطلقت الكلمات من فمها: «كلا، ثم كلا؛ فأنا لا أريد هذا» وحاولت الهرب، بيد أنها تعثرّت بالألياف الشيطانية لمسوحي المنسوج من ليف

جوز الهند - لابد أن قميص نومها كان رقيقاً للغاية - فتوغلت أصابعها العشرة النحيفة في الأحراش الغاوية، حيث أصابها الوهن والخوار. بلا شكّ أنه كان خواراً خفيفاً ذاك الذي جعل الممرضة دوروتيّا تهوي إلى الأمام، فتلقفت المرأة المتهاوية بوبريّ الذي رفعته عالياً أمام جسدي، فأمسكت بها فترة طويلة أتاحت لي اتخاذ قرار يتناسب مع دوريّ الشيطانيّ، سامحاً لها، أن تخرّ على ركبتيها بارتخاء خفيف، إلا أنني حرصت على أن لا تلامس ركبتها بلاط المرحاض البارد، إنما حصيرة الممر، فتركتها تنزلق إلى الخلف، متجهة برأسها إلى الغرب، أي نحو غرفة كليب، متمددة بموازاة الحصيرة، ثم غطيتها من الأعلى بالمادة الليفية نفسها؛ لأن ظهرها لامس الحصيرة بمقدار متر وستين سنتمتراً، بيد أنه لم يكن بحوزتي سوى خمسة وسبعين سنتمتراً، فوضعت طرفها على حنكها مباشرة والطرف الآخر على فخذها، ثم وجدت نفسي مضطرّاً إلى سحب الحصيرة إلى الأعلى بمقدار عشرة سنتمترات، فأطبقتها على فمها، غير أن أنفها بقي طليقاً، بحيث أنها استطاعت التنفس بحريّة، فأخذت تلهث بشدّة بعدما ألقى أوسكار أيضاً بنفسه، ألقى بنفسه على بساط سريره السابق، فجعله يهتزّ بآلاف الألياف، دون أن يكون قد نشد في الواقع الالتصاق المباشر بالممرضة دوروتيّا، بل ترك ألياف جوز الهند تمارس تأثيرها، فابتدأ مرّة أخرى المحاورة مع دوروتيّا التي ما لبثت تعاني من وطأة الوهن والضعف وتهمس: «يا إلهي، يا إلهي»، مستفسرة على الدوام عن اسم أوسكار وأصله، مرتعدة بين حصيرة الليف وبساط جوز الهند كلّما أطلقت على نفسي اسم الشيطان، مصدراً الاسم كما الفحيح، ذاكراً الجحيم بكلمات مقتضبة، باعتباره مكان إقامتي، ممارساً ألعاب النطّ بمثابرة على بساط فراشي، دافعاً به إلى الاهتزاز؛ إذ أن ألياف جوز الهند منحت الممرضة دوروتيّا شعوراً لا يمكن التغاضي عنه، يشبه الشعور الذي منحه المسحوق الفوّار لعشيقتي ماريا قبل أعوام، بيد أن المسحوق الفوّار جعلني أنجز مهمتي بنجاح وبشكل كامل، في حين أنني منيت هنا بفشل ذريع مخجل على حصيرة الليف هذه. فلم أتمكن من إلقاء المرساة. فكلّ

ما كان منتصباً صلداً ساعياً إلى غايته بعزم خلال زمن المسحوق الفوّار وما بعده، جعل الرأس يطأطأ حزناً في ظلّ ألياف جوز الهند، صغيراً، خاملاً متراخياً، بلا هدف، غير مستجيب لأي طلب، فلم يستجب لوسائل إقناعي الفكرية المحض، ولا لزفرات الممرضة دورروتيّا، التي أخذت تهمس وتتأوه وتئن باستعطاف: «تعالَ، يا شيطان، تعالَ!» فتوجب عليّ أن أهدأ من روعها: «سيأتي الشيطان حالاً، نعم؛ الشيطان أوشك على الانتهاء»، مدمدماً بعبارات شيطانية انطوت على مبالغة، محاوراً في الوقت ذاته الشيطان الساكن في أعماقي منذ تعميدي - والذي مازال ساكناً فيها - ، مغلظاً له القول: لا تفسدها علينا يا شيطان! متوسلاً به: أرجوك يا شيطان، خلصني من هذه الفضيحة! أو أجامله بالقول: إنك عادةً لست هكذا، ففكّر في الماضي، فكّر في ماريا، أو فكّر فيما هو أحسن، أي في أرملة غريف، أو في الممازحات التي مارسناها سويّاً مع روزفيتا الرقيقة في باريس المبهجة؟ غير أنه ردّ عليّ بتذمّر وبلا خوف من التكرار: كن بلا شهوة يا أوسكار. إذا لم يشته الشيطان فإن الفضيلة تنتصر. فمن حقّ الشيطان أن تنعدم شهوته أيضا. وهكذا حرمني من مساعدته، مطلقاً هذه الحكمة أو تلك، بينما كنت أهزّ حصيرة الليف بحركات متراخية شيئاً فشيئاً، مؤذياً جلد الممرضة دورروتيّا المسكينة، بفعل الحكّ، بحيث أنني قابلت ظمأها «تعالَ يا شيطان، آه، تعال!» في الأخير بقذف يائس أسفل الألياف، لا مبرر له ولا معنى: محاولاً تصويب مسدسي غير المحشوّ نحو الهدف. فأرادت أن تعين شيطانها، فأخرجت ذراعيها من تحت البساط، وهمّت بتطويقيّ، بل أنها طوقتني، عاثرةً على حدبتي، وعلى جلدي الإنسانيّ الدافئ العديم الألياف، مفتقدة الشيطان الذي طالبت به، وانقطعت عن الوأوأة: «تعالَ يا شيطان، تعالَ!»، بل تنحنحت ثم طرحت سؤالها الأصلي بنبرة متغيّرة: «من أنت بحق السماء، وماذا تريد؟» فاضطررت إلى التنازل حينئذ، معترفاً بأنني أدعى أوسكار ماتسرات حسب الأوراق الرسمية، وأنني جارها وأحبها، أي أحبّ الممرضة دورروتيّا حبّاً عميقاً لا قرار له.

وإذا ما ظنّ شامت بأن الممرضة دوروتيّا قذفتني بقبضتيها وبلعنة فألقت بي على حصيرة الليف؛ فإن أوسكار يُبلغ هنا بحسرة، لكن بارتياح إلى حد ما، بأن الممرضة دوروتيّا حررت يديها من حدبتي على مهل، بل أقول بتردد متأمل يشبه التحسس الحزين غير المتناهي. كذلك كان بكاؤها ونشيجها اللذان ارتفعا على الفور تناهيا إلى سمعي باعتبارهما خاليين من الحدّة، فبالكاد لاحظت كيف أنها أزاحت نفسها من تحتي ومن تحت الحصيرة، فانزلقت عنّي وجعلتني أنزلق بدوريّ، فابتلع بساط الممر صوت خطاها. سمعتها تسير، ثم سمعت صوت مفتاح يدور في ثقبه، وبعد ذلك بقليل غمر الضوء، ومعه الحقيقة؛ غمرا المربعات الغائمة اللون أمام حجرتها من الداخل. فظلّ أوسكار مضطجعاً، ثمّ غطّى نفسه بالحصيرة التي مازالت تحتفظ بشيء من دفء اللعبة الشيطانية، بيد أن عينيّ أصبحتا من حصّة المربعات المضاءة. وثمة ظلّ كان يسقط على الزجاج الغائم بين الحين والآخر. والآن فإنها ذهبت إلى خزانة الثياب، كما قلت في نفسي، ثم إلى دولاب الزينة. فقام أوسكار بمحاولة كلبيّة عديمة الاحترام، إذ زحفت بحصيرتي إلى الباب، وبدأت أحكّ الخشب، ثم قوّمت نفسي قليلاً، ومددت يدين باحثتين متوسلتين، وجعلتهما تتجولان عبر الزجاجتين السفليتين، لكن الممرضة دوروتيّا لم تفتح الباب، فكانت تتنقل بالمرآة بلا كلل بين الخزانة والدولاب. فعلمت بما عقدت النيّة عليه، دون أن أعترف به: كانت الممرضة دوروتيّا تحزّم أمتعتها هاربةً، هاربة منّي. فدفنت حتى أمنيتي الضعيفة برؤية وجهها المضاء كهربائياً أثناء مغادرتها الحجرة. في البدء شاع الظلام خلف الزجاج الغائم، ثم سمعت المفتاح، فالباب المفتوح، فوقع الحذاء على حصيرة الليف - فهرعت نحوها، مصطدماً بالحقيبة وبساقها الطويلة الجورب، فركلتني بحذائها الخشن الذي رأيته في خزانة ثيابها، ركلتني بحذائها على صدري، ملقيةً بيّ على الحصيرة، وحين استجمع أوسكار قواه، متوسلاً بها «يا دوروتيّا» انطبق باب الدار، مستقراً في قفله: لقد هجرتني امرأة...

فأنتم، بل كلّ من يتفهّم معاناتي، سيقول الآن: اذهب إلى فراشك يا

أوسكار. فما الذي تبحث عنه في الممر بعد هذه القصّة المخجلة! إنها الرابعة فجراً، وأنت مازلت ملقى على حصيرة الليف عارياً، ملتحفاً ببساط على نحو اضطراريّ، مخدشاً يديك وركبتيك، ملقى بقلب ينزف دماً وعضو يحرقك ألماً، وعارك يصرخ إلى السماوات. لقد أيقظت السيّد تسايدلر، فأيقظ بدوره وزوجته. فسيأتيان ويفتحان باب غرفة سكنهما ونومهما، وسيريانك. فامض إلى فراشك، يا أوسكار، فقريبا ستعلن الساعة الخامسة!

كنت أسديت آنذاك النصائح ذاتها إلى نفسي عندما اضطجعت على الحصيرة، فبقيت ملقى، أرتجف من البرد، محاولاً استعادة جسد الممرضة دوروتيا. لكنني لم أتحسس سوى ألياف جوز الهند، بل شعرت ببعضها بين أسناني. حينئذ سقط شريط من الضوء على أوسكار: إذ فُتح باب غرفة سكن آل تسايدلر ونومهما، فتح بمقدار شقّ أطلّ منه رأس القنفذ وفوقه رأس السيّدة تسايدلر المليء ببكرات لفّ الشعر المعدنية. فحملقا فيّ، ثم سعل الرجل وكركرت المرأة، ونادى عليّ، لكنني لم أجبه، فواصلت كركرتها، فأمرها بالصمت، غير أنها أرادت أن تعرف فيما إذا كنت أحتاج إلى شيء، فقال إن ذلك أمراً لا يخصها، وقالت عن الدار بأنها دار محترمة، فهددني زوجها بالطرد، غير أنني صمتّ، إذ أن الكيل لم يطفح بعد. في تلك اللحظة فتح تسايدلر الباب ثم أضاء الممر، فهرع كلاهما نحويّ، بعيون صغيرة شريرة، يتطاير منها الشرر، وقد عقد الرجل النيّة على أن لا يصبّ جام غضبه هذه المرّة على أقداح الخمر، فانتصب فوقي، فانتظر أوسكار غضب القنفذ - بيد أن تسايدلر لم يتحرر من غضبه، إذ أن أصواتاً تعالت من سلّم البناية، ولأن مفتاحاً مضطرباً أخذ يبحث عن باب الدار، حتى عثر عليه أخيراً، ولأن كليب دخل، جالباً معه شخصاً سكرانَ مثله: شوله، عازف القيثارة الذي عثر عليه في آخر المطاف. فهدأ كلاهما من غضب تسايدلر وزوجته، ثم انحنيا على أوسكار، دون أن يطرحا أيّ سؤال، فأمسكا بي ثم حملاني إلى غرفتي ومعي قطعة البساط الشيطانية. ودفأني كليب بالتدليك، وأحضر عازف

القيثارة ثيابي، فأعانني كلاهما على ارتداء ثيابي، ثم جففا دموعي. إنّه النشيج. والصباح انبلج أمام النافذة. وثمّة عصافير. وكليب علّق طبلي على رقبتي، وأخرج نايه الخشبيّ الصغير. نشيج. عازف القيثارة تنكّب قيثارته. عصافير. صديقان أحاطا بي، وضعاني بينهما، ثم أخرجا أوسكار المنتحب الذي لم يبد أيّ مقاومة من الدار إلى يوليشر شتراسه، حيث العصافير، فأنقذاه من تأثيرات حصيرة الليف؛ تهاديا بي عبر الشوارع الصباحية، مخترقين الحديقة الملكية نحو القبّة الفلكية حتى وصلنا ضفة نهر الراين الرماديّ الذاهب إلى هولندا والذي حمل على ظهره سفناً رفرف عليها الغسيل.

وجلسنا من السادسة صباحاً حتى التاسعة ضحىً في ذلك الصباح السبتمبريّ المشبع بالضباب، جلسنا على الضفة اليمين: عازف الناي كليب وعازف القيثارة شوله، وعازف الإيقاع أوسكار، فعزفنا الموسيقى، متمرنين على تناسق الأنغام، ونحتسي من زجاجة خمر، ونرمق أشجار الحور في الضفة الأخرى من النهر، محمّلين السفن المشحونة بالفحم القادمة من دوسبورغ والتي كانت تشقّ طريقها في الاتجاه المعاكس للتيار، حمّلناها موسيقى سريعة صاخبة، وموسيقى نهر المسسبي البطيئة الحزينة، ثم أخذنا نبحث عن اسم لفرقتنا التي أسسناها توّاً. وبعدما صبغ القليل من الشمس ضبابَ الصباح، وأفصحت الموسيقى عن رغبتها في إفطار وافر نهض أوسكار الذي دسّ طبله بينه وبين الليلة الماضية، فأخرج نقوداً من جيب سترته، بمعنى الإفطار، وأعلن لصاحبيه اسم الفرقة المولودة حديثاً: The Rhine River Three ثم ذهبنا لنفطر.

في قبو البصل

مثلما أحببنا مروج الراين، فإن صاحب الحانة «فيرديناند شموه» أحبّ أيضاً ضفة الراين اليمنى بين دوسلدورف و«كايزرسفيرت». وكنّا نجرب مقطوعاتنا الموسيقية عند شتوكوم. أمّا شموه فكان، على النقيض من ذلك، يمشّط الأحراش والأجمة المحاذية للضفة بحثاً عن العصافير، حاملاً بندقية من العيار الخفيف. فهذه كانت هوايته التي يجد فيها راحته. وإذا ما شعر شموه بالامتعاض من حانته؛ فإنه كان يأمر زوجته الجالسة خلف مقود المرسيدس، فيسران بمحاذاة النهر، ثم يركنان العربة عند شتوكوم، فيسير على قدميه المفلطحين بعض الشيء، منكساً ماسورة بندقيته إلى الأسفل، ساحباً وراءه زوجته التي كانت ستبقى في العربة لو استطاعت، ليخلفها فيما بعد على صخرة ضفاف مريحة، ثم يختفي في الأحراش. كنّا نعزف مقطوعات جاز قديمة مرحة، في حين كان دويه يسمع بين الأجمة، فبينما جلسنا نعتني بالموسيقى بدأ شموه يطلق الرصاص على العصافير. فعلّق شوله الذي كان يعرف، كما كليب، أصحاب الحانات كلّهم في المدينة القديمة، حالما ارتفع صوت الدويّ بين الأحراش الخضراء:

«شموه يطلق النيران على العصافير.»

ولأن شموه لم يعد حيّا يرزق؛ فإنني سأقدم له هنا نعياً: كان شموه رامياً جيّداً، ولعلّه كان إنساناً جيّداً أيضاً؛ إذ أن شموه، حتى لو اصطاد العصافير، واحتفظ بالذخيرة الصغيرة العيار في جيبه سترته اليسار، قد امتلأ جيب سترته اليمين بطعام الطيور الذي لم يوزعه بين العصافير

بحركات يدّ سخيّة قبل إطلاق الرصاص على العصافير - لم يجندل شموه أكثر من اثني عشر عصفوراً في الأصيل الواحد -، إنما بعد إطلاق الرصاص.

وعندما كان شموه حيّا خاطبنا ذات صباح نوفمبريّ بارد من العام التاسع والأربعين - كنّا نتمرن منذ أسابيع على ضفة الراين -، لكن ليس بصوت خفيض، بل مرتفع حدّ المبالغة: «كيف يمكنني إطلاق الرصاص وأنتم تعملون موسيقى فتفزّ الطيورّ» فاعتذر كليب بالقول «أوه» ثم أبعد نايه عن فمه وكأنه أبعد بندقية قدمّ بها تحية عسكرية: «حضرتك السيّد الموهوب موسيقياً الذي التزم بألحاننا الإيقاعية بدقة وهو يطلق النيران في الأحراش، فتقبّل جلّ احترامي يا سيّد شموه!»

فغمر الفرح شموه لأن كليب سمّاه بالاسم، لكنه مع ذلك سأل كيف أن كليب عرف اسمه. فردّ عليه كليب باستنكار: «كلّ واحد يعرف شموه. فأنا اسمع الناس تقول: هذا هو شموه ذاهب، هذا هو شموه قادم، هل رأيتم شموه توّاً، أين أصبح اليوم، شموه يصطاد العصافير.»

وبعدما جعله كليب رجلاً متعدد النواحي قدّم لنا شموه سجائر وطلب منّا أن نقدم أسماءنا، وأعرب عن رغبته في سماع مقطوعة من برنامجنا الحافل، فقدمنا له مقطوعة جاز خفيفة، أشار على ضوئها إلى زوجته الجالسة بمعطف فرو على صخرة، معتكفة، تتأمل فيضان نهر الراين؛ أشار إليها بالمجيء. فجاءت بالفرو، فتوجب علينا أن نعزف المقطوعة ثانيةً، متظاهرين بأننا من النخبة الاجتماعية، فقالت صاحبة الفراء بعدما انتهينا: «ما رأيك يا عزيزي فريدي، أليس هذا ما كنت تبحث عنه للقبو؟» فبدا أنه شاطرها الرأي، معتقداً مثلها بأنه كان يفتّش عنّا فعثر علينا، بيد أن رمى بضعة حصى صغيرة مسطّحة على صفحة النهر، فتزحلقت بسرعة، ثم أمعن فكرة وحسب حسابه، قبل أن يتقدم بالعرض: موسيقى في قبو البصل من الساعة التاسعة مساءً حتى الثانية ليلاً، عشرة ماركات لكل فردّ في المساء الواحد، دعونا نقول اثني عشر ماركاً - كليب قال سبعة عشر، لكي يقول شموه خمسة عشر - لكن شموه قال أربعة عشر، فاتفقنا.

بدا قبو البصل، إذا ما نظر إليه المرء من الشارع، شبيهاً بتلك الحانات الصغيرة الكثيرة التي لا تختلف قطّ عن الحانات القديمة سوى أن أسعارها كانت غالية. على المرء أن يبحث عن سبب غلاء أسعارها في الديكور الداخليّ غير المألوف، بحيث أنها كانت غالباً ما تسمى بحانات الفنّانين، أو في أسمائها التي لها وقع خفيف هادئ مثل «سقيفة المعكرونة المحشوة»، أو ذات النزعة الوجودية الغامضة مثل «المحّرم»، أو التي حملت اسم «الفلفل» الحارق الناريّ، أو «قبو البصل» أيضاً. وقد رسُمت عبارة قبو البصل بوعي تنقصه الحيلة، إضافة إلى صورة بصلة معلّقة فوق مشنقة من الحديد الصلب منمقة بالطريقة الألمانية القديمة في الواجهة، رُسمت بسذاجة شديدة الإلحاح على رقعة لامعة الطلاء. ثمة زجاجات مربعة مثبتة بالرصاص، خضراء مثل زجاجات البيرة، كانت تزجج النافذة الوحيدة. وانتصب البوّاب بجبّة صوف ريفيّة أمام بوّابة من حديد مطلية بالدهان الأحمر المقاوم للصدأ والتي يمكن أن تكون قد انطبقت على ملجأ للحماية من القصفّ الجويّ أثناء الأعوام العصيبة. لم يكن يسمح لكلّ شخص بالدخول إلى القبو؛ فلاسيما في أيّام العطل، حين تتحوّل الأجور الأسبوعية إلى بيرة، يُمنع «أخوة» المدينة القديمة من دخول القبو، لأنه أسعاره ستكون غالية بالنسبة لهم. وكلّ من يسمح له بالدخول كان يعثر على خمس درجات من الخرسانة خلف الباب الأحمر، وإذا ما هبط الدرجات الخمس فإنه سيجد نفسه على دكّة بمتر مربع - ثمة ملصق معرض لبيكاسو جعل هذه الدكّة طريفة، جديرة بالمشاهدة - وإذا ما واصل الهبوط أربع درجات أخرى فإنه سيجد نفسه أمام مشجب الملابس، حيث علقت رقعة من الورق المقوّى تقول «رجاءً الدفع مؤخراً!»، أمّا الشاب الواقف خلف المشجب - غالباً ما يكون فتى ملتحياً من أكاديمية الفنون - فلم يستلم أبداً نقوداً مقدماً؛ لأن قبو البصل كان غالياً في الواقع، لكنه محترم بالقدر ذاته. وكان صاحب الحانة يستقبل شخصياً كلّ ضيف، بحركات حاجبين وإيماءات سريعة للحدّ الأقصى، كما لو أنه يشرح لكلّ ضيف جديد مسرحية عن طقوس مقدسة شرحاً تمهيديا. كان يدعى، كما

علمنا، فيرديناند شموه، وكان يصطاد العصافير أحياناً، ويتمتع بحماسة التقرّب من تلك الفئة الاجتماعية التي تطوّرت بسرعة إلى حدّ ما في دوسلدورف إثر إصلاح النقد وببطء في أماكن أخرى.

كان قبو البصل في الواقع - وهنا يتلمس المرء مصداقية تلك الحانة الليلة المرغوبة - قبواً حقيقياً، بل قبواً رطباً إلى حدّ ما، يمكن مقارنته بخرطوم طويل رطب من الأسفل، تبلغ مساحته ثمانية عشر متراً بمقدار أبرع مرّات، ويدفأ بمدفأتين حديديتين أصليتين أيضاً لهما شكل أسطواني. بلا شكّ أن هذا القبو لم يبق في الواقع قبواً، إذ انتزع عنه السقف، ووسع إلى حدّ الطابق الأرضي. وبذلك لم تعد نافذة القبو الوحيدة نافذة قبو بالمعنى الصحيح، إنما نافذة طابق أرضيّ سابق، مما خلّف أثراً طفيفاً في سمعة الحانة الليلة المحترمة الرائجة. ولو لم تزجج النافذة بمربعات الزجاج الصغيرة السميكة لأصبح النظر إلى الداخل ممكناً؛ ولأن المرء شيّد رواقاً في القبو الموسع إلى الأعلى، يمكن الصعود أليه عبر سلّم حلزونيّ ضيّق؛ فإن المرء يستطيع ربما أن يطلق صفة الحانة الليلية المحترمة على قبو البصل الذي لم يكن في الواقع قبواً أصيلاً - لكن لأي سبب عليه أن يبقى قبواً؟

لقد نسي أوسكار أن يروي بأن السلّم الحلزونيّ لم يكن سلّماً حلزونياً بالمعنى الحرفي للعبارة، إنما سلّم حبال يشبه سلالم البواخر، حيث يستطيع المرء التشبث بحبليّ غسيل أصيلين على يمين السلّم العموديّ الخطير وشماله؛ فكان يترنح، مذكراً المرء برحلة بحريّة، رافعاً من أسعار قبو البصل إلى الأعلى. وثمة مصابيح كانت تعمل بفحم الإضاءة مثل تلك التي يحملها عمّال المناجم أنارت القبو، متبرعة برائحة فحم الكربيد - مما أدّى بدوره إلى رفع الأسعار مرّة أخرى -، من شأنها أن تنقل ضيف القبو المسدد الثمن إلى نفق منجم للبوتاسيوم يقع مسافة تسعمائة وخمسين متراً تحت الأرض: عمّال مناجم عراة الصدور يعملون معاولهم في صخرة، فيفصدون منها وريداً، فيحظر الكاشط الملحَ، فتعوي رافعات المنجم، وتسدّ المسالك، وبعيداً في الخلف، حيث ينحرف النفق في اتجاه

«فريدرشهال» رقم اثنين، ثمة ضوء يتأرجح، فذلك هو رئيس العمّال الذي جاء ليقول «حظّاً سعيداً!» ملّوحاً بمصباح الكربيد الشبيه تماماً بالمصابيح المعلّقة على جدران قبو البصل غير المعالجة و المكسوة بالجبس بشكل عابر، التي كانت تنير المكان وتبعث فيه رائحة وترفع من أسعاره، مشيعةً جوّاً شديد الأصالة. أمّا مقاعد الجلوس غير المريحة التي كانت عبارة عن صناديق عادية، فقد كسيت بجوالات البصل، بينما لمعت طاولات الخشب على العكس من ذلك نظيفة، ممسوحة، تغري الضيف القادم من المنجم بدخول حجرة فلاّح وديعة آمنة مثلما يراها المرء في الأفلام أحيانا. فكان هذا كلّ شيء! وطاولة البار؟ لم تكن هناك طاولة بار! حضرة النادل؛ قائمة المأكولات رجاءً! لم يكن هناك نادل ولا قائمة مأكولات، باستثنائنا، نحن جماعة The Rhine River Three الذين يمكن ذكرهم هنا، إذ قبع كليب وشوله وأوسكار تحت السلّم الحلزوني الذي كان بمثابة سلّم باخرة، بعدما قدموا في الساعة التاسعة، فأخرجوا آلاتهم ثم بدءوا يعزفون الموسيقى حوالي الساعة العاشرة. وبما أننا أشرفنا الآن على الساعة التاسعة وخمس عشرة دقيقة، فإن الحديث عنّا سيأتي فيما بعد. فلابد أوّلاً من النظر إلى أصابع شموه التي كان يمسك بها أحياناً بندقيةً من العيار الخفيف.

وحالما يمتلأ قبو البصل بالزبائن - إذا امتلأ بمقدار النصف فيعتبر ممتلئاً بالكامل -؛ فإن شموه، صاحب الحانة، يلفّ شاله الحريريّ الأزرق المخضر، والمطبوع، المطبوع عليه بصورة خاصة، وقد ذكرنا هذا لأن لفّ الشال انطوى على أهمية كبيرة. يمكن للمرء أن يطلق على النماذج المطبوعة على الشال تسمية البصل الذهبيّ الأصفر، فبعدما يتلفع شموه بهذا الشال يمكن القول بأن قبو البصل قد أفتتح.

كان ضيوف القبو من التجّار والأطباء والمحامين والفنانين وأيضاً من الممثلين المسرحيين والصحفيين ورجال السينما والرياضيين المعروفين وكبار موظفيّ الحكومة الإقليمية وإدارة المدينة، باختصار: كلّ ما يسمّى اليوم بالمثقفين؛ فكانوا يجلسون بصحبة عقيلاتهم وصديقاتهم

وسكرتيراتهم وفناناتهم التطبيقيات، أو بصحبة صديقاتهم من الرجال أيضاً، يجلسون على وسائد من الريش، يتحدثون فيما بينهم بصوت خفيض، وبعناء إلى حدّ ما، وبانقباض طالما لم يرتد شموه الشال الذي طبعت عليه صورة البصل الذهبيّ الأصفر، محاولين الدخول في حديث، لكنهم كانوا يفشلون، فيواصلون الكلام، بعيداً عن صلب المشكلة الحقيقة، على الرغم من نواياهم الصادقة، متطلعين إلى الترويح عن أنفسهم، وإلى التفريغ عن همومهم بصراحة، تواقين إلى إبقاء رؤوسهم خارج اللعبة بتلقائية، ليكشفوا الحقيقة الدامية والإنسان العاري - لكنهم عجزوا عن تحقيق ذلك. فاتضحت بين الحين والآخر ملامح مستقبل وظيفيّ زاهر ضاعت هباءً أو ملامح الحياة الزوجية المحطمة. فذلك السيّد القابع هناك برأسه الضخم الفطن ويديه الرقيقتين النحيفتين إلى حدّ ما، بدا متورطاً في مشاكل مع ابنه الذي لم يعجبه ماضيّ أبيه. أمّا السيّدتان المتلفعتان بالفراء، الوسيمتان تحت نور مصابيح الكربيد فقد فقدتا الإيمان أصلاً، لكن السؤال الذي بقيّ معلّقاً هو: بأي شيء فقدتا إيمانهما؟ فمازلنا لا نعلم شيئاً عن ماضي السيّد ذي الرأس الضخم، إذ أن الحديث لم يتعرّض إلى الصعوبات التي سببها الأب لابنه بسبب الماضي؛ فأصبح الأمر - وهنا يعتذر أوسكار عن التشبيه - مثل وضع البيض: حيث يضغط المرء ويضغط...

فكان المرء يضغط في قبو البصل بلا طائل، إلى أن يطلّ شموه، صاحب الحانة، بشاله المتفرّد، إطلالة قصيرة، مستقبلاً عبارة التنهّد المبتهجة «آه» العمومية بكلمة شكر، قبل أن يختفي بضع دقائق وراء ستار في طرف القبو، حيث المرحاض والمخزن، ليطلّ من جديد. لكن لماذا حيّت هذه «الآه» صاحب الحانة من جديد ببهجة أكثر من السابق، شبه متحررة، عندما قدم نفسه لضيوفه مرّة أخرى؟ كان صاحب حانة ليلية مرغوبة يختفي خلف ستار في طرف قبو البصل، فيلتقط حاجة ما، فيزجر بصوت قليل الارتفاع المرأة العاملة في المرحاض، حيث جلست هناك، تقرأ مجلّة مصوّرة، ثم يظهر من جديد أمام الستار، فيحيه الضيوف كما لو

أنه مسيح مخلّص، أو صانع معجزات عظيم. فكان شموه يظهر بين ضيوفه حاملاً على ذراعه سلّة، مغطاة بمنديل ذي مربعات زرقاء صفراء. وفوق المنديل رقدت ألواح خشبيّة صغيرة على أشكال خنازير وأسماك. هذه الألواح النظيفة اللامعة كان شموه، صاحب الحانة، يوزعها على ضيوفه، فيوفق حينئذ في الانحناء وإطلاق المجاملات المفصحة عن أنه قد أمضى شبابه في بودابست أو فيينا؛ فكانت ابتسامته تشبه نسخة مصورة عن نسخة ربما رسمها أحد ما عن النسخة الأصلية للموناليزا. بيد أن الضيوف كانوا يستلمون الألواح بجديّة، حتى أن البعض منهم يستبدلها بأخرى. فثمة من أحبّ المظهر الجانبي للخنزير، في حين آثر البعض - بالأخص عندما يتعلّق الأمر بسيّدة - السمكة الغامضة؛ آثرها على الخنزير العاديّ الأليف. ثم يبدءون بشم الألواح وزحزحتها وجذبها، بينما كان شموه، صاحب الحانة، الذي قدم خدماته للضيوف في الرواق أيضاً، ينتظر حتى تستقر الألواح.

حينئذ يهرع إلى إزاحة الغطاء - حيث انتظرته القلوب كلّها - بطريقة لا تختلف عما يفعله الساحر: لكن ثمة غطاء آخر أطبق على السلّة، استقرت عليه سكاكين مطبخ من الصعب التعرّف عليها من خلال النظرة الأولى. ومثلما الحال من الألواح، فإن شموه كان يطوف بالسكاكين، بيد أنه صار يطوف على عجل، مصعداً من حدّ الإثارة التي كانت تسمح له برفع الأسعار، مطلقاً الكثير من عبارات المجاملة، بحيث أنه لم يتح لهم استبدال السكاكين، إذ أن جرعة معينة من العجلة، سرت في حركاته، فيهتف «كلّ شيء جاهز، انتباه، فهيّا بنا!»، ثم ينتزع المنديل عن السلّة، ويمدّ يده، ليقوم بالتوزيع، فيوزع ويفرّق، متحولاً إلى سخيّ عطوف، يزوّد ضيوفه بما ملكت يده الندية؛ فصار يفرّق عليهم البصل ومن ثم البصل الذي رآه المرء مجسّداً أصفر ذهبياً على شاله، بصلاً عادياً، نبات درنيّ، لا يشبه بصيلات السوسن، بصلاً كالذي تشتريه ربّات البيوت، كالذي يغرسه الفلاّح أو الفلاّحة أو الخادمة ليُجمع فيما بعد، بصلاً مثلما يراه المرء مرسوماً بأمانة إلى هذا القدر أو ذاك في لوحات الحياة الصامتة «للأساتذة

الصغار» الهولنديين؛ فكان شموه يوزع هذه الأبصال أو ما يشبهها على ضيوفه إلى أن يصبح البصل بحوزة الجميع، حتى بات المرء لا يسمع سوى أزيز المدفئتين الأسطوانيتين وهسيس مصابيح الكربيد. هكذا كان الهدوء يسود عقب توزيع البصل - فيهتف فيرديناند شموه «تفضلوا! سيّداتي سادتي!» ثم يلقي بطرف شاله على كتفه الشمال مثلما يفعل المتزلج على الجليد قبل الانطلاق، مصدراً إشارة في الوقت ذاته. فيبدأ المرء بتقشير البصل. يقال إن البصل له ستة قشور. فيبدأ السادة والسيّدات يقشرون البصل بسكاكين المطبخ، منتزعين عنه جلده الأوّل فالثاني فالثالث فالأشقر فالأصفر الذهبيّ فالبنيّ الغامق، أو بالأحرى جلده البصلي، فيقشرون حتى يصبح البصل زجاجيّاً أخضر مبيضاً رطباً لزجاً سائلاً، ذا رائحة بصلية، ثم يقطعونه على ألواح الفرم مثلما يقطع المرء البصل، بمهارة أو بغير مهارة، على الألواح التي لها أشكال الخنازير والأسماك، منهمكين فرماً في هذا الاتجاه أو ذاك، حتى تتدفق عصائره أو حتى تبلغ عصائره الهواء بوجودها فوق البصل نفسه - توجبّ على السادة المسنين الذي لا يجيدون استعمال سكاكين المطبخ اتخاذ الحذر لئلا يحزّون أصابعهم؛ لكن البعض منهم حزّ أصابعه دون أن يعلم، في حين النساء أظهرن مهارة، ليس جميعهن، لكن أولئك اللواتي يمارسن دور ربّات البيوت في منازلهن؛ اللواتي عرفن كيف يُفرم البصل من أجل قلي اللحم مع البطاطس أو تحضر الكبد مع التفّاح وحلقات البصل؛ بيد أن تلك الأطعمة لم تكن موجودة في قبو شموه، بل ليس هناك ما يؤكل أصلاً، وكلّ من يرغب في تناول الطعام عليه أن يذهب إلى مكان آخر، إلى «فيشل» وليس إلى قبو البصل، حيث لا يفرم سوى البصل. لكن لِمَ كلّ هذه التفاصيل؟ لأن قبو البصل اسمه هكذا، ولأنه كان متميزاً، ولأن البصل، بل البصل المفروم، إذا ما نظر إليه المرء بدقّة. . . كلاّ، لم يستطع ضيوف شموه يبصرون شيئاً، أو أن بعضهم لم يعد يبصر قطّ، إذ أن الدموع سالت من أعين الضيوف، ليس لأن قلوبهم كان مترعة، إذ لا يجوز القول بأن العين يسيل دمعها على الفور إذا ما امتلأ القلب، لكن البعض لم يسفح الدمع أبداً، خاصةً خلال عقود السنوات

الأخيرة الغابرة، لذلك فإن قرننا سيسمى فيما بعد بالقرن الناشف الدموع، على الرغم من أنه شهد الكثير من المآسي في كلّ مكان - ولهذا السبب الخالي من الدمع بالذات أصبح الناس المتمكنون يذهبون إلى قبو شموه، حيث يقدم لهم صاحب الحانة ألواح فرم - بهيئة خنزير أو سمكة - وسكاكين مطبخ مقابل ثمانين فنكاً وبصلاً عادياً من المشتل مقابل اثني عشر ماركاً، فيقطعونه أرباً أرباً حتى تنزّ منه العصائر، فيحقق؛ يحقق ماذا؟ يحقق ما تعجز عنه مأساة العالم: الدمعة الإنسانية الكرويّة، فيبدأ البكاء. أخيراً يستطيع الناس البكاء مرّة أخرى. فيبكي الناس بأدب واسترسال حريّة. حينئذ تسحّ الدموع وتفيض، ثم يأتي المطر، ويسقط الندى. فتخطر صمّامات التصريف في ذهن أوسكار والتي يجب فتحها. تصدعات في السدّ بفعل فيضان عارم. فما هو اسم النهر الذي يفيض كلّ عام ولا تفعل الحكومة شيئاً إزاء الفيضان؟ بعد هذا المظهر الطبيعي يبدأ المرء الذي أجهش في البكاء بالتحدث لقاء اثني عشر ماركاً وثمانين فنكاً. ويتردد وبدهشة من اللغة المجردة العارية يفسح ضيوف القبو المجالَ لجيرانهم الجالسين على الوسائد غير المريحة المحشوة بالريش أن يستفسروا منهم إثر استمتاعهم بالبصل، فيقلبونهم مثلما يقلب المرء معطفا. لكن أوسكار الجاف الدمع القابع إلى جانب كليب وشوله تحت سلّم الدواجن الحلزوني كان يوّد التكتّم، بحيث أنه لا يودّ أن يورد هنا، من بين كلّ الإيحاءات، ولوم الذات، والإقرار بالخطايا، وهتك الأسرار، والاعترافات، سوى حكاية الآنسة «بيوخ» التي طالما فقدت سيّدها «فولمر»، فتحجر قلبها لهذا السبب ونشف الدمع في عينها، حتى صارت تأتي دائماً إلى قبو شموه الباهظ الأسعار.

قالت الآنسة بيوخ بعدما بكت بأنهما تعرّفا على بعضهما في الترام. كنت عائدة ساعتها من المحلّ - كانت تملك مكتبة ممتازة وتديرها أيضاً - فوجدت عربة الترام غاصّة بالركّاب، فبدأ فيلي - أي السيّد فولمر - يدوس على قدمي اليمنى. فأصبحت عاجزة عن الوقوف، ومنذ النظرة الأولى أحببنا بعضنا. ولأنني لم أكن قادرة على السير فقد عرض عليّ ذراعه،

فرافقني، أو بالأحرى حملني إلى البيت، ومنذ ذلك اليوم صار يعتني بظفر إصبعي الذي استحال لونه أزرق مسوداً تحت وطأة قدمه. لكن ما عدا ذلك فهو لم يبخل عليّ بحبّه إلى أن سقط ظفر إصبع قدمي الكبير بحيث لم أنه لم يعد حجرة عثرة أمام نمو ظفر جديد. ومنذ اليوم الذي سقط فيه الظفر الأصمّ خفت حبّه لي، فأصبحنا نعاني من الانكماش. لكن فيلي تقدم لي آنذاك باقتراح رهيب، إذ كان متعلقاً بي بشدّة، إضافة إلى الكثير من الأمور المشتركة بيننا: دعيني أدوس على الإصبع الكبير لقدمك اليسرى حتى يصبح أحمر أزرق ومن ثم أزرق مسوداً. فاستجبت له، ففعل ما أراد، فصرت أتمتع على الفور بحبّة الكامل، وبقيت استمتع به إلى أن سقط الظفر اليسار من إصبعي الكبير مثلما تسقط ورقة ذابلة، فعاش حبّنا الخريفَ للمرّة الثانية. أمّا الآن فإن فيلي يريد أن يسحق مجدداً على ظفر إصبعي اليمين والذي نما للتو، غير أنني لم أسمح له بذلك. فقلت له: إذا كان حبّك كبيراً حقّاً فعليه أن يدوم أكثر من ظفر إصبع. لكنه لم يفهمني، فهجرني. بعد شهور التقينا في صالة الحفلات الموسيقية. أثناء الاستراحة جلس إلى جانبي مباشرة دون سؤال أو جواب، لأن المقعد كان شاغرا. عندما بدأت الجوقة الأناشيد تترنم في السيمفونية التاسعة مددت له قدمي اليمنى التي خلعت عنها الحذاء قبل لحظة، فسحق عليها دون أن يشوّش على الحفلة الموسيقية. بعد سبعة أسابيع تخلّى عنّي فيلي مرّة أخرى. لكننا امتلكنا بعضنا مرتين لمدة بضعة أسابيع، إذ أنني قدمت له إصبعي قدميّ الكبيرين مرّتين، في البدء قدميّ اليسرى ثم اليمنى. واليوم فإن إصبعي أصبحا كسيحين، إذ أن الأظفار توقفت عن النمو. فأصبح فيلي يزورني بين الحين والآخر، ليجلس قبالتي على البساط ويحدّق في ضحيتيّ حبّنا الخاليتين من الأظفار، يحدّق بحزن، ويتعاطف معي ومع نفسه، لكن بلا حبّ أو دموع. أحياناً كنت أقول له: تعالَ يا فيلي؛ دعنا نذهب إلى قبو بصل شموه، لنبكي بكاءً صادقا، لكنه لم يأت معي إلى يومنا هذا. فالمسكين لا يعلم شيئاً عن الدمعة المواسية العظيمة.

وأخيراً - إن أوسكار يفشي السرّ هنا ليرضي الفضوليين منكم - جاء

السيّد فولمر الذي كان تاجراً لأجهزة المذياع، جاء إلى القبو، وأخذا ينتحبان معاً، كما أنهما قد تزوّجا قبل فترة قصيرة مثلما أبلغني كليب يوم الأمس أثناء زيارته لي. وعلى الرغم من مأساة الوجود الإنساني بدأت تتضح على أكمل وجه إثر التلذذ بالبصل من يوم الثلاثاء حتى السبت - كان قبو البصل يقفل في يوم الأحد -؛ فإن يوم الاثنين يبقى مقتصراً على أولئك الضيوف الباكين بعنف، وإن كان خالياً من المأساوية، ففي يوم الاثنين تكون الأسعار زهيدة، بحيث أن شموه يوزّع البصل على الشباب بنصفّ السعر. فحتى طلاّب أكاديمية الفنون، لاسيما أولئك الذين سيصبحون معلمين للرسم، كانوا ينفقون جزءاً من منحهم الدراسية على البصل. لكنني أسأل نفسي اليوم من أين كان طلاّب الثانوية وطالباتها يأتون بالنقود لإنفاقها على البصل؟

كان الشبّان يبكون بطريقة مختلفة عن المسنين، فالشبّان لهم مشاكل مختلفة تماماً، ليس لها بالضرورة علاقة بهموم الامتحانات أو الشهادة الثانوية. بالطبع كان قبو البصل يشهد قصص الآباء والأبناء ومآسي الأمهات والبنات. لقد شعر أوسكار بالفرح لأن الشباب كانوا، ومازالوا، يبكون من أجل الحبّ، وليس فقط من أجل ممارسة الحبّ. فغيرهارد وغودرون: كانا يجلسان في الأسفل أوّل الأمر، ثم بكيا معاً في الرواق. وكانت غودرون طويلة، قويّة البنية، تلعب كرّة اليدّ، وتدرس الكيمياء، وتعقد شعرها إلى قفاها. فبدت جدباء رماديّة، ومع ذلك مشبعة بعاطفة الأمومة مثلما كان المرء يرى طوال أعوام ملصقات التنظيم النسائي قبل انتهاء الحرب، عندما تنظر غالباً إلى الأمام باستقامة نظرةً لا تشوبها شائبة. ومثلما كان جبينها لبنيّ الشكل منحنياً بنعومة ونقاوة؛ فإنها حملت تعاستها بوضوح على وجهها، فخلّفت لحية رجولية نبتت في الحنك الصلب المستدير، شاملةً الخدّين معها، بحيث أن المرأة التعيسة الحظّ كانت تضطر دوماً إلى إزالتها؛ خلفت آثاراً سيئة، إذ أن جلدها الناعم لم يتحمل شفرة الحلاقة. فأضحت غودرون تذرف الدمع بسبب النكد الملتهب احمراراً، المتقيّح المليء بالبثور الذي نبتت فيه اللحية النسائية. لقد قدم

غيرهارد متأخراً إلى قبو البصل. ولم يكن غيرهارد وغودرون قد تعرّفا على بعضهما في الترام مثل السيّد فولمر والآنسة بيوخ، إنما في القطار، حيث جلس قبالتها عندما رجعا معاً بعد انقضاء العطلة الدراسية. فوقع غيرهارد في حبّها مباشرة، على الرغم من لحيتها، لكنها لم تجرؤ على حبّه بسبب هذه اللحية بالذات، بل أبدت إعجابها بحنكه الأملس مثل مؤخرة الطفل، مع أن مصيبته كمنت هنا، فهذا الشاب كان أحصّ اللحية، فجعله ذلك يستحي من الفتيات. ومع ذلك بادر غيرهارد بالتحدث إلى غودرون، وبعدما ترجلاً في محطة دوسلدورف الرئيسية، فأقاما على الأقل علاقة بينهما. ومنذ رحلة القطار تلك أصبحا يلتقيان كلّ يوم، فيتكلمان عن هذه المسألة أو تلك، متبادلين بعضاً من أفكارهما، بيد أنهما لن يأتيا قطّ على ذكر اللحية الناقصة أو اللحية النامية باطراد. كذلك رحم غيرهارد بغودرون فلم يهمّ بتقبيلها بسبب جلدها المعذّب. فبقيت عفيفة في حبّها، على الرغم من أنهما لم يعرا أهمية للعفّة، إذ أنها كانت متمسّكة بالكيمياء أمّا هو فقد أراد أن يصبح طبيبا. حين نصحهما صديق مشترك بالذهاب إلى قبو البصل، ابتسما بازدراء، متشككين كما هم الأطباء والكيميائيون عادةً، لكنهما ذهبا أخيراً، لكي يجريا بعض الدراسات، مثلما أكّدا لبعضهما. بيد أن أوسكار لم يرى شبّاناً يبكون بتلك الحرارة مثلهما. فصارا يأتيان باستمرار ، مقترين على أنفسهما ليوفرّا الماركات الستة، إضافة إلى الأربعين فنكاً، ليتباكون على اللحية الناقصة أو على اللحية التي خربت جلدّ الفتاة الناعم. أحياناً كانا يتجنبان قبو البصل يوم الاثنين، إلا أنهما يأتيان في يوم الاثنين الذي يعقبه، ليبوحان منتحبين، وهما يفركان البصل المفروم بأصابعهما، بأنهما وفّرا الماركات الستة والأربعين فنكاً؛ وقد حاولا في غرفتهما الطلاّبية أن يفعلا الشيء ذاته بواسطة البصل الزهيد السعر، لكن التأثير لم يكن مثلما هو في قبو البصل، إذ أن المرء يحتاج إلى منصتين، فالبكاء وسط المجتمع يكون أكثر سهولة. بلا شكّ أن المرء لا يتوصل إلى الشعور الجماعيّ الحقيقي إذا لم يبك زملاؤه من هذه الكلّية أو تلك، أو حتى طلاّب الأكاديمية أو الثانويّة المنتحبين على اليمين وعلى

الشمال وفي أعلى الرواق. ففي حالة غيرهارد وغودرون فإنهما لم يسفحا دمعهما فحسب، بل شفيا شيئاً فشيئا. فربما اكتسح ماء العيون حياءهما، فاقتربا من بعضهما كما يقال، فبدأ يقبّل جلدها المنهك، وأصبحت تستمع بجلده الناعم، فتوقفا ذات يوم عن المجيء إلى قبو البصل، إذ أنهما لم يريا ضرورة في المجيء. كان أوسكار قد التقى بهما بعد شهور عديدة في كونغس أليه، فلم يتعرّف عليهما في البدء: إذ حمل غيرهارد الناعم الجلد لحية حمراء شقراء متبخترة، بينما لم تظهر غودرون المحببة الجلد أكثر من زغب دقيق خفيف السمار فوق شفتها العليا، فبدا متناسقاً تماماً مع معالم وجهها، في حين لمع حنك غودرون وخدّاها بنعومة خالية من النباتات. كان مظهرهما يشبه مظهر زوجين دارسين - فسمع أوسكار غودرون تخاطب أحفادها بعد خمسين عاماً: «حدث ذلك حين كان جدّكم بلا لحية»، فيضيف غيرهارد: «حدث ذلك عندما كانت جدّتكم تعاني من نمو في لحيتها، فصرنا نذهب كلّ اثنين إلى قبو البصل.»

ولعلّكم ستسألون لماذا بقي الموسيقيون الثلاثة جالسين تحت سلّم البواخر أو سلّم الدواجن؟ فهل أن محلّ البصل سيكون بحاجة إلى الموسيقى الحقيقية الموظفّة بصورة دائمة بعد كلّ هذا البكاء والعويل وطقطقة الأسنان؟ فكّنا نهرع إلى آلاتنا الموسيقية حالما يفرغ الضيوف من النحيب والبوح، فنزودهم بهمزة الوصل، ليخوضوا في الأحاديث اليومية، مسهلين عليهم عملية الخروج من قبو البصل، لكي يحلّ ضيوف جدد في محلهم. كان كليب وشوله وأوسكار محصنين ضد البصل. فضلاً عن أن بنداً من بنود عقد العمل مع شموه حرّم علينا نعمة الاستمتاع بالبصل بالطريقة ذاتها التي كان الضيوف يستمتعون بها، ثم أننا لم نكن في الواقع بحاجة إلى البصل. فشوله، عازف القيثارة، لم يكن لديه أي باعث للشكوى، فكان المرء يراه سعيداً دائماً مرتاحاً، حتى لو أنقطع وتران تحت أصابعه أثناء عزف موسيقى الجاز الخفيفة على آلته البانجو. أمّا صديقي كليب فإن مصطلحات البكاء والضحك مازالت بالنسبة له غير واضحة إلى يومنا هذا، فكان يجد البكاء طريفاً مضحكا. إنني لم أره مرّةً يضحك من

كلّ قلبه مثلما فعل أثناء تشييع خالته التي كانت تغسل له قمصانه وجواربه.
لكن كيف بدا الأمر مع أوسكار؟ كان أوسكار يمتلك في الواقع أسباباً كافية للبكاء. ألم يكن حريّاً به أن يكتسح الممرضة دوروتيا في ليلة طويلة ضائعة وعلى حصيرة ليف أطول منها؟ وماريا؟ ألم تشكلّ له باعثاً للشكوى؟ ألم يكن ربّ عملها، شتنتسل، يسرح ويمرح في بيتها الواقع عند بلكه؟ ألم يخاطب ولدي كورت تاجرَ الأطعمة الفاخرة الذي كان يعمل عملاً إضافياً في الحفلات التنكرية بلقب «عمّي شتنتسل» ومن ثم «بابا شتنتسل؟» وخلف ماريا ألا ترقد تحت الرمال البعيدة المغرية لمقبرة سازبه أو تحت طين مقبرة برنتاو؟ : أمّي المسكينة والأحمق يان برونسكي والطاهي ماتسرات الذي كان يحيل المشاعر إلى حساء؟ - لقد كان حريّاً بي أن انتحب على هؤلاء كلّهم. بيد أن أوسكار كان ينتمي إلى أولئك السعداء القليلين الذين يسفحون الدموع بلا بصل. فكان طبلي يعنيني على ذلك، فبضعة إيقاعات محددة تجعل أوسكار يذرف دمعه الذي لم يكن أسوأ، أو أجود من الدموع الغالية لقبو البصل.

كذلك شموه صاحب الحانة، فهو لم يضع يده على البصل أبداً، إذ أنّ العصافير التي يطلق عليها نيرانه في أوقات فراغه وهي في الأحراش والأجمة كانت تمثّل له تعويضاً تاماً عن البكاء. لكن أما كان الدمع كثيراً ما يترقرق في مآقي شموه حالما يجندل العصافير الإثني عشر فيصفّها على الجريدة فتبدو أحياناً دافئة الريش، ثم يقوم بنثر طعام الطيور على حصى الضفاف ومروج الراين وهو مستغرق في البكاء؟ فثمة إمكانية ثانية للتنفيس عن كربه قدمها له محلّ البصل. فكان من عادته أن يزجر عاملة المراحاض شرّ زجر مرّة في الأسبوع، مطلقاً عليها صفات، قديمة في الغالب، من قبيل: قحبة، داعرة، متهتكة، لعينة، مشؤومة! ثم كنّا نسمع شموه يزعق بها «اذهبي عنّيّ! اغربي عن وجهي يا كريهة» فيطرد عاملة المرحاض فوراً، ويعيّن عاملة أخرى بدلها، بيد أنه سرعان ما يدخل في مشكلات معها بعد مدّة قصيرة،، وبفعل عدم توفّر الكثير من عاملات المراحيض فإنه كان يسّلم المهمة للنساء اللواتي طردهن مرّة أو مرّات عديدة. إلا أن عاملات

المراحيض، اللواتي لم يفقهن القسم الأعظم من شتائم شموه، كنّ يرجعن بسرور إلى قبو البصل؛ لأنهم كنّ يتقاضين أجوراً جيّدة؛ إذ البكاء هنا كان يحثّ الناس إلى زيارة المرحاض الصموت أكثر من الحانات الأخرى. فضلاً عن أن الإنسان الباكي يكون عادةً أكثر كرماً من الإنسان الناشف العينين. بالأخص السادة ذوو الوجوه المحتقنة المائعة المتورمة الذين كانوا ينسحبون «إلى الخلف»، حيث يجزلوا العطاء للعاملات. ثم أن عاملات المراحيض كنّ يبعن لضيوف القبو مناديل الجيب المعروفة، المكتوب عليها بشكل قطريّ عبارة «في قبو البصل». كان منظر تلك المناديل طريفاً؛ فهي لم تستخدم لتجفيف الدموع فحسب بل بمثابة مناديل للرأس. فأصبح السادة الضيوف يحيلون المربعات الملوّنة إلى بيارق مثلّثة ثم يعلقونها في النوافذ الخلفية لسيّاراتهم، ويحملون معهم قبو بصل شموه في رحلاتهم إلى باريس أو «الشاطئ الأزرق» أو روما أو «رافينا» أو «ريميني» أو حتى إلى أسبانيا البعيدة.

وثمة مهمّة أخرى وقعت على كاهلنا نحن الموسيقيين: أحياناً كان بعض الضيوف يفرم بصلتين واحدة تلو الأخرى مباشرة، فيحدث ثوران في قبو البصل يمكن أن ينتهي ببساطة إلى حالة من المجون والعربدة. فمن ناحية لم يكن شموه يحبّ الانفلات فكان يأمرنا حالما يخلع بعض السادة رباطه وتعبث بعض النسوة بثيابها بعزف الموسيقى بالتصديّ لبوادر الخلاعة؛ لكن من ناحية ثانية فإن شموه نفسه هو الذي كان يمهد كلّ مرّة طريق المجون إلى حدّ معين عندما يزوّد الضيوف الميّالين بصورة خاصة إلى الخلاعة ببصلة ثانية إثر البصلة الأولى مباشرة. غير أن أكبر حالة انفلات شهدها قبو البصل، على حدّ علمي، كانت تلك التي خلّفت بصمات واضحة على نفسية أوسكار، وإن لم تشكّل نقطة تحوّل جذرية في حياته. كانت السيّدة بيلي، عقيلة شموه الهائمة حبّاً بالحياة، قليلة التردد على قبو البصل، وإن أتت، فبصحبة أصدقاء لم يكن شموه يحبّ رؤيتهم. ذات مساء جاءت بصحبة «ووده» الناقد الموسيقي والمهندس المعماريّ ومدخّن الغليون فاكرلاي. كان هذان السيّدان من زبائن القبو الدائمين،

لكنهما حملا همّا مضجراً بما لا يطاق، فكان وده يبكي لأسباب دينية، لأنه أراد أن يغيّر دينيه، أو أنه غيّره، وربما غيّر دينه للمرّة الثانية؛ بينما كان فاكرلاي يبكي حسرة على وظيفة أستاذ رفضها في سنوات العشرينات من أجل امرأة دنماركية غريبة الأطوار، بيد أن الدنماركية اختارت رجلاً أمريكياً جنوبياً، أنجبت منه ستة أطفال، فشعر فاكرلاي بالإهانة، مما جعل غليونه ينطفئ كلّ مرّة من جديد. كان وده الخبيث بعض الشيء هو الذي أقنع عقلية شموه بفرم رأس بصل، ففعلت ما نصحها به، فسالت دموعها وبدأت تفرغ ما في جعبتها، فعرّت شموه، صاحب الحانة، تعرية تامة، راويةً قصصاً يحجم أوسكار عن ذكرها حشمةً وأدباً، فاحتاج الأمر إلى رجال أشدّاء حين همّ شموه بالهجوم على عقيلته؛ إذ أن سكاكين المطابخ كانت منتشرة على الطاولات، فأستوقف الرجل الغاضب حتى اختفت بيلي الطائشة مع صاحبيها وده وفاكرلاي. وبدا شموه منفعلاً مبهوتاً، وقد لمحت ذلك عبر يديه المحلقتين المنشغلتين بتسوية شال البصل بلا انقطاع. ثم اختفى عدّة مرّات وراء الستارة، حيث زجر عاملة المرحاض، وعاد أخيراً بسّلة ملآنة، معلناً للضيوف بتشنج ومبالغة بأنه، شموه، وصل إلى حالة من السخاء، وسيتبرع مجاناً بوجبة من البصل، وقد قام فعلاً بتوزيعها على الفور. فتطلع إليه حينئذ حتى كليب نفسه الذي كان يستمتع برؤية أي مشهد إنسانيّ محرج كما لو أنه يستمتع بدعابة ممتازة، فدفعه ذلك إلى التأمل، بل إلى حالة من التوتر، فأمسك بنايه متأهبا. لقد كنّا نعلم بحجم الخطورة التي يترتب عنها فسح المجال أمام المجتمع المرهف المشاعر المهذب للبكاء المنفلت مرتين متتاليتين.

لكنّ شموه الذي رآنا متأهبين لعزف الموسيقى منعنا من العزف، فبدأت سكاكين المطابخ تمارس عملية الفرم على الطاولات، حيث أزيحت القشور الأولى الجميلة الوردية وأبعدت غفلةً إلى الجانب، فسقط لحم البصل المزجج بشرائحه الشاحبة الاخضرار تحت أنصال السكاكين. ومما أثار الدهشة هو أن النساء لم يبدأن البكاء، بل أن السادة الذي كانوا في أفضل أعمارهم مثل صاحب المطحنة الكبيرة وصاحب الفندق مع صديقه

المتزين بأصباغ خفيفة والوكيل العام المنتمي إلى طبقة النبلاء، إضافة إلى طاولة مليئة برجال صناعة الملابس الرجالية المتواجدين في المدينة بمناسبة اجتماع مجلس الإدارة، والممثل الأصلع الذي كنّا نسميه العضّاض؛ لأنه كان يصرّ على أسنانه أثناء البكاء، هم الذين سالت دموعهم، قبل أن تهب السيّدات لإعانتهم على النحيب. إلا أن السيّدات والسادة لم يستبد بهم البكاء المنقذ الذي تولده البصلة الأولى، بل كانت تداهمهم نوبات حادة من النحيب والبكاء: فيصرّ العضّاض على نواجذه بشكل رهيب، عارضاً نفسه باعتباره ممثلاً قادراً على جعل جمهور المسرح يصّرون على أسنانهم، ويأخذ صاحب المطحنة الكبيرة ذو الرأس الأشيب المعتني به يهوي برأسه على الطاولة بين الحين والآخر، في حين يخلط صاحب الفندق نحيبه بنحيب صاحبه الرشيق القوام، فيعلّق شموه الواقف عند السلّم شاله، ويراقب الجمع المنفلت إلى حدّ ما بتشنج لا يخلو من المتعة؛ ثم تمزّق سيّدة عجوز بلوزتها أمام زوج ابنتها. فجأة يقف صاحب صاحب الفندق الذي تجلّت قبل حين سماته الشاذة بعض الشيء، يقف على هذه الطاولة ومن ثم على الطاولة التي بعدها بصدر بنيّ طبيعيّ عار، فيرقص مثلما يرقص الناس في المشرق، معلناً عن بدء الحفلة الماجنة التي كانت تبدأ عنيفة في الواقع، إلا أنها لا تستحق الوصف المفصّل بسبب انعدام الإلهام والابتكار أو بسبب سطحيتهما المبتسرة. فلم يخب ظن شموه وحده، إنما كان أوسكار يرفع حاجبيه من فرط الملل. فثمّة مشاهد تعرّ ظريفة، وكان بعض السادة يتلفع بسراويل النساء الداخلية، ثم يهجم شعب النساء على الأربطة الرجالية وحمّالات السراويل، وكان بعض الأزواج يختفي أسفل هذه الطاولة أو تلك، ويمكن في هذا السياق ذكر العضّاض الذي مزّق بأسنانه مشّد ثديين امرأة، ثم لاكه، بل ابتلع جزءاً منه.

ولعلّ هذا الصخب المرعب، أي هتافات «الياهووووه» و«الأوهاها» التي لم تختف وراءها أيّ غاية تقريباً، حدا بشموه الخائب الظن إلى التخليّ عن مكانه عند السلّم، ربما خشية من الشرطة. فانحنى أمامنا حيث قرفصنا أسفل سلّم الدواجن، فدفع كليب أوّلاً ثم دفعني بيده وفحّ قائلاً:

«موسيقى! هيّا اعزفوا! موسيقى لكي ننتهي من التكلّف والفخفخة!» فاتضح بأن كليب القنوع وجد متعته ما، فصار يختضّ بفعل القهقهة حتى أنه لم يعد قادراً على تناول نايه. أمّا شوله الذي كان يري في كليب أستاذاً له فقد أخذ يقلّد كل ما قام به كليب، بما فيه القهقهة. فلم يبق سوى أوسكار - وعليّ كان شموه يتكّل. فاستللت طبل الصفيح من تحت المقعد، ثم أشعلت لنفسي سيجارة، وبدأت أطبل، متفاهماً مع الطبل بلا خطّة، متناسياً جميع أصناف موسيقى الحانات الروتينية. فلم يعزف أوسكار موسيقى الجاز، كما أنني لم أحبّ أن يراني الناس عازف إيقاع سريعاً متعجلا. وحتى لو بدوت طبّالاً ضليعاً؛ فإنني لم أكن موسيقي جاز من الصميم. فكنت أحبّ الجاز مثلما أحبّ موسيقى الفالس القادمة من فيينا، وقادراً على عزف هذين النمطين من الموسيقى، لكنني لم أفعل. عندما طلب منّي شموه إنزال طبلي إلى الحلبة؛ فإنني لم أعزف ما كنت قادراً على عزفه، إنما عزفت ما عرفه بقلبي؛ فنجحتُ في دسّ المضربين بيد أوسكار ذي الأعوام الثلاثة زمانا، فطبّت دروباً قديمة جيئة وذهاباً، كاشفاً عن العالم من زاوية نظر الطفل ذي الأعوام الثلاثة، رابطاً مجتمع ما بعد الحرب العاجز عن ممارسة الخلاعة والمجون الحقيقيين باللجام أوّل الأمر، بمعنى أنني قدته معي في شارع بوزادوفسكي، في روضة أطفال العمّة كاور، فأخذت المجتمعين بعيداً، إلى أن تهدلت فكوكهم السفلية، وصاروا يمسكون بأيديّ بعضهم منتظرين المغرر بهم. فغادرت موضعي أسفل سلّم الدواجن، وأصبحت في المقدمة فقدمت للسيّدات والسادة في البدء نموذجاً صغيراً من أنشودة «اخبز، اخبز الكعك»، ثم أدخلت الفزع العظيم في قلوبهم، بعدما حسبت المرح الطفولي الذي ران على وجوههم نجاحاً، أردفت بالتطبيل أنشودة: «هل حضرت الطاهية السوداء؟» التي كانت تخيفني أحياناً في الماضي ومازالت تخيفني اليوم أكثر فأكثر، فتركتها تهدر صاخبة هائلة الجسد، لا يحيط بها البصر، سوداء كالفحم، متوصلاً إلى ما توصل إليه شموه بالبصل: أي أنني جعلت السيّدات والسادة ينتحبون كالأطفال، بدموع تسحّ ساخنة، ملؤهم الخوف، متوسلين بي

الرحمة وهم يرتعشون، فطبلت لكي أهدأ خواطرهم، ولكي أساعدهم أيضاً على ارتداء ثيابهم وسراويلهم الداخلية المنسوجة من القطيفة والحرير: «خضراء، خضراء، خضراء هي ثيابي كلّها» أو «حمراء، حمراء، حمراء هي ثيابي كلّها» وكذلك «صفراء، صفراء، صفراء. . .»، فأتيت على الألوان جميعها وأطيافها، إلى أن وجدت نفسي أقف في مواجهة مجتمع ذي كساء مهندم أنيق، فصففت أطفال الروضة في موكب منتظم وقدتهم عبر قبو البصل كما لو أنه شارع يشكنتال، كما لو أنهم سيتسلقون أيربسبيرغ، ثم طفت بهم حول تمثال غوتنبيرغ الموحش المخيف، كما لو أن زهور الربيع الحقيقية زهت في مروج يوحنّا، فاستطاع السادة والسيّدات قطفها بفرح طفولي. وسمحت للحاضرين جميعهم، ومن ضمنهم شموه صحاب الحانة، أن يخلّفوا ذكرى في ذلك حول مساء روضة الأطفال الذي انقضى باللهو، فسهلت عليهم المهمة، مستنطقاً طبلي - كنّا وصلنا إلى الخرطوم الشيطاني المظلم، حيث جمعنا ثمر الزان - الآن بإمكانكم أن تفعلونها أيها الأطفال: فقضوا حاجتهم الطفولية، فتبولوا كلّهم، السادة والسيّدات تبوّلوا، وشموه، صاحب الحانة، تبّول، وصاحباي كليب وشوله تبوّلا، وحتى عاملة المرحاض البعيدة تبوّلت، مصدرين صوت سقوط البول «بسبسبسبس»، فبللوا سراويلهم، ثم قبعوا ينصتون إلى أنفسهم. وبعدما تلاشى صوت الموسيقى - رافق أوسكار فرقة الأطفال الموسيقية مخففاً من حدّة طبله - ثم انتقلت بضربة مباشرة عملاقة إلى مرح طاغ. فأرشد المجتمع المتهلل غبطة، المكركر، المثرثر بفم طفوليّ أحمق إلى مشجب الملابس في البدء، حيث زوّد طالب ملتح ضجر ضيوف شموه الصبيانيين بالمعاطف؛ أرشدتهم عبر أنشودة:

زجاج، زجاج، زجيّج،
بيرة بلا سكّرٍ،
والسيدة هوله تفتح الشبّاك
وتعزف على البيانو. . .

ورافقت السيّدات والسادة بقرع لحن الأغنية المحببة «من يحبّ رؤية الغسّالات المجتهدات؟» حتى سلّم الخرسانة، إلى الخارج، مروراً بالبّواب ذي الجبة الصوف. فتركت السيّدات والسادة الذين واصلوا ممارسة العبث الصبيانيّ وقتاً طويلاً في المدينة القديمة تحت سماء الربيع الباردة الخرافية كما لو أنها قد وصيّ بها توصية في العام الخمسين، لكنهم لم يجدوا طريقهم إلى بيوتهم، حتى أعانتهم الشرطة على تذكّر أعمارهم ومتربتهم الاجتماعية وأرقام هواتفهم. ولكنني عثرت على أوسكار مقهقهاً، مداعباً طبله، متخلفاً في القبو، حيث واصل شموه التصفيق، بسروال مبلول وقدمين متعاكستين كعلامة الضرب، واقفاً إلى جانب سلّم الدواجن، فبدا كما لو أنه شعر بالارتياح أيضاً لروضة العمّة كاور مثل شعوره وهو يطلق الرصاص على العصافير في مروج الراين بصفته شموه البالغ.

على ساتر الأطلسي،
أو المخابئ التي لا تستطيع التحرر من خرسانتها

لقد أردت في الواقع مساعدة شموه صاحب قبو البصل. لكنه لم يغفر لي عزفي المنفرد على الطبل الذي أحال ضيوفه المتمكنين من الدفع بسخاء إلى أطفال يضجون باللغط، مرحين لا يعكر صفوهم شيء، متبولين على أنفسهم، وباكين لهذا السبب، لكن بدون بصل. فحاول أوسكار أن يتفهم موقفه. أفلا يخشى من منافستي له بعد أن بات الضيوف يزيحون دائماً البصل السحيق القدم المسيل للدموع إلى الجانب، ليطالبوا بأوسكار وطبله، ليطالبوا بي أنا الذي استحضرت طفولة كلّ ضيف مهما بلغ سنّه؟ وحين كانت إجراءات الطرد تقتصر على عاملات المراحيض حتى ذلك الوقت؛ فإن شموه طردنا، نحن، فرقته الموسيقية، وعين بدلنا عازف كمان واقف يمكن أن يحسبه المرء غجرياً، مع شيء من الاعتذار.

لكن بعدما آثر عدد كبير من أفضل الضيوف الابتعاد عن قبو البصل إثر طردنا وجد شموه نفسه مضطراً عقب أسابيع قليلة إلى القبول بحلّ وسط يقوم على: أن يعزف صاحب الكمان ثلاث مرّات في الأسبوع، ونعزف نحن ثلاث مرّات أسبوعياً، فطالبنا بأجرة مقطوعة بلغت عشرين ماركا، إضافة إلى البقشيش الذي كان ينهال علينا بكثرة - ففتح أوسكار دفتر توفير في المصرف، وفرح بما سيدرّه عليه من فائدة نقدية. فعنّ لهذا الدفتر أن يصبح عوناً لي أيّام الشدّة التي داهمتني بعد مدّة قصيرة، إذ أن الموت جاء، فانتشل منّا فيرديناند شموه، صاحب الحانة، إضافة إلى عملنا ورزقنا.

لقد ذكرت سلفاً بأن شموه كان يصطاد العصافير، وأحياناً كان

يصطحبنا معه في سيارته المرسيدس، متيحاً لنا فرصة رؤيته وهو يطلق النار على العصافير. فعلى الرغم من المشادات التي نشبت أحياناً بسبب طبلي والتي عاني منها كليب وشموه اللذان كانا يقفان دائماً إلى جانبي؛ فإن العلاقة بين شموه وموسيقييه كانت علاقة ودّية، إلى أن جاء الموت كما ذكرت. فركبنا في السّيارة، حيث جلست عقلية شموه خلف المقود كعادتها، وجلس كليب إلى جوارها، بينما توسط شموه أوسكار وشوله. كان شموه يضع بندقيته ذات العيار الخفيف على ركبتيه، ويتحسسها بين الحين والآخر. فسرنا حتى أصبحنا على مقربة من كايزرسفيرت. ثمة خلفية من الأشجار على ضفتي نهر الراين. لقد بقيت عقيلة في السيّارة تتصفح جريدة. كان كليب قد اشترى قبل قليل زبيباً، فصار يتناول منه بانتظام إلى حدّ ما. أمّا شوله الذي درس فرعاً ما في الجامعة قبل أن صبح عازف قيثارة فقد أجاد إلقاء القصائد حول نهر الراين عن ظهر قلب. وعرض الراين نفسه من ناحية شعرية أيضاً، إذ جرف معه، إضافة إلى القوارب المجرورة المألوفة، أوراق خريفية متراقصة في اتجاه «دوسبورغ» على الرغم من أن الفصل كان صيفاً حسب التقويم؛ ولو لم تقل بندقية شموه الخفيفة العيار عبارتها الصغيرة بين الحين والآخر، لأصبح ممكناً نعت المساء الذي أمضيناه قرب «كايزرسفيرت» باعتباره مساءً آمناً سلميّا.

وبعدما انتهى كليب من زبيبه، ومسح أصابعه في الحشائش، فرغ شموه أيضاً من عمله، فألقى إلى جانب كرات الريش الإحدى عشرة الباردة الممدة على ورق جريدة بالعصفور الثاني عشر الذي مازال يرتعش حسب تعبير شموه نفسه. حين لمّ الصيّاد غنيمته - كان شموه يحمل معه ما يصطاده إلى البيت لأسباب لا يعلم بها أحد - حطّ عصفور على جذع ملقى به على الشاطئ بالقرب منّا، وقد فعل ذلك بشكل ملفت للأنظار؛ كان عصفوراً رمادياً يعتبر نموذجاً مثالياً بالنسبة لشموه الذي لم يستطع مقاومة رغبة الاستحواذ عليه؛ فأطلق شموه الرصاص على العصفور الثالث عشر؛ شموه الذي لم يجندل أكثر من اثني عشر عصفوراً أبداً، وما كان له أن يفعل ذلك.

وبعدما مهّد العصفور الثالث عشر إلى جانب الإثني عشر، عدنا أدراجنا، فوجدنا عقيلة شموه غافية في المرسيدس السوداء. وكان شموه أوّل من ركب في الأمام، فتبعه شوله ثم كليب في الخلف. وكان بإمكاني الصعود معهم، لكنني لم أصعد، فقلت بأنني أحبّ التجوال قليلاً، وسأستقل الترام، فلا داعي أن يضعوني في نظر الاعتبار، فانطلقوا في اتجاه دوسلدورف من دون أوسكار الذي لم يركب السيّارة عن حكمة وتبصّر. فتبعت مسارهم على مهل، لكنني لم أحتج إلى المضي بعيداً، فثّمة تحويلة بسبب أعمال طرق، فكانت التحويلة مرّت بمحاذاة حفرة حصى. وفي حفرة الحصى هذه الواقعة على عمق سبعة أمتار تحت مستوى الشارع رقدت سيارة المرسيدس السوداء وعجلاتها مقلوبة إلى الأعلى. فقام عمال حفرة الحصى بسحب الجرحى الثلاثة ومعهم جثّة شموه، عندما كانت سيارة الإسعاف في الطريق. لقد نزلت في الحفرة، فامتلأ حذائي بالحصى الصغيرة، واعتنيت قليلاً بالجرحى ولم أقل لهم بأن شموه مات عندما طرحوا الأسئلة على الرغم من جراحهم. كان شموه ينظر بجمود ودهشة إلى السماء التي أطبقت الغيوم على ثلاثة أرباعها. وكانت الجريدة التي لفّت بها غنيمة مسائه قد قذفت إلى الخارج بفعل الصدمة، فأحصيت اثني عشر عصفوراً، ولم أعثر على العصفور الثالث عشر، لكنني بقيت أبحث عنه حتى بعدما مررت سيارة الإسعاف عبر حفرة الحصى.

كانت إصابات عقيلة شموه وكليب وشوله إصابات خفيفة، عبارة عن كدمات وبعض الكسور في الضلوع. وحين قمت فيما بعد بزيارة كليب في المستشفى وسألته عن سبب الحادث روى لي قصّة غريبة فقال: أثناء مرورهم بحفرة الحصى وهم يسيرون ببطء بتأثير شارع التحويلة، خرج مائة، بل مئات من العصافير، منطلقة من الأجمة والأحراش وأشجار الفاكهة، فألقت بظلها على سيارة المرسيدس، واصطدمت بالزجاجة الأمامية، فأرعبت عقيلة شموه، فتسببت بموت شموه صاحب الحانة عبر قوتها العصفورية وحدها.

وبغض النظر عما إذا سيأخذ المرء بحكاية شموه أم يتجاهلها، فإن أوسكار بقي متشككاً، لاسيما أنه لم يقم بإحصاء العصافير في المقبرة الجنوبية، حيث دفن شموه، مثلما كان يفعل قبل أعوام حين كان يقف بين القبور بصفته خطّاطاً نحّات حجر. لكنني، مقابل ذلك، أبصرت النحّات كورنيف في حقل تسعة عندما خطوت وسط موكب التشييع، معتمراً قبعة أسطوانية معارة. رأيته ومعه مساعداً لا أعرفه يثبّتان لوحاً من الصخر البركاني مخصصاً لقبر مزدوج. عندما مرّ التابوت الذي وضع فيه شموه، محمولاً إلى حقل عشرة الممهد حديثاً، رفع كورنيف طاقيته عملاً بلوائح المقبرة، لكنه لم يتعرّف عليّ ثانية، ربما بسبب القبعة الأسطوانية، فرأيته يحك قفاه، مما يحمل على الاعتقاد بأن ثمة دمامل جديدة نضجت أو تجاوزت مرحلة النضوج.

فيا لتشييع الجنائز! لقد أخذت بيدكم عبر العديد من المقابر، وذكرت في موضع بأن الجنائز تذكّر بالجنائز - لذلك سيحجم أوسكار عن ذكر تفاصيل دفن شموه أو التعرض إلى أفكاره المصوبة نحو الماضي - أن شموه دفن تحت التراب حسب الأصول دون أن يحدث شيء غير مألوف - إلا أنني لا أخفي عليكم بأن سيّداً يدعى الدكتور «دوش» كلمني بعد مراسيم التشييع التي أدّاها المرء بغير ما كلفة؛ لأن عقيلة شموه كانت راقدة في المستشفى.

وقد أدار الدكتور دوش وكالة للحفلات الموسيقية، لكنه ليس صاحبها. فضلاً عن أن الدكتور دوش قدّم نفسه باعتباره ضيفاً سابقاً من ضيوف قبو البصل، مع أنني لم أكن لاحظته من قبل، غير أنه كان حاضراً عندما أحلت ضيوف شموه إلى أطفال صغار سعداء لاغطين. نعم، حتى الدكتور دوش وجد طريقه إلى طفولته الهانئة تحت تأثير طبلي الصفيح مثلما أسرّ لي، والآن فإنه يريد أن يجعلني، ومعي «حيلتي البارعة» كما سمّاها، مشهوراً منتشراً انتشاراً واسعا. فهو مخوّل بأن يعرض عليّ عقداً، عقداً هائلاً، يمكن أن أوقع عليه فورا. ثم سحب ورقة أمام محرقة الجثث، حيث وقف شوغر ليو الذي أطلق على نفسه اسم زابر فيللم في

دوسلدورف، بقفّاره الأبيض، منتظراً موكب التشييع؛ كان من شأن الورقة أن تلزمني، بصفتي أوسكار الطبّال، بتقديم عروض فردية أمام الدور الكبيرة والوقوف وحيداً على منصّة يجلس أمامها ألفان أو ثلاثة آلاف شخص. فبانت علامات اليأس والأسف على دوش؛ لأنني لم أوقع العقد حالاً، متعذراً بوفاة شموه، وقلت إنني لا أريد العثور على ربّ عمل جديد في المقبرة، حيث دفن شموه الذي كان شديد القرب منّي في حياته، لكنني سأفكر في الموضوع، وربما سأقوم برحلة قصيرة، ثم آتي إلى زيارته، أي إلى زيارة السيّد الدكتور دوش، لأوقع عند الضرورة على ما أسماه بعقد عمل.

وعلى الرغم من أن أوسكار لم يوقع العقد فوراً، إلا أنه وجد نفسه مضطراً بحكم وضعه المالي الحرج إلى القبول بمبلغ سلفاً، فدسّه في جيبه حالما قدمه له دوش في مظروف احتوى أيضاً على بطاقة عنوانه، وبسريّة تامة، خارج المقبرة، حيث ركَنَ سيارته. فقمت بالرحلة، بل أنني عثرت على رفيق لرحلتي. كنت وددت في الواقع القيام بالرحلة برفقة كليب، لكن كليب كان راقداً في المستشفى، عاجزاً عن الضحك؛ لأن أربعة من أضلاعه انكسرت. وتمنيت أن تكون ماريا رفيقة رحلتي، فالعطلة الصيفية لم تنته بعد، بحيث يمكن أن نأخذ كورت معنا، غير أنها بدت منشغلة بربّ عملها، شتنتسل، الذي أتاح لكورت مناداته بلقب «بابا شتنتسل». وهكذا رحلت بصحبة الرسّام لانكس. إنكم قد عرفتم لانكس بصفته رئيس العرفاء لانكس، وكذلك بصفته خطيباً وقتيّاً لربّة الفنّ أولا. حين زرت الرسّام لانكس في ستاردر شتراسه، حيث مرسمه، حاملاً في جيبي السلفة الأوّلية ودفتر التوفير، تمنيت أن أجد في حضرته زميلتي السابقة أولا، إذ أنني أردت القيام بالرحلة مع أولا. فوجدتها هناك في حضرة الرسّام. وفي الباب اعترفت لي بأنهما عقدا خطوبتهما قبل أربعة عشر يوماً، إذ أن الأمور مع «هانس كراغس» لم تسر على ما يرام، ففسخت الخطوبة معه، فهل كنت أعرف هانس كراغس؟

إلا أن أوسكار لم يتعرّف على خطيب« أول»ا الأخير، فأعرب عن

أسفه الشديد، ثم تقدم بعرضه السخي المتعلق بالرحلة، وتوجب عليه أن يشهد بأن الرسّام لانكس الذي ألتحق بهما قد نصّب نفسه رفيقاً لرحلة أوسكار المزمعة قبل أن تلبي أولا الدعوة؛ فوجه لانكس صفعة مدويّة لأولا الطويلة الساقين؛ لأنها لم تحبّ البقاء في الدار، فسالت الدموع من مآقيها. فلماذا لم يبد أوسكار أدنى مقاومة؟ ولماذا لم يقف إلى جانب ربّة الفنّ التي أراد أن يرحل معها؟ فبقدر ما تخيّلت جمال الرحلة التي كنت سأقوم بها إلى جانب أولا الرشيقة القوام ذات الزغب الأشقر، فإنني تخوفت في الوقت ذاته من معاشرة ربّة فنّ عن كثب. فعلى المرء أن يضع مسافة بينه وبين ربّات الفنّ، كما قلت في نفسي، وإلا ستصبح قبلة ربّة الفنّ بديهية كالخبز والماء. فمن الأفضل لي أن أسافر برفقة الرسّام الذي يصفع ربّة فنّه كلّما همّت بتقبيله. ولم نخض جدالاً واسعاً حول هدف الرحلة، إذ أننا لم نضع في الحسبان سوى منطقة النورماندي، حيث رغبنا في زيارة المخابئ الواقعة بين كين وكابورغ، أي المكان الذي تعرفنا فيه على بعضنا أثناء الحرب. كانت الصعوبة الوحيدة التي واجهناها هي الحصول على تأشيرة الدخول، لكن أوسكار غير مستعد أن يضيع الآن حرفاً واحداً على قصص تأشيرات الدخول.

كان «لانكس» إنساناً بخيلاً، فهو بقدر ما كان سخيّا في التعامل مع الألوان الرخيصة التي غنمها بالشحاذة ليبددها على قماش اللوحات ذي القواعد اللونية السيئة، فإنه كان يتصرّف بتقتير شديد مع النقود الورقية والمعدنية. فكان لا يشتري السجائر أبداً، لكنه يدخن بلا انقطاع. ولكي أوضح المنظومة التي يقوم عليها بخله أورد هنا بعض التفاصيل: حالما يقدم له أحد ما سيجارة فإنه يسارع إلى إخراج عشرة فلوس من جيب سرواله اليسار، فيعرّض القطعة النقدية الصغيرة إلى الهواء لحظةً، ثم يدسها في جيبه اليمين، حيث تتراكم القطع النقدية من فئة العشرة فلوس بكثرة أو بقلّة حسب مواقيت اليوم. كان يدخّن بهمّة عالية وقد أسرّ لي ذات مرّة بعدما راق مزاجه: «إنني أدخن يومياً ما يعادل ماركين إثنين تقريباً!» فالأرض الخراب التي اشتراها لانكس قبل حوالي العام في منطقة

«فيرستن» يعود الفضل في شرائها إلى سجائر معارفه القريبين والبعيدين، أو بعبارة أدقّ: حصل عليها بالتدخين.

وبرفقة لانكس هذا سافر أوسكار إلى النورماندي. فاستقلينا قطاراً سريعاً، في حين فضّل لانكس السفر مجاناً بواسطة السيارات الذاهبة في الاتجاه نفسه، بيد أنه رضخ طائعاً بعدما دفعت الأجرة ودعوته معي. ثم أخذنا الحافلة من كين إلى «كابورغ»، فمررنا بأشجار حور أحاطت لها من الخلف مروج مسوّرة بالشجيرات، حيث منحت الأبقار الكالحة البياض الأراضي الزراعية منظر إعلانات الحلوى المخلوطة بالحليب. إذ كان من غير المسموح به إظهار الخراب الكبير الذي خلفته الحرب والذي عمّ القرى جميعها بما فيها قرية بافا، حيث فقدت صاحبتي روزفيتا، ورسمه على ورق الإعلانات الصقيل، بحيث بدت القرى غير جديرة بالرؤية. ومن كابورغ سرنا بمحاذاة الساحل في اتجاه مصب نهر أورن. كان الجو غير ممطر. وبالقرب من «لو-أوم» قال لانكس: «ها أننا قد وصلنا ديارنا يا فتى! فاعطني سيجارة من فضلك!» وبينما نقل قطعته النقدية من جيب إلى آخر أشار برأسه الممدود إلى الأمام كرأس الذئب نحو المخابئ العديدة الناجية من الخراب، القابعة في الكثبان. فأمسك بذراعيه الطويلتين مخلاته وحامل الرسم المتنقل، إضافة إلى دزينة الأوتاد في يسراه، ثم مسكني بيمناه وسحبني عبر الخرسانة المسلحة، وقد تألفت أمتعة أوسكار من حقيبة صغيرة والطبل.

وفي اليوم الثالث من إقامتنا على ساحل الأطلسي - كنّا نفضنا الرمل الذي أتت به الرياح داخل مخبأ دورا رقم سبعة، وأزلنا الآثار البشعة التي خلّفها العشّاق الباحثين عن مأوى، فأصبح المكان صالحاً للسكن بفضل صندوق خشبيّ وبفضل مشمّعات النوم السفريّة - جلب لانكس سمكة قُدّ ضخمة من الساحل؛ أعطاها له الصيّادون بعدما لوّن قاربهم، فأتحفوه بها. ولأننا مازلنا نطلق على المخبأ اسم دورا فليس من العجب أن يسرح أوسكار بأفكاره إلى الممرضة دوروتيا وهو ينظّف السمكة. فتلطخت يداه بكبد السمكة وثربها، ثم أزلت الأصداف بمواجهة الشمس، فاستغل

لانكس الفرصة ليرسم لوحة عاجلة بالألوان المائية. كنّا اتخذنا مقعداً خلف المخبأ، متقين الريح، وقد انتصبت الشمس على رأسها فوق قبّة المخبأ الإسمنتية. فبدأت أحشو السمك بفصوص الثوم. وملأت أحشاء السمكة بالبصل والجبن والزعتر بعد أن كانت ممتلئة بالثرب والكبد، لكنني لم أرم الثرب والكبد، بل حشوت هاتين القطعتين الشهيتين في حلقوم السمكة وثبتهما بحبّة ليمون، فأخذ لانكس يتشمم، ثم هرع إلى دورا رقم أربعة وثلاثة وما بعدهما من المخابئ البعيدة، مسكوناً بهاجس الاستيلاء. وعاد حاملاً ألواحاً خشبية وورق كرتون كان قد استخدمه لأغراض الرسم فيما مضى، ثم ألقم النارَ الخشب.

فأمضينا النهار كلّه نتجاذب أطراف الحديث، بلا عناء أو مشقّة، مستأنسين بالنار؛ إذ أن الشاطئ كان يقذف كلّ خطوتين بالخشب العائم الجاف الخفيف كالريش وبالظلال المتناوبة. كنت ألقيت بجزء من مشبك شرفة حديديّ خلعه لانكس من إحدى الفيلات المهجورة على ساحل المحيط؛ ألقيته على الجمر المتوهج، ثم دهنت السمكة بزيت الزيتون ومددتها على المشواة الساخنة المدهونة أيضاً، وعصرت عليها الليمون وهي تئزّ بفعل الوهج، تاركاً إيّاها تنضج على مهل - على المرء يتعجل في شي السمك. ثمّ ركبّنا طاولتنا من بضع جرادل فارغة وغطيناها بورق مقوّى بالقطران عريض مطوي، وكنّا جلبنا معنا أشواك وأطباق من الصفيح. ولكي ألهي لانكس الجائع كجوع النورس إلى الرمّة والذي كان يجسّ السمكة الناضجة على مهل فقد أحضرت طبلي من المخبأ. فوسدته على رمل المحيط ، وأخذت أقرعه بإيقاعات متغيّرة في مواجهة الريح، مستدرجاً أصوات تلاطم الأمواج وطلائع المدّ: فأضحى مسرح بيبرا الميداني يستطلع الخرسانة، من بلد الكاشوبيين إلى النورماندي. فيلكس و«كيتي»، لاعبا الجمباز، يطويان جسديهما على المخبأ ويمدانهما من جديد، ثم ينشدان في مواجهة الريح قصيدةً مثلما يقرع أوسكار طبله أمام الريح، بلازمة مكررة أعلنت إبان الحرب عن قدوم عصر وشيك مريح غايةَ الراحة: «. . .والجمعة سمكاً وبيضاً مقلياً، فهانحن نقترب من عصر

البرجوازية» هكذا أنشد كيتي بلهجته السكسونية، وبيبرا، أستاذي الحكيم، النقيب في كتيبة الدعاية يهزّ رأسه استحساناً، وروزفيتا صاحبتي القادمة من البحر المتوسط ترفع سلّة الطعام وتهيّأ المائدة على الإسمنت، فوق دورا رقم سبعة، ورئيس العرفاء يأكل الخبز الأبيض ويشرب الحليب المخلوط بمسحوق الشيكولاتة ويدخن سجائر النقيب بيبرا. . .

ثم هتف بي الرسّام لانكس فانتزعني من أفكاري: «أه يا أوسكار! آه لو أنني أستطيع التطبيل مثلك! فناولني سيجارة من فضلك!» فتركت التطبيل وزودت رفيق رحلتي بسيجارة، ثم تفحصت السمكة فوجدتها جيّدة: إذ انتفخت عيناها بوداعة، بيضاوين مرتخيتين، فعصرت آخر حبّة ليمون ببطء، ودون تجاهل أي موضع، على جلد سمكة القدّ الذي أصبح بعضه بنيّاً وبعضه الآخر مفرقعاً. فتهف لانكس: «إنني بدأت أشعر بالجوع!» ثم كشف عن أسنانه الطويلة المدببة الصفراء ولطم صدره بقبضتيه، على طريقة القرود، أسفل قميصه ذي المربعات. فمنحته فرصة للتأمل بسؤالي: «رأس أم ذيل؟» ثم زحزحت السمكة على ورق برشمان غطينا به المقوّى المطلي بالقار بمثابة شرشف. فأطفأ لانكس سيجارته، محتفظاً بعقبها، وقال: «بماذا تنصحني؟» فقلت: «بصفتي صديقاً لك أقول لك خذ الذيل، أمّا بصفتي طاهياً فأنصحك بالرأس. لكن أمّي المسكينة التي كانت من أكبر محبيّ السمك ستقول الآن: يا سيّد لانكس خذ الذيل، فعلى الأقل ستعرف ماذا وقع في يدك. أمّا بالنسبة لأبي فقد نصحه الطبيب على العكس من ذلك. . .» فشكك لانكس بكلامي: «لا علاقة لي بما يقوله الأطبّاء.»

«كان الدكتور هولاتس ينصح أبي دائماً بأن لا يأكل من القدّ أو (الدورش) مثلما نسميه في لغتنا المحلية إلا الرأس.»

فأجاب لانكس محتفظاً بشكّه: «إذاً سآخذ الذيل. لأنك تريد أن تغشني، لكنني فطنت لحيلتك.»

«فهذا أحسن لأوسكار. لأنني أعرف قيمة الرأس.»

«إذا سأختار الرأس، مادمت متلهفاً له.»

فأردت أن أنهي الحوار بقولي: «إنك عقّدتها على نفسك يا لانكس. الرأس لك والذيل لي.»

«آه يا غلام لقد غلبتك؟ وإلا؟»

فأقرّ أوسكار بأن لانكس غلبه، إذ علمت بأنه سوف لا يتلذذ بالسمكة إلا بعد أن يتيقن وهو يلتهمها من أنه غلبني حقّاً، فأطلقت عليه عبارات من قبيل الكلب المكّار المسعور المحظوظ ابن المحظوظ - ثم هجمنا على سمكة القدّ.

لقد تناول الرأس بينما عصرت أنا ما تبقّى من الليمون على قطعة الذيل البيضاء المتفتتة التي تحللت منها فصوص الثوم ذائبة كالزبد. فأخذ يحشر عظام السمك بين أسنانه ويتطلع إليّ وإلى قطعة الذيل: «دعني أجرب ذيلك.» فهززت له رأسي موافقةً، فجرّب، لكنه بقي متردداً إلى أن جرّب أوسكار من قطعته، فطمأنه مرّة أخرى: بأنه حصل فعلاً على الجزء الأفضل من السمكة.

وشربنا نبيذاً فرنسياً أحمر، فتأسفت لذلك، لأنني وددت أن أرى نبيذاً أبيض في فنجانيّ القهوة. فبدد لانكس ظنوني حين تذكر بأنهم كانوا يشربون النبيذ الأحمر وحده في دورا رقم سبعة عندما كان رئيساً للعرفاء، إلى أن وقع الاجتياح: «يا صاحبي كانت رؤوسنا معبئة عندما وقع الإنزال. فلم يلحظ كوفالسكي ولا شيرباخ ولا لويتهولد الصغير، المدفونون كلّهم في نفس المقبرة خلف كابورغ؛ لم يلحظوا شيئاً عندما نشبت المعركة هنا. الإنجليز هناك في «أرومانش» وفي قاطعنا زحفت جموع حاشدة من الكنديين. وقبل أن نثبّت حمّالات سروالينا أصبحوا أمامنا وقالوا: How are you? » ثمّ طعن لانكس الهواء بشوكته وبصق العظام وأضاف: «اليوم رأيت هيرتسوغ في كابورغ، رأيت هيرتسوغ المعتوه الذي تعرفت عليه أنت أثناء تفقدكم الملجأ. وكان برتبة ملازم أوّل.»

وبالتأكيد أن أوسكار مازال يتذكر الملازم الأوّل هيرتسوغ، فحكى لي لانكس وهو يلوك السمك بأن هيرتسوغ يسافر كلّ عام إلى كابورغ، حاملاً معه الخرائط وأجهزة القياس؛ لأن المخابئ طردت النوم من عينيه، كما أنه

سيمرّ علينا، في دورا سبعة، ليتخذ القياسات. وبينما كنّا منهمكين بالسمكة التي برزت عظامها الضخمة وإذا بالملازم الأوّل هيرتسوغ يطلّ علينا بسروال قصير كاكيّ اللون، وحذاء رياضيّ وقد انتفخت بطتا ساقيه الغليظتين وبرز شعر بنيّ أشيب عبر قميص القطن. بالطبع بقينا جالسين. فقدمني لانكس باعتباري صديقه وزميله أوسكار ومنح هيرتسوغ صفة ملازم أوّل سابقا. وعلى الفور أخذ الملازم الأوّل السابق بتفحّص دورا سبعة، مبتدئاً بالإسمنت من الخارج، فسمح له لانكس بذلك. وصار يملأ جداول، حاملاً معه منظاراً يشبه المقصّ أزعج به منظر الطبيعة والمدّ الزاحف. ثم صار يتحسس كوّات الرماية في دورا ستة، بجوارنا مباشرة؛ يتحسسها برقّة كما لو أنه أراد أن يفعل شيئاً جيّداً لعقيلته. حين همّ بتفتيش دورا سبعة، مكان اصطيافنا، من الداخل، نهره لانكس: «يا رجل، يا هيرتسوغ، لا أعرف ماذا تريد! تدعك الإسمنت وتتحسسه! لقد أصبح في عداد الماضي ما كان حاضراً آنذاك.»

كانت عبارة «في عداد الماضي» من العبارات المحببة للانكس، فصار يقسّم العالم في حاضر وفي عداد الماضي. بيد أن الملازم الأوّل سابقاً لم ير أن الأمر بات في عداد الماضي، بل وجد أنّ الحساب لم يحسم بعد وأن المرء عليه أن يتحمل مسؤوليته أمام التاريخ، وأنه يريد أن يستطلع دورا سبعة من الداخل: «هل فهمتني يا لانكس!» وحينئذ قذف هيرتسوغ بظلّه على طاولتنا وسمكتنا، متجاهلاً رغبتنا، فتوغل في المخبأ الذي زيّنت يد رئيس العرفاء لانكس الفنيّة مدخله بالزخارف. لكن هيرتسوغ لم يستطع تجاوز طاولتنا. فرفع لانكس قبضته المسلحة بالشوكة إلى الأعلى، وقذف بالملازم الأوّل سابقاً إلى رمل البحر، دون الاستعانة بشوكته، ثم نهض لانكس وهو يهزّ رأسه أسفاً على انقطاع وجبة الطعام، فأمسك بتلابيب هيرتسوغ، طاويا قميصه القطني إلى صدره، وجرجره بعيداً، مخلفاً وراءه أثراً منتظماً، وألقى به خلف كثيب رمل، بحيث لم نعد نراه، إلا أننا بقينا نسمعه. سمعناه يجمع أدوات قياسه التي رماها لانكس خلفه، ثم ابتعد، وهو يكيل الشتائم، مستحضراً جميع الأرواح التاريخية التي حسبها لانكس

في عداد الماضي قبل حين. «لم يكن هيرتسوغ غير محقّ تماما، حتى لو أصبح معتوهاً، فلو أننا لم نسكر إلى حدّ الثمالة حين نشبت المعركة، فلما عرف أحد ما الذي سيؤول إليه مصير الكنديين يومئذ.»

فهززت رأسي بالإيجاب لأنني عثرت يوم الأمس، أثناء الجزر، على زرّ قيافة عسكرية كندية، وجدته ينطق بوضوح بين القواقع وبقايا السلطعون. فدسّ أوسكار الزرّ في محفظته، شاعراً بالسعادة كما لو أنه عثر على قطعة نقدية نادرة من مخلفات الشعب «الإتروسكي» المنقرض.

لكن زيارة الملازم الأوّل هيرتسوغ، مهما بدت قصيرة، نبشت الذكريات القديمة: «ألا تتذكر يا لانكس يوم تفقدت فرقة مسرح بيبرا الميداني مخبأكم الإسمنتي، وتناولنا إفطارنا في المخبأ، حين هبّت الريح مثل هبوبها اليوم، ثم ظهرت فجأة ستّ أو سبع راهبات يفتشن عن السلطعون، فتوجب عليك إخلاء الشاطئ، امتثالاً لأمر عسكريّ، فنفذته ببندقيتك الأوتوماتيكية القاتلة؟»

فتذكّر لانكس هذه الواقعة، وأخذ يمصمص العظام، بل أنه كان يحفظ أسماءهن، فصار يعددها: الأخت الراهبة شولاستيكا، الأخت الراهبة آغنيتا، ثم وصف لي المرأة الحديثة الرهبنة بقوله إنها كانت ذات وجه ورديّ أحاط به السواد، ورسمها لي بوضوح بحيث أنها طغت على صورة الممرضة دوروتيّا الدنيوية الحاضرة في ذهني على الدوام، وإن لم تطمس معالمها. ومما ضاعف من حدّ التخيّل هو أن راهبة شابة أقبلت تهفهف نحونا عبر الكثبان، قادمة من اتجاه كابورغ، بعد مضي دقائق على وصف لانكس - لم يكن المشهد مفاجئاً لي بما يكفي لأحسبه في عداد المعجزات - فبدت وردية الوجه، أحاط بها السواد من كلّ جانب بما لا يخفى عن النظر.

وقد حملت مظلّة سوداء مثل تلك التي يحملها المسنون، لتتقي بها الشمس، وحول عينيها استدارت دارئةٌ من البلاستك مثل واقيات العيون التي يضعها المخرجون السينمائيون المجتهدون في هوليود. ثمة شخص ما نادى عليها من ناحية الكثبان. بدا أن هناك الكثير من الأخوات الراهبات،

فنودي عليها: «الأخت آغنيتا!» أو: «يا أخت آغنيتا، أين أنت؟» فأجابت الأخت آغنيتا، الفتاة الشابة التي أشرفت على سمكة القدّ التي بانت أضلاعها جليةً: «أنا هنا يا أخت شولاستيكا. فهنا الريح ساكنة». فابتسم لانكس ابتسامة صفراء وهزّ جمجمته الذئبية بارتياح كما لو أنه أوصى بهذا الزحف الكاثوليكي توصيةً، بحيث لم يعد هناك ما يباغته. فرمقتنا الراهبة الفتية بنظرة، ثم وقفت يساراً، إلى جانب المخبأ، فأطلق وجهها الوردي الذي ضمّ منخرين مستديرين عبارة «أوه!»؛ أطلقها من بين أسنان بارزة قليلاً إلى الأمام، لكنها كانت سليمة باستثناء البروز.

وأدار لانكس عنقه ورأسه دون أن يحرك جذعه: «نعم أيتها الأخت الراهبة، هل أنت تقومين بنزهة قصيرة؟»

فجاءت إجابتها سريعة: «إننا نذهب إلى البحر مرّة واحدة في العام. لكنني أرى البحر للمرّة الأولى. إنه واسع جدّاً.»

فلم يعد بمقدورنا الاعتراض على هذا القول، وأصبح وصف البحر هذا بالنسبة لي الوصف الصادق الوحيد إلى اليوم. وحاول لانكس أن يمارس دور الضيافة، فنقر بأصابعه على حصتي من السمكة، متقدماً بعرضه: «جربي يا أخت؛ لقمة صغيرة من السمكة؟ فمازالت ساخنة!»

لقد أصابتني لغته الفرنسية غير المتكلفة بالدهشة، فحاول أوسكار بدوره التحدث باللغة الأجنبية: «لا تشعري بالحياء يا أخت، فاليوم يوم جمعة.»

بيد أن هذا التلميح إلى قواعد جمعيتها الدينية الصارمة لم يدفع الفتاة المستترة بمسوح الرهبنة على نحو بارع إلى المساهمة بوليمتنا، لكن الفضول دفعها إلى السؤال: «هل تسكنان دائماً هنا؟» ثم قالت إنها تجد مخبئنا لطيفاً وغريباً بعض الشيء. فزحفت إلى وسط الصورة - للأسف الشديد - رئيسة الراهبات ومعها خمس من الراهبات، وقد حملن مظلاّت سوداء وشماس خضراء مثل تلك التي يحملها المراسلون الصحفيون، عبر مشط الكثبان الرملية، فولّت آغنيتا هاربة، وحسبما سمح لي سيل الكلام الذي سرحت الرياح الشرقية شعره بالفهم؛ فإن آغنيتا قد أشبعت سباباً قبل

أن يضمنها في وسطهن. فأخذ لانكس يحلم، واضعاً الشوكة في فمه بالمقلوب، مثبتاً بصره في المجموعة المهفهفة على الرمال: «إن أولئك لسن براهبات، إنما سفن شراعية.»

فلفت نظره إلى أن «السفن الشراعية تكون بيضاء.»

«لكن هذه سفن شراعية سوداء.» ومن الصعب في الواقع خوض جدال مع لانكس. «فتلك التي في جناح اليسار هي سفينة القيادة. آغنيتا التي هي طرّاد سريع. رياح إقلاع مواتية: خطّ إبحار: من شراع الصارية الأمامية إلى القائم الكوثلي، فالصارية الوسطى فالصارية الأفقية فالأمامية، الأشرعة كلّها مرفوعة، فهيّا إلى الأفق نحو إنجلترا. فتخيّل هذا المشهد: الإنجليز يفيقون في الصباح المبكر، ويتطلعون من النوافذ، فماذا يرون أمامهم: خمسة وعشرين ألفاً من الراهبات، مرفوعة أشرعتها إلى أطراف الصواري، فتطلق المدافع المنصوبة في جانب السفينة...» فأعنته في الصياغة: «معلنة بداية حرب دينية جديدة!» إذ لابد أن يكون اسم سفينة القيادة ماري ستيوارت أو ديفاليرا أو بالأحرى (دون خوان). أسطول جديد سريع التحرّك يثأر من الإنجليز لهزيمة الطرف الأغرّ، فيرفع شعار «الموت للبيورتانيين المتزمتين!» حين يبدو خزين الإنجليز خالياً هذه المرّة من الأميرال نلسون. الهجوم يمكن أن يشنّ فوراً بحيث لم تعد إنجلترا جزيرة!

لقد تحوّل النقاش إلى نقاش سياسيّ في نظر لانكس فأعلن: «الآن ستقلع، الراهبات.»

فصححت له العبارة: «بل سيبحرن!»

وبغض النظر عما إذا كنّ سيقلعن أو يبحرن، فقد ابتعدن في اتجاه كابورغ، واضعات المظلاّت المطرية بينهن وبين الشمس. فلم تتخلف منهن سوى واحدة، بينما أجهدت بقية الأسطول - لكي أبقى في الصورة - نفسها متجهة ببطء، متقاطعة مع الريح، نحو فندق الساحل المحترق الذي شكّل خلفية المشهد.

فقال لانكس متمسكاً بلغة البحّارة: «إنها لم تستطع رفع مرساتها. أليست هذه هي الطرّاد السريع، آغنيتا؟»

وبصرف النظر عن الطرّاد أو الفرقاطة فإنها كانت الأخت الحديثة الرهبنة آغنيتا التي بدأت تجمع القواقع ثم ترمي بها، مقتربة منّا.

فسألها لانكس على الرغم من أنه رأى بالضبط ما فعلت: «ما هذا الذي تجمعينه يا أخت آغنيتا؟»

«قواقع!» لفظت المفردة بصورة خاصة ثم انحنت.

«هل يسمح لك بذلك؟ فهذه من مخلّفات الدنيّا!»

لكنني اتخذت موقف الدفاع عن الراهبة آغنيتا: «إنك مخطئ يا لانكس، فالقواقع ليست من مخلّفات الدنيا.»

«إذاً فهي من مخلّفات الشواطئ؛ إنها على أيّ حال مخلّفات لا يجوز أن تمتلكها الراهبات. فهناك لاشيء سوى الفقر فالفقر ومن ثم الفقر. أليس صحيحاً يا أخت؟»

فابتسمت الراهبة آغنيتا، مفرجة عن أسنانها البارزة: «إنني لا أجمع إلا القليل من القواقع. وهي مخصصة لروضة الأطفال. فالصغار يلهون بها بمتعة، كما أنهم لم يروا البحر قط.»

وقفت آغنيتا أمام مدخل المخبأ ورمقت باطنه بنظرة رهبانية. فسألتها بصيغة انطوت على مداهنة: «ما هو رأيك ببيتنا؟» بيد أن لانكس كان أكثر مباشرة: «تفضلي استطلعي منزلنا الفخم. فالمعانية لا تكلّف شيئاً يا أخت!»

فنبشت الأرض بحذائها المدبب المشدودة أسفل ثوبها الطويل المتين، بل صارت تحت رمال البحر أحياناً فتحملها وتذروها على سمكتنا. ثم تفحصتنا بشيء من الارتباك وبعينين بنيتين فاتحتين صافيتين وتفحصت الطاولة المنتصبة بيننا، فقالت بما من شأنه حثّنا على الاعتراض: «لكن هذا غير ممكن.» فأزاح الرسّام الصعوبات كلّها من الطريق بقوله: «ما هذا الكلام يا أخت!» ثم نهض: «المخبأ مطلّ على مشهد رائع، بحيث يستطيع الناظر رؤية الساحل بكامله من خلال كوّات الرماية.» وبدت متمسكة بترددها وقد امتلأ حذاؤها بالرمل بالتأكيد، فبسط لانكس يده نحو مدخل المخبأ حيث ألقت مزخرفاته ظلاً زخرفيّاً كثيفاً.

«إنه نظيف من الداخل!» لعلّ حركة الرسّام المرحّبة هي التي قادت الراهبة إلى داخل المخبأ. ثم جاءت العبارة الحاسمة: «مجرد لحظة قصيرة.» فمرقت الراهبة بخفّة إلى الداخل من أمام لانكس الذي مسح يديه بسرواله - بحركة مألوفة لدى الرسّامين - وقال لي مهدداً قبل أن يختفي: «إيّاك أن تأكل حصتي من السمكة.!»

غير أن أوسكار أكل ما يكفي من السمك، فانسحب من الطاولة، وأسلم نفسه للريح المتخمة بالرمال وصخب المدّ السرمدي الجبّار. وأدنيت بقدمي الطبل وبدأت أقرعه بحثاً عن مخرج من منظر الإسمنت وعالم المخابئ ومن هذه الخضرة التي يطلق عليها هليون رومل. فحاولت مع الحبّ في البدء، لكن بقليل من النجاح: لقد أحببت زماناً ممرضة. نعم ممرضة مستشفى أكثر منها راهبة. سكنت في دار تسايدلر خلف باب غائم الزجاج. كانت رائعة الجمال، بيد أنني لم أرها قط، إذ كان هناك بساط من الليف وقف حائلاً بيننا. كان الظلام يعمّ ممر تسايدلر، فتحسست حصيرة الليف أكثر مما تحسست جسد دوروتيّا. وبعدما انتهيت على عجل من موضوعة حصيرة الليف حاولت التحرر إيقاعيّاً من حبيّ القديم لماريا، لأغرس على الفور نباتاً متسلقاً سريع النمو أمام الخرسانة. فحلّت الممرضة دوروتيّا ثانية التي حالت دون حبّي لماريا: فهبّت من البحر رائحة حامض الفينول، ولوّحت النوارس بزيّ الممرضات، وبان ضياء الشمس لي مثل دبّوس الصليب الأحمر. وكان أوسكار في الواقع فرحاً حين عُكّر صفوه أثناء التطبيل. إذ عادت رئيسة الراهبات الأخت شولاستيكا برفقة الراهبات الخمس وقد بدا عليهن التعب وهن يحملن المظلاّت على نحو مائل يائس: «أما رأيت راهبة شابة، صاحبتنا متدربة الرهبنة الفتية؟ الصبية مازالت صغيرة، فهي ترى البحر للمرّة الأولى. ولابد أنها ضلّت طريقها. فأين أنت يا أخت آغنيتا؟»

لم يبق أمامي سوى أن أرسل الرهط الذي نفخته الريح من الخلف هذه المرّة في اتجاه مصب نهر أورن وأرومانش وبورت ونستون حيث أقام الإنجليز ميناءهم مرغمين البحر. كان من الصعب على مخبئنا استيعابهن.

لقد داعبتني طوال لحظة فكرة إتحاف الرسّام لانكس بزيارتهن المفاجئة، إلا أن الصداقة والضجر والخبث معاً أمرتني برفع سبابتي نحو مصبّ أورن. فانصاعت الراهبات لسبابتي، فتحولن إلى ستة ثقوب سوداء مهفهفة تزداد صغراً على رؤوس الكثبان، وبات نداء «يا أخت آغنيتا، يا أخت آغنيتا» الذي أطلقته الراهبات يخفت شيئاً فشيئاً حتى تلاشى في الرمال.
فكان لانكس أول من غادر المخبأ، فقام بحركة رسّام نموذجية: إذ مسح يديه بسرواله، ثم استرخى تحت الشمس، طالباً منّي سيجارة، فدسها في جيب قميصه، ليهجم على السمكة الباردة، ملمحاً إلى أن ما قام به «يجعل الإنسان جائعاً»، فسلب حصتي من الذيل.

فشكوت للانكس من أنها «لاشك تشعر بالتعاسة الآن»، مستمتعاً بكلمة تعاسة.

«لكن لماذا؟ ليس هناك أيّ داع للتعاسة.»

لم يكن لانكس يتصور بأنه يمكن أن يجلب التعاسة بطريقة تصرفه مع الناس.

فسألته، قاصداً شيئاً آخر: «وما الذي تفعله الآن؟»

فأوضح لي بشوكة السمك قائلاً: «إنها تخيط. لأن ثوبها تمزّق قليلاً، وهي الآن تخيط الفتق.»

وغادرت الخيّاطة المخبأ، ففتحت مظلتها المطرية على الفور، وترنمت بخفّة وبجهد مثلما ظننت: «المشهد يبدو رائعاً فعلاً من خلال مخبأكم، حيث يمكن مشاهدة الشاطئ كلّه والبحر.» ثم وقفت أمام حطام سمكتنا. «هل تسمحان لي؟» فهززنا رأسينا بالموافقة في وقت واحد، وساعدتها بقولي: «إن هواء البحر يولّد الجوع.» فهزّت رأسها أيضاً، ثم مدّت يديها المحمرتين المتشققتين المذكرتين بالعمل الشاق في الدير إلى سمكتنا، ورفعتهما إلى فمها، وأخذت تأكل بجديّة وبجهد، ممعنة الفكر، كما لو أنها لاكت مع السمك شيئاً آخر، تلذذت بطعمه قبل تناولها السمك. أخذت أتطلع أسفل قلنسوتها. لقد نسيت مظلّة المراسلين الخضراء في المخبأ. ثمة قطرات عرق متساوية الحجم اصطفت على

جبينها الناعم ذي الإيحاء القدسي، مشكلةً حدّاً أبيض متصلبا. ثم طلب لانكس سيجارة ثانية على الرغم من أنه لم يدخّن الأولى، فرميت عليه بعلبة السجائر كلّها. بينما دسّ ثلاثة من عيدان التبغ في جيب قميصه، ولصق الرابع بين شفتيه، التفتت الراهبة، فألقت بالمظلّة بعيداً، وانطلقت راكضة - الآن فقط لاحظت بأنها كانت حافية القدمين - فاجتازت الكثبان حتى اختفت في اتجاه البحر المتلاطم. فقال لانكس بتكهن: «دعها تركض. فإنها إمّا ستأتي أو لا تأتي.» غير أنني لم أحتفظ بالهدوء إلا فترة قصيرة راقبت خلالها سيجارة الرسّام، ثم تسلقت المخبأ وشملت ببصري الساحل الذي اقترب بفعل المدّ. أراد لانكس أن يعرف منّي شيئاً بسؤاله: «نه؟» فقلت: «إنها تنضو ثيابها.» فلم يستطع لانكس استدراجي لقول المزيد. «لعلّها رغبت في السباحة لكي تبرّد نفسها.» لقد وصلت المياه إلى ركبتيها، ثم غاصت الراهبة شيئاً فشيئاً إلى أن أصبح ظهرها مستديرا. بدا كما لو أن مياه نهاية أغسطس التي لم تكن دافئة لم تخفها، فأخذت تعوم بمهارة، وهي تمارس شتّى أساليب السباحة، وباتت تشقّ الموج غائصة.

«دعها تعوم، وانزل أخيراً من المخبأ!»

فنظرت إلى الأسفل فرأيت لانكس مضطجعاً ويدخّن. وبدت عظام سمكة القدّ اللامعة تشعّ بيضاء، مهيمنة على الطاولة تحت الشمس. حين قفزت من الخرسانة فتح لانكس عيني الرسّام، عينيه، وقال: «ستكون لوحة رائعة: راهبات مغمورات في المياه. أو: راهبات أثناء المد.» فزعقت به: «يا لك من إنسان قاسي القلب، فماذا لو غرقت؟»

فأغمض لانكس عينيه: «حينئذ سيكون عنوان اللوحة: راهبات غريقات.»

«وإذا ما رجعت وهوت أمام قدميك؟»

هنا أطلق لانكس حكمه بعينين مفتوحتين: «إذاً سيطلق على اللوحة عنوان راهبة متهاوية.»

وكان لانكس لا يعرف سوى إما وإلا، الرأس والذيل، الغريقة

والمتهاوية. فأخذ منّي سجائري وألقى بالملازم الأوّل على الرمل، وأكل من حصتي من السمك، وأطلع طفلة منذورة للسماء على داخل المخبأ، ورسم لوحات في الهواء، بقدم خشنة مفلطحة، بينما عامت الراهبة في البحر المفتوح حتى غمرتها المياه. ثم أعطى اللوحات أحجاماً وعناوين: راهبات مغمورات في المياه. راهبات أثناء المد. راهبات غريقات. راهبات متهاويات. خمس وعشرون ألف راهبة. حجم أفقي: راهبات على مستوى الطرف الأغر. حجم عمودي: راهبات ينتصرن على اللورد نلسون. راهبات في الاتجاه المعاكس للريح. راهبات وسط ريح الإقلاع. راهبات يتقاطعن مع الريح. ثمة سواد، الكثير من السواد، والكثير من البياض المحطّم والأزرق، ملقى على الجليد: الاجتياح، أو: غامض، بربريّ، مضجر - عنوانه الإسمنتي القديم من زمن الحرب. تلك اللوحات كلّها، بأحجامها الأفقية والعمودي، رسمها الرسّام لانكس بعدما رجعنا إلى منطقة سهل الراين، حيث أنجز سلسلة من لوحات الراهبات، بل عثر على تاجر تحف كان مولعاً بصور الراهبات، فعرض ثلاثا وأربعين من صور الراهبات، وباع سبع عشرة منها لهواة تجميع اللوحات ورجال الصناعة والمتاحف، ولرجل أمريكي أيضاً، ثم أجبر لانكس النقّاد على عقد المقارنات بينه وبين بيكاسو، ودفعني بنجاحه، أنا أوسكار، إلى البحث عن بطاقة عنوان مدير المؤسسة التجارية الدكتور دوش، إذ لم يكن فنّه وحده يصرخ بغية الحصول القوت، إنما فنّي أيضاً: فكان الأمر يقتضي تحويل خبرات الطبّال أوسكار ذي الأعوام الثلاثة أثناء الحرب وما قبلها إلى ذهب فترة ما بعد الحرب، ذلك الذهب الخالص ذي الرنين، بواسطة طبل الصفيح.

البنصر

«نه؟» قال تسايدلر وأضاف «يبدو أنكما لا تنويان على العمل.» لقد أزعجه أن يرى أوسكار وكليب جالسين إمّا في غرفة أوسكار أو في غرفة كليب، دون أن يفعلا شيئاً. كنت سددت في الواقع إيجار شهر أكتوبر لكلا الغرفتين بما بقي من النقود التي سلّمني إيّاها الدكتور دوش بمثابة دفعة أولى أثناء دفن شموه، لكن شهر نوفمبر توعدنا بأن يكون، من ناحية مالية أيضاً، شهراً كدرا سوداويّاً، على الرغم من أننا تلقينا عروضاً كافية. فأصبح ممكناً أن نعزف الجاز في هذا المرقص أو تلك الحانة، بيد أن أوسكار لم يعد راغباً في عزف الجاز، فأخذنا نتشاجر أنا وكليب الذي قال بأن تعاملي مع طبل الصفيح ليس له أيّ علاقة بموسيقى الجاز. لكنني لم اعترض على قوله. ثم نعتني بالخائن لقضية موسيقى الجاز. وبعدما عثر كليب مطلع نوفمبر على عازف إيقاع جديد يدعى بوبي في حانة «وحيد القرن»، أي أنه عثر على رجل كفء ومن خلاله على عمل في المدينة القديمة، صرنا نتكلّم مع بعضنا من جديد بصفتنا أصدقاء، حتى لو بدأ كليب آنذاك يتكلّم عن الحزب الشيوعي الألماني أكثر بكثير مما كان يفكّر. فلم يبق مفتوحاً أمامي سوى باب وكالة حفلات الدكتور دوش، إذ أنني لم أستطع الرجوع إلى ماريا، بل لم أكن راغباً في الرجوع إليها، لاسيما أن مبجلها شتنتسل أراد أن يطلّق امرأته لكي يجعل من ماريا بعد الطلاق ماريا شتنتسل. فكنت أحفر بين الحين والآخر خطوط شواهد لدي كورنيف في درب الرجاء، وأزور كذلك الأكاديمية، تاركاً الفنّانين الشباب المجتهدين يسودونني ويجردونني، وأصبحت أتردد كثيراً على ربّة الفنّ أولا، دون

غرض معيّن. كانت قد اضطرت إلى فسخ خطوبتها من الرسّام لانكس عقب عودتنا من رحلة ساتر الأطلسي؛ لأن لانكس لم يعد يرسم إلا صور الراهبات الباهظة الثمن، بل أنه امتنع حتى عن ضرب ربّة الفنّ أولا. كانت بطاقة عنوان الدكتور دوش ورقم هاتفه راقدة بهدوء وبإلحاح معاً على طاولتي قرب حوض الاستحمام. ذات يوم، بعدما مزقتها ورميتها؛ لأنني لم أكن راغباً في التعامل مع الدكتور دوش، اكتشفت، وبرعب، بأنني كنت أحفظ رقم وكالة الحفلات وعنوانها عن ظهر قلب، بحيث أنني كنت قادراً على إلقائها كقصيدة، ففعلت ذلك ثلاثة أيّام، وفارق النوم عيني بسبب رقم الهاتف. لذلك بحثت في اليوم الرابع عن تلفون عمومي، وأدرت القرص طالباً الرقم، فحظيت بالدكتور دوش في الطرف الآخر من الجهاز، فتصرف كما لو أنه كان ينتظر مكالمتي كلّ ساعة، وترجىّ منّي المجيء إلى الوكالة في عصر اليوم ذاته، إذ أنه أراد أن يقدمني للرئيس: الرئيس ينتظر السيّد ماتسرات.

كانت وكالة الحفلات «فست» تقع في الطابق الثامن من عمارة مكاتب حديثة البناء. وقبل أن أستقلّ المصعد سألت نفسي فيما إذا كانت قضية سياسية مزعجة تختفي وراء اختيار اسم الوكالة. فإذا كانت هناك وكالة باسم «فست» فلابد أن تكون هناك وكالة أخرى باسم «أوست» في عمارة مشابهة. بيد أن اختيار الاسم بدا لي موفقاً، إذ أنني أعطيت الأفضلية لوكالة «فست» حالما غادرت المصعد في الطابق الثامن، شاعراً بأنني سرت في الطريق الصحيح. سجّاد فاخر، نحاس كثير، إضاءة غير مباشرة، كلّ شيء عازل للصوت، تناسق بين باب وباب، سكرتيرات طويلات السيقان حملن إليّ رائحة سيجار رئيسهن، فأوشكت على الهرب من مكاتب وكالة «فست». واستقبلني الدكتور دوش بذراعين مشرعتين، ففرح أوسكار لأن دوش لم يضمه إليه. وصمتت آلة الطابعة التي اشتغلت عليها فتاة ببلوزة خضراء حين دخلت، لكنها عوّضت ما فاتها بسبب دخولي. ثم أبلغ دوش الرئيس بقدومي. فأخذ أوسكار مكاناً في السدس الأمامي من مقعد أحمر إنجليزي منجّد. وبعد حين انفتح مصراع باب، فحبست آلة الكتابة أنفاسها،

فجذبتني قوّة امتصاص من المقعد، ثم قفلت الأبواب من خلفي. ثمة سجادة امتدت في قاعة مضاءه، فحملتني السجادة معها، حتى أنبأتني قطعة أثاث معدنية بأن: أوسكار وقف الآن أمام مكتب الرئيس، فكم قنطاراً بلغ وزنه؟ رفعت عينيّ الزرقاوين، أبحث عن الرئيس خلف سطح من خشب البلّوط خال، غير متناه، فعثرت على أستاذي وصديقي بيبرا المشلول الذي لم يتحرك فيه سوى عينيه وأطراف أصابعه، جالساً في كرسيّ متحرّك، قابل للرفع والخفض، مثل كرسيّ طبيب الأسنان.

بلى! كان هناك صوته أيضاً! فنطق منه شيء ما: «هانحن نرى بعضنا ثانية، يا سيّد ماتسرات. ألم أقل لك منذ أعوام عندما كنت تفضل مواجهة العالم مثل طفل في الثالثة: بأن أمثالنا لا يضيعون؟! لكنني ألاحظ بكلّ أسف بأن تفاصيل جسدك تغيّرت كثيراً بشكل غير عقلاني، وغير مفيد. ألم يكن طول قامتك آنذاك أربعة وتسعين سنتمتراً؟» فهززت رأسي موافقة، وأوشكت على البكاء. كانت صورة الزينة الوحيدة المعلقة على الحائط، خلف الكرسيّ المتحرك للأستاذ - الكرسي الذي كان يصدر وشوشة منتظمة ويدار بمحرّك كهربائي - تمثل لوحة نصفية بالحجم الطبيعي لصاحبتي روزفيتا راغونا العظيمة، موضوعة في إطار باروكيّ الطراز. ودون أن يتعقب بيبرا بصري، قال بفم جامد إلى حدّ ما، عالماً باتجاه بصري: «نعم؛ إنها روزفيتا الطيبة! فهل يا ترى سيعجبها أوسكار الجديد؟ لا أظنّ ذلك. كانت لها علاقة بأوسكار آخر، مكتنز، ذي أعوام ثلاثة، متأجج حبّاً فوق ذلك كلّه، فكانت تعبده مثلما أخبرتني ذات مرّة أكثر مما أباحت لي. لكنه امتنع ذات يوم من أن يجلب لها القهوة، فجلبتها بنفسها، ودفعت حياتها ثمنا. وحسب علمي فإن هذه ليس عملية القتل الأولى التي نفذها أوسكار المكتنز الجسم. ألم يكن هو الذي قاد أمّه إلى القبر بطبله؟» فأخذت أهزز رأس، وأحمد الله لأنني كنت قادراً على البكاء، فصوبت عينيّ في اتجاه روزفيتا. غير أن بيبرا عاجلني بالضربة الثانية: «وكيف كان الأمر مع موظف البريد يان برونسكي الذي أحبّ أوسكار ذو الأعوام الثلاثة أن يطلق عليه لقب أبي المفترض؟ لقد سلمه إلى الزبانية، فأطلقوا

الرصاص على صدره. ربما تستطيع يا سيّد أوسكار ماتسرات، يا من تجرّأت على الظهور بمظهر جديد، أن تحيطني علماً بما جرى للوالد الثاني المفترض لطبّال الصفيح ذي الأعوام الثلاثة، أعني تاجر بضائع المستعمرات ماتسرات؟» فاعترفت بعملية القتل هذه أيضاً، مسلّماً بأنني تحررت من ماتسرات، فوصفت موته اختناقاً الذي كان من صنعي أنا، إذ لم أجد ضرورة للاختباء وراء البندقية الروسية الأوتوماتيكية، إنما قلت: «كنت أنا الفاعل، يا أستاذ بيبرا. لقد قمت بذلك وتسببت في موته، بل أنني لم أكن بريئاً من حادث الموت نفسه - فأطلب المغفرة!»

وهنا ضحك بيبرا، لا أعرف كيف ضحك، لكن كرسيه صار يرتجف، وأخذت الريح تعيث بشعره القزميّ الأشيب فوق وجهه المليء بمئات الآلاف من التجاعيد الدقيقة. توسلت به بإلحاح، ملتمساً منه المغفرة، مطلياً صوتي بشيء من الحلاوة، كنت أعرف مقدار تأثيرها، لاطماً وجهي بيدي اللتين كنت اعرف أنهما جميلتان ومؤثرتان معاً: «المغفرة يا عزيزي أستاذ بيبرا! المغفرة!»

فضغط بيبرا الذي لعب دور القاضي أمامي بشكل ممتاز على زرّ فوق لوحة تحويل كهربائيّ ذات لون عاجيّ مثبتة بين ركبتيه ويديه. فأتى البساط الممدود ورائي بالفتاة ذات البلوزة الخضراء، حاملة إضبارة، فبسطتها على لوح البلّوط الذي بلغ ارتفاعه مستوى عظم ترقوتي، والمرتكز على قضيب فولاذيّ ملتو لم يتح لي رؤية ما بسطته الفتاة الخضراء البلوزة. ثم ناولتني قلم حبر: إذ لابد من شراء رحمة بيبرا بتوقع.

ومع ذلك أقدمت على طرح أسئلة في اتجاه الكرسيّ المتحرك، فكان من الصعب عليّ أن أضع إمضائي بلا روية في ذلك الموضع الذي عينه لي أظفر مصبوغ. لكنني سمعت بيبرا يقول: «إن هذا عقد عمل، يحتاج إلى اسمك الكامل. فأكتب أوسكار ماتسرات، لكي نعرف مع من ستكون علاقتنا في المستقبل.» وحالما وقعّت العقد تضاعفت وشوشة المحرّك الكهربائي خمس مرّات، فانتزعت بصري من قلم الحبر، ورأيت كيف أصبح الكرسيّ السريع الحركة صغيراً أثناء السير على الأرضية المكسوة

بالخشب، ثم انطوى، مختفياً خلف باب جانبي. ولعلّ البعض سيعتقد بأن ذلك العقد المحرر بنسختين، الذي وقعت عليه مرتين، قد اشترى روحي، أو ألزم أوسكار بالقيام بأعمال شنيعة مرعبة؛ كلاّ ثم كلاّ! فحين تدارست بنود العقد بمساعدة الدكتور دوش في غرفة الاستقبال، فهمت بدون جهد كبير بأن مهمة أوسكار كانت تقوم على الظهور بطبله أمام الجمهور، مثلما فعلت في سنّ الثالثة، وفي قبو شموه. وتكفّلت وكالة إقامة الحفلات بتحضر جولاتي الموسيقية، على أن تقرع طبل الإعلان قبل أن يظهر «أوسكار الطبّال» على المنصة.

أثناء حملة الإعلانات أصبحت أعيش من دفعة المال السخية الثانية التي منحتني إيّاها وكالة «فست». كنت أزور عمارة المكاتب بين الحين والآخر، حيث أقدم نفسي للصحفيين، تاركاً إياهم يلتقطون صوراً لي، حتى أنني ضللت طريقي ذات مرّة في ذلك الصندوق العمودي ذي الرائحة الموحّدة والمنظر الموحّد، والذي كان ملمسه يشبه ملمس شيء بذيء، غاية البذاءة، بحيث أنه غُلّف بوقاء مطاطيّ عازل، قابل للمد بلا نهاية. كان الدكتور بوش والفتاة ذات البلوزة الخضراء يعاملانني على أحسن وجه، لكنني لم أعد أرى الأستاذ بيبرا. فأصبحت في الحقيقة قادراً على استئجار سكن أفضل منذ جولتي الموسيقية الأولى، بيد أنني آثرت البقاء لدى تسايدلر بسبب كليب، محاولاً التصالح مع صديقي الذي عاب عليّ تعاملي مع رجال الأعمال، دون أن أذعن له، كذلك لم أعد أذهب إلى المدينة القديمة، أو أشرب البيرة، ولم أعد آكل السجق النيئ مع البصل، إنما صرت أتناول طعامي في مطاعم محطات القطارات، حيث أحضر نفسي لرحلات القطار المقبلة.

إن أوسكار لم يجد هنا متسعاً من المجال ليسهب في عرض نجاحاته، فقبل بداية جولتي الموسيقية بأسبوع واحد ظهرت أولى الملصقات المؤثرة حدّ الأذى، المعلنة عن عروضي، كما لو أنها أعلنت عن ظهور ساحر أو شفيع يشفي الناس بالصلاة أو مسيح. فغزوت في البدء المدن الواقعة في منطقة الرور، حيث كانت الصالات التي أقدم فيها

عروضي تستوعب ألفاً وخمسمائة أو ألفيّ شخص أو أكثر حتى. فكنت أتربع بمفردي على المنصّة أمام جدار أسود من القطيفة، حيث يسلّط عليّ كشّاف ضوئي. فصرت ارتدي بذلة سهرة طويلة السترة. وعندما بدأت أطبل لم يصبح لي أتباع من هواة الجاز الشباب، فكان يسمعني الأشخاص البالغون الذين هم في سنّ الخامسة والأربعين فما فوق، فيتعلقون بي. لكي أتوخى الدقّة فعليّ القول بأن فئة الخمسة والأربعين إلى الخمسة والخمسين شكّلت تقريباً ربع جمهوري. فكان هؤلاء أصغر الجمهور سنّاً، وكانت الفئة التي تبدأ من الخامسة والخمسين إلى الستين تمثل الربع الآخر من الجمهور، بينما شكّل الشيوخ والعجائز النصف من مستمعي موسيقاي. أصبحت أخاطب الطاعنين في السنّ، فكانوا يجاوبونني، فلم يلوذوا بالصمت حين أنطق طبلي ذا الأعوام الثلاثة، مبتهجين، لكن ليس بلغة المسنين، إنما كانوا يناغون ويواوءون كالأطفال الصغار: «راشو، راشو، راشو» إذا ما قرع لهم أوسكار على طبله نبذة عن حياة راسبوتين المدهشة. بيد أنني حققت نجاحاً أكبر من نجاحي براسبوتين الذي كان يتطلب جهداً بالنسبة للكثير من المستمعين، من خلال مواضيع خالية من الأحداث الرئيسية، بل وصفت أوضاعاً ما، أعطيتها عناوين من قبيل: الأسنان اللبنية الأولى - والسعال الديكي المرير - والجوارب الصوفية الطويلة تخربش وتحكّ - زمن يحلم بالنار، ينقع الفراش. فأثارت هذه العنوانين إعجاب المسنين، فاندمجوا فيها تماماً، معانين تحت وطأة بروز الأسنان اللبنية، فأخذ ألفان من الطاعنين في السنّ يسعلون سعالاً مريراً؛ لأنني نشرت السعال الديكيّ بين صفوفهم، وصاروا يحكون جلودهم عندما ألبستم السراويل الداخلية الطويلة، بل أضحى بعض الشيوخ والعجائز يتبولون في سراويلهم الداخلية ومقاعدهم المنجّدة؛ لأنني جعلت الأطفال الصغار يحلمون بالحرائق المدمّرة. لم أعد أعرف في أي مدينة حدث ما سأرويه الآن، فهل حدث ذلك في «فوبرتال» أم في «بوخوم» أم في «ركلنغهاوزن»: كنت عزفت أمام عمّال المناجم الكبار السنّ، وقد دعمت النقابة الحفل، فظننت بأن الزملاء القدماء الذين اشتغلوا أعواماً

طويلة في استخراج الفحم الأسود سيتحملون القليل من الرعب الأسود. فطبّل أوسكار أنشودة «الطاهية السوداء»، فشهد أوسكار بأن العمّال الألف والخمسمائة المتغلبين على هواء المناجم المخلوط بالغاز والمناجم المغمورة بالمياه والإضرابات والبطالة أطلقوا صراخاً مفزعاً بسبب الطاهية الشريرة السوداء، ذهب ضحيته - أنني أذكر الحكاية لهذا السبب بالذات - بضع زجاجات نوافذ خلف الستائر المتينة لقاعة الاحتفالات. فعبر هذا الطريق الملتوي استعدت صوتي القاتل الزجاج، بيد أنني استفدت منه باقتصاد، خشية أن افسد عليّ تجارتي؛ لأن جولاتي الموسيقية كانت تجارة. فبعدما رجعت وتحاسبت مع الدكتور دوش، اكتشفت بأن طبلي كان منجماً من ذهب. ودون أن أسأل عن الأستاذ بيبرا - لقد انقطع أملي برؤيته ثانية -، أبلغني الدكتور دوش بأن بيبرا ينتظرني.

فتمّ لقائي بالأستاذ على نحو مغاير عن اللقاء الأوّل، إذ لم يقف أوسكار أمام الأثاث الحديديّ، إنما رأى كرسيّاً متحرّكاً بواسطة الكهرباء، مصمماً على مقاسه انتصب قبالة كرسيّ الأستاذ. جلسنا صامتين فترة طويلة، نستمع إلى البيانات والتقارير الصحفية المتعلقة بفنّ التطبيل الأوسكاريّ التي سجلها على أشرطة مسجلة، فأسمعنا إيّاها الآن. بيبرا بدا مرتاحاً لها. بينما بدت لي ثرثرة أصحاب الجرائد مثيرة للحرج بعض الشيء؛ لأنهم مارسوا معي أسلوب التقديس، حاسبين لطبلي نجاحه في شفاء الناس من العلل، قائلين بأنه يعالج فقدان الذاكرة، ثم برز وقتها مصطلح «الأوسكارية» للمرّة الأولى، سرعان ما تحوّل إلى شعار. وقدمت لي الفتاة ذات البلوزة فنجاناً من الشاي، ووضعت على لسان الأستاذ قرصين، فتجاذبنا أطراف الحديث. بيبرا توقف عن توجيه التهم إليّ. أخذنا نتكلم مثلما كنّا نفعل قبل أعوام في مقهى الفصول الأربعة، فلم تنقصنا إلا السنيورة روزفيتا. بعدما لاحظت بأن الأستاذ بيبرا غفا أثناء استطرادي الطويل النفس الذي تناول الماضي الأوسكاريّ، عبثت حوالي ربع ساعة بمقعدي الكهربائيّ المتحرك، فجعلته يوشوش، منطلقاً سريعاً على الأرضية الخشبية، وملت به إلى اليسار ثم إلى اليمين، وتركته يتضخم

وينكمش، فكلفني الانفصال عن قطعة الأثاث العملية المتعددة النواحي جهداً بالغاً بعدما عرضت نفسها باعتبارها آفةً غير خطرة بإمكانياتها اللانهائية.

جولتي الموسيقية الثانية وقعت في عيد البشارة. فكيّفت برنامجي حسب تلك المناسبة، فتلقيت آيات الإعجاب من الصحف الكاثوليكية والبروتستانتية، فتسنى لي تحويل الآثمين الهرمين المتحجرين من كثرة الغليان إلى أطفال صغار رقيقين، يرتلون أناشيد عيد البشارة بكلّ رهافة. فرتل ألفان وخمسمائة رجل: «يا يسوع، إنني أحيا وأموت من أجلك»، أولئك الرجال الذين لم يتوقع المرء أنهم سيظهرون هذا القدر من الإيمان الدينيّ المتحمّس وهم في أرذل العمر. وفي الجولة الموسيقية الثالثة تصرفت بما يقتضي الغرض، وقد جاءت متزامنة مع فترة الاحتفالات التنكريّة. بحيث أن أيّ حفلة أطفال تنكريّة أخرى، لم تحقق البهجة والصفاء مثلما حققته عروضي الموسيقية التي أحالت كلّ جدةٍ مترنحة إلى عروس قاطع طريق ساذجة هزلية وحوّلت كلّ جدّ متخلخل إلى زعيم عصابة من قطّاع الطرق يرمي بسهامه في جميع الاتجاهات. عقب انتهاء الكرنفال وقّعت عقوداً مع شركة لإنتاج الأسطوانات. فقمت بتسجيل أعمالي الموسيقية في استوديوهات عازلة للصوت، حيث واجهت صعوبة في البدء بفعل الجوّ المجدب البارد، فتركتهم يلصقون صوراً هائلة الحجم على جدران الأستوديو، تمثّل شيوخاً وعجائز، تشبه أولئك المسنين الذين يجدهم المرء في دور العجزة أو على مصاطب المتنزهات العامة، فطبّلت بفاعلية تضاهي الفاعلية التي كنت أظهرها أثناء عروضي في قاعات الاحتفالات الدافئة بالناس. وكانت الأسطوانات تباع كما يباع الخبز الحار: فأصبح أوسكار ثريًا. لكن هل تخليّت عن غرفة الحمّام السابقة البائسة في دار تسايدلر؟ كلاّ؛ لم أتخل عنها. فلماذا؟ بسبب صديقي كليب، وبسبب الحجرة الفارغة خلف الباب الغائم الزجاج، التي تنفست فيها الممرضة دوروتيا. فما الذي فعله أوسكار بالمال الوفير؟ لقد تقدم بعرض إلى ماريا، ماريته.

فقلت لماريا: إذا ما هجرت شتنتسل، ليس بمعنى أن ترفضي الزواج منه، بل تطردينه طرداً بكلّ بساطة، فسأشتري لك متجراً للأطعمة الفاخرة مجهزاً على الطراز الحديث وفي موقع تجاريّ ممتاز، إذ أنك يا عزيزتي ماريا لم تُخلقي من أجل رجل وضيع يدعى السيّد شتنتسل. وفعلاً لم يخب ظنّي في ماريا، فتخلّت عن شتنتسل، وأقامت بإمكانياتي المالية متجراً للأطعمة الفاخرة من الدرجة الأولى في شارع فريدرش، وقد فتح قبل أسبوع - مثلما ابلغني ماريا بفرح لم يخلو من الاعتراف بالجميل - في منطقة أوبركاسل فرع لهذا المتجر الذي تأسس قبل ثلاثة أعوام.

فهل رجعت من جولتي السابعة أو الثامنة؟ لقد حدث ذلك في شهر يوليو/تمّوز الشديد الحر. كنت أشرت إلى سيّارة أجرة عند محطة القطارات، وذهبت إلى عمارة المكاتب، حيث وجدت هواة تجميع التواقيع المزعجين ينتظرونني مثلما انتظروني عند المحطة - حشد من المتقاعدين والجدّات الذين كان حريّاً بهم الاعتناء بأحفادهم. وعلى الفور سجلّت حضوري لدى الرئيس، ثم سرت عبر الأبواب المشرعة، فوق السجادة المؤدية إلى قطعة الأثاث الحديدية؛ بيد أن الأستاذ لم يكن جالساً خلف المكتب، ولم أجد كرسيّاً متحركاً ينتظرني، بل ابتسامة الدكتور دوش.

كان بيبرا قد فارق الحياة. لقد غاب أستاذ بيبرا منذ أسابيع. وبناءً على رغبته لم يبلغني أحد بما آل إليه وضعه من سوء. غير أن جولاتي الموسيقية لم تتوقف، حتى بعد موته. وبعدما فُضّت التركة ورثت ثروة طائلة، إضافة إلى اللوحة النصفية لروزفيتا، ومع ذلك منيت بخسائر مالية فادحة؛ لأنني ألغيت دون سابق إنذار جولتين تعاقدت عليهما، واحدة في جنوب ألمانيا والأخرى في سويسرا، فغرّمت بسبب إخلالي بالعقد. وبغض النظر عن آلاف الماركات التي خسرتها فقد فُجعت بموت بيبرا زمناً طويلاً، فقفلت الباب على طبلي واعتصمت في الغرفة. إضافة إلى أن صديقي كليب تزوّج خلال تلك الأسابيع، محيلاً بائعة السجائر الحمراء الشعر إلى عقيلة له، بعدما أهدى لها ذات مرّة صورة، فأخلى غرفته وانتقل

إلى ستوكهولم، فبقى أوسكار المستأجر الوحيد في دار تسايدلر. وطرأ على علاقتي بالقنفذ شيء من التغيير، فبعدما أخذت الجرائد كلّها تنشر اسمي على صفحاتها الأولى، صار يعاملني باحترام، بل أعارني أيضاً مفتاح حجرة الممرضة دوروتيّا الخالية، لقاء بعض النقود، وفي آخر المطاف استأجرتها، لكي أحيل دون أن يأجرها إلى شخص آخر.

لقد سار حزني في طريقه المعتاد، ثم فتحت بابيّ الغرفتين، منتقلاً عبر حصيرة الليف من غرفة الحمّام التي احتوتني إلى غرفة دوروتيّا، حيث أمعنت النظر في خزانة الثياب الفارغة، ساخراً من نفسي بين المرآة ودولاب الزينة، فأصابتني حالة يأس عند السرير الثقيل الخالي من الوسائد، ثم لجأت إلى الممر ناشداً الخلاص، فهربت من حصيرة الليف فدخلت غرفتي، لكنني لم أطق البقاء فيها. فثمة رجل قدم من شرق بروسيا بعدما فقد أملاكه في مقاطعة مازورن، كان يتمتع بحسّ تجاري، فأفتتح محلاّ بالقرب من يوليشر شتراسه أطلق عليه بكل بساطة اسم «مؤسسة تأجير الكلاب»، واضعاً في حسابه ربما زبوناً في هيئة إنسان وحيد معزول. فاستعرت منه لوكس، وهو كلب رعاة قويّ، قليل السمنة، أسود لامع. فكنت أذهب معه للنزهة، بدلاً من إنهاك نفسي بالتردد جيئة وذهاباً بين غرفتي، غرفة الحمّام، والخزانة الفارغة للممرضة دوروتيّا في دار تسايدلر.

فكان الكلب يأخذني دائماً إلى نهر الراين، فينبح هناك على السفن، ثم صار لوكس يقودني دائماً إلى منطقة رات، أي إلى غابة «غرافنبيرغ»، حيث كان ينبح على العشّاق. في نهاية يوليو أخذني الكلب لوكس إلى غيرسهايم، أي إلى إحدى ضواحي دوسلدورف التي تنكرت مؤقتاً لأصلها الريفيّ القرويّ عبر عدد من المنشآت الصناعية، ومعمل كبير لإنتاج الزجاج. كانت هناك حدائق صغيرة مجاورة لبعضها تقع مباشرة خلف غيرسهايم، وبين الحدائق، أو جوارها، أو خلفها ثمّة مرعى مسيّج، تمايلت فيه حقول غلال، أو حقول شوفان حسب اعتقادي. وهل ذكرت بأن اليوم الذي قادني به لوكس إلى غيرسهايم ومن ثم إلى المنطقة الواقعة

بين حقول الشوفان والحدائق الصغيرة كان يوماً قائظاً؟ بعدما خلّفنا آخر بيوت الضاحية أطلقت الكلب من القيد، لكنه بقي عند قدمي. لقد كان كلباً ثميناً، كلباً باهظ الثمن، إذ أنه يجب أن يكون مخلصاً لأسيّاد عديدين بصفته كلب تأجير. وبعبارة أخرى كان لوكس يطيعني، فلم تكن له أبداً طباع فصيلة «الداكل» القصيرة القوائم. بيد أنني رأيته يبالغ في الطاعة الكلبية؛ لأنني وددت أن أره ينطّ، فصرت أركله لكي يقفز، لكنه كان يتسكع بتأنيب ضمير، ثم يدير رقبته السوداء الناعمة نحوي، ويرمقني بعينيه المخلصتين بالمعنى الحرفيّ للكلمة.

كنت أخاطبه بقولي: «ابتعد يا لوكس، انصرف عنّي!» فيرضخ لأمري مرّة أخرى، لكن مجرد فترة قصيرة، فبدا الأمر مريحاً جدّاً في نظري حين ابتعد عنّي وقتاً طويلاً، مختفياً في حقل الغلال، المتمايل حسبما اشتهت الريح باعتباره حقل شوفان، كلاّ، بل كان متمايلاً-ساكناً ينذر بالرعد.

فكّرت في أن لوكس أخذ يطارد أرنباً، أو ربما شعر بالحاجة إلى البقاء بمفرده، أي البقاء كلباً مثلما أراد أوسكار أن يبقى إنساناً بلا كلب فترة طويلة. فلم أعر اهتماماً للمكان، ولم تفلح الحدائق الصغيرة أو غيرسهايم أو المدينة التي لفها الضباب خلف غيرسهايم في استدراج بصري إليها. جلست على بكرة أسلاك صدئة، يجب أن أسميها الآن بكرة تطبيل، إذ حالما جلس أوسكار على الصدأ بدأ يطبل بكاحليه على بكرة التطبيل التي لفحتني حرارتها. وشعرت بالضيق من بذلتي التي لم تكن صيفية بما يكفي. لوكس بقي مختفياً، بعيداً عنّي. بلا شكّ أن بكرة التطبيل لم تعوضني عن طبل الصفيح، لكن، على أية حال، انزلقت إلى الوراء، فالتقطت عودين جافين بعدما ترددت في مخيلتي صور الأعوام الأخيرة المليئة بأجواء المستشفيات، وقلت في نفسي: انتظر الآن يا أوسكار. دعنا نرى من أنت، ومن أين أتيت. حينئذ شعّت اللمبتان اللتان بلغت قوتهما ستين واطاً في ساعة ولادتي، حين رفرفت فراشة بجناحيها بين اللمبتين، ومن بعيد حرّك الإعصار قطع الأثاث الكبيرة، وسمعت ماتسرات يتكلم، ثم أعقبته أمّي. لقد وعدني بالمتجر، بينما وعدتني أمّي

بلعبة أطفال، وأنني إذا ما بلغت الثالثة فسأحصل على طبل صفيح، فحاول أوسكار أن يتجاوز الأعوام الثلاثة بأقصى سرعة: فكنت آكل وأشرب وأتقيأ وأنمو، وتركتهم يزنونني ويلفونني ويقمطونني ويغسلونني ويمشطون شعري ويذرون جسمي بالمساحيق البيضاء ويطعمونني ضد الأمراض ويتعجبون منّي ويسمونني باسمي، فكنت أبتسم حسب الرغبة وأتهلل فرحاً حسب الطلب وأنام في الوقت المناسب لأصحو في الموعد المحدد، فيتخذ وجهي أثناء النوم ملامح الوجه الذي يطلق عليه الكبار وجه الملاك. وكثيراً ما أصبت بالإسهال والرشح والسعال الديكي الذي احتفظت به فترة طويلة، ولم أتخلّ عنه إلا بعدما أدركت إيقاعه المعقد في معصميّ؛ فمعزوفة «السعال الديكيّ» تنتمي كما نعلم إلى برنامجي الفنّي، وإذا ما قرع أوسكار السعال الديكيّ على طبله أمام ألفين من الشيوخ والعجائز فإنهم يسعلون دفعةً واحدةً شيوخاً وعجائز. ويبدأ لوكس يعوص أمامي ويمسح جسمه بركبتي؛ هذا الكلب الذي أعرته من مؤسسة تأجير الكلاب حسبما أملت عليّ عزلتي! لكنه نهض فجأة على قوائمه الأربع وأخذ يهزّ ذيله وينظر كما يفعل الكلب، حاملاً بين خطمه المزبد الذي سال لعابه: عوداً أو حجراً أو كلّ ما بدا ذا قيمة من وجهة نظر الكلب. وعلى مهل تنصّل عنّي زمني المبكر البالغ الأهمية، فخفّ ألم اللهاة الذي أنشبه ظهور الأسنان اللبنية الأولى، فاتكأت متعباً إلى الوراء: رجلاً ذا حدبة حسن الهندام، بثياب غير ملائمة تماماً للطقس وبساعة يدوية وبطاقة الهوية الشخصية ورزمة من الأوراق المالية في محفظتي. ثم حشرت سيجارة بين شفتيّ، مشعلاً عود الثقّاب، تاركاً التبغ يشيع طعم الطفولة الجليّ في تجويف فمي.

ولوكس نفسه؟ لقد كان يفرك جسمه بي، فركلته، ونفخت عليه دخان سيجارتي، فلم يستسغ ذلك، لكنه بقي يحكّ جسمه بي. فلعقني بصره، حتى صرت أفتش في أسلاك التلغراف عن طائر السنونو، إذ أنني أردت استخدام السنونو كوسيلة مضادة لإلحاح الكلب. لكن لم يكن هناك أثر للسنونو، فضلاً عن أن لوكس لم يرضخ للزجر. ثم دس خطمه بين فردتي سروالي، وبدأ ينطح الموضع الحسّاس بثقة كما لو أن معير الكلاب قد

روّضه على هذا الفعل. فأصابه كعب حذائي مرتين، فابتعد مسافة، مرتجفاً بقوائمه الأربع، مقدماً لي بخطمه العود أو الحجر بإصرار، كما لو لم يقدم لي عوداً أو حجراً، إنما محفظة نقودي التي تحسست موضعها في السترة أو الساعة التي تكّت فوق معصمي بوضوح. فما الذي مسكه بفمه؟ وما هذا الذي بدا ضروريّاً، جديراً بالرؤية؟ فمددت يدي بين قواطعه الساخنة، وأمسكت بما مددت يدي من أجله، فعرفت ما مسكت به، وفعلت كما لو أنني بحثت عن مفردة يمكن أن تصف هذه اللُقطة التي أتى بها لوكس من حقل الشوفان.

ثمّة أعضاء في جسد الإنسان تتحلل، مبتعدة عن المركز، بحيث يمكن تأملها بدقة وبساطة. كانت اللُقطة بنصراً، أي بنصر أنثى. فكان إصبع أنثى أحاط به خاتم جميل، وقد قُطع من بين عظم اليد الوسطى وعقدة الإصبع الأولى، أي مسافة سنتمترين تقريباً عن الخاتم، فحافظ القطع الدائريّ النظيف المقروء بوضوح، حافظ على وتر العضلة الباسطة. فكان إصبعاً رائعاً مرناً. أمّا الحجر الكريم الذي طُعّم به الخاتم، المثبّت بستة مخالب فقد أسميته فوراً زبرجداً قبل أن تتأكد صحّة هذه التسمية فيما بعد. وفيما يتلق بالخاتم فقد بدا في موضعه رقيقاً بالياً حدّ الهشاشة، مما حدا بي إلى تقييمه باعتباره قطعة ميراث. وعلى الرغم من القذارة، أو بالأحرى الطين الذي رسم قوساً تحت الظفر كما لو أن الإصبع أراد أن ينكش الأرض أو يحفرها؛ فإن شكل الإصبع وموقعه ولدا انطباعاً بأن صاحبته كانت تعتني بنفسها. ماعدا ذلك بدا الإصبع بارداً بعدما انتزعته من خطم الكلب النابض بحرارة الحياة؛ كذلك منح شحوبه الممتقع البرودةَ حقّها.

كان أوسكار يحمل منذ أشهر منديلاً مثلثاً أطلّ من جيب سترته العلويّ مثل المناديل الذي يضعها المختالون. فسحبت قطعة الحرير تلك، وفرشتها ثم وضعت عليها الإصبع، ولاحظت بأن خطوطاً برزت في الجهة الداخلية للإصبع، ممتدة حتى العقدة الثالثة منه، أفصحت عن مثابرة الإصبع واجتهاده وتجلّده الطموح. وبعدما لففت الإصبع بالمنديل،

نهضت من بكرة الأسلاك وربتّ على رقبة الكلب لوكس وهممت بالانصراف برفقة المنديل والإصبعِ المحفوظ فيه، قاصداً الذهاب إلى غيرسهايم ومن ثمّ إلى بيتي، حاملاً في رأسي هذه الفكرة أو تلك عن ما يمكن أن أفعله بهذه اللقطة، فوصلت إلى أقرب سياج لحديقة صغيرة - هنا خاطبني فيتلار الذي اضطجع على فرع شجرة تفّاح حيث راقبني والكلب الذي أعاد لي ما رميته له.

الترام الأخير أو عبادة البرطمان

كان صوته وحده كافياً: تلك الغنّة المتعجرفة الحادة الارتفاع. لقد اضطجع على فرع شجرة التفّاح وقال: «إنك تملك كلباً بارعاً يا سيّدي!» فأجبته بشيء من الاضطراب: «ما الذي تفعله فوق شجرة التفّاح؟» فانكمش بتمنّع ودلال ثم تمطّى بجذعه الطويل: «إنه تفّاح للطبخ ليس إلا، فأرجوك أن لا تخشى منه.»

حينئذ توجب عليّ أن أنهره: «ما الذي يعنيه لي تفّاحك؟ وما هذا الذي أخشاه؟»

فقال بلسان ممطوط: «يمكنك أن تحسبني أفعى الجنّة، فقد كان هناك أيضاً تفّاح للطبخ.»

لكنني أجبته باستياء: «يا لها من ثرثرة مجازية!»

فقال بدهاء: «هل تعتقد بأن تفّاح المائدة وحده جدير بالمعصية؟»

وعند ذلك الحدّ هممت بالذهاب، إذ بدا لي في تلك اللحظة بأنه لم يكن هناك ما هو أكثر إزعاجاً من خوض جدال حول أصناف فواكه الجنّة. لكنه أصبح مباشراً معيّ، فقفز بخفّة من فرع الشجرة وانتصب أمام السياج بجذعه الفارع المتمايل: «ما هو هذا الذي جلبه لك كلبك من حقل الشوفان؟»

فيا ليتني لم أجبه بقولي إنه «جلب لي حجراً؟»

فتحولت إجابتي إلى استجواب: «ومع ذلك تدسّ الحجر في الحقيبة؟»

«إنني أحمل الحجر في حقيبتي بكلّ سرور.»

«لكن ما جلبه لك الكلب بدا لي مثل قطعة على أبعد تقدير.»

«ومع ذلك أبقى مصرّاً على الحجر، حتى لو كان ما حمله لي عبارة عن قطعة، أو يمكن أن يكون قطعة عشرات المرّات.»

«إذاً فهو قطعة؟»

«لا مانع لدي إذا كان قطعة أو حجراً أو تفّاحاً للطبخ أو للمائدة...»

«هل هو قطعة متحركة؟»

«إن الكلب يريد الرجوع، فسأذهب!»

«أهو قطعة لحمية اللون؟»

«من الأفضل لك أن تنتبه إلى تفّاحك! - فهيا بنا يا لوكس!»

«أهو قطعة متحركة مطوقة بخاتم وذات لون لحميّ؟»

«ما الذي تريده منّي؟ لقد أتيت لأتنزه، فاستأجرت كلباً!»

«إذاً مثلما ترى، فإنني أريد أيضاً أن استعير شيئاً، فهل تسمح لي لحظة بتمرير الخاتم الجميل على إصبعي الصغير، ذلك الخاتم الذي لمع على قطعتها مما جعل القطعة تصبح بنصراً؟ - وفيتلار هو اسمي، غوتفريد فون فيتلار. وأنا آخر من ينتمي إلى هذا النسب.»

وهكذا تعرفت على فيتلار، وصادقته منذ ذلك اليوم ومازلت اعتبره صديقي إلى اليوم، لذلك قلت له قبل بضعة أيّام - كان يأتي لزيارتي -: «إنني سعيد يا عزيزي فيتلار، لأنك أبلغت الشرطة بنفسك آنذاك، وليس أحداً آخر مجهولا.»

وإذا كانت هناك ملائكة فإن مظهرها سيبدو بالتأكيد مثل مظهر النبيل فيتلار: كان فارع الطول، حيوياً، قابلاً للطيّ، يميل إلى معانقة أشد أعمدة الكهرباء جدباً وعقماً أكثر من ميله إلى معانقة فتاة ناعمة، توّاقة للعناق. فلم يكن من السهل التعرّف على طبيعة فيتلار حالاً، إذ أنه إذا ما أظهر جانباً معيناً من شخصيته، حسب الجو المحيط به، فيمكن أن يتحوّل إلى خيط أو فزّاعة طيور أو حامل شمّاعة أو إلى فرع شجرة أفقيّ. لذلك فإنه

لم يلفت انتباهي عندما جلست على بكرة الأسلاك بينما اضطجع هو فوق شجرة التفّاح. حتى الكلب نفسه لم ينبح عليه، لأن الكلاب لا تستطيع شمّ الملاك ولا رؤيته، ناهيك عن النباح عليه.

وقد توسلت به يوم أمس الأوّل: «كن لطيفاً يا عزيزي وابعث لي نسخة عن الشكوى التي تقدمت بها إلى القضاء قبل عامين تقريباً، فتسببت في محاكمتي.»

وهذه هي النسخة المصورة التي سأدعها الآن تتكلم بعدما قدمت أفادتها إلى القضاء:

أنا، غوتفريد فون فيتلار، كنت في ذلك اليوم مضطجعاً على فرع شجرة تفّاح تحمل كلّ عام الكثير من تفّاح الطبخ في حديقة والدتي، أي بما يكفي لتعبئة ستة برطمانات من التفّاح المغلي. وكنت مضطجعاً على الفرع إلى الجانب، مثبتاً عظم حوضي اليسار في النقطة المنخفضة من الفرع التي علاها الطحلب قليلاً، وقد اتجهت قدماي نحو معمل الزجاج في غيرسهايم. فتطلعت - إلى أين تطلعت؟ - تطلعت إلى الأمام، منتظراً أن يحدث شيء ما في مجال بصري. فوقع المتهم، الذي أصبح صديقي اليوم، في مجال بصري. وكان هناك كلب يرافقه، فأخذ يطوف حوله، وتصرّف كما يتصرّف أي كلب، وحسبما أسرّ لي المتهم فيما بعد فإن هذا الكلب، لوكس، هو من فصيلة كلاب الرعاة، يمكن أن يستأجره المرء قرب «روخوسكيرشه» من مؤسسة لتأجير الكلاب.

لقد جلس المتهم على بكرة الأسلاك الفارغة الملقاة منذ نهاية الحرب قبالة حديقة والدتي أليسا فون فيتلار. وكما يعلم القضاء الموقر فإن المرء يمكن أن يصف جسد المتهم بالجسد الصغير والمشوّه أيضا. فذلك ما لفت انتباهي. بيد أن ما أثار اهتمامي بشكل خاص هو تصرّف هذا السيّد الصغير المتأنق. فقد كان يطبل بغصنين ذاويين على الحديد الصدئ لبكرة الأسلاك. إذا ما وضعنا في نظر الاعتبار بأن المتهم يحترف مهنة التطبيل، وكما أتضح فإنه يمارس هذه المهنة أينما حلّ، فضلاً عن بكرة التطبيل -

ليس من العبث أن يطلق عليها اسم طبلة الأسلاك - كانت تغري حتى الهواة بالتطبيل، فلابد من القول بأن: المتهم أوسكار ماتسرات أحتل في ذلك اليوم القائظ المصحوب بالبرق والرعد مقعده على طبلة الأسلاك الملقاة قبالة حديقة السيّدة أليسا فون فيتلار، فأخرج أصواتاً إيقاعية منتظمة بواسطة غصني صفصاف ذاويين متفاوتيّ الحجم. وأضيف إلى أقوالي بأن الكلب لوكس اختفى وقتاً طويلاً في حقل شوفان معدّ للحصاد. إذا ما سألني أحد عن وقت الحدث فلا يمكنني الإجابة على هذا السؤال؛ لأنني إذا ما اضطجعت على فرع شجرة تفّاحنا أفقد أي معنى للزمن، مهما طال أو قصر. وإذا ما ذكرت بأن الكلب اختفى وقتاً طويلاً، فذلك يعني بأنني افتقدت الكلب، إذ أنه أثار إعجابي بفرائه الأسود وأذنيه المرتخيتين. بيد أن المتهم - مثلما أستطيع القول - لم يفتقد الكلب.

وبعدما رجع الكلب لوكس من حقل الشوفان المعدّ للحصاد حمل في خطمه شيئاً ما. ليس بمعنى أنني عرفت ما حمله الكلب في خطمه! إنما فكّرت في عود نبات، أكثر من تفكيري في أنه قد يكون حجراً أو علبة صفيح. حالما أنتزع المتهم الدليل المادي للجريمة من خطم الكلب أدركت على الفور طبيعة ذلك الشيء. منذ تلك اللحظة، أي أثناء ما أخذ الكلب يفرك خطمه الممتلئ بالفردة اليسرى لسروال المتهم - حسب اعتقادي - حتى النقطة التي لا يمكن تحديدها بدقة للأسف الشديد، أي بعدما أدخل المتهم يده في خطم الكلب، مدفوعاً بنزعة الاستيلاء، مضت عدّة دقائق إذا ما توخيت الحذر هنا. ومهما أجهد الكلب نفسه لكي يثير انتباه سيّدة المستأجر، فإن سيده واصل التطبيل بلا كلل وبأسلوب رتيب راسخ، ومع ذلك لا يمكن أدراك كنهه، مثلما يطبل الأطفال. لمّا لجأ الكلب إلى أسلوب غير مهذّب وصار يدسّ خطمه المبلول بين بساقيّ المتهم، خفض المذكور غصنيّ الصفصاف ثم ركل الكلب - إنني أتذكر ذلك جيّداً - بقدمه اليمنى. فابتعد، منحرفاً على شكل نصف قوس، ثم اقترب مرّة أخرى بطريقة خانعة، مرتجفاً، مقدماً خطمه الممتلئ. فمدّ المتهم يده اليسرى دون أن ينهض بين أنياب الكلب لوكس الذي تراجع

بضعة أمتار إلى الخلف بعدما تحرر من لقيته. بيد أن المتهم ظلّ جالساً، ممسكاً باللُقطة، ثم ضمّ يده، وفتحتها مرّة ثانية، ثم ضمها وبسطها حتى لمع شيء ما في اللقطة. بعدما أمعن المتهم بصره فيها، رفعها بسبابته وإبهامه إلى مستوى نظره بشكل عمودي.

حينئذ أطلقت على اللقطة اسم الإصبع، ثم وسعت من المصطلح بسبب اللمعان، وقلت إنه بنصر، خالقاً بذلك واحدة من أكثر المحاكم القضائية إثارة عقب الحرب العالمية: لذلك أصبحت، أنا غوتفريد فون فيتلار، واحداً من أهم الشهود في قضية البنصر. ولأن المتهم احتفظ بالهدوء فقد احتفظت أنا أيضاً بالهدوء. بل إنّ هدوءه أشركني معه. وحالما لفّ المتهم الإصبعَ بعناية في منديله الذي أطلّ من جيب سترته العلويّ مزهوّاً بخيلاء أوّل الأمر شعرت بتعاطف مع الرجل الجالس على طبلة الأسلاك: فكرت في أنه إنسان منظّم، فعليك أن تتعرف عليه. وناديته حين ذهب مع كلبه المعار في اتجاه غيرسهايم، لكنه أظهر امتعاضاً في البدء، بل غطرسة. فأنا لم أفقه إلى اليوم لماذا أراد المنادى عليه أن يرى فيّ رمزاً للأفعى لمجرد أنني تمددت فوق شجرة التفّاح، فضلاً عن أنه أتهم تفّاح والدتي المخصص للطبخ، قائلاً إنه بالتأكيد من النوع الفردوسيّ.

لعلّ من عادات الشرير تفضيل الانبطاح على فروع الأشجار، غير أن ما دفعني إلى زيارة المضجع فوق شجرة التفّاح بضع مرّات في الأسبوع لم يكن سوى الضجر الذي يجتاحني عادةً، فلعلّ الضجر هو الشرّ القائم بذاته. لكن ما الذي حدا بالمتهم إلى القدوم حتى أطراف مدينة دوسلدورف؟ إنها العزلة، مثلما اعترف لي فيما بعد، العزلة هي التي حرضته على المجيء. لكن أليست العزلة هي الاسم الشخصيّ الأوّل للضجر؟ إنني أطرح هذه التأملات لكي أشرح الأمر للمتهم، وليس لكي أحمله ذنبا. كان أسلوبه الشرير، أي تطبيله الذي أطلق الشرّ إيقاعياً، فجعله يحظى بتعاطفي، هو الذي حثّني على مخاطبته وإقامة علاقة صداقة معه. حتى الدعوة نفسها التي قادتنا إلى ساحة القضاء الموقّر بصفتي شاهداً وبصفته متهماً كانت عبارة عن لعبة اختلقناها، بل وسيلة للتسرية عن

ضجرنا وعزلتنا وتغذيتهما. وبناءً على طلبي الوديّ وضع المتهم، وبعد تردد، خاتمَ البنصر، الذي كان سهل الخلع، في الإصبع الصغير ليدي اليسرى. فبدا ملائماً، أشاع في نفسي الفرح. بالطبع كنت غادرت فرع الشجرة الممهد قبل أن أجرّب الخاتم. فوقفنا على جانبيّ السياج، وتبادلنا الأسماء، متحدثين بلطف، بعدما أتينا على ذكر بعض المواضيع السياسية، ثم أعطاني الخاتم، بينما احتفظ بالإصبع لنفسه بعناية فائقة. كنّا متفقين في الرأي على أن الإصبع إصبع امرأة. عندما وضعت الخاتم في يدي معرضاً إيّاه إلى الضوء، بدأ المتهم يقرع بيده اليسرى الطليقة السياج، مصدراً إيقاعات راقصة مرحة خالية من الهم. إلا أن ألواح الخشب التي سوّرت حديقة والدتي كانت ذات طبيعة هشّة متداعية، فلم تستجب لرغبة التطبيل التي انتابت المتهم إلا على شكل خشخشة وذبذبة خشبية. لم أعد أعلم كم وقفنا، نتفاهم بأعيننا. فعثرنا على أنفسنا عبر لعبة بريئة بعدما تعالت أصوات محركات طائرة متوسطة الارتفاع. ربما أرادت الطائرة الهبوط في لوهاوزن. لقد بدا لنا من المهم أن نعرف فيما إذا ستهبط الطائرة بمحركين أم بأربعة، لكننا لم ننقطع عن النظر إلى بعضنا، ولم نأت على ذكر الطائرة، مطلقين على تلك اللعبة فيما بعد، حين وجدنا فرصة مناسبة لممارستها، اسم (زهد شوغر ليو)؛ لأن المتهم كان له صديق قبل أعوام حمل اسم شوغر ليو وكان يمارس اللعبة ذاتها في المقابر بصورة خاصة. وحالما عثرت الطائرة على مدرج الهبوط - لم أستطع فيما إذا كانت بمحركين أم بأربعة - أعدت له الخاتم، فوضعه المتهم في البنصر، مستخدماً منديله من جديد كمادة تغليف، وطلب مني أن أرافقه في طريقه.

حدث ذلك في السابع من يوليو من العام ١٩٥١. وفي غيرسهايم لم نستقل القطار من المحطّة الأخيرة للترام، إنما أخذنا سيّارة أجرة. وأتيحت للمتهم العديد من الفرص فيما بعد ليتصرف معي بسخاء. كنّا ذهبنا إلى المدينة، وتركنا سيّارة الأجرة تنتظر أمام مؤسسة تأجير الكلاب في «روخوسكيرشه»، حيث سلّمنا الكلب لوكس، وعدنا إلى التاكسي التي اخترقت بنا المدينة عبر «بلك» و«أبوربلك» حتى مقبرة فيرستن، فدفع

السيّد ماتسرات أكثر من اثني عشر ماركاً أجرة للتاكسي، ثم قمنا بزيارة مشغل شواهد النحّات كورنيف. وكان المشغل شديد القذارة، فشعرت بالارتياح عندما أنجز النحّات مهمة صاحبي خلال ساعة. أثناء ما وصف لي الصديق أدوات المشغل وأنواع الصخور بأسلوب معقد وبشغف كان السيّد كورنيف، الذي لم يذكر الإصبع بحرف واحد، قد صبّ قالباً من الجبس للإصبع بدون الخاتم. فراقبته بطرف عيني خلال عمله، بيد أنه أخضع الإصبع لبعض المعالجة؛ ذلك يعني أنه دهنه بالشحم، ومرر خيطاً متيناً على المقطع الجانبي للإصبع، ثم صبّ عليه الجبس وصار يوزّع الشكل بالخيط قبل أن يجفّ الجبس. إن صبّ قوالب الجبس لم يكن أمراً جديداً عليّ في الواقع؛ لأن مهنتي هي تصميم الديكورات، بيد أن الإصبع أتخذ طابعاً غير جماليّ حالما أمسك به النحّات، ولم يفقد تلك الصفة غير الجمالية إلا بعد أن أخذ المتهم الإصبعَ بيده إثر إنجاز قالب الصبّ، لينظفه من الشحم ويلفّه في منديله. ثم سدد صديقي أجور النحّات الذي رفض في البدء أن يتقبل المبلغ لأنه نظر إلى السيّد ماتسرات بصفته زميلاً في المهنة، وقد ذكر أيضاً بأن السيّد أوسكار كان يفرك له دماملة في السابق ولم يطلب منه مقابلاً لقاء ذلك. بعدما تجمّد الجبس فكك النحّات القالب، وسكب في القالب الأصلي ما كان ينقصه من الصبّ، ووعدنا بأنه سينجز في الأيّام المقبلة بضعة أشكال من الجبس للقالب، ثم رافقنا عبر معرض شواهده حتى طريق الرجاء.

وثمة رحلة ثانية في سيارة الأجرة أخذتنا إلى محطّة القطارات الرئيسية، حيث دعاني المتهم إلى تناول طعام عشاء متعدد الوجبات في مطعم المحطة المرتب ترتيباً جيّدا. كان السيّد ماتسرات يتحدث إلى عمّال المطعم بودّ ومن غير كلفة، مما حملني إلى الظنّ بأنه من زبائن المطعم الدائمين. تناولنا شرائح من لحم صدر الثور مع الفجل الطازج وسمكاً من نهر الراين وختمنا الطعام بالجبن ثم احتسى كلّ منا زجاجة صغيرة من النبيذ الخفيف. حين أتينا على ذكر الإصبع من جديد، مقدماً نصيحتي للمتهم بأن ينظر إلى الإصبع باعتباره ملك الآخرين، وعليه أن يسلّمه،

لاسيما أنه يمتلك الآن نسخة من الجبس عنه، أوضح لي المتهم بثقة وإصرار بأنه يعتبر نفسه المالك الشرعي للإصبع، إذ أنه كان موعوداً بالحصول على إصبع كهذا عند بلوغه الثالثة، حتى وأن جاء الوعد مشفّراً من خلال عبارة مضرب التطبيل؛ ثم ذكر ندب هربرت تروجنسكي المنتشرة على ظهر الصديق بحجم الأصابع، والتي تنبأت له بالحصول على البنصر؛ إضافة إلى خرطوشة فارغة عُثر عليها في مقبرة سازبه وكان لها حجم البنصر وأهميته المستقبلية.

وإذا كنت قد سخرت في البدء من حجج صديقي الذي كسبت صداقته حديثاً فلابد من الاعتراف بأن الإنسان المتفتح والرحب الصدر سيفهم دون جهد تعاقب: مضربَ التطبيل فالندبةَ، فالخرطوشة الفارغة، ومن بعدها البنصر. وثمة سيّارة أجرة ثالثة أقلتني إلى داري بعد العشاء. فاتفقنا على موعد، وحين قمت بزيارة المتهم في اليوم الثالث حسب الموعد كان قد أحضر لي مفاجأة. فأطلعني أوّل الأمر على بيته، أي على غرفته، إذ أن السيّد ماتسرات يسكن بالإيجار. فكان قد استأجر في البدء حجرة حمّام في السابق، ضيّقة للغاية، وبعدما جلب له فن التطبيل جاهاً وثراءً صار يدفع إيجار الحجرة العديمة النوافذ التي أطلق عليها اسم حجرة الممرضة دوروتيّا، بل أنه لم يتهيب من تسديد كفّارة عن الغرفة الثالثة التي قطنها سابقاً سيّد موسيقي زميل للمتهم يدعى مونتسر؛ إذ أن صاحب الدار السيّد تسايدلر الذي علم بثراء السيّد ماتسرات قد رفع الإيجار إلى الأعلى بوقاحة تامة.

وفي حجرة الممرضة دوروتيّا المزعومة أحضر لي المتهم المفاجأة وقد انتصب برطمان على لوح مرمر لدولاب غسيل مزوّد بمرآة، كان له حجم البرطمانات التي تحفظ فيها والدتي أليسا فون فيتلار التفّاح المهروس. بيد أن هذا البرطمان حفظ البنصر العائم في محلول الكحول. وبفخر أطلعني المتهم على عدد من الكتب العلمية الضخمة التي اهتدى بها أثناء عملية الحفظ. فتصفحت تلك المجلّدات بشكل عابر، ولم أتوقف عند الرسوم الإيضاحية، لكنني اعترف بأن المتهم نجح في الاحتفاظ بمنظر

الإصبع سليماً، كذلك بدا البرطمان جميلاً بمحتواه أمام المرآة ومثيراً من ناحية الديكور، مثلما أكدّت على الدوام بصفتي مصمم ديكور. وبعدما لاحظ المتهم بأنني ألفت رؤية البرطمان، أسرّ لي بأنه يتعبد أحياناً أمام هذه العلبة الزجاجية. بفضول وبشيء من الجسارة رجوته أن يعرض حالاً نموذجاً من صلاته، فطلب مني أن أقدم له خدمة مقابلة، ثم زوّدني بورق وقلم رصاص، طالباً منّي تدوين صلاته، وكذلك طرح أسئلة تتعلق بالإصبع، إذ أنه سيجيب مصلّياً بما أوتي من علم.

وفيما يلي أدرج، بصفتي شاهداً، كلمات المتهم وأسئلتي وإجاباته - عبادة البرطمان: إنني أصلّي. من أنا؟ أوسكار أم أنا؟ إنني متدين، بل إنّ أوسكار مشتت الذهن. وخشوع بلا انقطاع، لكن بدون خوف من التكرار. إنما أنا بفطنة وتبصّر. لأنني بلا ذاكرة. فأوسكار بفطنة وتبصّر أيضاً، لأنه مليء بالذكريات. بارد وساخن ودافئ أنا. ومذنب عند إعادة السؤال. وبريء بدون السؤال. مذنب لأنني، أصبحت مذنباً على الرغم من، برّأت ساحتي من، فتدحرجت على، وتغلبتُ على الصعوبات، وأفرغت نفسي من. . .، وضحكت بسبب ضحكت عن ضحكت لـ. . .، وبكيت ل بكيت أمام بكيت بلا، وكفرت نطقاً، فصمتُّ تجديفاً، لا أتكلم، ولا أصمت، بل أصلّي. أصلّي ل. لمن؟ للزجاج؟ أي زجاج؟ زجاج البرطمان. ماذا حفظ البرطمان؟ البرطمان برطم في داخله إصبعا. أي إصبع؟ البنصر. لمن؟ أشقر. من هو الأشقر. متوسط القامة. أيبلغ طوله متراً وثلاثة وستين سنتمتراً؟ أي علامات فارقة؟ إنّه خال. أين؟ في باطن العضد. يمنياً يساراً؟ يميناً. أي بنصر؟ اليسار. مخطوبة؟ نعم، لكنها عزباء. العقيدة؟ بروتستانتية. باكر؟ باكر. متى ولدت؟ لا أعلم. متى؟ في هانوفر. متى؟ في ديسمبر/ كانون الأوّل. برج القوس أم الجدي؟ القوس. طبعها؟ خائفة. سليمة الطوية؟ مثابرة، لكن مهذارة. متبصرة؟ مقتصدة، رزينة، طلقة المحيّا أيضاً. خجولة؟ ذوّاقة، صادقة، ومتزمتة. شاحبة، تحلم دائماً بالرحلات. تحيض بلا انتظام، خاملة، تعاني بسرور، وتتحدث عن معاناتها، فقيرة الفكر، سلبية، تترك الأمور تسير كما تشاء،

تصغي بانتباه، تهزّ رأسها موافقة، تشبك ذراعيها، وتخفض أجفانها عند الكلام، وتفتح عينيها بسعة إذا ما خاطبها أحد، لون رمادي فاتح بنيّ قريب من الحدقة، استلمت خاتماً هدية من رئيسها المتزوج، فرفضته في البدء، ثم تقبلته، حدث فظيع، كثير الليف، الشيطان، يعلم الكثير، فرحلت، انتقلت، ثم عادت ثانية، لم تستطع التخلي عن الأمر، إضافة إلى الغيرة غير المبررة، المرض لم تتسبب به، الموت لم تتسبب به، بلى، كلاّ، لم تكن راغبة، قطفت زهور حقل حبوب، ثم جاءت، كلاّ، بل كانت ترافقها منذ البداية، لم أعد قادراً. . .آمين؟ آمين.

وإنني، غوتفريد فون فيتلار، أضيف هذه الصلاة المدونة إلى إفادتي أمام القضاء، لأنّ هذه المعلومات المتعلقة بصاحبة الخاتم، وإن جاءت مضطربة عصيّة على القراءة، تتطابق إلى حدّ بعيد مع المعلومات المتوفرة لدى القضاء بخصوص القتيلة الممرضة دوروتيّا كونغيتر. إن مهمتي لا تقوم على الطعن بإفادة المتهم بأنه لم يقتل الممرضة ولم يقابلها وجها لوجه. فمن الجدير بالملاحظة، وهذه القرينة تأتي لصالح المتهم، هو الخشوع الذي رسخ في ذهني إلى اليوم والذي أظهره صديقي عندما ركع أمام البرطمان الموضوع على كرسيّ ثم اشتغل على طبله الذي حشره بين ركبتيه.

لقد أتيحت أمامي فرص عديدة طوال أكثر من عام لرؤية المتهم يصلّي ويطبل؛ إذ أنه جعلني مرافقه لقاء راتب سخيّ، فصار يصطحبني معه في جولاته الموسيقية التي انقطع عنها فترة طويلة ثم عاد إليها من جديد بعد العثور على البنصر بمدّة قصيرة. فتجولنا في غرب ألمانيا برمته، وتلقينا دعوات إلى المنطقة الشرقية، بل إلى الخارج. بيد أن السيّد ماتسرات آثر البقاء ضمن حدود البلد، غير راغب في الانخراط بصخب الرحلات الموسيقية المألوفة وزحامها على حدّ تعبيره. لم يكن يصلّي أبداً، أو يطبل للبرطمان قبل عرضه الفني. لكن بعد انتهاء الحفل وبعد تناول العشاء المتعدد الوجبات ننسحب إلى غرفته في الفندق، حيث كان يطبل ويصلّي وأنا أطرح عليه الأسئلة وأدون إجاباته ثم نقارن معاً هذه الصلاةّ بصلوات

الأيّام والأسابيع الماضية. كانت هناك في الواقع صلوات طويلة وأخرى قصيرة. وأضحت الكلمات تصطدم ببعضها بحدّة، لتنساب في اليوم القادم بهدوء نوعاً ما وملل بسبب طولها. ومع ذلك فإن الصلوات جميعها التي أقدمها الآن إلى القضاء الموقّر لم تورد شيئاً أكثر مما جاء في المحضر الذي أرفقته بإفادتي. وأثناء عام الرحلات ذلك استطعت التعرف بشكل عابر بين جولة موسيقية وأخرى على بعض أصحاب السيّد ماتسرات ومعارفه. فقدّم لي رابّته السيّدة ماريا ماتسرات الذي كان المتهم يكنّ لها جلّ الاحترام، لكن بتحفّظ. في ذلك اليوم سلّم عليّ أيضاً كورت ماتسرات، الأخ غير الشقيق للمتهم، وهو تلميذ مدرسة إعدادية في الحادية عشرة من عمرة شديد التهذيب. كذلك ولّدت السيّدة أوغسته كوستر، شقيقة السيّدة ماريا ماتسرات، انطباعاً إيجابيا. ومثلما اعترف لي المتهم فإن علاقاته العائلية خلال الأعوام الأولى التي أعقبت الحرب كانت أكثر من مضطربة. لكن بعدما قام السيّد ماتسرات بتجهيز محلّ للأطعمة الفاخرة لزوجة أبيه، كان يعرض أيضاً الثمار المستوردة من بلدان الجنوب، وصار يدعمه بإمكاناته المادية كلّما تعرض المحلّ لصعوبات، توطدت أواصر العلاقة بين الرابّة والربيب.

لقد عرّفني السيّد ماتسرات على طائفة من زملائه السابقين الذين كان أغلبهم من عازفي الجاز. وعلى الرغم مما رأيته من بشاشة وخفةّ روح انطوت عليهما شخصية السيّد مونتسر الذي اعتاد المتهم أن يناديه باسم كليب، لكنني إلى اليوم لم أجد الشجاعة والإرادة الكافيتين للاهتمام بتلك العلاقة. وحتى بعدما استغنيت عن مهنة تصميم الديكورات بفضل كرم المتهم، بيد أنني صرت أقوم، حبّاً بالمهنة، بتزيين بعض الوجهات التجارية حالما نعود من جولتنا الموسيقية. وقد أبدى المتهم نفسه اهتماماً طيّباً بحرفتي، فكان كثيراً ما يقف وسط الشارع في ساعة متأخرة من المساء، فلا يكلّ من لعب دور المشاهد لفنّي المتواضع. أحياناً كنّا نقوم بجولة صغيرة في دوسلدورف المساء بعد الانتهاء من العمل، متجنبين المرور بالمدينة القديمة؛ لأن المتهم لم يطق رؤية زجاج النوافذ المثبت

بالرصاص ولا لافتات الحانات الألمانية القديمة. فقادتنا إحدى الجولات - وهنا أصل إلى الجزء الأخير من إفادتي - بعد منتصف الليل، عبر حيّ أوبرّات، إلى مستودع عربات الترام. فوقفنا متلاصقين بألفة، نراقب آخر عربة ترام تدخل المستودع. فيا له من مشهد رائع! كان المدينة مظلمة من حولنا. ومن بعيد تعالت عربدة عامل بناء مخمور، إذ أن اليوم كان يوم جمعة. ماعدا ذلك ساد السكون، لأنّ عربات الترام الأخيرة الداخلة إلى المستودع لم تولد صخباً حتى لو استنطقت السكّك المنحنية ومعها الأجراس. كانت العربات تصطف فوراً في المستودع، بيد أن هناك بعض العربات التي وقفت بالطول والعرض، فارغة فوق السكك، لكن مضاءة على نحو احتفالي. فمن ذا الذي أتى بالفكرة؟ لقد كانت فكرتنا نحن، فقلت: «والآن ما رأيك يا صديقي العزيز؟» فهزّ السيّد ماتسرات رأسه موافقاً، ثم ركبنا بلا عجلة، ووضعت نفسي في موضع القيادة، وحالاً وجدت نفسي عارفاً بالأمر، فسرت على مهل وأخذت أرفع من السرعة شيئاً فشيئاً، كاشفاً عن أنني سائق ترام قدير، حتى أن السيّد ماتسرات قابل ذلك بجزيل العبارة - بعدما تركنا ضياء المستودع خلفنا -: «بالتأكيد إنك كاثوليكي معمّد يا غوتفريد، وإلا لما استطعت قيادة الترام.»

كانت الأعمال الصغيرة التي أقوم بها بين الحين والآخر تجلب لي فرحاً جمّا. بدا أن أحداً لم يلحظ تحركنا بالترام من المستودع، إذ لم يتعقبنا أحد، وكان من الممكن إيقاف عربتنا ببساطة من خلال قطع التيّار الكهربائي الرئيسي. قدت المركبة في اتجاه فلنغرن، فاخترقها من الوسط، وفكّرت فيما إذا عليّ الانحراف يساراً عند «هانيل»، لأسير في اتجاه «رات» ومن ثم «راتنغن»، فطلب منّي السيّد ماتسرات أن نسير في طريق «غرافنبيرغ»، غيرسهايم. وعلى الرغم من أنني خشيت الصعود أسفل «قلعة السباع»، حيث حانة الرقص، لكنني لبّيت رغبة المتهم، مذللاً صعوبة الصعود، متجاوزاً قلعة السباع، حينئذ توجب علي إيقاف العربة، إذ أنّ ثلاثةِ رجال وقفوا على السكّة، فأجبروني على الوقوف جبراً أكثر مما كان التماساً.

كان السيّد ماتسرات انسحب إلى داخل العربة بعدما تجاوزنا هانيل بمسافة قصيرة، لكي يدخّن سيجارة، فاضطررت بصفتي سائق الترام إلى الهتاف: «اصعدوا رجاءً!» كنت انتبهت إلى أن الرجل الثالث الحاسر الرأس الذي وضعه الرجلان الآخران اللذان اعتمرا قبعتين خضراوين بشريط أسود في وسطهما بدا مرتبكاً في الصعود أو ضعيف البصر؛ لأنه أخطأ سلّم العربة أكثر من مرّة. فأعانه مرافقاه، أو حارساه، على الركوب من مكان القيادة، لكن بطريقة فظّة للغاية، ثم توغّلوا في باطن العربة. فتحركت ثانية، بيد أنني سمعت نهنهة ذليلة تبعث على الرثاء ارتفعت خلفي من داخل العربة، وجلبةً كذلك كما لو أن أحداً كان يكيل الصفعات، ثم ارتفع صوت السيّد ماتسرات الرصين مما جعلني أشعر بالاطمئنان، سمعته يلوم الرجال الذي ركبوا للتو ويحذرهم من ضرب إنسان جريح شبه ضرير يعاني من فقدان نظّارته. ثمّ سمعت أحد الرجلين ذوي القبعتين الخضراوين يزعق: «لا تدخل نفسك في الموضوع. إنه سيشهد اليوم معجزته الكبرى. لقد استغرق الأمر وقتاً طويلاً.»

وأثناء ما كنت أسير ببطء نحو غيرسهايم، أراد صديقي السيّد ماتسرات أن يعرف أي ذنب اقترف ذلك الرجل المسكين شبه الضرير، فاتخذ الحديث على الفور منحى غريباً: فبعد جملتين وجدنا أنفسنا في منتصف الحرب، أو بعبارة أدّق في الأوّل من ديسمبر / كانون الأوّل من العام التاسع والثلاثين، يوم اندلاع الحرب، فأطلق على شبه الضرير لقب رجل عصابات دافع عن مبنى البريد البولندي وخالف القانون. ومن العجيب هو أن السيّد ماتسرات الذي كان في الخامسة عشرة من عمره آنذاك بدا مطلعاً على الأمر، فتعرّف على الرجل شبه الضرير وناداه باسم فكتور فيلون، موزّع الحوالات النقدية المسكين القصير النظر الذي فقد نظّارته إبّان الاشتباكات، فهرب بلا نظّارة، منفلتاً من الزبانية، بيد أنهم تمسكوا بموقفهم، فطاردوه حتى نهاية الحرب، بل إلى فترة ما بعد الحرب، ثم عرضا وثيقة ما، صادرة في العام التاسع والثلاثين فكانت عبارة عن أمر بالإعدام رمياً بالرصاص. أخيراً ألقي القبض عليه مثلما زعق

أحد الرجلين ذوي القبعتين الخضراوين فأكّد صاحب القبعة الآخر بأنه أصبح سعيداً الآن؛ لأن التاريخ قد صفّي من الشوائب. لقد ضحّى بأوقات فراغه كلّها بما فيها العطل الرسمية لكي ينفذ قرار الإعدام الصادر في العام التاسع والثلاثين، ثم أنه في نهاية المطاف صاحب مهنة، وكيل شركة تجارية، إضافة إلى أن صاحبه اللاجئ من الشرق الألماني يعاني من صعوبات، إذ عليه أن يبدأ من جديد تماماً، بعدما خلفّ في شرق ألمانيا محلّ خياطة رائج، أمّا الآن فقد انتهى الأمر، وسينفّذ القرار هذه الليلة، لنطوي صفحة الماضي - فيا له من أمر عظيم حين أدركنا الترام.

وهكذا تحوّلت على الضدّ من إرادتي إلى قائد ترام يقلّ رجلاً محكوماً بالإعدام وجلاّدين حملا قرار الإعدام فسار بهم إلى غيرسهايم. عند ساحة سوق الضاحية الفارغة الكثيرة الزوايا انعطفت إلى اليمين، عازماً على قيادة الترام حتى المحطة الأخيرة القريبة من معمل الزجاج، لكي أفرغ العربة هناك من صاحبي القبعتين الخضراوين ومن فكتور شبه الضرير، لنعود أنا وصاحبي إلى البيت. وقبل المحطة الأخيرة بثلاث مواقف غادر السيّد ماتسرات باطن العربة، ثم وضع حقيبته اليدوية التي احتوت على البرطمان، كما أعلم، في المكان الذي يضع فيه قادة الترام المهنيون متاعهم المحفوظ بآنية المعدن الأسطوانية. فبدا السيّد ماتسرات منفعلاً حين قال: «يجب أن ننقذه. إنه فكتور، فكتور المسكين! الذي لم يعثر على نظّارة مناسبة إلى اليوم. فهو قصير النظر بشكل حاد، كما أنهم سيعدمونه بالرصاص، فيضطر إلى التطلع في الاتجاه الخاطئ.» فحسبت الجلادين مجردين من السلاح، لكن السيّد ماتسرات انتبه إلى أن معطفي الرجلين ذوي القبعتين كانا منتفخين على نحو مدبب. «كان موزّع حوالات نقدية لدى البريد البولندي في غدانسك. والآن فإنه يمارس المهنة ذاتها في البريد الألماني الاتحادي. بعد انتهاء الدوام يبدءون بمطاردته؛ إذ أن قرار الإعدام مازال ساري المفعول.»

وعلى الرغم من أنني لم أفقه كلّ ما تحدث به السيّد ماتسرات، غير أنني وعدته بالوقوف إلى جانبه أثناء تنفيذ حكم الإعدام، وإذا كان ممكناً

سنحيل معاً دون تنفيذ قرار الإعدام. وخلف معمل الزجاج، أي قبل الوصول إلى أولى الحدائق الصغيرة بمسافة قصيرة - أصبح بإمكاني رؤية حديقة والدتي بأشجار تفّاحها تحت ضوء القمر - أوقفت عربة الترام وهتفت في اتجاه باطن العربة: «انزلوا رجاءً، هذه هي المحطة الأخيرة!» فأقبل الرجلان على الفور بقبعتيهما الخضراوين وشريطيهما السوداوين. بيد أن الرجل شبه الضرير لاقى صعوبة في الترجّل من سلّم العربة. ثم نزل السيّد ماتسرات، بعد أن أخرج طبله من تحت سترته وطلب منّي أن أحمل معي حقيبتي اليدوية، التي احتوت على البرطمان، أثناء النزول.

تركنا الترام المشعّ فترة طويلة خلفنا واقتفينا آثار الجلادين ومعهما الضحية. وسرنا على امتداد سياجات الحدائق، فجعلني ذلك أشعر بالتعب. ولمّا وقف الثلاثة أمامنا لاحظت بأن اختيار موضع الإعدام قد وقع على حديقة والدتي. فلم يحتج السيّد ماتسرات وحده، بل أنا أيضاً. بيد أن الرجلين لم يعرا لنا اهتماماً، إنما أليا بالألواح الخشبية للسياج المتداعي أصلاً على الأرض، ثم ربطا فكتور شبه الضرير، المسكين، مثلما لقّبه السيّد ماتسرات، إلى شجرة التفاح، أسفل الفرع الذي كنت أضطجع عليه، ولأننا واصلنا احتجاجنا فقد أبرزا لنا مرّة ثانية قرار الإعدام المجعّد الذي وقّع عليه مفتش القضاء الميداني المدعو تسيليفسكي. وقد صدر القرار في الخامس من أكتوبر من العام التاسع والثلاثين في ناحية تسوبوت حسبما أعتقد، ثم أن الأختام كانت صحيحة أيضاً، فبات من المتعذر القيام بعمل ما؛ ومع ذلك تحدثنا عن الأمم المتحدة وعن الديمقراطية والذنب الجماعي وعن آدناور إلى آخره؛ بيد أن أحد صاحبي القبعتين الخضراوين نسف اعتراضاتنا بملاحظة واحدة: إن هذا الشأن لا يخصّنا، فليس هناك اتفاقية سلام، وأنه ينتخب آدناور مثلما نفعل نحن، لكن ما يتعلّق بالقرار فإنه ما زال ساري المفعول، وأنهما قد ذهبا بالقرار إلى الدوائر العليا، وحصلا على استشارات، كما أنهما لا يؤديان في نهاية المطاف إلا الواجب اللعين، فمن الأفضل لنا أن ننصرف.

لكننا لم ننصرف، بل وضع السيّد ماتسرات طبله في حالة تأهب

بعدما فتح صاحبا القبعتين الخضراوين معطفيهما، مشرعين رشاشتيهما الأوتوماتيكيين - في تلك اللحظة شقّ بدر شبه كامل منبعج بعض الشيء الغيوم، فجعل حوافّ الغيوم تلمع لمعان المعدن كالإطار المسنن لعلبة الأطعمة المحفوظة - وعلى صفيح مشابه، لكنه مقدّس، لاعب السيّد مضرباه بفعل اليأس. فكان عزفه غريباً، إلا أنه بدا لي معروفاً، فأصبح حرف الضاد يستدير حول كلّ مرّة من جديد: ضاع، بل لم يضع، كلا لانه لم يضع، فبولندا لم تضع بعد! لكن هذا كان صوت فكتور المسكين الذي عرف النصّ المناسب لطبل السيّد ماتسرات: إن بولندا لن تضيع ما دمنا أحياء. فبدا الإيقاع معروفاً حتى بالنسبة لصاحبي القبعتين الخضراوين، إذ أنهما انكمشا خلف قطعهما الحديديّة التي سقط عليها شعاع القمر، فاستحضرت أنشودة الزحف العسكري، التي رددها السيّد ماتسرات وفكتور المسكين عالياً في حديقة والدتي، سلاح الفرسان البولندي. لعلّ البدر قد أعان الطبل والبدر نفسه وصوت فكتور المتكسّر على أن تخرج جياد كثيرة مجتمعة بفرسانها من شقوق الأرض: فدوّت حوافرها وشخرت مناخيرها، وطقطقت مهاميزها، وصهلت الأحصنة ثم تعالت أصوات الحثّ والخبب... بيد أن شيئاً من هذا لم يحدث، فلم يدوّ حافر، ولم يشخر منخر أو يطقطق مهماز أو يصهل حصان ولم يستحث أحد الخيل على الخبب، إنما حدث انزلاق صامت عبر الحقول المحصودة خلف غيرسهايم، فكانت كتيبة خيّالة بولندية مسلحة بالرماح، إذ أن البيارق شدّت على الأسنة بيضاء حمراء مثل طبل السيّد ماتسرات، كلا، لم تشدّ، إنما طفت عائمة، مثلما عامت الكتيبة كلّها تحت القمر والتي قدمت ربما من القمر، جاءت عائمة وقد غيرت اتجاهها نحو حديقتنا الصغيرة، فلم يبد ما رأيناه لحماً ولا دماً، ومع ذلك فقد عام، مركباً تركيب الهواة، كما اللعبة، جال كما الشبح، فكان شبيهاً ربما بتشكيلات الخيوط التي يعقدها معين السيّد ماتسرات: فانعقدت كتيبة فرسان بولندية، بلا جلبة، ومع ذلك كانت مدوّية، بلا لحم لكنها بولندية، مقبلة نحونا وقد ترك لها العنان، فألقينا بأنفسنا إلى الأرض، فتحملنا القمر

والكتيبة البولندية، فاقتحم الفرسان حديقة والدتي وجميع الحدائق الصغيرة الشديدة الانتظام، بيد أنهم لم يخرّبوا أي واحدة منها، إنما أخذوا معهم فكتور المسكين والجلادين، ثم ضاعت آثارهم في الأراضي المنبسطة القمر - ضاعت، لم تضع بعد، اعتلوا ظهور الجياد في اتجاه الشرق، نحو بولندا، خلف القمر. فانتظرنا بأنفاس ثقيلة حتى خلت الليلة من الأحداث والتأمت السماء من جديد، حاجبة ذلك الضوء الذي أقنع جيوش الخيّالة المتعفنة منذ زمن بعيد بالهجوم الأخير. فكنت أوّل من نهض، وهنأت السيّد ماتسرات على نجاحه الباهر على الرغم من أنني لم أستهن بتأثير القمر. لكنه هزّ رأسه نافياً بتعب وإحباط: «نجاح، يا عزيزي غوتفريد؟ لقد حققت الكثير من النجاح في حياتي، وأودّ الآن أن لا أحقق نجاحاً، لكن هذا صعب للغاية ويتطلب عملاً كثيراً».

غير أن هذه الإجابة لم تعجبني، لأنني أنتمي إلى الناس المثابرين المجتهدين، ومع ذلك فإنني لم أحظ بالنجاح، فبدا لي السيّد ماتسرات جحوداً، فعاتبته بالقول: «إنك متكبر يا أوسكار»! بادئاً هكذا بجرأة، إذ أننا رفعنا صيغة المخاطبة بلقب العائلة. «الجرائد كلّها مليئة بأخبارك. لقد صنعت لك اسماً. إنني لا أريد التحدث هنا عن المال. لكن هل تعتقد أن من السهل عليّ، أنا الذي لا تذكرني الجرائد، الصمود إلى جانبك أنت المحتفى به؟ فكم أتمنى القيام بعمل واحد ذات يوم وبمفردي، مثل العمل الذي قمت به للتو، فتذكرني الجرائد بحروف مطبعية كبيرة: هذا ما فعله غوتفريد فون فيتلار!» فشعرت بالاستياء من قهقهة أوسكار الذي انقلب على ظهره وصار يمرّغ حدبته بالتراب الرخو، مقتلعاً الحشائش بيديه، ليرمي بها إلى الأعلى، ثم ينفجر في الضحك مثل إله خال من الإنسانية قادر على كلّ شيء: «ليس هناك أسهل من هذا يا صاحبي! خذ هذه الحقيبة! فمن المدهش أننا لم نقع تحت حوافر كتيبة الفرسان البولنديين. إنني أهديها لك؛ فهذا الجلد يحتوي على البرطمان مع البنصر. خذ هذه الأشياء كلّها، وانطلق نحو غيرسهايم، فما زال الترام المضاء يقف هناك، فاركب به وسر مع الهدية في اتجاه فورستنفال حيث مديرية الشرطة،

وارفع دعوى قضائية، لترى اسمك يتهجاه الناس في الجرائد كلّها!» فرفضت في البدء عرضه، معترضاً بالقول إنه لا يستطيع العيش دون الإصبع الموضوع في الزجاجة، غير أنه طمأنني قائلاً بأنه شبع من قصّة الإصبع حتى التخمة، فضلاً عن أنه امتلك بضعة نماذج صبّ، ثم أنه صبّ نموذجاً عنه من الذهب الخالص، فعليّ أن أحمل الحقيبة أخيراً، وأعود إلى الترام، لأسير به حتى مركز الشرطة وأقيم دعوى. وانطلقت أعدو، سامعاً السيّد ماتسرات يقهقه وقتاً طويلاً، إذ أنه بقي ملقى، راغباً في رؤية تأثير الليلة عليه، يقتلع الحشائش ويستغرق في الضحك، بينما سأقرع أنا جرس الترام قاصداً المدينة، أمّا الدعوى التي رفعتها - كنت رفعتها في صباح اليوم التالي - فقد أدخلتني إلى الجرائد مرّات عديدة بفضل طيبة السيّد ماتسرات.

لكنني أنا أوسكار الطيّب القلب بقيت مضطجعاً على العشب الحالك السواد خلف غيرسهايم، أتقلّب ضاحكاً تحت بعض النجوم المرئية القاتلة في جديتها، ممرغاً حدبتي بتربة الأرض الدافئة، مفكراً: نم يا أوسكار، نم سويعة قبل أن تستيقظ الشرطة؛ فإنك لن تضطجع حرّاً تحت القمر أبداً وحين أفقت من نومي لاحظت وضوح النهار قبل أن أستطيع ملاحظة أي شيء، ولاحظت أن أحداً ما كان يلعق وجهي: يلعقه بدفء وخشونة ورتابة وعلى نحو رطب. فهل يمكن أن تكون الشرطة التي أيقظها فيتلار فهرعت إلى هنا وأرادت إيقاظي باللحس؟ ومع ذلك فإنني لم أفتح عينيّ حالاً، بل استسلمت للحس الدافئ الخشن الرتيب الرطب، مستمتعاً به، غير مبال بمن لعقني، فخمّن أوسكار: إمّا أنها الشرطة أو بقرة ما. ثم فتحت عينيّ. كانت مبقعة بقعاً سوداء بيضاء، ومضطجعة إلى جانبي تتنفس وتلحسني إلى أن فتحت عينيّ، فكان النهار واضحاً غائماً يميل إلى الصحو فخاطبت نفسي: يا أوسكار لا تطيل الإقامة لدى هذه البقرة حتى لو نظرت إليك نظرة سماوية، وحتى لو طمأنت ذاكرتك بلسانها الخشن وقلصتها باجتهاد. كان نهاراً ساطع الوضوح، وأخذ الذباب يطنّ، فعليك أن تهرب. فيتلار سيرفع دعوى ضدّك، فعليك أن تهرب، فالدعوى الأصيلة

تستلزم الهرب الأصيل. دع البقرة تخور واهرب. إنهم سيقبضون عليك هنا أو هناك، بيد أنك سوف لا تكترث بهذا الأمر. فولّيت هارباً بعدما لعقتني البقرة وغسلتني ومشّطت شعري، فاعترتني نوبة قهقهة صباحية صافية بعد الخطوة الأولى من الهرب، فتركت طبلي لدى البقرة التي بقيت مضطجعة وتخور، بينما هربت أنا ضاحكاً.

ثلاثون

أي نعم، الهروب! هذا ما بقي أن أذكره. لقد هربت لكي أرفع من قيمة الدعوى التي سيتقدم بها فيتلار. وفكّرت في أن لا هرب بلا هدف مفترض، ثم سألت نفسي: إلى أي شطر ستيمّم وجهك يا أوسكار؟ فالمعطيات السياسية، أو ما سمّي بالستار الحديدي، منعتني من الهرب في اتجاه الشرق. إذاً؛ عليّ أن ألغي الأثواب الأربعة لجدتي آنا كولياجك باعتبارها هدفاً للهرب، تلك الأثواب التي ما زالت تهفهف في حقول البطاطس الكاشوبية، مقدمةً الملاذ للهاربين، مع أنني اعتقدت بأن الهرب في اتجاه أثواب الجدّة - طالما الأمر كان يتعلّق بالهرب - سيكلل وحده بالنجاح. وإلى جانب ذلك أودّ الإشارة إلى أنني أحتفل اليوم بعيد ميلادي الثلاثين. فعلى من بلغ الثلاثين أن يتحدث عن موضوعة الهرب بصفته رجلاً وليس فتى. ماريا التي حملت لي قطعة الكعك بشموعها الثلاثين قالت: «إنك أصبحت الآن في الثلاثين يا أوسكار. فآن الأوان لتصبح عاقلاً».

وكليب، صديقي كليب، أهدى أسطوانات جاز كالعادة، وجلب معه خمسة من عيدان الثقاب ليوقد الشموع الثلاثين المحيطة بكعكة ميلادي، فقال: «إن الحياة تبدأ في سنّ الثلاثين»! لقد كان في التاسعة والعشرين من عمره. أمّا فيتلار، صديقي غوتفريد، الأكثر قرباً إلى قلبي، فقد أهدى لي حلوى، وانحنى على قضبان سريري وقال بغتة: «عندما بلغ يسوع الثلاثين، ارتحل ثم لمّ من حوله حواريه». فكان فيتلار يحبّ دائماً أن يبلبل أفكاري. عليّ أن أغادر سريري وأجمع الحواريين من حولي،

لمجرّد أني أصبحت في الثلاثين. ثم جاء محامِيي، ملوّحاً بورقة، وأطلق تحية عالية كما يطلق البوق النفير، وقبّع سريري بقبعته النايلون، مصرّحاً أمامي وأمام ضيوف عيد الميلاد كلّهم بأنه يعتبر هذه مصادفة سارة: «إن موكّلي يحتفل بعيد ميلاده الثلاثين. وبالذات في عيد ميلاده الثلاثين تلقيت خبراً يقول بأن قضية البنصر سيعاد بها النظر مرّة أخرى؛ لأن هناك أدلّة جديدة، فهذه الممرضة بيآتا، كما تعلمون...»

لكنّ ما خشيته منذ أعوام، منذ هروبي، أعلن عنه اليوم بمناسبة عيد ميلادي الثلاثين: لقد تمّ العثور على المذنب الحقيقي، وسيعاد بحث القضية من جديد، فسأبرّأ، وسيتاح لي الخروج من مصحّة الأمراض العقلية، وسيصادر سريريّ الجميل، ليقلى بي في الشارع البارد المعرّض لشتى تقلّبات الطقس، وسيجبر أوسكار ذا الأعوام الثلاثين على تجميع الحواريين من حوله. والممرضة بيآتا إذاً هي التي قتلت ممرضتي دوروتيّا بسبب الغيرة الصفراء مثل محّ البيض.

ولعلّكم تتذكرون؟ فقد كان هناك طبيب يدعى فيرنر وقف حائلاً بين الممرضتين، مثلما يحدث دائماً في الأفلام أو الحياة. قصّة مشبوهة: كانت بيآتا تحبّ فيرنر، لكن فيرنر وقع في حبّ دوروتيّا، أمّا دوروتيّا فلم تحبّ أحداً، أو كانت تحبّ أوسكار الصغير حبّاً سريّاً على أكثر تقدير. حينئذ وقع فيرنر مريضاً، فقامت دوروتيّا تعتني به؛ لأنه رقد في قسمها. فلم تستطع بيآتا تقبّل هذا الأمر أو تحمّله، لذلك فإنها أقنعت دوروتيّا بالتنزه معها في أحد حقول الشوفان، فقتلتها بالقرب من غيرسهايم، أو بعبارة أدقّ: نحّتها عن طريقها. حينئذ أصبح بإمكان بيآتا أن تعتني بفيرنر كما يحلو لها. لكنها اعتنت به بطريقة لم تجلب له الشفاء، بل على العكس. ربما قالت المعينة، المجنونة حبّاً به، في سرّها: طالما بقي مريضاً فإنه سيكون من حصتي. هل ناولته الكثير من الأدوية؟ أم أنها أعطته الأدوية غير المناسبة؟ على أية حال، لقد توفّي الدكتور فيرنر بتأثير الأدوية الكثيرة أو الخاطئة، بيد أن بيآتا لم تعترف أمام المحكمة بأن

الأدوية كانت كثيرة أو خاطئة ونفت أيضاً بأنها ذهبت مع دوروتيّا للنزهة في حقل الشوفان، حيث أصبحت تلك النزهة الأخيرة للمرضة دوروتيّا. أمّا أوسكار الذي لم يقرّ بشيء، لكنه احتفظ بإصبع في برطمان لصق به تهمة، فأدينبسبب حقل الشوفان، لكن المحكمة لم تحسبه كامل العقل، فأدخلته إلى مصحّة الأمراض العقلية ووضعته تحت المراقبة. لكن أوسسكار هرب قبل أن يحكم أو يقاد إلى المصحّة؛ لأنني أردت أن أرفع كثيراً من قيمة الدعوى التي أقامها صديقي غوتفريد.

وعندما هربت كنت في الثامنة والعشرين. وقبل ساعات قليلة توهجت ثلاثون شمعة حول كعكة ميلادي تقطر ذائبةً بهدوء. لقد ولدت في برج العذراء، بيد أنني لا أريد التحدث هنا عن ولادتي تحت اللمبات، إنما عن هروبي. ولأن طريق الهرب في اتجاه الشرق، حيث الجدّة، كان موصداً أمامي، رأيت نفسي مضطراً مثل أي شخص آخر في هذه الأيّام إلى الهرب نحو الغرب. إذا كنت عاجزاً عن الهرب إلى جدّتك بسبب السياسة العليا، فاهرب إلى جدّك في بوفالو الولايات المتحدة، اهرب في اتجاه أمريكا ودعنا نرى أين سيبلغ بك الترحال! فطرأت على ذهني فكرة الرحيل إلى جدّي كولياجك في أمريكا عندما لعقتني البقرة في الحشائش القريبة من غيرسهايم وأنا مغمض العينين. لعلّ الساعة شارفت على السابعة صباحاً حين خاطبت نفسي بالقول: إن المحلاّت ستفتح في الثامنة أو في الثامنة والنصف. فانطلقت ضاحكاً، تاركاً الطبل لدى البقرة، وقلت: إن غوتفريد كان متعباً، وربما سيقدم الدعوة في الثامنة أو الثامنة والنصف، فاستغل فرصة الوقت الصغيرة هذه. سأحتاج إلى عشر دقائق لكي أوصي في ضاحية غيرسهايم الوديعة على سيّارة أجرة عبر التلفون، فأقلتني سيّارة الأجرة إلى محطّة القطارات. أثناء السفر أحصيت إمكانياتي المالية، فأخطأت الحساب عدّة مرّات، لأنني اضطررت دائماً إلى الضحك الصباحيّ الشديد الصفاء. ثم بدأت أتصفّح جواز سفري، فعثرت على تأشيرة دخول إلى فرنسا نافذة المفعول، حصلت عليها بفضل رعاية وكالة الحفلات «فست»، وكذلك على تأشيرة صالحة لزيارة الولايات المتحدة؛

كانت من أغلى أماني الدكتور دوش هو أن يهدي لتلك البلدان جولة موسيقية من جولات الطبّال أوسكار.

فهتفت في نفسي Voilà دعنا نذهب إلى باريس، فهذا أمر جيّد، ذو وقع حسن، يمكن أن يحدث في الأفلام، حيث يطاردني الممثل غابا بطول أناة وهو يدخّن غليونه. لكن من ذا الذي *يؤدي دوري؟ أهو شابلن أم بيكاسو؟ حين طلب منّي سائق التاكسي سبعة ماركات صرت أضرب سروالي المجعّد بيدي ضاحكاً، مأخوذاً بفكرة الهرب. فدفعت له الأجرة وتناولت إفطاري في مطعم المحطّة. وبالإضافة إلى البيضة المسلوقة على النصف حملت بيدي جدول مواعيد سفر القطارات الألمانية الاتحادية، فعثرت على قطار مناسب، وبعد الإفطار وجدت وقتاً كافياً لتبديل العملة، فاقتنيت أيضاً حقيبة من الجلد الناعم، ، ولأنني توجست من العودة إلى يوليشر شتراسه، فقد حشوتها بالقمصان الثمينة غير المناسبة لجسدي، وبمنامة خضراء شاحبة، وفرشاة أسنان ومعجون أسنان إلى آخره، وقطعت تذكرة الدرجة الأولى؛ لأنني لم أرد أن أقتّر على نفسي، فشعرت بالارتياح بعدما جلست في المقعد المنجّد عند النافذة؛ لقد هربت، لكنني لم أضطر إلى السير على قدمي. ثم أن المقعد المنجّد أعانني على التفكير: ففكر أوسكار فيما من شأنه أن يبعث الخوف حالما تحرّك القطار وبدأت عملية الهروب؛ إذ لم يكن قولي بأن لا هرب بلا خوف قولاً باطلاً! فيا أوسكار هل هناك ما يشيع الخوف ويحثّ على الهرب إذا كانت الشرطة لم تقم بشيء آخر سوى إعانتك على القهقهة الصباحية الصافية؟

واليوم بعدما بلغت الثلاثين، مخلّفاً الهرب والمحكمة ورائي، لكن ذلك الخوف الذي أوهمت به نفسي أثناء الهرب ظلّ كما هو. فهل حدث ذلك بفعل ارتجاج السكّة الحديدية أم بفعل ترنيمة القطار؟ جاء النصّ رتيباً، وقد خطر في ذهني قبل الوصول إلى مدينة آخن بمسافة قصيرة، فاستقر في أعماقي، حيث أصبحت ضائعاً في مقعد الدرجة الأولى وبقي مستقراً هناك حتى بعدما اجتزنا آخن - قطعنا الحدود حوالي الساعة العاشرة والنصف -استقر واضحاً ومثيراً للرعب على الدوام، بحيث أنني

شعرت بالفرح حين صرف رجال الجمارك انتباهي بعض الشيء، إذ أنهم أظهروا اهتماماً بحدبتي أكثر من اسمي وجواز سفري - فخاطبت نفسي: فيتلار هذا، عدّاء المسافات الطويلة! عما قريب ستحين الساعة الحادية عشرة، ومع ذلك فهو لم يجد طريقه إلى الشرطة متأبطاً البرطمان، بينما اضطررت أنا إلى الفرار بسببه منذ ساعات الصباح المبكرة، موهماً نفسي بالمخاوف، لكي يحظى الخوف بقوّة دفع مناسبة؛ أه كم كان خوفي عظيماً في بلجيكا عندما أنشد القطار أغنية: هل جاءت الطاهية السوداء؟ بلى بلى بلى! هل جاءت الطاهية السوداء؟ نعم نعم نعم...

لقد بلغت اليوم سنّ الثلاثين، فسيعاد فتح ملفّ القضية، وسأضطر من جديد إلى العدو بفعل قرار البراءة المتوقع، متروكاً تحت رحمة النص القائل: هل جاءت الطاهية السوداء؟ بلى بلى بلى، سواءً في القطارات أم في عربات الترام. ومع ذلك كانت الرحلة جميلة على الرغم من خوفي من الطاهية السوداء التي توقعت ظهورها الرهيب في كلّ محطّة. بقيت وحيداً في مقصورتي - ربما جلست الطاهية في المقصورة المجاورة -، فتعرفت على رجال الجمارك البلجيكيين ومن ثم الفرنسيين، فكنت أغفو بضع دقائق بين الحين والحين، لاستيقظ صارخاً بفزع، فأقلّب بمجلة «دير شبيغل» الأسبوعية التي اشتريتها عبر نافذة مقصورتي حين وقف القطار في دوسلدورف، لكي لا أقع تحت رحمة الطاهية السوداء بلا حماية، فتعجبت من غزارة معلومات الصحفيين، بل أنني عثرت على تعليق ساخر حول الدكتور دوش، مدير أعمالي في وكالة «فست»، حيث تأكد لي ما كنت اعرفه أصلاً: إن وكالة فست لا تستند إلا على دعامة واحدة: أي على الطبّال أوسكار - ثمة صورة لي ممتازة حقّا. فتخيّل الدعامةُ أوسكار انهيار وكالة «فست» قبيل الوصول إلى باريس بمسافة قصيرة؛ ذلك الانهيار الذي أحدثه اعتقالي والظهور الرهيب للطاهية السوداء. ولم أكن خشيت يوماً من الطاهية السوداء طوال حياتي، لكنني عندما توجب عليّ الخوف أثناء الفرار زحفت تحت جلدي ومكثت هناك إلى يومنا، أي إلى يوم احتفالي بعيد ميلادي الثلاثين، حتى وإن غفت معظم الوقت، متخذة

أشكالاً مختلفة: فبات ممكناً أن تجعلني كلمة غوته أصحو فزعاً، فأهرب تحت اللحاف. وعلى الرغم من أنني درست أمير الشعراء هذا منذ الصبا، إلا أن هدوءه الأولمبي كان يرعبني دائماً، وإذا ما جاء اليوم متنكراً، أسود، بهيئة طاهية، متنصلاً عن إشراقه وسطوته الكلاسيكية، متجاوزاً تجهّم راسبوتين وظلاميته، فيقف أمام قضبان سريري ويسألني بمناسبة عيد ميلادي الثلاثين: «هل جاءت الطاهية السوداء»، فإن الرعب سيجتاحني.

كان القطار الذي حمل أوسكار الهارب إلى باريس يقول بلى بلى بلى. لقد انتظرت في الواقع موظفيّ الشرطة الدولية محطّة باريس الشمالية، أو Gar du Nord كما يقول الفرنسيون. بيد أن أحداً لم يكلمني باستثناء حمّال فاحت منه رائحة النبيذ الأحمر، لدرجة أنني لا يمكن أن أحسبه الطاهية السوداء حتى لو توفرت لدي النيّة الصادقة، فسلمته حقيبتي بكلّ ثقة، وتركته يحملها إلى حدّ الحاجز. ثم فكرت في أن الموظفين والطاهية السوداء قد تفادوا دفع أجور الدخول إلى رصيف المحطّة، لكنهم سيعتقلونك إذا ما تخطيت الحاجز. فمن الأفضل لك لو حملت حقيبتك بنفسك قبل الوصول إلى الحاجز. فتوجب عليّ أن أجرجر حقيبتي بمفردي إلى محطة قطارات الأنفاق، إذ لم يكن هناك موظفون يحملون عنّي حقيبتي. ولا أريد أن أحدثكم عن رائحة أنفاق القطارات المعروفة عالميا. فهذا العطر، يمكن شرائه ورشّه، مثلما قرأت مؤخراً، لكن ما لفت انتباهي أمران، أولهما هو قطار الأنفاق الذي كان يسأل عن الطاهية السوداء، شأنه شأن القطار، وإن فعل ذلك بإيقاع مختلف، وثانيهما هو أن الطاهية لابد وأن تكون معروفة من قبل المسافرين معي جميعهم فكانوا يخشون منها مثلي، إذ أنهم أصبحوا يتنفسون من حولي الخوف والرعب. كانت تقتضي بأن أستقل قطار الأنفاق حتى بلاس دإتالي لأذهب من هناك إلى مطار أورلي بسيّارة أجرة. فتخيلت اعتقالي الذي سيتمّ في محطّة الشمال، إن لم يكن في مطار أورلي الشهير - حيث ستكون الطاهية بمثابة مضيّفة -؛ تخيلته طريفاً وأصيلاً على السواء. كان عليّ أن أغيّر الخطّ مرّة، ففرحت بحقيبتي الخفيفة، ثم تركت قطار الأنفاق يخطفني إلى ناحية الجنوب،

متسائلاً: أين ستنزل يا أوسكار؟ يا إلهي كم من الأشياء تحدث في اليوم الواحد: فاليوم صباحاً لطعتني البقرة بالقرب من غيرسهايم، حيث كنت ثابت الجنان جذلاً، والآن أصبحت في باريس - ففي أي محطّة ستغادر، وكيف ستقابلك، سوداء ومثيرة للرعب؟ أفي «بلاس د إتالي» أم قبالة «البورت»؟ فنزلت قبل البورت بمحطّة واحدة، أي عند ميزون بلانش، لأنني فكرت في: أنهم يفكرون بالطبع في أنني اعتقد بأنهم يقفون في البورت. لقد سئمت من الوضع أيضاً، فالهرب والإبقاء المضني على حالة الهرب جعلاني مرهقا. فلم يعد أوسكار راغباً في الذهاب إلى المطار، إنما وجد «ميزون بلانش» أكثر أصالة من مطار أورلي، فكان محقّاً في رأيه؛ إذ أن هذه المحطّة كانت مزوّدة بسلّم آليّ ساعدني على الشعور بالنشوة وقرقعة السلّم المتحرك: هل جاءت الطاهية السوداء؟ بلى بلى بلى! فرأى أوسكار نفسه في وضع محرج، وقد شارف فراره على الانتهاء، وبالفرار سينتهي تقريره أيضاً. فهل سيكون السلّم المتحرك لمحطّة ميزون بلانش عالياً، قائماً ورمزياً بما يكفي ليصلّ صليلاً يصلح صورة ختامية ليومياته؟

لكن عيد ميلادي الثلاثين اليوم قد خطر في ذهني الآن. إنني أقدم عيد ميلادي الثلاثين خاتمةً إلى أولئك الذين لا يشعرون بالضيق من صخب السّلم الآلي ولا يخشون من الطاهية السوداء. ألا يعتبر العيد الثلاثون للميلاد من أكثر أعياد الميلاد وضوحاً؟ فهو يحتوي على رقم ثلاثة ويدلل على الستين فيجعلها فائضة عن الحاجة. اليوم صباحاً، حين توقدت الشموع الثلاثون حول كعكة عيد ميلادي وددت أن أبكي من فرط النشوة والسعادة، لكنني استحيت من ماريا: فعلى المرء أن لا يبكي في سنّ الثلاثين. وحالما استلمتني أوّل درجة من السلّم الآلي - إذا صح استعمال عبارة درجة على السلّم المتحرك - انتابتني نوبة ضحك عارمة. فضحكت على الرغم من الخوف، أو بسببه. فصعد بي السلم إلى الأعلى باستقامة وعلى مهل - وهناك رأيتهم منتصبين. بيد أنني وجدت الوقت كافياً لتدخين نصف سيجارة. ثمة عاشقان كان يداعبان بعضهما بغير ما كلفة فوق رأسي بدرجتين. وثمة امرأة عجوز وقفت أسفل منّي بدرجة، فاتهمتها

ظلماً أوّل الأمر بأنها الطاهية السوداء نفسها. كانت تعتمر قبعة حملت زخرفةً لها معاني الفاكهة. أثناء التدخين خطرت ببالي، بعدما أجهدت نفسي، سمات السلّم الآلي جميعها: فتقمص أوسكار في البدء شخصية الشاعر دانتي العائد من الجحيم، وقد انتظره في الأعلى، حيث نهاية السلّم، مراسلو شبيغل الشطّار، ليسألوه: «نه، يا دانتي، كيف كان الوضع هناك في الأسفل؟» - ثم مارست اللعبة ذاتها مع أمير الشعراء غوته، فتركت رجال شبيغل يسألونني، كيف وجدت الوضع هناك في الأسفل، لدى الأمهات. أخيراً تعبت من الشعراء، فقلت في نفسي إن رجال شبيغل لم يقفوا في الأعلى، ولا أولئك الرجال الذي وضعوا علامات معدنية على جيوب معاطفهم، إنما وقفت الطاهية وحدها، والسلّم الآلي يجعجع: هل جاءت الطاهية السوداء؟ فيجيبه أوسكار: «بلى بلى بلى!»

وثمّة سلّم طبيعي إلى جانب السلّم الآلي، كان ينقل المشاة إلى نفق المحطّة، وبدا أن المطر سقط في الخارج؛ إذ أن الناس أصبحوا مبللين. فشعرت بالقلق لأنني لم أجد وقتاً كافيا لشراء معطف مطريّ في دوسلدورف. لكن بنظرة واحدة إلى الأعلى لمح أوسكار السادة ذوي الوجوه الملفتة للنظر بشكل لا يلفت النظر؛ السادة الذين حملوا مظلاّت مدنية - بيد أن ذلك لم يضع وجود الطاهية السوداء موضع التساؤل. فكيف أكلمهم؟ هكذا حملت همّي، مستمتعاً بالتدخين البطيء للسيجارة فوق السلّم الآلي الذي غمرني بنشوة متصاعدة ببطء وزادني معرفة: إن المرء يستعيد فتوته على السّلم المتحرك، بل أن المرء يصبح عجوزاً ويزداد هرماً على السلّم المتحرك. فلم يبق أمامي سوى خيار واحد وهو أن أغادر السلّم الآلي إمّا بصفتي طفلاً في الثالثة أو في الستين من عمري، فأقابل الشرطة الدولية باعتباري طفلاً أو شيخاً مسنّاً، متخوفاً من الطاهية السوداء في هذا السنّ أو ذاك.

لقد بات الوقت متأخراً بالتأكيد، وبدا سريريّ المعدنيّ مجهداً تماماً، كذلك أظهر معيني برونو عينه البنيّة القلقة مرتين عبر العين السحرية. وهناك انتصبت الكعكة غير المقطّعة بشموعها الثلاثين أسفل لوحة شقائق

النعمان. لعلّ ماريا مازالت نائمة إلى الآن. أحد ما، أظن أنها كانت غوسته، شقيقة ماريا، تمنّى لي حظّاً سعيداً في الأعوام الثلاثين القادمة. إن ماريا تنام نوماً يثير الحسد. ما الذي تمناه لي ولدي كورت، تلميذ الإعدادية النموذجي، وأفضلّ تلميذ في الصفّ، بمناسبة عيد ميلادي؟! إذا ما غفت ماريا فإن قطع الأثاث تغفو من حولها أيضا. والآن فقد وجدتها: إن كورت تمنّى لي شفاءً عاجلاً بمناسبة عيد ميلادي الثلاثين! لكنني تمنيت لنفسي شريحة صغيرة من نوم ماريا؛ لأنني كنت مرهقاً، فأوشك معيني أن ينضب من الكلمات. أمّا زوجة كليب الشابة فقد نظمت قصيدة عيد ميلاد بليدة عن حدبتي، لكنها بدت صادقة. والأمير أويغن كان مشوهاً أيضاً لكنه مع ذلك استولى على مدينة بلغراد وقلعتها. فعلى ماريا أن تدرك في آخر المطاف بأن الحدبة تجلب الحظّ. فالأمير أويغن أيضاً كان له أبوان. الآن بلغت الثلاثين، غير أن حدبتي بدت أكثر فتوّة منّي. لودفيغ الرابع عشر كان أحد الأبوين المفترضين للأمير أويغن. وسابقاً كانت النساء الجميلات كثيراً ما يتحسسن حدبتي في عرض الشارع ابتغاءً للبركة. وكان الأمير أويغن مشوّه الجسد، ولذلك فقد مات موتاً طبيعيا. فلو كان ليسوع حدبة لأصبح من الصعب عليهم تثبيته على الصليب بالمسامير. فهل يتوجب عليّ الخروج فعلاً إلى العالم برمته وتجميع المريدين من حولي لمجرد أنني بلغت الثلاثين؟ وعلاوة على ذلك فإن هذه لم تكن أكثر من خاطرة وردت ببالي على السلّم الآلي الذي رفعني عالياً فعاليا. والعاشقان غير المكترثين من أمامي وفوق رأسي ومن تحتي المرأة العجوز بالقبعة. وفي الخارج كان المطر يهطل، وهناك، في الأعلى تماماً انتصب السادة، رجال الشرطة الدولية. ثمة عوارض أمسكت بدرجات السلّم الآلي. إذا ما وقف المرء على سلّم متحرك فعليه أن يعيد النظر في كلّ شيء: من أين أتيت؟ وإلى أين ستذهب؟ ومن أنت؟ وما اسمك؟ وماذا تريد؟ ثم حلّقت من فوقي روائح: رائحة الفانيلا الفائحة من جسد ماريا الشابة. زيت علب السردين الذي كان يدفئ أمّي المسكينة، فكانت تشربه ساخناً إلى أن صارت باردة فدفنت تحت الأرض. يان برونسكي

الذي كان يسرف في استخدام ماء كولونيا المعطر ومع ذلك تنفسه الموتُ المبكر من جميع ثقوب أزراره. كان قبو البقّال غريف يبعث رائحة البطاطس الشتوية. ثمة رائحة الإسفنج الجاف مرّة أخرى في اللوحات الإردوازية لتلامذة الصفّ الأول. وصاحبتي روزفيتا التي كانت لها رائحة القِرفة وجوز الطيب. كنت أعوام على سحابة من محلول الفينول بعدما رشّ السيّد فاينغولد محاليله المطهّرة ليشفيني من الحمّى. ثم النزعة الكاثوليكية في كنيسة-قلب-يسوع، حيث الثياب الكثيرة غير المعرضة للهواء والغبار البارد، حين أعرت طبلي أمام المذبح الجانبي في الجناح اليسار، لكن لمن؟

ومع ذلك فإن هذه لم تكن أكثر من خاطرة على سلّم آلي، واليوم فإنهم يريدون أن يثبتونني بالمسامير، قائلين: إنك بلغت الثلاثين، فعليك أن تجمّع تلامذتك الحواريين. عد بتفكيرك إلى الوراء، تذكّر ما قلت عندما اعتقلوك. وأحسب الشموع المحيطة بكعكة عيد ميلادك، ثم غادر فراشك لتجمع الحواريين. فهناك إمكانيات كثيرة ستتاح لمن بلغ الثلاثين. فبإمكاني مثلاً أن أتقدم إلى ماريا بطلب زواج ثان إذا ما أتيح لي الخروج من المصحّة. بالتأكيد ستكون فرصتي اليوم أكبر بكثير من السابق. لقد جهّز أوسكار متجراً لها، كما أنه أصبح شهيراً، ومازال يتقاضى الكثير من المال على أسطواناته الموسيقية، ثم إنّه بات رجلاً ناضجاً بالغ السنّ. على المرء أن يتزوّج في سنّ الثلاثين! وإلا فسأبقى أعزب، واختار وظيفة من وظائفي، فأشتري مقلعاً للصخور جيّداً، واشغّل فيه نحّاتين، وأعمل مباشرة من مرحلة قلع الحجر إلى البناء. على المرء أن يضمن مورد رزقه في سنّ الثلاثين! وإلا فسأبحث عن ربّة الفنّ أولا - في حالة كساد ألواح الواجهات المحضرّة مسبقاً، على المدى البعيد - لأقوم بخدمة الفنون الجميلة إلى جانبها من خلال الوقوف موديلاً؛ ربما سأتزوّج ذات يوم من ربّة الفنّ هذه التي طالما خطبت على عجل وبآجال قصيرة. على المرء أن يتزوّج في الثلاثين! وإلا فسأهاجر إلى أمريكا، إلى بوفالو، أي إلى حلمي القديم، إذا ما ضقت ذرعاً بأوربا: فابحث عن جدّي المليونير ومشعل

الحرائق سابقاً جو كولجك يوزيف كولياجك سابقاً. على المرء أن يستقر في الثلاثين؛ أو عليّ أن أستسلم، فأتركهم يثبتونني على الصليب بالمسامير، فأخرج إلى الناس؛ لأنني بلغت الثلاثين، وأقلّد لهم المسيح الذي سيرونه في شخصي، وسأخلق منّ طبلي، على الرغم من كلّ شيء، أكثر مما بوسعه أن يقدمه، فأحيل الطبل إلى رمز، وأقوم بتأسيس طائفة دينية أو حزب أو محفل.

لقد خطرت ببالي فكرة السلّم الآلي هذه، على الرغم من وجود العاشقين فوق رأسي والمرأة ذات القبعة من تحتي. هل قلت إن العاشقين وقفا فوق رأسي بدرجتين وليس بدرجة واحدة، فصار بإمكاني أن أضع حقيبتي بين العاشقين وبيني؟ إن الشباب في فرنسا غريبو الأطوار حقّاً؛ إذ أن الفتاة فكّت أزرار سترة العشيق حينما سار بنا السلّم إلى الأعلى ثم فتحت أزرار قميصه وأخذت تعبث بجلده المكشوف ذي الثمانية عشر عاما. لقد فعلت ذلك بهمّة وبحركات عملّية خالية من الإثارة تماماً، فساورني الشكّ بأن الشباب هنا يتقاضون من الجهات الرسمية أجوراً فيستعرضون حبّهم الجارف، لكي لا تفقد العاصمة الفرنسية سمعتها. لكن عندما بدأ العشيقان يلثمان بعضهما تبددت شكوكي: لقد كاد يختنق تحت لسانها، إذ أن نوبة سعال أصابته بعدما أطفأت سيجارتي لكي أقابل الشرطة الجنائية باعتباري غير مدخن. أمّا المرأة العجوز التي وقفت تحته وتحت قبعتها - أي أن القبعة كانت بموازاة رأسي لأن قامتي عادلت فرق الارتفاع بين درجتيّ السلّم - فلم تفعل ما يثير الدهشة، مع أنها دمدمت مع نفسها قليلاً وقذفت بعض الشتائم، لكن هذا ما يفعله المسنون كلّهم في باريس. رفعنا درابزين السلّم الآلي المكسو بالمطاط إلى الأعلى، فكان المرء يستطيع أن يضع يده على الدرابزين فتتحرك معه. فوددت أن أفعل ذلك لو أنني أخذت معي قفّازاً في رحلتي هذه. كان بلاط ردهة السّلم الخارجية يعكس قطرات من الضوء الكهربائي، وثمة أنابيب ولفّات من الأسلاك الغليظة رافقت بلونها الأصفر الباهت صعودنا إلى الأعلى. ليس بمعنى أن السّلم الآلي أصدر صخباً جحيمياً، بل على العكس، فقد كان هادئاً مريحاً

على الرغم من طبيعته الآلية. فتراءت لي محطّة ميزون بلانش أليفة، بل صالحة للسكن المريح إلى حدّ ما على الرغم من جعجعة الأشعار حول الطاهية السوداء الرهيبة. لقد شعرت وأنا على السلّم الآلي كما لو أنني في بيتي، وكنت سأحسب نفسي سعيداً، على الرغم من بعبع الطفولة والخوف، لو أنه حمل معي أصدقائي وأقربائي الموتى منهم والأحياء، بدلاً من الناس الغرباء: تمنيت أن تكون أمّي المسكينة هناك، حيث ينقطع نفس السلّم الآلي، واقفة بين ماتسرات ويان برونسكي، إلى جانب الفأرة ذات الشعر الأشيب، الأمّ تروجنسكي وأبنائها هربرت وغوسته وفرتس وماريا، وكذلك البقّال غريف وزوجته المهملة لينا، والأستاذ بيبرا بالطبع مع روزفيتا اللدنة - أي هؤلاء كلّهم الذين أحاطوا بوجودي المشكوك فيه، والذين أخفقوا كلّهم تحت وطأة هذا الوجود - تمنيت أن أرى جدتي آنا كولياجك تنتصب هناك كالجبل الشامخ فتضمني ومعي أتباعي تحت أثوابها، أي تحت جبلها، باعتبارها النقيض التام للطاهية السوداء، بدلاً من الموظفين الجنائيين.

لكن سيّدين انتصبا هناك، ولم يرتديا أثواباً واسعة، بل معطفين مطريين مفصلين على الطراز الأمريكي. اعترفت أيضاً عند انتهاء الصعود، مبتسماً من كلّ أعماقي بما فيها أطرافي العشرة في الحذاء، بأن العاشقين غير المكترثين والمرأة العجوز المغمغمة تحتي هم ببساطة مخبرو شرطة. فما الذي عليّ أن أقوله الآن: تحت المصابيح ولدت، في سنّ الثالثة توقفت عن النمو عمداً، وطبلاً تسلمت، وزجاجاً حطمت، فعطر فانيلا شممت، وفي الكنيسة سعلت، ولوتسي أطعمت، ونملاً راقبت، وعلى النمو أصررت، وطبلاً دفنت، وإلى الغرب رحلت، والمشرق أضعت، فنحّاتاً تعلمت، فموديلاً وقفت، وإلى التطبيل عدت فالخرسانة تفقدت، ومالاً كسبت، وإصبعاً حفظت، وإصبعاً أهديت، وضاحكاً هربت، وبسلّم طلعت، فاعتقلت، وحكمت، وإلى المصحّة نقلت، ثم برّأت، واليوم بعيد ميلادي الثلاثين احتفلت، لكنني خائف من الطاهية السوداء مازلت - آمين.

وتركت السيجارة المنطفئة تسقط من يدي. وعثروا لهم على مكان بين عوارض درجات السلّم الآلي، فطلع أوسكار ثلاث درجات بشكل أفقي بعد أن صعد إلى السماء فترة طويلة، راسماً زاوية بمقدار خمس وأربعين درجة، وجعلهم يزحزحونه من عوارض السلّم المتحرك إلى عوارض حديدية ثابتة خلف الشرطيين العاشقين وأمام جدّة الشرطة، فقال بعدما قدم موظفو الشرطة الجنائية أنفسهم، مطلقين على أوسكار لقب ماتسرات، قال وهو متمسك بخاطرة السلّم الآلي: «أنا يسوع!» ثم كرر العبارة ذاتها باللغة الفرنسية؛ لأنه وجد نفسه يقف وجهاً لوجه أمام الشرطة الدولية، ليقول أخيراً باللغة الإنجليزية: I am Jesus!

ومع ذلك فقد اعتقلت بصفتي أوسكار ماتسرات. بلا أدنى مقاومة وضعت نفسي تحت رعاية مظلاّت الشرطة الجنائية؛ إذ أن المطر كان يهطل في أفنيو دإتالي، وأخذت أتلفت في الوقت ذاته بقلق، باحثاً، فلمحت عدّة مرّات الوجه الهادئ المرعب للطاهية السوداء من خلال جموع المشاة وسط الشارع، في الزحام حول سيّارة الشرطة المربعة كالصندوق - لابد أن تكون الطاهية عينها. لقد خلا وفاضي من الكلمات، ومع ذلك يجب أن أفكر بما سيفعله أوسكار بعد خروجه المحتّم من مصّحة الأمراض العقلية. فهل سيتزوّج، أم يبقى أعزب؟ وهل سيهاجر، أم يقف موديلاً؟ وهل سيشتري مقلعاً، أم يلمّ الحواريين من حوله؟ أم أنه سيؤسس طائفة. ولابد من مراجعة جميع الإمكانيات التي تعرض نفسها على من بلغ الثلاثين هذه الأيّام، فبأي شيء سأراجعها إذا لم أراجعها بطبلي! إذاً سأقرع على طبلي ذلك اللحن الذي صار يزداد حيويّة ورعباً على الدوام، فاستحضر الطاهية واستجوبها، لكي أبلغ معيني برونو غداً صباحاً بنمط الوجود الذي نوى أوسكار ذو الثلاثين عاماً على الاهتداء به في ظلّ بعبع الأطفال الذي يزداد سواداً باستمرار؛ وإلا فما هذا الذي كان يرعبني زماناً على السلالم، في القبو، ويطلق أصوات رعب أثناء ما كنت أجلب الفحم، لدرجة أنني كنت أضطر إلى الضحك، ذاك الشيء الذي كان موجوداً هناك دائماً، يتكلم بأصابعه، ويسعل عبر ثقب الباب، يزفر

في الموقد، يصرخ مع الباب، يتصاعد غيماً من المداخن إذا ما نفخت السفن أبواقها في الضباب، أو إذا ما احتضرت ذبابة طوال ساعات بين الزجاج المزدوج للنوافذ، وكذلك عندما كانت أسماك الثعبان تتلهف إلى أمّي، وأمّي تتلهف إليها إذا ما اختفت الشمس وراء «تورمبيرغ» لتعيش لنفسها، كهرمان! فما الذي قصده هربرت عندما هجم على الخشب؟ كذلك خلف المذبح الرئيسي - فيما قيمة المذهب الكاثوليكي بدون الطاهية التي تسوّد كراسي الاعتراف كلّها؟ لقد ألقت بظلالها عندما تحطمت لعبة زيغسموند ماركوس، وكان الأطفال المشاكسون في باحة البناية، أكسل ميشكه، ونوجي آيكه، زوزي كاتر، وهانس كولين يلفظون اسمها وينشدونها عندما يحضرون حساء القرميد: «هل جاءت الطاهية السوداء؟ بلى بلى بلى! فأنت المذنب، أنت صاحب الذنب الأكبر. فهل جاءت الطاهية السوداء...» كانت موجودة هناك دائماً، بل كانت موجودة في المسحوق الفوّار نفسه، حتى لو كانت رغوته خضراء بريئة؛ فكانت تقرفص في خزانات الملابس كلّها التي قرفصت فيها، وقد استعارت فيما بعد وجه لوتسي رنفاند الثعلبي المثلّث، وصارت تلتهم شطائر السجق بالقشور، وتقود النافضين إلى برج القفز - فلم يختلّف عنهم سوى أوسكار وحده الذي بقي يراقب النمل، عارفاً بأن تلك كانت ظلالها التي تضاعفت، مقتفية آثار الحلاوة وجميع الكلمات: المباركة، المتوجعة، المبجّلة، عذراء العذارى، والصخور كلّها: البازلت، التوف البركاني، صخر الديابيز، الأعشاش في الصخر الذي تحجرت فيه القواقع، المرمر الناعم... والزجاج كلّه المهروس بالغناء، الزجاج الشفّاف، الشديد الرقة، وبضاعة المستعمرات: طحيناً وسكّراً في أكياس زرقاء من فئة نصف الكيلو وربعه. وأربعة هررة فيما بعد، وواحد منها اسمه بيسمارك، الجدار الذي توجبت معالجته بالجصّ حديثاً، بولندا المغالية حدّ الموت، كذلك البلاغات الخاصة، إذا ما أغرق أحد شيئاً ما، البطاطس المتساقطة من القبّان بجلبة خفيفة، وذاك الذي ضاق عند القدمين، مقابر وقفت فيها، وركعت، ألياف جوز الهند رقدت عليها... كلّ ما هو مدكوك في

الإسمنت، عصير البصل الذي يستدر الدموع، الخاتم في البصرة والبقرة التي لعقتني... فلا تسألوا أوسكار من هي! لقد نفدت كلماته. إذ أن ما حلّ في ظهري زماناً ثم صار يقبّل حدبتي، سينزل على رغبتي منذ الآن:

كانت الطاهية سوداء خلفي دائما.

فنزلت على رغبتي الآن، سوداء.

تدفع الحساب بالعملة السوداء، سوداء.

بينما الأطفال لا ينشدون، إذا انشدوا:

هل جاءت الطاهية السوداء؟ بلى-بلى-بلى!

الفهرس

الكتاب الأوّل

الكتاب الثاني

الكتاب الثالث

هذا الكتاب

«طبل الصفيح»، الرواية الأكثر شهرة في ألمانيا، والتي تُعدّ من أهم الأعمال الأدبية التي كُتبت بعد الحرب العالمية الثانية، وما زالت إلى اليوم مثار جدل واسع في مختلف الأوساط الثقافية والسياسية والدينية. وقد جاءت ردّاً عنيفاً على مقولة الفيلسوف أدورنو الذي شكّك في قدرة الألمان على كتابة عمل إبداعيّ بعد المحارق النازية. وهي رواية منذرة وجدّيّة وعميقة الدلائل وذكيّة في تناولها للموضوعات، المحرّم منها والمباح، ولاذعة في سخريتها. واعتمدت في بعض تقنياتها على أسلوب السّرد العربي القديم الذي ينتمي إليه غراس حسبما أكّد في مناسبات عديدة. إنّها قطعة فريدة من الأدب العالمي، ولم تفقد شيئاً من حيويتها وسحرها على الرغم من مرور أكثر من أربعين عاماً على صدورها للمّرة الأولى، وقد توّجت بجائزة نوبل للآداب في عام ١٩٩٩.



